


الجامع الإسلامي للإمام الأقران الكريم

الكتاب

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنطاري



طبعة خاصة
بتصريح من دار الشعب

يطلب من :  دار الإبتداء الفراد

● دار الإبتداء للتراث ١٧٧ شارع الهرم . ت : ٥٣٦٥٩٩
● مصر الجديدة : ٢٠ شارع الانس . ت : ٢٥٩١٨٩٢ / ٢٥٩١٨٩١

الجامع لإحياء القرآن الكريم

٧

Original from the
University of London
Library (1944)

نفيس
القرآن

الهيئة العامة، فسمند الأسكندرية

لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

رقم التصنيف

رقم التسجيل : ١٨٨٨٤ / ٤

دار الريان للنشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الذي يحاسبون فيه على أعمالهم . الناس . قال ابن عباس : المراد بالناس هنا المشركون بدليل قوله تعالى : « إِلَّا أَصْحَابُهَا هُمْ فِيهَا مُخَبَّرُونَ » إلى قوله : « أَخْلَاقُ السَّحَرِ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ » .
وقيل : الناس عوَمَ وإن كان المشار إليه في ذلك الوقت كفار فريش ؛ يدل على ذلك ما بعد من الآيات ؛ ومن علم اقتباب الساعة فصر أمه ، وطابت نفسه بالتوبة ، ولم يركن إلى الدنيا ، فكأن ما كان لم يكن إذا لمحبه وكل آت قريب ، والموت لا محالة آت ، وموت كل إنسان قيام ساعته ، والقيامة أيضا قريبة بالإضافة إلى ما مضى من الزمان ، فما بقى من الدنيا أقل مما مضى . وقال الضحاک : معنى « أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ » أى عذابهم يعني أهل مكة ؛ لأنهم استبطعوا ما وعدوا به من المناب تكذيبا ، وكان قلوبهم يوم تدر . الحاس . ولا يميز في الكلام أقرب حسابهم للناس ؛ لئلا يتقدم مضمحل على مظهر لا يبرز أن ينوب به التأنية (وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَّرْضُونَ) أشباه ونبر . ويمرر الصب في غير القرآن على الحال . وفيه وجهان : أحدهما - « وهم في غفلة مريضون » ببنى بالدنيا عن الآخرة . الثانى - عن التأهب لحساب وعما جاء به بعد صلى الله عليه وسلم . وهذه الواو عند سيبويه بمعنى « إذ » وهو الذى يسميها النحويون واو الحال ؛ كما قال الله تبارك وتعالى : « يَتَنَبَّأُ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ لَمْ أَخَذْ مِنْهُمْ مَعَهُمْ »
قوله تعالى : (مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٌ) « مُحَدَّثٌ » تمت له ذكر . وإجاز الكساف والفراء « مُحَدَّثًا » بمعنى ما يأتيهم محدثا ؛ نصب على الحال . وإجاز الفراء أيضا رفع « مُحَدَّثٌ » على التمت للذكر ؛ لأنك لو حذف « مِنْ » ونعت ذكرا ، أى ما يأتيهم ذكر من ربهم مُحَدَّثٌ ، يرد في الزول وتلاوة جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم ، فإنه كان يزل سورة بعد سورة ، لو آية بعد آية ، كما كان يتلى الله تعالى عليه في وقت بعد وقت ، لأن القرآن مخلوق . وقيل : الذكر ما يذكر به الذى صلى الله عليه وسلم وبمظهره . وقال : « مِنْ رَبِّهِمْ » لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا ينطق إلا بالوس ، فوعظ النبي صلى الله عليه وسلم وتحذيره ذكر . وهو محدث ؛ قال الله تعالى : « قَدْ كَرِهَ اللَّهُ لَكَ ذِكْرًا » . ويقال : غلاق في مجلس

الذكر . وقيل : الذكر الرسول نفسه ؛ لأنه الحسين بن الفضل بدليل ما في سياق الآية « هل هذا إلا بشر مثلكم » ولو أراد بالذكر القرآن قال : هل هذا إلا أساطير الأولين ؛ ودليل هذا التأويل قوله تعالى : « وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ . وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ » يعني هذا صلى الله عليه وسلم . وقال : « قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا . رَسُولًا » . (إِلَّا أَسْمَعُوهُ) يعني هذا صلى الله عليه وسلم ، أو القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم أو من أمته . (وَهُمْ يَلْعَبُونَ) الوار والاحمال يدل عليه « لَا هِيبَةَ قُلُوبُهُمْ » ومعنى « يَلْعَبُونَ » أى يلهون . وقيل : يشتغلون ؛ فإن جميل تأويله على اللهو أحتمل ما يلهون به وجهين : أحدهما — بلذاتهم . الثانى — بسباع ما يتل عليهم . وإن حمل تأويله على الشغل أحتمل ما يتشاغلون به وجهين : أحدهما — بالدنيا لأنها لعب ؛ كما قال الله تعالى : « إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ » . الثانى — يتشاغلون بالفتن فيه ، والاعتراض عليه . قال الحسن : كلما جدد لم يذكر استمروا على الجهل ، وقيل : يستمعون القرآن مستمخين .

قوله تعالى : (لَا هِيبَةَ قُلُوبُهُمْ) أى ساهية قلوبهم ، مرضية عن ذكر الله ، متشاغلة عن التأمل والفهم ؛ من قول العرب : لميئت عن ذكر الشيء إذا تركته وسلوت عنه ألقى بلى ولهاى . و « لا هية » نعت تقسم الاسم ، ومن حق النعت أن يتبع المنعوت في جميع الإعراب ، فإذا تقسم النعت الاسم أنصب كقوله : « حَاشِيَةٌ أَبْصَارُهُمْ » و « وَدَانِيَةٌ عَلَيْهِمْ ظِلَالُهُمْ » و « لَا هِيبَةَ قُلُوبُهُمْ » قال الشاعر :

لَمَسْرَةٍ مُوحِشًا طَلَّلٌ • يَلُوحُ كَأَنَّهُ يَحَلَّلُ

أراد : طلل موحش . وأجاز الكسائي والفراء « لَا هِيبَةَ قُلُوبُهُمْ » بالرفع بمعنى قلوبهم لاهية . وأجاز غيرها الرفع على أن يكون خبرا بعد خبر وعلى إضمار مبتدأ . وقال الكسائي : ويجوز أن يكون المعنى ؛ إلا استمعه لاهية قلوبهم . (وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا) أى تناجوا قبا بينهم بالكذب ، ثم بين من هم فقال : « الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى الذين أشركوا ؛ ف « بالذين ظلموا » بدل من الواو فى « أسروا » وهو عائد على الناس المتقدم ذكرهم ؛ ولا يوقف على هذا (١) هو كنهة مزة ، أى تخرج آثاره وتبين تين الفرض في ظل الحيف ، ومن اخشاة الأعداء وراحتها علة .

القول على « التجوى » . قال المبرد وهو كفولك : إن الذين في الدار أطلقوا يتر عبيده
 فيقول بدل من الواو في أطلقوا . وقبل : خورق على القدم ، أى هم الذين جلدوا . وقبل :
 على حدب القول ، التقدير : يقول الذين ظلموا وحذف القول ؛ مثل « وَالْمَلَائِكَةُ يُدْعَلُونَ
 عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » . وأخار « هذا القول للنحاس » قال : والدليل على صحة
 هذا الجواب أن بعده « هل هذا إلا بشر ينطق » . وقول رابع : يكون منصوباً بمعنى أى
 الذين ظلموا . وأجاز القراء أن يكون خفضاً بمعنى أقرب الناس الذين ظلموا حسابهم ؛
 ولا يوقف على هذا الوجه على « التجوى » . ويوقف على الوجه المتقدمة الثلاثة قبله ؛ فهذه
 خمسة أقوال . وأجاز الأخفش الرفع على لغة من قال : أكاو البراعيت ؛ وهو حسن ؛ قال
 الله تعالى : « ثُمَّ نَحْنُ نَعْمُوا وَنَحْنُ أَكْبَرُهُمْ » . وقال الشاعر :

بك نال النضال دون المساعي • فأحسدت القبائل للأغراض

وقال آخر : وليكن دياناً أبوه وأمه • بخوران تبصرن السليط أفاغية

وقال الكاسي : به تقديم وتأخير ؛ مجازة : والذين ظلموا أسروا التجوى . أبو عبيدة :
 « أسروا » هنا من الأضداد ؛ ويحتمل أن يكونوا أخفوا كلامهم ، ويحتمل أن يكونوا
 أظهره وأعلنوه .

فوله تعالى : (هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ) أى تاجروا بينهم وقالوا : هل هذا الذكر
 الذى هو الرسول ، أو هل هذا الذى يدعوكم إلا بشر مثلكم ، لا تحبذ عنكم بشيء ، يأكل
 الطعام ، ويمشى في الأسواق كما تفعلون . وما علموا أن الله عز وجل بين أنه لا يجوز أن
 يرسل إليهم إلا بشراً لينفهموا ويعلمهم . (أَتَأْتُونَ السَّحَرَاءِ) أى إن الذى جاء به محمد صل
 الله عليه وسلم سحر ، فكيف نجيبون إليه وتبينونه ؟ فأطلع الله به عليه السلام على ما تاجروا
 به . « والسحر » فى اللغة كل نموه لا حقيقة له ولا صحة . (وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ) أنه إنسان مثلكم
 مثل : « وأنتم تقولون » لأن العقل البصر بالأنشاء . وقيل : المعنى ؛ أنفيلون السحر وأنتم تعلمون
 أنه سحر . وقيل : المعنى ؛ أنتم تدلون إلى الباطل وأنتم ترمعون الحق ؛ ومعنى الكلام التوبيخ .

(١) هو المردف بغير حمزتين معناه . ودياف : موضع بالجزيرة ؛ ومبط الشام . والسليط : الزيت .

قوله تعالى : قُلْ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ أَفْتَرْتَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٢﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾

قوله تعالى : (قُلْ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) أى لا يخفى عليه شيء مما يقال في السماء والأرض . وفي مصاحف أهل الكوفة « قَالَ رَبِّي » أى قال بعد ربى يعلم القول ؛ أى هو عالم بما نتاجت به . وقيل : إن القراءة الأولى أولى ؛ لأنهم أسروا هذا القول فأنظر الله عز وجل عليه نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأمره أن يقول لهم هذا ؛ قال النحاس : والقراءتان صحيحتان وهما بمنزلة الآيتين ، وفيهما من الفائدة أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر وأنه قال كما أمر .

وقوله تعالى : (بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ) قال الزجاج : أى قالوا الذى يأتى به أضغاث أحلام . وقال غيره : أى قالوا هو أخلط كالأحلام المختلطة ؛ أى أهوايل وآها في المنام ؛ قال منناه مجاهد وقتادة ؛ ومنه قول الشاعر :

كَضِفْتُ حُلْمَ خَرٍّ مِنْهُ حَالِهِ •

وقال التقي : إنها الرُّبَا الكاذبة ؛ وفيه قول الشاعر :

أَحَادِيثُ طَمِيمٍ أَوْ سَرَابٌ بَعْدَ نَيْدٍ • تَوْفَسَرَقُ لِلسَّارِي وَأَضْغَاتُ حَالِمٍ

وقال الزيدى : الأضغاث ما لم يكن له تأويل . وقد مضى هذا في « برسم » . فلما رأوا أن الأمر ليس كما قالوا انتقلوا عن ذلك فقالوا : « بل آفراه » ثم انتقلوا عن ذلك فقالوا : « بل هو شاعر » أى هم متحبرون لا يستقزون على شيء ؛ قالوا مرة سمع ، ومرة أضغاث أحلام ، ومرة آفراه ، ومرة شاعر . وقيل : أى قال فريق إنه ساحر ، وفريق إنه أضغاث أحلام ؛ وفريق إنه آفراه ، وفريق إنه شاعر . والأفراه الأخلط ؛ وقد تقدم .

(١) « قل » على الأمر قراءة « تابع » . (٢) راجع به ٩ ص ٢٠٠ وبها طيبة أول أمانية .

(فَلَبِثْنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ) أى كما أرسل موسى العصا وغيرها من الآيات ومثل ناقة صالح . وكانوا عالمين بأن القرآن ليس سحر ولا رؤيا ولكن قالوا : ينبغي أن يأتى آية تقررهما ، ولم يكن لهم الاقتراح سدا لما رأوا آية واحدة . وأبضا إذا لم يؤمنوا بآية هى من جنس ما هم أعلم الناس به ، ولا محال للشبهة فيها فكيف يؤمنون بآية غيرها ، ولو أبرا إلا كره والإبرص فقالوا : هذا من باب الطب ، وليس ذلك من صناعتنا ، وإنما كان مؤلما نمتنا إذ كانت الله أعطاهم من الآيات ما فيه كفاية . وبين الله عز وجل أنهم لو كانوا يؤمنون لأعطاهم ما سالوه لقوله عز وجل : « وَلَوْ عَلَّمَ اللَّهُ بِهَيْم خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ » .

قوله تعالى : (مَا آتَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قُرْآنٍ) قال ابن عباس : يريد قوم صالح وقوم فرعون . (أَهْلَكْنَاهَا) يريد كان في علمنا هلاكها . (أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ) يريد يصدقون ، أى فما آمنوا بالآيات فاستوصلوا ، فلورأى هؤلاء ما اقترحوا لما آمنوا ، لما سبق من القضاء بأنهم لا يؤمنون أبضا ، وإنما تأخر عقابهم لعلمنا بأن في أصلاهم من يؤمن . و « مِنْ » زائدة في قوله : « مِنْ قُرْآنٍ » كقوله : « قَسَمْتُ لَكُمْ مِنْ أَحَدِهِمْ حَاجِرِينَ » .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَهُمْ لَكِنَّا أَهْلٌ أَلَدَّ كَرِّ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الرِّعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمِنْ نَسَاءِ وَأَهْلِهَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ) هذا رد عليهم في قولهم : « هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ » ونأنيس لنبه صلى الله عليه وسلم ، أى لم يرسل قبلك إلا رجالا .

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يريد أهل التوراة والإنجيل الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم، قاله سفيان . وسامه أهل الذكر؛ لأنهم كانوا يذكرون خبر الأنبياء مما لم تعرفه العرب . وكان كفار قريش يراجعون أهل الكتاب في أمر محمد صلى الله عليه وسلم . وقال ابن زيد : أراد بالذكر القرآن؛ أي فاسألوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن؛ قال جابر الجعفي : لما نزلت هذه الآية قال علي رضي الله عنه نحن أهل الذكر . وقد ثبت بالتواتر أن الرسل كانوا من البشر؛ فالمنى لا تبدوا بالإنكار ويقولكم ينبغي أن يكون الرسول من الملائكة، بل ناظرُوا المؤمنين ليبينوا لكم جواز أن يكون الرسول من البشر . والملك لا يسمى رجلا، لأن الرجل يقع على ماله ضد من لفظه؛ تقول : رجل وامرأة، ورجل وصبي؛ فقوله : « إِلَّا رَجُلًا » من بني آدم . وقرأ حفص وحزرة والكسائي « نُوحٍ إِبْرَاهِيمَ » .

مسئلة - لم يختلف العلماء أن العامة عليها تقليد علمائها، وأنهم المراد بقول الله من وجل : « فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » وأجمعوا على أن الأعمى لا بد له من تقليد غيره ممن يثق بميزه بالقبلة إذا أشكلت عليه؛ فكذلك من لا علم له ولا بصير بمعنى ما يدين به لا بد له من تقليد ماله، وكذلك لم يختلف العلماء أن العامة لا يجوز لها الفتيا؛ بلهلهما بالمعاني التي منها يجوز التحليل والتحرير .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾ الضمير في « جعلناهم » للأنبياء؛ أي لم يجعل الرسل قبلك خارجين عن طباع البشر لا يحتاجون إلى طعام وشراب . ﴿ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ يريد لا يموتون . وهذا جواب لقولهم : « مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ » وقولهم : « مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ » . و« جسد » أسم جنس؛ ولهذا لم يقل أجسادا، وقيل : لم يقل أجسادا؛ لأنه أراد وما جعلنا كل واحد منهم جسدا . والجسد البدن؛ تقول منه : تجسدت كما تقول من الجسم تجسم . والجسد أيضا الزعفران أو نحوه من الصبغ؛ وهو الدم أيضا؛ قال النابغة :

• وما هُرِيقَ عل الأنصاب ^(١) من جسد •

• فلا لمرأى سحت كعب •

(١) صدر البيت :

أقسم بالله أرا لا تم باللهاء التي كانت تصب في إلحاحية على الأنصاب •

وقال التلبي : والجسد هو المتجسد الذي فيه الروح يأكل ويشرب ؛ فعمل مقتضى هذا القول يكون مالا يأكل ولا يشرب جسما . وقال مجاهد : الجسد مالا يأكل ولا يشرب ؛ فعمل مقتضى هذا القول يكون مالا يأكل ويشرب نفسا ؛ ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ) يعنى الأنبياء ؛ أى بالإنجائهم وبصرهم . وإهلاك مكذبيهم . (وَمَنْ نَسَاءُ) أى الذين صدقوا الأنبياء . (وَأَهْنَأْنَا السُّيُوفَ) أى المشركين .

قوله تعالى : (لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا) يعنى القرآن . (فِيهِ ذِكْرُكُمْ) رفع بالابتداء والجملة فى موضع نصب لأنها نعت لكتاب ؛ والمراد بالذكر هنا الشرف ؛ أى فيه شرفكم ؛ مثل « وَإِنَّ لَكَ لَذِكْرًا لِمَنْ وَلَقَسْنَاهُ مِنْ دُونِ الْوَعْدِ » . ثم نبههم بالاستفهام الذى معناه التوبيخ فقال عز وجل : (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) . وقيل : فيه ذكركم أى ذكر امر دينكم ؛ واحكام شرعكم ؛ وما تصيدون إليه من نواب وعقاب ؛ أفلا تعقلون هذه الأشياء التى ذكرناها ؟ ! وقال مجاهد : « فِيهِ ذِكْرُكُمْ » أى حديثكم . وقيل : مكالم أخلاقكم ، وعاسن أعمالكم . وقال سهل بن عبد الله : العمل بما فيه حياتكم .

قلت : وهذه الأقوال بمعنى والأقول بمعنى ؛ إذ هى شرف كلها ، والكتاب شرف لنينا طيه السلام ؛ لأنه معجزته ، وهو شرف لنا إن عملنا بما فيه ؛ دليله قوله عليه السلام : « القرآن حجة لك أو عليك » .

قوله تعالى : وَكَرَّ قَصَبْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١٧﴾ فَلَبَّأْ أَحْسُوا بِأَنْسَاءِ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٨﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ قَالُوا يَبُولُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَى الْأَعْيُنَ وَالْأَفْهَامَ أَتَدْرِكُونَ ﴿٢١﴾ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خُلِدِينَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : (وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْلِهِ كَلَّتِ طَائِلَةٌ) يريد مدائن كانت باليمن . وقال أهل التفسير والأخبار : إنه أولاد أهل حضور وكان بعث إليهم نبي اسمه شعيب بن ذي مودم ، وقبر شعيب هذا باليمن يحيل يقال له ضغن كثير التلج ، وليس بشعيب صاحب مدین ؛ لأن قصة حضور قبل مدة عيسى عليه السلام ، وبعد مئتين من السنين من مدة سليمان عليه السلام ؛ وأنهم قتلوا بنيهم وقتل أصحاب الرّس في ذلك التاريخ نيا لم أسمه حظلة بن صفوان ، وكانت حضور بأرض الججاز من ناحية الشام ، فأوحى الله إلى أرميا أن آيت بمنصر فاعلمه أني قد ساطت على أرض العرب ، وأنى متعم بك منهم ، وأوحى الله إلى أرميا أن أهل معد بن عدنان على العراق إلى أرض العراق ؛ كي لا تصيبه القمة والبلاء منهم ، فأنى مستخرج من صلبه نيا في آخر الزمان أسمه عهد ، لحمل معدا وهو ابن اثنتي عشرة سنة ، فكان مع بني إسرائيل إلى أن كبر وتزوج امرأة أسمها معانة ؛ ثم إن بمنصر نهض بالحبوش ، وكان للعرب في مكان - وهو أول من اتخذ المساكن فيها ذكروا - ثم شق الغارات على حضور فقتل وسبى وتحرب العامر ، ولم يترك بحضور أثرا ، ثم أنصرف واجعا إلى السواد . و « كم » في موضع نصب بـ « قصمنا » . والقسم الكسر ؛ يقال : قصمت ظهر فلان وانقصمت سنة إذا أنكسرت ، والمثنى به ها هنا الإهلاك . وأما القسم (بالفاء) فهو الصدع في الشيء من غير بينونة ، قال الشاعر (٢) :

كَانَهُ دُمْلَجٌ مِنْ فِضَّةٍ نَبَّهٌ * فِي مَلْعَبٍ مِنْ عَدَائِي الْحَيِّ مَقْصُومٌ

ومنه الحديث « فيقيم عنه وإن جينه ليفصد عرقا » . وقوله : « كَلَّتِ طَائِلَةٌ » أى كائرة ؛ يعنى أهلها . والظلم وضع الشيء في غير موضعه ، وهم وضعوا الكفر موضع الإيمان . (وَأَنْتَأْتَالُمُ) أى أوجدنا وأحدثنا بعد إهلاكهم (قَوْمًا آخَرِينَ) . (فَلَمَّا أَحْسُوا) أى رأوا عذابنا ؛ يقال : أحسنت منه ضعفا . وقال الأخفش : « أَحْسُوا » خافوا وتوقعوا . (وَإِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ) أى يهربون ويفترون . والركض العدو بشدة الوطء . والركض

(١) وترى حضورا (بالألف المدودة) . (٢) كذا في الأصل . (٣) هو ذوالرمة ، يذكر غزاه الأشبه وهو قائم يطلع فضة قد طوى ونسى . ونسبه ؛ أى منى نسبه الذارى في الحب .

تَحْرِيكَ الرَّجُلِ ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : « أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ » وَرَكَضَتِ الْفَرَسُ بِرِجْلِ أَمْسَحَتْهُ
لِيَدُوْهُ كَثْرَتِ حَتَّى قَبِلَ رَكُضَ الْفَرَسِ إِذَا عَدَا وَلَيْسَ بِالْأَصْلِ ، وَالْعَوَابُ رِكُضُ الْفَرَسِ
عَلَى مَا لَمْ يَسْمُ فَاعِلُهُ فَهُوَ مَرَكُضٌ . (لَا تَرْكُضُوا) أَيْ لَا تَفْرُوا . وَقِيلَ : إِنْ الْمَلَائِكَةُ
نَادَتْهُمْ لِمَا أَنْهَزُوا أَسْتَهْزَأَ بِهِمْ وَقَالَتْ : « لَا تَرْكُضُوا » . (وَأَرْجِعُوا إِلَى مَا أُنزِلُكُمْ فِيهِ)
أَيْ إِلَى نِعْمَتِ اللَّهِ الَّتِي كَانَتْ سَبَبَ بَطْرِكُمْ ، وَالْمَرْفُوعُ الْمُنْتَمِ ، يَقَالُ : أَرْفَعُ عَلَى قَلَانٍ أَيْ وَسَّعُ
عَلَيْهِ فِي مَعَاشِهِ ، وَإِنَّمَا أَزْهَمَهُ اللَّهُ عِزَّ وَجِلَّ كَمَا قَالَ : « وَأَرْزُقْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا »
(تَلَكُمُ الْمَسْأَلُونَ) أَيْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ شَيْئًا مِنْ دُنْيَاكُمْ ، أَسْتَهْزَأَ بِهِمْ ؛ قَالَ قَتَادَةُ : وَقِيلَ :
الْمَعْنَى « تَلَكُمُ الْمَسْأَلُونَ » عَمَّا نَزَلَ بِكُمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ فَتُخْبِرُونَ بِهِ . وَقِيلَ : الْمَعْنَى « تَلَكُمُ
تُسْأَلُونَ » أَنْ تَوْفَعُوا كَمَا كُنْتُمْ تُسْأَلُونَ ذَلِكَ فَيَسِلُ زَوَلُ الْبَاسِ بِكُمْ ؛ فَيَسِلُ لَهُمْ ذَلِكَ أَسْتَهْزَأَ
وَتَقَرَّبَا وَتَوَبَّخَا . (قَالُوا يَا وَيْلَنَا) لِمَا قَالَتْ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ : « لَا تَرْكُضُوا » وَنَادَتْ بِالنَّارَاتِ
الْأَنْبِيَاءُ ! وَلَمْ يَرَوْا تَخْصِيًا بِكَلِمِهِمْ عَرَفُوا أَنَّ اللَّهَ عِزُّ وَجِلُّهُ هُوَ الَّذِي سَلَطَ عَلَيْهِمْ عَذَابَهُمْ
الَّذِي الَّذِي بَعَثَ فِيهِمْ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالُوا ، (يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) فَاعْتَرَوْا بِأَسْمِ ظَلَمُوا
حِينَ لَا يَنْفَعُ الْإِعْتِرَافَ . (قَالَتْ يَا وَيْلَتَا) أَيْ لَمْ يَزَالُوا يَفْرُونَ : « يَا وَيْلَتَا إِنَّا كُنَّا
ظَالِمِينَ » . (حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا) أَيْ بِالسُّيُوفِ كَمَا يَحْصِدُ الزَّرْعَ بِالْمَنْجَلِ ؛ قَالَ مُجَاهِدٌ ،
وَقَالَ الْحَسَنُ : أَيْ بِالضَّأَبِ . (خَامِدِينَ) أَيْ مَبْتِينَ ، وَالْخَمُودُ الْمُمُودُ تَخْمُودُ النَّارُ إِذَا
طَفِئَتْ فَشَبَّهَ نَعْمُودَ الْحَيَاةِ بِخَمُودِ النَّارِ ، كَمَا يَقَالُ لِمَنْ مَاتَ قَدْ طَفِئَ تَشْبِيهًُا بِاطْفَاءِ النَّارِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِلْعَيْنِ ۝
لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَخْلِقَ لَهَوًا لَأَخْلَقْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا . إِن كُنَّا فَعَلِيلِينَ ۝
بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهٍ وَلَكِنَّ الْوَلِيلَ
مَّا تَصِفُونَ ۝

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ أى عبثا وباطلا ؛ بل للتنبيه على أن لما خالقا قادرا يجب امتثال أمره ، وأنه يمازى المسىء والمحسن ؛ أى ما خلقنا السماء والأرض ليعظم بعض الناس بعضا ، ويكفر بعضهم ، ويخالف بعضهم ما أمر به ثم يموتوا ولا يمازوا ، ولا يؤمروا فى الدنيا بحسن ولا ينهوا عن قبيح . وهذا اللعب المتنى عن الحكيم منه الحكمة .

قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا ﴾ لما اعتقد قوم أن له ولدا قال : « لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا » واللهو المرأة بلفظة اليمن ؛ فقله قتادة . وقال عقبة بن أبى جسرّة — وجاء طائوس وعطاء وبجاهد يسألونه عن قوله تعالى : « لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا » — فقال : اللهو الزوجة ؛ وقاله الحسن . وقال ابن عباس : اللهو الولد ؛ وقوله الحسن أيضا . قال الجوهري : وقد يكتنى باللهو عن الجماع .

قلت : ومنه قول امرئ القيس :

أَلَا زَعَمْتُ بِسَبَاسَةِ الْيَوْمِ أَنِّي • كَثُرْتُ وَالْأَيْحُسُ اللَّهُ أَمْتَالِي

وإنما سعى الجماع لهوا لأنه ملهى للقلب ، كما قال :

• وَفِينِى مَلْهَى لِلصَّدِيقِ وَمَنْظَرُ •

الجوهري : وقوله تعالى « لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا » قالوا أمرأه ، ويقال : ولدا . ﴿ لَا نَتَّخِذُهُ مِنْ لَدُنَّا ﴾ أى من عبدنا لا من عندكم . قال ابن جريج : من أهل السماء لا من أهل الأرض . قيل : أراد الرد على من قال إن الأصنام بنات الله ؛ أى كيف يكون منحوتكم ولدا لنا . وقال ابن قتيبة : الآية رد على النصارى ، ﴿ إِنْ كُنَّا قَاعِلِينَ ﴾ قال قتادة ومقاتل وابن جريج والحسن : المعنى ما كنا قاعلين ؛ مثل « إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ » أى ما أنت إلا نذير . و« إِنْ » بمعنى ابجد وتم الكلام عند قوله : « لَا نَتَّخِذُهُ مِنْ لَدُنَّا » . وقيل : إنه على معنى الشرط ؛ أى إن كنا قاعلين ذلك ولكن لسنا بقاعلين ذلك لاستحالة أن يكون لنا ولد ؛ إذ لو كان ذلك لم نخلق جنة ولا

(١) هو زهير بن أبى سلمى ، والبيت من مقلته ونماه :

• أَيْقَنَ لِعَيْنِ الْعِظْرِ الْمُحَرَّمِ •

نارا ولا موتا ولا حياة ولا حسابا . وقيل : لو أردنا أن نتخذ ولدا على طريق النبي لاتخذناه من عندنا من الملائكة . وما إلى هذا قوم ؛ لأن الإرادة قد تتعلق بالنبي فاما اتخاذ الولد فهو محال ، والإرادة لا تتعلق بالمسحوق ، ذكره القشيري .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ﴾ القذف الرمي ؛ أى نرمي بالحق على الباطل . ﴿ وَنَذِمْنَاهُ ﴾ أى يقهره ويهلكه . وأصل الذمغ شج الرأس حتى يبلغ الدماغ ، ومنه الدائمة . والحق هنا القرآن ، والباطل الشيطان في قول مجاهد ؛ قال : وكل ما في القرآن من الباطل فهو الشيطان . وقيل : الباطل كذبهم ووصفهم الله عز وجل بنبر صغاته من الولد وغيره . وقيل : أراد بالحق الحق ، وبالباطل شبههم . وقيل : الحق المواعظ . والباطل المعاصي ؛ والمعنى متقارب . والقرآن يتضمن الحجة والموعظة . ﴿ فَإِنَّا هُوَ أَرِيقٌ ﴾ أى حذق ، والتب قاله قتادة . ﴿ وَلَكُمُ الزَّوْبُلُ ﴾ أى المذاب في الآخرة بسبب وصفكم الله بما لا يجوز وصفه . وقال ابن عباس : الزوبل واد في جهنم ؛ وقد تقدم . ﴿ تَبْتَغُونَ ﴾ أى تبتغيون ؛ من فتادة ومجاهد ؛ نظيره « سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّكُمْ » أى يذكركم . وقيل : تبتغون الله به من المحال وهو اتخاذهم سبحانه الولد .

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ٢٥ ﴾ يَسْتَحْسِرُونَ أَلِيلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ٢٦ ﴾ أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ٢٧ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى ملكا خلقا مكلف يجوز أن يشرك به ما هو عبده وخلقته . ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ ﴾ معنى الملائكة الذين ذكروا أنهم بنات ابنه . ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أى لا يأنفون ﴿ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ والذل له . ﴿ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ أى يعبون ؛ قاله قتادة . مأخوذ من الحسر وهو البعير المنقطع بالإعياء والتعب ، [يقال :] حسر البعير بحسر حصورا أجبا وكفل ، واستحسر وتحسر مشله ؛ وحسرت أنا حسرا يتعدى ولا يتعدى ،

وأحصرته أيضا فهو حسير - وقال ابن زيد : لا يملون . ابن عباس : لا يستكفون . وقال
ابن زيد : لا يكلون . وقيل : لا يفلون ؛ ذكره ابن الأعرابي ، والمعنى واحد . ﴿ يَسْجُونَ
الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أى يصلون ويدكرون الله ويزهونه دائما . ﴿ لَا يَفْتَرُونَ ﴾ أى لا يضعفون ولا
يسامون ، يلهمون التسيب والتفديس كما يلهمون النفس . قال عبد الله بن الحرث سألت كعبا
فقلت : أما لم شغل عن التسيب ؟ أما يشغلهم عنه شيء ؟ فقال : من هذا ؟ فقلت : من بنى
عبد المطلب ؟ فقصنى إليه وقال : يا بن أختى هل يشغلك شيء عن النفس ؟ ! إن التسيب لهم بمنزلة
النفس . وقد استدل بهذه الآية من قال : إن الملائكة أفضل من بنى آدم . وقد تقدم والحمد لله .
قوله تعالى : ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُبَشِّرُونَ ﴾ قال المفضل : مقصود هنا
الاستفهام بالجحد ، أى لم يتخذوا آلهة تقدر على الإحياء . وقيل : « أم » بمعنى « هل »
أى هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض يحيون الموتى . ولا تكون « أم » هنا بمعنى بل ؛
لأن ذلك يوجب لهم إنشاء الموتى إلا أن تقدر « أم » مع الاستفهام فتكون « أم » المنقطعة
فيصح المعنى ؛ فإله المبرد . وقيل : « أم » عطف على المعنى أى أنقلنا السماء والأرض
لها ، أم هذا الذى أضافوه إلينا من عندنا فيكون لهم موضع شبهة ؟ أو هل ما اتخذوه من
الآلهة فى الأرض يحيى الموتى فيكون موضع شبهة ؟ . وقيل : « لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ
ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » ثم عطف عليه بالمعاقبة ، وعلى هذين التاويلين تكون « أم » منصلة .
وقرأ الجمهور « يُبَشِّرُونَ » بضم الباء وكسر الشين من إنشائه الميت فيبشّر أى أحياء لمحي .
وقرأ الحسن بفتح الباء ، أى يحيون ولا يموتون .

قوله تعالى : لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهِ
رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾
أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ
وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ أى لو كان في السموات والأرضين
آلهة غير الله معبودون لفسدتا . قال الكسائي وسيبويه : « إلاً » بمعنى غير فلما جعلت إلاً
في موضع غير أحرب الأسم الذى بعدها بإعراب غير ، كما قال :
وكلُّ أُنحٍ مفارقة أخوه • لعمرك أياك إلا الفرقدان

وحكى سيبويه : لو كان معنا رجل إلا زيد لهلكنا . وقال الفراء : « إلاً » هنا في موضع سوى ،
والمعنى : لو كان فيها آلهة سوى الله لفسد أهلها . وقال غيره : أى لو كان فيما إلهان لفسد
التدبير ؛ لأن أحدهما إن أراد شيئا والآخر ضده كان أحدهما عاجزاً . وقيل : معنى « لَفَسَدَتَا »
أى خربتا وهلكا من فيها بوقوع التنازع بالاختلاف الواقع بين الشركاء . ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ
الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ زه نفسه وأمر العباد أن يترهوه عن أن يكون له شريك أو ولد .

قوله تعالى : ﴿ لَا بُدَّ لَكُمْ حَتَّى يُفْعَلَ وَهُمْ يَتَأَلَوْنَ ﴾ قاصمة للقدرية وغيرهم . قال ابن جريج :
المتى لا يسأله الخلق عن قضائه في خلقه وهو يسأل الخلق عن عملهم ؛ لأنهم عبيد . بين بهذا
أن من يسأل غدا عن أعماله كالسليح والملائكة لا يصلح للإلهية . وقيل : لا يؤاخذ على أعماله
وهم يؤاخذون . وروى عن علي رضي عنه أن رجلاً قال له يا أمير المؤمنين : أيجب ربنا أن
يصمى ؟ قال : أتصمى ربنا قهراً ؟ قال : أرايت إنا - منعى الهدى ومنعى الردى أحسن
إلى أم أساء ؟ قل : إن منعك حقلك ففسد أساء ، وإن منعك فضله فهو فضله يؤتية من
بشاء . ثم تلا الآية « لَا بُدَّ لَكُمْ حَتَّى يُفْعَلَ وَهُمْ يَتَأَلَوْنَ » . وعن ابن عباس قال : لما بعث
الله عز وجل موسى وكله ، وأزل عليه التوراة ، قال : اللهم إنيك رب عظيم ، لو شئت أن تطاع
لأطعت ، ولو شئت أن لا تصمى ما عصيت ، وأنت تحب أن تطاع وأنت في ذلك تمصى فكيف
هذا يا رب ؟ فوالله الله إليه : إني لا أسأل عما أنزل وما يسألون .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ أَمْتُكُمْ مِنْ دُونِ آلِهَةٍ ﴾ أعاد التعجب في اتخاذ الآلهة من دون الله
مبالغة في التوبيخ ، أى صفتهم كما تقدم في الإنشاء والإحياء ، فتكون « أم » بمعنى هل على
ما تقدم ، فلما أتوا بالبرهان على ذلك . وقيل : الأول احتجاج من حيث المقول ؛ لأنه قال :
« هُمْ يُشِيرُونَ » ويحيون الموتى ؛ هيئات ! والثاني احتجاج بالمقول ، أى هاتوا رهانكم من

هذه الجبهة، ففى أى كتاب نزل هذا ؟! فى القرآن، أم فى الكتب المنزلة على سائر الأنبياء ؟
 ﴿ هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ مَّيِّ ﴾ بإخلاص التوحيد فى القرآن ﴿ وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي ﴾ فى التوراة والإنجيل،
 وما أنزل الله من الكتب؛ فانظروا هل فى كتاب من هذه الكتب أن الله أمر باتخاذ آلهة
 سواء ؟ فالشرائع لم تختلف فيما يتعلق بالتوحيد، وإنما اختلفت فى الأوامر والنواهي . وقال
 قتادة : الإشارة إلى القرآن؛ المعنى : « هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ مَّيِّ » بما يلزمهم من الحلال والحرام
 « وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي » من الأمم من نجى بالإيمان وهلك بالشرك . وقيل : « ذِكْرٌ مِّنْ مَّيِّ »
 بهم من الثواب على الإيمان والمقاب على الكفر « وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي » من الأمم السالفة فيما
 يفعل بهم فى الدنيا ، وما يفعل بهم فى الآخرة . وقيل : معنى الكلام الوعيد والتهديد ، أى
 انصلو! ما شئتم فمن قريب ينكشف الغطاء . وحكى أبو حاتم : أن يحيى بن يعمر وطاحه بن
 مُصَرِّف قرا « هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ مَّيِّ وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي » بالتثوين وكسر الميم ، وزعم أنه لا وجه
 لهذا . وقال أبو إسحق الزجاج فى هذه القراءة : المعنى ؛ هذا ذكرٌ بما أنزل إلى وما هو معى
 وذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي . وقيل : ذكرٌ كائن من قبل ، أى جئت بما جاءت به الأنبياء من قبل .
 ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ ﴾ وفرا ابن محبص والحسن « الحق » بالرفع بمعنى هو الحق
 وهذا هو الحق . وعمل هذا يوقف على « لا يعلمون » ولا يوقف عليه على قراءة النصب .
 ﴿ لَهُمْ مَعْرُضُونَ ﴾ أى عن الحق وهو القرآن، فلا يتأملون حجة التوحيد .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ
 أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ ﴾ ، وقرا حفص وحمة
 والكسائي « نوحى إليه » بالنون ، لقوله : « أَرْسَلْنَا » . ﴿ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ أى
 قلنا للجميع لا إله إلا الله ؛ فادلة العقل شاهدة أنه لا شريك له ، والنقل عن جميع الأنبياء
 موجود ، والدليل إما مقول وإما منقول . وقال قتادة : لم يرسل نبي إلا بالتوحيد، والشرائع
 مختلفة فى التوراة والإنجيل والقرآن، وكل ذلك على الإخلاص والتوحيد .

قوله تعالى : وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ لَا يَسْقُونَهُ إِلَّا الْقَوْلُ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٦٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ) نزلت في نزاعة حيث قالوا : الملائكة بنات الله ، وكانوا يبدونهم طمعا في شفاعتهم لهم . وروى معمر بن قتادة قال قالت اليهود - قال معمر في روايته - أو طوائف من الناس : حَاقَتْ إِلَى الْهَيْبِ وَالْمَلَائِكَةِ مِنَ الْهَيْبِ ، فقال الله عز وجل : « سبحانه » تزييها له . (بَلْ عِبَادٌ) أى بل هم عباد (مُّكْرَمُونَ) أى ليس كما زعم هؤلاء الكفار . ويجوز النصب عند الزجاء على معنى بل اتخذ عبادا مكرمين . وأجازه الفراء على أن يرده على ولد ، أى بل لم تتخذهم ولدا ، بل اتخذناهم عبادا مكرمين . والولد هاهنا للجمع ، وقد يكون الواحد والجمع ولدا . ويجوز أن يكون لفظ الولد للجنس ، كما يقال لفلان مال . (لَا يَسْقُونَهُ إِلَّا الْقَوْلُ) أى لا يقولون حتى يقول ، ولا يتكلمون إلا بما يأمرهم . (وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) أى بطاعته وأوامره . (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) أى يعلم ما عملوا وما هم عاملون ، قاله ابن عباس . وعنه أيضا : « مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » الآخرة « وَمَا خَلْفَهُمْ » الدنيا ، ذكر الأول الثعلبي ، والثاني القشيري . (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ) قال ابن عباس : هم أهل شهادة أن لا إله إلا الله . وقال مجاهد : هم كل من رضى الله عنه ، والملائكة يشفعون غدا في الآخرة كما في صحيح مسلم وغيره ، وفي الدنيا أيضا ، فإنهم يستغفرون المؤمنين ولين في الأرض ، كما نص عليه التبريل على ما يأتي . (وَهُمْ) أى الملائكة (مَنْ) خَشْيَتِهِ () يعنى من خوفه (مُشْفِقُونَ) أى خائفون لا يأمنون مكره .

قوله تعالى : (وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ) قال قتادة والضحاك وغيرهما : عنى بهذه الآية إبليس حيث ادعى الشراكة ، ودعا إلى عبادة نفسه وكان من الملائكة ، ولم يقل أحد من الملائكة إنى إله غيره . وقيل : الإشارة إلى جميع الملائكة ، أى فذلك القائل (تَجْزِيهِ جَهَنَّمَ) . وهذا دليل على أنهم وإن أكرموا بالعصمة فهم متعبهون ، وليسوا مضطرين إلى العبادة كما ظنّه بعض الجهال . وقد استدل ابن عباس بهذه الآية على أن عبدا صلى الله عليه وسلم أنضل أهل السماء . وقد تقدم في « البقرة » . (كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) أى كما جزينا هذا النار فكذلك نجزي الظالمين الواضعين الألوهية والعبادة في غير موضعهما .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفًّا مُحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٢٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا) قراءة العامة « أَوَلَمْ » بالواو . وقرا ابن كثير وآبن عبيد وحيد وشبل بن عباد « أَلَمْ يَرِ » بغير واو ، وكذلك هو في مصحف مكة . « أَوَلَمْ يَرِ » بمعنى يعلم . (الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا) قال الأخفش : « كَانَتَا » لأنهما صفتان ، كما تقول العرب : هما لِقاحان أسودان ، وكما قال الله عز وجل : « إِنَّ اللَّهَ يُمِصُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا » قال أبو إسحق : « كَانَتَا » لأنه يعبر عن السموات بلفظ الواحد بسما ، ولأن السموات كانت سما واحدة ، وكذلك الأرضون . وقال : « رَتْقًا »

ولم يقل رقيق؛ لأنه مصدر؛ والمعنى كانت ذوات رقيق . وقرأ الحسن « رتقا » بفتح الراء . قال عيسى بن عمر : هو صواب وهي لغة . والرتق السد ضد الفتق؛ وقد وثقت الفتق ارتقته فارتبقت هي التام، ومنه الارتفاع للنخلة للفرج . قال ابن عباس والحسن وعطاء والضحاك وقتادة : بنى أنها كانت شيئا واحدا مترقين ففصل الله بينهما بالهواء . وكذلك قال كعب : خلق الله السموات والأرض بمصها على بعض ثم خلق ريحا يوسطها ففتحها بها ، وجعل السموات سبعا والأرضين سبعا . وقول نافع بن قنبر : قاله مجاهد والسدي وأبو صالح : كانت السموات مؤتلفة طبقة واحدة ففعلها فجعلها سبع سموات ، وكذلك الأرضين كانت مرتبطة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبعا . وحكاها القتيبي في هرون الأخبار له ، عن إسماعيل بن أبي خالد في قول الله عز وجل : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا الْأَرْضَ رَتْقًا فَفَتَقْنَاهَا » قال : كانت السماء مخلوقة وحدها والأرض مخلوقة وحدها ، فتفتق من هذه سبع سموات ، ومن هذه سبع أرضين ؛ خلق الأرض العليا لجعل سكانها للجن والإنس ، وخلق فيها الأنهار وأبنت فيها الأنهار ، وجعل فيها البحار وصفاها رعاء ، مرطبا مسيرة بمسيرة عام ، ثم خلق الثانية مثلها في العرض والفظ وجعل فيها أفواما ، أفوامهم كأفوام الكلاب وأيديهم أيدي الناس ، وآذانهم آذان البقر وشعورهم شعور الغنم ، فإذا كان عند اقتراب الساعة ألقنهم الأرض إلى ياجوج ومأجوج ، واسم تلك الأرض المدكاه ، ثم خلق الأرض الثالثة غلظها مسيرة بمسيرة عام ، ومنها هواء إلى الأرض . للرياسة خلق فيها ظلمة وعقارب لأهل النار مثل البغال السود ، ولها أذنان مثل أذنان الخيل الطواله ، يأكل بعضها بعضا فتسلط على بني آدم . ثم خلق الله الخامسة [مثلها] في اللفظ والطول والعرض فيها سلاسل وأغلال وقيود لأهل النار . ثم خلق الله الأرض السادسة واسمها ماد ، فيها حجارة سود بهم ، ومنها خلقت تربة آدم عليه السلام ، تبث تلك الحجار في قيعان القيامة وكل حجر منها كالطود العظيم ، وهي من كبريت تملأ في أعناق الكفار فتشتعل حتى تجرق وجوههم وأيديهم ، فذلك قوله عز وجل : « وَتَوَدُّهَا النَّاسُ وَالْجِبَالُ » ثم خلق الله للأرض السابعة واسمها عريية وفيها جهنم ، فيها بابان اسم

(١) زيادة يقتضيا السياق .

الواحد بعين والآخر الفلق، فاما بعين فهو مفتوح وإليه ينتهي كتاب الكفار، وعليه يعرض أصحاب المائدة وقوم هرون، وأما الفلق فهو مغلق لا يفتح إلى يوم القيامة . وقد مضى في «البقرة» أنها سبع أرضين بين كل أرضين مسيرة خمسمائة عام، وسأيت له في آخر «الطلاق» زيادة بيان إن شاء الله تعالى . وقول ثالث قاله عكرمة وعطية وابن زيد وابن عباس أيضا فيما ذكر المهدوي : إن السموات كانت رتقا لا تبطر، والأرض كانت رتقا لا تبت، ففتق السماء بالمطر، والأرض بالنبات؛ نظيره قوله عز وجل : « وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الرَّجْعِ . وَالْأَرْضَ ذَاتِ الصَّدُجِ » . واختار هذا القول الطبري؛ لأن بعده « وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ » .

قلت : وبه يقع الاعتبار مشاهدة ومعانية؛ ولذلك أخبر بذلك في غير ما آية ؛ ليدل على كمال قدرته، وعلى البعث والجزاء . وقيل :

يَهْوَىٰ عَلَيْهِمْ إِذَا بَنَضُوا * لَنَ حَفَظَ الْعِدَّةَ وَإِرْغَامَهَا

وَرَتَقَى الْفَتْقَ وَفَتَقَ الرُّتُومَ * فِي تَقْصُّصِ الْأُمُورِ وَإِبْرَامَهَا

وفي قوله تعالى : « وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا » ثلاث تأويلات : أحدها — أنه خلق كل شيء من الماء؛ قاله قتادة . الثاني — حفظ حياة كل شيء بالماء . الثالث — جعلنا من ماء الصلب كل شيء؛ قاله قطرب . « وجعلنا » بمعنى خلقنا . وروى أبو حاتم البستي في المسند الصحيح له من حديث أبي هريرة قال : قلت يا رسول الله ! إذا رأيتك طابت نفسي، وقزت عيني؛ أنبئني عن كل شيء؛ قال : « كل شيء خلق من الماء » الحديث ؛ قال أبو حاتم قول أبي هريرة : « أنبئني عن كل شيء » أراد به عن كل شيء خلق من الماء، والدليل على صحة هذا جواب المصطفى إياه حيث قال : « كل شيء خلق من الماء » وإن لم يكن مخلوقا . وهذا احتجاج آخر سوى ما تقدم من كون السموات والأرض رتقا . وقيل : الكل قد يذكر بمعنى البعض كقوله : « وَأَوْرَثْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ »

(١) راجع ص ٢٥٨ وما بعدها طبع ثانياً أرثاقه .

(٢) في تفسير قوله تعالى : « الله الذي خلق سبع سموات ... الخ » آية ١٢

وقوله : « تَدْعُهُمْ كُلُّ نَسْرٍ » والصحيح العموم ؛ لقوله عليه السلام : « كل شيء خلق من الماء » والله أعلم . (أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) أى أفلا يصدقون بما يشاهدون ، وأن ذلك لم يكن بنفسه ، بل لمكثون كونه ، وبغير أوجده ، ولا يجوز أن يكون ذلك المكثون محدثا .

قوله تعالى : (وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ) أى جبالا ثوابت . (أَنْ يَمِيدَ بِهِمْ) أى لتلا تميد بهم ، ولا تحرك ليم الفرار عليها ؛ قاله الكوفيون . وقال البصريون : المعنى كراهية أن تميد . واليديد التحرك والدوران . يقال : ماد رأسه ؛ أى دار . وقد مضى في « التعليل » مستوفى . (وَجَعَلْنَا فِيهَا بَقَايَا) يعنى فى الرواسى ؛ عن ابن عباس . والتبقيات المسالك . والفجج الطريق الواسع بين الجبلين . وقيل : وجعلنا فى الأرض بلجايا أى مسالك ؛ وهو اختيار الطبرى ؛ لقوله : (لَتَلَهُمْ يَهْتَدُونَ) أى يهتدون إلى السير فى الأرض . « سُبُلًا » تفسير الفجاج ؛ لأن الفج قد يكون طريقا نافذا مسلوكا وقد لا يكون . وقيل : يهتدوا بالاعتبار بها إلى دينهم .

قوله تعالى : (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا) أى محفوظا من أن يقع ويستقطط من الأرض ؛ دليله قوله تعالى : « وَمِنْكَ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ » . وقيل : محفوظا من النجوم من الشياطين ؛ قاله الفراء . دليله قوله تعالى : « وَحِفْظُنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ » . وقيل : محفوظا من الهدم والنقض ؛ وعن أن يلفه أحد بحيلة . وقيل : محفوظا فلا يحتاج إلى عماد . وقال مجاهد : صرغوا . وقيل : محفوظا من الشرك والمعاصى . (وَهُمْ) يعنى الكفار (عَنْ آيَاتِنَا مُعْرِضُونَ) قال مجاهد يعنى الشمس والقمر . وأضاف الآيات إلى السماء لأنها جمولة فيها ، وقد أضاف الآيات إلى نفسه فى مواضع ، لأنه الفاعل لها . بين أن المشركين غفلوا عن النظر فى السموات وآياتها ، من ليها ونهارها ، وشمسها وقمرها ، وأفلاكها ورياحها ومجائها ، وما فيها من قدرة الله تعالى ، إذ لو نظروا واحترجوا لعلموا أن لها صناعا قادرا واحدا فيستحيل أن يكون له شريك

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ ذَكَّرَهم نعمة أخرى : جعل لهم الليل ليسكنوا فيه ، والنهار لينصرفوا فيه لمعايشهم . ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ أى وجعل الشمس آية النهار ، والقمر آية الليل ؛ لتعلم الشهور والسنوات والحساب ، كما تقدم في « سبحان »^(١) بيانه . ﴿ كُلٌّ ﴾ يعنى من الشمس والقمر والنجوم والكواكب والليل والنهار ﴿ فِي فَلَكَ يَسْبَحُونَ ﴾ أى يحIRON ويسيرون بسرعة كالساج في الماء . قال الله تعالى وهو أحصدق الغائلين : « وَالسَّابِحَاتُ سَبْحاً » ويقال للفرس الذى يمد يده في الجرى ساج . وفيه من النحو أنه لم يقل : يسبحن ولا تسبح ؛ فذهب سيويه : أنه لما أخبر عنهن بفعل من يعقل وجعلهن في الطاعة بمتلة من يعقل ، أخبر عنهن بالواو والنون . ونحوه قال الفراء . وقد تقدم هذا المعنى في « يوسف » . وقال الكشاف : إنما قال : « يسبحون » لأنه رأس آية ، كما قال الله تعالى : « تَحْمِلُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ » ولم يقل متصرفون . وقيل : الجرى للفلك فنسب إليها . والأصح أن السارية تجرى في الفلك ، وهى سبعة أفلاك دون السموات المطبقة ، التى هى مجال الملائكة وأسباب الملكوت ، فالقمر في الفلك الأدنى ، ثُمَّ عَطَايدُ ، ثُمَّ الزُّهْرَةُ ، ثُمَّ الشمس ، ثُمَّ المَرْيِخُ ، ثُمَّ المُبَشِّرَى ، ثُمَّ زُحَل ، والثامن فلك البروج ، والتاسع الفلك الأعظم . والفلك واحد أفلاك النجوم . قال أبو عمرو : ويجوز أن يجمع على فَعْلٍ مثل أَسَدٍ وَأَسَدٍ وَخَشَبٍ وَخَشَبٍ . وأصل الكلمة من الدوران ، ومنه فَلَكة المِغْزَل ؛ لاستدارتها . ومنه قيل : فَلَكَ نَدَى المرأة تغليها ، وفَلَكَ استدار . وفي حديث ابن مسعود : تركت فرسى كأنه يدور في فلك . كأنه لدورانها شبهه بفلك السماء الذى تدور عليه النجوم . قال ابن زيد : الأفلاك مجازى النجوم والشمس والقمر . قال : وهى نِيْبُ السماء والأرض . وقال قتادة : الفلك استدارة في السماء تدور بالنجوم مع ثبوت السماء . وقال مجاهد : الفلك كهيئة حديد الرمح وهو قطبها . وأقال الضحاك : فلكها مجراها وسرعة مسيرها . وقيل : الفلك موج مكفوف ويجرى الشمس والقمر فيه ، والله أعلم .

(١) راجع ج ١٠ ص ٢٢٧ وما بعدها طبعه أول أولانية .

(٢) راجع ج ٩ ص ١٢٢ طبعه أول أولانية .

قوله تعالى : وَمَا جَعَلْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَلَا يَمِتُ مِثَّ هُمُ
الْخَالِدُونَ ﴿١٦٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالْأَشْيَاءِ وَالْخَيْرِ فَتَنَةً
وَلِمَا لَيْسَ بِتَرْجِعُونَ ﴿١٦٧﴾

قوله تعالى : (وَمَا جَعَلْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ) أى دوام البقاء فى الدنيا نزلت حين
قالوا : تربع بمحمد ريب المنون ، وذلك ان المشركين كانوا يدفعون نبوته ويقولون :
شاعر تربع به ريب المنون ، ولعله يموت كما مات شاعر بنى فلان ؛ فقال الله تعالى : قد مات
الأنبياء من قبلك ، وتولى الله دينه بالنصر والحياطة ، فهكذا نحفظ دينك وشركك . (أَفَلَا يَمِتُ
مِثَّ هُمُ الْخَالِدُونَ) أى أفهم ؛ مثل قول الشاعر :
رَقُونِ وَقَالُوا يَا حُوزَيْدُ لَا تَرْخُ • فقلتُ وَأَنْكَرْتُ للوجوه هُمُ هُمُ

أى أم ! فهو استفهام إنكار . وقال الفراء : جاء بالقاء ليدل على الشرط ؛ لأنه جواب قولهم
تسميت . ويموز أن يكون جى ؛ جاء ؛ لأن التقدير فيها : أفهم الخالدون إن مت ! قال الفراء :
ويموز حذف القاء وإحماؤها ؛ لأن « هم » لا يتبين فيها الإعراب . أى إن مت فهم يموتون
أيضا ، فلا شامة فى الإمامة . وقرئ « يمت » و « مت » بكسر الميم وضمة لتان .

قوله تعالى : (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) تقدم فى « آل عمران » (وَنَبْلُوكُمْ بِالْأَشْيَاءِ
وَالْخَيْرِ فَتَنَةً) « فِتْنَةً » مصدر على غير اللفظ . أى نختبركم بالشدة والرخاء والحلال والحرام ،
فنظر كيف شكرتم وصبركم . (فَاِلَيْنَا تَرْجِعُونَ) أى للجزاء بالأعمال .

قوله تعالى : وَإِذَا رَأَوْا آيَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ يَخْشَوْنَكَ إِلَّا مَزُورًا
أَهْلًا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الْرَّحْمَنَ هُمُ كَافِرُونَ ﴿١٦٨﴾

(١) هو أبو نراش المذلى . ورواه سكر من العرب ؛ يقول : سكرنى . أخطر بمشاهدة الوجوه ، وجعلها دليلا
على ما فى القوس . (٢) راجع ج ٤ ص ٢٩٧ وما بعدها طيبة الأولى أو الثانية .

قوله تعالى : (وَإِنَّا رَأَيْنَاكَ الْبَينَ كَقَمَرٍ إِذَا هُزُوا) أى ما يتخللونك .
والهزة السخوية ؛ وقد تقدم . وهم المستهزون المتقدمون الذكر فى آخر سورة « الحجر »^(١١)
فى قوله : « إِنَّا كَفَيْتَكَ الْمُسْتَزِينَ » . كانوا يسيون من بحد إلهية أصنامهم وهم جاحدون
لإلهية الرحمن ؛ وهذا غاية الجهل . (أَمَّا الَّذِى) أى يقولون : أهذا الذى ؟ فاضمر القول
وهو جواب « إذا » وقوله : « إِنَّا يَتَخَلَّوْنَكَ إِلَّا هَزُوا » كلام معترض بين « إذا » وجوابه .
(يَذْكُرْ أَهْلَكُمْ) أى بالسوء والعيب . ومنه قول عترة :

لَا تَذْكُرْى مُهْرى وَمَا أَطْعَمْتَهُ • فَيَكُونُ جَلْدُكَ مِثْلَ جَلْدِ الْأَجْرِبِ^(١٢)

أى لاتبى مهرى . (وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ) أى بالقرآن . (مُمَّ كَايِرُونَ) « هم » الثانية
توكيد كفرهم ، أى هم الكافرون مبالة فى وصفهم بالكفر :

قوله تعالى : خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۚ وَإِنِّي فَلَآ
تَسْتَعْمِلُونَ ﴿١٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨﴾
لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ
ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿١٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
رَدًّا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ) أى ركب على العجلة نخلق عجولا ؛ كما قال
الله تعالى : « اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعِيفٍ » أى خلق الإنسان ضعيفا . ويقال : خلق الإنسان
من الشر أى شريرا إذا بالغت فى وصفه به . ويقال : إنما أنت ذهاب وعجى . أى ذاهب
جائى . أى طبع الإنسان العجلة ؛ فيستعجل كثيرا من الأشياء وإن كانت مضرة . ثم قيل :
المراد بالإنسان آدم عليه السلام . قال سعيد بن جبيرة والسدى : لما دخل الروح فى عيني

(١) راجع ج ١٠ ص ٦٢ طبعة أدبى لمرثية .

(٢) قاله لامرأة له من بجهة كانت تهره فى فرس كان يؤثره على عياله ويعلمه ألوان ليله .

آدم عليه السلام نظر في ثمار الجنة، فلما دخل جوفه أشتى الطعام، فوشب من قبل أن تبلغ الروح رجليه فجلبان إلى ثمار الجنة . فذلك قوله : « خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَاقٍ » . وقبل : خلق آدم يوم الجمعة في آخر النهار، فلما أحيا الله رأسه أستمعيل ، وطلب تيم نفع الروح فيه قبل غروب الشمس ، قاله الكلبي ومجاهد وغيرهما . وقال أبو عبيدة وكثير من أهل المعاني : المعجل الطين بلغة حمير . وأنشدوا :

• والنعلُ يَنْبُتُ بين الماءِ والسَّجْلِ^(١) •

وقيل : المراد بالإنسان الناس كلهم . وقيل المراد : النضرين الحرث بن علقمة بن كلبه بن عبد الدار في تفسير ابن عباس ؛ أى لا يلغى مان خلق من الطين الحفير أن يستهزئ بآيات الله ورسله . وقيل : إنه من المقلوب ؛ أى خلق المعجل من الإنسان . وهو مذهب أبى عبيدة . النحاس . وهذا القول لا ينبغي أن يحاب به في كتاب الله ؛ لأن القلب إنما يقع في الشعر اضطرابا كما قال^(٢) :

• كَانَ الرِّثَاءُ فَرِيضَةً الرَّجِيمِ •

ونظيره هذه الآية : « وَكَانَ الْإِنْسَانُ عُجُولًا » وقد مضى في « سبحان » . (سَأَرَيْتُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعِجِلُونِ) هذا يقوى القول الأول، وأن طبع الإنسان العجلة، وأنه خلق خلقا لا يملك كما قال عليه السلام، حسب ما تقدم في « سبحان » . والمراد بالآيات ما دل على صدق عهد عليه السلام من المعجزات، وما جعله له من العاقبة المحمودة . وقيل : ما طلبوه من العذاب، فأرادوا الاستعجال وقالوا : « مَتَى هَذَا الْوَعْدُ » ؟ وما علموا أن لكل شيء أجلا مضروبا . نزلت في النضرين الحرث . وقوله : « إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ » . وقال الأخفش سعيد : معنى « خلق الإنسان من عجل » أى قبل له كن فكان، فعنى « فَلَا تَسْتَعِجِلُونِ » على هذا القول أنه من يقول للشيء كن فيكون، لا يعجزه إظهار ما أستمعوه من الآيات . (وَقُولُوا مَتَى هَذَا الْوَعْدُ) أى الموعود، كما يقال : الله رجائنا أى مرجؤنا . وقيل : معنى « الوعد » هنا الوعيد، أى الذى يعدنا من العذاب . وقيل : القيامة . (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) يا معشر المؤمنين .

(١) صدر البيت : • والتعب في الصخرة الصماء منه •

(٢) البيت لعمري ومعه : • كانت فريضة ما تغزل كما •

(٣) راجع ج ١٠ ص ٢٢٦ طبع أرثانية .

قوله تعالى : (**لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا**) العلم هنا بمعنى المعرفة فلا يقتضى مفعولا ثانيا مثل « **لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ** » . وجواب « **لو** » محذوف ، أى لو علموا الوقت الذى (**لَا يَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُلُومِهِمْ وَلَا تَعْلَمُونَهُمُ يَنْصَرُونَ**) وعرفوه لما استعملوا الوعيد . وقال الزجاج : أى علموا صدق الوعد . وقيل : المعنى لو علموه لما أقاموا على الكفر ولا منوا . وقال الكسائى : هو تنبيه على تحقيق وقوع الساعة ، أى لو علموه لم يقين لهموا أن الساعة آتية . ودل عليه (**بَلْ تَأْتِيهِمْ بَفْئَةٌ**) أى بغاة يعنى القيامة . وقيل : العقوبة . وقيل : النار فلا يتمكنون من حيلة (**فَتَنْبِئُهُمْ**) . قال الجوهري : بينه وبين أخذها بفتح قال الله تعالى : « **بَلْ تَأْتِيهِمْ بَفْئَةٌ فَيَقْتُلُهُمْ** » . وقال الفراء : « **فتنبئهم** » أى تحيرهم ، يقال : بينه وبينه إذا واجهه بشئ يحيره . وقيل : تنفباهم . (**فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا**) أى صرفها عن ظهورهم . (**وَلَا يَنْظُرُونَ**) أى لا يهملون ويؤخرون لتوبة واعتذار .

قوله تعالى : (**وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ خَافَ يَأْتِيهِمْ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**)

قوله تعالى : (**وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ**) هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ونعزية له . يقول : إن أستهزأ بك هؤلاء ، فقد أستهزئ برسل من قبلك ، فاصبر كما صبروا . ثم وعده النصر فقال : (**خَافَ**) أى أحاط رداً (**بِالَّذِينَ**) كفروا و (**يَسَخِرُوا مِنْهُمْ**) وهزأ بهم (**مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**) أى جزاء استهزائهم .

قوله لمساى : **قُلْ مَن يَكْلَأُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُم عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ** (١١) **أَمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمُ الْآيَةُ تَمَنُّعُهُمْ مِّنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ** (١٢) **بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ** (١٣)

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ ﴾ أى يحرسكم ويحفظكم . والكَلَامَةُ الحراسة والحفظ ؛
كَلَامَةُ اللَّهِ كَلَامُهُ (بالكسر) أى حفظه وحرسه . يقال : أذهب فى كَلَامَةِ اللَّهِ ؛ وإكثلات
منهم أى احترست ، قال الشاعر هو ابن هرمة :

لأن سلىمى والله يكلفوها • ضبت بشىء ما كان يرزوها
وقال آخر :^(١) • أنحت بغيرى وأكثلت بعينيه •

وحكى الكاسى والفراء « قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ » بفتح الهمزة وإسكان الواو . وحكى « مَنْ يَكْلَأُكُمْ »
على تخفيف الهمزة فى الوجهين ، والمردوف تحقيق الهمزة وهى قراءة العامة . فاما « يَكْلَأُكُمْ »
نظما من وجهين فى ذكره النحاس : أحدهما - أن بدل الهمزة إنما يكون فى الشعر . والثانى -
أنهما بقولان فى الماضى كَلَيْتُهُ ، فيقلب المضى ، لأن كَلَيْتُهُ أوجعت كَلَيْتُهُ ، ومن قال لرجل ،
كَلَالَكَ اللَّهُ فقد دعا عليه بأن يصيبه الله بالوجع فى كَلَيْتِهِ .

ثم قيل : مخرج اللفظ مخرج الاستفهام والمراد به النفى . وتقديره : قل للاحفاظ لكم
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (و) : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ إذا قمتم وتصرفتم فى أموركم . ﴿ مِنْ الرَّحْمَنِ ﴾ أى من
عذابه وبأسه كقوله تعالى : « لَنْ يَنْصُرُنِي اللَّهُ » أى من عذاب الله . والخطاب لمن
أعترف منهم بالصانع ؛ أى إذا أقرتم بأنه الخالق ، فهو القادر على إحلال العذاب الذى
تستعملونه . ﴿ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ ﴾ أى عن القرآن . وقيل : عن مواعظ ربهم . وقيل :
عن معرفته . ﴿ مُعْرِضُونَ ﴾ لاهون غافلون •

قوله تعالى : ﴿ أَمْ هُمْ إِلَهٌ ﴾ المعنى : ألهم والميم صلة . ﴿ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا ﴾ أى من
عذابنا . ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ بنى الذين زعم هؤلاء الكفار أنهم ينصرونهم لا يستطيعون ﴿ نَصْرُ
أَنْفُسِهِمْ ﴾ فكيف ينصرون عابديهم . ﴿ وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ قال ابن عباس : يُنْعَمُونَ .
وعنه : يُجَارُونَ ، وهو اختيار الطبرى . تقول العرب : أنا لك جار وصاحب من فلان ؛ أى يجير
منه ؛ قال الشاعر :

يُنَادِى بِأَعْلَى صَوْتِهِ مَتَوَّظًا • لِيَصْحَبَ مِنْهَا وَالرَّامِحَ دَوَانِي

(١) هو كعب بن زهير ؛ وبجزمه • وأمرت نفسى أى أمرى أضل •

وروى معمر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : « يُنْصَرُونَ » أى يحفظون . قتادة :
أى لا يصحبهم الله بخير ، ولا يجعل رحمته صاحباً لهم .

قوله تعالى : (يَلْ مَتَعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ) قال ابن عباس : يريد أهل مكة . أى بسطنا
لهم ولآبائهم في نعمها و (طَالَ عَلَيْهِمُ الْمُرُّ) في النعمة فظنوا أنها لا تزول عنهم ، فافترخوا
وأعرضوا عن تدبر حجاج الله عن وجل . (أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ نَارِي الْأَرْضِ نَبْطُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا)
أى بالظهور عليها لك يا محمد أرضا بعد أرض ، وقطعا بلدا بعد بلد مما حول مكة ،
قال معناه الحسن وغيره . وقيل : بالقتل والسبي ؛ حكاة الكلي . والمعنى واحد . وقد مضى
في « الرد » الكلام في هذا مستوف . (أَنَّهُمُ الْفَالِغُونَ) يعنى كفار مكة بعد أن نقصنا
من أطرافهم ؛ بل أنت تغلبهم وتظهر عليهم .

قوله تعالى : قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالنَّوْحِي وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ
إِذَا مَا يُنْذَرُونَ ﴿١٥﴾ وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لِيَقُولُوا يَنُوحِلْنَا
إِنَّا كُنَّا ضَالِّينَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : (قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالنَّوْحِي) أى أخوفكم وأحذركم بالقرآن . (وَلَا يَسْمَعُ
الصُّمُّ الدُّعَاءَ) أى من أصم الله قلبه ، وختم على سمعه ، وجعل على بصره غشاوة ، عن فهم
الآيات وسماع الحق . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ومحمد بن السميع « وَلَا يُسْمَعُ » ببناء
مضمومة ونصب الميم على ما لم يسم فاعله « الصُّمُّ » رفعا أى إن الله لا يسمعهم . وقرأ ابن عامر
وسلمى أيضا ، وأبو حيرة ويحيى بن الحرث « وَلَا تُسْمَعُ » ببناء مضمومة وكسر الميم « الصُّمُّ »
نسبا ؛ أى إنك يا محمد « لَا تُسْمَعُ الدُّعَاءُ » ؛ فالخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم . ورد
هذه القراءة بعض أهل اللغة . وقال : وكان يجب أن يقول : إذا ماتذوهم . قال النحاس :
وذلك جائز ؛ لأنه قد عرف المعنى .

(١) في نسخة : « حكاة الكلي » . (٢) راجع ج ٩ ص ٣٣٣ وما بعدها طيبة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ نَفْعًا مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ ﴾ قال ابن عباس : طرف . قال قتادة : عقوبة . ابن كيسان : قليل وأدنى شيء ، مأخوذة من قمع المسك . قال : وعمره من سروات النساء . تنفع بالمسك أركانها . ابن جرير : نصيب ، كما يقال : قمع فلان لفلان من عطائه ، إذا أعطاه نصيبا من المال . قال الشاعر :^(١)

لَمَّا أَتَيْتُكَ أَرْجُو فَضْلَ نَائِلِكُمْ • فَتَحْتَنِي نَفْعًا طَابَتْ لَهَا الْمَرْبُ

أى طابت لها النفس . والنفعة في اللغة الدفعة اليسيرة ، فالمعنى وثني مسهم أقل شيء من العذاب . ﴿ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَتَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أى متعددين فيعتزون حين لا يفهمهم الاعتراف .

قوله تعالى : وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْعًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ نَجْدٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكُنَّا بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْعًا ﴾ الموازين جمع ميزان . قيل : إنه يدل بظاهره على أن لكل مكلف ميزانا توزن به أعماله ، فتوضع الحسنات في كفة ، والسيئات في كفة . وقيل : يجوز أن يكون هناك موازين للعامل الواحد ، يوزن بكل ميزان منها صنف من أعماله ، كما قال :

مَلِكٌ يَقُومُ الْحَادِثَاتُ لَعَدْلِهِ • فَلكلِّ حَادِثَةٍ لَهَا مِيزَانٌ

ويمكن أن يكون ميزانا واحدا عبر عنه بلفظ الجمع . ونخرج الألف كإني الحافظ أبو القاسم في سننه عن أنس بن مالك : ^{٢٠} « إن ملكا موكلًا بالميزان فيؤتى بأبن آدم فيوقف بين كفتي الميزان فإن رجع نادى الملك بصوت انخلاق سيد فلان سعادة فلان لا يشقى بعدها أبدا وإن خف نادى الملك شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدا » . ونخرج عن حذيفة رضى الله عنه قال : ^{٢١} « صاحب الميزان يوم القيامة تجريل عليه السلام » . وقيل : للميزان كفتان وخيوط ولسان والشاهين ، فالجمع يرجع إليها . وقال مجاهد وقادة والضحاك : ذكر الميزان مثل وليس ثم

(١) هويس بن الخطيم الأنصاري . (٢) هو قرامح بن ميادة مدح به الوليد بن يزيد بن عبد الملك .

ميزان وإنما هو العدل . والذي وردت به الأخبار وعليه السواد الأعظم القول الأول . وقد مضى في «الأعراف» بيان هذا، وفي «الكهف» أيضا . وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة» مستوفى والحمد لله . و «القيسط» العدل أى ليس فيها بخس ولا ظلم كما يكون في وزن الدنيا . و «القيسط» صفة الموازين ووحده لأنه مصدر ؛ يقال : ميزان قسط ، وميزانان قسط ، وموازين قسط . مثل رجال عدل ورعاً . وقرأت فرقة «القيسط» بالصاد : (لَيَوْمِ الْقِيَامَةِ) أى لأهل يوم القيامة . وقيل : المعنى في يوم القيامة . (فَلَا تَطْلُمُ نَفْسٌ شَيْئًا) أى لا ينقص من إحسان محسن ولا يزداد في إساءة مفسد . (وَلِإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ تَرْتِيلٍ) قرأ نافع وشيبة وأبو جعفر «مِثْقَالُ حَبَّةٍ» بالرفع هنا ؛ وفي «لقمان» على معنى إن وقع أو حضر ؛ فتكون كان تامة ولا تحتاج إلى خبر . الباقون «مِثْقَالٌ» بالنصب على معنى وإن كان العمل أو ذلك الشيء مثقال . ومثقال الشيء ، ميزانه من مثله . (أَتَيْنَا بِهَا) مة صورة الألف قراءة الجمهور أى أحضرناها وجئنا بها للجزاء عليها ولما . يبعأ بها أى بالحبة ولو قال به أى بالمنال بلجاز . وقيل : مثقال الحبة ليس شيئا غير الحبة فلهذا قال «أَتَيْنَا بِهَا» . وقرأ مجاهد وعكرمة «أَتَيْنَا» بالمد على معنى جازينا بها . يقال : آتى يؤاتى مؤاتاة . (وَكُنْفَى يَنَا حَاسِبِينَ) أى عاسبين على ما قدموه من خير وشر . وقيل : «حاسبين» إذ لا أحد أسرع حسابا منا . والحساب المد . روى الترمذى عن عائشة رضى الله عنها : أن رجلا قعد بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! إن لى مملوكين يكذبونى ويخونونى ويعصونى وأشتهم وأضر بهم فكيف أنا منهم ؟ قال : «يُحْسَبُ مَا خَانُوكَ وَعَصَوْكَ وَكَذَبُوكَ وَعَتَابَكَ إِيَّاهُمْ فَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِمْ كَانَ كَفًّا فَا لَا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ دُونَ ذُنُوبِهِمْ كَانَ فَضْلًا لَكَ وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ فَوْقَ ذُنُوبِهِمْ أَقْصَصَ لِمَنْ مَنَّكَ الْفَضْلُ» قال : فتحنى الرجل فجعل يبكى ويبته . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أما تقرأ كتاب الله تعالى «وَنُفِصَ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا» فقال الربيل : والله يا رسول الله ما أجد لى ولهذا شيئا خيرا من مفارقتهم ، أشهدك أنهم أحرار كاهم . قال حديث غريب .

قوله تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِبَاءً وَذِكْرًا
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾
وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِبَاءً) وحكى عن ابن عباس
وعكرمة « الْفُرْقَانَ ضِبَاءً » بنى روا على الحال . وزعم القراء أن حذف الواو والمجى بها واحد ،
كما قال الله عز وجل : « إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ زَيْنَةً لِّكَوَاكِبِ » . وحفظاً « أى حفظاً » .
ورد عليه هذا القول الزجاج . قال : لأن الواو مجى لمعنى فلا تزد ، قال : وتفسير « الفرقان »
التوراة ؛ لأن فيها الفرق بين الحرام والحلال . قال : « وَضِبَاءً » مثل « فِيهِ هُدًى وَنُورٌ »
وقال ابن زيد : « الفرقان » هنا هو النصر على الأعداء ؛ دله قوله تعالى : « وما أَزَلَّنا
عَلَى عِبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ » يعنى يوم بدر . قال النجاشي : وهذا القول أشبه بظاهر الآية ؛ لمخول
الواو فى الضياء ؛ فيكون معنى الآية : ولقد آتينا موسى وهرون النصر والتوراة التى هى الضياء
والذكر . (لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ) أى غائبين ؛ لأنهم لم يروا الله تعالى ، بل
صرفوا بالنظر والاستدلال أن لهم رباً قادراً ، يجازى على الأعمال فهم يخشونه فى مراتبهم ،
وخلوهاهم التى يغيبون فيها عن الناس . (وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ) أى من قيامها قبل التوبة .
(مُشْفِقُونَ) أى خائفون وجلون . (وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ) بنى القرآن (أَفَأَنْتُمْ لَهُ)
بامعشر العرب (مُنْكَرُونَ) وهو معجز لا تقدرون على الإتيان بمثله . وأجاز القراء « وَهَذَا
ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ » بمعنى أنزلناه مباركاً .

قوله تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ
عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ هَا
عَسْكَفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا هَا عِبْدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنْتُمْ

وَأَبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٦﴾ قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنْ
الْأَلْيَيْنِ ﴿٥٧﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ
وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لِيُذَكِّرَ ﴾ قال القرطبي : أى أعطينا هداية . (ين قبل)
أى من قبل النبوة ، أى زقتناه للنظر والاستدلال ، لما بين طلبة الليل فرأى النجم والشمس
والقمر . وقيل : « ين قبل » أى من قبل موسى وهرون . والرشد على هذا النبوة . وعلى
الأول أكثر أهل التفسير ، كما قال يحيى : « وآتينا الحكيم صبياً » . وقال القرطبي : رشده
صلاحه . (وكنايه عاين) أى إنه أهل لإتياء الرشده وصالح للنبوة .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ ﴾ قيل : المعنى أى أذكر حين قال لأبيه ، فيكون الكلام
قد تم عند قوله : « وكنايه عاين » . وقيل : المعنى : « وكنايه عاين » إذ قال : فيكون الكلام
متصلاً ولا يوقف على قوله : « عاين » . « لأبيه » وهو كثر (وتقوية) غرود ومن أتبعه .
(ما عاينه التماثيل) أى الأصنام . والتمثال اسم موضوع للشيء المصنوع مشابهاً لمخلوق من خلق
الله تعالى . يقال : مثلت الشيء بالشيء أى شبهته به . واسم ذلك المثل تماثيل . (أتى أنهم لما
عَاكَفُونَ) أى مقيمون على عبادتها . (قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ عَابِدِينَ) أى نصبها تخليداً
لأسلانها . (قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) أى فى خسار عبادتها ، إذ هى عبادات
لا تنفع ولا تضر ولا تعلم . (قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ) أى أجاء أنت بحق فيما تقول ؟ (أَمْ أَنْتَ مِنْ
الْأَلْيَيْنِ) أى لأهل ما زح . (قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) أى لست ملاحب ،
بل ربكم والقائم بتدبيركم خالق السموات والأرض . (الَّذِي فَطَرَهُنَّ) أى خلقهن وأبدعهن .
(وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ) أى على أنه رب السموات والأرض . والشاهد بين الحكم ،
ومنه « شهد الله » . بين الله ، فالمعنى : وأنا آيّن بالدليل ما أقول .

قوله تعالى : وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٩﴾
فَجَعَلَهُمْ جَذَآءًا إِلَّا كَبِيرًا ثُمَّ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتَأْتِيهِ لَآئِكِدْنَ أَصْنَامُكُمْ ﴾ اعبر أنه لم يكنف بالحاجة باللسان بل كسر أصنامهم فقل وائق بالله تعالى ، موطن نفسه على مقاساة للذكور في الذب عن الدين . وائاء في « تأتية » تختص في القسم باسم الله وحده ، والولو تختص بكل مظهر ، والباء بكل مضمهر ومظهر . قال الشاعر :

تأته يتقى على الأيام ذو جيد • بضمخه بالظيان والآس

وقال ابن عباس : أي وحرمة الله لا يكذب أصنامكم ، أي لا يمكن بها . والتكيد المكر . كاده يكيده كيذا ومكيده ، وكذلك المكيدة ؛ وربما سعى الحرب كيذا ؛ يقال : غزا فلان فلم يلق كيذا ، وكل شيء تعالجه فانت تكبده . ﴿ بَدَأَ أَنْ تُولُوا مُبْدِرِينَ ﴾ أي منطلقين ذاهبين . وكان لهم في كل سنة عيد يجتمعون فيه ، فقالوا لإبراهيم : لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا - روى ذلك عن ابن مسعود على ما يأتي بيانه في « والصفات » - فقال إبراهيم في نفسه : « تَأْتِيهِ لَآئِكِدْنَ أَصْنَامُكُمْ » . قال مجاهد وقتادة : إنما قال ذلك إبراهيم في سر من قومه ، ولم يسمعه إلا رجل واحد وهو الذي أقشاه عليه ، والواحد يخبر عنه بغير الجمع إذا كان ما أخبر به محامداً به غيره . ومثله « يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذَلَّ » . وقيل : إنما قاله بعد خروج القوم ، ولم يبق منهم إلا الضعفاء فهم الذين سمعوه . وكان إبراهيم أحنال في التخلف عنهم بقوله : « إِنِّي سَقِيمٌ » أي ضعيف عن الحركة .

قوله تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوهُ جُذَادًا ﴾ أي قناتاً . والجذ الكسر والقطع ؛ جذذت الشيء كسرته وقطعته . والجذاذ والجذاذ ما كسر منه ، والصم أنصح من كسره . قال الجوهري : الكسائي : ويقال لجمرة الذهب جذاذ ؛ لأنها تكسر . وقرأ الكسائي والأعمش وابن عيصن « جذاذًا » بكسر الجيم ؛ أي كسرا وقطعا جمع جذيد وهو المشيم ، مثل خفيف وخفاف وظريف وظرف . قال الشاعر :

جذذ الأصنام في مجراها • ذاك في الله الملى المنقير

(١) حرمانك بن خاله المناهر المذل . وحيد ما (كتب) : كل تنو في الجذل . والمنقير : الجذل العذل . والظيان : ياصمن البر . والمعنى : لا يبق . (٢) في تفسير قوله تعالى : « مراغ إلى آهتهم ... الخ » . الآيات : ٩١ و٩٢ و٩٣

الباقون بالضم ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم . [مثل] الحطام والزفات الواحدة جذافة . وهذا هو الكبد الذي أقسم به ليعقلنه بها . وقال : « بلغهم » ، لأن القوم اعتمدوا في أصنامهم الإلهية . وقرأ ابن عباس وأبو نبيك وأبو السمال « جذاذ » بفتح الجيم ، والفتح والكسر لنتان كالحصاد والحصاد . أبو حاتم : الفصح والكسر والضم بمعنى ؛ حكاية قطرب .
 ﴿ إِلَّا كَبِيرًا ثُمَّ ﴾ أى عظيم الآلهة في الخلق فإنه لم يكسره . وقال السدى ومجاهد : ترك الصنم الأكبر وعلق الناس الذى كسر به الأصنام في عنقه ؛ ليحجج به عليهم . ﴿ لَعَلَّهُمْ إِلَٰهٌ ﴾ أى إلى إبراهيم ودينه ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ إذا قامت الحجة عليهم . وقيل : « لَعَلَّهُمْ إِلَٰهٌ » أى إلى الصنم الأكبر « يَرْجِعُونَ » في تكسرها .

قوله تعالى : قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٥﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَدْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٥٦﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَىٰ عَائِلَتِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ المعنى لما رجعوا من عيدهم وراؤا ما أحدث باللهتهم ، قالوا على جهة البحث والإنكار : « مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ » . وقيل : « من » ليس آسفهما ، بل هو ابتداء ونيره « لَمِنَ الظَّالِمِينَ » . أى فاعل هذا ظالم . والأول أصح لقوله : ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَدْكُرُهُمْ ﴾ وهذا هو جواب « مَنْ فَعَلَ هَٰذَا » . والضمير في « قَالُوا » للقوم الضعفاء الذين سمعوا إبراهيم ، أو الواحد على ما تقدم . ومعنى « يدكرهم » يعيبهم ويسبهم فلمه الذى صنع هذا . واختلف الناس في وجه رفع إبراهيم ؛ فقال الزجاج : يرتفع على معنى يقال له هو إبراهيم ؛ فيكون [خبر مبتدأ] محذوف ، والجملة عكبة . قال : ويجوز أن يكون رفعا على النداء وضمه بناء ، وقام له مقام ما لم يسم فاعله . وقيل : رفعة على أنه مفعول ما لم يسم فاعله ؛ على أن يجعل إبراهيم غير دال على الشخص ، بل يجعل النطق به دالا على بناء هذه اللفظة . أى يقال له هذا القول وهذا اللفظ ، كما تقول (١) في الأصل : « هاى » وهو محريف . (٢) في الأصل : « يكون مبتدأ وخبره محذوف » وهو محريف .

زيد وزن قمل، أو زيد ثلاثة أحرف، فلم تدل بوجه على الشخص، بل دلت بنطقك على نفس النقطه. وعلى هذه الطريقة تقول: قلت إبراهيم، ويكون مفعولا صحيحا زكته منزلة قول وكلام، فلا يهتم بعد ذلك أن يبنى الفعل فيه للمفعول. هذا اختيار ابن عطية في رفعه. وقال الأستاذ أبو الجحاج الأشبيلي الأعم: هو رفع على الإهمال. قال ابن عطية: لما رأى وجوه الرفع كأنها لا توضع المعنى الذى قصدوه، ذهب إلى رفعه بنبرش، كما قد يرفع التجرد والعرو عن العوامل الابتداء. واللقى الشاب والفناء الشابة. وقال ابن عباس: ما أرسل الله نبيا إلا شابا. ثم قرأ «سَمِعْنَا قَتَى يَدُ كَرَمٍ».

قوله تعالى: ﴿قَالُوا قَاتُوا بِهِ عَلَى أَهْلِ النَّاسِ﴾ فيه مسئلة واحدة، وهى:

أنه لما بلغ الخبر نمرود وأشراف قومه، كرهوا أن يأخذوه بنبرش، فقالوا: أئسوا به ظاهرا برأى من الناس حتى يروه ﴿لَمَلَهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ عليه بما قال، ليكون ذلك حجة عليه. وقيل: «لما هم يشهدون» عقابه فلا يقدم أحد على مثل ما أقدم عليه. أو لعل قوما «يشهدون» بأنهم راوه يكسر الأصنام، أو «لما هم يشهدون» طعنه على ألفتهم، ليعلموا أنه يستحق العقاب.

قلت: وفى هذا دليل على أنه كان لا يؤاخذ أحد بدعوى أحد فيما تقدم، لقوله تعالى: ﴿قَاتُوا بِهِ عَلَى أَهْلِ النَّاسِ لَمَلَهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ وهكذا الأمر فى شرعنا ولا خلاف فيه.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿١٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى - لما لم يكن السماع عاما ولا ثبت الشهادة، استفهموه هل نسل أم لا؟ وفى الكلام حذف بجاء إبراهيم حين أتى به فقالوا: أنت فعلت هذا بالآلهة؟ فقال لهم إبراهيم حل جهة الأصحاح عليهم: ﴿بَلْ قَسَمَ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ أى إنه غار وغضب من أن يعبد هو

ويعبد الصغار معه ففعل هذا بها لذلك ، إن كانوا ينطقون فاسألوهم . فمات فعل الكبير
 يندفع الآخرين ؛ تنبيه لم على فساد اعتقادهم . كأنه قال : بل هو الفاعل إن نطق هؤلاء .
 وفي الكلام تقديم على هذا التأويل في قوله : ((فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ)) . وقيل : أراد
 بل فعله كبيرهم إن كانوا ينطقون . بين أن من لا يتكلم ولا يعلم لا يستحق أن يعبد . وكان
 قوله من الماريض ، وفي الماريض مندوسة عن الكذب . أى سلوهم إن نطقوا فإنهم
 يصدقون ، وإن لم يكونوا ينطقون فليس هو الفاعل . وفي ضمن هذا الكلام اعتراف بأنه هو
 الفاعل وهذا هو الصحيح لأنه عدده على نفسه ، فدل أنه خرج مخرج التعريض . وذلك
 أنهم كانوا يعبدونهم ويتخذونهم آلهة من دون الله ، كما قال إبراهيم لأبيه : « يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ
 مَا لَا تَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ » - الآية - فقال إبراهيم : « بَلْ تَقُولُ كَقَوْلِ كَيْدِهِمْ هَذَا » يقولوا
 إنهم لا ينطقون ولا ينفعون ولا يضررون ؛ فيقول لهم فلم تعبدونهم ؟ فتقوم عليهم الحجة
 منهم ، ولهذا يجوز عند الأمة فرض الباطل مع الخصم حتى يرجع إلى الحق من ذات نفسه ؛
 فإنه أقرب في الحجة وأقطع للشبهة ، كما قال لقومه : « هَذَا رَبِّي » وهذه أختي و« إِنِّي سَقِيمٌ »
 و« بَلْ تَقُولُ كَقَوْلِ كَيْدِهِمْ هَذَا » وقرا ابن السنيق « بَلْ تَقُولُ » بتشديد اللام بمعنى فعل الفاعل
 كبيرهم . وقال الكسائي : الوقف عند قوله « بل فعله » أى فعله من فعله ؛ ثم يجدي
 « كبيرهم هذا » . وقيل : أى لم ينكرون أن يكون فعله كبيرهم ؟ فهذا إلزام بلقظ الخبر . أى
 من اعتقد عبادتها يلزمه أن يثبت لها فعلا ؛ والمعنى : بل فعله كبيرهم فيا يلزمكم .

الثانية - روى البخاري ، ومسلم والترمذي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله
 عليه وسلم : " لم يكذب إبراهيم النبي في شيء قط إلا في ثلاث قوله « إِنِّي سَقِيمٌ » وقوله لسارة أختي
 وقوله « بل فعله كبيرهم » . لفظ الترمذي . وقال : حديث حسن صحيح . ووقع في الإسرائيليين
 في صحيح مسلم ، من حديث أبي هريرة رضى الله عنه في قصة إبراهيم قال : وذكر قوله
 في الكبرك « هذا ربي » . فعلى هذا تكون الكذبات أربعة إلا أن الرسول عليه السلام قد
 تقي تلك بقوله : " لم يكذب إبراهيم النبي قط إلا في ثلاث كذبات ثنتين في ذات الله قوله

« إني سقيم » وقوله « بل فعله كبيرهم » وواحدة في شأن سارة « الحديث لفظ مسلم .
وإنما لم يعد عليه قوله في الكوكب : « هذا ربي » كذبة وهي داخلية في الكذب ؛ لأنه —
والله أعلم — كان حين قال ذلك في حال الطفولة ، وليست حالة تكليف . أو قال لقومه
مستغفهما لم على جهة التوبيخ والإنكار ، وحذفت همزة الاستفهام . أو على طريق الاحتجاج
على قومه ؛ تنبيها على أن ما يتغير لا يصلح للربوبية . وقد تهدمت هذه الوجوه كلها في « الأنعام »
مدينة والحمد لله .

الثالثة — قال القاضي أبو بكر بن العربي : في هذا الحديث نكتة عظيمة تقسم الظهور ،
وهي أنه عليه السلام قال : * لم يكذب إبراهيم إلا في ثلاث كذبات ثنتين مآحل بهما عن
دين الله وهما قوله « إني سقيم » وقوله « بل فعله كبيرهم » « ولم يعد [قوله] هذه إختي
في ذات الله تعالى وإن كان دفع بها مكروها ، ولكنه لما كان لإبراهيم عليه السلام فيها حفظ
من صيانة فراشه وحماية أهله ، لم يجعلها في ذات الله ؛ وذلك لأنه لا يجعل في جنب الله وذاته
إلا العمل الخالص من شوائب الدنيا ، والمعارض التي ترجع إلى النفس إذا خلصت للدين
كانت لله سبحانه ، كما قال : « أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ » . وهذا لو صدر منا لكان لله ، لكن
مترلة لإبراهيم اقتضت هذا . والله أعلم .

الرابعة — قال علماؤنا : الكذب هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه . والأظهر
أن قول إبراهيم فيما أخبر عنه عليه السلام كان من المعارض ، وإن كانت معارض وحسنات
ومججها في الخلق ودلالات ، لكنها أثرت في الرتبة ، وخفضت عن عهد المترلة ، واستحيا منها
قائلها ، على ما ورد في حديث الشفاعة ؛ فإن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم إجلالا
لله ؛ فإن الذي كان يليق بمجربته في النبوة والخلة ، أن يصدق بالحق ويصرح بالأمر كما كان ،
ولكنه رخص له فقبل الرخصة فكان ما كان من القصة ؛ ولهذا جاء في حديث الشفاعة
« إنما أخذت خليلي من وراءه وراء » بنصب وراء فيهما على البناء تكسمة عشر ، وكما قالوا

(١) راجع ج ٧ ص ٢٥ ما بعدها طيبة أو قافية .

(٢) الزيادة من « أحكام القرآن » لابن العربي .

جَارِي يَتَّيْت . ووقع في بعض نسخ مسلم " من وراء من وراء " بإعادة من ، وحينئذ لا يجوز البناء على الفتح ، وإنما يبقى كل واحد منهما على الضم ؛ لأنه قطع عن الإضافة ونوى المضاف كقول وبد ، وإن لم ينو المضاف أعرب ونون غير أن وراء لا يتصرف ؛ لأن ألفه للتانيث ؛ لأنهم قالوا في تصغيرها وريبة ؛ قال الجوهري : وهي شاذة . فعل هذا يصح الفتح فيهما مع وجود « ين » فيهما . والمعنى إلى كنت خيلا متأثرا عن غيري . ويستفاد من هذا أن التثنية لم تصح بكلاما إلا لمن صح له في ذلك اليوم المقام المحمود كما تقدم . وهو نيتنا محمد صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ١١٠ ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿ ١١١ ﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿ ١١٢ ﴾ أَفَلَا تَكُفِّرُ وَلَمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿ ١١٣ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ أى رجع بعضهم إلى بعض رجوع المنقطع عن حجه ، المنقطع لصحة حجة خصمه . ﴿ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أى عبادة من لا ينطق بلفظة ، ولا يملك نفسه لحظة ، وكيف ينفع عابديه ويدفع عنهم البأس ، من لا يريد عن رأسه الفأس . قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ ﴾ أى عادوا إلى جهلهم وعبادتهم فقالوا : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ ﴿ قَالَ ﴾ قاطعا لما به يهذون ، ومفهما لهم فيما يتقولون ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ . أف لكم ﴿ أى التثنية لكم ﴾ ﴿ وَلَمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ . وقيل : ﴿ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ ﴾ أى طأطأوا رؤوسهم نخلا من إبراهيم ، وفيه نظر ؛ لأنه لم يقل نكسوا رؤوسهم ، بفتح الكاف بل قال ﴿ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ ﴾ أى ردوا على ما كانوا عليه في أول الأمر ، وكذا قال ابن عباس ، قال : أدركهم الشقاء فعادوا إلى كفرهم .

قوله تعالى : قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾
 قُلْنَا يَبْنَازُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : (قَالُوا حَرِّقُوهُ) لما أقطعوا بالحجة أخذتهم عزة بإثم وانصرفوا إلى طريق
 التَّشَمُّ والتَّغْلِبَة وقالوا حرقوه . روى أن قائل هذه المقالة هو رجل من الأكراد من أعراب
 فارس ، أى من باديتها ، قاله ابن عمر ومجاهد وابن جريج . ويقال : اسمه هيزر نخسف الله
 به الأرض ، فهو يتجمل فيها إلى يوم القيامة . وقيل : بل قاله ملكهم نمrod . (وَانصُرُوا
 آلِهَتَكُمْ) بتعريق إبراهيم لأنه يسبها ويعيبها . وجاء في الخبر : أن نمrod بنى صرحا طوله ثمانون
 ذراعا وعرضه أربعون ذراعا . قال ابن إسحق : وجعوا الحطب شبرا ثم أوقدها ، واشتعلت
 واشتدنت ، حتى أن كان الطائر يمر ببجباتها فيحترق من شدة وهجها . ثم قيدوا إبراهيم ووضعوه
 في المنجنيق مفلولا . ويقال : إن إبليس صنع لهم المنجنيق يومئذ . فضجت السموات
 والأرض ومن فيهن من الملائكة وجميع الخلق ، إلا الثقلين حجة واحدة : ربنا ! إبراهيم ليس
 في الأرض أحد يعبدك غيره يحرق فيك فأذن لنا في نصرته . فقال الله تعالى : « إن استغاث
 بشئ منكم أو دعاه فلينصره فقد أذنت له في ذلك وإن لم يدع غيره فأنا أعلم به وأنا وليه »
 فلما أرادوا إلقاءه في النار ، أناه نُزُلُ المَاء — وهو في الهواء — فقالوا : يا إبراهيم إن أردت
 أنحمدا النار المَاء . فقال : لا حاجة لي إليكم . وأناه ملك الريح فقال : لو شئت وليرت
 النار . فقال : لا . ثم رفع رأسه إلى السماء فقال : « اللهم أنت الواحد في السماء وأنا
 الواحد في الأرض ليس أحد يعبدك غيري حسبي الله ونعم الوكيل » . وروى ابنُ بكب
 رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ^١ « إن إبراهيم حين قيدوه ليلقوه في النار قال
 لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك لك » قال : ثم رموا به
 في المنجنيق من مضرب شامع ، فأستقبله جبريل ، فقال : يا إبراهيم ألك حاجة ؟ قال : « أنا
 إليك فلا » . فقال جبريل : فأسأل ربك . فقال : « حسبي من سؤال علمه بحالي » . فقال

(١) وقيل : اسمه « هيزر » كما في تاريخ الطبري وتفسيره . وقيل : « هيزر » .

الله تعالى وهو اصدق الفاتنين : (يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ) قال بعض العلماء :
 جعل الله فيها بردا يرفع حرها ، وحررا يرفع بردها ، فصارت سلاما عليه . قال أبو العالية : ولو
 لم يقل « بَرْدًا وَسَلَامًا » لكان بردها أشد عليه من حرها ، ولو لم يقل « على إبراهيم » لكان
 بردها باقيا على الأبد . وذكر بعض العلماء : أن الله تعالى أنزل زريبة^(١) من الجنة فبسطها
 في الجحيم ، وأنزل الله ملائكة : جبريل وميكائيل وملاك البرد وملك السلامة . وقال علي وابن
 عباس : لو لم ينجع بردها سلاما لمات إبراهيم من بردها ، ولم تبقى يومئذ نار إلا طفت ظنت
 أنها تنفي . قال السدي : وأمر الله كل عود من شجرة أن يرجع إلى شجره ويطرح ثمرته . وقال
 كعب وقتادة : لم تحرق النار من إبراهيم إلا وثاقه . فأقام في النار سبعة أيام لم يقدر أحد أن
 يقرب من النار ، ثم جاءوا فإذا هو قائم يصلي . وقال المنهال بن عمرو قال إبراهيم : « ما كنت
 أيما فط أنعم مني في الأيام التي كنت فيها في النار » . وقال كعب وقتادة والزهري : ولم
 تبقى يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار إلا الوزغ فإنها كانت تنفخ عليه ؛ فذلك أمر رسول
 الله صلى الله عليه وسلم يلقها وسماها فويسقه . وقال شعيب الجفائي : ألقى إبراهيم في النار وهو
 ابن ست عشرة سنة . وقال ابن جريج : ألقى إبراهيم في النار وهو ابن ست وعشرين سنة .
 ذكر الأول العلوي ، والثاني الماوردي ؛ فافقه أعلم . وقال الكلبي : بردت نيران الأرض
 جميعا لما أضجعت كراعا ، فراه نمرد من الصرح وهو جالس على السرير يؤنسه ملك الظل .
 فقال : نعم الرب ربك ! لأمرين له أربعة آلاف بقرة وكف عنه .

قوله تعالى : وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ
 وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ
 وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ
 بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا
 لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾

(١) الزريبة : اللقطة ، وقيل : البساط ذو الخلل ، وزايا ملطحة .

قوله تعالى : ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ أى أراد عمرو وأصحابه أن يمكروا به ﴿بَقَطْنَاهُمْ
 الْأَفْخَرِينَ﴾ فى أعمالهم ، ورددنا مكرم عليهم بتسليط أضعف خلقنا . قال ابن عباس : سلب الله
 عليهم أضعف خلقه البعوض ، فسا برح عمرو حتى رأى عظام أصحابه وخيله تلوح ، أكلت
 لحومهم وشربت دماهم ، ووقعت واحدة فى منخره فلم تزل تاكل إلى أن وصلت دماغه ،
 وكان أكرم الناس عليه الذى يضرب رأسه بمزبة من حديد . فأقام بهذا نحو من أربعمائة سنة .
 قوله تعالى : ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ يريد نجينا إبراهيم
 ولوطا إلى أرض الشام وكانا بالعراق ، وكان [إبراهيم] عليه السلام عمه ، قاله ابن عباس . وقيل :
 لما مباركة لكثرة خصبها وغناها وأنهارها ولأنها معادن الأنبياء . والبركة ثبوت الخير ، ومنه
 برك البعير إذا لم مكانه فلم يرح . وقال ابن عباس : الأرض المباركة مكة . وقيل : بيت
 المقدس ، لأن منها يستأجر الله أكثر الأنبياء ، وهى أيضا كثيرة الخصب والنفى ، عذبة السماء ، ومنها
 يتنشق فى الأرض . قال أبو العالية : ليس ماء مذهب إلا يبط من السماء إلى الصخرة التى بيت
 المقدس ، ثم يتنشق فى الأرض . ونحوه عن كعب الأحبار . وقيل : الأرض المباركة مصر .
 قوله تعالى : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ أى زيادة ، لأنه دعا فى إسحق وزيد
 فى يعقوب من غير دعاء فكان ذلك نافلة ؛ أى زيادة على ما سأل ، إذ قال : «رَبِّ هَبْ لِي
 مِنَ الصَّالِحِينَ» . ويقال لولد الولد نافلة ؛ لأنه زيادة على الولد . ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾
 أى وكلنا من إبراهيم وإسحق ويعقوب جعلناه صالحا عاملا بطاعة الله . وجعلهم صالحين إنما يتحقق
 بخلق الصلاح والطاعة لهم ، وبخلق القدرة على الطاعة ، ثم ما يكتسبه العبد فهو مخلوق لله تعالى .
 قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أى رؤساء يقتدى بهم فى الخير وأعمال
 الطاعات . ومعنى «بِأَمْرِنَا» أى بما أزلنا عليهم من الوحي والأمر والنهي ، فكانه قال
 يهدون بكنا . وقيل : المعنى يهدون الناس إلى ديننا بأمرنا بإيادهم بإرشاد الخلق ، ودعائهم
 إلى التوحيد . ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ أى أن يفعلوا الطاعات . ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ
 وَآتَى الزَّكَاةَ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ أى مطيعين .

(١) سبق أننبأنا على أن ابن عباس يكذب عليه بنسب الزهراء . (٢) فى الأصل : «لوط» وهو محرّف .

قوله تعالى : «وَلَوْطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَحْشَاءَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوِئٍ فَسِيقِينَ ﴿٧٦﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٧﴾»

قوله تعالى : «(وَلَوْطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا)» «لوطا» منصوب بعمل مضمحل دل عليه الثاني ؛ أى وآتيناه لوطا آتيناه . وقيل . أى وأد كر لوطا . والحكم النبوة ، والسلم المعرفة بأمر الدين وما يقع به الحكم بين الخصوم . وقيل : «علمًا» فهما ؛ والمعنى واحد . «(وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَحْشَاءَ)» يريد سدوم . ابن عباس : كانت سبع قرى ، قلب جبريل عليه السلام ستة وأبني واحدة للوط وعباله ، وهى زغر التى فيها الثمر من كورة فلسطين إلى حد السراة ؛ وطى قرى كثيرة إلى حد بحر الحجار . وفى النجاشى التى كانوا يعملونها قولان : أحدهما - اللواط على ما تقدم . والثانى - الضراط ؛ أى كانوا يتضارطون فى ناديم وبجالسهم . وقيل : الضراط وحذف المعنى وسبأى . «(إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوِئٍ فَاسِيقِينَ)» أى خارجين عن طاعة الله ، والفسوق الخروج وقد تقدم . «(وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا)» فى النبوة . وقيل : فى الإسلام . وقيل : الجنة . وقيل : عنى بالرحمة إيجاء من قومه «(إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)» .

قوله تعالى : «وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٨﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوِئٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٩﴾»

قوله تعالى : «(وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ)» أى وأد كر نوحا إذ نادى ؛ أى دعا . «مِن قَبْلُ» أى من قبل إبراهيم ولوط على قومه ، وهو قوله : «رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا» وقال لما كبوه : «أَتَىٰ مَقْلُوبٌ فَأَنْتَصِرُ» . «(فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ)» أى من الترق ، والكرب التهم الشديد «وَأَهْلُهُ» أى المؤمنين منهم . «(وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا)» قال أبو عبيدة : «من» بمعنى على . وقيل : المعنى فاستقمنا له . «(فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ)» أى الصنبر قتلهم والكبير .

قوله تعالى : وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفِثَتْ فِيهِ
فَتَنُ الْقَوْمِ وَكَأُفَ لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا
حُكْمًا وَعَلَّمْنَا خَيْرَنَا مَعَ دَاوُدَ الْجَبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرُ وَكَأُفَ لِفِعْلِيلِنَ ﴿٧٩﴾

فيه ست وعشرون مسألة :

الأولى - قوله تعالى : (وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ) أى وأذ كرهما إذ يحكما ، ولم
يرد بقولاً « إِذْ يَحْكُمَانِ » الاجتماع فى الحكم وإن جمعهما فى القول ؛ فإن حكيم على حكم واحد
لا يجوز . وإنما حكم كل واحد منهما على آخره ؛ وكان سليمان الفاهم لما يفهم الله تعالى
أياه . (فى الْحَرْثِ) اختلف فيه على قولين : فقبل : كان زرعاً ، قاله قتادة . وقيل :
كرماً بنتت عنايقه ؛ قاله ابن سعد وشرح . و « الْحَرْث » يقال فيها ، وهو فى الزرع
أبعد من الاستقامة .

الثانية - قوله تعالى : (إِذْ نَفِثَتْ فِيهِ فِتْنُ الْقَوْمِ) أى رمت فيه ليلاً ، والنفس
الزرى الليل . يقال : نفثت الليل ، وملت بالنهار ، إذا رمت بلا راج . واهتمها صاحبها .
وإبلُ فُتَّش . وفى حديث عبد الله بن عمرو : الحبة فى الجنة مثل كرش البعير بيت نافس ؛
أى راعياً ؛ حكاه المازوى . وقال ابن سيده : لا يقال الحمل فى الفم ، وإنما هو فى الإبل .
الثالثة - قوله تعالى : (وَكَأُفَ لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ) دليل على أن أقل الجمع آثان .
وقيل : المراد الحكمان والمحكوم عليه ؛ لذلك قال « ليحكمهم » .

الرابعة - قوله تعالى : (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ) أى فهمناه القضية والحكمة ، فكفى عنها
إذ سبق ما يدل عليها . وفضل حكم سليمان حكم أبيه فى أنه أحرز أن يبقى كل واحد منهما على
مناعه ، وتبقى نفسه طيبة بذلك ؛ وذلك أن داود عليه السلام رأى أن يدفع النعم إلى صاحب
الحِث . وقالت فرقة : بل دفع النعم إلى صاحب الحِث ، والحِث إلى صاحب النعم .
قال ابن عطية : فيشبه على القول الواحد أنه رأى النعم تقادم الغلة التى أنسدت . وعلى القول

الثاني رأها حوام الحرت وقلة؛ فلما نرج الحصان على سليمان وكان ينس على الباب الذي يخرج منه النعوم، وكانوا يدخلون إلى داود من باب آخر فقال: بم قضى يسكن بني الله داود؟ فقال: قضى بالنعم لصاحب الحرت. فقال لعل الحكم غير هذا أصرفا مني. فأتى أباه فقال: يا بني الله إنك حكمت بكنا وكذا وإن رأيت ما هو أرفق بالجميع. قال: وما هو؟ قال: ينبغي أن تدفع النعم إلى صاحب الحرت فيبتاع بالإنها وسمونها وأصوافها، وتدفع الحرت إلى صاحب النعم ليقوم عليه، فإذا عاد الزرع إلى حاله التي أصابته النعم في السنة المقبلة، رد كل واحد منهما ماله إلى صاحبه. فقال داود: وفقت يا بني لا يقطع الله فمك. وقضى يسا قضى به سليمان؛ قال معناه ابن مسعود ومجاهد وغيرهما. قال الكاظمي: قوم داود النعم والحكم للنعم أفسدته النعم فكانت التيمتان سواء، فدفع النعم إلى صاحب الكرم. وهكذا قال النحاس؛ قال: إنما قضى بالنعم لصاحب الحرت؛ لأن ثمنها كان قريبا منه. وأما في حكم سليمان فقد قيل: كانت قيمة ما قال من النعم وقيمة ما أفستت النعم سواء أيضا.

لنفاضة - قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ فأول قوم أن داود عليه السلام لم يخطئ في هذه النازلة، بل فيها أولى الحكم والدم. وحلوا قوله: «نَقَهْمَتَاهَا سُلَيْمَانٌ» على أنه فضيلة له على داود وفضيلته راجعة إلى داود، والوالد تسره زيادة ولده عليه. وقالت فرقة: بل لأنه لم يصب العين المطلوبة في هذه النازلة، وإنما مدحه الله بأن له حكما وعاما يرجع إليه في غير هذه النازلة. وأما في هذه فأصاب سليمان وأخطأ داود عليهما الصلاة والسلام، ولا يتمتع وجود الغلط والخطأ من الأنبياء كوجوده من غيرهم، لكن لا يقفون عليه، وإن أقر عليه غيرهم. ولما هدم الوليد كنيسة دمشق كتب إليه ملك الروم: إنك هدمت الكنيسة التي رأى أبوك تركها، فإن كنت مصيبا فقد أخطأ أبوك، وإن كان أبوك مصيبا فقد أخطأت أنت؛ فأجابته الوليد: «وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتِ فِيهِ غَمَّ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ. نَفَقَتَاهَا سُلَيْمَانٌ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا». وقال قوم: كان داود وسليمان - عليهما السلام - يتوبن بفضيلتهما بما يوصي إليهما، فحكم داود يوصي،

وحكم سليمان يرضى نسخ الله به حكم داود، وكل هذا قهراً مسلطاً . أي بطريق الوسع
 الناجح لبا أوصى إلى داود ، وأمر سليمان أن يبلغ ذلك داود ، ولهذا قال : « وَكَلَّا آتَيْنَا
 حُكْمًا وَرِسَالًا » . هنا قول جماعة من العلماء ومنها ابن فورك . وقال الجمهور : إن حكمها
 كان بجهتها وهي :

السابعة - وأختلف العلماء في جواز الاجتهاد على الأنبياء فمنه قوم ، وجوزه
 المحققون ، لأنه ليس فيه اضطالة غلبة ، لأنه دليل شرعي فلا إشكال أن يستدل به الأنبياء ،
 كما لو قال له الله سبحانه وتعالى : إنا قلب كل ظلك كذا فاقطع بأن ما قلب كل ظلك هو حكمي
 لبقية الأمة ، فهذا غير مستحيل في العقل ، فإن قيل : إنما يكون دليلاً إذا عدم النص وهم
 لا يندمونه . قلنا : إذا لم يزل ذلك فقد عدم النص عندهم ، وصاروا في البحث كغيرهم من
 المجتهدين من معاني النصوص التي عندهم ، والفرق بينهم وبين غيرهم من المجتهدين أنهم معصومون
 عن الخطأ ، وعن الغلط ، ومن التفسير في اجتهادهم ، وغيرهم ليس كذلك . كما ذهب الجمهور
 في أن جميع الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون عن الخطأ والغلط في اجتهادهم . وذهب
 أبو علي ابن أبي حمزة من أصحاب الشافعي إلى أن نبينا صلى الله عليه وسلم مخصوص منهم
 في جواز الخطأ عليهم ، وفرق بينه وبين غيره من الأنبياء أنه لم يكن بعده من يستدرك غلطه ،
 ولذلك عصمه الله تعالى منه ، وقد بحث بعد غيره من الأنبياء من يستدرك غلطه . وقد قيل :
 إنه على العموم في جميع الأنبياء ، وأن نبينا وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم في تجوز الخطأ
 على سواه إلا أنهم لا يقرون على إضائه ، فلم يعتبر به استدراك من بعدهم من الأنبياء .
 هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سأله امرأة عن العدة فقال لها : « آخذى حيث
 شئت » ثم قال لها : « أمكني في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله » . وقال له رجل : أرايت
 إن قُتِلت صعباً مجتنباً أيجزى عن الجنة شيء ؟ فقال : « لا » ثم دناه فقال : « إلا الدين
 كذا أخبرني جبريل عليه السلام » .

السابعة - قال الحسن : لولا هذه الآية لأريت القضاة حكموا ، ولكنه تعالى أثنى
 على سليمان بصوابه ، وعذر داود باحتياده . وقد اختلف الناس في المجتهدين في الفروع إذا

أختلقت؛ وقالت فرقة : الحق في طرف واحد عند الله، وقد نصب على ذلك أدلة، وحمل
 المجتهدين على البحث عنها، والنظر فيها، فمن صادف العين المطلوبة في المسئلة فهو المصيب
 على الإطلاق، وله أجران أجر في الاجتهاد وأجر في الإصابة، ومن لم يصادفها فهو مصيب
 في اجتهاده مخطئ في أنه لم يصب العين فله أجر وهو غير معذور. وهذا سليمان قد صادف
 العين المطلوبة، وهي التي فهم. ورأت فرقة أن العالم المخطئ لا إثم عليه في خطئه وإن كان
 غير معذور. وقالت فرقة : الحق في طرف واحد ولم ينصب الله تعالى عليه دلالة [بل] وكل
 الأمر إلى نظر المجتهدين فمن أصابه أصاب ومن أخطأ فهو معذور مجبور، ولم يتبدل بإصابته
 الدين بل تبسنا بالاجتهاد فقط. وقال جمهور أهل السنة وهو المحفوظ عن مالك وأصحابه
 رضى الله عنهم : إن الحق في مسائل الفروع في الطرفين، وكل مجتهد مصيب، والمطلوب
 إنما هو الأفضل في ظنه، وكل مجتهد قد أداه نظره إلى الأفضل في ظنه، والدليل على هذه
 المقالة أن الصحابة ممن بعدهم فزرو بعضهم خلاف بعض، ولم ير أحد منهم أن يقع الاحتمال
 على قوله دون قول مخالفه. ومنه رد مالك رحمه الله للنسور أبي جعفر عن حمل الناس على
 «الموطأ»؛ فإذا قال عالم في أمر حلال فذلك هو الحق فيما يختص بذلك العالم عند الله تعالى
 وبكل من أخذ بقوله، وكذا في العكس. قالوا : وإن كان سليمان عليه السلام فهم القضية
 المثلى والتي هي أرجح فالأولى ليست بخطأ، وعلى هذا يحملون قوله عليه السلام : «إذا اجتهد
 العالم فأخطأ» أى فأخطأ الأفضل.

الثامنة - روى مسلم وغيره عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله صلى الله عليه
 وسلم قال : «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله
 أجر» هكذا نلفظ الحديث في كتاب مسلم «إذا حكم فاجتهد» فبدأ بالحكم قبل الاجتهاد،
 والأمر بالعكس؛ فإن الاجتهاد مقدم على الحكم، فلا يجوز الحكم قبل الاجتهاد بالإجماع.
 وإنما معنى هذا الحديث : إذا أراد أن يحكم، كما قال : «فإذا قرأت القرآن فاستمعوا له

ذلك أراد أن يمتهد في النازلة . ويفيد هذا صحة ما قاله الأصوليون : إن المجتهد يجب عليه أن يمسد نظرا عند وقوع النازلة ، ولا يعتمد على اجتاده المتقدم لإمكان أن يظهر له ثانياً خلاف ما ظهر له أولاً ، اللهم إلا أن يكون ذا كبراً زكراً اجتاده ، مائلاً إليه ، فلا يحتاج إلى استئناف نظري في أمارة أخرى .

التاسعة — إنما يكون الأجر للعالم المخطئ إذا كان عالماً بالاجتهاد والسنن والقياس ، وقضاء من مضي ؛ لأن اجتاده عبادة ولا يؤجر على الخطأ بل يوضع عنه الإثم فقط ، فاما من لم يكن محالاً للاجتاده فهو متكف لا يسدر بالخطأ في الحكم ، بل يذنب عليه أعظم الوزر . يدل على ذلك حديثه الآخر ؛ رواه أبو داود : " النضاة ثلاثة " الحديث . قال ابن المنذر : إنما يؤجر على اجتاده في طلب الصواب لا على الخطأ ، وبما يؤيد هذا قوله تعالى : « ففهمناها سليمان » الآية . قال الحسن : أتى على سليمان ولم يذم داود .

العاشرة — ذكر أبو التمام المالكي أن مذهب مالك أن الحق في واحد من أقوال المجتهدين ، وليس ذلك في أقوال المختلفين ، وبه ذل أكثر الفقهاء . قال : وحكى ابن القاسم أنه سأل مالكا عن اختلاف الصحابة ، فقال : مخطئ ومصيب ، وليس الحق في جميع أقوالهم . وهذا القول قيل : هو المشهور عن مالك وإليه ذهب محمد بن الحسين . واحتج من قال هذا بحديث عبد الله بن عمرو ؛ قالوا : وهو نص على أن في المجتهدين ربي الخاكين مخطئا ومصيبا ؛ قالوا : والقول بأن كل مجتهد مصيب يؤدى إلى كون الشيء حلالا حراما ، وواجبا ندبا . واحتج أهل المقالة الأولى بحديث ابن عمر .

قال : نادى فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم انصرف من الأحزاب " ألا لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة " فتخوف ناس دوت الوقت فصلوا دون بني قريظة ، وقال الآخرون : لا يصل إلا حيث أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن فاتنا الوقت ، قال : فما عنف واحدا من الرishين ؛ قالوا : فلو كان أحد الفريقين غطلا لعينه النبي صلى الله عليه وسلم . ويمكن أن يقال : لعله إنما سكت عن تعيين المخطئين لأنه غير آثم بل ماجور ؛

فاستغنى عن تمييزه . والله أعلم . ومسئلة الاجتهاد طويلة متشعبة ، وهذه النبهة التي ذكرناها كافية في معنى الآية ، والله الموفق للهداية .

الحادية عشرة - ويتعلق بالآية فصل آخر : وهو رجوع الحاكم بعد قضائه من اجتهاده إلى اجتهاد آخر أريج من الأول ؛ فإن داود عليه السلام فعل ذلك . وقد اختلف في ذلك علماءنا رحمهم الله تعالى ؛ فقال عبد الملك ومطرف في « الواضحة » : ذلك له ما دام في ولايته ؛ فاما إن كانت ولاية أخرى فليس له ذلك ، وهو بمسئلة غيره من القضاة . وهذا هو ظاهر قول مالك رحمه الله في « المدونة » . وقال سحنون في رجوعه من اجتهاد فيه قول إلى غيره مما رآه أصوب ليس له ذلك ؛ وقاله ابن عبد الحكم . قالوا : ويستأنف الحكم بما قوى عنده . قال سحنون : إلا أن يكون نسي الأئوى عنده في ذلك الوقت ، أو وهم لحكم بغيره فله نقضه ؛ وأما إن حكم بحكم هو الأئوى عنده في ذلك الوقت ثم قوى عنده فيه بعد ذلك فلا سبيل إلى تنقض الأول ؛ قاله سحنون في كتاب أبسه . وقال أشهب في كتاب ابن المواز : إن كان رجوعه إلى الأصوب في مال فله تنقض الأول ، وإن كان في طلاق أو نكاح أو عتق فليس له نقضه .

قلت : رجوع القاضى عما حكم به إذا تبين له أن الحق في غيره ما دام في ولايته أولى . وهكذا في رسالة عمر إلى أبي موسى رضى الله عنهما ؛ رواها الدارقطنى ، وقد ذكرناها في « الأعراف » ولم يفصل ؛ وهى انجبة لظاهر قول مالك . ولم يختلف العلماء أن القاضى إذا قضى بمخلاف أهل العلم فهو مبرور ، وإن كان على وجه الاجتهاد ؛ فاما أن يتعقب قاض حكم قاض آخر فلا يجوز ذلك له ؛ لأن فيه مضرة عظمى من جهة تنقض الأحكام ، وتبديل الحلال بالحرام ، وعدم ضبط قوانين الإسلام ، ولم يتعرض أحد من العلماء لنقض ما رواه الآس ، وإنما كان يحكم بما ظهر له .

الثانية عشرة - قال بعض الناس : إن داود عليه السلام لم يكن أنفذ الحكم وظهر له ما قال غيره . وقال آخرون : لم يكن حكما وإنما كانت قبا

قلت : وهكذا نؤول فيما رواه أبو هريرة عنه عليه السلام أنه قال : بينا أسراطان موهما
أبناهما جاء الذئب فذهب بأبى إحداهما ، فقالت هذه لصاحبتها : إنما ذهب بأبىك أنت .
وقالت الأخرى : إنما ذهب بأبىك ، فتعكنا إلى داود ، ففضى به للكبرى ؛ فخرجنا على
سليمان بن داود عليهما السلام فأخبرناه ؛ فقال : أئترنى بالسكين أشقه بينكما ؛ فقالت الصغرى :
لا — يرحمك الله — هو أبنا ؛ ففضى به للصغرى ؛ قال أبو هريرة : إن سميتُ بالسكين
قط إلا يومئذ ، ما كنا نقول إلا المذبة ؛ أخرجه مسلم . فاما القول بأن ذلك من داود فبما هو
ضعيف ؛ لأنه كان النبي — صلى الله عليه وسلم — وفتياه حكم . وأما القول الآخر فبما هو
لأنه تعالى قال : « إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ » فين أن كل واحد منهما كان قد حكم . وكذا
قوله في الحديث : ففضى به للكبرى ؛ يدل على إفاذ القضاء وإنجازه . ولقد أبدع من قال :
إنه كان من شرع داود أن يحكم به للكبرى من حيث هي كبرى ؛ لأن الكبر والعصر طرد
محض عند الدعاوى كالطول والقصر والسواد واليباض وذلك لا يوجب ترجيح أحد المتداعين
حتى يحكم له أو عليه لأجل ذلك . وهو لما يقطع به من فهم ما جاءت به الشرائع . والذي
ينبغي أن يقال : إن داود عليه السلام إنما فضى به للكبرى لسبب اقتضى عنده ترجيح قولها .
ولم يذكروا في الحديث تعيينه إذ لم تدع حاجة إليه ، ويمكن أن الولد كان بيدها ، ولم يحز الأخرى
من إقامة البينة ؛ ففضى به لها إبقاء لما كان على ما كان . وهذا التأويل أحسن ما قيل في هذا
الحديث . وهو الذي تشهد له قاعدة الدعاوى الشرعية التي يبعد اختلاف الشرائع فيها . لا يقال :
فإن كان داود قضى بسبب شرعي فكيف ساع سليمان نقض حكمه ؛ فالجواب : أن سليمان عليه
السلام لم يتعرض لحكم أبيه بالنقض ، وإنما أحتال حيلة لطيفة ظهر له بسببها صدق
الصغرى ؛ وهي أنه لما قال : هات السكين أشقه بينكما ، قالت الصغرى : لا ؛ فظهر له من
قرينة اللطفة في الصغرى ، وعدم ذلك في الكبرى ، مع ما عساه أنضاف إلى ذلك من القرائن
ما حصل له العلم بصدقها فحكم لها . ولعله كان ممن سوغ له أن يحكم بعلمه . وقد ترجم
النسائي على هذا الحديث « حكم الحاكم بعلمه » . وترجم له أيضا « السعة للحاكم أن ينول

للشيء الذي لا يفعله أفضل ليستبين الحق . وترجم له أيضا « تقضى الحاكم لا يحكم به غيره من هو مثله أو أجل منه » . ولعل الكبرى أقرئت بأن الولد للصغرى عند ما رأت من سليمان الحزم والجد في ذلك ، فقضى بالولد للصغرى ، ويكون هذا كما إذا حكم الحاكم باليمين ، فلما مضى ليحلف حضر من استخرج من المنكر ما أوجب إقراره ، فإنه يحكم عليه بذلك الإقرار قبل اليمين وبمدها ، ولا يكون ذلك من باب تقضى الحكم الأول ، لكن من باب تبدل الأحكام بحسب تبدل الأسباب . والله أعلم . وفي هذا الحديث من الفقه أن الأبناء سوغ لهم الحكم بالاجتهاد ، وقد ذكرناه . وفيه من الفقه استعمال الحكام الحيل التي تستخرج بها الحقوق ، وذلك يكون عن قوة الذكاء والنطنة ، وممارسة أحوال الخلق ، وقد يكون في أهل الثغرى فراسة دليقة ، وتوصيات نورية ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . وفيه الجملة لمن يقول : إن الأمم مُستلحق ، وليس مشهور مذهب مالك ، وليس هذا موضع ذكره . وعلى الجملة ففضاضة سليمان في هذه القصة تضمنها مدحه تعالى له بقوله : « فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ » .

الثالثة عشرة - قد تقدم القول في الحرث والحكم في هذه الواقعة في شرعنا : أن أهل الحوافظ حفظ حيطانهم وزروعهم بالنهار ، ثم الضياع في الليل بالملطيات ، والقيمة في ذوات القيم . والأصل في هذه المسئلة في شرعنا ما حكم به نبينا صلى الله عليه وسلم في ناقة البراء بن عازب . رواه مالك عن ابن شهاب عن حرام بن سعد بن حبيصة : أن ناقة للبراء دخلت حائط رجل فأفسدت فيه ، فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن على أهل الحوافظ حفظها بالليل ، وأن ما أفسدت المواشي بالليل ضامن^(١) على أهلها . هكذا رواه جميع الرواة مرسلًا . وكذلك رواه أصحاب ابن شهاب عن ابن شهاب ، إلا ابن عيينة فإنه رواه عن الزهري عن سديد وحرام بن سعد بن حبيصة : أن ناقة ، فذكر مثله بمناه . ورواه ابن أبي ذئب عن ابن شهاب أنه بلغه أن ناقة البراء دخلت حائط قوم ، مثل حديث مالك سواء ، إلا أنه لم يذكر حرام بن سعد بن حبيصة ولا غيره . قال أبو عمر : لم يصنع ابن أبي ذئب

(١) ضامن بمعنى مضمون .

شيئا، إلا أنه أنسد إسناده . ورواه عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن حرام بن عبيدة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يتابع عبد الرزاق على ذلك وأنكروا عليه قوله عن أبيه . ورواه ابن جريح عن ابن شهاب قال : حدثني أبو أمامة بن سهل بن حنيف أن ناقة دخلت في حائط قوم فأنفست؛ فجعل الحديث لابن شهاب عن أبي أمامة، ولم يذكر أن الناقة كانت للبراء . وجائز أن يكون الحديث عن ابن شهاب عن ابن حنيفة، وعن سعيد بن المسيب، وعن أبي أمامة — والله أعلم — . فحدثت به عن شاء منهم على ما حضره وكلمهم ثقات . قال أبو عمر : وهذا الحديث وإن كان مرسلًا فهو حديث مشهور أرسله الأئمة، وحدثت به الثقات، وأستعمله فقهاء الحجاز وتلقوه بالقول، وجرى في المدينة العمل به، وحسبك باستعمال أهل المدينة وسائر أهل الحجاز لهذا الحديث .

الرابعة عشرة — ذهب مالك وجمهور الأئمة إلى القول بمحدث البراء، وذهب أبو حنيفة وأصحابه وجماعة من الكوفيين إلى أن هذا الحكم منسوخ، وأن البهائم إذا أنسدت زرها في ليل أو نهار أنه لا يلزم صاحبها شيء، وأدخل نساها في عموم قوله صلى الله عليه وسلم : «جرح العجاء جبار» ففاس جميع أعمالنا على جرحها . ويقال : إنه ما تقدم أبا حنيفة أحد بهذا القول، ولا حجة له ولا لمن أتبعه في حديث العجاء، وكونه ناسخًا لحديث البراء ومعارضًا له؛ فإن النسخ شرطه مدومة، والتعارض إنما يصح إذا لم يمكن استعمال أحدهما إلا بنفى الآخر، وحديث «العجاء جرحها جبار» عموم متفق عليه، ثم خص منه الزرع والحوائط بمحدث البراء؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لو جاء عنه في حديث واحد : العجاء جرحها جبار نهارًا ليلًا وفي الزرع والحوائط والحراث، لم يكن هذا مستحيلًا من القول؛ فكيف يجوز أن يقال في هذا متعارض؟ وإنما هذا من باب العموم والخصوص على ما هو مذكور في الأصول .

الخامسة عشرة — إن قيل : ما الحكمة في تفريق الشارع بين الليل والنهار، وقد قال الليث بن سعد : يضمن أرباب المواشي بالليل والنهار كل ما أنسدت، ولا يضمن أكثر من قيمة الماشية ؟ قلنا : الفرق بينهما واضح، وذلك أن أهل المواشي لهم ضرورة إلى إرسال

مواشيهم ترمى بالنهار، والأغلب عندهم أن من عنده زرع يتعاهده بالنهار ويحفظه عن أراذه، بفعل حفظ ذلك النهار على أهل الزرع؛ لأنه وقت التصرف في الماش، كما قال الله سبحانه وتعالى: «وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا» فإذا جاء الليل فقد جاء الوقت الذي يرجع كل شيء إلى موضعه وسكنه، كما قال الله تعالى: «مَنْ إِلَّا غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ لَيْلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ» وقال: «وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا» ويرد أهل المواشي مواشيهم إلى مواضعهم ليحفظوها، فإذا فسرط صاحب الماشية في ردها إلى منزلها، أو فرط في ضبطها وحبسها عن الانتشار بالليل حتى أتلفت شيئا فعليه ضمان ذلك، بغري الحكم على الأوفى بالإسمع، وكان ذلك أرفق بالفريقين، وأسهل على الطائفتين، واحفظ للسالين، وقد وضع الصحيح لدى عينين، ولكن تسليم الحاسنين، وأما قول الليث: لا يضمن أكثر من قيمة الماشية، فقد قال أبو عمر: لا أعلم من أين قال هذا الليث بن سعد، إلا أن يجعله قياسا على البعد الجاني لا يفتك بأكثر من قيمته، ولا يلزم سيده في جانيته أكثر من قيمته، وهذا ضعيف الوجه، كذا قال في «التهديد» وفي «الاستدكار» ثغالب الحديث في «العجاء جرحها جبار» وخالف ناقة البراء، وقد تقدمه إلى ذلك طائفة من العلماء منهم عطاء. قال ابن جريح قلت لعطاء: الحرت تصيبه الماشية ليلا أو نهارا؟ قال: يضمن صاحبها ويغرم. قلت: كان عليه حظرا أو لم يكن؟ قال: نعم! يغرم. قلت: ما يغرم؟ قال: قيمة ما أكل حماره ودابته وماشيته. وقال معمر بن أبى شبرمة: يقوم الزرع على حاله التي أصيب عليها دراهم. وروى عن عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما: يضمن رب الماشية ليلا أو نهارا، من طرق لاتصح.

السادسة عشرة - قال مالك: يقوم الزرع الذي أفسدت المواشي بالليل على الرجاء والخوف. قال: والحوائط التي تحرس والتي لا تحرس، والمحظر عليها وغير المحظر سواء، يغرم أهلها ما أصابت بالليل بالتماما ببلغ، وإن كان أكثر من قيمتها. قال: وإذا أهملت دابة بالليل فوطئت على رجل نائم لم يغرم صاحبها شيئا، وإنما هذا في الحائط والزرع والحرت، ذكره عنه ابن عبد الحكم. وقال ابن القاسم: ما أفسدت الماشية بالليل فهو في مال ربهما،

وإن كان أضعاف ثمنها؛ لأن الجنابة من قبله إذ لم يربطها، وليست الماشية كالبعيد؛ حكاة
محتون وأبو زيد عن ابن القاسم .

السابعة عشرة - ولا يستأنى بالزرع أن ينبت أو لا ينبت كما يفعل في سن الصغير .
وقال ميس عن ابن القاسم : قيمته لو حل بيعه، وقال أشهب وابن نافع في المجموعة عنه : وإن
لم يبد صلاحه، ابن الربيع : والأوّل أقوى لأنها صفة فنقوم كما يقوم كل متلف حل صفته .
الثامنة عشرة - لو لم يقض للفرد له شيء حتى نبت وأنجز فإن كان فيه قبل ذلك
منفعة رعى أو شيء ضمن تلك المنفعة، وإن لم تكن فيه منفعة فلا ضمان . وقال أصمغ :
يضمن ؛ لأن التلف قد تحقق والجبر ليس من جهته فلا يتعد له به .

التاسعة عشرة - وقع في كتاب ابن متهون أن الحديث إنما جاء في أمثال المدينة التي
هي حيطان معدقة، وأما البلاد التي هي زروع متصلة غير محظرة، وبساتين كذلك، فيضمن
أر باب النعم ما أفسدت من ليل أو نهار؛ كأنه ذهب إلى أن ترك تنقيف الحيوان في مثل
هذه البلاد تعد؛ لأنها ولا بد تفسد . وهذا جنوح إلى قول الليث .

المؤبقة عشرين - قال أصمغ في المدينة : ليس لأهل المواشي أن يخرجوا مواشيهم
إلى قرى الزرع بغير ذواد؛ فركب العلماء على هذا أن البقرة لا تخلو أن تكون بقعة زرع،
أو بقعة سرج، فإن كانت بقعة زرع فلا تدخلها ماشية إلا ماشية تجتاح، وعلى أربابها حفظها،
وما أفسدت فصاحبها ضامن ليل أو نهار؛ وإن كانت بقعة مرج فعل صاحب الذي حرّته
فيها حفظه، ولا شيء على أرباب المواشي .

الحادية والعشرون - المواشي على قسمين : ضواري وحريسة وعليهما قسمها مالك .
فالضواري هي المتادة للزرع والثمار، فقال مالك : تُغرب وتباع في بلد لا زرع فيه ؛ رواه
ابن القاسم في الكتاب وغيره . قال ابن حبيب : وإن كره ذلك ربهما ، وكذلك قال مالك
في الدابة التي ضرت في مافساد الزرع : تغرب وتباع . وأما ما يستطاع الاحتراس منه فلا
يؤمر صاحبه بإخراجه .

الثانية والعشرون - قال أصبغ : النحل والحمام والإوز والدجاج كالمشاة ، لا يمنع صاحبها من اتخاذها وإن [صُرِّتْ] ، وعلى أهل القرية حفظ زروعهم . قال ابن العربي : وهذه رواية ضعيفة لا يلتفت إليها من أراد أن يجد ما ينتفع به مما لا يضر بنهر مَكْنٍ منه ، وأما انتفاعه بما يتخذ به يضراره بأحد فلا سبيل إليه . قال عليه السلام : " لا ضرر ولا ضرار " وهذه الضواري عن ابن القاسم في المدينة لاسمأن على أربابها إلا بعد التقدم . ابن العربي : وأرى الضمان عليهم قبل التقدم إذا كانت ضواري .

الثالثة والعشرون - ذكر عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن الشعبي أن شاة وقعت في غزل حائك فاختصموا إلى شُرَيْح ، فقال الشعبي : أنظروه فإنه سيسألكم ليلاً وقعت فيه أو نهاراً ، ففعل . ثم قال : إن كان بالليل ضمن ، وإن كان بالنهار لم يضمن ، ثم قرأ شريح « إِذْ نَفَسْتُمْ فِيهِ غَمُّ الْقَوْمِ » قال : والنفس بالليل والمعمل بالنهار .

قلت : ومن هذا الباب قوله صلى الله عليه وسلم : " المعجاء جرحها جبار " الحديث . وقال ابن شهاب : والجبار المنذر ، والمعجاء البهيمة ، قال عامرنا : ظاهر قوله : " المعجاء جرحها جبار " أن ما انفردت البهيمة بإتلافه لم يكن فيه شيء ، وهذا يجمع عليه . فلو كان معها قائد أو سائق أو راكب فغلبها أحدهم على شيء فأتلفته لزمه حكم المتلف ؛ فإن كانت جنسية مضمونة بالنقصان وكان الجمل عمداً كان فيه القصاص ولا يختلف فيه ؛ لأن الدابة كالآلة . وإن كان عن غير قصد كانت فيه الدية على العاقلة . وفي الأموال الغرامة في مال الجاني .

الرابعة والعشرون - واختلفوا فيمن أصابته رجلها أو ذنبها ، فلم يضمن مالك والليث والأوزاعي صاحبها ، وحنيفة الشافعي وابن أبي ليلى وابن شبرمة . واختلفوا في الضارية بجمهورهم أنها كغيرها ، ومالك وبعض أصحابه يضمنونه .

الخامسة والعشرون - روى مقيان بن حسين عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الرجل جبار " قال الدارقطني : لم يروه

(١) في الأصل : « أضرت » . والتصويب من « الموطأ » .

خبر سفيان بن حسين ولم يتابع عليه، وخالفه الحفاظ عن الزهري منهم مالك وابن عينة ويونس ومعمر وابن جريح والزيدي وعقيل وليث بن سعد، وغيرهم كلهم روه عن الزهري قالوا: " المعجاء جبار والبير جبار والمعدن جبار " ولم يذكروا الرجل وهو الصواب . وكذلك روى أبو صالح السمان، وعبد الرحمن الأعمرج، ومحمد بن سيرين، ومحمد بن زيد وغيرهم عن أبي هريرة، ولم يذكروا فيه " والرجل جبار " وهو المفوظ عن أبي هريرة .

السادة والمثرون - قوله : " والبير جبار " قد روى موضعه " النار " قال البارقي:
حدثنا حمزة بن القاسم الهاشمي حدثنا حنبل بن إسحق قال سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل يقول في حديث عبد الزقاق : حديث أبي هريرة " النار جبار " ليس بشيء لم يكن في الكتاب باطل ليس هو بصحيح ، حدثنا محمد بن مخلد حدثنا إسحق بن إبراهيم بن هاني قال سمعت أحمد بن حنبل يقول : أهل اليمن يكتبون النار النير ويكتبون البير ، يني مثل ذلك . وإنما لقن عبد الزقاق " النار جبار " . وقال الرمادي : قال عبد الزقاق قال معمرا لا أراه إلا وهما . قال أبو عمر : روى عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث معمرا عن همام بن منبه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " النار جبار " وقال يحيى بن معين : أصله البئر ولكن معمرا صحفه . قال أبو عمر : لم يأت ابن معين على قوله هذا بدليل ، وليس هكذا ترد أحاديث الثقات . ذكر وكيع عن عبد العزيز بن حصين عن يحيى بن يحيى السبائي قال : أحرقت رجل ساني قراح له فخرجت شريرة من نار حتى أحرقت شيئا بماره . قال : فكتب فيه إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن يرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " المعجاء جبار " وأرى أن النار جبار . وقد روى " والسائمة جبار " بهذا المعجاء فهذا ما ورد في ألفاظ هذا الحديث ولكل معنى لفظ صحيح مذكور في شرح الحديث وكتب الفقه . قوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ نَعَم دَاوُدَ الْجَبَّالَ يُسَبِّحُنَا ﴾ قال وهب : كان داود يمر بالجبال مسبحا والجبال تجاوبه بالتسبيح ، وكذلك الطير وقيل : كان داود إذا وجد قرة أمر الجبال تسبحت

حتى يفتنك ، ولهذا قال : « وَتَحَرَّاهُ » أى جلتها بحيث تطيعه إذا أمرها بالتسبيح . وقيل :
إن سبعا منه تسبيحا ، والتسبيح مأخوذ من السباحة ، دليله قوله تعالى : « يَا جِبَالُ أَوِّبِي
مَعَهُ » . وقال قتادة : « يُسَبِّحُنَّ » يعانين معه إذا صلى ، والتسبيح الصلاة . وكل محتمل .
وذلك فصل لله تعالى بها ، فكذلك لأن البهائم لا تصلى فتسبىحها دلالة على تزيه الله تعالى عن
صفات الماخذين والمهذبين .

قوله تعالى : وَعَلَّمَنَاهُ صِنْعَةَ لُبِّسٍ لَّكَ لِنُحْصِيكَ مِنْ بَأْسِكَ فَهَلْ
أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٥٠﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَعَلَّمَنَاهُ صِنْعَةَ لُبِّسٍ لَّكَ) بنى آتخاذ اللبس بلاتنة الحديد
« ، واللبس عند العرب السلاح كله ؛ درعا كان أو جوتا أو سيفا أو رمحا . قال المنذل^(١)
صنف رمحا .

وسمى لبوس لبثيس كأنه . رَوَيْتُ بِحَبِيَّةٍ ذِي فَيْحَاجٍ يَجْنِي
وَاللَّبِيسَ كُلَّ مَا لَيْسَ ، وَأَنْشَدَ ابْنُ السَّكَيْتِ :

أَلْبَسَ لِكُلِّ حَالَةٍ لُبُوسَهَا • إِنَّمَا تَمَيَّيْتُهَا وَإِنَّمَا مَابُوسَهَا

وأراد الله تعالى هنا اللبس ، وهو بمعنى اللبوس نحو الزكوب والحلوب . قال قتادة : أول من
صنع للبرص خلود . وإنما كانت صفائح ، فهو أول من سردها وحلقها .

الثانية - قوله تعالى : (لِيُحْصِيَنَّكَ) يعرزم . (مِنْ بَأْسِكَ) أى من حربكم .
وقيل : من السيف والسهم والرمح ، أى من آلة بأسكم لحذف المضاف . ابن عباس :
« مِنْ بَأْسِكُمْ » من سلاحكم . الضحاك : من حرب أعدائكم . والمعنى واحد . وقرأ الحسن

(١) هو أبو كريب المذلل ، وأسمه عامر بن الحليس من قصيدة أرفا :

أزهر هل من شية من سدل • أم لا حيل إلى الشباب الأزل

واللبس : التتجاع . والرزق : القرن . وذو فئاج : معنى ثورا ، والفئاج : البقر من الوحش .

(٢) البيت لبس القرطبي . (٣) « ليحصيكم » بالياء قراءة نافع .

وأبو جعفر وابن طاهر وحفص وروح : « يُخَصِّمُكُمْ » بالهاء دنا على الصفة . وقيل ، على اللبوس والمنعة التي هي الدروع . وقرا شية وأبو بكر والمفضل ورويس وابن أبي إسحق : « يُخَصِّمُكُمْ » بالنون لقوله : « وَمَلَأَهُ » . وقرا الباقون بإيلاء جعلوا الفعل المبرس ، لو يكون المعنى ليخصمكم الله . (فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ) أى على تيسير نعمة الدروع لكم . وقيل : « قُلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ » بأن تطيعوا رسولاً .

الثالثة — هذه الآية أصل في انحطاط الصنائع والأسلح ، وهو قول أهل الفصول والألبياب ، لا قول الحملة الأحياء القائلين بأن ذلك إنما شرع للضعفاء ، فالسبب منه أنه في خلقه لمن طعن في ذلك فقد طعن في الكتاب والسنة ، ونسب من ذكرنا إلى الضعف وعدم المنة . وقد أخبر الله تعالى عن نبيه داود عليه السلام أنه كان يصنع المبروع ، وكان أيضاً يصنع الخوص ، وكان يأكل من عمل يده ، وكان آدم حراثاً ، ونوح نجاراً ، ولقيظ خياطاً ، وطالوت دباغاً . وقيل : سقاء ، فالصناعة يكف بها الإنسان نفسه عن الناس ، ويدفع بها من نفسه الضرر والبأس ، وفي الحديث : « إن الله يحب المؤمن المحترف الضعيف المتعفف » وينص السائل المليف . وهما في هذا مزيد بيان في سورة « الفرقان » . وقد تقدم في غير ما آبه ، وفيه كفاية والمحمد لله .

قوله تعالى : وَلَسَلِمَنَّ الرِّيحُ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِ رَبِّهِ إِلَى الْأَرْضِ
أَتْنِي بَرَكَاتٍ فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ
يَغُوصُونَ لَهُمْ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفِيظِينَ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : (وَلَسَلِمَنَّ الرِّيحُ عَاصِفَةً) أى وسخروا لسيان الريح عاصفة ، أى شديدة المهبوب . يقال منه : عاصفت الريح أى أشدلت فهي ريح حاصفٌ وعصوف . وفي لغة بني أسد : أعاصفت الريح فهي مُعَصِفٌ ومُعَصِفة . والمصِف التبن فسمى به شدة الريح ؛

(١) راجع المصنف للباحث من تفسير قوله تعالى : « وما أرسلنا قبلك من المرسلين ... الخ » آية ٢٠ من سورة المائدة .

لأنها تصفه بشدة تطيرها . وقرا عبد الرحمن الأهرج والسلي وأبو بكر « وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ »
 برفع الحساء على القطع مما قبله ؛ والمعنى ولسليمان تسخير الرِّيح ؛ ابتداء وخبر . « تَجْرِي
 بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا » يعني الشام . يروى أنها كانت تجري به وبأصحابه إلى
 حيث أراد ، ثم ترقه إلى الشام . وقال وهب : كان سليمان بن داود إذا خرج إلى مجلسه
 حككت عليه الطير ، وقام له الجن والإنس حتى يجلس على سريره . وكان أسرا غزاة لا يبعد
 عن الغزو ؛ فإذا أراد أن يغزو أسرا يجسب لمدت ورفع عليها الناس والدواب وآلة الحرب ،
 ثم أسرا الناصف فأقلت ذلك ، ثم أسرا الرضاء فمرت به شهرا في رواحه وشهرا في غدقه ، وهو
 معنى قوله تعالى : « تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءَ حَيْثُ أَصَابَ » . والرضاء اللينة . « وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ
 مُّخْلِينَ » أي بكل شيء مخلصين بتدبيره .

قوله تعالى : « وَبَيْنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَشُوعُونَ لَهُ » أي ويخونون له من بنو صون ؛ يريد
 تحت الماء . أي يستخرجون له الطواغر من البحر . والقوص التزول تحت الماء ، وقد غاص
 في الماء ، والمهاجم على الشيء غائص . والقواص الذي يفوس في البحر على اللؤلؤ ، وقعله الغياصة .
 « وَيَمْلَأُونَ عَمَلًا ذَلِكَ » أي سوى ذلك من القوص ؛ قاله الفراء . وقيل : يراد بذلك
 الحاربيب والتماثيل وغير ذلك مما يستغفرون فيه . « وَكُنَّا لَهُمْ جَافِظِينَ » أي لأعمالهم . وقال
 الفراء : حافظين لهم من أن يفسدوا أعمالهم ، أو يبيعوا أحدا من بني آدم في زمان سليمان .
 وقيل : « حافطين » من أن يهربوا أو يمتنعوا . أو حفظناهم من أن يفرجوا عن أمره . وقد
 قيل : إن الحمام والنورة والطواحين والقوارير والصابون من استخراج الشياطين .

قوله تعالى : « وَيَأْتِيكَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ » أي مسني الضر وأنت أرحم
 أرحمين ﴿ ٨١ ﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَفَكَّسْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ
 وَمَثَلَهُمْ فِي عَمَلِهِمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴿ ٨٢ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ أي واذكر أيوب إذ نادى ربه. ﴿إِنِّي مَسِيءٌ﴾ أي نالني في بدني ضر وفي مالي واهل . قال ابن عباس : سمى أيوب لأنه آب إلى الله تعالى في كل حال . وروى أن أيوب عليه السلام كان رجلا من الروم ذا مال عظيم ، وكان برأ نبياً رحياً بالمساكين ، يكفل الأيتام والأرامل ، ويكرم الضيف ، ويسلخ ابن السبيل ، شاكراً لأنهم الله تعالى ، وأنه دخل مع قومه على جبار عظيم غاطبوه في امره ، فجعل أيوب يابن له في القول من أجل زرع كان له فاستجته الله بذهاب ماله وأهله ، وبالضر في جسمه حتى تآثر لحمه وتدود جسمه ، حتى أخرجه أهل قريته إلى خارج القرية ، وكانت امرأته تحمده . قال الحسن : مكث بذلك تسع سنين وستة أشهر . فلما أراد الله أن يفزع عنه قال الله تعالى له : « أَرَأَيْتَ إِنْ كُنْتُ جَعَلْتُكَ يَدُورًا ^(١) وَشَرَابًا » فيه شفاؤك ، وقد وهبت لك أهلك ومالك وولدك ومثلهم معهم . وسيأتي في « ص » ما للفسرين في قصة أيوب من تسلط الشيطان عليه ، والرد عليهم إن شاء الله تعالى . واختلف في قول أيوب : « مَسِيءٌ الضَّرُّ » على خمسة عشر قولاً : الأول — أنه وثب ليصل فلم يقدر على النهوض فقال : « مَسِيءٌ الضَّرُّ » إخباراً عن حاله ، لا شكوى لبلائه ؛ رواه أنس مرفوعاً . الثاني — أنه إقرار بالعجز فلم يكن متافياً للصبر . الثالث — أنه سبحانه أجراه على لسانه ليكون حجة لأهل البلاء بعده في الإنصاح بما يتزل بهم . الرابع — أنه أجراه على لسانه لإزامله في صفة الآدي في الضعف عن تحمل البلاء . الخامس — أنه انقطع الوحي عنه أربعين يوماً يخاف هجران ربه فقال : « مَسِيءٌ الضَّرُّ » . وهذا قول جعفر بن محمد . السادس — أن تلازمته الذين كانوا يكتبون عنه لما أنضت حاله إلى ما آتته إليه عوا ما كتبوا عنه ، وقالوا : ما لهذا عند الله ؟ فاشتكى الضر في ذهاب الوحي والدين من أيدي الناس . وهذا مما لم يصح سندُه . والله أعلم ؛ قاله ابن العربي . السابع — أن دودة سقطت من لحمه فأخذها وردّها في موضعها فمقرته فصاح « مَسِيءٌ الضَّرُّ » فقيس : أعلينا تنصير . قال ابن العربي : وهذا بعيد جداً

(١) راجع تفسير قوله تعالى : « واذكر عبداً أيوب ... الخ » آية ٤١

مع أنه يفتقر إلى قتل صحيح، ولا سبيل إلى وجوده . الثامن - أن الدود كان يتناول بدنه
فصبر حتى تناولت دودة قلبه وأخرى لسانه ، فقال : « مَسِّيَ الضُّرُّ » لاشتغاله عن ذكر
الله . قال ابن العربي : وما أحسن هذا لو كان له سند ولم تصح دعوى عريضة .
التاسع - أنه أهتم عليه جهة أخذ البلاء له هل هو عادي ، أو تعذيب ، أو تخصيص ،
أو تعيص ، أو دُخْر أو طهر ، فقال : « مَسِّيَ الضُّرُّ » أى ضَرَّ الإشكال في جهة أخذ
البلاء . قال ابن العربي : وهذا غزو لا يحتاج إليه . العاشر - أنه قيل له سل الله العافية
فقال : أملت في التعميم سبعين سنة وأقيم في البلاء سبع سنين وحينئذ أسأله فقال : « مَسِّيَ
الضُّرُّ » . قال ابن العربي : وهذا ممكن ولكنه لم يصح في إقامته مدةً شبرٌ ولا في هذه
القصة . الحادي عشر - أن ضربه قول إبليس لزوجه أسجدى لى غفاف ذهاب الإيمان عنها
تتهلك ويبقى بغير كافل . الثاني عشر - لما ظهر به البلاء قال قومه : قد أضربنا كونه معنا
وقدره فليخرج عنا ، فانرجته أمر أنه إلى ظاهر البلد ؛ فكانوا إذا خرجوا رأوه وتطبروا به
وتشاءوا برؤيته ، فقالوا : ليعبد بحيث لا نراه . فخرج إلى بعيد من القرية ، فكانت أمرته تقوم
عليه وتحمل قوته إليه . فقالوا : إنها لنا وله ونخالطنا فيعود بسببه ضربه إلينا . فأرادوا قطعها
عنه ؛ فقال : « مَسِّيَ الضُّرُّ » . الثالث عشر - قال عبد الله بن عبيد بن عمير : كان لأيوب
أخوان فأتياه ففاما من بعيد لا يقدران أن يدنوا منه من تن ويحه ، فقال أحدهما : لو علم
الله في أيوب خيرا ما ابتلاه بهذا البلاء ؛ فلم يسمع شيئا أشد عليه من هذه الكلمة ؛ فعند ذلك
قل : « مَسِّيَ الضُّرُّ » ثم قال : « اللهم ! إن كنت تعلم أنى لم أبت شعبان قط وأنا أعلم مكان
جائع فصديقى » فنادى من السماء « أن صديق عبدى » وهما يسمعان نغزا ساجدين .
الرابع عشر - أن معنى « مَسِّيَ الضُّرُّ » من شتاتة الأعداء ؛ ولهذا قيل له : ما كان أشد عليك
في بلائك ؟ قال شتاتة الأعداء . قال ابن العربي : وهذا ممكن فإن الكلم قد سأله أخوه العافية
من ذلك فقال : « إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَفُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتُ بِيَ الْأَعْدَاءُ » .
الخامس عشر - أن أمر أنه كانت ذات نواشب ففرحت حين منعت أن تتصرف لأحد بسببه

ما تعود به عليه ، فقطعت ذوائبها واشترت بها من يصلها قوتا وجاءت به إليه ، وكان يستعين بذوائبها في تصرفه وتنقله ، فلما عدها وأراد الحركة في تنقله لم يقدر قال : « مَسْنَى الضُّرِّ » .
وقيل : إنها لما اشترت القوت بذوائبها جاءه إبليس في صفة رجل وقال له : إن أهلك بنت فأخذت وحاق شعرها . خلف أيوب أن يحلها ؛ فكانت المحنة على قلب المرأة أشد من المحنة على قلب أيوب .

قلت : وقول سادس عشر - ذكره ابن المبارك : أخبرنا يونس بن يزيد عن عقبل عن ابن شهاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر يوما أيوب النبي صلى الله عليه وسلم وما أصابه من البلاء ، الحديث . وفيه أن بعض إخوانه من صابره ولازمه قال : يا نبي الله لقد أعجبنى أمرك وذكرته إلى أخيك وصاحبك . أنه قد ابتلاك بذهاب الأهل والمال وفي جسدك منذ ثمانية عشرة سنة حتى بلغت مائتي ؛ ألا يرحمك فيكشف عنك ! لقد أذنبت ذنبا ما أظن أحداً بلغه ! فقال أيوب عليه السلام : « ما أدرى ما يقولان غير أن ربي عز وجل يعلم أفي كنته » أمر على الرجلين يتراعمان وكل يحلف بالله - أو على النفر يتراعمون - فأقلب إلى أهل فأكفر عن أيمانهم إرادة ألا يأم أحد ذكره ولا يذكره أحد إلا بالحق » فنادى ربه (أَيْ مَسْنَى الضُّرِّ وَأَنْتَ أَزْهَمُ الرَّاحِمِينَ) وإنما كان دعاؤه عرضاً عرضه على الله تبارك وتعالى يخبره بالذي بانته ، ضارباً لما يكون من الله تبارك وتعالى فيه . وذكر الحديث . وقول سابع عشر - سمعته ولم أقف عليه أن دودة سقطت من جسده فطلبها ليردها إلى موضعها فلم يجدها فقال : « مَسْنَى الضُّرِّ » لما فقد من أجر ألم تلك الدودة ، وكان أراد أن يسبق له الأجر موافراً إلى وقت العافية ، وهذا حسن إلا أنه يحتاج إلى سند . قال العلماء : ولم يكن قوله « مَسْنَى الضُّرِّ » جزءاً ؛ لأن الله تعالى قال : « إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَّابِرًا » . بل كان ذلك دعاء منه ، والجزع في الشكوى إلى الخلق لا إلى الله تعالى ، والدعاء لا ينافي الرضا . قال التعلي سمعت أستاذنا أبا القاسم بن حبيب يقول : حضرت مجلساً غاصا بالفقهاء والأدباء في دار السلطان ، فسئلت عن هذه الآية بعد إجماعهم على أن قول أيوب كان شكاية وقد قال الله تعالى : « إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَّابِرًا »

قلت : ليس هذا شكاية وإنما كان دعاء ؛ بيانه ﴿ فَاسْتَجِبْنَا لَهُ ﴾ والإجابة تستعقب الدعاء لا الاشكاء . فاستحسنوه وارضوه . وسئل الجنيدي عن هذه الآية فقال : عرفه فافقه السؤال فيمن عليه بكرم التوال .

قوله تعالى : ﴿ فَكَشَفْنَا مَا يَدُ مِنْ ضُرِّ وَآيَاتِهِ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ﴾ قال مجاهد وعكرمة قبل لأيوب صلى الله عليه وسلم : قد آتيناك أهلك في الجنة فإن شئت تركناهم لك في الجنة وإن شئت آتيناكهم في الدنيا . قال مجاهد : فتركهم الله عز وجل له في الجنة وأعطاه مثلهم في الدنيا . قال النحاس : والإستاد عنهما بذلك صحيح .

قلت : وحكاية المهدي عن ابن عباس . وقال الضحاك : قال عبد الله بن مسعود كان أهل أيوب قد ماتوا إلا أسرته فأحياهم الله عز وجل في أقل من طرف البصر ، وآتاهم مثلهم معهم . وعن ابن عباس أيضا : كان بنوه قد ماتوا فأحياهم له وولد له مثلهم معهم . وقاله قتادة وكعب الأحبار والكلبي وغيرهم ، قال ابن مسعود : مات أولاده وهم سبعة من أئود وسبعة من الإنثاء فلما عوفي نشروا له ، وولدت أسرته سبعة بنين وسبع بنات . الله : وهذا القول أشبه بظاهر الآية .

قلت : لأنهم ماتوا ابتلاء قبل آجالهم حسب ما تهدم بيانه في سورة « البقرة » في قصة « الَّذِينَ تَرَجَّوْا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أَلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ » . وفي قصة السبعين الذين أخفئهم الصمعة لما تواترهم أحيوا ؛ وذلك أنهم ماتوا قبل آجالهم ، وكذلك هنا والله أعلم . وعلى قوله مجاهد وعكرمة يكون المعنى : « وَآيَاتِهِ أَهْلَهُ » في الآخرة « وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ » في الدنيا . وفي الخبر : إن الله بعث إليه جبريل عليه السلام حين ركض برجله على الأرض ركضة فظهرت عين ماء حار ، وأخذ بيده ونفضه نفضة فتناثرت عنه الديدان ، وغاص في الماء غوصة فبغت له ماء وعاد إلى منزله ، ورد الله عليه أهله ومثلهم معهم ، ونشأت صحابة على قدر قواصده داره فامطرت أثلثة أيام بلاليها جرادا من ذهب . فقال له جبريل : أشبعت ؟ فقال : ومن

(١) راجع ج ٢ ص ٢٣٠ طبة أول وثانية .

(٢) راجع ج ١ ص ٤٠٤ ثانية أو ثالثة راجع ج ٧ ص ٢٩٥ طبة أول أو ثانية .

يَسْبَحُ مِنْ اللَّهِ! فَاحْصِ فَاحْصِي إِلَيْهِ: قَدْ أَشْنَيْتِ عَلَيْكَ بِالصَّبْرِ قَبْلَ وَقْعِهِ فِي الْبَلَاءِ وَبَعْدَهُ،
وَأَوَّلَا أُنَى وَضَعْتَ تَحْتَ كُلِّ شُعْرَةٍ مِنْكَ صَبْرًا مَا صَبَرْتَ . (رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا) أَيْ فَعَلْنَا
ذَلِكَ بِه رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا . وَقِيلَ : ابْتِلَايَهُ لِيَعْلَمَ نَوَابَهُ فَعَدَا . (وَيَذْكُرُ لِلْعَالَمِينَ)
أَيْ وَيَذْكُرُ لِلْعِبَادِ لِأَنَّهُمْ إِذَا ذُكِرُوا بِبَلَاءِ أَيُّوبَ وَسَبْرِهِ طَيِّبٌ وَمَحْتَمَلٌ وَهُوَ أَفْضَلُ أَهْلِ زَمَانِهِ
وَطَنُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى الصَّبْرِ عَلَى شِدَائِدِ الدُّنْيَا نَحْوَ مَا فَعَلَ أَيُّوبُ ، فَيَكُونُ هَذَا تَنْبِيْهُ لَمْ عَلَى إِدَامَةِ
الْعِبَادَةِ ، وَاحْتِمَالِ الضَّرُورِ . وَاخْتَلَفَ فِي مَدَّةِ إِقَامَتِهِ فِي الْبَلَاءِ ؛ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : كَانَتْ مَدَّةُ
الْبَلَاءِ سَبْعَ سِنِينَ وَسَبْعَةَ أَشْهُرٍ وَسَبْعَةَ أَيَّامٍ وَسَبْعَ لَيَالٍ . وَهَبُ : ثَلَاثِينَ سَنَةً . الْحَسَنُ سَبْعَ
سِنِينَ وَسِتَّةَ أَشْهُرٍ . قُلْتُ : وَأَصَحُّ مِنْ هَذَا وَاقُّهُ أَعْلَمُ ثَمَانِي حَشْرَةَ سَنَةٍ ؛ رَوَاهُ ابْنُ شَهَابٍ عَنْ
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ ذَكَرَهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ وَقَدْ تَقَدَّمَ .

قوله تعالى : **وَلَا تَسْتَعْجِلْ وَلَا يُذْرِيْكَ** وَذَا الْكِفْلِ **كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ** (٨٧)
وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا لِيُنْصَلِحَ مِنْ الصَّالِحِينَ (٨٨)

قوله تعالى : (وَلَا تَسْتَعْجِلْ وَلَا يُذْرِيْكَ) وهو أَخْرَجَ وَقَدْ تَقَدَّمَ (وَذَا الْكِفْلِ) أَيْ
وَأَذْكُرُهُمْ . وَخَرَجَ التِّرْمِذِيُّ الْحَكِيمُ فِي «نَوَادِرِ الْأَصُولِ» وَغَيْرِهِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : «كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ ذُو الْكِفْلِ لَا يَتَوَرَّعُ مِنْ ذَنْبٍ
عَمَلُهُ فَاتَّبَعَ امْرَأَةً فَأَعْطَاهَا سِتِينَ دِينَارًا [عَلَى أَنْ يَطَّأَهَا] ^(١) فَلَمَّا قَعَدَ مِنْهَا مَقْعَدَ الرَّجُلِ مِنْ أَمْرَاتِهِ
ارْتَدَدَتْ وَبَكَتْ فَقَالَ مَا يَبْكُوكَ قَالَتْ مِنْ هَذَا الْعَمَلِ وَاللَّهُ مَا عَمَلْتُهُ قَطُّ قَالَ أَا كَرِهْتَكَ
قَالَتْ لَا وَلَكِنْ حَتَّى عَلَيْهِ الْحَاجَةُ قَالَ أَذْهَبِي فَهُوَ لَكَ وَاللَّهُ لَا أَعْصِي اللَّهَ بَعْدَهَا أَبَدًا ثُمَّ مَاتَ
مِنْ لَيْلَتِهِ فَوَجَدُوا مَكْتُوبًا عَلَى بَابِ دَارِهِ إِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَذِي الْكِفْلِ » وَخَرَجَهُ أَبُو عِيْسَى
التِّرْمِذِيُّ أَيْضًا . وَلَقِظَهُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
يُحَدِّثُ حَدِيثًا لَوْ لَمْ أَسْمَعْهُ إِلَّا مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ — حَتَّى عَدَّ سَبْعَ مَرَّاتٍ — [لَمْ أَحْدَثْ بِهِ] ^(٢)
وَلَكِنِّي سَمِعْتُهُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ؛ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : «كَانَ

(١) الزيادة من «الله المتور» . (٢) الزيادة من صحيح الترمذی .

ذو الكفل من بني إسرائيل لا يتوعد من ذنب عمله فأنته أمرأة فأعطاها ستين دينارا على أن يطأها فلما قعد منها مقعد الرجل من أمرأته ارتصدت وبكت فقال ما يبكيك إلا كرهتك قالت لا ولكنه عمل ما علمته قط وما حملني عليه إلا الحاجة فقال تفعلين أنت هذا وما فعلته أذعبي فهي لك وقال والله لا أعصى الله بعد ما أبدا لك من ليته فأصبح مكتوبا على بابها إن الله قد غفر لذي الكفل^١ قال : حديث حسن . وقيل إن البسح لما كبر قال : لو استخلفت رجلا على الناس حتى أنظر كيف يعمل . فقال : من يتكفل لي بثلاث : بصيام النهار وقيام الليل والابتناء وهو يقضي ؟ فقال رجل من ذرية البص : أنا وفردة ثم قال مثلها من الغد فقال الرجل : أنا فاستخلفه فوق فأنى الله عليه فسمى ذا الكفل ؛ لأنه تكفل بأمره قاله أبو موسى وبجراد وقتادة . وقال عمرو بن عبد الرحمن بن الحارث وقال أبو موسى من النبي صلى الله عليه وسلم : إن ذا الكفل لم يكن نيا ، ولكنه كان عبدا صالحا فتكفل بعمل رجل صالح عند موته ، وكان يصلي لله كل يوم مائة صلاة فأحسن الله الثناء عليه . وقال كعب : كان في بني إسرائيل ملك كافر فز ببلاده رجل صالح فقال : والله إن خرجت من هذه البلاد حتى أعرض على هذا الملك الإسلام . فعرض عليه فقال : ما جزائي ؟ قال : الجنة - ووصفها له - قال : من يتكفل لي بذلك ؟ قال : أنا ؛ فأسلم الملك وتخلى عن الملكة وأقبل على طاعة ربه حتى مات ، فدفن فأصبحوا فوجدوا يده خارجة من القبر وفيها رقعة خضراء مكتوب فيها بنور أبيض : إن الله قد غفر لي وأدخلني الجنة ووفى عن كفالة فلان ؛ فأسرع الناس إلى ذلك الرجل بأن يأخذ عليهم الإيمان ، ويتكفل لهم بما تكفل به للكم ، ففعل ذلك فأموتوا كلهم فسمى ذا الكفل . وقيل : كان رجلا عفيفا يتكفل بشأن كل إنسان وقع في بلاء أو تهمة أو مطالبة فينجاه الله على يديه . وقيل : سمي ذا الكفل لأن الله تعالى تكفل له في صميه وعمله بضعف عمل غيره من الأنبياء الذين كانوا في زمانه . والجمهور على أنه ليس بنبي . وقال الحسن : هو نبي قبل إلياس . وقيل : هو زكريا بكفالة صريم . (كُلُّ مِنَ الصَّابِرِينَ) أي على أمر الله والقيام بطاعته واجتناب معاصيه . (وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا) أي في الجنة (إِنَّهُمْ مِنَ الصَّابِرِينَ) .

قوله تعالى : وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠١﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾

قوله تعالى : (وَذَا النُّونِ) أى وأذكر « ذ النون » وهو لقب ليونس بن متى لا يتلحق النون إياه . والنون الحوت . وفى حديث عثمان رضى الله عنه أنه رأى صبيًا مليحًا فقال : دثموا نونته كي لا تصيبه العين . روى ثعلب عن ابن الأعرابي : النونة النقرة التي تكون فى ذقن الصبي الصغير ، ومعنى دثموا سودوا . (إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا) قال الحسن والشعبي وسعيد بن جبيرة : مغاضبا لربه عز وجل . واختاره الطبري والقتيبي واستحسنه المهدوى ، وروى عن ابن مسعود . وقال النحاس : وربما أنكر هذا من لا يعرف اللغة وهو قول صحيح . والمعنى : مغاضبا من أجل ربه ، كما تقول : غضبت لك أى من أجلك . والمؤمن يغضب لله عز وجل إذا عصى . وأكثر أهل اللغة يذهب إلى أن قول النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة : « أختري لى لم الولاء » من هذا . وبأن القتيبي فى نصرة هذا القول . وفى الخبر فى وصف يونس : إنه كان ضيق الصدر فلما حمل أعباء النبوة تفسخ تحتها ^(١) تسخ ^(١) تحت الحمل الثقيل ، فضى على وجهه مضى الآبق الناذ . وهذه المغاضبة كانت صغيرة . ولم يغضب على الله ولكن غضب لله إذ رفع العذاب عنهم . وقال ابن مسعود : أبى من ربه أى من أمره ربه حتى أمره بالعود إليهم بعد رفع العذاب عنهم . فإنه كان يتوعد قومه بتزول العذاب فى وقت معلوم ، ونرجع من عندهم فى ذلك الوقت ، فاظلم العذاب فتضرعوا ورفع عنهم ولم يعلم يونس بتوبتهم ، فلذلك ذهب مغاضبا وكان من خلقه ألا يذهب إلا بإذن محدد . وقال الحسن : أمره الله تعالى بالمسير إلى قومه فسأل أن ينظر ليتأهب ، فأعجله الله حتى سأل أن يأخذ نعلًا ليلبسها فلم ينظر ، وقيل له : الأمر أعجل من ذلك — وكان فى خلقه ضيق — فخرج مغاضبا لربه ، فهذا قول وقول

(١) الربيع : ما رواه من الإبل فى الربيع .

النحاس أحسن ما قيل في تأويله . أي خرج مغاضبا من أهل ربه ، أي غضب على قومه من أجل كفرهم به . وقيل : إنه فاضب قومه حين طال عليه أمرهم وتستمهم فذهب نازا بنفسه ، ولم يصبر على أذاهم وقد كان الله أمره بملازمتهم والدعاء ، فكان ذنبه خروجه من بينهم من غير إذن من الله . روى معناه عن ابن عباس والضحاك ، وأن يونس كان شابا ولم يحصل أن قال النبوة ؛ ولهذا قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : « وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ » . وعن الضحاك أيضا خرج مغاضبا لقومه ؛ لأن قومه لم يأخذوا منه وهو رسول من الله عز وجل كفروا بهذا فوجب أن يفاضبهم ، وعلى كل أحد أن يفاضب من عصى الله عز وجل . وقالت فرقة منهم الأنخفش : إنما خرج مغاضبا لذلك الذي كان على قومه . قال ابن عباس : أراد شعيا النبي لولملك الذي كان في وقته اسمه حزقيا أن يبعثوا يونس إلى ملك يننوى ، وكان حزيا بن إسرائيل وسبي الكثير منهم ليكله حتى يرسل معه بنى إسرائيل ، وكان الأنبياء في ذلك الزمان يوحى إليهم ، والأمر والسياسة إلى ملك قد اختاروه ، فيعمل على وحى ذلك النبي ؛ وكان أوصى الله لشعيا : أن قل لحزقيا الملك أن يختار نيا قويا أميناً من بنى إسرائيل فيبعثه إلى أهل يننوى فيأمرهم بالتخلية عن بنى إسرائيل فإني ملق في قلوب ملوكهم وجبارتهم التخلية عنهم . فقال يونس لشعيا : هل أمرك الله بإبراجي ؟ قال : لا . قال : فهل سماني للهِ ؟ قال : لا . قال فهاتنا أنبياء أمثاء أقوياء . فألحوا عليه فخرج مغاضبا للنبي والملك وقومه ، فأتى بحر الروم وكان من قصته ما كان ؛ فابتلى بطن الحوت لتركه أمر شعيا ؛ ولهذا قال الله تعالى : « تَلَقَّمَهُ الْخُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ » والمليم من فعل ما يلام عليه . وكان ما فعله إما صغيرة أو ترك الأولى . وقيل : خرج ولم يكن نيا في ذلك الوقت ولكن أمره ملك من ملوك بنى إسرائيل أن يأتي يننوى ؛ ليدعو أهلها بأمر شعيا فأنف أن يكون ذهابه إليهم بأمر أحد غير الله ، فخرج مغاضبا للهِ ؛ فلما نجى من بطن الحوت بعثه الله إلى قومه فدعاهم وآمنوا به . وقال القشيري : والأظهر أن هذه المغاضبة كانت بعد إرسال الله تعالى إياه ، وبعد رفع العذاب عن القوم بعد ما أظلمهم ؛ فإنه كره رفع العذاب عنهم .

قلت : هذا أحسن ما قيل فيه على ما يأتي بيانه في « والصفات » إن شاء الله تعالى .
وقيل : إنه كان من أخلاق قومه قتل من جربوا عليه الكذب غشى أن يقتل فغضب ،
ونخرج فلاناً على وجهه حتى ركب في سفينة فسكنت ولم تبحر . فقال أهلها : أفيم أبق ؟
فقال : أنا هو . وكان من قصته ما كان ، وأبتلى ببطن الحوت تحيصاً من السفينة كما قال
في أهل أحد : « حَتَّى إِنَّا فِشْتُمْ » إلى قوله : « وَلَيَحْصَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا » لمعاصي الأنبياء
مشفورة ، ولكن قد يجري تحيص ويتضمن ذلك زجراً عن المعادة . وقول رابع : إنه لم
يفاض به ، ولا قومه ، ولا الملك ، وأنه من قولهم غضب إذا أنت . وقاعل قد يكون من
واحد ، قالني أنه لما وعد قومه بالنذاب ونخرج عنهم ثابراً وكشف عنهم العذاب ، فلما رجع
والم أنهم لم يهلكوا أنت من ذلك نخرج آفا . ويشد هذا البيت :
• وأغضب إن تُجِى تم بدارم •

أى أنت . وهذا فيه نظر ، فإنه يقال لصاحب هذا القول : إن تلك المفاضية وإن
كانت من الأفة ، فالأفة لابد أن يخالطها الغضب وذلك الغضب وإن دق على من كان ؟
وأنت تقول لم يغضب على ربه ولا على قومه !

قوله تعالى : (فَظَنَّ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ) قيل : معناه أستره إبليس
ورفع في ظنه إمكان ألا يقدر الله عليه بمعايته . وهذا قول مردود مرغوب عنه ، لأنه كفر .
روى عن سعيد بن جبير حكاه عنه المهدوي ، والثحابي عن الحسن . وذكر الثعلبي وقال عطاء
وسعيد بن جبير وكثير من العلماء معناه : ظن أن لن يضيق عليه . قال الحسن : هو من قوله
تعالى : « اللَّهُ يَسُطُّ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ » أى يضيق . وقوله : « وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ » .
قلت : وهذا الأشبه بقول سعيد والحسن . وقدر وقدر وقدر بمعنى ، أى ضيق وهو
قول ابن عباس فيما ذكره الساوردي والمهدوي . وقيل : هو من القدر الذى هو القضاء والحكم ؟
أى ظن أن لن تقضى عليه بالمعقوبة ، قاله قتادة ومجاهد والقراء . ماخوذ من القدر وهو الحكم

(١) في تفسير قوله تعالى : « وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ الْمَرِجَيْنِ ... » الآية ١٢٩ رآها بعدا .

دون القدرة والاستطاعة . وروى عن أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب ، أنه قال في قول الله عز وجل : « قُلْ أَنْ لَنْ تُقَدِّرَ عَلَيْهِ » هو من التقدير ليس من القدرة ، يقال منه : قدر الله لك الخير قدره ، بمعنى قدر الله لك الخير . وأشد ثعلب :

فليت عشتب الآزى برابع • لنا أبدا ما أورد السالم النضر
ولا عاند ذلك الزمان الذي مضى • تباركت ما تقدر فجع ولك الشكر

يعنى ما تحسره وتفتنى به يقع . وعلى هذين التاويلين العلماء . وقرأ عمر بن عبد العزيز والزمري : « قُلْ أَنْ لَنْ تُقَدِّرَ عَلَيْهِ » بضم النون وتشديد الدال من التقدير . وحكى هذه القراءة لمالك بن نويرة عن ابن عباس . وقرأ هيب بن عمير وقناة والأعرج : « أَنْ لَنْ يُقَدِّرَ عَلَيْهِ » بضم الباء مشددا على الفعل المجهول . وقرأ يعقوب وعبد الله بن أبي إسحق والحسن وابن عباس أيضا : « يُقَدِّرُ عَلَيْهِ » بياء مضمومة وفتح الدال مخففا على الفعل المجهول . وعن الحسن أيضا : « قُلْ أَنْ لَنْ يُقَدِّرَ عَلَيْهِ » . الباقون « يُقَدِّرُ » بفتح النون وكسر الدال وكله بمعنى التقدير . قلت : وهذان التاويلان تأولهما العلماء في قول الرجل الذي لم يعمل خيرا قط لأهله إذا مات فحرقوه « فوالله لئن قدر الله على » الحديث فعلى التاويل الأول يكون تقديره : والله لئن ضيق الله على وبالغ في محاسنتي وجرأى على ذنوبي ليكون ذلك ، ثم أسر أن يحرق بأفراط خوفه . وعلى التاويل الثانى : أى لئن كان سبق في قدر الله وقضائه أن يذهب كل ذى جرم على جرمه ليعذبني الله على إجرأى وذنوبي عذابا لا يعذبه أحدا من العالمين غيرى . وحديثه خرج الأئمة في الموطأ وغيره . والرجل كان مؤمنا موحدا . وقد جاء في بعض طرقه « لم يعمل خيرا إلا التوحيد » وقد قال حين قال الله تعالى : لم فعلت هذا ؟ قال : من خشيتك يا رب . والخشية لا تكون إلا لمؤمن مصدق ؛ قال الله تعالى : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » . وقد قيل إن معنى « قُلْ أَنْ لَنْ تُقَدِّرَ عَلَيْهِ » الاستفهام وتقديره : أنظن ، لحذف ألف الاستفهام إندزا ؛ وهو قول سليمان^(١) [أبو] المتنمر . وحكى القاضي منذر بن سعيد : أن بعضهم قرأ « أنظن » بالألف .

(١) في الأصل « سليمان بن المشور » وهو معروف والصواب من « تهذيب التهذيب » .

قوله تعالى : (فَتَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)
فأما مستلزمات :

الأولى - قوله تعالى : « فَتَادَى فِي الظُّلُمَاتِ » اختلف العلماء في جمع الظلمات ما المراد به ، فقالت فرقة منهم ابن عباس وقادة : ظلمة الليل . وظلمة البحر ، وظلمة الحوت . وذكر ابن أبي الدنيا حدثنا يوسف بن موسى حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحق عن عمرو بن ميمون قال حدثنا عبد الله بن مسعود في بيت المال قال : لما ابتلع الحوت يونس عليه السلام أهوى به إلى قرار الأرض ، فسمع يونس تسبيح الحصى فتأدى في الظلمات ظلمات ثلاث : ظلمة بطن الحوت ، وظلمة الليل ، وظلمة البحر « أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » « فَتَبَدَّاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ » كهية الفسح المحسوط الذي ليس عليه ريش . وقالت فرقة منهم سالم بن أبي الجعد : ظلمة البحر ، وظلمة حوت التتم الحوت الأول . ويصح أن يعبّر بالظلمات عن جوف الحوت الأول فقط ، كما قال : « فِي غَيَاةِ أَبْطَالِ الْجُبِّ » وفي كل جهاته ظلمة بجمعها سائع . وذكر المساوردي : أنه يحتمل أن يعبر بالظلمات من ظلمة الخطيئة ، وظلمة الشدة ، وظلمة الوحدة . وروى : أن الله تعالى أوحى إلى الحوت : « لَا تَوَدَّ مِنْهُ شَعْرَةً فَمَنْ جَمَعَتْ بَطْنُكَ مَجْنُونٌ وَلَمْ أَجْعَلْهُ طَعَامًا » وروى : أن يونس عليه السلام سجد في جوف الحوت حين سمع تسبيح الحيتان في قعر البحر . وذكر ابن أبي الدنيا حدثنا العباس بن يزيد العبدى حدثنا إسحاق^(١) ابن إدريس حدثنا جعفر بن سليمان عن عوف عن سعيد بن أبي الحسن قال : لما التقم الحوت يونس عليه السلام ظن أنه قد مات فطول رجله فإذا هو لم يمت فقام إلى عادته يعلى فقال في دعائه : « وَكُنْتُ لَكَ مَسْجُودًا حَيْثُ لَمْ يَخْذَعْ أَحَدٌ » . وقال أبو المعالى : قوله صلى عليه وسلم " لَا تَفْضُلُونِي عَلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى " المعنى فإنى لم أكن وأنا في سدره المنتهى بأقرب إلى الله منه ، وهو في قعر البحر في بطن الحوت . وهذا يدل على أن الباري سبحانه وتعالى

(١) كذا في الأصل ؛ ولله « عبد الله بن إدريس » ثابت عبد الله المذكور حدث عنه العبدى
كما في « تهذيب التهذيب » .

ليس في جهة . وقد تقدم هذا المعنى في « البقرة » و « الأعراف » . « أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » يريد فيها خالف فيه من ترك مداومة قومه والصبر عليهم . وقيل : في الخروج من غير أن يؤذن له . ولم يكن ذلك من الله عتوبة ؛ لأن الأنبياء لا يجوز أن يعاقبوا ، وإنما كان ذلك تمحيصا . وقد يؤذّب من لا يستحق العقاب كالصبيان ؛ ذكره الساوردي . وقيل : من الظالمين في دعائهم على قومي بالذاب . وقد دعا نوح على قومه فلم يؤاخذ . وقال الواسطي في معناه : نزه ربه عن الظلم وإضاف الظلم إلى نفسه اعترافا . واستحلفا . ومثل هذا قول آدم ونحوه : « رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا » إذ كانا السبب في وضعهما أنفسهما في غير الموضع الذي أنزل فيهما .

الثانية - روى أبو داود عن سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « دعاء ذي النون في بطن الحوت « لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » لم يدع به رجل مسلم في شيء قط إلا استجيب له » وقد قيل : إنه اسم الله الأعظم . ورواه سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم . وفي الخبر : في هذه الآية شرط الله لمن دعاه أن يجيبه كما أجابه ويخبره كما أخبره ، وهو قوله : « وَكَذَلِكَ نُخَيِّمُ الْمُؤْمِنِينَ » وليس حاجتنا صريح دعاء وإنما هو مضمون قوله : « إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » فاعترف بالظلم فكان تلويحا .

قوله تعالى : « وَكَذَلِكَ نُخَيِّمُ الْمُؤْمِنِينَ » أي نخلصهم من همهم بما سبق من همهم . وذلك قوله : « قُلُوا لَهُ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَأَبْتُ فِي بَيْتِهِ إِلَى يَوْمِ يَمُوتُونَ » وهذا حفظ من الله عز وجل لعبده يونس رعى له حق تعبه ، وحفظ زمان ما سلف له من الطاعة . وقال الأستاذ أبو إسحق : صعب ذو النون الحوت إياها فلا تفل إلى يوم القيامة يقال له ذو النون ، فما ظنك به بعد عبده سبعين سنة يبطل هذا عتده ! لا يظن به ذلك . من التّم أي من بطن الحوت .

قوله تعالى : « وَكَذَلِكَ نُخَيِّمُ الْمُؤْمِنِينَ » قراءة العامة بنونين من أنجي نخي . وقرأ ابن عامر « نُخَيِّمُ » بنون واحدة وجمي مشددة وتسكين الباء على الفعل الماضي وإسما المصغر أي وكذلك نخي النجاة المؤمنين كما تقول : ضُرب زيد بمعنى ضُرب الضرب زيداً بوأشد :

وَلَوْ لَسَّ بِكَ فَتْرَةٌ بِهَرَجٍ وَكَيْفَ . لَسَّ بِكَ الْجَرُّ الْكَلْبَاءُ

أراد لَسَّ السَّبُّ بذلك الجر . وسكنت ياءه على لغة من يقول بَنَى وَرَضَى فلا يحرك الياء .

وقرأ الحسن « وَذَرُّوا مَا بَيْنَ يَدَيْهِ » استغفلا لتحريك ياء قبلها كسرة . وانشد :

تَحْصُرُ الشَّيْبُ لَمَنِي تَحْصِيرًا . وَحَدَا بِي إِلَى الْقُبُورِ الْعِيرَا

لَيْتَ شِعْرِي إِذَا الْقِيَامَةُ قَامَتْ . وَدُعَى بِالْحَسَابِ ابْنُ الْمَصِيرَا

سكن الياء في دعى استغفلا لتحريكها وقبلها كسرة وفاعل حدا المشيب ؛ أى وحدا المشيب

البعير ؛ ليت شعري المصير أين هو . هذا تأويل الفراء وأبى عبيد وتعلب في تصوير هذه

القراءة . وخطأها أبو حاتم والزجاج وقالوا : هو لحن ؛ لأنه نصب اسم ما لم يسم فاعله ؛ وإنما

يقال : نُجِّيَ الْمُؤْمِنُونَ . كما يقال : كَرَّمَ الصَّالِحُونَ . ولا يجوز ضَرْبُ زيدا بمعنى ضَرْبِ الضَرْبِ

زيدا ؛ لأنه لا فائدة [فيه] ^(١) إذ كان ضَرْبٌ بدل على الضرب . ولا يجوز أن يخرج بمنزلة ذلك

اليبت على كتاب الله تعالى . ولأبى عبيد قول آخر . وقاله القتيبي . وهو أنه ادغم النون في الجيم .

الناسم ؛ وهذا القول لا يجوز عند أحد من النحويين ؛ لبعيد خروج النون من مخرج الجيم

فلا تدغم فيها ؛ ولا يجوز في « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ » « نَجَاءَ بِالْحَسَنَةِ » قال النحاس : ولم أسمع

في هذا أحسن من شيء سمعته من علي بن سليمان . قال : الأصل تجي لحذف إحدى النونين ؛

لاجتماعهما كما تحذف إحدى التائين ؛ لاجتماعهما نحو قوله عز وجل : « وَلَا تَفَرَّقُوا » والأصل

تتفرقوا . وقرأ شمس بن سيف بن السيف وأبو العالية « وَكَذَلِكَ نَجِي الْمُؤْمِنِينَ » أى نجى الله المؤمنين ؛

وهى حسنة .

قوله تعالى : وَزَكَّرْنَا إِذْ نَادَيْنَا رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ

الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ . إِنَّهُمْ

كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿٢٢﴾

(١) فتحة (كسبية) : أم القرزق . والبيت بحر من تصدقة يجر بها القرزق .

(٢) الزيادة من « إعراب القرآن » للنحاس .

قوله تعالى : ﴿ وَذَكَرْنَا إِذْ نَادَى رَبَّهُ ﴾ أى وأذكر زكريا . وقد تقدم فى « آل عمران » ذكره . ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ﴾ أى منفردا لا ولد لى وقد تقدم . ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ أى خير من يبق بعد كل من يموت ، وإنما قال « وأنت خير الوارثين » لما تقدم من قوله : « يَرِثُنِي » أى أعلم أنك لا تصنع دينك ، ولكن لا تقطع هذه الفضيلة التى هى القيام بأمر الدين عن عيى . كما تقدم فى « مريم » بيانه .

قوله تعالى : ﴿ نَاسِجْنَا لَهُ ﴾ أى أجنادناه : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ يُحْيِي ﴾ . تقدم ذكره مستوى : ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ قال قتادة وسعيد بن جبير وأكثر المفسرين : إنها كانت عاقرا فجعلت ولودا . وقال ابن عباس وعطاء : كانت سينة الخلق ، طويلة اللسان ، فاصلحها الله بفعلها حسنة الخلق .

قلت : ويحتمل أن تكون جمعت المعنيين فجعلت حسنة الخلق ولودا . ﴿ إِنَّمُمْ ﴾ يعنى الأتنياء المسمين فى هذه السورة ﴿ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْفَعَالِ ﴾ . وقيل : الكناية راجعة إلى زكريا وأمرأته ويحيى .

قوله تعالى : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ فيه مستثنان :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ أى يفرعون إلينا فيدعوننا فى حال الرخاء وحال الشدة . وقيل : المعنى يدعون وقت تعبدهم وهم بحال رغبة ورهبة وخوف ، لأن الرغبة والرغبة متلازمان . وقيل : الرغب رفع بطون الأكف إلى السماء ، والرهب رفع ظهورها ، قاله خصيف ، وقال ابن عطية : وتلخيص هذا أن عادة كل داع من البشر أن يستعين يديه فالرغب من حيث هو طلب بحسن منه أن يوجه باطن الراح نحو المطلوب منه ، إذ هو موضع إعطاء أو بها يملك ، والرهب من حيث هو دفع مضرة بحسن معه طرح فك ، والإشارة إلى ذهابه وتوقيه بنفض اليد ونحوه .

الثانية - روى الترمذى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع يديه فى الدعاء لم يحطهما حتى يسمح بهما وجهه وقد مضى فى « الأعراف »^(١)

(١) راجع ٤ ص ٧٤ وما بعدها طبعه أول مرة . (٢) راجع ٧ ص ٢٢ وما بعدها طبعه أول مرة .

الاختلاف في رفع الأيدي، وذكرنا هذا الحديث وغيره هناك : وعلى القول بالرفع فقد اختلف الناس في صفته وإلى أين ؟ فكان بعضهم يختار أن يسطر كفيه رافعهما حدو صدره ويطوئهما إلى وجهه ؛ روى عن ابن عمر وابن عباس . وكان عليّ يدعو بباطن كفيه ؛ وعن أنس مثله ، وهو ظاهر حديث الترمذي . وقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا سألتم الله فاسألوه ببطون أكفكم ولا تسألوه بظهورها واسمحوا بها وجوهكم » . وروى عن ابن عمر وابن الزبير رافعهما إلى وجهه ، واحتجوا بحديث أبي سعيد الخدري ؛ قال : وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم برفة بفعل يدعو وجعل ظهر كفيه مما يلي وجهه ، ورفعهما فوق نديه وأسفل من منكبيه . وقيل : حتى يحاذي هما وجهه وظهورهما مما يلي وجهه . قال أبو جعفر الطبري والصواب أن يقال : إن كل هذه الآثار المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم متفقة غير مختلفة المعاني ، وجاز أن يكون ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم لاختلاف أحوال الدعاء كما قال ابن عباس : إذا أشار أحدكم بإصبع واحد فهو الإخلاص ، وإذا رفع يديه حدو صدره فهو الدعاء ، وإذا رفعهما حتى يحاذي بهما رأسه وظهرهما مما يلي وجهه فهو الابتéal . قال الطبري وقد روى قتادة عن أنس قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يدعو بظهر كفيه وباطنهما . و « رَغَبًا وَرَهَبًا » منصوبان على المصدر ؛ أي يرغبون رغبًا ويرهبون رهبًا . أو على المفعول من أجله ؛ أي للرب والرهب . أو على الحال . وفرا طلحة بن مُصَرِّف « وَيَدْعُونَا » بنون واحدة . وفرا الأعمش بضم الزاء وإسكان النين والمساء . مثل السَّمِّ والبُخْلِ ، والعدم والضر لنتان . وابن وثاب والأعمش أيضا « رَغَبًا وَرَهَبًا » مفتوح في الزاء والتخفيف في النين والمساء ، وهما لنتان مثل نهر ونهر ونحفر ونحفر . ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو . (وَكَأَنَّا لَنَا خَاشِعِينَ) أي متواضعين خاضعين .

قوله تعالى : وَاللَّيْلِ أَخْضَصَتْ قَرَجَهَا فَفَتَقْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي أَحْصَيْتَ فَرْجَهَا ﴾ أى واذا كرمم التي أحصيت فرجها . وإنما ذكرها وليست من الأنبياء ليم ذكر عيسى عليه السلام ؛ ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ ولم يقل آيتين لأن معنى الكلام : وجعلنا شأنهما وأمرهما ونفسهما آية للعالمين . وقال الزجاج : إن الآية فيها واحدة ؛ لأنها ولدت من غير خل ؛ وعلى مذهب سيويه التقدير : وجعلنا آية للعالمين وجعلنا ابنا آية للعالمين ثم حذف . وعلى مذهب الفراء : وجعلنا آية للعالمين وابنها ؛ مثل قوله جل شأنه : « وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ » . وقيل : إن من آياتها أنها أول امرأة قبلت في النار في المتعب . ومنها أن الله عز وجل غذاها برزق من عنده لم يجرد على يد عبد من عبده . وقيل : إنها لم تلقم نديا قط . « وَأَحْصَيْتَ » يعنى عفت فامتنعت من الفاحشة . وقيل : إن المراد بالفرج فرج القميص ؛ أى لم تعلق بثوبها ربية ؛ أى إنها طاهرة الأنواب . وفروج القميص أربعة : الكنان والأعلى والأسفل . قال السهيلي : فلا يذهبن وهما إلى غير هذا ؛ فإنه من لطيف الكناية لأن القرآن أئزه معنى ، وأوزن لفظا ، وألف إشارة ، وأحسن عبارة من أن يريد ما يذهب إليه وهم الجاهل ، لاسيما والتفخ من روح القدس بأمر القدوس ، فاضف القدس إلى القدوس ، ونزه المقدسة المطهرة من الظن الكاذب والحدس . ﴿ فَفَعَّخْنَا فِيهَا مِنْ رُوْحِنَا ﴾ يعنى أمرنا جبريل حتى نفخ في درعها ، فأحدثنا بذلك النفخ المسيح في بطنها . وقد مضى هذا في « النساء » و « مريم » فلا معنى للإعادة . ﴿ آيَةً ﴾ أى علامة وأعجوبة للخلق ، وعلمها لنبوة عيسى ، ودلالة على نفوذ قدرتنا فيما نشاء .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ لما ذكر الأنبياء قال : هؤلاء كلهم مجتمعون حل التوحيد ؛ فالأمة هنا بمعنى الدين الذي هو الإسلام ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما . فاما المشركون فقد خالفوا الكل . ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ ﴾ أى إلهكم وحدي . ﴿ فَأَعْبُدُونِي ﴾ أى أفردوني بالعبادة . وقرأ عيسى بن عمرو بن أبى إسحق « إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً » ورواها

حسين عن أبي عمرو . الباقون «أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ» بالنصب على القطع يحسن التكرار بعد تمام الكلام ؛
 قاله القراء . الزجاج : انتصب «أُمَّةٌ» على الحال ؛ أى فى حال اجتماعها على الحق ؛ أى هذه
 أمتكم لما دامت أمة واحدة واجتمعتم على التوحيد ؛ فإذا تفرقتم وخالفتم فليس من خالف الحق
 من جملة أهل الدين الحق ؛ وهو كما نقول : فلان صديق عفيفا أى ما دام عفيفا فإذا خالف
 العفة لم يكن صديق . وأما الرفع فيجوز أن يكون على البذل من «أمتكم» أو على إصطار مبتدأ ؛
 أى إن هذه أمتكم ، هذه أمة واحدة . أو يكون خبرا بعد خبر . ولو نصبت «أمتكم» على
 البذل من «هذه» بلazar ويكون «أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ» خبر «إن» .

قوله تعالى : وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَهِنَا زَكِيٌّ ﴿١٣﴾ قَن
 يَعْمَلُ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُتُونَ ﴿١٤﴾
 قوله تعالى : (وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ) أى تفرقوا فى الدين ؛ قاله الكلبى . الأخفش :
 اختلفوا فيه . والمراد المشركون ؛ ذمهم لخالفه الحق ؛ وأتخاذم أمة من دون الله . قال
 الأزهرى : أى تفرقوا فى أمرهم ؛ فذهب «أمرهم» بحذف «ن» . فالتقطع على هذا
 لازم وعلى الأول متعدد . والمراد جميع الخلق ؛ أى جعلوا أمرهم فى أديانهم قطعا وتقسموه
 بينهم . فمن موحّد ، ومن يهودى ، ومن نصرانى ، ومن عابد ملك أو صنم . (كُلُّ إِلَهِنَا
 زَكِيٌّ) أى إلى حكمتنا لنجازهم .

قوله تعالى : (قَن يَعْمَلُ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ) «من» للتبويض لا للجنس إذ
 لا قدرة للكلف أن يأتى بجميع الطاعات فرضها ونفلها ؛ فالمعنى : من يعمل شيئا من الطاعات
 فرضا أو نفلا وهو موحّد مسلم . وقال ابن عباس : مصلحا بمحمد صلى الله عليه وسلم .
 (فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ) أى لا يحمود لعمله ؛ أى لا يضيع جزاؤه ولا ينطى . والكفر ضده
 الإيمان . والكفر أيضا بجهود النعمة ، وهو ضد الشكر . وقد كفره كفورا وكفرا ، وفى حرف
 ابن مسعود « فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ » . (وَإِنَّا لَهُ كَنُتُونَ) لعمله حافضون . نظيره «أنى لأضيقُ
 عملَ عايلٍ مِنكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ نَكْرٍ» أى كل ذلك محفوظ ليجازى به .

قوله تعالى : « وَحَرَّمَ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ » ﴿١٦٦﴾
 حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿١٦٧﴾
 وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثِيُولًا
 قَدْ نُكِيَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُفَّا ظَالِمِينَ ﴿١٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَحَرَّمَ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ قراءة زيد بن ثابت وأهل المدينة « وَحَرَامٌ » وهى أحبار أبى عبيد وأبى حاتم . وأهل الكوفة « وَحَرَمٌ » ورويت عن على وابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهم . وهما لغتان مثل جَلَّ وحَلَّلَ . وقد روى عن ابن عباس وسعيد بن جبير « وَحَرَمٌ » بفتح الحاء والميم وكسر الراء . وعن ابن عباس أيضا وعكرمة وأبى العالىسة « وَحَرَمٌ » بضم الراء وفتح الحاء والميم . وعن ابن عباس أيضا « وَحَرَمٌ » وعنه أيضا « وَحَرَمٌ » ، « وَحَرَمٌ » . وعن عكرمة أيضا « وَحَرَمٌ » . وعن قتادة ومطر الوراق « وَحَرَمٌ » تسع قراءات . وقرأ السائى « عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا » . واختلف فى « لا » فى قوله : « لَا يَرْجِعُونَ » فقيل : هى صلة ؛ روى ذلك عن ابن عباس ، واختاره أبو عبيد ؛ أى وحرام على قرية أهلكناها أن يرجعوا بعد الهلاك . وقيل : ليست بصلة ، وإنما هى ثابتة ؛ ويكون الحرام بمعنى الواجب ؛ أى وجب على قرية ؛ كما قالت الخنساء :

وَأِنْ حَرَامًا لَا أَرَى الدَّهْرَ بَارِكًا • عَلَى تَجَبُّوهِ إِلَّا بَكَيْتُ عَلَى حَضَرٍ

تريد أخاها ؛ ف « لا » ثابتة على هذا القول . قال النحاس : والآية مشكلة ومن أحسن ما قبل فيها وأجله مارواه ابن عيينة وابن عُلَيَّة وهشيم وابن إدريس ومحمد بن فضيل ومليان بن حبان ومعل بن داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس فى قول الله عز وجل : « وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا » قال : وجب أنهم لا يرجعون ؛ قال : لا يتوبون . قال أبو جعفر : واشتقاق هذا بين فى اللغة ، وشرحه : أن معنى حَرَمَ الشيء حُطِرَ ومنع منه ، كما أن معنى أحل أباح ولم يمنع منه ، فإذا كان « حَرَامٌ » و « حَرَمٌ » بمعنى واجب فمعناه أنه قد ضيق الخروج

مشه ومنع فقد دخل في باب المحذور بهذا؛ فأما قول ابن عبيد : إن « لا » زائدة فقد رده عليه جماعة؛ لأنها لا تزداد في مثل هذا الموضع، ولا فيما يقع فيه إشكال، ولو كانت زائدة لكان التأويل بعيدا أيضا؛ لأنه إن أراد حرام على قرية أهلها ما أن يرجعوا إلى الدنيا فهذا ما لا فائدة فيه، وإن أراد التوبة فالتوبة لا تُعْزَم. وقيل : في الكلام إسماعيل أي وحرام على قرية حكمنا باستئصالها، أو بانلحم على قلوبها أن يتقبل منهم عمل لأنهم لا يرجعون أي لا يتوبون؛ قاله الزجاج وأبو علي؛ و «لا» غير زائدة. وهذا هو معنى قول ابن عباس،

قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ تقدم القول فيهم . وفي الكلام حذف ؛ أي حتى إذا فتح سد يأجوج ومأجوج ، مثل « وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ » . ﴿ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ قال ابن عباس : من كل شرف يُقبلون ؛ أي لكنزهم ينسلون من كل ناحية . والحذب ما ارتفع من الأرض ، والجمع الحِدَاب ؛ مأخوذ من حذبة الظاهر ؛ قال حنفة : فَا رِعِثْ بِهَآي وَلَا أَرْدَهَانِي • تَوَاتُرُهُمْ إِلَىٰ مِنَ الْحَدَابِ وَقِيلَ : « يَنْسِلُونَ » يخرجون ؛ ومنه قول امرئ القيس :

• قَلَّ ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكَ تَنْسِلُ^(١) •

وقيل : يسرعون ؛ ومنه قول النابغة :

عَسَلَانِ الذَّنْبِ أَمْسَى قَارِبًا • بَرَدَ اللَّيْلُ عَلَيْهِ تَنْسِلُ^(٢)

يقال : عَسَلَ الذَّنْبُ بِمِثْلِ عَسَلَا وَعَسَلًا إذا اعتق وأسرع . وفي الحديث : « كَذَبَ عَلَيْكَ الْعَسَلُ » أي عليك بسرعة المشي . وقال الزجاج : والنَّسْلَانُ مِشْيَةُ الذَّنْبِ إذا أسرع ؛ يقال : نَسَلَ فلان في العدو يَنْسِلُ بالكسر والضم نَسْلًا ونُسْلًا ونَسْلَانًا ؛ أي أسرع . ثم قيل في الذين ينسلون من كل حدب : أنهم يأجوج ومأجوج ، وهو الأظهر ؛ وهو قول ابن مسعود وابن عباس . وقيل : جميع الخلق ؛ فإنهم يمشون إلى أرض الموقف ، وهم يسرعون من كل

(١) البيت من معلقته وصدده : • وَإِنْ تَكُ قَدْ سَأَلْتَكَ مِنْ حَلِيقَةٍ •

(٢) وقيل : هو ليد ، كما « السان » مادة « عسل » . (٣) التائب : الساريليا .

صوب . وقرئ في الشواذ « وَهُمْ مِنْ كُلِّ جَدَّتٍ يَنْسِلُونَ » أغذا من قوله : « فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاتِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ » . وحكى هذه القراءة المهدوي عن ابن مسعود والعلبي عن مجاهد وأبي الصهباء .

قوله تعالى : « وَأَقْرَبَ الْوَعْدِ الْحَقُّ » يعني القيامة . وقال الفراء والكاسي وغيرهما : الواو زائدة مفحمة والمعنى : حتى إذا فتحت أبواب الجنة وأجوج أقرب الوعد الحق « فَأَقْرَبَ » جواب « إذا » . وأنشد الفراء :

• فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الْحَقِّ وَأَتَخَى •

أى أتخى ، والواو زائدة ؛ ومنه قوله تعالى : « وَتِلْكَ لَآئِحَاتُ » وتأتيته . أى للبين ناديتاه . وأجاز الكاسي أن يكون جواب « إذا » « فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا » ويكون قوله : « وَأَقْرَبَ الْوَعْدِ الْحَقُّ » معطوفا على الفعل الذى هو شرط . وقال البصريون : الجواب محذوف والتقدير : قالوا يا ويلنا ؛ وهو قول الزجاج ، وهو قول حسن . قال الله تعالى : « وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى » المعنى : قالوا ما نعبدهم ، وحذف القول كثير .

قوله تعالى : « فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ » « هى » ضمير الأبصار ، والأبصار المذكورة بسددها تفسير لها ؛ كأنه قال : فإذا أبصار الذين كفروا شخصت عند مجيئ الوعد . وقال الشاعر :

نَسِمَرُ أَيُّهَا لَا تَفْسُدْ ظِلْعَيْتِي • أَلَا فَرَعْتُ مَالِكُ بْنُ أَبِي كَمْبٍ

فكنى عن الظئبية في أيها ثم أظهرها . وقال الفراء : « هى » عماد ، مثل « فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ » . وقيل : إن الكلام تم عند قوله : « هى » التقدير : فإذا هى ؛ بمعنى القيامة بارزة واقعة ، أى ينقربها كأنها آتية حاضرة ، ثم ابتدأ فقال : « شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا » هل تقدم أنخبر على الابتداء ، أى أبصار الذين كفروا شاخصة من هذا اليوم ، أى من هواء لا تكاد تطرف ؛ يقولون : يا ويلنا إنا كنا ظالمين بمصيبتنا ، ووضعنا العبادة في غير موضعها .

(هـ) لَيْتَ لَامَرَى النَّفْسِ مَعَهُ مِنْ سَقَطَةٍ وَرَمَاهُ •

• يَا بَطْنُ عَيْتٍ دَى ضَافٍ عَقْلٍ •

قوله تعالى : **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ** ﴿١٨﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : **﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾** قال ابن عباس : آية لا يسألني الناس عنها ! لا أدري أعرلها فلم يسألوا عنها ، أو جهرا فلا يسألون عنها ؛ ف قيل ، وما هي ؟ قال : **« إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ »** لما أزلت شق على كفار قريش ، وقالوا : شتم آلهتنا ، وأنوا ابن الزمري وأخبروه ، فقال : لو حصرت له ردت عليه . قالوا : وما كنت تقول ؟ قال : كنت أقول له : هذا المسيح نعمة النصارى واليهود تعبد صنما أفهما من حصص جهنم ؟ فنجبت قريش من مقاتله ، ورأوا أن هذا قد خضم ، فأزل الله تعالى : **« إِنَّ الْبَرِّ سَبَقَتْ لَهُمْ يَأْخُذُ أُولَئِكَ عَنْهَا مُعَذَّوْنَ »** وفيه نزل **« وَلَمَّا ضُرِبَ آلُ زَمْرٍ مَثَلًا »** يعني ابن الزمري **« إِذَا قُومُوا إِلَهُكُمُ يَكْفُرُونَ »** بكسر الصاد ؛ أي يضحجون ؛ وسبأني .

الثانية - هذه الآية أصل في القول بالعموم وأن له صنبا مخصوصة ، خلافا لمن قال : ليست له صيغة موضوعة للدلالة عليه ، وهو باطل بما دلت عليه هذه الآية وغيرها ؛ فهذا علم الله بن الزمري قد فهم « سا » في حالته جمع من عدد ، ووافقه على ذلك قريش وهم العرب الفصحاء ، واللسن البلاء ، ولو لم تكن للعموم لما صح أن يستثنى منها ، وقد وجد ذلك نهى للعموم وهذا واضح .

الثالثة - قراءة العامة بالصاذ المهملة ؛ أي إنكم يا معشر الكفار والأوثان التي تعبدونها من دون الله وقود جهنم ، قاله ابن عباس . وقال عاصم وعكرمة وفائدة : حطبا . وقرأ على ابن أبي طالب وعائشة رضوان الله عليهما **« حَطَبُ جَهَنَّمَ »** بالطاء . وقرأ ابن عباس **« حَصَبُ »** بالضاد المعجمة ، قال الفراء : يريد الحصب . قال : وذكر لنا أن الحصب في لغة أهل

ابن الحطاب ، وكل ما هيجت به النار وأوقدتها به فهو حَصَبٌ ؛ ذكره الجوهري .
 والموقد حَصَبٌ . وقال أبو عبيدة في قوله تعالى : « حَصَبُ جَهَنَّمَ » كل ما ألقته في النار
 فقد حصبتها . ويظهر من هذه الآية أن الناس من الكفار وما يبدون من الأصنام حطب
 لجهنم . ونظير هذه الآية قوله تعالى : « قَاتِلُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ » . وقيل :
 إن المراد بالهجارة الحجارة الكبرى ؛ على ما تقدم في « البقرة » وإن النار لا تكون على الأصنام
 صذايا ولا عقوبة ؛ لأنها لم تنب ، ولكن تكون عذابا على من جدعا ؛ أول شيء بالحسرة ،
 ثم تجمع على النار فتكون نارها أشد من كل نار ، ثم يبدؤون بها . وقيل : نعى فلفصق بهم
 زيادة في تعذيبهم . وقيل : إنما جعلت في النار تبيكتا لعبادتهم .

الرابعة - قوله تعالى : « أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ » أي فيها داخلون . والخطاب للمشركين
 عبدة الأصنام ؛ أي أنتم واردوها مع الأصنام . ويؤيد أن يقال : الخطاب للأصنام وعبتها ؛
 لأن الأصنام وإن كانت جمادات فقد يفرع عنها كتابات الآدميين . وقال العلماء : لا يدخل
 في هذا معنى ولا حزر ولا الملازمة صلوات الله عليهم ؛ لأن « ما » لغير الآدميين . فلو أراد
 ذلك لقال : « ومن » . قال الزجاج : ولأن المخاطبين بهذه الآية مشركو مكة دون غيرهم .

قوله تعالى : لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلَهِمَا وَرَدُّوْهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٠﴾
 لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠١﴾

قوله تعالى : « لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلَهُمَا وَرَدُّوْهَا » أي لو كانت الأصنام آلهة لما ورد
 ما يبدوها النار . وقيل : ما وردها المأبدون والمبدون ؛ ولهذا قال : « وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ » .
 قوله تعالى : « لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ » أي لهُؤُلَاءِ الذين وردوا النار من الكفار والشياطين ؛
 فاما الأصنام فعمل الخلف فيها ؛ هل يحبها الله تعالى ويحبها حتى يكون لها زفير أو لا ؟
 قولان : والزفير صوت نفس الممنوم يخرج من القلب . وقد تقدم في « هود » . (وَهُمْ فِيهَا

(١) راجع ١٠ ص ٢٤٥ وما بعدها طبع ثانية أو ثالثة .

(٢) راجع ٩٦ ص ٧٨ وما بعدها طبع أول أو ثانية .

لَا يَسْمَعُونَ ﴿ قِيلَ : فِي الْكَلَامِ حَذَفَ ، وَالْمَعْنَى وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ شَيْئًا ، لِأَنَّهُمْ يَحْشَرُونَ صَمَا ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمًى وَبُكَاءً وَتَمَجُّمًا » . وَفِي سَمَاعِ الْأَشْيَاءِ رُوحٌ وَأَنْسٌ ، فَفَعَلَ اللَّهُ الْكَفَارَ ذَلِكَ فِي النَّارِ ، وَقِيلَ : لَا يَسْمَعُونَ مَا يَسْمَعُونَ ، بَلْ يَسْمَعُونَ صَوْتَ مَنْ يَتَوَلَّى تَعَذِّبُهُمْ مِنَ الزَّبَانِيَةِ . وَقِيلَ : إِذَا قِيلَ لَهُمْ « اخْشَوْا نَارَهَا وَلَا تُكَلِّمُوا » يَصِيرُونَ حِينَئِذٍ صَمَا بَكَ ، كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : إِذَا بَقِيَ مِنَ يَخْلُدُ فِي النَّارِ فِي جَهَنَّمَ جَعَلُوا فِي تَوَابِتٍ مِنْ نَارٍ ، ثُمَّ جَعَلَتْ التَّوَابِتُ فِي تَوَابِتٍ أُخْرَى فِيهَا مَسَامِيرُ مِنْ نَارٍ ، فَلَا يَسْمَعُونَ شَيْئًا ، وَلَا يَرَى أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنْ فِي النَّارِ مِنْ يَعْذِّبُ غَيْرَهُ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٦١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً وَهُمْ فِي مَا كَانُوا أَنفُسُهُمْ يَخْلَدُونَ ﴿١٦٢﴾ لَا يُخْزِيهِمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ وَتَلْقَاهُمُ الْمَلَكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٦٣﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى ﴾ أى الجنة ﴿ أُولَٰئِكَ عَنْهَا ﴾ أى عن النار ﴿ مُبْعَدُونَ ﴾ فمضى الكلام الاستثناء ، ولهذا قال بعض أهل العلم : « إن » ها هنا بمعنى « إلا » . وليس في القرآن غيره . وقال محمد بن حاطب : سمعت علي بن أبي طالب رضى الله عنه يقرأ هذه الآية على المنبر « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى » فقال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إن هناك منهم » .

قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً ﴾ أى حس النار وحركة لها . والحسيس والحس الحركة . وروى ابن جريج عن عطاء قال قال أبو راشد الحرورى لابن عباس : « لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً » فقال ابن عباس : أعنون أنت؟ فأين قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » وقوله تعالى : « فَأُورِدَهُمُ النَّارَ » وقوله : « إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا » . ولقد كان من دعاء من مضى : اللهم أخرجنى من النار سالماً ، وأدخلنى الجنة قانراً ، وقال أبو هيثم الهمداني :

على الصراط حيات تلح أهل النار فيقولون : حَسَّ حَسَّ . وقيل : إذا دخل أهل الجنة لم يسموا حتى أهل النار وقبل ذلك يسمعون ، فانه أعلم . (وَمِمَّا أَشْتَبَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ) أي داعمون وهم فيا تشبه الأفعى وتلد الأعين . وقال : « وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَبَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ » .

قوله تعالى : (لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ) وقرأ أبو جعفر وابن محبصن « لَا يَحْزَنُهُمْ » بضم الياء وكسر الزاي ، الباقون بفتح الياء وضم الزاي . قال الزبيدي : حزنه لغة قريب ، وأحزنه لغة تميم ، وقد قرئ بهما . والفرع الأكبر أحوال يوم القيامة ، والبعث ، عن ابن عباس . وقال الحسن : هو وقت يؤمر بالعباد إلى النار . وقال ابن جريج وسعيد بن جبير والضحاك : هو إذا أطبقت النار على أهلها ، وذبح الموت بين الجنة والنار . وقال ذو النون المصري : هو القطعة والفراق . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة يوم القيامة في كتيب من المسك الأذفر ولا يحزنهم الفرع الأكبر رجل أم قوما غنسيا وهم له راضون ورجل أذن لقوم غنسيا ورجل ابتلى ريق في الدنيا فلم يشغله عن طاعة ربه » . وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن : مررت برجل يضرب غلاما له ، فأشار إلى الغلام ، فكلت مولاه حتى عفا عنه ، فقلت أبا سعيد الخدري فأخبرني ، فقال : يا بن أمي ! من أغاث مكرها أعظمه الله من النار يوم الفرع الأكبر سمعت ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم . (وَسَلَفَاهُمْ الْمَلَائِكَةُ) أي تستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهتفونهم ويقولون لهم : (هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) . وقيل : تستقبلهم ملائكة الرحمة عند خروجهم من القبور . عن ابن عباس : « هَذَا يَوْمُكُمْ » أي ويقولون لهم ، لحذف . « الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ » فيه الكرامة .

قوله تعالى : (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَاهُ أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) ١٠١

قوله تعالى : (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ) قرأ أبو جعفر بن الفعقاق وشيبة بن نصاح والأعرج والزهرى « نَطْوِي » بتاء مضمومة « السَّمَاءُ » رنما على ما لم يسم فاعله . مجاهد « يَطْوِي »

على معنى يطوى الله السماء . بالقول « تَطْوِي » بنون العظمة . وانتصاب « يوم » على البدل من المساء المحذوفة في الصلاة ؛ التقدير : الذي كنتم توعده يوم تطوى السماء . أو يكون منصوباً بـ « بعيد » من قوله : « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ » . أو بقوله : « لا يميزهم » أى لا يميزهم الفزع الأكبر في اليوم الذي تطوى فيه السماء . أو على إختصار وأذكر ، وأراد بالسماء الجلس ؛ دليله : « وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ » . (كَطَى السَّجَلُ لِلْكَتَابِ)^(١) قال ابن عباس ومجاهد : أى كطى الصحيفة على ما فيها ؛ فاللام بمعنى « على » . وعن ابن عباس أيضاً أُمّ كاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم وليس بالقوى ؛ لأن كُتِبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم معروفون ليس هذا منهم ؛ ولا في أصحابه من اسمه السَّجَلُ . وقال ابن عباس أيضاً وابن عمر والسدى : « السَّجَلُ » ملك ، وهو الذى يطوى كتب بنى آدم إذا رفعت إليه . ويقال : إنه في السماء الثالثة ، ترفع إليه أعمال العباد ، يرفعها إليه الحفظة الموكلون بالخلق في كل عيس واثنين ، وكان من أعزانه فيها ذكروا هاروت وماروت . والسجل الصك ، وهو اسم مشتق من السجالة وهى الكتابة ؛ وأصلها من السَّجَل وهو الذلوع ؛ تقول : ساجت الرجل إذا تزعمت ذلوعاً وتزع ذلوعاً ، ثم استعيرت فسميت المكتوبة والمراجعة مساجلة . وقد تبَّهَل الحَاكِمُ تسجيلاً . وقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب :

مَنْ يُسَاجِلُنِي يُسَاجِلُ مَاجِدًا • يَمْلَأُ الدُّلُوعَ إِلَى عَقْدِ الْكَرْبِ^(٢)

ثم بنى هذا الاسم على فِعْلٍ مثل جَزَّ وِطِمَزَ وِطِلَ . وقمراً أبو زرعة بن عمرو بن جرير « كَطَى السَّجَلُ » بضم السين والجيم وتشديد اللام . وقمراً الأعمش وطلحة « كَطَى السَّجَلُ » بفتح السين وإسكان الجيم وتخفيف اللام . قال النحاس : والمعنى واحد إن شاء الله تعالى . والتمام عند قوله : « لِلْكِتَابِ » . والطى في هذه الآية يَحْتَمِلُ معنيين : أحدهما — الذُّرْج الذى هو ضد النشر ، قال الله تعالى : « وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ » . والثانى — الإخفاء والتعمية والمحو ؛ لأن الله تعالى يحو ويطمس رسومها ويكدر نجومها .

(١) « الكتاب » بالإنفراد قراءة نافع : (٢) الكرب : حبل يشتد على حراقي الذلوع ثم يمشى ثم يمشى
يكون حراقي على المساء فلا يفتن الحبل الكثير .

قال الله تعالى : « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ » « وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ » . « لِئِكَتَابٍ » « وَنَمِ الْكَلَامُ . وقراءة الأعرش وحفص والكسائي ويحيى وخلف : « لِئِكَتَابٍ » « جَمَعْتُمْ أَسْتَأْنَفَ الْكَلَامِ فَقَالَ : (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ) »
 أى نحشرهم حفاة عراة غرلا كما بدؤوا فى البطون . وروى التّسائى عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يحشر الناس يوم القيامة عراة غرلا أول الخلق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام - ثم قرأ - « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ » « أخرجه مسلم أيضا عن ابن عباس قال : قام بينا رسول الله صلى الله عليه بموصلة فقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَحْشَرُونَ إِلَى اللَّهِ حَفَاةً عُرَاةً غُرْلًا » « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ »
 ألا وإن أول الخلق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام « وذكر الحديث . وقد ذكرنا هذا الباب فى كتاب « التذكرة » مستوفى . وذكر سفيان الثوري عن سالم بن كهيل عن أبي الزعراء عن عبد الله بن مسعود قال : برسل الله عز وجل ماء من تحت العرش كفى الرجال فنهبت منه ثيابهم وجسمانهم كما تنبت الأرض بالثرى . « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ » .
 وقال ابن عباس : المعنى نهلك كل شيء ونفسيه كما كان أول مرة^(١) ، وعلى هذا فالكلام متصل بقوله : « يَوْمَ تَطْغَى السَّيَاءُ » أى تطويها فتعيدها إلى الهلاك والفتاء فلا تكون شيئا .
 ونيل : نفى السماء ثم يعيدها مرة أخرى بعد طيها وزوالها ؛ كقوله : « يَوْمَ يُبَدَّلُ الْأَرْضُ خَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ » والقول الأول أحسن وهو نظير قوله : « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » وقوله عز وجل : « وَخَرِصُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » . « وَعَدًا » نصب على المصدر ؛ أى وعدنا وعدا (عَلَيْنَا) إيجابه والوفا به أى من البعث والإعادة ، ففى الكلام حذف . ثم أكد ذلك بقوله جل شأؤه : « إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » قال الزجاج : معنى « إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » إنا كنا قادرين على ما نشاء . وقيل : « إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » أى ما وعدناكم وهو كما قال : « كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا » . وقيل : « كَانَ » للإخبار بما سبق من فضائه . وقيل : صلة -

(١) هذا القول يحتاج إلى تدبر كما قال الأوسى .

قوله تعالى : وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ
يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَالِمِينَ ﴿١١٠﴾

قوله تعالى : (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ) الزبور والكتاب واحد ؛ وذلك جازان يقال
للتوراة والإنجيل زبور . زبرت أى كتبت وجمعه زُبر . وقال سعيد بن جبير : « الزبور »
التوراة والإنجيل والقرآن . (مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ) الذى فى السماء (أَنَّ الْأَرْضَ) أرض الجنة
(يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) رواه سفيان عن الأعمش عن سعيد بن جبير . الشهي : « الزبور »
زبور داود ، و « الذكر » توراة موسى عليه السلام . مجاهد وابن زيد : « الزبور » كتب
الأنبياء عليهم السلام ، و « الذكر » أم الكتاب الذى عند الله فى السماء . وقال ابن عباس :
« الزبور » الكتب التى أنزلها الله من بعد موسى على أنبيائه ، و « الذكر » التوراة المنزلة على
موسى . وقرا حمزة « فِي الزُّبُورِ » بضم الزاى جمع زُبر . « أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ »
أحسن ما قيل فيه أنه يراد بها أرض الجنة كما قال سعيد بن جبير ؛ لأن الأرض فى الدنيا
قد ورثها الصالحون وغيرهم . وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وقال مجاهد وأبو العالية :
ودليل هذا التأويل قوله تعالى : « وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ »
وعن ابن عباس : أنها الأرض المقدسة ، وعنه أيضا : أنها أرض الأمم الكافرة ترثها أمة محمد
صلى الله عليه وسلم بالفتح . وقيل : إن المراد بذلك بنو إسرائيل ؛ بدليل قوله تعالى : « وَأَوْرَثْنَا
الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَمُّونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا » وأكثر للمفسرين
على أن المراد بالعباد الصالحين أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقرا حمزة « عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ »
بتسكين الياء . (إِنَّ فِي هَذَا) أى فيما جرى ذكره فى هذه السورة من الوعد والتنبيه . وقيل :
إن فى القرآن (لِبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَالِمِينَ) قال أبو هريرة وسفيان الثوري : هم أهل الصلوات
الخمس . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : « عابدين » مطيعين . والعباد المتأمل الخاضع . قال
القشيري : ولا يبعد أن يدخل فيه كل عاقل ؛ لأنه من حيث الفطرة متذلل لخالقه ، وهو بحيث
لو تأمل القرآن واستعمله لأوصله ذلك إلى الجنة . وقال ابن عباس : هم أمة محمد صلى الله
عليه وسلم الذين يصلون الصلوات الخمس ويصومون شهر رمضان . وهذا هو القول الأول بعينه .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ إِلَهِي وَإِلَهِكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُلْ عَذَابُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أُدْرِىَ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾

قوله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) قال سفيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان عهد صلى الله عليه وسلم رحمة لجميع الناس فمن آمن به وصبق به سعد ، ومن لم يؤمن به سلم مما لحق الأمم من الخسف والفرق . وقال ابن زيد : أراد بالعالمين المؤمنين خاصة . قوله تعالى : (قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ إِلَهِي وَإِلَهِكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) فلا يسموز الإشراك به . (فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ) أى متقادون لتوحيد الله تعالى ؛ أى فاسلموا ؛ كقوله تعالى : « هَلْ أَنْتُمْ مُّتَّبِعُونَ » أى أتتوا .

قوله تعالى : (فَإِنْ تَوَلَّوْاْ) أى إن أعرضوا عن الإسلام (فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ) أى أعلمتكم على بيان أنا وإياكم حرب لاصلح بيننا ؛ كقوله تعالى : « وَإِنَّمَا تَخَافُونَ قَوْمَ خِيَانَةٍ فَانْهَيْدُوا يَوْمَئِذٍ عَلَىٰ سَوَاءٍ » أى أعلمهم أنك تقضت العهد نقضا ، أى استؤيت أنت وهم فليس لفرق . عهد ملتم في حق الفريق الآخر . وقال الزجاج : المعنى أعلمتكم بما يوحى إلى على استواء العلم به . ولم أظهر لأحد شيئا كتمته عن غيره . (وَإِنْ أُدْرِىَ) « إن » ثانية بمعنى « ما » أى وما أدرى . (أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ) يعنى أجل يوم القيامة لا يدريه أحد لا نبي مرسل ولا ملك مقرب ؛ قاله ابن عباس حويل : آذنتكم بالحرب ولكنى لا أدرى متى يؤذن لى فى عاربكم .

قوله تعالى : إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أُدْرِىَ لَعَلَّاهُ فِئْتَةٌ لَّكَرٍ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قُلْ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا أَرْحَمُ الرَّحِمِينَ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

قوله تعالى : (إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ) أى من الشرك وهو المجازى عليه . (وَإِنْ أُدْرِىَ لَعَلَّاهُ) أى لعل الإمهال (فِئْتَةٌ لَّكَرٍ) أى اختبار ليرى كيف صنيعكم

وهو أهمل . (وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ) قيل : إلى انقضاء المدة . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى بنى أمية في منامه يلون الناس ، فخرج الحكم من عنده فأخبر بنى أمية بذلك ؛ فقالوا له : ارجع فسله متى يكون ذلك . فأنزل الله تعالى « وَإِنْ أَذْرَىٰ أَقْرَبُ أَمْ يُبَدِّلُ مَا وُعِدُونَ » « وَإِنْ أَذْرَىٰ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ » يقول لنبيه عليه السلام قل لهم ذلك .

قوله تعالى : (قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ) ختم السورة بأن أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتوضيح الأمر إليه وتوقع الفرج من عنده ، أى أحكم بينى وبين هؤلاء المكذبين وانصرفي عليهم ما روى سعيد عن قتادة قال : كانت الأنبياء تقول : « رَبَّنَا أَنْتَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ » فامر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول : « رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ » فكان إذا لقي العدو يقول وهو يعلم أنه على الحق وعدوه على الباطل « رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ » أى أقض به . وقال أبو حنيفة : الصفة هاهنا أقيمت مقام الموصوف والتقدير : رب أحكم بحكمك الحق . و« رب » فى موضع نصب ؛ لأنه نداء مضاف . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وابن محيص « قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ » بضم الباء . وقال النحاس : وهذا لحن عند النحويين ؛ لا يجوز عندهم رجل أقبل ، حتى نقول يارجل أقبل أو ما أشبهه . وقرأ الضحاك وطاحه ويعقوب « قَالَ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ » بقطع الألف مفتوحة الكاف والميم مضمومة . أى قال مجد ربى أحكم بالحق من كل جاكم . وقرأ الجندرى « قُلْ رَبِّ أَحْكُم » على معنى أحكم الأمور بالحق . (وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا يَتَصِفُونَ) أى تصفونه من الكفر والتكذيب . وقرأ المفضل والسلمى « عَلَىٰ مَا يَتَصِفُونَ » بإلها على الظاهر . فالباقون بالناء على الخطأ .

(١) « قل » على صفة الأمر فأنع .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الحج

وهي مكية، يسو ثلاث آيات : قوله تعالى « هَذَانِ خَصَائِرُ » إلى قنهم ثلاث آيات ؛ قاله ابن عباس ومجاهد . وعن ابن عباس أيضاً أنهن أربع آيات ، إلى قوله « عَذَابُ الْحَرِيقِ » . وقال الضحاك وابن عباس أيضاً ؛ هي مدنية — وقاله قتادة — إلا أربع آيات : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ — إلى — عَذَابُ يَوْمٍ حَقِيمٍ » فهن مكيات . وهذا ما نزل بالمدينة عشر آيات . وقال الجمهور : السورة مختلطة ، منها مكي ومديني . وهذا هو الأصح ؛ لأن الآيات تنقض ذلك ، لأن « يَا أَيُّهَا النَّاسُ » مكية ، و « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » مدنية . « الْقُرْآنُ » : وهي من أحاجيب السور ، نزلت ليلاً ونهاراً ، سفرها وحضرها مكي ومدني ، سائياً وحرياً ، ناسخاً ومنسوخاً ، مُحْكَمًا ومُنشأها ، غنلف العدد .

قلت : وجاء في فضلها ما رواه الترمذي . وأبو داود والدارقطني عن عقبة بن عامر قال قلت : يا رسول الله ، فُضِّلَت سورة الحج بأن فيها سجدتين ؟ قال : « نعم ، ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما » . لفظ الترمذي . وقال : هذا حديث حسن ليس إسناده بالقوي .

واختلف أهل العلم في هذا ؛ فروى عن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — وابن عمر إنهما قالوا : فُضِّلَت سورة الحج بأن فيها سجدتين . وبه يقول ابن المبارك والشافعي وأحمد وإسحاق . ورأى بعضهم أن فيها سجدة واحدة ؛ وهو قول سفیان الثوري . روى الدارقطني عن عبد الله بن مغيرة قال : رأيت عمر بن الخطاب يسجد في الحج سجدتين ؛ قلت في الصبح ؟ قال في الصبح .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ** ①

روى الترمذي عن عمران بن حصين أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزل «يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم» إلى قوله - ولكن عذاب الله شديد » قال: أنزل عليه هذه الآية وهو في سفر فقال: «أتدرون أي يوم ذلك؟» فقالوا: الله ورسوله أعلم؛ قال: «ذلك يوم يقول الله لأدم أبثت بئس النار قال يا رب وما بئس النار قال تسعائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة». فأنشأ المساجدون يبيكون؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فأربوا وسددوا فإنه لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية - قال - فيؤخذ العدد من الجاهلية فإن تمت والآنجت من المنافقين وما مثلكم والأثم إلا كئيل الرقة في ذراع الدابة أو كالشامة في جنب البعير» - ثم قال - إني لأرجو أن تكونوا ربيع أهل الجنة - فكبروا؛ ثم قال - إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة - فكبروا؛ ثم قال - إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة - فكبروا. قال: لا أدري قال التلثين أم لا. قال: هذا حديث حسن صحيح، قد روى من غير وجه عن الحسن عن عمران بن حصين. وفيه: فيس القوم حتى ما أبدوا بضاحكة، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اعملوا وأبشروا فوالذي نفسي بيده إنكم لمع خليفتين ما كانتا مع شيء إلا كثرناه يا جوج وما جوج ومن مات من بني آدم وبني إيليس» قال: فسرى عن القوم بعض الذي يمدون؛ فقال: «اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده ما أتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير أو كالرقة في ذراع الدابة» قال: هذا حديث حسن صحيح. روى صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يقول الله تعالى يا أدم فيقول لبيك وسعديك والخير في يديك» - قال - يقول أخير بئس النار قال وما بئس النار قال من كل ألف تسعائة وتسعة وتسعين قال فذاك

(١) الرقة: الحمة الثانية في ذراع الدابة. (٢) الشامة: علامة تتخالف البدن التي هي في.

(٣) في بعض النسخ: «تسعائة وتسعة وتسعون» فالنصب على المقعولة، والرفع على الظهيرة.

حين تَشِيبُ الصَّغِيرَ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ
 مُذَاقَ اللَّهِ شَدِيدٌ». قال : فاشتد ذلك عليهم ؛ قالوا : يا رسول الله ، أينا ذلك الرجل ؟ فقال :
 «أبشروا فإن من ياجوج ومأجوج ألفا ومنكم رجل». وذكر الحديث نحو ما تقدم في حديث
 عمران بن حصين . وذكر أبو جعفر النحاس قال : حدثنا أحمد بن محمد بن نافع قال حدثنا
 سامة قال حدثنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال
 « يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم — إلى — ولكن عذاب الله شديد »
 قال : نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مسيره له ، فرفع بها صوته حتى نأب إليه أصحابه
 فقال : «أتدرون أي يوم هذا هذا يوم يقول الله عز وجل لأدم صلى الله عليه وسلم يا آدم قم
 فأبست ببنت أهل النار من كل ألف تسبائة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة» .
 فكبر ذلك فعل المسلمين ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «سددوا وفاربوا وأبشروا فوالذي
 نفسي بيده ما أتم في الناس إلا كالشامة في جنب البئر أو كالرقعة في ذراع الحمار وإن معكم
 خليفتين ما كانتا مع شيء إلا كثرتاه ياجوج ومأجوج ومن هلك من كثرة الجن والإنس» .
 قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ) المراد بهذا النداء المكفون ؛ أي أخشوه
 في أوامره أن تركوها ، وتوابعه أن تقدموا عليها . والآقاء : الإحتراس من المكروه ؛ وقد
 تقدم في أول « البقرة » القول فيه مستوفى ، فلا معنى لإعادته . والمعنى : احترموا بطاعتهم
 من عقوبته .

قوله تعالى : (إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) الزلزلة شدة الحركة ؛ ومنه « وَزَلَّزَلُوا حَتَّى
 يَقُولَ الرَّسُولُ ۙ » . وأصل الكلمة من زل عن الموضوع ؛ أي زال عنه وتحرك . وزلزل الله قلبه به
 أي حركها . وهذه اللفظة تستعمل في تهويل الشيء . وقيل : هي الزلزلة المعروفة التي هي إحدى
 شرائط الساعة ، التي تكون في الدنيا قبل يوم القيامة ؛ هذا قول الجمهور . وقد قيل : إن هذه
 الزلزلة تكون في النصف من شهر رمضان ، ومن بعدها طلوع الشمس من مغربها فانه أعلم .

قوله تعالى : **يَوْمَ تَرَوُنَّا تَدْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَهَٰؤُلَاءِ سَوَاءٌ لِّكَ يَوْمَئِذٍ كَذِبُ** .
عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝

قوله تعالى : (**يَوْمَ تَرَوُنَّا**) المراءى في « **تَرَوُنَّا** » حادثة عند الجمهور على الزلزلة ؛ ويقوى هذا قوله عز وجل « **تَدْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا** » .
والإرضاع والحمل إنما هو في الدنيا . وقالت فرقة : الزلزلة في يوم القيامة ؛ واحتجوا بحديث
يعمران بن حصين الذي ذكرناه ، وفيه : « **أتدرون أي يوم ذلك ...** » الحديث . وهو الذي
يقضيه صباغ مسلم في حديث أبي سعيد الخدري .

قوله : (**تَدْهَلُ**) أي تقتفل ؛ قاله قطرب . وأنتد :

صَرَبًا يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ يَقِيلِهِ • وَيُذِيلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

وقيل تسي . وقيل تلهو . وقيل تسلو ؛ والمعنى متقارب . (**عَمَّا أَرْضَعَتْ**) قال
المبرد : « ما » بمعنى المصدر ؛ أي تدهل عن الإرضاع . قال : وهذا يدل على أن هذه
الزلزلة في الدنيا ؛ إذ ليس بعد البعث حمل وإرضاع . إلا أن يقال : من ماتت حاملا
تُبْعَت حاملا فتضع حملها للهوى . ومن ماتت مُرْضِعَةً بُعِثَت كذلك . ويقال : هذا
كما قال الله عز وجل : « **بِئْسَ مَا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا** » . وقيل : تكون مع النسخة الأولى .
وقيل : تكون مع قيام الساعة ، حتى يتحرك الناس من فورهم في النسخة الثانية . ويحتمل أن
تكون الزلزلة في الآية عبارة عن أهوال يوم القيامة ؛ كما قال تعالى : « **سَنَسُفُهُمُ الْبَاسُ وَالْقَارُ** »
وَرُؤُوسُهُمْ » . وكما قال عليه السلام : « **اللهم أهزمهم وزلزمهم** » . وقائدة ذكر هؤل ذلك اليوم
التحريض على التأهب له والاستعداد بالعمل الصالح . وتسمية الزلزلة به شيء . إما لأنها

(١) في الأصول : « **بضرب** » والحسب من مرة ابن هشام . وفيه :

فمن نطقا كم على تأريه • كما فلك كم على تزيه

والإرجعية الله بن رواحة : أرتجوه وهو يفرد ماقة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة في حرة
القضاء . (راجع سيرة ابن هشام) . (٢) آية ٧٧ سورة المزمل . (٣) آية ٢١١ سورة البقرة .

حاصلة متيقن ونوعها ، فيستعمل لذلك أن تسمى شيئا وهي معدومة ؛ إذ اليقين يشبه الموجودات . وإما مل المسأل ؛ أي هي إذا وقعت شيء عظيم . وكأنه لم يطلق الاسم الآن ، بل المعنى أنها إذا كانت فهي إذا شيء عظيم ، ولذلك تفضل المراضع وتسكر الناس ؛ كما قال : ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى ﴾ أي من هولها وما يدركهم من الخوف والفرع . ﴿ وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ﴾ من الخمر . وقال أهل المعاني : ترى الناس كأنهم سكارى . يدل عليه قراءة أبي زرعة هريم بن عمرو بن جرير بن عبد الله « وَتَرَى النَّاسَ » بضم التاء ؛ أي تظن ويخيل إليك . وقرا حزة والكسائي « سُكَرَى » بغير ألف . الباقون « سُكَارَى » وهما لفتان جمع سكران ؛ مثل كمل وكسالى . والزلزلة : التحريك العنيف . والذهول : الغفلة عن الشيء بطروء ما يشغل عنه من هم أو رجع أو غيره . قال ابن زيد : المعنى ترك ولدها للركب الذي نزل بها .

قوله تعالى : **وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ يَقُولُ عَلَيْهِمْ وَيَبْسُغُ كُلُّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ۖ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١**

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ يَقُولُ عَلَيْهِمْ وَيَبْسُغُ ﴾ أي في قوله قال : إن الله عز وجل غير قادر على إحياء من قد بلى وعاد توابا . ﴿ وَيَبْسُغُ ﴾ أي في قوله ذلك . ﴿ كُلُّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾ متبذ . ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ ﴾ قال قتادة ومجاهد : أي من تولى الشيطان . ﴿ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

قوله تعالى : **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَيْتِ فَلَوْنَا خَلْقَنَّاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُفُوسٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخْلَقَةٍ وَغَيْرِ مُخْلَقَةٍ لَّنَبَيِّنَ لَكُم بَيِّنَاتٍ وَنُقَرِّي الْأَرْحَامَ مَا نَسَاءُ وَإِلَىٰ أَجْلِ مُّسَمًّى**

(١) في الأصول ، « بليان » .

الكتاب فإلك تجد فيها قصة هذه النطفة ، فينطلق فيجد قصتها في أم الكتاب ، فتخلق فتأكل رزقها وتطأ أثرها فإذا جاء أجلها قبضت فدفنت في المكان الذي قدر لها ، ثم قرأ عامر « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَيْتِ إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ » . وفي الصحيح عن أنس بن مالك - ورفع الحديث - قال : " إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أيُّ ربِّ نطفةٌ . أيُّ ربِّ علقةٌ . أيُّ ربِّ مُضْغَةٍ . فإذا أراد الله أن يخلق خلقا قال قال الملك أيُّ ربِّ ذَكَرَ أو أتَى شَيْءٌ أو سَعِدَ . فما الرزق فإ الأجل . فيكتب كذلك في بطن أمه " . وفي الصحيح أيضا عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا قرأ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم يقول أيُّ ربِّ أذكر أم أنثى ... " وذكر الحديث . وفي الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق " إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بطنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عِلَاقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يُرْسِلُ الْمَلَكُ فَيَنْفِخُ فِيهِ الرُّوحَ وَيُؤَمِّرُهُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ بِكُتُبِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَيْءٌ أَوْ سَعِيدٌ ... " الحديث . فهذا الحديث مفسر للأحاديث الأولى ، فإن فيه : " يُجْمَعُ خَلْقُ أَحَدِكُمْ فِي بطنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نطفةً ثُمَّ أَرْبَعِينَ يَوْمًا عِلَاقَةً ثُمَّ أَرْبَعِينَ يَوْمًا مُضْغَةً ثُمَّ يُبْعَثُ الْمَلَكُ فَيَنْفِخُ فِيهِ الرُّوحَ " فهذه أربعة أشهر وفي الشهر ينفخ الملك الروح ، وهذه عدة المتوفى [عنها زوجها] كما قال ابن عباس . وقوله " إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بطنِ أُمِّهِ " قد فسره ابن مسعود ، سئل الأعمش : ما يجمع في بطن أمه ؟ فقال : حدثنا خزيمة قال قال عبد الله : إذا وقعت النطفة في الرحم فأراد الله أن يخلق منها بشرا طارت في بشرة المرأة تحت كل ظفر وشعر ثم نمكت أربعين يوما ثم نصير دما في الرحم ، فذلك جمعها ، وهذا وقت كونها علقة .

الثالثة - نسمة الخلق والتصوير لئلا تكون نسبة مجازية لا حقيقية ، وأن ما صدر عنه فعل ما في المضغة كان عند التصوير والتشكيل بقدرة الله وخلقته واختراعه ، لا تراها سبحانه

قد أضاف إليه الخلقة الحقيقية ، وقطع عنها نسب جميع الخلقة فقال : « وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ^(١) » . وقال : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ^(٢) » . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَفْطَةً ^(٣) فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ^(٤) » . وقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنْ رَبِّبِ لَنَا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَفْطَةٍ ^(٥) » . وقال تعالى : « هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَتُحْكَمُ بَيْنَكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ » . ثم قال : « وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ ^(٦) » . وقال : « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ^(٧) » . وقال : « خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ^(٨) » . إلى غير ذلك من الآيات ، مع ما دلّت عليه قاطعات البراهين أن لا خالق لشيء من المخلوقات إلا ربّ العالمين . وهكذا القول في قوله : « ثُمَّ يُرْسِلُ الْمَلَكُ نَفْثًا فِيهِ الرُّوحَ » أي أت النفث سبب خلق الله فيها الروح والحياة . وكذلك القول في سائر الأسباب المعتمدة ، فإنه بإحداث الله تعالى لا غيره . فتأمل هذا الأصل وتمسك به ، ففيه النجاة من مذاهب أهل الضلال الطبيعيين وغيرهم ^(٩) .

الرابعة - لم يختلف العلماء أن نفث الروح فيه يكون بعد مائة وعشرين يوما ، وذلك تمام أربعة أشهر ودخوله في الخامس ، كما بيناه بالأحاديث ، وعليه يقول فيما يحتاج إليه من الأحكام في الاستحقاق عند التنازع ، وفي وجوب التفقات على حمل المطلقات ، وذلك لتيقنه بحركة الخنثين في الجوف . وقد قيل : إنه الحكمة في مدة المرأة من الوفاة بأربعة أشهر وعشر ، وهذا الدخول في الخامس يحقق برامة الرحم يبلوغ هذه المدة إذا لم يظهر حمل .

الخامسة - النطفة ليست بشيء يقينا ، ولا يتناقى بها حكم إذا ألقته المرأة إذا لم تجتمع في الرحم ، فهي كما لو كانت في صلب الرجل ، فإذا طرحتة ملقة فقد تحققت أن النطفة قد استقرت واجتمعت واستحالت إلى أول أحوال ما يتحقق به أنه ولد . وحمل هذا فيكون وضع الملقة لما فوقها من المضغة وضع حمل ، نبرا به الرحم ، وتنقض به العدة ، ويثبت به حكم أم الولد . وهذا مذهب مالك رضي الله عنه وأصحابه . وقال الشافعي رضي الله عنه :

- | | | |
|-----------------------------|----------------------------|------------------------|
| (١) آية ١١ سورة الأعراف . | (٢) آية ١٢ سورة المؤمنون . | (٣) آية ٢ سورة التين . |
| (٤) آية ٦٤ سورة طه . | (٥) آية ٤ سورة التين . | (٦) آية ٤ سورة التين . |
| (٧) في الأصل : « الطاهر » . | | |

لا اعتبار بإسقاط العلقه ، وإنما الاعتبار بظهور الصورة والتخطيط ؛ فإن خفي التخطيط وكان لحما فقولان بالثقل والتخرج ، والمنصوص أنه تنقضي به العدة ولا تكون أم ولد . قالوا : لأن العدة تنقضي بالدم الجاري ، فخيرهُ أولى .

السادسة - قوله تعالى : (**مُحَلِّقَةٍ وَغَيْرِ مُحَلِّقَةٍ**) قال الفراء : « محلقه » تامة الخلق ، « وغير محلقه » السقط ، وقال ابن الأعرابي : « محلقه » قد بدأ خلقها ، « وغير محلقه » لم تصوّر بعد . ابن زيد : المحلقه التي خلق الله فيها الرأس واليدن والرجلين ، وغير محلقه التي لم يخلق فيها شيء . قال ابن السري : إذا رجعنا إلى أصل الاشتقاق فإن النطفه والعلقه والمضغة محلقه ؛ لأن الكل خلق الله تعالى ، وإن رجعنا إلى التصوير الذي هو منتهى المحلقه كما قال الله تعالى : « **ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ** » فذلك ما قال ابن زيد .

قلت : التخليق من الخلق ، وفيه معنى الكثرة ، فما نتاج عليه الأطوار فقد خلق خلقا بعد خلق ، وإذا كان نطفه فهو مخلوق ؛ ولهذا قال الله تعالى : « **ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ** » والله أعلم . وقد قيل : إن قوله « **مُحَلِّقَةٍ وَغَيْرِ مُحَلِّقَةٍ** » يرجع إلى الولد بعينه لا إلى السقط ، أي منهم من يتم الرب سبحانه مضغته فيخلق له الأعضاء أجمع ، ومنهم من يكون خديجاً ناقصاً غير تمام . وقيل : المحلقه أن تلد المرأة تمام الوقت . ابن عباس : المحلقه ما كان حياً ، وغير المحلقه السقط . قال :

أف غير المحلقه البكاء « فأين الحزيم ويحك والحياه

السابعة - أجمع العلماء على أن الأمة تكون أم ولد بما تسقطه من ولد تام الخلق . وعند مالك والأوزاعي وغيرهما بالمضغة كانت محلقه أو غير محلقه . قال مالك : إذا علم أنها مضغة . وقال الشافعي وأبو حنيفة : إن كان قد تبين له شيء من خلق بني آدم أصبح أو عين أو غير ذلك فهي أم ولد . وأجمعوا على أن المولود إذا استحل صار حاملاً يصل عليه ، فإن لم يستحل صار حاملاً لم يصل عليه عند مالك وإبي حنيفة والشافعي وغيرهم . وروى عن ابن عمر أنه يصل عليه ؛ وقاله ابن المسيب وابن سيرين وغيرهما . وروى عن المنيرة بن شعبة أنه

كان يأمر بالصلاة على السقط ، ويقول سموم وأغسلوهم وكفونهم وحفظوهم ، فإن الله
أكرم بالإسلام كبيركم وصغيركم ، ويتلو هذه الآية « إنا خلقناكم من تراب - إلى - وغير
مخلقة » . قال ابن العربي : لعل المنيرة بن شعبة أراد بالسقط ما تبيّن خلقه فهو الذي
يسمى ، وما لم يتيّن خلقه فلا وجود له . وقال بعض السلف : يصل عليه متى نفخ فيه الروح
ومت له أربعة أشهر . وروى أبو داود عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله
عليه وسلم قال : « إذا استهلّ المولود ورث » . الاستهلال : رفع الصوت ، فكل مولود
كان ذلك منه أو حركة أو عطاس أو تنفس فإنه يرث لوجود ما فيه من دلالة الحياة .
والى هذا ذهب سفيان الثوري والأوزاعي والشافعي . قال الخطابي : وأحسنه قول أصحاب
الرأى . وقال مالك : لا ميراث له وإن تمحرك أو عطس ما لم يستهل . وروى عن محمد بن
سعيرين والشعمي والأزهري وقتادة .

الثامنة - قال مالك رضى الله عنه : ما طرحته المرأة من مضخة أو طقة أو ما يعلم
أنه ولد إذا ضرب بطنها ففيه الغزوة ^(١) . وقال الشافعي : لا شيء فيه حتى يتيّن من خلقه .
قال مالك : إذا سقط الجنين فلم يستهل صارخا ففيه الغزوة . وسواء تمحرك أو عطس فيه الغزوة
أبدا ، حتى يستهل صارخا ففيه الدية كاملة . وقال الشافعي رضى الله عنه وسائر فقهاء الأمصار :
إذا طلت حياته بحركة أو بطاس أو باستهلال أو بنز ذلك مما تستيقن به حياته ففيه الدية .

التاسعة - ذكر القاضي إسماعيل أن مدة المرأة تنقضى بالسقط الموضوع ، واحتج
عليه بأنه حمل ، وقال قال الله تعالى : « وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ » ^(٢) . قال
القاضي إسماعيل : والدليل على ذلك أنه يرث أباه ، فدل على وجوده خلقا وكونه ولدا وحمل .
قال ابن العربي : ولا يرتبط به شيء من هذه الأحكام إلا أن يكون مخلقا .

قلت : ما ذكرناه من الاشتقاق وقوله عليه الصلاة والسلام : « إن أحدم يجمع خلقه
فإن بطن أمه » يدل على صحة ما قلناه ، ولأن مسقطه الطقة والمضغة يصدق على المرأة إننا

(١) الفقرة بعد الفقرة : ما يقع من نصف عمر الفقة من السيد والإملا . (٢) آية ٤ : سورة البقرة .

ألقته لئلا كانت حاملا وضعت ما استقر في رحمها ، فيشملها قوله تعالى « وَأَوَّلَاتُ الْإِحْلَالِ أَجَلُنَّ أَلَّا يَفْعَنَ حَمَلُهُنَّ » . ولأنها وضعت مبدأ الولد عن نقطة متجسدا كالمخطوط ، وهذا بين .

العاشرة - روى ابن ماجه حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا خالد بن محمد حدثنا يزيد بن عبد الملك التوفلي عن يزيد بن رومان عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سقط أقدامه بين يدي أحب إلى من فارس أخلفه [خلق] »^(١) . وأخرجه الحاكم في معرفة علوم الحديث له عن سبيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة فقال : « أحب إلى من ألف فارس أخلفه ورأى » .

الحادية عشرة - (لَيْسَ لَكَ) يريد : كالقدرتنا بتصريفنا أطوار خلقكم . (وَيَمُزُّ فِي الْأَرْحَامِ) قرئ نصب « نقر » و « نخرج » ، رواه أبو حاتم عن أبي زيد عن الفضل عن حاتم قال قال أبو حاتم : النصب على العطف . وقال الزجاج : « نقر » بالرفع لا غير ؛ لأنه ليس المعنى : فلما ذلك لنقر في الأرحام ما نشاء ، وإنما خلقهم عز وجل ليذمهم على الرشد والصلاح . وقيل : المعنى لئلا لم أمر اليمث ؛ فهو اعتراض بين الكلامين . وقرئت هذه الفقرة بالرفع « ونقر » ؛ المعنى : ونحن نقر . وهي قراءة الجمهور . وقرئ : « ونقر » و « يخرجكم » بالياء ، والرفع على هذا سائق . وقرأ ابن وثاب « ما نشاء » بكسر النون . والأجل المسمى يختلف بحسب جنين جنين ، فتم من يسقط وتم من يكمل أمره ويخرج حيا . وقال « ما نشاء » ولم يقل من نشاء لأنه يرجع إلى الحمل ؛ أي يقرئ في الأرحام ما نشاء من الحمل ومن المضنة وهي حماد فكفى عنها بلفظ ما .

الثانية عشرة - قوله تعالى : (ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا) أي أطفالا ؛ فهو اسم جنس وأيضا فإن العرب قد تسمى الجمع باسم الواحد ؛ قال الشاعر :

يلحيتي في حبيبا ويأثني • إن المواذل ليس لي بأمين

(١) زيادة من متولين ماجه .

ولم يقل امرأة . وقال المبرد : وهو اسم يستعمل مصدرا كالرضا والسَّدْل ، فيقع على الواحد والجمع ، قال الله تعالى : « أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ » ^(١) . وقال الطبري : وهو نصب على التمييز ، كقوله تعالى : « فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا » ^(٢) . وقيل : المعنى ثم نخرج كل واحد منكم طفلا . والطفل يطلق من وقت انفصال الولد إلى البلوغ . ولعله كل وخشية أيضا طفل . ويقال : جارية طفل ، وجاريتان طفل ، وجواريتان طفل ، وغلّام طفل ، وغلّامان طفل . ويقال أيضا : طفل وطفلة وطفلان وطفلتان وأطفال . ولا يقال : طفلات . وأطلقت المرأة صارت ذات طفل . والمُطَفِّلَة : الظبية معها طفلها . وهي قرية عهد بالتاج . وكذلك الناقة ، [والجمع] مطائل ومطائل . والطفل (بالفتح في الطاء) الناعم : يقال : جارية طفلة أى ناعمة ، وبنان طفل . وقد طفل الليل إذا قبل ظلامه . والطفل (بالتحريك) : بعد العصر إذا طفت الشمس للغروب . والطفل (أيضا) : مطر ، قال :
 • يُؤْخِذُ جَادَهُ طَفْلُ السُّرْيَا • ^(٣)

(ثُمَّ تَبَيَّنُوا أُنْشَدُكُمْ) قيل : إن « ثم » زائدة كالواو في قوله « حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا » ؛ لأن ثم من حروف النسق كالواو . « أُنْشَدُكُمْ » كال عقولكم ونهاية قواكم . وقد مضى في « الأنعام » بيانه . (وَمِنْكُمْ مَنْ يَدْعُ إِلَى آرْتَالِ الْعُمَرِ) أى أخسسه وأدونه ، وهو الخسر وانحرف حتى لا يعقل ؛ ولهذا قال : (لِيَكَلَّا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ شَيْئًا) . كما قال في سورة يس : « وَمَنْ لِعَمْرِهِ تَنْكُصُ فِي الْخَلْقِ » . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو فيقول : « اللهم إني أعوذ بك من البُخل وأعوذ بك من الجُبْن وأعوذ بك أن أرتد إلى آرْتَالِ الْعُمَرِ وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر » . أخرجه النسائي عن سبعة ، وقال : وكان يعلّمهم به كما يعلم المكتيب الثمان . وقد مضى في النحل هذا المعنى . ^(٤)

(١) آية ٣١ سورة النور . (٢) آية ٤ سورة النساء . (٣) الرود والوادة : المظن من الخوض ، طلائع المنخفض كأنه حفرة . (٤) آية ٧٣ سورة الزمر . (٥) راجع ج ٧ ص ١٢٤ (٦) آية ٧٤ (٧) فلكب : للملم . (٨) راجع ج ٥ ص ١٤٠

قوله تعالى : (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً) ذكر دلالة أقوى على البعث فقال في الأزل : « فإنا خلقناكم من تراب » فغالبهما . وقال في الثاني : « وَتَرَى الْأَرْضَ » فغالب واحد ، فانفصل اللفظ عن اللفظ ، ولكن المعنى متصل من حيث الاحتجاج على منكرى البعث . (هَامِدَةً) يابسة لا تنبت شيئا ، قاله ابن جريج . وقيل : دارسة . والهمود الدروس . قال الأعشى :

قالت قُتَيْلَةُ ما لجسمك شاحِبًا * وأرى ثيابك باليات مُهْمَدًا

المترى : « هامة » أى جافة ذات تراب . وقال تميم : يقال : همد شجر الأرض إذا بلى وذهب . وهمدت أصواتهم إذا سكنت . وهمود الأرض ألا يكون فيها حياة ولا نبت ولا هود ولم يصبها مطر . وفي الحديث : « حتى كاد يهمد من الجوع » أى يهلك . يقال : همد الثوب يهمد إذا بلى . وهمدت النار تهمد .

قوله تعالى : (فَإِذَا أُنزِلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ) أى تحركت . والاهتزاز : شدة الحركة ؛ يقال : هزرت الشيء فاهتز ، أى حركته فتحرك . وهز الحادي الإبل هززا فاهتزت هى إذا تحركت فى سيرها بحدائه . واهتز الكوكب فى انقضاضه . وكوكب هاز . فالأرض تهتز بالنبات ؛ لأن النبات لا يخرج منها حتى يزيل بعضها من بعض إزالة خفية ؛ فلهذا اهتزازا مجازا . وقيل : اهتز نباتها ، فحذف المضاف ؛ قاله المبرد . واهتزازه شدة حركته ، كما قال الشاعر :

تَنَنَّى إِذَا قَامَتْ وَتَهَتَّرَ إِنْ مَنَتْ * كما اهتز غصن البان فى ورق خُفَر

والاهتزاز فى النبات أظهر منه فى الأرض . (وَرَبَّتْ) أى ارتفعت وزادت . وقيل : انتفضت ؛ والمعنى واحد ، وأصله الزيادة . وبأى الشيء يربو ويروى أى زاد ؛ ومنه الربا والريوة . وقرأ يزيد بن القعقاع وخالد بن إلياس « وَرَبَّتْ » أى اوشعت حتى صارت بمنزلة الرينة ، وهو الذى يحفظ القرم على شئ ، مُشْرِفٌ ؛ فهو رابى ورينة على الميافة . قال لعمركم فلفيس :

بَعَثْنَا رَيْبًا قَبْلَ ذَلِكَ مُجَلًّا * كَذَّبَ النَّفْثُ بِمَشَى الضَّرَاءِ وَيَتَّقِي^(١)

(وَأَنْبَتَ) أى أنجرت . (مِنْ كُلِّ زَوْجٍ) أى لَوْن . (يَبْهِيجُ) أى حسن ؛ عن قتادة .
أى يبهج من يراه . والبهجة الحسن ، يقال : رجل ذو بهجة . وقد بهج (بالضم) بهاجة وبهجة
فهو يبهج . وأبهجنى أعجنى بحسنه ؛ ولما وصف الأرض بالإنبات دل على أن قوله :
« أعترت وربت » يرجع إلى الأرض لا إلى النبات . والله أعلم .

قوله تعالى : ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتُمْ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنْتُمْ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ
مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : (ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّهِ هُوَ الْحَقُّ) لما ذكر افتقار الموجودات إليه وتسخيره
على وفق اقتداره واختاره في قوله : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنْ بَعْثِ — إلى قوله —
يَبْهِيجُ » . قال بعد ذلك : « ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتُمْ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنْتُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ » . وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ » . فنبه سبحانه وتعالى
ههنا على أن كل ما سواه وإن كان موجودا حقا فإنه لا حقيقة له من نفسه ؛ لأنه مسخر
مصروف . والحق الحقيق : هو الموجود المطلق الفنى المطلق ؛ وأن وجود كل ذى وجود
عن وجوب وجوده ؛ ولهذا قال في آخر السورة : « وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ »^(٢) .
والحق الموجود الثابت الذى لا يتغير ولا يزول ، وهو الله تعالى . وقيل : ذو الحق على
عباده . وقيل : الحق بمعنى فى أفعاله . وقال الزجاج : « ذَلِكَ » فى موضع رفع ؛ أى الأمر
ما وُصف لكم ويُنَبِّئُ . (يَأْنِ لِلَّهِ هُوَ الْحَقُّ) أى لأن الله هو الحق . قال : ويجوز أن يكون

(١) الخذل ؛ الذى يخل قسه ، أى يسترها ويقتبها فلا يشعر به السيد . والنفس ؛ الشجر ، والعرب تقول :
أعيت القتاب ذب النفس ؛ وإنما صار كذلك لأنه لا يباشر الناس إلا إذا أراد أن يغير . والضراء (بالفتح والمدة) ؛
الشجر الكثيف الذى يستر من دخل فيه . وتلقن بمشى الضراء ؛ إذا مشى مستغيا فيما يورى من الشجر .
(٢) آية ٦٢ (٢) فى بعض نسخ الأصل « وقيل الحق أى بمنى كذا فى أماله » .

« ذلك » نصبا ، أى فعل الله ذلك بأنه هو الحق . (وَأَنَّهُ يُخَيِّمُ الْمَوْتَى) أى بأنه (وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) أى وبأنه قادر على ما أراد . (وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ) عطف على قوله : « ذلك » بأن الله هو الحق « من حيث اللفظ وليس عطفاً بالمعنى ؛ إذ لا يقال فعل الله ما ذكر بأن الساعة آتية ، بل لا بد من إضمار فعل يتضمنه ؛ أى ولعلوا أن الساعة آتية (لَا يَتَّبِعُهَا) أى لا شك . (وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ) يريد الثواب والعقاب .

قوله تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ) ١٠ ثانياً عطفه ليضلل عن سبيل الله لهو في الدنيا بزيى ونذير . يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابُ الْحَرِيقِ ١١ ذَلِكَ بِمَا قَسَمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ١٢

قوله تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ) أى يترى الجملة . نزلت في النضر بن الحارث . وقيل : في أبي جهل بن هشام ، قاله ابن عباس . والمعظم على أنها نزلت في النضر بن الحارث كآية الأولى ، فهما في فريق واحد ، واليكبر للبالغة في القدم ، كما تقول للرجل تنقه وتوجهه : «أنت فعلت هذا ! أنت فعلت هذا ! ويؤيد أن يكون التكرير لأنه وصفه في كل آية بزيادة ؛ فكانه قال : إن النضر بن الحارث يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مرید ، والنضر بن الحارث يجادل في الله من غير علم ومن غير هدى وكتاب منير ؛ ليضل عن سبيل الله . وهو كفولك : زيد يشتمني وزيد بضري ، وهو تكرر مفيد ؛ قاله القشيري . وقد قيل : نزلت فيه بضع عشرة آية . فالمراد بالآية الأولى إنكاره البعث ، وبالثانية إنكاره النبوة ، وأن القرآن منزل من جهة الله . وقد قيل : كان من قول للنضر بن الحارث أن الملائكة بنات الله ، وهذا جدال في الله تعالى . « من » في موضع رفع بالابتداء . وانظر في قوله : (وَمِنَ النَّاسِ) . (ثانياً عطفه) نصيبه على الإطلاق . وسأقول على معنيين : أحدهما — روى عن ابن عباس أنه قال : هو النضر بن الحارث .

لَرَى عِظَهُ مَرَّحًا وَصَفًا . والمعنى الآخر - وهو قول الفراء - إن التفسير : ومن الناس من يجادل في الله بغير علم فإني عطفه ، أي مُعْرِضًا عن الذكر ، ذكره النحاس . وقال مجاهد وقادة : لا يَرَى عِظَهُ كَفَرًا . ابن عباس : مُعْرِضًا عما يُدْعَى إِلَيْهِ كَفَرًا . والمعنى واحد . وروى الأوزاعي عن محمد بن حسين عن هشام بن حسان عن ابن عباس في قوله عز وجل : « فَأَنَّى عِظْتَهُ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » قال : هو صاحب البدعة . للبرد : العِظْف ما انتهى من البتق . وقال المفضل : والعطف الجانب ، ومنه قولهم : فلان ينظر في أعطافه ، أي في جوانبه . وعطفًا الرجل من قُدُن رأسه إلى قَرْنَيْهِ . وكذلك عطفًا كل شيء جانباه . ويقال : تَنَى فلان عن عِظفه إذا أمرض عنك . فالمعنى : أي هو معرض عن الحق في جداله ومُؤَلَّ عن النظر في كلامه ، وهو كقوله تعالى : « وَلَى مُسْتَكْبِرًا كَان لَمْ يَسْمَعْهَا » . وقوله تعالى : « ثَوَرًا رُخْوسًا » . وقوله : « أَعْرَضَ وَتَأَيَّ بِجَانِبِيهِ » . وقوله : « ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَمُتِلُ » . (لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) أي عن طاعة الله تعالى . وقرئ : لِيُضِلَّ . ففتح الياء . واللام لام العاقبة ، أي يجادل فيضل ؛ كقوله تعالى : « لِيَكُونَ لَهُمْ مَدْرَأً وَحَرًّا » أي فكان لهم كذلك . ونظيره : « إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشِيرُونَ . لِيَكْفُرُوا » . (لَهُ فِي الدُّنْيَا حِزْبٌ) أي هوان ونذل بما يجري له من الذكر الصريح على السنة المؤمنين إلى يوم القيامة ؛ كما قال : « وَلَا يُطِيعُ كُلُّ جَلَّالٍ مَهِيْنٌ » الآية . وقوله تعالى : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ » . وقيل : الخزي ها هنا القتل ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قتل النضير بن الحارث يوم بدر صبرًا ؛ كما تقدّم في آخر الأفعال . (وَيَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَذَاقَ الْحَرِيقِ) أي نار جهنم . (ذَلِكَ وَمَا قَدَّمْتُ بِتَالِكِ) أي يقال له في الآخرة إذا دخل النار : ذلك العذاب بما قدمت يدك من المعاصي والكفر . وعبر باليد من الجملة ؛ لأن اليد التي تفعل وتبطل للجملة . و « ذَلِكَ » بمعنى هذا ، كما تقدّم في أول البقرة .^(٨)

- (١) آية ٧ سورة لقمان . (٢) آية ٥٤ سورة المائدة . (٣) آية ٨٣ سورة الإسراء .
(٤) آية ٢٣ سورة القلم . (٥) آية ٨ سورة القصص . (٦) آية ٥٤ سورة النبا .
(٧) آية ٥٠ سورة القلم . (٨) راجع ج ١ ص ١٥٧ طبع ثانية أريد .

قوله تعالى : **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الَّذِينَ وَالَآيَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمُبِينُ ١١**

قوله تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ) « من » في موضع رفع بالابتداء ، والتمام « أَقْلَبَ عَلَى وَجْهِهِ » على قراءة الجمهور « خسر » . وهذه الآية خبر عن المنافقين . قال ابن عباس : يريد شيعة بن ربيعة كان قد أسلم قبل أن يظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فلما أوحى إليه كونه شيعة بن ربيعة . وقال أبو سعيد الخدري : أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله ؛ فتشامى بالإسلام قال النبي صلى الله عليه وسلم قل : أفتي ! فقال : « إن الإسلام لا يُقال » فقال له : أفتي ! لم أصب في ديني هذا خبرا ! ذهب بصرى ومالى وولدى ! فقال : « يا يهودى ! إن الإسلام يسبك الرجال كما تسبك النار تخبت الحديد والفضة والذهب » ؛ فأنزل الله تعالى « ومن الناس من يعبد الله على حرف » . وروى إسرائيل عن أبي حصين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : « ومن الناس من يعبد الله على حرف » قال : كان الرجل يقدم للمدينة فإن ولدت أمراؤه خلافا ونجحت خيله قال هذا دين صالح ؛ فإن لم تلد أمراؤه ولم تنتج خيله قال هذا دين سوء وقال المفسرون « نزلت في لصراب كانوا يقدمون على النبي صلى الله عليه وسلم فيسلمون ؛ فإن نالوا رغاء أقاموا » وإن نالهم شدة ارتدوا . وقيل نزلت في النضر بن الحناظ . وقال ابن زيد وغيره : نزلت في المنافقين . ومعنى (على حرف) على شك ؛ قاله جماعة وغيره . وحقيقته أنه على ضعف في عبادته ، كضعف القائم على حرف مضطرب فيه . وحرف كل شئ طرئه وشغيره وسداه ومنه حرف الجبل ، ودر أعلاه المحمد . وقيل : « على حرف » أى على وجه واحد ، وهو أن يعبدوا على السراء دون الضراء ؛ ولو عبدوا الله على الشكر في السراء والصبر على الضراء لما عبدوا الله على حرف . وقيل : « على حرف » على شرط ؛ وذلك أن شيعة بن ربيعة قال للنبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يظهر أمره : أدعنى إليك لأن يرضى عالا وإلا

وخيلا وولنا حتى أومِنَ بِهِ وَأَعْدِلَ إِلَى دِينِكَ ؛ فَدَعَا لَهُ فَرَزَقَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا تَمَنَّى ؛ ثُمَّ أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِتْنَتَهُ وَابْتَلَاهُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِ فَأَخَذَ مِنْهُ مَا كَانَ رِزْقَهُ بَعْدَ أَنْ أَسْلَمَ فَأَرْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ فَأَنزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيهِ : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْعِدُ اللَّهُ عَنِ حَرْفٍ » يريد شرط . وقال الحسن : هو المنافق يبعد الله بلسانه دون قلبه . وبالجملة فهذا الذي يبعد الله على حَرْفٍ لَيْسَ دَاخِلًا بِكَلْبَتِهِ ؛ وَبَيْنَ هَذَا قَوْلُهُ : « فَإِنَّ أَصَابَهُ خَيْرٌ » حَصَّةُ جَسْمٍ وَرِخَاءُ مَعِيشَةٍ رَضَى وَأَقَامَ عَلَى دِينِهِ . « وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ » أَيْ خِلَافُ ذَلِكَ مِمَّا يَخْتَارُ بِهِ « أَتَقَلَّبَ عَلَى وَجْهِهِ » أَيْ أَرْتَدَّ فَرَجَعَ إِلَى وَجْهِهِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ . « خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْمُتَحَرِّرَانِ الْمُتَمَيِّنَانِ » قَرَأَ مُجَاهِدٌ وَحَمِيدُ بْنُ فَيْسٍ وَالْأَعْرَجُ وَالزَّهْرِيُّ وَأَبْنُ أَبِي إِسْحَاقَ - وَرَوَى عَنْ يَعْقُوبَ - « خَيْرَ الدُّنْيَا » بِأَنْفٍ نَصَبًا عَلَى الْحَالِ ، وَعَلَيْهِ فَلَا يُوَقِّفُ عَلَى « وَجْهِهِ » . وَخُسْرَانُهُ الدُّنْيَا بِأَنْ لَا حَظَّ لَهُ فِي غَنِيمَةٍ وَلَا ثَمَاءٍ ، وَالْآخِرَةُ بِأَنْ لَا ثَوَابَ لَهُ فِيهَا .

قوله تعالى : يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١١﴾

قوله تعالى : « يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ » أَيْ هَذَا الَّذِي يَرْجِعُ إِلَى الْكُفْرِ يَبْعِدُ الصِّمَّ الَّذِي لَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ . « ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ » قَالَ الزَّيْلَعِيُّ : الطَّوِيلُ .

قوله تعالى : يَدْعُوا لِمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْتَ لِمَنِ الْقَوْلُ وَلَكِنَّ الْغَاشِيَةَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : « يَدْعُوا لِمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ » أَيْ هَذَا الَّذِي انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ يَدْعُو مَنْ ضَرُّهُ لَدُنِي مِنْ نَفْعِهِ ؛ لَمْ يَكُنْ فِي الْآخِرَةِ لِأَنَّهُ بِعِبَادَتِهِ دَخَلَ النَّارَ ، وَلَمْ يَرْجَعْ مِنْهُ نَفْعًا أَصْلًا ، وَلَكِنَّهُ قَالَ : ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ تَرْقِيبًا لِلْكَلَامِ ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » . وَقِيلَ : يَبْعِدُونَهُمْ تَوَعُّدًا أَنَّهُمْ يَسْمَعُونَ لَهُمْ فَعَلًا ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿١﴾ آيَةُ ٢٤ سُورَةِ سَبَأٍ .

« وَيَسُبُّونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ »
 وقال تعالى : « مَا تَسْبُهُمْ إِلَّا لِيُقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى » . وقال الفراء والكسائي والزجاج : معنى
 الكلام القسم والتأخير ؛ أى يدعو والله لمن ضره أقرب من نفعه . فاللام مقدمة في خبر
 موضعها . و « مَنْ » في موضع نصب بـ « يدعو » واللام جواب القسم . و « ضره » مبتدأ .
 و « أَقْرَبُ » خبره . وضمف النحاس تأخير اللام وقال : وليس لآدم من التصرف ما يوجب
 أن يكون فيها تقديم ولا تأخير .

قلت : حق اللام التقديم وقد توتر ؛ قال الشاعر :

خَالِي لَأَنْتَ وَمَنْ جَرِيرُ خَالِهِ • يَنْبِلُ الْمَلَأَ وَيُكْرِمُ الْأَخْوَالَ

أى نظالى أنت ؛ وقد تقدم . النحاس : وحكى لنا علي بن سليمان عن محمد بن يزيد قاله :
 في الكلام حذف ؛ والمعنى يدعو لمن ضره أقرب من نفعه إلها . قال النحاس : وأحسبه
 هذا القول خطأ على محمد بن يزيد ؛ لأنه لا معنى له ، لأن ما بعد اللام مبتدأ فلا يجوز نصبه
 إله ، وما أحسب مذهب محمد بن يزيد إلا قول الأخفش ، وهو أحسن ما قيل في الآية
 عندي ، والله أعلم ، قال : « يدعو » بمعنى يقول . و « مَنْ » مبتدأ وخبره محذوف ، والمعنى
 يقول لمن ضره أقرب من نفعه إله .

قلت : وذكر هذا القول القشيري رحمه الله عن الزجاج والمهدوي عن الأخفش ؛ وكل
 إعرابه فقال : « يدعو » بمعنى يقول ، و « مَنْ » مبتدأ ، و « ضره » مبتدأ ثان ، و « أَقْرَبُ »
 خبره ، والجملة صلة « مَنْ » ، وخبر « مَنْ » محذوف ، والتقدير يقول لمن ضره أقرب من
 نفعه إله ؛ ومثله قول حنيفة :

يَدْعُونَ مَسْتَرًّا وَالرَّاحَ كَأَنَّهُ • أَشْطَانُ بَرٍّ فِي بَابِ الْأَدْعَمِ^(٢)

قال القشيري : والكافر الذى يقول الصنم معبودى لا يقول ضره أقرب من نفعه ؛ ولكن
 المعنى يقول الكافر لمن ضره أقرب من نفعه في قول المسادين معبودى وإلهى . وهو كقولهم :

(١) آية ٢٨ سورة يونس . (٢) سورة الزمر . (٣) الأشطان : جمع شطان ، جمع شنان ، وهو حبل
 البئر . والبيان (يفتح اللام) : الصدر . والأدم : الفرس . يريد أن الرياح في صدر هذا الفرس بمنزلة حبال البئر من
 الدلاء ؛ لأن البئر إذا كانت كثيرة الجركة اضطربت الدلو فيها فيجعل لها حبلان فلا تفسطرب . (من شرح المعلقات)

تعالى . «يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ» ؛ أى يابها الساحر عند أولئك الذين يدعونك ساحرا .
وقال الزجاج : يجوز أن يكون «يدعو» فى موضع الحال ؛ فيه هاء محذوفة ؛ أى ذلك هو
الضلال البعيد يدعوه ، أى فى حال دعائه إياه ؛ ففى «يدعو» هاء مضمرة ، ويوقف على
هذا على «يدعو» . وقوله : «لَمَنْ ضَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ» كلام مستأنف مرفوع بالابتداء ،
وخبره «لَيْثَسُ الْمَوْتَى» ، وهذا لأن اللام لليمين والتوكيد بغلها أول الكلام . قال الزجاج :
ويطوّل أن يكون «ذلك» بمعنى الذى ، ويكون فى محل النصب بوقوع «يدعو» عليه ؛ أى
الذى هو الضلال البعيد يدعو ؛ كما قال : «وَمَا تِلْكَ يَتِيمَتِكَ يَا مُوسَى» أى ما الذى . ثم قوله
«لَمَنْ ضَرَّهُ» كلام مبتدأ ، و«لَيْثَسُ الْمَوْتَى» خبر المبتدأ ؛ وتقدير الآية على هذا : يدعو الذى
هو الضلال البعيد ؛ قدم المفعول وهو الذى ؛ كما تقول : زيدا يضرب ؛ واستحسنه أبو على .
وزعم الزجاج أن النحويين أغفلوا هذا القول ؛ وأنشد :

مَدَسْ مَا لَبَّادٍ عَلَيْكَ إِمَارَةٌ تَجَسَّوَتْ وَهَذَا تَحْمِيلُ طَلِيقٍ^(٢)

أى والذى . وقال الزجاج أيضا والقزواء : يجوز أن يكون «يدعو» مكرّرة على ما قبلها ،
على جهة تكثير هذا الفعل الذى هو الدعاء ، ولا تمدّيه إذ قد عدّته أولا ؛ أى يدعو من دوا
الله ما لا ينفعه ولا يضره يدعو ؛ مثل ضربت زيدا ضربت ، ثم حذف يدعو الأجرة
إكتفاء بالأولى . قال القزواء : ويحذف «لَمَنْ ضَرَّهُ» بكسر اللام ؛ أى يدعو إلى من ضره
أقرب من نفعه ، قال الله عز وجل : «بِأَنَّ رَبَّكَ لَطِيفٌ لِّمَا» أى إليها . وقال القزواء أيضا
والفقال : اللام صلة ؛ أى يدعو من ضره أقرب من نفعه ؛ أى يعبده . وكذلك هو فى قراءة
عبد الله بن مسعود . (لَيْثَسُ الْمَوْتَى) أى فى التناصر (وَلَيْثَسُ الْعَشِيرُ) أى المعاشر والصاحب
والخليل . مجاهد : يعنى الوثن .

(١) آية ٩ سورة الزمر . (٢) هذا البيت أول آيات ليزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميرى . وروى
قزير الليل ليرى . وعبد هو ابن زياد أخو عبد الله بن زياد الذى قاتل الحسين بن على رضى الله عنهما فى كربلاء .
عجا ابن مفرغ هذا عبدا لحقد عليه وجرّاه فأخذه أخوه عبد الله وجسبه وعذبه ، فلما طال حبسه دخل أهل اليمن إلى
بنهارية ففتقوا فيه فأطلق سراحه . (راجع ترجمه فى كتاب التمر والشمر لابن تينة وخراتة الأدب للبندادى فى الشاهد
الثالث بعد الثالثة والثامن والعشرين بعد الأربائة) .

قوله تعالى : **إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ** ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ لما ذكر حال المشركين وحال المنافقين والشياطين ذكر حال المؤمنين في الآخرة أيضا . (إن الله يفعل ما يريد) أى يشيئ من يشاء وينفذ من يشاء ، فله يؤمِّن الجنة بحكم وعده الصديق وبفضله ، وللكافرين النار بما سبق من نذله ؛ لا أن فعل الرب معال بفعل العبيد .

قوله تعالى : **مَنْ كَانَ يَظُنْ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ** ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ قال أبو جعفر النحاس : من أحسن ما قيل فيها أن المعنى من كان يظن أن لن ينصر الله عبدا صلى الله عليه وسلم وأنه يتبأ له أن يقطع النصر الذى أوتيه ، ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ أى فليطلب حيلة يصل بها إلى السماء . ﴿ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾ أى ثم ليقطع النصر إن تبأ له . ﴿ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ﴾ وحيلته ما يغيظه من نصر النبي صلى الله عليه وسلم ، والفائدة في الكلام أنه إذا لم يتبأ له الكيد والحيلة بأن يفعل مثل هذا لم يصل إلى قطع النصر . وكذا قال ابن عباس : إن الكاكية في « ينصره الله » ترجع إلى مجد صلى الله عليه وسلم ، وهو وإن لم يمر ذكره بجميع الكلام دال عليه ؛ لأن الإيمان هو الإيمان بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، والافتلاب عن الدين انقلاب عن الدين الذى أتى به مجد صلى الله عليه وسلم ؛ أى من كان يظن ممن يمدى عبدا صلى الله عليه وسلم ومن يعبد الله على حرفة أنا لا تنصر عبدا فيفعل كما نكنا . وعن ابن عباس أيضا أن الهاء تعود على « من » والمعنى : من كان يظن أن الله لا يرزقه فليخندق ، فليقتل نفسه ؛ إذ لا خير في حياة تخلو من عون الله . والنصر على هذا القول الرزق ؛

تقول العرب : من ينصرف نصره الله ؛ أي من أعطاني أعطاه الله . ومن ذلك قول العرب :
أرض منصورة ؛ أي مطبورة . قال الفقيهي^(١) :

وانك لا تعطى امراً فسوق حقه • ولا تملك الشئ الذي النيت ناصره

وكذا روى ابن أبي تجيج عن مجاهد قال : « من كان يظن أن لن ينصره الله » أي لن يرزقه .
وهو قول أبي عبيدة . وقيل : إن الماء تعود على الذين ؛ والمعنى : من كان يظن أن لن ينصر
الله دينه . (فَلْيَمْدُدْ لِسَبَبٍ) أي يجبل . والسبب ما يتوصل به إلى الشيء . (إلى السماء) إلى
سقف البيت . ابن زيد : هي السماء المعروفة . وقرأ الكوفيون « ثم ليقطع » بإسكان اللام .
قال النحاس : وهذا بعيد في العربية ؛ لأن « ثم » ليست مثل الواو والفاء ؛ لأنها يوقف عليها
وتنفرد . وفي قراءة عبد الله « فليقطعه ثم لينظر هل يذهبن كيدَه ما يفيظ » . قيل : « ما »
بمعنى الذي ؛ أي هل يذهبن كيدَه الذي يفيظه ، فحذف الماء ليكون أخف . وقيل : « ما »
بمعنى المصدر ؛ أي هل يذهبن كيدَه فيظه .

قوله تعالى : وَكَذَلِكَ أَرْزَلْنَاهُ آيَاتِهِ بَيْنَتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي
مَنْ يُرِيدُ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : (وَكَذَلِكَ أَرْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ) يعنى القرآن . (وَأَنَّ اللَّهَ) أي وكذلك
أن الله (يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ) ، علق وجود الهداية بإرادته ؛ فهو الهادي لا هادي سواه .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالنَّصْرَى
وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا) أي بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم . (وَالَّذِينَ هَادُوا)
اليهود ، وهم المنتسبون إلى ملة موسى عليه السلام . (وَالصَّالِحِينَ) هم قوم يعبدون النجوم .

(١) في الأصول الفقيهي . والصواب عن حمزة الطبري .

(وَالنَّاصِرَى) هم المشركون إلى ملة عيسى . (وَالْمُجْرِبُونَ) هم عبدة النيران الغائبين أن العالم أصليين ؛ نور وظلمة . قال قتادة ؛ الأديان خمسة ؛ أربعة للشيطان وواحد للرحمن . وقيل ؛ المجوس في الأصل النحوس لتدنيهم باستعمال النجاسات ؛ وللمم والنون يتعاقبان كالنجم والنبتين ، والأينم والأين . وقد مضى في البقرة هذا كله مستوفى . (وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا) هم العرب عبدة الأوثان . (إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) أى يقضى ويحكم ؛ فللكافرين النار ، وللمؤمنين الجنة . وقيل ؛ هذا الفصل بأن يعرفهم الحق من المبطل بمعرفة ضرورية ، واليوم يتميز الحق عن المبطل بالنظر والاستدلال . (إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) أى من أعمال خلقه وحركاتهم وأقوالهم ، فلا يحزب عنه شيء منها ، سبحانه ! وقوله « إن الله يفصل بينهم » خبر « إن » في قوله « إن الذين آمنوا » ؛ كما تقول ؛ إن زيدا إن الحسير عنده . وقال الفراء ؛ ولا يجوز في الكلام إن زيدا إن أخاه منطلق ؛ وزعم أنه إنما جاز في الآية لأن في الكلام معنى المجازاة ؛ أى من آمن ومن تهود أو تنصر أو صبا يفصل بينهم ، وحسبهم على الله عز وجل . ورد أبو إسحاق على الفراء هذا القول ، واستفتح قوله ؛ لا يجوز إن زيدا إن أخاه منطلق ؛ قال ؛ لأنه لا فرق بين زيد وبين الذين و« إن » تدخل على كل مبتدأ فتقول إن زيدا هو منطلق ، ثم تاتي بإك فتقول ؛ إن زيدا إنه منطلق . وقال الشاعر ؛

إن الخليفة إن الله سربله • سربال عز به ترحى الخواتيم^(١)

قوله تعالى ؛ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَتَّى عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُبَيِّنُ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾

(١) الجامع ج ١ ص ٢٢ ؛ طبع ثانية أرنالفة . (٢) روي ؛ « دحس » بالزاي والهمزة ؛ والازجاء السرق . والخواصم جمع الخوام في الخاتم . يريد أن ملاطين الآفاق يرسلون إليه خواصمهم خوفاً منه فيضاف ملكهم إلى ملكه . وهذا البيت من قصيدة لبحر يمدح بها عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك . (عن خواصم الأديب) .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ هذه رؤية القلب ؛ أى ألم تر بقلبك وعقلك . وتقدم معنى السجود في « البقرة » ، وسجود الجناد في « النحل » .^(١)
 ﴿ وَالشَّمْسُ ﴾ معطوفة على « مَنْ » . وكذا ﴿ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدُّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ﴾ . ثم قال : ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ وهذا مشكل من الإعراب ، كيف لم ينصب ليعطف ما عمل فيه الفعل على ما عمل فيه الفعل ؛ مثل « وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا »^(٢) ؟
 فزعم الكسائي والفرزاء أنه لو نصب لكان حسنا ، ولكن أختير الرفع لأن المعنى وكثير أبى السجود ؛ فيكون ابتداء وخبرا ، وتم الكلام عند قوله « وكثير من الناس » . ويجوز أن يكون معطوفا ، على أن يكون السجود التذلل والالتحاق لتدبير الله عز وجل من ضعف وقوة وصحة وسقم وحسن وقبح ، وهذا يدخل فيه كل شيء . ويجوز أن ينصب على تقدير : وأهان كثيرا حق عليه العذاب ، ونحوه . وقيل : تم الكلام عند قوله « والدُّوَابُّ » ثم أبتدأ فقال « وكثير من الناس » في الجنة « وكثير حق عليه العذاب » . وكذا روى عن ابن عباس أنه قال : المعنى وكثير من الناس في الجنة وكثير حق عليه العذاب ؛ ذكره ابن الأنباري . وقال أبو العالية : ما في السموات نجم ولا قمر ولا شمس إلا يقع ساجدا لله حين يغيب ، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له فيرجع من مطلعه . قال القشيري : وورد هذا في خبر مسند في حق الشمس ؛ فهذا سجود حقيقي ، ومن ضرورته تركيب الحياة والعقل في هذا الساجد .

قلت : الحديث المسند الذي أشار إليه نرجه مسلم ، وسيأتي في سورة « يس » عند قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ كَلَّا ﴾ . وقد تقدم في البقرة معنى السجود لفظة ومعنى .
 قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُبَيِّنْ لَهُ اللَّهُ شَيْئًا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ﴾ أى من أهانه بالشقاء والكفر لا يقدر أحد على دفع الهوان عنه . وقال ابن عباس : إن من تهاون ببادة الله صار إلى النار .
 ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُنَاشِئُ ﴾ يريد أن مصيرهم إلى النار فلا اعتراض لأحد عليه . وحكى الأخفش والكسائي والفرزاء « وَمَنْ يُبَيِّنْ لَهُ اللَّهُ شَيْئًا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ » أى إكرام .

(١) راجع ج ١ ص ٢٩١ طبع ثانية أمانة . (٢) راجع ج ١ ص ١١٢

(٣) آية ٣١ سورة الإنسان . (٤) آية ٣٨ .

قوله تعالى : هَٰذَانِ خَصِمَانِ اِتَّخَصَمُوا فِي رَيْبٍ ۖ قَالِذِينَ كَفَرُوا
 قَطَعْتَ لَهُمْ رِيبًا مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٦﴾ يُصْهِرُ بِهِ
 مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿١٧﴾ وَلَهُمْ مَقْعٌ مِّنْ حَدِيدٍ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : (هَٰذَانِ خَصِمَانِ اِتَّخَصَمُوا فِي رَيْبٍ) يخرج مسلم عن قيس بن عباد قال :
 سمعت أبا ذر يُقسم قسمًا إن « هذان خصمان اختصموا في ريبهم » إنما نزلت في الذين برزوا يوم
 بدر : حمزة وعليٌ وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم وذو النُفيلة وشيبة أبا ربيعة والوليد بن عتبة .
 وبهذا الحديث ختم مسلم رحمه الله كتابه . وقال ابن عباس : نزلت هذه الآيات الثلاث
 على النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة في ثلاثة نفر من المؤمنين وثلاثة من كفارهم ؛ وسماه
 كما ذكر أبو ذر . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إني لأؤول من يجشو الخصومة بين
 يدي الله يوم القيامة ؛ يريد قصته في مبارزته هو وصاحبه ؛ ذكره البخاري . وإلى هذا
 القول ذهب هلال بن يساف وعطاء بن يسار وغيرهما . وقال عكرمة : المراد بالخصمين الجنة
 والنار ؛ اختصمتا فقالت النار : خلقني لعقوبته . وقالت الجنة خلقني لرحمته .

قلت : وقد ورد بخصام الجنة والنار حديثٌ عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى
 الله عليه وسلم : ” اِخْتِجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتْ هَذِهِ يَدْخُلُنِي الْبَارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ وَقَالَتْ
 هَذِهِ يَدْخُلُنِي الضُّعَفَاءُ وَالْمَسَاكِينُ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِهَذِهِ أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ وَقَالَ
 لِهَذِهِ أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مَلَأُهَا “ . خرجه البخاري ومسلم
 والترمذي وقال : حديث حسن صحيح . وقال ابن عباس أيضا : هم أهل الكتاب قالوا
 للمؤمنين نحن أولى بالله منكم ، وأقدم منكم كتابا ، وثبتنا قبل نبيكم . وقال المؤمنون : نحن أحق
 بالله منكم ، آمنا بجمعه وآمنا بنبيكم وبما أنزل إليهم من كتاب ، وأنتم تعرفون نبينا وتركتموه
 وكفرتم به حسدا ؛ فكانت هذه خصومتهم ، وأنزلت فيهم هذه الآية . وهذا قول قتادة ،
 والقول الأول أصح رواه البخاري عن تميم بن مِهَالٍ عن هُشَيْمٍ عن أبي هاشم عن أبي جُلَازٍ عن

قيس بن عباد عن أبي ذر ، ومسلم عن مجمر بن زُزارة عن هُثيم ، ورواه سليمان التيمي عن أبي عجلان عن قيس بن عباد عن علي قال : فبينا نزلت هذه الآية وفي مبارزتنا يوم بدر « هذان خصمان اختصموا في ربهم - إلى قوله - عذاب الحريق » . وقرأ ابن كثير « هذان خصمان » بتشديد النون من « هذان » . وتأول الفراء الخصميين على أنهما فريقان أهل دينين ، وزعم أن الخصم الواحد المسلمون والآخر اليهود والنصارى ، اختصموا في دين ربهم ؛ قال : فقال « اختصموا » لأنهم جمع ، قال : ولو قال « اختصما » لحاز . قال الثعالب : وهذا تأويل من لا دراية له بالحديث ولا بكتب أهل التفسير ؛ لأن الحديث في هذه الآية مشهور ، رواه سفیان الثوري وغيره عن أبي هاشم عن أبي عجلان عن قيس بن عباد قال : سمعت أبا ذر يقسم قسماً إن هذه الآية نزلت في حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب وصية وشيبة آخى ربعة والوليد بن عتبة . وهكذا روى أبو عمرو بن السلاء عن مجاهد عن ابن عباس . وفيه قول رابع أنهم المؤمنون كلهم والكافرون كلهم من أى ملة كانوا ؛ قاله مجاهد والحسن وعطاء بن أبي رباح وعاصم بن أبي النجود والكلبي . وهذا القول بالعموم يجمع المنزل فيهم وغيرهم . وقيل : نزلت في الخصومة في البعث والجزاء ؛ إذ قال به قوم وأنكره قوم . ((فَأَلْزَيْنَا كُفْرًا)) تعنى من الفرق الذين تقدم ذكرهم . (قَطَعْتَ كُلَّ نَيْابٍ مِنْ نَارٍ) أى خيطة وسويت ؛ وشبهت النار بالناب لأنها لباس لهم كالتياب . وقوله (قَطَعْتَ) أى تقطع لهم في الآخرة ثياب من نار ؛ وذكر بلفظ الماضي لأن ما كان من أخبار الآخرة فالموعود منه كالواقع المحقق ؛ قال الله تعالى : « وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ^(١) أئِى يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى . ويحتمل أنت يقال قد أعدت الآن تلك الثياب لهم ليلبسوها إذا صاروا إلى النار . وقال سعيد بن جبير : « من نار » من نحاس ؛ فذلك الثياب من نحاس قد أذيت وحى السرايل المذكورة في « فِطْرَ آدَمَ ^(٢) » وليس في الآية شيء إذا حى

(١) آية ١١٦ سورة المائدة . (٢) أى في قوله تعالى : « مرايهم من فطران » آية ٥٠ سورة إبراهيم . فقد قرئ « من فطران » والقطر : النحاس والله غفر الخطأ . والآى الذى انتهى إلى حقه .
راجع ج ٩ ص ٢٨٥

يكون أشدَّ حرًّا منه . وقيل : المعنى أن النار قد أحاطت بهم كإحاطة الثياب المقطوعة إذا لبسوها عليهم؛ فصارت من هذا الوجه ثيابا لأنها بالإحاطة كالثياب ؛ مثل « وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا » . (يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ) أى الماء الحار المثلَّ بنار جهنم . وروى الترمذى عن أبى هريرة عن النبىِّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن الحميم يُصَبُّ على رُءُوسِهِمْ فينْزِلُ الْحَمِيمُ حَتَّى يَخْلُصَ إِلَى جَوْفِهِ فَيَسِيلُ مَا فِي جَوْفِهِ حَتَّى يَمُرَّ مِنْ قَدِيدِهِ وَهُوَ الصَّهْرُ ثُمَّ يَمَادُ كَمَا كَانَ " . قال : حديث حسن صحيح غريب . (يُصْهَرُ) يذاب . (بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ) والصَّهْرُ إذابة الشحم . والضمارة ما ذاب منه ؛ يقال : صهرت الشيء ، فأصهره ؛ أى أذنته فذاب ؛ فهو صهير . قال ابن أحر يقف فرخ قطاة :

تَرَوِى لَقَى الْآبَى فِي صَفْصِيفٍ * صَهْرُهُ الشَّمْسُ لَمَّا يَنْصَهَرُ^(١)

أى تذيبه الشمس فيصهر على ذلك . (وَالْجُلُودُ) أى وتُحْرَقُ الجلود ، أو تُسَمَّى الجلود ؛ لأن الجلود لا تذاب ، ولكن يُضْمُّ فى كل شيء ما يليق به ؛ فهو كما تقول : أنتبه فاطمنى زيدا ، أى والله ولينا قارصا ؛ أى وسقانى لينا . وقال الشاعر :

* عَلَفَتْهَا تَبْنَا وَمَاءُ بَارِدَا *

(وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ) أى يُضْرَبُونَ بها ويدفنون ؛ الواحدة مقمعة ، ويقمّع أيضا كالنجع ، يضرب به على رأس الفيل . وقد قمعته إذا صرته بها . وقمعه وأقمعه بمعنى ؛ أى قهرته وأذلته فأنقمع . قال ابن السكيت : أقمعت الرجل غنى إقصاء إذا طلع عليك فرددته عنك . وقيل : المقامع المطارق ، وهى المرازب أيضا . وفى الحديث " بيدك ملك ، من تحزنه جهنم مرتبة لما شُعبتان يضرب الضربة فهوى بها سبعين ألفا " . وقيل : المتمايع سباط من نار ، وسميت بذلك لأنها تنعم المضروب ؛ أى تذلقه .

(١) آية ١٠ سورة النبا . (٢) ترى : تسوق إليه الماء ، أى تصير له كالراية . واللقى (بالفتح) :

اللقى ، اللقى لغرائه . والصنف : المستوى من الأرض . (٣) القارص : الحامض من الأنان الإبل

خاصة . وقيل : القارص اللبن الذى يجذى اللسان ؛ ولم يخص .

قوله تعالى : **كَلَّمَآ أَرَادُوآ أَن يَخْرُجُوآ مِنْهَا مِن غَمٍّ أُعِيدُوآ فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ** ﴿٧١﴾

قوله تعالى : ﴿ كَلَّمَآ أَرَادُوآ أَن يَخْرُجُوآ مِنْهَا ﴾ أى من الدار . ﴿ أُعِيدُوآ فِيهَا ﴾ بالضرب بالمقامع . وقال أبو ظبيان : ذكر لنا أنهم يحاولون الخروج من النار حين تجيش بهم وتغور فتلقى من فيها إلى أهل أبوابها فيريدون الخروج فتعيدهم الخزان إليها بالمقامع . وقيل : إذا اشتد غمهم فيها فروا؛ فن خلص منهم إلى شفيرها أعادتهم الملائكة فيها بالمقامع ، ويقولون لهم ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ أى المحرق؛ مثل الألم والوجع . وقيل : الحريق الآسم من الاحتراق . تحرق الشيء بالنار وأحترق ، والاسم الحرقنة والحريق . والذوق : ماسة يحصل منها إدراك الطعم؛ وهو هنا توسع ، والمراد به إدراكهم الألم .

قوله تعالى : **إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ** ﴿٧٢﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ كما ذكر أحد الخصمين وهو الكافر ذكر حال الخصم الآخر وهو المؤمن . ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ « من » صيغة . والأساور جمع أسورة ، وأسورة واحدة سوار ، وفيه ثلاث لغات : ضم السين وكسرها وإسوار . قال المفسرون : لما كانت الملوك تلبس في الدنيا الأساور والتيان جعل الله ذلك لأهل الجنة ، وليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أسورة : سوار من ذهب ، وسوار من فضة ، وسوار من لؤلؤ . قال هنا وفي فاطر :

(١) هذا على مذهب الأغضى والكرنئين الذين يميزون زيادة « من » في الإيجاب . أما الذين لا يميزون زياتها في الإيجاب فقال بعضهم إنها للنجس ، وبعضهم إنها للابتداء ، وبعضهم إنها بيانية . (راجع البحر المحيط وروح المعاني في الكلام عن هذه الآية) .

« بِنِ اسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا » وقال في سورة الإنسان : ^(١) « وَحُلُوا اسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ » .
 وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة سمعت خليل صلى الله عليه وسلم يقول : « تبلغ الحلية
 من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » . وقيل : تحل النساء بالذهب والرجال بالفضة . وفيه نظر ،
 والفسرآن يرده . (وَلُؤْلُؤًا) : قرأ نافع وابن القنفذ وشيبة وناسم هنا وفي سورة الملائكة
 « لُؤْلُؤًا » بالنصب ، على معنى ويحلون لؤلؤا ، واستدلوا بأنها مكتوبة في جميع المصاحف هنا
 بالفتح . وكذلك قرأ يعقوب والبخاري وعيسى بن عمر بالنصب هنا والخلف في « فاطر »
 اتباعا للمصحف ، ولأنها كتبت ها هنا بالفتح وهناك بغير الف . الباقر بالخلف في الموضعين .
 وكان أبو بكر لا يهزم « اللؤلؤ » في كل الفسرآن ، وهو ما يستخرج من البحر من جوف
 الصدف . قال الفشيري : والمراد ترصيع السوار باللؤلؤ ، ولا يبعد أن يكون في الجنة سوار
 من لؤلؤ مصمت ^(٢) .

قلت : وهو ظاهر القرآن بل نصه . وقال ابن الأنباري : من قرأ « ولؤلؤ » بالخلف
 وقف عليه ولم يقف على الذهب . وقال السجستاني : من نصب « اللؤلؤ » فالوقف الكافي
 « من ذهب » ؛ لأن المعنى ويحلون لؤلؤا . قال ابن الأنباري : وليس كما قال ، لأننا إذا
 خفضنا « اللؤلؤ » نسقناه على لفظ الأساور ، وإذا نصبناه نسقناه على تأويل الأساور ، وكأننا
 قلنا : يحلون فيها أساور ولؤلؤا ، فهو في النصب بمنزلة في الخلف ، فلا معنى لقطعه من الأول .
 قوله تعالى : (زَلَّيَا سُلُومَهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) أي وجميع ما يلبسونه من قُرُومهم ولباسهم وستورهم
 حرير ، وهو أعلى مما في الدنيا بكثير . وروى النسائي عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه
 وسلم قال : « من ليس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربه
 في الآخرة ومن شرب في آنية الذهب والفضة لم يشرب فيها في الآخرة » — ثم قال رسول الله
 صلى الله عليه وسلم — لباس أهل الجنة وشراب أهل الجنة وآنية أهل الجنة . « فإن قيل :
 قد سوى النبي صلى الله عليه وسلم بين هذه الأشياء الثلاثة وأنه يحرمها في الآخرة ؛ فهل يحرمها

(١) الذي في المصحف طبع الحكومة المصرية أنها بالالف في الموضعين .

(٢) آية ٢١

(٣) المصمت : الذي لا يتخلله غيره .

إذا دخل الجنة؟ قلنا: نعم! إذا لم يَنْب منها حُرْمها في الآخرة وإن دخل الجنة؛ لاستعجاله ما حرم الله عليه في الدنيا. لا يقال: إنما يُحَرَّم ذلك في الوقت الذي يَعْذَّب في النار أو يطول مقامه في الموقف، فاما إذا دخل الجنة فلا؛ لأن حرمان شيء من لذات الجنة لمن كان في الجنة نوع عقوبة ومؤاخذه، والجنة ليست بدار عقوبة، ولا مؤاخذه فيها بوجه. فإنا نقول: ما ذكرتموه محتمل، لولا ما جاء ما يدفع هذا الاحتمال ويردّه من ظاهري الحديث الذي ذكرناه. وما رواه الأئمة من حديث ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم "من شرب الخمر في الدنيا ثم لم يَنْب منها حُرْمها في الآخرة". والأصل التمسك بالظاهر حتى يرد نص يدفعه، بل قد ورد نص على صحة ما ذكرناه، وهو ما رواه أبو داود الطيالسي في مسنده: خَدَّثَنَا هِشَامُ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ دَاوُدَ السَّرَّاجِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ لَبَسَ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ وَإِنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ لَبَسَهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ وَلَمْ يَلْبَسْهُ هُوَ". وهذا نص صريح وإسناده صحيح. فإن كان "وإن دخل الجنة لبسه. أهل الجنة ولم يلبسه هو" من قول النبي صلى الله عليه وسلم فهو الغاية في البيان، وإن كان من كلام الراوي على ما ذكر فهو أعلم بالمقال واقصد بالحال، ومشله لا يقال بالراي، والله أعلم. وكذلك "من شرب الخمر ولم يَنْب" و"من استعمل آنية الذهب والفضة" وكما لا يشتهي منزلة من هو أرفع منه، وليس ذلك بعقوبة، كذلك لا يشتهي نهر الجنة ولا حريها ولا يكون ذلك عقوبة. وقد ذكرنا هذا كله في كتاب التذكرة مستوفى، والحمد لله، وذكرنا فيها أن شجر الجنة وثمارها يفتق عن ثياب الجنة، وقد ذكرناه في سورة الكهف ^(١).

قوله تعالى: وَهَدُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُّوا إِلَى صِرَاطِ

الْحَمِيدِ ﴿١٦﴾

قوله تعالى: (وَهَدُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ) أى أرشدوا إلى ذلك. قال ابن عباس: يريد لا إله إلا الله والحمد لله. وقيل: القرآن، ثم قيل: هذا في الدنيا، هَدُّوا إلى الشهادة،

وقراءة القرآن . (وَهَدُّوا إِلَى صِرَاطِ الْجَمِيدِ) أى إلى صراط الله . وصراط الله : دينه وهو الإسلام . وقيل : هُدُّوا في الآخرة إلى الطَّيِّب من القول ، وهو الحمد لله ؛ لأنهم يقولون هذا الحمد لله الذى هدانا لهذا ، الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ؛ فليس في الجنة نلُّ ولا كذب لئلا يقولونه فهو طيب القول . وقد هُدُّوا في الجنة إلى صراط الله ، إذ ليس في الجنة شيء من مخالفة أمر الله . وقيل : الطيب من القول ما يأتيهم من الله من الإشارات الحسنة . (وَهَدُّوا إِلَى صِرَاطِ الْجَمِيدِ) أى إلى طريق الجنة .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَلَفِ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ يُظْلَمِ نُذِقُهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ) أعاد الكلام إلى مشرك العرب حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الحرام عام الحديبية ، وذلك أنه لم يعلم لهم صد قبل ذلك الجمع ؛ إلا أن يريد صدهم لأفراد من الناس . فقد وقع ذلك في صدر المبعث . والصد : المنع ؛ أى وهم يصُدُّون . وبهذا حسن عطفه المستقبل على الماضي . وقيل : الواو زائدة « ويصُدُّون » خبر « إن » . وهذا مفسد للمعنى المقصود ، وإنما الخبر محذوف مغتر عند قوله « والباد » تقديره : خسروا إذ هلكوا . وجاء « ويصُدُّون » مستقبلا إذ هو فعل يَدْمُومُهُ ؛ كما جاء قوله تعالى : « الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ » فكأنه قال : إن الذين كفروا من شأنهم الصد . ولو قال إن الذين كفروا وصدوا بطار . قال النحاس . وفي كتابي عن أبي إسحاق قال وجائز أن يكون - وهو الوجه - الخبر « نُذِقُهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ » . قال أبو جعفر : وهذا غلط . ولست أعرف ما الوجه فيه ؛ لأنه جاء بخبر « إن » جرما ، وأيضا

فإنه جواب الشرط، ولو كان خبر «إن» لبقى الشرط بلا جواب، ولا سيما والفعل الذي في الشرط «تقبل فلا بُدَّ له من جواب».

الثانية - قوله تعالى: «وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ» قيل: إنه المسجد نفسه، وهو ظاهر القرآن؛ لأنه لم يذكر غيره. وقيل: الحرم كله؛ لأن المشركين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عنه طم الحديبية، فنزل خارجا عنه؛ قال الله تعالى: «وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ»^(١) وقال: «سُبْحَانَ الَّذِي أَمْرِي بِهِدَى لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ». وهذا صحيح، لكنه قصد هنا بالذكر المهم المقصود من ذلك.

الثالثة - قوله تعالى: «الَّذِي جَعَلَنَاهُ لِلنَّاسِ» أي للصلاة والطواف والعبادة وهو كقوله تعالى: «إِنَّا أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ»^(٢). «سَوَاءٌ أَلَمَّا كَفَّ فِيهِ وَالْبَادِي» العاكف: المقيم الملازم، والبادي: أهل البادية ومن يقدم بهم. يقول: سواء في تعظيم حرمة وقضاء النسك فيه الحاضر وانذى يأتيه من البلاد؛ فليد. أهل مكة أحق من النازح إليه. وقيل: إن المساواة إنما هي في دوره ومنازله، ليس المقيم فيها أولى من الطائر عليها. وهذا على أن المسجد الحرام الحرم كله؛ وهذا قول مجاهد ومالك، رواه عنه ابن القاسم. وروى عن حمروابن عباس وجماعة إلى أن القادم له التزول حيث ويجد، وعلى رب المترل أن يؤويه شاء أو أبى. وقال ذلك سفيان الثوري وغيره. وكذلك كان الأمر في الصدر الأول، كانت دورهم بنير أبواب حتى كثرت السرقه؛ فاتخذ رجل بابا فأنكر عليه عمر وقال: أتغلق بابا في وجه حاج بيت الله؟ فقال: إنما أردت حفظ متاعهم من السرقه؛ فتركه فاتخذ الناس الأبواب. وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أيضا أنه كان يأسر في الموسم بقاع أبواب دور مكة، حتى يدخلها الذي يقدم فينزل حيث شاء، وكانت القسايط تعرب في الدور، وروى عن مالك أن الدور ليست كالمسجد ولأهلها الامتناع منها والاستبعاد؛ ومندا هو العمل اليوم. وقال بهذا جمهور من الأمة.

(١) آية ٢٥ سورة الفتح . (٢) آية ٩٦ سورة آل عمران .

وهذا الخلاف يُلْقَى على أصليين : أحدهما أن دور مكة هل هي ملك لأربابها أم للناس .
 وللخلاف سببان : أحدهما هل فتح مكة كان غَنوة فتكون مغنومة ، لكن النبي صلى الله عليه وسلم
 لم ينسبها وأقرها لأهلها ولمن جاء بعدهم ؛ كما فعل عمر رضي الله عنه بأرض السواد وعفا لم
 عن الخراج كما عفا عن سبيهم واسترقاقهم إحساناً إليهم دون سائر الكفار فتبقى على ذلك
 لا تباع ولا تُكْرَى ، ومن سبق إلى موضع كان أولى به . وبهذا قال مالك وأبو حنيفة
 والأوزاعي . أو كانت فتحها صلحاً - وإليه ذهب الشافعي - فتبقى ديارهم بأيديهم ،
 وفي أملاكهم يتصرفون كيف شاءوا . وروى عن عمر أنه اشترى دار صفوان بن أمية
 بأربعة آلاف وجعلها سجنًا ، وهو أول من حبس في السجن في الإسلام ، على ما تقدم بيانه
 في آية المحاربين من سورة «المائدة»^(١) . وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم حبس في ثُهمة .
 وكان طائوس يذكره السجن بمكة ويقول : لا ينبغي لبيت عذاب أن يكون في بيت رحمة .
 قلت : الصحيح ما قاله مالك ، وعليه تدل ظواهر الأخبار الثابتة بأنها فتحت غَنوة .
 قال أبو عبيد : ولا نعلم مكة يشبهها شيء من البلاد . وروى الدارقطني عن علقمة بن نضلة
 قال : توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما وما تدعى رباح مكة
 إلا السوايب ؛ من احتاج سكن ومن استغنى أسكن . وزاد في رواية : وهذان . وروى أيضا
 عن علقمة بن نضلة الكوفي قال : كانت تدعى بيوت مكة على عهد رسول الله صلى الله عليه
 وسلم وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما السوايب ، لا تباع ؛ من احتاج سكن ومن استغنى أسكن .
 وروى أيضا عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله تعالى حرم مكة
 لحرام بيع رباحها وأكل ثمنها - وقال - من أكل من أجر بيوت مكة شيئا فإنما يأكل ناراً" .
 قال الدارقطني : كذا رواه أبو حنيفة صنفوا ورواه فيه ، ويوم أيضا في قوله عبيد الله بن أبي يزيد
 وإسماعيل بن أبي زياد الفساد ، والصحيح أنه موقوف ، وأسند الدارقطني أيضا عن
 عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مكة من لا تباع رباحها ولا تاجر

(١) راجع ج ٦ ص ١٥٣ طبعة دار إمامية . (٢) أحد رجال سنة الحديث .

يوتيا، وروى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله، ألا أجي لك بمشي
يتأ أو يتأ يطلك من الشمس؟ فقال: «لا، إنما هو متأخ من سبق إليه». وتمسك الشافعي
رضي الله عنه بقوله تعالى: «الذين أخرجوا من ديارهم» فأضافها إليهم. وقال عليه السلام
يوم الفتح: «من أغلق بابه فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن».

الرابعة - قرأ جمهور الناس «سواء» بالرفع، وهو على الابتداء، و«الما كف» خبره.
وقيل: الخبر «سواء» وهو مقدم، أي الماكف فيه والبادي سواء؛ وهو قول أبي علي،
والمنى: الذي جعلناه للناس قلة أو متعبدا الماكف فيه والبادي سواء. وقرأ حفص عن
عاصم «سواء» بالنصب. وهي قراءة الأعمش. وذلك يحتمل أيضا وجهين: أحدهما -
أن يكون مفعولا ثانيا لـ «جعل»، ويرتفع «الما كف» به لأنه مصدر، فاعمل عمل اسم الفاعل
لأنه في معنى مستر. والوجه الثاني - أن يكون حالا من الضمير في جعلناه. وقرأت فرقة
«سواء» بالنصب «الما كف» بالخفض، و«البادي» عطفًا على الناس؛ التقدير: الذي
جعلناه للناس الماكف والبادي. وقراءة ابن كثير في الوقف والوصل بالياء، ووقف أبو عمرو
بغير ياء ووصل بالياء. وقرأ نافع بغير ياء في الوقف والوصل. وأجمع الناس على الاستواء
في نفس المسجد الحرام، واختلفوا في مكة؛ وقد ذكرناه.

الخامسة - «وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ الْإِلْحَادُ يُظَلَّمْ» شرط، وجوابه «تُدْفَعُ مِنْ عَذَابِ إِلِيمَ»
والإلحاد في اللغة: الميل؛ إلا أن الله تعالى بين أن الميل بالظلم هو المراد. واختلف في الظلم؛
فسروا على بن أبي طلحة عن ابن عباس «وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ الْإِلْحَادُ يُظَلَّمْ» قال: الشرك. وقال
عطاء: الشرك والقتل. وقيل: معناه صيد حمامه، وقطع شجره، ودخوله غير محرم. وقال
ابن عمر: كما تتحدث أن الإلحاد فيه أن يقول الإنسان: لا والله! وبلى والله! وكألا والله!
ولذلك كان له فسقاطان، أحدهما في الميل والآخر في الحرم؛ فكان إذا أراد الصلاة دخل
فسقاط الحرم، وإذا أراد بعض شأنه دخل فسقاط الحلق، صيانةً للحرم عن قولهم كلاً والله وبلى
والله، حين عظم الله الذنب فيه، وكذلك كان لعبد الله بن عمرو بن العاص فسقاطان أحدهما

في الحِلِّ والآخِر في الحرم ، فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحِلِّ ، وإذا أراد أن يصلَّ صلَّى في الحرم ، فقيل له في ذلك فقال : إن كنا لتحدثت أن من الإلحاد في الحرم أن يقول كلاً والله وبلى والله ، والمعاصي تضاعف بمكة كما تضاعف الحسنات ، فتكون المعصية معصيتين ، إحداها بنفس المخالفة والثانية بإسقاط حرمة البلد الحرام ؛ وهكذا الأشهر الحُرْم سواء . وقد تقدّم . وروى أبو داود عن يعلى بن أمية أن رسول الله صل الله عليه وسلم قال : « احتكار الطعام في الحَرَم إلحاد فيه » . وهو قول عمر بن الخطاب ، والمعوم يأتي على هذا كله .

السادسة - ذهب قوم من أهل التأويل منهم الضحاك وابن زيد إلى أن هذه الآية تدل على أن الإنسان يعاقب على ما يتوبه من المعاصي بمكة وإن لم يعمله . وقد روى نحو ذلك عن ابن مسعود وابن عمر قالوا : لو هم رجل يقتل رجل بهذا البيت وهو (بمَدَن آيِن) لعذَّبه الله .

قلت : هذا صحيح ، وقد جاء هذا المعنى في سورة « النَّ وَالْقَلَمِ » ميثاقاً ، على ما يأتي بيانه هناك إن شاء الله تعالى .

السابعة - الباء في « بِالْحِلَادِ » زائدة كزيادتها في قوله تعالى : « تَنَبَّأُ بِالْأَنْبِيَاءِ » ؛ وعليه حملوا قول الشاعر :

حن بنو جعدة أصحاب الفلج * ف ضرب بالسيف وزجو بالفرج

أراد : نرجو الفرج . وقال الأعشى :

* ضمنت برزق عيالنا أرمأحتنا

أى رزق . وقال آخر :

ألم يأتيك والانباء تنبي * بما لاقت لبون بن زياد

- (١) عدد : مدينة مشهورة وأتت بالقرب من مدخل البحر الأحمر ، وتضاف إلى « آيِن » وهو غلاف عدد .
 (٢) آية ٢٠ سورة المؤمن .
 (٣) الفلج (شريك تائه) : موضع لبن جعدة بن ليس ببند ، وهو في أهل بلاد قيس (راجع معجم ما استعجم وكتاب نزاة الأدب في الشاهد التاسع والخمسين بعد السبعمائة) .
 (٤) القائل هو قيس بن زهير الببسي ، شاعر جاهلي . وهو من قصيدة دالية قالها فيما كان يجر به رعين الزبيح ابن زياد الببسي . (راجع نزاة الأدب في الشاهد السادس والثلاثين بعد السبعمائة) .

أى ما لاقت ، وإليه زائدة ، وهو كثير . وقال الفراء : سمعت أعرابيا وسأله عن شئ فقال : أرجو بذلك ، أى أرجو ذلك . وقال الشاعر :

براد يمان يثبت الشئ صدره * وأسفله بالمرخ والشبهات^(١)

أى المرخ ، وهو قول الأخفش ، والمعنى عنده : ومن يرد فيه إلحادا بظلم . وقال الكونيون : دخلت الباه لأن المعنى بأن يلحد ، وإليه مع أن تدخل وتحذف . ويجوز أن يكون التقدير : ومن يرد الناس فيه إلحاد . وهذا الإلحاد والظلم يجمع جميع المعاصي من الكفر إلى الصغائر ، فلعلهم حرمة المكان توجب الله تعالى على نية السيئة فيه . ومن نوى سيئة ولم يعملها لم يحاسب عليها إلا فى مكة . هذا قول ابن مسعود وجماعة من الصحابة وغيرهم ، وقد ذكرناه آنفا .

قوله تعالى : وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا
وَلَطِّعُنَا إِلَىٰ بَطْنَيْهِ لِلْفُتُوحِ وَالْأَمْنِ وَكَارِثِهِ السُّجُودِ ﴿١٢٦﴾

فيه مسئلتان :

الأولى - قوله تعالى : (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ) أى واذا ذكرنا إذ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ ، يقال : بَوَّأْتُهُ مَتَرًا وَبَوَّأْتُ لَهُ . كما يقال : مَكَّنْتُكَ وَمَكَّنْتُ لَكَ ، فاللام فى قوله : « لِإِبْرَاهِيمَ » صلة للنا كيد ، كقوله : « رَدِّفْ لَكُمْ » ، وهذا قول الفراء . وقيل : « بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ » أى أَرَيْنَاهُ أَصْلَهُ لَبْيْنِهِ ، وكان قد دَرَسَ بالطوفان وغيره ، فلما جاءت مدة إبراهيم عليه السلام أمره الله ببنيانه ، فجاء إلى موضعه وجعل يطلب أثرًا ، لبعث الله ريحًا فكشفت عن أساس آدم عليه السلام ، فرتب قواعده عليه ، حسبما تقدم بيانه فى « البقرة » . وقيل : « بَوَّأْنَا » نازلة منزلة فعل يتعدى باللام ، كقوله جعلنا ، أى جعلنا لإبراهيم مكان البيت مَبُوءًا . وقال الشاعر :

كم من أخ لى ماجد * بَوَّأْتُهُ بَيْدَىٰ لِحَدَا

(١) الشئ : خيسر طيب الريح من العلم يدعى به . والمرخ : شجر كثير النار . والشبهات : نبت شائك له ورد ليليف أحمر . (٢) آية ٧٢ سورة النمل . (٣) راجع ج ٢ ص ١٢٢ طبع ثانية . (٤) البيت من قصيدة لعمر بن عبدكرب الزبلى .

الثانية - (أَنْ لَا تُشْرِكْ) هي مخاطبة لإبراهيم عليه السلام في قول الجمهور . وقراً
عكبة « أَنْ لَا تُشْرِكْ » بالياء ، على نقل معنى القول الذي قيل له . قال أبو حاتم : ولا بد
من نصب الكاف على هذه القراءة ، بمعنى لا يشرك . وقيل : إن « أَنْ » غنقة من
الثقيلة . وقيل مغمرة . وقيل زائدة ؛ مثل « فلما أت جاء اليسير »^(١) . وفي الآية طعن
على من أشرك من قُطان البيت ؛ أي هذا كان الشرط على أبيكم فسن بعده وأتم ، فلم تقوا
بل أشركتم . وقالت فرقة : الخطاب من قوله « أَنْ لَا تُشْرِكْ » لحمد صلى الله عليه وسلم ؛
وأمر بتطهير البيت والأذان بالبح . والجمهور على أن ذلك لإبراهيم ؛ وهو الأصح . وتطهير
البيت عام في الكفر والبدع وجميع الأنجاس والدناء . وقيل : عني به التطهير عن الأوثان ؛
كما قال تعالى : « فَاجْتَبُوا الرَّحْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ »^(٢) ؛ وذلك أن بُرْهَمًا والمالقة كانت لهم أصنام
في محل البيت وحوله قبل أن يبنيه إبراهيم عليه السلام . وقيل : المعنى نه يقي عن أن يعبد
فيه صنم . وهذا أمر بإظهار التوحيد فيه . وقد مضى ما للملأمة في تزينة المسجد الحرام وفيه
من المساجد بما فيه كفاية في سورة « براءة »^(٣) . والقائمون هم المصلون . وذكر تعالى من أركان
الصلاة أعظمها ، وهو القيام والركوع والسجود .

قوله تعالى : وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا أَيُّهَا رِجَالَا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ
يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٧﴾
فيه سبع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ) قرأ جمهور الناس « وَأَذِّنْ » بتشديد
الذال . وقرأ الحسن بن أبي الحسن وابن محيى « وَأَذِّنْ » تخفيف الذال ومدة الألف .
ابن عطية : وتصحف هذا على ابن جني ، فإنه حكى عنهما « وَأَذِّنْ » على أنه فعل ماض ،
وأعرب على ذلك بأن جعله عطفًا على « قُرْآنًا » والأذان الإعلام ، وقد تقدم في « براءة »^(٤) .

(١) آية ٩٩ سورة يوسف . (٢) آية ٣٠ من هذه السورة . (٣) راجع به ص ٨٤ ص ١٠٤
طبعة أول أد الثانية . (٤) ص ٨٤ ص ٦٩

الثانية - لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت، وقيل له: أذن في الناس بالبح، قال: يارب! وما يبلغ صوتي؟ قال: أذن وعلى الإبلاغ؛ فصعد إبراهيم خليل الله جبل أبي قبيس وصاح: يا أيها الناس! إن الله قد أمركم بحج هذا البيت ليبيئكم به الجنة ويحييكم من عذاب النار، فحجوا؛ فأجابه من كان في أصلاب الرجال وأرحام النساء: لبيك اللهم لبيك! فمن أجاب يومئذ على قدر الإجابة، إن أجاب مرة فمرة، وإن أجاب مرتين فمرتين؛ وجرت التلبية على ذلك؛ فله ابن عباس وابن جبير. وروى عن أبي الطفيل قال قال لي ابن عباس: أتدري ما كان أصل التلبية؟ قلت لا! قال: لما أمر إبراهيم عليه السلام أن يؤذن في الناس بالبح خفضت الجبال رموسها ورفعت له القرى وفنادى في الناس بالبح فأجابه كل شيء: لبيك اللهم لبيك. وقيل: إن الخطاب لإبراهيم عليه السلام ثم عند قوله «السجود»، ثم خاطب الله عز وجل عبداً عليه الصلاة والسلام فقال «وأذن في الناس بالبح»؛ أي أعلمهم أن عليهم الحج. وقول ثالث - إن الخطاب من قوله «أن لا تشرك» مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم. وهذا قول أهل النظر؛ لأن القرآن أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم، فكل ما فيه من مخاطبة فهمي له إلا أن يدل دليل قاطع على غير ذلك. وهاتان دليل آخر يدل على أن مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم، وهو «أن لا تشرك بي» بالناء، وهذا مخاطبة لمشاهد، وإبراهيم عليه السلام غائب؛ فالمنى على هذا: وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت بعلنا لك الدلائل على توحيد الله تعالى وعلى أن إبراهيم كان يعبد الله وحده. وقرأ جمهور الناس «بالبح» بفتح الحاء. وقرأ ابن أبي إسحاق في كل القرآن بكسرها. وقيل: إن نداء إبراهيم من جملة ما أمر به من شرائع الدين. والله أعلم.

سورة الثالثة - قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْجِعُوا إِلَى اللَّهِ ذُنُوبَكُمْ وَأَن تَكُونُوا مِنَ الْمُجْرِمِينَ) ومعه إجابة الناس إلى حج البيت ما بين راجل وزاكب، وإنما قال «يأتوك» وإن كانوا يأتون الكعبة لأن المندى لإبراهيم، فمن أتى الكعبة حاجاً فكأنما أتى إبراهيم؛ لأنه أجاب نداءه، وفيه تشريف إبراهيم. ابن عطية: «رجالاً» جمع راجل مثل تاجر ونيجار، وصاحب وصحاب. وقيل: الرجال

جمع رَجُلٌ، والرَّجُلُ جمع راجل، مثل تجار وتجار، وصحاب وصحاب، وقد يقال في الجمع : رُجَالٌ، بالتشديد، مثل كافر وكفار . وقرأ ابن أبي إسحاق وعكرمة « رُجَالًا » بضم الراء وتخفيف الجيم ، وهو قليل في أبنية الجمع ، ورويت عن مجاهد . وقرأ مجاهد « رُجَالِي » على وزن فُعَالٍ، فهو مثل كسالى . قال النحاس : في جمع راجل خمسة أوجه، رُجَالٌ مثل رُكَّابٍ، وهو الذى روى عن عكرمة، ورجال مثل قيام، ورَجُلَةٌ، ورَجُلٌ، ورَجَالَةٌ . والذى روى عن مجاهد رُجَالًا غير معروف ، والأشبه به أن يكون غير ممنون مثل كسالى وسكالى ، ولو نُونَ لكان على فُعَالٍ، وفُعَالٌ في الجمع قليل . وقدم الرجال على الرُّجَّان في الذكر لزيادة تعميم في المشى . (وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ) لأنَّ معنى « ضامر » معنى ضاومر . قال الفراء : ويحوز « يأتى » على اللفظ . والضاومر : البعير المهزول الذى أتبعه السفر، يقال : ضَمُرَ يَضْمُرُ ضُمُورًا ، فوصفها الله تعالى بالمآل الذى انتهت عليه إلى مكة . وذكر سبب الضمور فقال : « يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ نَجْعٍ عَجِيقِي » أى أترفها طول السفر . ورد الضمير إلى الإبل تكمة لها لقصدها الج مع أربابها ، كما قال : « وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا » في خيل الهباد تكمة لها حين سمعت في سبيل الله .

الرابعة - قال بعضهم : إنما قال « رجالا » لأن الغالب نروج الرجال إلى الحج دون الإناث، بقوله « رجالا » من قولك : هذا رجل ، وهذا فيه بعد، لقوله « وعلى كل ضامر » يعنى الرُّجَّان ، فدخل فيه الرجال والنساء . ولما قال تعالى « رجالا » وبدأ بهم دل ذلك على أن حج الرجال أفضل من حج الزكوب . قال ابن عباس : ما أتى على شئ، فأتى إلا أن لا أكون محبب ما شيا، فأتى سمعت الله عز وجل يقول « يأتوك رجالا » . وقال ابن أبي نجیح : حج إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ماشيين . وقرأ أصحاب ابن مسعود « يأتون » وهى قراءة ابن أبى عبَّابة والضحاك، والضمير للناس .

الخامسة - لا خلاف في جواز الزكوب والمشى، واختلفوا في الأفضل منهما، فذهب مالك والشافعى في آخرين إلى أن الركوب أفضل، ابتداء بالنبي - صلى الله عليه وسلم، ولكن أكثر

النفقة وتعتيم شاتراجل بأهبة الركوب . وذهب غيرهم إلى أن المشي أفضل لما فيه من المشقة على النفس ، ولحديث أبي سعيد قال : حج النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه مشاة من المدينة إلى مكة ، وقال : « أربطوا أوساطكم بأزركم »^(١) ومشي خلط المسرولة ؛ نرتبه ابن ماجه في سننه . ولا خلاف في أن الركوب عند مالك في المناسك كلها أفضل ؛ للاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم .

السادسة - استدلل بعض العلماء بسقوط ذكر البحر من هذه الآية على أن فرض الحج بالبحر ساقط . قال مالك في الموازية : لا أسمع للبحر ذكرا ، وهذا ثامن ، لا أنه يلزم من سقوط ذكره سقوط الفرض فيه ؛ وذلك أن مكة ليست في ضفة بحر فأتياها الناس في السفن ، ولا بد لمن ركب البحر أن يصير في إتيان مكة إما راجلا وإما على ضامر ، فإنما ذكرت حالتا الوصول ، وإسقاط فرض الحج بمجرد البحر ليس بالكثير ولا بالقوى . فاما إذا اقتن به مدو وخوف أو قول شديد أو مرض يلحق شخصا ، فمالك والشافعي وجمهور الناس على سقوط الوجوب بهذه الأعذار ، وأنه ليس بسبيل استطاع . قال ابن عطية : وذكر صاحب الاستظهار في هذا المعنى كلاما ، فظاهره أن الوجوب لا يسقط بشيء من هذه الأعذار ؛ وهذا ضعيف .

قلت : وأضعف من ضعيف ، وقد مضى في « البقرة » بيانه . والفتح : الطريق الواسعة ، واجتمع بها . وقد مضى في « الأنبياء »^(٢) . والعميق معناه البعيد . وقراءة الجماعة « يأتين » . وقرأ أصحاب عبد الله « يأتون » وهذا للركان و « يأتين » للرجال ؛ كأنه قال : وعلى أهل ضامرة يأتين (مِنْ كُلِّ مَجْعٍ عَمِيقٍ) أى بعيد ؛ ومنه بئر عميقة أى بعيدة القمر ؛ ومنه :

• وقائم الأعماق خاوى المخترق^(٣) •

(١) خلط المسرولة (بالكسر) أى شيئا مخلوطا بالمسرولة ، بأن يمشى حينا ويرحل حينا أو متدلا .

(٢) راجع ج ١ ص ٢٨٥ (٣) هذا أول أوجوزة من أراجيز رقية بن الصباغ ، ويهده :

• مشته الأعلام لماع الخلق •

السابعة — واختلفوا في الواصل إلى البيت ، هل يرفع يديه عند رؤيته أم لا ؛ فروى أبو داود قال : سئل جابر بن عبد الله عن الرجل يرى البيت ويرفع يديه فقال : ما كنت أرى أن أحدا يفعل هذا إلا اليهود ، وقد حججتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم نكن نفعله . وروى ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ترفع الأيدي في سبع مواطن افتتاح الصلاة واستقبال البيت والصفا والمروة والموقفين والجنتين » . وإلى حديث ابن عباس هذا ذهب الثوري وابن المبارك وأحمد وإسحاق وضعفوا حديث جابر ، لأن مهاجرا المكي راوية مجهول . وكان ابن عمر يرفع يديه عند رؤية البيت . وعن ابن عباس مثله .

قوله تعالى : **لِيَشْهَدُوا مَنَفَعَهُمْ وَيَذْكُرُوا أَنَّمَا اللَّهُ فِي أَيَّامِ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْمَةٍ الْأَنْعَمِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْبَابَ الْأَمْرِ** ﴿١٧٨﴾ **لَقَدْ قَضَىٰ رَبِّيَ قَدَرَهُمْ لَيَالٍ سَتَتُلَبَّسُونَهَا وَلَا يَبْسُطُونَ إِلَٰهَهُمْ فِي الْأَيَّامِ الْمَعْلُومَاتِ** ﴿١٧٩﴾ . فيه ثلاث وعشرون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لِيَشْهَدُوا ﴾ أى أذن بالجماع يأتوك رجالا وركبانا يشهدوا ؛ أى ليحضروا . والشهود الحضور . ﴿ مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ أى المناسك ؛ كمرقات والمشعر الحرام . وقيل المفرة . وقيل التجارة . وقيل هو عموم ؛ أى ليحضروا منافع لهم ، أى ما يرضى الله تعالى من أصر الدنيا والآخرة ؛ قاله مجاهد وعطاء واختاره ابن العربي ؛ فإنه يجمع ذلك كله من نسك وتجارة ومنفعة ودنيا وأخرى . ولا خلاف في أن المراد بقوله : « ليس عليكم جناح أن تبغوا فضلا من ربكم^(١) » التجارة .

الثانية — ﴿ وَيَذْكُرُوا أَنَّمَا اللَّهُ فِي أَيَّامِ مَعْلُومَاتٍ ﴾ قد مضى في « البقرة » الكلام في الأيام المعلومات والمعدودات^(٢) . والمراد بذكر اسم الله ذكر النسيئة عند الذبح والتحرر؛ مثل

قولك : باسم الله والله أكبر ، اللهم منك ولك . ومثل قولك عند الذبح « إن صلاتي ونسبي » الآية . وكان الكفار يذبحون على أسماء أصنامهم ، فبين الرب أن الواجب الذبح على اسم الله ، وقد مضى في « الأنعام » (٢).

الثالثة - وأختلف العلماء في وقت الذبح يوم النحر ، فقال مالك رضي الله عنه : بعد صلاة الإمام وذبحه ، إلا أن يؤخر تأخيرا يتعدى فيه فيسقط الاقتداء به . وراعى أبو حنيفة الفراغ من الصلاة دون ذبح . والشافعي دخول وقت الصلاة ومقدار ما توقع فيه مع الخطبتين ، فاعتبر الوقت دون الصلاة . هذه رواية المزي عنده ، وهو قول الطبري . وذكر الربيع عن البوابي قال قال الشافعي : ولا يذبح أحد حتى يذبح الإمام إلا أن يكون ممن لا يذبح ، فإذا صلى وفرغ من الخطبة حل الذبح . وهذا كقول مالك . وقال أحمد : إذا انصرف الإمام فاذبح . وهو قول إبراهيم . وأصح هذه الأقوال قول مالك ، لحديث جابر بن عبد الله قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النحر بالمدينة ، فتقدم رجال فمحرروا وظنوا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد نحره ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم من كان نحر أن يعيد بنحر آخر ، ولا ينحروا حتى ينحر النبي صلى الله عليه وسلم . أخرجه مسلم والترمذي . وقال : وفي الباب عن جابر وجندب وأنس وعوف بن أشقر وآبن عمر وأبي زيد الأنصاري ، وهذا حديث حسن صحيح ، والعمل على هذا عند أهل العلم ألا يضحى بالمصر حتى يصلى الإمام . وقد احتج أبو حنيفة بحديث البراء ، وفيه : « ومن ذبح بعد الصلاة فقد تم نسكه وأصاب سنة المسلمين » . أخرجه مسلم أيضا . فعلق الذبح على الصلاة ولم يذكر الذبح ، وحديث جابر يقيده . وكذلك حديث البراء أيضا ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أول ما نبأ به في يومنا هذا أن نصل ثم نرجع فتنحرقن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا » الحديث . وقال أبو هريرة عن عبد البر : لا أعلم خلافا بين العلماء أن من ذبح قبل الصلاة وكان من أهل المصر أنه يبرئ من ذبحه ، لقوله عليه السلام : « من ذبح قبل الصلاة فذلك شاة لحم » .

الرابعة — وأما أهل البوادي ومن لا إمام له فثبتوا مذهب مالك يحزى وقت ذبح الإمام، أو أقرب الأئمة إليه . وقال ربيعة وعطاء فيمن لا إمام له : إن ذبح قبل طلوع الشمس لم يحزه ، ويحزيه إن ذبح بعده . وقال أهل الرأي : يحزبهم من بعد الفجر . وهو قول ابن المبارك ، ذكره عنه الترمذى . وتمسكوا بقوله تعالى : «يَذْبَحُ كُرُوا أَسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْمَةِ الْأَنْعَامِ» ، فأضاف النحر إلى اليوم . وهل اليوم من طلوع الفجر أو من طلوع الشمس ، قولان . ولا خلاف أنه لا يحزى ذبح الأنضبة قبل طلوع الفجر من يوم النحر .

الخامسة — واختلفوا كم أيام النحر؟ فقال مالك : ثلاثة ، يوم النحر ويومان بعده . وبه قال أبو حنيفة والثوري وأحمد بن حنبل ، وروى ذلك عن أبي هريرة وأنس بن مالك من غير اختلاف عنهما . وقال الشافعى : أربعة ، يوم النحر وثلاثة بعده . وبه قال الأوزاعى ، وروى ذلك عن علي بن رضى الله عنه وابن عباس وابن عمر رضى الله عنهم ، وروى عنهم أيضا مثل قول مالك وأحمد . وقيل : هو يوم النحر خاصة وهو العاشر من ذى الحجة ، وروى عن ابن سيرين . وعن سعيد بن جبيرة وابن زيد أنهما قالوا : النحر فى الأصهار يوم واحد وفى متى ثلاثة أيام . وعن الحسن البصرى فى ذلك ثلاث روايات : إحداهما سماه قال مالك ، والثانية سماه قال الشافعى ، والثالثة إلى آخر يوم من ذى الحجة ، فإذا أهل هلال المحرم فلا أضحى .

قلت : وهو قول سليمان بن يسار وأبى سامة بن عبد الرحمن ، وروى حديثا مرسلان مروعا ترجمه الدارقطنى : الضحايا إلى هلال ذى الحجة ، ولم يصح ، ودليلنا قوله تعالى : « فى أيام معلومات » الآية ، وهذا جمع قلة ؛ لكن المتيقن منه الثلاثة ، وما بعد الثلاثة غير متيقن فلا يصل به . قال أبو عمر بن عبد البر : أجمع العلماء على أن يوم النحر يوم أضحى ، وأجمعوا أن لا أضحى بعد السباح ذى الحجة ، ولا يصح عندي فى هذه إلا قولان : أحدهما — قول مالك والكوفيين . والآخر — قول الشافعى والشاميين ؛ وهذان القولان مرويان

عن الصحابة فلا معنى للاشتغال بما خالفهما ؛ لأن ما خالفهما لا أحصل له في السنة ولا في قول الصحابة ، وما خرج عن هذين فتروك لما . وقد روى عن قتادة قول سادس ، وهو أن الأضحية يوم النحر وستة أيام بعده ؛ وهذا أيضا خارج عن قول الصحابة فلا معنى له . السادسة - واختلقوا في يسأل النحر هل تدخل مع الأيام فيجوز فيها الذبح أولا ؛ فروي عن مالك في المشهور أنها لا تدخل فلا يجوز الذبح بالليل . وعليه جمهور أصحاب الرأي ، لقوله تعالى : « واذكروا اسم الله في أيام » فذكر الأيام ، وذكر الأيام دليل على أن الذبح في الليل لا يجوز . وقال أبو حنيفة والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور : الليالي داخله في الأيام ويجزى الذبح فيها . وروى عن مالك وأشهب نحوه ، ولا شهب نفرق بين الهدى والضحية ، فأجاز الهدى ليلا ولم يجز الضحية ليلا .

السابعة - قوله تعالى : (عَلَى مَا رَزَقْتَهُمْ) أى على ذبح ما رزقهم . (من بهيمة الأنعام) والأنعام هنا الإبل والبقر والغنم . وبهيمة الأنعام هي الأنعام ؛ فهو كقولك صلاة الأولى ، ومسجد الجامع .

الثامنة - (فَكُلُوا مِنْهَا) أمر بمعناه التذنب عند الجمهور . ويستحب للرجل أن يأكل من هديه وأحبيته وإن يتصدق بالأكثر ، مع تجوزهم الصدقة بالكل وأكل الكل . وشذت طائفة فأوجب الأكل والإطعام بظاهر الآية ، وقوله عليه السلام : « فكلوا فاذنبروا ونصدقوا » . قال النجاشي : قوله تعالى « فكلوا منها وأطعموا » يدل على أنه لا يجوز بيع جميعه ولا التصديق بجميحه .

التاسعة - دماء الكفارات لا يأكل منها أصحابها . ومشهور مذهب مالك رضي الله عنه أنه لا يأكل من ثلاث : جزاء الصيد ، ونذر المساكين وفدية الأذى ، وبأكل مما سوى ذلك إذا بلغ عقله ، وأجبا كان أو تهلوطا . ووافقه على ذلك جماعة من السلف وفقهاء الأمصار . العاشرة . فإن أكل مما منع منه فهل يقرم قدر ما أكل أو يقرم هدنيا كاملا ؛ قولان في مذهبا ، وبالأول قال ابن الماجشون . قال ابن العربي : وهو الحق ، لا شيء عليه غيره .

وكذلك أو نذر هدياً للساكنين فإكل منه بعد أن يبلغ محله لا يفرم إلا ما أكل — خلافاً للذئبة — لأن النحر قد وقع، والتعدى إنما هو على اللحم، فيفرم قدر ما تعدى فيه .
 قوله تعالى : ﴿ وَلْيُؤْتُوا ذُبُورَهُمْ ﴾ يدل على وجوب إخراج النذر إن كان دماً أو هدياً أو غيره، ويدل ذلك على أن النذر لا يحسب أن يأكل منه وفاء بالنذر، وكذلك جزاء الذئبة .
 وفدية الأذى ؛ لأن المطلوب أن يأتي به كاملاً من غير نقص لحم ولا غيره، فإن أكل من ذلك كان عليه هدى كامل . والله أعلم .

الحادية عشرة — هل يفرم قيمة اللحم أو يفرم طعاماً ؛ ففي تخاب محمد عن عبد الملك أنه يفرم طعاماً . والأول أصح ؛ لأن الطعام إنما هو في مقابلة الهدى كله عند تدمره عبادة ، وليس حكم التعدى حكم العبادة .

الثانية عشرة — فإن عطي من هذا الهدى المضمون الذي هو جزاء الصيد وفدية الأذى ونذر المهاجرين شيء قبل محله أكل منه صاحبه وأطعم منه الأغنياء والفقراء ومن أحب ؛ ولا يبيع من لحمه ولا جلده ولا من فلانده شيئاً . قال إسماعيل بن إسحاق : لأن الهدى المضمون إذا عطي قبل أن يبلغ محله كان عليه بدله . ولذلك جاز أن يأكل منه صاحبه ويعطيه . فإذا عطي الهدى التطوع قبل أن يبلغ محله لم يجوز أن يأكل منه ولا يعطيه ؛ لأنه لما لم يكن عليه بدله خيف أن يفعل ذلك بالهدى ويخرج من غير أن يعطي ، فأحيط على الناس ، وبذلك مضى العمل . وروى أبو داود عن ناجية الأسلمي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث معه بهدي وقال : " إن عطي منها شيء فأنحره ثم أصبح نعله في دمه ثم خل بينه وبين الناس " . وبهذا الحديث قال مالك والشافعي في أحد قوليه . وأحد وإسحاق وأبو ثور وأصحاب الرأي ومن أتبعهم في الهدى التطوع : لا يأكل منها سائنها شيئاً ، ويخل بينها وبين الناس إذا كانوا . وفي صحيح مسلم : " ولا تأكل منها أنت ولا أحد من أهل رقتك " ، وبظاهر هذا النهي قال ابن عباس والشافعي في قوله الآخر ، واختاره ابن المنذر ، فقالا : لا يأكل منها ولا أحد من أهل رقتك . قال أبو عمر : قوله عليه السلام " ولا يأكل منها أحد ولا أحد من أهل رقتك " لا يوجد إلا في حديث أبي عباس . وليس ذلك

في حديث هشام بن عروة عن أبيه عن ناجية، وهو عندنا أصح من حديث ابن عباس، وعليه العمل عند الفقهاء . ويدخل في قوله عليه السلام : " خَلَّ بينها وبين الناس " أهل رفقته وغيرهم . وقال الشافعي وأبو ثور : ما كان من الهدى أصله واجبا فلا يأكل منه، وما كان تطوعا ونسكا أكل منه وأهدى وأذخر وتصدق . والمتعة والقران عنده نسك . ونحوه مذهب الأوزاعي . وقال أبو حنيفة وأصحابه : يأكل من هدى المتعة والتطوع، ولا يأكل مما سوى ذلك مما وجب بحكم الإحرام . وحكى عن مالك : لا يأكل من دم الفساد . وعلى قياس هذا لا يأكل من دم الجبر؛ كقول الشافعي والأوزاعي . تمسك مالك بأن جزاء الصيد جعله الله للمساكين بقوله تعالى : « أَوْ كِفَارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ »^(١) . وقال في فدية الأذى : « فِدْيَةُ مَنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ »^(٢) . وقال صلى الله عليه وسلم لكعب بن مجمرة : " أطعم سنة مساكين مدين لكل مسكين أو صم ثلاثة أيام أو أنسك ثاة " . ونذر المساكين مصرح به، وأما غير ذلك من الهدايا فهدى باقى على أصل قوله : « وَالْبَيْتَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ - إِلَى قَوْلِهِ - فَكُلُوا مِنْهَا » . وقد أكل النبي صلى الله عليه وسلم وعلى رضى الله عنه من الهدى الذى جاء به بشرى من مرقه، وكان عليه السلام قارئا فى أصح الأقوال والروايات ؛ فكان هديه على هذا واجبا، فما تعلق به أبو حنيفة غير صحيح . والله أعلم .

وإنما أذن الله سبحانه من الأكل من الهدايا لأجل أن العرب كانت لا ترى أن تأكل من نسكها، فأمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بخالفهم ؛ فلا يحرم كذلك شرع وبلغ، وكذلك فعل حين أهدى وأحرم صلى الله عليه وسلم .

الثالثة عشرة - (فَكُلُوا مِنْهَا) قال بعض العلماء : قوله تعالى « فَكُلُوا مِنْهَا » ناسخ لفعولهم ؛ لأنهم كانوا يحزمون لحوم الضحايا على أنفسهم ولا يأكلون منها - كما قلناه فى الهدايا - فنسخ الله ذلك بقوله : « فَكُلُوا مِنْهَا » ، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم : " من خشي فلينا كل من أخصيته " ولأنه عليه السلام أكل من أخصيته وهديه . وقال الزهري : من السنة أن تأكل أولا من الكبد .

الرابعة عشرة — ذهب أكثر العلماء إلى أنه يستحب أن يتصدق بالثلث ويطعم الثلث وياكل هو وأهله الثلث . وقال ابن القاسم عن مالك : ليس عندنا في الضحايا قسم معلوم موصوف ، قال مالك في حديثه : وبلغني عن ابن مسعود ، وليس عليه العمل ، روى الصحيح وأبو داود قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يشاء ثم قال : " يا توبان ، أصلح لهم هذه الشاة " قال : فما زلت أطعمه منها حتى قدم المدينة . وهذا نص في الفرض . واختلف قول الشافعي ، فقرة قال : ياكل النصف ويتصدق بالنصف لقوله تعالى : « فاكلوا منها وأطعموا البائس الفقير » فذكر شخصين . وقال مرة : ياكل ثلثا ويمد يد ثلثا ويطعم ثلثا ؛ لقوله تعالى : « فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْفَوَائِدَ وَالْمُعْتَرَّ » فذكر ثلاثة .

الخامسة عشرة — المسافر يخاطب بالأضحية كما يخاطب بها الحاضر ، إذا الأصل موم الخطاب بها ، وهو قول كافة العلماء . وخالف في ذلك أبو حنيفة والنخعي ، وروى عن علي ؛ والحديث حجة عليهم . واستثنى مالك من المسافرين الحاج مئى ، فلم ير عليه أضحية ؛ وبه قال البخاري . وروى ذلك من الخلفين أبي بكر وعمر وجماعة من السلف رضى الله عنهم ؛ لأن الحاج إنما هو مخاطب في الأصل بالهدى ، فإذا أراد أن يضحي جملة هديا ، والناس غير الحاج إنما أصرروا بالأضحية ليتشبهوا بأهل مئى فيحصل لهم حظ من أجركم .

السادسة عشرة — اختلف العلماء في الأذكار على أربعة أقوال . روى عن علي وابن عمر رضى الله عنهما من وجه صحيح أنه لا يتنحر من الضحايا بعد ثلاث . ورواه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وسأني . وقالت جماعة : ما روى من النهي عن الأذكار منسوخ ؛ فيتنحر إلى أى وقت أحب . وبه قال أبو سعيد الخدري وبريدة الأسلمي . وقالت فرقة : يجوز الأكل منها مطلقا . وقالت طائفة : إن كانت بالناس حاجة إليها فلا يتنحر ؛ لأن النهي إنما كان لئلا وهي قوله عليه السلام : " إنما نهيتكم من أجل الدابة التي دقت " ^(١) ولما ارتفعت ارتفع المنع المتقدم لارتفاع موجبها ، لا لأنه منسوخ . وتنشأ هنا مسألة أصولية وهي :

(١) الدابة : القوم يسرون جماعة سرا ليس بالديد . والدابة : قوم من الأعراب يذبحون القرى يريد أنهم قوم تدوم المدينة عند الأضي ، نهام عن إظهار لحوم الأضاحي ليقرعوا ويتصدقوا بها فينتفع بذلك الفقراء بها . (ابن الأثير).

٥ السابعة عشرة. - وهي الفرق بين رفع الحكم بالنسخ ورفسه لأرتفاع علته . أعلم أن المرفوع بالنسخ لا يُحكم به أبداً ، والمرفوع لأرتفاع علته يعود الحكم لعود العلة ، فلو قدم على أهل بلدة ناس محتاجون في زمان الأتحي ؛ ولم يكن عند أهل ذلك البلد سعة يستدون بها فاقهم إلا الضعفاء لتعين عليهم ألا يذخروها فوق ثلاث كما جعل النبي صلى الله عليه وسلم .

الثامنة عشرة - الأحاديث الواردة في هذا الباب بالمنع والإباحة صحاح ثابتة . وقد جاء المنع والإباحة مما ؛ كما هو منصوص في حديث عائشة وسامة بن الأثوخ وأبي سعيد الخدري رواها الصحيح . وروى الصحيح عن أبي عبيد مولى ابن أزر أنه شهد العبد مع عمر بن الخطاب قال : ثم صليت العبد مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه ؛ قال : فصل لنا قبل الخطبة ثم خطب الناس فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهاكم أن تأكلوا لحوم نسكم فوق ثلاث ليال فلا تأكلوها . وروى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهى أن تؤكل لحوم الأضاح فوق ثلاث . قال سالم : فكان ابن عمر لا يأكل لحوم الأضاح فوق ثلاث ؛ وروى أبو داود عن ثبيشة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنا كنا نبيتكم عن لحومها فوق ثلاث لكي نسمعكم جاء الله بالسمة فكلوا واذبحوا وأنجزوا ألا إن هذه الأيام أيام أكل وشرب وذكر لله عز وجل " . قال أبو جعفر النحاس : وهذا القول أحسن ما قيل في هذا حتى تنفق الأحاديث ولا تضاد ؛ ويكون قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وعثمان عصور ؛ لأن الناس كانوا في شدة محتاجين ، ففعل كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدمت الدابة . والدليل على هذا ما حدثنا إبراهيم بن شريك قال : حدثنا أحمد قال حدثنا ليث قال حدثني الحارث بن يعقوب عن يزيد بن أبي يزيد عن أمرائه أنها سألت عائشة رضي الله عنها عن لحوم الأضاح فقالت : قدم علينا علي بن أبي طالب من سفر فقعدنا إليه منه ، فإني أن يأكل حتى يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله فقال : " كُلْ مِنْ ذِي الْحِجَةِ إِلَى ذِي الْحِجَةِ " . وقال الشافعي : من قال بالنهي عن الاذبح بعد ثلاث لم يسمع الرخصة . ومن قال بالرخصة مطلقاً لم يسمع النهي عن الاذبح . ومن قال بالنهي

والرخصة سمهما جميعا فعمل بمقتضاهما . والله أعلم . وسأني في سورة « الكوثر »
الاختلاف في وجوب الاضحية ونديتها وأنها ناسفة لكل ذبح تقدم ، إن شاء الله تعالى .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا الْبَاسِ الْفَقِيرَ ﴾ « الفقير » من صفة
الباس ، وهو الذي ناله البؤس وشدة الفقر ، يقال : بئس بئاس باسا إذا افتقر ؛ فهو بائس .
وقد يستعمل فيمن نزلت به نازلة دهر وإن لم يكن فقيرا ، ومنه قوله عليه السلام : " لكن
البائس سعد بن خولة " . ويقال : رجل بئس أي شديد . وقد يؤس يؤس باسا إذا اشتد ؛
ومنه قوله تعالى : « وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِمَنَاقِبِ بَيْتِيسَ » أي شديد . وكلما كان التصديق
بلحم الاضحية أكثر كان الأجر أوفر . وفي القدر الذي يجوز أكله خلاف قد ذكرناه ؛ فقليل
النصف ؛ لقوله : « فَكُلُوا ، وَأَطِيعُوا » وقيل الثلثان ؛ لقوله : « أَلَا فَكُلُوا وَادْخُرُوا
وَأُخْرُوا » أي اطلبوا الأجر بالإطعام . واختلف في الأكل والإطعام ؛ فقليل واجبان . وقيل
مستحبان . وقيل بالفرق بين الأكل والإطعام ؛ فالأكل مستحب والإطعام واجب ؛ وهو
قول الشافعي .

الموافية عشرين — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾ أي ثم ليقضوا بعد نحو الضحايا
والهدايا ما بقي عليهم من أمر الحج ؛ كالحلق ورمي الجمار وإزالة شعث ونحوه . قال ابن عرفة :
أي ليزيلوا عنهم أدرانهم . وقال الأزهري : التفت الأخذ من الشارب وقص الأظفار
وتنشف الإبط وحلق العانة ؛ وهذا عند الخروج من الإحرام . وقال النضر بن شميل : التفت
في كلام العرب إذهب الشعث ، وسميت الأزهري بقول : التفت في كلام العرب لا يعرف
إلا من قول ابن عباس وأهل التفسير . وقاله الحسن : هو إزالة قشفت الإحرام . وقيل :
التفت مناسك الحج كلها ؛ رواه ابن عمر وابن عباس . قال ابن العربي : لو سمع عنهما لكان
حجة لشرف الصحبة والإحاطة باللغة ؛ قال : وهذه اللفظة غريبة لم يجد أهل العربية فيها
شعرا ولا إحاطوا بها خيرا ؛ لكنني وجدت التفت لغة قرايت أبا عبيدة معمر بن النخعي قال :
(١) روى له النبي صلى الله عليه وسلم أن مات بمكة . بنى في الأرض التي جاور منها . (راجع ترجمته في كتاب
الاستيعاب) . (٢) آية ١٦٥ سورة الأعراف .

إنه فص الأظفار وأخذ الشارب وكل ما يتجرَّم على المحرم إلا النكاح . قال : ولم يبيح فيها
شعر يمتدح به . وقال صاحب العين : التفت هو الرمي والخلق والدفع والذبح وقص الأظفار
والشارب والإبط . وذكر الزجاج والفراء نحوه ، ولا أبناه أخذه إلا من قول العلماء . وقال
قُطْرُب : تمت الرجل إذا كثر وسخه . قال أمية بن أبي الصلت :
حَفُوا رِيسِمَهُمْ لَمْ يَحْلِقُوا تَفْتًا * وَلَمْ يَسْلُوا لَهُمْ قَمَلًا وَصِيبَانَا
وما أشار إليه قُطْرُب هو الذي قاله ابن وهب عن مالك ، وهو الصحيح في التفت . وهذه
صورة إلقاء التفت لغة ، وأما حقيقته الشرعية فإذا نحر الحجاج أو المُتَمِيسُ هَذِيه وسحق رأسه
وأزال وسخه وتطهر وتقي وبس فقد أزال تفته ووقى نذره ، والنذر ما لزم الإنسان وآلتيه .
قلت : ما حكاه عن قُطْرُب وذكر من الشعر قد ذكره في تفسير الماوردي ، وذكر
بينا آخر فقال :

قَصُوا تَفْتًا وَنَحَبًا ثُمَّ سَارُوا * إِلَى تَجْدٍ وَمَا انْتظَرُوا عَلِيًّا

وقال التلميذ : وأصل التفت في اللغة الوسخ ، تقول للعرب للرجل تستقذره : ما أفتنك ،
أي ما أوسخك وأقذرك . قال أمية بن أبي الصلت :
سَاخِينَ أَبَاطِلَهُمْ لَمْ يَقْذَرُوا تَفْتًا * وَيَزَعُوا عَنْهُمْ قَمَلًا وَصِيبَانَا .

الماوردي : قيل لبعض الصالحاء ما المعنى في شعث المحرم ؟ قال : ليشهد الله تعالى منك
الإعراض عن العناية بنفسك فيعلم صدقك في بذلها لطاعته .

الحادية والعشرون — (وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ نَذْرِهِمْ) أَمَرُوا بوفاء النذر مطلقا إلا ما كان
معصية ، لقوله عليه السلام : " لا وفاء لنذر في معصية الله " ، وقوله : " من نذر أن يطيع
الله فليطعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه " ، (وَيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) الطواف المذكور
في هذه الآية هو طواف الإفاضة الذي هو من واجبات الحج . قال الطبري : لا خلاف بين
المأولين في ذلك .

الثانية والعشرون - الحج ثلاثة أطواف : طواف القدوم ، وطواف الإفاضة ، وطواف الوداع . قال إسماعيل بن إسماعيل : طواف القدوم سنة ، وهو ساقط عن المراهق وعن المكّي وعن كل من يُحرّم بالبحر من مكة . قال : والطواف الواجب الذي لا يسقط بوجه من الوجوه ، وهو طواف الإفاضة الذي يكون بعد عرفة ؛ قال الله تعالى : « ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ » . قال : فهذا هو الطواف المفترض في كتاب الله عز وجل ، وهو الذي يحل به إلتحاق من إقامته كله . قال الحافظ أبو عمر : ما ذكره إسماعيل في طواف الإفاضة هو قول مالك عند أهل المدينة ، وهي رواية ابن وهب وابن نافع وإشهب عنه . وهو قول جمهور أهل العلم من فقهاء أهل النجاش والعراق ، وقد روى ابن القاسم وابن عبد الحكم عن مالك أن طواف القدوم واجب . وقال ابن القاسم في غير موضع من المدة أنه رواه أيضا عن مالك : الطواف الواجب طواف القدوم مكة . وقال : من نسى الطواف في حين دخوله مكة أو نسي شوطا منه ، أو نسي السّاق أو شوطا منه حتى رجع إلى بلده ثم ذكره ، فإن لم يكن أصاب النساء رجع إلى مكة حتى يطوف بالبيت ويكبر ويسعى بين الصفا والمروة ، ثم يمشي . وإن أصاب النساء رجع فطاف وسعى ، ثم اعتمر وأهدى . وهذا كقوله فيمن نسى طواف الإفاضة سواء . فعمل هذه الرواية الطوافان جميعا واجبا ، والسّاق أيضا . وأما طواف الصّبر وهو المسمى بطواف الوداع فنروي ابن القاسم وغيره عن مالك فيمن طاف طواف الإفاضة على غير وضوء : أنه يرجع من بلده فيقبض إلا أن يكون تَطَوُّع بعد ذلك . وهذا ما أجمع عليه مالك وأصحابه ، وأنه يميزه تطوعه عن الواجب المفترض عليه من طوافه . وكذلك أجمعوا أن من فعل في حجه شيئا تَطَوُّع به من عمل الحج ، وذلك الشيء واجب في الحج قد جاز وقته ، فإن تَطَوُّعَه ذلك يصير للواجب لا للتطوع ؛ بخلاف الصلابة . فإذا كان التَطَوُّع ينسب عن القرض في الحج كان الطواف لدخول مكة أحرى أن ينسب عن طواف الإفاضة ، إلا ما كان من الطواف بعد رمي جمرة العقبة يوم النحر أو بعده للوداع . ورواية ابن عبد الحكم عن مالك بخلاف ذلك ؛ لأن فيها أن طواف

الدخول مع السعي ينوب عن طواف الإفاضة لمن رجع إلى بلده مع الهدى ، كما ينوب طواف الإفاضة مع السعي لمن لم يطف ولم يسع حين دخوله مكة مع الهدى أيضا عن طواف القدوم . ومن قال هذا قال : إنما قبل لطواف الدخول واجب ولطواف الإفاضة واجب لأن بعضهما ينوب عن بعض . ولأنه قد روى عن مالك أنه يرجع من نسي أحدهما من بلده على ما ذكرنا ، ولأن الله عز وجل لم يفترض على الحجاج إلا طوافا واحدا بقوله : « وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ » ، وقال في سياق الآية : « وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ » والواو عندهم في هذه الآية وغيرها لا توجب رتبة إلا بتوقيف . وأسد الطبري عن عمرو بن أبي سلمة قال : سألت زهيرا عن قوله تعالى : « وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ » فقال : هو طواف الوداع . وهذا يدل على أنه واجب ، وهو أحد قولي الشافعي ؛ لأنه عليه السلام رخص للحائض أن تتفردون أن تطوفه ، ولا يرخص إلا في الواجب .

الثالثة والمثرون - اختلف المتأولون في وجه صفة البيت العتيق ؛ فقال مجاهد والاسن : العتيق القديم . يقال : سيف عتيق ، وقد عتق أي قدم ؛ وهذا قول يعضده النظر . وفي الصحيح " أنه أول مسجد وضع في الأرض " . وقيل عتيقا لأن الله أعتقه من أن يتسلط عليه جبار بالهوان إلى انقضاء الزمان ؛ قال معناه ابن الزبير ومجاهد . وفي الترمذي عن عبد الله بن الزبير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما سُمِّيَ البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار " . قل : هذا حديث حسن صحيح ، وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم مراسلا . فإن ذكر ذاكر الحجج بن يوسف وتصبه المتجنيق على الكعبة حتى كسرهما قبل له : إنما أعتقها عن كفار الجبارة ؛ لأنهم إذا أتوا بأنفسهم مقردين ولحمة البيت غير معتقدين ، وقصدوا الكعبة بالسوء فعضمت منهم ولم تلتها أيديهم ، كان ذلك دلالة على أن الله عز وجل صرفهم عنها قسرا . فأما المسلمون الذين اعتقدوا حرمتها فأنهم إن كفوا عنها لم يكن في ذلك من الدلالة على منزلتها عند الله مثل ما يكون منها في كعب الأعداء ؛ فقصر الله تعالى هذه الطائفة عن الكف بالتهوى والوعيد ، ولم يتجاوزها إلى الصرف بالإلجاء والاضطرار ،

وجعل الساعة موعدهم ، والساعة أدنى وأمر . وقالت طائفة : سمي عتيقا لأنه لم يملك موضعه فقط . وقالت فرقة : سمي عتيقا لأن الله عز وجل يعق فيه رقاب المذنبين من العذاب . وقيل : سمي عتيقا لأنه أعتق من غرق الطوفان ، قاله ابن جبير . وقيل : العتيق الكريم . والعتق الكرم . قال طرفة يصف أذن الفرس :

مَوْلَانِ تَعْرِيفِ اللَّيْقِ فِيهِمَا * كَسَامَتِي مَذْعُورَةٌ وَسَطَ رَبِّهِ^(١)

وعنى الرقيق : الخروج من ذل الرق إلى كرم الحرية . ويحتمل أن يكون العتيق صفة مدح تقتضى جودة الشيء ، كما قال عمر : حملت على فرس عتيق ، والحديث ، والقول الأول أصح للنظر والحديث الصحيح . قال مجاهد : خلق الله البيت قبل الأرض بالثاني عام ، وسمى عتيقا لهذا ، والله أعلم .

قوله تعالى : ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَحَلَّتْ لَكُمْ أَنْ تَعْلَمُوا إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٢٠﴾ حَفَافَةٌ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا نَرَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ بَحِيرٍ ﴿٢١﴾ فِيهِ ثَمَانِي مَسَائِلَ :

الأول - قوله تعالى : (ذَلِكَ) يحتمل أن يكون في موضع رفع بتقدير : لفرصكم ذلك ، أو الواجب ذلك . ويحتمل أن يكون في موضع نصب بتقدير : استنزلوا ذلك ، ونحو هذه الإشارة اليلغة قول زهير :

هَذَا وَلَيْسَ كُنْ يَمِيًا بِحُطَّتْهُ * وَسَطَ النَّدَى إِذَا مَا قَاتَلَ نَقَطًا

(١) المولى : ألهجد . والربوب : القطيع من بقر الوحش ، وقيل النفاذ . وعده الرواية في البيت مخالفة :

لما في ديوانه ومملته . والرواية فيها :

وَلَيْسَانِ تَعْرِفِ اللَّيْقِ فِيهِمَا * كَسَامَتِي شَاةٌ بِجُرَيْلٍ مُفْرَدٍ

ويريد بالثاء هنا التردد الوحش .

والحرمات المقصودة هنا هي أفعال الحج المشار إليها في قوله : « ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ » ، ويدخل في ذلك تعظيم المواضع ؛ قاله ابن زيد وتفسيره . ويجمع ذلك أن نقول : الحرمات امتثال الأمر من فرائضه وسننه . وقوله : « تَهَوَّخَرُّهُ عِنْدَ رَبِّهِ » أي التعظيم خير له عند ربه من التهاون بشيء منها . وقيل : ذلك التعظيم خير من خيانه يُنْذِفُ به ، وليست التفضيل وإنما هي عِدَّةٌ بخير .

الثانية - قوله تعالى : « وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ » أن تأكلوها ؛ وهي الإبل والبقر والغنم . « إِلَّا مَا يُبْتَلَىٰ عَلَيْكُمْ » أي في الكتاب من المحرمات ؛ وهي الميتة والموقوفة وأخواتها . ولهذا اتصال بأمر الحج ، فإن في الحج الذبح ، فيبين ما يحل ذبحه وأكل لحمه . وقيل : « إِلَّا مَا يُبْتَلَىٰ عَلَيْكُمْ » غير محل الصيد وأتم حرم .

الثالثة - قوله تعالى : « فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ » الرجس : الشيء الفيدر . والوثن : انتمثال من خشب أو حديد أو ذهب أو فضة ونحوها ، وكانت العرب تسيبها وتعبدونها . والنصارى تسيب الصليب وتعبده وتمظمه فهو كاتنثال أيضا . وقال عدي بن حاتم : أنبت النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنق صليب من ذهب فقال : « أَلَيْسَ هَذَا الْوُثْنُ عَنْكَ » أي الصليب ؛ وأصله من وثن الشيء أي أقام في مقامه . وسمى الصنم وثنا لأنه ينصب ويكر في مكان فلا يرح عنه . يريد اجتنبوا عبادة الأوثان ؛ روى عن ابن عباس وابن جريج . ومماها رجسا لأنها سبب الرجز وهو العذاب . وقيل : وصفها بالرجس ، والرجس النجس فهي نجسة حكا . وليست النجاسة وصفا ذاتيا للعابن وإنما هي وصف شرعي من أحكام الإيمان ، فلا تزال إلا بالإيمان كما لا تجوز الطهارة إلا بالماء .

الرابعة - « مِنْ » في قوله : « مِنْ الْأَوْثَانِ » قيل : إنها لبيان الجنس ، فيقع نهيه من رجس الأوثان فقط ، ويبقى سائر الأرجاس نهيا في غير هذا الموضع . ويحتمل أن تكون لأبداء الغاية ؛ فكانت نهالهم عن الرجس عاما ثم عين لهم مبداء الذي منه يلحقهم ، إذ عبادة الوثن جامعة لكل فساد ورجس . ومن قال إن « من » للتبويض ، قلب معنى الآية وأفسده .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ والزور : الباطل والكذب .
وسمى زورا لأنه أميل عن الحق ، ومنه « زَاوَرُ عَنْ كَيْفِهِمْ » ، ومدينة زوراء ، أى مائلة .
وكل ما عدا الحق فهو كذب و باطل وزور . وفي الخبر أنه عليه السلام قام خطيبا فقال :
« عدلت شهادة الزور الشرك بالله » فالها مرتين أو ثلاثا . يعنى أنها قد جمعت مع عبادة
الوثن في التنبى عنها .

السادسة - هذه الآية تضمنت الوعيد على الشهادة بالزور ، وينبئ للحاكم إذا عثر
على الشاهد بالزور أن يمزّره وينادى عليه ليُعرف لئلا يفتّر بشهادته أحد . ويختلف الحكم
في شهادته إذا تاب ؛ فإن كان من أهل العدالة المشهور بها المبرّز فيها لم يقبل ، لأنه لا سبيل
إلى علم حاله في التوبة ، إذ لا يستطيع أن يفعل من القربات أكثر مما هو عليه . وإن كان
دون ذلك فبشّر في العبادة وزادت حاله في التّقى قبل شهادته . وفي الصحيح عن النبي صلى الله
عليه وسلم أنه قال : « إن من أكبر الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور وقول
الزور » . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متكئا بجلوس فزال يكرها حتى قلنا لبّته سكت .
السابعة - ﴿ حُفَاءَ لِلَّهِ ﴾ معناه مستقيمين أو مسلمين مائتين إلى الحق . ولقطة
« حفاء » من الأضداد تقع على الاستقامة وتقع على الميل . و « حفاء » نصب على الحال .
وقيل : « حفاء » محاجا ؛ وهذا تخصيص لا حجة معه .

الثامنة - قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ أَى هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
بمترلة لا يملك لنفسه نفعا ولا يدفع عن نفسه ضرا ولا عذابا ؛ فهو بمترلة من خَرَّ من
السماء ، فهو لا يقدر أن يدفع عن نفسه . ومعنى ﴿ تَنخَطِفُ الْطَيْرُ ﴾ أى تقطعه بمجالها .
وقيل : هذا عند خروج روحه وعوده الملائكة بها إلى سماء الدنيا ، فلا يُفتح لها فري
بها إلى الأرض ؛ كما في حديث البراء ، وقد ذكرناه في التذكرة . والسحيق : البعيد ، ومنه
قوله تعالى : « فَسُحُطًا لِأَهْبَابِ السَّيْرِ » ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « نَسُحُفًا فَسُحُفًا » .

قوله تعالى : **ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمَ شَعْبَهُ اللَّهُ فَاتَّخِذْهُ مِنْ قَوَى الْقُلُوبِ (١) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢)**
فيه سبع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : **(ذَلِكْ)** فيه ثلاثة أوجه . قيل : يكون في موضع رفع بالابتداء ، أى ذلك أمر الله . ويجوز أن يكون في موضع رفع على خبر ابتداء محذوف . ويجوز أن يكون في موضع نصب ، أى اتَّخِذُوا ذَلِكَ .

الثانية - قوله تعالى : **(وَمَنْ يُعْظِمَ شَعْبَهُ اللَّهُ)** الشعائر جمع شعيرة ، وهو كل شيء لله تعالى فيه أمر أشعر به وأعلم ، ومنه شعار القوم في الحرب ، أى علامتهم التى يتعارفون بها . ومنه إشعار البدنة وهو الطعن في جانبها الأيمن حتى يسيل الدم فيكون علامة ، فهى تسمى شعيرة بمعنى المشعورة . فشعار الله أعلام دينه لاسيما ما يشاعق بالإنسان . وقال ترم : المراد هنا تسمين البدن والاهتمام بأمرها والمغالاة بها ، قاله ابن عباس ومجاهد وجماعة . وفيه إشارة لطيفة ، وذلك أن راصل شراء البدن وما يحمله على فعل ما لا بد منه ، فلا يدل على الإنسان ، فإذا عظمها مع حصول الإجزاء به دونها فلا يظهر له عمل إلا تعظيم الشرع ، وهو من قوى القلوب . والله أعلم .

الثالثة - الضمير فى « إنها » عائد على الفعل التى يتضمنها الكلام ، ولو قال فإنه لحجاز . وقيل إنها راجعة إلى الشعائر ، أى فإن تعظيم الشعائر ، تحذف المضاف لدلالة الكلام عليه ، فوجبت الكتابة إلى الشعائر .

الرابعة - قوله تعالى : **(فَاتَّخِذْهُ مِنْ قَوَى الْقُلُوبِ)** قرئ « القلوب » بالرفع على أنها فاعلة بالمصدر الذى هو « قَوَى » وأضاف التقوى إلى القلوب لأن « قَوَى » تقوى التقوى فى القلب ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام فى صحيح الحديث : « التقوى هاهنا » وأشار إلى صدره .

الخامسة - قوله تعالى : **(لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ)** يعنى البدن من الركوب والذبح والنسل والصوب وغير ذلك ، إذا لم يبعثوا ربهأ حديثاً ، فإذا بعثها فهو الأجل المسمى ، قاله ابن عباس .

(١) فى الأصول : « وأضاف إلى القلب » .

فإذا صارت بُدْنًا هَدْيًا فالمنافع فيها أيضا ركوبها عند الحاجة، وشرب لبنها بعد رى فصلها .
وفي الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يسوق بُدْنَةً فقال :
” أركبها “ فقال : إنها بدنة . فقال : ” أركبها “ قال : إنها بدنة . قال : ” أركبها وتلك “
في الثانية أو الثالثة . وروى عن جابر بن عبد الله وسئل عن ركوب الهدى فقال : سمعت
النبي صلى الله عليه وسلم يقول : ” أركبها بالمعروف إذا أُلِّحَتْ إليها حتى تجد ظهرا “ .
والأجل المسمى على هذا القول نحرها ، قاله عطاء بن أبي رباح .

السادسة — ذهب بعض العلماء إلى وجوب ركوب البدنة لقوله عليه الصلاة والسلام :
” أركبها “ . وعمن أخذ بظاهره أحمد وإسحاق وأهل الظاهر . وروى ابن نافع عن مالك :
لا بأس بركوب البدنة ركوبا غير فادح . والمشهور أنه لا يركبها إلا إن أضطر إليها لحديث
جابر فإنه مقيّد والمقيّد يقضى على المطلق . ونحو ذلك قال الشافعي وأبو حنيفة . ثم إذا
ركبها عند الحاجة نزل ؛ قاله إسماعيل القاضي . وهو الذي يدل عليه مذهب مالك ، وهو خلاف
ما ذكره ابن القاسم أنه لا يلزمه النزول ، وحجته إباحة النبي صلى الله عليه وسلم له الركوب
بغazole استصحابه . وقوله : ” إذا أُلِّحَتْ إليها حتى تجد ظهرا “ يدل على صحة ما قاله الإمام
الشافعي وأبو حنيفة رضي الله عنهما ، وما حكاه إسماعيل عن مذهب مالك . وقد جاء صريحا
أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يسوق بُدْنَةً وقد جهد ، فقال : ” أركبها “ . وقال
أبو حنيفة والشافعي : إن نقصها الركوب المباح فعليه قيمة ذلك ويتصدق به .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ يريد أنها تنتهي إلى البيت ،
وهو الطواف . فتقوله : « مَحِلُّهَا » مأخوذ من إحلال المحرم . والمعنى أن شعائر الحج كلها من
الوقوف بعرفة ورمي الجمار والسعي ينتهي إلى طواف الإفاضة بالبيت العتيق . فإليت على
هذا التأويل مراد بنفسه ؛ قاله مالك في الموطأ . وقال عطاء : ينتهي إلى مكة . وقال
الشافعي : إلى الحرم . وهذا بناء على أن الشعائر هي البدن ، ولا وجه لتخصيص الشعائر
مع عمومها وإلغاء خصوصية ذكر البيت . والله أعلم .

قوله تعالى : وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ
مِّنْ بَيْمَةٍ الْأَنْعَمَ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٢١﴾
قوله تعالى : (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا) لما ذكر تعالى الذبايح بين أنه لم يُخل منها

أمة ، والأمة القوم المجتمعون على مذهب واحد ؛ أى ولكل جماعة مؤمنة جعلنا منسكا .
والمنسك الذبح وإراقة الدم ؛ قاله مجاهد . يقال : تَنَسَّكَ إذا ذبح بَنَسْكَ نَسْكَاً . والذبيحة
نسيكة ، وجمعها نُسُكٌ ؛ ومنه قوله تعالى : « وَأَوْصِدْقِيهِ أَوْ نُسُكٌ » . والنسك أيضا الطاعة . وقال
الأزهري في قوله تعالى « وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا » : إنه يدل على موضع النحر في هذا
الموضع ، أراد مكان نُسُك . ويقال : مَنَسَكَ وَمَنَسَكَ ، لثنتان ، وقرئ بهما . قرأ الكوفيون
إلا عاصما بكسر السين ، الباقون بفتحها . وقال الفراء : المَنَسَكُ في كلام العرب الموضع
المتأد في خير أو شر . وقيل مناسك الحج لترداد الناس إليها من الوقوف بعرفة وروى إخبار
والسهمي . وقال ابن عرفة في قوله « وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا » : أى سديها من طائفة الله
تعالى ؛ يقال : تَنَسَّكَ نُسُكاً قومه إذا سلك مذهبهم . وقيل : منسكا عبدا ؛ قاله الفراء .
وقيل : نسجا ؛ قاله قتادة . والتول الأول أطهر ؛ لقوله تعالى : (لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ
مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْمَةٍ الْأَنْعَامِ) أى على ذبح ما رزقهم . فأمر تعالى عند الذبح بذكره وأن يكون
الذبح له ؛ لأنه رازق ذلك . ثم رجع اللفظ من الخبر عن الأثم إلى إخبار الحاضرين بما دعاه ؛
فالإله واحد لجميعكم ، فكذلك الأمر في الذبيحة إنما ينبغي أن تخلص له .

قوله تعالى : (فَلَهُ أَسْلِمُوا) معناه لحقه ولوجهه وإنعامه آمنوا وأسلموا . ويمكن أن
يريد الاستسلام ؛ أى له أطعوا وأتقوا .

قوله تعالى : (وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ) الخبت : المتواضع الخاضع من المؤمنين . والخبت
الانخفاض من الأرض ؛ أى بشرهم بالثواب الجزيل . قال عمرو بن أوس : الْمُخْبِتُونَ الَّذِينَ
لَا يَظْلَمُونَ ، وإذا ظلموا لم يَنْصِرُوا . وقال مجاهد فيما روى عنه سفيان عن ابن أبي نجيح :
الْمُخْبِتُونَ الْمُطِيعُونَ بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

(١) آية ١٩٦ سورة البقرة . (٢) مظنة التوبة ؛ وبضعتين . (٣) الانتصار ؛ الانتقام .

قوله تعالى : الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٢٤﴾
فيه مسائل ثلاث :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أى خافت وحذرت مخالفته ، فوصفهم بالخوف والوجل عند ذكره ، وذلك لقوة يقينهم ومراعاتهم لربه ، وكأنهم بين يديه ، ووصفهم بالصبر وإقامة الصلاة وإدامتها ، وروى أن هذه الآية قوله : « وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ » نزلت في أبي بكر وعمر وعلى رضوان الله عليهم . وقرأ الجمهور « الصلاة » بالنقص على الإضافة ، وقرأ أبو عمرو « الصلاة » بالنصب على توكم النون ، وأن حذفها للتخفيف لطول الاسم . وأنشد سيويه :

• الحافظو عورة البشيرة ... •

الثانية - هذه الآية نظير قوله تعالى : « إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا بُلِغَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » ، وقوله تعالى : « اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا تَفْشِيرُ مِنْهُ جُودُ الَّذِينَ يُخَشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ يَلِيْنَ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ » . هذه حالة العارفين بالله ، الحافظين من سطوته وعقوبته ، لا كما يفعله جهال العوام والمبتدعة الطغام من الزعيم والزبير ، ومن النفاق الذى يشبه نفاق الحمير ؛ فيقال لمن تماطى ذلك وزعم أن ذلك وجد وخشوع : إنك لم تبلغ أن تسأوى حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا حال أصحابه في المعرفة بالله تعالى والخوف منه والتعظيم لحلاله ، ومع ذلك فكانت حالهم عند المواظف الفهم عن الله والبكاء خوفا من الله ، وكذلك وصف الله تعالى أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه ، ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ولا على طريقتهم ، قال الله تعالى : « وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ

(١) البيت بتمامه : الحافظو عورة البشيرة لا • بأنهم من ورثا ثقلت

(٢) آية ٢ سورة الأقبال . (٣) آية ٢٢ سورة الزمر .

تَقِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مَا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ^(١) . وهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم ؛ فمن كان مُسْتَنًا فَلَيْسَتْ ، ومن تعاطى أحوال المجانين والجنون فهو من أخسهم حالاً ؛ والجنون فنون . روى الصحيح عن أنس بن مالك أن الناس سألوا النبي صلى الله عليه وسلم حتى أحفوه في المسألة ، فخرج ذات يوم فصعد المنبر فقال : "سألوني لا تسألوني عن شيء إلا بيته لكم ما دمت في مقامى هذا" فلما سمع ذلك القوم أرموا وريهوا أن يكون بين [يدى] أمرٍ قد حضر . قال أنس : فجعلت ألتفت بينا وبيننا فإذا كل إنسان لأف رأسه في ثوبه يبيى . وذكر الحديث . وقد مضى القول في هذه المسألة بأشجع من هذا في سورة « الأنفال » ^(٢) والحلده .

قوله تعالى : **وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعِيرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا أَنْمَ اللَّهُ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْقَاعَ وَالْمُعْتَرِّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴿٣٨﴾
فيها عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (**وَالْبُدْنَ**) وقرأ ابن أبي إسحاق « **والبُدْن** » لغتان ؛ واحدها بَدَنَةٌ . كما يقال : ثمرة ومُرٌّ ومُرٌّ ، وخشبة وخُشْبٌ وخُشْبٌ . وفي التنزيل « وكان له ثمر » وقرئ « ثمر » لغتان . وسميت بَدَنَةٌ لأنها تَبْدُنُ ، والبداية السَّمن . وقيل : إن هذا الاسم خاص بالإبل . وقيل : البُدْن جمع « بَدَن » بفتح الباء والدال . ويقال : بَدْن الرجل (بضم الدال) إذا تَمِن . وبَدَن (بتشديد الباء) إذا كبر وأسن . وفي الحديث « إني قد بَدَنْت » أى كبرت وأسنت . وروى "بَدَنْت" وليس له معنى ؛ لأنه خلاف صفته صلى الله عليه وسلم ، ومعناه كثرة اللحم . يقال : بَدْن الرجل يَبْدُن بُدْنًا و بَدَانَةً فهو بادن ؛ أى خفيف .

(١) آية ٨٣ سورة المائدة . (٢) أى أكثروا عليه . وأحل في السؤال وألحف بمعنى ألغ .

(٣) ارم الرجل : سكت ، فهو مرم . (٤) الزيادة عن مصحبه مسلم . (٥) راجع به ص ٣٦٦ لمة أبا . أو ثانية .

الثانية - اختلف العلماء في البُذْن هل تطلق على غير الإبل من البقر أم لا ؛ فقال ابن مسعود وعطاء والشافعي : لا . وقال مالك وأبو حنيفة : نعم . وفائدة الخلاف فيمن نذر بذنه فلم يحصد البذنة أو لم يقدر عليها وقدر على البقرة ؛ فهل تجزيه أم لا ؛ فعلى مذهب الشافعي وعطاء لا تجزيه . وعلى مذهب مالك تجزيه . والصحيح ما ذهب إليه الشافعي وعطاء ؛ لقوله عليه السلام في الحديث الصحيح في يوم الجمعة : " من راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بذنه ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة " الحديث . فنفرقه عليه السلام بين البقرة والبذنة يدل على أن البقرة لا يقال عليها بذنه ؛ والله أعلم . وأيضاً قوله تعالى : « فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا » يدل على ذلك ؛ فإن الوصف خاص بالإبل . والبقرة يضعع ويدبح كالغنم ؛ على ما يأتي . ودليلنا أن البذنة مأخوذة من البدانة وهو الضخامة ، والضخامة توجد فيهما جميعاً . وأيضاً فإن البقرة في التقرب إلى الله تعالى ببارقة الدم بمنزلة الإبل ؛ حتى يجوز البقرة في الضحايا عن سبعة كالإبل . وهذا حجة لأبي حنيفة حيث وافقه الشافعي على ذلك ، وليس ذلك في مذهبتنا . وحكى ابن شجرة أنه يقال في الغنم بذنه ، وهو قول شاذ . والبُذْن هي الإبل التي تُهدى إلى الكعبة . والمُهدى مأم في الإبل والبقرة والغنم .

الثالثة - قوله تعالى : (مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ) نص في أنها بعض الشعائر . وقوله : (لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ) يريد به المنافع التي تقدم ذكرها . والصواب عمومها في خير الدنيا والآخرة .

الرابعة - قوله تعالى : (فَأَذْكُرُوا لَكُمْ آسَمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ) أي انحروها على اسم الله . و « صَوَافٍ » أي قد صفت قوائمها . والإبل تُحَرَّ قِيَامًا معقولة . وأصل هذا الوصف في الخيل ؛ يقال : صَقَنَ الفرس فهو صافن إذا قام على ثلاث قوائم وتحت سُنْبُكِ الرَّابِعة ؛ والسُنْبُك طرْفُ الحافر . والبعير إذا أراد أن يحد ثَبَقْلٍ إحدى يديه فيقوم على ثلاث قوائم وقرأ الحسن والأعرج ومجاهد وزيد بن أسلم وأبو موسى الأشعري « صَوَافٍ » أي خوالص الله عز وجل لا يشركون به في التسمية على نحركها أحداً . وعن الحسن أيضاً « صَوَافٍ » بكسر الهمزة وتنوينها مخففة ، وهي بمعنى التي قبلها ، لكن حذف الياء تخفيفاً على غير قياس

و « صوائف » قراءة الجمهور بفتح الفاء وشدها ، من صَفَّ يَصِفُّ . و واحد صوائف صافئة ، و واحد صوائف صافية . وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وأبو جعفر محمد بن علي « صوائف » بالنون جمع صافئة ، ولا يكون واحدها صافئا ؛ لأن فاعلاً لا يجمع على فواعل إلا في حروف مختصة لا يقاس عليها ؛ وهي فارس وفوارس ، وهالك وهالك ، وخالف وخوالف^(١) . والصافنة هي التي قد رُفِمت إحدى يديها بالقلل لئلا تضطرب . ومنه قوله تعالى : « الصَّافِيَاتُ الْجِيَادُ »^(٢) . وقال عمرو بن كلثوم :

رَكَاتُ الْخَيْلِ مَا كَفَتْ عَلَيْهِ • مَقْلَدَةٌ أَعْنَتْهَا صُفُونًا

ويروي :

تَظَلُّ جِيَادُهُ نَوَّاحًا عَلَيْهِ • مَقْلَدَةٌ أَعْنَتْهَا صُفُونًا

وقال آخر :

أَلِفُ الصُّفُونِ فَارِزَالٌ كَأَنَّهُ • مِمَّا يَقُومُ عَلَى الثَّلَاثِ كَسِيرًا

وعان أبو عمرو الجعفي : الصائف عرق في مقدم الرجل ، فإذا ضرب على الفرس : رفع زجله . وقال الأعمش :

وَكُلُّ نُكَيْتٍ يَكْذَعُ السَّحُوحَ • قِيَرْنُو الْفِئَاءِ إِذَا مَا صَفَّنَا

الخامسة - قال ابن وهب : أخبرني ابن أبي ذئب أنه سأل ابن شهاب عن الصوائف فقال : تنقدها ثم تضيقها . وقال لي مالك بن أنس مثله . وكافة العلماء على استحباب ذلك ؛ إلا أبا حنيفة والثوري فإنهما أجازا أن تنحر بركة وقياماً . وشذَّ عطاء يخالف واستحب نحرها بركة . والصحيح ما عليه الجمهور ؛ لقوله تعالى : « فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا » معناه سقطت بعد نحرها ؛ ومنه وَجَبَتْ الشمس . وفي صحيح مسلم عن زياد بن جبير أن ابن عمر أتى على زجل وهو ينحرب بدنته بركة فقال : أبشها قائمة مقيدة سنة نبيكم صلى الله عليه وسلم . وروى أبو داود عن أبي الزبير عن جابر ، وأخبرني عبد الرحمن بن سابط أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا ينحرون البدنة معقولة اليسرى قائمة على ما بقي من قوائمها .

(١) « فاعل » الذي لا يجمع على فواعل ؛ إذا كان وصفاً للذكر فاعل ؛ أما « صائف » فليس وصفاً لفاعل .

(٢) في شرح الأعمش على الآية ابن مالك فارس رناكس وهالك وغائب وشاهد . (٣) آية ٣١ سورة ص .

السادسة - قال مالك : فإن ضُفَّ إنسان أو تخوف أن تنفلت بَدَنته فلا أرى بأساً أن يَحْجَرها معقولة . والاختيار أن تُحْرَ الإبل قامة غير معقولة ؛ إلا أن يتذر ذلك تعقل ولا تُعَرِّق إلا أن يخاف أن يضعف عنها ولا يقوى عليها . وغيرها باركة أفضل من أن تعرق . وكان ابن عمر يأخذ الحربة بيده في عنوان أيده فينحرها في صدرها ويخرجها على سنانها ، فلما أسن كان يحرها باركة لضعفه ، ويسك معه الحربة رجل آخر ، وآخر يخطأها . وتضعع البقر والغنم .

السابعة - ولا يجوز النحر قبل الفجر من يوم النحر بإجماع . وكذلك الأضحية لا تجوز قبل الفجر . فإذا طلع الفجر حل النحر بئى ، وليس عليهم انتظار نحر إمامهم ؛ بخلاف الأضحية في سائر البلاد . والنحر بئى لكل حاج ، ومكة لكل متعمر . ولو نحر الحاج بمكة والمُعْتَمِر بئى لم يجز . وإن شاء الله تعالى .

الثامنة - قوله تعالى : ﴿ فَأَذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾) يقال : وجبت الشمس إذا سقطت ، ووجب الحائط إذا سقط . قال قيس بن الخطيم
أطاعت بنو عوف أميا نهامُ ۖ عن السَّمِ حتى كان أول واجب
وقال أوس بن حجر :

(١) أَلَمْ تَكْسِفِ الشَّمْسُ وَالبَدْرُ وَال ۖ كَوَاكِبُ الْجَبَلِ الواجب
فقوله تعالى : « فَأَذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا » يريد إذا سقطت على جنوبها ميتة . كَتَى عن الموت بالسقوط على الجنب كما كتى عن النحر والذبح بقوله تعالى : « فاذكروا اسم الله عليها » .
والكنايات في أكثر المواضع أبلغ من التصريح . قال الشاعر
(٢) فتركتهُ جَزَرَ السَّيَاحِ يُلْقِيهِ ۖ مَا بَيْنَ قَلَّةٍ وَرَأْسِ الْيَمْعَمِ

(١) هذه رواية البيت كما في ديوانه . وروايته في الأصول :

أَلَمْ تَكْسِفِ الشَّمْسُ ضَوْءَ النَّهَارِ ۖ وَالْبَسْمُ الْجَبَلِ الواجب

ويريد بالجبل : فضالة بن كعدة . وهو من تصدئة زينة بها ، وعيا :
لذلك فضالة لا تستوى إل ۖ تنقود ولا خسله أذهب

(٢) البيت من معلقة عنترة . والجوز : جمع جورة ، وهي الشاة وثلاثة تذبح وتحر

وقال عنزة : • وضربت قرني كبشها فتجدلاً^(١) •

أى سقعد متحولاً إلى الجذالة، وهى الأرض ؛ ومثله كثير . والوجوب للجنب بعد النحر علامة نزف الدم ونحروج الروح منها ، وهو وقت الأكل ، أى وقت قرب الأكل ؛ لأنها إنما تبدأ بالسليخ وقطع شئ من الذبيحة ثم يطبخ . ولا تسليخ حتى تهرد لأن ذلك من باب التعذيب ؛ ولهذا قال عمر رضى الله عنه : لا تبجلوا الأنفس أن ترهق •

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ أمر بمعناه التدب . وكل العلماء يستحب أن يأكل الإنسان من هذيه ، وفيه أجر وامثال ؛ إذ كان أهل الجاهلية لا يأكلون من هذيم كما تقدم . وقال أبو العباس بن شريح : لا كل والإطعام مستحبان ، وله الاقتصاد على إيهما شاء . وقال الشافعى : الأكل مستحب والإطعام واجب ، فإن أطعم جميعه أجره وإن أكل جميعه لم يجزه ، وهذا فيما كان تطوعاً ؛ فاما واجبات الدماء فلا يجوز أن يأكل منها شيئاً حسبما تقدم بيانه •

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ﴾ قال مجاهد وإبراهيم والطبرى : قوله « وأطيعوا » أمر بإباحة . و « القانع » السائل . يقال : قنع الرجل يقنع قنوعاً إذا سأل ، بفتح النون فى الماضى وكسرها فى المستقبل ، يقنع قناعة فهو قانع ، إذا تعفف واستغنى ببلفته ولم يسأل ؛ مثل حميد يحمده ، قناعة وقنما وقنمانا ؛ قاله الخليل . ومن الأول قول الشماخ :

لَسَّالُ الْمَرْءِ يُصْلِحُهُ قُنْفِي ، مَفَاقِرُهُ أَغْفُ مِنَ الْقُنُوعِ

وقال ابن السكيت : من الدرب من ذكر القنوع بمعنى القناعة ، وهى الرضا والتعفف وترك المسألة . وروى عن أبى رجاء أنه قرأ « وأطيعوا القانع » ومعنى هذا مخالف للأول •

(١) . هذا صدر بيت ، ويجزه كما فى ديوانه :

• رحلت مهزى رسلها مضاعفا •

(٢) هذه القصة لم نجدتها فى المأبى ، على أن فى الدبارة حاجتنا اضطراباً . والذى فى كتب الفقه أنه يقال : مع الرجل يقنع (بفتح النون فهما) قنوعاً إذا سأل . وقنع يقنع (بكسر النون فى الماضى وقنوعها فى المستقبل) قناعة وقنما وقنمانا • كما ذكر المؤلف — إذا وضى . راجع معجم اللغة •

يقال : قَبِحَ الرجل فهو قَبِيحٌ إذا رَضِيَ . وأما الْمُعْتَرَفُ فهو الذي يُطِيفُ بك يطلب ما عندك ، سائلاً كان أو سائِلاً . وقال محمد بن كعب القُرطبي : « يعاهد وإبراهيم والكبيّ والحسن بن أبي الحسن » : المعتَر المتراض من غير سؤال . قال زهير :

على مُكثِرِيهم رِزْقٌ من يَعتَرِيهم * وعند المَقِلِّين السَّحَابَةُ والبَدَلُ

وقال مالك : أحسن ما سمعت أن إلفانغ الفقير ، والمعترا الزائر ، وروى عن الحسن أنه قرأ « والمعتري » ومعناه كمنى المعتَر . يقال : اعتَرَه واعتراه وعثره وعثره إذا كفّض لما عنده أو طلبه ؛ ذكره النحاس .

قوله تعالى : لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ اتَّقَوِيْ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿ ٢٦ 〉

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا ﴾ قال ابن عباس : كان أهل الجاهلية يضربون البيت بدماء البُدن ، فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك فترلت الآية . والنيل لا يمتلئ بالبارئ تعالى ، ولكنه عبر عنه تعبيراً مجازياً عن القبول ، المعنى : لن يصل إليه . وقال ابن عباس : لن يصعد إليه . ابن عيسى : لن يقبل لحومها ولا دماؤها ، ولكن يصل إليه التقوى منكم ؛ أى ما أريد به وجهه ، فذلك الذى يقبله ويرفع إليه ويسمعه ويثبت عليه ؛ ومنه الحديث « إنما الأعمال بالنيات » . والقراءة « لن ينال الله » و « يناله » بالياء فيهما . وعن يعقوب ببناء فيهما ، نظراً إلى المحوم .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ ﴾ من سبحانه علينا بتذليلها وتمكيننا من تصرفها وهى أعظم منا أبداناً وأقوى منا أعضاء ، ذلك ليعلم العبد أن الأمور ليست على ما تظهر إلى البعد من التدبير ، وإنما هى بحسب ما يريد العزير القدير ، فيغلب الصغير الكبير ليعلم الخلق أن الغالب هو الله الواحد القهار فوق عباده .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ لُتَكْبَرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ﴾ ذكر سبحانه ذكر أسمه عليها في الآية قبلها فقال عز من قائل : « فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهَا » ، وذكر هنا التكبير ، وكان ابن عمر رضي الله عنهما يبيع بينهما إذا نحر هذيه فيقول : بأسم الله والله أكبر ؛ وهذا من فقهه رضي الله عنه ، وفي الصحيح عن أنس قال : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكنشين أمّتين (١) أقرنين . قال : ورايته يذبحهما بيده ، ورايته واضعا قدمه على صفاحهما ، وسعى وكبر ، وقد اختلف العلماء في هذا ؛ فقال أبو ثور : التسمية متينة كالتكبير في الصلاة ؛ وكافة العلماء على استحباب ذلك . فلو قال ذكرا آخر فيه أسم من أسماء الله تعالى وأراد به التسمية جاز . وكذلك لو قال : الله أكبر فقط ، أو لا إله إلا الله ؛ قاله ابن حبيب . فلو لم يرد التسمية لم يميز عن التسمية ولا تؤكل ؛ قاله الشافعي ومحمد بن الحسن . وكره كافة العلماء من أصحابنا وغيرهم الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم عند التسمية في الذبح أو ذكره ، وقالوا لا يذكر هنا إلا الله وحده ، وأجاز الشافعي الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم عند الذبح .

الرابعة - ذهب الجمهور إلى أن قول المضحي : اللهم تقبل مني ، جائز . وكره ذلك أبو حنيفة ؛ والحجة عليه ما رواه الصحيح عن عائشة رضي الله عنها ، وفيه : ثم قال « باسم الله اللهم تقبل من عهدي وآل عهدي ومن أمة عهدي » ثم صلى به . واستحب بعضهم أن يقول ذلك بنص الآية « رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » . وكره مالك قولهم : اللهم منك وإليك ، وقال : هذه بدعة . وأجاز ذلك ابن حبيب من أصحابنا والحسن ؛ والحجة لها ما رواه أبو داود عن جابر بن عبد الله قال : ذبح النبي صلى الله عليه وسلم يوم الذبح كشين أقرنين موجهين أملبين ، فلما وجههما قال : « إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا » وقرأ إلى قوله : « وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ » - اللهم منك ولك عن عهدي وأمة باسم الله والله أكبر ثم ذبح . فقلنا ما كالم يبلينه هذا الخبر ، أو لم يصح عنده ، أو رأى العمل يخالفه . وعلى هذا يدل قوله : إنه بدعة . والله أعلم .

(١) الأضغ : الذي يباحه أكثر من سواده . وقيل : التني اليابس . (٢) الصفاح (بكسر الصاد) : الجوانب ; المراد الجانب الواحد من وجه الأضغ ، وإنما تثنى إشارة إلى أنه فعل ذلك في كل منها . (٣) آية ١٢٧ سورة البقرة . (٤) أي خنيتين .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ روى أنها نزلت في الخلفاء الأربعة؛
 حسبما تقدم في الآية التي قبلها . فاما ظاهر اللفظ فيقتضي العموم في كل محسن .

قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
 كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٢٥﴾

روى أنها نزلت بسبب المؤمنين لما كثروا بمكة وأذاهم الكفار وجاهر من هاجر إلى
 أرض الحبشة؛ أراد بعض مؤمنى مكة أن يقتل من أمكنه من الكفار وينتال وينذر ويحتال؛
 فنزلت هذه الآية إلى قوله : « كفور » . فوعدها سبحانه بالمداغة ونهى أفصح نهى عن
 الخيانة والغدر . وقد مضى في « الأنفال » التشديد في الغدر؛ وأنه « يُنصب للغادر لواء عند
 آسنته بقدر غدرته يقال هذه غدره فلان » . وقيل : المعنى يدفع عن المؤمنين بأن يديم توفيقهم
 حتى يتمكن الإيمان من قلوبهم ، فلا تقدر الكفار على إيمانهم عن دينهم ؛ وإن جرى إكراه
 فيصممهم حتى لا يرتدوا بقلوبهم . وقيل : يدفع عن المؤمنين بإعلانهم بالهجرة . ثم قل كافر
 مؤمنا نادر ، وإن يدفع الله عن ذلك المؤمن بالله فيضه إلى رحمته . وقرأ نافع « يدفع »
 « ولولا دفاع » . وقرأ أبو عمرو وابن كثير « يدفع » « ولولا دفع » . وقرأ عاصم وحمرزة
 والكاظمي « يدفع » « ولولا دفع الله » . ويدافع بمعنى يدفع ؛ مثل عاقبت اللص ، وعافاه
 الله ؛ والمصدر دفعا . وحكى الزهراوى أن « دفاعا » مصدر دفع ؛ بحسب حسابا .

قوله تعالى : اذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظُلُمًا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ
 لَلْقَدِيرُ ﴿٢٦﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ اذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ ﴾ قيل : هذا بيان قوله « إن الله يدفع
 عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى يدفع عنهم عوائل الكفار بأن يبيع لهم القتال وينصرهم ؛ وفيه إضمار ، أى

أذن للذين يَصُلُّونَ للقتال في القتال ؛ غذف لدلالة الكلام على المحذوف . وقال الضمك :
 الشاذن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتال الكفار إذ أذوه بمكة ؛ فأزل الله « إن الله
 لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ » فلما هاجر نزلت « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظالموا » . وهذا ناسخ
 لكل مافي القرآن من إعراض وترك صفح . وهي أول آية نزلت في القتال . قال ابن عباس
 وابن جبير : نزلت عند هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة . وروى النسائي
 والترمذي عن ابن عباس قال : لما أخرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة قال أبو بكر :
 أخرجوا نبيهم ليلكن ؛ فأنزل الله تعالى « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم
 لقدير » فقال أبو بكر : لقد علمت أنه سيكون قتال . فقال : هذا حديث حسن . وقد
 روى غير واحد عن صفيان عن الأعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير مرسلًا ، ليس
 فيه : عن ابن عباس .

الثانية - في هذه الآية دليل على أن الإباحة من الشرع ، خلافا للمعتزة ؛ لأن قوله :
 « أذن » معناه أباح ؛ وهو لفظ موضوع في اللغة لإباحة كل ممنوع . وقد تقدم هذا المعنى
 في « البقرة » وغير موضع . وقرئ « أذن » بفتح الهمزة ؛ أي أذن الله . « يقاتلون » بكسر التاء
 أي يقاتلون هذهم . وقرئ « يقاتلون » بفتح التاء ؛ أي يقاتلهم المشركون وهم المؤمنون .
 ولهذا قال : « بأنهم ظلموا » أي أخرجوا من ديارهم .

قوله تعالى : الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا
 رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَرْمِعُ وَيَبِيعُ
 وَصَلَوَاتُ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ
 إِنَّ اللَّهَ لَنَفِيرٌ عَزِيزٌ ﴿٣٤٧﴾

(١) لاحظ أن الله تعالى في الجزء الثاني من ٣٤٧ آية ثانية عند قوله تعالى : « وقالوا في سبيل الله ... »
 خلاف ما هنا .

فيه سبع مسائل^(١) :

الأولى - قوله تعالى : (الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ) هذا أحد ما ظاهروا به ، وإنا نخرجوا لقولهم : ربنا الله وحده . فقوله : « إلا أن يقولوا ربنا الله » استثناء منقطع ، أى لكن لقولهم ربنا الله ؛ قاله سيويه . وقال الفراء يجوز أن تكون في موضع خفض ، يقدرها مردودة على الباء ، وهو قول أبى إسحاق الزجاج ، والمعنى عنده : الذين أخرجوا من ديارهم بنير حق إلا بأن يقولوا ربنا الله ؛ أى أخرجوا بتوحيدهم ، أخرجهم أهل الأوثان ، و « الذين أخرجوا » في موضع خفض بدلا من قوله : « الَّذِينَ يَقَاتِلُونَ » .

الثانية - قال آبن العري : قال علماءنا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بيعة العقبة لم يؤذن له في الحرب ولم تحل له النساء ؛ إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى والصبر عن الجاهل مائة عشرة أعوام ؛ لإتامة حجة الله تعالى عليهم ، وفاء بوعده الذي امتن به بفضلهم في قوله : « وما كنا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبَيَّنَ رَسُولُ اللَّهِ^(٢) » . فاستقر الناس في الطغيان وما استدلوا بواضع البرهان ، وكانت قريش قد اضطهدت من أتبعه من قومه من المهاجرين حتى قتلوه عن دينهم ونفوسهم عن بلادهم ؛ ففهم من قرأ إلى أرض الحبشة ، ومنهم من خرج إلى المدينة ، ومنهم من صبر على الأذى . فلما عتت قريش على الله تعالى وردوا أمره وكذبوا نبيه عليه السلام ، وعذبوا من آمن به ووحده وعبدته ، وصلى نبيه عليه السلام وأعصم بدينه ، أذن الله لرسوله في القتال والامتناع والانتصار ممن ظلمهم ، وأنزل « الَّذِينَ يَقَاتِلُونَ » بأنهم ظلموا - إلى قوله - « الْأَوَّلِينَ » .

الثالثة - في هذه الآية دليل على أن نسبة الفعل الموجود من الملبأ المكروه إلى الذي ألباه وأكرمه ؛ لأن الله تعالى نسب الإخراج إلى الكفار ، لأن الكلام في معنى تقدير الذنب وإلزامه . وهذه الآية مثل قوله تعالى : « إِذْ أُخْرِجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا » والكلام فيهما واحد ؛ وقد تقدم في « براءة »^(٣) والجند لله .

(٢) آية ١٥ سورة الاسراء .

(١) يلاحظ أن المؤلف رحمه الله ذكر مسائل

(٢) راجع ج ٨ ص ١٤٣ طبعة إبداء الثانية .

الرابعة - ((وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ)) أى لولا ما شرعه الله تعالى لا نباء المؤمنين من قتال الأعداء ، لأستولى أهل الشرك وعطلوا ما بيّنه أرباب الديانات من مواضع العبادات ، ولكنه دفع بأن أوجب القتال لينفزع أهل الدين للعبادة ، فالجهاد أمر متقدم فى الأهم ، وبه صاحت الشرائع واجتمعت المتميدات ؛ فكانه قال : أذن فى القتال ، فيقاتل المؤمنون . ثم قوى هذا الأمر فى القتال بقوله : « وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ » الآية ؛ أى لولا القتال والجهاد لتغلب على الحق فى كل أمة ، فن استبشع من النصارى والصابئين الجهاد فهو مناقض لمذهبه ؛ إذ لولا القتال لما بقي الدين الذى يذب عنه . وأيضاً هذه المواضع التى أكتيحت قبل تحريرهم وتبديلهم وقبل نسخ تلك الملل بالإسلام إنما ذكرت لهذا المعنى ؛ أى لولا هذا الدفع لهدم فى زمن موسى الكاظم ، وفى زمن عيسى الصوامع والبسج ، وفى زمن محمد عليه السلام المساجد . ((لَسُدَّتْ)) من هدمت البناء أى نقضته فأنهدم . قال ابن عطية : هذا أصوب ما قيل فى تأويل الآية . وروى عن علي بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : ولولا دفع الله بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم الكفار عن التابعين فن بعدهم . وهذا وإن كان فيه دفع قوم يقوم إلا أن معنى القتال أليق ؛ كما تقدم . وقال مجاهد : لولا دفع الله ظلم قوم بشهادة العدول . وقالت فرقة : ولولا دفع الله ظلم الظلمة بعدل الولاة . وقال أبو البرداء : لولا أن الله عز وجل يدفع بن فى المساجد عن ليس فى المساجد ، وعن يفرى عن لا يفرى ، لأنهم المذاب . وقالت فرقة : ولولا دفع الله العذاب بدعاء الفضلاء والأخيار إلى غير ذلك من التفصيل المفسر لمعنى الآية ؛ وذلك أن الآية ولا بد تقتضى مدفوناً من الناس ومدفوناً عنه ، فتأمل .

الخامسة - قال ابن خزيمة : تضمنت هذه الآية المنع من هدم كنائس أهل الذمة وبيعهم وبيوت نيرانهم ، ولا يتركون أن يحسبوا ما لم يكن ، ولا يزيدون فى البنيان لاسمة ولا ارتفاعاً ، ولا يبنون للمسلمين أن يدسوها ولا يصابوا فيها ، متى أسدثوا زيادة وجب نقضها . ويتقضى ما وجد فى بلاد الحرب من البسج والكاظم . وإنما لم ينفذ

ما في بلاد الإسلام لأهل الذمة ؛ لأنها جرت مجرى بيوتهم وأموالهم التي عاهدوا عليها في الصيانة ، ولا يجوز أن يكتفوا من الزيادة لأن في ذلك إظهار أسباب الكفر . وبإثر أن ينقض المسجد ليعاد بنيانه وقد فعل ذلك عثمان رضي الله عنه بمسجد النبي صلى الله عليه وسلم .
السادسة - قرئ «لهدت» تخفيف الدال وتشديد بها ، (صَوَّاهُ) جمع صَوْمَةٍ ، «زنها قَوْعَةً» وهي بناء مرتفع حديد الأعل ؛ يقال : صَمَّعَ الثريدة أى رفع رأسها وحدها . ورجل أصم القلب أى حاذ القِطْنة . والأصمع من الرجال الحديد القول . وقيل : هو الصنير الأذن من الناس وغيرهم . وكانت قبل الإسلام غنصمة برهيان النصارى وبعاد الصابئين - قاله قتادة - ثم استعمل في مثذنة المسلمين . والبيع جمع بيعة ، وهي كنيسة النصارى . وقال الطبري : قيل هي كنائس اليهود ؛ ثم أدخل عن مجاهد ما لا يقتضى ذلك . (وَصَلَوَاتُ) قال الزجاج والحسن : هي كنائس اليهود ؛ وهي بالبرانية صَلَوَاتُ ، وقال أبو عبيدة : الصلوات بيوت تنبئ للنصارى في البرارى يصلون فيها في أسفارهم ، تسمى صلوات فغزيت فقبل صلوات . وفي «صلوات» تسع قراءات ذكرها ابن عطية : صَلَوَاتُ ، صَلَوَاتُ ، صَلَوَاتُ ، صَلَوَاتُ على وزن فعول ، صَلُوبٌ بالياء بواحدة جمع صليب ، صَلُوتٌ بالياء المثلثة على وزن فُعول ، صَلَوَاتٌ بضم الصاد واللام بضم الصاد واللام وقصر الألف بعد التاء المثلثة ، [صَلَوَاتٌ بِكسر الصاد وإسكان اللام وواو مكسورة بعدها ياء بعدها ثاء منقوطة بثلاث بعدها ألف] . وذكر النحاس : وروى عن عاصم الجحدري أنه قرأ «وَصُلُوبٌ» . وروى عن الضحاك «وَصَلُوتٌ» بالتاء معجمة بثلاث ؛ ولا أدري أفتح الصاد أم ضمها .

قلت : فعلى هذا تسمى هنا عشر قراءات . وقال ابن عباس : الصلوات الكنائس . أبو العالصة : الصلوات مساجد الصابئين . ابن زيد : هي صلوات المسلمين تنقطع إذا دخل عليهم العدو وتهدم المساجد ؛ فعلى هذا استعير الهدم للصلوات من حيث تُهْلِكُ ، أو أزداد موضع صلوات الخذف المضاف . وعلى قول ابن عباس والزجاج وغيرهم يكون الهدم

(١) ما بين المربعين عبارة أبي حيان . والذي في الأصل : صَلَوَاتُ بِكسر الصاد والتاء المثلثة .

حقيقة . وقال الحسن : « هدم الصلوات تركها . قُطِرُب : هى الصوامع الصنار ولم يسمع ذا واحد . وذهب خَصِيف إلى أن القصد بهذه الأسماء تقسيم متبذات الأمم . فالصوامع للربان ، والبيس للنصارى ، والصلوات لليهود ، والمساجد للمسلمين . قال ابن عطية : والأظهر أنها قصد بها المبالغة في ذكر المتعبدات . وهذه الأسماء تشترك الأمم في مسمياتها ، إلا البيعة فإنها مختصة بالنصارى في لغة العرب . ومدانى هذه الأسماء هى في الأمم التى لها كتاب على قديم الدهر . ولم يذكر في هذه الآية المجوس ولا أهل الإشراك ؛ لأن هؤلاء ليس لهم ما يجب حمايته ، ولا يوجد ذكر الله إلا عند أهل الشرائع . وقال النحاس : « يُدْكَرُ فيها اسمُ الله » الذى يجب في كلام العرب على حقيقة النظر أن يكون « يُدْكَرُ فيها اسمُ الله » عائداً على المساجد لا على غيرها ؛ لأن الضمير يلها . ويجوز أن يعود على « صوامع » وما بعدها ؛ ويكون المعنى وقت شرائعهم وإقامتهم الحق .

السابعة - فإن قيل : لم قدمت مساجد أهل الذمة ومصلياتهم على مساجد المسلمين ؟ قيل : لأنها أقدم بناء ، وقيل لقربها من المهدم وقرب المساجد من الذكر ؛ كما أخر السابق في قوله : « فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ » .
الثامنة - قوله تعالى : (وَلْيَنْصُرُوا اللَّهَ مَنْ يَنْصُرُهُ) أى من ينصر دينه ونبيه . (إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ) أى قادر . قال الخطابي : القوي يكون بمعنى القادر ، ومن قوي على شئ . فقد قدر عليه . (عَزِيزٌ) أى جليل شريف ؛ قاله الزجاج . وقيل المنع الذى لا يرام ؛ وقد بينهما في الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى .

قوله تعالى : الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿١﴾
قال الزجاج : (الَّذِينَ) في موضع نصب ردّاً على « مَنْ » ، يعنى في قوله : « وَلْيَنْصُرُوا اللَّهَ مَنْ يَنْصُرُهُ » . وقال غيره : « الذين » في موضع خفض ردّاً على قوله : « إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ » .

يَقَاتِلُونَ » ، ويكون « الَّذِينَ إِنْ مَكَاهُمْ فِي الْأَرْضِ » أربعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن في الأرض غيرهم . وقال ابن عباس : المراد المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان . وقال قتادة : هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . وقال عكرمة : هم أهل الصلوات الخمس . وقال الحسن وأبو العالية : هم هذه الأمة إذا فزع الله عليهم أقاموا الصلاة . وقال ابن أبي نجيح : يعنى الولاة . وقال الضحاك : هو شرط بشرطه الله عز وجل على من آتاه الملك ، وهذا حسن . قال مهمل بن عبد الله : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على السلطان وعلى العلماء الذين يأتونه . وليس على الناس أن يأمروا السلطان ، لأن ذلك لازم له واجب عليه ، ولا يأمروا العلماء فإن الحجية قد وجبت عليهم .

قوله تعالى : وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَنُوحٌ ۖ وَقَوْمٌ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۖ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝

هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتعزية ، أى كان قبلك أنبياء كذبوا فصبروا إلى أن أهلك الله المكذبين ، فأقند بهم وأصبر . (وَكَذَّبَ مُوسَى) أى كذبه فرعون وقومه . فاما بنو إسرائيل فما كذبوه ، فلهم لم يعطه على ما قبله فيكون وقوم موسى . (فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ) أى أخرت عنهم العقوبة . (ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ) فعاقتهم . (فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) استنهام بمعنى التنكير ، أى فانظر كيف كانت تغيرى ما كانوا فيه من النعم بالعباد والملاك ، فكذلك أفعل بالمكذبين من قريش . قال الجوهري : التكبير والإنكار تغيير المنكر ، والمنكر واحد المنكر .

قوله تعالى : فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَبَقِيَ خَاوِئَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَثِرُ مَظَلَّةٌ وَقَصِيرٌ مَشِيدٌ ۝

محذوف تقديره : وقصر مشيد مثلها معطل . ويقال : إن هذه البئر والقصر بحضر موت معروفان ، فالقصر مشرف على قلة جبل لا يرتقى إليه بحال ، والبئر في سفحه لا يفتقر الريح شيئا سقط فيه إلا أخرجته . وأصحاب القصور ملوك الحضر ، وأصحاب الآبار ملوك البوادي ، أي فاهلكا هؤلاء وهؤلاء . وذكر الضحاك وغيره فيما ذكر الثعلبي وأبو بكر محمد بن الحسن المقرئ وغيرهما أن البئر الرّس ، وكانت بعدن باليمن بحضر موت ، في بلد يقال له حَضُور ، نزل بها أربعة آلاف من آمن بصالح ، ونجوا من المذاب ومعهم صالح ، فأت صالح فاستقر المكان بحضر موت ، لأن صالحا لما حضره مات فبنوا حضور وقعدوا على هذه البئر ، وأُسرُوا عليهم رجلا يقال له العلس بن جلاس بن سويد ، فيما ذكر الفزري ، الثعلبي : جلوس بن جلاس . وكان حسن النسبة فيهم عاملا عليهم ، وجعلوا وزيره سنحاريب بن سواده ، فاقاموا دهرًا وتناحوا حتى كثروا ، وكانت البئر تنسق المدينة كلها وباديتها وجميع ما فيها من الدواب والنعيم والبقر وغير ذلك ، لأنها كانت لها بركات كثيرة منصوبة عليها ، ورجال كثيرون موكلون بها ، وأبازن (بالنون) من رخام وهي شبه الحياض كثيرة عملا للناس ، وأثر للدواب ، وأثر للبقر ، وأثر للغم . والقوام يسقون عليها باليسل والتار يتداولون ، ولم يكن لهم ماء غيرها . وطال حمر المسلك الذي أسروه ، فلما جاء الموت طُلّي بدهن لثيق صورته لا تتغير ، وكذلك كانوا يفعلون إذا مات منهم الميت وكان ممن يكرم عليهم . فلما مات شق ذلك عليهم ورأوا أن أحرم قد فسد ، وضجوا جميعا بالبكاء ، واغتمها الشيطان منهم فدخل في جنة الملك يد موته بأيام كثيرة ، فكلهم وقال : إني لم أمت ولكن تفتيت عنكم حتى أرى صليكم ، ففرحوا أشد الفرح وأصر خاصته أن يضربوا له حجابا بينه وبينهم ويكلمهم من وراءه لئلا يعرف الموت في صورته . فقتبوا صفًا من وراء الحجاب لا يأكل ولا يشرب . وأخبرهم أنه لا يموت أبدا وأنه إلههم ، فذلك كله يتكلم به الشيطان على لسانه ، فصلى كثير منهم وارتاح بعضهم ، وكان المؤمن المكذب منهم أقل من المصدق له ، وكلمنا نكلم ناصح لم نذكر ونهيه فاصفقوا على عبادته ، فبعث الله إليهم نبيًا كان الوحي ينزل عليه في النوم دون اليقظة ، كان اسمه

حنظلة بن صفوان ، فأعلمهم أن الصورة صنم لا روح له ، وإن الشيطان قد أضلهم ، وإن الله لا يتنزل بالخلق ، وإن الملك لا يجوز أن يكون شريكا لله ، ووعظهم ونصحهم وحذرهم سطوة ربهم ونقمته ، فأذوه وعادوه وهو يتهمهم بالموعة ولا يثبتهم بالنصيحة ، حتى قتلوه في السوق وطرحوه في بئر ، فعند ذلك أصابهم النجمة ، فباتوا شباعا رواء من الماء وأصبخوا والبئر قد غار ماؤها وتعتل رشاؤها ، فصباحوا بأجمعهم وفتح النساء والولدان ، وصحقت البهائم عطشا ، حتى صمهم الموت وشملهم الهلاك ، وخلفتهم في أرضهم السباع ، وفي منازلهم الثعالب والضباع ، وتبدلت جنانهم وأموالهم بالسدر وشوك العضاء والقناد ، فلا يسمع فيها إلا عريف الجبن وزئير الأسد ، نوحذ بالله من سطواته ، ومن الإصرار على ما يوجب قهاته ، قال السبيل . وأما القصر المشيد فقصر بناه شناد بن عاد بن إدم ، لم يكن في الأرض مثله . فيها ذكروا وزعموا . وحاله أيضا كحال هذه البئر المذكورة في إباحشة بعد الأنيس ، وإفقاره بعد السرمان ، وإن أحدا لا يستطيع أن يدنو منه على أميال ، لما يسمع فيه من عريف الجبن والأصوات المنكرة بعد النعيم والمعيش الرغد وبهاء الملك وانتظام الأهل كالسلك فبادوا وما عادوا ، فذكرهم الله تعالى في هذه الآية موعظة وعبرة وتذكيرة ، وذكرنا وتحذيرا من منية المعصية وسوء عاقبة المخالفة ، نوحذ بالله من ذلك ونستجير به من سوء المآل . وقيل : إن الذي أهلكهم يختصر على ما تقدم في سورة « الأنبياء » في قوله : « وكم قصصنا من قرون » . فتعطلت بهم ونجرت قصورهم .

قوله تعالى : أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَنُّوا عَنْ قُلُوبِهِمْ يَفْقَهُوا
أَوْ أَذَانٌ يَسْمَعُونَ يَهَيِّئُ اللَّهُ لَهُمْ مَا يَشَاءُ وَيَكُونُ قَلْبُهُمْ خَافِقًا
أَلَيْسَ فِي الْصُّدُورِ ۚ

(١) السدر من الشجر ، وهو سدران : أحدهما برقي لا يتفتح بثمر ولا يصلح ورثه لفسول وثمره مفص لا يسوخ في الخلق ، والربح تسميه الضال . والسدر الثاني : ينبت على الماء وثمره اللين وورثه خسول . (٢) المضاء : كل شجر يثمر وله شوك ، وأحدها شجاعة وعصاة وعصاة . (٣) القناد : شجر حبل له شوك كالإبر . (٤) راجع ج ١١ ص ٢٧٤

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنْسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ يعني كفار مكة فشاهدوا هذه القرى
 فيستظفروا ، ويحذروا عقاب الله أن ينزل بهم كما نزل بمن قبلهم . ﴿ تَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ
 بِهَا ﴾ أضاف العقل إلى القلب لأنه عمله كما أن السمع عمله الأذن . وقد قيل : إن العمل عمله
 الدماغ ؛ وروى عن أبي حنيفة ، وما أراها عنه صحيحة . ﴿ فَإِنَّمَا لَا تَمْنَى الْأَبْصَارُ ﴾ قال
 الفراء : الهاء عماد ، ويجوز أن يقال فإنه ، وهي قراءة عبد الله بن مسعود ، والمعنى واحد ،
 التذكير على الخبر ، والثابت على الأبصار أو القصص ؛ أي فإن الأبصار لا تمنى ، أو فإن
 القصص . ﴿ لَا تَمْنَى الْأَبْصَارُ ﴾ أي أبصار العين ثابتة لهم . ﴿ وَلَكِنْ تَمْنَى الْفُلُوبُ أَلَمْ
 فِي الصُّدُورِ ﴾ أي عن ذلك الحق والاعتبار . وقال قتادة : البصر الناظر جعل لئلا يستفد ،
 والبصر النافع في القلب . وقال مجاهد : لكل عين أربع أعين ؛ يعني لكل إنسان أربع أعين :
 عينان في رأسه لدنياه ، وعينان في قلبه لآخرته ؛ فإن عميت عين رأسه وأبصرت عين قلبه
 فلم يضره عماء شيئا ، وإن أبصرت عين رأسه وعميت عين قلبه فلم ينفعه نظره شيئا . وقال
 قتادة وابن جرير : نزلت هذه الآية في ابن أم مكتوم الأعمى . قال ابن عباس ومقاتل :
 لما نزل « ومن كان في حيزه أعمى » قال ابن أم مكتوم : يا رسول الله ، فانا في الدنيا
 أعمى أفأكون في الآخرة أعمى ؟ فنزلت « فَإِنَّمَا لَا تَمْنَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَمْنَى الْفُلُوبُ أَلَمْ
 فِي الصُّدُورِ » . أي من كان في هذه أعمى بقلبه عن الإسلام فهو في الآخرة في النار .

قوله تعالى : وَيَسْتَعِجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا
 عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مَّا تَعُدُّونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعِجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ نزلت في النضر بن الحارث ، وهو قوله :
 « فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » . وقيل : نزلت في أبي جهل بن هشام ،
 وهو قوله : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ » . ﴿ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ أي
 في إنزال العذاب ، قال الزجاج : استعجلوا المذاب فأعلمهم الله أنه لا يفوته شيء ؛ وقد نزل
 بهم في الدنيا يوم بدر .

قوله تعالى : (وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ) قال ابن عباس ومجاهد :
يعنى من الأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض . عكمة : يعنى من أيام الآخرة ؛ أصلهم
الله إذ استعملوه بالعذاب في أيام قصيرة أنه يأتيهم به في أيام طويلة . قال الفراء : هذا
وعيد لهم بمتداد عذابهم في الآخرة ؛ أى يوم من أيام عذابهم في الآخرة ألف سنة . وقيل :
المعنى وإن يوما في الخوف والشقة في الآخرة كألف سنة من سنى الدنيا فيها خوف وشدة ؛
وكذلك يوم النعم قاسا . وقرأ ابن كثير وحمة والكسائي « يما يعدون » بالياء التثنية
تمت ، وأخبره أبو عبيد لقوله : « ويستعملونك » . والياقوت بالياء على الخطاب ،
وأخبره أبو حاتم .

قوله تعالى : وَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لِنَفْسِهَا فَهَمَّ أَخَذُهَا
وَأَلَى الْمَصِيرِ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : (وَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُهَا) أى أمهلتها مع عتوها . (فَهَمَّ أَخَذُهَا)
أى بالعذاب . (وَأَلَى الْمَصِيرِ)

قوله تعالى : قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُدْعَى الْمِثْلُ
فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ
سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ) يعنى أهل مكة . (إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ) أى منذر
مخوف . وقد تقدم في البقرة الإنذار في أولها . (مِثْلُكُمْ) أى أيتن لكم ما تحتاجون إليه من
أمر دينكم . (فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) يعنى الجنة ،
(وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا) أى في إبطال آياتنا . (مُعْجِزِينَ) أى مغالين مشاقين ؛ قاله
ابن عباس . الفراء : معاندين . وقال عبد الله بن الزبير : مشيطين عن الإسلام . وقال

الْأَخْفَشُ : معاندين مسابقين . الزجاج : أى ظانين أنهم يعجزوننا لأنهم ظنوا أن لا بعث ، وظنوا أن الله لا يقدر عليهم ، وقوله قتادة . وكذلك معنى قراءة ابن كثير وأبى عمرو « مُعْجِزِينَ » بلا ألف شذدا ، ويجوز أن يكون معناه أنهم يعجزون المؤمنين في الإيمان بالنبي عليه السلام وبآياته ، قاله السدي . وقيل : أى يتسبون من اتبع محمدا صلى الله عليه وسلم إلى العجز ، كقولهم : جهنم وفسفته . (أولئك أصحاب الجحيم) .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْتَمَسَ الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٦﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأول — قوله تعالى : (تَمَنَّى) أى قرأ وتلا . و (أَلْتَمَسَ الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ) أى قرأته وتلاوته . وقد تقدم في البقرة . قال ابن عطية : وجاء عن ابن عباس أنه كان يقرأ « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا نوح » ذكره مسلمة بن القاسم بن عبد الله ، ورواه سفيان عن عمرو بن دينار عن ابن عباس . قال مسلمة : فوجدنا المحدثين متصمين بالنبوة — هل قراءة ابن عباس — لأنهم تكلموا بأدور عالية من أنباء النبي خطرات ، وتلقوا بالحكمة الباطنة فأصابوا فيها تكلموا وعصموا فيها تعلقوا ، كشر بن الخطاب في قصة سارية ، وما تكلم به من البراهين العالية .

(١) رابع ج ٣ ص ٥ طبع ثانية . (٢) المحدثون (فتح الهاء وتشديدها) قال ابن الأثير : أنهم المليون ، والجميع هو الذي يلزم في نفسه الشيء . فيخبر به حدسا وفراصة ، وهو نوع يختص به الله عز وجل من يشاء من عباده الذين اصطفى مثل جملة كأنهم حدثوا بشي . فقالوه . (٣) هو سارية بن زعيم بن عبد الله . وكان من فضة أن عمر رضى الله عنه أمره على جيش وسيره إلى فارس سنة ثلاث وعشرين ، فوقع في خاطر سارية عمرو بن الخطاب يوم الجمعة أن الجيش المذكور لاقى العدو وهم في ملل وراقة فيقيدهم بها بالفرقة ، وبالقرب منهم يسبل . فقال في أثناء خطبته : يا سارية الجبل الجبل ! ووقع صوته ، فأفاده الله في . سارية فالحجز ما ناس إلى الجبل وما نراه العدو من جانب واحد ، ففتح الله عليهم . (رابع ترجمه في كتب الصحابة)

قلت : وقد ذكر هذا الخبر أبو بكر الأنباري في كتاب الرد له ، وقد سجدني أبي رحمه الله
 حدثنا علي بن حرب حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ
 « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي » ولا تحدث » قال أبو بكر : فهذا حديث لا يؤخذ به
 على أن ذلك قرآن . والحديث هو الذي يوحى إليه في نومه ؛ لأن رؤيا الأنبياء وحى .

الثانية - قال العلماء : إن هذه الآية مشككة من جهتين : إحداهما - أن قوما
 يرون أن الأنبياء صلوات الله عليهم فيهم مرسلون وفيهم غير مرسلين . وفيهم يذهب إلى أنه
 لا يجوز أن يقال نبي حتى يكون مرسلا . والدليل على صحة هذا قوله تعالى : « وما أرسلنا
 من قبلك من رسول ولا نبي » فأوجب للنبي صلى الله عليه وسلم الرسالة . وأن معنى « نبي » أنبا
 عن الله عز وجل ، ومعنى أنبا عن الله عز وجل الإرسال بعينه . وقال القراء : الرسول الذي
 أرسل إلى الخلق بإرسال جبريل عليه السلام إليه عيانا ، والنبي الذي تكون نبوته إلهامنا
 أو مناما ؛ فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولا . قال المهدوي : وهذا هو الصحيح ، أن
 كل رسول نبي وليس كل نبي رسولا . وكذا ذكر القاضي عياض في كتاب الشفا قال :
 والصحيح والذي عليه إجماع النفر أن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولا ؛ واحتج بحديث
 أبي ذر ، وأن الرسل من الأنبياء ثمانية وثلاثة عشر ، أولهم آدم وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم .
 وبالجملة الأخرى التي فيها الإشكال هي :

الثالثة - الأحاديث المروية في نزول هذه الآية ، وليس منها شيء يصح . وكان مما
 تمّوه به الكفار على عوائقهم قولهم : حق الأنبياء ألا يعجزوا عن شيء ، فلم لا يأتينا محمد
 بالعباد وقد بلغنا في عداوته ؟ وكانوا يقولون أيضا : ينبغي ألا يجري عليهم سب وغلط ؛
 فيبين الرب سبحانه أنهم بشر ، والآتي بالعباد هو الله تعالى على ما يريد ، ويجوز على البشر
 السهو والنسيان والغلط إلى أن يحكم الله آياته ويستخ حيل الشيطان . روى الآيث عن يونس
 عن الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال : قرأ رسول الله صلى الله
 عليه وسلم « وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى » فلما بلغ « أَقْرَأْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى :

بها فقال : " إن شفاعتهم تُرْتَجَى " فلقبه المشركون والذين في قلوبهم مرض فسأموا عليه
وفرخوا ، فقال : " إن ذلك من الشيطان " فانزل الله تعالى " وما أرسلنا مِنْ قبْلِكَ مِنْ
رسولٍ وَلَا نَبِيٍّ " الآية . قال النحاس : وهذا حديث منقطع وفيه هذا الأمر العظيم . وكذا
حديث قتادة وزاد فيه " وإنهم لَمَنْ الْفَرَانِيقِ الْعُلَا " . وأقطع من هذا ما ذكره الواقدي عن
كثير بن زيد عن المطلب بن عبد الله قال : سجد المشركون كلهم إلا الوليد بن المغيرة فإنه
أخذ ترابا من الأرض فرمعه إلى جبهته وسجد عليه ، وكان شيخا كبيرا . ويقال إنه أبو أحيحة
سعيد بن العاص ، حتى نزل جبريل عليه السلام فقرأ عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال :
" مَا جِئْتُكَ بِهِ ! " وأنزل الله " لَقَدْ كَذَبْتَ تَزَكَّى لَيْسَ شَيْئًا قَلِيلًا " . قال النحاس : وهذا حديث
منكر منقطع ولا سيما من حديث الواقدي . وفي البخاري : أن الذي أخذ قبضة من تراب
ورمعه إلى جبهته هو أمية بن خلف . وسبق في تمام كلام النحاس على الحديث : إن شاء الله —
آخر الباب . قال ابن عطية : وهذا الحديث الذي فيه هي الفرانيق العلا وقع في كتب التفسير
ونحوها ، ولم يدخله البخاري ولا مسلم ، ولا ذكره في علمي مصنف مشهور ، بل يقتضي مذهب
أهل الحديث أن الشيطان ألقي ، ولا يمتنعون هذا السبب ولا غيره . ولا خلاف أن إلقاء
الشيطان إنما هو لألفاظ مسموعة ، بها وقعت الفتنة . ثم اختلف الناس في صورة هذا الإلقاء ،
فالذي في التفاسير وهو مشهور القول أن النبي صلى الله عليه وسلم تكلم بتلك الألفاظ على
لسانه . وحديث أبي رضى الله عنه أنه لقي بالشرق من شيوخ العلماء والمتكلمين من قال : هذا
لا يجوز على النبي صلى الله عليه وسلم وهو المعصوم في التبليغ ، وإنما الأمر أن الشيطان نطق
بلفظ أسعده الكفار عند قول النبي صلى الله عليه وسلم : « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى . وَتَمَنَّا الثَّالِثَةَ
الْأُخْرَى » ، وقرب صوته من صوت النبي صلى الله عليه وسلم حتى التبس الأمر على المشركين ،
وقالوا : علم قراها . وقد روى نحو هذا التاويل عن الإمام أبي المعالي . وقيل : الذي ألقي
شيطان الإنس ، كقوله عز وجل : « وَأَلْفَوْا فِيهِ » . قتادة : هو ما علاه ناعسا .

وقال القاضي عياض في كتاب الشفا بعد أن ذكر الدليل على صدق النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن الأمة أجمعت فيما طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء بخلاف ما هو عليه ، لا ففسدا ولا عمدا ولا سهوا وظلما : أعلم أكرمك الله أن لنا في الكلام على مشكل هذا الحديث ماخذين : أحدهما — في توهين أصله ، والثاني على تسليمه . أما المأخذ الأول فيكفيك أن هذا حديث لم يخرج به أحد من أهل الصفة ، ولا رواه بسند سليم متصل ثقة ، وإنما أولع به وبمشله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب ، المتلفون من الضعف كل صحيح ونقيم . قال أبو بكر البزار : وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم بإسناد متصل يجوز ذكره ، إلا ما رواه شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فيما أحسب ، الشك في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بمكة ... وذكر القصة . ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد ، وغيره يرسله عن سعيد بن جبير . وإنما يعرف عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ، فقد بين لك أبو بكر رحمه الله أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا ، وفيه من الضعف ما نبه عليه مع وقوع الشك فيه الذي ذكرناه ، الذي لا يوثق به ولا حقيقة منه . وأما حديث الكلبي لما لا يجوز الرواية عنه ولا ذكره لقوة ضعفه وكذبه ، كما أشار إليه البزار رحمه الله . والذي منه في الصحيح : أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ « والنجم » بمكة فسجد وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس ؛ هذا توهينه من طريق النقل .

وأما المأخذ الثاني فهو مبنى على تسليم الحديث لو صح . وقد أداذنا الله من صحته ، ولكن على كل حال فقد أجاب أئمة المسلمين عنه بأجوبة ؛ منها القنن والسمين ، والذي يظهر ويخرج في تأويله على تسليمه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان كما أمره ربه يزل القرآن ترتيبا ، ويفصل الآي تفصيلا في قراءته ؛ كما رواه الثقات عنه ، فيمكن ترصد الشيطان لتلك السمكات ودسه فيها ما اختلقه من تلك السمكات ، عما يكافئ نعمة النبي صلى الله عليه وسلم بحديث يسمعه من دأ إليه من الكفار ، فظنوها من قول النبي صلى الله عليه وسلم وأشاعوها .

لم يقدح ذلك عند المسلمين لحفظ السورة قبل ذلك على ما أمرها الله ، وتحققهم من حال النبي صلى الله عليه وسلم في ذم الأوثان وغيرها ما عرف منه ؛ فيكون ما روى من حزن النبي صلى الله عليه وسلم لهذه الإشاعة والشبهة وسبب هذه الفتنة ، وقد قال الله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي » الآية .

قلت : وهذا التأويل أحسن ما قيل في هذا . وقد قال سليمان بن حرب : إن « في » بمعنى عنده ؛ أي ألقي الشيطان في قلوب الكفار عند تلاوة النبي صلى الله عليه وسلم ؛ كقوله عز وجل : « وَلَقَدْ قَرَّبْنَا » أي عندنا . وهذا هو معنى ما جاء ابن عطية عن أبيه عن عطاء الشرح ، وإليه أشار القاضي أبو بكر .^(١) والعربى ، وقال قبله : إن هذه الآية نص في غرضنا ، دليل على صحة مذهبنا ، أصل في براءة النبي صلى الله عليه وسلم عما ينسب إليه أنه قاله ؛ وذلك أن الله تعالى قال : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته » أي في تلاوته . فأخبر الله تعالى أن من سلكه في رسالته في أنبيائه إذا قالوا عن الله تعالى قولاً زاد الشيطان فيه من قبل نفسه كما يفعل سائر المعاصي . تقول : ألقيت في الدار كذا وألقيت في الكيس كذا ؛ فهذا نص في الشيطان أنه زاد في الذي قاله النبي صلى الله عليه وسلم ، لا أن النبي صلى الله عليه وسلم تكلم به . ثم ذكر معنى كلام عياض إلى أن قال : وما هدى لهذا إلا الطبرى لحلافة قدره وصفاء فكره وسعة باعه في العلم ، وشدة ساعده في النظر ؛ وكأنه أشار إلى هذا الغرض ، وصوب على هذا المرمى ، وقرطس بعدما ذكر في ذلك زوايات كثيرة كلها باطل لا أصل لها ، ولو شاء ربك لما رواها أحد ولا سطرها ، ولكنه فعالم لما يريد .

وأما غيره من التأويلات فما حكاه قوم أن الشيطان أكرهه حتى قال كذا فهو محال ؛ إذ ليس للشيطان قدرة على سلب الإنسان الاختيار ، قال الله تعالى مخبراً عنه : « وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي »^(٢) ؛ ولو كان للشيطان هذه القدرة لما بقي لأحد

(١) راجع كتاب: التلخيص لعياض ٢٧ ص ١١٦ ، ١٢١ طبع الأستاذة .

(٢) آية ١٨ سورة الشعراء .^(٣) (٢) آية ٢٢ سورة إبراهيم .

من بنى آدم قوة في طاعة ، ومن توهم أن للشيطان هذه القوة فهو قول الثوبية والمجوس في أن
الخير من الله والشر من الشيطان . ومن قال جرى ذلك على لسانه سهوا قال : لا يبعد أنه
كان سمع الكلوتين من المشركين وكاتبا على حفظه بخرى عند قراءة السورة ما كان في حفظه
سهوا ، وعلى هذا يجوز السهو عليهم ولا يفزون عليه ، وأنزل الله عز وجل هذه الآية تهيدا
لعدوه وتسلية له ، ولذا يقال : إنه رجع عن بعض قراءته ، وبين أن مثل هذا جرى على الأنبياء
سهوا ، والسهو إنما ينفي عن الله تعالى ، وقد قال ابن عباس : إن شيطانا يقال له الأبيض
كان قد أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم في صورة جبريل عليه السلام والتي في قراءة النبي
صلى الله عليه وسلم : تلك الفرائيق العلاء ، وأن شفاعتهن لترضى . وهذا التأويل وإن كان أشبه
بما قبله فالتأويل الأول عليه المعول ، فلا يدل عنه إلى غيره لاختيار العلماء المحققين إياه ،
وضعف الحديث مرفوع عن كل تأويل ، والحمد لله . ومما يدل على ضعفه أيضا وتوهمه
من الكتاب قوله تعالى : « وإن كادوا ليفتنونك ^(١) » الآيتين ، فإنهما ترذآن الخبر الذي رويوه
لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفترى ، وأنه لولا أن ثبت له كان يركن إليهم .
فمضمون هذا ومفهومه أن الله تعالى عصمه من أن يفترى ويثبت حتى لم يركن إليهم قليلا
فكيف كتبنا ، وهم يروون في أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء بملح آهتهم ، وأنه
قال عليه الصلاة والسلام : أكثريت على الله وقلت ما لم يقل . وهذا ضد مفهوم الآية ،
وهي تضعف الحديث لومع ، وكيف ولا صحة له . وهذا مثل قوله تعالى : « ولولا فضل الله
عليك ورحمته لحمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء » .
قال القشيري : ولقد طالبت قريش وثقيف إذ مرر بأهتهم أن يقبل بوجهي إليها ، ووعده
بالإيمان به إن فصل ذلك ، فافعل ! ولا كان ليفعل ! قال ابن الأثير : ما قارب الرسول
ولا ركن . وقال الزجاج : أي كادوا ، ودخلت إن واللام للتأكيد . وقد قيل : إن معنى
« تمتى » حثت ، لا « تلا » . روى عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله عز وجل
« إلا إذا تمتى » قال : إلا إذا حثت « ألقى الشيطان في أميته » قال : في حديثه « فيستسح

(١) آية ٧٣ سورة الاسراء . (٢) آية ١١٣ سورة النساء .

الله ما يلقى الشيطان قال : فيبطل الله ما يلقى الشيطان . قال النحاس : وهذا من أحسن ما قيل في الآية وأعله وأجله . وقد قال أحمد بن محمد بن حنبل بمصر صحيفة في التفسير ، رواها جلي بن أبي طلحة لورجل رجل فيها إلى مصر قاصدا ما كان كثيرا ، والمعنى عليه : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا حدث نفسه إلى الشيطان في حديثه على جهة الخبطة فيقول : لو سألت الله عز وجل أن ينفك ليتسع المسامون ؛ ويعلم الله عز وجل أن الصلاح في غير ذلك ؛ فيبطل ما يلقى الشيطان كما قال ابن عباس رضي الله عنهما ، وحكى الكسائي والفراهيدي : « تمنى » إذا حدث نفسه ؛ وهذا هو المعروف في اللغة . وحكا أيضا « تمنى » إذا تلا . وروى عن ابن عباس أيضا وقاله بجاهد والضحاك وغيرهما . وقال أبو الحسن بن مهدي : ليس هذا التمني من القرآن ، الوحي في شيء ، وإنما كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صغرت يده من المسال ، ورأى ما يأمحاه من سوء الحال : تمنى الدنيا بقلبه ووروسة الشيطان . وذكر المهدوي عن ابن عباس أن المعنى : إذا حدث إلى الشيطان في حديثه ، وهو اختيار الطبري .

قلت : قوله تعالى : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً ﴾ الآية ، يرد حديث النفس ، وقد قال ابن عطية : لا خلاف أن إلقاء الشيطان إنما هو لالفاظ مسدوعة ، بها وقعت الفتنة ؛ فانه أعلم . قال النحاس : ولو صح الحديث واتصل إسناده لكان المعنى فيه صحيحا ، ويكون معنى سبها إسقاط ، ويكون تقديره : أفرأيت الآلات والنزى ؛ ونتم الكلام ، ثم أسقط (والنرائيق الملا) يعنى الملائكة (فإن شفاعتهم) بسود التسمير على الملائكة . وأما من روى : فإنهن النرائيق الملا ، ففي روايته أجوبة ؛ منها أن يكون القول محذوفا كما تستعمل العرب في أشياء كثيرة ، ويموز أن يكون ينسب حذف ، ويكون توبيخا ؛ لأن قبله « أفرأيت » ويكون هذا احتجاجا عليهم ؛ فإن كان في الصلاة فسد كان الكلام مباحا في الصلاة . وقد روى في هذه القصة أنه كان مما يقرأ : أفرأيت الآلات والنزى . ومائة الثالثة الأخرى . والنرائيق الملا . وأن شفاعتهن لترجي . روى معناه عن مجاهد . وقال الحسن : أراد بالنرائيق الملا الملائكة ؛ وبهذا فسر الكلبي الفارقة أنها الملائكة . وذلك أن الكفار كانوا يعتقدون [أن] الأوثان والملائكة بنات

الله، كما حكى الله تعالى عنهم، ورد عليهم في هذه السورة بقوله « أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْآخِرَةُ » فإنكر الله كل هذا من قولهم . ورجاء الشفاعة من الملائكة صحيح، فلما تأوله المشركون على أن المراد بهذا الذكر آلهتهم وليس عليهم الشيطان بذلك، نسخ الله ما ألقى الشيطان، وأحكم الله آياته، ورفع ثلاثة تلك اللفظتين اللتين وجد الشيطان بهما سبيلا للنيل، كما نسخ كثير من القرآن، ورفعت تلاوته . قال القشيري : وهذا غير سديد، لقوله « فينسخ الله ما يأتي الشيطان » أي يبطله، وشفاعة الملائكة غير باطلة . (والله عليم حكيم) « عليه » بما أوحى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم : « حكيم » في خلقه .

وله تعالى : لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
وَالْأَقْسَىٰ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : (لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً) أي ضلالة . (لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) أي شرك ونفاق . (وَالْأَقْسَىٰ قُلُوبُهُمْ) فلا تلتن لأمر الله تعالى . قال الثعلبي : وفي الآية دليل على أن الأنبياء يجوز عليهم السهو والنسيان والغلط بومواس الشيطان أو عند شغل القلب حتى يغلط، ثم يُلَبَّه ويرجع إلى الصحيح، وهو معنى قوله : « فينسخ الله ما يأتي الشيطان » ثم يحكم الله آياته . ولكن إنما يكون الغلط على حسب ما يغلط أحدنا، فلما ما يضاف إليه من قولهم : تلك الغرائيق الملا، فكذب على النبي صلى الله عليه وسلم، لأن فيه تعظيم الأصنام، ولا يجوز ذلك على الأنبياء، كما لا يجوز أن يقرأ بعض القرآن ثم ينشد شعرا ويقول : غلطت وظننته قرآنا . (وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ) أي الكافرين في خلاف وعصيان ومشاقة لله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم . وقد تقدم في « البقرة » (١١) والحمد لله وحده .

قوله تعالى : وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ
فَتُخْفِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ أَلَمُوا ﴾ . وقيل : أهل الكتاب
 ﴿ أَنَّهُ ﴾ أى أن الذى أحكم من آيات القرآن در لى . لَيْقُ مِنْ ذَلِكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُحْبِطَ لَهُ
 تَقْوَاهُمْ . أى تخشع وتسكن . وقيل : تخلص . ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِي الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ قرأ
 أبو حنيفة « وإن الله هادي الذين آمنوا » بالنون . ﴿ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أى يثبتهم
 على المسدائهم .

قوله تعالى : وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ
 السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ ﴾ يعنى فى شك من القرآن ، والله
 ابن جريج ، وغيره : من الذين ، وهو الصراط المستقيم . وقيل : مما إلى الشيطان على
 لسان محمد صلى الله عليه وسلم ، ويقولون : ما بالله ذكر الأصنام بنسبهم ارتد عنها . وقرأ
 أبو عبد الرحمن السلمي « فى مِرْيَةٍ » بضم الميم . والكسر أعرف ؛ ذكره النحاس . ﴿ حَتَّى
 تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ ﴾ أى القيامة . ﴿ بَغْتَةً ﴾ أى بغاظة . ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ نَقِيمٍ ﴾ قال
 الضحاك : عذاب يوم لا لبس له وهو يوم القيامة . النحاس : سعى يوم القيامة عقيا لأنه
 ليس يعقب بعده يوما مثله ؛ وهو معنى قول الضحاك . والعقيم فى اللغة عبارة عن لا يكون
 له ولد ؛ ولما كان الولد يكون بين الأبرار وكانت الأيام تتوالى قبل وبعد ، جعل الاتباع
 فيها بالبعيدة كهيئة الولادة . ولما لم يكن بعد ذلك اليوم يوم وصف بالعقيم . وقال ابن عباس
 ومجاهد وقادة : المراد عذاب يوم بدر ، ومعنى عقيم لا مثل له فى عظمته ؛ لأن الملائكة
 قالت فيه . ابن جريج : لأنهم لم ينظروا فيه إلى الليل ، بل قتلوا قبل المساء فصار يوما
 لا لبس له . وكذلك يكون معنى قول الضحاك أنه يوم القيامة ؛ لأنه لا لبس له . وقيل :
 لأنه لم يكن فيه رافة ولا رحمة ، وكان عقيا من كل خير ؛ ومنه قوله تعالى : « إِذْ أَرْسَلْنَا
 عَلَيْنَا الرِّيحَ الْعَقِيمَ » (١) أى التى لا خير فيها ولا تاقى بمطر ولا رحمة .

قوله تعالى : أَلَمْ لِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَأَلْزَمَ الْفَالِقِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : (الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ) بمعنى يوم القيامة هو الله وحده لا منازع له فيه ولا مدافع . والملك هو اتساع المقدور لمن له تدبير الأمور . ثم بين حكمه فقال : (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فاولئك لهم عذاب مهين)

قلت : وقد يحتل أن تكون الإشارة بـ « يومئذ » ليوم بدر ، وقد حكم فيه بإهلاك الكافر وسعادة المؤمن ؛ وقد قال عليه السلام لعمر : « وما يدريك لعل الله أطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَبِزْزَنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لِيُدْخِلَهُمْ مُدْخَلَ رِزْوَانِهِ إِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾

أفرد ذكر المهاجرين الذين ماتوا وقتلوا تفضيلا لهم وتشريفا على سائر المواقف .

وسبب نزول هذه الآية أنه لما مات بالمدينة عثمان بن مظعون وأبو سلمة بن عبد الأسد قال بعض الناس : من قُتل في سبيل الله أفضل من مات خائف أنفه ؛ فنزلت هذه الآية مُسَوِّية بينهم ، وأن الله يرزق جميعهم رزقا حسنا . وظاهر الشريعة يدل على أن المقتول أفضل . وقد قال بعض أهل العلم : إن المقتول في سبيل الله والميت في سبيل الله شهيد ؛ ولكن للمقتول منزلة ما أصابه في ذات الله . وقال بعضهم : « هما سواء » ؛ واحتج بالآية ، وبقوله تعالى : « وَمَنْ يُخْرِجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَّعَ »

أَجْرَهُ عَلَى اللَّهِ « ، ومحدث أم حرام ، فانها صرعت عن دابته ثمانت ولم تقتل فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : « أنت من الأولين » ، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث سيد الله ابن عبيك : « من يخرج من بيته مهاجراً في سبيل الله تفر من دابته فأت أو لدغته حية فمات أو مات حتف أنفه ففد وقع أجره على الله ومن مات قصفاً فقد استوجب المآب » . وذكر ابن المبارك عن فضالة بن عيسى في حديث ذكر فيه رجلين أحدهما أصيب في غزاة بمجنق فمات والآخرون مات هلك ، فجلس فضالة عند الميت فقيل له : تركت الشهيد ولم تجلس عنده ؟ فقال : ما أبالي من أي حفرتيما بُعث ، ثم تلا قوله تعالى : « والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو قتلوا أو ماتوا » الآية كلها . وقال سليمان بن عاصم : كان فضالة يرؤس أميرا على الأربع نفيرج يمتازق رجلين أحدهما قتل والآخرون في فرأى ميسل الناس مع جنازة القتيل إلى حفرة ، فقال : أراكم أنها الناس تملون مع القتيل ! فوالذي نفسي بيده ما أبالي من أي حفرتيما بُعث ، إقرموا قوله تعالى : « والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا » . كذا ذكره الضحلي في تفسيره ، وهو معنى ما ذكره ابن المبارك ، واحتج من قال : إن التتول زيادة فضل بما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل : أي الجهاد أفضل ؟ قال : « من أهرق دمه وعقر جواده » . وإذا كان من أهرق دمه وعقر جواده أفضل الشهداء فلم أنا من لم يكن بتلك الصفة مفضول . قرأ ابن عاصم وأهل الشام « قُتِلُوا » بالتشديد على التكثير ، الباكون بالتخفيف ، (لِيُخْلَطَهُمْ دَخَلًا يَرْضَوْنَهُ) أي الجنان . قراءة أهل المدينة « دَخَلًا » بفتح الميم ، أي دخولا . وضعها الباكون ، وقد مضى في « سبحان » . (وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ) قال ابن عباس : علیم بذايهم ، حلیم عن عقابهم . قوله تعالى : ذَلِكَ وَمَنْ عَاتَبَ بِمِثْلٍ مَّا عُرِقَ بِهِ ثُمَّ يَتَّبِعْ عِلْمَهُ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَزِيزٌ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾

(١) آية ١٠ - سورة النساء .

(٢) النص : أن يضرب الإنسان فيموت مكانه . وأراد يرحل

(٣) راجع ج ١٠ ص ٢١٢

المآب صن المريح بعد الموت .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ ﴾ « ذلك » في موضع رفع ، أى ذلك الأمر الذى نصصنا عليك . قال مقاتل : نزلت في قوم من مشركى مكة لقوا قوماً من المسلمين للبين بئنا من المحترم فقالوا : إن أصحاب محمد يكهون القتال في الشهر الحرام فأحسوا عليهم ، فأنشدهم المسلمون ألا يقاتلوه في الشهر الحرام ، فأبى المشركون إلا القتال ، فحملوا عليهم فثبت المسلمون ونصرهم الله على المشركين ، وحصل في أنفس المسلمين من القتال في الشهر الحرام شيء ، فنزلت هذه الآية . وقيل : نزلت في قوم من المشركين ، مثلوا بقوم من المسلمين قتلوه يوم أحد فعاقبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثلهم . فعنى « من عاقب بمثل ما عوقب به » أى من جازى الظالم بمثل ما ظلمه ، فسعى جزاء العقوبة عقوبة لاستواء الفعلين في الصورة ، فهو مثل « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » ، ومثل « فَمَنْ آعَدَنِي عَلَيْهِمْ فَآعَدُوا عَلَيْهِمْ مِثْلَ مَا آعَدَنِي عَلَيْهِمْ » . وقد تقدم . ﴿ ثُمَّ بَيَّنَّا عَلَيْهِ ﴾ أى بالكلام والإزعاج من وطنه ، وذلك أن المشركين كذبوا بنبيهم وأذوا من آمن به وأخرجوه وأخرجوه من مكة ، وظاهروا على إخراجهم . ﴿ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ ﴾ أى لينصرن الله عبداً صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فإن الكفار بقوا عليهم . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَمَفُوءٌ غَفُورٌ ﴾ أى عفا عن المؤمنين ذنوبهم وقاتلهم في الشهر الحرام وسر .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ﴾ أى ذلك الذى قصصت عليك من نصر المظلوم هو بآى أنا الذى أوبخ الليل في النهار فلا يقدر أحد على ما أقدر عليه ، أى من قدر على هذا قدر على أن ينصر عبده . وقد مضى في « آل عمران » معنى يولج الليل في النهار . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ يسمع الأقوال ويصير الأفعال ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة ولا ديبب فنة إلا يلمها ويسمعها ويصيرها .

قوله تعالى : ذَلِكَ يَأْتِيَنَّ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿١٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ يَأْتِيَنَّ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ ﴾ أى ذو الحق ؛ فدينه الحق وعبادته حق . والمؤمنون يستحقون منه النصر بحكم وعده الحق . ﴿ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾ أى الأصنام التى لا استحقاق لها فى العبادات . وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو بكر « وَأَنْ مَا تَدْعُونَ » بالناء على الخطاب ، واختاره أبو حاتم . الباقون بالياء على الخبر هنا وفى لقمان ، واختاره أبو عبيد . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ ﴾ أى العالى على كل شئ ، بقدرته ، والعالى عن الأشياء والأنداد ، المقدس عما يقول الظالمون من الصفات التى لا تليق بجلاله . ﴿ الْكَبِيرُ ﴾ أى الموصوف بالعظمة والجلال وكبر الشأن . وقيل : الكبير ذو الكبرياء . والكبرياء عبارة عن كمال الذات ؛ أى له الوجود المطلق أبدا وأزلا ، فهو الأول القديم ، والآخر الباقي بعد فناء خلقه .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ دليل على كمال قدرته ؛ أى من قَدَرٍ عَلَى حِذَا قَدَرٍ عَلَى إِعَادَةِ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ ؛ كما قال الله عز وجل : « فَأَمَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ فَاهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ » . ومثله كثير . « فَتُصْبِحُ » ليس بجواب لكون منصوبا ، وإنما وخبر عند الخليل وسيبويه ، قال الخليل : المعنى أَنْزَلَهُ ! أنزل الله من السماء ماء فكان كذا وكذا ؛ كما قال :

أَلَمْ تَسْأَلِ الرَّبَّ أَنْ يَقْضِيَ بَيْنَهُمْ . وهل تُخْضِرُكَ الْيَوْمَ بَيْدَاءُ سَمَاقٍ

(١) آية ٣٠ (٢) البيت جميل بن عبد الله صاحب بيتة . والفراء (فتح القاف) : القفر . ونهذاه : القفر أيضا ، أى يبعد من سكن فيه . والساق (فتح السين وسكون الهم وضع الهمزة) : الأرض التى لا تبت . وهى السهلة المستوية (شراهد المعنى) .

هذه قد سألته فنطق . وقيل استفهام تحقيق ، أى قد رأيت ، فأمل كيف تصبح ! أو عدلت .
 لأن المعنى الم تر أن الله ينزل . وقال القراء : « الم تر » خير ؛ كما تقول فى الكلام : أعلم
 أن الله عز وجل ينزل من السماء ماء . (تَحْبِيحُ الْأَرْضِ مُخْضَرَةً) أى ذات خضرة ؛
 كما تقول : مُبْقِلَةٌ وَمُسْبِغَةٌ أى ذات بقل وسباح . وهو عبارة عن استعجالها إثر نزول الماء
 بالنبات واستمراره كذلك عادة . قال ابن عطية : وروى عن عكرمة أنه قال : هذا لا يكون
 إلا بمكة ونهامه . ومعنى هذا : أنه أخذ قوله « فنصبح » مفصودا به صباح ليلة المطر ،
 وذهب إلى أن ذلك الأخضرار يتأخر فى سائر البلاد ، وقد شاهدت هذا [فى] السوس
 الأقصى نزل المطر ليلا بعد لحظ أصبحت تلك الأرض الرملة التى نسقتها الرياح قد أخضرت
 نباتات ضئيف رقيق . (إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) قال ابن عباس : « خير » بما ينطوى عليه
 الله من القنوط عند تأخير المطر ، « لطيف » بأرزاق عباده . وقيل : لطيف باستخراج
 الثمن من الأرض ، خير بإحسانهم وفاقهم .

قوله تعالى : لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَكُو
 الْبَرِّ الْحَمِيدُ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : (لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) خلفا وملكا ، وكل محتاج إلى
 تديره وإبقائه ، (وَإِنَّ اللَّهَ لَكُو الْبَرِّ الْحَمِيدُ) فلا يحتاج إلى شيء ، وهو الممدود فى كل حال .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَخْرِقُ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَأَنفُكَ تَجْرِي
 فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ
 إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَخْرِقُ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ) ذكر نعمة أخرى ، فأخبر أنه
 يخترع لعباده ما يحتاجون إليه من البواب والشجر والأنهار . (وَأَنفُكَ) أى ويخترع لكم الفلك
 فى حال جريها . وقرأ أبو عبد الرحمن الأعرج « والفلك » رفعا على الابتداء وما بعده خبره .

الباقون بالنصب نسقا على قوله « ما في الأرض » . (وَيُمِيسُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ)
 أى كراهية أن تقع . وقال الكوفيون : لتلا تقع . وإسماكه لما خلق السكون فيها حالا بعد
 حال . (إِلَّا بِإِذْنِهِ) أى إلا بإذن الله لما بالوقوع ، فتقع بإذنه ، أى بإرادته وبمحيطه .
 (إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَعَوِفٌ رَحِيمٌ) أى فى هذه الأشياء التى سخرها لهم .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ
 لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ) أى بعد أن كنتم نطفًا . (ثُمَّ يُمِيتُكُمْ) عند انقضاء
 آجالكم . (ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) أى للنساء . والواب والمغاب . (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ) أى
 بخود لما ظهر من الآيات الدالة على قدرته ووعده ، قال ابن عباس : يريد الأسود
 ابن عبد الأسد وأبا جهل بن هشام والحاص بن هشام وجماعة من المشركين . وقيل : إما
 قال ذلك لأن الغالب على الإنسان كفر النعم ؛ كما قال تعالى : « وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ » .

قوله تعالى : لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ
 فِي الْأُمَمِ وَاذْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : (لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا) أى شرعا . (هُمْ نَاسِكُوهُ) أى عاملون به .
 (فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأُمَمِ) أى لا ينزع عنك أحد منهم فيما يشرع لأمتك ؛ فقد كانت الشرائع
 فى كل عصر . وروى فرقة أن هذه الآية نزلت بسبب جدال الكفار فى أمر الذبايح ،
 وقولهم للؤمنين : ما تكون ما ذبحتم ولا تأكلون ما ذبح الله من الميتة ، فكان ما قتل الله أحق أن
 تأكلوه مما قتلتم أتم بسكاكينكم ؛ فنزلت الآية بسبب هذه المنازعة . وقد مضى هذا
 فى « الأسماء » والحمد لله . وقد تقدم فى هذه السورة ما للعلماء فى قوله تعالى « مَنَسَكًا » .
 وقوله : « هُمْ نَاسِكُوهُ » يعطى أن المنسك المصدر ، ولو كان الموضع لقال هم ناسكون فيه .

وقال الزجاج : « فلا يَنَازِعُكَ في الأمر » أى فلا يجادلُكَ ؛ ودلَّ على هذا « وإن جَادَلُوكَ » . ويقال : قد نازعوه فكيف قال فلا يَنَازِعُكَ ؟ فالجواب أن المعنى فلا تنازعهم أنت . نزلت الآية قبل الأمر بالقتال ؛ تقول : لا يضاربك فلان فلا تضارب به أنت ؛ فيجوز هذا في باب المفاعلة . ولا يقال : لا يضربك زيد وأنت تريد لا تضرب زيدا . وقرا أبو مجاز « فلا يَنَازِعُكَ في الأمر » أى لا يستظفك ولا يظنك عن دينك . وقراءة الجماعة من المنازعة . ولفظ النهى في القراءة للكفار ، والمراد النبي صلى الله عليه وسلم : (وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ) أى إلى توحيدِهِ ودينِهِ والإيمان به . (إِنَّكَ لَمَلْهُدًى) أى دين . (مُسْتَقِيمٌ) أى قويم لا أعوجاج فيه .

قوله تعالى : وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾

اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : (وَإِن جَادَلُوكَ) أى خاصموك يا محمد ؛ يريد مشرك مكة . (فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ) يريد من تكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ عن ابن عباس . وقال مقاتل : هذه الآية نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء وهو في السماء السابعة لما رأى من آيات ربه الكبرى ؛ فأوحى الله إليه « وَإِن جَادَلُوكَ » بالباطل فذاقمهم بقولك « الله أعلم بما تعملون » من الكفر والتكذيب ؛ فأمره الله تعالى بالإصرار عن مماراتهم صيانة له عن الاشتغال بتعتيمهم ؛ ولا جواب لصاحب العناد . (اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ) يريد دين النبي صلى الله عليه وسلم وقومه . (فَيَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) يريد في خلافكم آياتي ، فتعرفون حيلته الحق من الباطل .

مسألة - في هذه الآية أدب حسن عاتبه الله عبادَه في الرد على من جادل تعتما ومراعاة الإيجاب ولا يناظر ويدفع بهذا القول الذى علمه الله لنبيه صلى الله عليه وسلم . وقد قيل : إن هذه الآية منسوخة بالسيف ؛ معنى السكوت عن مخالفه والاكتفاء بقوله : « الله يحكم بينكم » .

قوله تعالى : **أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**
إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : (**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**) أى وإن قد علمت يا محمد هذا وأيقنت فأعلم أنه يعلم أيضا ما أنتم مختلفون فيه فهو يحكم بينكم . وقد قيل : إنه استفهام تقرير للنير . (**إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ**) أى كل ما يجرى في العالم فهو مكتوب عند الله في أم الكتاب . (**إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**) أى إن الفصل بين المختلفين على الله يسير . وقيل : المعنى إن كتاب القلم الذى أمره أن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة على الله يسير

قوله تعالى : **وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَهُمْ يَنْزِلُ بِهِ سُلْطَانٌ**
وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : (**وَيَعْبُدُونَ**) يريد كفار قريش . (**مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَهُمْ يَنْزِلُ بِهِ سُلْطَانٌ**) أى حجة وبرهانا . وقد تقدم في « آل عمران » . (**وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ**) .

قوله تعالى : **وَإِذَا نُتِلَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ**
الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا
قُلْ أَفَأَنْتُمْ كُفِرْتُمْ مِنْ ذَلِكَ أَلَمْ تَكُنْ أَتَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشَّ
الْمُصِيرُ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : (**وَإِذَا نُتِلَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ**) بى البينات . (**تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ**
الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ) أى الغضب والبؤس . (**يَكَادُونَ يَسْطُونَ**) أى يبطشون . والسطوة
شدّة البطش ، يقال : سطا به يسطو إذا بطش به ؛ كان ذلك بضرب أو شتم ، وسبطا

عليه . (وَالَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَنَا) . وقال ابن عباس : يسطون يسطون اليهم أيديهم .
 محمد بن كعب : أي يقرءون . المصالح : أي يأخذونهم أخذًا باليد ، والمعنى واحد .
 وأصل السطو القهر . والله ذو سطوات ؛ أي أسذات شديدة . (قُلْ أَفَأَنْتُمْ يُسْرٍ مِنْ
 ذَلِكَ النَّارِ) أي أكره من هذا القرآن الذي تسمعون هو النار ؛ فكأنهم قالوا : ما الذي هو
 شر ؛ فقبل هو النار . وقيل : أي هل أنبئكم بشر مما يلحق قائل القرآن منكم هو النار ؛
 فيكون هذا وعيدا لهم على سطواتهم بالذين يتلون القرآن . ويجوز في « النار » الرفع والنصب
 والخفض ، فالرفع على هو النار ، أو هي النار . والنصب بمعنى أعنى ، أو على إضمار فعل مثل
 الثاني ، أو يكون مجولا على المعنى ؛ أي أعرفكم بشر من ذلك النار . والخفض على البدل .
 (وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا) في القيامة . (وَيَسَّ الْمَصِيرُ) أي الموضع الذي يصيرون إليه
 وهو النار .

قوله تعالى : يَأْتِيَا النَّاسَ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ
 تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ
 الذُّبَابُ شَيْعًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : (يَأْتِيَا النَّاسَ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ) هنا متصل بقوله : « وَيَسْتَدْعُونَ »
 مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْتَهِ بِهِ سُلْطَانًا . وإنما قال « ضَرْبَ مَثَلٍ » لأن جميع الله تعالى عليهم
 بضرب الأمثال أقرب إلى أفهامهم . فإن قيل : فإين المثل المضروب ؛ ففيه وجهان :
 الأول — قال الأخفش : ليس قم مثل ، وإنما المعنى ضربوا لي مثلا فاستمعوا قولهم ؛ يعني
 أن الكفار جعلوا لله مثلا بعبادتهم غيره ؛ فكأنه قال جعلوا لي شيئا في عبادتي فاستمعوا خبر هذا
 الشيء . الثاني — قول القتيبي : وأن المعنى يأيتي الناس ، مثل من عبد آله لم تستطع أن تتحقق
 ذبابا وإن سلها الذباب شيئا لم تستطع أن تستنقذه منه . وقال النحاس : المعنى ضرب الله
 عز وجل ما يعبد من دونه مثلا ، قال : وهذا من أحسن ما قيل فيه ؛ أي بين الله لكم شيئا

وللمعبودكم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ قراءة العامة « تدعون » بالياء . وقرأ السُّبُّيُّ
وأبو العالية ويعقوب « يدعون » بالياء على الخبر . والمراد الأوثان الذين عبدوهم من دون
الله ، وكانت حول الكعبة ، وهي ثمانية وستون صنماً . وقيل : السادة الذين صرفوهم عن
طاعة الله عز وجل . وقيل : الشياطين الذين حملوهم على معصية الله تعالى ، والأوَّلُ أصوب .
﴿ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا ﴾ الذباب اسم واحد للذكر والأنثى ، والجمع القليل أذبة والكثير ذباب .
على مثل غراب وأغربة وعرمان ؛ وسُمِّيَ به لكثرة حركته . الجوهرى : والذباب معروف
الواحدة ذبابة ، ولا تُلْ ذبابة . والمذبذبة ما يذب به الذباب . وذباب أسنان الإبل حذها ؛
وذباب السيف طرفه الذى يضرب به . وذباب العين إنسانها . والذبابة البقرة من الدِّين .
وذباب النصارى إذا لم يبق منه إلا بقية . والتذبذب التحرك . والذبذبة نوس الشيء المعلق
في الهواء . والذبذب الذكر لزوجته . وفي الحديث « مَنْ وَفَى شَرَّ ذَبْدِهِ » . [وهذا مما
لم يذكره ، أثنى قوله : وفي الحديث] . ﴿ وَإِنْ يَسْأَلُكَ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُ مِنْهُ ﴾
الاستفاد والإعجاز التخليص . قال ابن عباس : كانوا يطلون أصنامهم بالزعرقان فتجف
فيبقى فيجثله . وقال السُّدِّيُّ : كانوا يميلون للأصنام طعاما فيقع عليه الذباب فيأكله .
﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ قيل : الطالب الآلة والمطلوب الذباب . وقيل بالعكس .
وقيل : الطالب عابد الصنم والمطلوب الصنم ؛ فالطالب يطلب إلى هذا الصنم بالتقرب إليه ،
والصنم المطلوب إليه . وقد قيل : « وَإِنْ يَسْأَلُكَ الذُّبَابُ شَيْئًا رَاجِعَ إِلَى اللَّهِ فَرَسَ أَبْدَانِهِمْ
حتى يسلمهم الصبر لما والوقار معها . وخضع الذباب لأربعة أمور تخصه : لهائته وضعفه
ولا يستغفره وكثرته ؛ فإذا كان هذا الذى هو أضعف الحيوان وأحقه لا يقدر من عبده من
دون الله عز وجل على خلق مثله ودفع أذيته فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين وأربابا
مطاعين . وهذا من أقوى حجة وأوضح برهان .

قوله تعالى : مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١﴾

(١) ما بين المبرزين نبر واضح المعنى . وما تله المؤلف رحمه الله عن الجوهرى مذكور كذا في الصراح أن قوله :

... شر ذبده »

قوله تعالى : ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ (١) أى ما عظموه حق عظمته ؛ حيث جعلوا هذه الأصنام شركاء له . وقد مضى فى « الأنعام » . (إن الله لتزيى عبيد) تقدم .

قوله تعالى : اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧٦)

قوله تعالى : (اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ) ختم السورة بأن الله اصطفى عبداً صلى الله عليه وسلم لتبليغ الرسالة ؛ أى ليس بعنه عبداً أمراً يدعيها . وقيل : إن الوليد بن المغيرة قال : أو أنزل عليه الذكر من بيننا ؛ فنزلت الآية . وأخبر أن الاختيار إليه سبحانه وتعالى . (إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ) لأقوال عباده (بَصِيرٌ) بمن يختاره من خلقه لرسالاته . (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) يريد ما قدموا . (وَمَا خَلْفَهُمْ) يريد ما خلفوا ؛ مثل قوله فى يس : « إِنْ تَحِبَّ النَّاسُ أَنْ يُدْعُوا لِلْعِزِّ الْأُولَىٰ فَلْيُدْعُوا أُولَٰئِكَ إِنَّ اللَّهَ عَظِيمٌ فَتَىٰ » (٢) « وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » (٣) « وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » (٤)

قوله تعالى : يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧)

قوله تعالى : (يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا) تقدم فى أول السورة أنها فضلت بسجدين ، وهذه السجدة الثانية لم يرها مالك وأبو حنيفة من العزائم ؛ لأنه قرن الركوع بالسجود ، وأن المراد بهما الصلاة المفروضة ؛ وخص الركوع والسجود تشريفاً للصلاة . وقد مضى القول فى الركوع والسجود مبيناً فى « البقرة » والحمد لله وحده .

قوله تعالى : (وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ) أى امتثلوا أمره . (وَافْعَلُوا الْخَيْرَ) نذب فيها عبداً الواجبات التى صح وجوبها من غير هذا الموضع .

(١) راجع ج ٧ ص ٣٦ (٢) آية ١٢ سورة ص . (٣) راجع ج ١ ص ٣٤٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : (وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ) قيل : غنى به جهاد الكفار . وقيل : هو إشارة إلى امتثال جميع ما أمر الله به ، والابتعاد عن كل ما نهى الله عنه ، أى جاهدوا أنفسكم في طاعة الله وردوها عن الهوى ، وجاهدوا الشيطان في رد وسوسته ، والظلمة في رد ظلمهم ، والكافرين في رد كفرهم . قال ابن عطية : وقال مقاتل وهذه الآية منسوخة بقوله تعالى : « فَأَتَوْا اللَّهَ مَا اسْتَطَعُوا » . وكذا قال هبة الله : إن قوله « حَقَّ جِهَادِهِ » وقوله في الآية الأخرى : « حَقَّ تَقَاتِيهِ » منسوخ بالتخفيف إلى الاستطاعة في هذه الأوامر . ولا حاجة إلى نقد النسخ ، فإن هذا هو المراد من أول الحكم ؛ لأن « حَقَّ جِهَادِهِ » ما ارتفع عنه الحرج . وقد روى سعيد بن المسيب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خَيْرُ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ » . وقال أبو جعفر النحاس : وهذا مما لا يجوز أن يقع فيه نسخ ، لأنه واجب على الإنسان ، كما روى حيوة بن شريح يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ » . وكما روى أبو غالب عن أبي أمامة أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم : أى الجهاد أفضل ؟ عند الجمرة الأولى فلم يجبه ، ثم سألته عند الجمرة الثانية فلم يجبه ، ثم سألته عند جمرة العقبة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ابْنُ السَّائِلِ » ؟ فقال : أنا ذاك ، فقال عليه السلام : « كَلِمَةُ مَثَلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ » .

قوله تعالى : (**هُوَ أَجْتَبَاكُمْ**) أى اختاركم للذب عن دينه والتمام أمره ؛ وهذا تأكيد للأمر بالمجاهدة ؛ أى وجب عليكم أن تماهدوا لأن الله اختاركم له .

قوله تعالى : (**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**) فيه ثلاث مسائل :

الأول - قوله تعالى : (**مِنْ حَرَجٍ**) أى من ضيق . وقد تقدم في « الأنعام » .
 وهذه الآية تدخل في كثير من الأحكام ؛ وهى مما خص الله بها هذه الأمة . روى معمر عن قتادة قال : أعطيت هذه الأمة ثلاثاً لم يُعطها إلا نبي : كان يقال للنبي : أذهب فلا حرج عليك ، وقيل لهذه الأمة : « وما جعل عليكم في الدين من حرج » . والنبي شهيد على أمته ، وقيل لهذه الأمة : « لتكونوا شهداء على الناس » . ويقال للنبي : سَلْ تُعْطَهُ ، وقيل لهذه الأمة : « ادعوني أستجب لكم » .

الثانية - واختلف العلماء في هذا الحرج الذى رفعه الله تعالى ؛ فقال عكرمة : هو ما أحل من النساء متى وثلاث ورباع ، وما ملكت يمينك . وقيل : المراد قصر الصلاة ، والإبطار للسائر ، وصلاة الإيماء لمن لا يقدر على غيره ، وحط الجهاد عن الأعشى والأعرس والمريض والعديم الذى لا يجد ما ينفق في غزوه ، والتفريم ومن له والدان ، وحط الإصر الذى كان على بنى إسرائيل . وقد مضى تفصيل أكثر هذه الأشياء .^(١) وروى عن ابن عباس وأحسن البصرى أن هذا في تقديم الأهلّة وتأخيرها في الفطر والأضحية والصوم ؛ فإذا أخطأت الجماعة حلال ذى الحجة فوقفوا قبل يوم هرة بيوم أو وقفوا يوم النحر أجزأهم ، على خلاف فيه يئناه في كتاب المقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس رضى الله عنه . وما ذكرناه هو الصحيح في الباب . وكذلك الفطر والأضحية ؛ لما رواه حماد بن زيد عن أيوب عن محمد بن المنكدر عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فِطْرُكُمْ يَوْمَ تَطِيرُونَ وَأَضْحَاكُمْ يَوْمَ تَضْحُونَ » . نرحمه أبو داود والدارقطني ، ولفظه ما ذكرناه . والمعنى : باجتهادكم من غير حرج بلحقكم . وقد روى الأئمة أنه عليه السلام سئل يوم النحر عن أشياء ، فأبى أن

(١) راجع ج ٧ ص ٨٠ . (٢) راجع ج ٣ ص ٤٣٠ . ج ٧ ص ٣٠٠

أمر مما ينهى المرء أو يجهل من تقديم الأمور بعضها قبل بعض وأشباهها إلا قال فيها :
 « افعل ولا حرج » .

الثالثة — قال العلماء : رفع الحرج إنما هو لمن استقام على مناهج الشرع ، وأما السلافة
 والشراف وأصحاب الحدود فعليهم الحرج ، وهم جاعلوه على أنفسهم بمفارقتهم الدين ، وليس
 في الشرع أعظم حرجاً من إلزام ثبوت رجل لأثنين في سبيل الله تعالى ، ومع صحة اليقين
 وجودة العزم ليس بحرج .

قوله تعالى : ﴿ يَلِدْ أَيْبُكُمْ ﴾ قال الزجاج : المعنى آتبعوا ملة أبيكم . الفراء : انتصب
 على تقدير حذف الكاف ، كأنه قال كَيْلَة . وقيل : المعنى وآفعلوا الخير فعل أبيكم ، فأقام
 الفاعل مقام الملة . وإبراهيم هو أبو العرب قاطبة . وقيل : الخطاب لجميع المسلمين ، وإن
 لم يكن الكل من ولده ؛ لأن حرمة إبراهيم على المسلمين بحكمة الوالد على الولد . ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ
 الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ قال ابن زيد والحسن : « هو » راجع إلى إبراهيم ، والمعنى : هو سماكم
 المسلمين من قبل النبي صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَبِئْسَ هَذَا ﴾ أى وفي حكمة أن من أتبع هذا
 صلى الله عليه وسلم فهو مسلم . قال ابن زيد : وهو معنى قوله : « رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ
 وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ » . قال النحاس : وهذا القول مخالف لقول عطاء الأمة . وروى
 على بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : سماكم الله من قبل ، أى في الكتب
 المتقدمة وفي هذا القرآن ، قاله مجاهد وغيره . ﴿ لَيَكُونَنَّ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ ﴾ أى يتبينه
 إياكم . ﴿ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ أن رسلكم قد بلغتهم ، كما تقدم في « البقرة » .
 ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ تقدم
 مستوفى والحمد لله .

(١) آية ١٢٨ سورة البقرة . (٢) راجع ج ٢ ص ١٥٤ طبع ثانية .

(٣) راجع ج ١ ص ١٦٤ ، ٢٤٢ طبع ثانية أرطاة . ج ٤ ص ١٥٦

سورة المؤمنون

مكية كلها في قول الجميع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ
 خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ مَعْزُومُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ
 فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ
 أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ مَن ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ
 فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ ﴿٨﴾
 وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾
 الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) روى البيهقي من حديث أنس عن النبي
 صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لما خلق الله جنة عدن وغرس أشجارها بيده قال لها تكلمي
 فقالت تدأفح المؤمنون » . وروى النسائي عن عبد الله بن السائب قال : حضرت رسول
 الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح فصل في قيل الكعبة ، نطق نعليه فوضعهما عن يساره فأفتح
 سورة المؤمنين ، فلما جاء ذكر موسى أو عيسى عليهما السلام أخذته سملة فركع . أخرجه مسلم
 بمعناه . وفي الترمذي عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم
 إذا أنزل عليه الوحي سمع عند وجهه كدوى النحل ، وأنزل عليه يوما فكشنا ساعة فشرى .
 فاستقبل القبلة فرفع يديه وقال : « اللَّهُمَّ زِدْنَا وَلَا تَنْفُصْنَا وارضا وأرض عنا » ثم قال -

أُزِلَ جِلِّيَّ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَقَامَهُنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ — ثُمَّ قُرَأَ — قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ” حتى ختم عَشْرَ آيَاتٍ ؛ صَحَّحَهُ أَبُو الْعَرَبِ . وَقَالَ النَّحَّاسُ : مَعْنَى ” مِنْ أَقَامَهُنْ “ مِنْ أَقَامَ عَلَيْهِنَ وَلَمْ يَخَالَفَ مَا قَبِيلُهُ ؛ كَمَا يَقُولُ : فَلَانْ يَقُومُ بِعَمَلِهِ . ثُمَّ نَزَلَ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَاتِ فَرَضَ الْوُضُوءَ وَالْحَدْخَلَ مَعَهُنَ . وَقُرَأَ طَاهِرَةُ بْنُ مُصَرَّبٍ « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ » بِصَمِّ الْأَلْفِ عَلَى الْفِعْلِ الْمَجْهُولِ ، أَيْ أَقْبُوا فِي السَّوَابِ وَالْخَيْرِ . وَقَدْ مَضَى فِي أَوَّلِ « الْبَقَرَةِ » مَعْنَى الدَّلَاحِ لَفْظَةً وَمَعْنَى ، وَاجْتَدَدَهُ وَخَدَهُ .^(١)

الثَّانِيَةُ — قَوْلُهُ تَعَالَى : (خَاشِعُونَ) رَوَى الْمُحْتَمِرُ عَنْ خَالِدٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ فِي الصَّلَاةِ ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَنْ رَجُلٍ مِنْهُمْ آيَةً « الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ » . بِفِعْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْظُرُ حَيْثُ يَسْجُدُ . وَفِي رِوَايَةِ هُشَيْمٍ : كَانَ الْمَسَامُونَ يَلْتَفِتُونَ فِي الصَّلَاةِ وَيَنْظُرُونَ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ » ؛ فَأَقْبَلُوا عَلَى صَلَاتِهِمْ وَجَعَلُوا يَنْظُرُونَ أَمَامَهُمْ . وَقَدْ تَقَدَّمَ مَا لِلْعُلَمَاءِ فِي حَكْمِ الْمَصْلِيِّ إِلَى حَيْثُ يَنْظُرُ فِي « الْبَقَرَةِ » عِنْدَ قَوْلِهِ « قَوْلٌ وَجْهَكَ شِعْرُ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » . وَتَقَدَّمَ أَيْضًا مَعْنَى الْخُشُوعِ لَفْظًا وَمَعْنَى فِي الْبَقَرَةِ أَيْضًا عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَأَنَّهَا لَكَثِيرٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ » . وَالْخُشُوعُ مَحَلُّ الْقَابِ ؛ فَإِذَا خَشَعَ خَشَعَتْ الْجَوَارِحُ كُلُّهَا لَخُشُوعِهِ ؛ إِذْ هُوَ مَلِكُهَا ، حَسْبًا بِأَيَّاهُ أَوَّلَ الْبَقَرَةِ . وَكَانَ الرَّجُلُ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِذَا أَقَامَ الصَّلَاةَ وَقَامَ إِلَيْهَا بَابَ الرَّحْمَنِ أَنْ يَمْدُ بَصَرَهُ إِلَى شَيْءٍ وَأَنْ يَمْدُتْ نَفْسُهُ بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا . وَقَالَ عَطَاءُ : هُوَ أَلَّا يَمِثَّ بِشَيْءٍ مِنَ جَسَدِهِ فِي الصَّلَاةِ . وَأَبْصَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا يَمِثُّ بِلَحْيَتِهِ فِي الصَّلَاةِ فَقَالَ : « لَوْ خَشَعَ قَلْبُ هَذَا لَخَشَعَتْ جِرَارُحُهُ » . وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَإِنَّ الرِّجْمَةَ تَوَاجَهَهُ فَلَا يَمُرُّكَنِ الْحَصَى » . وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ . وَقَالَ الشَّاعِرُ :

- (١) رَاجِعْ ج ١ ص ١٨٦ طَبْعَةٌ ثَانِيَةٌ أَرْثَاثَةٌ .
(٢) رَاجِعْ ج ٢ ص ١٥٨ طَبْعَةٌ ثَانِيَةٌ .
(٣) رَاجِعْ ج ١ ص ٢٧٤ طَبْعَةٌ ثَانِيَةٌ أَرْثَاثَةٌ .

ألا في الصلاة الخيرة والفضل أجمع . لأن بها الآداب لله تخضع
وأول فرض من شريعة ديننا . وآخر ما يبقى إذا الدين يرفع
فمن قام للتكبير لافته رحمة . وكان كعبد باب مولا يقصرح
وصار لرب العرش حين صلاته . نجيا فيا طوباه لو كان يخشع

وروى أبو عمر أن الجوني قال : قيل لما نسي ما كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟
قالت : أتفرون سورة المؤمنين ؟ فيل نعم . قالت : اقروا ، فقرأ عليه « قد أفلح
المؤمنون - حتى بلغ - يحافظون » . وروى النسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلاحظ في صلاته يمينا وشمالا ، ولا يلوى عنقه خلف ظهره ،
وقال كعب بن مالك في حديثه الطويل : ثم أصلى قريبا منه - يعني من النبي صلى الله
عليه وسلم - وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلى وإذا التفّت نحوه أعرض
غبي ... الحديث ؛ ولم يأمره بإعادة .

الثالثة - اختلف الناس في الخشوع ، هل هو من فرائض الصلاة أو من فضائلها
ومكملاتها على قولين . والصحيح الأول ، وعمله القلب ، وهو أول علم يرفع من الناس ، قاله
عبادة بن الصامت ، رواه الترمذي من حديث جبير بن نفير عن أبي الدرداء ، وقال : هذا
حديث حسن غريب . وقد أخرجه النسائي من حديث جبير بن نفير أيضا عن عوف بن مالك
الأشجعي من طريق صحيحة . قال أبو عيسى : ومعاوية بن صالح ثقة عند أهل الحديث ،
ولا نعلم أحدا تكلم فيه غير يحيى بن سعيد القطان .

قلت : معاوية بن صالح أبو عمرو ويقال أبو عمر الحضرمي الجعفي قاضي الأندلس ،
مثل عنة أبو حاتم الرازي فقال : صالح الحديث ، يكتب حديثه ولا يحتج به . واختلف
فيه قول يحيى بن معين ، ووثقه عبد الرحمن بن مهدي وأحمد بن حنبل وأبو زرعة الرازي ؛
واحتج به مسلم في صحيحه . وتقدم في « البقرة » معنى اللغو والزكاة فلا معنى للإعادة . وقال

(١) الآداب : جمع الإرب (يكرس فكون) وهو الضو . (٢) هو أحد رجال سنة الحديث المختلف .

الضحك : إن اللغو هنا الشرك . وقال الحسن : إنه المعاصي كلها . فهذا قول جامع يدخل فيه قول من قال : هو الشرك ؛ وقول من قال هو الفناء ؛ كما روى مالك بن أنس عن محمد ابن المنكدر ، على ما يأتي في « لقمان » بيانه . ومعنى « فاعلون » أي مؤدّون ؛ وهي فصيحة ، وقد جاءت في كلام العرب . قال أمية بن أبي الصلت :

المطعمون الطعام في السنة الأثر * مة والفاطون للزكوات

٥ الواقعة — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ قال ابن العربي : « من غريب القرآن أن هذه الآيات العشر طائفة في الرجال والنساء ، كسائر ألفاظ القرآن التي هي محتملة لهم فإنها عامة فيهم ، إلا قوله « والذين هم لفروجهم حافظون » فإنما خاطب بها الرجال خاصة دون الزوجات ؛ بدليل قوله : « إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم » ، وإنما حُرف حفظ المرأة فرجها من أدلة أنكر كآيات الإحصان عموماً وخصوصاً وغير ذلك من الأدلة » . قلت : وعلى هذا التأويل في الآية فلا يحل لأمرأة أن يطأها من تملكه إجماعاً من العلماء ؛ لأنها غير داخلة في الآية ، ولكنها لو اعتقته بعد ملكها له جاز له أن يزوجها كما يجوز لغيره عند الجمهور . وروى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة الشنقي وأبو عبيد الله بن ملكته كانا على نكاحهما . قال أبو عمر : ولا يقول هذا أحد من فقهاء الأمصار ؛ لأن تملكها عندهم يبطل النكاح بينهما ، وليس ذلك بطلاق وإنما هو فسخ للنكاح ؛ وأنها لو اعتقته بعد ملكها له لم يراجعهما إلا بنكاح جديد ولو كانت في حدة منه .

انطاسة — قال محمد بن عبد الحكم : سمعت حُمَلة بن عبد العزيز قال : سألت مالكا عن الرجل يتخذ عُمَيرة ، فثلا هذه الآية « والذين هم لفروجهم حافظون » — إلى قوله — العادون » . وهذا لأنهم يَكُونُونَ عن الذِّكْرِ عُمَيرة ؛ وفيه يقول الشاعر :

إذا حَلَّتْ بَوَادٍ لَا أُنَيْسَ بِهِ * فَأَجَلِدْ عُمَيرة لَا دَاءَ وَلَا حَرَجُ

ويسميه أهل العراق الاستثناء ، وهو استفعال من المُنَى . وأحمد بن حنبل على وده يجوز ، ويصحح بأنه إخراج فضيلة من البدن بخاز عند الحاجة ؛ أصله القَصْد والحجامة . وعامة

العلماء على تحريره . وقال بعض العلماء : إنه كالفاعل بنفسه ، وهي معصية أحدثها الشيطان وأجراها بين الناس حتى صارت قبيحة ، وباليتمها لم تُقل . ولو قام الدليل على جوازها لكان ذو المروءة يعرض عنها لدناءتها . فإن قيل : إنما خير من نكاح الأمة ؛ قلنا : نكاح الأمة ولو كانت كافرة على مذهب بعض العلماء خير من هذا ، وإن كان قد قال به قائل أيضا ، ولكن الاستثناء ضعيف في الدليل عا^١ بالرجل الذي فكيف بالرجل الكبير .

السادسة - قوله تعالى : ﴿ إِنْ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ ﴾ قال القراء : أى من أزواجهم اللاتي أحل الله لهم لا يحايزون . ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ في موضع خفض معطوفة على « أزواجهم » و « ما » مصدرية . وهذا يقتضى تحريم الزنى وما قلناه من الاستثناء ونكاح المتعة ؛ لأن المتعة بها لا تجرى مجرى الزوجات ، لا ترث ولا تورث ، ولا يلحق به ولدها ، ولا يخرج من نكاحها بطلاق يستأنف لها . وإنما يخرج بأقضاء المدة التي عقدت عليها وصارت كالمتابرة . ابن العربي : إن قلنا إن نكاح المتعة جائز فهي زوجة إلى أجل ينطلق عليها اسم الزوجية . وإن قلنا بالحق الذي أجمعت عليه الأمة من تحريم نكاح المتعة لما كانت زوجة فلم تدخل في الآية .

قلت : وفائدة هذا الخلاف هل يجب الحد ولا يلحق الولد كالزنى الصريح أو يدفع الحد لاشبهة ويلحق الولد ؛ قولان لأصحابنا . وقد كان للغة في التحليل والتحرير أحوال ؛ فمن ذلك أنها كانت مباحة ثم حرها رسول الله صلى الله عليه وسلم زمن خير ، ثم حللها في غزاة الفتح ، ثم حرها بعد ؛ قاله ابن خزيمة متناد من أصحابنا وغيره ، وإليه أشار ابن العربي . وقد مضى في « النساء » القول فيها مستوفى^(١) .

السابعة - قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَبْتَنَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ فسعى من نكح ما لا يحل عا^٢ ، وأوجب عليه الحد لعدوانه ، واللائط عا^٣ قرآنا ولغة ، بدليل قوله تعالى : ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ وكما تقدم في « الأعراف » ؛ فوجب أن يقام الحد عليهم ، وهذا ظاهر لا غبار عليه .

قلت : فيه نظر ، ما لم يكن جاهلا او متأولا ، وإن كان الإجماع منعقدا على أن قوله تعالى : « وَالَّذِينَ هُمْ يُفَرِّجُهُمْ حَافِظُونَ » . إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ » خص به الرجال دون النساء ؛ ففسد روى معمر عن قتادة قال : تسمرت امرأة غلامها ؛ فذكر ذلك لعمر فساء لها : ما حلك على ذلك ؟ قالت : كنت أراه يحل لي ملك يميني كما يحل للرجل المرأة بملك اليمين ؛ فاستشار عمر في رجبها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : تأولت كتاب الله عز وجل على غير تأويله ، لا رجم عليها . فقال عمر : لا رجم ! والله لا أحل لك بعبده أبدا . عاقبها بذلك ودرأ الحد عنها ، وأمر العبد ألا يقربها . وعن أبي بكر بن عبد الله أنه سمع أباه يقول : أنا حضرت عمر بن عبد العزيز جاءت امرأة بئلام لها وضيء فقلت : إني استسمرت ففني بنو عمي عن ذلك ، وإنما أنا بمنزلة الرجل تكون له الوليدة فيطؤها ؛ فأثمة عني بنو عمي ؛ فقال عمر : أتزوجت قبله ؟ قالت نعم ؛ قال : أما والله لولا منزلتك من الجهالة لرجتك بالجماعة . ولكن اذهبوا به فيمويه إلى من يخرج به إلى غير بلدها . و « وَرَأَى » بمعنى سوى ، وهو مفعول بـ « أَبْتَنَى » أى من طلب سوى الأزواج والولائد المملوكة له . وقال الزجاج : أى فن ابتنى ما بعد ذلك ؛ ففعلول الابتناء محذوف ، و « وَرَأَى » ظرف . و « ذَلِكَ » يشار به إلى كل مذكور ، وثنا كان أو مذكرا . (فَأَوَّلَيْتُ لَهُمُ الْمَادُودَ) أى المجاوزون الحد ؛ من عدا أى جاوز الحد وجازه .

الثامنة - قوله تعالى : (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) قرأ الجمهور « لِأَمَانَاتِهِمْ » بالجمع . وابن كثير بالإفراد . والأمانة والعهد يجمع كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولا وفعل . وهذا يعم معاشرته الناس والمواجبة وغير ذلك ؛ وغاية ذلك حفظه والقيام به . والأمانة أعم من العهد ، وكل عهد فهو أمانة فها تقدم فيه قول أو فعل أو معتقد .

الثامنة - قرأ الجمهور « صَلَوَاتِهِمْ » وحزرة والكسائي « صَلَاتِهِمْ » بالإفراد ؛ وهذا الإفراد اسم جنس فهو في معنى الجميع . والمحافضة على الصلاة إقامتها والمبادأة إليها أوائل

أوقاتها ، وإتمام ركوعها وسجودها . وقد تقدم في « البقرة » مستوفى . ثم قال : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ أى من عيل . بما ذكر في هذه الآيات فهم الوارثون ، أى يرثون منازل أهل النار من الجنة . وفى الخبر عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى جعل لكل إنسان نسكاً فى الجنة ومسكناً فى النار فاما المؤمنون فيأخذون منازلهم ويرثون منازل الكفار ويحصل الكفار فى منازلهم فى النار » . نخرجه ابن ماجه بمعناه . عن أبى هريرة أيضاً قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحد إلا وله منزلان منزل فى الجنة ومنزل فى النار فإذا مات فدخل النار وراثت أهل الجنة منزله فذلك قوله تعالى : « أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ » . إسناده صحيح . ويحتمل أن يسمى الحصول على الجنة وراثة من حيث حصولها دون غيرها ، فهو اسم مستعار على وجهين . والفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها . نخرجه الترمذى من حديث الربيع بنت النضر أم حارثة ، وقال : حديث حسن صحيح . وفى حديث مسلم : « فإذا سألت الله فسلوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ومنه تنبع أنهار الجنة » . قال أبو حاتم محمد بن حبان : قوله صلى الله عليه وسلم : « فإنه أوسط الجنة » يريد أن الفردوس فى وسط الجنان فى العرض وهو أعلى الجنة ، يريد فى الارتفاع . وهذا كله يصح قول أبى هريرة : إن الفردوس جبل الجنة التى تنبع منها أنهار الجنة . واللفظة فيما قال مجاهد : رومية عربت . وقيل : هى فارسية عربت . وقيل حبشية ، وإن ثبت ذلك فهو وثاق بين اللغات . وقال الضحاك : هو عربى وهو الكرم ، والعرب تقول للكرم فراديس . ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ فانت على معنى الجنة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلْطَانٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٥﴾ هُمُ جَعَلْنَاهُ نَفْثَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٦﴾ هُمُ خَلَقْنَا النُّفُثَةَ عِلْقَةً خَلَقْنَا الْعِلْقَةَ مُمْضِغَةً خَلَقْنَا الْمُمْضِغَةَ عِظْماً فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا هُمُ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَنَّاكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ ﴿١٧﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ) الإنسان هنا آدم عليه الصلاة والسلام ؛
قوله قتادة وغيره ، لأنه أَسْتَلَّ من الطين ، ويعني الضمير في قوله : « ثم جعلناه » عائدا على
ابن آدم ، وإن كان لم يذكر لشبهة الأمر ؛ فإن المعنى لا يصلح إلا له . نظير ذلك « حتى
توارت بالبحاب^(١) » . وقيل : المراد بالسلالة ابن آدم ؛ قاله ابن عباس وغيره . والسلالة هل
هذا صفوة الماء ، يعني المني . والسلالة فُعالة من السَّل وهو استخراج الشيء من الشيء ؛
يقال : سللت الشعر من العجين ، والسيف من التمد فأُسل ؛ ومنه قوله .

« فَسَلَّ ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكَ تَفْسِلُ^(٢) » .

فالنطفة سلالة ، والولد سليل وسلالة ؛ عني به الماء يُسَل من الظهر سَلًا ، قال الشاعر :
بلغات به عَصَبُ الأديم غَضَّتْ قَرًا • سلالة قَرَج كان غير حَصِين^(٣)

وقال آخر :

وما هُتد إلا مُهَرَّةً عَرَبِيَّةً • سِلِيلَةٌ أَفْرَاسٌ تَجَلَّاهَا بَقْلٌ^(٤)

وقوله « من طين » أي أن الأصل آدم وهو من طين .

قلت : أي من طين خالص ؛ فأما ولده فهو من طين ومني ؛ حسبما بيناه في أول سورة
الأنعام . وقال الكلبي : السلالة الطين إذا عصرته أنسل من بين أصابعك ؛ فالذي يخرج
هو السلالة .

الثانية — قوله تعالى : (نُطْفَةٍ) قد مضى القول في النطفة والمعلقة والمضغة وما في ذلك
من الأحكام في أول الحج ، والحمد لله جل ذلك .

الثالثة — قوله تعالى : (ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ) أختلف الناس في الخلق الآخر ؛
فقال ابن عباس والشَّعْبِيُّ وأبو العالية والضحاك وابن زيد : هو نفخ الروح فيه بعد أن كان

(١) آية ٣٢ سورة ص . (٢) هذا مجزئ من معلقة امرئ القيس . ومصدره ؛

• وإن تلك لغة ساء لك من خليفة •

(٣) البيت لحسان بن ثابت . (٤) نسب صاحب لسان العرب هذا البيت عند بيت النعمان (مادة سأل) .
وتجملها : علاها . وقوله « بقل » قال ابن ربي : وذكر بعضهم أنها تصحيف ؛ وأن صوابه « نفل » بالنون وهو الخسيس
من الناس والدراب ؛ لأن البقل لا ينسل . (٥) راجع ص ٦ ص ٢٨٧ (٦) راجع ص ٦ من هذا الجزء .

بجاءه ، وعن ابن عباس : نروجه إلى الدنيا . وقال قتادة عن فرقة : نبات شعره ، الضحاك :
نخرج الأسنان ونبت الشعر . مجاهد : كمال شبابه ؛ وروى عن ابن عمر . والصحيح أنه
عام في هذا وفي غيره من النطق والإدراك وحسن المحاولة وتحصيل المعقولات إلى أن يموت .

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ قَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (١) يروى أن عمر بن الخطاب
لما سمع صدر الآية إلى قوله « خلفا آخر » قال قَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ؛ فقال رسول الله
صل الله عليه وسلم : « هكذا أنزلت » . وفي مسند الطيالسي : ونزلت « ولقد خلقنا الإنسان
من سُلالة من طين » الآية ؛ فلما نزلت قلت أنا : تبارك الله أحسن الخالقين ؛ فنزلت
« تبارك الله أحسن الخالقين » . ويرى أن قائل ذلك معاذ بن جبل . وروى أن قائل
ذلك عبد الله بن أبي سرح ؛ وبهذا السبب ارتد وقال : آتى بمثل ما يأتي عهد ؛ وفيه نزل
« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ
مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ » هل ما تقدم بيانه في « الأنعام » . وقوله تعالى « تبارك » فاعلم من البركة .
﴿ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ اتفق الصائمين . يقال لمن صنع شيئا خلقه ؛ ومنه قول الشاعر :

ولأنت تفكرى ما خلقت ويد • معش القوم يخلق ثم لا يفكرى^(٢)

وفذهب بعض الناس إلى نفي هذه اللفظة عن الناس وإنما يضاف الخلق إلى الله تعالى .
وقال ابن جرير : إنما قال « أحسن الخالقين » لأنه تعالى قد أذن ليعصى عليه السلام
أن يخلق ؛ واضطرب بعضهم في ذلك . ولا تنفى اللفظة عن البشر في معنى الصنع ؛ وإنما
هي مشبهة بمعنى الاختراع والإيجاد من العدم .

مسئلة^(٣) - من هذه الآية قال ابن عباس لعمر حين سأل مشيخة الصحابة عن ليلة القدر
فقالوا : الله أعلم ؛ فقال عمر : ما تقول يا ابن عباس ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن الله تعالى
خلق السموات سبعا والأرضين سبعا ؛ وخلق ابن آدم من سبع وجعل رزقه في سبع ؛ فأراها

(١) راجع ٧ ص ٣٩ (٢) البيت لزهير بن أبي سلمى يمدح هرم بن سنان . والقرى : القطع .

(٣) ذكر المؤلف أن المسائل خمس ؛ ولم يذكر إلا أربعاً ؛ ولعل هذه المسألة هي الخامسة .

في ليلة سبع وعشرين . فقال عمر رضي الله عنه : اعجزكم أن تأنوا بمثل ما أتى هذا السلام الذي لم تجتمع شئون رأسه . وهذا الحديث بطوله في مسند ابن أبي شيبة . فأراد ابن عباس « خلق ابن آدم من سبع » بهذه الآية ^(١) ، ويقول « وجعل رزقه في سبع » قوله « فأسبنا فيها حباً . وعنباً وقضباً . وزيتوناً ونخلًا . وحدائق ثلثاً . وفاكهة وأباً » الآية . السبع منها لابن آدم ، والأب للأنعام . والقضب يأكله ابن آدم ويسمن منه النساء ؛ لهذا قول . وقيل : القضب البقول لأنها تقضب ؛ فهي رزق ابن آدم . وقيل : القضب والأب للأنعام ، والست الباقية لابن آدم ، والسابعة هي للأنعام ؛ إذ هي من أعظم رزق ابن آدم .

قوله تعالى : **ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ** ﴿١٦﴾ **ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ** ﴿١٧﴾

قوله تعالى : (ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ) أي بعد الخلق والحياة . النحاس : ويقال في هذا المعنى لما يموتون . ثم أخبر بالبعث بعد الموت فقال : (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ) .

قوله تعالى : **وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ** ﴿١٧﴾

قوله تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ) قال أبو عبيدة : أي سبع سموات . وحكي عنه أنه يقال : طارت الشيء ، أي جعلت بعضه فوق بعض ؛ فيقال للسموات طرائق لأن بعضها فوق بعض . والعرب تسمى كل شيء فوق شيء طريفة . وقيل : لأنها طرائق الملائكة . (وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ) قال بعض العلماء : أي من خلق السماء . وقال أكثر المفسرين : أي عن الخلق كلهم من أن تسقط عليهم قهلكهم .

قلت : ويحتمل أن يكون المعنى « وما كنا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ » أي في القيام بمصالحه وحفظه وهو معنى الحق التقيوم ؛ على ما تقدم ^(٢) .

(١) في الدر المنثور : « اجترمت أن تقولوا كما قال هذا السلام » . (٢) كنا في الأسفل ، وسواء الكلام يقتضي أن تكون البارة هكذا ؛ فأراد ابن عباس بقوله « خلق ابن آدم من سبع هذه الآية ... » الخ . (٣) آية ٢٧ وما بعدها سورة ميس . (٤) راجع ج ٣ ص ٢٧١

قوله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ
وَلَنَا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ » (١)

فيه أربع مسائل :

الأولى - هذه الآية من نعم الله تعالى على خلقه ومما أمتن به عليهم ؛ ومن أعظم المنن
الماء الذي هو حياة الأبدان ونماء الحيوان . والماء المنزل من السماء على قسمين : هذا
الذي ذكر الله سبحانه وتعالى وأخبر بأنه استودعه في الأرض ، وجعله فيها مختزناً لسقي الناس
يحدونه عند الحاجة إليه ؛ وهو ماء الأنهار والبحون وما يستخرج من الآبار . وروى عن
ابن عباس وغيره أنه إنما أراد الأنهار الأربعة : سبجان وجبجان ونيل مصر والفرات .
وقال مجاهد : ليس في الأرض ماء إلا وهو من السماء . وهذا ليس على إطلاقه ، وإلا
فالأجاج ثابت في الأرض ، فيمكن أن يقيد قوله بالماء العذب ، ولا محالة أن الله تعالى قد
جعل في الأرض ماء وأنزل من السماء ماء . وقد قيل : إن قوله « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً »
إشارة إلى الماء العذب ، وأن أصله من البحر ، رفعه الله تعالى بلطفه وحسن تقديره من
البحر إلى السماء ، حتى طاب بذلك الرفع والتصعيد ؛ ثم أنزله إلى الأرض ليُنفع به ، ولو كان
الامر إلى ماء البحر لما انتفع به من ملوحته .

الثانية - قوله تعالى : « يَقْدَرُ » أي على مقدار مصلح ، لأنه لو كثر أهلك ؛ ومنه
قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ » . (٢) « وَلَنَا عَلَى
ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ » يعني الماء المختزن . وهذا تهديد ووعيد ؛ أي في قدرتنا إذهابه
وتدويره ، ويهلك الناس بالملح وتهلك مواشيهم ؛ وهذا كقوله تعالى : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ
أَصْبَحَ مَاءُكُمْ غَوْرًا - أَى غَاثًا - فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ » . (٣)

الثالثة - ذكر النحاس : قرئ على أبي يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن يونس عن
جامع بن سودة قال : حدثنا سعيد بن سابق قال حدثنا مسلمة بن علي عن مقاتل بن حيان

(١) آية ٢١ سورة الحجر . (٢) آية ٣٠ سورة الملك .

عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أنزل الله عز وجل من الجنة إلى الأرض خمسة أنهار سيجون وهو نهر الهند وجيحون وهو نهر بلخ ودجلة والفرات وهما نهر العراق والنيل وهو نهر مصر أنزلها الله تعالى من عين واحدة من عيون الجنة في أسفل درجة من درجاتها على جناح جبريل عليه السلام فاستودعها الجبال وأجرأها في الأرض وجعل فيها منافع للناس في أصناف معانيهم وذلك قوله جل ثناؤه : « وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكاه في الأرض » فإذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج أرسل الله عز وجل جبريل فرفع من الأرض القرآن والعلم وجميع الأنهار الخمسة فرفع ذلك إلى السماء فذلك قوله تعالى : « وإنا على ذهاب به لفادرون » فإذا رفعت هذه الأشياء من الأرض فقد أهلها خير الدين والدنيا .

الرابعة - كل ما نزل من السماء مختزنا كان أو غير مختزن فهو طاهر مطهر يشتمل به ويتوضأ منه ؛ على ما يأتي في « الفرقان » بيانه .

قوله تعالى : فَأَنْزَلْنَا لَكُمْ فِيهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهِ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٨﴾

فيه مسائل ثلث :

الأولى - قوله تعالى : (فَأَنْزَلْنَا) أى جعلنا ذلك سبب الثبات ، وأوجدناه به وحلقناه . وذكرنا إلى النخيل والأعناب لأنها ثمرة الجواز بالطائف والمدينة وغيرها ؛ فإله الطهري . ولأنها أيضا أشرف الثمار ؛ فذكرها تشريفا لما وتنبت عليها . (لَكُمْ فِيهَا) أى في الجنات . (فَوَاكِهِ) من غير الرطب والعنب . ويحتمل أن يعود على النخيل والأعناب خاصة إذ فيها مراتب وأنواع ؛ والأول أهم لسائر الثمرات .

الثانية - من حلف ألا يأكل فاكهة ؛ ففى الرواية عندنا يبحث بالباقيلاء الخضراء وما أشبهها . وقال أبو حنيفة : لا يبحث بأكل القثاء والخيار والجزر ؛ لأنها من البقول لا من الفاكهة . وكذلك الجوز واللوز والفسق ؛ لأن هذه الأشياء لا تؤخذ من الفاكهة .

(١) فى قوله تعالى : « وهو الذى أرسل بَشْرًا يَدْعُو دَعْوَةَ ... » آية ٨

وإن أكل تفاحا أو خوخا أو مشمشا أو رينا أو إجاصا يحنت . وكذلك البطيخ ؛ لأن هذه الأشياء كلها تؤكل على جهة النفسك قبل الطعام وبعده ؛ فكانت فاكهة . وكذلك بابس هذه الأشياء إلا البطيخ اليابس لأن ذلك لا يؤكل إلا في بعض البلدان . ولا يحنت باكل البطيخ الهندي لأنه لا يعد من الفواكه . وإن أكل عنباً أو رماناً أو رطباً لا يحنت . وخالفه صاحباه فقالا يحنت ؛ لأن هذه الأشياء من أعز الفواكه ، وتؤكل على وجه التنعم . والإفراد لها بالذكر في كتاب الله عز وجل لكمال معانيها ؛ كتخصيص جبريل وميكائيل من الملائكة . واحتج أبو حنيفة بأن قال : عطف هذه الأشياء على الفاكهة مرة فقال « فيها فاكهة ونخل ورمان » ومرة عطف الفاكهة على هذه الأشياء فقال : « وفاكهة وأب » والمعطوف غير المعطوف عليه ، ولا يليق بالحكمة ذكر الشيء الواحد بلفظين مختلفين في موضع المنة . والعنب والزمان يكفى بهما في بعض البلدان فلا يكون فاكهة ؛ ولأن ما كانت فاكهة لا فرق بين رطبه وباسه ، وبابس هذه الأشياء لا يعد فاكهة فكذلك رطبها .

قوله تعالى : وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدِّهْنِ وَصِيبِغٍ

لِلْأَكْلِيلِ ﴿٢٧﴾

فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَشَجَرَةً) شجرة عطف على جنات ، وأجاز الفراء الرفع لأنه لم يظهر الفعل ، بمنزلة وثم شجرة ؛ ويريد بها شجرة الزيتون . وأفردها بالذكر لعظيم منافعتها في أرض الشام والجزاز وغيرها من البلاد ، وقلة تعاهدها بالسقي والحفر وغير ذلك من المداواة في سائر الأشجار . (تَخْرُجُ) في موضع الصفة . (مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ) أي أنبتنا الله في الأصل من هذا الجبل الذي بارك الله فيه . وطور سينا من أرض الشام وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام ؛ قاله ابن عباس وغيره ، وقد تقدم في البقرة والأعراف . والطور الجبل في كلام العرب . وقيل : هو مما عرّب من كلام المعجم . وقال ابن زيد : هو جبل

بيت المقدس ممدود من مصر إلى أيلة^(١) . واختلف في سيناء ؛ فقال قتادة : معناه الحسن ؛ ويلزم على هذا التأويل أن يتَّوَّن الطور على النبت . وقال مجاهد : معناه مبارك . وقال معمر عن فرقة : معناه شجر ؛ ويلزمهم أن يتَّوَّنوا الطور . وقال الجمهور : هو اسم الجبل ؛ كما تقول جبل أحد . وعن مجاهد أيضا : سيناء شجر بعينه أضيف الجبل إليه لوجوده عنده . وقال مقاتل : كل جبل يحمل الثمار فهو سيناء ؛ أى حسن . وقرأ الكوفيون بفتح السين على وزن فعلاء ، وفعلاء في كلام العرب كثير ؛ يمنع من الصرف في المعرفة والنكرة ؛ لأن في آخرها ألف التانيث ، وألف التانيث ملازمة لما هي فيه ، وليس في الكلام فعلاء ، ولكن من قرأ سيناء بكسر السين جعله فعلاء ؛ فالهمزة فيه كهزة حرياء ، ولم يصرف في هذه الآية لأنه جعل اسم بقعة . وزعم الأخفش أنه اسم أعجمي .

التانية — قوله تعالى : (تَنْتَبُهْ بِالذَّهْنِ) قرأ الجمهور « تَنْتَبْ » بفتح التاء وضم الباء ، والتقدير : تنبّه ومعها الذهن ؛ كما تقول : نرج زيد بسلاحه . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بضم التاء وكسر الباء . واختلف في التقدير على هذه القراءة ؛ فقال أبو علي الفارسي : التقدير تنبّهت جناها وسمه الذهن ؛ فالمفعول محذوف . وقيل : الباء زائدة ؛ مثل « وَلَا يُقْلِقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » وهذا مذهب أبي عبيدة . وقال الشاعر :

نضرب بالسيف ونزجو بالقسرج •

وقال آخر :

هق الحرائر لا ربّات أنمرة • سود الحاجر لا يقرآن بالسور^(٢)

ونحو هذا قاله أبو علي أيضا ؛ وقد تقدّم . وقيل : نبت وأنتبت بمعنى ؛ فيكون المعنى كما مضى في قراءة الجمهور ، وهو مذهب الفراء وأبي إسحاق ، ومنه قول زهير :

« ... حتى إذا أنتبت البقل • »

(١) أيلة : تعرف اليوم باسم « العبة » . (٢) كذا في الأصول ولسان العرب مادة « سور » بإثاء المهجمة ، وأوردته صاحب تراجم الأدب بإثاء المهجمة ، قال : « والأنمرة جمع حمار (بالحاء المبهمة) جمع قلة ، وعص الجبل لأنها رذال الحال وشرة ... » وقال صاحب اللسان في هذه الكلمة بإثاء المهجمة ، وقال والأنمرة جمع حمار ، وهو ما تستدركه امرأة رأسها • (راجع الشاهد الخامس بعد السبحة من الخزانة)

والأصمعي ينكر أنبت، ويتم قصيدة زهير التي فيها :

رأيت دوى الحجابات حول بيوتهم - قطيئا بها حتى إذا أنبت البقل

أى أنبت . وقرأ الزهرى والحسن والأعرج « تُنبت بالدهن » برفع التاء ونصب الباء . قال ابن جني والزجاج : هى باء الحال ، أى تُنبت ومما ذهبنها . وفي قراءة ابن مسعود : « تخرج بالدهن » وهى باء الحال . ابن درستويه : الدهن الماء اللين ، تنبت من الإنابت . وقرأ زهير بن حبيش « تُنبت - بضم التاء وكسر الباء - الدهن » بحذف الباء ونصبه . وقرأ سليمان بن عبد الملك والأشهب « بالدهان » . والمراد من الآية تعديد نعمة الزيت على الإنسان ، وهى من أركان السم التي لا غنى بالصحة عنها . ويدخل في معنى الزيتون شجر الزيت كله على اختلافه بحسب الأقطار الثالثة - قوله تعالى : ﴿ وَصَيِّغَ لِلْأَثْكَلِينَ ﴾ قراءة الجمهور . وقرأت فرقة « وأصباغ » بالجمع . وقرأ عامر بن عبد قيس « وشتاعا » ؛ ويراد به الزيت الذي يصطليح به الأكل ؛ يقال : صيغ وصباغ ، مثل ذبيح وذباغ ، وليس ولياس . وكل إدام يؤتمد به فهو صيغ ، حكاية الهروى وغيره . وأصل الصيغ ما يلون به الثوب ، وشبه الإدام به لأن الخبز يلون بالصيغ إذا غمس فيه . وقال مقاتل : الأدم الزيتون ، والدهن الزيت . وقد جعل الله تعالى في هذه الشجرة أداما ودهنا ؛ قال الصيغ على هذا الزيتون .

الرابعة - لا خلاف أن كل ما يصطليح فيه من المسائعات كالزيت والسمن والعسل وأشباه الخلق وغير ذلك من الأصراق أنه إدام . وقد نص رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخلق فقال : « نعم الإدام الخلق » رواه تسعة من الصحابة ، سبعة رجال وأمرأتان . ومن رواه في الصحيح جابر وعائشة وخارجة وعمر وابنه عبيد الله وابن عباس وأبو هريرة وسُمرة بن جندب وأنس وأم هانئ .

الخامسة - واختلف فيما كان جايذا كاللحم والتمر والزيتون وغير ذلك من الجوامد ؛ فالجمهور أن ذلك كله إدام ؛ فمن حلف ألا يأكل إداما فأكَلَ لحمًا أو جبنًا حنث . وقال أبو حنيفة : لا يحنث ؛ وخالفه أصحابه . وقد روى عن أبي يوسف مثل قول أبي حنيفة . والبقل ليس بإدام في قولهم جميعا . وعن الشافعي في التمر وجهان ؛ والمشهور أنه ليس بإدام لقوله في التنبية .

وقبل يبحث ، والصحيح أن هذا كلم إدام . وقد روى أبو داود عن يوسف بن عبد الله بن سلام قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم أخذ كسرة من خبز شعير فوضع عليها تمره فقال : "هذه إدام هذه" . وقال صلى الله عليه وسلم : "سيد إدام الدنيا والآخرة اللهم" . ذكره أبو عمر . وترجم البخاري (باب الإدام) وساق حديث عائشة ؛ ولأن الإدام مأخوذ من المؤادمة وهي الموافقة ، وهذه الأشياء توافق الخبز فكان إداما . وفي الحديث عنه عليه السلام : "استدموا ولو بالماء" . ولأى حقيقة الإدام الموافقة في الاجتماع على وجه لا يقبل الفصل ؛ كاخلل والزيت ونحوهما ، وأما اللحم والبيض وغيرهما لا يوافق الخبز بل يجاوزه كالبطيخ والتمر والنب . والحاصل : أن كل ما يحتاج في الأكل إلى موافقة الخبز كان إداما ، وكل ما لا يحتاج ويؤكل على حدة لا يكون إداما ، والله أعلم

السادسة - روى الترمذي من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كُلُوا الزَّيْتَ وَأَدْنُوا بِهِ نَافَهُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ" . هذا حديث لا يعرف إلا من حديث عبد الرزاق ، وكان يضطرب فيه ، وربما يذكر فيه عن عمر بن النضر صلى الله عليه وسلم ، وربما رواه على الشك فقال : أحسبه عن عمر بن النضر صلى الله عليه وسلم ، وربما قال : عن زيد بن أسلم عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقال مقاتل : خُصَّ الطُّورُ بالزيتون لأن أول الزيتون نبت منها ، وقيل : إن الزيتون أزل شجرة نبتت في الدنيا بعد الطوفان . والله أعلم .

قوله تعالى : وَإِنْ لَكُمُ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿١٦٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴿١٦٣﴾ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَقَالَ الْمَلَأُوا الْأَرْضَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ

اللَّهُ لَا تَزَلْ مَلَيْكَتُهُ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آيَاتِنَا الْأُولَى ﴿١٩﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ رِجَّةٌ قَلِيلٌ لَقَدْ بَصُرُوا بِهِ وَكَانَ خِيبًا ﴿٢٠﴾ قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كُذِّبْتُ ﴿٢١﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ آيَةٌ فَاسْتَبِشِرُوا بِهَا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾. وعليها وعلى الفلك يحملون ﴿تستدغم القول فيهما في «النمل» والحمد لله . وفي هود قصة السفينة ونوح، وركوب البحر في غير موضع .

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ في البحر . ﴿يُحْمَلُونَ﴾ وإنما يحمل في البر على الإبل فيجوز أن ترجع الكتابة إلى بعض الأنعام . وروى أن رجلا ركب بقرة في الزمان الأول فأطلقها الله تعالى معه فقالت : إنما لم تطلق لهذا ! وإنما حلفت للحرث . قوله تعالى : ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ قرئ بالخفض ردا على اللفظ ، وبالرفع ردا على المعنى . وقد معنى في «الأعراف» .

قوله تعالى : ﴿مَا هَذَا إِلَّا بُشْرٌ يَنْتَظِرُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي يسودكم ويشرف عليكم بأن يكون منبوعا ونحن له تبع . ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَةً﴾ أي لو شاء الله ألا يعبد شيء سواه لجعل رسوله ملكا . ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ أي بمثل دعوته . وقيل : ما سمعنا بمثلهم بشرا ؛ أي رسالة ربه . ﴿فِي آيَاتِنَا الْأُولَى﴾ أي في الأنعم الماضية ؛ قاله ابن عباس . والباء في «هذه» زائدة أي ما سمعنا هذا كائنا في آياتنا الأولى ، ثم عطف بعضهم على بعض فقالوا ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ رِجَّةٌ قَلِيلٌ﴾

(١) راجع ج ١ ص ٦٨ ٨٩ (٢) راجع ج ٩ ص ٢٠

(٣) راجع ج ٢ ص ١٩٥ طعة ثانية . (٤) راجع ج ٧ ص ٢٢٣

يعنون نوحاً ﴿إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ﴾ أى جنون لا يدري ما يقول . ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ أى انتظروا موته . وقيل : حتى يستبين جنونه . وقال الفراء : ليس يراد بالحين هاهنا وقت بعينه إنما هو كقوله : دعه إلى يوم ما . فقال حين تمادوا على كفرهم : ﴿رَبِّ أَنْصَرْنِي مِمَّا كَذَّبُونَ﴾ أى انتقم من لم يعطنى ولم يسمع رسالتى . ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ أى أرسلنا إليه رسلاً من السماء ﴿أَلْأَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ على ما تقدم بيانه .

قوله تعالى : ﴿فَأَسْلُكُ فِيهَا﴾ أى أدخل فيها واجفل فيها ؛ يقال : سلكته في كذا وأسلكته فيه إذا أدخلته . قال عبد مناف بن زَيْعِ الْمُدَلِّي :
 حتى إذا أسلكوهم في قَتَائِدٍ • شَلَاكَ تَطْرُدُ الْجَمَالُ الشُّرَدَاً^(١)

﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ قرأ حفص «من كل» بالنون ، الباقر بالإضامة ؛ وقد ذكر . وقال الحسن : لم يعمل نوح في السفينة إلا ما يبد ويبيض ، فأما البق والذباب والودود فلم يعمل شيئاً منها ، وإنما نخرج من الطين . وقد مضى القول في السفينة والكلام فيها مستوفى ، والحمد لله .

قوله تعالى : فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ

لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ﴾ أى علوت . ﴿أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ﴾ راكبين ﴿فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أى أحمداً لله على تخليصه إياكم . ﴿مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ومن الفرق . والحمد لله : كلمة كل شاكركه . وقد مضى في الناحية بيانه .

فيه تعالى : وَقُلْ رَبِّ أَرْزُقْنِي مَزَلًا مَبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمَرْزُقِينَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿وَقُلْ رَبِّ أَرْزُقْنِي مَزَلًا مَبَارَكًا﴾ قراءة العامة «مَزَلًا» بضم الميم ونصب الزاى ، على المصدر الذى هو الإنزال ؛ أى أرزقنى إنزالاً مباركاً . وقراً يز بن جُبَيْش وأبو بكر

(١) قاتمة : موضع بيه . والثلل : الفرد . والثرمد : جمع شرمد . (٢) راجع ج ٩ ص ٢٤

عن عاصم والمفضل « منزلاً » يفتح الميم وكسر الزاي على الموضوع ، أى أنزلى موضعاً مباركاً .
الجوهري : المنزَل (يفتح الميم والزاي) النزول وهو الحلول ؛ تقول : نزلت نزولاً ومنزلاً . وقال :
أَنَّ ذِكْرَكَ الدَّارَ مَنَزَلًا جَمَلٌ • بَكَيتُ فَدَمَعُ الْعَيْنِ مُتَعَدُّ جَمَلٌ

ينصب « المنزَل » لأنه مصدر . وأنزله غيره واستنزله بمعنى . ونزله تنزيلًا ، والتنزيل أيضا
الترتيب . قال ابن عباس ومجاهد : هذا حين خرج من السفينة ؛ مثل قوله تعالى : « اهْبِطْ
بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّنْ مَّكَ » . وقبل : حين دخلها ؛ فعل هذا يكون قوله
« مباركا » يعنى بالسلامة والنجاة .

قلت : وبالجمل فالآية تعليم من الله عز وجل لعباده إذا ركبوا وإذا نزلوا أن يقولوا
هذا ؛ بل وإذا دخلوا بيوتهم وسأموها قالوا . وروى عن علي رضي الله عنه أنه كان إذا دخل
المسجد قال : اللهم أنزلى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين .

قوله تعالى : إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : (إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ) أى فى أمر نوح والسفينة وإهلاك الكافرين .
(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ) أى ١٠ كما إلا مبتلين الأثم فلكم ؛ أى تخبرين لهم بإرسال الرسل إليهم
ليظهر المطيع والناصي فبينين لللائكة حالهم ؛ لا أن يستجد الرب علما . وقبل : أى ناملهم
معاملة المختبرين . وقد تقدم هذا المعنى فى « البقرة » وغيرها . وقبل : « وَإِنْ كَا »
أى وقد كا .

قوله تعالى : ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخِرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ
رُسُلًا مِّنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾

(١) يلاحظ أن « منزلاً » بالنصب مفعول ثانٍ لذكرتك . و« نازل » قائل بالصدور ، وهو المنزل .

(٢) آية ٤٨ سورة هود . (٣) راجع ج ٢ ص ١٧٣ طعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ أى من بعد هلاك قوم نوح . ﴿ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾
 قيل : هم قوم عاد . ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ يعنى هودا ؛ لأنه ما كانت أمة أنشئت
 فى إثر قوم نوح إلا عاد . وقيل : هم قوم ثمود « فأرسلنا فيهم رسولا » يعنى صالحا . قالوا :
 والدليل عليه قوله تعالى آخر الآية « فأخذتهم الصيحة » ؛ نظيرها : « وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا
 الصَّيْحَةَ » .

قلت : ومن أخذ بالصيحة أيضا أصحاب مدائن قوم شعيب ، فلا يبعد أن يكونوا هم ،
 والله أعلم . ﴿ مِنْهُمْ ﴾ أى من شعبيهم ، يعرفون مولده ومنشأه ليكون سكوتهم إلى قوله أكثر .

قوله تعالى : وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
 الْآخِرَةِ وَأُتِرْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ
 مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿١٦﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ
 لَأُنْسِكُنَّ إِذَا فُتِحُوا لَكُمْ أَنْسِكُنَّ إِذَا فُتِحُوا لَكُمْ إِذَا مِثَّمْ وَكُنْتُمْ تَرَابًا وَعِظْنَا
 أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ ﴾ أى الأشراف والقادة والرؤساء . ﴿ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا
 وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْآخِرَةِ ﴾ يريد بالبعث والحساب . ﴿ وَأُتِرْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى وسعنا
 عليهم نعم الدنيا حتى يطروا وصاروا يؤثرون بالثروة ، وهى مثل الثخفة . ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ
 مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ فلا فضل له عليكم لأنه محتاج إلى
 الطعام والشراب كاتم . وزعم الفراء أن معنى « ويشرب مما تشربون » على حذف من ،
 أى مما تشربون منه ؛ وهذا لا يجوز عند البصريين ولا يحتاج إلى حذف البتة ؛ لأن « ما »
 إذا كان مصدرا لم يمتنع إلى عائد ، فإن جماعها بمعنى الذى حذفت المفعول ولم يمتنع إلى ضمائر
 من . ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ لَأُنْسِكُنَّ إِذَا فُتِحُوا لَكُمْ أَنْسِكُنَّ إِذَا فُتِحُوا لَكُمْ إِذَا مِثَّمْ وَكُنْتُمْ تَرَابًا وَعِظْنَا
 أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ ﴾ يريد لمحبونون بترككم أهلكم وأتباعكم إياه

من غير فائدة له عليكم . « أَيْدِكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ تُحْجَوْنَ » أى مبعوثون من قبوركم . و « أُنْ » الأولى فى موضع نصب يوقع « يَدِكُمْ » عليها ، والثانية بدل منها ، وهذا مذهب سيويه . والمعنى : أَيْدِكُمْ أَنْكُمْ تُحْجَوْنَ إِذَا مِتُّمْ . قال الفراء : وفى قراءة عبد الله « أَيْدِكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ تُحْجَوْنَ » ؛ وهو كقولك : أظن إن خرجت أنك نادم . وذهب الفراء والجرى وأبو العباس المبرد إلى أن الثانية مكررة للتوكيد ، لما طال الكلام كان تكريرها حسنا . وقال الأخفش : المعنى أَيْدِكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا يحدث إنراجكم ، فـ « بَأَنَّ » الثانية فى موضع رفع بفعل مضمر ، كما تقول : اليوم القتال ، فالمنى اليوم يحدث القتال . وقال أبو إسحاق : ويجوز « أَيْدِكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ تُحْجَوْنَ » ؛ لأن معنى « أَيْدِكُمْ » أيقول أنكم .

قوله تعالى : هَيَّاتْ هَيَّاتْ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٦٦﴾

قال ابن عباس : هى كلمة للبعد ؛ كأنهم قالوا أيسد ما توعدون ؛ أى أن هذا لا يكون ما يذكر من الهت . وقال أبو عليّ : هى بمنزلة الفعل ؛ أى بَسَدَ ما تُوعَدُونَ . وقال ابن الأنبارى : ولى « هَيَّاتْ » عشر لغات : هَيَّاتْ لَكَ (بفتح التاء) وهى قراءة الجماعة . وهَيَّاتْ لَكَ (بخفض التاء) ؛ ويروى عن أبى جعفر بن القعقاع . وهَيَّاتْ لَكَ (بالتخفيف والتنوين) يروى عن عيسى بن عمر . وهَيَّاتْ لَكَ (برفع التاء) ؛ التعليل : وهى قرأ نصر بن ماضم وأبو العالية . وهَيَّاتْ لَكَ (بالرفع والتنوين) وهى قرأ أبو حيوة الشامي ؛ ذكره التعليل أيضا . وهَيَّاتْ لَكَ (بالنصب والتنوين) قال الأخوص :

تَذَكَّرْتُ أَيَّامًا مَضِيَّةً مِنَ الصَّبَا • وهَيَّاتْ هَيَّاتَا إِلَهُ • وهى

واللغة السابقة : أَيَّاتْ أَيَّاتْ ؛ وَأَنْشَدَ الْفَرَزْدَقُ :

فَأَيَّاتِ الْعَقِيقِ وَمَنْ بِهِ • وَأَيَّاتِ خَلِّ الْعَقِيقِ نَوَاصِلُ

قال المهدوى : وقرأ عيسى الحمَدَانِ « هَيَّاتْ هَيَّاتْ » بالإسكان . قال ابن الأنبارى . ومن العرب من يقول « أَيَّان » بالنون ، ومنهم من يقول « أَيَّا » بلا نون . وَأَنْشَدَ الْفَرَزْدَقُ :

ومن دُونِ الْأَعْيَانِ وَالْفَنَجِ كُلِّهِ • وَكَفَّانُ أَيُّهَا مَا أَشْتَ وَأَبْسَدَا

فهذه عشر لغات . فن قال « هيات » بفتح الهمزة جملته مثل أين وكيف . وقيل : لأنهما
أداتان مركبتان مثل خمسة عشر وملتك ورام هُرمز ، وتقف على الثاني بالهاء ؛ كما تقول :
خمس عشره وسبع عشره . وقال الفراء : نصبها كنصب ثُمْتُ ورُبْتُ ، ويجوز أن يكون الفتح
إتباعا للألف والفتحة التي قبلها . ومن كسره جملته مثل أميس ومولاء . قال :

• وهيات هيات إليك رجوعها •

قال الكسائي : ومن كسر الهمزة وقف عليها بالهاء ؛ فيقول هياه . ومن نصبها وقف بالهاء
وإن شاء بالهاء . ومن ضمها فعل مثل منذ وقط وحيث . ومن قرأ « هيات » بالتنوين فهو
جمع ذهب به إلى التنكير ؛ كأنه قال بَسَدَا بَسَدَا . وقيل : خُفِضَ وَتَوَّنَ تشبيها بالأصوات
بقولهم : غاي وطاي . وقال الأخفش : يجوز في « هيات » أن تكون جملة فتكون الهمزة
التي فيها تاء الجمع التي للتأنيث . ومن قرأ « هيات » جاز أن يكون أخلصها أسما ممر بها فيه
معنى البعد ، ولم يجعله اسما للفعل فيبليه . وقيل : شبه الهمزة بتاء الجمع ، كقوله تعالى : « فإِذَا
أَفْضَمُّ مِنْ هَرَفَاتٍ » . قال الفراء : وكأنني استعجب الوقف على الهمزة ؛ لأن من العرب من
يخفض الهمزة على كل حال ؛ فكانها مثل عرفات وملكوت وما أشبه ذلك . وكان مجاهد
وعيسى بن عمز وأبو عمرو بن العلاء والكسائي وابن كثير يفتون عليها « هياه » بالهاء . وقد
روى عن أبي عمرو أيضا أنه كان يقف على « هيات » بالهمزة ، وطبع ببقية الفراء لأنها حرف .
قال ابن الأنباري . من جعلها حرفا واحدا لا يفرده أحدهما من الآخر ، وقف على الثاني
بالهاء ولم يقف على الأول ؛ فيقول : هيات هياه ؛ كما يقول خمس عشره ، على ما تقدم .
ومن نوى إفراد أحدهما من الآخر وقف فيهما جميعا بالهاء والهمزة ؛ لأن أصل الهمزة تاء .

قوله تعالى : إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ

بِعَبْثٍ

(١) الأعيان والفتح وكفان ؛ كلها مواضع . وفي بعض الأصول بدل « الأعيان » الأعيان . وكذا في اللسان
أداة أيه . وفي مادة هيه « الإعراض » والكل مواضع .

قوله تعالى : ﴿ إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾ « هي » كناية عن الدنيا ؛ أى ما الحياة إلا ما نحن فيه لا الحياة الآخرة التى تمدنا بعد البعث . (« نموت ونحيا ») يقال : كيف قالوا نموت ونحيا وهم لا يفترقون بالبعث ؟ ففى هذا أجوبة ؛ منها أن يكون المعنى : نكون مواتا ، أى نطفأ ثم نحيا فى الدنيا . وقيل : فيه تقديم وتأخير ؛ أى إن هى إلا حياتنا الدنيا نحيا فيها ونموت ؛ كما قال : « واسجدى واركنى » . وقيل : « نموت » يعنى الآباء ، « ونحيا » يعنى الأولاد . ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُتَوَيِّعِينَ ﴾ بعد الموت .

قوله تعالى : ﴿ إِن هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿١١﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَدِيمِينَ ﴿١٢﴾ فَآخَذْنَاهُمُ الصَّبِيحَةَ بِالْحَقِّ جَعَلْنَاهُمْ غُنَاءً فَبَعْدَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ إِن هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ﴾ يمتون الرسول . ﴿ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى ﴾ أى اختلق . ﴿ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿١١﴾ تقدم . ﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ ﴾ أى عن قليل ، و « ما » زائدة مؤكدة . ﴿ لَيُصْبِحُنَّ نَدِيمِينَ ﴾ على كفرهم ، واللام لام القسم ؛ أى والله ليصبحن . ﴿ فَآخَذْنَاهُمُ الصَّبِيحَةَ ﴾ فى التفاسير : صاح بهم جبريل عليه السلام صيحة واحدة مع الريح التى أهلكهم الله تعالى بها فأتوا عن آخرهم . ﴿ جَعَلْنَاهُمْ غُنَاءً ﴾ أى هلكى هامدين كفتاه السيل ، وهو ما يحمله من بالى الشجر من الحشيش والقصب مما يؤس وتفتت . ﴿ فَبَعْدَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أى هلاكاً لهم . وقيل بدءاً لهم من رحمة الله ؛ وهو منصوب على المصدر . وثله سقياً له ورعياً .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخِرِينَ ﴾ ﴿١٤﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَفْخِرُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا نُوحًا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولًا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدَ الْقَوْمِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ أى من بعد هلاك هؤلاء . ﴿ قُرُونًا ﴾ أى أجيالاً .
 (آخرين) قال ابن عباس : يريد بنى إسرائيل ؛ وفى الكلام حذف : فكذبوا أنبياءهم
 فاهلكناهم . ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَهْلَهَا ﴾ « من » صلبة ؛ أى ما تسبق أمة الوقت المؤقت لها
 ولا تتأخره ؛ مثل قوله تعالى : « فإذا جاء آجالهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » . ومعنى
 ﴿ تَتَرَى ﴾ لتواتر ؛ ويتبع بعضهم بعضاً ترفيها وترهيباً . قال الأصمعي : وارت كنى عليه أنبعت
 بعضها بعضاً ؛ إلا أن بين كل واحد منها وبين الآخر مهلة . وقال غيره : المواتة التاج بغير
 مهلة . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « تَتَرَى » بالتنوين على أنه مصدر أدخل فيه التنوين على
 فتح الراء ؛ كقولك : جَمَدًا وشكراً ؛ فالوقف على هذا على الألف المقصورة من التنوين .
 ويجوز أن يكون ملحقاً بجعفر ؛ فيكون مثل أرطى وعلق ؛ كما قال :
 ﴿ يَسْتَقِ فِي بِلَاقِي وَفِي مَكُورٍ »

إذا وقف على هذا الوجه جازت الإمالة ، على أن ينوى الوقف على الألف الملتحقة . وقرأ
 ورش بين اللفظتين ؛ مثل سكرى وفضي ؛ وهو اسم جمع ؛ مثل شقى وأسرى . وأصله
 وتَرَى من المواتة والتواتر ؛ فقلبت الواو تاء ؛ مثل التقوى والتكلمان ونجها ونحوها . وقيل :
 هو الوتر وهو الفرد ؛ فالملغى أرسلناهم فرداً فرداً . النحاس : وعلى هذا يجوز « تَتَرَا » بكسر
 التاء الأولى ، وموضعها نصب على المصدر ؛ لأن معنى « ثم أرسلنا » وأترنا . ويجوز أن
 يكون في موضع الحال أى متواترين . ﴿ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا ﴾ أى بالهلاك . (وجعلناهم
 أحاديث) جمع أحادithe وهى ما يتعالت به ؛ كأعاجيب جمع أعجوبة ؛ وهى ما يتعجب منه .
 قال الأخفش : إنما يقال هذا فى الشر « جعلناهم أحاديث » ولا يقال فى الخير ؛ كما يقال :
 صا فلان حديثاً . مرة ومثلاً ؛ كما قال فى آية أخرى : « فجعلناهم أحاديث ومرزقاهم كلَّ
 مُرْسَرٍ » .

قلت : وقد يقال فلان حديث حسن ، إذا كان مقيداً بذلك ؛ ومنه قول ابن دُرَيْد :

وإنما المرء حديث حسنه . فكن حديثاً حسناً لمن و...

قوله تعالى : ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٥﴾
إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿١٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ
لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِبَدُونَ ﴿١٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنْ
الْمُهْلَكِينَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : (ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) تقدم . ومعنى
(عَالِينَ) متكبرين قاهرين لغيرهم بالظلم ؛ كما قال تعالى : « إن فرعون علا في الأرض »^(١)
(فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا) الآية ، تقدم أيضا ، ومعنى (مِنَ الْمُهْلَكِينَ) أي بالغرق في البحر .

قوله تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ) بنى التوراة ؛ وخص موسى بالذكور لأن
التوراة أنزلت عليه في الطور ، وهارون خليفة في قومه . ولو قال « ولقد آتيناهما » جاز ؛
كما قال : « ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان » :

قوله تعالى : وَجَعَلْنَا آيَنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ
ذَاتِ قُرَارٍ وَتَعِينٍ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : (وَجَعَلْنَا آيَنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً) تقدم في « الأنبياء » القول فيه :
(وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قُرَارٍ وَتَعِينٍ) الربوة المكان المرتفع من الأرض ؛ وقد تقدم
في « البقرة » . والمراد بها هاهنا في قول أبي هريرة فلسطين . وعنه أيضا الرملة^(٢) ؛ وروى
عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقال طبري عباس وابن المسيب وابن سلام : دمشق . وقال كعب
وقنادة : بيت المقدس . قال كعب : وهي أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلا . قال :
لكنكنت هيمدا تحت رَمْسِ رَبْوَةٍ « تعاوروني ريح جنوب وشمال »

(١) راجع ج ٩ ص ٩٣ (٢) آية ٤ سورة القصص (٣) آية ٨ سورة الأنبياء .

(٤) راجع ج ١١ ص ٢٣٧ (٥) راجع ج ٣ ص ٢١٥

(٦) الرملة : مدينة عتيبة بفلسطين وكانت نصيبها قد خربت الآن ، وكانت رباطا للسلين .

وقال ابن زيد : مصر . وروى سالم الألفطس عن سعيد بن جبير « وآياهما إلى روبة »
قال : البشر من الأرض . (ذَاتِ قَرَارٍ) أى مستوية يُستقر عليها . وقيل : ذات ثمار ،
ولأجل الثمار يستقر فيها الساكنون . (وَمَعِينٍ) ماء جارٍ طاهر للميون . يقال : مَعِينٌ
ومُعْنٌ ، كما يقال : رغيف ورُغْفٌ ، قاله علي بن سليمان . وقال الزجاج : هو الماء الجاري
في الميون ، فالهم على هذا زائدة كزيادتها في مبيع ، وكذلك الميم زائدة في قول من قال إنه
الماء الذي يرى بالعين . وقيل : إنه فعل بمعنى مفعول . قال علي بن سليمان : يقال مَعْنُ
الماء إذا جرى فهو مَعِينٌ ومَعِيُونٌ . ابن الأعرابي : معنى الماء مَعْنٌ مَعُوناً إذا جرى
وسهل ، وأمعن أيضاً وأمعته ، ومياه مَعْنان

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي
بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾
فيه ثلاث مسائل :

الأولى — روى الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين
فقال « يا أيها الرسل كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » وقال تعالى
« يا أيها الذين آمنوا كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا كَانَ ثَمَرُهَا مِنْكُمْ » — ثم ذكر — الرجل يَطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثُ
أَفْجَرُ يَمْدُ يَدِيهِ إِلَى السَّمَاءِ يَأْرِبُ يَأْرِبُ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَقَدْرُ بِالْحَرَامِ
إِنِّي يَسْتَجَابُ لِدَعَاكَ » .

الثانية — قال بعض العلماء : والخطاب في هذه الآية للأنبياء صلى الله عليه وسلم ،
وأنه إقامة مقام الرسل ، كما قال : « الذين قال لهم الناس » يعني نبيهم بن مسعود . وقال
(١) هذه الآية من كلام الرأى ، والضمير في التي صلى الله عليه وسلم . (٢) الرجل ، بالهمزة مبتدأ ،
بالكسر على وجه الحكاية من لفظ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويجوز أن ينبغى على أنه يقول « ذكر » .
(٣) راجع ج ٤ ص ٢٧٩

الزجاج : هذه مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم ، ودل الجمع على أن الرسل كلهم كذا أمروا ؛ أي كانوا من الخلال . وقال الطبري : الخطاب لميسى عليه السلام ؛ روى أنه كان يأكل من غزل أمه . والمشهور عنه أنه كان يأكل من بقل البرية . ووجه خطابه لميسى ما ذكرناه من تقديره لحمد صلى الله عليه وسلم تشريفاً له . وقيل : إن هذه المقالة خطوبت بها كل نبي ؛ لأن هذه طريقهم التي ينبي لهم الكون عليها . فيكون المعنى : قلنا يا أيها الرسل كلوا من الطيبات ؛ كما نقول لتاجر : يا تاجر ينبغي أن تجتنبوا الربا ؛ فانت مخاطبه بالمعنى . وقد اقرن بذلك أن هذه المقالة تصاح لجميع صفته ، فلم يخاطبوا قط مجتمعين فسلوات الله عليهم أجمعين ، وإنما خطوب كل واحد في عصره . قال الفيزاء : هو كما تقول للرجل الواحد : كُفُوا عَنَّا إِذَا كُمْ .

الثالثة : سوى الله تعالى بين النبيين والمؤمنين في الخطاب بوجوب أكل الحلال وتجنب الحرام ، ثم شمل الكل في الوعيد الذي تضمنه قوله تعالى : « إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » صلى الله عليه وسله وأتباعه . وإذا كان هذا معهم فما ظن كل الناس بأنفسهم . وقد مضى القول في الطيبات والرزق في غير موضع ، والحمد لله . وفي قوله عليه السلام « يمد يديه » دليل على مشروعية مَدِّ اليدين عند الدعاء إلى السماء ؛ وقد مضى الخلاف في هذا والكلام فيه والحمد لله . وقوله عليه السلام « فإني يستجاب لذلك » على جهة الاستبعاد ؛ أي أنه ليس أملاً لإجابة دعائه لكن يجوز أن يستجيب الله له تفضلاً ولطفاً وكرماً .

قوله تعالى : وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ أُمَّتُكَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٢٦﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلٌّ حِزْبٌ مِمَّا لَدَيْهِمْ فَوَجَّهْنَا ﴿٢٧﴾ فِئَتَهُمْ فِي عَصَرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ ﴿٢٨﴾

(١) راجع ج ١ ص ١٧٧ طبع ثانية أرناؤفة ، جزء ٧ ص ١٩٨ طبع أول أرناؤفة .

(٢) راجع ج ٧ ص ٢٢٣

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ قَدْ أَنتُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ المني : هذا الذي تقدم ذكره هو دينكم ودينكم فالترجمه . والأمة هنا الدين ، وقد تقدم محامله ، وبعده قوله تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ﴾ أي على دين . وقال النابغة :

حلفتُ فلم أترك لنفسك ربيّة ٠ وهبل يا مَن ذواقية وهو طابع

الثانية - قرئ « وإن هذه » بكسر « إن » على القطع ، وفتحها وتشديد النون . قال الخليل : هي في موضع نصب محط لزال الخلاف ؛ أي أنا عالم بأن هذا دينكم الذي أمرتكم أن تؤمنوا به . وقال الفراء : « إن » متعلقة بفعل مضمر تقديره : واسلموا إن هذه أمتكم . وهي عند سيويه متعلقة بقوله « فأتقون » ، والتقدير فأتقون لأن أمتكم واحدة . وهذه آكفوه تعالى : « وإن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا » أي لأن المساجد لله فلا تدعوا معه غيره . وكقوله : « لإيلاف قريش » أي فليعبدوا رب هذا البيت لإيلاف قريش . الثالثة - وهذه الآية تقوى أن قوله تعالى : « يا أيها الرسل » إنما هو مخاطبة بلبيهم ، وأنه بتقدير حضورهم . وإذا قدرت « يا أيها الرسل » مخاطبة لمحمد صلى الله عليه وسلم فلق اتصال هذه الآية واتصال قوله « فتقطعوا » . أما أن قوله « وأنا ربكم فأتقون » وإن كان قيل لالإنبياء فأمهم داخلون فيه بالمضي ، فيحسن بعد ذلك اتصال « فتقطعوا » أي اتقوا ، يعني الأمم ، أي جعلوا دينهم أديانا بعد ما أمروا بالاجتماع . ثم ذكر تعالى أن كلا منهم معجب برأيه وضلاله وهذا غاية الضلال .

الرابعة - هذه الآية تنظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم : « لا إله إلا أنا » من قبله من أهل الكتاب اتفقوا على ثنتين وسبعين ملة وإن هذه الأمة ستفتق على ثلاث وسبعين فتان . وسبعون في النار واحدة في الجنة وهي الجماعة . الحديث . ترجمه أبو داود ، ورواه

(١) راجع ج ٢ ص ١٢٧ طبة ثانية ج ٢ ص ٢٠ طبة أولى آتانية . (٢) آية ٢٢ وما بعدها سورة الزمر . (٣) آية ١٨ سورة الجن . (٤) كذا في نسخ الأصل . والمضي المراد راجع ، وهو أن هذا التقدير يفتق والاتصال بين الاثنين .

الزبدي وزاد : قالوا ومن هي يا رسول الله ؟ قال : « ما أنا عليه وأصحابي » ترجمه من حديث عبد الله بن عمرو . وهذا يبين أن الاتفاق المحذره من الآيه والحديث إنما هو في أصول الدين وقواعده ، لأنه قد أطلق عليها ملأ ، وأخبر أن التسكيش من تلك الملل .
موجب لدخول النار . ومثل هذا لا يقال في الفروع ، فإنه لا يوجب تعديد الملل ولا عذاب النار ، قال الله تعالى : « لِكُلِّ جَلَاتِمَتِكُمْ شَرْعَةٌ وَمِنْهَا جَاءَ » .

قوله تعالى : (زُبْرًا) يعني كتبنا وضمومها وضلالات أقوها ، قاله ابن زيد . وقيل :
لأنهم فوّقوا الكتب بأنثبت فرقة الصحف وفرقة التوراة وفرقة الزبور وفرقة الإنجيل ، ثم
حذف الكلّ وبدل ، قاله قتادة . وقيل : أخذ كل فريق منهم كتاباً آمن به وكفر بما سواه ،
و « زُبْرًا » بضم الباء قراءة نافع ، جمع زبور . والأعشى وأبو عمرو بخلاف عنه « زُبْرًا » بفتح
الباء ، أى قطعاً كقطع الحديد ، كقوله تعالى : « آتَوْنِي زُبْرًا حديدًا » . (كُلُّ رِزْبٍ) أى
فريق وملة . (يَمَّا تَدِينُ) أى عندما من الدين . (فَرِحُونَ) أى مفرحون به . وهذه الآيه
مثال لقريش خاطب عنها صلى الله عليه وسلم في شأنهم متصلاً بقوله (فَذَرْنُهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ)
أى فذر هؤلاء الذين هم بمنزلة من تقدم ، ولا يضيق صدرك بتأخير العذاب عنهم ، فلكل
شيء وقت . والقدره في اللغة ما يفتك ويملوك ، وأصله الستر ، فمنه القمير الحقد لأنه
يفنى القلب . والقمر المساء الكثير لأنه يطفى الأرض . وغمر الرءاء الذى يشمل الناس
بالعطاء ، قال :

غَمَرُ الرءاء إِذَا تَمَّ ضَاحِكًا • خَلِيقٌ لَقَمَعَكَ رِقَابُ الْمَالِ

المراد هنا الحيرة والغفلة والغفلة ، ودخل فلان في غمار الناس ، أى في زحمتهم . وقوله تعالى :
(خُنِيَ حِينَ) قال مجاهد ، حتى الموت ، فهو تهديد لا توقيت ، كما يقال : سياتى لك يوم .

قوله تعالى : « الْيَحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّاءٍ مَّائِنٍ » (سورة يس)

هُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (سورة يس)

(١) آية ٤٨ سورة المائدة ، (٢) آية ٩٦ سورة الكهف .

قوله تعالى : ﴿ يَحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّاءٍ وَبَيْنَ ﴾ « ما » بمعنى الذي ؛ أي
 يُحْسِبُونَ يا عجب ! أن الذي نمطهم في الدنيا من المال والأولاد هو ثواب لهم ، إنما هو
 استدراج وإملاء ، ليس إسراما في الخيرات . وفي خبر « أن » ثلاثة أقوال ، منها أنه محذوف .
 وقيل الزجاء ؛ المعنى يسارع لهم به في الخيرات ، وحذف به . وقال هشام الضرير قولا
 دقيقا قال : « إنما » هي الخيرات ؛ فصار المعنى : يسارع لهم فيه ، ثم أظهر فقال « في الخيرات » ،
 ولا حذف فيه حل هذا التقدير . ومنه الكسائي أن « إنما » حرف واحد فلا يحتاج إلى
 تقدير حذف ، ويجوز الوقف حل قوله « وبين » . ومن قال « إنما » حرفان فلا بد من ضمير
 يرجع من الخبر إلى اسم « أن » ولم يتم الوقف على « وبين » . وقال السخيتاني : لا يحسن
 الوقف على « وبين » ؛ لأن « يحسبون » يحتاج إلى منفعولين ، فقام المفعولين « في الخيرات » .
 قال ابن الأثيري : وهذا خطأ ؛ لأن « أن » كافية من اسم أن وخبرها ولا يجوز أن يؤتى
 بعد « أن » بمفعول ثان . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي وعبد الرحمن بن أبي بكرة « يسارع »
 بالياء ، أن حل يكون فاعله إمدادنا . وهذا يجوز أن يكون على غير حذف ؛ أي يسارع لهم
 الإمداد . ويجوز أن يكون فيه حذف ، ويكون المعنى يسارع الله لهم . وقرأ « يسارع لهم
 في الخيرات » وفيه ثلاثة أوجه : أحدها على حذف به . ويجوز أن يكون يسارع الإمداد .
 ويجوز أن يكون « لهم » اسم ما لم يسم فاعله ؛ ذكره النحاس . قال المهدوي : وقرأ الحز
 الصوى « تسرع لهم في الخيرات » وهو معنى قراءة الجماعة . قال الثعلبي : والصواب قراءة
 العامة ؛ لقوله « ثم » . ﴿ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أن ذلك فتنة لهم واستدراج .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾
 وَالَّذِينَ هُمْ بِعَاقِبَتِ رَبِّهِمْ يَأْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ
 لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ كَإِنْ
 رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ لما فرغ من ذكر الكفرة وتوعدهم عقب ذلك بذكر المؤمنين المسارعين في الطاعات ووعدهم ، وذكر ذلك بأبلغ صفتهم . و ﴿ مُشْفِقُونَ ﴾ خائفون ويحلون ما خوفهم الله تعالى . ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشِيرُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ ﴾ قال الحسن : يؤتون الإخلاص ويخافون ألا يقبل منهم . وروى الترمذى عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية « والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة » قالت عائشة : أحم الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟ قال : « لا يا بنت الصديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون ألا يقبل منهم أولئك الذين يسارعون في الطاعات » . وقال الحسن : لقد أدرنا أقواما كانوا من حسناتهم أن ترد عليهم أشقى منكم على سيناتكم أن تمذبوا عليها . وقرأت عائشة رضي الله عنها وابن عباس والضحى « والذين يؤتون ما آتوا » مقصورا من الإتيان . قال الفراء . ولو صححت هذه القراءة عن عائشة لم يخالف قراءة الجماعة ؛ لأن المعز من العرب من يلزم فيه الألف في كل الحالات إذا كتب ؛ فيكتب سئل الرجل بألف بعد السين ، ويستهلزون بألف بين الزاي والواو ، وشيء وشيء بألف بعد الباء ، فغير مستنكر في مذهب هؤلاء أن يكتب « يؤتون » بألف بعد الباء ، فيحتمل هذا اللفظ بالبناء على هذا الخط قراءتين « يؤتون ما آتوا » و « يأتون ما آتوا » . وينهد ما عليه الجماعة باحتيال تأويلين : أحدهما - والذين يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقة وقلوبهم خائفة . والآخر - والذين يؤتون الملائكة الذين يكتبون الأعمال على العباد ما آتوا وقلوبهم وجلة ؛ لحذف مفعول في هذا الباء . لوضوح معناه ، كما حذف في قوله عز وجل : « قَبِيضَةُ يَأْتُ النَّاسُ وَفِيهِ يَبْعَثُونَ »^(١) المعنى يعصرون السمسم والعنب ؛ فاخترل المفعول لوضوح تأويله . ويكون الأصل في الحرف على مجاهله الموجود في الإمام « يأتون » بألف مبسلة من الهمزة فكشبت الألف

وأولاً لتأني حروف المد واللين في الخفاء ؛ حكاها ابن الأثير ؛ قال النحاس : المعروف من قراءة ابن عباس « والذين يأتون ما أوتوا » وهي القراءة المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن عائشة رضي الله عنها ، ومعناها يعملون ما عملوا ؛ كما روي في الحديث . والوجه نحو الإشفاق والخوف ؛ فالتي والنائب خوفه أمر العاقبة وما يطلع عليه بعد الموت . وفي قوله ﴿ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاغِبُونَ ﴾ تنبيه على الخاتمة . وفي صحيح البخاري « وإنما الأعمال بالنيات » . وأما الخطأ فينبغي له أن يكون تحت خوف من أن يتخذ عليه الوعيد بقطعه . وقال أصحاب المواضع : وجعل العارف من طاعته أكثر وجلا من وجله من مخافته ؛ لأن المخالفة تمحوها التوبة ؛ والطاعة تطالب بتصحيح الفرض . ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ أي لأنهم ، أو من أجل أنهم إلى ربهم راجعون .

قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾^(١) نيله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ أي في الطاعات ، كما ينالوا بذلك أعلى الدرجات والمرتبات . وقرأ « يُسْرِعُونَ » في الخيرات ، أي يكونوا سريعا إليها . ويسارعون على معنى يسابقون من سابقهم إليها ؛ فالفعل محذوف . قال الزجاج : يسارعون يبلغ من يسرعون ﴿ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ أحسن ما قيل فيه : أنهم يسبقون إلى أوقاتها . ودل بهذا أن الصلاة في أول الوقت أفضل ؛ كما تقدم في « البقرة »^(٢) . وكل من تقدم في شيء فهو سابق إليه ، وكل من تأخر عنه فقد سبقه وفاته ؛ فاللام في « لها » على هذا القول بمعنى إلى ؛ كما قال « يَا رَبَّكَ أَوْسَى لَهَا » أي أوحى إليها . وأنشد سيبويه :

تَجَانَّفَ عَنْ جَوْ الْعِصَامَةِ نَاقِي * وَمَا قَصِدْتُ مِنْ إِهْلِهَا لِسَوَانِكَا^(٣)

وعن ابن عباس في معنى « وهم لها سابقون » سبقت لهم من الله السعادة ؛ فذلك . وإلا في الخيرات ؛ وقيل : المعنى وهم من أجل الخيرات سابقون .

(١) راجع ج ٢ ص ١٦٥ مطبعة ثانية . (٢) البيت الأثني . والشافع : الانحراف .

قوله تعالى : وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : (وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) قد مضى في « البقرة » وأنه ناسخ لجميع ما ورد في الشرع من تكليف ما لا يطاق . (وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ) أظهر ما قيل فيه : إنه أراد كتاب إحصاء الأعمال الذي ترفعه الملائكة ؛ وأضافه إلى نفسه لأن الملائكة كتبت فيه أعمال العباد بأمره ، فهو ينطق بالحق . وفي هذا تهديد وتأييد من الحليف والظلم . ولفظ النطق يجوز في الكتاب ؛ والمراد أن النبيين تنطق بما فيه . والله أعلم . وقيل : عني اللوح المحفوظ ، وقد أثبت فيه كل شيء ، فهم لا يجاوزون ذلك . وقيل : الإشارة بقوله « ولدينا كتاب » القرآن ، فاته أعلم ، وكل محتمل والأول أظهر .

قوله تعالى : بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَهُمْ أَعْمَلُ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَمْ يَعْمَلُوا ﴿١٨﴾ حَقَّ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجِيءُ ﴿١٩﴾ لَا يُخَفِّرُوا أَلْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنْهُ لَا تَنْصَرُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : (بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا) قال مجاهد : أى في غطاء وغفلة وغماية عن القرآن . ويقال : غمره الماء إذا غطاء . ونهر غمر يغطى من دخله . ورجل غمر بغمره آراء الناس . وقيل : « غمرة » لأنها تغطى الوجه . ومنه دخل في غمار الناس وتغمارهم ، أى فيها يغطيه من الجمع . وقيل : « بل قلوبهم في غمرة » أى في غيرة وعنى ؛ أى مما وصف من أعمال البرى الآيات المتقدمة ؛ قاله قتادة . أو من الكتاب الذى يطق بالحق . (وَهُمْ أَعْمَلُ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَمْ يَعْمَلُوا) قال قتادة ومجاهد : أى لم خطايا لا بد أن يعملوها من دون الحق . وقال الحسن وابن زيد : المعنى وهم أعمال رديئة لم يعملوها من (١) راجع ص ٢٧ ص ٤٢٧ (٢) كذا في الأصول . واتفق في كتب الفتن : « ورجل غمر وغمر لا يخبره له بحرب ولا أمر ، ولم تحمكه التجارب .

دون ما هم عليه، لابتدأن يعملوها دون أعمال المؤمنين، فيدخلون بها النار، لما سبق لهم من الشقوة، ويحتمل ثالثاً - أنه ظلم الخلق مع الكفر بالخالق؛ ذكره الماوردي، والمعنى متقارب.

(حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمُ بِالْعَذَابِ) يعني بالسيف يوم بدر، قاله ابن عباس. وقال الضحاك: يعني بالجوع حين قال النبي صلى الله عليه وسلم: «اللَّهُمَّ أَشْدِدْ طَائِفًا عَلَى مُضَرَّ اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سَنِينَ كِسْفٍ يَوْسَفَ». فابتلاههم الله بالقطر والجوع حتى أكلوا العظام والميتة والكلاب والجيف، وهلك الأموال والأولاد. (إِذَا هُمْ يَنجُرُونَ) أي يضجرون ويستغيثون. وأصل الجُرَّار رفع الصوت بالضرع كما يفعل الثور. وقال الأعشى^(١) يصف بقرة:

فطالت ثلاثاً بين يوم وليلة * وكان التكبر أن تُضيف وتجاراً

قال الجوهري: الجُرَّار مثل الخوار؛ يقال: جَارَ الثور يَجَارُ أي صاح. وقرأ بعضهم «يَجْلَا جَسَدًا لَهُ جُورٌ» حكاه الأَخفش. وجار الرجل إلى الله عز وجل تضرع بالدعاء. فتادة: يَضْرَحُونَ بالتوبة فلا تقبل منهم. قال:

يراجح من صلوات المليك * فطَوَّراً سَجوداً وطَوَّراً جُوراً

وقال ابن جريج: «حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمُ بِالْعَذَابِ» هم الذين قتلوا هود «إِذَا هُمْ يَنجُرُونَ» هم الذين بمكة؛ بجمع بين القولين المتقدمين، وهو حسن. (لَا يَنجَارُوا الْيَوْمَ أَنكُمْ مَنَا) أي من عذابنا. (لَا تَنْصُرُونَ) لا تمنعون ولا ينفعكم جزعكم. وقال الحسن: لا تنصرون بقبول التوبة. وقيل: معنى هذا النهي الإخبار؛ أي إنكم إذا تضرعتم لم ينفعكم.

قوله تعالى: قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنَادِي عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٣٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرًا تَنَجُرُونَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنْشَلُ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَغْفَابِكُمْ تُنْكَصُونَ ﴾ الآيات يريد بها القرآن . ﴿ تُنْشَلُ عَلَيْكُمْ ﴾ أى تقرأ . قال الضحاك : قبل أن تعذبوا بالقتل و ﴿ تُنْكَصُونَ ﴾ ترجعون وراءكم . مجاهد : تستأجرون ؛ وأصله أن ترجع القهقري . قال الشاعر :

زعموا بأنهم على سبيل النجاة • وإنما نُكْص على الأعقاب

وهو هنا استعارة للإعراض عن الحق . وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه « على أديابكم » بدل « على أعقابكم » ، « تنكصون » بضم الكاف . و ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ ﴾ حال ، والمضمر في « به » قال الجوهري : هو عائد على الحرم أو المسجد أو البلد الذي هو مكة ، وإن لم يقدم له ذكر شهرته في الأمر ؛ أى يقولون نحن أهل الحرم فلا نخاف . وقيل : المعنى أنهم يستكبرون في نفوسهم أن لهم بالمسجد والحرم أعظم الحقوق على الناس والمنازل ؛ فيستكبرون لذلك ، وليس الاستكبار من الحق . وقالت فرقة : الضمير عائد على القرآن من حيث ذكرت الآيات ، والمعنى : يحدث لكم سماع آياتي كبرا وطفانا فلا تؤمنوا به . قال ابن عطية : وهذا قول جيد . النحاس : والقول الأول ، والمعنى : أنهم يفتخرون بالحرم ويقولون نحن أهل حرم الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ سَائِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ سَائِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ « سائرا » نصب على الحال ، ومعناه ستمارا . وهو الجماعة يهجدون بالليل . مأخوذ من السمر وهو ظل القمر ؛ ومنه سمره اللون . وكانوا يهجدون حول الكعبة في سمر القمر ؛ نسمى التحدث به . قال الثوري : يقال لظل القمر سمرًا ؛ ومنه السمره في اللون . ويقال له : القفحت ؛ ومنه قيل فاختة . وقرأ أبو رجاء « ستمارا » وهو جمع ساعر ؛ كما قال :

• أَلَسْتُ تَرَى لِلشَّجَرِ وَالنَّاسِ أَحْوَالِي ^(١)

(١) في الأصول : « أنهم » والبيت لا يترن إلا بدخول الباء ، وهي هنا زائدة ؛ كقول النابغة :

• زِمَ النَّهْدُافُ بَأْسَ رَحْلَتِنَا نَدَا •

(٢) هذا مجرئيت لامرئ القيس . ومصدره :

• فَقَالَتْ سِبَالَةُ اللَّهِ إِنَّكَ تَانِضِي •

وفي حديث قيسلة : إذا جاء زوجها من السامر ، يعني من القوم الذين يسمرون بالليل ، فهو أسمى مفرد بمعنى الجمع ، كالحاضر وهم القوم النازلون على الماء ، والياقوت جمع البقر ، والجامل جمع الإبل ، ذكورها وإناثها ، ومنه قوله تعالى : « ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً » أى أطفالا . يقال : قوم سمرو سمروا وسامرو ، ومعناه سهر الليل ، يأخذ من السمرو وهو ما يقع على الأشجار من ضوء القمر . قال الجوهري : السامر أيضا الشمار ، وهم القوم الذين يسمرون ، كما يقال للحاج حجاج ، وقول الشاعر :

« وسامر طال فيه اللهو والسمرو »

كأنه سمي المكان الذي يجتمع فيه للسمرو بذلك . وقيل : وعد سامرا وهو بمعنى الشمار ، لأنه وضع موضع الوقت ، كقول الشاعر :

بين دونهم أن جنتهم سمرا * عَزَفُ الْيَقَانِ وَيَجْلِسُ عَمْرُ

نقال : سمرا ، لأن أمعاء : إن جنتهم ليلا وجنتهم وهم يسمرون . وأبنا سيمر : الليل والنهار ، لأنه يسمرو فيهما ، يقال : لا أفعله ما سمرو أبنا سيمر أبدا . ويقال : السمعير الدهر ، وأبنا الليل والنهار ، ولا أفعله السمرو والقمر ، أى ما دام الناس يسمرون في ليلة قراء . ولا أفعله سيمر الليل . قال الشنفرى :

هناك لا أرجو حياة تُسَرِّفِي * سيمر الليالي مَسْلًا بِالْمَرَارِ

والشمار (بالفتح) اللبن الرقيق . وكانت العرب تجلس للسمر لتحدث ، وهذا أوجب معرفتها بالنجوم ، لأنها تجلس في الصحراء فترى الطوالع من النوارب ، وكانت قرين سمرو حول الكعبة يجلس في أباطيلها وكفرها ، فهاهم الله بذلك . و « تهجرون » قرئ بضم التاء وكسر الجيم من أجهر ، إذا طعن بالفحش . وينصب التاء ضم الجيم من هجر المريض إذا هدى . ومعناه : يتكلمون بهوس وسبي من القول في النبي صلى الله عليه وسلم وفي القرآن ، عن ابن عباس وغيره .

الثانية - وروى سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال : إنما سمرو حين نزلت هذه الآية « مستكبرين به سامرا تهجرون » ، يعني أن الله تعالى ذم أقواما يسمرون في غير

طاعة الله تعالى ، إما في هَذْيَان وإما في إِذَايَة . وكان الأعمش يقول : إذا رأيت الشيخ ولم يكتب الحديث فأصغمه فإنه من شيوخ القمر ؛ يعني يجتمعون في ليالي القمر فيتحدثون بأيام الخلفاء والأمراء ولا يحسن أحدهم يتوضأ للصلاة .

الثالثة - روى مسلم عن أبي بَرَّة قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يؤخر العشاء إلى ثلث الليل ويكره النوم قبلها والحديث بعدها . قال العلماء : أما الكراهية للنوم قبلها فلثلاثا . بعضها للفوات من كل وقتها أو أفضل وقتها ؛ ولهذا قال عمر : فمن نام فلا نامت عينه ؛ وثلاثا . ومن كره النوم قبلها عمر وأبنته عبد الله وأبن عباس وغيرهم ، وهو مذهب مالك . ورخص فيه بعضهم ، منهم علي وأبو موسى وغيرهم ؛ وهو مذهب الكوفيين . وشرط بعضهم أن يجعل معه من يوقظه للصلاة . وروى عن ابن عمر مثله ، وإليه ذهب الطحاوي . وأما كراهية الحديث بعدها فلأن الصلاة قد كُفِّرَتْ خطاياها فينام على سلامة ، وقد ختم الكتاب بحقيقته بالعبادة ؛ فإنَّه هو سحر وتحدث فيملؤها بالهوس ويعمل خاتمتها اللغو والباطل ، وليس هذا من فعل المؤمنين . وأيضا فإن السمر في الحديث مظنة غلبة النوم آخر الليل فينام عن قيام آخر الليل ، وربما ينام عن صلاة الصبح . وقد قيل : إنما يكره السمر بعدها لما روى جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لِمَا تَكُمُ وَالسَّمرَ بعدَ هَذِهِ الزَّيْلِ فَإِنْ أَحَدُكُمْ لَا يَدْرِي مَا يَبْتَغِي اللَّهُ تَعَالَى مِنْ خَلْقِهِ أَغْلَقُوا الْأَبْوَابَ وَأَوَكُوا السَّقَاءَ وَتَعَمَّرُوا الْإِنَاءَ وَأَطِيفُوا الْمَصَابِيحَ » . وروى عن عمر أنه كان يضرب الناس على الحديث بعد العشاء ، ويقول : « سَمَرًا أَوَّلَ اللَّيْلِ وَنُومًا آخِرَهُ ! أَرَيْتُمْ كِتَابَكُمْ . حَتَّى إِذَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَمْرِو بْنِ أَنَسٍ قَالَ : مَنْ قَرَضَ بَيْتَ شَعْرٍ بَعْدَ الدَّشَاءِ لَمْ يَقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ حَتَّى يُصْبِحَ . وَأَسْنَدَهُ شَدَادُ بْنُ أَوْسٍ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَقَدْ قِيلَ : إِنْ الْحِكْمَةُ فِي كَرَاهِيَةِ الْحَدِيثِ بَعْدَهَا إِنَّمَا هِيَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَمَلَ الْإِبْلِ سَكَا ، أَيْ لَيْسَ فِيهِ ، فَإِذَا تَحَدَّثَ الْإِنْسَانُ فِيهِ فَقَدْ جَعَلَهُ فِي النَّهَارِ الَّذِي هُوَ مُتَصَرِّفٌ فِيهِ ، فَكَأَنَّهُ قَصِدَ إِلَى مُخَالَفَةِ حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي أَجْرَى عَلَيْهَا وَجُودَهُ فَقَالَ « وَهُوَ الَّذِي جَدَّلَ لَكُمْ اللَّيْلَ رِيَاسًا وَالنَّوْمَ مَبَاقًا وَجَعَلَ النَّهَارَ تُسْوَرًا » .

الرابعة — هذه الكراهة إنما تختص بما لا يكون من قبيل القرب والأذى . بتليم العلم ، وسامرة الأهل بالعلم وبتليم المصالح وما شابه ذلك ؛ فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن السلف ما يدل على جواز ذلك ، بل على نديبته . وقد قال البخاري : (باب السمر في الفقه والخير بعد المشاء) وذكر أن قوة بن خالد قال : انتظرنا الحسن وراث^(١) علينا حتى جاء قريبا من وقت قيامه ، فجاء فقال : دعانا جيراننا هؤلاء . ثم قال أنس : انتظرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة حتى كان شطر الليل فجاء فصلى ثم خطبنا فقال : " إن الناس قد صلّوا وإنكم لم تزالوا في صلاة ما انتظرتهم الصلاة " . قال الحسن : فإن القوم لا يزالون في خير ما آتوا بالخير . قال : (باب السمر مع الضيف والأهل) وذكر حديث أبي بكر بن عبد الرحمن أن أصحاب الصفة كانوا قسواء ... الحديث . أخرجه مسلم أيضا : وقد جاء في حراسة الثغور وحفظ العساكر بالليل من الثواب الجزيل والأجر العظيم ما هو مشهور في الأخبار . وقد مضى من ذلك جملة في آخر « آل عمران » والحمد لله وحده .

قوله تعالى : أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ
الْأَوَّلِينَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ) يعني القرآن ؛ وهو كقوله تعالى : « أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ » . وسمي القرآن قولاً لأنهم خوطبوا به . (أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ) فأنكروه وأعرضوا عنه . وقيل : « أَمْ » بمعنى بل ؛ أي بل جاءهم ما لا عهد لأبائهم به ، فذلك أنكروه وتركوا التدبر له . وقال ابن عباس : وقيل المديني أم جاءهم أمان من العذاب ، وهو شيء لم يات آبائهم الأولين فتركوا الأعر .

قوله تعالى : أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٧﴾

(١) راث : أبدا . (٢) راجع ج ٤ ص ٢٢٣ وما بعدها . (٣) آية ٨٢ سورة النساء .

هذا تستمله العرب على معنى التوقيف والتتبع ، فيقولون : الخير أحب إليك أم الشر ؛
أى قد أخبرت الشر فتجنبه ، وقد عرفوا رسولهم وأنه من أهل الصدق والأمانة ؛ ففى اتباعه
النجاة والخير لولا المقت . قال سفيان : بلى ! قد عرفوه ولكنهم حسدوه !

قوله تعالى : **أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلَىٰ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ**
لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ** ﴾ أى أم يفتنون فى ترك الإيمان به بأنه مجنون ،
فليس هو هكذا ! لزوال أمارات الجنون عنه . ﴿ **بَلَىٰ جَاءَهُم بِالْحَقِّ** ﴾ يعنى القرآن والتوحيد
الحق والدين الحق . ﴿ **وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ** ﴾ أى كاهم ﴿ **لِلْحَقِّ كَارِهُونَ** ﴾ حسدا وبقيا وتقليدا .

قوله تعالى : **وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ**
وَمَنْ فِيهِنَّ بَلَىٰ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ** ﴾ « الحق » هنا هو الله سبحانه وتعالى ؛ قاله الأكثرون ،
منهم مجاهد وابن جريج وأبو صالح وغيرهم . وتقديره فى العربية : ولو اتبع صاحب الحق ؛
قاله النحاس . وقد قيل : هو مجاز ، أى لو وافق الحق أهواءهم ؛ فجعل موافقته اتباعا مجازا ؛
أى لو كانوا يكفرون بالرسول ويعصون الله عز وجل ثم لا يعاقبون ولا يميزون على ذلك
إنما عجزوا وإنما جهلا لفست السموات والأرض . وقيل : المعنى ولو كان الحق ما يتولون
من اتخاذ آلهة مع الله تعالى لثافت الآلهة ، وأراد بعضهم ما لا يريده بعض ، فاضطرب التدوير
وفست السموات والأرض ، وإذا فسدتا فسد من فيهما . وقيل : « **لو أتبع الحق أهواءهم** »
أى بما يهواه الناس ويشتهونه لبطل نظام العالم ، لأن شهوات الناس تختلف وتتضاد ، وسبيل
الحق أنه يكون متبوعا ، وسبيل الناس الانقياد للحق . وقيل : « **الحق** » القرآن ؛ أى لو نزل
القرآن بما يحبون لفست السموات والأرض . ﴿ **وَمَنْ فِيهِنَّ** ﴾ إشارة إلى من يعقل من
ملائكة السموات وإنس الأرض وجنّها ؛ **المأوردي** . وقال **الكّلى** : يعنى وما بينهما من

خالق ؛ وهى قراءة ابن مسعود « لفسدت السموات والأرض وما بينهما » . فيكون على
 ناول الكوفي قراءة ابن مسعود محمولا على فساد ما يعقل وما لا يعقل من حيوان وجماد .
 وظاهر التبريل فى قراءة الجمهور يكون محمولا على فساد ما يعقل من الحيوان ؛ لأن ما لا يعقل
 تابع لما يعقل فى الصلاح والفساد ، فعلى هذا ما يكون من الفساد يعود على من فى السموات
 من الملائكة بأن جعلت أربابا وهى مربوبة ، وعُبدت وهى مستعبدة . وفساد الإنس يكون
 على وجهين : أحدهما — باتباع الهوى ، وذلك مهلك . الثانى — بعبادة غير الله ، وذلك كفر .
 وأما فساد ماعدا ذلك فيكون على وجه التبع ؛ لأنهم مدبرون بذوى المقول فساد فساد
 المدبرين عليهم .

قوله تعالى : (**بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ**) أى بما فيه شرفهم وعزهم ؛ قاله السدي
 وسفيان . وقال قتادة : أى بما لم فيه ذكر نوابهم وعقابهم . ابن عباس : أى بيان الحق
 وذكر ما لم به حاجة من أمر الدين . (**فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ**) .

قوله تعالى : **أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَيْرًا نَّخْرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ** وهو خير

الرَّزِيقَ

قوله تعالى : (**أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَيْرًا**) أى أجرا على ما جنتهم به ؛ قاله الحسن وغيره .
 (**نَخْرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ**) وقرا حمزة والكسائي والأعمش ويحيى بن وثاب « نرجا » بالف .
 الباقر بنير ألف . وكلهم قد قرعوا « نخرج » بالألف إلا ابن عاصم وأبا حيوة فإنهما قرأا
 بنسب الألف . والمعنى : أم تسألهم رزقا فرزق ربك خير . (**وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ**) أى ليس
 بقدر أحد أن يرزق مثل رزقه ، ولا ينعم مثل إنعامه . وقيل : أى ما يؤتيك الله من الأجر
 على طاعتك له والدجاء إليه خير من عرض الدنيا ، وقد عرضوا عليك أموالهم حتى تكون كأمين
 رجل من قريش فلم يجهم إلى ذلك ؛ قال معناه الحسن . والنخرج والنرجح واحد ، إلا أن
 اختلاف الكلام أحسن ؛ قاله الأخفش . وقال أبو حاتم : النخرج الجعل ، والنخرج العطاء .

المبرد : الخرج المصدر ، والخراج الاسم . وقال الضر بن شميل : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الفرق بين الخرج والخراج فقال : الخراج ما زملك ، والخرج ما تبرعت به . وعنه أن الخرج من الرقاب ، والخراج من الأرض . ذكر الأئول التلمبي والثاني الماوردي .

قوله تعالى : **وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٧٥ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُونَ ٧٦**

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أى إلى دين قويم . والصراط فى اللغة الطريق ، فسَمَّى الدين طريقاً لأنه يؤدى إلى الجنة فهو طريق إليها . ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ أى بالبعث . ﴿ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُونَ ﴾ قيل : هو منسل الأول . وقيل : لانهم عن طريق الجنة لن يكون حتى يصيروا إلى النار . نكَّب عن الطريق يتنكب نكبو إذا عدل عنه ومال إلى غيره ؛ ومنه نكبت الرياح إذا لم تستقم على تجرى . ومنه الرياح النكباء .

قوله تعالى : **وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ٧٥**

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ ﴾ أى لو رددناهم إلى الدنيا ولم ندخلهم النار وأمتحنهم ﴿ لَلَجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ ﴾ قال السدسى : فى معصيتهم . ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ قال الأعمش : يترددون . وقال ابن جريج : «ولو رحمتهم» يعنى فى الدنيا «وكشفنا ما بهم من ضر» أى من حُط وجوع «لَجُّوا» أى لَمَدُوا «فِي طُغْيَانِهِمْ» وضلاتهم وتجاوزهم الحد «يَعْمَهُونَ» يتنذبذبون ويخطئون .

قوله تعالى : **وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ٧٦**

قوله تعالى : ﴿لَقَدْ أَخَذْنَاكُمْ بِالْعَذَابِ﴾ قال الضحاك : بالجوع . وقيل : بالأمراض والحاجة والجوع . وقيل : بالقتل والجوع . ﴿فَمَا اسْتَكْبَرُوا رَبَّهُمْ﴾ أى ما خصموا . ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أى ما يخشعون لله عز وجل في الشدائد تصيبيهم . قال ابن عباس : نزلت في قصة ثمامة بن أثال لما أسرته السرية وأسلم وخلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبيله ، حال بين مكة وبين الميرة وقال : والله لا يأتيكم من اليمامة حبة خبطة حتى ياذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأخذ الله قريشا بالقطط والجوع حتى أكلوا الميتة والكلاب والعلئز ، قيسل وما العلئز ؟ قال : كانوا يأخذون الصوف والوبر فيلونه بالدم ثم يشوونه ويأكلونه . فقال له أبو سفيان : أنشدك الله والرحم ! أليس تزعم أن الله يمشك رحمة للعالمين ؟ قال " بلى " . قال : فوائه ما أراك إلا قتلت الآباء بالسيف ، وقتلت الأبناء بالجوع ، أقتل قوله « وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلِجَاهِلِيَّةِ فِيهِمْ يَمْهَمُونَ » .

قوله تعالى : حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ

مُبْلسُونَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قال عكرمة : هو باب من أبواب جهنم ، عليه من الخزنة أربعة آلاف ، سود وجوههم ، كالحية أنيابهم ، قد قُلت الرحمة من قلوبهم ، إذا بلغوه فتحة الله عز وجل عليهم . وقال ابن عباس : هو قتلهم بالسيف يوم بدر . مجاهد : هو الفحط الذي أصابهم حتى أكلوا العلئز من الجوع ، على ما تقدم . وقيل فتح مكة . ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْسُونَ﴾ أى يأسون متعبون لا يدرون ما يصنعون ، كالآيس من الفرج ومن كل خير . وقد تقدم في « الأنعام » .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا

مَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ) عرفهم كثرة نعمه وبكال قدرته .
(قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ) أي ما تشكرون إلا شكرا قليلا . وقيل : أي لا تشكرون البتة .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ) أي انشاكم وبشكم وخلقكم . (وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) أي تجمعون للجزاء .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٩﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨٠﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨١﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَوَعَادُونا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِن هَٰذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٢﴾ قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٣﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٤﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٥﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٦﴾ قُلْ مَن يَبْدِئُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٧﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) أي جعلهما مختلفين ؛ كقولك : لك الأجر والصلة ؛ أي إنك تؤجر وتوصل ؛ قاله الفراء . وقيل : اختلافهما نقصان أحدهما وزيادة الآخر . وقيل : اختلافهما في النور والظلمة . وقيل : تكرهما يوما بعد ليلة وليلة بعد يوم . ويحتمل خامسا : اختلاف ما مضى فيهما من سعادة وشقاء وضلال وهدى . (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) كنه قدرته وروبوته وحدانيته ، وأنه لا يجوز أن يكون له شريك من خلقه ، وأنه قادر على البعث . ثم عيرهم بقولهم وأخبر عنهم أنهم

قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ . قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١﴾ هذا لا يكون ولا يتصور . ﴿ لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ ﴾ أى من قبل موسى حين صلى الله عليه وسلم ، فلم نزله حقيقة . ﴿ إِنْ هَذَا ﴾ أى ما هذا ﴿ إِلَّا أَصْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى أباطيلهم وترفاتهم ؛ وقد تقدم هذا كله . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد جواباً لهم عما قالوه ﴿ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا ﴾ يخبر بربوبيته وحدايته وملكوته الذى لا يزول ، وقدرته التى لا تحول ، ﴿ هَـ ﴾ ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ ولا بد لهم من ذلك . ﴿ هَـ ﴾ ﴿ قُلْ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ أى أفلا تستظنون وتعلمون أن من قدر على خلق ذلك ابتداءً فهدى على إحياء الموتى بعد موتهم قادر . ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنَبِّتُكُمْ ﴾ يريد أفلا تتحانون حيث تجعلون لى ما تكفرون ؛ زعمتم أن الملائكة بناتى ، وكرهتم لأنفسكم البات . ﴿ قُلْ مَنْ مِنْ يَدَيْهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يريد السموات وما فوقها وما بينهما ، والأرضين وما تحتهما وما بينهما ، وما لا يعلمه أحد إلا هو . وقال مجاهد : « ملكوت كل شىء » نزائش كل شىء . الضحاك : ملك كل شىء . والملكوت من صفات المبالغة كالجبروت والرهبوت ؛ وقد مضى فى « الأنعام » . ﴿ وَهُوَ يُعَيِّرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ أى يمتنع ولا يمتنع منه . وقيل : « يُعَيِّرُ » يؤتمن من شاء . « وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ » أى لا يؤتمن من أخافه . ثم قيل : هذا فى الدنيا ؛ أى من أراد الله إهلاكه وخوفه لم يمنعه منه مانع ، ومن أراد نصره وأمنه لم يدفعه من نصره وأمنه مانع . وقيل : هذا فى الآخرة ؛ أى لا يمنعه من مستحق الثواب مانع ولا يدفعه من مستوجب العقاب مانع . ﴿ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ أى فكيف تخدعون وتصرفونه عن طاعته وتوحيده . أركيف يخيّل إليكم أن تشركوا به ما لا يضر ولا ينفع ! والسحر هو التخييل . وكل هذا احتجاج على العرب المقرين بالصانع . وقرأ أبو عمرو « سيقولون الله » فى الموضعين الأخيرين ؛ وهى قراءة أهل العراق . الباقون « لله » ، ولا خلاف فى الأول أنه « لله » ؛ لأنه جواب لـ « قل لمن الأرض ومن فيها » فلما تقدمت اللام فى « لمن » رجعت فى الجواب . ولا خلاف أنه

مكتوب في جميع المصاحف بنور أنف . وأما من قرأ « سيقولون الله » فلان السؤال بنور لام
بهاء الجواب على لفظه ، وجاء في الأول « لله » لما كان السؤال باللام . وأما من قرأ « لله »
باللام في الآخرين وليس في السؤال لام فلان معنى « قل من رب السموات السبع ورب
العرش العظيم » : قل لمن السموات السبع ورب العرش العظيم . فكان الجواب « لله » ؛ حين
قدّرت اللام في السؤال . وعلة الثالثة كلمة الثانية . وقال الشاعر :
إذا قيل من رب المزالف والقرى * ورب الجياد الجرد قلت نكالد^(١)
أى لمن المزالف .

ودلت هذه الآيات على جواز جدال الكفار وإقامة الحجة عليهم . وقد تقدم في « البقرة » .
وتبّهت على أن من ابتدأ بالخلق والاعتراع والإيجاد والإبداع هو المستحق للألوهية والعبادة .

قوله تعالى : **بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ**
مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ مِمَّا خَلَقَ وَلَعَلَّا
بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصْنُونَ ﴿٢﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾

قوله تعالى : **(بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ)** أى بالقول الصدق ، لا ما نقوله الكفار من إثبات
الشريك ونفى البعث . **(وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)** أن الملائكة بنات الله . فقال الله تعالى :
(مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ) « من » صلة . **(وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ)** « من » زائدة ؛ والتقدير :
ما اتخذ الله ولداً كما زعمتم ، ولا كان معه إله فيما خلق . وفي الكلام حذف ؛ والمعنى : لو كانت
معه آلهة لأفرد كل إله بخلقه . **(وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ)** أى ولنسالب وطلب القوى
الضعيف كالعبادة بين الملوك ، وكان الضميف المنلوب لا يستحق الإلهية . وهذا الذى يدل
على نفي الشريك يدل على نفي الولد أيضاً ؛ لأن الولد ينازع الأب في الملك منازعة الشريك .

(١) المزالف : القرى التى بين البر والبحر ؛ الواحدة مزلفة . والأجرد من الخيل والفراب : التمهير الشعر .

(مُبْجَانِ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ) تنزيها له عن الولد والشريك . (عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ تَعَالَى)
عَمَّا يُشْرِكُونَ) تنزيه وتقدس . وقرا نافع وابو بكر وحسنه والكسائي « عالم » بالرفع على
الاستثنا ؛ أى هو عالم الغيب . الباقر بن الجرجي على الصفة لله . وروى رؤيس عن يعقوب
« عالم » إذا وصل خفضا . و « عالم » إذا ابتدا رفعاً .

قوله تعالى : قُلْ رَبِّ إِنَّمَا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٤٦﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي
فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

عليه ما يصدق به ؛ أى قل رب ، أى يارب إن أريتى ما يوعدون من العذاب .
(فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) أى فى نزول العذاب بهم ، بل أخرجنى منهم . وقيل :
البداء معترض ؛ و « ما » فى « إنما » زائدة . وقيل : إن أصل إنما إن ما ؛ ف « إن » شرط
و « ما » شرط ، فجعل بين الشرطين توكيدا ، والجواب « فلا تجعلنى فى القوم الظالمين » ؛ أى إذا
أردبت بهم عقوبة فأخرجنى منهم . وكان عليه السلام يعلم أن الله تعالى لا يعمله فى القوم
الظالمين إذا نزل بهم العذاب ، ومع هذا أمره الرب بهذا البداء والسؤال ليعظم أجره وليكون
فى كل الأوقات ذاكرا لربه تعالى .

قوله تعالى : وَإِنَّا عَلَيَّ أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدْ رَوْنُ ﴿٤٨﴾

نبه على أن خلاف المعلوم مقدور ، وقد أراه الله تعالى ذلك فيهم بالجوع والسيوف ،
ونجاه الله ومن آمن به من ذلك .

قوله تعالى : أَدْفَعْ بِأَيْتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : (اَدْفَعْ بِأَيْتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ) أى بالصفح ومكام الأخلاق ؛ فما كان
منها لهذه الأمة فيها بينهم فهو محكم باق فى الأمة أبدا . وما كان فيها من مواد الكفار وترك
التموض لهم والصفح عن أمورهم منسوخ بالقتال . (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ) أى من
الشرك والكذب . وهذا يقتضى أنها آية « واحدة » ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٧٧﴾ وَأَعُوذُ
بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ فيه مستثنان :

الأول - قوله تعالى : ﴿ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ الهمزات هي جمع همزة . والهمز في اللغة النفس والدفع ؛ يقال : همزته ولمزه ونحسه دفعه . قال الليث : الهمز كلامٌ من وراء اللقفا ، واللز مواجعة ، والشيطان يوسوس فيهمس في وسوانه في صدر ابن آدم ؛ وهو قوله : « أعوذ بك من همزات الشياطين » أي نزغات الشياطين الشاغلة عن ذكر الله تعالى . وفي الحديث : كان يتعوذ من همز الشيطان ولمزه وهمسه . قال أبو الهيثم : إذا أسر الكلام وأغفاه فذلك الهمس من الكلام . وسُمي الأسد هموساً ؛ لأنه يمتن بجففة فلا يسمع صوت وطئه . وقد تقدم في « طه » .

الثانية - أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالتعوذ من الشيطان في همزاته ، وهي سوراة الغضب التي لا يملك الإنسان فيها نفسه ، وكأنها هي التي كانت تعيب المؤمنين مع الكفار فتقع المحادة فذلك اتصلت بهذه الآية ؛ فالنزغات وسورات الغضب الواردة من الشيطان هي المتعوذ منها في الآية ؛ وقد تقدم في آخر « الأعراف » بيانه مستوفى ، وفي أول الكتاب أيضاً . وروى عن علي بن حرب بن محمد الطائي حدثنا سفیان عن أبوب عن محمد بن حبان أن خالداً كان يؤزق من الليل ؛ فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فأمره أن يتعوذ بكلمات الله التامة من غضب الله وعقابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون . وفي كتاب أبي داود قال عمر : وهمزة الموت ؛ قال ابن ماجه : الموتة يعني الجنون . والتعوذ أيضاً من الجنون ويكيد . وفي قراءة أبي « رَبِّ عَائِذًا بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ » ، وعائذا بك أن يحضروا ؛ أي يكونوا معي في أموري .

(١) راجع ج ١١ ص ٢٤٧ طبعه أول مرة ثانية . (٢) راجع ج ٧ ص ٢٤٧

(٣) راجع ج ١ ص ٨٦ طبعه ثانية أمانة ؛

فَإِذَا هُمْ إِذَا حَضَرُوا الْإِنْسَانَ كَانُوا مُعَدِّينَ لِلْهَمَزِ ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ حَاضِرًا فَلَا هَمَزَ . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : " إِنْ الشَّيْطَانَ يَحْضُرُ أَحَدَكُمْ عِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ شَأْنِهِ حَتَّى يَحْضُرَهُ عِنْدَ طَعَامِهِ فَإِذَا سَقَطَتْ مِنْ أَحَدِكُمُ اللَّقْمَةُ فَلْيُطِطْ مَا كَانَ بَهَا مِنْ أَدَى ثُمَّ لْيَأْكُلْهَا وَلَا يَدْعُهَا لِلشَّيْطَانِ فَإِذَا فَرَّغَ فَلْيَلْقَ أَصَابِعَهُ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي فِي أَيِّ طَعَامِهِ الْبُرْكَهَ " .

قوله تعالى : حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٢٠٠﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٢٠١﴾

قوله تعالى : (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ) عاد الكلام إلى ذكر المشركين ، أى قالوا « أئذا متنا - إلى قوله - إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » ، ثم أخرج عليهم وذكّرهم قدرته على كل شيء ، ثم قال هم مصرون على ذلك حتى إذا جاء أحدهم الموت يتيقن ضلالتهم ويتألم الملائكة التي تقيض روحه ، كما قال تعالى : « وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ » ، (قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ) تنفى الرجعة كي يعمل صالحا فيما ترك ، وقد يكون القول في النفس ، قال الله عز وجل : « وَبَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُهُمْ اللَّهُ بِمَا نَعْمُونَ » ، فأما قوله « ارْجِعُونِ » وهو مخاطب ربه عز وجل ولم يقل « أرجعني » جاء على تعظيم الذكر للمخاطب ، وقيل : أسلفناوا بالله عز وجل أولا ، فقال قائمهم : رب ، ثم رجع إلى مخاطبة الملائكة فقال : ارجعون إلى الدنيا ؛ قاله ابن جريج ، وقيل : إن معنى « ارجعون » على جهة التكرير ؛ أى ارجعني أرجعني أرجعني وهكذا ، قال المُرزِقي في قوله تعالى « أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ » قال : معناه ألقيا في جَهَنَّمَ .

قلت : ليس سؤال الرجعة مخصا بالكافر فقد يسألها المؤمن كما في آخر سورة المنافقين على ما يأتي . ودلت الآية على أن أحدا لا يموت حتى يعرف اضطرابا أهو من أولياء

ألم أم من أعداء الله، ولولا ذلك لما سأل الرجعة، فيعلموا ذلك قبل نزول الموت وذوانه .
(تَسْبِلْ أَعْمَلْ صَالِحًا) قال ابن عباس : يريد أشهد أن لا إله إلا الله . **(فَيَا تَرْتُكُتُ)** أي فيا ضيقت وتركت العمل به من الطاعات . وقيل : «فيا تركت» من المسال فأنصديق .
 هو «لعل» تتضمن تردداً وهذا الذي يسأل الرجعة قد استيقن العذاب ، وهو يوطن نفسه على العمل الصالح قطعاً من غير تردد . فالتردد يرجع إما إلى رده إلى الدنيا ، وإما إلى التوفيق ؛ أي أحسن صالحاً إن وفقني ؛ إذ ليس على قطع من وجود القدرة والتوفيق لو رُدَّ إلى الدنيا .
(كَلَّا) هذه كلمة رد ؛ أي ليس الأمر على ما يظنه من أنه يجب إلى الرجوع إلى الدنيا ، بل هو كلام يطيح في أدراج الريح . وقيل : لو أجيب إلى ما يطلب لما وقَّ بما يقول ؛ كما قال : «وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ» . وقيل : «كَلَّا إِنَّا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا» ترجع إلى الله تعالى ؛ أي لا خلف في خبره ، وقد أخبر أنه لن يؤخر نفساً إذا جاء أجلها ، وأخبر بأن هذا الكافر لا يؤمن . وقيل : «إنها كلمة هوة ثأها» عند الموت ، ولكن لا تنفع . **(وَيَا نِيمُ بَرَزَخُ)** أي ومن أمامهم وبين أيديهم . وقيل : من خلفهم . «بَرَزَخُ» أي حاجز بين الموت والبعث ؛ قاله الضحاك ومجاهد وابن زيد . وعن مجاهد أيضاً أن البرزخ هو الحاجز بين الموت والرجوع إلى الدنيا . وعن الضحاك : هو ما بين الدنيا والآخرة . ابن عباس : حجاب . السدى : أجل . قتادة : بقية الدنيا . وقيل : الإمهال إلى يوم القيامة ؛ حكاه ابن عيسى . النكبي : هو الأجل ما بين النفتين ، وبينهما أربعون سنة . وهذه الأقوال متقاربة . وكلُّ حاجز بين شيئين فهو بَرَزَخ . قال الجوهري : البرزخ الحاجز بين الشيئين . والبرزخ ما بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلى البعث ؛ فمن مات فقد دخل في البرزخ . وقال رجل بحضرة النبي : رحم الله فلاناً فقد صار من أهل الآخرة ! فقال : لم يصبر من أهل الآخرة ؛ ولكنه صار من أهل البرزخ ، وليس من الدنيا ولا من الآخرة . وأضيف «يوم» إلى «يبعثون» لأنه ظرف زمان ، والمراد بالإضافة المصدر .

قوله تعالى : فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ
وَلَا يَنْسَاءُ لُونَ ﴿١٠١﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ المراد بهذا النفخ النفخة الثانية . ﴿ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَنْسَاءُ لُونَ ﴾ قال ابن عباس : لا يفتخرون بالأنساب في الآخرة كما يفتخرون بها في الدنيا ، ولا يتساءلون فيما كانوا يتساءلون في الدنيا ، من أى قبيلة أنت ولا من أى نسب ، ولا يتعارفون لقول ما أذعنهم . وعن ابن عباس أن ذلك في النفخة الأولى حين يصمق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . وسأل رجل ابن عباس عن هذه الآية وقوله : « فَأَقْبَل بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ » فقال : لا يتساءلون في النفخة الأولى ؛ لأنه لا يبقى على الأرض حي ، فلا أنساب ولا تساؤل . وأما قوله « فَأَقْبَل بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ » فإنهم إذا دخلوا الجنة تساءلوا . وقال ابن مسعود : إنما عُرِفَ هذه الآية النفخة الثانية . وقال أبو عمر زاذان : دخلت على ابن مسعود فوجدت أصحاب الخبر والائمة قد سبقوا إليه ، فنadيت بأعل صوتي : يا عبد الله بن مسعود ! من أجل أنى رجل أعجبنى أدنيت هؤلاء وأقصيتنى ! فقال : أدنّه ؛ فدنوت ، حتى ما كان بيني وبينه جليس فسمعته يقول : يؤخذ بيد العبد أو الأمة يوم القيامة فينصب على رموس الأواوين والآخريين ثم ينادى مناد : هذا فلان بن فلان ، من كان له حق فليات إلى حقه ، وتفرج المرأة أن يدور لها الحق على أيها أو على زوجها أو على أخيها أو على أبنها ؛ ثم قرأ ابن مسعود : « فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ » فيقول الرب سبحانه وتعالى « آت هؤلاء حقوقهم » فيقول : يارب قد نيت الدنيا فن أين أوتيتهم ؛ فيقول الرب للامثلة : « خذوا من حسناته فاعطوا كل إنسان بقدر طيبته » فإن كان ولياً لله فضلت من حسناته بمقال حبة من خردل فيضاعفها الله تعالى حتى يدخله بها الجنة ، ثم قرأ ابن مسعود « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا . وَإِنْ كَانَ شَقِيًّا قَالَتْ
الْمَلَائِكَةُ : رَبِّ ! فَبَيِّنْ حَسَنَاتِهِ وَبَيِّنْ طَاعُونَ ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : « خُذُوا مِنْ أَعْمَالِهِمْ
فَاضِفُوهَا إِلَى سَيِّئَاتِهِ وَضَعُوهَا لَهُ صَكًّا إِلَى جَهَنَّمَ » .

قوله تعالى : قَفْنٌ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ وَمَنْ
خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١١٧﴾
تقدم الكلام فيهما .

قوله تعالى : تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١١٨﴾ أَلَمْ تَكُنْ
أَيُّهَا النَّبِيُّ عَلَيْنَا فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١١٩﴾

قوله تعالى : (تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ) ويقال « تلفح » بمعنى « ومنه » « وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ
لَفُتْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ » . « لا أَنْ » تلفح « أبلغ بأسا » يقال : لفحت النار والسَّوْمُ مجرهما
أحرته . ولفحته بالسيف لفحة إذا ضربته به [ضربة] خفيفة . (وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ) قال
ابن عباس : حابسون . وقال أهل اللغة : الكاوح تَكَثَّرُ فِي جُبُوسٍ . والكالح : الذي
قد تَشَمَّرَتْ شَفَتَاهُ وَبَدَتْ أَسْنَانُهُ . قال الأعشى :

وَلَهُ الْمُقْسَدُ لَا مِثْلَ لَهُ • سَاعَةَ الشَّدِيقِ عَنِ النَّابِ كَلَحَ

وقد كَلَحَ الرجل كَلُوحًا وَكَلَاحًا . وما أفتح كَلَحَتَهُ ، يراد به التَّمُّ وما حوَالَيْهِ . ودهر كالح
أى شديد . وعن ابن عباس أيضا « وهم فيها كاللون » يريد كالذي كَلَحَ وتقلصت شفاته
وسال صديده . وقال ابن مسعود : ألم تر إلى الرأس المُشَبَّطِ بالنار ، وقد بدت أسنانه وقَلَصَتْ
شَفَاهُ . وفي الترمذى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « وهم فيها
كاللون — قال — تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترى شفته
السفلى حتى تضرب شفته » قال : هذا حديث حسن صحيح غريب .

(١) آية ٤٠ سورة النساء . (٢) راجع ٧ ص ١٦٦ (٣) آية ٤٦ سورة الأنبياء .

قوله تعالى : **قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٥٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٥٧﴾ قَالَ اخْسَعُوا فِيهَا وَلَا تُكَاْمِرُونَ ﴿١٥٨﴾**

قوله تعالى : **(قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا)** قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم « شِقْوَتُنَا » وفرا الكوفيون إلا عاصم « شِقَاوَتُنَا » . وهذه القراءة مروية عن ابن مسعود والحسن . ويقال : شقاء وشقا ، بالمد والقصر . وأحسن ما قيل في معناه : غلبت علينا لذلتنا وأهواؤنا ، ففسى اللذات والأهواء شقوة ، لأنهما يؤذيان إليها ، كما قال الله عز وجل : **« إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا »** ؛ لأن ذلك يؤذيهم إلى النار . وقبل : ما سبق في علمك ، وكتب علينا في أم الكتاب من الشقاوة . وقبل : حسن الظن بالنفس وسوء الظن بالخلق . **(وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ)** أى كنا في فعلنا ضالين عن الهدى . وليس هذا اجتذارا منهم إنما هو إقرار ، وبدل على ذلك قولهم **(رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ)** طلبوا الرجعة إلى الدنيا كما طلبوها عند الموت . **(فَإِنْ عُدْنَا)** إلى الكفر **(فَإِنَّا ظَالِمُونَ)** لأنفسنا بالعود إليه فيجابون بعد ألف سنة : **(اخْسَعُوا فِيهَا وَلَا تُكَاْمِرُونَ)** أى أبعذوا في جهنم ، كما يقال للكلب : اخسأ ، أى أبعد . خسات الكلب خسفاً طرده . وخسأ الكلب بنفسه خسوا ، يستعدي ولا يتعدى . واخسأ الكلب أيضا . وذكر ابن المبارك قال : حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة يذكره عن أبي ايوب عن عبد الله بن عمرو بن العاصي قال : إن أهل جهنم يدعون مالكا فلا يجيبهم أربعين عاما ، ثم يرد عليهم : إنكم ما كنتم . قال : هانت والله دعوتهم على مالكا ورب مالكا . قال : ثم يدعون ربهم فيقولون : **« رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ »** . قال : فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين . قال : ثم يرد عليهم اخسأ فيها . قال : أفوالله ما أبس القوم بعدها بكلمة ، وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم .

نُشِبَهُ أصواتهم بصوت الجير ، أو طبا زفير وأنزعا شقيق ، نرحبه الترمذي مرفوعا بمعناه من حديث أبي الترداء . وقال قتادة : صوت الكفار في النار كصوت الحمار ، أوله زفير وآخره شقيق . وقال ابن عباس : يصبر لهم نباح الكلاب . وقال محمد بن كعب القرظي : بلغني أو ذكر لي أن أهل النار استغاثوا بالحزنية ... الخسبر بطوله ، ذكره ابن المبارك ، وقد ذكرناه بكلمة في التذكرة ، وفي آخره : ثم مكث عنهم ما شاء الله ، ثم ناداهم « أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُنْذِرُ عَلَيْكُمْ فُكْرَكُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ » قال : فلما سمعوا صوته قالوا الذي يرحمنا ربنا فقالوا عند ذلك « رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا » أي الكلاب الذي كذب علينا « وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَأَنَا ظَالِمُونَ » فقال عند ذلك « آخِضُوا إِلَيْهَا وَلَا تُكْمِرُونَ » فاقطع عند ذلك الدعاء والرجاء ، وأقبل بعضهم على بعض يلج بعضهم في وجوه بعض ، وأطبقت عليهم .

قوله تعالى : **إِنَّهُمْ كَانُوا فِرْقَيْنِ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠١﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ تَهْنِئَةً حَتَّى أَتَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضَعُونَ ﴿١٠٢﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا إِنَّهُمْ هُمُ الْفَاقِرُونَ ﴿١٠٣﴾**

قوله تعالى : (**إِنَّهُمْ كَانُوا فِرْقَيْنِ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا**) الآية . قال مجاهد : هم يلال وخباب وصبيب ، وفلان وفلان من ضعفاء المسلمين ؛ كان أبو جهل وأصحابه يهزءون بهم . (**فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ تَهْنِئَةً**) بالضم قراءة نافع وحركة الكسائي ها هنا وفي « ص » . وكسر الباقون . قال النحاس : ونزق أبو عمرو بينهما ، بفعل المكسورة من جهة التزؤ ، والمضمومة من جهة السخرة ، ولا يعرف هذا التفريق الخليل ولا سيبويه ولا الكسائي ولا الفراء . قال الكسائي : هما لنتان بمعنى واحد ؛ كما يقال : عُصِيَّ وعَصِيَّ ، ورُكِّيَّ ورُكِّيَّ . وحكى التلبي عن الكسائي : والفراء الفرق الذي ذكره أبو عمرو ، وأن الكسر بمعنى الاستبراء .

والسخرية بالقول ، والظَّم بمعنى التسخير والاستعباد بالفعل . وقال المبرد : إنما يؤخذ التفريق بين الماني عن العرب ، وأما التأويل فلا يكون . والكسر في صغرى في المعنيين جميعاً ؛ لأن الضمة تستقل في مثل هذا . (حَتَّى أَتَوْكُمْ ذِكْرِي) أى أشتغلتم بالاستهزاء بهم عن ذكرى . (وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ) استهزاء بهم ، وأضاف الإنشاء إلى المؤمنين لأنهم كانوا سبباً لأشتغالهم عن ذكره ؛ وتعذى شؤم استهزائهم بالمؤمنين إلى استيلاء الكفر على قلوبهم . (إِنِّي بَرِيءٌ يَوْمَ صَبْرًا) على أذاكم ، وصبروا على طاعتي . (أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ) فراحزة والكسائي بكسر الحززة على ابتداء المدح من الله تعالى لهم ، وفتح الباقون ؛ أى لأنهم هم الفائزون . ويجوز نصبه بوقوع الجزاء عليه ، تقديره : إنى جزيتهم اليوم الفوز بالجنة .

قلت : وينظر إلى معنى هذا قوله تعالى في آخر المطففين : « قَالِ يَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ » إلى آخر السورة ، على ما يأتى بيانه هناك إن شاء الله تعالى . ويستفاد من هذا : التحذير من السخرية والاستهزاء بالضعفاء والمساكين والاحتقار لهم ، والإضرار عليهم والاشتغال بهم فيما لا ينفع ، وأن ذلك مبيد من الله عز وجل .

قوله تعالى : قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٦﴾ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْخِلِ الْعَادِينَ ﴿١١٧﴾ قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٨﴾

قوله تعالى : (قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ) قيل : يعنى في التبور . وقيل : هو سؤال لهم عن مدة حياتهم في الدنيا ، وهذا السؤال للشركين في عرصات القيامة أو في النار . (عَدَدَ سِنِينَ) بفتح النون على أنه جمع مسلم ، ومن العرب من يخففها ويتونها . (قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) أنساهم شدة العذاب مدة مكثهم في القبور . وقيل : لأن العذاب رفع عنهم بين التفحيتين فسوا ما كانوا فيه من العذاب في قبورهم . قال ابن عباس : أنساهم ما كانوا فيه من العذاب من النسخة الأولى إلى الثانية ؛ وذلك أنه ليس من أحد قتله نبي أو رجل نبياً

أو مات بحضرة نبي إلا عذب من ساعة يموت إلى النفخة الأولى ، ثم يمسك عنه العذاب فيكون كالسأ حتى ينفخ الثانية . وقيل : استقصوا مدة آيهم في الدنيا وفي القبور وراوه يسيرا بالنسبة إلى ما هم بصدد . ﴿ فَأَسْأَلُ الْعَادِينَ ﴾ أى سأل الحساب الذين يعرفون ذلك فإنما قد نسبناه ، أو فأسأل الملائكة الذين كانوا معنا في الدنيا ؛ الأول قول قتادة ، والثاني قول جاهد . وقرأ ابن كثير وحزمة والكسائي « قل كم ليتم في الأرض » على الأمر . ويحتمل ثلاثة معاني : أحدها - قولوا كم ليتم ؛ فأنرج الكلام مخرج الأمر للواحد والمراد الجماعة ؛ إذ كان المعنى مفهوما . الثاني - أن يكون أمرا للآلئ ليسألهم يوم البعث عن قدر مكثهم في الدنيا . أو أراد قل أيها الكافر كم ليتم ، وهو الثالث . الباقون « قال كم » على الخبر ؛ أى قال الله تعالى لهم ، أو قالت الملائكة لهم كم ليتم . وقرأ حمزة والكسائي أيضا ﴿ قل إن ليتم إلا قليلا ﴾ الباقون « قال » على الخبر ، على ما ذكر من التأويل في الأول ؛ أى ما ليتم في الأرض إلا قليلا ؛ وذلك أن مكثهم في القبور وإن طال كان متناهيا . وقيل : هو قليل بالنسبة إلى مكثهم في النار ؛ لأنه لا نهاية له . ﴿ تَوَأْنَكُمْ كُنْتُمْ ثَغْلُونَ ﴾ ذلك .

قوله تعالى : الْحَسِبْتُمْ أَنْتُمْ خَلَقْتُمْ عَبَدًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ الْحَسِبْتُمْ أَنْتُمْ خَلَقْتُمْ كَمَا عَبَدْتُمْ الْبَهائمَ لَا تُرْجَعُونَ ﴾ ولا عقاب عليها ؛ مثل قوله تعالى : « الْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى » يريد كالبهائم مهملات غير فائدة . قال الترمذى الحكيم أبو عبد الله محمد بن علي : إن الله تعالى خلق الخلق عبيدا لعبده ، فيشبه على العبادة ويعاقبهم على تركها ، فإن عبده فهم اليوم له عبيد أحرار كرام من رق الدنيا ، ملوك في دار الإسلام ؛ وإن رفضوا العبودية فهم اليوم عبيد أباق سقاط للام ، وغدا أعداء في السجون بين أطباق النيران . و « عَبَدْتُمْ » نصب على الحال عند سيويوه وقطرب . وقال أبو عبيدة : هو نصب على المصدر أولائه مفعول له . ﴿ وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ فتجازون بأسمائكم . قرأ حمزة والكسائي « تُرْجَعُونَ » بفتح التاء وكسر الجيم من الرجوع .

(١) آية ٣٦ سورة النباة .

قوله تعالى : **فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ** ﴿١١٦﴾

قوله تعالى : (**فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ**) أى تَبَّه وتقدس الله الملك الحق عن الأولاد والشركاء والأنداد ، وعن أن يخلق شيئا عينا أو سفها ؛ لأنه الحكيم . (**لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ**) أى ليس فى القرآن غيرها . وقرا ابن محبصن و روى عن ابن كثير « **الكريم** » بالرفع نعتا لله .

قوله تعالى : **وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ** ﴿١١٧﴾ **وَأَن تَحْزِنَ أَلْرَّحِيمِينَ** ﴿١١٨﴾

قوله تعالى : (**وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ**) أى لا حجة له عليه (**فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ**) أى هو بما يقبه ويحاسبه . (**إِنَّهُ**) المياء ضمير الأمر والشان . (**لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ**) وقرا الحسن وقنادة « **لَا يُفْلَحُ** » - بالفتح - من كذب وجمهد ما جئت به وكفر نعتى . ثم أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بالاستغفار لتفتدى به الأمة . وقيل : أمره بالاستغفار لأمنه . وأسند التلجى من حديث ابن جزيمة عن عبد الله بن هبيرة عن حنّس بن عبد الله الصنعافى عن عبد الله بن مسعود أنه مر بمصعب بنلى فقرأ فى أذنه « **أفحسبتم إنما خلقناكم عبثا** » حتى ختم السورة فقرأ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **ماذا قرأت فى أذنه** » ؟ فأخبره ، فقال : « **والذى نفسى بيده لو أن رجلا موقفا قرأها على جبل زال** » .

(١) فى روح المعاني : « **الكريم** بالرفع على أنه صفة الرب ، ويجوز أن يكون صفة للعرش على التلعب » .

سورة النور

مدينة الإحساء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ

لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾

مقصود هذه السورة ذكر أحكام المغاف والسنة . وكتب عمر رضي الله عنه إلى أهل الكوفة : علموا بسورة النور . وقالت عائشة رضي الله عنها : لا تقرأوا النساء النور ولا تعلموهن الكتابة وعلموهن سورة النور والعدل . (وفرضنا) قرئ تخفيف الراء ، أى فرضنا عليكم وعلى من بعدكم ما فيها من الأحكام . وبالتشديد : أى أنزلنا فيها فرائض مختلفة . وقرأ أبو عمرو : « وفرضناها » بالتشديد أى قطعناها في الإزال لثبوتها . والقرض القطع ، ومنه فريضة القوس . وفرائض الميراث وفرض النفقة . وعنه أيضا « فريضناها » فصلناها وبنناها . وقيل : هو حل الكثير ، لكثرة ما فيها من الفرائض . والسورة في اللغة اسم لآئلة الشريعة ؛ ولذلك سُميت السورة من القرآن سورة . قال زهير :

ألم تر أن الله أعطاك سورة * ترى كل ملك دونها يتذبذب

وقد مضى في مقدمة الكتاب القول فيها . وقرئ « سورة » بالرفع حل أنها مبتدأ وخبرها « أنزلناها » قاله أبو عبيدة والأخفش . وقال الزجاج والفراء والمبرد . « سورة » بالرفع لأنها خبر الابتداء ؛ لأنها توكو ولا يتبدأ بالكوة في كل موضع ، أى هذه سورة . ويحتمل أن يكون قوله « سورة » ابتداء وما بعدها صفة لها أخرجتها عن حد الكوة المحضة فحسن الابتداء لذلك ، ويكون الخبر في قوله « الزاينة والآيات » . وقرئ « سورة » بالنصب ، حل تقدير أنزلنا سورة أنزلناها . وقال الشاعر :

- (١) كذا في الأصول . والمعرف أن هذا البيت لأبيه أبيه من نصيدة يمدح بها النعمان و يبتدئ .
(٢) راجع ج ١ ص ٦٥ طبعة ثانية أو ثالثة . - (٣) هو الربيع بن شبيب بن وهب (عن شرح الشواهد الكبرى للبيهقي) .

وَالذَّنَبَ أَخْشَاهُ إِنِ صُرْتُ بِهِ • وَحَدَى وَأَخْشَى الرِّيحَ وَالْمَطَرَا

أو تكون منصوبة بإسما فعل، أى آكل سورة • وقال الفراء: هى حل من الماء والألف،
والحال من المكى يجوز أن يتقدم عليه •

قوله تعالى: **الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَْشَهَدَ عَلَيْهِمَا ظَاهِقَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ** ٢٠

فيه إحدى وعشرون مسألة:

الأول — قوله تعالى: **(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي)** كان الزنى فى اللغة معروفا قبل الشرح، مثل اسم السرقة والقتل • وهو اسم لوطه الرجل امرأة فى فرجها من غير نكاح ولا شبهة نكاح بمطامعتها • وإن شئت قلت: هو إدخال فرج فى فرج مشتهى طبعاً محرم شرعاً؛ فإذا كان ذلك وجب الحد • وقد مضى الكلام فى حد الزنى وحقيقته وما للعلماء فى ذلك • وهذه الآية ناختة لآية الحبس وآية الأذى اللتين فى سورة «النساء» بانفاق •

الثانية — قوله تعالى: **(مِائَةَ جَلْدَةٍ)** هذا حد الزانى الحر البالغ البكر، وكذلك الزانية البالغة البكر الحرة • وثبت بالسنة تغريب عام، على الخلاف فى ذلك • وأما المملوكات فالواجب بحسب جلدته؛ لقوله تعالى: **«لَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْنِ نِصْفَ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ»** ٢١ وهذا فى الأمة، ثم العبد فى منأها • وأما المحصن من الأحرار فعليه الزجر دون الجلد • ومن العلماء من يقول: يجلد مائة ثم يُرجم • وقد مضى هذا كله ممهداً فى «النساء» فأغنى عن إعادته، والحمد لله •

الثالثة — قرأ الجمهور «الزَّانِيَةَ وَالزَّانِي» بالرفع • وقرأ عيسى بن عمر الثقفى «الزَّانِيَةَ» بالنصب، وهو أوجه عند سيبويه؛ لأنه عنده كفوك: زيدا أضرب، ووجه الرفع عنده:

«نهر ابتدأ»؛ وتقديره: فإيا يعل عليك [حكم] الزانية والزاني. وأجمع الناس على الزنى وإن كان القياس عند سيبويه النصب. وأما الفراء والمبرد والزجاج فإن الزنى عندهم هو الأوجه، والخبر في قوله «فأجلدوا»؛ لأن المعنى: الزانية والزاني مجلودان بحكم الله؛ وهو قول جيد، وهو قول أكثر النحاة. وإن شئت قدرت الخبر: ينبغي أن يحسبوا. وقرأ ابن مسعود «وألزأن» بغير ياء.

الرابعة - ذكر الله سبحانه وتعالى الذكر والأنثى، والزاني كان يكفى منهما فقبل ذكرهما للتأكيد، كما قال تعالى: «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا». ويحتمل أن يكون ذكرهما هنا لتلا بظن ظان أن الرجل لما كان هو الواطئ والمرأة محل ليست بواطئة فلا يجب عليها حد؛ فذكرها رفعا لهذا الإشكال الذي أوقع جماعة من العلماء منهم الشافعي. فذروا: لا كفارة على المرأة في الوطء في رمضان؛ لأنه قال جامعت أهل في نهار رمضان؛ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «كفر». فأمره «الكفارة» والمرأة ليست بجماعة ولا واطئة. الخامسة - قُنت «الزانية» في هذه الآية من حيث كان في ذلك الزمان زنى الله فاش، وكان لإمام العرب وبقياء الوقت إربات، وكفى مجاهرات بذلك. وقيل: لأن الزنى في النساء أمر وهو لأجل الحبل أضر. وقيل: لأن الشهوة في المرأة أكثر وعليها أغلب؛ فصدها تغليظا لتردع شهوتها، وإن كان قد رُكب فيها حياة لكنها إذا زنت ذهب الحياء كله. وأيضاً فإن المار بالنساء ألحق إذ موضوعهن المحجب والصيانة فقدم ذكرهن تغليظا واهتماما. السادسة - الألف واللام في قوله «الزانية والزاني» للنفس، وذلك يعطى أنها عامة في جميع الزناة. ومن قال بالجلد مع الرجم قال: السنة جاءت بزيادة حكم فيقام مع الجلد. وهو قول إجماع بن راهويه والحسن بن أبي الحسن، وفعله علي بن أبي طالب رضي الله عنه بشراسة، وقد مضى في «النساء» بيانه. وقال الجمهور: هي خاصة في البكرين، واستتلوا على أنها غير عامة بخروج العييد والإماء منها.

(١) في هذه العبارة تساهل؛ فإن التقدير الذي ذكره يقتضى أن يكون مبتدأ محذوف الخبر، كما ذكر ذلك غير واحد من المفسرين. (٢) زيادة من كتب التفسير. (٣) في الأصول: «الجنية». (٤) راجع ج ٥ ص ٨٧

السابعة — نص الله سبحانه وتعالى [على] ما يجب على الزائرين إذا شهد بذلك عليهما؛ على ما يأتي، وأجمع العلماء على القول به، واختلفوا فيما يجب على الرجل يوجد مع المرأة في توب واحد، فقال إسحاق بن رَاهُوَيْه : يصرب كل واحد منهما مائة جلدة . وروى ذلك عن عمر وعلى ، ولأس ثبت ذلك عنهما . وقال عطاء وسفيان الثوري : يؤذبان .^(١) وبه قال مالك وأحمد ، على قدر مذاههم في الأدب . قال ابن المذر : والأكثر من رأيته يرى على من وُجد على هذه الحال الأدب . وقد مضى في « هود » اختيار ما في هذه المسئلة ، والحمد لله وحده .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ فَاجِدُوا ﴾ دخلت الفاء لأنه موضع أمر والأمر مضارع للشرط . وقاله المبرد : فيه معنى الجزاء ، أى إن زنى زان فاعلموا به كذا ، ولهذا دخلت الفاء ؛ وهكذا « السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » .

التاسعة — لا خلاف أن الخطاب بهذا الأمر الإمام ومن ناب عنه . وزاد مالك والشافعي : السادة في البيد . قال الشافعي : في كل جلد وقطع . وقال مالك : في الجسد دون القطع . وقيل : الخطاب للمسلمين ؛ لأن إقامة مراسم الدين واجبة على المسلمين ، ثم الإمام ينوب عنهم ؛ إذ لا يمكنهم الاجتماع على إقامة الحدود .

العاشرة — أجمع العلماء على أن الجلد بالسَّوْط يجب . والسَّوْط الذى يجب أن يجلد به يكون سوطاً بين سَوَاطِين ، لا شديداً ولا لينا . وروى مالك عن زيد بن أسلم أن رجلاً اعترف على نفسه بالزنى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فعدا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسَّوْط ، فأُتِيَ بسَّوْط مكسور ، فقال : « فوق هذا » فأُتِيَ بسوط جديد لم تقطع ثمرته ، فقال : « دون هذا » فأُتِيَ بسوط قد رُكِبَ به ولان . فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم بجلد ... الحديث . قال أبو عمر : هكذا روى هذا الحديث مراسلاً لجميع

(١) كذا في الأصول ، وله يريه سورة النساء . راجع المسألة الثانية ج ٥ ص ٨٦

(٢) الثمرة : الطرف . يريه أن طرفة يحد لم تنكسر حدة ولم يفتح بيد .

(٣) يريه قد انكسرت حدة ولم يفتح ولا بلغ من الثين مبلغاً لا يألم من ضرب به . (راجع الموطأ بكتاب الحدود) .

رواة الموطأ، ولا أعلمه يستند بهذا اللفظ بوجه من الوجوه، وقد روى معمر عن يحيى بن أبي كثير عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله سواء . وقد تقدم في « المائدة » ضرب عمر قدامة في الخمر بسوط تام . يريد وسطاً .

الحادية عشرة - اختان العلماء في تجريد المجاهد في الزنى ؛ فقال مالك وأبو حنيفة وغيرهما : يجوز ، ويترك على المرأة ما يسترتها دون ما يقبض الضرب . وقال الأوزاعي : الإمام غير إن شاء تجرد وإن شاء ترك . وقال الشافعي والنخعي : لا يجوز ، ولكن يترك عليه قبض . قال ابن مسعود : لا يذل في هذه الآية تجريد ولا مد ، وبه قال الثوري .

الثانية عشرة - اختلاف العلماء في كيفية ضرب الرجال والنساء ؛ فقال مالك : الرجل والمرأة في الحدود كلها سواء ، لا يثام واحد منهما ؛ ولا يجزى عنده إلا في الظهر . وأصحاب الرأي والشافعي يرون أن يجلد الرجل وغزاة ، وهو قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه . وقال الأئمة وأبو حنيفة والشافعي : الضرب في الحدود كلها وفي التعزير مجزأ قائماً غير ممدود ؛ إلا حد القذف فإنه يضرب وعليه ثبابة . وحكاية المهدي في التحصيل عن مالك ، ويترفع عنه الحشو والفرو . وقال الشافعي : إن كان مده صلاحاً مده .

الثالثة عشرة - واختلفوا في المواضع التي تضرب من الإنسان في الحدود ؛ فقال مالك : الحدود كلها لا تضرب إلا في الظهر ، وكذلك التعزير . وقال الشافعي وأصحابه : يتنق الوية والفرج وتضرب سائر الأعضاء ؛ وروى عن علي . وأشار ابن عمر بالضرب إلى رجل أمة جلدها في الزنى . قال ابن عطية : والإجماع في تسليم الوجه والعودة والمقائيل . واختلفوا في ضرب الرأس ؛ فقال الجمهور : يتنق الرأس . وقال أبو يوسف : يضرب الرأس . وروى عن عمر وابنه فقالا : يضرب الرأس . وضرب عمر رضي الله عنه صديقاً في رأسه وكان تعزيراً لا حداً . ومن حجة مالك ما أدرك عليه الناس ، وقوله عليه السلام : « البينة وإلا حد في ظهرك » وسيأتي .

(١) في الأصول : « الجارود » وهو تضييف ؛ لأن الذي ضربه سيدنا محمد رضي الله عنه هو قدامة بن مظعون ، وقد ذكر المؤلف رحمه الله تعالى قصته في ج ٦ ص ٢٩٧ فراجعه هناك ، وراجع ترجمته في كتب الصغاة .

(٢) هو صبيغ (كأبى) بن عجل ، كان يبتئ الناس بالتواضع والسؤالات ؛ ففاه سيدنا محمد إلى البصرة .

الرابعة عشرة - الضرب الذي يجب هو أن يحسب مؤلماً لا يبرح ولا يتبع ، ولا يخرج الضارب يده من تحت إبطه . وبه قال الجمهور ، وهو قول علي وابن مسعود رضي الله عنهما . وأثنى عمر رضي الله عنه رجل في حد فأتى بسوط بين سوطين وقال للضارب : أضرب ولا يرى إبطك ؛ وأعط كل عضو حقه . وأثنى رضي الله عنه بشارب فقال : لأبشرك إلى رجل لا تأخذه فيك هواة ؛ فبعثه إلى مطيع بن الأسود المدوني فقال : إذا أصبحت القد فأضربه الحد ؛ بفاء ، عمر رضي الله عنه وهو يضربه ضرباً شديداً فقال : قتل الرجل ! كم ضربته ؟ فقال ستين ؛ فقال : أقص عنه عشرين . قال أبو عبيدة : « أقص عنه عشرين » يقول : اجعل شدة هذا الضرب الذي ضربته قصاصاً بالعشرين التي بقيت ولا تضربه العشرين . وفي هذا الحديث من الفقه أن ضرب الشارب ضرب خفيف . وقد اختلف العلماء في أشد الحدود ضرباً وهي :

الخامسة عشرة - فقال مالك وأصحابه والليث بن سعد : الضرب في الحدود كلها سواء ، ضرب غير مبرح ، ضرب بين ضربين . وهو قول الشافعي رضي الله عنه . وقال أبو حنيفة وأصحابه : التعزير أشد الضرب ؛ وضرب الزنى أشد من الضرب في النحر ؛ وضرب الشارب أشد من ضرب القذف . وقال الثوري : ضرب الزنى أشد من ضرب القذف ، وضرب القذف أشد من ضرب النحر . احتج مالك بورود التوقيف على عدد الجلدات ، ولم يريد في شيء منها تخفيف ولا تشديد ؛ يجب التسليم له . احتج أبو حنيفة بفعل عمر ، فإنه ضرب في التعزير ضرباً أشد منه في الزنى . احتج الثوري بأن الزنى لما كان أكثر عدداً في الجلدات استحال أن يكون القذف ألغى في النكابة . وكذلك النحر ، لأنه لم يثبت فيه الحد إلا بالاجتهاد ، وسبيل مسائل الاجتهاد لا يقوى قوة مسائل التوقيف .

السادسة عشرة - الحد الذي أوجب الله في الزنى والنحر والقذف وغير ذلك ينبغي أن يقام بين أيدي الحكم ، ولا يقيمه إلا فضلاء الناس وخيارهم يخارهم الإمام لذلك . وكذلك كانت الصحابة تفعل كما وقع لهم شيء من ذلك ، رضي الله عنهم . وسبب ذلك أنه

قيام بقاعدة شرعية وقُرْبَة تمبُدية ، تجب المحافظة على فعلها وقدرها ومحالها وحالها ، بحيث لا يَتَعَدَّى شيء من شروطها ولا أحكامها ؛ فإن دم المسلم وحرمة عظيمة ، فيجب مراعاته بكل ما أمكن . روى الصحيح عن حُضَيْنِ بْنِ الْمُنْذَرِ أَبِي سَاسَانَ قَالَ : شَهِدْتُ عَثَانَ بْنَ عَفَّانٍ وَاتَى بِالْوَلِيدِ قَدْ صَلَّى الصُّبْحَ رَكَّتَيْنِ ثُمَّ قَالَ : أَرَيْدُكُمْ ؟ فَشَهِدَ عَلَيْهِ رَجُلَانِ ، أَحَدُهُمَا حُمْرَانُ أَنَّهُ شَرِبَ الْخَمْرَ ، وَشَهِدَ آخَرُهُ أَنَّهُ رَأَاهُ يَتَقَيُّ ؛ فَقَالَ عَثَانُ : إِنَّهُ لَمْ يَتَقَيَّ حَتَّى شَرِبَهَا ؛ فَقَالَ : يَا عَلِيٌّ قُمْ فَأَجْلِدْهُ . فَقَالَ عَلِيٌّ : قُمْ يَا حُسَيْنُ فَأَجْلِدْهُ . فَقَالَ الْحُسَيْنُ : وَلَوْ حَارَّهَا مِنْ تَوَلَّى قَارَظًا (فَكَأَنَّهُ وَجَدَ عَلَيْهِ) فَقَالَ : يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَعْفَرٍ ، قُمْ فَأَجْلِدْهُ ؛ بِغَلْدِهِ وَعَلَى يَمِيْنِهِ ... الْحَدِيثُ . وَوَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْمُسَانَدَةِ . فَانْظُرْ قَوْلَ عَثَانَ لِلْإِمَامِ عَلِيٍّ : قُمْ فَأَجْلِدْهُ .

السَّابِعَةُ عَشْرَةَ - نص الله تعالى على عدد الجلد في الزنى والقذف ، وثبت التوقيف في الخمر على ثمانين من فعل عمر في جميع الصحابة - على ما تقدم في المسألة (٢) - فلا يجوز أن يَتَعَدَّى أَحَدٌ فِي ذَلِكَ كَلِمَةً . قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ : « وَهَذَا مَا لَمْ يَتَأَجَّزِ النَّاسُ فِي الشَّرِّ وَلَا أَحَادُثُ لَمْ يَمْنَعُوا ؛ حَتَّى يَتَسَدَّدُوا ضَرَارَةً وَيَمْلُظُونَ طَلِبًا بِالْمَوَادَّةِ فَلَا يَنْهَوْنَ عَنْ مَذَكِّهِمْ فَمَسْلُوهُ ؛ فَيُكَلِّفُهُ تَعْيِينَ الشَّدَّةِ وَيَزِيدُ الْحَدَّ لِأَجْلِ زِيَادَةِ الذَّنْبِ . وَقَدْ أَتَى عُمَرُ بِسُكْرَانَ فِي رَمَضَانَ فَضَرَبَهُ مِائَةً ؛ ثَمَانِينَ حَدَّ الْخَمْرِ وَعِشْرِينَ لَهْثِكَ حَرَمَةِ الشَّهْرِ . فَهَكَذَا يَجِبُ أَنْ تَرْكَبَ الْعُقُوبَاتُ عَلَى تَقْلِيْقِ الْجُنَايَاتِ وَهَتْكَ الْحَرَمَاتِ . وَقَدْ لَعِبَ رَجُلٌ بِصَبِيٍّ فَضَرَبَهُ الْوَالِي ثَلَاثِينَ سَوْطًا فَلَمْ يَغْيَرْ [ذَلِكَ] مَالِكٌ حِينَ بَلَغَهُ ، فَكَيْفَ لَوْ رَأَى زَمَانَنَا هَذَا يَهْتِكُ الْحَرَمَاتِ وَالْإِسْتِهَارَ بِالْمَعَاصِي ، وَالنِّظَاهَرَ بِالْمُنَاكَرِ وَبِيعَ الْحُدُودِ وَاسْتِيفَاءَ الْعَبِيدِ لَهَا فِي مَنْصَبِ الْقُضَاةِ ، لِمَاتِ كَدًا وَلَمْ يَجَالَسْ أَحَدًا ؛ وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » .

(١) بَهاءُ مَهْمَلَةٍ مُضْمَوْنَةٍ وَمُنَادٍ مُعْجَمَةٌ . (٢) قَالَ الرَّوْثِيُّ فِي شَرْحِ هَذَا الْحَدِيثِ « الْخَلَارُ : الشَّدِيدُ الْمَكْرُوهُ ، وَالْفَقَارُ : الْبَارِدُ الْخَفِيُّ . الطَّيِّبُ . وَهَذَا مَثَلٌ مِنْ أَمْثَالِ الْعَرَبِ ، مَعْنَاهُ : وَلَوْ شَقَّهَا وَأَوْسَاعَهَا مِنْ قَوْلِ هَيْبَتِهَا وَقَلْبَتِهَا ؛ وَلِضَعْفِهَا إِلَى الْخِلَافَةِ وَالْوَلَايَةِ ؛ أَيْ كَمَا أَنَّ عَثَانَ وَأَعَارِبَهُ يَتَوَلَّوْنَ هِيَ . الْخِلَافَةُ وَيَمْنَعُونَ بِهِ يَتَوَلَّوْنَ نَكَلَهَا وَقَادِرُونَ رَأَاهَا . وَمَعْنَاهُ : لَيَتَوَلَّى هَذَا الْجَلْدُ عَثَانَ بِشَيْءٍ أَوْ بِبَعْضٍ خَاصَّةً أَقَارِبَهُ الْأَذْيَانِ » .

(٣) رَاسِعٌ ج ٦ ص ٢٩٧ (٤) الضَّرَارَةُ : الْعَادَةُ . (٥) زِيَادَةُ عَمَّا ابْنُ الْعَرَبِيِّ .

قلت : ولهذا المعنى — والله أعلم — زيد في حدّ الخبر حتى انتهى إلى ثمانين . وروى
الذَّارِقُطِيُّ « حَدَّثَنَا الْقَاضِي الْحُسَيْنُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الدَّورِيُّ حَدَّثَنَا
صَفْوَانُ بْنُ صَيْصَى حَدَّثَنَا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ عَنْ الزَّهْرِيِّ قَالَ أَخْبَرَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَزْهَرَ قَالَ :
رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ حُتَيْنَ وَهُوَ يَتَخَلَّلُ النَّاسَ يَسْأَلُ عَنْ مَثَلِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ ،
فَأَنَّى يَسْكُرَانِ ، قَالَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَنْ عَنْدهَ فَضْرٌ يَوْهَ بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ .
وَقَالَ : وَحَقًّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ التَّرَابُ . قَالَ : يَمْ أَيْ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
بِسُكْرَانٍ ، قَالَ : فَتَوَحَّى الَّذِي كَانَ مِنْ ضَرْبِهِمْ يَوْمَئِذٍ ؟ فَضَرْبُ أَرْبَعِينَ . قَالَ الزَّهْرِيُّ :
ثُمَّ أَخْبَرَنِي حَمِيدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي وَبَرَةَ الْكَلْبِيِّ قَالَ : أُرْسِلْتُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى عَمْرٍو
قَالَ فَأَتَيْتُهُ وَمَعَهُ عَثَانُ بْنُ عَفَّانَ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَعَلِيٌّ وَطَلْحَةُ وَالزَّيْزِرُ وَهُمْ مَعَهُ مَتَكُونُونَ
فِي الْمَسْجِدِ فَقُلْتُ : إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ أُرْسِلْتُ إِلَيْكَ وَهُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ : إِنَّ
النَّاسَ قَدْ أَهْمَكُوا فِي الْخَمْرِ ! وَتَحَاقَرُوا الْعُقُوبَةَ فِيهِ ؟ فَقَالَ عَمْرٌو : هُمْ هَؤُلَاءِ عِنْدَكَ فَسَلِّمْهُمْ .
فَعَالَ عَلِيٌّ : نَرَاهُ إِذَا سَكِرَ هَذَى وَإِذَا هَدَى أَقْرَى وَعَلَى الْمُفْتَرَى ثَمَانُونَ ، قَالَ فَقَالَ عَمْرٌو :
أَلَيْعَ صَاحِبِكَ مَا قَالَ . قَالَ : بِغُلْدِ خَالِدِ ثَمَانِينَ وَعَمْرُ ثَمَانِينَ . قَالَ : وَكَانَ عَمْرٌو إِذَا أَتَى بِالرَّجُلِ
الضَّعِيفِ الَّذِي كَانَتْ مِنْهُ الذَّلَّةُ ضَرْبَهُ أَرْبَعِينَ . قَالَ : وَجُلْدُ عَثَانٍ أَيْضًا ثَمَانِينَ وَأَرْبَعِينَ .
وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَوْ تَأَخَّرَ الْحَلَالُ لِرَدِّكُمْ » كَالْمُتَكَلِّفِ لَمْ حِينَ أُبْرَأَ
أَنْ يَتَهَمُوا . فِي رَوَايَةٍ « لَوْ مَدَّ لَنَا الشَّهْرُ لَوَاصِلَنَا وَصَالًا يَتَّبِعُ الْمُتَمَتِّقُونَ تَعَمُّقَهُمْ » . وَرَوَى
سَامِدُ بْنُ يَحْيَى عَنْ يَلْفَيَّانٍ عَنْ مَسْعَرٍ عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي سَرْوَانَ أَنَّ عَلِيًّا ضَرَبَ النَّجَاشِيَّ فِي الْخَمْرِ
مِائَةَ جَلْدَةٍ ذَكَرَهُ أَبُو عَمْرٍو وَلَمْ يَذْكُرْ سَبَابًا .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : (وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ) أَي لَا تَتَمَتَّعُوا
عَنْ إِقَامَةِ الْحُدُودِ شَفَقَةً عَلَى الْمَحْدُودِ ، وَلَا تَخَفَفُوا الضَّرْبَ مِنْ غَيْرِ إِجْبَاحٍ ؛ هَذَا قَوْلُ جَمَاعَةٍ
أَهْلِ التَّفْسِيرِ . وَقَالَ الشَّعْبِيُّ وَالتَّخْتَنِيُّ وَصَبْعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : « لَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ » قَالُوا

(١) الحديث ذكر في صحيح مسلم في (كتاب الصوم) باب النبي عن الرمال في الصوم . وصحيح البخاري
في (كتاب الاضمار) باب ما يذكر من الصمت والتخلف ... الخ .

في الضرب والجلد . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : إقامة حدٍّ بأرضٍ غير لأهلها من مطر أربعين ليلة ؛ ثم قرأ هذه الآية . والرأفة أرق الرحمة . وقرئ « رأفة » بفتح الألف على وزن قَمَلَة . وقرئ « رأفة » على وزن قَمَالَة ؛ ثلاث لغات ، وهي كلها مصادر ، أشهرها الأولى ؛ من رَوَّفَ إذا زَقَّ ورَّحِمَ . ويقال : رأفة ورأفة ؛ مثل كُأَبَة وكَأَبَة . وقد رَأَفْتُ به ورَوَّفْتُ به . والروف من صفات الله تعالى : العطوف الرحيم .

الثاسعة عشرة ١٠ قوله تعالى : ﴿ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ أى في حُكْمِ الله ؛ كما قال تعالى : « مَا كَانَ يَأْخُذُ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ » أى في حكمه . وقيل : « في دين الله » أى في طاعة الله وشرعه فيما أمركم به من إقامة الحدود . ثم قرأهم على معنى التثبيت والحض بقوة قوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ . وهذا كما يقول رجل تحضه : إن كنت رجلاً فأفعل كذا ؛ أى هذه أفعال الرجال .

الموقية عشرين - قوله تعالى : ﴿ وَلَيَشْهَدَنَّ عَنْبَاءُ طَائِفَةٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قيل : لا يشهد العذيب إلا من لا يستحق التأديب . قال مجاهد : رَجُلٌ فافوقه إلى ألف . وقال ابن زيد : لابد من حضور أربعة قياساً على الشهادة على الزنى ، وأن هذا باب منه ؛ وهو قول مالك والليث والشافعي . وقال عكرمة وعطاء : لابد من اثنين ؛ وهذا مشهور قول مالك ، فراها موضع شهادة . وقال الزهري : ثلاثة ؛ لأنه أقل الجمع ، الحسن : واحد فصاعداً ، وعنه عشرة . الرابع : ما زاد على الثلاثة . وحجة مجاهد قوله تعالى : « فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ » ، وقوله : « وَإِنْ طَائِفَتَانِ » ، وزلت في تقابل رجلين ؛ فكذلك قوله تعالى : « وَلَيَشْهَدَنَّ عَنْبَاءُ طَائِفَةٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » . والواحد يسمى طائفة إلى الألف ؛ وقاله ابن عباس وإبراهيم . وأمر أبو برزة الأسلمي بجارية له قد زنت وولدت فأنق عليها ثوباً ، وأمر ابنه أن يضربها خمسين ضربة غير مبرح ولا خفيف لكن مؤلم ، ودعا جماعة ثم تلا « وَلَيَشْهَدَنَّ عَنْبَاءُ طَائِفَةٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » .

(١) آية ٧٦ ص: ٢٠٠ برف . (٢) آية ١٢٣ سورة البقرة . (٣) آية ٩ سورة المخرات .

الحادية والعشرون — اختلف في المراد بحضور الجماعة ، هل المقصود بها الإقلاظ على الزناة والتوبيخُ بحضرة الناس ، وإن ذلك يُردع المحدث ، ومن شهده وحضره يتخط به ويزدجر لأجله ، ويتيسع حديثه فيمتد به من بعده ، أو الدعاء لها بالتوبة والرحمة ؛ قولان للعلماء .

الثانية والعشرون — روى عن حذيفة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
 ” يا معاشر الناس اتقوا الزنى فإن فيه ست خصال ثلاثا في الدنيا وثلاثا في الآخرة فأما اللواتي في الدنيا فيذهب البهاء ويورث الفقر ويُتقص العمر وأما اللواتي في الآخرة فيوجب السخط وسوء الحساب والخلود في النار “ . وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” إن أعمال أمتي تعرض على كل جمعة مرتين فاشدد غضب الله على الزناة “ . وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” إذا كان ليلة النصف من شعبان أطلع الله على أمتي فغفر لكل مؤمن لا يشرك بالله شيئا إلا نعمة سحرا أو كاهنا أو عاقا لوالديه أو مدين نمر أو مصرا على الزنى “ .

قوله تعالى : **لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً** وَأَزْوَاجَهُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤١﴾
 فيه سبع مسائل :

الأولى — اختلف العلماء في معنى هذه الآية على ستة أوجه من التأويل :

الأول — أن يكون مقصد الآية تنبيه الزنى وتبشيع أمره ، وأنه محرم على المؤمنين .
 واتصال هذا المعنى بما قبل حسن بليغ . ويريد بقوله « لَا يَنْكِحُ » أى لا يبطا ، فيكون النكاح بمعنى الجماع . وردد القصة بمبالغة وأخذنا من كلا الطرفين ، ثم زاد تقسيم المشركة والمشركة من حيث الشرك أهم في المعاصي من الزنى ؛ فالمعنى : الزنى لا يبطا في وقت زناه إلا زانية من المسلمين ، أو من هي أحسن منها من المشركات . وقد روى عن ابن عباس راجحاه أن النكاح في هذه الآية الوطء . وأنكر ذلك الزجاج وقال : لا يعرف النكاح في كتاب الله تعالى إلا

(١) يلاحظ أن المؤلف رحمه الله ذكر أن المسائل إحدى وعشرون مسألة .

بمعنى التزوج . وليس كما قال ؛ وفي القرآن « حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ » وقد بينه النبي صلى الله عليه وسلم أنه بمعنى الوطء ، وقد تقدم في « البقرة » . وذكر الطبري ما يتجوز إلى هذا التأويل عن سميد بن جبيرة وابن عباس وعكرمة ، ولكن غير مخلص ولا مكمل . ومحكا الخطابي عن ابن عباس ، وأن مناه الوطء ؛ أى لا يكون زنى إلا بزانية ، ويفيد أنه زنى في الجهتين ؛ فهذا قول .

الثاني - ما رواه أبو داود والترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن مرثد ابن أبي جبرئيل كان يحمل الأسارى بككة ، وكان بككة يبنى يقال لها « عناق » وكانت صديقه ، قال : بلغت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ، أنيكح عناق ؟ قال : فسكت عني ؛ فزلت « والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك » ؛ فدعاني فقراها على وقال : « لا تنكحها » . لفظ أبي داود ، وحديث الترمذي أكمل . قال الخطابي : هذا خاص بهذه المرأة إذ كانت كافرة ، فاما الزانية المسلمة فإن المقد عليها لا يفسخ .

الثالث - أنها مخصوصة في رجل من المسلمين أيضا استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في نكاح امرأة يقال لها « أم مهزول » وكانت من بنات الزانيات ، وشرطت أن تنفق عليه ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية ؛ قاله عمرو بن العاصي ومجاهد .

الرابع - أنها نزلت في أهل الصفقة ، وكانوا قوما من المهاجرين ، ولم يكن لهم في المدينة مساكن ولا عشاير فقلوا صفقة المسجد ، وكانوا أربعمائة رجل يثمنون الزرق بالنهار ويأوون إلى الصفقة بالليل ، وكان بالمدينة بنات متعالتات بالفجور ، فخاصب بالكسوة والطعام ؛ فهم أهل الصفقة أن يتزوجوهن فباووا إلى مساكنهن وياكلوا من طعامهن وكسوتهن ؛ فزلت هذه الآية صيانة لهم عن ذلك ؛ قاله ابن أبي صالح .

الخامس - ذكره الزجاج وغيره عن الحسن ، وذلك أنه قال : المراد الزاني المحدود والزانية المحدودة ، قال : وهذا حكم من الله ، فلا يجوز لزان محدود أن يتزوج إلا محدودة .

وقال إبراهيم النخعي نحوه . وفي مصنف أبي داود عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا ينكح الزاني المحدث إلا مثله » . وروى ابن المحدث أن زواج غير محدودة ففترق على رضى الله عنه بينهما : قال ابن العربي : وهذا معنى لا يصح نظرا كما لم يثبت تقلا ، وهل يصح أن يوقف نكاح من جذ من الرجال على نكاح من جذ من النساء ! فبأي أثر يكون ذلك ، وعلى أي أصل يقاس من الشريعة !

قلت - وحكى هذا القول الريكا عن بعض أصحاب الشافعي المتأخرين ، وإن الزاني إذا تزوج غير زانية تزى بينهما لظاهر الآية . قال الريكا : وإن هو عمل بالظاهر فيلزمه عليه أن يجوز للزاني التزوج بالمشركة ، ويمسوز للزانية أن تزوج نفسها من مشرك ، وهذا في غاية البعد ، وهو خروج عن الإسلام بالكلي ، وربما قال هؤلاء : إن الآية منسوخة في المشرك خاصة دون الزانية .

السادس - أنها منسوخة ، وروى مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال : « الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك » قال : نسخت هذه الآية التي بعدها « وأنكحوا الأيامى منكم » ، وقاله ابن عمر ، قال : دخلت الزانية في آيائهم المسلمين . قال أبو جعفر النحاس : وهذا القول عليه أكثر العلماء . وأهل الفتيا يقولون : إن من زنى بأمرأة فله أن يتزوجها ولغيره أن يتزوجها . وهو قول ابن عمر وسالم وجابر ابن زيد وعطاء وطاوس ومالك بن أنس ، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه . وقال الشافعي : القول فيها كما قال سعيد بن المسيب ، إن شاء الله هي منسوخة . قال ابن عطية : وذكر الإجماع في هذه الآية يذهب هذه المناق . قال ابن العربي : والذي عندي أن النكاح لا يخلو إن راد به الوطء كما قال ابن عباس أو المقدس ، فإن أريد به الوطء فإن معناه : لا يكون زنى إلا بزانية ، وذلك عبارة عن أن الوطئين من الرجل والمرأة زنى من الجهتين ، ويكون تقدير الآية : وطء الزانية لا يقع إلا من زان أو مشرك ، وهذا يؤثر عن ابن عباس ، وهو معنى صحيح .

فلان قيل : فإذا زنى بالغ بصبية ، أو عاقل بجنونة ، أو مستيقظ بنامة فإن ذلك من جهة الرجل زنى ، فهذا زان نكح غير زانية ، فيخرج المراد عن يابه الذى تقدم . قلنا : هو زنى من كل جهة ، إلا أن أحدهما سقط فيه الحسد والآثر ثبت فيه . وإن أريد به العقد كان معناه : أن متزوج الزانية التى قد زنت ودخل بها ولم يستبرئها يكون بمنزلة الزانى ، إلا أنه لا حد عليه لاختلاف العلماء فى ذلك . وأما إذا عقد عليها ولم يدخل بها حتى يستبرئها فذلك جائز إجماعا . وقيل : ليس المراد فى الآية أن الزانى لا ينكح قط إلا زانية ، إذ قد يتصور أن يتزوج غير زانية ، ولكن المعنى أن من تزوج بزانية فهو زان ، فكأنه قال : لا ينكح الزانية إلا زان ؛ فقلب الكلام ، وذلك أنه لا ينكح الزانية إلا وهو راض بزناها ، وإنما يرضى بذلك إذا كان هو أيضا زنى .

الثانية - فى هذه الآية دليل على أن التزوج بالزانية صحيح . وإذا زنت زوجة الرجل لم يفسد النكاح ، وإذا زنى الزوج لم يفسد نكاحه مع زوجته ؛ وهذا على أن الآية منسوخة . وقيل إنها محكمة . وساقى .

الثالثة - روى أن رجلا زنى بامرأة فى زمن أبى بكر رضى الله عنه فجلدها مائة جلدة ، ثم زوج أحدهما من الآخر مكانه ، وفماهما سنة . وروى مثل ذلك عن عمر وابن مسعود وجابر رضى الله عنهم . وقال ابن عباس : أوله سفاح وآخره نكاح . ومثل ذلك مثل رجل سرق من حائط ثمره ثم أتى صاحب البستان فأشترى منه ثمره ؛ فما سرق حرام وما اشترى حلال . وبهذا أخذ الشافعى وأبو حنيفة ، ورأوا أن المساء لا حرمة له ؛ وروى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : إذا زنى الرجل بالمرأة ثم نكحها بسد ذلك فهما زانيان أبدا . وبهذا أخذ مالك رضى الله عنه ؛ فرأى أنه لا ينكحها حتى يستبرئها من مائه الفاسد ؛ لأن النكاح لا حرمة ، ومن حرمة ألا يصلب على ماء السفاح ؛ فيختلط الحرام بالحلال ، ويمتزج ماء المهرانة بماء العسوة .

(١) حجة ابن العربى كافى أحكامه : « مثل رجل سرق ثم اشتراها » .

الرابعة - قال ابن خزيمة : من كان معروفاً بالزنى أو غيره من الفسوق مُعْلَنًا به
تُزَوَّج إلى أهل بيت ستروا عنهم من نفسه ظلم الخيار في البقاء معه أو فراقه ، وذلك كتيب
من العيوب ، واحتج بقوله عليه السلام : " لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله " . قال ابن
خزيمة : وإنما ذكر المجلود لاشتهاره بالفسق ، وهو الذي يجب أن ينفق بينه وبين غيره ؛
فأما من لم يشتهر بالفسق فلا .

الخامسة - قال قوم من المتقدمين : الآية محكمة غير منسوخة ، وعند هؤلاء : من
زنى فسد النكاح بينه وبين زوجته ، وإذا زنت الزوجة فسد النكاح بينها وبين زوجها .
وقال قوم من هؤلاء : لا ينفسخ النكاح بذلك ، ولكن يؤمر الرجل بطلاقها إذا زنت ،
ولو أمسكها أثم ، ولا يجوز التزوج بالرابعة ولا من الزاني ، بل لو ظهرت الثوبة لحنك
يُحْزَنُ النكاح .

السادسة - (وَيُحَرِّمُ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) أى نكاح أولئك البغايا فيزيم بعض أهل
الناويل أن نكاح أولئك البغايا حرمه الله تعالى على أمة محمد عليه السلام ، ومن أشهرهم عتاق .
السابعة - حرم الله تعالى الزنى في كتابه ، لحثنا زنى الرجل فعليه الحد ، وهذا قول مالك
والشافعي وأبي ثور . وقال أصحاب الرأي في الرجل المسلم إذا كان في دار الحرب بأمان وزنى
هناك ثم نرج لم يحد . قال ابن المنذر : دار الحرب ودار الإسلام سواء ، ومن زنى فعليه
الحد ؛ على ظاهر قوله « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » .

قوله تعالى : **وَالَّذِينَ يَرْمِزُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَا يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ**
فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ ٥ **إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ**
غَفُورٌ رَحِيمٌ ٦

فيه ست وعشرون مسألة :

الأولى - هذه الآية نزلت في القاذفين . قال سعيد بن جبير : كان سبها ما قيل في عائشة . أم المؤمنين رضي الله عنها . وقيل : بل نزلت بسبب القذبة عائلاً لا في تلك النازلة . وقال ابن المنذر : لم ينجد في أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم خبراً يدل على تصريح القذف ، وظاهر كتاب الله تعالى مستغنى به ، دالاً على القذف الذي يوجب الحد ، وأهل العلم على ذلك مجمعون .
الثانية - قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يَزْنُونَ) يريد يسبون ، واستعير له اسم الزنى لأنه إذا ذاب بالقول كما قال النابغة :

وجرح اللسان بجرح اليد .

وقال آخر :

تعماني بأمر كتبت منه ووالذي . . . يريثا زمن أجل الطوى رماي^(١)

ويسمى قذفاً ، ومنه الحديث : إن ابن أمية قذف امرأته بشريك بن السجاء ، أى رماها .

الثالثة - ذكر الله تعالى في الآية النساء من حيث هن أعم ، ومنهن بالفاحشة أشنع وأتقى للنفس . وقذف الرجال داخل في حكم الآية بالمعنى ، وإجماع الأمة على ذلك . وهذا هو نصه على تحرير لم الخنيز ودخل شحمه وغضاريفه ، ونحو ذلك بالمعنى والإجماع . وعكس الزهراوى أن المعنى : والأفقس المحصنات ، فهى لفظها تم الرجال والنساء ، ويدل على ذلك قوله : « وَالْمَحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ » . وقال قوم : أراد بالمحصنات الفروج ، كما قال تعالى : « وَالَّتِي أَحْصَتْ فَرْجَهَا » . فيدخل فيه فروج الرجال والنساء . وقيل : إنما ذكر المرأة الأجنبية إذا قذفت ليعطف عليها قذف الرجل وزوجته ، والله أعلم . وقرأ الجمهور « المحصنات » بفتح الهاء ، وكسرها يحمي بن وثاب . والمحصنات المعانف في هذا الموضع . وقد مضى في « النساء » ذكر الإحصان ومرتبه . والمحمد لله .

(١) البيت لابن جرير - الطوى : البئر . (٢) في الأصول : « من حيث هو أمر » . وخياره البئر المحيط لأبي حيان أمين ، وهو : « رخص النساء . بذلك وإن كان الرجال يشركهن في الحكم لأن القذف فيهن أشنع وأتقى للنفس ، ومن حيث هن عوى الرجال » الخ . (٣) آية ٢٤ سورة النساء . (٤) آية ٩١ سورة الأنبياء . (٥) راجع به ص ١٢٩ وما بعدها .

الرابعة - المذنب شرعاً عند العلماء تسعة : شرطان في الفاذف، وهما العقل والبلوغ، لأنهما أصلا التكليف، إذ التكليف ساقط دونهما، وشرطان في الشيء، المذنب به، وهو أن يقدف بوطء يلزمه فيه الحد، وهو الزنى والواطء، أو ينفيه من أبيه دون سائر المعاصي، ونسبة في المذنب، وهى العقل والبلوغ والإسلام والحرية والعفة عن الفاحشة التي رُمي بها كأن عقفاً من غيرها أم لا، وإنما شرطنا في المذنب العقل والبلوغ كما شرطناهما في الفاذف، وإن لم يكونا من معاني الإحصان لأجل أن الحد إنما وضع للزجر عن الإذابة بالمضرة الداخلة على المذنب، ولا مضرة على من عدم العقل والبلوغ، إذ لا يوصف اللواط فيهما ولا منهما بأنه زنى .

الخامسة - اتفق العلماء على أنه إذا صرح بالزنى كان قدفاً ورتباً موجباً للحد، فإن عارض ولم يُصرح فقال مالك : هو قدف . وقال الشافعي وأبو حنيفة : لا يكون قدفاً حتى يقول أردت به القدف . والدليل لما قاله مالك هو أن موضوع الحد في القدف إنما هو لإزالة المذرة التي أوقعتها الفاذف بالمقدوف، فإذا حصلت المذرة بالتعرض وجب أن يكون قدفاً كما تصريح والمعزول على الفهم، وقد قال تعالى عجباً عن شعيب : « إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَقِيمُ الرَّشِيدُ » أى السفيه الضال، فعرضوا له بالسب بكلام ظاهره المدح في أحد التاويلات، حسبها تقدم في هود . وقال تعالى في أبي جهل : « ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ » . وقال حكاية عن صريم : « يَا أَخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا »، فلدحوا أباهاً ونفسوا عن أمها البغاء، أى الزنى . وعرضوا لمريم بذلك، ولذلك قال تعالى : « وَكَفَرْنَاهُمْ وَقَوْلَهُمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا »، وكفرهم بعروفت، والبهتان العظيم هو التعريض لها، أى ما كان أبوك أمراً سوءاً وما كانت أمك بغياً، أى أنت بخلافهما وقد أتيت بهذا الولد . وقال تعالى : « قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَّ هُنْدَى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ »، فهذا اللفظ قد فهم منه أن المراد به أن الكفار على غير هدى، وأن الله تعالى ورسوله على الهدى، ففهم من هذا التعريض ما يفهم من صريحه . وقد حسن عمر رضى الله عنه الخطيب لما قال :

- (١) راجع ص ٨٧ طبة أول أو ثانية . (٢) آية ٤٩ سورة الفاتحة .
(٣) آية ٢٨ سورة مريم . (٤) آية ١٥٦ سورة النساء . (٥) آية ٢٤ سورة سبا .

دَجَّ الْمَكَامِ لَا تَرْجُلُ لُبَّتِيهَا • وَأَقْعِدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّامِ الْكَاسِي
لأنه شبهه بالنساء في أنهم يُطْعَمْنَ وَيُسْقَيْنَ وَيُكْسَوْنَ • ولما سمع قول النجاشي :
قيلته لا يغيرون بدمه • ولا يظلمون الناس حجة نردلي
قال : ليت انقلب كذلك ؛ وإنما أراد الشاعر ضعف القبيلة ؛ ومثله كبير .

السادسة - الجمهور من العلماء على أنه لا حد على من قذف رجلا من أهل الكتاب
أو امرأة منهم • وقال الزهري - وسعيد بن المسيب وابن أبي ليلى : عليه الحد إذا كان لما ولد
من مسلم • وفيه قول ثالث - وهو أنه إذا قذف النصرانية تحت المسلم جلد الحد • قال
آبن المنذر : وجعل العلماء يجمعون ويقولون بالقول الأول ، ولم أدرك أحدا ولا لقيته يخالف
في ذلك • وإذا قذف النصراني المسلم الحز فعليه ما على المسلم ثمانون جلد • لا أعلم
في ذلك خلافا .

السابعة - والجمهور من العلماء على أن العبد إذا قذف حرا يجلد أربعين ؛ لأنه حد
يتشطر بالرق كحد الرقي • وروى عن ابن مسعود وعمر بن عبد العزيز وقبيصة بن ذؤيب يجلد
ثمانين • وجلد أبو بكر بن محمد عبدا قذف حرا ثمانين ؛ وبه قال الأوزاعي • احتج الجمهور
بقول الله تعالى : « فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْنَّ يَصِفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ »^(١) .
وقال الآخرون : فهما هناك أن حد الرقي لله تعالى • وأنه ربما كان أخف فيمن قلت نعم
الله عليه ، وأخف فيمن عظمت نعم الله عليه • وأما حد القذف لحق للآدمي • وجب للجنابة
على حريض المذدوف ، والجنابة لا تختلف بالرق والحرية • وربما قالوا : لو كان يختلف
لذكر كذا ذكر في الرقي • قال ابن المنذر : والذي عليه علماء الأنصار القول الأول ، وبه أقول .
الثامنة - وأجمع العلماء على أن الحز لا يجلد للعبد إذا اقترى عليه ؛ لتباين مرتبتهما ،
ولقوله عليه السلام : « من قذف مملوكه بالرق أقيم عليه الحد يوم القيامة إلا أن يكون
كما قال " نرجه البخاري " ومسلم • وفي بعض طرقه : « من قذف عبده برقي ثم لم يثبت أقيم

عليه يوم القيامة الحدّ ثمانون“ ذكره الثَّارِقُطِيُّ . قال العلماء : وإنما كان ذلك في الآخرة لأرتفاع الملك واستواء الشرف والوضيع والحرز والعبد ، ولم يكن لأحد فضل إلا بالتقوى ، ولما كان ذلك تكافأ الناس في الحدود والحرمة ، وأقتَص من كل واحد لصاحبه إلا أن يعفو المظلوم من الظالم . وإنما لم يتكافؤوا في الدنيا لئلا تدخل الباطلة على المالكين في مكافأتهم لهم ، فلا يصح لهم حرمة ولا فضل في مثله ، وتبطل فائدة التسخير ، حكمة من الحكيم العليم ، لا إله إلا هو .

التاسعة - قال مالك والشافعي : من قذف من يحسبه عبداً فإذا هو حر فعليه الحدّ ؛ وقاله الحسن البصري وأختره ابن المنذر . قال مالك : ومن قذف أم الولد حدّ ؛ وروى عن ابن عمر ، وهو قياس قول الشافعي . وقال الحسن البصري : لا حدّ عليه .

العاشر - واختلف العلماء فيمن قال لرجل : يا من وطئ بين التخذين ، فقال ابن القاسم : عليه الحدّ ؛ لأنه تعريض . وقال أشهب : لا حدّ فيه ؛ لأنه نسبة إلى فعل لا يعدّ زنى إجماعاً .

الحادية عشرة - إذا رمى صبية يمكن مطؤها قبل البلوغ بالزنى كان قذفاً عند مالك . وقال أبو حنيفة والشافعي وأبو ثور : ليس بقذف ؛ لأنه ليس بزنى إذ لا حدّ عليها ، ويعزّر . قال ابن العربي : والمسئلة محتملة مشككة ، لكن مالك طلب حماية عرض المقدوف ، وغيره راعى حماية ظهر القاذف ، وحماية عرض المقدوف أولى ؛ لأن القاذف كشف ستره بطرف لسانه فلزمه الحدّ . قال ابن المنذر : وقال أحمد في الجارية بنت تسع : يحد قاذفها ، وكذلك الصبي إذا بلغ عسراً ضرب قاذفه . قال إسحاق : إذا قذف غلاماً بظاً مثله فطليه الحدّ ، والجارية إذا جاوزت تسعاً مثل ذلك : قال ابن المنذر : لا يحدّ من قذف من لم يبلغ ؛ لأن ذلك كذب ، ويعزّر على الأذى . قال أبو عبيد : في حديث علي رضي الله عنه أن أمراً جاءته فذكرت أن زوجها يأتي جاريته فقال : إن كنت صادقة رجمت وإن كنت كاذبة

جلدناك . فقالت : رُدوني إلى أهل غَيْرِي نِزْرَةً . قال أبو عبيد : في هذا الحديث من الفقه أن على الرجل إذا واقع جارية أمر أنه الحَدُّ . *

وفيه أيضا إذا قذفه بذلك فاذف كان على قاذفه الحسد ؛ إلا تسمع قوله : وإن كنت كاذبة جلدناك . ووجه هذا كله إذا لم يكن الفاعل جاهلا بما يأتي وبما يقول ، فإن كان جاهلا وادعى شبهة دُرِيَّ عنه الحَدُّ في ذلك كله .

وفيه أيضا أن رجلا لو قذف رجلا بخضرة حاكم وليس المقذوف بخاضر أنه لا شيء على القاذف حتى يبيىء فيطلب حقه ؛ لأنه لا يدري لعله يصدق ؛ ألا ترى أن عليا عليه السلام لم يعرض لها .

وفيه أن الحاكم إذا قذف عنده رجل ثم جاء المقذوف فطلب حقه أخذه الحاكم بالحَدِّ بسماحه ؛ ألا تراه يقول : وإن كنت كاذبة جلدناك ؛ وهذا لأنه من حقوق الناس .

قلت : اختلف هل هو من حقوق الله أو من حقوق الآدميين ؛ وسأيت ، قال أبو عبيد : قال الأصمعي بآلتي شعبة عن قوله « غَيْرِي نِزْرَةً » ؛ فقلت له : هو مأخوذ من نَزَرِ القُدْرُ ، وهو غلبتها وقودها ؛ يقال منه : نَغَرْتُ تَنْغَرُ ؛ ونَغَرْتُ تَنْغَرُ إذا غلبت . فعنه أنها أرادت أن جوفها ينجلي من النيط والغبرة لما لم يجد عنده ما تريد . قال : ويقال منه رأيت فلانا يتنغر على فلان ؛ أى يغلب جوفه عليه نغيظا .

الثانية عشرة — من قَذَفَ زوجة من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم حَذَّ حَتَيْنِ ، قاله مسروق . قاله ابن العربي : والصحيح أنه حَذَّ واحد ؛ لمعوم قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ » الآية ، ولا يقتضى شَرْفُهن زيادة في حَذِّهن ؛ لأن شرف الممتزلة لا يؤثر في الحدود ؛ ولا تفصها يؤثر في الحد ؛ ينتقص . والله أعلم . وسأيت الكلام فيمن قذف مائسة رضى الله عنها ، هل يقتل أم لا ؛

الثالثة عشرة — قوله تعالى : (ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ) الذى يفتقر إلى أربعة شهداء دون سائر الحقوق هو الزنى ؛ رحمة بعباده وسترا لهم . وقد تقدم في سورة النساء .

(١) سَأَيْتُ الكلام على هذه الكلمة بعد قليل . (٢) راجع ج ٥ ص ٨٢ طبعه ايل أرناطة .

الرابعة عشرة - من شرط أداء الشهود الشهادة عند مالك رحمه الله أن يكون ذلك في مجلس واحد ؛ فإن افرقت لم تكن شهادة . وقال عبد الملك : تقبل شهادتهم مجتمعين ومفترقين . فأرى مالك أن اجتماعهم تعبد ؛ وبه قال ابن الحسن . ورأى عبد الملك أن المقصود أداء الشهادة واجتماعهم وقد حصل ؛ وهو قول عثمان بن أبي ثور واختاره ابن المنذر لقوله تعالى : « ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ » وقوله : « فَإِنْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ » ولم يذكر مفترقين ولا مجتمعين .

الخامسة عشرة - فإن تمت الشهادة إلا أنهم لم يعدلوا ؛ فكان الحسن البصري والشعبي يريان أن لا حد على الشهود ولا على المشهود ؛ وبه قال أحمد والثمان ومحمد بن الحسن . وقال مالك : إذا شهد عليه أربعة بالزنى فإن كان أحدهم مسقوطا عليه أو عبدا يجلدون جميعا . وقال سفيان الثوري وأحمد وإسحاق في أربعة عيان يشهدون على امرأته بالزنى : يضربون . السادسة عشرة - فإن رجع أحد الشهود وقد رجع المشهود عليه في الزنى ؛ فقالت طائفة : يقرم ربع الذية ولا شيء على الآخرين . وكذلك قال قتادة ومحمد وعكرمة وأبو هاشم ومالك وأحمد وأصحاب الرأي . وقال الشافعي : إن قال عمدت ليقول ؛ فالأولى بالخيار إن شاءوا قتلوا وإن شاءوا عفووا وأخذوا ربع الذية ؛ وعليه الحد . وقال الحسن البصري : يقتل ؛ وعلى الآخرين ثلاثة أرباع الذية . وقال ابن سيرين : إذا قال أخطأت وأردت غيره فعليه الذية كاملة ؛ وإن قال تعمدت قتل ؛ وبه قال ابن شبرمة .

السابعة عشرة - واختلف العلماء في حد الفذف هل هو من حقوق الله أو من حقوق الأدميين أو فيه شائبة منهما ؛ الأول - قول أبي حنيفة . والثاني - قول مالك والشافعي . والثالث - قاله بعض المتأخرين . وفائدة الخلاف أنه إن كان حقا لله تعالى وبلغ الإمام أقامه وإن لم يطلب ذلك المذدوف ؛ ونقض الفاذف التوبة فيما بينه وبين الله تعالى ؛ وينشطر فيه الحد بالزنى . وإن كان حقا للأدنى فلا يقيم الإمام إلا بمطالبة المذدوف ؛ ويسقط بعفوه ؛ ولم تنفع الفاذف التوبة حتى يحلله المذدوف .

الثامنة عشرة - قوله تعالى : ﴿ وَأَرْبَعَةٌ شُهَدَاءُ ﴾ قراءة الجمهور على إضافة الأربعة إلى الشهداء . وقرا عبد الله بن مسلم بن يسار وأبو زرعة بن عمرو بن جرير « بأربعة » (التنوين) « شهداء » . وفيه أربعة أوجه : يكون في موضع جر على التعت لأربعة ، أو بدلا . ويجوز أن يكون حالا من نكرة أو تمييزا ؛ وفي الحال والتمييز نظر ؛ إذ الحال من نكرة ، والتمييز مجموع . وسيبويه يرى أنه تنوين البدل ، وترك إضافته إنما يجوز في الشعر . وقد حسن أبو الفتح عثمان ابن جني هذه القراءة وحسب على قراءة الجمهور . قال النحاس : ويجوز أن يكون « شهداء » في موضع نصب ، بمعنى ثم لم يحضروا أربعة شهداء .

التاسعة عشرة - حكم شهادة الأربعة أن تكون على معانية يرؤن ذلك كالمرد في المصلحة ؛ على ما تقدم في « النساء » في نص الحديث ، وإن تكون في موطن واحد ، على قول مالك . وإن اضطرب واحد منهم جلد الثلاثة ؛ كما فعل عمر في أمر المنيرة بن شعبة ؛ وذلك أنه شهد عليه بالزنى أبو بكر نفع بن الحارث وأخوه نافع ؛ وقال الزهراوى : عبد الله بن الحارث ، وزياذ أخوها الأم وهو مستلحق معاوية ، وشبل بن معبد البجلي ، فلما جاءوا لأداء الشهادة وتوقف زياد ولم يؤدها ، جلد عمر الثلاثة المذكورين .

الوفية عشرين - قوله تعالى : ﴿ فَأَجْلِدُوهُمْ ﴾ الجلد الضرب . والمجالد المضااربة في الجلود أو بالجلود ، ثم استعير الجلد لغير ذلك من سيف أو غيره ، ومنه قول قوس بن الخطيم : أجالد هم يوم الحديقة حاسرا * كأن يدي بالسيف يحرق لاعب (ثمانين) نصب على المصدر . (جلدة) تميز . ﴿ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ﴾ هذا يقتضى مدة أعمارهم ، ثم حكم عليهم بأنهم فاسقون ؛ أى خارجون عن طاعة الله عز وجل .

الحادية والعشرون - قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا ﴾ في موضع نصب على الاستثناء . ويجوز أن يكون في موضع خفض على البدل ، والمعنى ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا إلا الذين تابوا وأصلحوا من بعد الغدق ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . فتضمنت الآية ثلاثة أحكام في القاذفين :

(١) يردت هذه الكلمة مضطربة في نسخ الأصل ؛ ففي نسخة « غيب » زنى أنرى « ورجوت » . وفي رواية « وجبت » . (٢) رابع ٥٥ ص ٨٣ .

جلده، وردّ شهادته أبداً، وفسقه. فالاستثناء غير عامل في جلده بإجماع؛ إلا ما روى عن الشعبي على ما يأتي، وعاملٌ في فسقه بإجماع. واختلف الناس في عمله في ردّ الشهادة؛ فقال شريح القاضي وإبراهيم النخعي والحسن البصري وسفيان الثوري وأبو حنيفة: لا يعمل الاستثناء في ردّ شهادته، وإنما يزول فسقه عند الله تعالى. وأما شهادة الفاذف فلا تقبل البتة ولو تاب واكذب نفسه ولا مجال من الأحوال. وقال الجمهور: الاستثناء عامل في ردّ الشهادة، فإذا تاب الفاذف قبلت شهادته؛ وإنما كان ردها لعلة الفسق فإذا زال بالتوبة قبلت شهادته مطلقاً قبل الحسد وبعدة، وهو قول عامة الفقهاء. ثم اختلفوا في صورة توبته؛ فذهب عمر بن الخطاب رضي الله عنه والشعبي وغيره، أن توبته لا تكون إلا بأن يكذب نفسه في ذلك الذنب الذي حُدّ فيه. وهكذا فعل عمر؛ فإنه قال للذين شهدوا على المنيرة: من أكذب نفسه أجرت شهادته فيما استقبل، ومن لم يفعل لم أجز شهادته؛ فأكذب السبل بن معبد ونافع بن الحارث بن كعدة أنفسهما وتابا، وأبى أبو بكر أن يفعل؛ فكان لا يقبل شهادته. وحكى هذا القول النحاس عن أهل المدينة. وقالت فرقة — منها مالك رحمه الله تعالى وغيره —: توبته أن يصُحَّح ويحسن حاله وإن لم يرجع عن قوله بتكذيبه؛ وحسبه الندم على قذفه والاستغفار منه وترك العبود إلى مثله؛ وهو قول ابن جرير. ويروى عن الشعبي أنه قال: الاستثناء من الأحكام الثلاثة، إذا تاب وظهرت توبته لم يُحَدّ وقبلت شهادته وزال عنه التفسيق؛ لأنه قد صار بمن يرضى من الشهداء؛ وقد قال الله عز وجل: «وإني لفَقَّارٌ لِّنَّابٍ^(١)» الآية.

الثانية والعشرون — اختلف علماءنا رحمهم الله تعالى متى تسقط شهادة الفاذف؛ فقال ابن المسيّبون: بنفس قذفه. وقال ابن القاسم وأشهب ومُحمَّدون: لا تسقط حتى يجلد؛ فإن منع من جلده مانع عفو أو غيره لم ترّدّ شهادته. وقال الشيخ أبو الحسن النخعي: شهادته في مدة الأجل موقوفة؛ ورجح القول بأن التوبة إنما تكون بالكذب في الذنب، وإلا فأي رجوع لعدّل إن قلّف وحُدّ وبقى على عدالته.

الناثية والنثرون - واختلفوا أيضا على القول بجواز شهادته بعد التوبة في أي شيء تجوز ؟ فقال مالك رحمه الله تعالى : تجوز في كل شيء مطلقا ، وكذلك كل من حُدَّ في شيء من الأشياء ، رواه نافع وابن عبد الحكم عن مالك ، وهو قول ابن كنانة . وذكر الوفا عن مالك أنه لا تقبل شهادته فيما حُدَّ فيه خاصة ، وتقبل فيما سوى ذلك ، وهو قول مطرف وابن المنيشون . وروى الثوري عن أبي بصير ومثنون مثله . قال مثنون : من حُدَّ في شيء من الأشياء فلا تجوز شهادته في مثل ما حُدَّ فيه . وقال مطرف وابن المنيشون : من حُدَّ في قذف أو زنى فلا تجوز شهادته في شيء من وجوه الزنى ، ولا في قذف ولا إيمان وإن كان عدلا ، ورواه عن مالك . واتفقوا على ولد الزنى أن شهادته لا تجوز في الزنى .

الرابعة والعشرون - الاستثناء إذا تعقب بحسب معطوفة عاد إلى جميعها عند مالك والشافعي وأصحابهما ، وعند أبي حنيفة وجعل أصحابه يرجع الاستثناء إلى أقرب مذكور وهو الفسق ، ولهذا لا تقبل شهادته ، فإن الاستثناء راجع إلى الفسق خاصة لا إلى قبول الشهادة . وسبب الخلاف في هذا الأصل سببان : أحدهما - جل هذه الجمل في حكم الجملة الواحدة للعطف الذي فيها ، أو لكل جملة حكم تقيدها في الاستقلال وحرف العطف محسن لا مشترك ، وهو الصحيح في عطف الجمل ، بخلاف عطف الجمل المختلفة بعضها على بعض ، على ما يعرف من النحو .

السبب الثاني - يشبه الاستثناء بالشرط في عوده إلى الجمل المتقدمة ، فإنه يعود إلى جميعها عند الفقهاء ، أولا يشبه به ، لأنه من باب القياس في اللفظة وهو فاسد على ما يعرف في أصول الفقه . والأصل أن كل ذلك محتمل ولا ترجيح ، فتعين ما قاله القاضي من الوقف . ويتأيد الإشكال بأنه قد جاء في كتاب الله بمنز وجل كلا الأمرين ، فإن آية المحاربة فيها عود الضمير إلى الجميع باتفاق ، وآية قتل المؤمن خطأ فيها رد الاستثناء إلى الأخيرة باتفاق ، وآية القذف محتملة للوجهين ، فتعين الوقف من غير من قال علماؤنا : وهذا نظر

كلّ أصولي . ويترجّح قول مالك والشافعيّ - رحمهما الله - من جهة نظر الفقه الجزئي بأن يقال : الاستثناء راجع إلى الفسق والنهي عن قبول الشهادة جميعاً إلا أن يفرق بين ذلك بخبر يجب التسليم له . وأجمع الأئمة على أن التوبة تحوّل الكفر ، فيجب أن يكون ما دون ذلك أولى ، والله أعلم . قال أبو عبيد : الاستثناء يرجع إلى الجمل السابقة ، قال : وليس من نسب إلى الزني بأعظم جرماً من مرتكب الزني ، ثم الزاني إذا تاب قبلت شهادته ، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، وإذا قبل الله التوبة من العبد كان العباد بالقبول أولى ، مع أن مثل هذا الاستثناء موجود في مواضع من القرآن و منها قوله تعالى : « إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ - إلى قوله - إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا » . ولا شك أن هذا الاستثناء إلى الجميع ، وقال الزجاج : وليس القاذف بأشدّ جرماً من الكافر لخطئه إذا تاب وأصلح أن تقبل شهادته . قال : وقوله « أبداً » أي مادام قاذفاً كما يقال : لا تقبل شهادة الكافر أبداً ، فإن معناه ما دام كافراً . وقال الشَّعْبِيُّ للحالف في هذه المسألة : يقول الله توبته ولا تقبلون شهادته ! ثم إن كان الاستثناء يرجع إلى الجملة الأخيرة عند أقوام من الأصوليين لقوله : « وأولئك هم الفاسقون » تليّز لا حيلة مستقلة بنفسها ، أي لا تقبلوا شهادتهم لفسقهم ، فإذا زال الفسق فلم تقبل شهادتهم . ثم توبة القاذف إكذابه نفسه ، كما قال عمر لقدفة المغيرة بمضرة الصعبة من غير تكبر ، مع إشاعة القضية وشهرتها من البصرة إلى الحجاز وغير ذلك من الأقطار . ولو كان تأويل الآية ما تأوله الكوفيون لم يحسن أن يذهب علم ذلك عن الصعبة ، ولقالوا لعمر : لا يجوز قبول توبة القاذف أبداً ، ولم يسهم السكون عن القضاء بتقرير تأويل الكتاب ، فسقط قولهم ، والله المستعان .

الخامسة والعشرون - قال القشيري : ولا خلاف أنه إذا لم يجلد القاذف بأن مات المقتوف قيل أن يطالب القاذف بالحدّ ، أو لم يرفع إلى السلطان ، أو عفا المقتوف ، فالشهادة مقبولة ، لأن عند انحصار المسألة النهي عن قبول الشهادة معطوف على الحدّ ، قال الله تعالى :

(١) عبارة الأصل : « الاستثناء راجع إلى الفسق والتوبة جميعاً ... » والخصوب عن كتب الفقه .

(٢) آية ٣٣ سورة المائدة .

« فاجلواهم ثمانين جلدًا ولا تقبلوا لهم شهادة أبدًا » . وعند هذا قال الشافعي : هو قبح . أن
يُحدَّ شر منه حين حُدَّ ؛ لأن الحدود كفارات فكيف ترد شهادته في أحسن حاله دون أخسها .
قلت : هكذا قال ولا خلاف . وقد تقدم عن ابن الماجشون أنه بنفس القذف ترد شهادته .
وهو قول الليث والأوزاعي والشافعي : ترد شهادته وإن لم يحد ؛ لأنه بالقذف يفسد ، لأنه
من الكفار فلا تقبل شهادته حتى تصح برأيه بإقرار المقتوف له بالزور ، أو بقيام البينة عليه .
السادسة والعشرون - قوله تعالى : (وَأَصْلَحُوا) يريد إظهار التوبة . وقيل :
وأصلحوا العمل . (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) حيث توبوا . وقبل توبتهم .

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ
إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٩﴾
وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٠﴾ وَيَذَرُوا عَنْهَا
الْعَذَابَ أَتَى شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ شَهَادَتِي بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢١﴾
وَالْخَامِسَةُ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيَّ إِنْ كَانَتْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ لَا
فَعَلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَوَعْدُهُ وَإِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿٢٣﴾)

فيه ثلاثون مسألة :

الأولى - قوله تعالى : (وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ) « أنفسهم » بالرفع على
البدل . ويموز النصب على الاستثناء ، وعلى خبر « يكن » . (فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ)
بالرفع قراءة الكوفيين على الابتداء والخبر ؛ أي فشهادة أحدهم التي تزيد عن حد القذف أربع
شهادات . وقرا أهل المدينة وأبو عمرو « أربع » بالنصب ؛ لأن معنى « شهادة » أن
يشهد ؛ والتقدير : فليعلم أن يشهد أحدهم أربع شهادات ، أو فالأمر أن يشهد أحدهم أربع
شهادات ؛ ولا خلاف في الثاني أنه منصوب بالشهادة . (وَالْخَامِسَةُ) رفع بالابتداء .

والخبر « أُنْ » وصلتها ، ومعنى المخففة كعنى المثقلة لأن معناها أنه ، وقرا أبو عبد الرحمن
 وطلحة وعاصم في رواية حفص « والخامسة » بالنصب ، بمعنى وتشهد الشهادة الخامسة . الباقر
 بالرفع على الابتداء ، والخبر في « أُنْ لعنة الله عليه » ، أى والشهادة الخامسة قوله لعنة الله عليه .
 الثانية - في سبب نزولها ، وهو ما رواه أبو داود عن ابن عباس أن هلال بن أبيه
 قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحابة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :
 « البينة أو حدٌ في ظهرك » قال : يا رسول الله ، إذا رأى أحدنا رجلا على امرأته يلمس البينة !
 فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « البينة وإلا حدٌ في ظهرك » فقال هلال : والذي
 بينك بالحق إني لصادق ، ولئن لقي الله في أمرى ما يرى ظهري من الحد ؟ فترلت « والذين
 يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهود إلا أنفسهم » فقرأ حتى بلغ « من الصادقين » الحديث
 بكلام . وقيل : لما نزلت الآية المتقدمة في الذين يرمون المحصنات وتناول ظاهرها الأزواج
 وغيرهم قال سعد بن معاذ : يا رسول الله ، إن وجدت مع امرأتي رجلا أمهلها حتى آتى
 بأربعة ! والله لأضربنه بالسيف غير مُصْفَح عنه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 « أتعجبون من غيرة سعيد لأننا أغبر منه والله أغبر مني » . وفي ألفاظ سعد روايات مختلفة ،
 هذا نحو معناها . ثم جاء من بعد ذلك هلال بن أمية الواقفي فرمى زوجته بشريك بن سحابة
 الباقى على ما ذكرنا ، وعزم النبي صلى الله عليه وسلم على ضربه حد القذف ، فترلت هذه
 الآية عند ذلك ، فغممهما رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد وتلاعنا ، فلكت المرأة
 عند الخامسة لما وعظت وقبل أنها موجهة ، ثم قالت : لا أفصح قومي سائر اليوم ، فألتمت^(١)
 وفوق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما ، وولدت غلاما كأنه جمل أو روق - على التثنية
 المكره - ثم كان الغلام بعد ذلك أميرا بمصر ، وهو لا يعرف لنفسه أباً . وجاء أيضا
 عويمر التميمي فرمى امرأته ولاعن . والمشهور أن نازلة هلال كانت قبل ، فإنها سبب
 الآية . وقيل : نازلة عويمر بن أشقر كانت قبل ، وهو حديث صحيح مشهور تخريج الأئمة .

١ (١) أى الشهادة الخامسة موجبة للذات الأليم ان كانت كاذبة . (٢) أى بدع باليسم الجهنسي ؛
 أى جميع الأيام . (٣) الأرواق من الإبل ، الذى فى لونه باض الى سواد .

قال أبو عبد الله بن أبي صُفرة : الصحيح أن الفاذف لزوجته جُويمر ، وهلال بن أمية خطأ .
قال الطبري " يستنكر قوله في الحديث هلال بن أمية : وإنما الفاذف عويمر بن زبد بن الحسد
ابن العجلاني ، شهد أحدًا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وماها بشريك بن السجاء ، والسجاء
أمه ؛ قيل لما ذلك لسوادها ، وهو ابن عتبة بن الحسد بن العجلاني ؛ كذلك كان يقول أهل
الأخبار . وقيل : قرأ النبي صلى الله عليه وسلم على الناس في الخطبة يوم الجمعة « والذين
يؤمنون المحصنات » فقال عاصم بن عدي الأنصاري : جعلني الله فداك ! لو أن رجلاً مات وجد
فل بطن أمه رجلاً ؛ فتكلم فأخبر بما جرى جلد ثمانين ، وسماه المسامون فاسقاً فلا تقبل
شهادته ؛ فكيف لأحدنا عند ذلك بأربعة شهداء ، وإلى أن يلمس أربعة شهود فقد فرغ
الرجل من حاجته ! فقال عليه السلام : " كذلك أنزلت يا عاصم بن عدي " . فخرج عاصم سائلاً
مطياً ؛ فاستقبله هلال بن أمية يسترجع ؛ فقال : ما واهاك ؟ فقال : شر ! وجدت شريك بن
السجاء على بطن امرأتى خولة يزني بها ؛ وخولة هذه بنت عاصم بن عدي ؛ كذا في هذا الطريق
أن الذي وجد مع امرأته شريكاً هو هلال بن أمية ، والصحيح خلافه حسبما تقدم بيانه .
قال الكليني : والأظهر أن الذي وجد مع امرأته شريكاً عويمر العجلاني ؛ لكثرة ما روى أن
النبي صلى الله عليه وسلم لآعن بين العجلاني وامرأته . وانفقوا على أن هذا الزاني هو شريك
ابن عتبة وأمه السجاء ، وكان عويمر وخولة بنت قيس وشريك بن عم عاصم ، وكانت هذه
القصة في شعبان سنة تسع من الهجرة ، منصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك إلى
المدينة ؛ قاله الطبري . وروى الثرقاطي عن عبد الله بن جعفر قال : حضرت رسول الله
صلى الله عليه وسلم حين لآعن بين عويمر العجلاني وامرأته ، مرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم
من غزوة تبوك ، وانكر حملها الذي في بطنها وقال هو لآعن السجاء ؛ فقال له رسول الله صلى
الله عليه وسلم : " لمايت امرأتك فقد نزل القرآن فيكما " ؛ فآعن بينهما بعد العصر عند المنبر
على عمل . في طريقه ألواقدي عن الضحالك بن عثمان عن عمران بن أبي أنس قال : سمعت
عبد الله بن جعفر يقول ... فذكره .

(١) التمل : دُوب اللطيفة ونحوها بما يشي وتفضل له فقول تكمل اللطيفة .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ عام في كل رَمَى ، سواء قال : زنيته أو يازانية أو رأيتها تزي ، أو هذا الولد ليس مني ، فإن الآية شتملة عليه ، ويجب اللعان إن لم يأت بأربعة شهداء ، وهذا قول جمهور العلماء ، وفاقه الفقهاء وجماعة أهل الحديث . وقد روى عن مالك مثل ذلك . وكان مالك يقول : لا يلعن إلا أن يقول : رأيتك تزي ، أو ينفى حلا أو ولدا منها . وقول أبي الزناد ويحيى بن سعيد والبقى مثل قول مالك : إن الملاعة لا تجب بالقذف ، وإنما تجب بالرؤية أو نفى الحمل مع دعوى الاستبراء ، هذا هو المشهور عند مالك ، وقالة ابن القاسم . والصحيح الأول لمعوم قوله : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ » ، قال ابن العربي : وظاهر القرآن يكفى لإيجاب اللعان بمجرد القذف في غير رؤية ، فتعولوا عليه ، لا سيما في الحديث الصحيح : رأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « تَأْذِيبُ نَارِهَا » ولم يكلفه ذكر الرؤية . وأجوبوا أن الأعمى يلعن إذا قذف أمرأته . ولو كانت الرؤية من شرط اللعان ما لعن الأعمى ، قاله ابن عمر رضي الله عنهما . وقد ذكر ابن القصاص عن مالك أن لعان الأعمى لا يصح إلا أن يقول : لمست فرجه في فرجها . وألحجة لمالك ومن أتبعه ما رواه أبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جاء هلال بن أمية وهو أحد الثلاثة الذين يصب عليهم ، بجاء من أرضه عشاء فوجد عند أهله رجلا ، فرأى يمينه وسمع بأذنه فلم يهجه حتى أصبح ، ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إني جئت أهل عشاء فوجدت عندهم رجلا ، فرأيت يميني وسمعت بأذني ، فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جاء به واشتد عليه ، فترلت « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ » الآية ، وذكر الحديث . وهو نص على أن الملاعة التي قضى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما كانت في الرؤية ، فلا يجب أن يتعدى ذلك . ومن قذف أمرأته ولم يذكر رؤية حد ، لمعوم قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ » .

الرابعة - إذا نفى الحمل فإنه يلحق ؛ لأنه أقوى من الرؤية ولا بد من ذكر عدم الوطء والاستبراء بعده . واحتلف علماءنا في الاستبراء ؛ فقال المنيرة ومالك في أحد قوليهما : يميز في ذلك حيضة . وقال مالك أيضا : لا ينبغي إلا بثلاث حيض . والصحيح الأول ؛ لأن برائة الرحم من الشغل يقع بها كما في استبراء الأمة ؛ وإنما راعينا الثلاث حيض في العدد لحكم آخر يأتي بيانه في الطلاق إن شاء الله تعالى . وحكى القتيبي عن مالك أنه قال مرة : لا يثبت الولد بالاستبراء ؛ لأن الحيض يأتي على الحمل . وبه قال أشهب في كتاب ابن الموزان ؛ وقاله المنيرة . وقال : لا يثبت الولد إلا بنفس سنتين لأنه أكثر مدة الحمل على ما تقدم .

الخامسة - اللعان عندنا يكون في كل زوجين حرين كانا أو عبيدين ، مؤمنين أو كافرين ، فاسقين أو عتقين . وبه قال الشافعي . ولا لدان بين الرجل وأخته ، ولا بينه وبين أم ولده . وقيل : لا ينفى ولد الأمة عنه إلا بين واحدة ؛ بخلاف اللعان . وقد قيل : إنه إذا نفى ولد أم الولد لأخ . والأول تحصيل مذهب مالك ، وهو الصواب . وقال أبو حنيفة : لا يصح اللعان إلا من زوجين حرين مسلمين ؛ وذلك لأن اللعان عنده شهادة ؛ وعندنا وعند الشافعي عين ؛ فكل من صحت يمينه مع قذفه ولعانه . وأنفقوا على أنه لا بد أن يكونا مكلفين . وفي قوله : « وجد مع امرأته رجلا » - دليل على أن الملاعة تجب على كل زوجين ؛ لأنه لم يخص رجلا من رجل ولا امرأة من امرأة ، ونزلت آية اللعان على هذا الخواص فقال : « والذين يرمون أزواجهن » ولم يخص زوجا من زوج . وإلى هذا ذهب مالك وأهل المدينة ؛ وهو قول الشافعي وأحمد وإسحاق وأبي عبيد وأبي ثور . وأبضا فإن اللعان يوجب فسخ النكاح فأشبهه الطلاق ؛ فكل من يجوز طلاقه يجوز لعانه . واللعان إيمان لا شهادات ؛ قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : « لشهادتنا أحق من شهادتهما » أي إيماننا . وقال تعالى : « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله » . ثم قال تعالى : « اتخذوا إيمانهم جنة » .

(١) أي قول عمر ، أو غيره على الخلاف المتقدم . وفي الأصول : « وفي قوله صلى الله عليه وسلم

ويحد ... الخ » وهو محرف . (٢) آية ١٠٧ سورة المائدة . راجع ج ٦ ص ٢٥٩

(٣) آية ١٦ سورة النجاة .

وقال عليه السلام: "لولا الأيمان لكان لي ولدا شان". وأما ما احتج به النوري وأبو حنيفة فهمى حجج لا تقوم على ساق؛ منها حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أربعة ليس بينهم لعان ليس بين الحر والأمة لعان وليس بين الحرة والعبد لعان وليس بين المسلم واليهودية لعان وليس بين المسلم والنصرانية لعان". أخرجه المأرقطاني من طرق ضعيفا كلها. وروى عن الأوزاعي وابن جريج وهما إمامان عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قوله، ولم يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم. واحتجوا من جهة النظر أن الأزواج لما استنفوا من جملة الشهداء بقوله «ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم» وجب ألا يلاعن إلا من تجوز شهادته. وأيضا فلو كانت ميمنا ما رُدِّدت، والحكمة في ترديد قايها في الأعداد مقام اليهود في الزنى. قلنا: هذا يطل بيمين القسامة لأنها تُكرَّر وليست بشهادة إجماع؛ والحكمة في تكرارها التلخيص في الفروج والدماء. قال ابن العربي: والقيصل في أنها يمين لا شهادة أن الزوج يحلف لنفسه في إثبات دعواه وتخليصه من العذاب، وكيف يجوز لأحد أن يدعى في الشريعة أن شاهدا يشهد لنفسه بما يوجب حكما على غيره! هذا بعيد في الأصل معدوم في النظر.

السادسة — واختلف العلماء في ملائنة الأخرس؛ فقال مالك والشافعي: يلاعن؛ لأنه ممن يصح طلاقه وظهاره وإيلاؤه. إذا فهم ذلك عنه. وقال أبو حنيفة: لا يلاعن؛ لأنه ليس من أهل الشهادة، ولأنه قد ينطق بلسانه فينكر اللعان، فلا يمكن إقامة الحجة عليه. وقد تقدم هذا المعنى في سورة «صريم» والدليل عليه، واتخذ الله.

السابعة — قال ابن العربي: رأى أبو حنيفة عمرو الآية فقال: إن الرجل إذا قذف زوجته بالزنى قبل أن يتزوجها فإنه يلاعن؛ ونسى أن ذلك قد تضمنه قوله تعالى: «والذين يرمون المحصنات» وهذا رماها محصنة غير زوجة؛ وإنما يكون اللعان في قذف يلحق فيه النسب، وهما قذف لا يلحق فيه نسب فلا يوجب لعانا، كما لو قذف أجنبية.

(١) في سنن المأرقطاني: «برفاه». (٢) راجع ج ١ ص ١٠١ طبع أول مرة في ١٩٠٩.

النامسة - إذا قذفها بعد الطلاق نظرت ، فإن كان هناك نصيب يريد أن يغنيه
أو حبل يتبرأ منه لآعن وإلا لم يلاعن . وقال عثمان النبي : لا يلاعن بحال لأنها ليست
بزوجة . وقال أبو حنيفة : لا يلاعن في اللويثين ؛ لأنها ليست بزوجة ، وهذا ينتقض
عليه بالقذف قبل الزوجية كإذ كرهه أنفا ، بل هذا أولى ؛ لأن النكاح قد تقدم وهو يريد
الانشفاء من النسب وبترسته من وراء يلحق به فلا بد من اللعان . وإذا لم يكن هناك حمل
يرعى ولا نسب يخاف تماقه لم يكن اللعان فائدة فلم يحكم به ، وكان قذفا مطلقا داخلا تحت
عموم قوله تعالى : « والذين يرمون المحصنات » الآية ، فوجب عليه الحد وبطل ما قاله
النبي لظهور فساد .

التاسعة - لا ملائعة بين الرجل وزوجته بعد انقضاء العدة إلا في مسألة واحدة ،
وهي أن يكون الرجل غائبا فأتى امرأته بولد في غيبه وهو لا يعلم فيطلقها فتنتقض عدتها ، ثم
يقدم فيغيبه فله أن يلاعنها حاجتها بعد العدة . وكذلك لو قدم بعد وفاتها ونفى الولد لآعن لنفسه
وهي ميتة بعد مدة من العدة ، ويرثها لأنها ماتت قبل وقوع الفرق بينهما .

العاشرة - إذا اتى من الحبل وقع ذلك بشرطه لآعن قبل الوضع ؛ وبه قال
الشافعي . وقال أبو حنيفة : لا يلاعن إلا بعد أن تضع ، لأنه يحتمل أن يكون ويحا
أوداه من الأدوية . ودليلنا النص الصريح بأن النبي صلى الله عليه وسلم لآعن قبل الوضع ؛
وقال : « إن جاءت به كذا فهو لأبيه وإن جاءت به كذا فهو لفلان » بغامت به على
العت المكره .

الحادية عشرة - إذا قذف بالوطء في الدبر [زوج] لآعن . وقال أبو حنيفة : لا يلاعن ؛
وبناء على أصله في أن اللواط لا يوجب الحد . وهذا فاسد ؛ لأن الرمي به فيه معة وقد دخل
تحت عموم قوله تعالى : « والذين يرمون أزواجهم » وقد تقدم في « الأعراف » والمؤمنون^(١)
أنه يجب به الحد .

الثانية عشرة — قال ابن العربي: من غريب أمر هذا الرجل أنه [قال] إذا قذف زوجته وأنها بالزنى: إنه إن حدّ للأم سقط حدّ البنت، وإن لآعن البنت لم يسقط حدّ الأم؛ وهذا لا وجه له، وما رأيت لهم [نبيه] شيئا يحكى، وهذا باطل جدا؛ فإنه خص عموم الآية في البنت وهي زوجة محمد الأم من غير أن يروا أصل قاسه عليه.

الثالثة عشرة — إذا قذف زوجته ثم زنت قبل التماه فلا حد ولا لعان. وبهذا قال أبو حنيفة والثاني وأكثر أهل العلم. وقال الثوري والمزني: لا يسقط الحدّ عن القاذف؛ وزنى المذنوب بعد أن قُذف لا يقدح في حصانته المتقدمة ولا يرفعها؛ لأن الاعتبار بالحصانة والبقاء في حال القذف لا بعده. كما لو قذف مسلما فأرادت المذنوبة بعد القذف وقبل أن يحد القاذف لم يسقط الحدّ عنه. وأيضا فإن الحدود كلّها معتبرة بوقت الوجوب لا وقت الإقامة. ودليلنا هو أنه قد ظهر قبل استيفاء اللعان والحدّ معنى لو كان موجودا في الأبداء منع صحة اللعان ووجوب الحدّ، وكذلك إذا طرأ في الثاني؛ كما إذا شهد شاهدان ظاهرهما العدالة فلم يحكم الحاكم بشهادتهما حتى ظهر فسقهما بأن زنيا أو شربا معرا فلم يميز لهما أن يحكم بشهادتهما. وأيضا فإن الحكم بالعفة والإحصان يؤخذ من طريق الظاهر لا من حيث القطع واليقين، وقد قال عليه السلام: "ظهور المؤمن حتى"؛ فلا يحدّ القاذف إلا بدليل قاطع، وبالله التوفيق.

الرابعة عشرة — من قذف امرأته وهي كبيرة لا تحبل تلعن؛ هو لدفع الحدّ، وهي لدفع العذاب. فإن كانت صغيرة لا تحبل لآعن هو لدفع الحدّ ولم تلعن هي لأنها لو أنزرت لم يلزمها شيء. وقال ابن الماجشون: لا حدّ على قاذف من لم تبلغ. قال النجاشي: قيل هذا لا لعان على زوج الصغيرة التي لا تحبل.

الخامسة عشرة — إذا شهد أربعة على امرأة بالزنى أحدهم زوجها فإن الزوج يلعن ويحدّ الشهود الثلاثة؛ وهو أحد قول الثنائي. والقول الثاني أنهم لا يحدّون. وقال أبو حنيفة: إذا شهد الزوج والثلاثة ابتداء قبلت شهادتهم وحدّت المرأة. ودليلنا قوله

تعالى : « الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ » الآية . فأخبر أن من قذف محصنا ولم يأت بأربعة شهداء حُذِرَ ، فظاهره يقتضى أن يأتي بأربعة شهداء سوى الزانى ، والزواج رَامَ لزوجه فخرج عن أن يكون أحد الشهود . والله أعلم .

السادسة عشرة - إذا ظهر بامراته حمل فترك أن ينفيه لم يكن له نفيه بعد سكوته . وقال شريح وبجاهد : له أن ينفيه أبدا . وهذا خطأ ؛ لأن سكوته بعد العلم به رضى به ؛ كما لو أقر به ثم ينفيه فإنه لا يقبل منه ، والله أعلم .

السابعة عشرة - فإن أئرداك إلى أن وضعت وقال : رجوت أن يكون رجلا يتنقش أو تسقطه فاستريح من القذف ؛ فهل لنفيه بعد وضعه مدة ما فإذا تجاوزها لم يكن له ذلك ؛ فقد اختلف في ذلك ، فتبين نقول : إذا لم يكن له عذر في سكوته حتى مضت ثلاثة أيام فهو راض به ليس له نفيه ؛ وبهذا قال الشافعي . وقال أيضا : متى أمكنه نفيه على ما جرت به العادة من تمكنه من الحساكم فلم يفعل لم يكن له نفيه من بعد ذلك . وقال أبو حنيفة : لا اعتبر مدة . وقال أبو يوسف ومحمد : يشتر فيه أن يكون يوما ، مدة النفاس . قال ابن القصار : والدليل لقولنا أن نفي ولده محرم عليه ، واستحقاق ولد ليس منه محرم عليه ، فلا بد أن يوضع عليه لكي ينظر فيه ويفكر ، هل يجوز له نفيه أو لا . وإنما جعلنا الحد ثلاثة لأنه أول حد الكثرة وآخر حد القلة ، وقد جعلت ثلاثة أيام يختبر بها حال المرأة ؛ فكذلك ينبغي أن يكون هنا . وأما أبو يوسف ومحمد فليس اعتبارهم بأولى من اعتبار مدة الولادة والرضاع ؛ إذ لا شاهد لهم في الشريعة ، وقد ذكرنا نحن شاهدا في الشريعة من مدة الحضرة .

الثامنة عشرة - قال ابن القصار : إذا قالت امرأة لزوجها أو لأجنبي : يا زانيه - بالهاء - وكذلك الأجنبي لأجنبي ، فلست أعرف فيه نصا لأصحابنا ، ولكنه عندي يكون قذفاً وعلا قائله الحد ، وقد زاد حرقاً ؛ وبه قال الشافعي ومحمد بن الحسن . وقال أبو حنيفة وأبو يوسف :

(١) المرأة : الثاثة أو البقرة أو الشاة تمر أخلاها ولا تحجب أياها حتى يجمع البن في ضرعها ، فإذا حلبا المشتري استقر زهما . وفي الحديث : « من اشترى امرأة فهو بمنزلة النظرين » أي خير الأمرين ؛ إما إنساك المبيع أو رده .

لا يكون قذفا . واتفقوا أنه إذا قال لامرأته يازان أنه قذف . والدليل على أنه يكون في الرجل قذفا هو أن الخطاب إذا فهم . له معناه ثبت حكمه ، سواء كان بلفظ أعجمي أو عربي .
 ألا ترى أنه إذا قال للمرأة زني (يفتح التاء) كان قذفا ؛ لأن معناه يفهم منه . ولأبي حنيفة وأبي يوسف أنه لما جاز أن يُخاطب المؤنث بخطاب المذكر لقوله تعالى : « وقال نسوة » صالح أن يكون قوله يازان للمؤنث قذفا . ولما لم يميز أن يؤنث فسل المذكر إذا تقدم عليه لم يكن خطابه بالمؤنث حكما ، والله أعلم .

التاسعة عشرة — يلاعن في النكاح الفاسد زوجته لأنها صارت فراشا ويلحق بالنسب فيه بغير اللعان عليه .

الموفية عشرين — اختلفوا في الزوج إذا أبى من الإكتمان ؛ فقال أبو حنيفة : لاخذ عليه ؛ لأن الله تعالى جعل على الأجنبية الحد وعلى الزوج اللعان ، فلما لم ينتقل اللعان إلى الأجنبية لم ينتقل الحد إلى الزوج ، ويسجن أبدا حتى يلاعن لأن الحدود لا تؤثر قياسا .
 وقال مالك والشافعي وجمهور الفقهاء : إن لم يلتمن الزوج حدا ؛ لأن اللعان له براءة كالشهود للأجنبي ، فإن لم يأت الأجنبي بأربعة شهداء حدا ، فكذلك الزوج إن لم يلتمن . وفي حديث العجلاني ما يدل على هذا ؛ لقوله : إني سكتُ سكتاً على غيظ وإن قلتُ قلتُ وإن نطقْتُ ببلدت .

الحادية والعشرون — واختلفوا أيضا هل للزوج أن يلاعن مع شهوده ؛ فقال مالك والشافعي : يلاعن كان له شهود أو لم يكن ؛ لأن الشهود ليس لهم عمل في غير دره الحد ، وأما رفع الفراش ونفي الولد فلا بد فيه من اللعان . وقال أبو حنيفة وأصحابه : إنما جعل اللعان للزوج إذا لم يكن له شهود غير نفسه ؛ لقوله تعالى : « ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم » .
 الثانية والعشرون — البداية في اللعان بما بدأ الله به ، وهو الزوج ، وقاؤه تدره الحد عنه ونفي النسب منه ؛ لقوله عليه السلام : « البينة والإحد في ظهرك » . ولو بدئ المرأة قبله لم يميز ؛ لأنه عكس ما رتبته الله تعالى . وقال أبو حنيفة : يميز . وهذا باطل ؛ لأنه

خلاف القرآن، وليس له أصل يرد إليه ولا معنى يقوى به، بل المعنى لنا، لأن المرأة إذا بدأت باللعان فتنبى ما لم يثبت وهذا لا وجه له.

الثالثة والمشرون - وكيفية اللعان أن يقول الحاكم للملاعن: قل أشهد بالله لرايتها تزني ورأيت فرج الزاني في فرجها كالمرود في المكحلة وما وطئتها بعد رؤيتي. وإن شئت قلت: لقد زنت وماوطئتها بعد زناها. يردّد ما شاء من هذين اللفظين أربع مرّات، فإن نكّل من هذه الأيمان أو عن شيء منها حُدّ، وإذا نفى حلفاً قال: أشهد بالله لقد استبرأتها وما وطئتها بعد، وما هذا الحمل مني، ويشير إليه؛ فيحلف بذلك أربع مرّات ويقول في كل بين منها: وإني لمن الصادقين في قول هذا عليا. ثم يقول في الخامسة «على لعنة الله إن كنت من الكاذبين». وإن شاء قال: إن كنت كاذباً فيما ذكرت عنها. فإذا قال ذلك سقط عنه الحلف وانتهى عنه الولد. فإذا فرغ الرجل من التعانته قامت المرأة بعده خلعت بالله أربعة أيمان، تقول فيها: أشهد بالله إنه لكاذب، أو إنه لمن الكاذبين فيما أذعاه على - وذكرني. وإن كانت حاملاً قالت: وإن حمل هذا منه، ثم تقول في الخامسة: وعلى غضب الله إن كان صادقاً، أو إن كان من الصادقين في قوله ذلك. ومن أوجب اللعان بالقذف يقول في كل شهادة من الأربع: أشهد بالله إنى لمن الصادقين فيما رميت به فلانة من الزنى. ويقول في الخامسة: على لعنة الله إن كنت كاذباً فيما رميت به من الزنى. وتقول هي: أشهد بالله إنه لكاذب فيما رماني به من الزنى. وتقول في الخامسة: على غضب الله إن كان صادقاً فيما رماني به من الزنى. وقال الشافعي: يقول الملاعن أشهد بالله إنى لمن الصادقين فيما رميت به زوجتي فلانة بنت فلان، ويشير إليها إن كانت حاضرة، يقول ذلك أربع مرّات، ثم يوعظه الإمام ويذكره الله تعالى ويقول: إني أخاف إن لم تكن صدقت أن تبوء بعنة الله؛ فإن رآه يريد أن يعضي على ذلك أمر من يضع يده على فيه، ويقول: إن قولك وعلى لعنة الله إن كنت من الكاذبين موجباً؛ فإن أبى تركه يقول ذلك: لعنة الله على إن كنت من الكاذبين فيما رميت به فلانة من الزنى. احتج بما رواه أبو داود عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر رجلاً حيث أمر المتلاعنين أن يضع يده على فيه عند الخامسة يقول: إنها سريجة.

الرابعة والعشرون — اختلف العلماء في حكم من قذف امرأته برجل سماء ، هل يحسد أم لا ؟ فقال مالك : عليه اللعان لزوجته ، ردة لزوجي . وبه قال أبو حنيفة ؛ لأنه قذف لمن لم يكن له ضروره إلى قذفه . وقال الشافعي : لا حد عليه ؛ لأن الله عز وجل لم يجعل على من رمى زوجته بالزنى إلا حداً واحداً بقوله : « والذين يرمون أزواجهم » ، ولم يفرق بين من ذكر رجلاً بعينه وبين من لم يذكر ؛ وقد رمى العجلائي زوجته بشريك وكذلك هلال ابن أمية ؛ فلم يحسد واحد منهما . قال ابن العربي : وظاهر القرآن لنا ؛ لأن الله تعالى وضع الحد في قذف الأجنبية والزوجة مطلقين ، ثم خص حد الزوجة بالانحصار باللعان وبقي الأجنبية على معطاق الآية . وانتبا لم يحسد العجلائي لشريك ولا هلال لأنه لم يطلبه ؛ وحد التسديف لا يقيمہ الإمام إلا بعد المطالبة إجماعاً ما وردته .

الخامسة والعشرون — إذا قرع المتلاعنان من تلاعنهما جميعاً تفوقاً وخرج كل واحد منهما على باب من المسجد الجامع غير الباب الذي يخرج منه صاحبه ، ولو خرجا من باب واحد لم ينقض ذلك لعائتهما . ولا خلاف في أنه لا يكون اللعان إلا في مسجد جامع يجمع فيه الجمعة بحضرة السلطان أو من يقوم مقامه من الحكام . وقد استحب جماعة من أهل العلم أن يكون اللعان في الجامع بمسجد مصر ، ويختص النصرانية من زوجها المسلم في الموضع الذي تعقله من كنائسها مثل ما تلتحق به المسلمة .

السادسة والعشرون — قال مالك وأصحابه : وبتمام اللعان تقع الفرقة بين المتلاعنين ، فلا يجتمعان أبداً ولا يتوارثان ، ولا يحسد له مراجعتها أبداً لا قبل زوج ولا بعده ؛ وهو قول الليث بن سعد وقرن المذنب والأوزاعي . وقال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد بن الحسن : لا تقع الفرقة بعد فراغهما من اللعان حتى يفرق الحاكم بينهما ؛ وهو قول الثوري ؛ لقول ابن عمر : فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المتلاعنين ؛ فأضاف الفرقة إليه ، ولقوله عليه السلام : « لا سبيل لك بطليح » . وقال الشافعي : إذا أكل الزوج الشهادة واللعان فقد حال غشاش أمراته ؛ ألتفتت أو لا تلتفت ؛ قال : وأما اللعان المرأة فأنما هو لدن الحد عنها لا غير ؛ وليس لألتعنائها في زوال الفرائض معنى . ولما كان لعان الزوج ينفي

الولد . ويسقط الحدُّ وُفق الفراش . وكان عثمانُ النَّبِيُّ لا يرى التلاعنَ ينقص شيئاً من عصمة الزوجين حتى يطلق . وهذا قولٌ لم يتقدمه إليه أحد من الصحابة ؛ على أن النَّبِيَّ قد استحب للتلاعن أن يطلق بعد اللعان ، ولم يستحسنه قبل ذلك ؛ فدلَّ على أن اللعان عنده قد أحدث حكماً . ويقول عثمانُ قال جابر بن زيد قنيا ذكره الطبري ، وحكاه الحقي عن محمد بن أبي صفرة . ومشهور المذهب أن نفس تمام اللعان بينهما فرقة . واحتج أهل هذه المقالة بأنه ليس في كتاب الله تعالى إذا لاعن أو لاعت يجب وقوع الفرقة ، ويقول عويمر : كذبت عليها إن أمسكتها ؛ فطلقها ثلاثاً ، قال : ولم ينكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك عليه ولم يقل له لم قلت هذا ، وأنت لا تحتاج إليه ؛ لأن باللعان قد طلقت . والجمعة لمالك في المشهور ومن وافقه قوله عليه السلام " لا سبيل لك عليها " . وهذا إعلام منه أن تمام اللعان رفع سبيله عنها وليس تفريقه بينهما باستئناف حكم ، وإنما كان تنفيذاً لما أوجب الله تعالى بينهما من المبادعة ، وهو معنى اللعان في اللغة .

السابعة والعشرون - ذهب الجمهور من المأباه أن المتلاعنين لا يتناكحان أبداً ، فإن أكذب نفسه جلد الحدِّ ولحق به الولد ، ولم ترجع إليه أبداً . وعلى هذا السنة التي لا شك فيها ولا اختلاف . وذكر ابن المنذر عن عطاء أن الملاعن إذا أكذب نفسه بعد اللعان لم يحده ، وقال : قد تفرقا للمنة من الله . وقال أبو حنيفة ومحمد : إذا أكذب نفسه جلد الحدِّ ولحق به الولد ، وكان خاطباً من الخطاب إن شاء ؛ وهو قول سعيد بن المسيب والحسن وسعيد بن جبير وعبد العزيز بن أبي سلمة ، وقالوا : يهود النكاح حلالاً كما لحق به الولد ؛ لأنه لا فرق بين شيء من ذلك . وحجة الجماعة قوله عليه السلام : " لا سبيل لك عليها " ؛ ولم يقل إلا أن تكذب نفسك . وروى ابن إسحاق وجماعة عن الزهري قال : فمضت السنة أنهما إذا تلاعنا فُرق بينهما فلا يجتمعان أبداً . ورواه الدارقطني ، ورواه مرفوعاً من حديث سعيد بن جبير عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " المتلاعنان إذا اقترعا لا يجتمعان أبداً " . وروى عن علي وعبد الله قالاً : مضت السنة ألا يجتمع المتلاعنان . عن علي : أبداً .

التامة والعشرون — ألمان يقتل إلى أربعة أشياء :

عدد الألفاظ — وهو أربع شهادات على ما تقدم .

والمكان — وهو أن يقصد به أشرف البقاع بالبلدان ، إن كان بمكة فعند الركن والمقام ، وإن كان بالمدينة فعند المنبر ، وإن كان ببيت المقدس فعند الصخرة ، وإن كان في سائر البلدان ففي مساجدها ، وإن كانا كاثرتين بُعث بهما إلى الموضع الذي يعتقدان تعظيمه ، إن كانا يهوديين فالكنيسة ، وإن كانا مجوسيين ففي بيت النار ، وإن كانا لادين لها مثل الوثنيين فإنه يلاعن بينهما في مجلس حكمه .

والوقت — وذلك بعد صلاة العصر .

وجمع الناس — وذلك أن يكون هناك أربعة أنفس فصاعداً ، فاللفظ وجمع الناس بشروطان ، والزمان والمكان مستحيان .

التاسعة والعشرون — من قال : إن الفراق لا يقع إلا بتام التمانها ، فله لو مات أحدهما قبل تمامه ورثه الآخر . ومن قال : لا يقع إلا بتقريب الإمام فمات أحدهما قبل ذلك وتام اللعان ورثه الآخر . وكل قول الشافعي : إن مات أحدهما قبل أن تلعن المرأة لم يتوارثا .

الموقفة ثلاثين — قال ابن القصار : تفريق اللعان عندنا ليس بفسخ ، وهو مذهب المدونة : فإن اللعان حكم تفريقه حكم تفريق الطلاق ، ويعطى لتغير المدخول بها نصيب الصداق . وفي مختصر ابن الجلاب : لا شيء لها ، وهذا على أن تفريق اللعان فسخ .

قوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكَ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لِّكُم لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٠١** **لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ** **الْمُرْسِيَّتُ بِأَنَّهُمْ سَمِيعٌ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ١٠٢** **لَوْلَا جَاءَهُ**

لَهُمْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءٍ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ
 الْكَافِرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
 لَسَّكَرٌ فِي مَا أَقْسَمْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوهُ بِاللَّسَنِكَرِ
 وَتَقُولُونَ بِإِفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ
 عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا
 سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعْظِيكَ اللَّهُ أَنْ تَعُدُّوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا
 إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَبَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾
 إِنَّ الَّذِينَ يُجَاهِدُونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
 فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ
 عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾ بَلَايَا الَّذِينَ آمَنُوا
 لَا تَسْبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَلْبِغْ خُطُوتَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ بِأَمْرٍ
 بِالْأَنْحَشَاءِ وَالنَّسْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ
 مَنْ أَحَدٌ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾
 وَلَا يَأْتِلْ أُولَئِكَ الْفَضْلَ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى
 وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ
 أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾

فيه ثمان وعشرون مسألة^(١) :

الأول - قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْتُوا بِالْإِتِّكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ﴾ « عُصْبَةٌ » خبر
« إِنَّ » ، ويوزن نصبها على الحال ، ويكون الخبر « لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ » ،
وسبب نزولها ما رواه الأئمة من حديث الإلك الطويل في قصة عائشة وضوان الله عليها ،
وهو خير صحيح مشهور ، أغنى اشتغاره عن ذكره ، وسيأتي مختصرا ، وأخرجه البخاري ، تعليقاً ،
وحديثه أم ، قال : وقال أئمة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ، وأخرجه أيضاً
عن محمد بن كثير عن أخيه سليمان من حديث مسروق عن أم رومان أم عائشة أنها قالت :
لما رُئيت عائشة نومت مغشياً عليها ، وعن موسى بن إسماعيل من حديث أبي وائل قال :
حدثني مسروق بن الأجدع ، قال : حدثني أم رومان وهي أم عائشة قالت : بينما أنا قاعدة
أنا وعائشة إذ ولت امرأة من الأنصار فقالت : فعل الله فلان وفعل [فلان] ! فقالت
أم رومان : وما ذاك ؟ قالت آبي فيمين حديث الحديث ! قالت : وما ذاك ؟ قالت : كذا
وكذا . قالت عائشة : سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت نعم . قالت : وأبو بكر ؟
قالت نعم ! فغرت مغشياً عليها ، فما أفقت إلا وعليها حمى بنافض ، فطرحتها عليها ثيابها
فقطبتها ، لحاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « ما شاء هبذه » ؟ فقلت : يا رسول الله :
أخذتها الحمى بنافض . قال : « فلعن في حديث محمد » ؟ قالت نعم . ففعلت عائشة
فقالت : والله ، إني لحقت لا تصدقوني ! ولئن قلت لا تصدقوني ! مثلي ومثلكم كيعقوب
وبنيه ، والله المستعان على ما تصفون . قالت : وانصرف ولم يقل شيئاً ، فأنزل الله عزها .
قالت : بحمد الله لا بحمد أحد ولا بحمدك . قال أبو عبد الله الحلي : كان بعض من لقينا من الحفاظ
البنداديين يقول الإرسال في هذا الحديث آيين ، واستدل على ذلك بأن أم رومان توفيت
في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وضروقه لم يشاهد النبي صلى الله عليه وسلم بلا خلاف ،
ولا غاري من حديث عبيد الله بن عبد الله بن أبي مليكة أن عائشة كانت تقرأ « إِذْ تَقُولُهَا »
(١) يلاحظ أن المسائل سبع وعشرون . (٢) أي برعة . (٣) إذ قال في جنته :
والله المنة ... الخ .

بِأَيْتِكُمْ» وَهَوَّلَ : الْوَلَّى الْكَذِبَ . قَالَ ابْنُ أَبِي مَلِيكَةَ : وَكَانَتْ أَعْلَمُ بِذَلِكَ مِنْ غَيْرِهَا لِأَنَّهُ
 نَزَلَ فِيهَا . قَالَ الْبَخَارِيُّ : وَقَالَ مَعْمَرُ بْنُ رَاشِدٍ عَنْ الزُّهْرِيِّ : كَانَ حَدِيثُ الْإِفْكَ فِي غَزْوَةِ
 الْمُرَيْسِيِّع . قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : وَذَلِكَ سَنَةَ سِتٍّ . وَقَالَ مُوسَى بْنُ عَقِيقَةَ : سَنَةَ أَرْبَعٍ . وَأَخْرَجَ
 الْبَخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ مَعْمَرٍ عَنْ الزُّهْرِيِّ قَالَ قَالَ لِي الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ : أَبْلُوكَ أَنْ مَلَأَ كَانَ
 فِيمَنْ قَدَّفَ ؟ قَالَ : قُلْتُ لَا ، وَلَكِنْ قَدْ أَخْبَرَنِي رَجُلَانِ مِنْ قَوْمِكَ أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
 وَأَبُو بَكْرٍ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ أَنَّ عَاشَةَ قَالَتْ لَهَا : كَانَ عَلِيٌّ سَيِّئًا فِي شَأْنِهَا ،
 وَأَخْرَجَهُ أَبُو بَكْرٍ الْإِسْجَاعِيلِيُّ فِي تَجْلِيهِ الْمَخْرَجِ عَلَى الصَّحِيحِ مِنْ وَجْهِ آخِرٍ مِنْ حَدِيثِ مَعْمَرٍ عَنْ
 الزُّهْرِيِّ ، وَفِيهِ : قَالَ كُنْتُ عِنْدَ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فَقَالَ : الَّذِي تَوَلَّى كَبْرَهُ مِنْهُمْ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي
 طَالِبٍ ؟ قُلْتُ لَا ، حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَغُرُورَةُ وَعَلْقَمَةُ وَحَبِيدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَبَّةٍ
 كُلُّهُمْ يَقُولُ سَمِعْتُ عَاشَةَ يَقُولُ : وَالَّذِي تَوَلَّى كَبْرَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي . وَأَخْرَجَ الْبَخَارِيُّ فِيهَا
 مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَاشَةَ : وَالَّذِي تَوَلَّى كَبْرَهُ مِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي .

الثَّانِيَّةُ - قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَالْإِفْكَ الْإِفْكَ الْكَذِبُ) . وَالْمَصْبَةُ ثَلَاثَةُ رِجَالٍ ، قَالَ
 ابْنُ حَاسٍ ، وَعَنْهُ أَيْضًا ثَلَاثَةُ إِلَى الْعَشْرَةِ . ابْنُ عُيَيْنَةَ : أَرْبَعُونَ رَجُلًا . مُجَاهِدٌ : مِنْ
 جُشْرَةٍ إِلَى خَمْسَةِ خُمُرٍ . وَأَصْلُهَا فِي اللُّغَةِ وَكَلَامِ الْعَرَبِ الْجَمَاعَةُ الَّذِينَ يَتَعَصَّبُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ .
 وَالْخَيْرُ حَقِيقَتُهُ مَا زَادَ نَفْعَهُ عَلَى ضَرَرِهِ . وَالشَّرُّ مَا زَادَ ضَرَرَهُ عَلَى نَفْعِهِ . وَإِنْ خَيْرًا لَا شَرَّ فِيهِ
 هُوَ الْخَيْرُ . وَشَرًّا لَا خَيْرَ فِيهِ هُوَ جَهَنَّمُ . فَأَمَّا الْبَلَاءُ النَّازِلُ عَلَى الْأَوْلِيَاءِ فَهُوَ خَيْرٌ ، لِأَنَّهُ ضَرَرُهُ
 مِنَ الْإِلْمِ قَلِيلٌ فِي الدُّنْيَا ، وَخَيْرُهُ هُوَ الثَّوَابُ بِالْكَثِيرِ فِي الْآخِرَةِ . فَتَبَّ اللَّهُ تَعَالَى عَاشَةَ وَأَهْلَهَا
 وَصَفْوَانَ ، إِذَا انْطَلَبَ لَمْ يَفْعَلْ . لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلَى هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ . لِرَجْحَانِ الشَّعْرِ
 وَالْخَيْرِ عَلَى جَانِبِ الشَّرِّ .

الثَّالِثَةُ - لَمَّا أَخْرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَاشَةَ مَعَهُ فِي غَزْوَةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ
 وَهِيَ غَزْوَةُ الْمُرَيْسِيِّع ، وَقُتِلَ وَدَنَا مِنْ الْمَدِينَةِ آذَنُ لَيْسَةَ بِالرَّحِيلِ فَأَمَتَ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ
 (١) أَيْ بِالَّذِي تَرَأَتْهُ . (٢) الَّذِي فِي الْبَخَارِيِّ «الْبَهَانُ بْنُ رَاشِدٍ» . (٣) قَوْلُهُ : «سَلَا»
 بِكسر الهمزة المشددة من السَّلامِ ، أَيْ سَاكًا فِي شَأْنِهَا . وَقَوْلُ بَعْضِ «لَمْ» مِنَ السَّلَامَةِ مِنَ الْخَوْضِ فِيهِ .

فبذبت حتى جاوزت الجيش، فلما فرغت من شأنها أتت إلى الرجل فلبست صدرها فإذ عقد من جرح طعنه قد انقطع، فرجعت فالتصته فحبسها ابتغاؤه، فوجدته وانهرقت فلم تجد أحداً، وكانت شابة قليلة اللحم، فرفع الرجل يدها ولم يشعر بأزوالها منه؛ فلما لم تجد أحداً اضطلعت في مكانها رجاء أن تفتقد فيجيب إليها، فنامت في الموضع ولم يوقظها إلا قول صفوان بن المفضل: إنا لله وإنا إليه راجعون؛ وذلك أنه كان تخلف وراء الجيش لحفظ الساقة. فبقي: إنها استيقظت لاسترجاعه، ونزل عن ناقته وتحتى عنها حتى ركبت عاتشة، وأخذ يقودها حتى بلغ بها الجيش في نحر الظهيرة؛ فوقع أهل الإنك في مقاتلهم، وكان الذي يجتمع إليه فيه ويستوشيه ويُسلمه عبد الله بن أبي سؤل المنافق، وهو الذي رأى صفوان آخذاً بزمام ناقه عاتشة فقال: والله ما نجت منه ولا نجا منها، وقال: امرأة نبيكم باتت مع رجل. وكان من قاتله حسان بن ثابت ومسطع بن أنانة وحمزة بنت جحش. هذا اختصار الحديث، وهو بأكمله وإتقانه في البخاري ومسلم، وهو في مسلم أكل. ولما بلغ صفوان قول حسان في الإنك جاء فضربه بالسيف ضربة على رأسه وقال:

تلقى دباب السيف عني فلتني • غلام إذا هوجبت ليس بشاعر

فأخذ جماعة حسان ولبيده وجاءوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأهدر رسول الله صلى الله عليه وسلم جرح حسان واستوهبه إياه، وهذا يدل على أن حسان ممن تولى الكبر؛ على ما يأتي والله أعلم. وكان صفوان هذا صاحب ساق رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزواته لشجاعته، وكان من خيار الصحابة. وقيل: كانت حصوراً لا يأتي النساء؛ ذكره ابن خنكار من طريق عاتشة. وقيل: كان له ابنان؛ يدل على ذلك حديثه المروي مع أمهاته، وقول النبي صلى الله عليه وسلم في أبيه: "لما أشبه به من التراب بالتراب". وقوله في الحديث: والله ما كتفت كتف أبني قط؛ يريد بزي. وقتل شهيداً رضي الله عنه في غزوة أرمينية سنة تسع عشرة في زمان عمر، وقيل: ببلاد الروم سنة ثمان وخمسين في زمان معاوية.

(١) الجرح (بفتح الجيم وسكون الزاي) : نحر معروف في سواده يابض كالعرف. ولفظ (كتفتان) : يشبه باليمن. (٢) يستغربه بالبحث والمألة ثم يشبه ويشبهه بدمجه. (٣) لبي فلان فلانا : أخذ ظني؛ أي جمع ثيابه عند صدره ونحوه في الخصومة ثم جره.

الرابعة - قوله تعالى : (لِكُلِّ أُمِّيٍّ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِنِّمِ) يعني من تكلم
بالإفك . ولم يسم من أهل الإفك إلا حسان ومسطع وحمنة وعبد الله ولا يجهل الغير ، قاله
عروة بن الزبير ، وقد سأل عن ذلك عبد الملك بن مروان ، قال : إلا أنهم كانوا عصابة ،
كما قال الله تعالى : وفي مصحف حقة عصابة أربعة .

الخامسة - قوله تعالى : (وَالَّذِي تَوَلَّى كِبَاسَهُمْ) وقرا حيد الإخراج ويقون
« كبره » بضم الكاف ، قال الفراء : وهو وجه جيد ، لأن العرب تقول : فلان تولى عظم
كذا وكذا أي اكبره . روى عن عائشة أنه حسان ، وإنما قالت : بن يحيى ، بل العذاب
العظيم الذي أوعده الله به ذهاب بصره ، رواه عنها مصروق ، وروى عنها أنه عبد الله بن أبي
وهو الصحيح ، وقاله ابن عباس . وحكى أبو عمر بن عبد البر أن عائشة برأت حسان من
الزينة ، وقالت : إنه لم يقل شيئا . وقد أنكر حسان أن يكون قال شيئا من ذلك في قوله ..

حَصَانٌ رَأَيْتُ مَا تُزَيِّنُ بِهِ . وَصَبَحَ غَرَقِي مِنَ الْحَوْمِ الْفَوَاقِلِ

حِكْمَةُ مُنْخِرِ النَّاسِ دِينًا وَمَنْعِبًا . نَبِيُّ الْمَدَى وَالْمَكْرَمَاتِ الْفَوَاضِلِ

عَقِيلَةٌ حَتَّى مَنَ لُسُؤِي بِنِ غَالِبِ . كَوَامِ الْمُنَايَ جَمْدُهَا هَسِيرُ زَائِلِ

بُهِدْبُهُ قَدْ طَبَّبَ إِلَهُ خِيَمَهَا . وَطَهَرَهَا مِنْ كُلِّ شَيْنٍ وَبَاطِلِ

إِنْ كَانِ مَا بَلَّغْتَ أَيْ قُلْتِ . فَلَا رَفْعَ سَوَاطِي إِلَى أَنَا بِلِ

فَكَيْفَ وَوَدَى مَا حَبِثْتُ وَتَضَرَّتِي . لَأَلَّ رَسُولُ اللَّهِ زَيْنَ الْمُحَافِلِ

لَسْتُ رَبِّ عَالٍ عَلَى النَّاسِ فَضْلَهَا . تَفَاضَلَتْ عَنْهَا سُورَةُ الْمُطَاوِلِ

وقد روى أنه لما أشدها : حسان رزان ، قالت له : لست كذلك ، تريد أنك وقعت
في الفوائل . وهذا تارض . ويمكن الجمع بأن يقال : إن حسانا لم يقل ذلك نصا ونصريا ،
ويكون مرصفا بذلك وأما إليه فحسب ذلك إليه ، والله أعلم .

(١) الحصان : الفيفة . ورزان : ذات ثبات وقرار وعفاف . وغرقى : جافة . ما زنت : ما نبتهم . الفوائل

جمع غافلة ، أي لا ترتفع في أعراض الناس . (٢) الخيم (الكسر) : الشيعة والطبقة والخلق والأصل .

وقد اختلف الناس فيه هل خاض في الإنك أم لا ، وهل جلد الحد أم لا ، والله أعلم
أى ذلك كان ، وهى المسألة :

السادسة - فروى محمد بن إسحاق وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم جلد في الإنك
رجلين وامرأة : مسطحا وحسان وحننة ، وذكره الترمذى . وذكر القشيري عن ابن عباس
قال : جلد رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن أبي ثمانين جلدة ، وله في الآخرة عذاب النار . قال
القشيري : والذي ثبت في الأخبار أنه ضرب ابن أبي وضرب حسان وحننة ، وأما مسطح فلم
يثبت عنه قذف صريح ، ولكنه كان يسمع ويشع من غير تصريح . قال السائدي وغيره :
أخفقوا هل حد النبي صلى الله عليه وسلم أصحاب الإنك ؟ على قولين : أحدهما أنه لم يحد
أحدا من أصحاب الإنك لأن الحدود إنما تنقام بإقرار أو بيعة ، ولم يتبعه الله أن يقيمها
بإخباره عنها ، كما لم يتبعه بقتل المنافقين ، وقد أجبره بكفرهم .

قلت : وهذا فاسد مخالف لنص القرآن ، فإن الله عز وجل يقول : « وَالَّذِينَ يَزِينُونَ
الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَاءَ » أى على صدق قولهم « فَأَجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً » .
والقول الثانى - أن النبي صلى الله عليه وسلم حد أهل الإنك عبد الله بن أبي مسطح
ابن أئانة وحسان بن ثابت وحننة بنت بحش ، وفى ذلك قال شاعر من المسلمين :

لقد ذاق حسان الذى كان أهله * وحننة إذ قالوا هجيراً ومسطح
وابن مسلول ذاق فى الحد جزية * كما خاض فى إفاك من القول يفتصح
تماطوا برجم الغيب زوج نبيهم * ومخطئة ذى العرش الكريم فازحوا
وآذوا رسول الله فيها بخللوا * غايزى تسقى عموها وفوضوا
فصبت عليهم محصنات كأنها * شايب قطر من دوى المزن تسفع

قلت : المشهور من الأخبار والمعروف عند العلماء أن الذى حد حسان ومسطح وحننة ،
ولم يسمع بحد لعبد الله بن أبي . روى أبو داود عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما نزل
عذرى قام النبي صلى الله عليه وسلم نذرك ذلك ، وتلا القرآن ، فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين
(١) أى جاورا بأمر مفرط فى الإثم .

والمرأة فُضِرَ بواحدٍ، وسهام : حسان بن ثابت ومسطح بن أثانة وحننة بنت جحش
وفى ظَلَب الطحاوي « ثمانين ثمانين » . قال ثعلبنا . وإنما لم يُحدِّث عبد الله بن أبيّ لأن الله
تعالى قد أعد له في الآخرة عذاباً عظيماً ؛ فلو حدّث في الدنيا لكان ذلك نقصاً من عذابه في الآخرة
وتخفيفاً عنه مع أنّ الله تعالى قد شهد ببراءة عائشة رضي الله عنها وبكذب كل من رماها ؛
فقد حصلت فائدة الحدّ ، إذ مقصوده إظهار كذب القاذف وبراءة المقدّوف ؛ كما قال الله تعالى :
« فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون » . وإنما حدّ هؤلاء المسلمون ليكفّر بحسبهم
إثم ما صدر عنهم من القذف حتى لا يبقى عليهم تبعة من ذلك في الآخرة ، وقد قال صلى الله عليه
وسلم في الحدود « إنما كفارة لمن أقبعت عليه » ؛ كما في حديث عبادة بن الصامت . ويحتمل
أن يقال : إنما ترك حدّ ابن أبيّ استئثاراً لقومه واحتراماً لأبنته ، وإطفاءً لثائرة الفتنة المتوقّدة
من ذلك ، وقد كان ظهر مبادئها من سعد بن عبادة ومن قومه ؛ كما في صحيح مسلم . والله أعلم .
السابعة - قوله تعالى : ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَبَرًا ﴾
هذا خطاب من الله سبحانه وتعالى للمؤمنين في ظنّهم حين قال أصحاب الإفك ما قالوا . قال
ابن زيد : ظنّ المؤمنون أن المؤمن لا يفجر بانه ؛ قاله المهدوي . و « لولا » بمعنى خلا .
وقيل : المحيى أنه كان ينبغي أن يقيس فضلاء المؤمنين والمؤمنات الأمر على أنفسهم ؛ فإن
كان ذلك يبعث فيهم فذلك في عائشة وصفوان أسد . وروى أن هذا النظر السديد وقع
من أبي أيوب الأنصاري وأمرأته ؛ وذلك أنه دخل عليها فقالت له : يا أبا أيوب ، اسمعت
ما قيل ! فقال نعم ! وذلك الكذب ! أكنت أنت يا أم أيوب تغليظ ذلك ! قالت :
لا والله ! قال : فعائشة والله أفضل منك ؛ قالت أم أيوب نعم . فهذا الفعل ونحوه هو الذي
عاتب الله تعالى عليه المؤمنين إذ لم يضلّهم جميعهم .

الثامنة - قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ قال النحاس : معنى « بأنفسهم » بإخوانهم .
فأوجب الله على المسلمين إذا سمعوا رجلاً يقذف أحداً ويذكره بقبائح لا يعرفونه به أن يتكروا
عليه ويكذبوه . وتواجد من ترك ذلك ومن تقله .

(١) في الأصول وتفسير ابن عطية : « عاتب الله تعالى على المؤمنين » .

قلت : ولأجل هذا قال العلماء : إن الآية أصل في أن درجة الإيمان التي حازها الإنسان ، ومقابلة الصلاح التي حلها المؤمن ، وثبته العفاف التي يستترها المسلم لا يزيلها عنه خبر محتمل وإن شاع ، إذا كان أصله فاسداً أو مجهولاً .

التاسعة - قوله تعالى : ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ هذا توبيخ لأهل الإفك . و «لولا» بمعنى هلا ، أى هلاً جاءوا بأربعة شهداء على ما زعموا من الاقتراف . وهذا رد على الحكم الأزل ، وإحالة على الآية السابقة في آية التذنب .

العاشر - قوله تعالى : ﴿فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ يَحْسَبُ اللَّهُ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ أى هم في حكم الله كاذبون . وقد يعجز الرجل عن إقامة البينة وهو صادق في قذفه ، ولكنه في حكم الشرع وظاهر الأمر كاذب لا في علم الله تعالى ، وهو سبحانه إنما رتب الحدود على حكمه الذى شرعه في الدنيا لا على مقتضى علمه الذى تعلق بالإنسان على ما هو عليه ، وإنما يبنى على ذلك حكم الآخرة .

قلت : وما يقوى هذا المعنى ويضد ما ترجمه البخارى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : أبا الناس إن الوحي قد انقطع وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم ، فمن أظهر لنا خيراً أثناه وقربناه ، وليس لنا من سريره شيء الله يحاسبه في سريره ، ومن أظهر لنا سوءاً لم نؤمنه ولم نصدق ، وإن قال إن سريره حسنة . وأجمع العلماء أن أحكام الدنيا على الظاهر ، وأن السرائر إلى الله عز وجل .

الحادية عشرة - قوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ «فَضْلٌ» رفع بالابتداء عند سيبويه ، وأخبر محذوف لا تظهره العرب . وحذف جواب «لولا» لأنه قد ذكر مثله بعد ، قال الله عز وجل «ولولا فضل الله عليكم ورحمته لمستم» أى بسبب ما قلتم فمأنته عذاب عظيم في الدنيا والآخرة . وهذا عتاب من الله تعالى ببلغ ، ولكنه برحمته ستر عليكم في الدنيا ويرحم في الآخرة من أتاه ثانياً . والإفاضة : الأخذ في الحديث ، وهو الذى وقع عليه المتاب ، يقال : أفاض القوم في الحديث أى أخذوا فيه .

(١) يريد آية ١٠ ومعنى قوله تعالى : «ولولا فضل الله عليكم ورحمته وإن الله تواب حكيم» .

الثانية عشرة - قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَقُولُ يَا لَيْتَكُمْ ﴾ قراءة محمد بن السميع بضم التاء وسكون اللام وضم القاف ، من الإلقاء ، وهذه قراءة ينة . وقرأ أبي وابن مسعود « إِذْ تَقُولُ » من التلق ، بتأمين . وقرأ جمهور السبعة بحرف التاء الواحدة وإظهار الذال دون إدغام ، وهذا أيضا من التلق . وقرأ أبو عمرو وحزمة والكسائي بإدغام الذال في التاء . وقرأ ابن كثير بإظهار الذال وإدغام التاء في التاء ، وهذه قراءة قلقة ، لأنها تقتضي اجتماع ساكنين ، وليست كالإدغام في قراءة من قرأ « فَلَا تَنَاجُوا . وَلَا تَنَازَرُوا » لأن دونه الألف الساكنة ، وكونها حرف لين حسنت هنالك مالا تخمن مع سكون الذال . وفسر ابن يعمر وعائشة رضي الله عنهما - وهم أعلم الناس بهذا الأمر - « إِذْ تَقُولُ » بفتح التاء وكسر اللام وضم القاف ، ومعنى هذه القراءة من قول العرب : وَلَقِيَ الرَّجُلَ لَيْقًا وَلَقًا إِذَا كَذَبَ وَاسْتَمَرَّ عَلَيْهِ ، بَغَاوًا بِالْمَتَعَدَّى شَاهِدًا عَلَى غَيْرِ الْمُتَعَدَّى . قال ابن عطية : وعندى أنه أراد إِذْ تَقُولُونَ فيه ، لحذف حرف الجر فأصل الضمير . وقال الخليل وأبو عمرو : أصل اللَّوْقِ الإسراع . يقال : جاءت الإبل تَلْقَى ، أى تسرع . قال :

لَمَّا رَأَوْا جَيْشًا عَلَيْهِمْ قَدْ طَرَقَ • جَاءُوا بِسَرَابٍ مِنَ الشَّامِ وَلَقِيَ

إِنَّ الْحَصِينَ زَلَقَ وَزُمَلَقَ • جَاءَتْ بِهِ عَشْرٌ مِنَ الشَّامِ تَلْقَى

يقال : رجل زَلَقٌ وَزُمَلَقٌ ، مثال هُدَيْدٍ ، وَزُمَلَقٌ وَزُمَلَقٌ (بتشدب الميم) وهو الذى يتزل بهل أن يحاص ، قال الزبير :

• إِنَّ الْحَصِينَ زَلَقٌ وَزُمَلَقٌ •

والزُّوقُ أيضا أخف الطعن . وقد وَلَقَهُ بِلِقَةٍ وَلَقًا : يقال : وَلَقَهُ بِالسِّيفِ وَلَقَاتٌ ، أى ضربات ، فهو مشترك .

الثالثة عشرة - قوله تعالى : ﴿ وَتَقُولُونَ يَا قَرَاهِمُ ﴾ ببالغة واللام زنا كيد . والضمير في « تَحْسَبُونَهُ » غائد على الحديث والحوض فيه والإذاعة له . و ﴿ هَيْتًا ﴾ أى شيئًا يسيرًا لا يلحقكم فيه إثم . ﴿ وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ في الوزر ﴿ عَظِيمٌ ﴾ . وهذا مثل قوله عليه السلام في حديث القبرين : « إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ » أى بالنسبة إليكم .

الرابعة عشرة - قوله تعالى : ﴿ وَأُولَآئِذْ يَعْتَمِدُونَ فَلَنَّمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ تَسْكُنَ هَذَا مَسْكَنًا هَذَا بَيْتَانِ عَظِيمٌ . يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُدُّوا لِنَالِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ عتاب لجميع المؤمنين ؛ أى كان ينبغي عليكم أن تتكروه ولا يتعاطاه بعضكم من بعض على جهة الحكاية والنقل ، وأن تزهروا الله تعالى عز أن يقع هذا من زوج نبيه عليه الصلاة والسلام ، وأن تحكوا على هذه المقالة بأنها بيتان ، وحقيقة البيتان أن يقال في الإنسان ما ليس فيه ، والنية أن يقال في الإنسان ما فيه . وهذا المعنى قد جاء في صحيح الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم . ثم ونظيرهم تعالى في العودة إلى مثل هذه الحالة .
و « أَنْ » مفعول من أجله ، بتقدير : كراهية أن ، ونحوه .

الخامسة عشرة - قوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ توقيف وتوكيد ؛ كما نقول : ينبغي لك أن تفعل كذا وكذا إن كنت رجلاً .

السادسة عشرة - قوله تعالى : ﴿ يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُدُّوا لِنَالِهِ أَبَدًا ﴾ يعني في عائشة ؛ لأن مثلها لا يكون إلا نظير القول في المفعول عنه بعينه ، أو فيمن كان في مرتبة من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لما في ذلك من إزاية رسول الله صلى الله عليه وسلم في عرضه وأهله ؛ وذلك كفر ملي فاعله .

السابعة عشرة - قال هشام بن عمار سمعت مالكا يقول : من سب أباً نكر وعمر أذرب ، ومن سب عائشة قتل ؛ لأن الله تعالى يقول : « يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُدُّوا لِنَالِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » ؛ فمن سب عائشة فقد خالف القرآن ، ومن خالف القرآن قتل . قال ابن العربي : « قال أصحاب الشافعي من سب عائشة رضى الله عنها أذرب كما في سائر المؤمنين ، وليس قوله « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » في عائشة [لأن ذلك] كفر ، وإنما هو كما قال عليه السلام : « لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه » . ولو كان سلب الإيمان في سب من سب عائشة حقيقة لكان سلبه في قوله : « لا يؤمن الزاني حين يزني وهو مؤمن » حقيقة . قلنا : ليس كما زعمتم^(٢) ، فإن^(١)
(١) زيادة عن ابن العربي . (٢) في الأصول : « لأن كان كما زعمت أهل » والتصويب عن ابن العربي . (٣) في الأصول وابن العربي : « أَنْ » بدون فاء .

أهل الإلَاق رَمَوْا عَائِشَةَ المَظْهُورَةَ بالفاحشة فبرأها الله تعالى فكل من سبها بما برأها الله منه مكذب لله ، ومن كذب الله فهو كافر ، فهذا طريق قول مالك ، وفي سبيل لائحة لأهل البصائر . ولو أن رجلا سب عائشة بنبر ما برأها الله منه لكان جزاءه الأدب » .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ ﴾ ^(١) أى تفشو ؛ يقال : شاع الشيء شيوعاً وشيوعاً وشيعاناً وشيعومة ؛ أى ظهر وتفرق . ﴿ فِي الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى في المحسنين والمحسنات . والمراد بهذا اللفظ العام عائشة وصَفَوْنَ رضى الله عنهما . والفاحشة : الفعل القبيح المفرط للقيح . وقيل : الفاحشة في هذه الآية القول السيئ . ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا ﴾ أى الحد . وفي الآخرة عذاب النار ؛ أى للنافقين ، فهو مخصوص . وقد بنا أن الحد للؤمنين كفارة . وقال الطبري : معناه إن مات مُصِراً غير تائب .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ﴾ أى يعلم مقدار عظم هذا الذنب والمجازاة عليه ، ويعلم كل شيء . ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ روى من حديث أبي الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إيماناً رجل شدَّ عُقْدَ امرئٍ من الناس في خصومة لا علم له بها فهو في سخط الله حتى يترع عنها . وإيماناً رجل قال بشفاعته دون حد من حدود الله أن يقام فقد عاند الله حقاً وأقدم على سخطه وعليه لعنة الله تنابح إلى يوم القيامة . وإيماناً رجل أشاع على رجل مسلم كلمة وهو منها برىء يرى أن يشينه بها في الدنيا كان حقاً على الله تعالى أن يرميه بها في النار — ثم تلا مصداقه من كتاب الله تعالى : — إِنَّ الَّذِينَ يَحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا » الآية .

الموفية عشرين — قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْبَلُوا حُطُوتِ الشَّيْطَانِ ﴾ يعنى مسالكه ومذاهبه ؛ المعنى : لا تسلكوا الطريق الذى يدعوكم إليها الشيطان . وواحد الحطوات حُطُوة ، وهو ما بين القدمين . والخطوة (الفتح) المصدر ؛ يقال : حَطَوْتُ حُطُوةً ، وجمعها حَطُوتَات . وتخطى إليها فلان ؛ ومنه الحديث أنه رأى رجلاً يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة .

(١) في الأصول : « الآية » . (٢) في الأصول : « ولو أن رجلاً سب عائشة بعين ما برأها الله منه لكان جزاءه الكفر » . والتصويب عن ابن العربي .

وقرأ الجمهور « حُطُّوت » بضم الطاء . وسكنها عاصم والأعمش . وقرأ الجمهور « مَازَكِ »
بتخفيف الكاف ؛ أى ما اهتدى ولا اسلم ولا صرف رُشدا . وقيل : « مَازَكِ » أى ما صلح ؛
يقال : زَكَرَكَ رَكَء ، أى صلح . وشئها الحسن وأبو حنيفة ؛ أى أن تركبته لكم
وتطهيره وهدايته إنما هى بفضلها لأعمالكم . وقال الكسائي : « يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا
خطوات الشيطان » معترض ، وقوله « مَازَكِ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا » جواب لقوله أولا وثانيا
« ولولا فضل الله عليكم » .

الحادية والعشرون — قوله تعالى : (وَلَا يَأْتِلِ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ) الآية . المشهور
من الروايات أن هذه الآية نزلت فى قصة أبى بكر بن أبى قحافة رضى الله عنه ومسطح بن أثاثة .
وذلك أنه كان أبى بنت خالته وكان من المهاجرين البدرين المساكين . وهو مسطح بن أثاثة
أبى عباد بن المطلب بن عبد مناف . وقيل : اسمه عوف ، ومسطح لقب . وكان أبو بكر رضى
الله عنه ينفق عليه لمسكنته وقربائه ؛ فلما وقع أمر الإفك وقال فيه مسطح ما قال ، حلف
أبو بكر ألا ينفق عليه ولا ينفعه بنافعة أبدا ، بغاء مسطح فاعتذر وقال : إنما كنت أغشى
مجالس حسان فاسمع ولا أقول . فقال له أبو بكر : لقد حشكت وشاركت فيما قيل ؛ فبمى على
يمينه ، فترلت الآية . وقال الضحاك وابن عباس : إن جماعة من المؤمنين قطعوا بنافعهم عن
كل من قال فى الإفك وقالوا : والله لا نصل من تكلم فى شأن عائشة ؛ فترلت الآية فى جميعهم .
والأول أصح ؛ غير أن الآية لتناول الأمة إلى يوم القيامة ؛ لا يقتضى ذو فضل وسعة فيحلف
ألا ينفع من هذه صفته غابرا الدهر . روى الصحيح أن الله تبارك وتعالى لما أنزل « إن الذين
جاءوا بالإفك عصبة منكم » العشر آيات ، قال أبو بكر وكان ينفق على مسطح لقربائه وفقره :
والله لا أنفق عليه شيئا أبدا بعد الذى قال لعائشة ؛ فانزل الله تعالى « وَلَا يَأْتِلِ أَوْلُوا الْفَضْلِ
مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ » — إلى قوله — « أَلَا يُحِيزُونَ أَنْ يُبْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ » . قال عبد الله بن المبارك : هذه
أزكى آية فى كتاب الله تعالى ؛ فقال أبو بكر : والله إنى لأحب أن ينفق الله لى ؛ فرجع إلى
مسطح الثقة التى كان ينفق عليه وقال : لا أنزعها منه أبدا .

الثانية والمثرون - في هذه الآية دليل على أن الغضب وإن كان كثيراً لا يمحيط بالأعمال؛ لأن الله تعالى وصف مسطحاً بعد قوله بالهجرة والإيمان؛ وكذلك سائر الكفار؛ ولا يحيط الأعمال غير الشرك بالله، قال الله تعالى: «لَنْ أَشْرَكَ لِيَحْبِطَنَّ سَعْيُكَ»^(١).

الثالثة والمثرون - من حلف على شيء لا يفعله فرأى فعله أولى منه أناه وكفر عن يمينه، أو كفر عن يمينه وإنه، كما تقدم في «المسألة»^(٢). ورأى الفقهاء أن من حلف ألا يفعل سنة من السنن أو مندوباً وأبد ذلك أنها جرحه في شهادته؛ ذكره الباقي في المتن.

الرابعة والمثرون - قوله تعالى: «وَلَا يَأْتِلْ أَوْلُوا الْقَضِيلِ» «ولا يأتل» بمعناه يخلط؛ وزنها يفتعل، من الآية وهي اليمين؛ ومنه قوله تعالى: «لَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ»؛ وقد تقدم في «البقرة». وقالت فرقة: معناه يقصر؛ من قولك: إلتوت في كذا إذا قصرت فيه؛ ومنه قوله تعالى: «لَا يَأْلُوَنَكُمْ خِيَالًا»^(٣).

الخامسة والعشرون - قوله تعالى: «أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ» تمثيل وحجة؛ أي كما تحبون عفو الله عن ذوبكم فكذلك اغفروا لمن دونكم؛ وينظر إلى هذا المعنى قوله عليه السلام: «من لا يرحم لا يرحم».

السادسة والعشرون - قال بعض العلماء: هذه أرجى آية في كتاب الله تعالى، من حيث لطف الله بالقدفة العصابة بهذا اللفظ. وقيل: أرجى آية في كتاب الله عز وجل قوله تعالى: «وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلًا كَثِيرًا»^(٤). وقد قال تعالى في آية أخرى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ»^(٥)؛ فشرح الفضل الكبير في هذه الآية، وبشر به المؤمنين في تلك، ومن آيات الرحمة قوله تعالى: «قُلْ يَا بَنِي آدَمَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ»^(٦) وقوله تعالى: «اللَّهُ لَطِيفٌ

(١) آية ٦٥ سورة الزمر. (٢) راجع ج ٦ ص ٢٦٤ وما بعدها. (٣) راجع ج ٣ ص ١٠٢.

(٤) راجع ج ٤ ص ١٧٨. (٥) آية ٤٧ سورة الأناب. (٦) آية ٢٢ سورة النور.

(٧) آية ٥٣ سورة الزمر.

١١) وقال بعضهم : أُرِجى آية في كتاب الله عز وجل : « وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى »
وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرضى ببقاء أحد من أمته في النار .

السابعة والعشرون — قوله تعالى : (أَنْ يُؤْتُوا) أى ألا يؤتوا ، لحذف « لا »
كقول القائل : فقلت بين الله أبرح قاعداً .

ذكره الزجاج . وعلى قول أبى عبيدة لا حاجة إلى إسماع « لا » . (وَلَيَعْفُو) من عفا الرج
أى تَرَسَّ ، فهو تَحَوَّ الذنب حتى ينفو كما ينفو أثر الرج .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ
لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٢﴾

فيه مساللتان :

الاول — قوله تعالى : (الْمُحْصَنَاتِ) تقدم في « النساء » . وأجمع العلماء على أن كـ
المحصنين في الحذف حكم المحصنات قياساً واستدلالاً ، وقد بيناه أول السورة والحمد لله .
واختلف فيمن المراد بهذه الآية ؟ فقال سعيد بن جبیر : هى فى رُمة عائشة رضوان الله عليها
خاصة . وقال قوم : هى فى عائشة وسائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، قاله ابن عباس
والضحاك وغيرهما . ولا تنفع التوبة . ومن قذف غيرهن من المحصنات فقد جعل الله له
توبة ، لأنه قال : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَدْنَىٰ شَهَادَةٍ » إلى قوله — إلا الذين
تابوا « فجعل الله ل هؤلاء توبة » ، ولم يعمل لأولئك توبة ، قاله الضحاك . وقيل : هذا الوحيد
لمن أصر على القذف ولم يقب . وقيل : نزلت فى عائشة ، إلا أنه يراد بها كل من أنصف
هذه الصفة . وقيل : إنه عام لجميع الناس القذفة من ذكر وأنثى ، ويكون التقدير : إن
الذين يرمون الأنفس المحصنات ، فدخل فى هذا المذكر والمؤنث ، واختاره النحاس .
وقيل : نزلت فى مشرك مكة ، لأنهم يقولون للمرأة إذا هاجرت إنما خرجت لتفجر .

(١) آية ١٩ سورة النورى . (٢) آية سورة النحر . (٣) هذا صدر بيت لامرئ القيس ، وقوله

ولو قلدوا رأسى لمدك وأوصالى *

(٤) وأجمع ج ٥ ص ١٤٠

الثانية : ﴿لَيْتُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ قال العلماء : إن كان المراد بهذه الآية المؤمنين من القذفة فالمراد باللعنة الإبعاد وضرب الحد واستيحاش المؤمنين منهم وهجرهم طم ، وزواهم عن رتبة العدالة والبعد عن الثناء الحسن على السنة المؤمنين . وعلى قول من قال : هي خاصة لعاشة تترتب هذه الشدائد في جانب عبد الله بن أبي وأشباهه . وعلى قول من قال : نزلت في مشرك مكة فلا كلام ، فإنهم مبعدون ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم ، ومن أسلم فالإسلام يَجِبُ ما قبله . وقال أبو جعفر النحاس : من أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية إنه عام لجميع الناس القذفة من ذكر وأُنثى ؛ ويكون التقدير : إن الذين يرمون الأئفس المحصنات ، فدخل في هذا المذكر والمؤنث ، وكذا في الذين يرمون ؛ إلا أنه غلب المذكر على المؤنث .

قوله تعالى : يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٦﴾

قراءة العامة بالنساء ، واختاره أبو حاتم . وقرأ الأعمش وبجي وحزمة والكسائي وخلف « يشهد » بالياء ، واختاره أبو عبيد ، لأن الجار والمجرور قد حال بين الاسم والفعل ، والمعنى : يوم تشهد ألسنة بعضهم على بعض بما كانوا يعملون من القذف والبهتان . وقيل : تشهد عليهم ألسنتهم ذلك اليوم بما تكلموا به . ﴿ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ ﴾ أى وتكلم الجوارح بما عملوا في الدنيا .

قوله تعالى : يَوْمَئِذٍ يُؤْقِرُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٧﴾

أى حسابهم وجزاؤهم . وقرأ مجاهد « يؤمئذ يؤقيرهم الله دينهم الحق » برفع « الحق » على أنه نعمت لله عز وجل . قال أبو عبيد : ولولا كراهة خلاف الناس لكان الوجه الرفع ؛ ليكون نعمت الله عز وجل ، وتكون موافقة لقراءة أبي ، وذلك أن حرير بن حازم قال : رأيت في مسحف أبي « يؤقيرهم الله الحق دينهم » . قال النحاس : وهذا الكلام من أبي عبيد غير

عَرَضِيٌّ؛ لأنه احتج بما هو مخالف للسواد الأعظم . ولا حجة أيضا فيه لأنه لو صح هذا أنه في مصحف أبيّ كذا جاز أن تكون القراءة : يؤمّن يؤفهم الله الحق دينهم ، يكون «دينهم بدلا من الحق . وعلى قسرة العامة « دِينَهُمُ الْحَقُّ » يكون « الحق » نعتا لدينهم ، والمعنى حسن ؛ لأن الله عز وجل ذكر المسيئين وأعلم أنه يميزهم بالحق ؛ كما قال الله عز وجل : «وَهُلْ يُجَازِي إِلَّا الْكَفُورُ» ؛ لأن مجازاة الله عز وجل للكافر والمسيء بالحق والعدل ، ومجازاته للحسن الإحسان والفضل . (وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ) إسمان من أسمائه سبحانه . وقد ذكرناهما في غير موضع ، وخاصة في الكتاب الأسنى .

قوله تعالى : **أَنخَبِثْتُ الْخَبِيثِينَ وَآخَبِثُونَ الْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتِ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبِينَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** ﴿٦٦﴾

قال ابن زيد : المعنى الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال ، وكذا الخبيثون للخبيثات ، وكذا الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات . وقال مجاهد وابن جبير وعطاء وأكثر المفسرين : المعنى الكلمات الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال ، وكذا الخبيثون من الناس للخبيثات من القول ، وكذا الكلمات الطيبات من القول للطيبين من الناس ، والطيبون من الناس للطيبات من القول . قال النحاس في كتاب معاني القرآن : وهذا أحسن ما قيل في هذه الآية . ودل على صحة هذا القول « أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ » أى عائشة وصفوان مما يقول الخبيثون والخبيثات ، وقيل : إن هذه الآية مبنية على قوله «الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً» الآية ؛ فالخبيثات الزواني ، والطيبات المغائف ، وكذا الطيبون والطيبات . واختار هذا القول النحاس أيضا ، وهو معنى قول ابن زيد . (أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ) يعني به المجلس . وقيل : عائشة وصفوان ، بجمع ؛ كما قال : « فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ » والمراد أخوان ؛ قاله الفراء .

و (مُبرِّعُونَ) يعني مبرِّعِينَ مَا رُمُوا بِهِ . قال بعض أهل التحقيق : إن يوسف عليه السلام لما رُمِيَ بالفاحشة برَّاه الله على لسان صبيٍّ في المهسد، وإن مريم لما رُميت بالفاحشة برَّاهَا الله على لسان ابنها عيسى صلوات الله عليه، وإن عائشة لما رُميت بالفاحشة برَّاهَا الله تعالى بالقرآن، فما رضى لها ببراءة صبيٍّ ولا نَجَى حَتَّى بَرَّاهَا الله يكلامه من القذف والبهتان . وروى عن عليٍّ بن زيد بن جُدعان عن جَدِّته عن عائشة رضى الله عنها قالت : لقد أعطيت سَمَاءَ ما أعطيتين أَمْرَاءَ : لقد نزل جبريل عليه السلام بصورتي في راحته حين أَمَرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يَتَرَوَّجَنِي، ولقد تَرَوَّجَنِي بَكَرًا وما تَرَوَّجَ بَكَرًا غَيْرِي، ولقد تَوَّفَّيَ صَلَّى الله عليه وسلم وإن رأسه لَنِي حَجْرِي، ولقد قُبِرَ فِي بَيْتِي، ولقد حَفَّتِ الملائكةُ بَيْتِي، وإن كان الوحي لَيُنْزِلُ عليه وهو في أهله فينصرفون عنه، وإن كان لَيُنْزِلُ عليه وأنا معه في لحافه فَا يُبَيِّنُنِي عن جسده، وإني لأبْئِنَا خَلِيفَتَهُ وَصِدِّيقَهُ، ولقد نزل عُدْرِي من السماء، ولقد خُلِّفْتُ طَلِيبَةً وَعِنْدَ طَلِيبٍ . ولقد وُعِدْتُ مَغْفِرَةً وَرِزْقًا كَرِيمًا، ولقد قَتَلْتُ مَغْفِرَةً وَرِزْقًا كَرِيمًا . وهو الجنة .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَاسْتَسْلِمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٦٧﴾
فيه سبع عشرة مسألة :

الأولى - قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا) لما خصص الله سبحانه ابن آدم الذي كَرَّمَهُ وَفَضَّلَهُ بالمنازل وسرَّهم فيها عن الأبصار، ولكمهم الاستمتاع بها على الأفراد، وسجَّر على الخلق أن يظلموا على ما فيها من خارج أو يلجوها من غير إذن أربابها، أذنبهم بما يرجع إلى السرِّ عليهم لئلا يطلع أحد منهم على عَوْرَةٍ . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "من أطلع في بيت قوم من غير إذنهم حلَّ لهم أن يفتقروا عينه" . وقد اختلفت في تأويله ؛ فقال بعض العلماء : ليس هذا على ظاهره،

فَإِنْ تَقَا فَعَلَيْهِ الضَّمَانُ، والخبر مفسوخ، وكان قبل نزول قوله تعالى : «وَإِنْ عَاثَنتُمْ فَأَعِقُّوا» .
ويحتمل أن يكون خرج كل وجه الوعيد لا على وجه الحتم ، والخبر إذا كان خافاً للكتاب
الله تعالى لا يجوز العمل به . وقد كانت النبي صلى الله عليه وسلم يتكلم بالكلام في الظاهر
وهو يريد شيئاً آخر ، كما جاء في الخبر أن عباس بن مرداس لما منعه قال لبلال :
«فم فاقطع لسانه» وإنما أراد بذلك أن يدفع إليه شيئاً ، ولم يرد به القطع في الحقيقة .
وكذلك هذا يحتمل أن يكون ذكر تقيء العين والمزاد أن يعمل به عمل حتى لا ينظر بعد ذلك
في بيت غيره . وقال بعضهم : لا ضمان عليه ولا قصاص ، وهو الصحيح إن شاء الله تعالى ،
لحديث أنس ، على ما يأتي .

الثانية - سبب نزول هذه الآية ما رواه الطبري وغيره عن عدي بن ثابت أن امرأة
من الأنصار قالت : يا رسول الله ، إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها أحد ،
لا والد ولا ولد فيأتي الأب فيدخل عليّ - وإنه لا يزال يدخل عليّ رجل من أهلي وأنا على تلك
الحال ، فكيف أصنع ؟ فنزلت الآية . فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله ، أفرأيت
الخانات والمسكن في طرق الشام ليس فيها ساكن ، فأُتزل الله تعالى : «يَسَّ عَلَيَّمْ جَنَاحُ
أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ» .

الثالثة - مد الله سبحانه وتعالى التحريم في دخول بيت ليس هو بيك إلى غاية
هي الاستئناس ، وهو الاستئذان . قال ابن وهب قال مالك : الاستئناس فيما نرى والله أعلم
الاستئذان ، وكذا في قراءة أبيّ وابن عباس وسعيد بن جبير «حَتَّى تَسْأَلُوا عَلَيْهِمْ عَلَى أَرْبَعِينَ» .
وقيل : إن معنى «تَسْأَلُوا» تَسْتَعْمَلُوا ، أى تَسْتَعْمَلُوا مَنْ فِي الْبَيْتِ . قال مجاهد : بالتجسس
أو بأى وجه أمكن ، ويسأل في قدر ما يعلم أنه قد شُعب به ، ويدخل إثر ذلك . وقال معناه
الطبري ، ومنه قوله تعالى : «فَإِنْ آتَيْتُمْ مِنْهُمْ رُّشْدًا» أى علمهم . وقال الشاعر :
آتَيْتُ نَبَأَهُ وَأَنْزَمْتُهَا الْقَدَّ * مَصَّ عَصْرًا وَقَدْ دَنَا الْإِسَاءُ

قلت : وفي سنن ابن ماجه : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عبد الرحمن بن سليمان عن واصل ابن السائب عن أبي سؤرة عن أبي أيوب الأنصاري قال قلنا : يا رسول الله ، هذا السلام ، فما الاستئذان ؟ قال : " يشكلم الرجل بتسبيحة وتكبيرة وتحميدة ويتنصع ويؤذن أهل البيت " .

قلت : وهذا نص في أن الاستئناس غير الاستئذان ؛ كما قال مجاهد ومن وافقه .

الرابعة - وروى عن ابن عباس وبعض الناس يقول عن سعيد بن جبيرة « حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا » خطأ أو وسم من الكاتب ، إنما هو « حتى تستأذِنُوا » . وهذا غير صحيح عن ابن عباس وغيره ؛ فإن مصاحف الإسلام كلها قد ثبت فيها « حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا » ، ومع الإجماع فيها من لدن مدة عثمان ، فهي التي لا يجوز خلافها . وإطلاق الخطأ والوهم على الكاتب في لفظ أجمع الصحابة عليه قول لا يصح عن ابن عباس ؛ وقد قال عز وجل : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَتَرَبَّلُ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » ، وقال تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » . وقد روى عن ابن عباس أن في الكلام تدينا وتأخيا ؛ والمعنى : حتى تستأذِنُوا على أهلها وتستأنسوا ؛ حكاه أبو حاتم . قال ابن عطية : وما يئني هذا القول عن ابن عباس وغيره أن « تستأنسوا » متمكنة في المعنى ، بينة الوجه في كلام المروزي . وقد قال عمر للنبي صلى الله عليه وسلم : أستاذس يا رسول الله ؛ وعمر واقف على باب الغرفة ، الحديث المشهور . وذلك يقتضي أنه طلب الأئس به صلى الله عليه وسلم ، فكيف يخطئ ابن عباس أصحاب الرسول في مثل هذا .

قلت : قد ذكرنا من حديث أبي أيوب أن الاستئناس إنما يكون قبل السلام ، وتكون الآية على بابها لا تقديم فيها ولا تأخير ، وأنه إذا دخل سلم . والله أعلم .

الخامسة - الستة في الاستئذان ثلاث مرات لا يزداد عليها . قال ابن وهب قال مالك : الاستئذان ثلاث ، لا أحب أن يزيد أحد عليها ، إلا من علم أنه لم يسمع ، فلا أرى بأسا أن يزيد إذا استيقن أنه لم يسمع . وصورة الاستئذان أن يقول الرجل : السلام عليكم أَدْخُلْ ، فإن أُذِنَ له دخل ، وإن أمر بالرجوع انصرف ، وإن سكُت عنه استأذن

ثلاثاً ، ثم ينصرف من بعد الثلاث . وإنا قلنا : إن السنة الاستئذان ثلاث مرات لا يزداد عليها لحديث أبي موسى الأشعري ، الذي استعمله مع عمر بن الخطاب وشهد به لأبي موسى أبو سعيد الخدري ، ثم أبي بن كعب . وهو حديث مشهور أخرجه الصحيح ، وهو نص صريح ، فإن فيه : فقال — يعني عمر — ما منعك أن تأتينا ؟ قلت : أتيت فستت على بابك ثلاث مرات فلم ترد علي فرجعت ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع " . وأما ما ذكرناه من صورة الاستئذان فما رواه أبو داود عن ربيعة قال : حدثنا رجل من بني عامر استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في بيت ، فقال : ألع ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لخادمه : " اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان — فقال له — قل السلام عليكم أدخل " فسمعه الرجل فقال : السلام عليكم أدخل ؟ فأذن له النبي صلى الله عليه وسلم فدخل . وذكره الطبري وقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمة له يقال لها وروضة : " قولي لهذا يقول السلام عليكم أدخل ؟ " الحديث . وروى أن ابن عمر آذنه الترمضاء يوماً فأتى فسطاطاً لامرأة من قريش فقال : السلام عليكم أدخل ؟ فقالت المرأة : أدخل بسلام ، فأعاد فأعادت ، فقال لها : قولي أدخل . فقالت ذلك فدخل ، فتوقف لما قالت : بسلام ، لاحتمال اللفظ أن تريد بسلامك لا بشخصك .

السادسة — قال علماؤنا رحمة الله عليهم : إنما خص الاستئذان بثلاث لأن الغالب من الكلام إذا كرر ثلاثاً سمع وفهم ، ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى يفهم عنه ، وإذا سلم على قوم سلم عليهم ثلاثاً . وإذا كان الغالب هذا ، فإذا لم يؤذن له بعد ثلاث ظهر أن رب المنزل لا يريد الإذن ، أو لعله يمنعه من الجواب عنه عذر لا يمكنه قطعه ، فينبغي للاستأذن أن ينصرف ، لأن الزيادة على ذلك قد تثقل رب المنزل ، وربما يضره الإلحاح حتى ينقطع عما كان مشغولاً به ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي أيوب حين استأذن عليه فخرج مستعجلاً فقال : " لعلنا أعجلناك ... " الحديث . وروى عقيل عن ابن شهاب قال : أما سنة التسليكات الثلاث فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى سعد

ابن عبادة فقال : "السلام عليكم" فلم يردوا، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "السلام عليكم" فلم يردوا، فأنصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فلما فقد سعد تسليمه عرف أنه قد أنصرف؛ فخرج سعد في أثره حتى أدركه، فقال : عليك السلام يا رسول الله، إنما أردنا أن نستكثر من تسليمك، وقد والله سمعنا؛ فأنصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم مع سعد حتى دخل بيته. قال ابن شهاب : فإنما أخذ التسليم ثلاثا من قبل ذلك؛ رواه الوليد ابن مسلم عن الأوزاعي قال : سمعت يحيى بن أبي كثير يقول حدثني محمد بن عبد الرحمن بن أسعد بن زُرارة [عن قيس بن سعد]^(١) قال : زارت رسول الله صلى الله عليه وسلم في منزلنا فقال : "السلام عليكم ورحمة الله" قال فردّ سعد ردّا خفيا، قال قيس : فقلت ألا تأذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : ذره يكثر علينا من السلام... الحديث، أخرجه أبو داود وليس فيه « قال ابن شهاب فإنما أخذ التسليم ثلاثا من قبل ذلك ». قال أبو داود : ورواه عمر بن عبد الواحد وابن سماعة عن الأوزاعي مرسلًا لم يذكر قيس بن سعد .

السابعة - روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الاستئذان ترك العمل به الناس . قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وذلك لاختلاف الناس الأبواب وقرعها؛ والله أعلم . روى أبو داود عن عبد الله بن بسر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول : "السلام عليكم السلام عليكم" وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور .

الثامنة - فإن كان الباب مردودا فله أن يقف حيث شاء منه ويستأذن، وإن شاء دق الباب؛ لما رواه أبو موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في حائط بالمدينة حلّ قف البئر فد رجليه في البئر فدق الباب أبو بكر فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إيذن له وبشره بالجنة" . هكنا رواه عبد الرحمن بن أبي الزناد وتابعه صالح بن كيسان ويونس بن يزيد، فرووه جميعا عن أبي الزناد عن أبي سلمة عن عبد الرحمن بن ثابت

(١) زيادة من سنن أبي داود يقتضيا السياق .

(٢) قف البئر : هو المكان الذي يجمل حوله . وأصل القف : ما نظف من الأرض وارتفع .

من أبي موسى . وخالفهم محمد بن عمرو اللثي فرواه عن أبي الزناد عن أبي سلمة عن نافع ابن عبد الحارث عن النبي صلى الله عليه وسلم كذلك ؛ وإسناده الأول أصح ، والله أعلم .

التاسعة — وصفة الدق أن يكون خفيفاً بحيث يسمع ، ولا يعتف في ذلك ؛ فقد روى أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كانت أبواب النبي صلى الله عليه وسلم تفرع بالأظفار ؛ ذكره أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب في جامعه .

العاشرة — روى الصحيحان وغيرهما عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : استأذنت على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : "من هذا؟" فقلت أنا؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "أنا أنا"؛ كأنه كره ذلك . قال ملبأنا : إنما كره النبي صلى الله عليه وسلم ذلك لأن قوله أنا لا يحصل بها تعريف ، وإنما الحكم في ذلك أن يذكر اسمه كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأبو موسى ؛ لأن في ذكر الاسم إسقاط لكلفة السؤال والجواب . ثبت عن عمر بن الخطاب أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مشربة له فقال : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليكم أيدخل عمر؟ وفي صحيح مسلم أن أبا موسى جاء إلى عمر بن الخطاب فقال : السلام عليكم ، هذا أبو موسى ، السلام عليكم ، هذا الأشعري ... الحديث .

الحادية عشرة — ذكر الخطيب في جامعه عن علي بن عاصم الواسطي قال : قدمت البصرة فأتيت منزل شعبة فدققت عليه الباب فقال : من هذا؟ قلت أنا؛ فقال : يا هذا ! ما لي صديق يقال له أنا ؛ ثم خرج إلى فقال : حدثني محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في حاجة لي فطرقت عليه الباب فقال : "من هذا؟" فقلت أنا؛ فقال : "أنا أنا"؛ كأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كره قول هذا ، أو قوله هذا . وذكر عن عمر بن شبة حدثنا محمد بن سلام عن أبيه قال : دققت على عمرو بن عبيد الباب فقال لي : من هذا؟ فقلت أنا؛ فقال : لا يعلم الغيب إلا الله . قال الخطيب : سمعت علي بن الحسن القاضي يحكي عن بعض الشيوخ أنه كان إذا دق بابَه فقال من ذا ؟ فقال الذي على الباب أنا ؛ يقول الشيخ : أنا هم دق .

الثانية عشرة - ثم لكل قوم في الاستئذان عُرْفُهُم في العبارة، كما رواه أبو بكر الخطيب مستندا عن أبي عبد الملك مولى أم مسكين بنت عاصم بن عمر بن الخطاب قال : أرسلني مولائي إلى أبي هريرة بجاء معي ، فلما قام بالباب قال : أندر ؟ قالت أندرون . وترجم عليه (باب الاستئذان بالفارسية) . وذكر عن أحمد بن صالح قال : كان الدراوردي من أهل أصبهان نزل المدينة ، فكان يقول للرجل إذا أراد أن يدخل : أندرون ، فلقبه أهل المدينة الدراوردي .^(١)

الثالثة عشرة - روى أبو داود عن كُتَيْب بن حنبل أن صفوان بن أمية بعثه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبن وجدانية وضغائيس والنبي صلى الله عليه وسلم بأهل مكة ، فدخلت ولم أسلم فقال : " ارجع فقل السلام عليكم " وذلك بعد ما أسلم صفوان بن أمية . وروى أبو الزبير عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من لم يبدأ بالسلام فلا تأذنوا له " . وذكر ابن مريج أخبرني عطاء قال : " سمعت أبا هريرة يقول : إذا قال الرجل أدخل ؟ ولم يسلم فقل لا حتى تأتي بالمفتاح ؛ فقلت السلام عليكم ؟ قال نعم . وروى أن حذيفة جاءه رجل فظفر إلى ما في البيت فقال : السلام عليكم أدخل ؟ فقال حذيفة : أما بعينك فقد دخلت ! وأما بأستك فلم تدخل .

الرابعة عشرة - وما يدخل في هذا الباب ما رواه أبو داود عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " رسولُ الرجل إلى الرجل إذنه " ؛ أي إذا أرسل إليه فقد أذن له في الدخول ، يفيته قوله عليه السلام : " إذا دُعِيَ أحدكم [إلى طعام] بجاء مع الرسول فإن ذلك له إذن " . أخرجه أبو داود أيضا عن أبي هريرة .

الخامسة عشرة - فإن وقعت العين على العين فالسلام قد تميّن ، ولا تتدّ رؤيته إذا لك في دخولك عليه ، فإذا قضيت حق السلام لأنك الوارد عليه تقول : أدخل ؟ فإن أذن لك وإلا رجعت .

(١) هو عبد العزيز بن محمد بن عيسى أبي عبد . (راجع ترجمته في كتاب تهذيب التهذيب) .
 (٢) الهداية :
 التذكرة والألقاب من أولاد الظاهر إذا بلغ سنة أو سنة وثمانين من الهجرة . والفتاوى : واحدها ضفروس .
 وقيل : هي بنت بنت في أصول النمام ، يساق بالمثل والمثريت ويؤكل . (٣) زيادة عن سنن أبي داود .

السادسة عشرة — هذه الأحكام كلها إنما هي في بيت لبس لك ، فأما بيتك الذي
 تمسكته فإن كان فيه أهليك فلا إذن عليها ، إلا أنك تسلم إذا دخلت . قال قتادة : إذا دخلت
 بيتك فسلم على أهلك ، فهم أحق من سلمت عليهم . فإن كان فيه معك أمك أو أختك فقالوا :
 تتحج وأضرب برجلك حتى ينتهيا لدخولك ؛ لأن الأهل لا حشمة بينك وبينها . وأما الأم
 والأخت فقد يكونا على حالة لا تحب أن تراهما فيها . قال ابن القاسم قال مالك : ويستأذن
 الرجل على أمه وأخته إذا أراد أن يدخل عليهما . وقد روى عطاء بن يسار أن رجلا قال للنبي
 صلى الله عليه وسلم : أستأذن على أمي ؟ قال " نعم " قال : إني أخذتها ؟ قال : " أستأذن عليها "
 فعأوده ثلاثا ؛ قال " تحب أن تراها حُرْبَانَه " ؟ قال لا ؛ قال : " فأستأذن عليها " ذكره الطبري .

السابعة عشرة — فإن دخل بيت نفسه وليس فيه أحد ؛ فقال علماءنا : يقول السلام
 عليها ، من ربنا التحيات الطيبات المباركات ، لله السلام . رواه ابن وهب عن النبي صلى الله
 عليه وسلم ، وسنده ضعيف . وقال قتادة : إذا دخلت بيتا ليس فيه أحد فقل السلام عليها
 وعلى عباد الله الصالحين ؛ فإنه يؤمر بذلك . قال : وذكر لنا أن الملائكة ترد عليهم . قال
 ابن العزبي : والصحيح ترك السلام والأستئذان ، والله أعلم .

قلت : قول قتادة حسن .

قوله تعالى : فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ
 وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرِجُوا فَأَرْجِعُوا فَرِجُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥٨﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا) الضمير في « تجدوا فيها » للبيوت التي
 هي بيوت النبر . وحكي الطبري عن مجاهد أنه قال : معنى قوله « فإن لم تجدوا فيها أحدا »
 أي لم يكن لكم فيها متاع . وضعف الطبري هذا التأويل ، وكذلك هو في غاية الضعف ؛
 وكان مجاهدا رأى أن البيوت غير المسكونة إنما تُدْخَلُ دُونَ إذن إذا كان للداخل فيها متاع .

ورأى لفظة « المتاع » متاع البيت ، الذي هو البُسْطُ والسياب ؛ وهذا كله ضعيف . والصحيح أن هذه الآية مرتبطة بما قبلها والأحاديث ؛ التفسير : يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا ، فإن أذن لكم فادخلوا وإلا فارجعوا ؛ كما فعل عليه السلام مع سعد ، وأبو موسى مع عمر رضي الله عنهما . فإن لم يجدوا فيها أحداً يذن لكم فلا تدخلوها حتى يجدوا ذناباً . وأسد الطبري عن قتادة قال قال رجل من المهاجرين : لقد طلبت عمري هذه الآية لما أدركتها أن استأذن على بعض إخواني فيقول لي أرجع فأرجع وأنا مقبض ؛ لقوله تعالى : « هو أذكى لكم » .

الثانية - سواء كان الباب مغلقاً أو مفتوحاً ؛ لأن الشرع قد أغلقه بالتحريم للدخول حتى يفتحه الإذن من ربه ، بل يجب عليه أن يأتي الباب ويحاول الإذن على صفة لا يطلع منه على البيت لا في إقباله ولا في انقلابه . فقد روى علماؤنا عن عمر بن الخطاب أنه قال : من ملا عييله من قاعة بيت فقد فسق . وروى الصحيح عن سهل بن سعد أن رجلاً أطلع في بئر في باب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم مديري رجل به رأسه ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو أعلم أنك تنظر لقطعنتُ به في عينك إنما جعل الله الإذن من أجل البصر » . وروى عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لو أن رجلاً أطلع عليك بغير إذن فخذفته بمحصة ففقات عينه ما كان عليك من جناح » .^(٢)

الثالثة - إذا ثبت أن الإذن شرط في دخول المنزل فإنه يجوز من الصغير والكبير . وقد كان أنس بن مالك دون البلوغ يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك الصحابة مع أبنائهم وعلمانهم رضي الله عنهم . وسيأتي لهذا من به بيان في آخر السورة إن شاء الله تعالى .

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ وَآلَهُ يَأْتَمِعُونَ عَالِمٌ ﴾ توعّد لأهل التجسس على البيوت وطلب الدخول على غيلة العاصي والنظر إلى ما لا يحل ولا يجوز ، ولتبرهم عن يقع في محظور .

(١) الهدى والندرة : هي ، يسئل من حديد أو خشب على شكل سن من أسنان المشط وأطول منه يسرح به الشعر .

(٢) الخلف : وميك حصة أو نواة تأخذها بين سياتيك وترى بها .

قوله تعالى : لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا
مَنْعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٨﴾

فيه مسائل :

الأولى — رُوي أن بعض الناس لما نزلت آية الاستئذان تعمق في الأمر ، فكان لا يأتي موضعا تريبا ولا مسكونا إلا سلم واستأذن ، فتركت هذه الآية ، أباح الله تعالى فيها رفع الاستئذان في كل بيت لا يسكنه أحد ، لأن العلة في الاستئذان إنما هي لأجل خوف الكشفة على الحرمات ، فإذا زالت العلة زال الحكم .

الثانية — اختلف العلماء في المراد بهذه البيوت ، فقال محمد بن الحنفية وقائدة ومجاهد : هي الفنادق التي في طرق السابلة . قال مجاهد : لا يسكنها أحد بل هي موقوفة لأوى إليها كل ابن سبيل ، وفيها منافع لهم ، أي استئجار بمغفاتها . ومن محمد بن الحنفية أيضا أن المراد بها دور مكة ، وبينته قول مالك . وهذا على القول بأنها غير مملوكة ، وأن الناس شركاء فيها ، وأن مكة أخذت عتوة . وقال ابن زيد والشَّعْبِيُّ : هي حوايت القيساريات . قال الشعبي : لأنهم جاءوا ببيوعهم بخلوها فيها ، وقالوا للناس هلم . وقال عطاء : المراد بها الحُرَب التي يدخلها الناس للبول والغائط ، ففي هذا أيضا منافع . وقال جابر بن زيد : ليس معنى بالمنافع الجهاز ، ولكن ما سواه من الحاجة ، أما منزل يتزله قوم من ليل أو نهار ، أو نخرة يدخلها لقضاء حاجة ، أو دار ينظر إليها ، فهذا منافع وكل منافع الدنيا منافع . قال أبو جعفر النحاس : وهذا شرح حسن من قول إمام من أئمة المسلمين ، وهو موافق للغة . والمنافع في كلام العرب : المنفعة ، ومنه أمتع الله بك ، ومنه « فتمتعوا » .

قلت : واختاره أيضا القاضي أبو بكر بن العربي وقال : أما من فسر المنافع بأنه جميع الاستئذان فقد طبق المفصل وجاء بالقبض ، وبين أن الداخل فيها إنما هو لما له من الاستئذان ، فالطالب يدخل في الخانات وهي المدارس لطلب العلم ، والسائق يدخل الخانات

وهي الفتاق، أي الفتاق، والزبون يدخل الدكان للابتاع، والحاقن يدخل الخلاء للحاجة؛ وكل يؤق على وجهه من بابه. وأما قول ابن زيد والشَّحِيحُ فقول ! وذلك أن سيوت القيساريات محظورة بأموال الناس، غير مباحة لكل من أراد دخولها بإجماع، ولا يدخلها إلا من أذن له ربها، بل أربابها موكلون بدفع الناس.

قوله تعالى : قُلِ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٢٠﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (قُلِ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ) وصل تعالى بذكر الستة ما يتعلق به من أمر النظر؛ يقال : غَضَّ بصره بَغْضًا غَضًّا، قال الشاعر :

فَغَضَّ الطَّرْفُ إِنْكَ مِنْ مُبِيرٍ « فَلَ كَغَبٍّ لَقَّتْ وَلَا كِلَانًا »

وقال عنترة :

وأغض طرف ما بدت لي جاري « حتى يسواري جاري ما واثما »

ولم يذكر الله تعالى ما يَغُضُّ البصر عنه ويحفظ الفرج، غير أن ذلك معلوم بالمادة، وأن المراد منه المحرم دون المحلل. وفي البخاري : « وقال سعيد بن أبي الحسن لمسن إن نساء المعجم يكشفن صدورهن ورووسهن ؟ قال : اصرف بصرك ؛ يقول الله تعالى « قُلِ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ » وقال قتادة : عما لا يحل لهم ؛ « وقل للمؤمنات يَغُضُّنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ » خاتمة الأعين [من] النظر إلى ما نهي عنه ^(١) .

الثانية — قوله تعالى : (مِنْ أَبْصَارِهِمْ) « من » زائدة ؛ كقوله « فما بينكم من أحد » عنه حازرين ^(٢) . وقيل : « من » للتبويض ؛ لأن من النظر ما يباح . وقيل : الغض نقصان ؛ يقال : غَضَّ فلان من فلان أى وضع منه ؛ فالبصر إذا لم يمكن من عمله فهو موضوع منه ومنقوص . فـ « عين » صلة للغض ، وليست للتبويض ولا للزيادة .

(١) زيادة من صحيح البخاري . (٢) آية ٤٧ سورة الحاقة .

الثالثة — البصر هو الباب الأكبر إلى القلب، وأعمر طرق الحواس إليه، وبحسب ذلك كثرة السقوط من جهته . ووجب التحذير منه ، وغضبه واجب عن جميع المحرمات ، وكل ما يخشى الفتنة من أجله ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إياكم والجلوس على الطرقات » فقالوا : يا رسول الله ، ما لنا من مجالسنا بدُّ نتحدث فيها . فقال : « فإذا أبيتم إلا المجلس فاعطوا الطريق حقه » قالوا : وما حق الطريق يا رسول الله ؟ قال : « غُصُّ البصر وكف الأذى وردُّ السلام والأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر » . رواه أبو سعيد الخدري ، ترجمه البخاري ومسلم . وقال صلى الله عليه وسلم لعل : « لا تُبْعِ النظر النظره فإنما لك الأولى وليست لك الثانية » . وروى الأزواجي قال : حدثني هارون بن رهاب أن غزوان وأبا موسى الأشعري كانا في بعض مآزيمهم ، فكشفت جارية فنظر إليها غزوان ، فرفع يده فغط عينه حتى تفرت ، فقال : إنك للمخاطة إلى ما يضرك ولا ينفعك ، فلقى أبا موسى فسأله فقال : ظلمت عينك ، فاستغفر الله وتب ، فإن لما أول نظرة وعليها ما كان بعد ذلك . قال الأزواجي : وكان غزوان ملك نفسه فلم يضحك حتى مات رضي الله عنه . وفي صحيح مسلم عن جرير بن عبد الله قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظرة النجاة ؟ فأمرني أن أصرف بصري . وهذا بقوى قول من يقول : إن « من » التبييض ؛ لأن النظرة الأولى لا تُملك فلا تدخل تحت خطاب تكليف ، إذ وقوعها لا يتأتى أن يكون مقصودا ، فلا تكون مكسبة فلا يكون مكلفا بها ، فوجب التبييض لذلك ، ولم يقل ذلك في الفرج ؛ لأنها تُملك . ولقد كره الشعبي أن يُدبم الرجل النظر إلى أخته أو أمه أو أخته وزمائه خير من زماننا هذا ! وحرام على الرجل أن ينظر إلى ذات حمزة نظر شهوة يرتدعها .

الرابعة — قوله تعالى : (وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ) أى يستروها عن أن يراها من لا يحل . وقيل : « ويحفظوا فروجهم » أى عن الزنى ؛ وحل هذا القول لو قال : « من فروجهم » لحاز . والصحيح أن الجميع مراد واللفظ عام . وروى بهز بن حكيم بن معاوية القشيري عن أبيه عن جده قال : قلت يا رسول الله ، عوراتنا ما نأتي منها وما نذر ؟ قال : « احفظ (١) تفرقت البين وغيرها من الأعضاء تغير قودها » ما جئت ووردت .

عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك". قال : الرجل يكون مع الرجل ؟ قال :
 نعم إن استطعت ألا يراها فافعل". قلت : فالرجل يكون خاليا ؟ فقال : "الله أحمق أن
 يُستجبا منه من الناس". وقد ذكرت عائشة رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم
 وحالها معه فقالت : ما رأيت ذلك منه، ولا رأى ذلك مني .

الخامسة - بهذه الآية حرّم العلماء نصّاً دخول الحمام بغير متردّد . وقد روى عن
 ابن عمر أنه قال : أطيب ما أنفق الرجل درهم يعطيه للحمام في خلوة . وسمع عن ابن عباس أنه
 دخل الحمام وهو مُحْرِمٌ بالحجفة . فدخوله جائز للرجال بالمأزور، وكذلك النساء للضرورة كنفسهن
 من الحيض أو النفاس أو مرض يلحقهن ، والأوّل بين والأفصل لمن غسلهن إن أمكن
 ذلك في بيوتهن ، فقد روى أحمد بن منيع حدثنا الحسن بن موسى حدثنا ابن طيّعة حدثنا
 زَبَّان عن سهل بن معاذ عن أبيه عن أم الدرداء أنه سمعها تقول : ليقبني رسول الله صلى الله
 عليه وسلم وقد خرجت من الحمام فقال : "من أين يا أمّ الدرداء ؟" فقالت من الحمام ؛
 فقال : "والذي نفسي بيده ما من امرأة تضع ثيابها في غير بيت أحد من أمتهاتها إلا وهي
 هاتكة كل ستر بينها وبين الرحمن عز وجل". ونزّج أبو بكر البزار عن طاوس عن ابن عباس
 رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "احذروا بيتا يقال له الحمام". قالوا :
 يا رسول الله، يتنقح الوسخ ؟ قال : "فاستنوا". قال أبو محمد عبد الحق : هذا أصح إسناد
 حديث في هذا الباب ؛ على أن الناس يرسلونه عن طاوس ، وأما ما نزّجه أبو داود في هذا
 من الحظر والإباحة فلا يصح منه شيء لضعف الأسانيد؛ وكذلك ما نزّجه الترمذی .

قلت : أما دخول الحمام في هذه الأزمان فخرام على أهل الفضل والدين ؛ لغلبة الجهل
 على الناس واستسالمهم إذا توسّطوا الحمام روى مأزورهم ، حتى يرى الرجل البهيّ ذو الشبهة قائما
 متصبيا وسط الحمام وحارجه ناذيا عن عورته ضامّا بين نخذه ولا أحد يغير عليه . هذا أمر
 بين الرجال فكيف من النساء ! لا سيما بالديار المصرية إذ حماماتهم خالية عن المظاهر التي
 هي عن أميين الناس سواتره ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم ! .

السادسة - قال العلماء : فإن استر فليدخل بمشرة شروط :
الأول - ألا يدخل إلا بنية التداوى أو بنية التطهير عن الرِّحْضاء ^(١) .

الثاني - أن يعتمد أوقات الخلوة أو قلة الناس .

الثالث - أن يستر عورته بإزار صفيق .

الرابع - أن يكون نظره إلى الأرض أو يستقبل الحائط لتلايقع بصره على محظور .

الخامس - أن يُستَرَّ ما يرى من منكرفرق، يقول : استترتكَ الله !

السادس - إن دلَّكه أحد لا يمكنه من عورته ، من سرته إلى ركبته إلا امرأته أو جاريته . وقد اختلف في الفضل هل هما عورة أم لا .

السابع - أن يدخله بأجرة معلومة بشرط أو بمادة الناس .

الثامن - أن يصبَّ الماء على قدر الحاجة .

التاسع - إن لم يقدر على دخوله وحده اتفق مع قوم يحفظون أديانهم على كراهته .

العاشر - أن يتذكر به جهنم . فإن لم يمكنه ذلك كله فليستر وليجتهد في غشَّ البصر .

ذكر الترمذى أبو عبد الله في نوادر الأصول من حديث طاوس عن عبد الله بن عباس قال

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " آتقوا بيتا يقال له الحمام " . قيل : يا رسول الله ، إنه

يذهب به الوسخ ويذكر النار؛ فقال : " إن كنتم لا بُدَّ فاعلمين فأدخلوه مستترين " . ونخرج

من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نعم البيت يدخله الرجل

المسلم بيتُ الحمام - وذلك لأنه إذا دخله سأل الله الحنة واستماذ به من النار - وبئس البيتُ

يدخله الرجل بيتُ العروس " . وذلك لأنه يرقِّبه في الدنيا وينسيه الآخرة . قال أبو عبد الله :

فهذا لأهل الغفلة ، صبر الله هذه الدنيا بما فيها سببا للذكر لأهل الغفلة ليدركوا بها آخرتهم ؛

فأما أهل اليقين فقد صارت الآخرة تُصب أعينهم فلا بيت حمام يزججه ولا بيت عروس

(١) الرِّحْضاء : العرق في أترالحي .

يستفزه، لقد دقت الدنيا بما فيها من المصنفين والضررين في جنب الآخرة، حتى إن جميع نعيم الدنيا في أعينهم كثارة الطعام من مائدة عظيمة، وجميع شدائد الدنيا في أعينهم كثافة عوقب بها مجرم أو مسيء، قد كان استوجب القتل أو الصلب من جميع عقوبات أهل الدنيا .

السابعة - قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾ أي غُضَّ البصر وحفظ الفرج أظهر في الدين وأبعد من دنس الأثام . ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ ﴾ أي عالم . ﴿ وَمَا يَصْنَعُونَ ﴾ تهديد ووعيد .

قوله تعالى : وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانَهُنَّ أَوْ إِخْوَانَهُنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانَهُنَّ أَوْ نِسَاءَهُنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ إلى قوله ﴿ مِنْ زِينَتِهِنَّ ﴾ فيه ثلاث وعشرون مسألة :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ ﴾ خص الله سبحانه وتعالى الإناث هنا بالخطاب على طريق التأكيد؛ فإن قوله « قل للمؤمنين » يكفي؛ لأنه قول عام يتناول الذكور والإناث من المؤمنين، حسب كل خطاب عام في القرآن . وظهر التضعيف في « يَغْضُضْنَ » ولم يظهر في « يَفْعَلُوا » لأن لام الفعل من الثاني ساكنة ومن الأول متحركة، وهما في موضع

جزم جواباً . وبدأ بالنَّصِّ قبل الفرج لأن البصر رائد للقلب ؛ كما أن الحى رائد الموت .
وأخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال :

ألم ترأت العين للقلب رائد * لما تألف العينان فالقلب الف

وفي الخبر "النظر سهم من سهام إبليس مسموم فمن غصَّ بصره أورهقه الله الحلاوة في قلبه" .
وقال مجاهد : إذا أقبلت المرأة جلس الشيطان على رأسها فزيتها لمن ينظر ؛ فإذا أدبرت جلس على عجزها فزيتها لمن ينظر . وعن خالد بن أبي عمران قال : لا تُتَمَيَّنْ النظرة النظرة فربما نظر العبد نظرة تغل منها قلبه كما يغفل الأديم فلا ينفع به . فأمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين والمؤمنات بنض الأبصار عما لا يحل ؛ فلا يحل للرجل أن ينظر إلى المرأة ، ولا المرأة إلى الرجل ؛ فإن علاقتها به كعلاقته بها ؛ وقصدها منه كقصده منها . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الله كتب على ابن آدم حظاً من الزنى أدرك ذلك لا محالة فالعينان تزنيان وزناهما النظر ..." الحديث . وقال الزهري في النظر إلى التي لم تحبس من النساء : لا يصلح النظر إلى شيء ممن يمن يستتري النظر إليهن وإن كانت صغيرة . وكره عطاء النظر إلى الجوارى اللاتي يعن بمكة إلا أن يريد أن يشتري . وفي الصحيحين عنه عليه السلام أنه صرف وجه الفضل عن الخمعة حين سألته ، وطبق الفضل ينظر إليها .^(١٢)
وقال عليه السلام : " الفيرة من الإيمان والمذاة من النفاق " . والمذاة هو أن يجمع الرجل بين النساء والرجال ثم يحتلهم يُأذى بعضهم بعضاً ؛ مأخوذ من المذى . وقيل : هو إرسال الرجال إلى النساء ؛ من قولهم : مذيت الفرس إذا أرسلتها تترعى . وكلّ ذكر يمدى ، وكلّ أنثى تقدى ؛ فلا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تبدي زينتها إلا لمن تحل له ، أو لمن هي محزومة عليه على التأبید ؛ فهو آمن أن يتحرك طبعه إليها لوقع اليأس له منها .

(١) الفل (بالفتح) : الفساد . ونقل الأديم إذا عفن وتهدى في الدباغ فيضده ويك .

(٢) في البخارى : « من ابن عباس قال : كان الفضل رديف النبي صلى الله عليه وسلم بغات امرأة من خنم فقل الفضل ينظر إليها وينظر إليه ، فجل النبي صلى الله عليه وسلم يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر ؛ فقالت : فريرة الله أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يثبت على الراحلة أفأفح عه ؟ قال نعم » .

الثانية - روى الترمذي عن تيهان مولى أم سلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها ولميمونة وقد دخل عليهما ابن أم مكتوم : "احتجبا" نقاتا : إنه أعمى ؛ قال : "أفعميا وإن أتما السمتا تبصرانه" . فإن قيل : هذا الحديث لا يصح عند أهل النقل لأن راويه عن أم سلمة تيهان مولاها وهو ممن لا يحتج بحديثه . وعلى تقدير صحته فإن ذلك منه عليه السلام تغليظ على أزواجه لحرمتهن كما غلظ عليهن أمر الحجاب ؛ كما أشار إليه أبو داود وغيره من الأئمة . ويتفق معنى الحديث الصحيح الثابت وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر فاطمة بنت قيس أن تمتد في بيت أم شريك ؛ ثم قال : "تلك امرأة يشاها أصحابي أعتدى عند ابن أم مكتوم فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك ولا يراك" . قلنا : قد استدلل بعض العلماء بهذا الحديث على أن المرأة يجوز لها أن تطلع من الرجل على ما لا يجوز للرجل أن يطلع من المرأة كالرأس ومعاق القُرط ، وأما العورة فلا . فعلى هذا يكون مخصصا لمعوم قوله تعالى : «وقل للزينات يَغْضُضْنَ من أبصارهن» ، وتكون «من» للتبويض كما هي في الآية قبلها . قال ابن العربي : وإنما أمرها بالانتقال من بيت أم شريك إلى بيت ابن أم مكتوم لأن ذلك أولى بها من بقائها في بيت أم شريك ؛ إذ كانت أم شريك مؤثرة بكثرة الداخل إليها ، فيكثر الزاى لها ، وفي بيت ابن أم مكتوم لا يراها أحد ؛ فكان إمساك بصرها عنه أقرب من ذلك وأولى ، فرخص لها في ذلك ، والله أعلم

الثالثة - أمر الله سبحانه وتعالى النساء ألا يبدن زينةهن للناظرين ، إلا ما استثناه من الناظرين في باقي الآية حذارا من الاقتتان ، ثم استثنى ما يظهر من الزينة ؛ واختلف الناس في قدر ذلك ؛ فقال ابن مسعود : ظاهر الزينة هو الثياب . وزاد ابن جبير الوجه . وقال سعيد بن جبير أيضا وعطاء والأوزاعي : الوجه والكفان والثياب . وقال ابن عباس وقتادة والمسيور بن عثمة : ظاهر الزينة هو الكحل والسوار والخضاب إلى نصف الذراع والقرطة والفتخ ؛ ونحو هذا قباحت أن تنبيه المرأة لكل من دخل عليها من الناس . وذكر الطبري عن

(١) الفتخ (بفتحين جمع الفتحة) : عواتيم كبار تلبس في الأبدى .

فتادة في معنى نصف الذراع حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر آخر عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا يحمل لأمرأة تؤمن بالله واليوم الآخر إذا عركت أن تظهر إلا وجهها ويديها إلى هاهنا " وقبض على نصف الذراع . قال ابن عطية : ويظهر لي بحكم ألفاظ الآية أن المرأة مأمورة بالابتدئ وأن تجتهد في الإخفاء لكل ما هو زينة ، ووقع الاستثناء فيما يظهر بحكم ضرورة حركة فيما لا بد منه ، أو إصلاح شأن ونحو ذلك . فـ«ما ظهر» على هذا الوجه مما تؤدي إليه الضرورة في النساء فهو المعفو عنه . قلت : هذا قول حسن ، إلا أنه لما كان الغالب من الوجه والكفين ظهورهما عادةً وعادةً وذلك في الصلاة والجم ، فيصلح أن يكون الاستثناء واجباً إليهما . يدل على ذلك ما رواه أبو داود عن عائشة رضي الله عنها أن أسماء بنت أبي بكر رضى الله عنها دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق ، فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لها : " يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا " وأشار إلى وجهه وكفيه . فهذا أقوى في جانب الاحتياط ، ولإعارة فساد الناس فلا تبدي المرأة من زينتها إلا ما يظهر من وجهها وكفيها ، والله الموفق لا رب سواه . وقد قال ابن خُوَيْرِثٍ متناد من علمائنا : إن المرأة إذا كانت جميلة وخيف من وجهها وكفيها الفتنة فعلها ستر ذلك ، وإن كانت عجوزاً أو مُقْبِحةً جاز أن تكشف وجهها وكفيها .

الرابعة — الزينة على قسمين : خَلْقِيَّةٌ وَمُكْتَسِبَةٌ ؛ فالخَلْقِيَّةُ وجهها فإنه أصل الزينة وجمال الخلقة ومعنى الحيوانية ؛ لما فيه من المنافع وطرق العلوم . وأما الزينة المكتسبة فهي ما تحاوله المرأة في تحسين خلقها ؛ كالتياب والحلي والكحل والخضاب ؛ ومنه قوله تعالى : « حُذِرُوا زِينَتَكُمْ » . وقال الشاعر :

يا حُذِرْنَ زِينَتَهُنَّ أَحْسَنَ مَا تَرَى • وإذا عَطَلْنَ فَهِنَّ خَيْرَ عَوَاطِلْ

الخامسة — من الزينة ظاهره وباطن ، فما ظهر فبإباح أبداً لكل الناس من المحارم والأجانب ؛ وقد ذكرنا ما للعلماء فيه . وأما ما بطن فلا يحمل إبداءه إلا لمن حتمَّه الله تعالى في هذه

الآية ، أو حلّ محلهم . واختلف في التّوارد ؛ فقالت عائشة : هي من الزينة الظاهرة لأنها في الدين . وقال مجاهد : هي من الزينة الباطنة ؛ لأنها خارج عن الكفين وإنما تكون في الدراع . قال ابن العربي : وأما الخضاب فهو من الزينة الباطنة إذا كان في القدمين . السادسة - قوله تعالى : ﴿ وَلَيَضْرِبَنَّ يَصَُّهُنَّ عَلَىٰ جُوبَيْنَ ﴾ قرأ الجمهور بسكون اللام التي هي لامر . وقرأ أبو عمرو في رواية ابن عباس بكسرها على الأصل ؛ لأن الأصل [في لام] الأمر الكسر ، وحذفت الكسرة لثقلها ، وإنما تسكينها لتسكين عَصْدٍ وَفَعْد . و « يَضْرِبَنَّ » في موضع جزم بالأمر ، إلا أنه بُنِيَ على حالة واحدة إنباعاً لا أخى عند سيوبه . وسبب هذه الآية أن النساء كنّ في ذلك الزمان إذا غطين رموسهن بالأمسرة وهي المقانع مَدَدْنَهَا من وراء الظهر . قال النّفاش : كما يصنع النّبط ؛ فينبق النحر والعنق والأذنان لاستر على ذلك ؛ فأمر الله تعالى بَلَّ الخمار على الجيوب ، وهيئة ذلك أن تضرب المرأة بخمارها على جيبها لتستر صدرها . روى البخاري عن عائشة أنها قالت : رحم الله نساء المهاجرات الأوّل ؛ لما نزل « وليضربن بخمرهن على جيوبهن » شَقَقْن أُرْزَهْن فاختمرن بها . ودخلت على عائشة حفصة بنت أخيها عبد الرحمن رضي الله عنهم وقد اختمرت بشيء يَشِفُّ عن عنقها وما هنا لك ؛ فشقته عليها وقالت : إنما يُضْرَب بالكثيف الذي يستر .

السابعة - الخمر : جمع الخمار ، وهو ما تغطّي به رأسها ؛ ومنه آختمت المرأة وتخمرت ، وهي حسنة الخمر . والجيوب : جمع الجيب ، وهو موضع القطع من الدرع والقميص ؛ وهو من الجوّب وهو التّقطع . ومشهور القراءة ضم الجيم من « جيوبهن » . وقرأ بعض الكوفيّين بكسرها بسبب الياء ؛ كقراءتهم ذلك في : بيوت وشيوخ . والنحويون القدماء لا يميزون هذه القراءة ويقولون : بيت وبيوت كقفل وقُلوس . وقال الزجاج : يجوز على أن تبدل من الضمة كسرة ؛ فاما ما روى عن حمزة من الجمع بين الضم والكسر لمحال ؛ لا يقدر أحد أن ينطق به إلا على الإيماء إلى ما لا يجوز . وقال مقاتل : « على جيوبهن » أى على صدورهن ؛ يعنى على مواضع جيوبهن .

(١) أى النساء المهاجرات . وهو نخوة الأراك ؛ أى شجره الأراك .

الثامنة — في هذه الآية دليل على أن الجيب إنما يكون في الثوب موضع الصدر . وكذلك كانت الجيوب في ثياب السلف رضوان الله عليهم ؛ على ما يصنع النساء عندنا بالأندلس وأهل الديار المصرية من الرجال والصبيان وغيرهم . وقد ترجم البخاري رحمة الله تعالى عليه (باب جيب القميص من عند الصدر وغيره) وساق حديث أبي هريرة قال : ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل البحيل والمتصلق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد قد أصطرت أيديهما إلى نديهما وتراقيهما ... الحديث ، وقد تقدم بكأله ، وفيه : قال أبو هريرة : فانا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بأصبعه هكذا في جيبه ؛ فلو رأيت يوسعها ولا توضع . فهذا يبين لك أن جيبه عليه السلام كان في صدره ؛ لأنه لو كان في مكيه لم تكن يده مضطوة إلى ندييه وتراقيه . وهذا استدلال حسن .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا لِبُعُولَتَيْنِ ﴾ البعل هو الزوج والسيد في كلام العرب ؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل : " إذا ولدت الأمة بعلها " يعني سيدها ؛ إشارة إلى كثرة السراري بكثرة الفتوحات ، فيأتي الأولاد من الإمام فتعتق كل أم بولدها وكأنه سيدها الذي من عليها بالعتق ، إذ كان العتق حاصلها من سببه ؛ قاله ابن العربي . قلت : ومنه قوله عليه السلام في مارية : " أعتقها ولدها " فنسب العتق إليه . وهذا من أحسن تأويلات هذا الحديث . والله أعلم .

مسألة — فالزوج والسيد يرى الزينة من المرأة وأكثر من الزينة إذ كل محل من بدنها حلال له لذة ونظرا . ولهذا المعنى بدأ بالبعولة ؛ لأن أطلاعهم يقع على أعظم من هذا ، قال الله تعالى : « والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين » .^(١) العاشرة — اختلف الناس في جواز نظر الرجل إلى فرج المرأة ؛ على قولين : أحدهما — يجوز ؛ لأنه إذا جاز له التلذذ به فالنظر أولى . وقيل : لا يجوز ؛ لقول عائشة

(١) راجع ج ١ ص ٢٥٠ . (٢) جواب « لو » محذوف ؛ أي تنجبت .

(٣) راجع ص ١٠٥ من هذا الجزء .

رضى الله عنها في ذكر حالها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما رأيت ذلك منه ولا رأى ذلك مني . والأول أصح ، وهذا محمول على الأدب ، قاله ابن العربي . وقد قال أصبغ من علمائنا : يجوز له أن يلحسه بلسانه . وقال ابن خُوَيْرِمَتَداد : أما الزوج والسيد فيجوز له أن ينظر إلى سائر الجسد وظاهر الفرج دون باطنه . وكذلك المرأة يجوز أن تنظر إلى عورة زوجها ، والأمة إلى عورة سيدها .

قلت : و. وى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « النظر إلى النرج يورث الطمس » أى العمى ، أى فى الناظر . وقيل : إن الولد بينهما يولد أعمى . والله أعلم .

الحادية عشرة - لما ذكر الله تعالى الأزواج وبدأ بهم حتى بذى المحارم وسوى بينهم فى إبداء الزينة ، ولكن تختلف مراتبهم بحسب ما فى نفوس البشر . فلا مزية أن كشف الأب والأخ على المرأة أخوط من كشف ولد زوجها . وتختلف مراتب ما يبدى لهم ، فيبدى للاب مالا يجوز إبدائه لولد الزوج . وقد ذكر القاضى إسماعيل من الحسن والحسين رضى الله عنهما أنهما كانا لا يريان أمهات المؤمنين . وقال ابن عباس : إن رؤيتهما لمن تحيل . قال إسماعيل : أحسب أن الحسن والحسين ذهبا فى ذلك إلى أن أبناء البعولة لم يذكروا فى الآية التى فى أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، وهى قوله تعالى : « لا جُنَاحَ عَلَى من يَبْدِي لَمْ يَكُنْ » (١) . وقال فى سورة النور : « وَلَا يَسْئُرُ زَيْنَتَهُنَّ إِلَّا لِيَعْلَمُنَّ » الآية . فذهب ابن عباس إلى هذه الآية ، وذهب الحسن والحسين إلى الآية الأخرى .

الثانية عشرة - قوله تعالى : « أَوْ أَبْنَاءُ يَتْلُونَ » يريد ذكر أولاد الأزواج ، ويدخل فيه أولاد الأولاد وإن سَقَلُوا ، من دُرْكان كانوا أو إِيَّانَت ؛ كبنى البتين وبنى البنات . وكذلك آباء البعولة والأجداد وإن عُلُوا من جهة الذر كان لآباء الآباء وآباء الأمهات ، وكذلك أبناءهن وإن سَقَلُوا . وكذلك أبناء البنات وإن سَقَلْنَ ؛ فيستوى فيه أولاد البتين وأولاد البنات . وكذلك أخواتهن ، وهم من ولده الآباء والأمهات أو أحد الصّفيين . وكذلك بنو الإخوة

وبنو الأخوات وإن سَقَلُوا من ذُرِّيَّتِكُمْ كانوا أو إناث كُتِبَ بني الأخوات وبني بنات الأخوات . وهذا كله في معنى ما حمى من المناسك ، فإن ذلك على المعافى في الولادات وهؤلاء محارم ، وقد تقدم في « النساء » . والجمهور على أن اللَّحْمَ والخال كسائر المحارم في جواز النظر لها إلى ما يجوز لهم . وليس في الآية ذكر الرضاع ، وهو كالنسب على ما تقدم . وعند الشعبي وعكرمة ليس اللحم والخال من المحارم ، وقال عكرمة : لم يذكرهما في الآية لأنهما تبعان لأبائهما .

الثالثة عشرة - قوله تعالى : (أَوْ نِسَائِهِنَّ) يعني المسلمات ، ويدخل في هذا الإماء المؤمنات ، ويخرج منه نساء المشركين من أهل الذمة وغيرهم ، فلا يحل لأمرأة مؤمنة أن تكشف شيئاً من بدنّها بين يدي امرأة مشركة إلا أن تكون أمة لها ؛ فذلك قوله تعالى : « أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ » . وكان ابن جرير وعبد بن نسي وهشام القاري يرون أن يقبل النصرانية المسلمة أو ترى حورتها ، ويتأولون « أَوْ نِسَائِهِنَّ » . وقال حيّدة بن ثعلبة : وكتب عمر رضي الله عنه إلى أبي حبيدة بن الجراح : أنه بلغني أن نساء أهل الذمة يدخلن الحمامات مع نساء المسلمين ؛ فامنع من ذلك ، وحلّ دونه ، فإنه لا يجوز أن ترى الذمّية عريّة المسلمة . قال : فعند ذلك قام أبو حبيدة وأبتهل وقال : أيما امرأة تدخل الحمام من غير عذر لا تريد إلا أن تبيض وجهها فسود الله وجهها يوم تبيض الوجه . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : لا يحل للمسلمة أن تراها عريّة أو نصرانية ؛ لثلاث تصفها لزوجها . وفي هذه المسألة خلاف للفقهاء . فإن كانت الكافرة أمة لمسلمة جاز أن تنظر إلى سيدتها ؛ وأما غيرها فلا ؛ لا قطعاً للولاية بين أهل الإسلام وأهل الكفر ، ولما ذكرناه . والله أعلم .

الرابعة عشرة - قوله تعالى : (أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ) ظاهر الآية يشمل الميسرة والإماء المسلمات والكنانيات . وهو قول جماعة من أهل العلم ، وهو الظاهر من مذهب عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما . وقال ابن عباس : لا بأس أن ينظر المملوك إلى شعر مولاه . وقال أشهب : سئل مالك أتلقى المرأة حمامها بين يدي الخبيث ؟ فقال نعم ، إذا كان

(١) راجع ج ٥ ص ٥٠٥ وما بعدها (٢) مرة المرأة : ما يرى منها ويشكف .

مملوكاً لها أولئها ، وأما الحز فلا . وإن كان فخلاً كبيراً وغداً تملكه ، لاهية له ولا منظر
فلينظر إلى شعورها . قال أشهب قال مالك : ليس يوسع أن تدخل جارية الولد أو الزوجة
على الرجل المرحاض ، قال الله تعالى : « أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » . وقال أشهب عن مالك :
ينظر الغلام الوغد إلى شعر سيده ، ولا أحبه لغلام الزوج . وقال مسعيد بن المسيب :
لا تنزلك هذه الآية « أو ما ملكت إيمانن » إنما عني بها الإماء ولم يثن بها العبيد . وكان الشعبي
يكراه أن ينظر المملوك إلى شعر مولاه . وهو قول مجاهد وعطاء . وروى أبو داود عن أنس
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى فاطمة ببند قد وهبه لها ، قال : وعلى فاطمة ثوبٌ إذا
غطت به رأسها لم يبلغ إلى رجلها ، وإذا غطت به رجلها لم يبلغ إلى رأسها ، فلما رأى النبي
صلى الله عليه وسلم ما تلقى من ذلك قال : « إنه لا بأس عليك إنما هو أبوك وغلامك » .

الخامسة عشرة - قوله تعالى : (أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِزَةِ مِنَ الرِّجَالِ) أى غير
أولى الحاجة . والإزبة الحاجة ، يقال : أربت كذا أرب أرباً . والإرب والإربة والمأربة
والأرب : الحاجة ، والجمع مأرب ، أى حوايج . ومنه قوله تعالى : « وَلِي فِيهَا مَأْرَبٌ
أُخْرَى » وقد تقدم . وقال طرفة :^(١)

إذا المرء قال الجهل والحب والحنأ * تقدم يوماً ثم ضاعت مآربه

واختلف الناس في معنى قوله : « أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِزَةِ » فقول : هو الأحمق
الذى لا حاجة به إلى النساء . وقيل الأبله . وقيل : الرجل يتبع القوم فيما كل معهم ويرتفق
بهم ، وهو ضيف لا يكثر للنساء ولا يشتهن . وقيل اللين . وقيل الخصى . وقيل
الخنث . وقيل الشيخ الكبير ، والصبي الذى لم يدر . وهذا الاختلاف كله متقارب المعنى ،
ويجتمع فيمن لا فهم له ولا همة يتتبعها إلى أمر النساء . وبهذه الصفة كان هيئ الخنث
عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما سمع منه ما سمع من وصف محاسن المرأة : بادية بنت
غيلان ، أمر بالاحتجاب منه . أخرجه حديثه مسلم وأبو داود ومالك في الموطأ وغيرهم عن

(١) الحب (بضم الحاء وتفصيلاً) : الإيم . وانها : النحش .

هشام بن عروة عن عروة عن عائشة . قال أبو عمر : ذكر عبد الملك بن حبيب عن حبيب كاتب مالك قال قلت لمالك : إن سفيان زاد في حديث ابنة غيلان : « أن غنماً يقال له هيت » وليس في كتابك هيت ؟ فقال مالك : صدق ، هو كذلك وغيره النبي صلى الله عليه وسلم إلى الحمي وهو موضع من ذى الحليفة ذات الشمال من مسجدها ، قال حبيب وقلت لمالك : وقال سفيان في الحديث : إذا قدمت تبنت ^(١) ، وإذا تكلمت تفتت . قال مالك : صدق ، هو كذلك . قال أبو عمر : ما ذكره حبيب كاتب مالك عن سفيان أنه قال في الحديث يعني حديث هشام بن عروة « أن غنماً يدعى هيتاً » فغير معروف عند أحد من رواه عن هشام ، لا ابن هينة ولا غيره ، ولم يقل في نسق الحديث « إن غنماً يدعى هيتاً » ، وإنما ذكره عن ابن جريج بعد تمام الحديث ، وكذلك قوله عن سفيان أنه يقول في الحديث : إذا قدمت تبنت وإذا تكلمت تفتت ، هذا ما لم يقبله سفيان ولا غيره في حديث هشام بن عروة ، وهذا اللفظ لا يوجد إلا من رواية الواقدي ، والعجب أنه يحكي عن سفيان ويحكي عن مالك أنه كذلك ، فصارت رواية عن مالك ، ولم يروه عن مالك غير حبيب ولا ذكره عن سفيان غيره أيضاً ، والله أعلم . وحبيب كاتب مالك متروك الحديث ضعيف عند جميعهم ، لا يكتب حديثه ولا يلتفت إلى ما يحمي به . ذكر الواقدي والكافي أن هيتاً المخنث قال لعبد الله بن أمية المخزومي وهو أخو أم سلمة لأبيها وأمه عائكة عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال له وهو في بيت أخته أم سلمة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع : إن فتح الله عليكم الطائف فليكن ببادية بنت غيلان بن سلمة الثقفي ، فإنها تقبل بأربع وتدر بثمان ^(٢) مع ثفر كالأحشوان ، إن جلست تبنت وإن تكلمت تفتت ، بين رجلها كالإناء المكفوف ، وهي كالقوس بن الحطيم ^(٣) : تسترق الطرف وهي لاية . كأنما شَفَّ وجهها ^(٤) نَزَف

(١) أي صارت كالبنانة من منها وصلها . قال ابن الأثير : أي فزيت رجلها لضم زكياً (فرجها) ؛ كأنه شهبها بالقة من الأدم . (٢) يعني تقبل بأربع عكن وتدر بثمان عكن . والعكن والأعكان : ما انطوى وتقى من لم يعلن صمًا . (٣) يعني ضم زكياً (فرجها) ونهوده كأنه إناء مكفوف . (٤) يقول : من نظر إليها استقرت طرفه وبصره وشغله عن النظر إلى غيرها ، وهي لاية غير محفلة . والزف (بضم فسكون) : دحرك هنا لصدرة الشعر) : تروج الدم . وفي شرح ديوان نيس : « أراد أن في لونها مع اليأس صفرة » وذلك أحسن .

بين شُكُول النساءِ يَحْتَبُهَا * قَصْدٌ فَلَا جَبَلَةٌ وَلَا تَقْصِفُ
تنام عن كُبرِ شأنها فإذا * قامت رَوِيْدًا تَكَادُ تَنْقَصِفُ

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " لقد غفلت النظر إليها يا عدوّ الله " . ثم أجلاه عن المدينة إلى الحِمَى ، قال : فلما أَفْتَحَتْ الطائف تزوجها عبد الرحمن بن عوف فولدت له منه بَرَبَةً ، في قول الكلبي . ولم يزل هيت بذلك المكان حتى قبض النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما ولي أبو بكر كُتِبَ فيه فأنى أن يرّقه ، فلما ولي عمر كُتِبَ فيه فأنى ، ثم كُتِبَ فيه عثمان بعدد . وقيل : إنه قد كُتِبَ وضِعْفُ وأُحْتاج ، فأذن له أن يدخل كل جمعة فيسأل ويرجع إلى مكانه . قال : وكان هيت مولى لعبد الله بن [أبي] أمية المخزومي ، وكان له طُويْسٌ أيضا ، فن تمّ قيل الخنثى . قال أبو عمر : يقال « بادية » بالياء و « بادنة » بالنون ، والضوابط فيه عندهم بالياء ، وهو قول أكثرهم ، وكذلك ذكره الزبيرى بالياء .

السابعة عشرة — وصف التابعين بـ « غير » لأن التابعين غير مقصودين بأعيانهم ، فصار اللفظ كالنكرة . و « غير » لا يتعمّض نكرة بخلاف أن يجرى وصفا على المعرفة . وإن شئت قلت هو بدل . والقول فيها كالفول في « غير المغضوب عليهم » . وقرأ عاصم وابن عامر « غير » بالنصب فيكون استثناء ، أى يبيدين زينتهن للتابعين إلا إذا الإربة منهم . ويجوز أن يكون حالا ، أى والذين يتبعونهن عاجزين عنهم ، قاله أبو حاتم . وذو الحال ماقى « التابعين » من الذكر .

السابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ أَوِ الطُّفُلِ ﴾ اسم جنس بمعنى الجمع ، والدليل على ذلك عنه بـ « الذين » . وفي مصحف حفصة « أو الأطفال » على الجمع . ويقال : طفلاً ما لم يراهق الحُلُم . و ﴿ يَطْهَرُوا ﴾ معناه يطهروا بالطهارة ، أى لم يكشفوا عن عوراتهن للجناح لصغرهن . وقيل : لم يبالغوا أن يطيقوا النساء ، يقال : ظهرت على كذا أى علمته ، وظهرت

(١) الشُّكُول : الضروب . وفُسد : لبست بالخبث ولا التحفة . والحيلة : الفيلقة ؛ من جبل (كفرج) فهو جبل وسيل . والقَصْف : اللهة وقلة القم . (٢) طُويْس لقب يلقب عليه ، واسمه عيسى بن عبد الله ، مولى بن غزوم ، وهو أول من غنى بالعربي بالمدينة ، وأول من أتى الخنثى بها . (راجع ترجمته في الأغانى ج ٣ ص ٢٧ طبع دار الكتب المصرية) . (٣) في الأصول : « قيل الخنثى » والتصويب عن الأغانى .

على كذا أى قهرته . والجمهور على سكون الواو من « عورات » لاستئصال الحركة على الواو .
وروى عن ابن عباس فتح الواو؛ مثل جَنَّة وجفنتا . وحكى الفراء أنها لغة قيس « عورات »
[يفتح] الواو . النحاس : وهذا هو القياس ؛ لأنه ليس بنعت ، كما تقول : جفنة وجفنتا ؛
إلا أن التسكين أجود فى « عورات » وأشبهاهه ، لأن الواو إذا تحركت وتحرك ما قبلها قلبت
ألفاء؛ فلو قيل هذا لذهب المعنى .

الثامنة عشرة — اختلف العلماء فى وجوب ستر ما سوى الوجه والكفين منه على قولين :
أحدهما — لا يلزم ؛ لأنه لا تكليف عليه ، وهو الصحيح . والآخر — يلزمه ؛ لأنه قد يشتهى
وقد تشتهى أيضا هي ، فإن راقى حكمه حكم البالغ فى وجوب الستر . ومثله الشيخ الذى سقطت
شهوته ؛ اختلف فيه أيضا على قولين كما فى الصبي ، والصحيح بقاء الحرمة ؛ قاله ابن العربي .
التاسعة عشرة — أجمع المسلمون على أن السوءتين عورة من الرجل والمرأة ، وأن المرأة
كلها عورة ، إلا وجهها وبديها فإنهم اختلفوا فيها . وقال أكثر العلماء فى الرجل : من
سترته إلى ركبته عورة ؛ لا يجوز أن تُرى . وقد مضى فى « الأعراف » أن قول فى هذا مستوفى .
المؤيدة عشرين — قال أصحاب الرأى : عورة المرأة مع عيها من السرة إلى الركبة .
ابن العربى : وكأنهم ظنوها رجلا أو ظنوه امرأة ، والله تعالى قد حرم المرأة على الإطلاق
لنظر أولئذ ، ثم أستثنى اللذة للأزواج ومِلْكُ اليمين ، ثم أستثنى الزينة لاختى عشر شخصا العبد
منهم ، فما لنا ولذلک ! هذا نظر فاسد واجتهاد عن السداد متباعد . وقد تأول بعض الناس
قوله « أو ما ملكت أيمانن » على الإمام دون العبد ؛ منهم معبد بن المسيب ، فكيف يحملون
على العبيد ثم يلحقون بالنساء ، هذا بعيد جدًا ! وقد قيل : إن التقدير أو ما ملكت أيمانن
من غير أولى الإربة أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال ؛ حكاه المهدوى .

الحادية والعشرون — قوله تعالى : (وَلَا يَضْرِبْنَ إِرْجُلَيْنِ) الآية ؛ أى لا تضرب
المرأة برجلها إذا مشيت لتسمع صوت حَافِلِهَا ؛ فإسماع صوت الزينة كإبداء الزينة وأشد ،

والغرض التستر . أسند الطبري عن المتعمر عن أبيه أنه قال : زعم حضري أن امرأة أخذت برتين من فضة واتخذت جزأاً فجعلت في ساقها فتوت حل القوم فضربت برجلها الأرض فوقع الخلل على الخزع فصوت ؛ فزلت هذه الآية . وسماع هذه الزينة أشد تحريكا للشهوة من إبدائها ، قاله الزجاج .

الثانية والعشرون - من فعل ذلك ممن قرأ بجليه فهو مكروه . ومن فعل ذلك ممن تبرأ وتعرض للرجال فهو حرام مذموم . وكذلك من ضرب بنعله من الرجال ، إن فعل ذلك تعجباً حرم ، فإن العجب كبير . وإن فعل ذلك تبرأ لم يجر .

الثالثة والعشرون - قال مكى رحمه الله تعالى ؛ ليس في كتاب الله تعالى آية أكثر ضماً من هذه ، جمعت خمسة وعشرين ضميراً للزمنات من مخفوض ومرفوع .

قوله تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ فيه مسائلتان :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ وَتُوبُوا ﴾ أمرٌ . ولا خلاف بين الأئمة في وجوب التوبة ، وأنها فرض متين ، وقد مضى الكلام فيها في « النساء » وغيرها فلا معنى لإعادة ذلك . والمعنى : وتوبوا إلى الله فإنكم لا تخلون من سبوه وتقصير في أداء حقوق الله تعالى ، فلا تتركوا التوبة في كل حال .

الثانية - قرأ الجمهور « أيُّه » بفتح الهاء . وقرأ ابن عاصم بضمها ؛ ووجهه أن تجعل الهاء من نفس الكلمة ، فيكون إعراب المنادي فيها . وضعف أبو علي ذلك جداً وقال : أكثر الأسم هو الياء الثانية من أي ، فالمضموم يلبي أن يكون آخر الاسم ، ولو جاز ضم الهاء هاهنا لاقتربنا بالكلمة بلجاز ضم الميم في « اللَّهُمَّ » لاقتربنا بالكلمة في كلام طويل . والصحيح أنه إذا ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم قراءة فليس إلا اعتقاد الصيغة في اللغة ، فإن القرآن هو الحجة . وأشد الفراء :

يَا أَيُّهَا الْقَلْبُ الْجَسُوجُ التَّمُصُ * أفنى عن البيض الحسان اللبس

(١) البقرة : الخلل ، وكل حلقة من سوار وقرط . (٢) الخزع (يفتح الجيم) ضرب من الخرز .

(٣) راجع به ص ٩٠

اللعس : لون الشفة إذا كانت تضرب إلى السواد قليلا ، وذلك يستلح ؛ يقال : شَفَفَ لساء ، ونية ونسوة لعس . وبعضهم يقف « آية » . وبعضهم يقف « آيتا » بالالف ؛ لأن حلة حدنها في الوصل إنما هو سكوتها وسكون اللام ، فإذا كان الوقف ذهب العلة فرجعت الالف كما ترجع الباء إذا وقفت على « محل » من قوله تعالى : « قَبَّرَ مَحَلَّ الْمَيِّدِ »^(١) . وهذا الاختلاف الذي ذكرناه كذلك هو في « آية الساحر » . « آية الثقلان » .

قوله تعالى : وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣١﴾
فيه سبع مسائل :

الأولى — هذه المخاطبة تدخل في باب الستر والصلاح ؛ أي زوجوا من لا زوج له تمك فإنه طريق التعفف ؛ والمطالبة للأولياء . وقيل للأزواج . والصحيح الأول ؛ إذ لو أراد الأزواج لقال « وأنكحوا » بغير همز ، وكانت الالف للوصل . وفي هذا دليل على أن المرأة ليس لها أن تتكح نفسها بغير ولي ؛ وهو قول أكثر العلماء . وقال أبو حنيفة : إذا تزوجت الثيب أو البكر نفسها بغير ولي كُفَّتْ لما جاز . وقد مضى هذا في « البقرة » مستوفى .

الثانية — اختلف العلماء في هذا الأمر على ثلاثة أقوال ؛ فقال علماؤنا : يختلف الحكم في ذلك باختلاف حال المؤمن من خوف العنت ، ومن عدم صبره ، ومن قوته على الصبر وزوال خشية العنت عنه . وإذا خاف الملأ في الدين أو الدنيا أو فيهما فالتكاح حرم . وإن لم يخش شيئا وكانت الحال مطلقة فقال الشافعي : التكاح مباح . وقال مالك وأبو حنيفة : هو مستحب . تعلق الشافعي بأنه قضاء لذة فكان مباحا كالأكل والشرب . وتعلق علماؤنا بالحديث الصحيح : « من رزب عن سئتي فليس مئى » .

الثالثة — قوله تعالى : (الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ) أي الذين لا أزواج لهم من الرجال والنساء ؛ واحدم أيم . قال أبو عمرو : أياى مقلوب أيايم . واتفق أهل اللغة على أن الأيم في الأصل

هي المرأة التي لا زوج لها، بكر كانت أم ربيبة؛ حكى ذلك أبو عمرو والكاسي وغيرهما. تقول العرب: تأمت المرأة إذا أقامت لا تتزوج. وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «أنا وأمرأه^(١) سقواء الخدين تأمت على ولدها الصغار حتى يبلغوا أو يغنيهم الله من فضله كهاتين في الجنة». وقال الشاعر:

فإن تنيكحي أنيكم وإن تنأيمي * وإن كنت أفتي منكم أناييم

ويقال: أييم بين الأئمة. وقد أمت هي، وأمت أنا. قال الشاعر:

لقد أمت حتى لأمي كل صاحب * رجاء بسأني أن تليم كما أمت

قال أبو عبيد: يقال رجل أييم وأمرأة أييم؛ وأكثر ما يكون ذلك في النساء، وهو كالمستار في الرجال. وقال أئمة بن أبي الصلت:

لله در بني حليسى^(٢) أييم منهم وناع

وقال قوم: هذه الآية ناسخة لحكم قوله تعالى: «والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين». وقد بيناه في أول السورة والحمد لله.

الرابعة — المقصود من قوله تعالى: «وأنكحوا الأيامى منكم» الحرائر والأحرار؛ ثم بين حكم الغماليك فقال «والصالحين من عبادكم وإمائكم». وقرأ الحسن «والصالحين من عبيدكم»، وعبيد اسم للجمع. قال الفراء: ويجوز «وإمائكم» بالنصب، يرده على «الصالحين» يعني الذكور والإناث؛ والصالح الإيمان. وقيل: المعنى ينبغي أن تكون الرغبة في تزويج الإماء والعبيد إذا كانوا صالحين فيجوز تزويجهم، ولكن لا ترغيب فيه ولا استحباب؛ كما قال «فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً». ثم قد تجوز الكتابة وإن لم يعلم أن في العبد خيراً، ولكن الخطاب ورد في الترغيب والاستحباب، وإنما يستحب كتابة من فيه خير.

الخامسة — أكثر العلماء على أن للسيد أن يكره عبده وأمته على النكاح؛ وهو قول مالك وأبي حنيفة وغيرهما. قال مالك: ولا يجوز ذلك إذا كان ضرراً. وروى نحوه عن (١) السنف: السواد والشحوب. أراد أنها بذلت نفسها وبركت الزينة والفرقة حتى شحب لونها وراسدة إقامته على ولدها بعد وفاة زوجها. (٢) رابع ص ١٦٧ من هذا الجزء.

الشافئ، ثم قال : ليس السيد أن يكره العبد على النكاح . وقال النخعي : كانوا يكرهون المالك على النكاح ويفلقون عليهم الأبواب . تمسك أصحاب الشافئ فقالوا : العبد مكلف فلا يجبر على النكاح ؛ لأن التكليف يدل على أن العبد كامل من جهة الآدمية ، وإنما يتعلق به الملوكية فيما كان حظاً للسيد من ملك الرقبة والمنفعة ، بخلاف الأمة فإنه له حق الملوكية في بضعها ليستوفيه ؛ فأما بضع العبد فلا حق له فيه ، ولأجل ذلك لا يتاح للسيدة لعبدها . هذه عمدة أهل خراسان والعراق ، وعمدتهم أيضا الطلاق ، فإنه يملكه العبد بملك عقده . ولعلنا نكتة العظمى في أن مالكية العبد استغرقتها مالكية السيد ؛ ولذلك لا يزوج إلا بإذنه بإجماع . والنكاح وبأبه إنما هو من المصالح ، ومصلحة العبد موكولة إلى السيد ، هو يراها ويقبحها للعبد .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُفْنِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ رجع الكلام إلى الأحرار ؛ أى لا تمتنعوا عن التزويج بسبب فقر الرجل والمرأة ؛ « إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُفْنِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » . وهذا وعدٌ بالغنى للترغيب . طلب رضا الله واعتصاما من معاصيه . وقال ابن مسعود : التمسوا الغنى في النكاح ؛ وتلا هذه الآية . وقال عمر رضى الله عنه : يحجب ممن لا يطلب الغنى في النكاح ، وقد قال الله تعالى « إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُفْنِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » . وروى هذا المعنى عن ابن عباس رضى الله عنهما أيضا . ومن حديث أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ثَلَاثَةٌ كُلُّهُمْ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الْمَجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالنَّاسِكُ يَرِيدُ الْمَغْفَرَ وَالْمُكْتَاتِبُ يَرِيدُ الْأَدَاءَ » . أخرجه ابن ماجه في سننه . فإن قيل : فقد نجد الناس لا يستغنى ؛ قلنا : لا يلزم أن يكون هذا على الدوام ، بل لو كان في لحظة واحدة لصديق الوعد . وقد قيل : يعنيه ؛ أى يغنى النفس . وفي الصحيح « ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس » . وقد قيل : ليس وعد لا يقع فيه خلف ؛ بل المعنى أن المال غداً ورائحاً ، فأرجوا الغنى . وقيل : المعنى يغنى الله من فضله إن شاء ؛ كقوله تعالى :

« يَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ » ، وقال تعالى : « يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ » . وقيل :
المعنى إن يكونوا فقراء إلى النكاح يُنْهِمُ الله بالحلال لينفقوا عن الزنى .

السابعة - هذه الآية دليل على تزويج الفقير ، ولا يقول كيف أتزوج وليس لي مال ؛
فإن رزقه على الله . وقد تزوج النبي صلى الله عليه وسلم المرأة التي آتته تنب له نفسها لمن ليس
له إلا إزار واحد ، وليس لها بعد ذلك فسخ النكاح بالإعسار لأنها دخلت عليه ؛ وإنما يكون ذلك
إذا دخلت على اليسار فخرج معسرا ، أو طرأ الإعسار بعد ذلك لأن الجوع لا صبر عليه ؛ قاله
صالحنا . وقال القماش : هذه الآية حجة على من قال : إن القاضي يفزق بين الزوجين إذا
كان الزوج فقيرا لا يقدر على النفقة ؛ لأن الله تعالى قال « يُنْهِمُ الله » ولم يقل يفزق . وهذا
انتراح ضعيف ، وليس هذه الآية حكا فيمن عجز عن النفقة ، وإنما هي وعد بالإغناء لمن تزوج
فقيرا . فأما من تزوج موسرا وأعسر بالنفقة فإنه يفزق بينهما ؛ قال الله تعالى : « وَإِنْ يَتَّزِقَا^(١)
يُنْهِمُ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَمْعِهِ » . ونفحات الله تعالى ما مولى في كل حال موعود بها .

قوله تعالى : وَلَيْسَتَغْنِيَنَّ الَّذِينَ لَا يَحْسُدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ
مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ
إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا
قَتْلَهُمْ عَلَى الْيَقْبَاءِ إِنْ أَرَدْتُمْ مُحْصَنًا لَتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَمَنْ يُكْرِهْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٢٢ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً
لِلْمُتَّقِينَ ٢٣

قوله تعالى : (وَلَيْسَتَغْنِيَنَّ الَّذِينَ لَا يَحْسُدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)
فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَتُغْفِرَ الْبُيُوتَ ﴾ الخطاب لمن يملك أمر نفسه ، لا من زمامه بيد غيره فإنه يقوده إلى ما يراه ، كالحجور — قولاً واحداً — والآية والسبب ، على أحد قولى العلماء .

الثانية — « واستغف » وزنه استغفل ، ومعناه طلب أن يكون غفياً ، فأمر الله تعالى بهذه الآية كل من تعذر عليه النكاح ولا يجده بائناً وجهه تعذر أن يستغف . ثم لما كان أغلب الموانع على النكاح عدم المال وعد بالإغناء من فضله ، فبرزه ما يتروج به ، أو يجد امرأة ترضى باليسير من الصداق ، أو تزول — شبهة النساء . وروى النسائي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاثة كلهم حق على الله عز وجل عوئهم المجاهد في سبيل الله والناكح الذى يريد المغاف والمكاتب الذى يريد الأداء » .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا ﴾ أى طول نكاح ، غنظ المضاف . وقيل : النكاح هاهنا ما تنكح به المرأة من المهر والنفقة ، كقثاف أسم لما يكتحف به . واللباس اسم لما يلبس ، فعلى هذا لا حذف فى الآية ، قاله جماعة من المفسرين ، وحملهم على هذا قوله تعالى : « حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » فظنوا أن المأمور بالاستغفاف إنما هو من عدم المال الذى يتروج به . وفى هذا القول تخصيص المأمورين بالاستغفاف ، وذلك ضعيف ، بل الأمر بالاستغفاف متوجه لكل من تعذر عليه النكاح بائناً وجهه تعذر ، كما قدمناه ، والله تعالى أعلم .

الرابعة — من تأقت نفسه إلى النكاح فإن وجد الطول فالمستحب له أن يتروج ، وإن لم يجد الطول فعليه بالاستغفاف ما أمكن ولو بالصوم فإن الصوم له وجاء ، كما جاء الخبر الصحيح . ومن لم تنق نفسه إلى النكاح فالأولى له التخلل لعبادة الله تعالى . وفى الخبر « خيركم الخفيف الحاذى الذى لا أهل له ولا ولد » . وقد تقدم جواز نكاح الإمام عند عدم الطول للمرأة فى « النساء » والحمد لله . ولما لم يجعل الله له من المنة والنكاح درجة دل على أن ما عداهما

محرم، ولا يدخل فيه ملك اليمين؛ لأنه بنص آخر مباح، وهو قوله تعالى: «أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» بغوات فيه زيادة، ويبين على التحريم الاستثناء رداً على أحمد. وكذلك يخرج عنه نكاح المتعة بنسخه، وقد تقدم هذا في «المؤمنين».

قوله تعالى: «وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْكِتَابَ يَمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مَكَاتِبُهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَبْرًا»

فيه ست عشرة مسألة:

الاولى - قوله تعالى: «وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْكِتَابَ» «الذين» في موضع رفع. وعند الخليل وسيبويه في موضع نصب على إضمار فعل؛ لأن بعده أمراً. ولما جرى ذكر العبد والإماء فيما سبق وصل به أن العبد إن طلب الكتاب فالمستحب كتابته؛ فربما يقصد بالكتابة أن يستقل ويكتسب ويتزوج إذا أراد؛ فيكون أعف له. قيل: نزلت في غلام لحويطب ابن عبد المزى يقال له صبح - وقيل صبيح - طلب من مولاه أن يكتبه فأبى؛ فأبى الله تعالى هذه الآية؛ فكتبه حويطب على مائة دينار ووهب له منها عشرين دينارا فأذاها، وقتل بجنين في الحرب؛ ذكر القشيري وحكاة النقاش. وقال مكّي: هو صبيح القبطي غلام حاطب بن أبي بلتعة. وعلى الجملة فإن الله تعالى أمر المؤمنين كافة أن يكتب منهم كل من له مملوك وطلب المملوك الكتابة وعلم سيده منه خيراً.

الثانية - الكتاب والمكتبة سواء؛ فمفاعلة مما لا تكون إلا بين اثنين؛ لأنها معاقلة بين السيد وعبيده؛ يقال: كاتب يكتب كتاباً ومكتبة؛ كما يقال: قاتل قتيلاً ومقاتلة. فالكتاب في الآية مصدر كالقتال والجلاد والدفاع. وقيل: الكتاب هاهنا هو الكتاب المعروف الذي يكتب فيه الشيء؛ وذلك أنهم كانوا إذا كاتبوا العبد كتبوا عليه وعلى أنفسهم بذلك كتاباً. فالمنع يطلبون العتق الذي يكتب به الكتاب فيدفع إليهم.

الثالثة - معنى المكتبة في الشرع: هو أن يكتب الرجل عبده على مال يؤديه مُنجماً عليه؛ فإذا آذاه فهو حر. ولها حالتان: الأولى - أن يطلبها العبد ويؤجبه السيد؛ فهذا

مطلق الآية ونظامها . الثانية — أن يطلبها العبد وأباها السيد؛ وفيها قولان : الأول
 لمكة وعطاء، ومسروق وعمرو بن دينار والضحاك بن مزاحم وجماعة أهل الظاهر أن ذلك
 واجب على السيد . وقال علماء الأصناف : لا يجب ذلك . وتعلق من أوجبها بمطلق الأمر،
 وأقل بمطلقه على الوجوب حتى يأتي الدليل بغيره . وروى ذلك عن عمر بن الخطاب وابن
 عباس، واختاره الطبري . واحتج داود أيضا بأن سيرين أبا محمد بن سيرين سأل أنس بن مالك
 الكتابة وهو مولاه فأبى أنس؛ فرفع عمر عليه الدرة، وتلا « فكتبوهم إن علمتم فيهم خيرا »،
 فكتبه أنس . قال داود : وما كان عمر ليرفع الدرة على أنس فيها له مباح ألا يفعله .
 وتسلك الجمهور بأن الإجماع منعقد على أنه لو سأله أن يبعه من غيره لم يلزمه ذلك، ولم يجر
 عليه وإن ضويع له في الثمن . وكذلك لو قال له أعطني أو دبرني أو زوني لم يلزمه ذلك
 بإجماع، فكذلك الكتابة؛ لأنها معاوضة فلا تصح إلا عن تراض . وقولهم : مطلق الأمر يقتضي
 الوجوب صحيح، لكن إذا جرى عن قرينة تقتضي صرفه عن الوجوب، وتطبيقه هنا بشرط
 علم الخير فيه؛ فعلق الوجوب على أمر باطن وهو علم السيد بالخيرية . وإذا قال العبد : كاتبي؛
 وقال السيد : لم أعلم فيك خيرا؛ وهو أمر باطن، فيرجع فيه إليه ويعول عليه . وهذا قوي في بابه .

الرابعة — واختلف العلماء في قوله تعالى : (خَيْرًا) فقال ابن عباس وعطاء :
 المال . مجاهد : المال والأداء . الحسن والنخعي : الدين والأمانة . وقال مالك : سمعت
 بعض أهل العلم يقولون هو القوة على الاكتساب والأداء . وعن الليث نحوه ، وهو قول
 الشافعي . وقال عبيدة الساماني : إقامة الصلاة والخير . قال الطحاوي : وقول من قال إنه
 المال لا يصح عندنا ؛ لأن العبد مال لمولاه ، فكيف يكون له مال . والمعنى عندنا : إن
 علمت فيهم الدين والصدق، وعلمت أنهم ياملونكم على أنهم متعبدون بالوفاء لكم بما عليهم من
 الكتابة والصدق في المعاملة فكتبوهم . وقال أبو عمر : من لم يقل إن الخير هنا المال أنكروا
 أن يقال إن علمت فيهم مالا ، وإنما يقال : علمت فيه الخير والصالح والأمانة ؛ ولا يقال :
 علمت فيه المال ، وإنما يقال علمت عنده المال .

قلت : وحديث بريرة بن خازم قول من قال : إن الخير المسأل ؛ على ما يأتي .

الخامسة - اختلف العلماء في كتابة من لا حرفة له ؛ فكان ابن عمر يكره أن يكتب عبده إذا لم تكن له حرفة ، ويقول : أنا أمرني أن أكل أوساخ الناس ؛ ونحوه عن سلمان الفارسي . وروى حكيم بن حزام قال : كتب عمر بن الخطاب إلى عمر بن سعد : أما بعد ! فإنه من قبلك من المسلمين أن يكتبوا أرقاعهم على مسألة الناس . وكرهه الأوزاعي وأحمد وإسحاق . ورخص في ذلك مالك وأبو حنيفة والشافعي . وروى عن علي رضي الله عنه أن ابن التباع مؤذنه قال له : أكتب وليس لي مال ؟ قال نعم ؛ ثم حض الناس على الصدقة علي ؛ فأعطوني ما فضل من مكاتبي ، فأتيت علياً فقال : اجعلها في الرقاب . وقد روى عن مالك كراهة ذلك ، وإن الأمة التي لا حرفة لها يكره مكاتبتهم لما يؤدي إليه من فسادها . واجبة في السنة لأنها خالفتها . روى الأئمة عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخلت على بريرة فقالت : إن أهل كاتبوني على تسع أواق في تسع سنين ، كل سنة أوقية ، فأعطيني ... الحديث . فهذا دليل على أن للسيد أن يكتب عبده وهو لا شيء معه ؛ ألا ترى أن بريرة كانت عائشة تخبرها بأنها كاتبته أهلها وسانتها أن تعينها ، وذلك كان في أول كتابتها قبل أن تؤدي منها شيئاً ، وكذلك ذكره ابن شهاب عن عروة أن عائشة أخبرته أن بريرة جاءت تستعينها في كتابتها ولم تكن قضت من كتابتها شيئاً ؛ أخرجه البخاري وأبو داود . وفي هذا دليل على جواز كتابة الأمة ، وهي غير ذات صنعة ولا حرفة ولا مال ، ولم يسأل النبي صلى الله عليه وسلم هل لها كسب أو عمل وأصب^(١) أو مال ، ولو كان هذا واجبا لسأل عنه ليقع حكمه عليه ؛ لأنه يثبت مبيئاً معلماً صلى الله عليه وسلم . وفي هذا الحديث ما يدل على أن من تأول في قوله تعالى : « إن علمتم فيهم خيراً » أن المال الخير ، ليس بالتأويل الجيد ، وأن الخير المذكور هو القوة على الاتساب مع الأمانة . والله أعلم .

السادسة - الكتابة : ترون بقليل المال وكثيره ، وتكون على التيمم ؛ لحديث بريرة . وهذا ما لا خلاف فيه بين العلماء والحمد لله . فلو كاتبه على ألف درهم ولم يذكر أجلاً تجت

عليه بقدر ميعاته وإن كره السيد . قال الشافعي : لا بُدَّ فيها من أجل ، وأقلها ثلاثة أنجم .
واختلفوا إذا وقعت على نجم واحد فأكثر أهل العلم بخيرونها على نجم واحد . وقال الشافعي :
لا تجوز على نجم واحد ، ولا تجوز حالة البتة ، وإنما ذلك عتق على صفة ، كأنه قال : إذا
أدبت كذا وكذا فانت حر وليست كتابة . قال ابن العربي : اختلف العلماء والسلف في الكتابة
إذا كانت حالة على قولين ، واختلف قول علمائنا كاختلافهم . والصحيح في النظر أن الكتابة
مؤجلة ، كما ورد بها الأثر في حديث بريدة حين كانت أهلها على تسع أراق في كل عام أوقية ،
وكما فعلت الصحابة ، ولذلك شُيِّتَ كتابة لأنها تُكتب ويُشهد عليها ، فقد استوسق الأسم
والأثر ، وقصده المعنى ، فإن المسأل إن جعله حالاً وكان عند العبد شيء فهو مال مقاطعة
وعقد مقاطعة لا عقد كتابة . وقال ابن خُوَزِمَةَ : إذا كتبه على مال معجل كان عتقا
على مال ، ولم تكن كتابة . وأجاز غيره من أصحابنا الكتابة الحالة وسماها قطعة ، وهو القياس ،
لأن الأجل فيها إنما هو فسحة للعبد في التكسب . ألا ترى أنه لو جاء بالنجم عليه قبل علة
لوجب على السيد أن يأخذه ويتعجل للكتاب عتقه . وتجوز الكتابة الحالة ، قاله الكونيون .
قلت : لم يرد عن مالك نص في الكتابة الحالة ، والأصحاب يقولون : إنها جائزة ،
ويسمونها قطعة . وأما قول الشافعي إنها لا تجوز على أقل من ثلاثة أنجم فليس بصحيح ؛
لأنه لو كان صحيحا لحاز لغيره أن يقول : لا يجوز على أقل من خمسة نجوم ؛ لأنها أقل النجوم
التي كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في بريدة ، وعلم بها النبي صلى الله عليه وسلم
وقضى فيها ، فكان بصواب المجبة أولى . روى البخاري عن عائشة أن بريدة دخلت عليها
تستعينها في كتابتها وعليها خمسة أواق فُجِّتَ عليها في خمس سنين ... الحديث . كذا قال الليث
عن يونس عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة : وعليها خمسة أواق فُجِّتَ عليها في خمس
سنين . وقال أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت :
جاءت بريدة فقالت : إني كنت أهلى على تسع أواق ... الحديث . وظاهر الروایتين

نطرس، غير أن حديث هشام أولى لاكماله وانقطاع حديث يونس؛ لقول البخاري : وقال
 الباقون حديث يونس؛ ولأن هشاما أثبت في حديث أبيه وجده من غيره، والله أعلم .

السابعة - المكتب عبد ما يق عليه من مال الكتابة شيء؛ لقوله عليه السلام :
 "المكتب عبد ما يق عليه من مكاتبه درهم" . أخرجه أبو داود عن عمرو بن شعيب عن
 أبيه عن جده . وروى عنه أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "أيما عبد كاتب على
 مائة دينار فأقاه إلا عشرة دنانير فهو عبد" . وهذا قول مالك والشافعي وأبي حنيفة وأصحابهم
 والثوري وأحمد وإسحاق وأبي ثور وداود والطبري . وروى ذلك عن ابن عمر من وجوه،
 وعن زيد بن ثابت ومائسة وأم سلمة، لم يختلف عنهم في ذلك رضى الله عنهم . وروى
 ذلك عن عمر بن الخطاب، وبه قال ابن المسيب والقاسم وسالم وعطاء . قال مالك : وكل
 من أدركنا يقول ذلك . وفيها قول آخر روى عن علي أنه إذا أدى الشطر فهو غريم؛
 وبه قال النخعي . وروى ذلك عن عمر رضى الله عنه، والإسناد عنه بأن المكتب عبد ما يق
 عليه درهم، خير من الإسناد عنه بأن المكتب إذا أدى الشطر فلا يق عليه؛ قاله أبو عمر .
 وعن علي أيضا يفتق منه بقدر ما أدى . وعنه أيضا أن العنافة تجري فيه بأقل نعم يؤديه .
 وقال ابن مسعود : إذا أدى ثلث الكتابة فهو حقيق غريم؛ وهذا قول شريح . وعن
 ابن مسعود : لو كانت الكتابة مائة دينار وقيمة العبد مائة دينار فادى العبد المائة إلى هي
 قيمته حق . وهو قول النخعي أيضا . وقول سابع - إذا أدى الثلاثة الأربع وبقي الربع
 فهو غريم ولا يعود عبدا؛ قاله عطاء بن أبي رباح، رواه ابن جريح عنه . وحكى عن بعض
 السلف أنه بنفس عقد الكتابة حر، وهو غريم بالكتابة ولا يرجع إلى الرق أبدا . وهذا القول
 يردّه حديث برة لصحبه عن النبي صلى الله عليه وسلم . وفيه دليل واضح على أن المكتب
 عبد، ولولا ذلك ما بيعت برة، ولو كان فيها شيء من العتق ما أجاز بيع ذلك؛ إذ من
 سنته المجمع عليها ألا يساع الحزو . وكذلك كتابة سلمان وجويرية؛ فإن النبي صلى الله عليه
 وسلم حكم بجمعهم بالرق حتى أدوا الكافة . وهي حجة للجمهور في أن المكتب عبد ما يق

عليه نبي . . . وقد ناظر علي بن أبي طالب زيد بن ثابت في المكاتب ؛ فقال لعلي : أكنت راجعاً لوزني ، أو يجزأ شهادته لو شهد ؟ فقال علي : لا . فقال زيد : هو عبد ما بقى عليه شيء . . . وقد روى النسائي عن علي وابن عباس رضي الله عنهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " المكاتب يتقى مته بقدر ما أذى ويقام عليه الحد بقدر ما أذى ويرث بقدر ما عتق منه " . وإسناده صحيح . وهو حجة لما روى عن علي ، ويستفد بما رواه أبو داود عن ثبآن مكاتب أم سلمة قال سمعت أم سلمة تقول : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كانت لحدائك مكاتب وكان عنده ما يؤدى فلتحتجب منه " . وأخرجه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح . إلا أنه يحتمل أن يكون خطاباً مع زوجته ، أخذاً بالاحتياط والورع في حقهن ؛ كما قال لسودة : " احتجبي منه " مع أنه قد حكم بأخوتها له ، وبغوله لعائشة وحفصة : " أقميآوان إتيآ السبا تبصرانه " يعني ابن أم مكتوم ، مع أنه قال لفاطمة بنت قيس : " اعتدي عتد ابن أم مكتوم " وقد تقدم هذا المعنى .

الثامنة - أجمع العلماء على أن المكاتب إذا حل عليه نكح من نجوه أو نكحها أو نجوه كلها فوقف السيد عن مطالبته وتركه بحاله أن الكتابة لا تنسخ مادام على ذلك ثابتين .

الثامنة - قال مالك : ليس للعبد أن يسجن نفسه إذا كان له مال ظاهر ، وإن لم يظهر له مال فذلك إليه . وقال الأوزاعي : لا يمكن من تمييز نفسه إذا كان قوياً على الأمان . وقال الشافعي : له أن يسجن نفسه ، عليه له مال أو قوة على الكتابة أو لم يعلم ؛ فإذا قال : قد تجبرت وأبطلت الكتابة فذلك إليه . وقال مالك : إذا تجر المكاتب فكأن ما قبضه منه سيده قبل العجز حل له ، كان من كسبه أو من صدقة عليه . وأما ما أئمن به على فكأك رقبته فلم يَبْ ذلك بكاتبته كان لكل من أعانه الرجوع بما أعطى أو تحلل منه المكاتب . ولو أعانوه صدقة لا على فكأك رقبته فذلك إن تجر حل لسيدته ولو تم به فكأك وبقيت منه فضلة . فإن كان بمعنى فكأك ردها إليهم بالحصص أو يحلونه منها . هذا كله مذهب مالك فيها ذكر ابن القاسم . وقال أكثر أهل العلم : إن ما قبضه السيد منه من كتابته ، وما فضل بيده بعد عجزه

من صدقة أو غيرها فهو لسيده ، يطيب له أخذ ذلك كله . هذا قول الشافعي وأبي حنيفة وأصحابهما وأحمد بن حنبل ، ورواية عن شريح . وقال الثوري : يجعل السيد ما أعطاه في الرقاب ؛ وهو قول مبرور والتخفي ، ورواية عن شريح . وقالت طائفة : ما قبض منه السيد فهو له ، وما فضل بيده بعد العجز فهو له دون سيده ، وهذا قول بعض من ذهب إلى أن العبد يملك . وقال إسماعيل : ما أعطى بحال الكتابة رد على أربابه .

العاشرة - حديث بريرة على اختلاف طرقه والفاظه يتضمن أن بريرة وقع فيها بيع بعد كتابة تقدمت . واختلف الناس في بيع المكاتب بسبب ذلك . وقد ترجم البخاري (باب بيع المكاتب إذا رضى) . وإلى جواز بيعه للمتن إذا رضى المكاتب بالبيع ولو لم يكن عاجزا - ذهب ابن المنذر والداودي ، وهو الذي أرتضاه أبو عمر بن عبد البر ، وبه قال ابن شهاب وأبو الزناد وربيعه ، فيرأهم قالوا : لأن رضاه بالبيع عجز منه . وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما : لا يجوز بيع المكاتب ما دام مكاتبا حتى يعجز ، ولا يجوز بيع كتابته بحال ، وهو قول الشافعي بمصر . وكان بالعراق يقول : بيعه جائز ، وأما بيع كتابته فغير جائز . وأجاز مالك بيع الكتابة ، فإن أداها عتق ، وإلا كان رقيقا لمشتري الكتابة . ومنع من ذلك أبو حنيفة ، لأنه يبع غرر . واختلف قول الشافعي في ذلك بالمنع والإجازة . وقالت طائفة : يجوز بيع المكاتب على أن يعضى في كتابته ، فإن أدى عتق وكان ولاؤه للذي ابتاعه ، ولو عجز فهو عبد له . وبه قال البخاري ومطاء والليث وأحمد وأبو ثور . وقال الأوزاعي : لا يباع المكاتب إلا للعتق ، ويكره أن يباع قبل عجزه ، وهو قول أحمد وإسحاق . قال أبو عمر : في حديث بريرة إجازة بيع المكاتب إذا رضى بالبيع ولم يكن عاجزا عن أداء قيمته قد حل عليه ، بخلاف قول من زعم أن بيع المكاتب غير جائز إلا بالعجز ، لأن بريرة لم تذكر أنها تجزّت عن أداء نعيم ، ولا أخبرت بأن النجم قد حل عليها ، ولا قال لها النبي صلى الله عليه وسلم أعاجرة أنت أم هل حل عليك نعيم . ولو لم يميز بين المكاتب والمكتبة إلا بالعجز عن أداء ما قد حل لكان النبي صلى الله عليه وسلم قد سألها أعاجرة هي أم لا ، وما كان ليأذن

في شرائها إلا بعد علمه صلى الله عليه وسلم أنها عاجزة ولو عن أداء نيم واحد قد حل عليها .
وفي حديث الزهري أنها لم تكن قضت من كتابها شيئا . ولا أعلم في هذا الباب حجة أصح
من حديث بريرة هذا ، ولم يرو عن النبي صلى الله عليه وسلم شيء يمارضه ، ولا في شيء من
الأخبار دليل على عجزها . استدلت من منع من بيع المكاتب بأمر : منها أن قالوا إن الكتابة
المذكورة لم تكن آنقضت ، وأن قولها كانت أهل معناها أنها راوضتهم عليها ، وقدرها مبلغها
وأجلها ولم يقدوها . وظاهر الأحاديث خلاف هذا إذ تؤمل مساقها . وقيل : إن بريرة
عجزت عن الأداء فأنقضت هي وأهلها على فسخ الكتابة ، وجئنا صرح البيع ؛ إلا أن هذا إنما
يتمشى على قول من يقول : إن تعبير المكاتب غير مفقود إلى حكم حاكم إذا أنفق العبد والسيد
عليه ؛ لأن الحق لا يبدوهما ، وهو المذهب المعروف . وقال مضمون : لا بد من السلطان ؛
وهذا إنما خاف أن يتواطأ على ترك حق الله تعالى . ويدل على صحة أنها عجزت ما روى أن
بريرة جاءت عائشة تستعينها في كتابتها ولم تكن قضت من كتابتها شيئا ، فقالت لها عائشة :
إرجعي إلى أهلِكَ فإن أحسبوا أن أنقض عنك كتابتك فعلت . فظاهر هذا أن جميع كتابها
أو بعضها استحق عليها ؛ لأنه لا يُقضى من الحسوق إلا ما وجبت المطالبة به ، والله أعلم
هذه التاويلات أشبه ما لم وفيها من الدخيل ما يتناه . وقال ابن المنذر : ولا أعلم حجة لمن
قال ليس له بيع المكاتب إلا أن يقول لعل بريرة عجزت . قال الشافعي : وأظهر معانيه أن
لسالك المكاتب بيعه .

الحادية عشرة - المكاتب إذا أدى كتابته عتق ولا يحتاج إلى ابتداء عتق من السيد .
وكذلك ولده الذر ولدوا في كتابته من أمته ، يعتقون بعتقه ويرقون برقه ؛ لأن ولد الإنسان
من أمته بمنابته اعتبارا بالحر وكذلك ولد المكاتب ، فإن كان له ولد قبل الكتابة لم يدخل
في الكتابة إلا بشرط .

الثانية عشرة - (وَأَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ لِلَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ) هذا أمر للسادة بإعائتهم في مال
الكتابة ؛ إما بأن يعطوهم شيئا مما في أيديهم - أعني أيدي السادة - أو يحطوا عنهم شيئا

من مال الكعبة . قال مالك : يوضع عن المكاتب من آخر كتابته . وقد وضع ابن عمر خمسة آلاف من خمسة وثلاثين ألفا . واستحسن علي رضي الله عنه أن يكون ذلك ربيع الكعبة . قال الزهراوي : روى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم . واستحسن ابن مسعود والحسن بن أبي الحسن ثلثها . وقال قتادة : عشرها . ابن جبير : يسقط عنه شيئا ، ولم يحده ؛ وهو قول الشافعي ، واستحسنه الثوري . قال الشافعي : والشيء أقل شيء يقع عليه اسم شيء ، ويمبر عليه السيد ويحكم به الحاكم على الورثة إن مات السيد . ورأى مالك رحمه الله تعالى هذا الأمر على الندب ، ولم يلقدر الوضعية حدًا . احتج الشافعي بمطلق الأمر في قوله « وآتوهم » ، ورأى أن عطف الواجب على الندب معلوم في القرآن ولسان العرب ؛ كما قال تعالى : « إن الله بأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى » وما كان مثله . قال ابن العربي : وذكره قبله إسماعيل بن إسحاق القاضي ، جعل الشافعي الإيتاء واجبا ، والكعبة غير واجبة ؛ فجعل الأصل غير واجب والفرع واجبا ، وهذا لا نظير له ، فصارت دعوى محضة . فإن قيل : يكون ذلك كالنكاح لا يجب فإذا انعقد وجبت أحكامه ، منها المنة . قلنا : عندنا لا تجب المنة فلا معنى لأصحاب الشافعي . وقد كتب عثمان بن عفان عبده وحلف ألا يحطه ... ، في حديث طويل .

قلت : وقد قال الحسن والنخعي وبريدة إنما الخطاب بقوله « وآتوهم » للناس أجمعين في أن يتصدقوا على المكاتبين ، وأن يمينوهم في فكالك رقابهم . وقال زيد بن أسلم : إنما الخطاب للولاة بأن يعطوا المكاتبين من مال الصدقة حظهم ؛ وهو الذي تضمنته قوله تعالى « وفي الرقاب » . وعلى هذين القولين فليس لسيد المكاتب أن يضع شيئا عن مكاتبه . ودليل هذا أنه لو أراد حط شيء من نجوم الكعبة لقال وضعوا عنهم كذا .

الثالثة عشرة — إذا قلنا : إن المراد بالخطاب السادة فرأى عمر بن الخطاب أن يكون ذلك من أول نجومه ، مبادرة إلى الخير خوفا ألا يدرك آخرها . ورأى مالك رحمه الله تعالى وغيره أن يكون الوضع من آخر نجم . وعلة ذلك أنه إذا وضع من أول نجم ربما عجز العبد

فرجع هو وماله إلى السيد ، فعادت إليه وضيعته وهي شبه الصدقة . وهذا قول عبد الله بن عمرو عـ . وقال مجاهد : يترك له من كل نعيم . قال ابن العربي : والأقوى عندي أن يكون في آخرها ؛ لأن الإسقاط أبدا إنما يكون في آخرات الديون .

الرابعة عشرة — المكتاب إذا بيع للمتي رضاء منه بعد الكتابة وقبض بالعه ثمنه لم يجب عليه أن يعطيه من ثمنه شيئا ، سواء باعه لمتي أو لغير متي ، وليس ذلك كالسيد يؤدي إليه مكتاب كتابته فيؤتيه منها ، أو يضع عنه من آخرها نهما أو ما شاء ، على ما أمر الله به في كتابه ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأمر موالى بريرة بإعطائها مما قبضوا شيئا ، وإن كانوا قد باعوها للمتي .

الخامسة عشرة — اختلفوا في صفة عقد الكتابة ؛ فقال ابن حزم ومُتَداد : صفتها أن يقول السيد لعبدك كاتبك كل كذا وكذا من المال ، في كذا وكذا نهما ، إذا أدبته فأتت حر . أو يقول له آذ إلى ألفا في عشرة أنجم وأنت حر . فيقول العبد قد قبلت ونحو ذلك من الألفاظ ؛ ففني إذاها عتي . وكذلك لو قال العبد كاتبني ، فقال السيد قد فعلت ، أو قد كاتبك . قال ابن العربي : وهذا لا يلزم ؛ لأن لفظ القرآن لا يقتضيه والحال يشهد له ؛ فإن ذكره حسن ، وإن تركه فهو معلوم لا يحتاج إليه . ومما سئل هذا الباب وفروعه كنية ، وقد ذكرنا من أصوله جملة ، فيها لمن اقتصر عليها كفاية ، والله الموفق للهداية .

السادسة عشرة — في مبرات المكتاب ؛ واختلف العلماء في ذلك على ثلاثة أقوال : فذهب مالك أن المكتاب إذا هلك وترك ما لا أكثر مما بقي عليه من كتابته وله ولد ولدوا في كتابته أو كاتب عليهم ، وروثوا ما بقي من المال بعد قضاء كتابته ؛ لأن حكمهم حكمه ، وعليهم السعي فيما بقي من كتابته لو لم يخلف مالا ، ولا يعتقون إلا بعته ، ولو أدى عنهم ما رجع بذلك عليهم ؛ لأنهم يعتقون عليه ؛ فهم أولى بمبراته لأنهم مساوون له في جميع حاله . والقول الثاني — أنه يؤدي عنه من ماله جميع كتابته ، وجعل كأنه قد مات حرا ، وريثه جميع ولده ، وسواء في ذلك من كان حرا قبل موته من ولده ومن كاتب عليهم أو ولدوا

في كتابته؛ لأنهم قد استولوا في الحرية كلهم حين تأذت عنهم كتابتهم . روى هذا القول عن علي وابن مسعود، ومن التابعين عن عطاء والحسن وطاوس وإبراهيم، وبه قال فقهاء الكوفة سفيان الثوري وأبو حنيفة وأصحابه والحسن بن صالح بن حي، وإليه ذهب إسماعيل .

والقول الثالث - أن المكاتب إذا مات قبل أن يؤدي جميع كتابته فقد مات عبداً، وكل ما يخلفه من المال فهو لسيدته، ولا يرثه أحد من أولاده، لا الأحرار ولا الذين معه في كتابته؛ لأنه لما مات قبل أن يؤدي جميع كتابته فقد مات عبداً وماله لسيدته، فلا يصح عتقه بعد موته؛ لأنه محال أن يعتق عبد بعد موته، وعلى ولده الذين كاتب عليهم أو ولدوا في كتابته أن يسعوا في باقي الكتابة، ويسقط عنهم منها قدر حصته، فإن أدوا عتقوا لأنهم كانوا فيها تبعاً لأبيهم، وإن لم يؤديوا ذلك رقوا . وهذا قول الشافعي، وبه قال أحمد بن حنبل، وهو قول عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت وعمر بن عبد العزيز والزهرى وقتادة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا قِتَانِيَكُمْ عَلَى الْبَيْعِ إِنْ أَرَدْتُمْ مَحْصَنًا ﴾ روى عن جابر بن عبد الله وابن عباس رضي الله عنهم أن هذه الآية نزلت في عبد الله بن أبي، وكانت له جارتان أحدهما تسمى معاودة والأخرى مسيكة، وكان يكرههما على الزنى ويضربهما عليه ابتغاء الأجر وكسب الولد؛ فشكا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية فيه وفيمن فعل فعله من المنافقين . ومعاودة هذه أم خولة التي جادلت النبي صلى الله عليه وسلم في زوجها . وفي صحيح مسلم عن جابر أن جارية لعبد الله بن أبي يقال لها مسيكة وأخرى يقال لها أئيمة فكان يكرههما على الزنى، فشكا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فانزل الله عز وجل : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا قِتَانِيَكُمْ عَلَى الْبَيْعِ - إلى قوله - غفور رحيم » .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَرَدْتُمْ مَحْصَنًا ﴾ راجع إلى القنات، وذلك أن القنات إذا أرادت التحصن فينذ يمكن ويتصور أن يكون السيد مكراها، ويمكن أن ينهى عن الإكراه . وإذا كانت القنات لا تريد التحصن فلا يتصور أن يقال للسيد لا تكرهها؛ لأن الإكراه لا يتصور فيها وهي مريدة للزنى . فهذا أمر في مادة وقنات حاكم هذه . وإلى هذا المعنى أشار ابن العربي

فقال : إنما ذكر الله تعالى إرادة التحصن من المرأة لأن ذلك هو الذى يصور الإكراه ؛ فأما إذا كانت هى راقبة فى الزنى لم يتصور إكراه ، فحصلوه . وذهب هذا النظر عن كثير من المفسرين ؛ فقال بعضهم قوله : « إن أردن تحصناً » راجع إلى الأيامى . قال الزجاج والحسين بن الفضل : فى الكلام تقديم وتأخير ؛ أى وأنكحوا الأيامى والصالحين من عبادكم إن أردن تحصناً . وقال بعضهم : هذا الشرط فى قوله : « إن أردن » ملغى ، ونحو ذلك مما يضعف . والله الموفق .

قوله تعالى : ﴿ لِيَتَذَكَّرُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى الشئ الذى تَكْتَسِبُه الأمة بفرجها ، والولد يُسْتَقَرِّقُ فبإع . وقيل : كان الزانى يفتدى ولده من المولى بها بمائة من الإبل يدفعها إلى سيدها .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُكْرِهْنِ ﴾ أى يقهرهن . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَيْنِ إِكْرَاهَيْنِ غَفُورٌ ﴾ لمن ﴿ رَجِيمٌ ﴾ . ومن قرأ ابن مسعود وجابر بن عبد الله وابن جبير « لمن غفور » بزيادة لمن وقد مضى الكلام فى الإكراه فى « النحل » والحمد لله . ثم عُدَّ تعالى على المؤمنين نعمه فيما أنزل إليهم من الآيات المنيرات ، وفيها ضرب لهم من أمثال الماضين من الأمم ليقع التحفظ مما وقع أولئك فيه .

قوله تعالى : اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْلِهِ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾

النور في كلام العرب : الأضواء المدركة بالبصر . وأستعمل مجازاً فيما صح من المعاني
ولاح ، فيقال منه : كلام له نور . ومنه : الكتاب المتير ، ومنه قول الشاعر :
نسب كأن عليه من شمس الضحا • نورا ومن فساق الصباح عمودا
والناس يقولون : فلان نور البلد ، وشمس مصر وقره • قال :
• فإنك شمس والمسالك كواكب •
وقال آخر :

هلا خصصت من البلاد بمقصد • قسر القبائل خالد بن يزيد
وقال آخر :

إذا سار عبد الله من مَرَوَ لَيْلَةً • فقد سار منها يورها وجمالها

فيجوز أن يقال : لله تعالى نور ، من جهة المدح لأنه أوجد الأشياء ، ونورُ جميع الأشياء منه
ابتدأها وعنه صدرها ، وهو سبحانه ليس من الأضواء المدركة بل وتعالى عما يقول الظالمون
علوا كبيرا . وقد قال هشام الجواليقي وطائفة من المجسّمة : هو نور لآلئ أنوار ، وجسم
لا لآلئ أجسام . وهذا كله محال على الله تعالى عقلا ونقلا على ما يعرف في موضعه من علم
الكلام . ثم إن قولهم متناقض ؛ فإن قولهم جسم أو نور حكمٌ عليه بحقيقة ذلك ، وقولهم
لا لآلئ أنوار ولا لآلئ أجسام نفى لما أثبتوه من الجسميّة والنور ؛ وذلك متناقض ، وتحقيقه
في علم الكلام . والذي أوقفهم في ذلك ظواهر اتبناها منها هذه الآية ، وقوله عليه السلام
إذا قام من الليل يتهجد : "اللَّهُمَّ لك الحمد أنت نور السموات والأرض" . وقال عليه السلام
وقد سئل : هل رأيت ربك ؟ فقال " رأيت نورا " . إلى غير ذلك من الأحاديث .

وأختلف العلماء في تأويل هذه الآية ؛ فقليل : المعنى أى به وبقدرته أُنارت أضواؤها ،
واستقامت أمورها ، وقامت مصنوعاتا . فالكلام على التقريب للذهن ؛ كما يقال : الملك نور
أهل البلد ؛ أى به قوام أمرها وصلحُ حلتها ؛ بحرّيان أمره على سنن السداد . فهو في الملك

(١) هذا صدر بيت لطيفة الديباني من قصيدة يمدح بها العُمان . ومعه :

• إذا طلعت لم يدر منين كوكب •

مجاز ، وهو في صفة الله حقيقة محضة ؛ إذ هو الذي أبدع الموجودات وخلق العقل نوراً هادياً ؛ لأن ظهور الموجود به حصل كما حصل بالضوء ظهور البصائر ، تبارك الله تعالى لا رتب غيره . قال معناه مجاهد والزهرى وغيرهما . قال ابن حرفة : أى منور السموات والأرض . وكذا قال الضحاك والقرطبي . كما يقولون : فلان غائثنا ؛ أى مفبئنا . وفلان زادى ؛ أى مزقضى . قال جرير :

وَأَنْتَ لَنَا نُورٌ وَهَيْتَ وَعِصْمَةٌ * وَنَبْتُ لِمَنْ يَرْجُو نَدَاكَ وَرَيْتُ

أى ذو ريق . وقال مجاهد : مذهب الأمور في السموات والأرض . أبى بن كعب والحسن وأبو العالية : منين السموات بالشمس والقمر والنجوم ، ومنين الأرض بالأنبياء والعلماء والمؤمنين . وقال ابن عباس وأنس : المعنى هادى أهل السموات والأرض . والأول أتم للعانى وأصح مع التأويل .

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ أى صفة دلالته التى يقذفها في قلب المؤمن ؛ والدلائل تسمى نورا . وقد سمي الله تعالى كتابه نوراً فقال : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ نُورًا مَبِينًا » ^(١) وسمى نبيه نوراً فقال : « قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ » ^(٢) . وهذا لأن الكتاب يهdy ويبين ، وكذلك الرسول . ووجه الإضافة إلى الله تعالى أنه منتهى الدلالة ومبينها وواضعها . ومحتمل الآية معنى آخر ليس فيه مقابلة جزء من المثال بجزء من الممثل به ، بل وقع التشبيه فيه جملة بجملة ، وذلك إن يريد مثل نور الله الذى هو هداه وإتقانه صنعة كل مخلوق وبراهينه الساطعة على الجملة ، كهذه الجملة من النور الذى تتخذونه أتم على هذه الصفة ، التى هى أبلغ صفات النور الذى ين أبهى الناس ؛ فمثل نور الله فى الوضوح كهذا الذى هو منها كم أبهى البشر . والمشكاة : الكوة فى الخائط غير النافذة ؛ قاله ابن جبر وجمهور المفسرين ، وهى أجمع للضوء ، والمصباح فيها أكثر إضاءة منه فى غيرها ، وأصلها الوعاء يجعل فيه الشئ . والمشكاة وعاء من آدم كالدلو يرد فيها الماء ، وهو على وزن مفعلة كالمقراءة والمصفاة ^(٣) . قال الشاعر :

(١) آية ١٧٤ سورة النور . (٢) آية ١٥ سورة السائدة . (٣) القراءة : القصبة التى يقرى الضرب بها .

كأن عتيبه مشككان في حجر • قيضا اقتياصا بأطراف المناقير

وقيل : المشكاة عمود القنديل الذي فيه القتيلة . وقال مجاهد : هي القنديل . وقال « في زجاجة » لأنه جسم شفاف ، والمصباح فيه أنور منه في غير الزجاج . والمصباح : القليل بناره . « كأنها كوكبٌ دريٌّ » أي في الإنارة والضيء . وذلك يحتمل معنيين : إما أن يريد أنها بالمصباح كذلك ، وإما أن يريد أنها في نفسها لصفاتها وجودة جواهرها كذلك . وهذا التأويل أبلغ في التعاون على النور . قال الضحاك : الكوكب الدرّي هو الزهرة .

قوله تعالى : (يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ) أي من زيت شجرة ، فحذف المضاف . والمباركة المنة ، والزيتون من أعظم الشرائع ، والمان كذلك ، والمسان يقتضى ذلك وقول أبي طالب يرثي مسافرين أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس :

لَيْتَ شِعْرِي مَسَافِرَ بْنَ أَبِي عَمْرٍو لَيْتَ يَقُولُ الْمَحْزُونُ
بِوَرَكِ الْمَيْتِ الصَّرِيبِ كَمَا بُو • رِكَ نَبْعُ الزَّيْتُونِ

وقيل : من بركتها أن أعضانها تُورق من أسفلها إلى أعلاها . وقال ابن عباس : في الزيتون منافع ، يُسرج بالزيت ، وهو إدام ودهان وديباغ ، ووقود يوقد بمحطبه وتُفله ، وليس فيه شيء إلا وفيه منفعة ، حتى الرماد بفصل به الأبرسيم . وهي أول شجرة نبتت في الدنيا ، وأول شجرة نبتت بعد الطوفان ، وتنت في منازل الأنبياء والأرض المقدسة ، ودعا لها سيعون نبياً بالبركة ، منهم إبراهيم ، ومنهم محمد صلى الله عليه وسلم فإنه قال : « اللهم بارك في الزيت والزيتون » . قاله مرتين .

قوله تعالى : (لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ) اختلف العلماء في قوله تعالى « لا شرقية ولا غربية » فقال ابن عباس وعكرمة وقنادة وغيرهم : الشرقية التي تصيبها الشمس إذا شرقت

(١) ورد هذا البيت برواية أخرى في كتاب الصائحين لأبي حلال العسكري وقد نسب لأبي زيد . والرواية به .

كأن حنب في رقيقين من حجر • قيضا الخ

والرّوب : نقرة في الصخرة يجتمع فيها الماء . ونقنا : نقنا . والمناقير : واحدة منقار ، وهي حديدة كالنّاس يقر بها الحجر وغيره . (٢) هكذا وردت هذه الكلمة في بعض نسخ الأصل ربي بعضها : « والمناقير يقتضى » ولها « والمناقير يقتضى » . (٣) الإبرسيم : مغرب ، وفيه ثلاث لغات ، وهو الحبر .

ولا تصيبها إذا غربت؛ لأن لها سترًا . والغريبة حكمها ؛ أي أنها شجرة في صحراء ، وتكشف من الأرض لا يوارئها عن الشمس شيء وهو أجود لزيئها ، فليست خالصة للشرق فتسمى شرقية ولا للغرب فتسمى غربية ، بل هي شرقية غربية . وقال الطبري عن ابن عباس : إنها شجرة في نوحه قد أحاطت بها ، فهي غير منكشفة من جهة الشرق ولا من جهة الغرب . قال ابن عطية : وهذا قول لا يصح عن ابن عباس ؛ لأن الثمرة التي بهذه الصفة يفسد جناها ، وذلك مشاهد في الوجود . وقال الحسن : ليست هذه الشجرة من شجر الدنيا ، وإنما هو مثل ضربه الله تعالى لنوره ، ولو كانت في الدنيا لكانت إما شرقية وإما غربية . العلي : وقد أنصح القرآن بأنها من شجر الدنيا ؛ لأنها بدل من الشجرة ، فقال « زيتونة » . وقال ابن زيد : إنها من شجر الشام ؛ فإن شجر الشام لا شرق ولا غرب ، وشجر الشام هو أفضل الشجر ، وهي الأرض المباركة . و « شرقية » نعمت لـ « زيتونة » و « لا » ليست تحول بين الثمت والمنحوت ، « ولا غربية » عطف عليه .

قوله تعالى : (يَكَادُ زَيْتُهَا يَضِيءُ ، وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ) مبالغة في حسنه وصفاته وجوده . (نُورٌ عَلَى نُورٍ) أي اجتمع في المشكاة ضوء المصباح إلى ضوء الزجاجة وإلى ضوء الزيت فصار لذلك نور على نور . واعتقلت هذه الأنوار في المشكاة فصارت كأنور ما يكون ؛ فكذلك براهين الله تعالى واضحة ، وهي برهان بعد برهان ، وتنبه بسد تنبيه ؛ كإرساله الرسل وإزاله الكتب ، ومواعظ تتكرر فيها لمن له عقل معتبر . ثم ذكر تعالى هده لنوره من شاء وأبعد من عباده ، وذكر تفضله للعباد في ضرب الأمثال لتقع لهم العبرة والنظر المؤدى إلى الإيمان . وقرأ عبد الله بن عباس بن أبي ربيعة وأبو عبد الرحمن السلمي « الله نور » بفتح النون والواو المشددة . واختلف المتأولون في عود الضمير في « نوره » على من يعود ، فقال كعب الأحبار وابن جبير : هو طائد على عهد صلى الله عليه وسلم ؛ أي مثل نور عهد صلى الله عليه وسلم . قال ابن الأنباري : « الله نور السموات والأرض » وقف حسن ، ثم تبدى « مثل نوره كشكاة فيها مصباح » على معنى نور عهد صلى الله عليه وسلم . وقال أبي بن كعب وابن جبير

أيضا والضحك : هو عائد الى المؤمنين . وفي قراءة أُبَيٍّ « مثل نور المؤمنين » . وروى أن
 في قراءته « مثل نور المؤمن » . وروى أن فيها « مثل نور من آمن به » . وقال الحسن :
 هو عائد على القرآن والإيمان . قال مكي : وعلى هذه الأقوال يوقف على قوله « والأرض » .
 قال ابن عطية : وهذه الأقوال فيها عود الضمير على من لم يحمله ذكر ، وفيها مقابلة جزء من
 المثل بجزء من المثل ، فعلى من قال : المثل به عهد صلى الله عليه وسلم ، وهو قول كعب الجبلي^(١)
 فرسول الله صلى الله عليه وسلم هو المشكاة أو صدره ، والمصباح هو النبوة وما يتصل بها من
 عمله وعنده ، والزجاجة قلبه ، والشجرة المباركة هي الوحى ، والملائكة رسل الله إليه وسببه
 المتصل به ، والزيت هو الخبيج والبراهين والآيات التي تضمنها الوحى . ومن قال : المثل به
 المؤمن ، وهو قول أُبَيٍّ ؛ فالمشكاة صدره ، والمصباح الإيمان والعلم ، والزجاجة قلبه ، وزيتها
 هو الخبيج والحكمة التي تضمنها . قال أُبَيٍّ : فهو على أحسن الحال يمشى في الناس كالرجل
 الحى يمشى في قبور الأموات . ومن قال : إن المثل به هو القرآن والإيمان ؛ فتقدير الكلام :
 مثل نوره الذي هو الإيمان في صدر المؤمن في قلبه كشكاة ، أى كهذه الجملة . وهذا القول
 ليس في مقابلة التشبيه كالأولين ؛ لأن المشكاة ليست تقابل الإيمان . وقالت طائفة : الضمير
 في « نوره » عائد على الله تعالى . وهذا قول ابن عباس فيما ذكر التعليل والمأزدي والمهدي^(٢) ،
 وقد تقدم معناه . ولا يوقف على هذا القول على « الأرض » . قال المهدي : الماء الله عز وجل ؛
 والتقدير : الله هادى أهل السموات والأرض ، مثل هذه في قلوب المؤمنين كشكاة ؛ وروى
 ذلك عن ابن عباس . وكذلك قال زيد بن أسلم ، والحسن : إن الماء الله عز وجل . وكان
 أُبَيٍّ وابن مسعود يقرأونها « مثل نوره في قلب المؤمن كشكاة » . قال محمد بن حل الترمذى :
 فأما غيرهما فلم يقرأها في التزويل هكذا ، وقد وافقهما في التأويل أن ذلك نوره في قلب المؤمن ،
 وتصديقه في آية أخرى يقول « أَقْنِ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ »^(٣) .
 وأما الأولون بأن قالوا : لا يجوز أن يكون الماء الله عز وجل ؛ لأن الله عز وجل لا خد

(١) الحبر (بالفتح والكسر) : انما خيا كان أرسلنا . وكعب الحبر (بالكسر) : منسوب الى الحبر الى
 يكتب به ، لأنه صاحب كتب . (٢) في ابن عطية : « من طه » . (٣) آية ٢٢ سورة الزمر .

لنوره . وأمال الكسائي فيما روى عنه أبو عمر الدوري الألف من «مشكاة» وكسر الكاف التي قبلها . وقرأ نصر بن عاصم «زجاجة» بفتح الزاي و «الزجاجة» كذلك، وهي لغة . وقرأ ابن عاصم وحفص عن عاصم «دزى» بضم الدال وشد الياء ، ولغذه القراءة زجهان : إما أن ينسب الكوكب إلى الدر ليأضبه وصفاته ، وإما أن يكون أصله دزى، مهموز ، فُتِيل من الدرء وهو الدفع ، وخُففت الهمزة . ويقال للنجوم العظام التي لا تعرف أسماءها : الدراري ، بغير همز؛ فلملهم خففوا الهمزة، والأصل من الدرء الذي هو الدفع . وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم «دزى» بالهمز والمد، وهو فُتِيل من الدرء؛ بمعنى أنها يدفع بعضها بعضاً . وقرأ الكسائي وأبو عمرو «دزى» بكسر الدال والهمز من الدرء والدفع ، مثل السَّكْبِر والنَّسَبِ . قال سيويه : أى يدفع بعض ضوئه بعضاً من لماعته . قال النحاس : وضعف أبو ، بيد قراءة أبي عمرو والكسائي تضعيفاً شديداً ، لأنه تأولها من درأت أى دفعت؛ أى كثر يجرى من الأفق إلى الأفق . وإذا كان التأويل على ما تأوله لم يكن فى الكلام فائدة ، ولا كان لهذا الكوكب منزلة على أكثر الكواكب ؛ ألا ترى أنه لا يقال جاءنى إنسان من بنى آدم . ولا ينبغي أن يتأول مثل أبى عمرو والكسائي مع عليهما وجلاهما هذا التأويل البعيد ، ولكن التأويل لما على ما روى عن محمد بن يزيد أن معناه فى ذلك : كوكب متدفع بالنور ؛ كما يقال : اندرأ الحريق أى اندفع . وهذا تأويل صحيح لهذه القراءة . وحكى سعيد بن مسعدة أنه يقال : درأ الكوكب بضوئه إذا امتد ضوءه وعلا . وقال الجوهري فى الصحاح : ودراً علينا فلان يدرأ دروياً أى طلع مفاجأة . ومنه كوكب دزى، على فُتِيل؛ مثل سيكر ونجير؛ لشدة توقده وتلألؤه . وقد درأ الكوكب دروياً . قال أبو عمرو بن العلاء : سألت رجلاً من سعد بن بكر من أهل ذات عرق فقالت : هذا الكوكب الضخم ما تُسمونه؟ قال : الدزى، وكان من أنصح الناس . قال النحاس : فأما قراءة حمزة فأهل اللغة جميعاً قالوا : هى لحن لا تجوز ، لأنه ليس فى كلام العرب اسم على فُتِيل . وقد اعترض أبو عبيد فى هذا فاتح حمزة فقال : ليس هو فُتِيل وإنما هو فُتُول، مثل سُبوح ، أبدل من الواو ياء؛ كما قالوا : حُتَّى . قال أبو جعفر النحاس : وهذا الاعتراض الاحتجاج من أعظم النلط

أشدّه؛ لأن هذا لا يجوز التّنة، ولو جاز ما قال لقليل في سُبوح سُبّح، وهذا لا يقوله أحد،
وليس حتّى من هذا، والفرق بينهما واضح بين؛ لأنه ليس يخلو حتّى من إحدى جهتين: إما أن
يكون جمع عاتٍ فيكون البدل فيه لازماً، لأنّ الجمع باب تمييز، والواو لا تكون طرفاً
في الأسماء وقبلها ضمة، فلما كان قبل هذه ساكن وقيل الساكن ضمة والساكن ليس بمحاجز
حسين أبداً من الضمة كسرة قلبت الواو ياء. وإن كان عاتٍ واحداً كان بالواو أولى،
وجاز قلبها لأنها طرف، والواو في قول ليست طرفاً فلا يجوز قلبها. قال الجوهري: قال
أبو عبيد إن ضمنت الدال قلت درّى، يكون منسوباً إلى الدرّ، على فُعْلٍ ولم تهمز لأنه ليس
في كلام العرب فُعيل. ومن هززه من القراء فإنما أراد فُعولاً مثل سُبّوح فاستقل فردّ بعضها
إلى الكسر. وحكى الأخفش عن بعضهم «درّى» من درأته، وهزها وجعلها على فَعْل
مفتوحة الأول. قال: وذلك من تلا لته. قال الثعلبي: وقرأ سعيد بن المسيب وأبو
«درّى» بفتح الدال مهموزاً. قال أبو حاتم: هذا خطأ لأنه ليس في الكلام فُعيل فإز
مع عنها فهما بحجة. (يُوقَدُ) قرأ شيبه ونافع وأيوب وسلام وآبن عامر وأهل الشام
وحفص «يوقد» بياء مضمومة وتخفيف القاف وضم الدال. وقرأ الحسن والسيوطي
وأبو جعفر وأبو عمرو بن العلاء البصري «توقد» مفتوحة الحروف كلها مشددة القاف،
واختارها أبو حاتم وأبو عبيد. قال النحاس: وهاتان القراءتان متقاربتان؛ لأنهما جعيا
للصباح، وهو أشبه بهذا الوصف؛ لأنه الذي ينير ويضيء، وإنما الزجاجة وعاء له.
و «توقد» فعل ماضٍ من توقد يتوقد، ويوقد فعل مستقبل من أوقد يُوقد. وقرأ نصر
ابن عاصم «توقد» والأصل على قراءته تتوقد حذف إحدى التائين لأن الأخرى تدل عليها.
وقرأ الكوفيون «توقد» بالتاء يعنون الزجاجة. فهاتان القراءتان على تأنيث الزجاجة.
(مِنْ تَجَرَّةٍ مَبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ) تقدم القول فيه، (يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ
تَمَسَّهُ نَارٌ نَوْراً عَلَى نَوْراً) على تأنيث النار. وزعم أبو عبيد أنه لا يرف إلا هذه القراءة.
حكى أبو حاتم أن السّدي روى عن أبي مالك عن آبن عباس أنه قرأ «ولو لم يحمس نار»
بالياء. قال محمد بن يزيد: التذكير على أنه تأنيث غير حقيق، وكذا سبيل المؤنث عنده.

وقال ابن عمر : المشكاة جَوْفُ محمد صلى الله عليه وسلم ، والزجاجة قلبه ، والمصباح النور الذي جعله الله تعالى في قلبه يوقد من شجرة مباركة ؛ أى أن أصله من إبراهيم وهو شجرته ، فأوقد الله تعالى في قلب محمد صلى الله عليه وسلم النور كما جعله في قلب إبراهيم عليه السلام . وقال محمد بن كعب : المشكاة إبراهيم ، والزجاجة إسماعيل ، والمصباح محمد صلوات الله عليهم أجمعين ؛ سَمَاءُ الله تعالى مصباحاً سماه سراجاً فقال : «وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِأَذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا» يوقد من شجرة مباركة وهى آدم عليه السلام ، بُورِكَ في نسله وكثُرَ منه الأنبياء والأولياء . وقيل : هى إبراهيم عليه السلام ، سَمَاءُ الله تعالى مباركة لأن أكثر الأنبياء كانوا من صُلْبِهِ . (لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ) أى لم يكن يهودياً ولا نصرانياً وإنما كان حنيفاً مسلماً . وإنما قال ذلك لأن اليهود تصلّى قبل المغرب والنصارى تصلّى قبل المشرق . (يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ) أى يكاد محاسن محمد صلى الله عليه وسلم تظهر للناس قبل أن أوحى الله تعالى إليه . (نُورٌ عَلَى نُورٍ) نبيٌّ من نسل نبيٍّ . وقال الضحاك : شبه عبد المطلب بالمشكاة وعبد الله بالزجاجة والنبيّ صلى الله عليه وسلم بالمصباح كأن في قلبهما ، فورث النبوة من إبراهيم . (مِنْ شَجَرَةٍ) أى شجرة التّي والرضوان وعشيرة الهدى والإيمان ، شجرة أصلها نبوة ، وفروعها صروعة ، وأغصانها تنزيل ، وورقها تأويل ، وخدمها جبريل وميكائيل . قال القاضي أبو بكر آبن العربي : ومن غريب الأمر أن بعض الفقهاء قال إن هذا مثل ضربه الله تعالى لإبراهيم ومحمد ولعبد المطلب وابنه عبد الله ؛ فالمشكاة هى الكوة بلسة الخيشة ، فشبه عبد المطلب بالمشكاة فيها القنديل وهو الزجاجة ، وشبه عبد الله بالقنديل وهو الزجاجة ؛ ومحمد كالمصباح يعنى من أصلاهما ، وكأنه كوكب دريٌّ وهو المشتريّ « يوقد من شجرة مباركة » يعنى إرث النبوة من إبراهيم عليه السلام هو الشجرة المباركة ، يعنى حنيفية لاشرقية ولا غربية ، لا يهودية ولا نصرانية . « يكاد زيتها يضىء » ولو لم تمسه نار » يقول : يكاد إبراهيم يتكلم بالوحى من قبل أن يوحى إليه . « نُورٌ عَلَى نُورٍ » لإبراهيم ثم محمد صلى الله عليه وسلم . قال القاضي : وهذا كله عدول عن الظاهر ، وليس يمنع في التمثيل أن يتوسع المرء فيه .

قلت : وكذلك في جميع الأقوال لعدم ارتباطه بالآية ما عدا القول الأول ، وأن هذا مثل ضربه الله تعالى لنوره ، ولا يمكن أن يضرب لنوره المعظم مثلاً تنبها خلقه إلا ببعض خلقه ، لأن الخلق لقصورهم لا يفهمون إلا بأنفسهم ومن أنفسهم ، ولو لا ذلك ما عرف الله إلا الله وحده ، قاله ابن العربي . قال ابن عباس : هذا مثل نور الله وهذه في قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار ، فإن مسسته النار زاد ضوؤه ، كذلك قلب المؤمن يكاد يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم ، فإذا جاءه العلم زاده هدى على هدى ونورا على نور ، كقول إبراهيم من قبل أن تجيئه المعرفة : « هذا ربي » ، من قبل أن يخبره أحد أن له رباً ، فلما أخبره الله أنه ربه زاد هدى ، فقال له ربه : « أسلم قال أسلمت لرب العالمين » . ومن قال إن هذا مثل للقرآن في قلب المؤمن قال : كما أن هذا المصباح يستضاء به ولا ينقص فكذلك القرآن يهتدى به ولا ينقص ، فالمصباح القرآن ، والزجاجة قلب المؤمن ، والمشكاة لسانه ونفمه ، والشجرة المباركة شجرة الوحى . (يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار) تكاد جميع القرآن تضيح ولو لم يقرأ . (نور على نور) يعنى أن القرآن نور من الله تعالى خلقه ، مع ما أقام لهم من الدلائل والإعلام قبل نزول القرآن ، فآزادوا بذلك نوراً على نور . ثم أخبر أن هذا النور المذكور عزيز ، وأنه لا يناله إلا من أراد الله هذه فقال : (يهتدى الله لنوره من يساء ويضرب الله الأمثال للناس) أى يبين الأشباه تقريبا إلى الأفهام . (والله بكل شئ عليم) أى بالمهدى والضال . وروى عن ابن عباس أن اليهود قالوا : يا محمد ، كيف يخلص نور الله تعالى من دون السماء ، فضرب الله تعالى ذلك مثلاً لنوره .

قوله تعالى : فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمَاءُ سَبَّحُ لَهَا فِيهَا بِالْعُدْوِ وَالْآصَالِ ﴿٦٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٦٧﴾ لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَزِيَدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ بِرِزْقِهِمْ عَلِيمٌ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِّنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ . رَجُلًا لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾ فيه تسع عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِّنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ ﴾ الباء في « بيوت » تضم وتكسر؛ وقد تقدّم . واختلف في الفاء من قوله « في » فقيل : هي متعلقة بـ « مصباح » . وقيل : بـ « يسبح له » ؛ فعمل هذا التأويل يوقف على « علم » . قال ابن الأنباري : سمعت أبا العباس يقول هو حال للمصباح والزجاجة والكوكب ؛ كأنه قال وهي في بيوت . وقال الترمذي الحكيم محمد بن علي : « في بيوت » منفصل ، كأنه يقول : الله في بيوت أذن الله أن ترفع ؛ وبذلك جاءت الأخبار أنه " من جلس في المسجد فإنه يحالس ربه " . وكذا ما جاء في الخبر فيا يحكي عن التوراة " أن المؤمن إذا مشى إلى المسجد قال الله تبارك اسمه عبدي زارني وعلى قراه ولن أرضى له قرى دون الجنة " . قال ابن الأنباري : إن جعلت « في » متعلقة بـ « يسبح » أو رافعة للرجال حسن الوقف على قوله « والله بكل شيء عليم » . وقال الرماني : هي متعلقة بـ « يوقد » وعليه فلا يوقف على « علم » . فإن قيل : فما الوجه إذا كان البيوت متعلقة بـ « يوقد » في توحيد المصباح والمشكاة وجمع البيوت ، ولا يكون مشكاة واحدة إلا في بيت واحد . قيل : هذا من الخطاب المتألف الذي يفتح بالتوحيد ويضم بالجمع ؛ كقوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ وَنَحْوَهُ . وقيل : رجع إلى كل واحد من البيوت . وقيل : هو كقوله تعالى : « وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا » وإنما هو في واحدة منها . واختلف الناس في البيوت هنا على خمسة أقوال : الأول — أنها المساجد المخصوصة لله تعالى بالعبادة ، وأنها تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض ؛ قاله ابن عباس ومجاهد والحسن . الثاني — هي بيوت بيت المقدس ؛ عن الحسن أيضا . الثالث — بيوت النبي صلى الله عليه وسلم ؛ عن مجاهد أيضا . الرابع — هي البيوت كلها ؛ قاله عكرمة . وقوله « يسبح له فيها بالغدو والآصال » يقوى أنها المساجد . وقول خامس — أنها المساجد الأربعة التي

لم يبق إلا نبي : الكعبة وبيت أريحا ومسجد المدينة ومسجد قباء؛ قاله ابن بريدة . وقد تقدم ذلك في « برائة » .

قلت — الأظهر القول الأول ؛ لما رواه أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من أحب الله عز وجل فليحبني ومن أحبني فليحب أصحابي ومن أحب أصحابي فليحب القرآن ومن أحب القرآن فليحب المساجد فإنها أفضى الله إليه في رفعها وبارك فيها ميمونة ميمون أهلها محفوظة محفوظ أهلها هم في صلاحهم والله عز وجل في حوائجهم هم في مساجدهم والله من ورائهم " .

الثانية — قوله تعالى : (أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ) « أذن » معناه أمر وقضى . وحقيقة الإذن العلم والتمكين دون حظر؛ فإن اقترن بذلك أمر وإنفاذ كان أقوى . و « رفع » قيل : معناه تبنى وتعلل ؛ قاله محاهد وعكرمة . ومنه قوله تعالى : « وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ » . وقال صلى الله عليه وسلم : " من بنى مسجدا من ماله بنى الله له بيتا في الجنة " . وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة تحض على ببناء المساجد . وقال الحسن البصري وفيه : معنى « رفع » تعظم ، ويرفع شأنها ، وتظهر من الإنجاس والأقذار ؛ ففي الحديث " أن المسجد ليبتزوي من النجاسة كما يتزوي الجلد من النار " . وروى ابن ماجه في سننه عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أخرج أدنى من المسجد بنى الله له بيتا في الجنة " . وروى عن عائشة قالت : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتخذ المساجد في الدور وأن تطهر وتطيب .

الثالثة — إذا قلنا : إن المراد ببنائها فهل تزين وتنقش ؟ اختلف في ذلك ؛ فذكره قوم وأباحه آخرون . فروى حماد بن سلمة عن أيوب عن أبي قلابة عن أنس وقنادة عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تقوم الساعة حتى تنبأه الناس في المساجد " . أخرجه أبو داود . وفي البخاري — وقال أنس : " يَبَاهُونَ بِهَا ثُمَّ لَا يَعْمُرُونَهَا إِلَّا قَلِيلًا " . وقال

ابن عباس : لَتَرْتَرَفُنَهَا كَمَا تَرْتَرَفُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى . وروى الترمذى الحكيم أبو عبد الله في نوادر الأصول من حديث أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا زُخِرْتُمْ مساجدكم وحلَّتْ مصاحفكم فالله بار عليكم » . احتج من أباح ذلك بأن فيه تعظيم المساجد والله تعالى أمر بتعظيمها في قوله « في بيوت أذن الله أن ترفع ^(١) » يعنى تعظم . وروى عن عثمان أنه بنى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالساج وحسنه . قال أبو حنيفة : لا بأس بنقش المساجد بله الذهب . وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه نقش مسجد النبي صلى الله عليه وسلم وبالغ في عمارته وتزينه ، وذلك في زمن ولايته قبل خلافة ، ولم ينكر عليه أحد ذلك ، وذكر أن الوليد بن عبد الملك أنفق في عمارة مسجد دمشق وفي تزينه مثل نجاج الشام ثلاث ممرات . وروى أن سليمان بن داود عليهما السلام بنى مسجد بيت المقدس وبالغ في تزينه .

الرابعة — ومما تصان عنه المساجد وتزه عنه الرواح الكريمة والأفوال السيئة وغير ذلك على ما نبينه ؛ وذلك من تعظيمها . وقد صح من حديث ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في غزوة تبوك : « من أكل من هذه الشجرة — يعنى الثوم — فلا يأتين المساجد » . وفي حديث جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من أكل من هذه البقلة الثوم » وقال مرة : « من أكل البصل والثوم والكراث فلا يقربن مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم » . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه في خطبته : ثم إنكم أيها الناس تأكلون شجرتين ولا أراهما إلا خبيثتين ، هذا البصل والثوم ، لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا وجد ريحهما من وجل في المسجد أمر به فأخرج إلى البقع ، فمن أكلهما فليغمهما طبخا ، نحرجه مسلم في صحيحه ، قال العلماء : وإذا كانت العلة في إخراجهما من المسجد أنه يتأذى به ففى القياس أن كل من تأذى به جيرانه في المسجد بأن يكون ذرب اللسان سفيها عليهم ، أو كان ذا رائحة قبيحة لا تريحه ^(٢) لسوء صناعته ، أو عاهة مؤذية كالجلذام

(١) الساج : صجر يعلو جدا ، لا يثبت إلا ببلاد الهند ، وشبه أسود رزين ، لا تكاد الأرض تبسبه .

(٢) أى لا تفرقه .

وشبهه . وكل ما يتأذى به الناس كان لهم إخراجها ما كانت العلة موجودة فيه حتى تزول . وكذلك يجنب مجتمع الناس حيث كان لصلاة أو غيرها كجالس العلم والولائم وما أشبهها ، مَنْ أكل الثوم وما في معناه ، عماله راحة كريحة تؤذى الناس . ولذلك جمع بين البصل والثوم والكراث ، وأخبر أن ذلك مما يتأذى به . قال أبو عمر بن عبد البر : وقد شاهدت شيخنا أبا عمر أحمد بن عبد الملك بن هشام رحمه الله أفتى في رجل شكاه جيرانه وأتفقوا عليه أنه يؤذيهم في المسجد بلسانه ويده فشؤروا فيه ، فأفتى بإخراجه من المسجد وإبعاده عنه ، وألا يشاهد معهم الصلاة ؛ إذ لا سبيل مع جنونه واستطالته إلى السلامة منه ، فذاكرته يوما أمره وطالبته بالدليل فيما أفتى به من ذلك وراجعته فيه القول ؛ فاستدل بحديث الثوم ، وقال : هو عندى أكثر أذى من أكل الثوم ، وصاحبه يمنع من شهود الجماعة في المسجد .

قلت : وفي الآثار المرسلة « أن الرجل ليكذب الكذبة فيباعد عنه الملك من تن ربحه » .
فعل هذا يخرج من حُرّف منه الكذب والتقول بالباطل فإن ذلك يؤذى .

الخامسة - أكثر العلماء على أن المساجد كلها سواء ؛ لحديث ابن عمر . وقال بعضهم : إنما خرج النهي على مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل جبريل عليه السلام وزوله فيه ؛ ولقوله في حديث جابر : « فلا يقربن مسجدا » . والأقول أحص ، لأنه ذكر الصفة في الحكم وهي المسجدية ، وذكر الصفة في الحكم تعليل . وقد روى التعلي بإسناده عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يأتي الله يوم القيامة بمساجد الدنيا كأنها نجائب بيض قوائمها من العبر وأعتاقها من الزعفران ورعوسها من المسك وأزمتها من الزبرجد الأخضر وقوائمها والمؤذنون فيها يقدونها وأئمتها يسوقونها وعمارها متعلقون بها فتجوز عرصات القيامة كالبرق الخاطف فيقول أهل الموقف هؤلاء ملائكة مقربون وأنبياء مرسلون فينادى ما هؤلاء بملائكة ولا أنبياء ولكنهم أهل المساجد والمحافظة على الصلوات من أمة محمد صلى الله عليه وسلم » . وفي التبريل « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله » . وهذا عام

(١) في بعض نسخ الأصل : « هاشم » . (٢) آية ١٨ سورة التوبة . راجع ٨ ص ٩٠

في كل مسجد . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فأشهدوا له بالإيمان إن الله تعالى يقول «إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَهُ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» ، وقد تقدم السادسة - وتصابن المساجد أيضا عن البيع والشراء وجميع الاشتغال ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم للرجل الذي دعا إلى الجبل الأحمر : ^(١) " لَا وَجَدَتْ إِنَّمَا بُنِيََتِ الْمَسَاجِدُ لِمَا بُنِيََتِ لَهُ " . أخرجه مسلم من حديث سليمان بن بريدة عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم لما صلى قام رجل فقال : من دعا إلى الجبل الأحمر ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لَا وَجَدَتْ إِنَّمَا بُنِيََتِ الْمَسَاجِدُ لِمَا بُنِيََتِ لَهُ " . وهذا يدل على أن الأصل ألا يعمل في المسجد غير الصلوات والأذكار وقراءة القرآن ، وكذا جاء مفسرا من حديث أنس قال : بينما نحن في المسجد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَهْ مَهْ ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لَا تَزِيدُونَهُ ^(٢) دَعْوَهُ " . فتركوه حتى بال ، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاه فقال له : " إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ " . أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فأمر رجلا من القوم بغشاء يذُلُّون من ماء فثنته عليه . أخرجه مسلم . وما يدل على هذا من الكتاب قوله الحق : ^(٣) " وَذِكْرُ فَيْحِهَا أَمْنٌ " . وقوله صلى الله عليه وسلم لمعاوية بن الحكم السلمي : " إن هذه المساجد لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إِنَّمَا هِيَ لِلتَّكْبِيرِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ " ، أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . الحديث بطوله أخرجه مسلم في صحيحه ، وحسبك ! وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه صوت رجل في المسجد فقال : ما هذا الصوت ! أتدري أين أنت ! وكان خلف بن أيوب جالسا في مسجده فأثامه غلامه يسأله عن شيء فقام وخرج من المسجد وأجابه ؛ فليل له في ذلك فقال : ما تكلمت في المسجد بكلام الدنيا منذ كذا وكذا ، فكفمت أن أنكم اليوم .

(١) أي من وجد ضالًّا ، وهو الجبل الأحمر دعا إليه . (٢) أي لا تظفروا عليه برك ؛ يقال : رد البول (بالكسر) أنقطع ؛ وأزهره ميره . (٣) الشئ : الصبغ المنقطع ؛ أي رثه عليه رثا مفرقا . (٤) التي في صحيح مسلم : « إن هذه الصلاة ... الخ » .

السابعة - روى الترمذي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن تناشد الأشعار في المسجد ، وعن البيع والشراء فيه ، وأن يتحاكى الناس يوم الجمعة قبل الصلاة . قال : وفي الباب عن بريدة وجابر وأنس حديث عبدالله ابن عمرو حديث حسن . قال محمد بن إسماعيل : رأيت محمداً وإسحاقاً وذكر غيرهما يمتحنون بحديث عمرو بن شعيب . وقد ذكره قوم من أهل العلم البيع والشراء في المسجد ؛ وبه يقول أحمد وإسحاق . وروى أن عيسى بن مريم طيما السلام أتى على قوم يتبايئون في المسجد فجعل رداه غرقاء ، ثم جعل يسعى عليهم ضرباً ويقول : يا أبناء الأفاعي ، اتخذتم مساجد الله أسواقاً ! هذا سوق الآخرة .

قلت : وقد ذكره بعض أصحابنا تعليم الصبيان في المساجد ، ورأى أنه من باب البيع . وهذا إذا كان باجرة ، فلو كان بغير أجرة لمنع أيضاً من وجه آخر ، وهو أن الصبيان لا يحترزون من الأعداء والومخ ، فيؤدى ذلك إلى عدم تنظيف المساجد ، وقد أمر صلى الله عليه وسلم بتنظيفها وتطييبها فقال : " جئوا مساجدكم صيانتكم ومجانينكم وسل سيوفكم وإقامة حدودكم ورفع أصواتكم وخصوصاتكم وأجروها في الجُمُع وأجعلوا على أبوابها المظاهر " . في إسناده العلاء بن كثير الدمشقي مولى بني أمية ، وهو ضعيف عندهم ؛ ذكره أبو أحمد بن عدي الجرجاني الحافظ . وذكر أبو أحمد أيضاً من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : صليت العصر مع عثمان أمير المؤمنين فرأى خياطاً في ناحية المسجد فأمر بإخراجه ؛ فقيل له : يا أمير المؤمنين ، إنه يكنس المسجد ويناق الأبواب ويرش أحبانا . فقال عثمان : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " جئوا صناعكم من مساجدكم " . هذا حديث غير محفوظ ، في إسناده محمد بن مجيب الثقفي ، وهو ذاهب الحديث .

قلت : ما ورد في هذا المعنى وإن كان طريقه ليناً فهو صحيح معنى ؛ يدل على صحته ما ذكرناه قبل . قال الترمذي : وقد روى عن بعض أهل العلم من التابعين رخصة في البيع

(١) الذي في الترمذي : « أحمد » . (٢) الخراق : ثوب يلف ويضرب به الصبيان بعضهم بعضاً .

والشراء في المسجد . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم في غير حديث رخصة في إنشاد الشعر في المسجد .

قلت : أما تناشد الأشعار فاختلف في ذلك ، فمن مانع مطلقا ، ومن يجوز مطلقا .
والأولى التفصيل ، وهو أن يُنظر إلى الشعر فإن كان مما يقتضى الثناء على الله عز وجل أو على
رسوله صلى الله عليه وسلم أو الذمّ عنهما كما كان شعر حسان ، أو يتضمن الخوض على الخير
والوعظ والزهد في الدنيا والثقل منها ، فهو حسن في المساجد وغيرها ؛ كقول القائل :

طَوَّفَ يَا نَفْسُ كِي أَقْصَدَ فَرْدًا صَمِدًا * وَذَرَيْتُ أَبْنَى غَيْرِي أَحَدًا
فهو أنسى وجليبي ودعى الناس * فما إن تجسدى من دونه ملتعدا^(١)

وما لم يكن كذلك لم يحضر ؛ لأن الشعر في الغالب لا يخلو عن الفواحش والكذب والترين
بالباطل ، ولو سلم من ذلك فأقل ما فيه اللغو والمُسَدَّرُ والمساجد متزهة عن ذلك ؛ لقوله
تعالى : « فِي بُيُوتٍ إِذْنُ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ » . وقد يجوز إنشاده في المسجد ؛ كقول القائل :
كَمَحُلِّ الْعَذَابِ الْقَرْدُ يَضْرِبُهُ النَّدَى * تَعَلَّى النَّدَى فِي مَتْنِهِ وَتَحَنَّنَا
وقول الآخر :

إِذَا سَقَطَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ * رَعِيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غَضَبًا

فهذا النوع وإن لم يكن فيه تمجّد ولا ثناء يجوز ؛ لأنه خالي عن الفواحش والكذب . وسيأتى
ذكر الأشعار الجائزة وغيرها بما فيه كفاية في « الشعراء » إن شاء الله تعالى . وقد روى
الدارقطني من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت : ذكر الشعراء
عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « هُوَ كَلَامٌ حَسَنٌ وَبَيِّنَةٌ وَفِيهِ قَبِيحٌ » . وفي الباب
عن عبد الله بن عمرو بن العاص وأبي هريرة وابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم
ذكره في السنن .

قلت : وأصحاب الشافعي يأترون هذا الكلام عن الشافعي وأنه لم يتكلم به غيره ؛ وكأنهم
لم يفتوا على الأحاديث في ذلك . والله أعلم .

(١) هكذا ورد هذا الشعر في نسخ الأصل ؛ ولم يعرف من أي وزن هو . (٢) العذاب (بالفتح) والدال
المهمل : ما استرق من الرمل . وقيل : جانبه الذي يرق على الجند من الأرض . الواحد والجمع سواء .

الثامنة - وأما رفع الصوت فإن كان نما يقتضى مصلحة للرائع صوتُهُ دُعي عليه بتقيض قصده ؛ لحديث بَريرة المتقدم ، وحديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من سمع رجلاً يَنشُد ضالةً في المسجد فليقل لا رَدَّها الله عليك فإن المساجد لم تُبَن لهذا " . وإلى هذا ذهب مالك وجماعة ، حتى كرهوا رفع الصوت في المسجد في العلم وغيره . وأجاز أبو حنيفة وأصحابه ومحمد بن مسلمة من أصحابنا رفع الصوت في الخسومة والعلم ؛ قالوا : لأنهم لا يَدْلَم من ذلك . وهذا مخالف لظاهر الحديث ، وقولهم : « لا يَدْلَم من ذلك » ، ممنوع ؛ بل يَدْلَم بُد من ذلك لوجهين : أحدهما بملازمة الوقار والحرمه ، وبإحضار ذلك بالبال والتحرز من تقيضه . والثاني أنه إذا لم يتمكن من ذلك فليَتخذ لذلك موضعاً يَنصِبُه ، كما فعل عمر حيث بَنَى رَجْبةً تُسمَّى البطيحاء ، وقال : من أراد أن يَلْقَطُ أو يَنشُد شعراً - يعني في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم - فليخرج إلى هذه الرَجْبة . وهذا يدل على أن عمر كان يكره إنشاد الشعر في المسجد ، ولذلك بنى البطيحاء خارجه .

التاسعة - وأما النوم في المسجد لمن احتاج إلى ذلك من رجل أو امرأة من الغرباء ومن لا يَت له بخائر ؛ لأن في البخاري - وقال أبو قلابة عن أنس : قديم رِعْط من عُنْكل حل النبي صلى الله عليه وسلم فكانوا في الصفة ^(١) ، وقال عبد الرحمن بن أبي بكر : كان أصحاب الصفة فقراء . وفي الصحيحين عن ابن عمر أنه كان ينام وهو شاب أعزب لا أهل له في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم . لفظ البخاري . وترجم (باب نوم المرأة في المسجد) وأدخل حديث عائشة في قصة السوداء التي اتهمها أهلها بالوشاح ، قالت عائشة : وكان لها خِيَاء في المسجد أو حَفَش ... الحديث . ويقال : كان مبيت عطاء بن أبي رَباح في المسجد أربعين سنة .

(١) بوضع مظل في أنحرابات المسجد النبوي تَأْوى إليه المساكين . (٢) السوداء : يريد أمة سوداء كانت على من العرب ، فأنهوها بسرعة وشاح ولفقوا يَدْنُون حتى قَتَلُوا قَبِيلَهَا . قالت : والله إنِّي لقائمةٌ معهم إذ مررتُ الحُدَيْبَاءَ فأَلَتته بينهم ... بَقَلْتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأَسَلْتُ ، فكان لها خِيَاء في المسجد ... راجع صحيح البخاري (باب المساجد) . (٣) الخِيَاء : الخِيلة من صوف أو وبر . والحَفَش (بكسر الحاء وسكون الفاء) : بيت صغير .

العاشر - روى مسلم عن أبي حميد أو عن أبي أسيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا دخل أحدكم المسجد فليقل اللهم افتح لي أبواب رحمتك وإذا خرج فليقل اللهم إني أسألك من فضلك " . نخرجه أبو داود كذلك ؛ إلا أنه زاد بعد قوله " إذا دخل أحدكم المسجد : فليسلم وليصل على النبي " صلى الله عليه وسلم ثم ليقل اللهم افتح لي ... " الحديث . وروى ابن ماجه عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد قال " باسم الله والسلام على رسول الله اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك " وإذا خرج قال باسم الله والصلاة على رسول الله اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك وفضلك " . وروى عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا دخل أحدكم المسجد فليصل على النبي " صلى الله عليه وسلم وليقل اللهم افتح لي أبواب رحمتك وإذا خرج فليسلم على النبي " صلى الله عليه وسلم وليقل اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك " . ونخرج أبو داود عن حيوة بن شريح قال : بقيت عقبه بن مسلم فقلت له بلغني أنك حدثت عن عبد الله بن عمرو بن العاصي عن النبي " صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا دخل المسجد قال " أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم " قال نعم . قال : فإذا قال ذلك قال الشيطان حفظ مني سائر اليوم .

الحادية عشرة - روى مسلم عن أبي قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس " وعنه قال : دخلت المسجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس بين ظهراني الناس ، قال فبانت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما منعك أن تركع ركعتين قبل أن تجلس " ؟ فقلت : يا رسول الله : رأيتك جالسا والناس جلوس . قال : " فإذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يركع ركعتين " . قال العلماء : بفعل صلى الله عليه وسلم للمسجد منزلة يتيّز بها عن سائر البيوت ، وهو ألا يجلس حتى يركع . وطائفة العلماء على أن الأمر بالركوع على السند والنسب والترغيب .

(١) الذي في سنن أبي داود " فليسلم على النبي صلى الله عليه وسلم " .

وقد ذهب داود وأصحابه إلى أن ذلك على الوجوب؛ وهذا باطل، ولو كان الأمر على ما قالوه لحرم دخول المسجد على المحدث الحدث الأصغر حتى يتوضأ، ولا قائل به فيما أعلم، والله أعلم. فإن قيل: فقد روى إبراهيم بن يزيد عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يركع ركعتين وإذا دخل أحدكم بيته فلا يجلس حتى يركع ركعتين فإن الله جاعل من ركعتيه في بيته خيرا"، وهذا يقتضي التسوية بين المسجد والبيت. قيل: هذه الزيادة في الركوع عند دخول البيت لا أصل لها؛ قال ذلك البخاري؛ وإنما يصح في هذا حديث أبي قتادة الذي تقدم لمسلم، وإبراهيم هذا لا أعلم روى عنه إلا سعد بن عبد الجيد، ولا أعلم له إلا هذا الحديث الواحد؛ قاله أبو محمد عبد الحق.

الثانية عشرة - روى سعيد بن زبّان حدثني أبي عن أبيه عن جده عن أبي هند رضي الله عنه قال: سمعتم - يعني الداري - من الشام إلى المدينة فتأديل وزينا ومقطا، فلما انتهى إلى المدينة وافق ذلك ليلة الجمعة فأمر غلاما يقال له أبو البراد فقام فَنَشَطَ الْمُقَطَّطَ (١) وعلق الفتاديل وصب فيها الماء وأزيت وجعل فيها الفتيل؛ فلما غربت الشمس أمر أبا البراد فأخرجها، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد فإذا هو بها ترهق؛ فقال: "من فعل هذا؟" قالوا: تميم الداري يا رسول الله؛ فقال: "تورت الإسلام تورا الله عليك في الدنيا والآخرة أما إنه لو كانت لي آبنة لزوجتكها". قال نوفل بن الحارث: لي آبنة يا رسول الله تسمى المغيرة بنت نوفل فأفعل بها ما أردت؛ فأنكحه إياها. زبّان (يفتح الزاي والباء وتشديدها بنقطة واحدة من تحتها) ينفرد بالتسمي به سعيد وحده، فهو أبو عثمان سعيد بن زبّان بن قائد بن زبّان بن أبي هند، وأبو هند هذا مولى أبي نبيضة حجام النبي صلى الله عليه وسلم. والمقطط: جمع المقاط، وهو الحبل، فكأنه مقلوب القياط. والله أعلم. وروى ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري قال: أول من أخرج في المساجد تميم الداري. وروى عن أنس أن النبي

(١) نشط الحبل: ربطه.

صلى الله عليه وسلم قال : " من أَسْرَجَ في مسجدٍ مَرَجاً لم تزل الملائكة وحلة العرش يُصَلُّون عليه ويستغفرون له ما دام ذلك الضوء فيه وإن كُفِيَ غبار المسجد فقد الحُور العين " .
قال العلماء : ويستحب أن يتَوَرَّع البيت الذي يقرأ فيه القرآن بتعليق القناديل ونصب الشموع فيه ، ويزاد في شهر رمضان في أنوار المساجد .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : (يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ . رِجَالٌ) اختلف العلماء في وصف الله تعالى المسبحين ؛ فقيل : هم المراقبون أمر الله ، الطالبون رضاه ، الذين لا يشغلهم عن الصلاة وذكر الله شيء من أمور الدنيا . وقال كثير من الصحابة : نزلت هذه الآية في أهل الأسواق الذين إذا سمعوا النداء بالصلاة تركوا كل شغل وبادروا . ورأى سالم بن عبد الله أهل الأسواق وهم مقبلون إلى الصلاة فقال : هؤلاء الذين أراد الله بقوله « لا تلهيهم تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ » . وروى ذلك عن ابن مسعود . وقرأ عبد الله بن عاصم وعاصم في رواية أبي بكر عنه والحسن « يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا » بفتح الباء على ما لم يسم فاعله . وكان نافع وابن عمرو وأبو عمرو وحمة يقرءون « يُسَبِّحُ » بكسر الباء ؛ وكذلك روى أبو عمرو عن عاصم . فمن قرأ « يُسَبِّحُ » بفتح الباء كان على معنيين : أحدهما أن يرتفع « رجال » بفعل مضمر دل عليه الظاهر ؛ بمعنى يسبحه رجال ؛ فيوقف على هذا على « الآصال » . وقد ذكر سيبويه مثل هذا . وأنشد :

لِيُكَيِّدَ زَيْدٌ ضَارِعٌ لَخْصُومَةٍ • وَتُحَيِّطُ مَسَا تُطِيعُ الطَّلُوعُ^(١)

المعنى : يبكيه ضارع . وعلى هذا نقول : ضُرب زيد عمرو ؛ على معنى ضربه عمرو .
والوجه الآخر — أن يرتفع « رجال » بالابتداء ، والخبر « في بيوت » ؛ أي في بيوت أذن الله أن ترفع رجال . و « يسبح له فيها » حال من الضمير في « ترفع » ؛ كأنه قال : أن ترفع ؛

(١) اختلف في قائله ، ونسبه صاحب الخزانة لبشيل بن حري . وهذا البيت من أبيات في مثنوية أعجز به ، وطلعا ؛

لمعري لأن أسمى يزيد بن بشيل * حَتَّى جَعَلَ تَسْفِي طِيَةَ الرِّمَاحِ

وقوله : « ضارع » من الضراعة ، وهو الخضوع والتذلل . و « الخبط » الذي يسلك من غير معرفة كانت بينكما ؟ وأراد به هنا الخباج . و « تلجج » تذهب وتبهك . و « الرمايح » جمع مطيعة ، وهي القوادف . و « الحشا » ما في البطن . و « جدت » بفتح الجيم وإشاد : القبر . و « الرمايح » : الأيام الرمايح .

مسيحاً له فيها ، ولا يوقف على « الآصال » على هذا التقدير . ومن قرأ « يسبح » بكسر الباء لم يقف على « الآصال » ؛ لأن « يسبح » فعل للرجال ، والفعل مضطر إلى فاعله ولا إضمار فيه . وقد تقدم القول في « النذر والآصال » في آخر « الأعراف » والحمد لله وحده .

الرابعة عشرة - قوله تعالى : (**يُسَبِّحُ لَهُ يُهَيَّا**) قيل : معناه يصلي . وقال ابن عباس : كل تسبيح في القرآن صلاة ؛ ويدل عليه قوله « **بِالنَّذْرِ وَالْآصَالِ** » ، أى بالنداء والعيش . وقال أكثر المفسرين : أراد الصلاة المفروضة ؛ فالنذر صلاة الصبح ، والآصال صلاة الظهر والعصر والمشايم ؛ لأن أسم الآصال يجمعها .

الخامسة عشرة - روى أبو داود عن أبي أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من خرج من بيته متطهراً إلى صلاة مكتوبة فاجره كأجر الحاج المحرم ومن خرج إلى تسبيح الضمناً لا ينصبه إلا إياه فاجره كأجر المتخير وصلاته على إثر صلاة [لا تَنْسَوُ بَيْنَهُمَا] كتاب في عِلَّيْنِ " . وخرج عن بُريدة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة " . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من غدا إلى المسجد أرواح أعد الله له نُزُلًا في الجنة كلما غدا أو راح " . في غير الصحيح من الزيادة " كما أن أحدكم لو زار من يحب زيارته لأحتد في كرامته " ؛ ذكره الثعلبي . وخرج مسلم من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من تطهر في بيته ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضى فريضة من فرائض الله كانت خطواته إحداها تخط خطيطة والأخرى ترفع درجة " . وعنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته في بيته وصلاته في سوقه بضعا وعشرين درجة وذلك أن أحدهم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد لا ينهزه إلا الصلاة لا يريد إلا الصلاة فلم يخطُ خطوة إلا رفع له بها درجة وحط عنه بها خطيئة حتى يدخل المسجد فإذا دخل المسجد كان في الصلاة ما كانت الصلاة هي تحبسه والملائكة يصلون على " .

(١) راجع ج ٧ ص ٣٥٥ وما بعدها طبة أول أو ثانية .

(٢) زيادة عن سنن أبي داود .

(٣) التبر : الفتح .

أحدكم ما دام في مجلسه الذي صلى فيه يقولون اللهم أرحمه اللهم أغفر له اللهم ثبت عليه ما لم يؤذ فيه ما لم يحدث فيه .“ . في رواية : ما يحدث ؟ قال ” يَسْؤُ أو يَصْرِط “ . وقال حكيم بن زريق : قيل لسعيد بن المسيب أحضر الجنازة أحب إليك أم الجلوس في المسجد ؟ فقال : من صلى على جنازة فله قيراط ، ومن شهد دفنها فله قيراطان . والجلوس في المسجد أحب إلي ، لأن الملائكة تقول : اللهم أغفر له اللهم أرحمه اللهم ثبت عليه . وروى عن الحكم بن عمار صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” كونوا في الدنيا أضيافاً واتخذوا المساجد بيوتاً وعودوا قلوبكم الرقة وأكثروا الشكر والبكاء ولا تختلف بكم الأهواء . تبنون مالا تسكنون ويجمعون مالا تأكلون وتؤمّلون مالا تدركون “ . وقال أبو الدرداء لأبنه : ليكن المسجد بيتك فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” إن المساجد بيوت المتقين . ومن كانت المساجد بيته ضمن الله تعالى له الروح والزاحة والجواز على الصراط “ . وكتب أبو صادق الأزدي إلى شعيب بن الحباب : أن عليك بالمساجد فأزيتها ، فإنه بلغني أنها كانت يجالس الأنبياء . وقال أبو إدريس الخولاني : المساجد مجالس الكرام من الناس . وقال مالك بن دينار : بلغني أن الله تبارك وتعالى يقول ” إني أُمُّ بهذاب عبادي فأنظر إلى ثمار المساجد وجلنائه القرآن وولدان الإسلام فيسكن غضبي “ . وروى عنه عليه السلام أنه قال : سيكون في آخر الزمان رجال يأتون المساجد فيقعدون فيها حلقاً حلقاً ذكّرهم الدنيا وحبها فلا يجالسوهم فليس لله بهم حاجة . وقال ابن المسيب : من جلس في مسجد فأتما يجالس ربه ، فما حقه أن يقول إلا خيراً . وقد مضى من تعظيم المساجد وحرمتها ما فيه كفاية . وقد جمع بعض العلماء في ذلك خمس عشرة خصلة ، فقال : من حرمة المسجد أن يسلم وقت الدخول إن كان القوم جلوساً ، وإن لم يكن في المسجد أحد قال : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، وأن يركع ركعتين قبل أن يجلس ، وألا يشترى فيه ولا يبيع ، ولا يسئل فيه سهماً ولا سيفاً ، ولا يطلب فيه ضالة ، ولا يرفع فيه صوتاً

بغير ذكر الله تعالى، ولا يتكلم فيه بأحاديث الدنيا، ولا يتخطى رقاب الناس، ولا ينازع في المكان، ولا يضيق على أحد في الصف، ولا يميز بين بدى مصل، ولا ييصق، ولا ينتقم، ولا يتخط فيه، ولا يفرق أصابعه، ولا يعبت بشيء من جسده، وأن يتره عن التجاسات والصبيان والمجانين، وإقامة الحدود، وأن يكثر ذكر الله تعالى ولا يفغل عنه . فإذا فعل هذه الخصال فقد أذى حق المسجد، وكان المسجد حرزا له وحصنا من الشيطان الرجيم . وفي الخبر " أن مسجدا ارتفع بأهله إلى السماء يشكروهم إلى الله لما يتحدثون فيه من أحاديث الدنيا " . وروى القارقفني عن حاصر الشعبي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أقتراب الساعة أن يرى الهلال قبل^(١) فيقال لليلتين وأن تقذف المساحد طرقا وأن يظهر موت الفجاء " . هذا يرويه عبد الكبير بن الماعاني عن شريك عن العباس بن ذريح عن الشعبي عن أنس . وغيره يرويه عن الشعبي مرسلًا، والله أعلم . وقال أبو حاتم : عبد الكبير بن معاذ ثقة كان يحد من الأبدال . وفي البخاري عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من سر في شيء من مساجدنا أو أسواقنا بئس قلباخذ على نصالحنا لا يقرب بكفه مسامنا " . ونخرج مسلم عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " البراق في المسجد خطيئة وكفارتها دفنها " . وعن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " غير ضمت على أعمال أمتي حسنها وسبها فوجدت في محاسن أعمالها الأذى يحاط عن الطريق ووجدت في مساوي أعمالها النجاسة تكون في المسجد لا تدفن " . ونخرج أبو داود عن الفرج بن فضالة عن أبي سعد الحميري قال : رأيت وأئمة بن الحسن في مسجد دمشق بصق على الحصر ثم مسح برجله ، فقيل له : لم فعلت هذا؟ قال : لأني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعله . فرج بن فضالة ضعيف، وأيضًا فلم يكن في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حصر . والصحيح أن رسول الله صلى

(١) قال ابن الأثير : « أي يرى ساعة ما يطلع لظنه ووضوحه من غير أن يطلب . وهو يفتح القاف والياء . »
 (٢) الأبدال : قوم من الصالحين ، بهم يقسم الله الأرض ، أربعمائة في الشام وثلثون في سائر البلاد ، لا يموت منهم أحد إلا قام مكانه آخر ، فذلك هو الأبدال . وراحد الأبدال المبدأ بذل وبذل . وقال ابن دريد : الواحد بذيل .
 (٣) النجاسة : النجاسة . (٤) في الأصول : « عن أبي سعيد الخدري » وهو تحريف ، لأن فرج بن فضالة لم يرو عن أبي سعيد الخدري ، وإنما روى عن أبي سعد الحميري ، وأبو سعد هذا صاحب وأئمة بن الأسمع .

الله عليه وسلم إنما يصبى على الأرض وذلك بتعله اليسرى، ولعلّ وائلة إنما أراد هذا فحمل
الحصير عليه .

السابعة عشرة — لما قال تعالى : « رجال » وخصّهم بالذكر دلّ على أن النساء لا حظّ
لهنّ في المساجد؛ إذ لا جمعة عليهنّ ولا جماعة، وأن صلاتهن في بيوتهن أفضل . روى أبو داود
عن عبد الله بن رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « صلاة المرأة في بيتها أفضل
من صلاتها في حجرة وصلاتها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها » .

الساوية عشرة — قوله تعالى : « لَا تُلْهِمُهُمْ » أى لا تشغلهم . (تِجَارَةٌ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ) ^(١)
خصّ التجارة بالذكر لأنها أعظم ما يشتغل بها الإنسان من الصلاة . فإن قيل : فلم كرّر ذكر
البيع والتجارة شمله . قيل له : أراد بالتجارة الشراء لقوله « ولا يبيع » . نظيره قوله تعالى :
« وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ هَمَّوا أَنْفَعُوا إِلَيْهَا » قاله الواقدي . وقال الكلبي : التجار هم الجسّاب
المسافرون، والباعة هم المقيّمون . (عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ) اختلف في تأويله ؛ فقال عطاء : معنى
حضور الصلاة ؛ وقاله ابن عباس، وقال المكتوبة . وقيل عن الأذان ؛ ذكره يحيى بن سلام .
وقيل : عن ذكره باسمائه الحسنى ؛ أى يوحدونه ويعبدونه . والآية نزلت في أهل الأسواق ؛
قاله ابن عمر . قال سالم : جاز عبد الله بن عمر بالسوق وقد أغلقوا حوانيتهم وقاموا ليصلوا
في جماعة فقال : فهم نزلت « رِجَالٌ لَا تُلْهِمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعٌ » الآية . وقال أبو هريرة عن
النبي صلى الله عليه وسلم : هم الذين يضرّون في الأرض يبتغون من فضل الله . وقيل :
إن رجلين كانا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، أحدهما يبايع فإذا سمع النداء بالصلاة فإن
كان الميزان يبرده طرده ولا يضعه وضماً ، وإن كان بالأرض لم يرفه . وكان الآخر قيناً
يعمل السيوف للتجارة ، فكان إذا كانت مطرقة على السندان أبهاها موضوعة ، وإن كان قد
رفهها ألغها من وراء ظهره إذا سمع الأذان ؛ فازله الله تعالى هذا شاء عليهما وعلى كل من

أكّدى بهما .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ ﴾ هذا يدل على أن المراد بقوله « عن ذكر الله » غير الصلاة؛ لأنه يكون تكراراً . يقال : أقام الصلاة إقامةً، والأصل إقواماً فقلبت حركة الواو على القاف فاقبلت الواو ألفاً وبمدها ألف ساكنة غذفت إحداهما، وأثبتت الهاء لتلا تحذفها فتجحف، فلما أضيفت قام المضاف مقام الهاء بغاز حذفها، وإن لم تضاف لم يميز حذفها؛ ألا ترى أنك تقول : وَعَدَ عِدَّةً، وَوَزَنَ زَيْتَةً، فلا يجوز حذف الهاء لأنك قد حذفته وأواء؛ لأن الأصل وَدَّ وَعِدَّةً، وَوَزَنَ وَزْنَةً، فإن أضفت حذف الهاء، وأنشد القراء :

إِنَّا نَحْلِيطُ أَجْدُوا الْيَنِّ فَأَنْجَرْدُوا • وَأَخْلَفُوكَ عِدَّ الْأَمْرِ الَّذِي وَعَدُوا

يريد عِدَّةً، فحذف الهاء لما أضاف . وروى من حديث أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يَأْتِي اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَسَاجِدِ الدُّنْيَا كَأَنَّهَا نُجَبٌ بَيْضُ قَوَاعِمَا مِنَ السَّبْرِ وَعَانِقَاهَا مِنَ الزُّعْفَرَانِ وَرِعَاسُهَا مِنَ الْمِسْكِ وَأَقِيمَتْهَا مِنَ الزُّرْجِدِ الْأَخْضَرِ وَقُؤَامُهَا مِنَ الْمُؤَذِّنُونَ فِيهَا يَقُودُونَهَا وَأَعْتَمَتْهَا يَسُوقُوهَا وَنَحْمَاوُهَا مُتَعَلِّقُونَ بِهَا فَتَجُوزُ عَرَصَاتُ الْقِيَامَةِ كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ يَقُولُ أَهْلُ الْمَرْقِفِ هَؤُلَاءَ مَلَائِكَةٌ مُقَرَّبُونَ أَوْ أَنْبِيَاءُ مَرْسُومُونَ فَيُنَادَى مَا هَؤُلَاءَ بِمَلَائِكَةٍ وَلَا أَنْبِيَاءَ وَلَكِنْهُمْ أَهْلُ الْمَسَاجِدِ وَالْمُحَافِظُونَ عَلَى الصَّلَاةِ مِنْ أُمَّةٍ مَعِدَ صَلَّيَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " . وعن علي رضي الله عنه أنه قال : يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا اسْمُهُ، وَلَا مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا رِسْمُهُ، يَصْعَقُونَ مَسَاجِدَهُمْ وَهِيَ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ خَرَابٌ، شَرُّ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَنِ عُلَمَاؤُهُمْ، مِنْهُمْ تَخْرُجُ الْفِتْنَةُ وَالْيَهُودُ تَعُودُ؛ يَبْنِي أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ وَلَا يَعْمَلُونَ بِوَأَجَابَاتِ مَا عَلِمُوا .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾ قيل : الزكاة المفروضة، قاله الحسن . وقال ابن عباس : الزكاة هنا طاعة الله تعالى والإخلاص؛ إذ ليس لكل مؤمن مال . ﴿ يَتَخَفَتُونَ يَوْمًا ﴾ يعني يوم القيامة . ﴿ تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ يعني من حوله وحذر المسالك . والتقلب التحول، والمراد قلوب الكفار وأبصارهم . تقلب القلوب انتزاعها من أماكنها إلى الخناجر، فلا هي ترجع إلى أماكنها ولا هي تخرج . وأما تقلب الأبصار فالزرق بعد الحمل والتمنى بعد البصر . وقيل : تَتَقَلَّبُ الْقُلُوبُ بَيْنَ الطَّمَعِ فِي النِّجَاةِ وَالْخَوْفِ مِنْ

الهلاك ، والأبصار تنظر من أى ناحية يعطون كتبهم ، وإلى أى ناحية يؤخذ بهم .
 وقيل : إن قلوب الشاكين تحول عما كانت عليه من الشك ، وكذلك أبصارهم لرؤيتهم البتة ؛
 وذلك مثل قوله تعالى : « فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ » ^(١) ؛ فإكان يراه في الدنيا
 غيباً يراه رؤى ؛ إلا أن ذلك لا يفهمهم في الآخرة . وقيل : تقلب على جمر جهنم ؛ كقوله
 تعالى : « يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ » ^(٢) ، « وَتَقَلَّبُ أَعْيُنُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ » ^(٣) . في قول من جعل
 المعنى تقلبها على لهب النار . وقيل : تقلب بأن تفتحها النار مرة وتُغْضِجُها مرة . وقيل إن
 تقلب القلوب وحبها ، وتقلب الأبصار النظر بها إلى نواحي الأهوال . (يُجِزِيهِمْ اللَّهُ أَحْسَنَ
 مَا عَمِلُوا) فذكر الجزاء على الحسنات ، ولم يذكر الجزاء على السيئات وإن كان يجازى عليها
 لأمرين : أحدهما — أنه ترغيب ، فأقتصر على ذكر الرغبة . الثاني — أنه في صفة قوم
 لا تكون منهم الكبار ؛ فكانت صفاتهم مغفورة . (وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ) يحتمل وجهين :
 أحدهما — ما يضاعفه من الحسنات بعشر أمثالها . الثاني — ما يفضل به من غير جزاء .
 (وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) أى من غير أن يحسابه على ما أعطاه ؛ إذ لا نهاية
 لعطائه . وروى أنه لما نزلت هذه الآية أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببناء مسجد ثقباء ،
 لحضر عبد الله بن رواحة فقال : يا رسول الله ، قد أطلع من بنى المساجد ؟ قال : « نعم
 يا بن رواحة » قال : وصلى فيها قائماً وقاعدا ؟ قال : « نعم يا بن رواحة » قال : ولم يأت
 لله إلا ساجدا ؟ قال : « نعم يا بن رواحة » . كُفَّ عن السجع فما أعطى عبد شيتاشرا من طلاقة
 في لسانه ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ
 مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ
 مَرِيعٌ الْحِسَابِ ﴿١٨﴾

(١) آية ٢٢ سورة ق . (٢) آية ٦٦ سورة الأناب . (٣) آية ١١٠ سورة الأنعام .

(٤) وجب القلب وجيا : اضطرب .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ سَرَابٍ بِقِيَةٍ ﴾ لما ضرب مثل المؤمن ضرب مثل الكافر . قال مقاتل : نزلت في شيعة بن ربيعة بن عبد شمس ، كان يترهب متأسفاً للذين ، فلما نرح صلى الله عليه وسلم كفر . أبو سهل : في أهل الكتاب . الضحالك : في أعمال الخير للكافر ؛ كصلة الرحم ونفع الجيران . والسراب : ما يرى نصف النهار في اشتداد الحر ، كالماء في الفاو ، يلتصق بالأرض . والآل الذي يكون موحاً كالماء إلا أنه يرتفع عن الأرض حتى يصير كأنه بين الأرض والسماء . وسمى السراب مراباً لأنه يترب أي يجري كالماء . ويقال : سرب الفحل أي مضى وسار في الأرض . ويسمى الآل أبطاً ، ولا يكون إلا في البرية والحريفته العطشان . قال الشاعر .

فكنت كهمزيق الذي في سقائه * لزقراق آل فوق رابسة صليد

وقال آخر :

فلما كففنا الحرب كانت عهودهم * ككتمع سراب بالفلأ متان

وقال امرؤ القيس :

ألم أنض الميلى بكل تحرق * أمق الطول لماع السراب

والقيعة جمع القاع ؛ مثل جيرة وجار ؛ قاله المروى وقال أبو عبيدة : قيعة وقاع واحد ، حكاه النحاس . والقاع ما أنبسط من الأرض وأتسع ولم يكن فيه نبت ، وفيه يكون السراب . وأصل القاع الموضع المنخفض الذي يستقر فيه الماء ، وجمعه قيعان . قال الجوهري : والقاع المستوى من الأرض ؛ والجمع أقوع وأقواع وقيعان ، صارت الواو ياء لكسر ما قبلها ؛ والقيعة مثل القاع ، وهو أيضاً من الواو . وبعضهم يقول : هو جمع . (يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ) أي العطشان . (بَاءً) أي يحسب السراب ماء . (حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا) مما قدره ووجد أرضاً لا ماء فيها . وهذا مثل ضربه الله تعالى للكفار ، يقولون على ثواب أعمالهم فإذا

(١) في الأصول : « طويل الطول » والتصويب من ديوان امرئ القيس . والأمر : الطويل . قال الوزير أبو بكر حاصم بن أيوب (شاعر الديوان) : وفي البيت ما يسأل عنه من طريق العربية ، وهو إضافة « أمق » إلى « الطول » فيعوم أنه من إضافة الشيء إلى نفسه ؛ لأن الأمر هو الطويل ؛ وليس على ما يتوهم ؛ إنما هو كما تقول : « بعيد البعد »

قدموا على الله تعالى وجدوا ثواب أعمالهم محبطة بالكفر، أى لم يجدوا شيئاً كما لم يجد صاحب السراب إلا أرضاً لا ماء فيها ؛ فهو يهلك أو يموت . (وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ) أى وجد الله بالمرصاد . (فَوَقَّاهُ حِسَابُهُ) أى جزاء عمله . قال أمرؤ القيس :

قَوْلِي مُدْبِرًا يَهْوِي حَشِيتًا * وَأَيْقَنَ أَنَّهُ لَا قِيَّ الْحِسَابِ

وقيل : وجد وعد الله بالجزاء على عمله . وقيل : وجد أمر الله عند حشره والمعنى متقارب . وقريئ « بقیعات » . المهدوی : ويمحوز أن تكون الألف مشبعة من فتحة العين . ويمحوز أن تكون مثل رجل عزه وعزهاة ، للذى لا يقرب النساء . ويمحوز أن يكون جمع قبة ، ويكون على هذا البناء في الوصل والوقف . وروى عن نافع وأبي جعفر وشيبة « الظلمان » بنبرهمز ، والمشهور عنهما الهمز ؛ يقال : ظلمن يظلم ظلماتاً ، وإن خففت الهمزة قلت الظلمان ، وقوله « وَالَّذِينَ كَفَرُوا » ابتداء « أَعْمَالُهُمْ » ابتداء ثان . والكاف من « كسراب » الخبر ، والجملة خبر عن « الذين » . ويمحوز أن تكون « أعمالهم » بدلا من « الذين كفروا » ؛ أى وأعمال الذين كفروا كسراب ، لحذف المضاف .

قوله تعالى : (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٢٥﴾)

قوله تعالى : (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ) ضرب تعالى مثلا آخر للكفار ، أى أعمالهم كسراب ببيعة أو ظلمات . قال الزجاج : إن شئت مثل السراب وإن شئت مثل الظلمات ؛ و « أَوْ » للإباحة حسبا تقدم من القول في « أَوْ كَصَيْبٍ » . وقال الجرجاني : الآية الأولى في ذكر أعمال الكفار ، والثانية في ذكر كفرهم ، ونسق الكفر على أعمالهم لأن الكفر أيضا من أعمالهم ، وقد قال تعالى : « يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » ؛ أى من الكفر إلى

الإيمان . وقال أبو علي : « لَوْ كَظَلَمَاتٍ » أو كَذَى ظَلَمَاتٍ ، ودل على هذا المضاف قوله تعالى : « إِذَا أُنْتَرَجَ يَدُهُ » فالكناية تعود إلى المضاف المحذوف . قال القشيري : فمعد الزجاج التمثيل وقع لأعمال الكفار ، وعند الجرجاني لكفر الكافر ، وعند أبي علي للكفار . وقال ابن عباس في رواية : هذا مثل قلب الكافر . (في بحر جلي) قيل : هو منسوب إلى الجثة ، وهو الذي لا يدرك قعره . والجثة معظم الماء ، والجمع لجج . وأنتج البحر إذا تلاطمت أمواجه ، ومنه ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَنْ رَكِبَ الْبَحْرَ إِذَا أُنْتَجَ فَقَدْ بَرِئَ مِنْهُ الذَّمَّةُ " . وأنتج الأمر إذا عظم وأختلط . وقوله تعالى : « حَسِبْتَهُ أَجْثَةً » أي ما له عقى . وبلّجت السفينة أي خاضت الجثة (بضم اللام) . فأما الجثة (بفتح اللام) فاصوات الناس ، يقول : سمعت جثة الناس ، أي اصواتهم وصغهم . قال أبو التّمّيم :

• فِي جَلَّةٍ أَمْسِكَ فُلَانًا عَنْ فُلٍ •

والتجت الأصوات أي اختلطت وعظمت . (يشأه موج) أي يعمل ذلك البحر الجئي موج . (مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ) أي من فوق الموج موج ، ومن فوق هذا الموج الثاني بحاب ، فيجتمع خوف الموج وخوف الريح وخوف السحاب . وقيل : المعنى يشأه موج من بعده موج ، فيكون المعنى : الموج ينبع بعضه بعضا حتى كأن بعضه فوق بعض ، وهو أخوف ما يكون إذا توالى موجه وتقارب ، ومن فوق هذا الموج بحاب . وهو أعظم للخوف من وجهين : أحدهما - أنه قد غطى التجوم التي يمتدى بها . الثاني - الريح التي تنشأ مع السحاب والمطر الذي يزل منه . (ظَلَمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ) قرأ ابن محيصة والبرقي من ابن كثير « صحاب ظلمات » بالإضافة والخفض . فُئِلَ « صحاب » متونا « ظلمات » بالجر والتثنية . الباقون بالرفع والتثنية . قال المهدوي : من قرأ « مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ ظَلَمَاتٌ » بالإضافة فلأن السحاب يرتفع وقت هذه الظلمات فأضيف إليها كما يقال : صحاب رحمة ، إذا ارتفع في وقت المطر ، ومن قرأ « صحاب ظلمات » جر « ظلمات » مل التأكيد لـ « ظلمات »

الأولى أو البذل منها . و « محاب » ابتداء و « من فوقه » الخبر . ومن قرأ « محاب ظلمات » فظلمات خبر ابتداء محذوف ؛ التقدير : هي ظلمات أو هذه ظلمات ، قال ابن الأثير : « من فوقه موج » غير تام ؛ لأن قوله « من فوقه محاب » صلة للموج ، والوقف على قوله « من فوقه محاب » حسن ، ثم تجدى « ظلمات بعضها فوق بعض » على معنى هي ظلمات بعضها فوق بعض . وروى عن أهل مكة أنهم قرءوا « ظلمات » على معنى أو كظلمات ظلمات بعضها فوق بعض ؛ فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على السحاب . ثم قيل : المراد بهذه الظلمات ظلمة السحاب وظلمة الموج وظلمة الليل وظلمة البحر ؛ فلا يبصر من كان في هذه الظلمات شيئا ولا كوكبا . وقيل : المراد بالظلمات الشدائد ؛ أى شدائد بعضها فوق بعض . وقيل : أراد بالظلمات أعمال الكافر ، وبالبحر المحي قلبه ، وبالموج فوق الموج ما يتشقى قلبه من الجهل والشك والحيرة ، وبالسحاب الرين والخم والطبع على قلبه . وروى معناه عن ابن عباس وغيره ؛ أى لا يبصر قلبه نور الإيمان ، كما أن صاحب الظلمات في البحر إذا أخرج يده لم يكدرها . وقال أبي بن كعب : الكافر يتقلب في محبس من الظلمات ؛ كلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات في النار وبئس المصير . (إِذَا أُخْرِجَ يَدُهُ) بمعنى الناظر . (لَمْ يَكْدِرْهَا) أى من شدة الظلمات . قال الزجاج وأبو عبيدة : المعنى لم يرها ولم يكدر ، وهو معنى قول الحسن . ومعنى « لم يكدر » لم يطمع أن يرها . وقال الفراء : كاد صلة ، أى لم يرها ؛ كما تقول : ما كدت أعرفه . وقال المبرد : يعنى لم يرها إلا من بعد الجهد ؛ كما تقول : ما كدت أراك من الظلمة ، وقد رآه بعد ياس وشدة . وقيل : معناه قُرب من الرؤية ولم ير ؛ كما يقال : كاد العروس يكون أميرا ، وكاد النعام يطير ، وكاد المشتعل يكون راكبا . النحاس : وأصح الأقوال في هذا أن المعنى لم يقارب رؤيتها ، فإذا لم يقارب رؤيتها فلم يرها رؤية بعيدة ولا قريبة . (وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا) يهتدى به أظلمت عليه الأمور . وقال ابن عباس : أى من لم يجعل الله له دينًا فما له من دين ، ومن لم يجعل الله له نورًا يمشى به يوم القيامة لم يهتد

إلى الجنة؛ كقوله تعالى : « وَيَعْمَلُ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ » . وقال الزجاج : ذلك في الدنيا ؛ والمعنى : من لم يسهده الله لم يهتد . وقال مقاتل بن سليمان : نزلت في عتبة بن ربيعة ، كان يلمس الدين في الجاهلية ، وليس المسيح ، ثم كفر في الإسلام . الماوردي : في شعبة ابن ربيعة ، وكان يترهب في الجاهلية ويلبس الصوف ويطلب الدين ، فكفر في الإسلام . قلت : وكلاهما مات كافرا ، فلا يبعد أن يكونا هما المراد بالاية وغيرهما . وقد قيل : نزلت في عبد الله بن جحش ، وكان أسلم وهاجر إلى أرض الحبشة ثم تنصر بعد إسلامه . وذكر الثعلبي : وقال أنس قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى خلقني من نور وخلق أبا بكر من نوري وخلق عمر وعائشة من نور أبي بكر وخلق المؤمنين من أمي من نور عمر وخلق المؤمنات من أمي من نور عائشة فمن لم يحمي يحمي ويحب أبا بكر وعمر وعائشة فإله من نور » . فترت « ومن لم يعمل الله له نوراً فإله من نور » .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّاتٌ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿١١﴾
وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّاتٌ ﴾ لما ذكر وضوح الآيات زاد في الجملة والبيّنات ، وبين أن مصنوعاته تدل بتغيرها على أن لها صانعا قادرا على الكمال ؛ فله بضعة الرسل ، وقد بعثهم وأيدهم بالمعجزات ، وأخبروا بالجنة والنار . والخطاب في « أَلَمْ تَرَ » للنبي صلى الله عليه وسلم ، ومعناه : ألم تعلم ، والمراد الكل . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ من الملائكة . ﴿ وَالْأَرْضِ ﴾ من الجن والإنس . ﴿ وَالطَّيْرِ صَفَّاتٌ ﴾ قال مجاهد وغيره : الصلاة للإنسان والتسبيح لما سواه من الخلق . وقال سفيان : للطيور صلاة ليس فيها ركوع ولا سجود . وقيل : إن ضربها بأجنتها صلاة ، وإن أصواتها

تسبيح ؛ حكاية النفاش . وقيل : التسبيح هاهنا ما يرى في المخلوق من أثر الصنعة . ومعنى « صافات » مصطفات الأجنحة في الهواء . وقرأ الجماعة « والطيور » بالرفع عطفا على « من » . وقال الزجاج : ويجوز « والطيور » بمعنى مع الطير . قال النحاس : وسميته بغير « قُت » وزيدا بمعنى مع زيد . قال : وهو أجود من الرفع . قال : فإن قلت قُت أنا وزيد ، كان الأجود الرفع ، ويجوز النصب . (كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) يجوز أن يكون المعنى : كلٌّ قد علم الله صلاته وتسبيحه ؛ أى علم صلاة المصلّي وتسبيح المسيح . ولهذا قال : (وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ) أى لا يخفى عليه طاعتهم ولا تسبيحهم . ومن هذه الجهة يجوز نصب « كل » عند البصريين والكوفيين باضمار فعل يفسره ما بعده . وقد قيل : المعنى قد علم كلُّ مصلّي ومسيح صلاة نفسه وتسبيحه الذى كلفه . وقرأ بض الناس « كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ » غير مسمى الفاعل . وذكر بعض النحويين أن مضمهم قرأ « كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ » ؛ فيجوز أن يكون تقديره : كلٌّ قد علمه الله صلاته وتسبيحه . ويجوز أن يكون المعنى : كلٌّ قد علم غيره صلاته وتسبيحه ، أى صلاة نفسه ؛ فيكون التعلم الذى هو الإلهام والمراد الخصوص ؛ لأن من الناس من لم يُعلم . ويجوز أن يكون المعنى كلٌّ قد استدل منه المستدل ، فعدّ عن الاستدلال بالتعليم ؛ قاله المهدي . والصلاة هنا بمعنى التسبيح ، وكرر تأكيذا ؛ كقوله « يَعْلَمُ السِّرَّ وَالنُّجْوَى » . والصلاة قد تسمى تسبيحا ؛ قاله القشيري . (وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ) تقدم في غير موضع .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَافُ يَرْفَهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿١٠٠﴾ يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٠١﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزَيِّجُ سَحَابًا ﴾ ذكر من حجه شيئا آخر؛ أي ألم تربط قلبك . « يُزَيِّجُ سَحَابًا » أي يسوق إلى حيث يشاء . والريح تُزَيِّجُ السحاب ، والبقرة تزَيِّجُ ولها أي تسوقه . ومنه زجا الخواج يزجو زجاء (ممدودا) إذا تيسرت جبايته . وقال النابغة :
إني أتيتك من أهل ومن وطني * أزيى حُشاشة نفس ما بها ردي
وقال أيضا : أسرت عليه من الجوزاء ساريته . * تُزَيِّجُ الشَّامِلُ عليه جامد البرد
﴿ ثُمَّ يُؤَلَّفُ بَيْنَهُ ﴾ أي يجمعه عند انتشائه ؛ ليقوى ويتصل ويكتف . والأصل في التاليف الهمز ، تقول : تالفت . وقرئ « يُؤَلَّف » بالواو تخفيفا ، والسحاب واحد في اللفظ ، ولكن معناه جمع ؛ ولهذا قال : « يُلَيِّئُهُ السَّحَاب » . و « بين » لا يقع إلا لاثنتين فصاعدا ، فكيف جاز بينه ؟ فاجواب أن « بينه » هنا لجماعة السحاب ؛ كما تقول : الشجر قد جلسْتُ بينه لأنه جمع ، وذكر الكاوية على اللفظ ؛ قال معناه الفراء . وجواب آخر - وهو أن يكون السحاب واحدا بغاز أن يقال بينه ؛ لأنه مشتمل على قطع كثيرة ، كما قال :

... بين الدُّخُولِ وَحَوْمِلِ *

فاوقع « بين » على الدخول ، وهو واحد لكن مثاقله على مواضع . وكما تقول : ما زلت أدور بين الكوفة ؛ لأن الكوفة أما كن كثيرة ؛ قاله الزجاج وغيره . وزعم الأصمعي - أن هذا لا يجوز ، وكان يروى :

... بين الدُّخُولِ وَحَوْمِلِ *

﴿ ثُمَّ يَجْمَعُهُ رَعَامًا ﴾ أي يجمعها ، يركب بعضها بعضا ؛ كقوله تعالى : « وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ » . والركم جمع الشيء ؛ يقال منه : رَكَمَ الشيءَ يَرْكُمُهُ رَكْمًا إذا جمعه وألقى بعضها على بعض . وأرثكم الشيء وتراكم إذا اجتمع . والرَّكْمَةُ الطين المجموع . والرُّكَّام : الرمل المتراكم . وكذلك السحاب وما أشبهه . ومُرْتَكَمُ الطريق (فتح الكاف) جاذبه . ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ في « الْوَدْق » قولان : أحدهما - أنه البرق ؛ قاله أبو الأشمب الغليل . ومنه قول الشاعر :

أثرنا عَجاجة ونرجن منها * نخرج الْوَدْقَ من خَلَلِ السحاب

الثاني — أنه المطر؛ قاله الجمهور . ومنه قول الشاعر .

فلا مُرْمَزةٌ وَدَقَّتْ وَدَقَّتْ * ولا أرضٌ أبْقَلُ إِبْقَالِها

وقال امرؤ القيس :

فدمعهما وَدَقَّ وَدَقَّ وَدَمَعٌ * وَسَكَبٌ وَتَوَكَّلْتُ وَتَمَلَّيْتُ

يقال : ودقت السحابة فهي وادقة . وودق المطر يدق ودقا ، أى قطر . وودقت إليه دوت منه . وفي المثل : ودق العير إلى الماء ، أى دنا منه . يضرب لمن خضع للشيء حرصه عليه . والموضع مودق . وودقت [به] ودقا استأنست به . ويقال لذات الحار إذا أراقت الفعل : ودقت تدق ودقا ، وأودقت . وأستودقت . وأنان ودوق وقرس ودوق ، ووديق أيضا ، وبها وداق . والوديقة : شدة الحر . وخلال جمع خلل ، مثل الجبل والجبال ، وهى قُربُه وخارج القطر منه . وقد تقدم فى « البقرة » أن كعبا قال : إن السحاب فى مال المطر؛ لولا السحاب حين يزل الماء من السماء لأفسد مايقع عليه من الأرض . وقرأ ابن عباس والضحاك وأبو العباس « من خالله » على التوحيد . وتقول : كنت فى خلال القوم ، أى وسطهم . (وَيُنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ) قيل : خلق الله فى السماء جبالا من برد ، فهو ينزل منها بردا ، وفيه إحصاء ، أى ينزل من جبال البرد بردا ، فالمفعول محذوف . ونحو هذا قول الفراء ؛ لأن التقدير عنده : من جبال برد ، فالجبال عنده هى البرد . و « برء » فى موضع خفض ؛ ويجب أن يكون على قوله المنعنى : من جبال برء فيها ، بتووين جبال . وقيل : إن الله تعالى خلق فى السماء جبالا فيها برد ؛ فيكون التقدير : وينزل من السماء من جبال فيها برد . و « من » صلة . وقيل : المنعنى وينزل من السماء قدر جبال ، أو مثل جبال من برء إلى الأرض ؛ ف « من » الأولى للفاية لأن ابتداء الإنزال من السماء ، والثانية للتبويض لأن البرء بعض الجبال ، والثالثة لتبيين الجنس لأن جنس تلك الجبال من البرء . وقال الأخفش : إن « من » فى الجبال و « برء » زائدة فى الموضعين ، والجبال والبرد فى موضع نصب ؛ أى ينزل من السماء بردا يكون كالجبال . والله أعلم . (فَيَصْبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ)

فيكون إصابته نعمة، وصرفه نعمة. وقد مضى في «البقرة» . و«الرعد» أن من قال حين يسمع الرعد : سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ثلاثا عوفي مما يكون في ذلك الرعد . (يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ) أى ضوء ذلك البرق الذى فى السحاب (يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ) من شدة بريقه وضوئه . قال الشياخ :

وما كادت إذا رفعت سَنَاهَا * ليُصِيرَ ضَوْعَهَا إِلَّا الْبَصِيرُ

وقال امرؤ القيس :

بضِيء سَنَاهِ أَوْ مَصَابِيحُ رَاهِبٍ * أَهَانَ السَّيْلُطُ فِي الذُّبَالِ الْمُفْلِتِ

فَأَسْنَا (مقصور) ضَوْءُ البرق . وَأَسْنَا أيضا نبت يتداوى به . وَالسَّاءُ من الرفعة ممدود . وكذلك قرأ طلحة بن مُصَرِّف « سناء » بالمد على المبالغة فى شدة الضوء والصفاء ، فأطلق عليه اسم الشرف . قال المبرد : السَّاءُ (مقصور) وهو اللع ، فإذا كان من الشرف والحسب فهو ممدود ، وأصلهما واحد وهو الاتماع . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « سَنَاءُ بَرْقِهِ » قال أحمد بن يحيى : وهو جمع بَرْقَةٍ . قال النحاس : البرقة المقدار من البرق ، والبرقة المزة الواحدة . وقرأ الجحدري وابن القعقاع « يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ » بضم الياء وكسر الهاء ، من الإذهاب ، وتكون الباء فى « بِالْأَبْصَارِ » صلة زائدة . الباقون « يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ » بفتح الياء والهاء ، والباء للإلصاق . والبرق دليل على تكاثف السحاب ، وبشير بقوة المطر ، ومخبر من نزول الصواعق . (يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) قيل : تقلبيهما أن يأتى بأحدهما بعد الآخر . وقيل : تقلبيهما نقصهما وزيادتهما . وقيل : هو تغيير النهار بظلمة السحاب مرة وبضوء الشمس أخرى ؛ وكذا الليل مرة بظلمة السحاب ومرة بضوء القمر ، قاله النفاش . وقيل : تقلبيهما باختلاف ما يقدر فيهما من خير وشر ونفع وضرر . (إِنَّ فِي ذَلِكَ) أى فى الذى ذكرناه من تقلب الليل والنهار ، وأحوال المطر والصيف والشتاء (لَعِبْرَةٍ) أى اعتبارا (لِأَوَّلِي الْأَبْصَارِ) أى لأهل البصائر من خلق .

(١) راجع ج ١ ص ٢١٨ طبة ثانية أو ثالثة . وج ٩ ص ٢٩٨

(٢) السليط : الزيت . والذبال : جمع ذبالة ، وهي القتيلة .

قوله تعالى : **وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴿٢٤﴾ **لَقَدْ أُنزِلَتْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : (**وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ**) قرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحزة والكسائي « **وَاللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** » بالإضافة . الباقون « **خلق** » على الفعل . قيل : إن المعنيين في القراءةين جميعان . أخبر الله عز وجل بنحبرين ، ولا ينبغي أن يقال في هذا : إحدى القراءتين أصح من الأخرى . وقد قيل : إن « **خلق** » لشيء مخصوص ، وإنما يقال خالق على العموم ، كما قال الله عز وجل : « **الخالق البارئ** » . وفي الخصوص « **الحمد لله الذي خلق السموات والأرض** » وكذا « **هو الذي خلقكم من نفس واحدة** » . فكذا يجب أن يكون « **الله خالق كل دابة من ماء** » . والسدابة كل ما دب على وجه الأرض من الحيوان ؛ يقال : دب يدب فهو داب ، والهاء للبالغة . وقد تقدم في « **البقرة** » . (**مِنْ مَّاءٍ**) لم يدخل في هذا الجن والملائكة ؛ لأننا لم نشاهدكم ، ولم يثبت أنهم خلقوا من ماء ، بل في الصحيح « **إن الملائكة خلّفوا من نور والجن من نار** » . وقد تقدم . وقال المفسرون : « **من ماء** » أى من نطفة . قال النقاش : أراد أمنية الذكور . وقال جمهور النظار : أراد أن خلقه كل حيوان فيها ماء كما خلق آدم من المساء والطين ؛ وعلى هذا يخرج قول النبي صلى الله عليه وسلم للشيخ الذي سأله في غزاة بدر : بمن أتيا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **نحن من ماء** » . الحديث . وقال قوم : لا يستثنى الجن والملائكة ، بل كل حيوان خلق من المساء ؛ وخلق النار من المساء ، وخلق الريح من المساء ؛ إذ أول ما خلق الله تعالى من السالم المساء ، ثم خلق منه كل شيء .

(١) راجع ج ٢ ص ١٩٦ طبة ثانية . (٢) راجع ج ١٠ ص ٢٣ وما بعدها .

قلت : ويدل على صحة هذا قوله تعالى : « فَبَشِّرْهُم مِّنْ يَّمْشِي عَلَىٰ عَظَمَيْهِ » المشي على البطن للحيات والحوت ، ونحوه من الدود وغيره . وعلى الرجلين للإنسان والطير إذا مشى . والأربع لسائر الحيوان . وفي مصحف أبي « ومنهم من يمشي على أكثر » ، نعم بهذه الزيادة جميع الحيوان كالسرطان والحيات ، ولكنه قرآن لم يشته إجماع ، لكن قال النقاش : إنما اكتنى على القول بذكر ما يمشي على أربع من ذكر ما يمشي على أكثر ؛ لأن جميع الحيوان إنما اعتماده على أربع ، وهي قوائم مشيه ، وكثرة الأرجل في بعضه زيادة في خلقته ، لا يحتاج ذلك الحيوان في مشيه إلى جميعها ، قال ابن عطية : والظاهر أن تلك الأرجل الكثيرة ليست باطلا بل هي محتاج إليها في تنقل الحيوان ، وهي كلها تتحرك في تصرفه . وقال بعضهم : ليس في الكتاب ما يمنع من المشي على أكثر من أربع ؛ إذ لم يقل ليس منها ما يمشي على أكثر من أربع . وقيل فيه إضمار : ومنهم من يمشي على أكثر من أربع ؛ كما وقع في مصحف أبي . والله أعلم . و« ذَاتَهُ » تشمل من يعقل وما لا يعقل ؛ فغلب من يعقل لما اجتمع مع من لا يعقل ؛ لأنه المخاطب والمتعبد ؛ ولذلك قال « فمنهم » . وقال « من يمشي » فأشار بالاختلاف إلى شئوث الصانع ؛ أي لولا أن لجميع صانها عتسارا لما اختلفوا ؛ بل كانوا من جنس واحد ؛ وهو كقوله : « يُنْسَقُ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَتُفَضَّلُ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٌ » . « يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » . « لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » تقدم بيانه في غير موضع .

قوله سأل : وَيَقُولُونَ ءَأَمَّنَا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : (وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ) بنى المنافقين ، يقولون بالسلم آمنا بالله وبالرسول من غير يقين ولا إخلاص . (وَأَعْلَنَّا) أى ويقولون ، وكذبوا . (ثُمَّ يَتَوَلَّى فِرْيَاقٌ مِنْهُمْ) يَبْدُ ذَلِكَ وَمَا أَوْلَيْكَ الْمُؤْمِنِينَ .

قوله تعالى : (وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ) (١٨) (وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ) (١٩) (إِنْ قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ أَرْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (٢٠)

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ) قال الطبري وفيه : إن وجلا من المنافقين أحسه بشر كانت بينه وبين رجل من اليهود خصومة في أرض ، فدعاه اليهودى إلى الحاكم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان المنافق مبطلا ، فأبى من ذلك وقال : إن محمدا يحيف علينا ، فلنحكم كعب بن الأشرف ، فقرئت الآية فيه . وقيل : نزلت في المغيرة بن وائل من بني أمية ، كان بينه وبين علي بن أبي طالب رضى الله عنه خصومة في ماء وأرض فامتنع المغيرة أن يحاكم عليا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : إنه يبيضي في قرئت الآية ، ذكره الماوردي . وقال : « ليحكم » ولم يقل ليحكم لأن المعنى به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإنما بدأ بذكر الله إعظاما له واستفتاح كلام .

الثانية - قوله تعالى : (وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ) أى طائعين متقادين ، لعلمهم أنه عليه السلام يحكم بالحق . يقال : أذعن فلان لحكم فلان يذعن إذعانا وقال النقاش : « مذعنين » خاضعين ، مجاهد : مسرعين . الأخفش وآبن الأعرابي : مُذْرِنِينَ . (إِنْ قُلُوبُهُمْ مَرَضٌ) شك ورَّيب . (أَمْ أَرْتَابُوا) أَمْ حَدَّثَ لَهُمْ شَكٌّ فِي نَبْوَتِهِ

وعده . (أَمْ يَتَفَقَهُونَ أَنَّ يَحْيَىٰ اللَّهُ عَلَيْهِمُ وَرَسُولُهُ) أى يجوز فى الحكم والظلم . وآتى بلفظ الاستفهام لأنه أشد فى التوبيخ وأبلغ فى الذم ؛ كقول جرير فى المدح :
 أَلَسْتُ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا . وَأَتَى الْعَالَمِينَ تُكُونُ رَاجِ
 (بَلْ أَوَّلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) أى المماندون الكافرون ؛ لإعراضهم عن حكم الله تعالى .

الثالثة - القضاء يكون للسامين إذا كان الحكم بين المتعاهد والمسلم ولا حق لأهل الذمة فيه . وإذا تنازع بين ذميين فذلك إليهما . فإن جاء قاضى الإسلام فإن شاء حكم وإن شاء أعرض ؛ كما تقدم فى « المسألة » .

الرابعة - هذه الآية دليل على وجوب إجابة الداعى إلى الحاكم لأن الله سبحانه ذم من دعى إلى رسوله ليحكم بينه وبين خصمه بأقبح الذم فقال : « أَفَى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » الآية . قال ابن خزيمة متداد : واجب على كل من دعى إلى مجلس الحاكم أن يجيب ، ما لم يعلم أن الحاكم فاسق ، أو صداوة بين المدعى والمتدعى عليه . وأسند الزهراوى عن الحسن ابن أبى الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من دعاه خصمه إلى حاكم من حكام المسلمين فلم يجيب فهو ظالم ولا حق له » . ذكره الماوردى أيضا . قال ابن العرى : وهذا حديث باطل ، فأما قوله « فهو ظالم » فكلام صحيح ، وأما قوله « فلا حق له » فلا يصح ، ويحتمل أن يريد أنه على غير الحق .

قوله تعالى : (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا) وَأَوَّلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١)

قوله تعالى : (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ) أى إلى كتاب الله وحكم رسوله . (أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا) قال ابن عباس : أخبر بطاعة المهاجرين والأنصار ، وإن كان ذلك فيما يكرهون ؛ أى هذا قولهم ، وهؤلاء لو كانوا مؤمنين لكانوا

يقولون سمعنا وأطعنا . فالقول نصب على خبر كان ، واسمها في قوله « ان يقولوا » نحو
 « وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا » . وقيل : إنما قول المؤمنين ، وكان
 صلة في الكلام ، كقوله تعالى : « كَيْفَ نُنَكِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا » . وقرأ ابن القعقاع
 « لِيُجِئَكُمْ بِهِمْ » غير مسحى الفاعل . على بن أبي طالب « إنما كان قول » بالرفع .

قوله تعالى : وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَحْشَ أَلَّهُ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ
 هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) نيا امر به وحكم . (وَيَحْشَ أَلَّهُ وَيَتَّقِهِ)
 قرأ حفص « وَيَتَّقِهِ » بإسكان القاف على نية الجزم ، قال الشاعر :
 وَمَنْ يَتَّقِ فَإِنَّ اللَّهَ مَعَهُ « وَيَزُقُّ اللَّهَ مُؤْتَابٌ وَغَايِي

وكسرهما الباقيون ، لأن جزمه يحذف آخره . وأسكن الهاء أبو عمرو وأبو بكر . واختس
 الكسرة يعقوب . وقالون عن نافع والسنن عن أبي عمرو وحفص . وأشج كسرة الهاء الباقيون
 (فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) ذكر أسلم أن عمر بن الخطاب هو قائم في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم
 وإذا رجل من دهاقين الروم قائم على رأسه وهو يقول : أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد
 أن محمدا رسول الله . فقال له عمر : ما شأنك ؟ قال : أسلمت لله . قال : هل لهذا سبب !
 قال : نعم ! إني قرأت التوراة والإنجيل وكتبنا من كتب الأنبياء ، فسمعت أسيا
 يقرأ آية من القرآن جمع فيها كل ما في الكتب المتقدمة ، فعلمت أنه من عند الله فأسلمت .
 قال : ما هذه الآية ؟ قال قوله تعالى : « وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ فِي الْفَرَائِضِ وَرَسُولَهُ » في السنن
 « وَيَحْشَ أَلَّهُ » فيما مضى من عمره « وَيَتَّقِهِ » فيما بقي من عمره « فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ » والفائز
 من نجا من النار وأدخل الجنة . فقال عمر : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أَوْثِقْتُ

جوامع الكلم » .

قوله تعالى : **وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتُمْ لَيَخْرُجُنَّ**
قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : **(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ)** عاد إلى ذكر المنافقين ، فإنه لما بين كراهتهم لحكم النبي صلى الله عليه وسلم أتوه فقالوا : والله لو أمرتنا أن نخرج من ديارنا ونفسائنا وأموالنا لخرجنا ، ولو أمرتنا بالجهاد لجاهدنا ؛ فنزلت هذه الآية . أى طاعة ما قدروا أن يفعلوا . يخرجون معك في المستأنف ويطيعون . **(جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ)** أى طاعة ما قدروا أن يفعلوا . وقال مقاتل : من حلف بالله فقد أجهد في اليمين . وقد مضى في « الأنعام » بيان هذا . و « جَهْدٌ » منصوب على مذهب المصدر تقديره : إقساما بليغا . **(قُلْ لَا تُقْسِمُوا)** وتم الكلام . **(طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ)** أولى بكم من أيمانكم ، أو ليكن منكم طاعة معروفة ، وقول معروف بإخلاص القلب ، ولا حاجة إلى اليمين . وقال مجاهد : المعنى قد صُرفت طاعتكم وهي الكذب والتكذيب ؛ أى المعروف منكم الكذب دون الإخلاص . **(إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)** من طاعتكم بالقول وعملاتكم بالفعل .

قوله تعالى : **قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ** ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : **(قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)** بإخلاص الطاعة وترك النفاق . **(فَإِنْ تَوَلَّوْا)** أى فإن تولَّوْا ، لحذف إحدى التامين . ودل على هذا أن بعده « وعليكم » ولم يقل وعليهم . **(فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ)** أى من تبليغ الرسالة . **(وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ)** أى من الطاعة له ؛ من ابن عباس وغيره . **(وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا)** جعل الانتهاء مقرونا بطاعته . **(وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ)** أى التبليغ (المبين) .

قوله تعالى : وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾

نزلت في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ؛ قاله مالك ، وقيل : إن سبب هذه الآية أن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم شكّا جهّد مكافأة المدوّ، وما كانوا فيه من الخوف على أنفسهم ، وأنهم لا يضعون أسلحتهم ؛ فنزلت الآية . وقال أبو العالية : مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عشر سنين بعدما أوحى إليه خائفًا هو وأصحابه ، يدهون إلى الله سرًّا وجهرًا ، ثم أمر بالمجرة إلى المدينة ، وكانوا فيها خائفين يصبحون ويمسون في السلاح . فقال رجل : يا رسول الله ، أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح ؟ فقال عليه السلام : " لا تلبثون إلا يسيرًا حتى يجلس الرجل منكم في الملاّ العظيم عُتَيًّا ليس عليه حديدة " ، وزيّفت هذه الآية ، وأظهر الله نبيّه على جزيرة العرب فوضعوا السلاح وأمنوا . قال النحاس : فكان في هذه الآية دلالة على نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الله جل وعزّ أنجز ذلك الوعد . قال الضحاك في كتاب النقاش : هذه تتضمن خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلّ ؛ لأنهم أهل الإيمان وعملوا الصالحات . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الخلافة بعدى ثلاثون " . وإلى هذا القول ذهب ابن العربي في أحكامه ، وأخاره وقال : قال علماؤنا هذه الآية دليل على خلافة الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم ، وأن الله استخلفهم ورضى أمانيهم ، وكانوا على الدّين الذي ارتضى لهم ، لأنهم لم يتقدمهم أحد في الفضيلة إلى يومنا هذا ، فأستقر الأمر لهم ، وقاموا بسياسة المسلمين ، وذبّوا عن حوزة الدّين ؛ فنفذ الوعد فيهم ، وإذا لم يكن هذا الوعد لهم تجزّ ، وفيهم نفذ ، وعليهم وردّ ، ففيم يكون إذا ، وليس بعدم مثلهم إلى يومنا هذا ، ولا يكون فيما بعده . رضي الله عنهم . وحكي هذا القول القشيري عن

ابن عباس . واحتجوا بما رواه سفيانة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً " . قال سفيانة : أمسك [عليك] خلافة أبي بكر ستين ، وخلافة عمر عشرين ، وخلافة عثمان ثلثي عشرة سنة ، وخلافة علي ستاً . وقال قوم : هذا وعد لجميع الأمة في ملك الأرض كلها تحت كلمة الإسلام ، كما قال عليه الصلاة والسلام : " زُوِيَتْ لِي الْأَرْضُ فَرَأَيْتُ مِشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَسَبِيلَ مَلِكٍ أَمْنِي مَا زُوِيَتْ لِي مِنْهَا " . واختار هذا القول ابن عطية في تفسيره حيث قال : والصحيح في الآية أنها في استغلاف الجهور ، واستغلافهم هو أن يملكهم البلاد ويعملهم أهلها ، كالذي جرى في الشام والعراق ونراسان والمغرب . قال ابن العربي : قلنا لم هذا وعد عام في النبوة والخلافة وإقامة الدعوة وعموم الشريعة ، فنفذ الوعد في كل أحد بقدره وعلى حاله ، حتى في المفتين والقضاة والأئمة ، وليس للخلافة محل تنفذ فيه الموعدة الكريمة إلا من تقدم من الخلفاء . ثم ذكر اعتراضاً وانفصالاً معناه : فإن قيل هذا الأمر لا يصح إلا في أبي بكر وحده ، فأما عمر وعثمان فقتلًا غيلةً ، وعليّ قد توزع في الخلافة . قلنا : ليس في ضمن الأمن السلامة من الموت بأي وجه كان ، وأما عليّ فلم يكن نزاله في الحرب مُدْهِباً للأمن ، وليس من شرط الأمن رفع الحرب إنما شرطه ملك الإنسان لنفسه باختياره ، لا كما كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بمكة . ثم قال في آخر كلامه : وحقيقة الحال أنهم كانوا مقهورين فصاروا قاهرين ، وكانوا مطلوبين فصاروا طالبين ، فهذا نهاية الأمن والعز .

قلت : هذه الحال لم تختص بالخلفاء الأربعة رضى الله عنهم حتى يُخصَّصوا بها من عموم الآية ، بل شاركهم في ذلك جميع المهاجرين بل وغيرهم . ألا ترى إلى إغراء قريش المسلمين في أحد وغيرها وخاصة النخندق ، حتى أخبر الله تعالى عن جميعهم فقال : « إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ قَوْفِكُمْ مِنْ أَسْفَلِ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَوُزِّلُوا لَزُلْزَلًا شَدِيدًا » . ثم إن الله رد الكافرين لم ينالوا خيراً ، وأقن

(١) زيادة عن ابن العربي . وانقلاب لسعد بن حذاف دارى الحديث عن سفيانة .

(٢) آية ١٠ وما بعدها سورة الأحزاب .

المؤمنين وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم ، وهو المراد بقوله : « لَيْسَتْخِلْفَتَهُمْ فِي الْأَرْضِ » . وقوله « كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » ، يعني بنى إسرائيل ، إذ أهلك الله الجبارة بمصر ، وأورثهم أرضهم وديارهم فقال : « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا » . وهكذا كان الصعابة مستضعفين خائفين ، ثم إن الله تعالى أنعمهم ومكنهم وملكتهم ، فصيح أن الآية هاتمة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم غير مخصوصة ؛ إذ الشخص لا يكون إلا بخبر ممن يجب [له] التسليم ، ومن الأصل المعلوم التسك بالعموم . وجاء في معنى تبديل خوفهم بالأمن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال أصحابه : أما باقى علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح ؟ فقال عليه السلام : " لا تلبثون إلا قليلا حتى يجلس الرجل منك في الملأ العظيم محتثيا ليس عليه حديدة " . وقال صلى الله عليه وسلم : « وَاللَّهِ لَيُئْمِنَنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَّابُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذُّبَّ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنْ تَسْتَعْمِلُونَ » . نرجه مسلم في صحيحه ؛ فكان كما أخبر صلى الله عليه وسلم . فالآية معجزة ، النبوة ؛ لأنها إخبار عما سيكون فكان .

قوله تعالى : « لَيْسَتْخِلْفَتَهُمْ فِي الْأَرْضِ » فيه قولان : أحدهما — مبنى أرض مكة ، لأن المهاجرين سألوا الله تعالى ذلك فوعدوا كما وعدت بنو إسرائيل ؛ قال معناه النقاش . الثانى — بلاد العرب والعجم . قال ابن العربي : وهو الصحيح ؛ لأن أرض مكة محزومة على المهاجرين ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : " لَكِنَّ الْبَائِسُ سَعْدُ بْنُ خُوَلَةَ " ، روى له رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مات بمكة ، وقال في الصحيح أيضا : " يَمُوتُ الْمُهَاجِرُ بِمَكَّةَ بَعْدَ قِضَاءِ نَسَكِهِ ثَلَاثًا " . واللام في « لَيْسَتْخِلْفَتَهُمْ » جواب قسم مضمر ؛ لأن الوعد قول ، مجازها ؛ قال الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات والله ليستخلفتهم في الأرض فيجعلهم ملوكها وسكانها . « كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » يعني بنى إسرائيل ، أهلك الجبارة بمصر والشام وأورثهم أرضهم وديارهم . وقراءة العامة « كَمَا اسْتَخْلَفَ » بفتح التاء واللام ؛ لقوله « وَوَعَدَ » . وقوله « لَيْسَتْخِلْفَتَهُمْ » . وقرأ عيسى بن عمر وأبو بكر والمفضل عن عاصم « اسْخُلِفَ » بضم

الناء وكسر اللام على الفعل المجهول . (وَلَيْسَ كُنْتُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ) وهو الإسلام ؛ كما قال تعالى : « وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » وقد تقدم . وروى سليم بن عاصم عن المقداد ابن الأسود قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما على ظهر الأرض بيت حجر ولا مدر إلا أدخله الله كلمة الإسلام يعز عزيزاً أو ذلّ ذليل أما بعزم فيجعلهم من أهلها وأما بنظم فيدينون بها » . ذكره الماوردي حجة لمن قال : إن المراد بالأرض بلاد العرب والعجم ؛ وهو القول الثاني ، على ما تقدم آنفاً . (وَلَيْسَ دِينُهُمْ) قرأ ابن عُيَيْنَةَ وابن كثير ويقوب وأبو بكر بالتخفيف ؛ من أبدل ، وهي قراءة الحسن ، واختار أبي حاتم . الباقون بالتشديد ؛ من بدل ، وهي اختيار أبي عبيد ، لأنها أكثر ما في القرآن ، قال الله تعالى : « لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ » . وقال : « وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً » ونحوه ، وهما لفتان . قال النحاس : وحكى محمد بن الجهم عن القراء قال : قرأ عاصم والأعمش « وليبدلهم » مشددة ، وهذا غلط على عاصم ؛ وقد ذكر بعده غلطاً أشد منه ، وهو أنه حكى عن سائر الناس التخفيف . قال النحاس : وزعم أحمد بن يحيى أن بين التثقيف والتخفيف فرقا ، وأنه يقال : بقلته أى غيرته ، وأبدلته أزلته وجعلت غيره . قال النحاس : وهذا القول صحيح ؛ كما تقول : أبدل لى هذا الدرهم ، أى أزله وأعطى غيره . وتقول : قد بدلت بعدنا ، أى غيرت ؛ غير أنه قد يستعمل أحدهما موضع الآخر ، والذي ذكره أكثر . وقد مضى هذا في « النساء » والحمد لله ، وذكرنا في سورة « إبراهيم » الدليل من السنة على أن بدل بمعنى إزالة العين ؛ فتأمله هناك . وقرأ « عَمَى رَبَّنَا أَنْ يُبدِّلَنَا » مخففاً ومثقلاً . (يُبدِّلُونِي) هو في موضع الحال ؛ أى في حال عبادتهم الله بالإخلاص . ويجوز أن يكون استثناء على طريق التثناء عليهم . (لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا) فيه أربعة أقوال : أحدها — لا يعبدون إلهاً غيرى ، حكاه النقاش . الثاني — لا يراءون بعبادتي أحداً . الثالث — لا يخافون غيرى ؛ قاله ابن عباس . الرابع — لا يميّون غيرى ؛ قاله مجاهد . (وَنَ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ) أى بهذه النعم . والمراد بكفران النعمة ؛ لأنه قال تعالى (فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) والكافر بالله فاسق بعد هذا الإنعام وقيله .

(١) راجع ج ٦ ص ٦٣ (٢) راجع ج ٥ ص ٢٥٤ (٣) راجع ج ٩ ص ٣٨٢ (٤) آية ٣٢ سورة الفلم .

قوله تعالى : **وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴿٢٣٨﴾

تقدم ، فأعاد الأمر بالعبادة تأكيداً .

قوله تعالى : **لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ**
النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿٢٣٩﴾

قوله تعالى : **(لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا)** هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ووعد بالنعرة . وقراءة العامة « **تَحْسَبَنَّ** » بالناء خطا . وقرأ ابن عاصم وحمة وأبو حيوة « **يَحْسَبَنَّ** » بالياء ، بمعنى لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم معجزين الله في الأرض ؛ لأن الحسبان يتعدى إلى مفعولين . وهذا قول الزجاج . وقال الفراء وأبو علي : يجوز أن يكون الفعل النبي صلى الله عليه وسلم ، أى لا يحسبن عهد الذين كفروا معجزين في الأرض ، فـ « **الذين** » مفعول أول ، و « **معجزين** » مفعول ثان . وعمل القول الأول « **الذين كفروا** » فاعل « **أنفسهم** » مفعول أول ، وهو محذوف مراد « **معجزين** » مفعول ثان . قال النحاس : وما علمت أحدا من أهل العربية بصيراً ولا كوفيّاً إلا وهو يخطئ قراءة حمزة ؛ فهم من يقول : هي لمن ؛ لأنه لم يأت إلا بمفعول واحد ليحسبن . ومن قال هذا أبو حاتم . وقال الفراء : هو ضعيف وأجازه على ضعفه ، على أنه يحذف المفعول الأول ، وقد بيناه . قال النحاس : وسمعت على بن سليمان يقول في هذه القراءة : يكون « **الذين كفروا** » في موضع نصب . قال : ويكون المعنى ولا يحسبن الكافر الذين كفروا معجزين في الأرض .

قلت : وهذا موافق لما قاله الفراء وأبو علي ؛ لأن الفاعل هناك النبي صلى الله عليه وسلم . وفي هذا القول الكافر . و « **معجزين** » معناه فائزين . وقد تقدم . **(وَمَا لَهُمُ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ)** أى المرجع .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ
وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ
وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ
عَوْرَاتٍ لَكُمُ نَيْسٌ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوْفُونَ عَلَيْكُمْ
بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٩﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى - قال العلماء ، هذه الآية خاصة والتي قبلها عامة ؛ لأنه قال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَأَلُوا عَلَى أَهْلِهَا » ثم خص هنا فقال :
« لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » نخص في هذه الآية بعض المستأذنين ، وكذلك أيضا
يتناول القول في الأولى في جميع الأوقات عموما . وخص في هذه الآية بعض الأوقات ،
فلا يدخل فيها عبد ولا أمة ؛ وغدا كان أو ذا منظر إلا بعد الاستئذان . قال مقاتل : نزلت
في أسماء بنت مرثد ، دخل عليها غلام لما كبير ، فأشنتك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛
فنزلت عليه الآية . وقيل : سبب زولها دخول مدبج على عمر ؛ وسيأتي .

الثانية - اختلف العلماء في المراد بقوله تعالى « لِيَسْتَأْذِنَكُمْ » على ستة أقوال :

الأول - أنها منسوخة ؛ قاله ابن المسيب وابن جبير .

الثاني - أنها ندب غير واجبة ؛ قاله أبو قلابة ، قال : إننا أمرنا بهذا نظرا لهم .

الثالث - عنى بها النساء ؛ قاله أبو عبد الرحمن السلمي . وقال ابن عمر : هي في الرجال
دون النساء . وهو القول الرابع .

الخامس - كان ذلك واجبا ، إذ كانوا لا غلق لهم ولا أبواب ، ولو عاد الحال لعاد
الوجوب ؛ حكاه المهدوي عن ابن عباس .

السادس - أنها حكمة واجبة ثابتة على الرجال والنساء، وهو قول أكثر أهل العلم، منهم
 القاسم وجابر بن زيد والشَّعْبِيّ - وأضعفها قول السُّلَمِيِّ - لأن «الذين» لا يكون للنساء في كلام
 العرب، إنما يكون للنساء «اللاتي واللاتي» . وقول ابن عمر يستحسنه أهل النظر، لأن
 «الذين» للرجال في كلام العرب، وإن كان يجوز أن يدخل معهم النساء فإنما يقع ذلك
 بدليل، والكلام على ظاهره، غير أن في إسناده ثبوت بن أبي سليم . وأما قول ابن عباس
 فروى أبو داود عن عبيد الله بن أبي يزيد سمع ابن عباس يقول : آية لم يؤمر بها أكثر
 الناس آية الاستئذان وإنى لأمر جاريتي هذه تستأذن عليّ . قال أبو داود : وكذلك رواه
 عطاء عن ابن عباس «يامر به» . وروى عكرمة أن نقرا من أهل العراق قالوا : يا بن عباس،
 كيف ترى في هذه الآية التي أمرنا فيها بما أمرنا ولا يحمل بها [أحد]، قول الله عز وجل
 «يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات
 من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات
 لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم» . قال أبو داود : فرأى القعنيّ إلى
 «عليهم حكمهم» قال ابن عباس : إن الله حلّم رحيماً بالمؤمنين يحبّ السرّ، وكان الناس ليس
 ليوتهم سُور ولا حِجَال، فربما دخل الخادم أو الولد أو يئمة الرجل والرجل على أهله،
 فأمرهم الله بالاستئذان في تلك العورات، فجاءهم الله بالستور والخير، فلم أر أحدا يعمل
 بذلك [بسد] .

قلت : هذا متن حسن، وهو يرد قول سعيد وابن جبير؛ فإنه ليس فيه دليل على نسخ
 الآية، ولكن على أنها كانت على حال ثم زالت، فإن كان مثل ذلك الحال فحكمها قائم كما كان،
 بل حكمها لليوم ثابت في كثير من مساكن المسلمين في البوادي والصحارى ونحوها . وروى

(١) في تهذيب التهذيب : «قال ابن حبان اختلط في آخر عمره، فكان يقلب الأسانيد ويرفع المراسيل» وروى
 من الثقات بما ليس من حديثهم . وقال الزوار : كان أحد العبّاد، إلا أنه أصابه اختلاط فاضطرب حديثه... الخ .
 (٢) زيادة من سنن أبي داود . (٣) الجبال : جمع الجبل (بالضربك) وهو جبل كالقائمة يسر بالتياب
 ويكون له أزداد بكاء .

وَكَيْعَ عَنْ مَفِيَّانٍ عَنْ مُوسَى بْنِ أَبِي عَاشِشَةَ عَنْ الشَّعْبِيِّ «يَأْيَسَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» قَالَ : لَيْسَتْ بِمَنْسُوخَةٍ . قُلْتُ : إِنْ النَّاسُ لَا يَعْمَلُونَ بِهَا ، قَالَ : اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُسْتَعَانُ

الثالثة - قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : إِنْ الْإِسْتِئْذَانُ ثَلَاثًا مَا خُوِذَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى «يَأْيَسَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَلْفَوْا الْحِلْمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ» قَالَ يُزِيدُ : ثَلَاثَ دَفْعَاتٍ . قَالَ : فَوَرَدَ الْقُرْآنُ فِي الْمَالِكِ وَالصَّبِيَّانِ ، وَسُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْجَمِيعِ . قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ : مَا قَالَهُ مِنْ هَذَا وَإِنْ كَانَ لَهُ وَجْهٌ فَإِنَّهُ غَيْرُ مَعْرُوفٍ عَنِ الْعُلَمَاءِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ الَّتِي تَرَعَّ بِهَا ، وَالَّذِي عَلَيْهِ جَمْعُهُمْ فِي قَوْلِهِ «ثَلَاثَ مَرَّاتٍ» أَيْ فِي ثَلَاثِ أَوْقَاتٍ . وَيَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ هَذَا الْقَوْلِ ذِكْرُهُ فِيهَا «مَنْ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظُّهْرِ وَمَنْ بَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ» .

الرابعة - أَذَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِبَادَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِأَنْ يَكُونَ الْعَبِيدُ إِذْ لَا بَالَ لَهُمْ ، وَالْأَطْفَالُ الَّذِينَ لَمْ يَلْفَوْا الْحِلْمَ إِلَّا أَنَّهُمْ عَقَلُوا مَعَانِيَ الْكَشْفَةِ وَنَحْوَهَا ، يَسْتَأْذِنُونَ عَلَى أَهْلِهِمْ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ الثَّلَاثَةِ ، وَهِيَ الْأَوْقَاتُ الَّتِي تَقْتَضِي عَادَةَ النَّاسِ الْإِتِّكَافَ فِيهَا وَمَلَازِمَةَ التَّعَرَّى . فَمَا قَبْلَ الْفَجْرِ وَقْتُ انْتِهَاءِ النَّوْمِ وَقْتُ اخْتِرَاجِ مَنْ ثِيَابِ النَّوْمِ وَلبسِ ثِيَابِ النَّهَارِ . وَقْتُ الْقَائِلَةِ وَقْتُ التَّجَوُّدِ أَيْضًا وَهِيَ الظُّهْرُ ، لِأَنَّ النَّهَارَ يَظْهَرُ فِيهَا إِذَا عَلَا شَعَامُهُ وَأَشْتَدَّ حَرُّهُ . وَبَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ وَقْتُ التَّعَرَّى لِلنَّوْمِ ، فَاتَّكَشَفَ غَالِبٌ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ . يَرَوِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ فُلَامًا مِنَ الْأَنْصَارِ بِقَالَ لَهُ مُدْبِجٌ إِلَى عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ ظَهِيرَةً لِيَدْعُوهُ ، فَوَجَدَهُ نَائِمًا قَدْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ الْبَابَ ، فَدَقَّ عَلَيْهِ التَّلَامُ الْبَابَ فَتَادَاهُ وَدَخَلَ ، فَاسْتَقْبَلَ عَمْرٌ وَجَلَسَ فَاتَّكَشَفَ مِنْهُ شَيْءٌ ، فَقَالَ عَمْرٌ : وَدِدْتُ أَنَّ اللَّهَ نَهَى أَبْشَاءَنَا وَنِسَاءَنَا وَخُدَمَنَا عَنِ الدَّخُولِ عَلَيْنَا فِي هَذِهِ السَّاعَاتِ إِلَّا بِإِذْنٍ ، ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَجَدَهُ هَذِهِ الْآيَةَ قَدْ أُنْزِلَتْ ، فَخَرَّ سَاجِدًا شَكَرًا لِلَّهِ . وَهِيَ مَكِّيَّةٌ .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ﴾ أى الذين لم يحتلوا من أحراركم ، قاله مجاهد . وذكر إسماعيل بن إسحاق كأن يقول : ليستأذنكم الذين لم يبلغوا الحلم مما ملكتم أيمانكم ، على التقديم والتأخير ، وأن الآية في الإمام . وقرأ الجمهور بضم اللام ، وسكتها الحسن بن أبى الحسن لنقل الضمة . وكان أبو عمرو يستحسنها . و « ثلاث مرآت » نصب على الظرف ، لأنهم لم يؤمروا بالاستئذان ثلاثا ، إنما أمروا بالاستئذان في ثلاثة مواطن ، والظرفية في « ثلاث » بيّنة : من قبل صلاة الفجر ، وحين تَصْعُون ثيابكم من الطهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء . وقد مضى معناه . ولا يجب أن يستأذن ثلاث مرآت في كل وقت . ﴿ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ ﴾ قرأ جمهور السبعة « ثلاثُ عَوْرَاتٍ » برفع « ثلاث » . وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم « ثلاثُ » بالنصب على البدل من الظرف في قوله « ثلاثُ مرآت » . قال أبو حاتم : النصب ضعيف مرصود . وقال الفراء : الرفع أحب إلى . قال : وإنما آخرت الرفع لأن المعنى : هذه الخصال ثلاثُ عورات . والرفع عند الكسائي بالابتداء ، والخبر عنده ما بعده ، ولم يقل بالعائد ، وقال نصبا بالابتداء . قال : والعورات الساعات التي تكون فيها العورة ، إلا أنه قرأ بالنصب ، والنصب فيه قولان : أحدهما - أنه مردود على قوله « ثلاثُ مرآت » ؛ ولهذا استبعده الفراء . وقال الزجاج : المعنى ليستأذنكم أوقات ثلاث عورات ؛ لحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . و « عَوْرَات » جمع عَوْرَة ، وبابه في الصحيح أن يبيىء على فملات (فتح العين) بحَقْفَةِ وَجْفَتَا ، ونحو ذلك ، وسكنوا العين في المُتَلِّ كَبَيْضَةِ وَبَيْضَاتٍ ؛ لأن فتحه داح إلى احتلاله فلم يفتح لذلك ؛ فأما قول الشاعر :

أَبُو بَيْضَاتٍ رَائِحٌ مُتَاوَبٌ * رَفِيقٌ بِمَسْحِ الْمُنْكِبَيْنِ سَبُوحٌ

[فشاذ] .

(١) كذا في نسخ الأصل ، وظاهر أن في العبارة سقطا .

(٢) كذا في اللسان مادة « بيض » . والى في نسخ الأصل : ر

أبو بيضات رائح أو مُتَد * جعلان إذا زاد وعبر مرقد

وهذا البيت الثانية الدياني ، وصواب إنشاده : أمن آل مئة رائح أو مُتَد * الخ

السادسة - قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ﴾ أى فى الدخول من غير أن يستأذنوا وإن كنتم متبذلين . (طَوَافُونَ) بمعنى هم طوافون . قال الفراء : كقولك فى الكلام إنما هم خدمكم وطوافون عليكم . وأجاز الفراء نصب « طوافين » لأنه نكرة ، والمضمر فى « عليكم » معرفة . ولا يميز البصريون أن يكون حالا من المضمرين اللذين فى « عليكم » وفى « بعضكم » لأختلاف العاملين . ولا يجوز مررت بزيد ونزلت على عمرو المأفئين ، على التثنية . فمضى « طَوَافُونَ عليكم » أى يطوفون عليكم وتطوفون عليهم ؛ ومنه الحديث فى الحزبة « إنما هى من الطوافين عليكم أو الطوافات »^(١) . فنع فى الثلاث العورات من دخولهم علينا ؛ لأن حقيقة العورة كل شئ لا مانع دونه ، ومنه قوله « إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ » أى سهلة للدخول ، فبين العلة الموجبة للإذن ، وهى الخلوة فى حال العورة ؛ فنعين أمثاله ونعذر نفسه . ثم رفع الجناح بقوله « لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ » أى يطوف بعضكم على بعض . (كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ) الكاف فى موضع نصب ؛ أى بين الله لكم آياته الدالة على متعبداته بيانا مثل ما بين لكم هذه الأشياء . (وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)^(٢) تقدم .

السابعة - قوله تعالى : ﴿ وَبَيْنَ يَدَيْ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ﴾ يريد التمتة . وفى صحيح مسلم من عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا تغلبنكم الأعراب على أسم صلاتكم ألا إنها العشاء وهم يعمون بالإبل . وفى رواية « فإنها فى كتاب الله العشاء وإنها نعيم يجلب الإبل » . وفى البخارى عن أبى برة : كان النبي صلى الله عليه وسلم يؤثر العشاء . وقال أنس : أخر إلى صلى الله عليه وسلم العشاء . وهذا يدل على العشاء الأول . وفى الصحيح : فصلاها ، يعنى العصر بين العشاءين المغرب والعشاء . وفى الموطأ وغيره : ولو صلحوا ما فى التمتة والصبح لأتوهما ولو حبوا . وفى مسلم عن جابر

(١) قوله « أو الطوافات » يحتمل أن يكون على معنى النك من الزارى . ويحتمل أن يكون صلى الله عليه وسلم قال ذلك ، يريد أن هذا الحيوان لا يعلم أن يكون من حلة المذكور الطوافين أو الإناث الطوافات (عن الباقى) .

(٢) (٢) وأرجع ١ ص ٢٨٧ طبع ثانية أرفأة .

أَبْنِ سَمُرَةَ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصِلُ الصَّلَاةَ نَحْوًا مِنْ صَلَاتِكُمْ ، وَكَانَ يُؤَخِّرُ الْعَتَمَةَ بَعْدَ صَلَاتِكُمْ شَيْئًا ، وَكَانَ يُحْتَفِ الصَّلَاةَ . قَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْعَرَبِيِّ : وَهَذِهِ أَخْبَارٌ مُتَعَارِضَةٌ ، لَا يُعْلَمُ مِنْهَا الْأَوَّلُ مِنَ الْآخِرِ بِالتَّارِيخِ ، وَنَهَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ تَسْمِيَةِ الْمَغْرِبِ عِشَاءً وَعَنْ تَسْمِيَةِ الْعِشَاءِ عَتَمَةً ثَابِتًا ، فَلَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ فَضْلًا عَنْ عِدَاهِمُ . وَقَدْ كَانَ أَبُو عَمْرٍو يَقُولُ : مَنْ قَالَ صَلَاةَ الْعَتَمَةِ فَقَدْ أَثِمَ . وَقَالَ أَبُو النَّعَمِ قَالَ مَالِكٌ : « وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ » فَاللهُ سَمَّاها صَلَاةَ الْعِشَاءِ فَأَحَبَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تَسْمَى بِمَا سَمَّاها اللهُ تَعَالَى بِهِ ، وَيَسَمِّيها الْإِنْسَانُ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ ، وَلَا يَقَالُ عَتَمَةً إِلَّا عِنْدَ خُطَابٍ مَنْ لَا يَفْهَمُ .
وَقَدْ قَالَ حَسَّانُ :

وَكَاثَتْ لَا يَزَالُ بِهَا أَنْيَسُ • خَلَّالَ مُرُوجِهَا تَمَّ وَشَاءُ

فَدَعُ هَذَا وَلَكِنْ مَنْ لَطِيفٌ • يُؤْزِقِي إِذَا ذَهَبَ الْعِشَاءُ

وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ هَذَا النَّبِيَّ عَنْ أَتْبَاعِ الْأَعْرَابِ فِي تَسْمِيَتِهِمُ الْعِشَاءَ عَتَمَةً ، إِنَّمَا كَانَ لِأَنَّهُ لَا يُدْرِكُ بِهَا عَمَّا سَمَّاها اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ إِذْ قَالَ : « وَمَنْ بَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ » ، فَكَانَتْ تَهْتِ إِرْشَادًا إِلَى مَا هُوَ الْأَوَّلُ ، وَلَيْسَ عَلَى جِهَةِ التَّحْرِيمِ ، وَلَا عَلَى أَنَّ تَسْمِيَتَهَا الْعَتَمَةَ لَا يَمُوزُهُ إِلَّا تَرَى أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَطْلَقَ عَلَيْهَا ذَلِكَ ، وَقَدْ أَبَاحَ تَسْمِيَتَهَا بِذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ وَعَمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا . وَقِيلَ : إِنَّمَا نَهَى عَنْ ذَلِكَ تَنْزِيهاً لِهَذِهِ الْعِبَادَةِ الشَّرِيفَةِ الدِّينِيَّةِ عَنْ أَنْ يُطْلَقَ عَلَيْهَا مَا هُوَ أَسْمُ لِفِعْلَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ ، وَهِيَ الْحَلْبَةُ الَّتِي كَانُوا يَحْلُبُونَهَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَيَسَمُونَهَا الْعَتَمَةَ ؛ وَيَشْهَدُ لِهَذَا قَوْلُهُ : « فَإِنَّهَا تَمَّ يَحْلَبُ الْإِبِلَ » .

الثامنة^(١) - رَوَى ابْنُ مَاجَةَ فِي سَنَنِهِ حَدَّثَنَا عَثِمُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عِيَّاشٍ عَنْ عُمَارَةَ بْنِ غَزِيَّةَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : « مَنْ صَلَّى فِي جَمَاعَةٍ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً لَا تَفْسُوتُهُ الرُّكْعَةُ الْأُولَى مِنْ صَلَاةِ الْعِشَاءِ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِهَا عِتْقًا مِنَ النَّارِ » . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَثِمِ بْنِ عَفَّانَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى

الله عليه وسلم : " من صلى المشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل ومن صلى الفجر في جماعة فكأنما قام الليل كله " . وروى الدارقطني في سننه عن سُبَيْعٍ أو تَبِيعٍ عن كعب قال : من نوضاً فأحسن الوضوء وصلى المشاء الآخرة وصلّى بعدها أربع ركعات فأتى ركوعهن وبسجودهن ويعلم ما يقتضى فيهن كن له بمترلة ليلة القدر .

قوله تعالى : وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾
قرأ الحسن « الحُلُمَ » غنظ الضمة لتقلها ، والمعنى : أن الأطفال أمروا بالاستئذان في الأوقات الثلاثة المذكورة ؛ وأبىح لهم الأمر في غير ذلك كما ذكرنا . ثم أمر تعالى في هذه الآية أن يكونوا إذا بلغوا الحلم على حكم الرجال في الاستئذان في كل وقت . وهذا بيان من الله عز وجل لأحكامه وإيضاح حلاله وحرامه ، وقال « فَلْيَسْتَأْذِنُوا » ولم يقل فليستأذنوكم . وقال في الأولى « لَيْسْتَأْذِنَكُمْ » لأن الأطفال غير مخاطبين ولا متبدين . وقال ابن جرير : قلت لعطاء « وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا » قال : واجب على الناس أن يستأذنوا إذا احتلموا ، أحراراً كانوا أو عبيداً . وقال أبو إسحاق الفزاري : قلت للأوزاعي ما حدثك الطفل الذي يستأذن ؟ قال : أربع سنين ، قال : لا يدخل على امرأة حتى يستأذن . وقال الزمري : أى يستأذن الرجل على أمه ؛ وفي هذا المعنى نزلت هذه الآية .

قوله تعالى : وَالنِّقَوعُ مَنْ أَلَسَاءِ اللَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لهنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٢﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ القواعد واحدها قاعدة ، بلا هاء ؛ ليدل حذفها على أنه قعود الكبير ، كما قالوا : امرأة حامل ؛ ليدل بحذف الهاء أنه حمل حبل . قال الشاعر :
فلو أن ما في بطنه بين نسوة • حين وإن كنّ القواعد عُرّاً
وقالوا في غير ذلك : قاعدة في بيتها ، وحاملة على طهرها ، بالهاء . والقواعد أيضاً : إساس البيت ؛ واحده قاعدة ، بالهاء .

الثانية - القواعد : المعجز اللواتي قعدن عن التصرف من السن ، وقعدن عن الولد والحيض ؛ هذا قول أكثر العلماء . قال ربعة : هي التي إذا رأيتها تستقذرها من كبيرها . وقال أبو عبيدة : اللاتي قعدن عن الولد ؛ وليس ذلك بمستقيم ، لأن المرأة تقعد عن الولد وفيها مستمتع ، قاله المهدوي .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ إنما خص القواعد بذلك لأنصراف الأنفس عنهن ؛ إذ لا مذهب للرجال فيهن ، فأببح لمن ما لم يبع لغيرهن ، وأزيل عنهن كلفة التحفظ المتعب لمن .

الرابعة - قرأ ابن مسعود وأبو وآبن عباس « أَنْ يَضَعْنَ مِنْ ثِيَابِهِنَّ » بزيادة « من » . قال ابن عباس : وهو الجلباب . وروى عن ابن مسعود أيضاً « من جلابيبن » . والعرب تقول : امرأة واضع ، لتي كبرت فوضعت ثمارها . وقال قوم : الكبيرة التي أيست من النكاح ، لو بدا شعرها فلا بأس ، فعل هذا يجوز لها وضع الخمار ، والصحيح أنها كالشابة في التستر ؛ إلا أن الكبيرة تضع الجلباب الذي يكون فوق الدرع والخمار ؛ قاله ابن مسعود وابن جبير وغيرهما .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ أي غير مظهرات ولا متعرضات بالزينة لينظر إليهن ؛ فإن ذلك من أقبح الأشياء وأبعده عن الحق . والتبرج : التكشف والظهور للعيون ؛ ومنه : بروج مشيدة . وروج السماء والأسوار ؛ أي لا حائل دونها يسرها .

وقيل لما نَشَأَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: يَا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ، مَا تَقُولِينَ فِي الْجُلُوبِ وَالصَّبَاغِ وَالْقَاتِمِ وَالْقُرْطَيْنِ
وَالخَلَامِ وَخَامِ الذَّهَبِ وَرَقَاقِ الثِّيَابِ؟ فَقَالَتْ: يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ، قَصَصْتُكُمْ قِصَّةَ امْرَأَةٍ
وَاحِدَةٍ، أَحَلَّ اللهُ لَكُنَّ الزَّيْنَةَ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ لِمَنْ لَا يَحِلُّ لَكُنَّ أَنْ يَرَوْا مِنْكُمْ مَحَرَّمًا. وَقَالَ
عَطَاءٌ: هَذَا فِي بَيُوتِنِ، فَلِذَا خَرَجْتَ فَلَا يَحِلُّ لَهَا وَضْعُ الْجُلُوبِ. وَعَلَى هَذَا «غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ»
غَيْرَ خَارِجَاتٍ مِنْ بَيُوتِنَ. وَعَلَى هَذَا يُلْزَمُ أَنْ يَقَالَ: إِذَا كَانَتْ فِي بَيْتِهَا فَلَا يَدْخُلُهَا مِنْ جُلُوبِ
فَوْقِ الدَّرْعِ، وَهَذَا بَعِيدٌ، إِلَّا إِذَا دَخَلَ عَلَيْهَا أَجْنَبِي. ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ تَحْفَظَ الْجَمِيعَ مِنْهُنَّ،
وَاسْتَعْفَاهُنَّ عَنْ وَضْعِ الثِّيَابِ وَالتَّرَامُوتِ مَا يُلْزَمُ الشَّبَابَ أَفْضَلَ لِمَنْ وَخِيرَ. وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ
«وَأَنْ يَتَعَفَّفْنَ» بِغَيْرِ سَبَبٍ. ثُمَّ قِيلَ: مَنْ التَّبَرُّجُ أَنْ تَلْبَسَ الْمَرْأَةُ ثَوْبَيْنِ رَقِيقَيْنِ يَصِفَقَانِ.
رَوَى الصَّحِيحُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مِثْقَالُ مَنْ أَهْلُ
النَّارِ لَمْ أَرَهَا قَوْمٌ مَعَهُمْ سَبَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ وَنِسَاءٌ كَأَسْيَافٍ عَارِيَّاتٌ
يُمِيلَاتٌ مَا تَلَاتِ رِعَاسِنَ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلَا يَخْرُجْنَ مِنْهَا وَإِنْ رِيحُهَا
لِيُوجِدَنَّ مِنْ مَسِيرَةٍ كَذَا وَكَذَا». قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: وَإِنَّمَا جَعَلَهُنَّ كَأَسْيَافٍ لِأَنَّ الثِّيَابَ عَلِيَّاتٍ،
وَإِنَّمَا وَصَفَهُنَّ بِأَنَّهُنَّ عَارِيَّاتٌ لِأَنَّ الثَّوْبَ إِذَا رَقَّ يَصِفَقُ، وَيَبْدَى مَحَاسِنُهُ؛ وَذَلِكَ حَرَامٌ.
قُلْتُ: هَذَا أَحَدُ التَّأْوِيلَيْنِ لِلْعَلَمَاءِ فِي هَذَا الْمَعْنَى. وَالثَّانِي - أَنَّهُنَّ كَأَسْيَافٍ مِنَ الثِّيَابِ
عَارِيَّاتٌ مِنْ لِبَاسِ التَّقْوَى الَّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيهِ: «وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ». وَأَنْشَدُوا:
إِذَا الْمَرْءَ لَمْ يَلْبَسْ ثِيَابًا مِنَ الثَّقَى * قَلْبَ عُرْيَانًا وَإِنْ كَانَ كَاسِيَا
وَخَيْرُ لِبَاسِ الْمَرْءِ طَاعَةُ رَبِّهِ * وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ كَانَ إِلَهَ عَاصِيَا
وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَيْنَا أَنَا
فَاتِمٌ رَأَيْتُ النَّاسَ يُعْرَضُونَ عَلَيَّ وَعَلَيْهِمْ قُبُصٌ مِنْهَا مَا يَبْلُغُ الثَّدْيَ وَمِنْهَا مَا دُونَ ذَلِكَ وَمَرَّ عَمْرُ
أَبْنِ الْخَطَّابِ وَعَلَيْهِ قُبُصٌ يَجُزُّهُ» قَالُوا: مَاذَا أَوَّلْتَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الدِّينَ». ^(١)
فَتَأْوِيلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التَّقْيِصُ بِالَّذِينَ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ
خَيْرٌ». وَالْعَرَبُ تَكْنِي عَنِ الْفَضْلِ وَالْعِزِّ بِالثِّيَابِ؛ كَمَا قَالَ شَاعِرُهُمْ:

(١) آية ٢٦ سورة الأعراف . (٢) التي في صحيح مسلم: «يعرضون وعليهم ...»

• ثياب بنى عوف طهارى قية •

وقد قال صلى الله عليه وسلم لعثمان : " إن الله سيُلبسك قيصا فإن أرادوك أن تخلعه فلا تخلعه " . فعبّر عن الخلافة بالقميص ، وهى استعارة حسنة معروفة .

قلت : هذا التأويل أجمع التأويلين ، وهو اللائق بهن فى هذه الأزمان ، وخاصة الشباب ، فإنهن يتزين ويخرجن متبرجات ؛ فهن كاسيات بالثياب عاريات من التقوى حقيقة ، ظاهرا باطنا ، حيث تُبدي زينتها ، ولا تبالى بن ينظر إليها ، بل ذلك مقصودهن ، وذلك مشاهد فى الوجود منهن ، فلو كان عندهن شىء من التقوى لما فعلن ذلك ، ولم يعلم أحد ما هنالك . ومما يقوى هذا التأويل ما ذكر من وصفهن فى بقية الحديث فى قوله : " رويهن كأسمعة البخت " . والبخت ضرب من الإبل عظام الأجسام ، عظام الأسمعة ؛ شبه رويهن بها لما رفعن من ضفائر شعورهن على أوساط رويهن . وهذا مشاهد معلوم ، والناظر لهنّ ملوم . قال صلى الله عليه وسلم : " ما تركت بدى فتنة أضّر على الرجال من النساء " . نحرجه البخارى .

قوله تعالى : لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْكُمْ مَفَاتِحُهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَكَاةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ بَيِّنَ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ

تَعْقِلُونَ ﴿١١﴾

(١) هذا صدر بيت لأمرئ القيس ، وعجزه كما فى ديوانه :

• وأروهم عند المقاهد غرائ •

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى - قوله تعالى : (لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ) اختلف العلماء في تأويل هذه الآية على أقوال ثمانية . أقربها - هل هي منسوخة أو ناسخة أو مُحْكَمَةٌ فهذه ثلاثة أقوال : الأول - أنها منسوخة من قوله تعالى : « وَلَا عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ » إلى آخر الآية ؛ قاله عبد الرحمن بن زيد ، قال : هذا شيء قد انقطع ، كانوا في أول الإسلام ليس على أيوبهم أغلاق ، وكانت الستور مرخاة ، فربما جاء الرجل فدخل البيت وهو جائع وليس فيه أحد ، فسوّغ الله عز وجل أن يأكل منه ، ثم صارت الأغلاق على البيوت فلا يحل لأحد أن يفتحها ، فذهب هذا وانقطع . قال صلى الله عليه وسلم : « لَا يَحْتَلِينَ أَحَدٌ مَاشِيَةً أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ... » الحديث . نوحه الأئمة .

الثاني - أنها ناسخة ؛ قاله جماعة . روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : لما أنزل الله عز وجل « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ » قال المسلمون : إن الله عز وجل قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ، وأن الطعام من أفضل الأموال ، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد ، فكف الناس عن ذلك ؛ فأنزل الله عز وجل « لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ - إلى - أَوْ مَا مَلَكَتْكُمْ مَفَاتِحُهُ » . قال : هو الرجل يوكل الرجل بضيعة .

قلت : علي بن أبي طلحة هذا هو مولى بني هاشم سكن الشام ، يُكْنَى أبا الحسن ويقال أبا محمد ، واسم أبيه أبي طلحة سالم ، تكلم في نفسه ؛ فقيل : إنه لم ير ابن عباس ، والله أعلم .

الثالث - أنها مُحْكَمَةٌ ؛ قاله جماعة من أهل العلم ممن يُقْتَدَى بقولهم ؛ منهم سعيد بن المسيب وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود . وروى الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان المسلمون يُوجِبُونَ في التَّفْرِيعِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانوا يدفعون مفاتيحهم إلى ضمتانهم ويقولون : إن احتجمت فكلوا ؛ فكانوا يقولون إنما أحلوه لنا عن غير طيب نفس ؛ فأنزل الله عز وجل « وَلَا عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بَيْتِكُمْ أَوْ بَيْتِ آبَائِكُمْ » إلى آخر الآية . قال النحاس : « يُوجِبُونَ » أي يخرجون بأجمعهم في المفاتيح ؛

يقال : أَوْعِبَ بنو فلان لبنى فلان إذا جاءهم بأجمعهم . وقال ابن السكيت : يقال أَوْعِبَ بنو فلان جلاءً ، فلم يبق ببلدهم منهم أحد . وجاء الفرس بِرُكُضٍ وَعِيبٍ ، أى باقصى ما عنده . وفى الحديث : " فى الأنف إذا أَسْوَعِبَ جَدُّهُ الدَّيَّةُ " إذا لم يترك منه شئ . واستيعاب الشئ استنصاله . ويقال : يَتَّعِبُ وَعِيبٌ إذا كان واسماً يَسْتَوْعِبُ كُلَّ ما جُعِلَ فيه . وَالضَّمَمُ هم الزَّئِفَى ، واحدٌ مِزَمٍ مثل زَيْن . قال النحاس : وهذا القول من أجل ما روى فى الآية ؛ لما فيه عن الصعابة والتأبين من التوفيق أن الآية نزلت فى شئ ، بعينه . قال ابن العربي : وهذا كلام متظلم لأجل تخلفهم عنهم فى الجهاد وبقاء أموالهم بأيديهم ، لكن قوله « أَوْماً مَلِكُهُمْ مَقَاتِلُهُ » قد اقتضاه ؛ فكان هذا القول بعيداً جداً . لكن المختار أن يقال : إن الله رفع الحرج عن الأعمى فيما يتعلق بالتكليف الذى يشترط فيه البصر ، وعن الأعرج فيما يشترط فى التكليف به من المشى ، وما يتعدى من الأفعال مع وجود العرج ، وعن المريض فيما يؤثر المرض فى إسقاطه ؛ كالصوم وشروط الصلاة وأركانها ، والجهاد ونحو ذلك . ثم قال بعد ذلك مبيّناً : وليس عليكم حرج فى أن تأكلوا من بيوتكم . فهذا معنى صحيح ، وتفسير بين مفيد ، يعضده الشرع والعقل ، ولا يحتاج فى تفسير الآية إلى قول .

قلت : وإلى هذا أشار ابن عطية فقال : فظاهر الآية وأمر الشريعة يدل على أن الحرج عنهم مرفوع فى كل ما يضطرهم إليه العذر ، ويتقضى بينهم فيه الإتيان بالأكل ، ويتقضى العذر أن يقع منهم الانقصاص ، فالحرج مرفوع عنهم فى هذا . فاما ما قاله الناس فى هذا الحرج هنا وهى :

الثانية — فقال ابن زيد : هو الحرج فى الفزوة ، أى لاحتاج عليهم فى تأخيرهم . وقوله تعالى : « وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ » الآية ، معنى مقطوع من الأول . وقالت فرقة : الآية كلها فى معنى المطاعم . قالت : وكانت العرب ومن بالمدينة قبل المبعث لتجنب الأكل مع أهل الأعداء ، فبعضهم كان يفعل ذلك تَقَدُّراً بخولان اليد من الأعمى ، ولأنبساط الحلسة من الأعرج ، ولإجاعة المريض وعلاته ، وهى أخلاق جاهلية وكبر ، فنزلت الآية مؤذنة .

وبعضهم كان يفعل ذلك تحزوا من غير أهل الأعداء ، إذ هم مقصرون عن درجة الأصحاء في الأكل ، لعدم الرؤية في الأعشى ، وللمعجز عن المزاخرة في الأعرج ، ولضعف المريض ؛ فزلت الآية في إباحة الأكل معهم . وقال ابن عباس في كتاب الزهراوي : إن أهل الأعداء تحزبوا في الأكل مع الناس من أجل عذرهم ؛ فزلت الآية مبيحة لهم . وقيل : كان الرجل إذا ساق أهل العذر إلى بيته فلم يجد فيه شيئا ذهب به إلى بيوت قرابته ؛ فتخرج أهل الأعداء من ذلك ؛ فزلت الآية .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ ﴾ هذا ابتداء كلام ، أي ولا عليكم أيها الناس . ولكن لما اجتمع المخاطب وغير المخاطب غلب المخاطب لينظم الكلام . وذكر بيوت القرايات وسقط منها بيوت الأبناء ؛ فقال المفسرون : ذلك لأنها داخلة في قوله « في بيوتكم » لأن بيت ابن الرجل بيته ؛ وفي الخبر « أنت ومالك لأبيك » . ولأنه ذكر الأقرباء بعد ولم يذكر الأولاد . قال النحاس : وعارض بعضهم هذا القول فقال : هذا تحكم على كتاب الله تعالى ؛ بل الأولى في الظاهر ألا يكون الابن مخالفا لهؤلاء ، وليس الاحتجاج بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنت ومالك لأبيك » بقوى لوحي هذا الحديث ، وأنه لو صح لم تكن فيه حجة ؛ إذ قد يكون النبي صلى الله عليه وسلم عليم أن مال ذلك المخاطب لأبيه . وقند قيل إن المعنى : أنت لأبيك ، ومالك مبتدأ ؛ أي ومالك لك . والقاطع لهذا التوارد بين الأب والابن . وقال الترمذي الحكيم : ووجه قوله تعالى « ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم » كأنه يقول مساكنكم التي فيها أهاليكم وأولادكم ؛ فيكون للأهل والولد هناك شيء قد أقادهم هذا الرجل الذي له المسكن ، فليس عليه حرج أن يأكل معهم من ذلك القوت ، أو يكون للزوجة والولد هناك شيء من ملكهم فليس عليه في ذلك حرج .

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ أَوْ يَبُوتَ أَبَاكُمْ أَوْ يَبُوتَ أُمّهَاتِكُمْ أَوْ يَبُوتَ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ يَبُوتَ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ يَبُوتَ أَعْمَامِكُمْ أَوْ يَبُوتَ عَمَّاتِكُمْ أَوْ يَبُوتَ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ يَبُوتَ خَالَاتِكُمْ ﴾ قال بعض العلماء : هذا إذا أذنوا له في ذلك . وقال آخرون : أذنوا له أو لم ياذنوا فله أن يأكل ؛ لأن القرابة التي بينهم هي إذنٌ منهم . وذلك لأن في تلك القرابة عطفًا نسمع النفوس منهم بذلك العطف أن يأكل هذا من شيعهم ويُسروا بذلك إذا علموا . ابن العربي : أباح لنا الأكل من جهة النسب من غير استئذان إذا كان الطعام مذبولاً ، فإذا كان محرماً دونهم لم يكن لهم أخذه ، ولا يجوز أن يماوزوا إلى الأذخار ، ولا إلى ما ليس بما كُول وإن كان غير محرم عنهم إلا بإذن منهم .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْكُمْ مَفَاتِحُ ﴾ يعني ما اخترتم وصار في قبضتكم . وعظم ذلك ما ملكه الرجل في بيته وتحت علقه ؛ وذلك هو تأويل الضحاك وقطادة وسأده . وعند جمهور المفسرين يدخل في الآية الوكلاء والعبيد والأجراء . قال ابن عباس : عني ويكل الرجل على ضيعته ، وخازننه على ماله ؛ فيجوز له أن يأكل مما هو قيم عليه . وذكر معمر عن قتادة عن عكرمة قال : إذا ملك الرجل المفتاح فهو خازن ، فلا بأس أن يَظْمَ الشيء البسير . ابن العربي : ولتأني أن يأكل مما يُخزَن إجماعاً ؛ وهذا إذا لم تكن له أجرة ، فأما إذا كانت له أجرة على الخزن حرم عليه الأكل . وقرأ سعيد بن جبير « مَلَكَتُمْ » بضم الميم وكسر اللام وشدها . وقرأ أيضاً « مفاتيحه » بياء بين التاء والحاء ، جمع مفتاح ؛ وقد مضى في « الأنعام » . وقرأ قتادة « مفتاحه » على الإفراد . وقال ابن عباس : نزلت هذه الآية في الحارث ابن عمرو ، خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غازياً وخلف مالك بن زيد على أهله ، فلما رجع وجده مجهوداً فسأله عن حاله فقال : تمحرجت أن أكل من طعامك بغير إذنك ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية .

السادسة - قوله تعالى : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ الصديق بمعنى الجمع ، وكذلك المدعو ؛ قال

الله تعالى : « فَأَنهٖم صَدُوقِي » وقال جرير :

دَعَوَ الهَمْوَى ثَمَّ أَرْمَيْنَ قُلُوبَنَا * بِاسْمِهِمُ أَعْلَاهُ وَهَنَ صَبِيقُ

والصديق من يصدقك في موذته وتصدقته في موذتك . ثم قيل : إن هذا منسوخ بقوله « لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ ^(١) » ، وقوله تعالى : « فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا » الآية ، وقوله عليه السلام : « لَا يَحِلُّ مَالُ أَمْرئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِطَبِيبَةٍ نَفْسٍ مِنْهُ » .
وقيل : هي محبة ، وهو أصح ، ذكر محمد بن ثور من معمر قال : دخلت بيت فتادة فأبصرت فيه رطباً بفعات آكله فقال : ما هذا ؟ فقلت : أبصرت رطباً في بيتك فأكلت ؛ قال : أحسنت ، قال الله تعالى : « أَوْ صَدِيقَكُمْ » . وذكر عبد الزقاق عن معمر عن فتادة في قوله « أَوْ صَدِيقَكُمْ » قال : إذا دخلت بيت صديقك من غير مؤامرتك لم يكن بذلك بأس . وقال معمر قلت لفتادة : ألا أشرب من هذا الحب ؟ قال : أنت لى صديق ! فما هذا الاستئذان . وكان صلى الله عليه وسلم يدخل حائط أبي طلحة السمي ببيرحا ويشرب من ماء فيها طيب بعير إذنه ، على ما قاله علماءنا ؛ قالوا : والماء مملوك لأهله . وإذا جاز الشرب من ماء الصديق بغير إذنه جاز الأكل من ثماره وطعامه إذا علم أن نفس صاحبه تطيب به لتفاهته ويسير مؤنته ، أو لما بينهما من المودة . ومن هذا المعنى إطعام أم حرام له صلى الله عليه وسلم إذا نام عندها ؛ لأن الأغلب أن ما في البيت من الطعام هو للرجل ، وأن يد زوجته في ذلك عارية . وهذا كله مالم يتخذ الأكل خبنة ، ولم يقصد بذلك وقاية ماله ، وكان تافها يسيراً .
السابعة - قرن الله عز وجل في هذه الآية الصديق بالقرابة المحضة الوكيدة ، لأن قرب المودة يصيب . قال ابن عباس في كتاب النقاش : الصديق أوكد من القرابة ؛ ألا ترى استغاثة الجهنمين « قُلْنَا لَنَا مِنْ شَاقِقِينَ ، وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ^(٢) » .
قلت : ولهذا لا تجوز عندنا شهادة الصديق لصديقه ، كما لا تجوز شهادة القريب لقربيه . وقد مضى بيان هذا والعللة فيه في « النساء » . وفي المثل « أَيْهَمُ أَحَبِّ إِلَيْكَ أَخُوكَ أَمْ صَدِيقُكَ » قال : أنحى إذا كان صديق .

(١) آية ٥٣ سورة الأحزاب . (٢) الحب (يشم الحياء المحلة) : الجرة الضخمة ، والثانية : وقال ابن دريد : هو الذي يحمل فيه الماء ؛ فلم يتوعد . (٣) راجع للكلام على ضبطها في معجم البلدان لياقوت . (٤) الخبنة : مطف الإزار ومطرف الثوب ؛ أى لا يأخذته في ثوبه . (٥) آية ١٠٠ سورة الشعراء . (٦) راجع ج ٥ ص ٤١٠ وما بعدها .

الثامنة - قوله تعالى : (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا) قيل : إنما نزلت في بني ليث بن بكر ، وهم حتى من بني نخاعة ، كان الرجل منهم لا يأكل وحده ويمكث أياما جاثما حتى يجد من يؤاكله . ومنه قول بعض الشعراء :

إذا ما صنعت الزاد فالتقى له * أَيْكَلًا فَإِنِّي لَسْتُ أَكَلُهُ وَحْدِي

قال ابن عطية : وكانت هذه السيرة موروثة عندهم عن إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، فإنه كان لا يأكل وحده . وكان بعض العرب إذا كان له ضيف لا يأكل إلا أن يأكل مع ضيفه ، فنزلت الآية مبينة سنة الأكل ، ومذهبة كل ما خلفها من سيرة العرب ، ومبيحة من أكل المنفرد ما كان عند العرب محرما ، نحت به نحو كرم الخلق ، فأفرطت في الإلزام ، وإن إحضار الأكل لحسن ، ولكن بالأبحرم الانفراد .

التاسعة - قوله تعالى : (جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا) «جميعا» نصب على الحال . و «أشتاتا» جمع شت ، والشت المصدر بمعنى التفريق ، يقال : شت القوم أى تفزقوا . وقد ترجم البخارى في صحيحه (باب - ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج) الآية . و (التهد والاجتماع) . ومقصوده فيما قاله صاحبنا في هذا الباب : إباحة الأكل جميعا وإن اختلفت أحوالهم في الأكل . وقد سوغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ، فصارت تلك سنة في الجماعات التى تدعى إلى الطعام في التهد والولائم وفي الإملاق في السفر . وما ملكت مفاتيحه بأمانة أو قرابة أو صداقة فلك أن تأكل مع القريب أو الصديق ووحده . والتهد : ما يجمع الرفقاء من مال أو طعام على قدر في الثقة ينفقونه بينهم ، وقد تناهدوا ، من صاحب السين . وقال ابن دريد : يقال من ذلك : تناهد القوم الشيء بينهم . الهوى : وفى حديث الحسن «أخرجوا يهدكم فإنه أعظم للبركة وأحسن لأخلاقكم» . التهد : ما يخرج به الرقة عند المناهدة ، وهو استقسام الثقة بالصوت في السفر وغيره . والعرب تقول : هات يهدك ، بكسر النون . قال المهلب : وطعام التهد لم يوضع للأكلين على أنهم يأكلون بالسواء ، وإنما يأكل كل واحد على قدر تهته ، وقد يأكل الرجل أكثر من غيره . وقد قيل : إن

تركها أشبه بالورع . وإن كانت الرقة تجتمع كل يوم على طعام أحدهم فهو أحسن من التهء ،
لأنهم لا يتناهدون إلا ليصيب كل واحد منهم من ماله ، ثم لا يدري لعل أحدهم يقصر عن
ماله ، ويأكل غيره أكثر من ماله ، وإذا كانوا يوما عند هذا ويوما عند هذا بلا شرط فإنما
يكونون أضيافا والضيف يأكل يطيب نفس مما يقدم إليه . وقال أيوب السخيتي : إنما
كان التهء أن القوم كانوا يكونون في السفر فيسبق بعضهم إلى المنزل فيذبح ويبني الطعام
ثم يأتيهم ، ثم يسبق أيضا إلى المنزل فيفعل مثل ذلك ، فقالوا : إن هذا الذي تصنع كلنا
نحب أن نصنع مثله ففعلوا فجعل بيتنا شيئا لا يتفضل بعضنا على بعض ، فوضوا التهء بينهم .
وكان الصلحاء إذا تناهدوا تحزى أنفسهم أن يزيد على ما يخرجهم أصحابه ، وإن لم يرضوا بذلك
منه إذا علموه فعله سرا دونهم .

المأثورة - قوله تعالى : (فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يَمُرُّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) اختلف المتأولون في أي البيوت
أراد ، فقال إبراهيم النخعي والحسن : أراد المساجد ، والمعنى : سلموا على من فيها من
ضيفكم . فإن لم يكن في المساجد أحد فالسلام أن يقول المرء : السلام على رسول الله . وقيل :
يقول السلام عليكم ، يريد الملائكة ، ثم يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .
وذكر عبد الزاق أخبرنا معمر بن عمرو بن دينار عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله
تعالى : « فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ » الآية ، قال : إذا دخلت المسجد نقل السلام
علينا وعلى عباد الله الصالحين . وقيل : المراد بالبيوت البيوت المسكونة ، أي فسلموا على
أنفسكم . قاله جابر بن عبد الله وابن عباس أيضا وعطاء بن أبي رباح . وقالوا : يدخل
في ذلك البيوت غير المسكونة ، ويسلم المرء فيها على نفسه بأن يقول : السلام علينا وعلى عباد
الله الصالحين . قال ابن العربي : القول بالعموم في البيوت هو الصحيح ، ولا دليل على
التخصيص ، وأطلق القول ليدخل تحت هذا العموم كل بيت كان للغير أو لنفسه ، فإذا دخل
بيتا لغيره استأذن كما تقدم ، فإذا دخل بيتا لنفسه سلم كما ورد في الخبر ، يقول : السلام علينا
وعلى عباد الله الصالحين ، قاله ابن عمر . وهذا إذا كان فارغا ، فإن كان فيه أهله وخدمته

فليقل : السلام عليكم . وإن كان مسجدا فليقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .
وعليه حمل ابن عمر البيت الفارغ . قال ابن العربي : والذي أختاره إذا كان البيت فارغا
ألا يلزم السلام ، فإنه إن كان المقصود الملائكة فالملائكة لا تفارق العبد بحال ، أما إنه
إذا دخلت بيتك يستجب لك ذكر الله بأن تقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله . وقد تقدم
في سورة « الكهف » ^(١) . وقال القشيري في قوله « إذا دخلتم بيوتا » : والأوجه أن يقال
إن هذا عام في دخول كل بيت ، فإن كان فيه ساكن مسلم يقول السلام عليكم ورحمة الله
وبركاته ، وإن لم يكن فيه ساكن يقول السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، وإن كان
في البيت من ليس بمسلم قال السلام على من آتبع الهدى ، أو السلام علينا وعلى عباد الله
الصالحين . وذكر ابن خزيمة متنادا قال : كتب إلى أبو العباس الأعمش قال حدثنا محمد بن
عبد الله بن عبد الحكم قال حدثنا ابن وهب قال حدثنا جعفر بن ميسرة عن زيد بن أسلم
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا دخلتم بيوتا فسلموا على أهلها وأذكروا اسم الله
فإن أحدكم إذا سلم حين يدخل بيته وذكر اسم الله تعالى على طعامه يقول الشيطان لأصحابه
لا ميت لكم ها هنا ولا عشاء وإن لم يسلم أحدكم إذا دخل ولم يذكر اسم الله على طعامه قال
الشیطان لأصحابه أدركتم الميت والعشاء » .

قلت : هذا الحديث ثبت معناه مرفوع من حديث جابر ، أخرجه مسلم . وفي كتاب
أبي داود عن أبي مالك الأشجعي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا ولى الرجل
بيته فليقل اللهم إني أسألك خير الولوع وخير الخروج بأسم الله وتلحنا وبأسم الله نخرجنا وعلى
الله ربنا توكلنا ثم يسلم على أهله » .

الحادية عشرة — قوله تعالى : (تَحِيَّاتٌ) مصدر ؛ لأن قوله « فسلموا » معناه تحيوا .
وصفها بالبركة لأن فيها الدعاء واستجلاب مودة المسلم عليه . ووصفها أيضا بالطيب لأن
سامعها يستطيبها . والكاف من قوله « كذلك » كاف تنبيه . و « ذلك » إشارة إلى هذه
السنة ؛ أي كما بين لكم سنة دينكم في هذه الأشياء بين لكم سائر ما بكم حاجة إليه في دينكم ،
(١) راجع ج ١٠ ص ٤٠٦ (٢) كذا في الأصول . وقد ورد في هذا الحديث في كتاب الأدب
المفرد للبخاري من رواية جابر .

قوله تعالى : **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ** إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : **(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ)** فيه مسائلان :

الأولى - قوله تعالى : **(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ)** « إِنَّمَا » في هذه الآية للخصر ، المعنى : لا يتم ولا يكمل إيمان من آمن بالله ورسوله إلا بأن يكون من الرسول سامعا غير معتمد في أن يكون الرسول يريد له إكمال أمر فيريد هو إفساده بزواله في وقت الجمع ، ونحو ذلك . وبين تعالى في أول السورة أنه أنزل آيات بينات ، وإنما النزول على عهد صلى الله عليه وسلم ، فغتم السورة بتأكيد الأمر في متابته عليه السلام ، ليعلم أن أوامره كأوامر القرآن .

الثانية - واختلف في الأمر الجامع ما هو ، فقيل : المراد به ما للإمام من حاجة إلى جمع الناس فيه لإذاعة مصلحة ، من إقامة سنة في الدين ، أو لترتيب مدق بإجتاعهم وللحروب ؛ قال الله تعالى : **« وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ »** . فإذا كان أمر يشملهم فعه وضره جمعهم للتشاور في ذلك . والإمام الذي يتقرب إليه هو إمام الإمرة ، فلا يذهب أحد لعذر إلا بإذنه ، فإذا ذهب بإذنه ارتفع عنه الظن السيئ . وقال مكحول والزَّهْرِيُّ : الجمعة من الأمر الجامع . وإمام الصلاة ينبغي أن يستأذن إذا قدمه إمام الإمرة ، إذا كان يرى المستأذن . قال ابن سيرين : كانوا يستأذنون الإمام على المنبر ، فلما كثر ذلك قال زياد : من جعل يده على فيه فليخرج دون إذن ، وقد كان هذا بالمدينة حتى أن سهل بن أبي صالح رُفِعَ يوم الجمعة فاستأذن الإمام . وظاهر الآية يقتضي أن يستأذن أمير الإمرة الذي هو في مقصد النبوة ، فإنه ربما كان له رأى في حبس ذلك الرجل لأمر من أمور الدين . فاما إمام الصلاة فقط

فليس ذلك إليه؛ لأنه وكيل على جزء من أجزاء الدين الذي هو في مقعد النبوة . وروى أن هذه الآية نزلت في حفر الخندق حين جاءت قريش وقائدها أبو سفيان، وغطفان وقائدها عيينة بن حصن؛ فضرب النبي صلى الله عليه وسلم الخندق على المدينة، وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة، فكان المنافقون يسألون لوأذا من العمل ويستذرون بأعذار كاذبة . ونحوه روى أشهب وابن عبد الحكم عن مالك، وكذلك قال محمد بن إسحاق . وقال مقاتل : نزلت في عمر رضى الله عنه ، استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك في الرحلة فاذن له وقال : « انطلق فوالله ما أنت بمنافق » يريد بذلك أن يُسمع المنافقين . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : إنما استأذن عمر رضى الله عنه في العمرة فقال عليه السلام لما أذن له : « يا أبا حفص لا تنسنا في صالح دماءك » .

قلت : والصحيح الأول لتناوله جميع الأقوال . واختار ابن العربي ما ذكره في نزول الآية عن مالك وابن إسحاق ، وأن ذلك مخصوص في الحرب . قال : والذي يبين ذلك أمران : أحدهما — قوله في الآية الأخرى : « قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْأَلُونَ مِنْكُمْ لَوْأذا » . وذلك أن المنافقين كانوا يتنذون ويخرجون عن الجماعة ويتركون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر الله جميعهم ألا يخرج أحد منهم حتى يأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وبذلك يبين إيمانه .

الثاني — قوله « لَمْ يَدَّهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا » وأى إذن في الحديث والإمام ينضبط ، وليس للإمام خيار في منعه ولا إبقائه ، وقد قال « قَأَذَنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ » ؛ فيبين بذلك أنه مخصوص في الحرب .

قلت : القول بالعموم أولى وأرفع وأحسن وأعلى . « قَأَذَنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ » فكان النبي صلى الله عليه وسلم بالخيار إن شاء أن يأذن وإن شأه منع . وقال قتادة : قوله « قَأَذَنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ » منسوخة بقوله « عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَمْ » . « وَاسْتَغْفِرَ لَهُمُ اللَّهُ » أى لخروجهم من الجماعة إن علمت لم عذرا . « إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

قوله تعالى : لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا
قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ مِنْكُمْ لَوْ آذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ
أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : (لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا) يريد : يصبح من
بعيد : يا أبا القاسم ! بل عظموه كما قال في المحررات « إِنَّ الَّذِينَ يَفْضُونَ أَصَوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ »
الآية . وقال سعيد بن جبيرة ومجاهد : المعنى قولوا يا رسول الله ، في ريق ولين ، ولا تقولوا
يا محمد بجهنم . وقال قتادة : أمرهم أن يشرفوه ويفخموه . ابن عباس : لا تعرضوا لدعاء
الرسول عليكم بإخطائه فإن دعوته موجبة . (قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ مِنْكُمْ لَوْ آذًا) التسلل
والانسلال : الخروج . واللواذ من الملاوذة ، وهي أن تستتر بشيء مخافة من يراك ، فكان
المتأفكون يتسللون عن صلاة الجمعة . « لَوْ آذًا » مصدر في موضع الحال ، أى متلاوذين ،
أى يلوذ بعضهم ببعض ، ينضم إليه استنارا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه لم يكن
على المنافقين أثقل من يوم الجمعة وحضور الخطبة ؛ حكاية النقاش ، وقد مضى القول فيه .
وقيل : كانوا يتسللون في الجهاد رجوعا عنه يلوذ بعضهم ببعض . وقال الحسن : لو آذا
فراوا من الجهاد ؛ ومنه قول حسان :

وقريشٌ تجبول منا لـِوَاذاً * لم تحافظ وخف منها الخولم

ومحت واوها لتحركها في لاوذ . يقال : لاوذ بلاءوذ ملاوذة ولواذا . ولاذ يلوذ [لواذا]
وليذاذاً ؛ انقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها اتباعا للاذ في الاعتلال ؛ فإذا كان مصدر فاعل
لم يُمَلَّ ، لأن فاعل لا يجوز أن يُمَلَّ .

قوله تعالى : (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ) بهذه الآية احتج الفقهاء على أن
الأمر على الوجوب . ووجهها أن الله تبارك وتعالى قد حذر من مخالفة أمره ، وتوعد

(١) آية ٣ (٢) في الأصول : « منك » والتصويب عن الهيرودس والرواية فيه :

وقريشٌ تلوذ منا لوآذاً * لم يتيسروا وخف منها الخولم

بالعقاب عليها بقوله : ﴿ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فحرم مخالفته ، فيجب امتثال أمره . والفتنه هنا القتل ؛ قاله ابن عباس . عطاء : الزلازل والأهوال . جعفر بن محمد : سلطان جائر يسلط عليهم . وقيل : الطبع على القلوب بشؤم مخالفة الرسول . والضمير في « أمره » قيل هو عائد إلى أمر الله تعالى ؛ قاله يحيى بن سلام . وقيل : إلى أمر رسوله عليه السلام ؛ قاله قتادة . ومعنى « يُخَالَفُونَ عَنْ أَمْرِهِ » أى يعرضون عن أمره . وقال أبو عبيدة والأخفش : « عن » في هذا الموضع زائدة . وقال الخليل وسيبويه : ليست بزائدة ؛ والمعنى : يخالفون بعد أمره ؛ كما قال :

« ... لَمْ تَتَّقِ عَنْ تَفْضِيلِ ^(١) »

: ومنه قوله : « فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ » أى بعد أمر ربه . و« أن » في موضع نصب بـ « يتحذر » . ولا يجوز عند أكثر النحويين حذو زيد ، وهو في « أن » جائز ؛ لأن حروف الغفص تحذف معها .

قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ خلقا وملكا . ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ فهو يميز ماكم به . و« يعلم » هنا بمعنى علم . ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ بعد ما كان في خطاب رجيع في خبر ؛ وهذا يقال له : خطاب التلوين . ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ﴾ أى يخبرهم بأعمالهم ويميزهم بها . ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ من أعمالهم وأحوالهم .

ختمت السورة عما تضمنت من التفسير ، والحمد لله على التيسير .

(١) هذا من لغة امرئ القيس . والبيت بقاء :

ونضى نيت الملك فوق فراثها • نثوم الضى لم تخلق عن تفضل

تم بحون الله تعالى الجزء الثانى عشر من تفسير القرطبي
يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثالث عشر ، وأوله سورة « الفرقان »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الفرقان

مكية كلها في قول الجمهور . وقال ابن عباس وقناة : إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة ، وهي : « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ » إلى قوله : « وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » . وقال الضحاك : هي مدنية ، وفيها آيات مكية ؛ قوله : « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ » الآيات .

ومقصود هذه السورة ذكر موضع عظم القرآن ، وذكر مطاعن الكفار في النبوة والرد على مقالاتهم ، فمن جعلها قولهم : إن القرآن آتراه عهد ، وإنه ليس من عند الله .

قوله تعالى : تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ . لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ يَحْضُدُ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾

قوله تعالى : (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ) « تبارك » اختلف في معناه ؛ فقال الفراء : هو في العربية و « تقدس » واحد ، وهما للمظمة . وقال الزجاج : « تبارك » تفاعل من البركة . قال : ومعنى البركة الكثرة من كل ذي خير . وقيل : « تبارك » تعالى . وقيل : تعالى عطافه ، أي زاد وكثر . وقيل : المعنى دام وثبت إيمانه . قال النحاس : وهذا أولها في اللغة والأشتقاق ؛ من برك الشيء إذا ثبت ؛ ومنه برك الجبل والطير على الماء ، أي دام

وثبت . فأما القول الأول فمخلط ؛ لأن التقييد إنما هو من الطهارة وليس من ذا في شيء .
قال النملبي : ويقال تبارك الله ، ولا يقال متبارك ولا مبارك ؛ لأنه ينتهي في أسمائه وصفاته
إلى حيث ورد التوقيف . وقال الطرمي :

تباركت لا مُعْطٍ لشيء منعه . وليس لما أعطيت يا رب مانع
وقال آخر :

• تَبَارَكْتَ مَا تَقْدِرُ يَفْعُ وَلَكَ الشُّكْرُ •

قلت : قد ذكر بعض العلماء في أسمائه الحسنى « المبارك » وذكرناه أيضا في كتابنا .
إن كان وقع اتفاق على أنه لا يقال فسلم للإجماع ، وإن كان وقع فيه اختلاف فكثير من
الأسماء اختلف في عده ؛ كالهدى وغيره . وقد نبهنا على ذلك هناك ، والحمد لله .

و « الفرقان » القرآن . وقيل : إنه اسم لكل منزل ؛ كما قال : « وَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَرُونَ
الْفُرْقَانَ » . وفي تسميته فرقانا وجهان : أحدهما — لأنه فرق بين الحق والباطل ، والمؤمن
والكافر . الثاني — لأن فيه بيان ما شرع من حلال وحرام ؛ حكاية النقاش . (على عبده)
يريد عبداً صلى الله عليه وسلم . (لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) اسم « يكون » مضمر يعود على « عبده »
وهو أولى لأنه أقرب إليه . ويجوز أن يكون يعود على « الفرقان » . وقرأ عبد الله بن الزبير
« على عباده » . ويقال : أنذر إذا خوف ؛ وقد تقدم في أول « البقرة » . والنذير : المحدث من
الهلاك . الجوهري : والنذير المنتذر ، والنذير الإنذار . والمراد بـ « الْعَالَمِينَ » هنا الإنس
والجن ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد كان رسولا إليهما ، ونذيرا لهما ، وأنه خاتم الأنبياء ،
ولم يكن غيره عام الرسالة إلا نوح فإنه عم رسالته جميع الإنس بعد الطوفان ، لأنه بدأ به الخلق .
قوله تعالى : (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) عظم تعالى نفسه . (وَلَمْ يَخْشَ وَلَدًا)
نزه سبحانه وتعالى نفسه عما قاله المشركون من أن الملائكة أولاد الله ؛ يعني بنات الله سبحانه
وتعالى . وعما قالت اليهود : عزير ابن الله ؛ جل الله تعالى . وعما قالت النصارى : المسيح
ابن الله ؛ تعالى الله عن ذلك . (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ) كما قال عبدة الأوثان .

(وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ) لا كما قال المجوس والثنية: إن الشيطان أو الظلمة يخلق بعض الأشياء، ولا كما يقول من قال: للخلق قدرة الإيجاد . فالآية رد على هؤلاء . (تَقْدِرُهُ تَقْدِيرًا) أى قدر كل شئ مما خلق يحكمه على ما أراد ، لاعتق سهوة وغفلة ، بل جرت المقادير على ما خلق الله إلى يوم القيامة وبعد القيامة ، فهو الخالق المقدر ، فإياه فأعبدوه .

قوله تعالى : (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً) ذكر ما صنع المشركون على جهة التعجيب في اتخاذهم الآلهة ، مع ما أظهر من الدلائل على وحدانيته وقدرته . (لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا) يعنى الآلهة . (وَهُمْ يُخْلَقُونَ) لما أحققت المشركون فيها أنها تضر وتنفع ، عبر عنها كما عبر عما يفعل . (وَلَا يَمْلِكُونَ لِنَفْسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) أى لا دفع ضرر وجلب نفع ، فخذف المضاعف . وقيل : لا يقدرون أن يضروا أنفسهم أو ينفعوها بشئ ، ولا لمن يعبدهم ، لأنها جهادات . (وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا تُشُورًا) أى لا يمتنون أحدا ، ولا يحبونه . والنشور : الإحياء بعد الموت ، أنشر الله الموت فنشروا . وقد تقدم . وقال الأعشى :

حتى يقول الناس مما رأوا • يا عجباً للبيت النابيس

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَانَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۝ وَقَالُوا اسْتَطِيرَ الْأُولِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ قُلْ أُنزِلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝

قوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا) يعنى مشركى قريش . وقال ابن عباس : القائل منهم ذلك النضر بن الحرث ، وكذلك ما فى القرآن فيه ذكر الأساطير . قال محمد بن إسحق : وكان مؤذبا للبي صلى الله عليه وسلم . (إِنْ هَذَا) يعنى القرآن . (إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ) أى كذب اخترعته . (وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَانَرُونَ) يعنى اليهود ، قاله مجاهد . وقال ابن عباس :

المراد بقوله «قَوْمٌ آخَرُونَ» أبو نُكَيْمَةَ مولى بنى الحضرمي وعداس وجبر، وكان هؤلاء الثلاثة من أهل الكتاب . وقد مضى في «النحل»^(١) ذكرهم . ﴿ فَقَدْ جَاءُوا ظُلُمًا ﴾ أى بظلم . وقيل : المعنى فقد أنوا ظلمنا . ﴿ وَزُورًا ﴾ . وقالوا أساطير الأولين ﴾ قال الزجاج : واحد الأساطير أسطورة ؛ مثل أحذوتة وأحاديث . وقال غيره : أساطير جمع أسطار ؛ مثل أقوال وأقوال . ﴿ أَكْتَنَبَهَا ﴾ يعنى عدا . ﴿ فَهِيَ تَمَلُّ عَلَيْهِ ﴾ أى تلقى عليه وتقرأ . ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ حتى تحفظ . و « تمل » أصله تملل ؛ فأبدلت اللام الأخيرة ياء من التضعيف ؛ كقولهم : تقضى البازي ؛ وشبهه

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أُنْزِلَ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى قبل يا محمد أنزل هذا القرآن الذى يعلم السر ، فهو عالم الغيب ، فلا يحتاج إلى معلم . وذكر « السر » دون الجهر ؛ لأنه من علم السر فهو في الجهر أعلم . ولو كان القرآن مأخوذاً من أهل الكتاب وغيرهم لما زاد عليها ، وقد جاء بفنون تخرج عنها ، فليس مأخوذاً منها . وأيضاً ولو كان مأخوذاً من هؤلاء لم تكن المشركون منه أيضاً كما يمكن عهد صلى الله عليه وسلم ؛ فهلا عارضوه فبطل اعتراضهم من كل وجه . ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ يريد غفورا لأوليائه رحيماً بهم .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ أو يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ . فيه مستطاب :

الأولى - قوله تعالى : « وَقَالُوا » ذكر شيئا آخر من مطاعهم . والضمير في « قالوا » لفريش ؛ وذلك أنهم كان لهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلس مشهور ، وقد تقدمت (١) راجع ١٠ ص ١٧٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثالثة :

في « سبحانه » . ذكره ابن إسحق في السيرة وغيره . مضمته — أن سادتهم عتبة بن ربيعة وغيره اجتمعوا معه فقالوا : يا جعد ! إن كنت تحب الرئاسة وليناك علينا ، وإن كنت تحب المال جمعنا لك من أموالنا ؛ فلما أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك رجعوا في باب الاحتجاج معه فقالوا : ما بالك وأنت رسول الله تأكل الطعام ، وتقف بالأسواق ؛ فعيروه بأكل الطعام ؛ لأنهم أرادوا أن يكون الرسول ملكاً ، وعيروه بالمشي في الأسواق حين رأوا الأكرسة والقيصرة والملوك الجبابرة يترفعون عن الأسواق ، وكان عليه السلام يخالفهم في أسواقهم ، ويأمرهم وينهاهم ؛ فقالوا : هذا يطلب أن يتملك علينا ، فماله يخالف سيرة الملوك ؛ فأجابهم الله بقوله ، وأزل على نبيه : « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ » فلا تفتن ولا تحزن ، فإنها شكاة ظاهر عنك عاراها .

الثانية — دخول الأسواق مباح للتجارة وطلب المعاش . وكان عليه السلام يدخلها لحاجته ، ولتذكرة الخلق بأمر الله ودعوته ، ويعرض نفسه فيها على القبائل ، لعل الله أن يرجع بهم إلى الحق . وفي البخاري في صفته عليه السلام : « ليس بفظاً ولا غليظ ولا مخضب يرجع بهم إلى الحق » . وقد تقدم في « الأعراف » . وذكر السوق مذكور في غير ما حديث ، ذكره أهل الصحيح . وتجارة الصعابة فيها معروفة ، وخاصة المهاجرين ؛ كما قال أبو هريرة : وإن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصق بالأسواق ؛ نخرجه البخاري . وسيأتي لهذه المسئلة زيادة بيان في هذه السورة إن شاء الله .

قوله تعالى : (لَوْ لَا أَنْزَلْ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ) أي هلاً . (فَيَكُونُ مَعَهُ تَذِيراً) جواب الاستفهام . (أَوْ يُنذِرُ) في موضع رفع ، والمعنى : أو هلاً ينذِرُ (إِلَيْهِ كَثُراً) (أَوْ) هلاً (تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا) « يأكل » بالياء قرأ المدنيون وأبو عمرو وعاصم . وقرأ سائر الكوفيون بالنون ، والفرقاء تان حمتان تؤذيان عن معنى ، وإن كانت القراءة بالياء أبلغ ، لأنه

(١) راجع ١٠٠ من ٣٢٨ طبة امل اراتانية . (٢) راجع ٧ ص ٢٩٩ طبة امل اراتانية .

(٣) الصق : التبايع .

قد تقدم ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وحده فإن يعود الضمير عليه أين ؛ ذكره النحاس .
 ﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا وَجْلاً مُسْحُوراً ﴾ تقدم في « سبحان » والفاصل عبد الله بن
 الزبيري فيما ذكره الماوردي .

قوله تعالى : أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلُ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
 سَبِيلاً ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ
 تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُوراً ﴾ ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلُ ﴾ أى ضربوا لك هذه الأمثال لينصروا
 إلى تكديبك . ﴿ فَضَلُّوا ﴾ عن سبيل الحق ومن بلوغ ما أرادوا . ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾
 إلى تصحيح ما قالوه فيك .

قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ ﴾ شرط وبجازاة ،
 ولم يدغم « جَعَلَ لَكَ » لأن الكلمتين منفصلتان ، ويجوز الإدغام لأجتماع المثلين . ﴿ وَيَجْعَلُ
 لَكَ ﴾ في موضع نجزم عطفا على موضع « جعل » . ويجوز أن يكون في موضع رفع مقطوعا
 من الأول . وكذلك قرأ أهل الشام . ويروى عن عاصم أيضا « وَيَجْعَلُ لَكَ » بالرفع ؛
 أى وسيجعل لك في الآخرة قصورا . قال مجاهد : كانت فريش ترى البيت من حجارة قصرا
 كأنها ما كان . والقصر في اللغة الحبس ، وسمى القصر قصرا لأن من فيه مقصور عن أن يوصل
 إليه . وقيل : العرب تسمى بيوت الطين القصر . وما يتخذ من الصوف والشعر البيت .
 حكاه القشيري . وروى سفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن خيثمة قال : قيل للنبي صلى الله
 عليه وسلم : إن شئت أن نعطيك خزائن الدنيا ومفاتيحها ولم يعط ذلك من قبلك ولا يعطاه
 أحد بعدك ، وليس ذلك بناقصك في الآخرة شيئا ؛ وإن شئت جمعنا لك ذلك في الآخرة ؛
 فقال : « يجمع ذلك لي في الآخرة » فأنزل الله عز وجل « تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا

مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ۝ . و يروى أن هذه الآية أنزلها
 رضوان خازن الجنان إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي الخبر : إن رضوان لما نزل سلم على النبي
 صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : يا محمد ! رب العزة يقرئك السلام ، وهذا سقط — فإذا سقط
 من نور يتلألأ — يقول لك ربك : هذه مفاتيح خزائن الدنيا ، مع أنه لا ينقص مالك في شيء .
 مثل جناح بموضة ، فنظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى جبريل كالمستشير له ، فضرب جبريل
 بيده الأرض يشير أن تواضع ، فقال : ” يا رضوان لا حاجة لي فيها الفقر أحب إلى وإن
 أكون عبدا صابرا شكورا “ . قال رضوان : أصوت ! الله لك . وذكر الحديث .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝
 إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ۝ وَإِذَا أَلْقَا
 مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ
 ثُبُورًا وَحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ۝ ﴾

قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ﴾ يريد يوم القيامة . ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ
 سَعِيرًا ﴾ يريد جهنم تنطلق عليهم . ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أى من مسيرة خمسمائة عام .
 ﴿ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ﴾ قيل : المعنى إذا رأتهم جهنم سمعوا لها صوت التغيظ عليهم .
 وقيل : المعنى إذا رأتهم خزائنهم سمعوا لهم تغيظا وزفيرا حرصا على مآلهم . والأول أصح ؛
 لما روى مرفوعا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” من كذب على متعمدا فليتبوأ
 دين عني جهنم مقعدا “ قيل : يا رسول الله ! وما عيان ؟ قال : ” أما سمعتم الله عز وجل
 يقول : « إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا » يخرج عني من النار له عيان
 تبصران ولسان ينطق فيقول وكُلت بكل من جعل مع الله إلها آخر فلهوا ! بصريهم من الطير
 بحب السمسم فيلقطه “ في رواية ” فيخرج عني من النار فيلقط الكفار لقط الطائر حب

(١) السقط : الذى يهي فيه الطيب وما أشبه من إدوات النساء . وقيل : كالجزائق .

السهم " ذكره رزين في كتابه ، وصححه ابن العربي في قبسه ، وقال : أى تفصلهم عن الخلق في المعرفة كما يفصل الطائر حب السهم من التربة . وخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يخرج عنق من النار يوم القيامة له عينان تبصران : نسمان ولسان ينطق يقول إني وكُلت بثلاث بكل جبار عنيد وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر . المصورين " . وفى الباب عن أبى سعيد قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب صحيح ، وقال الكاظمي : سمعوا لما تنظفوا كتنظف بنى آدم وصوتا كهوت الحمام . وقيل : فيه تقديم وتأخير ، سمعوا لما زفيرا وعلماها تنظفوا . وقال قطرب : التيفظ لا يسمع ، ولكن يرى ، والمعنى : رأوا لما تنظفوا وسمعوا لها زفيرا ، كقول الشاعر :

ورأيت زوجك في الورى • متقلداً سيقاً ومُحماً

أى وحاملاً ومُحماً . وقيل : « سمعوا لها » أى فيها ، أى سمعوا فيها تنظفوا وزفيرا للمؤمنين . كما قال تعالى : « لَمْ يَهَيِّأْ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ » و « فى واللام » يتفاربان ، تقول : أفعل هذا فى الله والله .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ ﴾ قال قتادة : ذكر لنا أن عبد الله كان يقول : إن جهنم لتضيق على الكافر كتضيق الزج على الرمح ، ذكره ابن المبارك في رقايقه . وكذا قال ابن عباس ، ذكره الثعلبي والقشيري عنه ، وحكاها الماوردى عن عبد الله بن عمرو . ومعنى « مُقَرَّنِينَ » مكثفين ، قاله أبو صالح . وقيل : مصفدين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم فى الأغلال . وقيل : فزنوا مع الشياطين ، أى قرن كل واحد منهم إلى شيطانه ، قاله يحيى بن سلام . وقد مضى هذا فى « إبراهيم » وقال عمرو بن كلثوم :

فأبوا بالتهاب وبالسبأ • وأبنا بالمسوك مُقَرَّنِينَ^(١)

﴿ دَعَا هَٰذَاكَ ثُبُورًا ﴾ أى هلاكاً ، قاله الضحاك . ابن عباس : وبلا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أول من يقوله إبليس وذلك أنه أول من يكسى حلة من النار

(١) الزج بالضم : الحديد التى فى أسفل الرمح . (٢) راجع ج ٩ ص ٣٨٤ طبعه أول مرة ثانية .

(٣) الرواية فى البيت : « مصفدين » .

فتوضع على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من خلفه وهو يقول واثيراه . وانتصب على المصدر، أى ثيرنا ثبوراً، قاله الزجاج . وقال غيره : هو مفعول به .

قوله تعالى : (لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا) فإن هلاككم أكثر من أن تدعوا مرة واحدة . وقال ثبوراً لأنه مصدر يقع للقليل والكثير فلذلك لم يجمع ، وهو كقولك : ضربته ضرباً كثيراً ، وقعد قعوداً طويلاً . ونزلت الآيات في آبن خطئ وأصحابه .

قوله تعالى : قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَّبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴿١٦﴾

قوله تعالى : (قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ) . إن قيل : كيف قال « أَذَلِكَ خَيْرٌ » ولا خير في النار ؛ فالجواب أن سيويه حكى عن العرب : الشفاء أحب إليك أم السعادة ، وقد علم أن السعادة أحب إليه . وقيل : ليس هو من باب أفعل منك ، وإنما هو كقولك : عنده خير . قال النحاس : وهذا قول حسن ؛ كما قال

« فشر كما لخير كما الفداء » .

قيل : إنما قال ذلك لأن الجنة والنار قد دخلتا في باب المنازل ؛ فقال ذلك لتفاوت ما بين المنزلتين . وقيل : هو مردود على قوله : « تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ » الآية . وقيل : هو مردود على قوله : « أَوْ يُنْفِثْ إِلَيْهِ كَذِبٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ بِمَا كَسَبَتْ مِنْهَا » . وقيل : إنما قال ذلك على معنى علمكم واعتقادكم أيها الكفار ؛ وذلك أنهم لما كانوا يعملون عمل أهل النار صاروا كأنهم يقولون إن في النار خيراً .

قوله تعالى : (لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ) أى من النعيم . (خَالِدِينَ) كان على ربك وعداً مستوفياً قال الكلبي : وعد الله المؤمنين الجنة جزاء على أعمالهم ، فسأله ذلك الوعد فقالوا : رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ . وهو معنى قول آبن عباس . وقيل : إن الملائكة تسأل لهم (١) هو حسان بن ثابت — رضى الله عنه — مدح النبي صلى الله عليه وسلم ودهجوا أبا سفيان ، وصدر البيت :

• أتهجروا ولست به بكف •

الجنة؛ دليله قوله تعالى : « رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ » الآية . وهذا قول محمد
ابن كعب القرطبي . وقيل : معنى « وَعَدًا مَسْئُولًا » أى واجباً وإن لم يكن يسأل كالدّين ؛
حكى عن العرب : لأعطيتك ألفاً . وقيل : « وَعَدًا مَسْئُولًا » يعنى أنه واجب لك فتسأله .
وقال زيد بن أسلم : سألوا الله الجنة فى الدنيا ورضوا إليه بالدعاء ، فأجابهم فى الآخرة إلى ما سألوا
وأعطاهم ما طلبوا . وهذا يرجع إلى القول الأول .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ
أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ
يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعِبَادَهُمْ
حَتَّى نَسُوا اللَّهَ الَّذِي وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ
فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مَسْكْرًا نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾
قوله تعالى : (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ) قرأ ابن محيصن وحيد وابن كثير وحفص ويعقوب
وأبو عمرو فى رواية الدورى « يَحْشُرُهُمْ » بالياء . وأخاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لقوله فى أول
الكتاب « كَانَ عَلَى رَبِّكَ » وفى آخره « أَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ » . الباقيون بالنون على التعظيم .
(وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) من الملائكة والإنس والجن والمسيح وعزير ؛ قاله مجاهد وابن جريج .
الضحاك وعكرمة : الأصنام . (فَيَقُولُ) قراءة العامة بالياء وهو اختيار أبى عبيد وأبى حاتم . وقرأ
ابن طاهر وأبو حيوة بالنون على التعظيم . (أَلَا أَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ)
وهذا كاستفهام توبيخ للكفار . (قَالُوا سُبْحَانَكَ) أى قال المعبودون من دون الله سبحانه ؛
أى عجزوا لك (مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ) . فإن قيل : فإن كانت
الأصنام التى تعبد تحشر فكيف تنطق وهى جماد ؟ قيل له : ينطقها الله تعالى يوم القيامة كما
ينطق الأبدى والأرجل . وقرأ الحسن وأبو جعفر « أَنْ نَتَّخِذَ » بضم النون وفتح الحاء على
الفعل المجهول . وقد تكلم فى هذه القراءة النحويون ؛ فقال أبو عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر :

لا يجوز « تُخَذَّ » . وقال أبو عمرو : لو كانت « تُخَذَّ » لحذفت « من » الثانية فقلت أن
 تُخَذَّ من دونك أولياء . كذلك قال أبو عبيدة : لا يجوز « تُخَذَّ » لأن الله تعالى ذكر « من »
 مرتين ، ولو كان كما قرأ لقال : أن تُخَذَّ من دونك أولياء . وقيل : إن « من » الثانية صلة ؛
 قال النحاس : ومثل أبي عمرو على جلالتة ومجده يستحسن ما قال ؛ لأنه جاء بينة . وشرح
 ما قال أنه يقال : ما أخذت رجلا وليا ؛ فيجوز أن يقع هذا الواحد بينه ؛ ثم يقال :
 ما أخذت من رجل وليا فيكون نقيضا ، وقولك « وليا » تابع لما قبله فلا يجوز أن تدخل
 فيه « من » لأنه لا فائدة في ذلك . (وَلَكِنْ مَتَّعْتُمْ آبَاءَهُمْ) أى فى الدنيا بالصحة والغنى وطول
 العمر بعد موت الرسل صلوات الله عليهم . (حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ) أى تركوا ذكرك فأنشركوا بك
 بطرا وجهلا فنبهونا من غير أن أمرناهم بذلك . وفى الذكر قولان : أحدهما — القرآن المثل على
 الرسل ؛ تركوا العمل به ، قاله ابن زيد . الثانى — الشكر على الإحسان إليهم والإيمان عليهم . إنهم
 (كَانُوا قَوْمًا بُورًا) أى هلكى ، قاله ابن عباس . مأخوذ من البوار وهو الهلاك . وقال أبو الدرداء
 رضى الله عنه وقد أشرف على أهل حصص : يا أهل حصص ! هلم إلى أخ لكم ناصح ، فلما اجتمعوا
 حوله قال : ما لكم لا تستمعون ! تبنون مالا تسكنون ، وتجمعون مالا تأكلون ، وتأملون
 مالا تدركون ، إن من كان قبلكم بنوا مشيدا وجعوا عبيدا ، وأملوا عبيدا ، فأصبح جمعهم بورا ،
 وآملهم غرورا ، ومساكنهم قبورا ؛ فقوله « بورا » أى هلكى . وفى خبر آخر : فأصبحت
 منازلهم بورا ؛ أى خالية لا شىء فيها . وقال الحسن : « بورا » لا خير فيهم . مأخوذ من بور
 الأرض ، وهو تعطيلها من الزرع فلا يكون فيها خير . وقال شهر بن حوشب : البوار الفساد
 والكساد ؛ مأخوذ من قولهم : بارت السلعة إذا كسدت كساد الفاسد ؛ ومنه الحديث « نهوذ
 بالله من بوار الأئمة » . وهو اسم مصدر كالزور يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكر
 والمؤنث . قال ابن الزمخشري :

يَا رَسُولَ الْمَلِكِ إِنَّ لِسَانِي * رَأَيْتُ مَا قَعْتُ إِذْ أَتَى بُورُ
 إِذْ أَبَارَى الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ اللَّهِ * جِيءَ وَمَنْ مَالٌ بَسِيلَةٌ مَبْسُوءُ

وقال بعضهم : الواحد باثروا لجمه نور . كما يقال : عائد وعُود، وهائد وهُود . وقال :
« بُرّاً » عيباً عن الحق .

قوله تعالى : (فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ) أى يقول الله تعالى عند تبرى المعبودين :
« فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ » أى فى قولكم إنهم آلهة . (فَمَا يَسْتَطِيعُونَ) يعنى الآلهة صرف
العذاب عنكم ولا نصركم . وقيل : فما يستطيع هؤلاء الكفار لما كذبهم المعبودون (صِرَافاً)
للعذاب (وَلَا نَصراً) من الله . وقال ابن زيد : المعنى فقد كذبكم أيها المؤمنون هؤلاء
الكفار بما جاء به محمد ، وعلى هذا المعنى « بما تقولون » بما تقولون من الحق . وقال
أبو عبيد : المعنى « فيما تقولون » فما يستطيعون لكم صرفاً عن الحق الذى هذاكم الله إليه ،
ولا نصراً لأنفسهم مما يتل بهم من العذاب بتكذيبهم إياكم . وقراءة العامة « بِمَا تَقُولُونَ » بالثاء
على الخطأ . وقد بينا معناه . وحكى الفراء أنه يقرأ « فَقَدْ كَذَّبْتُمْ » مخففاً ، « بِمَا يَقُولُونَ » .
وكذا قرأ مجاهد والبرقي بإلـاء ، « يكون معنى « يَقُولُونَ » بقولهم . وقرأ أبو حيوة « بِمَا يَقُولُونَ »
بباء « فَمَا يَسْتَطِيعُونَ » بناء على الخطأ لمن يخذى الشركاء . ومن قرأ بإلـاء فالمعنى : فما يستطيع
الشركاء . (وَمَنْ يَغْلِبْ مِنْكُمْ) قال ابن عباس : من يشرك منكم ثم مات عليه . (نَذَقْهُ)
أى فى الآخرة . (عَذَاباً كَثِيراً) أى شديداً ، كقوله تعالى : « وَلَتَعْلَنَ عُلُوُّكُمْ كَثِيراً » أى شديداً .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ
الطَّعَامَ وَيَمَشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ
وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٧﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) نزلت جواباً للشركين حيث
قالوا : « مَا لِي هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ » . قال ابن عباس : لما
عير المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفاقة وقالوا : « مَا لِي هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ »

الآية حزن النبي صلى الله عليه وسلم لذلك فزلت تعزية له ؛ فقال جبريل عليه السلام : السلام عليك يا رسول الله ! الله ربك يقرئك السلام ويقول لك : « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ » أى يتفنون المعاش فى الدنيا .

التائىة — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾ إذا دخلت اللام لم يكن فى «إن» إلا الكسر ، ولو لم تكن اللام ما جاز أيضا إلا الكسر ؛ لأنها مستأنفة . هذا قول جميع النحويين ، قال النحاس : إلا أن على بن سليمان حكى لنا عن محمد بن يزيد قال : يجوز فى « إن » هذه الفتح وإن كان بعدها اللام ؛ وأحسبه وقها منه . قال أبو إسحق الزجاج : وفى الكلام حذف ؛ والمعنى وما أرسلنا قبلك رسلا إلا أنهم لياكلون الطعام ، ثم حذف رسلا ، لأن فى قوله : « مِنَ الْمُرْسَلِينَ » ما يدل عليه . فالوصف محذوف عند الزجاج . ولا يجوز عنده حذف الموصولة وتبقيّة الصلة كما قال الفراء . قال الفراء : والمحذوف « مَنْ » والمعنى إلا من أنهم لياكلون الطعام . وشبهه بقوله : « وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ » ، وقوله : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » أى ما منكم إلا من هو واردها . وهذا قول الكشاف ؛ أيضا . ويقول العرب : ما بعث إليك من الناس إلا من إنه لطبيخك . فقولك : إنه لطبيخك صلة من . قال الزجاج : هذا خطأ ؛ لأن من موصولة فلا يجوز حذفها . وقال أهل المعاني : المعنى ؛ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا قيل إنهم لياكلون ؛ دليله قوله تعالى : « مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ » . وقال ابن الأثير : كسرت « إنهم » بعد « إلا » للاستئناف بإضمار واو . أى إلا وإنهم . وذهبت فرقة إلى أن قوله : « لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ » كناية عن الحدث .

قلت : وهذا بايغ فى معناه ، ومثله « مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأَمَّهُ صِدْقَةٌ كَانَا يَأْكُلَنِ الطَّعَامَ » . (وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ) قرأ الجمهور « يَمْشُونَ » بفتح الياء وسكون الميم وتخفيف الشين . وقرأ على وابن عوف وابن مسعود بضم الياء وفتح الميم وشدة الشين المفتوحة ، بمعنى يُدْعَوْنَ إلى المشى ويمشون عليه . وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ بضم الياء وفتح الميم وضم الشين المشددة ، وهى بمعنى يَمْشُونَ ؛ قال الشاعر :

وَمَتَّى بِاعْطَانِ الْمَبَاةِ وَأَبْتَنَى * فَلَانَصَّ مِنْهَا صَعْبَةً وَرَكُوبٌ^(١)

وقال كعب بن زهير :

منه نَظَلَّ سِبَاعُ الْجَوْضَامِرَةِ^(٢) * وَلَا تُنْمَتِي بَوَادِيهِ الْأَرَاجِلُ
بمعنى تَمَتَّى .

الثالثة - هذه الآية أصل في تناول الأسباب وطلب المعاش بالتجارة والصناعة وغير ذلك . وقد مضى هذا المعنى في غير موضع ، لكنا نذكر هنا من ذلك ما يكفي فنقول : قال لي بعض مشايخ هذا الزمان في كلام جرى : إن الأنبياء عليهم السلام إنما بنوا ليستوا الأسباب للضعفاء ؛ فقلت بجياله : هذا قول لا يصدر إلا من الجهال والأغبياء ، والراع السفهاء ، أو من طاعن في الكتاب والسنة العلية ؛ وقد أخبر الله تعالى في كتابه عن أصفائه ورسله وأنبياؤه بالأسباب والاحتراف فقال وقوله الحق : «وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ» وقال : «وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ» قال العلماء : أي يتجرون ويمشون . وقال عليه الصلاة والسلام : «يُجِبُّ رِزْقٌ تَحْتَ ظِلِّ رُحْمِي» وقال تعالى : «فُكِّلُوا لِيَمًّا غَنِمٌ سَلَالًا طَيِّبًا» وكان الصحابة رضي الله عنهم يتجرون ويمشون في أموالهم يعملون ، ومن خالفهم من الكفار يقاتلون ؛ أترامهم ضعفاء ؛ بل هم كانوا والله الأقوياء ، وبهم انخلف الصالح أقدى ، وطريقهم فيه الهدى والاهتداء . قال : إنما تناولوها لأنهم أغنىة الاقتداء ، فتناولوها مباشرة في حق الضعفاء ، فأما في حق أنفسهم فلا ؛ وبيان ذلك أصحاب الصفة .

قلت : لو كان ذلك لوجب عليهم وعلى الرسول معهم البيان ، كما ثبت في القرآن «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» وقال : «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى» الآية . وهذا من البيئات والهدى ، وأما أصحاب الصفة فإنهم كانوا ضيف الإسلام

(١) في روح المعاني : «فلول» بدل «ركوب» . (٢) الجو : اليد الواسع . وضامة : ساكنة ، وكل ساكن فهو ضامن . والأراجيل : جمع أرجال كأنهم جمع أقدام ، وأرجال جمع رجل . يصف الشاعر أسدا بأن الأسود والرجال عفاه ، فالأسود ساكنة من هيبة والرجال بمنته عن الخشْي يراد به .

عند ضيق الحال، فكان عليه السلام إذا أنشأ صدقة خصهم بها، وإذا أنشأ هدية أكلها معهم، وكانوا مع هذا يحتطبون ويسوقون الماء إلى أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكذا وصفهم البخاري وغيره. ثم لما أفتح الله عليهم البلاد ومهد لهم المهاد تأمروا، وبالأسياب أمروا. ثم إن هذا القول يدل على ضعف النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، لأنهم أيدوا بالملائكة وثبتوا بهم، فلو كانوا أقوياء ما احتاجوا إلى تأييد الملائكة وتأييدهم إذ ذلك سبب من أسباب النصر، نعوذ بالله من قول وإطلاق يؤول إلى هذا، بل القول بالأسباب والوسائط سنة الله وسنة رسوله، وهو الحق المبين، والطريق المستقيم الذي أنقذ عليه إجماع المسلمين، وإلا كان يكون قوله الحق: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ» - الآية - مقصوراً على الضعفاء، وجميع الخطيئات كذلك.

وفي التزليل حيث خاطب موسى الكليم «أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ» وقد كان قادراً على فلق البحر دون ضرب عصا. وكذلك مريم عليها السلام «وَهَرَى إِلَيْكَ يَمْزِجُ النَّخْلَ» وقد كان قادراً على «وسط الرطب دون هنز ولا تمب» ومع هذا كله فلا تنكر أن يكون رجل يظف به وبعان، أو نجاب دعوته، أو يكرم بكرامة في خاصة نفسه أو لأجل غيره، ولا تهم لذلك القواعد الكلية والأمور الجزئية. هيئات هيئات! لا يقال فقد قال الله تعالى: «وَيَافَى السَّمَاءَ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ» إنا نقول: صدق الله العظيم، وصدق رسوله الكريم، وأن الرزق هنا المطر بإجماع أهل التأويل، بدليل قوله: «وَيُنَزَّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا» وقال: «وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَاتَّبَعْتَهُ جَنَاتٍ وَحَبَّ الْحَبْسِيدِ» ولم يشاهد ينزل من السماء على الخلق أطباق الخبز ولا حِفْظان اللحم، بل الأسباب الأصل في وجود ذلك، وهو معنى قوله عليه السلام: «أَطْلَبُوا الرِّزْقَ فِي خَبَايَا الْأَرْضِ» أي بالحرث والحفر والغرس. وقد يسمى الشيء بما يؤول إليه، وسمى المطر رزقاً لأنه عنه يكون الرزق، وذلك مشهور في كلام العرب. وقال عليه السلام: «لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَحْتَطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا عَطَاءً أَوْ مَنَعَةً» وهذا فيما خرج من غير تمب من الحشيش والحطب. ولو قدر رجل بالجلال منقطعاً عن الناس! ما كان له بد من الخروج إلى ما تخرجه الآكام وسهول الأعلام حتى يتناول من ذلك ما يعيش

به ، وهو معنى قوله عليه السلام : " لو أنكم كنتم تؤكلون على الله حق تؤكله لرزقتم كما تُرزق الطير تصدون بها وتروح يطانا " فسدقها ورواحها سبب ، فالمعجب المعجب بمن يدعى التجريد والتوكل على التحقيق ، ويقعد على ثبات الطريق ، ويدع الطريق المستقيم ، والمنهج الواضح القويم . ثبت في البخارى عن ابن عباس قال : كان أهل اليمن يحجون ولا يترددون ويقولون نحن المتوكلون ، فإذا قدموا سألو الناس ، فأئز الله تعالى « وَتَزِدُّوْا » . ولم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه رضوان الله عليهم أنهم خرجوا إلى أسفارهم يذير زاد ، وكانوا المتوكلين حقا ، والتوكل اعتماد القلب على الرب في أن يلم شعثه ويجمع عليه أربه ، ثم يتناول الأسباب بمجرد الأمر . وهذا هو الحق . سأل رجل الإمام أحمد بن حنبل فقال : إني أريد الحج على قدم التوكل . فقال : أخرج وحدك ، قال : لا ، إلا مع الناس . فقال له : أنت إذن متكل على أئبر بهم . وقد أتينا على هذا في كتاب « قمع الحرص بالزهد والفتاة وردّ ذل السؤال بالكسب والشفاعة » .

الرابعة - خرج مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أحب البلاد إلى الله مساجدها وأبغض البلاد إلى الله أسواقها " . وخرج البخاري عن سلمان الفارسي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تكونن إن استطعت أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فإنها معركة الشيطان وبها ينصب رايته " . أخرجه أبو بكر البرقاني مستندا عن أبي محمد عبد الله بن سعيد الحافظ - من رواية حاصم - عن أبي عثمان النهدي عن سلمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تكن أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فيها باض الشيطان وفرخ " . ففي هذه الأحاديث ما يدل على كراهة دخول الأسواق ، لا سيما في هذه الأزمان التي يخالف فيها الرجال النساء . وهكذا قال ملأونا لك كثير الباطل في الأسواق وظهرت فيها المناكر : كثر دخولها لأرباب الفضل والمقتدى بهم في الدين تنزيها لهم عن البقاع التي يعضى الله فيها . لحق على من ابتلاه الله بالسوق أن يخطر بباله أنه قد دخل محل الشيطان ومحل جنوده ، وأنه إن أقام هناك هلك ، ومن كانت هذه حاله أقصر منه على قدر ضرورته ، وتحجز من سوء عاقبته وبلية .

الخامسة - تنبيه النبي صلى الله عليه وسلم السوق بالمعركة تشبيه حسن ؛ وذلك أن المعركة موضع القتال، سمي بذلك لتشارك الأبطال فيه، ومصارعة بعضهم بعضاً، فثبه السوق وقفل الشيطان بها ونيله منهم مما يحملهم من المكر والخديعة ، والتساهل في البيوع الفاسدة والكذب والأيمان الكاذبة، واختلاط الأصوات وغير ذلك بمعركة الحرب ومن يصرع فيها.

السادسة - قال ابن العربي : أما أكل الطعام فضرورة الخلق لا عار ولا درك^(١) فيه، وأما الأسواق فسمعت مشيخة أهل العلم يقولون : لا يدخل إلا سوق الكتب والسلاح، وعندى أنه يدخل كل سوق الحاجة إليه ولا يأكل فيها ؛ لأن ذلك إسقاط للروء وهمد للحشمة؛ ومن الأحاديث الموضوعة^(٢) "الإكل في السوق دناءة".

قلت : ما ذكرته مشيخة أهل العلم فعما هو ؛ فإن ذلك خالٍ عن النظر إلى السوان ومخاطبتين ؛ إذ ليس بذلك من حاجتين . وأما غيرهما من الأسواق فمشجونة منهن ، وقلة الحياء غلبت عليهن ، حتى ترى المرأة في القيساريات وغيرهن قاعدة متبرجة بزيتها ، وهذا من المنكر الفاشي في زماننا هذا . نموذ بالله من منخطه .

السابعة - نخرج أبو داود الطيالسي في مسنده حدثنا حماد بن زيد قال حدثنا عمرو ابن دينار قهرمان آل الزبير من سالم عن أبيه عن عمر بن الخطاب قال : "من دخل سوقاً من هذه الأسواق فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة وبنى له قصراً في الجنة" نخرجه الترمذي أيضاً وزاد بعد "ومحا عنه ألف ألف سيئة" : "ورفع له ألف ألف درجة وبنى له بيتاً في الجنة" وقال : هذا حديث غريب . قال ابن العربي : وهذا إذا لم يقصد في تلك البقعة سواء ليعمرها بالطاعة إذ عمرت بالمعصية، وليعطيها بالذكور إذ عطلت بالفضلة، وليعلم الجهالة ويذكر الناسين .

(١) الدرك (يسكن ويحرك) : التبعة . (٢) الحديث رواه الطبراني عن أبي أمامة والخليل عن أبي هريرة وشيخه البرقي . (٣) القهرمان : هو كاخازن والوكيل الحافظ لما تحت يده والقائم بأمر الرجل . لغة القهرس . (٤) سواء : أي سوى الله تعالى .

الثامنة - قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ أى إن الدنيا دار بلاء وامتحان ، فأراد سبحانه أن يجعل بعض العبيد فتنه لبعض على العموم فى جميع الناس مؤمن وكافر ، فالصحيح فتنه لارضى ، والفنى فتنه للفقير ، والفقير الصابر فتنه للفنى . ومعنى هذا أن كل واحد مختبر بصاحبه ؛ فالنقى ممتحن بالفقير ، عليه أن يواسيه ولا يستخ منه . والفقير ممتحن بالفنى ، عليه ألا يحسده ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه ، وأن يصبر كل واحد منهما على الحق ، كما قال الضعفاك فى معنى « أَتَصْبِرُونَ » : أى على الحق . وأصحاب البلاء يقولون : لم نأف ، ولا عى يقول : لم لم أجعل كالصغير ؟ وهكذا صاحب كل آفة . والرسول المخصوص بكرامة النبوة فتنه لأشراف الناس من الكفار فى عصره . وكذلك العلماء وحكام العدل . ألا ترى إلى قولهم : « لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرَّتَيْنِ عَظِيمٍ » . فالفتنة إن يحسد المبطل المعافى ، ويحقر المعافى المبطل . والصبر : أن يحبس كلامهما نفسه ، هذا عن البطر ، وذلك عن الضجر . « أَتَصْبِرُونَ » محذوف الجواب ، يعنى أم لا تصبرون . فيقتضى جوابا كما قاله المزنى ، وقد أخرجته الفاقة فرأى خصيا فى مراكب ومناكب ، فخطر بباليه شيء فسمع من يقرأ الآية « أَتَصْبِرُونَ » فقال : بلى ربنا ! نصبر ونحتسب . وقد تلا ابن القاسم صاحب مالك هذه الآية حين رأى أشهب بن عبيد العزيز فى مملكته عابرا عليه ، ثم أجاب نفسه بقوله : سنصبر . وعن أبي الدرداء أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ويل للعالم من الجاهل وويل للجاهل من العالم وويل لئالك من الملوك وويل للملوك من المالك وويل للضعيف من الملوك وويل للضعيف من الملوك وويل للسلطان من الرعية وويل للرعية من السلطان وبعضهم لبعض فتنة وهو قوله « وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ » " أسنده الثعلبي فتمده الله برحمته . وقال مقاتل : نزلت فى أبي جهل ابن هشام والوليد بن المغيرة والهاشم بن وائل ، وعقبة بن أبي معيط وعُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ والنضر ابن الحرث حين رأوا أبا ذر وعبد الله بن مسعود ، وعمارا وبلالا وصهيبا وعامر بن قُفَيْرَةَ ، وسامسا مولى أبي حذيفة ومِهْجَمًا مولى عمر بن الخطاب وجبرا مولى الحضرمي ، وذوهم ؟ فقالوا على سبيل الاستهزاء : أنسلم فنكون مثل هؤلاء ؟ فانزل الله تعالى يخاطب هؤلاء

المؤمنين : « أَتَصْبِرُونَ » على ما ترون من هذه الحال الشديدة والفقر؛ فالوقوف بـ « أَتَصْبِرُونَ » خاص للؤمنين المحققين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم . كأنه جعل إهمال الكفار والتوسعة عليهم فتنة للؤمنين ، أى اختباراً لهم . ولما صبر المسلمون أنزل الله فيهم : « إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا » .

الثامنة — قوله تعالى : (وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا) أى بكل أمرئ وبين بصير أو يجزع ، ومن يؤمن ومن لا يؤمن ، وبين أدى ما عليه من الحق ومن لا يؤدي . وقيل : « أَتَصْبِرُونَ » أى أصبروا . مثل « فَهَلْ أَنْتُمْ مُتَّبِعُونَ » أى أتتوا ؛ فهو أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بالصبر .

قوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلِيكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ^(١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ^(٢)) قوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا) يريد لا يخافون البعث ولقاء الله ، أى لا يؤمنون بذلك . قال :

إِذَا لَسَمْتَهُ النَّعْلُ لَمْ يَرْجُ لَسَمَهَا * وَخَالَفَهَا فِي يَتِ نُوبٍ عَوَامِلُ

وقيل : « لَا يَرْجُونَ » لا يملكون . قال :

لِعَمَلِكَ مَا أَرْجُو إِذَا كُنْتُ مُسْلِمًا * عَلَىٰ أَيِّ جَنْبٍ كَانَ فِي اللَّهِ مَصْرَعِي

أين شجرة : لا يملكون ؛ قال :

أَرْجُو أُمَّةً قَتَلْتُ حَبِيبًا * شَفَاعَةَ جَدِّهِ يَوْمَ الْحِسَابِ

(لَوْلَا أُنْزِلَ) أى هلا أنزل . (عَلَيْنَا الْمَلَكَةُ) فيخبروا أن محمداً صادق . (أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا) عياناً فيخبرنا برسالته . نظيره قوله تعالى : « وَقَالُوا لَنْ نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَخْرُجَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ

(١) البيت لأبي ذؤيب وتقدم شرحه في ج ٨ ص ٣١١ طيبة أولى أو ثانية .

(٢) البيت من قصيدة لطبيب بن عدي قالها حين بلغه أن الكفار قد اجتمعوا عليه .

يُذَوِّعًا» إلى قوله «أَوْ تَأْتِي يَأْتِيهِ الْمَلَائِكَةُ قِيلًا» قال الله تعالى: ﴿تَقْبِلُهُ أَسْتَكْبِرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عَنَّا كِبِيرًا﴾ حيث سألوا الله الشطط؛ لأن الملائكة لا ترى إلا عند الموت أو عند نزول العذاب، والله تعالى لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، فلا عين تراه. وقال مقاتل: «عَتَوْا» علوا في الأرض. والعتو: أشد الكفر وأغش الظلم. وإذا لم يكتفوا بالمعجزات وهذا القرآن فكيف يكتفون بالملائكة؟ وهم لا يميزون بينهم وبين الشياطين، ولا بد لهم من معجزة يقيحها من يدعي أنه ملك، وليس للقوم طلب معجزة بعد أن شاهدوا معجزة، وأن ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ يريد أن الملائكة لا يراها أحد إلا عند الموت، فتبشر المؤمنين بالجنة، وتضرب المشركين والكفار بمقامع الحديد حتى تخرج أنفسهم. ﴿وَيَقُولُونَ نَحْنُ الْمُسْلِمُونَ﴾ يريد تقول الملائكة حراما محرما أن يدخل الجنة إلا من قال لا إله إلا الله، وأقام شرايعها؛ عن ابن عباس وغيره. وقيل: إن ذلك يوم القيامة؛ قاله مجاهد وعطية العوفي. قال عطية: إذا كان يوم القيامة تلقى المؤمن بالبشرى، فإذا رأى ذلك الكافر متناه فلم يره من الملائكة. وانتصب «يَوْمَ يَرَوْنَ» بتقدير لا بشرى للمجرمين يوم يرون الملائكة. «يَوْمَئِذٍ» تأكيد لـ «يَوْمَ يَرَوْنَ». قال النحاس: لا يجوز أن يكون «يَوْمَ يَرَوْنَ» منصوبا بـ «بُشْرَى» لأن ما في حيز النفي لا يعمل فيما قبله، ولكن فيه تقدير أن يكون المعنى يمنعون الإشارة يوم يرون الملائكة؛ ودل على هذا الحذف ما بعده. ويجوز أن يكون التقدير: لا بشرى تكون يوم يرون الملائكة، و«يَوْمَئِذٍ» مؤكدة. ويجوز أن يكون المعنى: أذكروم يوم يرون الملائكة، ثم أبتدأ فقال: «لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ نَحْنُ الْمُسْلِمُونَ» أي وتقول الملائكة حراما محرما أن تكون لهم البشرى إلا للمؤمنين. قال الشاعر:

أَلَا أَصْبَحْتَ إِسْمَاءَ جِحْشًا مُحَرَّمًا ۖ وَأَصْبَحْتُ مِنْ أَذَى مَوْتِهَا حَمًا^(١)

أراد ألا أصبحت أسماء حراما محرما.

(١) قاله رجل كانت له امرأة فطلقها وترتبها أخوه؛ أي أصبحت أخا زوجها بعد فاكنت زوجها.

وقال آخر:

حَنَّتْ إِلَى النَّخْلَةِ اتَّصَوَى فَقُلْتُ لَهَا * حَجْرٌ حَرَامٌ إِلَّا تِلْكَ الدَّهَارِيسُ^(١)

وروى عن الحسن أنه قال: «وَيَقُولُونَ حَجْرًا» وَقَفَّ مِنْ قَوْلِ الْمُجْرِمِينَ؛ فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «حَجُورًا» عَلَيْهِمْ أَنْ يَمَازُوا أَوْ يَمَارُوا؛ فَحَجَرَ اللَّهُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَالْأَوَّلُ قَوْلُ أَبِي عُبَيْسٍ وَبِهِ قَالَ الْفَوَاهِي؛ قَالَهُ أَبُو الْأَنْبَارِيِّ . وَقَرَأَ الْحَسَنُ وَأَبُو رِيَاءٍ «حَجْرًا» بِضَمِّ الْحَاءِ وَالنَّاسُ عَلَى كَمَرِهَا . وَقِيلَ: إِنَّ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِ الْكُفَّارِ قَالُوهُ لِأَنفُسِهِمْ؛ قَالَهُ قَتَادَةُ فِيمَا ذَكَرَ الْمَسْأُودِيُّ . وَقِيلَ: هُوَ مِنْ قَوْلِ الْكُفَّارِ لِلْإِلَهِ . وَهِيَ كَلِمَةٌ اسْتِغَاذَةٌ وَكَانَتْ مَعْرُوفَةً فِي الْجَاهِلِيَّةِ؛ فَكَانَ إِذَا لَقِيَ الرَّجُلُ مِنْ يَخَافُهُ قَالَ: حَجْرًا حَجُورًا؛ أَيْ حَرَامًا عَلَيْكَ التَّعَرُّضُ لِي . وَاتَّصَابَهُ عَلَى مَعْنَى: حَجَرْتُ عَلَيْكَ، أَوْ حَجَرَ اللَّهُ عَلَيْكَ؛ كَمَا تَقُولُ: سَقِيَا وَرِعْيَا . أَيْ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ إِذَا رَأَوْا الْمَلَائِكَةَ يَلْقَوْنَهُمْ فِي النَّارِ قَالُوا: نَمُودُ بِاللَّهِ مِنْكُمْ؛ ذَكَرَهُ الْقَشِيرِيُّ؛ وَحَكَى مَعْنَاهُ الْمُهْدَوِيُّ عَنْ عِمَّادِهِ . وَقِيلَ: «حَجْرًا» مِنْ قَوْلِ الْمُجْرِمِينَ . «حَجُورًا» مِنْ قَوْلِ الْمَلَائِكَةِ؛ أَيْ قَالُوا لِلْمَلَائِكَةِ نَمُودُ بِاللَّهِ مِنْكُمْ أَنْ تَعْرِضُوا لَنَا . فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: «حَجُورًا» أَنْ تَمَازُوا مِنْ شَرِّ هَذَا الْيَوْمِ؛ قَالَهُ الْحَسَنُ .

قوله تعالى: وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿١١﴾

أُحِبُّبِ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿١٢﴾

قوله تعالى: (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ) هَذَا تَنْبِيهُ عَلَى عَظَمِ قَدْرِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، أَيْ قَصْدُنَا فِي ذَلِكَ إِلَى مَا كَانَ يَعْمَلُهُ الْمُجْرِمُونَ مِنْ عَمَلٍ بَرَعْنَاهُ أَنْفُسَهُمْ . يُقَالُ: قَدِمْتُ فُلَانًا إِلَى أَمْرٍ كَذَا أَيْ قَصَدُهُ . وَقَالَ جَمَاهِدٌ: « قَدِمْنَا » أَيْ عَمَدْنَا . وَقَالَ الزَّاجِرُ:

وَقَدِمَ الْخَوَارِجُ الضَّلَالُ * إِلَى عِبَادِ رَبِّهِمْ فَقَالُوا

* إِنَّ دِمَاءَكُمْ لَنَا حَلَالٌ *

(١) البيت للقيس؛ والنسخة القصوى: راد . والدَّهَارِيسُ: الدَّهَارِيسُ . يقول لاته: هَذَا الْقَوْلُ حَضَّتْ إِلَيْهِ مَعْرُوحٌ . وَهِيَ: أَيْ شَايَةً إِذَا لَاهَرْنَا لَنَا * قَوْمًا يَزِدُّهُمْ إِذَا قَوْمًا شَرًّا

وقيل : هو قدوم الملائكة ، أخبر به عن نفسه تعالى فاعله . ^(١١) (يَحْمِلُنَّ هَبَاءَ مِثْرًا) أى لا ينفع به ، أى أهلكناه بالكفر . وليس «هَبَاءً» من ذوات الهمز وإنما همزت لانتفاء الساكنين .
والتصغير هَبِيٌّ في موضع الرفع ، ومن النحويين من يقول : هَبِيٌّ في موضع الرفع ؛ حكاه النحاس .
وواحدة هبأة والجمع أهباء . قال الحرث بن حِزَّاة يصف [ناقة] :
فَتَرَى خَلْفَهَا مِنَ الرَّجَبِ وَالْوَقْدِ * ج مَيْتًا كَمَا كَانَ أَهْبَاءُ ^(١٢)

وروى الحرث عن علي قال : الهباء المنتور شعاع الشمس الذي يدخل من الكوة . وقال الأزهري : الهباء ما يخرج من الكوة في ضوء الشمس شبيه بالبخار . تأويله : إن الله تعالى أحبط أعمالهم حتى صارت بمنزلة الهباء المنتور . فأما الهباء المنبت فهو ما تنيره الخليل يستاكها من الغبار . والمنبت المتفرق . وقال ابن عرفة : الهبوة والهباء التراب الدقيق .
الجوهري : ويقال له إذا ارتفع هَبًا يَبُوءُ هَبُوءًا وأهينته أنا . والهبوة الغبرة . قال رؤبة :
تَبْدُو لَنَا أَعْلَامُهُ بَعْدَ الْفَرْقِ * فِي قِطْعِ الْأَكْلِ وَهَبَوَاتِ الدَّقِيقِ ^(١٣)
وموضع هب التراب أى كأن ترابه مثل الهباء في الرقة . وقيل : إنه ما ذرته الرياح من يابس أوراق الشجر ؛ قاله قتادة وابن عباس . وقال ابن عباس أيضا : إنه الماء المهرق .
وقيل : إنه الرماد ؛ قاله عبيد بن يعلى . ^(١٤)

قوله تعالى : (أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا) .

تقدم القول فيه عند قوله تعالى : « قُلْ أَذَلِكْ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ » .
قال النحاس : والكوفيون يميزون « العسل أحلى من الخلل » وهذا قول مردود ؛ لأن معنى فلان خير من فلان أنه أكثر خيرا منه ولا حلاوة في الخلل . ولا يجوز أن يقال : النصراني خير من اليهودي ؛ لأنه لا خير فيهما فيكون أحدهما أزيد في الخير . لكن يقال : اليهودي شر

(١) كذا في الأصل ؛ وعجزة ابن عطية : « أسند إليه لأنه عن أمه » . (٢) قال النحاس :
والفقد عنده هي . (٣) قوله « خلقها » أى خلف الناقة . والرجع : رجع قوائها . والوقع : وقع خفافها .
والمتين : البيار الدقيق الذي تنيره . (٤) الدق : ما دق من التراب ، والواحد منه الدق كما تقول الجبل دابلل .
(٥) كذا في الأصل ؛ وفي « ربيع الهادي » : يعلى بن عبيد . (٦) راجع ص ٩ من هذا الجزء .

من النصراني؛ فعل هذا كلام العرب . و « مُسْتَقَرًّا » نصب على الظرف إذا قدر على غير باب « أفعل منك » والمعنى لم خير في مستقر . وإذا كان من باب « أفعل منك » فانتصابه على البيان؛ قاله النحاس والمهدوي . قال قتادة : « وأحسن مقيلا » منزلا وماوى . وقيل : هو على ما تعرفه العرب من مقيلا نصف النهار . ومنه الحديث المرفوع " إن الله تبارك وتعالى يفرغ من حساب الخلق في مقدار نصف يوم قَبِيلُ أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار " ذكره المهدوي . وقال ابن مسعود : لا ينتصف النهار يوم القيامة من نهار الدنيا حتى يقبل هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار، ثم قرأ « ثم إن مَيقِلَهُمْ لَإِلَى الْجَهَنَّمَ » كذا هي في قراءة ابن مسعود . وقال ابن عباس : الحساب من ذلك اليوم في أوله . فلا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقبل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار . ومنه ما روى " قِيلُوا إِنَّ الشَّيَاطِينَ لَا يَغِيلُ " وذكر قاسم ابن أصبغ من حديث أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة " قلت : ما أطول هذا اليوم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسى بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة المكتوبة يصلها في الدنيا " .

قوله تعالى : وَيَوْمَ نَسْفُقُ السَّمَاءَ رِجًّا رِجًّا نَسْفُكُهَا نَسْفُكًا مَّتَدِدَةً فَيَكُونُ الْسَّمَاءُ لَدُكَّانًا مُدْطَبًّا . وَيَوْمَ نَسْفُقُ السَّمَاءَ رِجًّا رِجًّا نَسْفُكُهَا نَسْفُكًا مَّتَدِدَةً فَيَكُونُ الْسَّمَاءُ لَدُكَّانًا مُدْطَبًّا .

قوله تعالى : (وَيَوْمَ نَسْفُقُ السَّمَاءَ رِجًّا رِجًّا نَسْفُكُهَا نَسْفُكًا مَّتَدِدَةً) أى وأذكر يوم نسفك السماء بالنعام . وقراه حاصم والأعشى ويحيى وجمزة والكسائي وأبو عمرو « نَسْفُكُ » تخفيف الشين وأصله تشفق بتأنيين غذفوا الأول تخفيفا ، وأختره أبو عبيد . الباقر « نَسْفُكُ » بتشديد الشين على الإدغام ، وأختره أبو حاتم . وكذلك في « ق » . « رِجًّا رِجًّا » أى عن النعام . والباء وعن يتعاقبان ؛ كما نقول : رميت بالقوس وعن القوس . روى أن السماء تشفق عن سحاب

أبيض وقيق مثل الضبابة ، ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تيههم فنشق السماء عنه ؛ وهو الذي قال تعالى : « **هَبْلٌ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمْ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ** » . (**وُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ**) من السموات ، وأتى الرب جل وعز في الغمامة الذين يحملون العرش لفصل القضاء ، على ما يجوز أن يحمل عليه إتيانه ؛ لا على ما يحمل عليه صفات المخلوقين من الحركة والانتقال . وقال ابن عباس : تنشق سماء الدنيا فيزل أهلها وهم أكثر من في الأرض من الجن والإنس ، ثم تنشق السماء الثانية فيزل أهلها وهم أكثر من في سماء الدنيا ، ثم كذلك حتى تنشق السماء السابعة ، ثم يزل الكروبيون وحلة العرش ؛ وهو معنى قوله : « **وُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا** » أى من السماء إلى الأرض لحساب الثقلين . وقيل : إن السماء تنشق بالغمام الذى بينها وبين الناس ؛ فينشق الغمام تنشق السماء ، فإذا انشقت السماء انتقض تركيبها وطويت وزلت الملائكة إلى مكان سواها . وقرا ابن كثير « **وَتُنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ** » بالنصب من الإنزال . الباقون « **وُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ** » بالرفع . دليله « **تَنْزِيلًا** » ولو كان على الأول لقال إنزالا . وقد قيل : إن **زَلَّ** وأزّل بمعنى ؛ بقاء « **تَنْزِيلًا** » على « **زَلَّ** » وقد قرأ عبد الوهاب عن أبي عمرو « **وُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا** » . وقرا ابن مسعود « **وَأُنْزِلَ الْمَلَائِكَةُ** » . أى بره كعب : « **وَتُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةُ** » . وحته « **وَتُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةُ** » .

قوله تعالى : (**أَلَمْ تَكُنْ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ**) « الملك » مبتدأ و « الحق » صفة له و « **لِلرَّحْمَنِ** » الخبر ؛ لأن الملك الذى يزول ويقطع ليس بملك ؛ فبطلت يومئذ أملكه المالكين وانقطعت دعاويهم ، وزال كل ملك وملكه ، وبقي الملك الحق لله وحده . (**وَكُنَّا يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عِيسَى**) أى لما ينالهم من الأهوال ويلحقهم من الخزي والهوان ، وهو على المؤمنين أخف من صلاة مكتوبة ؛ على ما تقدم في الحديث . وهذه الآية دالة عليه ؛ لأنه إذا كان على الكافرين عسيرا فهو على المؤمنين يسيرا . يقال : **عَسِرَ** يعسر ، و**عُسْرٌ** يعسر .

(١) الكروبيون (ضخ الكاف) : سادة الملائكة ، منهم جبريل وميكائيل وإسرافيل هم المقربون .
لكرج الغرب .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ بَلَّيْتَنِي أَخَذْتُ
مَعَ الرُّسُولِ سَبِيلًا ﴿٧٧﴾ يَنْوِيْلَتْنِي لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٧٨﴾
لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ
خَدُولًا ﴿٧٩﴾

قوله تعالى : (وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ) الماضي عيضت . وحكى الكسائي
عَضَضَتْ بفتح الضاد الأولى . وجاء التوقيف عن أهل التفسير ، منهم ابن عباس وسعيد
ابن المسيب أن الظالم ها هنا يراد به عقبة بن أبي معيط ، وأن خليله أمية بن خلف ، فعقبة
قتله على بن أبي طالب رضي الله عنه ؛ وذلك أنه كان في الأسارى يوم بدر فأمر النبي
صلى الله عليه وسلم بقتله ؛ فقال : أقتل دونهم ؟ فقال . نعم ، بكفرك وعتوك . فقال :
من للصبية ؟ فقال : النار . فقام على رضي الله عنه فقتله . وأمية قتله النبي صلى الله عليه وسلم ،
فكان هذا من دلائل نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه خبر عنهما بهذا فقتلا على الكفر .
ولم يسميا في الآية لأنه أبلغ في الفائدة ، ليعلم أن هذا سبيل كل ظالم قبل من غيره في معصية
الله عز وجل . قال ابن عباس وقادة وضيتهما : وكان عقبة قد هزم بالإسلام فدمه منه
أبي بن خلف وكانا خديتين ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قتلتهما جميعا : قُتل عقبة يوم بدر
صبريا ، وأبي بن خلف في الميمنة يوم أحد ؛ ذكره القشيري والعلمي ، والأول ذكره
النحاس . وقال السبيل : « وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ » هو عقبة بن أبي معيط ، وكان
صديقا لأمية بن خلف الجمحي ويروي لأبي بن خلف أخ أمية ، وكان قد صنع وليمة
فدعا إليها قريشا ، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبى أن يأتيه إلا أن يسلم . وكره
عقبة أن يتأخر عن طعامه من أشرف قريش أحد فأسلم ونطق بالشهادتين ، فأداه
رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكل من طعامه ، فعاتبه خليله أمية بن خلف ، أو أبي بن
خلف وكان غائبا . فقال عقبة : رأيت عظماي ألا يحضر طعامي رجل من أشرف قريش .
فقال له خليله : لا أرضى حتى ترجع وتبصق في وجهه وتطأ عنقه وتقول كيت وكيت . ففعل

عذوقه ما أمره به خليله ؛ فانزل الله عز وجل : « وَيَوْمَ يَعْصِي الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ » . قال الضحاك : لما بصق عقبة في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع بصاقه في وجهه وشوى وجهه وشفتيه ، حتى أثر في وجهه وأحرق خديه ، فلم يزل أثر ذلك في وجهه حتى قتل . وعضه يديه فعل النادم الحزين لأجل طاعته خليله . (يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا) في الدنيا ، يعني طريقا إلى الجنة . (يَا وَيْلَتَا) دعاء بالويل والنبور على مخالفة الكافر وتابعته . (لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا) يعني أمة ، وكفى عنه ولم يصرح باسمه لئلا يكون هذا الورد مخصوصا به ولا مقصورا ، بل يتناول جميع من فعل مثل فعلهما . وقال مجاهد وأبو رجا : الظالم عام في كل ظالم ، وفلان : الشيطان . واحتج لصاحب هذا القول بأن بعده « وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا » . وقرأ الحسن « يَا وَيْلَتَا » وقد مضى في « هود » بيانه . والخليل : الصاحب والصديق وقد مضى في « النساء » بيانه . (لَقَدْ أَضَلَّتْ عَنِ الذِّكْرِ) أى يقول هذا النادم : لقد أضللتني في الدنيا خليلي عن القرآن والإيمان به . وقيل : « عَنِ الذِّكْرِ » أى عن الرسول . (وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا) قيل : هذا من قول الله لا من قول الظالم . وتام الكلام على هذا عند قوله : « يَتَذَكَّرُ إِذَا جَاءَ فِي » . والخلل الترك من الملائكة تبرا منهم . وكل من صد عن سبيل الله وأطع في معصية الله فهو شيطان للإنسان ، خذولا عند نزول العذاب والبلاء . ولقد أحسن من قال :

تَجَنَّبَ قَرِينَ السُّوءِ وَأَصِرْتُ حَبَالَهُ * فَإِن لَّمْ تَجِدْ عَنْهُ تَحِيصًا فَدَارِهِ
وأحبب صبيب الصديق وأحذر مرآه * تنسل منه صفو السود مالم تماريه
وفي الشيب ما ينهى الحليم عن الصبا * إذا اشتعلت نيرانه في عذاره

آخر :

أصحوب خيار الناس حيث لقيتهم * خير الصحابة من يكون غفيفا

والناس مثل دراهم ميزتها * فوجدت منها فضة وزيوفا

(١) راجع ج ٩ ص ٦٩ طبة أول أو ثانية . (٢) راجع ج ٥ ص ٤٠٠ طبة أول أو ثانية .

وفي الصحيح من حديث أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافع الكير فحامل المسك إما أن يُحذيك وإما أن يبتاع منه وإما أن تجد ريحا طيبة ونافع الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد ريحا خبيثة " لفظ مسلم . وأخرجه أبو داود من حديث أنس . وذكر أبو بكر البزار عن ابن عباس قال : قيل يا رسول الله ؟ أى جلسائنا خير ؟ قال : " من ذكركم بالله رؤيته وزاد في علمكم متطقه وذكركم بالآخرة عمله " . وقال مالك بن قيس : إنك إن تتقل الأحجار مع الأبرار خير لك من أن يأكل الخبيص مع الفجار . وأشد :

وصاحب خيار الناس تنج مسلماً . وصاحب شرار الناس يوما فتندما

قوله تعالى : **وَقَالَ أَرْسُولٌ يَنْتَرِبُ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ۖ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ۝٢١**

قوله تعالى : (**وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ**) يريد محمدا صلى الله عليه وسلم ، يشكهم إلى الله تعالى . (**إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا**) أى قالوا فيه غير الحق من أنه سحر وشعر عن مجاهد والنخعي . وقيل : معنى « مهجورا » أى متروكا ؛ فعزاه الله تبارك وتعالى وملائه بقوله : (**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ**) أى كما جعلنا لك يا محمد عدوا من مشرك قوميك — وهو أبو جهل في قول ابن عباس — فكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من مشرك قومه ، فأصبر لأمرى كما صبروا ، فإني هاديك وناصرك على كل من نأوك . وقد قيل : إن قول الرسول « **يَا رَبِّ** » إنما يقوله يوم القيامة ، أى هجروا القرآن وهجرونى وكذبونى . وقال أنس قال النبي صلى الله عليه وسلم : " من تعلم القرآن وعلق مصحفه لم يتعاهده ولم ينظر فيه جاه

(١) أحذاه : أعطاه . (٢) الخبيص : حلواء تعمل من القمح والسمن . (٣) في الأصل : « من تعلم القرآن وعلمه وعلق مصحفا ... » وتصحیح هذا الأثر من روح المعاني والبيضاوى والشهاب على أنهم نقلوا في حقه إذ في سننه أي هدية وهو كذاب .

يوم القيامة متعلقا به يقول يارب العالمين إن عبدك هذا آخذني مهجورا فأقض بني وبينه". ذكره الثعالبي. (وَكُنِّي بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا) نصب على الحال أو التمييز، أى يهديك وينصرك فلا تبال بمن عاداك. وقال ابن عباس: عدو النبي صلى الله عليه وسلم أبو جهل لعنه الله.

قوله تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٦﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٧﴾

قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً) اختلف في قائل ذلك على قولين: أحدهما - أنهم كفار قريش؛ قاله ابن عباس. الثاني - أنهم اليهود حين وأما نزول القرآن مفردا قالوا: فلا أنزل عليه جملة واحدة كما أنزل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى والزيور^(١) على داود. فقال الله تعالى: (كَذَلِكَ) أى فعلنا (لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ) قوى به قلبه فتيسره وتحمه؛ لأن الكتب المتقدمة أنزلت على أنبياء يكتبون ويقرءون، والقرآن أنزل على نبي أمي؛ ولأن من القرآن الناصح والمنسوخ؛ ومنه ما هو جواب لمن سأل عن أمور، ففوقناه ليكون أوعى للنبي صلى الله عليه وسلم، وأيسر على العامل به؛ فكان كلما نزل وحى جديد زاده قوة قلب.

قلت: فإن قيل فلا أنزل القرآن دفعة واحدة وحفظه إذ كان ذلك في قدرته؟ قيل: في قدرة الله أن يملأه الكتاب والقرآن في لحظة واحدة، ولكنه لم يفعل ولا معترض عليه في حكمه، وقد بينا وجه الحكمة في ذلك. وقد قيل: إن قوله «كَذَلِكَ» من كلام المشركين، أى لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك، أى كالتوراة والإنجيل، فيتم الوقف على «كَذَلِكَ» ثم يبدئ «لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ». ويحوز أن يكون الوقف على قوله: «جُمْلَةً وَاحِدَةً» ثم يبدئ «كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ» على معنى أنزلناه عليك كذلك متفرقا لنثبت به فؤادك. قال

(١) زيادة بخطها المقام.

أَبْنُ الْأَثَرِيِّ : والوجه الأول أجود وأحسن ، والقول الثاني قد جاء به التفسير، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ
 أَبُو عَثَانَ الشَّيْبِيُّ قَالَ حَدَّثَنَا مِنْجَابٌ قَالَ حَدَّثَنَا بَشْرُ بْنُ عَمْرٍاءَ عَنْ أَبِي رَوْحٍ عَنْ الضَّحَّاكِ عَنْ
 أَبِي عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » قَالَ : أَنْزَلَ الْقُرْآنَ بِجَمَلَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ عِنْدِ
 اللَّهِ عَنْ وَجَلٍ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إِلَى السَّفَرَةِ الْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ فِي السَّمَاءِ ، فَتَجَمَّعَتِ السَّفَرَةُ الْكَرَامُ
 عَلَى جِبْرِيلَ عَشْرِينَ لَيْلَةً ، وَبَجَّهَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى عَهْدِ عَشْرِينَ سَنَةً ، قَالَ : فَهُوَ قَوْلُهُ
 « فَلَا أَقِيمُ بِمَوَاصِفِ النُّجُومِ » يَعْنِي نَجْمُ الْقُرْآنِ « وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَحْمِلُونَهُ عَظِيمٌ » . إِنَّهُ لَقَسْرَانٌ
 كَرِيمٌ . قَالَ : فَلَمَّا لَمْ يَنْزِلْ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِجَمَلَةٍ وَاحِدَةٍ ، قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
 لَوْلَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ بِجَمَلَةٍ وَاحِدَةٍ ؟ فَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : « كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ »
 يَا مُحَمَّدُ . (وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا) يَقُولُ : وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ، يَقُولُ : شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ .

(وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) يَقُولُ : لَوْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ بِجَمَلَةٍ
 وَاحِدَةٍ ثُمَّ سَأَلُوكَ لِمَ يَكُنْ عِنْدَكَ مَا تَجِيبُ بِهِ ، وَلَكِنْ نَسَكْ عَلَيْكَ فَإِذَا سَأَلُوكَ أَجَبْتَ . قَالَ
 النَّحَّاسُ : وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ عِلَامَاتِ النُّبُوَّةِ ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَجَبُوا عَنْهُ ، وَهَذَا
 لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ نَبِيٍّ ، فَكَانَ ذَلِكَ تَثْبِيثًا لِفُؤَادِهِ وَأَفَادَتِهِمْ ، وَبَدَلَ عَلَى هَذَا « وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ
 إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا » وَلَوْ نَزَلَ بِجَمَلَةٍ بِمَا فِيهِ مِنَ الْفُرَاقِ لَنَقَلَ عَنْهُمْ ، وَعَلِمَ اللَّهُ
 عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ الصَّلَاحَ فِي إِزَالِهِ مُتَفَرِّقًا ، لِأَنَّهُمْ يَنْبَهُونَ بِهِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ، وَلَوْ نَزَلَ بِجَمَلَةٍ وَاحِدَةٍ
 لَزَالَ مَعْنَى التَّنْبِيهِ وَفِيهِ نَاسِخٌ وَمَنْسُوخٌ ، فَكَانُوا يَتَعَبَّدُونَ بِالنَّشْءِ إِلَى وَقْتٍ بَيْنَهُ قَدْ عَلِمَ اللَّهُ
 عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ الصَّلَاحَ ، ثُمَّ يَنْزِلُ النَّسْخُ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَحَالُ أَنْ يَنْزِلَ بِجَمَلَةٍ وَاحِدَةٍ : أَفَعَلُوا كَذَا
 وَلَا فَعَلُوا . قَالَ النَّحَّاسُ : وَالْأَوَّلَى أَنْ يَكُونَ التَّمَامُ « بِجَمَلَةٍ وَاحِدَةٍ » لِأَنَّهُ إِذَا وَقَفَ عَلَى
 « كَذَلِكَ » صَارَ الْمَعْنَى كَالْتَوَرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ وَلَمْ يَتَقَدَّمْ لَهَا ذِكْرٌ . قَالَ الضَّحَّاكُ :
 « وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا » أَيْ تَفْصِيلًا . وَالْمَعْنَى : أَحْسَنَ مِنْ مَثَلِهِمْ تَفْصِيلًا ؛ لَخُذَفَ لَعْنُ السَّامِعِ .
 وَقِيلَ : كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَسْتَمْتِدُونَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَكَانَ قَدْ غَلَبَ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ التَّجَرُّيفُ

والتبديل، فكان ما يأتي به النبي صلى الله عليه وسلم أحسن تفسيراً مما عندهم؛ لأنهم كانوا يخطئون الحق بالباطل، والحق المحض أحسن من حق غلط بباطل، ولهذا قال تعالى: «وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ». وقيل: «لَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ» كقولهم في صفة عيسى إنه خلق من غير أب. «(لَا يَجْنَاكَ بِالْحَقِّ)» أي بما فيه نقض حججهم كآدم إذ خلق من غير أب وأم.

قوله تعالى: **الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا** ﴿٢١﴾

قوله تعالى: «الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ» تقدم في «سبحان». «أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا» لأنهم في جهنم. وقال مقاتل: قال الكفار لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم هو شر الخلق، فقلت الآية: «وَأَضَلُّ سَبِيلًا» أي دينا وطريقا. وعظم الآية: ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق، وأنت منصور عليهم بالحجج الواضحة، وهم محشرون على وجوههم.

قوله تعالى: **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا** ﴿٢٢﴾ **فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَىٰ الْفُتُورِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَذَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا** ﴿٢٣﴾

قوله تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ» يريد التوراة. «وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا» تقدم في «طه». «فَقُلْنَا أَذْهَبَا» الخطاب لهما. وقيل: إنما أمر موسى صلى الله عليه وسلم بالذهاب وحده في المعنى، وهذا بمنزلة قوله: «نَسِيَا حُوتَهُمَا». وقوله: «يُخْرِجُ مِنْهُمَا الْأُلُوفَ وَالْمَرْجَانُ» وإنما يخرج من أحدهما. قال النحاس: وهذا مما لا ينبغي أن يجتمعا به على كتاب الله تعالى، وقد قال جل وعز: «فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى». قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى. قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى. فَأَنبِئَاهُ فَقُولَا

إِنَّا رَسُولَ رَبِّكَ . ونظير هذا « وَمِنْ دُونِهِمَا جَبَّتَانِ » . وقد قال جل ثناؤه : « ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا » قال القشيري : وقوله في موضع آخر : « أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى » لا ينافي هذا ؛ لأنهما إذا كانا هارون فكل واحد مأمور . ويجوز أن يقال : أمر موسى أن يذهب ، ثم لما قال « وَأَجْمَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِي » قال « أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ » . « (إِنِّي أَلْقِي الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) يريد فرعون وهامان والقبط . (فَدَمَّرْنَاَهُمْ) في الكلام إضمار ؛ أي فكذبوها (فَدَمَّرْنَاَهُمْ تَدْمِيرًا) أي أهلكناهم إهلاكاً .

قوله تعالى : وَقَوْمٌ نَوحٌ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : (وَقَوْمٌ نَوحٌ) في نصب « قوم » أربعة أقوال : العطف على الماء والميم في « دَمَّرْنَاَهُمْ » . الثاني — بمعنى أذكر . الثالث — بإضمار فعل يفسره ما بعده ؛ والتقدير : وأغرقتنا قوم نوح أغرقناهم . الرابع — أنه منصوب بـ « أغرقناهم » قاله القسراء . ورده النحاس قال : لأن « أغرقنا » ليس مما يتعدى إلى مفعولين فيعمل في المضمر وفي « قَوْمٌ نَوحٌ » . (لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ) ذكر الجنس والمراد نوح وحده ؛ لأنه لم يكن في ذلك الوقت رسول إليهم إلا نوح وحده ؛ فوح إنما يثبت بلا إله إلا الله ، وبالإيمان بما ينزل الله ، فلما كذبه كان في ذلك تكذيب لكل من يثبت بعده بهذه الكلمة . وقيل : إن من كذب رسولاً فقد كذب جميع الرسل ؛ لأنهم لا يفرق بينهم في الإيمان ، ولأنه ما من نبي إلا يصدق سائر أنبياء الله ، فمن كذب منهم نياً فقد كذب كل من صدقه من النبيين . (أَغْرَقْنَاهُمْ) أي بالطوفان ، على ما تقدم في « هود » . (وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً) أي علامة ظاهرة على قدرتنا (وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ) أي المشركين من قوم نوح (عَذَابًا أَلِيمًا) أي في الآخرة . وقيل : أي هذه سبيل في كل ظالم .

قوله تعالى : وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : (وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا) كله معطوف على « قَوْمَ نُوحٍ » إذا كان « قوم نوح » منصوبا على المطف ، أو بمعنى أذكر ، ويمحسوز أن يكون كله منصوبا على أنه معطوف على المضمرفي « دَمَرْنَاهُمْ » أو على المضممر في « جَعَلْنَاهُمْ » وهو اختيار النحاس ؛ لأنه أقرب إليه . ومحسوز أن يكون منصوبا بإضمار فعل ؛ أي أذكر عادا الذين كذبوا هودا فأهلكهم الله بالريح العقيم ، وثمودا كذبوا صالحا فأهلكوا بالزحفة . و (وَأَصْحَابَ الرِّسِّ) والرس في كلام العرب البئر التي تكون غير مطوية ، واجمع رساس . قال :

• تسائلة بتفريوت الرساسا •

يعنى آبار المادن . قال ابن عباس : سألت كعبا عن أصحاب الرس قال : صاحب « يس » الذى قال : « يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ » قتله قومه ورسوه في بئر لم يقال له الرس طرحوه فيها ، وكذا قال مقاتل . السدى : هم أصحاب قصة « يس » أهل أنطاكية ، والرس بئر أنطاكية قتلوا فيها حبيبا التجار مؤمن آل « يس » فنسبوا إليها . وقال علي رضي الله عنه : هم قوم كانوا يعبدون شجرة صنوبر فدعا عليهم نبيهم ، وكان من ولد يهوذا ، فبست الشجرة فقتلوه ورسوه في بئر ، فأظلمت صحابة سوداء فأحرقتهم . وقال ابن عباس : هم قوم بأذربيجان قتلوا أنبياء بختت أخصابهم وزروعهم فأتوا جوعا وعطشا . وقال وهب بن منبه : كانوا أهل بئر يقعدون عليها وأصحاب مواشى ، وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله إليهم شعبيا فكذبوه وأذوه ، وتمادوا على كفرهم وطغيانهم ، فبينما هم حول البئر في منازعهم أتاهت بهم وبديارهم ، خسف الله بهم فهلكوا جميعا . وقال قتادة : أصحاب الرس وأصحاب الأيكة أمتان أرسل الله إليهما شعبيا فكذبوه فعدبهما الله بعداين . قال قتادة : والرس قرية بفالج اليامة . وقال عكرمة : هم قوم رسوا نبيهم في بئر حيا . دليله ما روى محمد بن كعب القرظي عن حذته أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة عبد أسود وذلك أن الله تعالى بعث نبيا إلى قومه فلم يؤمن به إلا ذلك الأسود خفر أهل القرية بئرا وألقوا فيه نبيهم حيا وأطبقوا عليه حجرا فمضا

وكان العبد الأسود يحتطب على ظهره ويديه ويأتيه بطعامه وشرابه فيعبته الله على رفع تلك الصخرة حتى يديه إليه فيبينا هو يحتطب إذ نام فضرب الله على أذنه سبع سنين نائماً ثم هب من نومه فتمطى وانكا على شقه الآخر فضرب الله على أذنه سبع سنين ثم هب فأحتمل حزمة الحطب فباعها وأتى بطعامه وشرابه إلى البئر فلم يعبده وكان قومه قد أراهم الله آية فاستخرجوه وآمنوا به وصدقوه ومات ذلك النبي . قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن ذلك العبد الأسود لأول من يدخل الجنة " وذكر هذا الخبر المهدوى والثعلبي ، واللفظ للثعلبي ، وقال : هؤلاء آمنوا بنبيهم فلا يجوز أن يكونوا أصحاب الرس ؛ لأن الله تعالى أخبر عن أصحاب الرس أنه دمرهم ، إلا أن يدمروا بأحداث أحدثوها بعد نبيهم . وقال الكلبي : أصحاب الرس قوم أرسل الله إليهم نبياً فاكلوه . وهم أول من عمل نسائهم السحق ؛ ذكره السارودي . وقيل : هم أصحاب الأخدود الذين حفروا الأخاديد وحرقوا فيها المؤمنين ، وسأى . وقيل : هم بقايا من قوم نوح ، وأن الرس البئر المذكورة في «الجب» في قوله : « وَبُئِرٌ مُّطْلَأَةٌ » على ما تقدم . وفي الصحاح : والرس اسم بئر كانت لبقية من نوح . وقال جعفر بن محمد عن أبيه : أصحاب الرس قوم كانوا يستحسنون لنسائهم السحق ، وكان نسائهم كلهم بهاقات . وروى من حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن من أشراط الساعة أن يكتفى الرجال بالرجال والنساء بالنساء وذلك السحق " . وقيل : الرس ماء ونخل لبني أسد . وقيل : الثلج المتراكم في الجبال ؛ ذكره القسيري . وما ذكرناه أولاً هو المعروف ، وهو كل حفر أخضر كالقبر والمعدن والبئر . قال أبو عبيدة : الرس كل ركية لم تطلو ؛ وجمعها راس . قال الشاعر :

وهم سارون إلى أرضهم • فياليتهم يحفرون الراسا

والرس آمم واد في قول زهير :

بَكَرَ بُكُورًا وَاسْتَحَرَّ بِسَحَرَةٍ • فَهِيَ لَوَادِي الرِّسِّ كَالْيَسَدِ لِلْفِمِّ

وروست رساً : حفرت بئراً ، ورس الميت أى قبر . والرس : الإصلاح بين الناس ، والإحسان أيضا وقد رُسْتُ بينهم ؛ فهو من الأضداد . وقد قيل في أصحاب الرس غير ما ذكرناه ؛ ذكره

التعلي وغيره . (وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا) أى أما لا يعلمهم إلا الله بين قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس . وعن الربيع بن خيثم أشتكى فقيل له : ألا تتداوى فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر به ؟ قال : لقد هممت بذلك ثم فكرت فيما بينى وبين نفسى فإذا عاد وثمود وأصحاب الرس وقرون بين ذلك كثيرا كانوا أكثر وأشد حرصا على جمع المال ، فكان بينهم أطباء ، فلا الناعت منهم يبق ولا المنعوت ، فابى أن يتداوى فامكث إلا خمسة أيام حتى مات ، رحمه الله .

قوله تعالى : (وَكُلًّا صَبَرْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَبِيرًا) ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : (وَكُلًّا صَبَرْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ) قال الزجاج . أى وأنذرنا كلا ضربنا له الأمثال وبنينا لهم الحجمة ، ولم نضرب لهم الأمثال الباطلة كما يفعله هؤلاء الكفرة . وقيل : انتصب على تقدير ذكرنا كلا ونحوه ، لأن ضرب الأمثال تذكير ووعظ ، ذكره المهدوى . والمعنى واحد . (وَكُلًّا تَبَرْنَا تَبِيرًا) أى أهلكنا بالمصائب . وتبرت الشيء كسرته . وقال المؤرج والأخفش : دمرناهم تدميرا . تبلى التاء والباء من الدال والميم .

قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرَتْ مَطَرَ السَّوَاءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرُونَهَا بَلًا كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُصُورًا) ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ) ببنى مشرك مكة . والقريه قرية قوم لوط . (وَمَطَرُ السَّوَاءِ) المجارة التي أمطروا بها . (أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرُونَهَا) أى فى أسفارهم ليتبروا . قال ابن عباس : كانت قريش فى تجارتها إلى الشام تمر بمدائن قوم لوط كما قال الله تعالى : « وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ » وقال : « وَإِنَّهُمْ لَكَايِمٌ مُبِينٌ » وقد تقدم . (بَلًا كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُصُورًا) أى لا يهتفون بالبعث . ويحسوز أن يكون معنى « يَرْجُونَ » يخافون . ويحسوز أن يكون على بابه ويكون معناه : بل كانوا لا يرجون ثواب الآخرة .

قوله تعالى : وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَخِدُونكَ إِلَّا هُزُوًا أَلَيْدِي بَعَثَ
 اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آيَاتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا
 وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ أَضْلُ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : (وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَخِدُونكَ إِلَّا هُزُوًا) جواب « إذا » « إن يخدونك »
 لأن معناه يخدونك . وقيل : الجواب محذوف وهو قالوا أو يقولون : « أَهَذَا الَّذِي »
 وقوله : « إِن يَخِدُونكَ إِلَّا هُزُوًا » كلام معترض ، ونزلت في أبي جهل كان يقول للنبي صلى
 الله عليه وسلم مستهزئاً : (أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا) والعائد محذوف ، أى بعثه الله .
 « رَسُولًا » نصب على الحال والتقدير : أهذا الذى بعثه الله مرعلاً . « أَهَذَا » رفع بالابتداء
 و « الَّذِي » خبره . « رَسُولًا » نصب على الحال . و « بَعَثَ » في صلة « الَّذِي » واسم الله
 هن وجعل رفع بـ « بَعَثَ » . ويجوز أن يكون مصدراً ؛ لأن معنى « بَعَثَ » أرسل ويكون
 معنى « رَسُولًا » رسالة على هذا . والألف للاستفهام على معنى التقرير والاحتقار . (إِن كَادَ
 لَيُضِلَّنَا) أى قالوا قد كاد أن يضلونا . (عَنْ آيَاتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا) أى حبسنا أنفسنا
 على عبادتها . قال الله تعالى : (وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ أَضْلُ سَبِيلًا) يريد
 من أضل ديناً أهم أم جد ، وقد رآوه في يوم بدر .

قوله تعالى : أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴿٤٣﴾ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ
 وَكِيلًا ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ) عجب نبيه صلى الله عليه وسلم من إصرارهم
 على الشرك وإصرارهم عليه مع إقرارهم بأنه خالفهم وذاقهم ، ثم يعمد إلى حجر يبيده من قبر
 حجة . قال الكلبي وغيره : كانت العرب إذا هوى الرجل منهم شيئاً عبده من دون الله ، فإذا
 رأى أحسن منه ترك الأول وعبد الأحسن ؛ فعل هذا يعنى : أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ؛
 لحذف الجار . وقال ابن عباس : الهوى إله بعيد من دور الله ، ثم تلا هذه الآية .

قال الشاعر :

لعمري لو تبذرت لناسك * قد أعتل الدنيا بإحدى المنايك

لصلي لها قبل الصلاة لربه * ولا أرتد في الدنيا بأعمال فانك

وقيل : « اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ » أى أطاع هواه . وعن الحسن لا يهوى شيئا إلا أتبعه ، والمعنى واحد . (أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا) أى حفيظا وكفيلا حتى ترده إلى الإيمان وتخرجه من هذا الفساد . أى ليست الهداية والضلالة موكوتين إلى مشيئتكم ، وإنما عليك التبليغ . وهذا رد على القدورية . ثم قيل إنها منسوخة بآية القتال . وقيل لم تنسخ ، لأن الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَا لَا تُنْعِمُ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿١١﴾

قوله تعالى : (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ) ولم يقل أنهم لأن منهم من قد علم أنه يؤمن . وفهم جل وعز بهذا . « أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ » سماع قبول أو يفكرون فيما تقول فيعقلونه ، أى هم يتتلة من لا يعقل ولا يسمع . وقيل : المعنى أنهم لما لم ينتفعوا بما يسمعون فكأنهم لم يسمعوا ، والمراد أهل مكة . وقيل : « أَمْ » بمعنى بل في مثل هذا الموضع . (إِنْ هُمْ إِلَّا كَا لَا تُنْعِمُ) أى في الأكل والشرب لا يفكرون في الآخرة . (بَلْ هُمْ أَضَلُّ) إذ لا حساب ولا عقاب على الأنعام . وقال مقاتل : البهائم تعرف ربها وتهتدى إلى مراعيها وتتقاد لأربابها التى تمقلها ، وهؤلاء لا ينفادون ولا يعرفون ربهم الذى خلفهم ورزقهم . وقيل : لأن البهائم إن لم تمقل صفة التوحيد والنبوة لم تعتقد بطلان ذلك أيضا .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ

سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿١٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ يجوز أن تكون هذه الرؤية من رؤية العين ، ويجوز أن تكون من العلم . وقال الحسن وقتادة وغيرهما : مد الظل من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . وقيل : هو من غيوبة الشمس إلى طلوعها . والأوّل أصح ، والدليل على ذلك أنه ليس من ساعة أطيب من تلك الساعة ؛ فإن فيها يجد المريض راحة والمسافر وكل ذي علة ، وفيها ترد نفوس الأموات والأرواح منهم إلى الأجساد ، وتطيب نفوس الأحياء فيها . وهذه الصفة مفقودة بعد المغرب . وقال أبو العالية : نهار الجنة هكذا ؛ وأشار إلى ساعة المصلين صلاة الفجر . أبو عبيدة : الظل بالفسادة والقيء بالعشى ؛ لأنه يرجع بعد زوال الشمس ؛ سمي فيها لأنه فاه من المشرق إلى جانب المغرب . قال الشافعي ، وهو حميد بن ثور يصف سرعة ^(١) وكفى بها عن امرأة :

فلا الظِّلُّ من بَرْدِ الضَّحَا تَسْتَطِيعُهُ • ولا السَّقْيُ من بَرْدِ العِشْيِ تَدَوُّقُ

وقال ابن السكيت : الظل ما نسخته الشمس والقيء ما نسخ الشخس . وحكى أبو عبيدة عن رؤية قال : كل ما كانت عليه الشمس زالت عنه فهو فيه وظل ، وما لم تكن عليه الشمس فهو ظل . ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾ أى دائماً مستقراً لا تنسخه الشمس . ابن عباس : يريد إلى يوم القيامة ، وقيل : المعنى لو شاء لمنع الشمس الطلوع . ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ أى جعلنا الشمس بنسخها الظل عند مجيئها دالة على أن الظل شيء ومعنى ؛ لأن الأشياء تعرف بأضدادها ولولا الشمس ما عرف الظل ، ولولا النور ما عرفت الظلمة . فالدليل فعيل بمعنى الفاعل . وقيل بمعنى المفعول كالتيل والذهين والخضيب . أى دللنا الشمس على الظل حتى ذهبت به ؛ أى أثبتناها إياه . فالشمس دليل أى حجة وبرهان ، وهو الذى يكشف المشكل ويوضحه . ولم يؤت الدليل وهو صفة الشمس لأنه فى معنى الاسم ؛ كما يقال : الشمس برهان والشمس حق . ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ ﴾ يريد ذلك الظل الممدود . ﴿ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ أى يسيراً قبضه علينا . وكل أمر ربنا عليه يسير . فالظل مكثه فى هذا الجو بمقدار طلوع

(١) السرعة : واحدة السرح ، وهو بحر جار عظام لا ترمى وإنما يستظل فيه .

النجم إلى طلوع الشمس ، فإذا طلعت الشمس صار الظل مقبوضا ، وخلفه في هذا الجو شعاع الشمس فاشرق على الأرض وعلى الأشياء إلى وقت غروبها ، فإذا غربت فليس هناك ظل ، إنما ذلك بقية نور النهار . وقال قوم : قبضه بغروب الشمس ؛ لأنها ما لم تغرب فالظل فيه بقية ، وإنما يتم زواله بغيء الليل ودخول الظلمة عليه . وقيل : إن هذا القبض وقع بالشمس ؛ لأنها إذا طلعت أخذ الظل في الذهاب شيئا فشيئا ، قاله أبو مالك وإبراهيم التيمي . وقيل : « ثُمَّ قَبَضَتْهُ » أي قبضنا ضياء الشمس بالنبي « قَبْضًا سَيِّئًا » . وقيل « يَسِيرًا » أي سريرا ، قاله الضحاك . قتادة : خفيا ؛ أي إذا غابت الشمس قبض الظل قبضا خفيا ؛ ككسب قبض جزء منه جعل مكانه جزء من الظلمة ، وليس يزول دفعة واحدة . فهذا معنى قول قتادة ، وهو قول مجاهد .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿١٧﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا) يعني سترًا للخلق يقوم مقام اللباس في ستر البدن . قال الطبري : وصف الليل باللباس تشبيها من حيث يستر الأشياء ويفشاها . الثانية - قال ابن العربي : ظن بعض الغفلة أن من صلى عربانا في الظلام أنه يميزه ، لأن الليل لباس . وهذا يوجب أن يصلي في بيته عربانا إذا أغلق عليه بابه . والستر في [الصلوة] عبادة تختص بها ليست لأجل نظر الناس . ولا حاجة إلى الإطناب في هذا . الثالثة - قوله تعالى : (وَالنَّوْمَ سُبَاتًا) أي راحة لأبدانكم بأقطاعكم عن الأشغال . وأصل السبات من التمدد . يقال : سبتت المرأة شعرها أي تقضته وأرسلته . ورجل مسبوت أي ممدود الخلق . وقيل للنوم سبات لأنه بالتمدد يكون ، وفي التمدد معنى الراحة . وقيل :

(١) في الأصول : « في الظلمة » . والصواب من « أحكام القرآن لابن العربي » .

السبت القطع ؛ فالنوم انقطاع عن الاشتغال ؛ ومنه سبت اليهود لاقطاعهم عن الأعمال فيه . وقيل : السبت الإقامة في المكان ؛ فكان السبت سكون ما وثبت عليه ؛ فالنوم سبات على معنى أنه سكون عن الاضطراب والحركة . وقال الخليل : السبت نوم ثقيل ؛ أى جعلنا نومكم ثقيلًا ليكمل الإحجام والراحة

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾ من الانتشار للعاش ؛ أى النهار سبب الإحياء للانتشار . شبه اليقظة فيه بنطاق الإحياء مع الإمامة . وكان عليه السلام إذا أصبح قال : « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ نُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ تقدم في «الأعراف» مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ .

فيه خمس عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : « مَاءً طَهُورًا » يتطهر به ؛ كما يقال : وضوء للماء الذى يتوضأ به . وكل طهور طاهر وليس كل طاهر طهورا . فالطهور (بفتح الطاء) الاسم . وكذلك الوضوء والوقود . وبالضم المصدر ، وهذا هو المعروف فى اللغة ؛ قاله ابن الأنبارى . فبين أن الماء المنزل من السماء طاهر فى نفسه مطهر لغيره ؛ فإن الطهور بناء مبالغة فى طاهر ، وهذه المبالغة اقتضت أن يكون طاهرا مطهرا . وإلى هذا ذهب الجمهور . وقيل : إن « طَهُورًا » بمعنى طاهر ؛ وهو قول أبى حنيفة ؛ وتعلق بقوله تعالى : « وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا » يعنى طاهرا .

وبقول الشاعر :

خليلٌ هل في نظرة بعد توبة * أداوى بها قلبي على جُحُورٍ
إلى رُجِّع الأكفالي غيد من القلب^(١) * عذاب التنايا ريَّهنَّ طُهورٌ

فوصف الرقيق بأنه طهور وليس بطهور . وتقول العرب : رجل قويم وليس ذلك بمعنى أنه منم لغيره ، وإنما يرجع ذلك إلى فعل نفسه . ولقد أجاب علماؤنا عن هذا فقالوا : وصف شراب الجنة بأنه طهور يفيد التطهير عن أوضار الذنوب وعن خساس الصفات كالغسل والحسد ، فإذا شربوا هذا الشراب يطهرهم الله من رجس الذنوب وأوضار الاعتقادات الذميمة ، بغاؤا الله بقلب سليم ، ودخلوا الجنة بصفات التسليم ، وقيل لهم حينئذ : « سلام عليكم طيِّبتم فادخلوها خالدين » . ولما كان حكمه في الدنيا بزوال حكم الحدث بمريران الماء على الأعضاء كانت تلك حكمته ورحمته في الآخرة . وأما قول الشاعر :

* ... ريَّهنَّ طُهورٌ *

فإنه قصد بذلك المبالغة في وصف الرقيق بالطهوية لمذوبته وتعلقه بالصلوب ، وطيبه في النفوس ، وسكون غليل الحب برشفه حتى كأنه الماء الطهور . وبالجمله فإن الأحكام الشرعية لا تثبت بالمجازاة الشعرية ، فإن الشعراء يتجاوزون في الاستفراق حد الصدق إلى الكذب ، ويسترسون في القول حتى يخرجهم ذلك إلى البدعة والمعصية ، وربما وقعوا في الكفر من حيث لا يشعرون . ألا ترى إلى قول بعضهم :

ولولم تُلَامِسْ صفحة الأرض رجلها * لما كنت أدرى عيلةً للتيسم

وهذا كفر صراح ، نعوذ بالله منه . قال القاضي أبو بكر بن العربي : هذا منتهى لباب كلام العباس ، وهو بالغ في فسه ؛ إلا أني تأملت من طريق العربية فوجدت فيه

(١) في آين العربي والسان مادة « رجح » :

* إلى رجح الأكفال جف خصرها

بمرأة رجاح ورايح ، قيلة البجيزة ، من نسوة رجح .

مطلما مشرفا، وهو أن بناء فمول للبالغة، إلا أن المبالغة قد تكون في الفعل المتعدي كما قال الشاعر :

« ضَرُوبٌ بِنَصلِ السَّيفِ مُوقٍ يَمَانِهَا ^(١) »

وقد تكون في الفعل القاصر كما قال الشاعر :

« تَوَمَّ الضُّعَا لَمْ تَتَّقِ عَنْ تَهْضُلٍ ^(٢) »

وإنما تؤخذ طهورية الماء لنسبه من الحسن نظافة ومن الشرع طهارة؛ كقوله عليه السلام: « لا يقبل الله صلاة بغير طهور ». وأجمعت الأمة لغة وشرعة على أن وصف طهور يخص بالماء ولا يتعدى إلى سائر المائعات وهي طاهرة؛ فكان اقتصارهم بذلك على الماء أدل دليل على أن الطهور هو المطهر، وقد يأتي فمول لوجه آخر ليس من هذا كله وهو العبارة به من الآلة للفعل لا عن الفعل كقولنا : وقود وصحور بفتح الفاء، فإنها عبارة عن الحطب والطعم المتسحر به؛ فوصف الماء بأنه طهور (بفتح الطاء) أيضا يكون خبرا عن الآلة التي يتطهر بها . فإذا ضمت الفاء في الوقود والسحور والطهور عاد إلى الفعل وكان خبرا عنه . فثبت بهذا أن أسم الفعول (بفتح الفاء) يكون بناء للبالغة ويكون خبرا عن الآلة، وهو الذي خطر ببال الحنفية، ولكن قصرت أشدائها عن لوكه، وبعد هذا يقف البيان عن المبالغة وعن الآلة على الدليل بقوله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا » . وقوله عليه السلام : « جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا » يحمل المبالغة ويحمل العبارة به عن الآلة؛ فلا حجة فيه لعلائنا، لكن يبق قوله : « يُطَهَّرُ بِهٖ » نص في أن فعله يتعدى إلى غيره .

الثانية — المياه المنزلة من السماء والمودعة في الأرض طاهرة مطهرة على اختلاف ألوانها وطوعها وأرأحها حتى يخالطها غيرها، والخالط الماء على ثلاثة أضرب : ضرب يوافقه

(١) هذا صدر بيت من قصيدة لأبي طالب بن عبد المطلب يدع بها مسافرين عمرو القرشي؛ وقامه .

« إذا عدونا زادا فإناك عاقر »

(٢) هذا مجزيت من حكمة أمراء القيس؛ ومصدره :

« رضى فئت المسك فرق فراشا »

والاستدراك : الأثر الممل . والفضل : الترضع، وهو لبها أدنى ثيابها .

في صفتيه جميعا، فإذا خالطه فتيه لم يسلبه وصفا منهما لموافقته لها وهو التراب . والضرب
لثاني يوافقه في إحدى صفتيه وهي الطهارة، فإذا خالطه فتيه سلبه ما خالطه فيه وهو التطهير،
كجاء الورد وسائر الطاهرات . والضرب الثالث يخالفه في الصفتين جميعا، فإذا خالطه فتيه سلبه
الصفتين جميعا لخالفته له فيهما وهو النجس .

الثالثة - ذهب المصريون من أصحاب مالك إلى أن قليل الماء يفسده قليل النجاسة،
وأن الكثير لا يفسده إلا ما غير لونه أو طعمه أو ريحه من المحرمات . ولم يحدوا بين القليل
والكثير حدا يوقف عنده، إلا أن ابن القاسم روى عن مالك في الجنب يفتسل في حوض من
الحياض التي تسقى فيها الدواب ولم يكن غسل ما به من الأذى أنه قد أفسد الماء، وهو
مذهب ابن القاسم وأشهب وابن عبد الحكم ومن أتبعهم من المصريين . إلا أن وهب فإنه
يقول في الماء يقول المذنبين من أصحاب مالك . وقولهم ما حكاه أبو مصعب عنهم وعنه :
أن الماء لا يفسده النجاسة الحائلة فيه قليلا كان أو كثيرا إلا أن تظهر فيه النجاسة وتغير منه
طعم أو ريحا أو لونا . وذكر أحمد بن المعتدل أن هذا قول مالك بن أنس في الماء . وإلى هذا
ذهب إسماعيل بن إسحاق وعبد بن بكر وأبو الفرج الأبهري وسائر المعتدلين لمذهب مالك من
البنغاديين، وهو قول الأوزاعي والليث بن سعد والحسن بن صالح وداود بن علي . وهو
مذهب أهل البصرة، وهو الصحيح في النظر وجيد الأثر . وقال أبو حنيفة : إذا وقعت
نجاسة في الماء أفسدته كثيرا كان أو قليلا إذا تحققت عموم النجاسة فيه . ووجه تحققها عنده
أن تقع مثلا نقطة بول في بركة، فإن كانت البركة يتحرك طرفاها يتحرك أحدهما فالكل نجس،
وإن كانت حركة أحد الطرفين لا تحرك الآخر لم ينجس . وفي المجموعة نحو مذهب أبي حنيفة .
وقال الشافعي بحديث القلتين، وهو حديث مطعون فيه، اختلف في إسناده ومثناه أخرجه
أبو داود والترمذي وخاصة الدارقطني، فإنه صدر به كتابه وجمع طرقه . قال ابن العربي :
وقد رام الدارقطني على إمامته أن يصحح حديث القلتين فلم يقدِر . وقال أبو عمر بن عبد البر :
وأما ما ذهب إليه الشافعي من حديث القلتين فذهب ضعيف من جهة النظر، غير ثابت

في الأثر؛ لأنه قد تكلم فيه جماعة من أهل العلم بالنقل، ولأن الثنتين لا يوقف على حقيقة مبلطهما في أثرتاب ولا إجماع، فلو كان ذلك حداً لازماً لوجب على العلماء البحث عنه ليغفوا على حد ما حدته النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه من أصل دينهم وفرضهم، ولو كان ذلك كذلك ما ضيعوه، فلقد بحثوا عما هو أدون من ذلك والطف.

قلت: وفيما ذكر ابن المنذر في الثنتين من الخلاف يدل على عدم التوقيف فيهما والتحديد. وفي سنن الدارقطني عن حماد بن زيد عن عاصم بن المنذر قال: القلال الخواشي العظام. وعاصم هذا هو أحد رواة حديث الثنتين. ويظهر من قول الدارقطني أنها مثل قلال حجر. إسياقه حديث الإسراء عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لما رُفعت إلى سِدرة المنتهى في السماء السابعة نبقتها مثل قلال حجر ورقها مثل أذان الفيلة" وذكر الحديث. قال ابن العربي: وتعلق علماؤنا بحديث أبي سعيد الخدري في بثْرُضاعة^(١)، رواه النسائي والترمذي وأبو داود وغيرهم. وهو أيضاً حديث ضعيف لا قدم له في الصحة فلا تعويل عليه. وقد فاوضت الطوسي الأكبر في هذه المسئلة فقال: إن أخلص المذاهب في هذه المسئلة مذهب مالك، فإن الماء طهور ما لم يتغير أحد أوصافه؛ إذ لا حديث في الباب يعول عليه، وإنما المعول على ظاهر القرآن وهو قوله تعالى: «وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا» وهو ماء بصفاته، فإذا تغير عن شيء منها خرج عن الاسم لخروجه عن الصفة، ولذلك لما لم يجد البخاري إمام الحديث والفقه في الباب خبراً يعول عليه قال: (باب إذا تغير وصف الماء) وأدخل الحديث الصحيح: "ما من أحد يُكَلِّم في سبيل الله والله أعلم بمن يُكَلِّم في سبيله إلا جاء يوم القيامة وجرحه يثب دماً اللون لون الدم والريح ريح المسك". فأخبر صلى الله عليه وسلم أن الدم بحاله وعليه رائحة المسك، ولم يخرجها الرائحة عن صفة الدموية. ولذلك قال علماؤنا: إذا تغير الماء بريح جيفة على طرفه وساحله لم يمنع ذلك الوضوء منه. ولو تغير بها وقد وضعت فيه لكان ذلك تحييساً له للخالطة والأولى محاورة لا تعويل عليها.

(١) بثْرُضاعة: بثْرانة. ويقال إن بضاعة اسم امرأة نسبت إليها البثر. (٢) يثب: يجمى.

قلت : وقد أستدل به أيضا على تقيض ذلك ، وهو أن تغير الرائحة يخرج من كونه مستحبنا
بخصا ، وأنه صار مسكاً ، وإن المسك بعض دم الفزال .

فكذلك الماء إذا تغيرت رائحته . وإلى هذا التأويل ذهب الجمهور في الماء .
وإلى الأول ذهب عبد الملك . قال أبو هرير : جعلوا الحكم للرائحة دون اللون ، فكان الحكم
لها فاستدلوا عليها في زعمهم بهذا الحديث . وهذا لا يفهم منه معنى تسكن إليه النفس ،
ولا في الدم معنى الماء فيقاس عليه ، ولا يستغل بمثل هذا الفقهاء ، وليس من شأن أهل العلم
اللفظ به وإشكاله ، وإنما شأنهم بإيضاحه وبيانه ، ولذلك أخذ الميثاق عليهم لبيئته للناس
ولا يكتُمونه ، والماء لا يخلو تغيره بنجاسة أو غير نجاسة ، فإن كان بنجاسة وتغير فقد أجمع
الملبساء على أنه غير طاهر ولا مطهر ، وكذلك أجمعوا أنه إذا تغير تغير نجاسة أنه طاهر على
أصله . وقال الجمهور : إنه غير مطهر إلا أن يكون تغيره من ترية وحماة . وما أجمعوا عليه
فهو الحق الذي لا إشكال فيه ، ولا التباس معه .

الرابعة - الماء المتغير بقراره كزرنج أو جير يجرى عليه ، أو تغير بطحلب أو ورق
شجر ينبت عليه لا يمكن الاحتراز عنه فأفتق العلماء أن ذلك لا يمنع من الوضوء به ، لعدم
الاحتراز منه والأشكال عنه ؛ وقد روى ابن وهب عن مالك أن غيره أولى منه .

الخامسة - قال علماؤنا رحمة الله عليهم : ويكره مؤثر النصراني وسائر الكفار والمذمن
الخنصر ، وما أكل الجيف ، كالكلاب وغيرها . ومن توضأ بسؤدهم فلا شيء عليه حتى
يستيقن النجاسة . قال البخاري : وتوضأ عمر رضي الله عنه من بيت نصرانية . ذكر سفيان
أبن عيينة قال : حدثنا عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : لما كنا بالشام أتيت عمر بن الخطاب
بماء فتوضأ منه فقال : من أين جئت بهذا الماء ؟ ما رأيت ماء عذبا ولا ماء سماء أطيب منه .
قال قلت : جئت به من بيت هذه المعجوز النصرانية ؛ فلما توضأ أتاها فقال : أيتها المعجوز
أسيى تسليى ، بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق ، قال : فكشفت عن رأسها ؛ فإذا

مثل النّامة^(١) ، فقالت : عجوز كريمة ، وإنّا أموت الآن ! فقال عمر رضى الله عنه : اللهم أشهد ، نحرجه الدارقطني^(٢) ، حدّثنا الحسين بن إسماعيل قال حدّثنا أحمد بن إبراهيم البوشنجي قال حدّثنا سفيان .. فذكره ، ورواه أيضا عن الحسين بن إسماعيل قال حدّثنا غلام بن أسلم حدّثنا سفيان عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه توضأ من بيت نصرانية أتاها فقال : أيتها العجوز أسلمى ... ؛ وذكر الحديث بمثل ما تقدّم .

السادسة — فأما الكلب إذا ولغ في الماء فقال مالك : يفصل الإتياء سبعا ولا يتوضأ منه وهو طاهر . وقال الثوري^(٣) : يتوضأ بذلك الماء ويتيمم معه ، وهو قول عبد الملك ابن عبد العزيز ومحمد بن مسامة . وقال أبو حنيفة : الكلب نجس ، ويفصل الإتياء منه لأنه نجس . وبه قال الشافعي وأحمد وإسحق . وقد كان مالك يفرق بين ما يحموز اتخاذه من الكلاب وبين ما لا يحموز اتخاذه منها في غسل الإتياء من ولوغه . وتحصيل مذهبه أنه طاهر عنده ، لا ينجس ولو غرّس شيئا ولغ فيه طعاما ولا غيره ؛ إلا أنه استحب هراقة ما ولغ فيه من الماء لیسارة مؤنثه . وكتب البادية والحاضرة سواء . ويفصل الإتياء منه على كل حال سبعا تعبدا . هذا ما استقر عليه مذهبه عند المناظرين من أصحابه . ذكر ابن وهب قال : حدّثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عطاء عن أبي هريرة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحياض التي تكون فيما بين مكة والمدينة ، فقبل له : إن الكلاب والسباع ترد عليها . فقال : " لها ما أخذت في بطونها ولنا ما بقى شراب وطهور " أخرجه الدارقطني^(٤) . وهذا نص في طهارة الكلاب وطهارة ما تلغ فيه . وفي البخاري^(٥) عن ابن عمر أن الكلاب كانت تقبل وتبدر في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يرشون شيئا من ذلك . وقال عمر بن الخطاب الصاحب لمصاحب الحوض الذي سألهم عمرو بن العاص : هل ترد حوضك السباع . فقال عمر : يا صاحب الحوض ، لا تخبرنا فإننا نرد على السباع وترد علينا . أخرجه مالك والدارقطني^(٦) . ولم يفرق بين السباع ، والكلب من جملةا ، ولا حجة للخالف

(١) النّامة : نبات أبيض الثمر والزم يشبه بياض الثيب به .

في الأمر بإزالة ما ولغ فيه وأن ذلك للنجاسة، وإنما أمر بإزالة لأن النفس تعافه لا لنجاسته؛ لأن الله عز وجل أمر بالاعتذار مندوب إليه، أو تغليظا عليهم لأنهم نهوا عن اقتنائها كما قاله ابن عمر والحسن؛ فلما لم يبتوا عن ذلك غلظ عليهم في الماء لقلته عندهم في البداية، حتى يشتد عليهم فيمتنعوا من اقتنائها. وأما الأمر بغسل الإثاء فعبادة لا لنجاسة كما ذكرناه بدليلين: أحدهما — أن النفس قد دخله العدد. الثاني — أنه قد جعل للتأرب فيه مدخل لقوله عليه السلام: «ومقره السائمة بالتأرب». ولو كان للنجاسة لما كان للسدد ولا للتأرب فيه مدخل كالبول. وقد جعل صلى الله عليه وسلم الهز وما ولغ فيه طاهرا، والهز سبع لا خلاف في ذلك؛ لأنه يفترس يأكل الميتة؛ فكذلك الكلب وما كان مثله من السباع؛ لأنه إذا جاء نص في أحدهما كان نصا في الآخر. وهذا من أقوى أنواع القياس. وهذا لو لم يكن هناك دليل، وقد ذكرنا النص على طهارته فسقط قول المخالف. والحمد لله.

السابعة — ما مات في الماء مما لا دم له فلا يضر الماء إن لم يغير ريحه؛ فإن أتن لم يتوضأ به. وكذلك ما كان له دم سائل من دواب الماء كالحوت والضفدع لم يفسد ذلك الماء موته فيه؛ إلا أن يغير رائحته، فإن تغيرت رائحته وأتن لم يجوز التطهر به ولا الوضوء منه، وليس نجس عند مالك. وأما ما له نفس سائلة فسات في الماء ونزع مكانه ولم يغير لونه ولا طعمه ولا ريحه فهو طاهر مطهر سواء كان الماء قليلا أو كثيرا عند المدنيين. وأستحب بعضهم أن يتخرج من ذلك الماء دلاء لطيب النفس به، ولا يحذون في ذلك حذوا لا يتعدى. ويكرهون استعمال ذلك الماء قبل نزع الدلاء، فإن آتت ملة أحد في غسل أو وضوء جاز إذا كانت حاله ما وصفنا. وقد كان بعض أصحاب مالك يرى لمن توضأ بهذا الماء وإن لم يتغير أن يقيم، فيجمع بين الطهارة احتياطا، فإن لم يفعل وصلى بذلك الماء أجزأه. وروى الدارقطني عن محمد بن سيرين أن زنجيا وقع في زمزم — يعني فسات — فأمر به ابن عباس رضي الله عنه فأخرج فأمر بها أن تترج. قال: فغلبتهم من جامتهم من

الركن فأمر بها فُدِّسَتْ بِالْقَبَائِلِ^(١) والمطارف حتى نزحوها ، فلما نزحوها انفجرت عليهم .
وأخرجه عن أبي الطفيل أن غلاما وقع في بئر زمزم فترحت . وهذا يحتمل أن يكون الماء
تغير ، والله أعلم . وروى شعبة عن منيرة عن إبراهيم أنه كان يقول : كل نفس سائلة
لا يتوضأ منها ، ولكن رخص في الخفضاء والعقرب والجراد والحديد إذا وقعن في الركاء^(٢) فلا
بأس به . قال شعبة : وأظنه قد ذكر الوزغة . أخرجه الدارقطني^(٣) ، حدثنا الحسين بن إسماعيل
قال حدثنا محمد بن الوليد قال حدثنا محمد بن جعفر قال حدثنا شعب ... ؟ فذكره .

الثامنة — ذهب الجمهور من الصحابة وفقهاء الأمصار وسائر التابعين بانحجاز والعراق
أن ما ولغ فيه الهزم من الماء طاهر ، وأنه لا بأس بالوضوء بسؤره ، لحديث أبي قتادة ، أخرجه
مالك وغيره . وقد روى عن أبي هريرة فيه خلاف . وروى عن عطاء بن أبي رباح وسعيد
آبن المسيب ومحمد بن سيرين أنهم أمروا ببارقة ماء ولغ فيه الهزم وغسل الإنا منه . واختلف
في ذلك عن الحسن . ويحتمل أن يكون الحسن رأى في فيه نجاسة ليصح مخرج الروايتين عنه .
قال الترمذي^(١) لما ذكر حديث مالك : « وفي الباب عن عائشة وأبي هريرة ، هذا حديث حسن
صحيح ، وهو قول أكثر أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والتابعين ومن بعدهم ،
مثل الشافعي وأحمد وإسحق ، لم يروا بسؤر الهزة بأسا . وهذا أحسن شيء في الباب ، وقد
جوز مالك هذا الحديث عن إسحق بن عبد الله بن أبي طلحة ، ولم يأت به أحد أتم من مالك »
قال الحافظ أبو عمر : المجبة عند التنازع والاختلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وقد مع من حديث أبي قتادة أنه أصغى لها الإنا حتى شربت . الحديث . وعليه اعتماد
الفقهاء في كل مصر إلا أبا حنيفة ومن قال بقوله ؛ فإنه كان يكره سؤره . وقال : إن توضأ
به أحد أجزاء ، ولا أعلم حجة لمن كره الوضوء بسؤر الهزة أحسن من أنه لم يسلنه حديث أبي
قتادة ، وبلغه حديث أبي هريرة في الكلب فقا سؤره عليه ، وقد فرقت السنة بينهما في باب

(١) دس الشيء دسها : دسها : سده . والقبايل (بالضم) : ثياب من كان رقيق يعمل معصر ؛ نسبة إلى القبط
على غير قياس . والمطارف : جمع مطرف ، وهو رداء من خز مرصع ذو أعلام . (٢) الحديد كالحديد طوير
شبه الجراد . (٣) الركاء : جمع ركوة ؛ إنا صغير من جه يشرب فيه الماء .

التعبد في غسل الإناء ، ومن حجته السنة خاصته ، وما خالفها مطرح . وبالله التوفيق .
ومن حجته أيضا ما رواه قزة بن خالد عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله
عليه وسلم قال : " طهور الإناء إذا ولغ فيه المز أن يغسل مرة أو مرتين " شك قزة . وهذا
الحديث لم يرقه إلا قزة بن خالد ، وقرة ثقة ثبت .

قلت : هذا الحديث أخرجه الدارقطني ، وثنته : " طهور الإناء إذا ولغ فيه الكلب
أن يغسل سبع مرات الأولى بالتراب والمز مرة أو مرتين " . قزة شك . قال أبو بكر :
كذا رواه أبو عاصم مرفوعا ، ورواه غيره عن قزة (ولوغ الكلب) مرفوعا و (ولوغ المز)
مرفوعا . وروى أبو صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يغسل
الإناء من المز كما يغسل من الكلب " قال الدارقطني : لا يثبت هذا مرفوعا والمخفوض من قول
أبي هريرة وأختلف عنه . وذكر معمر وأبن جريح عن أبن طاوس عن أبيه أنه كان يجعل
المز مثل الكلب . وعن مجاهد أنه قال في الإناء يلف فيه السنور قال : أغسله سبع مرات .
قاله الدارقطني .

التاسعة - الماء المستعمل طاهر إذا كانت أعضاء المتوضئ به طاهرة ؛ إلا أن
مالكا وجماعة من الفقهاء الحسنة كانوا يكرهون الوضوء به . وقال مالك : لا خير فيه ،
ولا أحب لأحد أن يتوضأ به ، فإن فعل وصل لم أر عليه إعادة الصلاة ويتوضأ لها يستقبل .
وقال أبو حنيفة والثوري وأصحابهما : لا يجوز استعماله في رفع الحدث ، ومن توضأ به أعاد ،
لأنه ليس بماء مطلق ، ويتم واجده لأنه ليس بواجب ماء . وقال بقولهم في ذلك أصبغ بن الفرج ،
وهو قول الأوزاعي . وأجبتوا بحديث الصنابحي أخرجه مالك وحديث عسرو بن عيسى
أخرجه مسلم ، وغير ذلك من الآثار . وقالوا : الماء إذا توضئ به خرجت الخطايا معه ؛
فوجب التزهد عنه لأنه ماء الذنوب . قال أبو عمر : وهذا عندي لا وجه له ؛ لأن الذنوب
لا تجس الماء لأنها لا أشتطاص لها ولا أجسام تمازج الماء فتفسده ، وإنما معنى قوله
« خرجت الخطايا مع الماء » إعلام منه بأن الوضوء للصلاة عمل بكفراته به السيئات عن عباده

المؤمنين رحمة منه بهم وفضل عليهم . وقال أبو ثور وداود مثل قول مالك ، وأن الوضوء بالماء المستعمل جائز ؛ لأنه ماء طاهر لا يضاف إليه شيء وهو ماء مطلق . واحتجوا بإجماع الأمة على طهارته إذا لم يكن في أعضائه المتوضئ نجاسة . وإلى هذا ذهب أبو عبد الله المروزي محمد بن نصر . وروى عن علي بن أبي طالب وأبن عمر وأبي أمامة وعطاء بن أبي رباح والحسن البصري والبخي ومكحول والزهري أنهم قالوا فيمن نسي مسح رأسه فوجد في لحيته بلا ؛ لأنه يميزه أن يمسح بذلك البلل رأسه ؛ فهؤلاء كلهم أجازوا الوضوء بالماء المستعمل . روى عبد السلام بن صالح حدثنا إسماعيل بن سويد عن العلاء بن زياد عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مرضى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج عليهم ذات يوم وقد اغتسل وقد بقيت لمعة من جسده لم يصبها الماء ، فقلنا : يا رسول الله ، هذه لمعة لم يصبها الماء ؛ فكان له شعروارد^(١) ، فقال بشعره هكذا على المكان بفسله . أنكره الدارقطني ، وقال : عبد السلام بن صالح هذا بصرى وليس بقوى ، وغيره من الثقات يرويه عن إسماعيل عن العلاء مرسل ، وهو الصواب .

قلت : الراوى الثقة عن إسماعيل بن سويد العدوي عن العلاء بن زياد العدوي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اغتسل ... ؛ الحديث فيما ذكره هشيم . قال ابن العربي : «مسئلة الماء المستعمل إنما تنهى عن أصل آثر ، وهو أن الأكلة إذا أدت بها فرض هل يؤدي بها فرض آثر أم لا ؛ فبمع ذلك الخالف قياسا على الرقية إذا أدت بها فرض عتي لم يصلح أن يتكرر في أداء فرض آثر ؛ وهذا باطل من القول ، فإن العتي إذا أتى على الرق أثلفه فلا يبقى محل لأداء الفرض بمقتضى آثر . ونظيره من الماء ما تلف على الأعضاء فإنه لا يصح أن يؤدي به فرض آثر لتلف عتيه حسا كما تلف الرق في الرقية بالعتي حكا ، وهذا نفيس تأملوه » .

(١) أى مسرسل طويل . (٢) السرب يجهل القول مباركة من جميع الأنفال ، وعقلته على غير الكلام واللسان ؛ فقول : يقال يده ، أى أخذ . وقال يديه ؛ أى مشى . وقال بالماء على يده ؛ أى قلبه . وقال شربه ؛ أى ربه . وكل ذلك على المجاز والاتساع .

الباشرة - لم يفرق مالك وأصحابه بين الماء تقع فيه النجاسة وبين النجاسة يرد عليها الماء، راكدا كان الماء أو غير راكد؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الماء لا ينجسه شيء إلا ما غلب عليه فقير طعمه أو لونه أو ريحه". وفرقت الشافعية فقالوا: إذا وردت النجاسة على الماء تنجس، واختاره ابن العربي. وقال: من أصول الشريعة في أحكام المياه أن ورود النجاسة على الماء ليس كورود الماء على النجاسة؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثا فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده". فنع من ورود البدل على الماء، وأمر بإيراد الماء عليها، وهذا أصل يذيع في الباب، ولولا ورودده على النجاسة - قليلا كان أو كثيرا - لما طهرت. وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في بول الأعرابي في المسجد: "صبوا عليه ماء" (١). قال شيخنا أبو العباس: وأستدلوا أيضا بحديث القلتين، فقالوا: إذا كان الماء حوتا القلتين خفته نجاسة تنجس وإن لم تغيره، وإن ورد ذلك القدر فأقبل على النجاسة فأنهض عنها يني الماء على طهارته وأزال النجاسة وهذه مناقضة، إذ المخالطة قد حصلت في الصورتين، وتفرقهم ورود الماء على النجاسة وورودها عليه فرق صوري ليس فيه من الفقد شيء، فليس الباب باب التبدلات بل من باب عتبة المعاني، فإنه من باب إزالة النجاسة وأحكامها. ثم هذا كله منهم يرد قوله عليه الصلاة والسلام: "الماء طهور لا ينجسه شيء إلا ما غلب لونه أو طعمه أو ريحه".

قلت: هذا الحديث أخرجه الدارقطني عن رشدين بن سعد أبي النجاشي عن معاوية بن صالح عن راشد بن سمعد عن أبي أمامة الباهلي وعن ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم، وليس فيه ذكر اللون. وقال: لم يرفعه غير رشدين بن سمعد عن معاوية بن صالح وليس بالقوي، وأحسن منه في الاستدلال ما رواه أبو أمامة عن الوليد بن كثير عن محمد بن كعب عن عبيد الله بن عبد الله بن رافع بن خديج عن أبي سعيد الخدري قال قيل: يا رسول الله،

(١) القنوب (بالفتح) : القدر.

أنتوضاً من بئر بضاعة ، وهي بئر ثلثي فيها الحيض ولحوم الكلاب والخنزير ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الماء طهور لا ينجسه بئر " أخرجه أبو داود والترمذي والدارقطني . كلهم بهذا الإسناد . وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن ، وقد جرد أبو أسامة هذا الحديث ولم يرو أحد حديث أبي سعيد في بئر بضاعة أحسن مما روى أبو أسامة . فهذا الحديث نص في ورود النجاسة على الماء ، وقد حكم صلى الله عليه وسلم بطهارته وطهوره . قال أبو داود : سمعت فتية بن سعيد قال سألت فيم بئر بضاعة عن عمها ، قلت : أكر ما يكون الماء فيها ؟ قال : إلى العانة . قلت : فإذا نقص ؟ قال : دون المورة . قال أبو داود : وقد رت بئر بضاعة برداء مددته عليها ثم ذرعه فإذا عرضها ستة أذرع ، وسألت الذي فتح لي باب البستان فأدخلني إليه : هل غير بناؤها عما كانت عليه ؟ فقال لا . ورأيت فيها ماء متغير اللون . فكان هذا دليلاً لنا على ما ذكرناه ، خير أن أبين العربي قال : إنها في وسط السبعة ، فلوها يكون متغيراً من قراها ، والله أعلم .

الحادية عشرة — الماء الطاهر المطهر الذي يحسوز به الوضوء وغسل النجاسات هو الماء القراح الصافي من ماء السماء والأنهار والبحار واليون والآبار ، وما عرفه الناس ماء مطلقاً غير مضاف إلى شيء خالطه كما خلقه الله عز وجل صافياً ولا بضرة لون أرضه على ما بيناه . وخالف في هذه الجملة أبو حنيفة وعبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر فأما أبو حنيفة فأجاز الوضوء بالنبيذ في السفر ، وجوز إزالة النجاسة بكل مانع طاهر ، فأما بالدهن والمرق فنهت رواية أنه لا يجوز إزالتها به . إلا أن أصحابه يقولون : إذا زالت النجاسة به جاز ، وكذلك هتد النار والشمس ، حتى أن جلد الميتة إذا جف في الشمس طهر من غير دباغ . وكذلك النجاسة على الأرض إذا جفت بالشمس فإنه يطهر ذلك الموضع ، بحيث تجوز الصلاة عليه ، ولكن لا يحسوز التيم بذلك التراب . قال ابن البرقي : لما وصف الله سبحانه الماء بأنه طهور وأمن بآياته من السماء ليطهرنا به دل على اختصاصه بذلك ، وكذلك قال عليه الصلاة

والسلام لأسماء بنت الصديق حين سائه عن دم الحيض يصيب الثوب : " حَتَّى تَمُوتَ أَوْ تُضِيَهُ
ثُمَّ اغْسِلِيهِ بِالمَاءِ " . فذلك لم يلحق غير الماء بالماء لما في ذلك من إبطال الأمتنان ،
وليس التنجاسة معنى محسوسا حتى يقال كل ما أزالها فقد قام به الغرض ، وإنما التنجاسة معكم
شرعى حين له صاحب الشرع الماء فلا يلحق به غيره إذ ليس في معناه ، ولأنه لو لحق به
لأشقطه ، والفرع إذا عاد إلحاقه بالأصل في إسقاطه سقط في نفسه . وقد كان تاج السنة
ذو المزاج المرتضى الدبروى يسميه فرخ زنى .

قلت : وأما ما استدل به على استحالة التبيذ فأحاديث واهية ، ضعاف لا يقوم شيء منها
على ساق ؛ ذكرها الدارقطني وضعفها ونص عليها . وكذلك ضعف ماروى عن ابن عباس
موقوفا " التبيذ وضوء لمن لم يجد الماء " . في طريقه ابن عمر متروك الحديث . وكذلك
ماروى عن علي أنه قال : لا بأس بالوضوء بالتبيذ . المجاج وأبو ليلى ضعيفان . وضعف
حديث ابن مسعود وقال : نمزده به أين تبيعة وهو ضعيف الحديث . وذكر عن علقمة بن
قيس قال قلت لعبد الله بن مسعود : أشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد منكم ليلة أتاه
داعى الجن ؟ فقال لا .

قلت : هذا إسناد صحيح لا يختلف في عدالة رواته . وأخرج الترمذى حديث ابن مسعود
قال : سألت النبي صلى الله عليه وسلم : " ما في إدوائك " فقلت : نبيذ . فقال : " تمرة
طيبة وماء طهور " قال : فتوضأ منه . قال أبو عيسى : وإنما روى هذا الحديث عن أبي
زيد عن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبو زيد رجل مجهول عند أهل الحديث
لأنهم لم يروا غير هذا الحديث ، وقد رأى بعض أهل العلم الوضوء بالتبيذ ؛ منهم سفيان
وغيره ، وقال بعض أهل العلم : لا يتوضأ بالتبيذ ، وهو قول الشافعى وأحمد وإسحق ، وقال
إسحق : إن أتى رجل بهذا فتوضأ بالتبيذ وتيمم أحب إلى . قال أبو عيسى : وقول من يقول
لا يتوضأ بالتبيذ أقرب إلى الكتاب والسنة وأشبه ؛ لأن الله تعالى قال : " فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا "

صَيِّدًا طَيِّبًا . وهذه المسئلة مطولة في كتب الخلاف؛ وعمدتهم اتسك بلفظ الماء جنباً
تقدم في « المسئلة » بيانه والله أعلم .

الثانية عشرة - لما قال الله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا » وقال « يُطَهِّرُكُمْ
بِهِ » توقف جماعة في ماء البحر؛ لأنه ليس ينزل من السماء؛ حتى رووا عن عبد الله
ابن عمر وابن عمرو معا أنه لا يتوضأ به؛ لأنه نار ولأنه طبق جهنم . ولكن النبي صلى الله
عليه وسلم حين قال لمن سأله : « هو الطهور ماؤه الحلي ميتته » أخرجه مالك، وقال
فيه أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وهو قول أكثر الفقهاء من أصحاب النبي
صلى الله عليه وسلم، منهم أبو بكر وعمر وابن عباس، لم يروا بأما بماء البحر، وقد كره بعض
أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الوضوء بماء البحر؛ منهم ابن عمر وعبد الله بن عمرو، وقال
عبد الله بن عمرو : هو نار . قال أبو عمر : وقد سئل أبو عيسى الترمذي عن حديث مالك
هذا عن صفوان بن سالم قال : هو عندي حديث صحيح . قال أبو عيسى فقلت للبخاري :
هشيم يقول فيه ابن أبي رزّة . فقال : وبعم فيه، إنما هو المنقوعة بن أبي رزّة . قال أبو عمر :
لا أدري ما هذا من البخاري رحمه الله، ولو كان صحيحاً لأخرجه في مصنفه الصحيح عنده ،
ولم يفعل لأنه لا يعول في الصحيح إلا على الإسناد . وهذا الحديث لا يمتنع أهل الحديث بمثل
إسناده، وهو عندي صحيح لأن العلماء تلقوه بالقبول له والعمل به، ولا يخالف في جملته أحد
من الفقهاء، وإنما الخلاف بينهم في بعض معانيه . وقد أجمع جمهور من العلماء وجماعة
أئمة الفتوى بالأمصار من الفقهاء : أن البحر طهور ماؤه، وأن الوضوء به جائز إلا ما روى
عن عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاصي أنهما كرها الوضوء بماء البحر،
ولم يتابعهما أحد من فقهاء الأمصار على ذلك ولا عرج عليه، ولا التفت إليه حديث هذا
الباب . وهذا يدل على آشتار الحديث عندهم، وعملهم به وقبولهم له، وهو أولى عندهم من
الإسناد الظاهر الصحة لمعنى ترويه الأصول . والله التوفيق .

قال أبو عمر : وصفوان بن سليم مولى حميد بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى ، من عباد أهل المدينة وأنفاهم لله ، ناسكاً ، كثير الصدقة بما وجد من قليل وكثير ، كثير العمل ، خافها لله ، يكنى أبا عبد الله ، سكن المدينة لم ينتقل عنها ، ومات بها سنة اثنتين وثلاثين ومائة . ذكر عبد الله بن أحمد بن حنبل قال : سمعت أبي يسأل عن صفوان بن سليم فقال : ثقة من خيار عباد الله وفضلاء المسلمين ، وأما سعيد بن سلمة فلم يرو عنه فيما علمت إلا صفوان - والله أعلم - ومن كانت هذه حاله فهو مجهول لا تقوم به حجة عند جميعهم . وأما المغيرة بن أبي بردة فقليل عنه إنه غير معروف في حملة العلم كسعيد بن سلمة ، وقيل : ليس بمجهول . قال أبو عمر : المغيرة بن أبي بردة وجدت ذكره في منازل موسى بن نصير بالمغرب ، وكان موسى يستعمله على الخليل ، وفتح الله له في بلاد البرفوحات في البر والبحر . وروى المدارقطنى من غير طريق مالك عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من لم يطهره ماء البحر فلا طهره الله " . قال إسناده حسن .

الثالثة عشرة - قال ابن العربي : توهم قوم أن الماء إذا فضلت للجنب منه فضلة لا يتوضأ به ، وهو مذهب باطل ، فقد ثبت عن ميمونة أنها قالت : أجنبنا أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم وأغتسلت من جفنة وفضلت فضلة ، بغاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ليغسل منه فقلت : إني قد أغتسلت منه . فقال : " إن الماء ليس عليه نجاسة - أو - إن الماء لا يجنب " . قال أبو عمر : وردت آثار في هذا الباب مرفوعة في النهي عن أن يتوضأ الرجل بفضل المرأة . وزاد بعضهم في بعضها : ولكن يغتفرها جميعاً . وقالت طائفة : لا يجسوز أن يغتفر الرجل مع المرأة في إناؤه واحد ؛ لأن كل واحد منهما متوضئ بفضل صاحبه . وقال آخرون : إنما كره من ذلك أن تنفرد المرأة بالإناؤه ثم يتوضأ الرجل بعدها بفضلها . وكل واحد منهم روى بما ذهب إليه أثراً . والذي ذهب إليه الجمهور من العلماء وجماعة فقهاء الأمصار أنه لا بأس أن يتوضأ الرجل بفضل المرأة ويتوضأ المرأة من فضله ، أنفردت المرأة بالإناؤه أو لم تنفرد . وفي مثل هذا آثار كثيرة صحاح . والذي نذهب إليه أن

الماء لا ينجسه شيء إلا ما ظهر فيه من النجاسات أو غلب عليه منها ، فلا وجه للاشتغال بها لا يصحح من الآثار والأقوال ، والله المستعان .

روى الترمذى عن ابن عباس قال حدثتني ميمونة قالت : كنت أغتسل أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم من إناء واحد من الجنابة . قال هذا حديث حسن صحيح . وروى البخارى عن عائشة قالت : كنت أغتسل أنا والنبي صلى الله عليه وسلم من إناء واحد يقال له الفرق . وفى صحيح مسلم عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يغتسل بفضل ميمونة . وروى الترمذى عن ابن عباس قال : أغتسل بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فى جفنة فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتوضأ منه فقالت : يا رسول الله ، إني كنت جنباً . قال : " إن الماء لا يجنب " . قال : هذا حديث حسن صحيح ، وهو قول سفيان الثورى ومالك والشافعى . وروى الدارقطنى عن عمرة عن عائشة رضى الله عنها قالت : كنت أتوضأ أنا والنبي صلى الله عليه وسلم من إناء واحد وقد أصابت المرأة منه قبل ذلك . قال : هذا حديث حسن صحيح . وروى أيضاً عن رجل من بنى غفار قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن فضل ظهور المرأة ، وفى الباب عن عبد الله بن سرجس ، وكه بعض الفقهاء فضل ظهور المرأة ، وهو قول أحمد وإسحق .

الرابعة عشرة - روى الدارقطنى عن زيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب أن عمر بن الخطاب كان يسخن له الماء فى قفصة ويتسل به . قال : وهذا إسناد صحيح . وروى عن عائشة قالت : دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سخنت ماء فى الشمس . فقال " لا تفعل يا - إياه فإنه يورث البرص " . رواه خالد بن إسماعيل المخزومى عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ، وهو متروك . ورواه عمرو بن محمد الأعشى عن فليح عن الزهرى عن عروة عن عائشة . وهو منكر الحديث ، ولم يروه غيره عن فليح ، ولا يصح عن الزهرى ، قاله الدارقطنى .

(١) الفرق (بالتحريك) : مكيال يسع ستة عشر مثلاً . وبالسكون مائة وعشرون مثلاً .

(٢) القفصة والقفص (كهدد) : ما يستعمل فيه الماء من نحاس وغيره .

الخامسة عشرة -- كل إناء طاهر بغائر الوضوء منه إلا إناء الذهب والفضة ؛ انتهى
رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اتخاذهما . وذلك - والله أعلم - للتشبه بالأعاجم والجبارة
لا لتجاسة فيهما . ومن توضحا فيهما أجزاء وضوءه وكان عاصيا باستعمالهما . وقد قيل : لا يجوز
الوضوء في أحدهما . والأقول أكثر ؛ قاله أبو عمر . وكل جلد ذكي بغائر استعماله للوضوء
وغير ذلك . وكان مالك يكره الوضوء في إناء جلد الميتة بعد الدباغ ؛ على اختلاف من قوله .
وقد تقدم في « النحل » ^(١) .

قوله تعالى : لِنُخْثِي بِهِ بِلَدَّةً مَيِّتًا وَنُسْقِيهِ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا
وَأُنَاسِي كَثِيرًا ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : (لِنُخْثِي بِهِ) أى بالمطر . (بِلَدَّةً مَيِّتًا) بالجدوبة والمحل وعدم النبات .
قال كعب : المطر روح الأرض يحياها الله به . وقال : « مَيِّتًا » ولم يقل ميتة لأن معنى البلدة
والبلد واحد ؛ قاله الزجاج . وقيل : أراد بالبلد المكان . (وَنُسْقِيهِ) قراءة العامة بضم
النون . وقرأ عمر بن الخطاب وعاصم والأعمش فيما روى المفضل عنهما « نُسْقِيهِ » (بفتح)
النون . (مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأُنَاسِي كَثِيرًا) أى بشرا كثيرا وأناسى واحده إنسى نحو جمع القُرُقُورِ
قُرَاقِيرٍ وقُرَاقِرٍ في قول الأخفش والمبرد واحد قولى الفراء ؛ وله قول آخر وهو أن يكون واحده
إنسانا ثم تبدل من النون ياء ؛ فنقول : أناسى ، والأصل أناسين ، مثل سرحان وسراحين ،
وبستان وبساتين ؛ فجعلوا الياء عوضا من النون ، وعلى هذا يجوز سراسى وبساتى ، لا فرق
بينهما . قال الفراء : ويجوز « أناسى » بتخفيف الياء التى فيما بين لام الفعل وعينه ؛ مثل
قُرَاقِيرٍ وقُرَاقِرٍ . وقال « كثيرا » ولم يقل كثيرين ؛ لأن قيل قد يراد به الكثرة ؛ نحو
« وَحَسَنَ أَوْلَئِكَ رَفِيقًا » .

(١) راجع ج ١٠ ص ١٥٦ طبة أول أرثانية . (٢) فى الأصول : « بضم النون » . وهو بحر .

النصب من أى حيان وغيره . (٣) القُرُقُور : ضرب من السفن . وقيل : هى السفينة العظيمة أو الطويلة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَيُّ أَكْثَرِ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ ﴾ يعني القرآن، وقد جرى ذكره في أول السورة : قوله تعالى : « تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ » . وقوله : « لَقَدْ أَضَلُّنَا عَنْ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي » وقوله : « اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا » . (لِيَذَّكَّرُوا فَأَيُّ أَكْثَرِ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) أي يهودا له ونكزيبا به . وقيل : « وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ » هو المطر . روى عن ابن عباس وآبن مسعود : وأنه ليس عام بأكثر مطرا من عام ولكن الله يصرفه حيث يشاء ، فإزيد لبعض نقص من غيرهم . فهذا معنى التصريف . وقيل « صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ » وأبلا وطشاً وطلاً وريهما — الجوهرى : الزهام الأمطار اللينة — ورَذَاذًا . وقيل : تصريفه توزيع الانتفاع به في الشرب والسقي والزرعات به والطهارات وسقي البساتين والثلج وشبهه . « لِيَذَّكَّرُوا فَأَيُّ أَكْثَرِ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا » قال عكرمة : هو قولهم في الأنواء : مطرنا بنوء كذا . قال النحاس : ولا نعلم بين أهل التفسير اختلافنا أن الكفار هاهنا قولهم مطرنا بنوء كذا وكذا ؛ وأن نظيره قول النجم كذا ، وأن كل من نسب إليه فعلا فهو كافر . وروى الربيع بن صبيح قال : « مطر الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ، فلما أصبح قال النبي صلى الله عليه وسلم : " أصبح الناس فيها رجلين شاكرك وكافرك فاما الشاكرك فيحمد الله تعالى على سقياه وغياثه وأما الكافر فيقول " مطرنا بنوء كذا وكذا " . وروى من حديث آبن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما من سنة بأكثر من أخرى ولكن إذا عمل قوم بالمعاصي صرف الله ذلك إلى غيرهم فإذا عصوا جميعا صرف الله ذلك إلى القيان والبحار " . وقيل : التصريف راجع إلى الربيع ، وقد مضى في « البقرة » ^(١) بساتنه . وقرا حمزة والكسافى « لِيَذَّكَّرُوا » مخففة الذال من الذكر . الباقون متغلا من التذكير ، أي ليسذكروا نعم الله ويعلموا أن من أنعم بها لا يحوز الإشراك به ؛ فالذكر قريب من الذكر غير أن التذكير يطلق فيما بعد عن القلب فيحتاج إلى تكلف في التذكير .

قوله تعالى : وَلَوْ شِئْنَا لَبعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تَطْعَمُ
الْكَافِرِينَ وَجَهَنَّمُ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : (وَلَوْ شِئْنَا لَبعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا) أى رسولا ينذرهم كما قسمنا المطر
ليخفف عليك أعباء النبوة، ولكم لم نفعل بل جعلناك نذيرا لكل لترفع درجتك فأشكر نعمته
الله عليك . (فَلَا تَطْعَمُ الْكَافِرِينَ) أى فيما يدعوكم إليه من اتباع آلهتهم . (وَجَاهَدُهُمْ بِهِ)
قال ابن عباس بالقرآن . ابن زيد : بالإسلام . وقيل : بالسيف ؛ وهذا فيه بعد ؛ لأن
السورة مكية نزلت قبل الأمر بالقتال . (جِهَادًا كَبِيرًا) لا يخالطه قنور .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا
مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ) عاد الكلام إلى ذكر النعم . و « مَرَجَ »
خَلَ وخالط وأرسل . قال مجاهد : أرسلهما وأفاض أحدهما في الآخر . قال ابن عرفة :
« مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ » أى خالطهما فهما يلتقيان ؛ يقال : مرجته إذا خلطته . و « مَرِيجٌ الدُّيْنُ »
والأمر أختلط واضطرب ؛ ومنه قوله تعالى : « فِي أَمْرِ مَرِيجٍ » . ومنه قوله عليه الصلاة
والسلام لعبد الله بن عمرو بن العاصي : ^(١) « إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ مَرَجَتْ عُهُودُهُمْ وَخَفَّتْ أَمَانَتُهُمْ
وَكَانُوا هَكَذَا وَهَكَذَا » وشبك بين أصابعه فقلت له : كيف أصنع عند ذلك ، جعلني الله
فدلك ! قال : « أَلَزِمِ بَيْتَكَ وَأَمْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَخُذْ بِمَا تَعْرِفُ وَدَعْ مَا تَكْرَهُ وَعَلَيْكَ
بِمُخَاصَّةِ أَمْرِ نَفْسِكَ وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَامَةِ » خرج النسائي وأبو داود وغيرهما . وقال
الأزهري : « مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ » خَلَ بينهما ؛ يقال مَرَجْتُ الدَّابَّةَ إِذَا خَلَيْتَهَا تَرْحَى . وقال
تعلب : المرح الإجماع ؛ فقله : « مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ » أى أجزأهما . وقال الأخفش : يقول قوم
أمرج البحرين مثل مرج فعل وأفعل بمعنى . (هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ) أى حلو شديد المذاقة .
(١) الحديث في التفتة .

(وَقَدْ أَمْلَأُ أُجَاجٌ) أى فيه ملوحة وصرارة . وروى طلحة أنه قرئ « وَهَذَا مِلْحٌ »
 بفتح الميم وكسر اللام . (وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا) أى حاجزا من قدرته لا يلبث أحدهما
 على صاحبه ، كما قال في سورة الرحمن « صَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ » .
 (وَجِبْرًا مَحْجُورًا) أى سقرا مستورا يمنع أحدهما من الاختلاط بالآخر . فالبرزخ الحاجز ،
 والجبر المانع . وقال الحسن : يعنى بحر فارس وبحر الروم . وقال ابن عباس وأبو جبير : يعنى
 بحر السماء وبحر الأرض . قال ابن عباس : يلتقيان في كل عام وبينهما برزخ قضاء من قضائه .
 « وَجِبْرًا مَحْجُورًا » حراما محزوما أن يذهب هذا الملح بالعذب ، أو يملح هذا العذب بالملح .
 قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا جَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا
 وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٥﴾

فيه مستطان :

الأولى — قوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا) أى خلق من النطفة إنسانا .
 (جَعَلَهُ) أى جعل الإنسان « نَسَبًا وَصِهْرًا » . وقيل : « مِنَ الْمَاءِ » إشارة إلى أصل الخلقة
 في أن كل حي مخلوق من الماء . وفي هذه الآية تعديد النعمة على الناس في إيجادهم بعد العدم ،
 والتنبيه على العبرة في ذلك .

الثانية — قوله تعالى : (جَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا) النسب والصهر معنيان ببيان كل قرى تكون
 بين آدميين . قال أبو العري : النسب عبارة عن خلط الماء بين الذكر والأنثى على وجه الشرع ؛
 فإن كان بمصيبة كان خلفا مطلقا ولم يكن نسبا محققا ، ولذلك لم يدخل تحت قوله « حُرِّمَتْ
 عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبنَاتُكُمْ » بنته من الزنى ؛ لأنها ليست ببنت له في أصح القولين لعامائنا وأصح
 القولين في الدين ؛ وإذا لم يكن نسب شرعا فلا صهر شرعا ، فلا يحزم الزنى بنت أم ولا أم بنت ،
 وما يحزم من الحلال لا يحزم من الحرام ؛ لأن الله آمن بالنسب والصهر على عباده ورفع
 قدرهما ، وعلق الأحكام في الحل والحرمه عليهما فلا يلحق الباطل بهما ولا يساويهما .

قلت : اختلف الفقهاء في نكاح الرجل أخته من زنى أو أخته أو بنت أبنه من زنى ؛ فحرم ذلك قوم منهم آبن القاسم ، وهو قول أبى حنيفة وأصحابه ، وأجاز ذلك آخرون منهم عبد الملك بن الماجشون ، وهو قول الشافعى ، وقد مضى هذا فى « النساء » مجودا . قال الفراء : النسب الذى لا يمل نكاحه . وقاله الزجاج ، وهو قول على بن أبى طالب رضى الله عنه . وأشتاق الصهر من صهرت الشيء إذا خلطته ؛ فكل واحد من الصهرين قد خلط صاحبه ، فسميت المناع صهرا لاختلاط الناس بها . وقيل : الصهر قرابة النكاح ؛ فقرابة الزوجة هم الأخنان ، وقرابة الزوج هم الأعمام . والأصهار يقع عاما لذلك كله ؛ قاله الأصمعى . وقال آبن الأعرابى : الأخنان أبو المرأة وأخوها وعمها — كما قال الأصمعى — والصهر زوج أخته الرجل وأخوه وأبوه وعمه . وقال محمد بن الحسن فى رواية أبى سليمان الجوزجاني : اختان الرجل أزواج بناته وأخواته وصماته وخالاته ، وكل ذات محرم منه ، وأصهاره كل ذى رحم محرم من زوجته . قال النحاس : الأولى فى هذا أن يكون القول فى الأصهار ما قال الأصمعى ، وأن يكون قبلهما جميعا . يقال صهرت الشيء أى خلطته ؛ فكل واحد منهما قد خلط صاحبه . والأولى فى الأخنان ما قال محمد بن الحسن بلهتين : إحداهما الحديث المرفوع ، روى محمد بن إسحق عن يزيد بن عبد الله بن قُسيط عن محمد بن أسامة بن زيد عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أما أنت يا على نفختى وأبو ولدى وأنت منى وأنا منك» . فهذا على أن زوج البنت حتم . والجهة الأخرى أن اشتقاق الحتم من حتمته إذا قطعه ؛ وكأن الزوج قد أقطع عن أهله ، وقطع زوجته عن أهلها . وقال الضحاك : الصهر قرابة الرضاع . قال آبن عطية : وذلك عندى وهم أوجهان آبن عباس قال : حرم من النسب سبع ، ومن الصهر خمس . وفى رواية أخرى من الصهر سبع ؛ يريد قوله عز وجل « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ » فهذا هو النسب ، ثم يريد بالصهر قوله تعالى : « وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ » إلى قوله « وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ » . ثم ذكر المحصنات . ومحل هذا أن آبن عباس أراد حرم من الصهر ما ذكر معه ، فقد أشار

بما ذكر إلى عظمه وهو الصبر ، لأن الرضاع صهر ، وإنما الرضاع عدل النسب يحرم منه ما يحرم من النسب بحكم الحديث المأثور فيه . ومن روى : وحرم من الصبر خمس أسقط من الآيتين الجمع بين الأخنتين والمحصلات ؛ وهن ذوات الأزواج .

قلت : فأين عطية جعل الرضاع مع ما تقدم نسباً ، وهو قول الزجاج . قال أبو إسحق : النسب الذي ليس بصهر من قوله جل ثناؤه : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ » إلى قوله « وَأَنْ تَتَحَمَّوْا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ » والصبر من له الترويج . قال ابن عطية : وحكى الرمزى قولاً أن النسب من جهة البين والصبر من جهة البنات .

قلت : وذكر هذا القول النعاس ، وقال : لأن المصاهرة من جهتين تكون . وقال ابن سيرين : نزلت هذه الآية في سمى صلى الله عليه وسلم وعلى رضى الله عنه ؛ لأنه جمعه معه نسب وصهر . قال ابن عطية : فأجتمعا وكادة ١٠٠ سنة إلى يوم القيامة ، (وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا) على خلق ما يريد .

قوله تعالى : وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ
وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ) لما عند النعم وبين كمال قدرته عجب من المشركين في إشراكهم به من لا يقدر على نفع ولا ضرر ؛ أى إن الله هو الذى خلق ما ذكره ، ثم هؤلاء لجهلهم يعبدون من دونه أمواتا بجمادات لا تنفع ولا تضر . (وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا) روى عن ابن عباس ، « الْكَافِرُ » هنا أبو جهل ؛ وشرحه أنه يستظهر بعبادة الأوثان على أوليائه . وقال عكرمة : « الْكَافِرُ » إبليس ، ظهر على عداوة ربه . وقال مطرف : « الْكَافِرُ » هنا الشيطان . وقال الحسن : « ظَهِيرًا » أى مينا للشيطان على المصاحى . وقيل : المعنى ؛ وكان الكافر على ربه هينا ذليلا لا قدر له ولا وزن عنده ؛ من قول العرب : ظهرت به أى جعلته خلف ظهرك ولم تلتفت إليه . ومنه قوله تعالى : « وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً مِمَّنْ ظَهَرَ لَهُمُ الْبَاطِنُ » أى هينا .

ومنه قول الفرزدق :

تَسْمِيَّ بَنِي قَيْسٍ لَا تَكُونُ حَاجِي • يَظْهَرُ فَلَا يَمِيزُ عَلَى جَوَابِهَا

هذا معنى قول أبي عبيدة . وظهير بمعنى مظهر . أى كفر الكافرين حين على الله تعالى ، والله مستبين به لأن كفره لا يضره . وقيل : وكان الكافر على ربه الذى يعبده وهو الصنم فويا غالبا يعمل به ما يشاء ؛ لأن الجسد لا قدرة له على دفع ضرر وقع .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ يريد بالجنة مبشرا ونذيرا من النار؛ وما أرسلناك وكلا ولا مسيطرا . ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ يريد على ما جئتكم به من القرآن والوصى . و « من » للتأكيد . ﴿ إِلَّا مَنْ شَاءَ ﴾ لكن من شاء ؛ فهو استثناء منقطع ، والمعنى : لكن من شاء ﴿ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ بإتفاقه من ماله في سبيل الله فليفتق . ويحوز أن يكون متصلا بقدر حذف المضاف ؛ التقدير : إلا اجر « مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا » باتباع دعى حتى ينال كرامة الدنيا والآخرة .

قوله تعالى : وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ يَذُنُوبَ عِبَادِهِ خَيْرًا ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ تقدم معنى التوكل فى « آل عمران » وهذه السورة وأنه اعتماد القلب على الله تعالى فى كل الأمور ، وأن الأسباب وسائط أمر بها من غير اعتماد عليها . ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ أى تزه الله تعالى عما يصفه هؤلاء الكفار به من الشركاء . والتسبيح التزنيده ، وقد تقدم . وقيل : « وَسَبِّحْ » أى صل له ؛ وتسمى الصلاة تسبيحا . ﴿ وَكَفَىٰ بِهِ يَذُنُوبَ عِبَادِهِ خَيْرًا ﴾ أى عليا فيجازيهم بها .

قوله تعالى : **الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا** ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ **الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ** ﴾ تقدم في الأعراف ^(١) و « **الَّذِي** » في موضع خفض نعمنا لحي . وقال « **بَيْنَهُمَا** » ولم يقل بينهما ؛ لأنه أراد الصفيين والنومين والشيثيين ؛ كقول القنطاري :

ألم يحزنك أن جبال قيس * وتغلب قد تبايتا أقطاعا

أراد وجبال تغلب فتى ، والجبال جمع ؛ لأنه أراد الشيثيين والنومين . « **الرَّحْمَنُ** » فاستل به خَيْرًا ﴿ قال الزجاج : المعنى فأسأل عنه . وقد حكى هذا جماعة من أهل اللغة أن الباء تكون بمعنى عن ، كما قال تعالى : « **سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ** » وقال الشاعر :

هَلَّا سَأَلْتُ الخليل يَا بَنِي مَالِك * إن كنت جاهلة بما لم تسمي ^(٢)

وقال [علقمة بن عبدة] ^(٣) :

فإني تسألوني بالنساء لأنني * خبيرٌ بِأدواء النساءِ طيبٌ

أى عن النساء وعمما لم تسمي . وأنكره علي بن سليمان وقال : أهل النظر يذكرون أن تكون الباء بمعنى عن ؛ لأن في هذا إنسادا لما في قول العرب : لو لقيت فلانا للفتيك به الأسد ؛ أى للفتيك بفتاك إياه الأسد . المعنى فأسأل سؤالك إياه خبيراً . وكذلك قال ابن جبير : الخبير هو الله ، فـ « **خَيْرًا** » نصب على المفعول به بالسؤال .

قلت : قول الزجاج يخرج على وجه حسن ، وهو أن يكون الخبير غير الله ؛ أى فأسأل عنه خبيراً ، أى عالماً به ، أى بصفاته وأسمائه . وقيل : المعنى فأسأل له خيراً ، فهو نصب

(١) راجع ج ٧ ص ٢١٨ وما بعدها طيبة أدل أرثانية . (٢) البيت من منطقة عترة .

(٣) في نسخ الأصل : « وقال أمرؤ القيس » وهو تحريف . وبيت من قصيدة لعلقمة مغلطها :

طحا بك قلب في الحسان طروب * يمد الشباب عصر حان مشيب

على الحال من المساء المضمرة . قال المهدوي : ولا يحسن حالا إذ لا يخلو أن تكون الحال من السائل أو المستول ، ولا يصح كونها حالا من الفاعل ؛ لأن الخير لا يحتاج أن يسأل غيره . ولا يكون من المفعول ؛ لأنت المستول عنه وهو الرحمن خير أبدا ، والحال في أغلب الأمر يتغير ويقتل ؛ إلا أن يحمل على أنها حال مؤكدة ؛ مثل « وهو الحق مُصَدِّقاً » فيجوز . وأما « الرَّحْمَنُ » ففى رفعه ثلاثة أوجه : يكون بدلا من المضمرة الذى فى « أَسْتَوِي » ، ويجوز أن يكون مرفوعا بمعنى هو الرحمن . ويجوز أن يكون مرفوعا بالابتداء وخبره « فاستل به خيرا » . ويجوز الخفض بمعنى وتوكل على الحى الذى لا يموت الرحمن ؛ يكون نعتا . ويجوز النصب على المدح .

قوله تعالى : **وَلَمَّا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا** ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : (**وَلَمَّا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ**) أى الله تعالى . (**قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ**) على جهة الإنكار والتعجب ، أى ما نعرف الرحمن إلا رحمن الإمامة ، يسنون مسيلة الكذاب . وزعم الفاضى أبو بكر بن العربى أنهم إنما جهلوا الصفة لا الموصوف ، وأسندل على ذلك بقوله : « **وَمَا الرَّحْمَنُ** » ولم يقولوا ومن الرحمن . قال ابن الحصار : وكأنه رحمه الله لم يقرأ الآية الأخرى « **وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ** » . (**أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا**) هذه قراءة المدنيين والبصريين ؛ أى لما تأمرنا أنت يا محمد . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم . وقرأ الأعمش وحمة والكسائى « **يَأْمُرُنَا** » بالياء . يسنون الرحمن ؛ كذا تأوله أبو عبيد ، قال : ولو أقروا بأن الرحمن أمرهم ما كانوا كفارا . فقال النحاس : وليس يجب أن يتأول عن الكوفيين فى قراءتهم هذا التأويل البعيد ، ولكن الأولى أن يكون التأويل لهم « **أَنَسْجُدُ لِمَا يَأْمُرُنَا** » التى صلى الله عليه وسلم ؛ فنصح القراءة على هذا ، وإن كانت الأولى أين وأقرب تناولوا . (**وَزَادَهُمْ نُفُورًا**) أى زادهم قول القائل لهم اسجدوا للرحمن نفورا عن الدين . وكان سفيان الثوري يقول فى هذه الآية : إلى زادنى لك خضوعا ما زاد عدالك نفورا .

قوله تعالى : تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا
وَقَرَأَ مَنِيرًا ﴿١٦﴾

قوله تعالى : (تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا) أى منازل ؛ وقد تقدّم ذكرها .
(وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا) قال ابن عباس : بنى الشمس ، نظيره « وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا » .
وقراءة العامة « سِرَاجًا » بالتوحيد . وقرأ حمزة والكسائي « سُرْجًا » يريدون النجوم العظام
الوقادة ، والقراءة الأولى عند أبى عبيد أولى ؛ لأنه قال أن السُّرْجُ النجوم ، وأن البروج النجوم ،
فيجىء المعنى نجومًا ونجومًا ، التماس ؛ ولكن التأويل لم أن أبان بن تغلب قال : السرج النجوم
الدرارى . التعليل : كالزهرة والمشتري وزحل والسمالكين ونحوها . (وَقَرَأَ مَنِيرًا) ينير الأرض
إذا طلع . وروى عصمة عن الأعمش « وَقَرَأَ » بضم القاف وإسكان الميم . وهذه قراءة شاذة ،
وله : يمكن فيها إلا أن أحمد بن حنبل وهو إمام المسلمين فى وقته قال : لا تكتبوا ما يحكيه
عصمة الذى يروى القراءات ، وقد أولع أبو حاتم السجستاني بذكر ما يرويه عصمة هذا .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ
أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿١٧﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (خِلْفَةً) قال أبو عبيدة : الخلفة كل شئ ، بعد شئ .
وكل واحد من الليل والنهار يخلف صاحبه . ويقال للبطون : أصابته خاتمة ، أى قيام وقعود
يخلف هذا ذلك . ومنه خلفه النبات ، وهو ورق يخرج بعد الورق الأول فى الصيف .
ومن هذا المعنى قول زهير بن أبى سلمى :

بها العين والأرام يَمِشِينَ خِلْفَةً * وَأَطْلَاؤُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْنَمٍ

(١) راجع ج ١٠ ص ٩ طبع أول أدنانية . (٢) العين (بالكسر) جمع أمين وعيان . دعى بقر الوحش ؛
مبيت بذلك لسة أعينها . والأطلا : جمع طلا ، وهو ولد البقرة وولد الظبية الصغير . والمجنم : الموضع الذى
يجمع فيه ، أى مقام فيه .

الرم ولد الظبي وجمعه آرام ، يقول : إذا ذهب فوج جاء فوج . ومنه قول الآخر ^(١) يصف
أمرأة تنقل من منزل في الشتاء إلى منزل في الصيف دأبا :

ولما بالماطرين إذا • أكل الثمل الذي جمعا

خلفة حتى إذا ارتبعت • سكنت من جلي يبع

في بيوت وسط دسكرة • حولها الزيتون قد ينما

قال مجاهد : « خلفة » من الخلاف ، هذا أبيض وهذا أسود ، والأول أقوى . وقيل :
يتماقبان في الضياء والظلام والزيادة والنقصان . وقيل : هو من باب حذف المضاف ، أى جعل
الليل والنهار ذوى خلفة ، أى اختلاف . (لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ) أى يتذكر ، فيعلم أن الله
لم يجعله كذلك عبثا فيمتدبر في مصنوعات الله ، ويشكر الله تعالى على نعمه عليه في العقل والذكر
والفهم . وقال عمر بن الخطاب وأبن عباس والحسن : معناه من فاته شيء من الخير ،
أدركه بالنهار ، ومن فاته النهار أدركه بالليل . وفي الصحيح : « ما من أمرئ تكون له صلاة
بالليل فغلبه عليها نوم فيصلي ما بين طلوع الشمس إلى صلاة الظهر إلا كتب الله له أجر
صلاته وكان نومه عليه صدقة » . وروى مسلم عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم : « من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر
كتب له كأما قرأه من الليل » .

الثانية — قال ابن العربي : سمعت ذا الشهيد الأكبر يقول : إن الله تعالى خلق العبد
حيا عالما ، وبذلك كماله ، وسلط عليه آفة النوم وضرورة الحدث ونقصان الخلة ، إذ الكمال
للاول الخالق ، فما أمكن الرجل من دفع النوم بقله الأكل والسهري طاعة الله فليعمل . ومن
التبني العظيم أن يعيش الرجل ستين سنة ينام ليها فيذهب النصف من عمره لغوا ، وينام
سدس النهار راحة فيذهب ثلثه ويبقى له من العمر عشرون سنة . ومن الجهالة والسفاهة
أن يتلف الرجل ثلثي عمره في لذة فانية ، ولا يتلف عمره بسهر في لذة باقية عند الغنى الوفى
الذي ليس بعميم ولا ظلوم .

(١) هو يزيد بن صامية . والماطرين : موضع بالشام قرب دمشق .

الثالثة — الأشياء لا تتفاضل بأنفسها؛ فإن الجواهر والأعراض من حيث الوجود متماثلة، وإنما يقع التفاضل بالصفات. وقد اختلف أىّ الوقين أفضل، الليل أو النهار. وفي الصوم غنية في الدلالة، والله أعلم؛ قاله ابن العربي.

قلت: والليل عظيم قدره؛ أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بقيامه فقال: «وَيَنَّ اللَّيْلَ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ»، وقال: «قُمِ اللَّيْلَ» على ما يأتي بيانه. ومدح المؤمنين على قيامه فقال: «تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ». وقال عليه الصلاة والسلام: «والصدقة تطفى الخبيطة كما يطفى الماء النار وصلاة الرجل في جوف الليل وفيه ساعة يستجاب فيها الدعاء وفيه ينزل الرب تبارك وتعالى» حسب ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

الرابعة — قرأ حزة وحده «يَذْكُرُ» بسكون الذال وضم الكاف. وهى قراءة ابن وثاب وطلحة والنخعي. وفي مصحف أبي «يَتَذَكَّرُ» بزيادة تاء. وقرأ الباقون «يَذْكُرُ» بتشديد الكاف. ويَذْكُرُ ويَذْكُرُ بمعنى واحد. وقيل: معنى «يَذْكُرُ» بالتخفيف أى يذكّر ما نسبته في أحد الوقين في الوقت الثاني، أو ليذكر تزيه الله وتسبيحه فيها. (أو أراد سُكُورًا) يقال: شكر شكرًا وشكورا، مثل كفر يكفر كفرًا وكفورًا. وهذا الشكور هل أنهما جعلهما قواما لهماشبههم. وكأنهم لما قالوا: «وَمَا الرَّحْمَنُ» قالوا: هو الذى يقدر على هذه الأشياء.

قوله تعالى: وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٢٦﴾

قوله تعالى: (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا) لما ذكر جهالات المشركين وطعنهم في القرآن والنبوة ذكر عباد المؤمنين أيضًا وذكر صفاتهم، وأضافهم إلى عبوديته تشريفًا لهم، كما قال: «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ» وقد تقدم. فمن أطاع الله وعبدته وشغل سمعه وبصره ولسانه وقلبه بما أمره فهو الذى يستحق

آسم العبودية، ومن كان بعكس هذا شمله قوله تعالى : «أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ» يعنى في عدم الاعتبار؛ كما تقدم في «الأعراف» . وكأنه قال : وعباد الرحمن هم الذين يمشون على الأرض ، لحذف هم ؛ كقولك : زيد الأمير ، أى زيد هو الأمير . فـ«الَّذِينَ» خبر مبتدأ محذوف ؛ قاله الأخفش . وقيل الخبر قوله في آخر السورة : «أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا» وما بين المبتدأ والخبر أوصاف لهم وما تعلق بها ؛ قاله الزجاج . قال : ويجوز أن يكون الخبر «الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ» . و«يَمْشُونَ» عبارة عن عيشهم ومدة حياتهم وتصرفاتهم ، فذكر من ذلك المظم ، لا سيما وفي ذلك الانتقال في الأرض ؛ وهو معاشرته الناس وخلطتهم .

قوله تعالى : «هُوَ» الهون مصدر الحين ، وهو من السكنة والوقار . وفي التفسير : يمشون على الأرض حاملين متواضعين ، يمشون في اقتصاد . والتقصد والتؤدة وحسن السمات من أخلاق النبوة . وقال صلى الله عليه وسلم : «أبها الناس عليكم بالسكنة فإن البر ليس في الإيضاع» وروى في صفته صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا زال زال ثقلما ، وإذا مضى تكفؤا ، ويمشى هونا ، ذريع المشية إذا مشى كأنما يحط من صَبَب . التقلع : رفع الرجل بقوة . والتكفؤ : الميل إلى سنن المشي وقصده . والهون الرفق والوقار . والذريع الواسع الخطأ ؛ أى أن مشيه كان يرفع فيه رجله بسرعة ويمد خطوه ؛ خلاف مشية المختال ، ويقصد سمته ؛ وكل ذلك برفق وثبت دون عجلة . كما قال : كأنما يحط من صَبَب ؛ قاله الفاضل عياض . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يسرع جبلة لا تكلفا . قال الزهرى : سرعة المشي تذهب بهاء الوجه . قال ابن عطية : يريد الإسراع الحثيث لأنه يغفل بالوقار والخير في التوسط . وقال زيد بن أسلم : كنت أسأل عن تفسير قوله تعالى : «الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا» فما وجدت من ذلك شفاء ، فرأيت في المنام من جاءني فقال لى : هم الذين لا يريدون أن يفسدوا في الأرض . قال القشيري : وقيل لا يمشون لإفساد ومعصية ؛ بل في طاعة الله والأمور المباحة من غير هوك . وقد قال الله تعالى : «وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

كُلُّ مُخْتَالٍ فَخُورٌ » . وقال ابن عباس : بالطاعة والمعروف والتواضع . الحسن : حليته
إن جهل عليهم لم يجهلوا . وقيل : لا يتكبرون على الناس .

قلت : وهذه كلها معاني متقاربة ، ويجمعها العلم بالله والخوف منه ، والمعرفة بأحكامه
والخشية من عذابه وعقابه ؛ جعلنا الله منهم بفضلته ومنه . وذهبت فرقة إلى أن « هوتا »
مرتبط بقوله . « يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ » أن المشى هو هون . قال ابن عطية : ويشبه أن
يتأول هذا على أن تكون أخلاق ذلك الماشي هوتا مناسبة لمشيه ، فيرجع القول إلى نحو
ما ينشأه . وأما أن يكون المراد صفة المشى وحده فباطل ؛ لأنه رب ماش هوتا رويدها
وهو ذنب أطلس^(١) . وقد كانت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتكفا في مشيه كأنما يمشي
في صهب . وهو عليه الصلاة والسلام الصدر في هذه الأمة . وقوله عليه الصلاة والسلام :
« من مشى منكم في طمع فليمش رويدها » إنما أراد في عقد نفسه ، ولم يرد المشى وحده .
الآن ترى أن المبطلين التحلين بالدين تمسكوا بصورة المشى فقط ؛ حتى قال فيهم الشاعر ذمامهم و
كلهم يمشي رويده . كلهم يطلب صيد
قلت : وفق عكسه أنشد ابن العربي لنفسه :

تواضعت في العلياء والأصل كابر . وحزت فصاب السبق بالهون في الأمر
سكون فلا خبت السريرة أصله . وجل سكون الناس من عظم الكبر

قوله تعالى : (وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) قال النحاس : ليس « سَلَامًا »
من التسليم إنما هو من التسلم ؛ تقول العرب : سلاما ، أى تسلمنا منك ، أى بركة منك .
منسوب على أحد أمرين : يجوز أن يكون منصوبا بـ « قَالُوا » ، ويجوز أن يكون منصوبا بـ
وهذا قول سيبويه . قال ابن عطية : والذي أقوله : أن « قَالُوا » هو العامل في « سَلَامًا »
لأن المعنى قالوا هذا اللفظ . وقال مجاهد : معنى « سَلَامًا » سَدَادًا . أى يقول الجاهل كلاما

(١) الأطلس من الذئب : هو الذي تهافظ شره ، وهو أخبث ما يكون . وقيل : هو الذي في لونه غيرة
إلى السواد . (٢) هذا من كلام أبي سفيان النصراني خليفة في مدح عمر بن عبد العزيز المشهور . وقامه :
« عمر عمرو بن عبد »

يدفعه به برفق ولين . فـ «قَالُوا» على هذا التأويل عامل في قوله : «سَلَامًا» على طريقة النحويين ؛ وذلك أنه بمعنى قولنا . وقالت فرقة : ينبغي لنا طلب أن يقول للجاهل سلاما ؛ بهذا اللفظ . أى سلمنا سلاما أو تسليما ، ونحو هذا ؛ فيكون العامل فيه فعلا من لفظه على طريقة النحويين .
مسئلة : هذه الآية كانت قبل آية السيف ؛ نسخ منها ما يخص الكفرة وبقى أديها في المسلمين إلى يوم القيامة . وذكر سيبويه النسخ في هذه الآية في كتابه ؛ وما تكلم فيه على نسخ سواء ؛ رجع به أن المراد السلامة لا التسليم ؛ لأن المؤمنين لم يؤمروا قط بالسلام على الكفرة . والآية مكية فسخنها آية السيف . قال النحاس : ولا نعلم لسيبويه كلاما في معنى النسخ والمنسوخ إلا في هذه الآية . قال ميبويه : لم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين لكنه على معنى قوله : تَسَلَّمَا مِنْكُمْ ، ولا خير ولا شربينا وبينكم . المبرد : كانت ينبغي أن يقال : لم يؤمر المسلمون يومئذ بجرهم ثم أمروا بجرهم . محمد بن يزيد : أخطأ سيبويه في هذا وأساء العبارة . ابن العربي : لم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين ولا نهوا عن ذلك ، بل أمروا بالصفح والمجر الجليل ، وقد كان عليه الصلاة والسلام يقف على أُنْدَيْتِهِمْ ويحييهم ويدانهم ، ولا يداهم . وقد آفقت الناس على أن السفينة من المؤمنين إذا جفاك يجوز أن تقول له سلام عليك .

قلت : هذا القول أشبه بدلائل السنة . وقد بينا في سورة «مریم»^(١) اختلاف العلماء في جواز التسليم على الكفار ، فلا حاجة إلى دعوى النسخ ؛ والله أعلم . وقد ذكر النضر بن شميل قاله حديث الخليل قال : أثبت أبا ربيعة الأعرابي وكان من أعلم من رأيت ، فإذا هو على سطح ، فلما سلمنا رَدَّ علينا السلام وقال لنا : آستوا . وبقينا متحيرين ولم ندر ما قال . فقال لنا أعرابي إلى جنبه : أمركم أن ترتفعوا . قال الخليل : هو من قول الله عز وجل : «ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ» فصعدنا إليه فقال : هل لكم في خبز فطير ، ولبن هجير ، وماء عير ؟ قلنا الساعة فارقتاه . فقال سلاما . فلم ندر ما قال . قال فقال الأعرابي : إنه

(١) راجع ج ١١ ص ١١١ وما بعدها طبعه لأول أو ثانية .

(٢) الفطير : خللث الخثير ، وهو اللبن الذي لم يخسر . والمجير : الخثاق الفاضل . والثير : الناجع في الرى .

سالك متاركة لا خير فيها ولا شر . فقال الخليل : هو من قول الله عز وجل : « وَإِذَا سَأَلْتَهُم
الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » . قال ابن عطية : ورأيت في بعض التواريخ أن إبراهيم بن المهدي
— وكان من المائلين على علي بن أبي طالب رضى الله عنه — قال يوما بحضرة المأمون
وعنده جماعة : كنت أرى علي بن أبي طالب في النوم فكنت أقول له من أنت ؟ فكان
يقول : علي بن أبي طالب . فكنت أجيء معه إلى قطرة فيذهب فيتقدمني في صورها .
فكنت أقول : إنما تدعى هذا الأمر بأمرأة ونحن أحق به منك . لما رأيت له في الجواب
بلاغة كما يذكر عنه . قال المأمون : وماذا جابوك ؟ قال : فكان يقول لي سلاما .
قال الراوى : فكان إبراهيم بن المهدي لا يحفظ الآية أو ذهبت عنه في ذلك الوقت . ففيه
المأمون على الآية من حضره وقال : هو والله يا عم علي بن أبي طالب ، وقد جابوك بأبلغ
جواب ، نفى إبراهيم واستجبا . وكانت رؤيا لا محالة صحيحة .

قوله تعالى : **وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا** ﴿١٥﴾

قوله تعالى : **(وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا)** قال الزجاج : بات الرجل يبيت
إذا أدركه الليل ، تام أو لم يتم . قال زهير :

فبتنا قياما عند رأس جوادنا • يزاولنا عن نفسه ونزاوله
وانشدوا في صفة الأولياء :

امنع جفونك أن تذوق مناما • وأذر الدموع على الخدود ميعاما
واعلم بأنك ميت وهما سب • يا من على محض الجليل أقاما
له قوم أخلصوا في حبه • فرض بهم وأختصم خداما
قوم إذا جنى الظلام عليهم • باتوا هناك سجدا وقياما
نحس البطون من التعف ضمرا • لا يعرفون سوى الحلال طاماما

(١) في نسخ الأصل : « قال أمرؤ القيس » . وهو محريف . والبيت من قصيدة زهير مملها :

حبا القلب عن سلى وأضر باطله • ومرى أنفاس الصبا ورواحه

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : مَنْ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ بَعْدَ الْعِشَاءِ فَقَدْ بَاتَ اللَّهُ سَاجِدًا وَقَائِمًا .
 وقال الكلبي : مَنْ أَقَامَ رَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ وَأَرْبَعًا بَعْدَ الْعِشَاءِ فَقَدْ بَاتَ سَاجِدًا وَقَائِمًا .
 قوله تعالى : **وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ**
إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۖ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : **(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ)** أى هم مع طاعتهم مشفقون خائفون وجلون من عذاب الله . ابن عباس : يقولون ذلك في سجدتهم وقِيَامِهِمْ .
(إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا) أى لازما دائما غير مفارق . ومنه سمي النعيم للملازمة . ويقال : فلان مغرم بكذا أى لازم له مولع به . وهذا معناه في كلام العرب فبا ذكر ابن الأعرابي وابن جرير وغيرهما . وقال الأعشى :

إِنْ يَأْتِيَابِ يَكُنْ غَرَامًا وَإِنْ يَسْطِجُ جَزِيلًا فَإِنَّهُ لَا يَسَالُ

وقال الحسن : قد علموا أن كل غريم يفارق غريمه إلا غريم جهنم . وقال الزجاج : الغرام أشد العذاب . وقال ابن زيد : الغرام الشر . وقال أبو عبيدة : الملاك . والمعنى واحد .
 وقال محمد بن كعب : طالعهم الله تعالى بمن النعم في الدنيا فلم يأتوا به ، فأغرمهم عنها بإفحامهم النار . **(إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا)** أى بئس المستقر وبئس المقام . أى أنهم يقولون ذلك عن علم ، وإذا قالوه عن علم كانوا أعرف بعظم قدر ما يطلبون ، فيكون ذلك أقرب إلى النجح .

قوله تعالى : **وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا** ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : **(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا)** اختلف المفسرون في تأويل هذه الآية . فقال النحاس : ومن أحسن ما قيل في معناه أن من أنفق في غير طاعة الله فهو الإسراف ، ومن أمسك عن طاعة الله عن وجل فهو الإقتار ، ومن أنفق في طاعة الله تعالى فهو القوام .

وقال ابن عباس : من أنفق مائة ألف في حق فليس بسرف ، ومن أنفق دودها في غير حقه فهو سرف ، ومن منع من حق عليه فقد قتر . وقاله مجاهد وابن زيد وغيرهما . وقال عون ابن عبد الله : الإسراف أن تنفق مال فترك . قال ابن عطية : وهذا ونحوه غير مرتبط بالآية ، والوجه أن يقال . إن النفقة في معصية أمر قد حظرت الشريعة عليه وكثيره ، وكذلك التمدى على مال الغير ، وهؤلاء الموصوفون منزوعون عن ذلك ، وإنما التأديب في هذه الآية هو في نفقة الطامعات في المباحات ، فأدب الشرع فيها ألا يفرط الإنسان حتى يضع حقا آخر أو عيالا ونحو هذا ، وألا يضيق أيضا ويقتصر حتى يبيع العيال ويفرط في الشح ، والحسن في ذلك هو القوام ، أى السد ، والقوام في كل واحد بحسب عياله وحاله ، وخفة ظهوره وصبره وجلده على الكسب ، أو ضد هذه الخصال ، وغير الأمور أوساطها ، ولهذا ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق يتصدق بجميع ماله ، لأن ذلك وسط بنسبة جلده وصبره في الدين ، ومنع غيره من ذلك . ونعم ما قال إبراهيم النخعي : هو الذي لا يبيع ولا يعزى ولا ينفق نفقة يقول الناس قد أسرف . وقال يزيد بن أبي حبيب : هم الذين لا يلبسون الثياب الجمال ، ولا يأكلون طعاما للذة . وقال يزيد أيضا في هذه الآية : أولئك أصحاب عبد الله صلى الله عليه وسلم كانوا لا يأكلون طعاما للتنعم واللذة ، ولا يلبسون ثيابا للجمال ، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسد عنهم الجوع ويقوهم على عبادة ربهم ، ومن اللباس ما يستر عوراتهم ويكتمهم من الحق والبرد . وقال عبد الملك ابن مروان لعمر بن عبد العزيز حين زوجه أخته فاطمة : ما هفتك ؟ فقال له عمر : الحسنة بين سيئين ، ثم تلا هذه الآية . وقال عمر بن الخطاب : كفى بالمرء سرفا ألا يشتري شيئا إلا اشتراه فأكله . وفي سنن ابن ماجه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن من السرف أن تأكل كل ما أشتيت " وقال أبو عبيدة : لم يزيدوا على المعروف ولم يضلوا . كقولهم تعالى : « وَلَا تَجْمَلْ بِذَلِكَ مَقُولًا إِلَىٰ حَقِّكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسِطِ » وقال الشاعر :

ولا تمل في شيء من الأمر وأتصد • ككلا طرقي قصيد الأمور نيم

وقال آخر :

إذا المرء أعطى نفسه كل ما آشتت * ولم ينهها تافت إلى كل باطل

وساقت إليه الإثم والعار بالذي * دعت إليه من حلاوة ماجل

وقال عمر لابنه عاصم : يا بني ، كل في نصف بطنك ؛ ولا تطرح ثوبا حتى تستخلفه ،

ولا تكن من قوم يعملون ما رزقهم الله في بطونهم وظل ظهورهم . ولحاتم طي :

إذا أنت قد أعطيت بطنك مسؤل * وفرجك تالا منتهى الدم أجما

(ولم يقرأوا) قرأ حمزة والكسائي والأعشى وعاصم ويحيى بن وثاب على اختلاف عنهما

« يقرأوا » بفتح الياء وضم التاء ، وهي قراءة حسنة ؛ من قتر يقر . وهذا القياس في اللزوم ،

مثل قعد يقعد . وقرأ أبو عمرو بن العلاء وآبن كثير بفتح الياء وكسر التاء ، وهي لغة معروفة

حسنة . وقرأ أهل المدينة وآبن عاصم وأبو بكر عن عاصم بضم الياء وكسر التاء . قال الثعلبي :

كلها لغات صحيحة . النحاس : وتعجب أبو حاتم من قراءة أهل المدينة هذه ؛ لأن أهل

المدينة عنده لا يقع في قراءتهم الشاذ ، إنما يقال : أقتر يقر إذا أفقر ، كما قال عز وجل :

« وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ » وتناول أبو حاتم لم أن المسرف يقتصر مريسا . وهذا تأويل بعيد ،

ولكن التأويل لم أن أبا عمرو الجرمي حكى عن الأصمعي أنه يقال للإنسان إذا ضيق : قتر يقر

وبقر ، وأقتر يقر . فعلى هذا تصح القراءة ، وإن كان فتح الياء أصح وأقرب تناولا ،

وأشهر وأعرف . وقرأ أبو عمرو والناس « قَوَّامًا » بفتح القاف ؛ بمعنى عدلا . وقرأ حسان

آبن عبد الرحمن « قَوَّامًا » بكسر القاف ؛ أى مبلغا وسدانا وملاك حال . والتوام بكسر

القاف : ما يدوم عليه الأمر ويستقر . وهما لغتان بمعنى . و « قَوَّامًا » خبر كان ، وأسمها

مقدر فيها ؛ أى كان الإنفاق بين الإسراف والتقتير قواما ؛ قاله الفراء . وله قول آخر يجعل

« يمين » أسم كان وينصبها ؛ لأن هذه الألفاظ كثير أسمها فتزكت حل حالها في موضع الرفع .

قال النحاس : ما أدري ما وجه هذا ؛ لأن « يمين » إذا كانت في موضع رفع رفعت ؛ كما يقال :

يَمِينٌ مِثْلُهُ أَحْمَرُ .

قوله تعالى : **وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ
النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ
أَثَامًا ۖ يَضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَحُلْدُ فِيهِ مُهَانًا ۝**

قوله تعالى : **(وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ)** إخراج لعباده المؤمنين من صفات
الكفرة في عبادتهم الأوثان ، وقتلهم النفس بؤاد البنات ، وغير ذلك من الظلم والاعتغال ،
والفارت ، ومن الزنى الذى كان عندهم مباحا . وقال من صرف هذه الآية عن ظاهرها
من أهل المائى : لا يليق بمن أضافهم الرحمن إليه إضافة الاختصاص ، وذكرهم ووصفهم
من صفات المعرفة والتشريف وقوع هذه الأمور القبيحة منهم حتى يمدحوا بنفسها عنهم لأنهم
أهل وأشرف ، فقال : معناها لا يدعون الهوى إلها ، ولا يذلون أنفسهم بالمعاصى فيكون
قتلاها . ومعنى **(إِلَّا بِالْحَقِّ)** أى إلا بسكين العبر وسيف الجاهدة فلا ينظرون إلى نساء
ليست لهم بحرم بشهوة سفاحا ، بل بالضرورة فيكون كالنكاح . قال شيخنا أبو العباس :
وهذا كلام رائق غير أنه عند السبر مائق . وهى نجة باطنية ونزعة باطنية . وإنما مع تشريف
عباد الله بأختصاص الإضافة بعد أن تحملوا تلك الصفات الحميدة وتحلوا عن نقائص ذلك من
الأوصاف الذميمة ، فبدأ فى صدر هذه الآيات بصفات التحلى تشريفا لهم ، ثم أعقبها بصفات
التخلى تقييدا لها ، والله أعلم .

قلت : وما يدل على بطلان ما أذعاه هذا الفائل من أن تلك الأمور ليست على ظاهرها
ما روى مسلم من حديث عبد الله بن مسعود قال قلت : يا رسول الله ، أى الذنب أكبر
عند الله ؟ قال : **” أن تدعوه ندا وهو خلقك ”** قال : ثم أى ؟ قال : **” أن تقتل ولدك
خافه أن يطعم منك ”** قال : ثم أى ؟ قال : **” أن تزاني حيلة جارك ”** فانزل الله تعالى تصديقا :
**» وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ
يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ »** والأثام فى كلام العرب العقاب ، وبه قرأ ابن زيد وقادة هذه الآية .

ومنه قول الشاعر :

بَرَى الله ابنُ عُرْوَةٍ حيثَ أَسَى * عُسُوقًا وَالْعُسُوقُ لَهُ أَنَامُ

أى جزاء وعقوبة . وقال عبد الله بن عمرو وعكرمة ومجاهد : إن « أَنَامًا » وإد في جهنم جعله الله عقابا للكفرة . قال الشاعر :

لَقِيتَ الْمَهَالِكُ فِي حَرْبِنَا * وَبَعْدَ الْمَهَالِكِ تَلَقَى أَنَامَا

وقال السدى : جبل فيها . قال :

وَكُنْتُ مُقَامِنًا نَدَعُو عَلَيْهِم * بِأَبْطَحِ ذِي الْمَجَازِ لَهُ أَنَامُ

وفى صحيح مسلم أيضا عن ابن عباس : أن ناسا من أهل الشرك قتلوا فاكثروا وزنوا فاكثروا ، فاتوا هذا صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن ، وهو يضربنا بأن لما عملنا كفارة ، فزلت « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا » . « وَيَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ » الآية . وقد قيل : إن هذه الآية « يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا » نزلت فى وحشي قاتل حمزة ، قاله سعيد بن جبير وابن عباس ، وسيأتى فى « الزمر » بيانه .

قوله تعالى : « (إِلَّا بِالْحَقِّ) أى بما يحق أن تقتل به النفوس من كفر بعد إيمان أو زنى بعد إحصان ، على ما تقدم بيانه فى « الأنعام » . « (وَلَا يَزْنُونَ) » فيستحلون الفروج بغير نكاح ولا ملك يمين . ودلت هذه الآية على أنه ليس بعد الكفر أعظم من قتل النفس بغير الحق ثم الزنى ، ولهذا ثبت فى حد الزنا القتل لمن كان محصنا أو أقصى الجلد لمن كان غير محصن . قوله تعالى : « (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ) » قرأ نافع وابن عامر وحزرة والكسائى « يُضَاعَفْ » وَيُجْلَدُ » جزاء ، وقرأ ابن كثير « يُضَعَّفُ » يشد العين وطرح الألف ، وبالجزم فى « يُضَعَّفُ » وَيُجْلَدُ » . وقرأ طلحة بن سليمان « نُضَعَّفُ » يضم النون وكسر العين المشددة . « الْعَذَابُ » نصب « وَيُجْلَدُ » جنم ، وهى قراءة أبى جهم فى رشيبة .

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر « يُضَاعَفُ . وَيُحْلَدُ » بالرفع فيهما على العطف والاستئناف .
 وقرأ طلحة بن سليمان « وَيُحْلَدُ » بالياء على معنى مخاطبة الكافر ، وروى عن أبي عمرو « وَيُحْلَدُ »
 بضم الياء من تحت وفتح اللام ، قال أبو علي : وهي غلط من جهة الرواية . و « يُضَاعَفُ »
 بالجرم بدل من « يُلْقَى » الذي هو جزاء الشرط . قال سيبويه : مضاعفة العذاب لئلي الأثام .
 قال الشاعر :

مَقَى ثَانِيَا تُلِيمُ بِنَا فِي دِيَارِنَا • تَجِدُ حَطْبًا جَزَلًا وَنَارًا تَابِجًا
 وقال آخر :

إِن كَانَ اللَّهُ أَنْفَ ثُبَاجًا ^(١) • تُؤَخِّدُ كَرْهًا أَوْ تَجِيءُ طَائِفًا

وأما الرفع ففيه قولان : أحدهما أن تقطعه مما قبله . والآخر أن يكون محمولا على المعنى ؛
 كأن قائلا قال : ما لئلي الأثام ؟ فقيل له : يضاعف له العذاب . و (مُهَانًا) معناه ذليلا
 خاسئا مهبطا مطرودا .

قوله تعالى : **إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا** ﴿٧﴾

قوله تعالى : **(إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا)** لاخلاف بين العلماء أن الاستثناء
 عامل في الكافر والزاني . واختلفوا في القاتل من المسلمين على ما تقدم بيانه في « النساء »
 ومضى في « المائدة » القول في جواز التراخي في الاستثناء في الجين ، وهو مذهب أبي عباس
 مستدلا بهذه الآية .

قوله تعالى : **(فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ)** قال النحاس : من أحسن ما قبل
 فيه أنه يكتب موضع كافر مؤمن ، وموضع عاصي مطيع . وقال مجاهد والضحاك : إن يبدلهم

(١) الشاهد في محل تؤخذ على تاييج وإيداله منه . وأراد بقوله « الله » القسم ، والمعنى إنك دلي واثقه
 للما حذف الجار نصب . (٢) رابع به هـ ص ٢٣٢ ربما يبددها طيبة أدلى أو ثانية .

(٣) رابع به هـ ص ٢٧٣ طيبة أدلى أو ثانية .

الله من الشرك الإيمان وروى نحوه عن الحسن . قال الحسن : قوم يقولون التبديل في الآخرة ، وليس كذلك ، إنما التبديل في الدنيا ؛ يسدلم الله إيماناً من الشرك ، وإخلاصاً من الشك ، وإحصائاً من الفجور . وقال الزجاج : ليس يجعل مكان السيئة السيئة الحسنة ، ولكن يجعل مكان السيئة التوبة ، والحسنة مع التوبة . وروى أبو ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم : " أن السيئات تبدل بحسنات " . وروى معناه عن سلمان الفارسي وسعيد بن جبير وغيرهما . وقال أبو هريرة : ذلك في الآخرة فيمن ظلمت حسناته على سيئاته ، فيبدل الله السيئات حسنات . وفي الخبر : " يَتَمَتَّنُ أَقْوَامٌ أَنَّهُمْ أَكْثَرُوا مِنَ السَّيِّئَاتِ " فقيل : ومن هم ؟ قال : " الذين يسدلم الله سيئاتهم حسنات " . رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ذكره العلبي والقشيري . وقيل : التبديل عبارة عن الغفران ؛ أي يغفر الله لهم تلك السيئات لا أن يبدلها حسنات .

قلت : فلا يبعد في كرم الله تعالى إذا محنت توبة العبد أن يضع مكان كل سيئة حسنة ؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم لما ذ : " أَسْبَغَ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَحْتَهَا وَخَالِقِ النَّاسِ بِخَالِقِ حَسَنٍ " . وفي صحيح مسلم عن أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولا الجنة وآخر أهل النار خروجاً منها رجلٌ يؤتى به يوم القيامة فيقال آخِرُ ضَوْأٍ عَلَيْهِ صِفَارٌ ذُنُوبُهُ وَأَرْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا فَتَعَرَّضَ عَلَيْهِ صِفَارٌ ذُنُوبُهُ فَيَقَالُ عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا وَكَذَا وَكَذَا وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا وَكَذَا وَكَذَا فَيَقُولُ نَعَمْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْكَرَ وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تَعَرَّضَ عَلَيْهِ فَيَقَالُ لَهُ فَإِنْ لَكَ مَكَانٌ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةٌ فَيَقُولُ يَا رَبِّ قَدْ عَمَلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَاهُنَا " فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه . وقال أبو طویل : يا رسول الله ، أَرَأَيْتَ رجلاً عمل الذنوب كلها ولم يترك منها شيئاً ، وهو في ذلك لم يترك حاجة ولا دابةً إلا أقطعها فهل له من توبة ؟ قال : " هل أسلمت " قال : أنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنك عبد الله ورسوله . قال : " نعم " .

تفعل الخسريات وتترك السيئات يجعلهن الله كلهن خيرات . قال : وغدراقي وبغراق
يا نبي الله قال : ” نعم “ . قال : الله اكبر ! فما زال يكرها حتى توارى . ذكره الثعلبي .
قال مبشر ابن عبيد ، وكان عالما بالبحر والبرية : الحاجة التي تقطع على الحاج إذا توجهوا ،
والحاجة التي تقطع عليهم إذا فقلوا . (وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) .

قوله تعالى : وَمَنْ تَابَ وَجَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : (وَمَنْ تَابَ وَجَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا) لا يقال : من قام
فإنه يفسوم ؛ فكيف قال من تاب فإنه يتوب ؟ فقال ابن عباس : المعنى من آمن من أهل
مكة وهاجر ولم يكن قتل وزنى بل عمل صالحا وأدى الفرائض فإنه يتوب إلى الله متابا ؛
أى لاني قد نبتهم وفضلتهم على من قاتل النبي صلى الله عليه وسلم واستحل المحارم . وقال الفقهاء :
يحتمل أن تكون الآية الأولى فيمن تاب من المشركين ، ولهذا قال : « إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ »
فتم عطف عليه من تاب من المسلمين وأتبع توبته عملا صالحا فله حكم التائبين أيضا . وقيل :
أى من تاب بسنانه ولم يحقق ذلك بفعله ؛ فليست تلك التوبة نافعة ؛ بل من تاب وعمل
صالحا لحقق توبته بالأعمال الصالحة فهو الذي تاب إلى الله متابا ؛ أى تاب حق التوبة وهي
الذموص ، ولنا أكد بالمصدر . فـ « حنابا » مصدر معناه التاكيد ؛ كقوله : « وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى
تَكْلِيمًا » أى فإنه يتوب إلى الله حقا فيقبل الله توبته حقا .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا

كِرَامًا ﴿٦٧﴾

فيه مستطاب :

الأولى — قوله تعالى : (وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ) أى لا يحضرون الكذب والباطل
ولا يشاهدونه ، والزور كل باطل زور وزئير ، وأعظمه الشرك وتعظيم الأنداد . وبه فسر
الضحاك وابن زيد وابن عباس . وفي رواية عن ابن عباس أنه أعياد المشركين . عكرمة : لمب

كان في الجاهلية يسمى بالزور. مجاهد: الفناء؛ وقاله محمد بن الحنفية أيضا. ابن جرير: الكذب؛ وروى عن مجاهد . وقال علي بن أبي طلحة ومحمد بن علي : المعنى لا يشهدون بالزور؛ من الشهادة لا من المشاهدة . قال ابن العربي : أما القول بأنه الكذب فصحيح ، لأن كل ذلك إلى الكذب يرجع . وأما من قال إنه ليب كان في الجاهلية فإنه يحرم ذلك إذا كان فيه غار أو جهالة ، أو أمر يعود إلى الكفر. وأما القول بأنه الفناء فليس ينتهي إلى هذا الحد . قلت : من الفناء ما ينتهي سماعه إلى التحريم ، وذلك كالأشعار التي توصف فيها الصور المستحسنات والخمر وغير ذلك مما يحرك الطباع ويخرجها عن الاحتدال ، أو يثير كامنا من حب اللهو؛ مثل قول بعضهم :

ذهبي اللون تحسب من • وجنيته النار تُقْتَدَحُ

خوفوني من فضيحه • ليسه وافي وأتضح

لا سيما إذا افترن بذلك شَبَابَاتٍ وطارات مثل ما يفعل اليوم في هذه الأزمان ، على ما بيناه في غير هذا الموضع . وأما من قال إنه شهادة الزور، وهي :

الثانية - فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحلّد شاهد الزور أربعين جلدة ، ويستخم وجهه ، ويحلق رأسه ، ويطوف به في السوق . وقال أكثر أهل العلم : ولا تقبل له شهادة أبدا وإن تاب وحسنت حاله فأمره إلى الله . وقد قيل : إنه إذا كان غير مبرز لحسنت حاله قبلت شهادته حسبما تقدم بيانه في سورة « الحج » ^(٢) فتأمل هناك .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا صَرُّوا بِاللُّغُومِ صَرُّوا كِرَامًا ﴾ ^(٣) قد تقدم الكلام في اللغو، وهو كل سقط من قول أو فعل، فيدخل فيه الفناء واللهو وغير ذلك مما قاربه ، ويدخل فيه سفه المشركين وأذاهم المؤمنين وذكر النساء وغير ذلك من المنكر . وعال مجاهد : إذا أذوا صفحوا . وروى عنه إذا ذكر النكاح كفوا عنه . وقال الحسن : اللغو المماضي كلها . وهذا جامع . و « كِرَامًا » معناه معرضين منكرين لا يرصّونه ، ولا يمالئون عليه ، ولا يخالسون أهله .

(١) الشبهة (بالتشديد) : نوع من المزمار (مولد) . (٢) راجع ج ١٢ ص ٥٥ طبة أول أو ثانية .

(٣) راجع ج ٣ ص ٩٩ وما بعدها طبة أول أو ثانية .

أى مروا من الكرام الذين لا يدخلون فى الباطل . يقال : تكرم فلان عما يشينه ؛ أى تنزه وأكرم نفسه عنه . وروى أن عبد الله بن مسعود سمع غناء فأسرع وذهب ، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " لقد أصبح ابن أم عبد كريماً " . وقيل : من المروء بالغو كريماً أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

قوله تعالى : **وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا** ﴿٣٥﴾

فيه مستلثات :

الأولى - قوله تعالى : (**وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ**) أى إذا قرئ عليهم القرآن ذكروا آخرتهم ومعادهم ولم يتأفلخوا حتى يكونوا بمنزلة من لا يسمع . وقال : (**لَمْ يَخِرُّوا**) وليس ثم نخور ، كما يقال : قصدي يبكى وإن كان غير قاصد ، قاله الطبرى وأخبره ، قال ابن عطية : وهو أن يخروا صمًا وعميانًا هى صفة الكفار ، وهى عبارة عن إعراضهم ؛ وقرن ذلك بقوله : قصد فلان يشتمنى وقام فلان يبكى وأنت لم تقصد الإخبار بعود ولا قيام ، وإنما هى توطئات فى الكلام والعبارة . قال ابن عطية : فكان المستمع للذكر قائم القناة قويم الأسماء ، فإذا أعرض وفضل كان ذلك نخوراً ، وهو السقوط على غير نظام وترتيب ؛ وإن كان قد شبه به الذى يخبر ساجداً لكن أصله على غير ترتيب . وقيل : أى إذا نليت عليهم آيات الله وجلت قلوبهم نفخوا سجداً ويكياً ، ولم يخروا عليها صمًا وعمياناً . وقال الفراء : أى لم يقدموا على حالهم الأول كأن لم يسمعوا .

الثانية - قال بعضهم : إن من سمع رجلاً يقرأ بحسنة يسجد معه ، لأنه قد سمع آيات الله نلت عليه . قال ابن العربى : وهذا لا يلزم إلا القارئ وحده ، وأما غيره فلا يلزمه ذلك إلا فى مسألة واحدة ؛ وهو أن الرجل إذا تلا القرآن وقرأ السجدة فإن كان الذى جلس معه جلس يسمعه فليسجد معه ، وإن لم يلتزم الدماع فلا يسجد عليه . وقد مضى هذا فى « الأعراف »^(١) .

قوله تعالى : **وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا** ﴿٧٤﴾ **أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرَّةَ بِمَا صَبَرُوا وَيَلْقَوْنَ فِيهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ دُرِّيٍّ وَسُلَامًا** ﴿٧٥﴾ **ٱلَّذِينَ فِيهَا حَاحَتُ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا** ﴿٧٦﴾ **قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزِمَامٍ** ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : **(وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ)** قال

الضحاك : أى مطيعين لك . وفيه جواز الدعاء بالولد وقد تقدم . والنزلة تكون واحدا وجما . فكانها للواحد قوله : **« رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً »** « فهب لي من لَدُنْكَ وَلِيًّا » وكونها للجميع **« ذُرِّيَّةً ضِعَافًا »** وقد مضى في « البقرة » اشتقاقها مستوف . وقرأ نافع وآبن كثير وآبن عامر والحسن **« وَذُرِّيَّاتِنَا »** وقرأ أبو عمر وحمة والكسائي وطلحة وعيسى **« وَذُرِّيَّتِنَا »** بالإفراد . **« قُرَّةَ أَعْيُنٍ »** نصب على المفعول ، أى قرة أعين لنا . وهذا نحو قوله عليه الصلاة والسلام لأبى : **« اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه »** وقد تقدم بيانه في « آل عمران » و « مريم » . وذلك أن الإنسان إذا بورك له في ماله وولده قوت عينه بأهله وعياله ، حتى إذا كانت عنده زوجة اجتمعت له فيها أمانيه من جمال وعفة ونظر وحوطة أو كانت عنده ذرية يحافظون على الطاعة ، معاونون له على وظائف الدين والدنيا ، لم يلتفت إلى زوج أحد ولا إلى ولده ، فتسكن عينه عن الملاحظة ، ولا تمتد عينه إلى ما ترى ، فذلك حين قرة العين ، وسكون النفس . ووجد **« قُرَّة »** لأنه مصدر ، قول : قوت عينك قُرَّة . وقُرَّة العين يحتل أن تكون من التفسير ، ويحتمل أن تكون من التفسير وهو الأشهر . والقسر البرد ، لأن العرب تنادى بالبرد وتستريح إلى البرد . وأيضا فإن دمع السرور بارد ، ودمع الحزن سخن ، فمن هذا يقال : أقزاه عينك ، وأسخن الله عين العدو . وقال الشاعر :

فَكَمْ تَخْتَنُّ بِالْأَمْسِ عَيْنٌ قَصِيرَةً * وَقُرَّتْ عَيْنٌ دَمْعُهَا الْيَوْمَ سَاكِبٌ

(١) راجع ج ٤ ص ٧٢ وما بعدها طيبة أولاد أو ثانية . (٢) راجع ج ٢ ص ١٠٧ طيبة ثانية .

(٣) راجع ج ٤ ص ٧٣ و ج ١١ ص ٨٠ طيبة أولاد أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ أى قدوة يقتدى بنا فى الخير، وهذا لا يكون إلا أن يكون الداعى متقياً قدوة ؛ وهذا هو قصد الداعى . وفى الموطأ : « إنكم أيها الرهط أئمة يقتدى بكم » فكان ابن عمر يقول فى دعائه : اللهم اجعلنا من أئمة المتقين . وقال : « إماما » ولم يقل أئمة على الجمع ؛ لأن الإمام مصدر . يقال : أتم القوم فلان إماماً مثل الصيام والقيام . وقال بعضهم : أراد أئمة ، كما يقول القائل أميرنا هؤلاء ، يعنى أشرافنا . وقال الشاعر :

يا عاذلاني لا تزدن ملأتي * إنك الصوائل تسن لي بأمر

أى أشراف . وكان الشيرى أبو القاسم شيخ الصوفية يقول : الإمامة بالدعاء لا بالدعوى ، يعنى بسوقى الله وتيسيره ومته لا بما يتعبه كل أحد لنفسه . وقال إبراهيم النخعي : لم يطلبوا الرياسة بل بأن يكونوا قدوة فى الدين . وقال ابن عباس : أجعلنا أئمة هدى ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ وقال مكحول : أجعلنا أئمة فى التقوى يقتدى بنا المتقون . وقيل : هذا من المقلوب ؛ مجازة : وأجعل للمتقين لنا إماماً ، وقاله مجاهد . والقول الأول أظهر وإليه يرجع قول ابن عباس ومكحول ، ويكون فيه دليل على أن طلب الرياسة فى الدين نذب . وإمام واحد يدل على جمع ؛ لأنه مصدر كالقيام . قال الأخفش : الإمام جمع أئمة من أئمة يؤتم جمع على فعال ، نحو صاحب وصحاب ، وقائم وقيام .

قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْفُرْقَةَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ « أولئك » خبر و « عِبَادُ الرَّحْمَنِ » فى قول الزجاج على ما تقدم ، وهو أحسن ما قيل فيه . وما تخلل بين المبتدأ وخبره أوصافهم من التحل والتخل ، وهى إحدى عشرة : التواضع ، والحلم ، والتجهد ، والخوف ، وترك الإسراف والإقتار ، والزهادة عن الشرك ، والزنى والقتل ، والتوبة وتجنب الكذب ، والنفو عن المسىء ، وقبول المواظع ، والابتهاال إلى الله و « النرفة » الدرجة الرفيعة وهى أعلى منازل الجنة وأفضلها كما أن الفرقة أعلى مساكن الدنيا ، حكاه ابن شجرة . وقال الضحاك : النرفة الجنة . « بِمَا صَبَرُوا » أى بصبرهم على أمر دينهم ، وطاعة تنبيههم عليه أفضل الصلاة والسلام . وقال محمد ابن بن الحسين : « بِمَا صَبَرُوا » على الفقر والفاقة فى الدنيا . وقال الضحاك : « بِمَا صَبَرُوا » عن الشهوات . ﴿ وَيَلْقَوْنَ فِيهَا حَبِيبَةً وَسَلَامًا ﴾ قرأ أبو بكر والمفضل والأعمش ويعبى

وحجرة والكسائي وخلف « وَيَقْوَن » خففة ، وأختره الفراء ؛ قال لأن العرب تقول :
فلان يُلْقَى بالسلام وبالتحية والخير (بالتاء) ، ولما يقولون فلان يُلْقَى السلامة ، وقرأ الباقون
« وَيَقْوَن » وأختره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لقوله تعالى : « وَلَقَاهُمْ نَصْرَةٌ وَسُرُورًا » . قال
أبو جعفر النحاس : وما ذهب إليه الفراء وأختره غلط ؛ لأنه يزعم أنها لو كانت « يَقْوَن »
كانت في العربية بفتح وسلام ، وقال كما يقال : فلان يُلْقَى بالسلام والخير ؛ فمن عجيب
ما في هذا الباب أنه قال بتلقى والآية « يَقْوَن » والفرق بينهما بين ؛ لأنه يقال فلان يتلقى
بالخير ولا يجوز حذف (الباء) ، فكيف يشبه هذا ذلك ! وأعجب من هذا أن في القرآن
« وَلَقَاهُمْ نَصْرَةٌ وَسُرُورًا » ولا يجوز أن يقرأ بغيره ، وهذا بين أن الأولى على خلاف ما قال .
والتحية من الله والسلام من الملائكة . وقيل : التحية البقاء الدائم والملك العظيم ؛ والأظهر
أنهما بمعنى واحد ، وأنها من قبل الله تعالى ؛ دليله قوله تعالى : « تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ »
وسياق . (خَالِدِينَ) نصب على الحال (فَبِمَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا) .

قوله تعالى : (قُلْ مَا بَعَثَ إِلَيَّ رَبِّي لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ) هذه آية مشككة تعلق بها الملاحدة .
يقال : ما بعثت بفلان أى ما باليت به ؛ أى ما كان له عندي وزن ولا قدر . وأصل بعث
من اليب وهو النقل . وقول الشاعر :

كَأَنِّي بِمَدْرِهِ وَبِجَانِبِهِ • قِيمًا بَاتَ يَبْهُؤُهُ تَمْرُوسُ

أى يعمل بعضه على بعض . فالعبء الحمل الثقيل ، والجمع أجساد . والعبء المصدر .
وما استنفاهية ؛ ظهر في أثناء كلام الزجاج ، وصرح به الفراء . وليس يبعد أن تكون نافية ؛
لأنك إذا حكمت بأنها استنفاهم فهو نفي نخرج بخرج الاستنفاهم ؛ كما قال تعالى : « هَلْ جَزَاءُ
الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ » قال ابن السجري : وحقيقة القول عندي أن موضع « ما » نصب ؛
والتقدير : أى عيب يبعث بك ؛ أى أى مبالاة يسأل ربي بك لولا دعاؤكم ؛ أى لولا دعاؤه
إياكم لتعبده ، فالمصدر الذى هو الدماء على هذا القول مضاف إلى مفعوله ؛ وهو اختيار

(١) هو أبو زيد يصف أهدا ، كما في اللسان مادة « مَيَّأ » - ورواه هكذا :

كَأَنِّي بِمَدْرِهِ وَبِجَانِبِهِ • عِيْرًا بَاتَ يَبْهُؤُهُ تَمْرُوسُ

القرآن . وفاعله محذوف وجواب لولا محذوف كما حذف في قوله : « وَلَوْ أَن قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ
الْحَبَالُ » تقديره : لم يعبأ بكم . ودليل هذا القول قوله تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ
إِلَّا لِيُعْبُدُونِ » فالخطاب لجميع الناس ؛ فكأنه قال لقريش منهم : أى ما يبالي الله بكم لولا
عبادتكم إياه أن لو كانت ؛ وذلك الذى يبالي بالشر من أجله . ويؤيد هذا قراءة ابن الزبير
وغيره « فَقَدْ كَذَّبَ الْكَافِرُونَ » فالخطاب بما يعبأ بجميع الناس ؛ ثم يقول لقريش : فأنتم قد
كذبتم ولم تبدوه فسوف يكون التكذيب هو سبب العذاب لزما . وقال النقاش وغيره :
المعنى ؛ لولا استناساتكم إليه في الشدائد ونحو ذلك . بيانه : « فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِ دَعَا اللَّهُ
مُخْلِصِينَ » ونحو هذا . وقيل : « مَا يَبْتَغِيكُمْ » أى بمغفرة ذنوبكم ولا هو عنده عظيم
« وَلَوْلَا دَعَاؤُكُمْ » مع الآلهة والشركاء . بيانه : « مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن تَكْفُرُوا وَمَنْ » ؛
قاله الضحاك . وقال الوليد بن أبى الوليد : بلفي فيها أى ما خلقنكم ولى حاجة إليكم
إلا تسألوني فأغفر لكم وأعطيكم . وروى وهب بن منبه أنه كان في التوراة « يَا بَنِي آدَمَ
وعزى ما خلقنك لأرجع عليك إنما خلقتك لترجع على » فأخذنى بدلا من كل شئ فانا خيرك
من كل شئ » . قال ابن جنى قسرا ابن الزبير وابن عباس « فَقَدْ كَذَّبَ الْكَافِرُونَ » .
قال الزهراوى والنحاس : وهى قراءة ابن مسعود وهى على التفسير ؛ لئلا والميم في « كذبتم » .
وذهب الفتيى والفارسي إلى أن الدعاء مضاف إلى الفاعل والمفعول محذوف ، الأصل لولا
دعائكم آله من دونه ، وجواب « لولا » محذوف تقديره في هذا الوجه : لم يعذبكم . ونظير
قوله : لولا دعاؤكم آله قوله : « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَتَاهُمْ » . « فَقَدْ كَذَّبْتُمْ »
أى كذبتم بما دعيتم إليه ؛ هذا على القول الأول ؛ وكذبتم بتوحيد الله على الثانى . « فَسَوْفَ
يَكُونُ لَكُمْ » أى يكون تكذيبكم ملزما لكم . والمعنى ؛ فسوف يكون جزاء التكذيب كما قال :
« وَوَعِدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا » أى جزاء ما عملوا وقوله : « فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ »
أى جزاء ما كنتم تكفرون . وحسن إخبار التكذيب لتقدم ذكر فعله ؛ لأنك إذا ذكرت
الفعل دل لفظه على مصدره ، كما قال : « وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّكُمْ » أى لكان
الإيمان . وقوله : « وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ » أى يرضى الشكر . ومثله كثير . وجمهور المفسرين

على أن المراد باللزام هنا مازل بهم يوم بدر، وهو قول عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب وأبي مالك وعبيد الله ومقاتل وغيرهم، وفي صحيح مسلم عن عبد الله: وقد مضت البطشة والبدخان واللزام. وسيأتي مبيتا في سورة «البدخان» إن شاء الله تعالى. وقالت فرقة: هو نوع بعدذاب الآخرة. وعن ابن مسعود أيضا: اللزام التكذيب نفسه، أي لا يُعطون التوبة منه؛ ذكره الزهراوى؛ فدخل في هذا يوم بدر وغيره من المذاب الذي يُلزمونه. وقال أبو عبيدة: لزاما فيصلا [أي] فسوف يكون فيصلا بينكم وبين المؤمنين. والجمهور من القراء على كسر اللام؛ وأنشد أبو عبيدة لمصرح: فإِذَا يَجْهَرُونَ مِنْ خَشْفِ أَرْضٍ * قَدْ لَقِيََا حُتُوفَهَا لَزَامَا
ولزاما وملازمة واحد. وقال الطبري: «لزاما» يعني عذابا دائما لازما، وهلاكا مغنيا يلحق بعضهم ببعض، كقول أبي ذؤيب:

فَسَاجَاهُ بِعَادِيَةٍ لَزَامٍ * كَمَا يَتَجَرَّ الْخَوْضُ اللَّافِيْفُ^(١)

يعني باللزام الذي يتبع بعضه بعضا، وباللقيف المتساقط المجارة المتهدم. النحاس: وحكى أبو خاتم عن أبي زيد قال سمعت قَعْنَبَا أبا السَّهْلِ يَقْرَأُ «لَزَامًا» بفتح اللام. قال أبو جعفر: يكون مصدر لَزِمَ والكسر أولى، يكون مثل قتال ومقاتلة، كما أجمعوا على الكسر في قوله عز وجل: «وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى». قال غيره: اللزَام بالكسر مصدر لازم لزاما مثل خاصم خصاما، واللزَام بالفتح مصدر لَزِمَ مثل سلمَ سلاما أي سلامة؛ فاللَزَام بالفتح اللزوم، واللزَام الملازمة، والمصدر في القراءتين وقع موقع اسم الفاعل، فاللَزَام وقع موقع ملازم، واللزَام وقع موقع لازم. كما قال تعالى: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْحَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا» أي غائرا. قال النحاس: وللفسراء قول في اسم يكون قال: يكون مجهولا وهذا غلط؛ لأن المجهول لا يكون خبره إلا جملة، كما قال تعالى: «إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَبَصِيرٌ» وكما حكى الصحويون كان زيد منطلق ويكون المبتدأ وخبره خبر المجهول، والتقدير: كان الحديث، فأما أن يقال كان منطلقا، ويكون في كان مجهول فلا يجوز عند أحد علمناه. وبالله التوفيق وهو المستعان والحمد لله رب العالمين.

(١) المادية: القوم يمدون على أرجلهم؛ أي غلبهم لزَام كأنهم لزموه لا يفارقون. أم لبه. وشبه حلتهم بهم الحرض إذا تهدم. ويروي: * فلم ير غير مادية لزَام *

سورة الشعراء

هي مكية في قول الجمهور . وقال مقاتل : منها مدني ؛ الآية التي يذكر فيها الشعراء ،
 وقوله : « أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَأْتِيَهُمْ طُمَأْنِينٌ مِنْ رَبِّهِمْ إِذْ يُنَادِيهِمْ فِرْعَوْنُ بِآيَاتِهِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ طُمَأْنِينٌ مِنْ رَبِّهِمْ إِذْ يُنَادِيهِمْ فِرْعَوْنُ بِآيَاتِهِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ طُمَأْنِينٌ مِنْ رَبِّهِمْ » . وقال ابن عباس وقادة :
 مكية إلا أربع آيات منها نزلت بالمدينة من قوله : « وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ » إلى آخرها .
 وهي مائتان وسبع وعشرون آية . وفي رواية : ست وعشرون . ومن ابن عباس قال النبي
 صلى الله عليه وسلم : « أعطيت السورة التي تذكر فيها البقرة من الذكر الأول وأعطيته طه
 وطسم من ألواح موسى وأعطيته فوائح القرآن وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش وأعطيته
 المفصل نافله » . ومن البراء بن عازب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله أعطاني
 السبع الطوال مكان التوراة وأعطاني المئين مكان الإنجيل وأعطاني الطواسين مكان الزبور
 وفضاني بالحواميم والمفصل ما قرأهن نبي قبل » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : طسّم ① تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ② لَعَلَّكَ
 بِدَعْرِ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ③ إِنْ نَشَأْ نُنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ
 آيَةً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَهَا خَلَائِفَ ④ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ
 مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ⑤ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ
 مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ⑥ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَّرْنَا فِيهَا مِنْ
 كُلِّ زوجٍ كَرِيمٍ ⑦ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ⑧
 وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ⑨

قوله تعالى : ﴿ طه ﴾ قرأ الأعشى ويحيى وأبو بكر والمفضل وحمة والكسائي وخلف
بإمالة الطاء مشبها في هذه السورة وفي أختها . وقرأ نافع وأبو جعفر وشيبة والزهري بين
اللفظين ؛ وأخاره أبو عبيد وأبو حاتم . وقرأ الباقون بالفتح مشبها . قال الثعلبي : وهي
كلها لسان فصيحة . وقد مضى في « طه » قول النحاس في هذا . قال النحاس : وقرأ
المدنيون وأبو عمرو وعاصم والكسائي « طهم » بإدغام النون في الميم ، والقراء يقول بإخفاء
النون . وقرأ الأعشى وحمة « طسين ميم » بإظهار النون . قال النحاس : النون الساكنة
والنونين أربعة أقسام عند سيبويه : يبتنان عند حروف الحلق ، ويدغمان عند الزاء واللام
والميم والواو والياء ، ويقلبان ميمًا عند الباء ويكونان من انخياشيم ؛ أي لا يبتنان ؛ فعل هذه
الأربعة الأقسام التي فيها ميمويه لا تجوز هذه القراءة ؛ لأنه ليس هاهنا حرف من حروف
الحلق فتبين النون عنده ، ولكن في ذلك وجبته ؛ وهو أن حروف المعجم حكما أن يوقف
عليها ، فإذا وقف عليها تبينت النون . قال الثعلبي : الإدغام اختيار أبي عبيد وأبي حاتم
قياسا على كل القرآن ، وإنما أظهرها أولئك للتبيين والتمكين ، وأدغمها هؤلاء لجاورتها حروف
الفهم . قال النحاس : وحكى أبو إسحق في كتابه « فيما يجري وفيما لا يجري » أنه يجوز أن
يقال « طسين ميم » بفتح النون وضم الميم ، كما يقال هذا معدى كرب . وقال أبو حاتم :
قرأ خالد « طسين ميم » . ابن عباس : « طهم » قَمَم وهو أسم من أسماء الله تعالى ، والمقسم
عليه « إِنَّ نَسْفُ نَزَّلَ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً » . وقال قتادة : أسم من أسماء القرآن أقسم الله به .
مجاهد : هو أسم السورة ؛ ويحسن افتتاح السورة . الربيع : حساب مدة قوم . وقيل :
قارعة تحمل بقوم . « طهم » و « طس » واحد . قال :

وَقَاوُكَا كَالرَّيْعِ أَتَجَاهُ طَايِسُهُ . بَانَ تُسَيْدَا وَالرَّمْعُ أَشْفَاهُ سَاحِبُهُ

(١) راجع ج ١١ ص ١٦٨ طية أول أوقانية . (٢) هو المنى ؛ وليت مطلع قصيدة له مدح بها
أبا الحسن علي بن عبد الله الصغرى - وأصحابه - أخته - والطاسم : القارس . والساجم : السائل . والمنى : طلب
وفاءهما بالإسماعيل وهو الإمامة على البكاء والمواقفة ، وذلك قال : (والدمع أشفاه ساجمه) والمنى إبكاء معي . يدع
في غاية السجود فهو أشق الوجد ، فإن الربيع في غاية اللسوم وهو أشقى الحب . وأراد بالرفاء هنا البكاء لأنها عاده
على الإسعاد . « شرح البيان ج ٤ للمكبري » .

وقال القرطبي : أقسم الله بطوله وسنانه وملكه . وقال عبد الله بن محمد بن عجيل : الطاء طور سيناء والسين إسكندرية والميم مكة . وقال جعفر بن محمد بن علي : الطاء شجرة طوبى ، والسين سيدة المنتهى ، والميم عهد صل الله عليه وسلم . وقيل : الطاء من الطاهر والسين من القدوس — وقيل من السميع وقيل من السلام — والميم من المجد . وقيل : من الرحيم . وقيل : من الملك . وقد مضى هذا المعنى في أول سورة « البقرة » . والطواسيم^(١) والطواسيم سور في القرآن جمعت على غير قياس . وأشد أبو عبيدة :

وَالطَّوَّاسِيمُ الَّتِي قَدْ كُتِبَتْ * وَالْحَوَامِيمُ الَّتِي قَدْ سُبِّتْ

قال الجوهري : والصواب أن تجمع بذوات وتضاف إلى واحد ، فيقال : ذوات طمم وذوات حسم .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ رفع على إحصاء مبتدأ أى هذه « تلك آيات الكتاب المبين » التي كنتم وعدتم بها ، لأنهم قد وعدوا في التوراة والإنجيل بأزوال القرآن . وقيل : « تلك » بمعنى هذه . ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ أى قاتل نفسك ومهاكمها . وقد مضى في « الكهف » بيانه . ﴿ أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ أى تركهم الإيمان . قال الفراء : « أَنْ » في موضع نصب ؛ لأنها جزء . قال النحاس : وإنما يقال : بأن مكسورة لأنها جزء ؛ كذا المتعارف . والقول في هذا ما قاله أبو إسحق في كتابه في القرآن : قال : « أَنْ » في موضع نصب مفعول من أجله ، والمعنى لملك قاتل نفسك تركهم الإيمان . ﴿ إِنْ نَسَأَ نُزُلٌ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ ﴾ أى معجزة ظاهرة وقسرة باهرة فصير معارفهم ضرورية ، ولكن سبق القضاء بأن تكون المعارف نظرية . وقال أبو حمزة الثمالي في هذه الآية : صوت يسمع من السماء في النصف من شهر رمضان ؛ تخرج به العواقي من البيوت وتضج له الأرض . وهذا فيه بعد ؛ لأن المراد قریش لا غيرهم . ﴿ تَقَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ ﴾ أى قنطل أعناقهم ﴿ لَمَّا خَاضِعِينَ ﴾ قال مجاهد : أعناقهم كبواضعهم ؛ وقال النحاس : ومعروف في اللغة ؛ يقال : جاعنى عُنُق من الناس أى رؤساء منهم . أبو زيد والأخفش : « أَعْنَاقُهُمْ » جماعاتهم .

(١) راجع ج ١ ص ١٥٤ طبعة ثانية أرناؤة . (٢) راجع ج ١٠ ص ٣٤٨ طبعة أول أرناؤة .

يقال : جاءني عُنِّي من الناس أئى جماعة . وقيل : إنما أراد أصحاب الأعناق ، نحذف
المضاف وأقام المضاف إليه مقامه . قتادة : المعنى لو شاء لأنزل آية يذلون بها فلا يولى أحد
منهم عنقه إلى معصية . ابن عباس : نزلت فينا وفي بنى أمية سنكون لنا عليهم الدولة فتذل لنا
أعتاقهم بعد معاوية ؛ ذكره الثعلبي والفزنى . وخاضعين وخاضعة هنا سواء ؛ قاله عيسى بن
عمر وأختره المبرد . والمعنى : إنهم إذا ذلت رقابهم ذلوا ؛ فالإخبار عن الرقاب إخبار عن
أصحابها . ويسوغ في كلام العرب أن تترك الخبر عن الأول وتجبر عن الثانى ؛ قال الرازي :

طولُ الليالى أسرعُ فى تقضى • طَوَيْنَ طُسُولِي وطَوَيْنَ قَرَضِي

فاخبر عن الليالى وترك الطول . وقال جرير :

أَرَى مَرَّ السَّيْنِ أَخَذَنَ مَنَى • سَمَا أَخَذَ السَّرَّارُ مِنَ الْمِلَالِ

وإنما أجاز ذلك لأنه لو أسقط مرّ وطول من الكلام لم يفسد معناه ، فكذلك رد الفعل
إلى الكناية في قوله : « قَطَلْتُ أَعْتَاقَهُمْ » لأنه لو أسقط الأعناق لما فسد الكلام ، ولاذى
ما بقى من الكلام عنه حتى يقول : ففعلوا لها خاضعين . وعلى هذا أعتمد الفراء وأبو عبيدة .
والكسائي يذهب إلى أن المعنى خاضعها هم ، وهذا خطأ عند البصريين والفراء . ومثل هذا
الحذف لا يقع في شئ من الكلام ؛ قاله النحاس .

قوله تعالى : (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٌ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ) تقدم
في « الأنبياء » . (فَقَدْ كَذَّبُوا) أى أعرضوا ومن أعرض عن شئ ولم يقبله فهو
تكذيب له . (فَيَسْتَفْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَفْتُونَ) وعيد لهم ؛ أى فسوف يأتيهم عاقبة
ما كذبوا والذي استهزؤا به .

قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) نبه على عظمتها
وقدرة وأنهم لو راوا بقلوبهم ونظروا ببصائرهم لعلموا أنه الذى يستحق أن يعبد ؛ إذ هو
القادر على كل شئ . والزوج هو اللون ؛ قاله الفراء . و « كريم » حسن شريف ، وأصل

(١) تقدم البيت فى ج ٧ ص ٢٦٤ طبعه أمول أرثانية . (٢) راجع ج ١١ ص ٢٦٨ وما بعدها طبعه أمول أرثانية .

الكرم في اللغة الشرف والفضل، فنخلة كريمة أى فاضلة كثيرة الثمر، ورجل كريم شريف فاضل صفوح . ونبت الأرض وأنبت بمعنى . وقد تقدم في سورة « البقرة » . والله سبحانه المخرج والمنبت له . وروى عن الشعبي أنه قال : الناس من نبات الأرض فمن صار منهم إلى الجنة فهو كريم ، ومن صار إلى النار فهو لئيم . (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً) أى فيها ذكر من الإنبات في الأرض لدلالته على أن الله قادر، لا يعجزه شيء . (وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ) أى مصدقين لما سبق من علمي فيهم . و « كان » هنا صلة في قول سيبويه : تقديره : وما أكثرهم مؤمنين . (وَإِنَّ رَبَّكَ لَخَوَالِعُزُّ الرَّحِيمِ) يريد المنيع المتعم من أعدائه، الرحيم بأوليائه .

قوله تعالى : (وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَتَيْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (١) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ) (٢) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَلِّمُونِي) (٣) وَيَضْحِكُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ لِي هَارُونَ) (٤) وَلَمْ يَكُنْ لِي دُفْعٌ فَاخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِي) (٥) قَالَ كَلَّا فَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ) (٦) إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ) (٧)

قوله تعالى : (وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى) « إذ » في موضع نصب؛ المعنى : وأتل عليهم . « إِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى » ويدل على هذا أن بعده « وأتل عليهم نبا إبراهيم » ذكره النحاس . وقيل : المعنى ؛ وأذكر إذ نادى كما صرح به في قوله : « وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ » وقوله : « وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ » وقوله : « وَأَذْكُرْ فِي الْكَلْبِ مَرْيَمَ » . وقيل : المعنى ؛ « وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى » كان كذا وكذا . والنساء الدعاء بيا فلان ، أى قال ربك يا موسى (أَنْ أَتَيْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) ثم أخبر من هم فقال : (قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ) ذ « قَوْم » بدل ، ومعنى « أَلَا يَتَّقُونَ » ألا يخافون عقاب الله ؟ وقيل هذا من الإيماء إلى الشيء لأنه أمره أن يأتي القوم الظالمين ، ودل قوله : « يَتَّقُونَ » على أنهم لا يتقون ، وعلى أنه أمرهم بالتقوى . وقيل : المعنى ؛ قل لهم « أَلَا تَتَّقُونَ » وجاء بالياء لأنهم غيب وقت الخطاب ، ولو جاء بالياء

لجاز . ومثله « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُونَ » بالناء والياء . وقد قرأ عبيد بن عمير وأبو حازم « أَلَا تَتَّقُونَ » بنامين أى قل لهم « أَلَا تَتَّقُونَ » . (قَالَ رَبِّ) أى قال موسى (رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ) أى فى الرسالة والنبوة . (وَيَضِيقُ صَدْرِي) لتكذيبهم إياى . وقراءة العامة « وَيَضِيقُ » « وَلَا يَنْطَلِقُ » بالرفع على الاستئناف . وقرأ يعقوب وعيسى بن عمر وأبو حيوة « وَيَضِيقُ - وَلَا يَنْطَلِقُ » بالنصب فهما ردًا على قوله : « أَنْ يُكَذِّبُونِ » قال الكسائى : القراءة بالرفع ، يعنى فى « يَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي » يعنى نسفًا على « إِنِّي أَخَافُ » . قال الفراء : ويقرأ بالنصب . حكى ذلك عن الأصمعي وطبعة وعيسى ابن عمر وكلامهما له وجه . قال النحاس : الوجه الرفع ؛ لأنَّ النصب عطف على « يُكَذِّبُونِ » وهذا بعيد يدل على ذلك قوله عز وجل : « وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَقْفُوهُوا قَوْلِي » فهذا يدل على أن هذه كذا . ومعنى « وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي » فى المحاجة على ما أحب ؛ وكان فى لسانه عُقْدَةٌ على ما تقدم فى « طه » . (فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ) ارسل إليه جبريل بالوحى ، واجمله رسولاً معي ليؤازرنى ويظاهرنى وبما نئى . ولم يذكر هنا ليعينى ؛ لأن المعنى كان معلوماً ، وقد صرح به فى سورة « طه » : « وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا » وفى القصص : « أَرْسَلَهُ مَعَهُ رِدْءًا يُصَدِّقُهُ » وكان موسى أذن له فى هذا السؤال ، ولم يكن ذلك استفتاء من الرسالة بل طلب من يمينه . ففى هذا دليل على أن من لا يستعمل بأمر ، ويخاف من نفسه تقصيراً ، أن يأخذ من يستعين به عليه ، ولا يلحقه فى ذلك لوم . (وَفَعَلَ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ) الذنب هنا قتل القبطى واسمه فانور على ما باتى فى « القصص » بلسانه ، وقد مضى فى « طه » ذكره . وخاف موسى أن يقتلوه به ، ودل على أن الخوف قد يصحب الأنبياء والفضلاء والأولياء مع معرفتهم بالله وأن لا فاعل إلا هو ؛ إذ قد بسطت من شاء على من شاء . (قَالَ كَلَّا) أى كلا لن يقتلك . فهو ردع وزجر عن هذا الظن ، وأمر بالثقة بالله تعالى ؛ أى ثق بالله واتزرع عن خوفك منهم ؛ فإنهم لا يفسدون على قتلك ،

ولا يقولون عليه . (تَأَذُّبًا) أى أنت وأخوك فقد جعلته رسولاً ملك . (يَا أَيَّتُهَا)
أى إبراهيمنا والمعجزات ، وقيل : أى مع آياتنا . (إِنَّا مَعَكُمْ) يريد نفسه سبحانه وتعالى .
(مُسْتَمِعُونَ) أى سامعون ما يقولون وما يحلويون . وإنما أراد بذلك تقوية قلبهم
وأنه يمينهما ويحفظهما ، والاستماع إنما يكون بالإصغاء ، ولا يوصف البارى سبحانه بذلك .
وقد وصف سبحانه نفسه بأنه السميع البصير . وقال فى « طه » : « أَسْمِعْ وَآرَى » وقال :
« مَعَكُمْ » فأجراها مجرى الجمع ؛ لأن الاثنين جماعة . ويجوز أن يكون لها ولئن أرسلنا إليه .
ويجوز أن يكون بلجج بن إسرائيل .

قوله تعالى : قَاتِلَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾
إِنَّا أَرْسَلْنَا مُوسَى بِنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا
مِنْ عُمْرِكَ سِينَ ﴿١٩﴾ وَقَعَلْتَ فَعَلْتِكَ آلِي قَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٠﴾
وَقَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢١﴾ فَقَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكَ
فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٢﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تُمُنُّهَا
عَلَى أَنْ عَبْدْتَ بِنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : (قَاتِلَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) قال أبو عبيدة : رسول
بمعنى رسالة والتقدير على هذا ؛ إنا ذوو رسالة رب العالمين ، قال المذنب :
أَلِكْنِي إِلَيْهَا وَخَيْرُ الرُّسُو • لِأَعْلَمَهُمْ بَنَوَاجِ النَّاسِ
أَلِكْنِي إِلَيْهَا مَعْنَاهُ أَرْسَلَنِي . وقال آخر :^(١)

لَقَدْ كَذَّبَ الْوَاشُونَ مَا يُحِبُّ عَنْهُمْ • يَسِرُّ وَلَا أَرْسَلَهُمْ بِرَسُولٍ

(١) هو كثير . ويرى أيضا فى اللسان مادة « رسل » :

• يسر ولا أرسلهم برسول •

ويقال : كان ذلك أيام الردة والردة . (وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ) قال الضمك : أى فى قتلك القبطى إذ هو نفس لا يحل قتله . وقيل : أى بنعمتى التى كانت لنا عليك من التربة والإحسان إليك ؛ قاله بن زيد . الحسن : « من الكافرين » فى أى إهلك . السدى : « من الكافرين » بالله لأنك كنت معنا على ديننا هذا الذى تعيبه . وكان بين خروج موسى عليه السلام حين قتل القبطى وبين رجوعه نبيا أحد عشر عاما غير أشهر . (قَالَ فَعَلْتَهَا إِذَا) أى فعلت تلك الفعلة يريد قتل القبطى (وَأَنَا) إذ ذاك (مِنَ الضَّالِّينَ) أى من الجاهلين ؛ فنفى عن نفسه الكفر ، وأخبر أنه فعل ذلك على الجهل . وكذا قال مجاهد « من الضَّالِّينَ » من الجاهلين . ابن زيد : من الجاهلين بأن الوكزة تبلغ القتل . وفى مصحف عبد الله « من الجاهلين » ويقال لمن جهل شيئا ضل عنه . وقيل : « وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ » من الناسين ؛ قاله أبو عبيدة . وقيل : « وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ » عن النبوة ولم يأتى عن الله فيه شيء ، فليس ملّ فيما فعلته فى تلك الحالة توبىخ . وبين بهذا أن التربة فيهم لا تنافى النبوة والحلم على الناس ، وأن القتل خطأ أو فى وقت لم يكن فيه شرع لا ينافى النبوة .

قوله تعالى : (فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْ) أى خرجت من بينكم إلى مدين كما فى سورة القصص : « نَخْرُجُ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ » وذلك حين القتل . (قَوْهَبَ لِي رُبِّي حُكًّا) ببنى النبوة ؛ عن السدى وغيره . الزجاج : تعلم التوراة التى فيها حكم الله . وقيل علما ونهما . (وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

قوله تعالى : (وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّا عَلَى أَنْ عَبَّدتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ) آخف الناس فى معنى هذا الكلام ؛ فقال السدى والطبرى والقراء : هذا الكلام من موسى عليه السلام على جهة الإقرار بالنعمة ؛ كأنه يقول : نعم ! وتربيتك نعمة على من حيث عبّدت فيرى وتركتنى ، ولكن لا يدفع ذلك رسالتى . وقيل : هو من موسى عليه السلام على جهة الإنكار ؛ أى آمنى على بأن ربيتى وليدا وأنت قد استعبدت بنى إسرائيل وقتلهم ؟ ! أى ليست بنعمة ؛ لأن الواجب كان ألا تقتلهم ولا تستبدهم فإنهم قومي ؛ فكيف تذكر إحسانك إلى على

الخصوص ؟ ! قال معناه قتادة وغيره . وقيل : فيه تقدير استفهام ؛ أي أو تلك نعمة ؟ قاله الأخفش والفراء أيضا وأنكره النحاس وغيره . قال النحاس : وهذا لا يجوز لأن ألفه الاستفهام تحدث معنى ، وحذفها محال إلا أن يكون في الكلام أم ؛ كما قال الشاعر :

« تَرُوحُ مِنَ الْحَيِّ أَمْ تَتَكَبَّرُ »

ولا أعلم بين النحويين اختلافًا في هذا إلا شيئًا قاله الفراء . قال : يجوز حذف ألف الاستفهام في أمثال الشك ؛ وحكى ثري زيدا منطلقا ؟ بمعنى أترى . وكان حل بن سليمان . يقول في هذا : إنما أخذه من ألفاظ العامة . قال الثعلبي : قال الفراء ومن قال إنها إنكار قال معناه أو تلك نعمة ؟ على طريق الاستفهام ؛ كقوله : « هَذَا رَيْي » « فهُمْ أَخْلَالِي وَنَ » . قال الشاعر ^(١) :

رَقَوْنِي وَقَالُوا يَا خُوَيْلِدُ لَا تُبْرِخْ • فَقُلْتُ وَأَنْكَرْتُ الْوَجْوهَ مُمْ مُمْ
وَأَتَشَدُّ الْفَزْنَوى شَاهِدًا عَلَى تَرْكِ الْأَلْفِ قَوْلِي :

لَمْ أَنَسْ يَوْمَ الرِّحْلِ وَقَفَّتْهَا • وَجَفَّتْهَا مِنْ دَمْعِهَا شَرِيقُ
وَقَوَّعَهَا وَالرَّكَابُ وَاقِفَةٌ • تَرَكْنِي هَسَكْنَا وَتَنْطَلِقُ

قلت : ففي هذا حذف ألف الاستفهام مع عدم أم خلاف قول النحاس . وقال الضحاك : إن الكلام نخرج نخرج التبيكت والتبيكت يكون بأستفهام وبغير استفهام ؛ والمعنى : لو لم تقتل بني إسرائيل لرباني أبواي ؛ فأى نعمة لك على ! فانت تمنى على ! بما لا يجب أن تمنى به . وقيل : معناه كيف تمنى بالقرية وقد أهنت قومي ؟ ومن أهين قومه ذل . و « أَنَّ حَبَدَّتْ » في موضع رفع على البدل من « نعمة » ويجوز أن تكون في موضع نصب بمعنى : لأن صلبت بني إسرائيل ؛ أى اتخذتهم عبيدا . يقال : عبيده وأعبده بمعنى ؛ قاله الفراء وأشد : مَلَّامٌ يُعَذِّبُنِي قَوْمِي وَقَدْ كَثُرَتْ • فَيُهِمُ أَبَاعِرُ مَا شَاءُوا وَعِيدَاتُ

(١) هو أهر تراث الخذل ؛ وقد تقدم شرح البيت في ج ١١ ص ٢٨٧ طبعه أول مرة ثانية .

فوله تعالى : قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٦٥﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا
 تَسْتَمِعُونَ ﴿٦٦﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ
 الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٦٨﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا
 إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٩﴾ قَالَ لَنْ أَمْلِكَ إِلَّا لَهَا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ
 الْمَسْجُونِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴿٧١﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ
 كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٢﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٧٣﴾
 وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنْ هَذَا
 لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَاذًا تَأْمُرُونَ ﴿٧٦﴾
 قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٧٧﴾ يَا نُؤُوكَ بِكُلِّ صَخَارٍ
 عَلِيمٍ ﴿٧٨﴾ بِجَمِيعِ السَّحَرَةِ لِيَمِيقَتِ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿٧٩﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ
 هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٨٠﴾ لَعَلَّكُمْ تَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٨١﴾
 فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنْ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٨٢﴾
 قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لِمَنْ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ
 مُلْقُونَ ﴿٨٤﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصَمَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ
 الْغَالِبُونَ ﴿٨٥﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَلَاثُ حَبَافٍ ﴿٨٦﴾
 فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِهَابَهُمْ ﴿٨٧﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٨﴾ رَبِّ مُوسَى
 وَهَارُونَ ﴿٨٩﴾ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي

عَلَيْكُمْ أَسْحَرُ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا قُطْعَانَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ
وَلَا صُلْبَيْنِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ قَالُوا لَا ضَرِيرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٢﴾
إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ لما غلب موسى فرعون بالهجة ولم يجد
اللعين من تقريره على التريسة وغير ذلك حجة رجع إلى معارضة موسى في قوله : رسول
رب العالمين ؛ فاستنهمه استنهما عن مجهول من الأشياء . قال مكي وفيه : كما يستنهم
عن الأجناس فلذلك استنهم بـ « حا » . قال مكي : وقد ورد له استنهم بـ « حن » في موضع
آخر ويشبه أنها موطن ؛ فأتى موسى بالصفات الدالة على الله من مخلوقاته التي لا يشاركه فيها
مخلوق ؛ وقد سأل فرعون عن الجنس ولا جنس لله تعالى ؛ لأن الأجناس محدثة ، فلم موسى
جهله فأضرب عن سؤاله وأعلمه بعظيم قدرة الله التي تبين للسامع أنه لا مشاركة لفرعون
فيها . فقال فرعون : ﴿ أَلَا سَمِعْتُمُونِ ﴾ على معنى الإغراء والتعجب من صفه المقالة إذ كانت
عقيدة القوم أن فرعون ربه ومعبودهم والفراعة قبله كذلك . فزاد موسى في البيان بقوله :
﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ بجاء بدليل يفهمونه عنه ؛ لأنهم يعلمون أنه قد كان لهم
آباء وأنهم قد فسوا وأنه لا بد لهم من منبر ، وأنهم قد كانوا بساء . أن لم يكونوا ؛ وأنهم لا بد
لهم من مكوّن . فقال فرعون حينئذ على جهة الاستخفاف : ﴿ إِنَّ رُسُلَكُمْ الَّذِينَ أُرْسِلَ
إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونُونَ ﴾ أي ليس يبين عما أسأل ؛ فأجابه موسى عليه السلام عن هذا بأن قال :
﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ أي ليس ملكه كملك ؛ لأنك إنما تملك بهذا واحدا لا يجوز أمرك
في غيره ، ويموت من لا تحب أن يموت ، والذي أرسلني بملك المشرق والمغرب ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا
إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ ﴾ . وقيل : علم موسى عليه السلام أن قصده في السؤال معرفة من سأل عنه ،
فأجاب بما هو الطريق إلى معرفة الرب اليوم . ثم لما أنقطع فرعون لعنه الله في باب الهجة
رجع إلى الاستعلاء والتغلب فتوعد موسى بالسجن ، ولم يقل ما دلك على أن هذا الإله
أرسلك ؛ لأن فيه الاعتراف بأن تم إلها غيره . وفي توعدده بالسجن ضعف . وكان فيما يروى

يفزع منه فرما شديدا حتى كان اللعين لا يمك بوله . وروى أن مجننه كان أشد من القتل .
 وكان إذا مجن أحدا لم يخرج من مجننه حتى يموت ، فكان خوفا . ثم لما كان عند موسى
 عليه السلام من أمر الله تعالى ما لا يرعه توعد فرعون (قَالَ) له على جهة اللطف به والطمع
 في إيمانه : (أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ) فيضج لك به صدق ، فلما سمع فرعون ذلك طمع
 في أن يسد إنشاء موضع معارضة (فَقَالَ) له (بَلَيْتَ بِهِ إِنْ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ) . ولم
 يحتاج الشرط إلى جواب عند سيو به ؛ لأن ما تقدم يكفى منه . (فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ) من
 يده فكان ما أخرقه من قصته . وقد تقدم بيان ذلك وشرحه في « الأعراف » إلى آخر
 القصة . وقال السحرة لما توعدهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل (لَا صَبْرَ) أى لا صبر
 علينا فيما يلحقنا من عذاب الدنيا ؛ أى إنما هذا بك ساعة فتصبر لها وقد لقينا الله مؤمنين .
 وهذا يدل على شدة استبصارهم وقوة إيمانهم . قال مالك : دعا موسى عليه السلام فرعون
 أربعين سنة إلى الإسلام ، وأن السحرة آمنوا به في يوم واحد . يقال : لا صبر ولا صبر
 ولا صبر ولا صبر ولا ضرورة بمعنى واحد ، قاله الهروي . وأشد أبو عبيدة :

فإنك لا يصورك بعد حويل . أظني كنت أمك أم حبار

وقال الجوهري : صار يَصُورُه ويضيره ضَيَّرًا وضُورًا أى ضَرَّه . قال الكسائي : سمعت
 بعضهم يقول لا ينبغي ذلك ولا يَصُورنى . والتصور الصباح والتلوى عند الضرب أو الجوع ،
 والصورة بالضم الرجل الحفيظ الصغير الشأن . (إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ) يريد نلقب إلى رب
 كريم رحيم (إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَاَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ) . « أَنْ » في موضع
 نصب أى لأن كنا . وأجاز القراء كسرهما على أن تكون مجازاة . ومعنى « أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ »
 أى عند ظهور الآية بمن كان في جانب فرعون . الفراء : أول مؤمنى زماننا . وأنه الزجاج
 وقال : قد روى أنه آمن معه ستمائة ألف ومسمعون ألفا ، وهم الشُرمة القليلون الذين قال
 فيهم فرعون : (إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشُرْمَةٌ قَلِيلُونَ) روى ذلك عن ابن مسعود وغيره .

(١) راجع ج ٧ ص ٢٥٦ وما بعدها طبع أول مرة ثانية . (٢) البيت لخداش بن زهير ، وأستشهد به
 سيدي في كتابه على جبل اسم كان ذكره وخبرها مرة ضرورة . والمعنى : لا تبالى بعد قيامك نفسك وأستغناك عن
 أيوبك من أتيت إليه من شريف أو ضيق ، وضرب المثل بالقي أو الحمار .

قوله تعالى : وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسِرِّ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٧﴾ إِنَّ هَؤُلَاءَ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٨﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَاظُونَ ﴿٥٩﴾ وَلَأَنَّا بِجَمِيعِ حَاشِرُونَ ﴿٦٠﴾ فَأَتَرَجَلْنَاهُمْ مِنْ جَانِبَيْ وَعُيُونٍ ﴿٦١﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿٦٢﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٦٣﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٦٤﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٧﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٨﴾ وَأَحْبَبْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٧٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٧١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٧٢﴾

قوله تعالى : (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسِرِّ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ) لما كان من سته تعالى في عباده إجماع المؤمنين المصدقين من أوليائه ، المعترفين برسالة رسله وأنبياؤه ، وإهلاك الكافرين المكذبين لهم من أعدائه ، أمر موسى أن يخرج بني إسرائيل ليلا وسماهم عباده ، لأنهم آمنوا بموسى . ومعنى « إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ » أى يتبعكم فرعون وقومه ليردوكم . وفى ضمن هذا الكلام تعريفهم أن الله ينجيهم منهم ؛ فخرج موسى عليه السلام بني إسرائيل سحرا ، فترك الطريق إلى الشام على يساره وتوجه نحو البحر ، فكان الرجل من بني إسرائيل يقول له فى ترك الطريق فيقول : هكذا أمرت . فلما أصبح فرعون وعلم بسرى موسى بني إسرائيل ، خرج فى أثرهم ، وبست إلى مدائن مصر لثقله العساكر ، فرأى أنه لحقه ومعه مائة ألف آدم من الخليل سوى سائر الأولاد ، وروى أن بني إسرائيل كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفا ، والله أعلم بصحته . وإنما اللازم من الآية الذى يُقطع به أن موسى عليه السلام خرج بجمع عظيم من

بنى إسرائيل وأن فرعون تبعه بأضعاف ذلك . قال ابن عباس : كان مع فرعون ألف ، جبار كلهم عليه تاج وكلهم أمير خيل ، والشَّرْذِمَةُ الجمع القليل المحقر والجمع الشَّرَازِمُ . قال الجوهري : الشَّرْذِمَةُ الطائفة من الناس والقطعة من الشيء . وثوب شرادم أى قطع . وأنشد الطلي قول الراجز :

جاء الشتاء وثيابي أخلق * شرادم يضحك منها النسواق

النسواق من الرجال الذى يروض الأمور ويصلحها ؛ قاله فى الصحاح . واللام فى قوله : « تَشَرَّدِمَةٌ » لام تأكيد وكثيرا ما تدخل فى خبر إن ، إلا أن الكوفيين لا يميزون إن زيدا لسوف يقوم . والدليل على أنه جائز قوله تعالى : « فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » وهذه لام التوكيد بينها وقد دخلت على سوف ؛ قاله النحاس . « وَإِنَّهُمْ لَنَسَاءٌ لَا يُعْلَمُونَ » أى أمداء لنا لمخالفتهم ديننا وذهابهم بأموالنا التى استماروها على ما تقدم . ومات أبكارهم تلك الليلة . وقد مضى هذا فى « الأعراف » و « طه » مستوف . يقال : غاطنى كذا وأغاطنى . والغيظ الغضب ومنه التغيظ والاعتياظ . أى غاطلونا بغروجهم من غير إذن . « وَإِنَّا لَجَمْعٌ حَذِرُونَ » أى مجتمع أخذنا حذرنا وأسلحتنا . وقضى « حَذِرُونَ » ومعناه معنى « حَذِرُونَ » أى فرقتون خائفون . قال الجوهري : وقضى « وَإِنَّا لَجَمْعٌ حَذِرُونَ » و « حَذِرُونَ » و « حَذِرُونَ » بضم الذال حكاه الأخفش ؛ ومعنى « حَذِرُونَ » متأهبون ، ومعنى « حَذِرُونَ » خائفون . قال النحاس : « حَذِرُونَ » قراءة المدنيين وأبى عمرو ، وقراءة أهل الكوفة « حَازِرُونَ » وهى معروفة عن عبد الله بن مسعود وابن عباس ، و « حَازِرُونَ » بالدال غير المعجمة قراءة أبى عباد وحكاها المهدي عن ابن أبى عمير ، والماوردي والثعلبي عن سميطة بن عجلان . قال النحاس : أبو عبيدة يذهب إلى أن معنى « حَذِرُونَ » و « حَازِرُونَ » واحد . وهو قول سيويه وأجاز ؛ هو حذر زيدا ؛ كما يقال : حاذر زيدا ، وأنشد :

حذر أمورا لا تفسر وأمن * ما ليس منجية من الأقدار

وزعم أبو عمر الجرمي أنه يجوز هو حذرٌ زيداً على حذفٍ من . فاما أكثر النحويين فيفرون بين حذر وحاذر ، منهم الكسائي والفاء ومحمد بن يزيد فيذهبون إلى أن معنى حذر في خلقته الحذر ، أي متيقظ متنبه ، فإذا كان هكذا لم يتعد ، ومعنى حاذر مستعد وهذا جاء التفسير عن المتقدمين . قال عبد الله بن مسعود في قول الله عز وجل : « وَلَئِنَّا جَمِيعٌ حَادِرُونَ » قال : مُؤَدُونَ في السلاح والكراع مُقَوُونَ ، فهذا ذاك بعينه . وقوله مُؤَدُونَ معهم أداة . وقد قيل : إن المعنى : معنا سلاح وليس معهم سلاح يحرضهم على القتال ؛ فاما « حَادِرُونَ » بالال المهمله فشتق من قولهم من حَذَرَةٍ أي ممتلئة ؛ أي نحن ممتلئون غيظا عليهم ؛ ومنه قول الشاعر^(١) :

وَصِنِّ لَهَا حَذَرَةً بِدَرَّةٍ • بُشِقَتْ مَا قَبِيهَا مِنْ أُنْتَرٍ

وحكى أهل اللغة أنه يقال : رجل حاذِرٌ إذا كان ممتلئاً الحُمِّ ، فيجوز أن يكون المعنى الاكتلاء من السلاح . المهدوي : الحاذر القوي الشديد .

قوله تعالى : (فَاتَّخِذْنَاهُمْ مِنْ جَنَاتٍ وَغِيَّوْنَ) يعني من أرض مصر . وعن عبد الله ابن عمرو قال : كانت الجنات بجانب النيل في الشقين جميعا من أسوان إلى رشيد ، وبين الجنات زروع . والنيل سبعة خلجان : خليج الإسكندرية ، وخليج تَحْطَا ، وخليج دمياط ، وخليج سَرْدُوس ، وخليج مَنَف ، وخليج القيسوم ، وخليج المنهي متصلة لا ينقطع منها شيء من شيء ، والزرع ما بين الخلجان كلها . وكانت أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعا بما دبروا وقدروا من قناطرها وجسورها وخليجها ؛ ولذلك سمي النيل إذا غلق ستة عشر ذراعا نيل السلطان ، ويُخْلَعُ على ابن أبي الرِّدَادِ ، وهذه الحال مستمرة إلى الآن . وإنما قيل نيل السلطان لأنه حينئذ يجب الخروج على الناس . وكانت أرض مصر جميعها تروى

(١) هو عمرو القيس . (٢) وهو يجر يوسف عليه السلام . (٣) هو عبد الله بن عبد السلام

ابن عبد الله بن أبي الرِّدَادِ المؤذن ؛ قدم مصر من البصرة وحدث ببها ، وجعل على قياس النيل في ولاية يزيد بن عبد الله التركي — وكانت النصارى تنزل قياسه — وأجرى عليه سبعة دنانير في كل شهر ، وأسقف قياسه في بنيه زمانا

طويلا . وتوفي أبو الرِّدَادِ سنة ٢٦٦ هـ . من خطط المقرئ ج ١ ص ٥٨

من أصبع واحدة من مبيعة عشر ذراعا، وكانت إذا غلق النيل سبعة عشر ذراعا ونودى عليه
أص واحد من ثمانية عشر ذراعا، آزداد في خراجها ألف ألف دينار . فإذا خرج من ذلك
ونودى عليه أصبعا واحدا من تسعة عشر ذراعا نقص خراجها ألف ألف دينار . وسبب
هذا ما كان ينصرف في المصالح والخلجان والجسور والاهتمام بهارتها . فاما الآن فإن أكثرها
لا يروى حتى يتأدى أصبع من تسعة عشر ذراعا بمقياس مصر . وأما أعمال الصعيد الأعلى،
فإن بها ما لا يتكامل ويه إلا بعد دخول المساء في الدراع الثاني والعشرين بالصعيد الأعلى .

قلت : أما أرض مصر فلا تروى جميعها الآن إلا من عشرين ذراعا وأصابع ، لعلو
الأرض وعدم الاهتمام بهارة جسورها . وهو من عجائب الدنيا؛ وذلك أنه يزيد إذا أنهبت
المياه في جميع الأرض حتى يسبح على جميع أرض مصر، وتبقى البلاد كالأعلام لا يوصل
إليها إلا بالراكب والقياسات . وروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : نيل مصر
سد الأنهار ، سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب ، وذلل الله له الأنهار؛ فإذا أراد الله
أن يجري نيل مصر أمر كل نهر أن يمده، فأمدته الأنهار بمائها، ونحرق الله له عيونا، فإذا انتهى
إلى ما أراد الله عز وجل ، أوحى الله إليك وتعالى إلى كل ماء أن يرجع إلى عصره . وقال
قيس بن الحجاج : لما انتحلت مصر أتى أهلها إلى عمرو بن العاص حين دخل بثوبة من
أشهر القبط فقالوا له : أيها الأمير إن لدينا هذا سنة لا يجرى إلا بها، فقال لهم : وما ذلك ؟
فقالوا : إذا كان لأتقى عشرة ليلة تغلظ من هذا الشهر عمدنا إلى جارية يكرين أبويسا ؛
أرضينا أبويسا ، وحلنا عليها من الحل والنياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في هذا النيل؛
فقال لهم عمرو : هذا لا يكون في الإسلام ؛ وإن الإسلام ليهدم ما قبله . فاقاموا أريب
ومسرى لا يجرى قليل ولا كثير، وهموا بالجللاء . فلما رأى ذلك عمرو بن العاص كتب إلى
عمربن الخطاب رضى الله عنهما ، فأعلمه بالقصة ، فكتب إليه عمر بن الخطاب : إنك قد
أصبحت بالذى قلت ، وإن الإسلام يهدم ما قبله ولا يكون هذا . وبعث إليه ببطاقة
في داخل كتابه . وكتب إلى عمرو : إنى قد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابى ، فالتفها في النيل

إذا أتاك كتابي ، فلما قدم كتاب عمرو إلى عمرو بن العاص أخذ البطاقة ففتحها فإذا فيها : من عبد الله أمير المؤمنين عمرو إلى نيل مصر - أما بعد - فإن كنت إنما تجرى من قبلك فلا تجسر وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يُريك فنسأل الله الواحد القهار أن يُجريك . قال : فالتى البطاقة في النيل قبل الصليب بيوم وقد تها أهل مصر للجلاء والخروج منها ؛ لأنه لا تقوم مصالحهم فيها إلا بالنيل . فلما أتى البطاقة في النيل ، أصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله في ليلة واحدة ستة عشر ذراعا ، وقطع الله تلك السيرة عن أهل مصر من تلك السنة . قال كعب الأحبار : أربعة أنهار من الجنة وضعها الله في الدنيا سُبْحان وجَبَّحان والَيْلَى والفُرات ، فسبحان نهر المساء في الجنة ، وجبَّحان نهر اللبن في الجنة ، والنيل نهر العسل في الجنة ، والفُرات نهر الخمر في الجنة . وقال ابن هبيرة : الدجلة نهر اللبن في الجنة .

قلت : الذي في الصحيح من هذا حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **«سُبْحَانُ وَجِبَّحَانُ وَالْأَيْلُ وَالْفُراتُ كُلُّهُ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ»** لفظ مسلم . وفي حديث الإسراء من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صفصعة رجل من قومه قال : **«وحدثني الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى أربعة أنهار يخرج من أصلها نهران ظاهران ونهران باطنان فقلت يا جبريل ماهذه الأنهار قال أما النهران الباطنان فههران في الجنة وأما الظاهران فالنيل والفُرات»** لفظ مسلم . وقال البخاري من طريق شريك عن أنس **«فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطردان فقال ما هذان النهران يا جبريل قال هذا النيل والفُرات عنصرهما ثم مضى في السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من اللؤلؤ والزمرد فضرب بيده فإذا هو مسك أذفر فقال ما هذا يا جبريل فقال هذا هو الكوثر الذي خبا لك ربك .»** وذكر الحديث . والجمهور على أن المراد بالبيون عيون المساء . وقال سعيد بن جبیر : المراد عيون الذهب . وفي الدخان **«كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُدُوجٍ»** . قيل : إنهم كانوا يزرعون ما بين الجبلين من أول مصر إلى آخرها . وليس في الدخان «وكنوز» . «وكنوز» جمع كنز؛ وقد مضى هذا

(١) يطردان : أي يجران ، وهما يتنقلان من الفرد .

في سورة « برآة » . والمراد بها هاهنا الحزائن . وقيل : الدقائق . وقال الضحاك : الأتجار؛ وفيه نظره لأن البيوت تشتملها . (وَمَقَامٌ كَرِيمٌ) قال ابن عمرو بن عباس ومجاهد : المقام الكريم المنابر؛ وكانت ألف منبر لألف جبار يُعْظَمُونَ عليها فرعون وملكه . وقيل : مجالس الرؤساء والأمراء؛ حكاه ابن عيسى وهو قريب من الأول . وقال سعيد بن جبير : المساكن الحسان . وقال ابن لهيعة : سمعت أن المقام الكريم الفيوم . وقيل : كان يوسف عليه السلام قد كتب على مجلس من مجالسه (لا إله إلا الله إبراهيم خليل الله) فسماها الله كريمة بهذا . وقيل : مرابط الخليل لتفرد الزعماء بارتباطها علة وزينة ؛ فصار مقامها أكرم منزل بهذا؛ ذكره الماوردي . والأظهر أنها المساكن الحسان كانت تكرم عليهم . والمقام في اللغة يكون الموضع ويكون مصدرا . قال النحاس : المقام في اللغة الموضع ؛ من قولك قام يقوم، وكذا المقامات واحدها مقامة ؛ كما قال :

وَفِيهِمْ مَقَامَاتٌ حَسَنَاتٌ وَجُوهُهُمْ * وَأُنْدِيَةٌ يَتَّخِذُهَا الْقِسْوَلُ وَالْفَعْلُ

والمقام أيضا المصدر من قام يقوم . والمقام (بالضم) الموضع من أقام . والمصدر أيضا من أقام يقسم .

قوله تعالى : (كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) يريد أن جميع ما ذكره الله تعالى من الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم أورثه الله بنى إسرائيل . قال الحسن وغيره : رجع بنو إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون وقومه . وقيل : أراد بالورثة هنا ما استعاروه من حل آل فرعون بأمر الله تعالى .

قلت : وكلا الأمرين حصل لهم . والحمد لله . (فَأَتَّبَهُمُ مُّشْرِكِينَ) أى تتبع فرعون وقومه بنى إسرائيل . قال السدى : حين أشرقت الشمس بالشماع . وقال قتادة : حين أشرقت الأرض بالضياء . قال الزجاج : يقال شَرَقَتِ الشَّمْسُ إذا طلعت ، وأشرقت إذا أضاءت . وأختلف في تأخر فرعون وقومه عن موسى وبنى إسرائيل على قولين : أحدهما .

(١) راجع ج ٨ ص ١٢٣ طبعه أول مرة الثانية . (٢) هو زهير بن أبي سلمى ؛ ونحاشي ؛ أى يقال فيها الجبل ويقل به .

لاستغلالهم بدفن أبكارهم في تلك الليلة ؛ لأن الوباء في تلك الليلة وقع فيهم ؛ فقولهم : « مشيرين » حال لقوم فرعون . الثاني - إن صحابة أظلمهم وظلمة فسألوا : نحن بعد في الليل فما تفشعت عنهم حتى أصبحوا . وقال أبو عبيدة : معنى « قَاتَبُوهُمْ مُشِيرِينَ » ناحية المشرق . وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون « قَاتَبُوهُمْ مُشِيرِينَ » بالتشديد وألف الوصل ؛ أي نحو المشرق ؛ مأخوذ من قولهم : شرق وغرب إذا سار نحو المشرق والمغرب . ومعنى الكلام قدرنا أن يرثها بنو إسرائيل قاتع قوم فرعون بنى إسرائيل مشرقين فهلكوا ، وورث بنو إسرائيل بلادهم .

قوله تعالى : (فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ)^(١) أي تقابلا الجمعان بحيث يرى كل فريق صاحبه ، وهو تفاعل من الرؤية . (قَالَ أَهْتَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ) أي قرب منا العدو ولا طاقة لنا به . وقراءة الجماعة « لَمُدْرِكُونَ » بالتخفيف من أدرك . ومنه « حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ » . وقرأ عبيد بن عمير والأعرج والزهرى « لَمُدْرِكُونَ » بتشديد الدال من أدرك . قال القراء : حفر وأختصر بمعنى واحد ، وكذلك « لَمُدْرِكُونَ » و « لَمُدْرِكُونَ » بمعنى واحد . النعاس : وليس كذلك يقول النحويون الخدّاق ؛ إنما يقولون : مُدْرِكُونَ ملحقون ، ومُدْرِكُونَ مجتهد في لحاقهم ، كما يقال : كسبت بمعنى أصبت وظفرت ، واكتسبت بمعنى اجتهدت وطلبت وهذا معنى قول سيويه .

قوله تعالى : (قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ) لما لحق فرعون بجمعه جمّع موسى وقرب منهم ، ورأت بنو إسرائيل العدو القوي والبحر أمامهم ساءت ظنونهم ، وقالوا لموسى على جهة التوبيخ والجفاء : « إِنَّا لَمُدْرِكُونَ » فرد عليهم قولهم وذّرهم وعدّ الله سبحانه له بالهداية والظفر « كَلَّا » أي لم يدركوكم « إِنَّ مَعِيَ رَبِّي » أي بالنصر على العدو . « سَيَهْدِينِ » أي سيهديني على طريق النجاة ؛ فلما عظم البلاء على بنى إسرائيل ، وراوا من الجيوش ما لا طاقة لهم بها ، أمر الله تعالى موسى أن يضرب البحر بمصاه ؛ وذلك أنه

(١) كذا في نسخ الأصل . (٢) وكسر الراء - كما في البحر وروح المعاني والكشاف - على وزن . نعتل وهو لازم بمعنى القضاء والاضمحلال ، من أدرك الشيء إذا تابعه ففنى .

عز وجل أراد أن تكون الآية متصلة بموسى ومتعلقة بفعل يفعله ؛ وإلا فضرب العصا ليس بفارق للبحر ، ولا معين على ذلك بذاته إلا بما اقترن به من قدرة الله تعالى واختراعه .
وقد مضى في « البقرة »^(١) قصة هذا البحر . ولما اتفلق صار فيه اثنا عشر طريقا على عدد أسباط بني إسرائيل ، ووقف الماء بينها كالطود العظيم ؛ أى الجبل العظيم . والطود الجبل ؛ ومنه قول امرئ القيس :

فِينَا الْمَرْءُ فِي الْأَحْيَاءِ طَوْدٌ • رَمَاهُ النَّاسُ عَنْ كَثْبٍ فَلَا

وقال الأسود بن يَصْفَر :

حَلَّوْا بِأَنْقَسِرَةِ يَسِيلُ عَلَيْهِمْ • مَاءُ الْفُرَاتِ يَجِيءُ مِنْ أَطْوَادِ

جمع طود أى جبل . فصار لموسى وأصحابه طريقا في البحر يسا ؛ فلما خرج أصحاب موسى وتكامل آخر أصحاب فرعون على ما تقدم في « يونس » انصب عليهم وغرق فرعون ؛ فقال بعض أصحاب موسى : ما غرق فرعون ؛ فنبذ على ساحل البحر حتى نظروا إليه . وروى ابن القاسم عن مالك قال : خرج مع موسى عليه السلام رجلان من التجار إلى البحر فلما أتوا إليه قال له لم أسرك الله ؟ قال : أسرته أن أضرب البحر بعصا هذه فينشق ؛ فقال له : افعل ما أسرك الله فلن يخلقك ؛ ثم ألغيا أنفسهما في البحر تصديقا له ؛ لما زال كذلك البحر حتى دخل فرعون ومن معه ؛ ثم ارتد كما كان . وقد مضى هذا المعنى في سورة « البقرة » . قوله تعالى : (وَأَزَلَّنا تَمَّ الْأَنْهَارَينَ) أى قربناهم إلى البحر ؛ يعنى فرعون وقومه . قاله ابن عباس وغيره ؛ قال الشاعر :

وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى أَوْ لَيْلَةٍ سَلَقْتُ • فِيهَا النَّفْسُ إِلَى الْأَجَالِ تَزَلَّتْ

أبو عبيدة : « أَزَلَّنا » جمعا ومنه قيل ليلة المزدلفة ليلة جمع . وقرأ أبو عبد الله بن الحارث وأبى بن كعب وابن عباس « وَأَزَلَّنا » بالقياس على معنى أهلكتناهم ؛ من قوله : أزلفت الناقة وأزلفت الفرس فهى مُزَلِّقٌ إذا أزلفت ولدها . (وَأَجْبَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ • ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْأَنْهَارَينَ) يعنى فرعون وقومه . (وَإِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ) أى علامة على قدرة الله تعالى .
(١) راجع ١ ص ٣٨٩ وما بعدها طيبة آية أنزاله . (٢) راجع ٨ ص ٣٧٨ طيبة آية أنزاله .

(وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) لأنه لن يؤمن من قوم فرعون إلا مؤمن آل فرعون وآمه حزقل، وأبنته آسية امرأة فرعون، وصرير بنت ذا موسى العجوز التي دلت على قبر يوسف الصديق عليه السلام. وذلك أن موسى عليه السلام لما خرج بني إسرائيل من مصر أظلم عليهم القمر فقال لقومه: ما هذا؟ فقال لمساؤهم: إن يوسف عليه السلام لما حضره الموت أخذ علينا موثقا من الله ألا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا. قال موسى: فايكم بدرى قبره؟ قال: ما يعلمه إلا عجوز لبني إسرائيل؛ فأرسل إليها؛ فقال: دليني على قبر يوسف، قالت: لا والله لا أفعل حتى تعطيني حكي، قال: وما حكك؟ قالت: حكي أن أكون معك في الجنة؛ ففعل عليه، فقيل له: أعطها حكما؛ فدلتهم عليه، فاحفروه واستخرجوا عظامه، فلما أفلوها، فإذا الطريق مثل ضوء النهار. في رواية: فأوحى الله إليه أن أعطها ففعل، فأنت بهم إلى بحيرة، فقالت لهم: أنضبوا هذا الماء فأنضبوه واستخرجوا عظام يوسف عليه السلام؛ فقبلت لهم الطريق مثل ضوء النهار. وقد مضى في «يوسف»^(١). وروى أبو بردة عن أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل بأمر أبي فأكرمه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «حاجتكم» قال: ناقة أرسلها وأعزأ أحلبها؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فلم تجزيت أنت تكون مثل عجوز بني إسرائيل» فقال أصحابه: وما عجوز بني إسرائيل؟ فذكر لهم حال هذه العجوز التي اجتكت على موسى أن تكون معه في الجنة.

قوله تعالى: وَأَتَتْهُمُ نَبَأٌ إرْهِيمَ ﴿٦٦﴾ إِذْ قَالَ لِأَيَّتِهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَافِينَ ﴿٦٨﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٦٩﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٢﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَهُنَّ عَذُوبٌ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٤﴾

(١) راجع ج ٩ ص ٢٧ طبعه المدارانية.

قوله تعالى : (وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ) نبيه المشركين على فرط جهلهم إذ رغبوا عن اعتقاد إبراهيم ودينه وهو أبوه . والنبا الخبر؛ أى أقصص عليهم يا محمد خبره وحديثه وعيه على قومه ما يعبدون . وإنما قال ذلك ملزماً لهم الجملة . والجمهور من القراء على تخفيف الهزة الثانية وهو أحسن الوجوه ؛ لأنهم قد أجمعوا على تخفيف الثانية من كلمة واحدة نحو آدم . وإن شئت حَقَّقْتُمَا قُلْتُ : « نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ » . وإن شئت خَفَّفْتُمَا قُلْتُ : « نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ » . وإن شئت خَفَّفْتُ الْأَوَّلَى . وَتَمَّ وَجْهُ خَامِسٍ إِلَّا أَنَّهُ بَعِيدٌ فِي الْعَرَبِيَّةِ وَهُوَ أَنَّ يَدْخُمُ الْهَمْزَةُ فِي الْهَمْزَةِ كَمَا يُقَالُ رَأْسٌ لِلَّذِي يَبِيعُ الرُّمُوسَ . وَإِنَّمَا بَدَلْنَاكَ تَجْمَعُ بَيْنَ هُمَزَيْنِ كَانَتُمَا فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَحَسَّنَ فِي قَمَالٍ لِأَنَّهُ لَا يَأْتِي إِلَّا مَدْعُماً . (إِذْ قَالَ لِأَيُّدِهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ) أى أى شئ تعبدون (قَالُوا سُبُّدُ أَصْنَامًا) وكانت أصنامهم من ذهب وفضة ونحاس وحديد وخشب . (فَتَنَّا لَهُمَا مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) أى فَنَمَّيْهِمْ عَلَى عِبَادَتِهِ . وليس المراد وقتاً معيناً بل هو إخبار عما هم فيه . وقيل : كانوا يعبدونها بالثهار دون الليل ، وكانوا في الليل يعبدون الكواكب . فيقال : ظَلَّ يَفْعَلُ كَذَا إِذَا فَعَلَهُ نَهَارًا وَبَاتَ يَفْعَلُ كَذَا إِذَا فَعَلَهُ لَيْلًا . (قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ) قال الأعفُس : فيه حذف ؛ والمعنى : هل يسمعون منكم ؟ أو هل يسمعون دعاءكم ؛ قال الشاعر :

الضَّائِدُ الْخَيْسَلِيُّ مَكُوبًا دَوَّارَهَا • قَدْ أَحْكَمْتَ حِكَايَةَ الْقِدِّ وَالْأَبْقَا

قال : وَالْأَبْقَى الْكَلْبَانِ لَخَفْظٍ . وَالْمَعْنَى ؛ وَأَحْكَمْتَ حِكَايَةَ الْأَبْقَى . وَفِي الصَّحَاحِ : وَالْأَبْقَى بِالْتَّحْرِيكِ الْقِنْبُ . وَرَوَى عَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُ قَرَأَ « هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ » بِضَمِّ الْيَاءِ ؛ أَيْ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ أَصْوَاتَهُمْ (إِذْ تَدْعُوهُمْ . أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّوهُمْ) أى هل تنفعكم هذه الأصنام وترزقكم ، أو تملك لكم خيراً أو ضرراً إن عصيتم ؟ ! وهذا استفهام لتقرير الجملة ؛ فإذا لم ينفعوكم ولم يضرروا فما معنى عبادتكم لها . (قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) فترعوا إلى التقليد

(١) هُوَ زَيْدُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ . وَالْبَيْتُ مِنْ قَصِيدَةٍ يَمْلَحُ بِهَا هَرَمُ بْنُ سَنَادٍ . وَاحْكَمْتَ : جَعَلْتَ لَهَا حِكَايَةً مِنَ الْقَدِّ وَالْحِكَايَاتِ جَمْعُ حِكْمَةٍ وَهِيَ مَا تَكُونُ عَلَى أَنْفِ الْهَابَةِ . وَدَوَّارَهَا : مُؤَنَّرٌ حَوَافِرُهَا . وَمَكُوبٌ : أَيْ أُمَامَتِ الْجَارَةِ دَوَّارَهَا وَأَدْنَاهَا .

من غير حجة ولا دليل . وقد مضى القول فيه . (قَالَ) إبراهيم (أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ) من هذه الأصنام (أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ) الأولون (فَأَنْتُمْ مَدَّوْلِي) واحد يؤدى عن جماعة، وكذلك يقال للراة هى مدوّاة وعدّاة الله ؛ حكاهما القراء . قال على بن سليمان : من قال مدوّاة الله وأثبت الماء قال هى بمعنى معادية، ومن قال مدوّاة لثوث والجمع جعله بمعنى النسب . ووصف الجهاد بالمدّاة بمعنى أنهم مدّوّلون إن عيبتهم يوم القيامة ؛ كما قال : « كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا » . وقال القراء : هو من المقلوب ؛ مجازة : فإنى مدوّلم لأن من ماديتة عاداك . ثم قال : (إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ) قال الكلبي : أى لا من عبد رب العالمين ؛ إلا ما بد رب العالمين ؛ تخفف المضاف . قال أبو إسحق الزجاج : قال النحويون هو استثناء ليس من الأول ؛ وأجاز أبو إسحق أن يكون من الأول على أنهم كانوا يعبدون الله عز وجل ويعبدون معه الأصنام، فأعلمهم أنه تجرأ مما يعبدون إلا الله . وتأوله القراء على الأصنام وحدها والمعنى عنده : فإنهم لو عبدتهم مدّوّلون يوم القيامة ؛ على ما ذكرناه . وقال الجرجاني : تقديره : أفرايتم ما كنتم تعبدون أتم وأباؤكم الأقدمون إلا رب العالمين فإنهم مدّوّلون . وإلا بمعنى دون وسوى ؛ كقوله : « لَا يَدْعُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى » أى دون الموتة الأولى .

قوله تعالى : الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ) أى يرشدنى الى الدين . (وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ) أى يرزقنى . ودخول « هو » تنبيه على أن غيره لا يطعم ولا يسقى ؛ كما تقول : زيد هو الذى فعل كذا ؛ أى لم يفعله غيره . (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) قال : « مرضت » رعاية للأدب وإلا فالمرض والشفاء من الله عز وجل جميعا . ونظيره قول

فَقِي مُوسَى : « وَمَا أَنَسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ » . (وَالَّذِي يُبَيِّنُ لَكُمْ يُحْيِي) يريد البعث وكانوا ينسبون الموت إلى الأسباب ؛ فبين أن الله هو الذي يميت ويحيي . وكله بغير ياء : « يهدين » « يشفين » لأن الحذف في رموس الآي حسن لتتفق كلها . وقرأ ابن أبي إسحق على جلالتة ومحلّه من العربية هذه كلها بالياء ؛ لأن الياء آسم وإنما دخلت اللنون لعلّه . فإن قيل : فهذه صفة لجميع الخلق فكيف جعلها إبراهيم دليلا على هدايته ولم يهتد بها غيره ؟ قيل : إنما ذكرها احتجاجا على وجوب الطاعة ؛ لأن من أنعم وجب أن يطاع ولا يصحى ليتهم غيره من الطاعة ما قد التزمها ؛ وهذا إلزام صحيح .

قلت : وتجوّز بعض أهل الإشارات في غوامض المعاني فعدل عن ظاهر ما ذكرناه إلى ما تدفعه بدائه العقول من أنه ليس المراد من إبراهيم . فقال : « وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي » أي يطعمني لذة الإيمان ويسقين حلاوة القبول . ولم في قوله : « وَإِذَا مَرَضْتُ هُوَ يَشْفِينِي » وجهان : أحدهما — إذا مرضت بخالفته شفاني برحمته . الثاني — إذا مرضت بمقاساة الخلق ، شفاني بمشاهدة الحق . وقال جعفر بن محمد الصادق : إذا مرضت بالذنوب شفاني بالثوبة . وتأولوا قوله : « وَالَّذِي يُبَيِّنُ لَكُمْ يُحْيِي » على ثلاثة أوجه : فالذي يبيّن بالمعاصي يحيني بالطاعات ، الثاني : يبيّن بالخوف يحيني بالرجاء . الثالث : يبيّن بالطعم ويحيني بالقناعة . وقول رابع : يبيّن بالعدل ويحيني بالفضل . وقول خامس : يبيّن بالفراق ويحيني بالتلاق . وقول سادس : يبيّن بالجهل ويحيني بالعقل ؛ إلى غير ذلك مما ليس بشئ منه مراد من الآية ؛ فإن هذه التأويلات الغامضة ، والأمور الباطنة ، إنما تكون لمن حلق وعصر الحق ، وأما من كان في عمى عن الحق ولا يعرف الحق فكيف ترمز له الأمور الباطنة ، وتترك الأمور الظاهرة ؟ هذا محال . والله أعلم .

قوله تعالى : (وَالَّذِي أَطْعَمَ أَنْ يَتَغَرَّلِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ) « أَطْعَمَ » أي أرجو . وقيل : هو بمعنى اليقين في حقه ، وبمعنى الرجاء في حق المؤمنين سواء . وقرأ الحسن وابن أبي إسحق « خَطَايَايَ » وقال : ليست خطيئة واحدة ، قال النحاس : خطيئة بمعنى

خطايا معروف في كلام العرب ، وقد أجمعوا على التوحيد في قوله عز وجل « قَاتِلُوا
يَذَنِبُهُمْ » ومعناه بذنوبهم . وكذا « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » معناه الصلوات ، وكذا « خَطِيئَتِي »
إن كانت خطايا . والله أعلم . قال مجاهد : يعني بخطيئته قوله : « بَلْ قَعَلَهُ كِبْرَهُمْ هَذَا »
وقوله : « إِنِّي سَقِيمٌ » وقوله : إن سارة أخته . زاد الحسن وقوله للكوكب : « هَذَا رَأْيِي »
وقد مضى بيان هذا مستوفى . وقال الزجاج : الأنبياء بشر فيجوز أن تقع منهم الخطيئة ؛
نعم لا تجوز عليهم الكبر لأنهم معصومون عنها . (يَوْمَ الدِّينِ) يوم الجزاء حيث يجازى العباد
بأعمالهم . وهذا من إبراهيم إظهار للمبودية وإن كان يعلم أنه مغفور له . وفي صحيح مسلم
عن عائشة ؛ قلت يا رسول الله : ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ، ويطمع المسكين ،
فهل ذلك نافعه ؟ قال : « لا ينفعه إنه لم يقل يوما « رب أعفِر لي خطيئتي يوم الدين » » .

قوله تعالى : رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْخِفْني بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَجْعَلْ لِي
لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَأَجْعَلْني مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٨﴾
وَأَغْفِرْ لَأَيِّئَةٍ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٩٠﴾
يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٩١﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٩٢﴾
قوله تعالى : (رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْخِفْني بِالصَّالِحِينَ) « حُكْمًا » معرفة بك وبمحدودك
وأحكامك ؛ قاله ابن عباس . وقال مقاتل : فهما وعلمها ؛ وهو راجع إلى الأول . وقال
الكلبي : نبوة ورسالة إلى الخلق . « وَأَلْخِفْني بِالصَّالِحِينَ » أي بالنبيين من قبل في الدرجة .
وقال ابن عباس : بأهل الجنة ؛ وهو تأكيد قوله : « هَبْ لِي حُكْمًا » .

قوله تعالى : (وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ) قال ابن عباس : هو اجتماع
الأمم عليه . وقال مجاهد : هو الثناء الحسن . قال ابن عطية : هو الثناء وخلد المكانة بإجماع
المفسرين ؛ وكذلك أجاب الله دعوته ، وكل أمة تتسك به وتعظمه ، وهو على الحنفية التي جاء
بها محمد صلى الله عليه وسلم . وقال مكي : وقبل مغناه سؤاله أن يكون من ذريته في آخر الزمان

من يقوم بالحق ؛ فأجبت الدعوة في عهد صلى الله عليه وسلم . قال ابن عطية : وهذا معنى حسن إلا أن لفظ الآية لا يعطيه إلا يتحكم على اللفظ . وقال القشيري : أراد الدعاء الحسن إلى قيام الساعة ؛ فإن زيادة الثواب مطلوبة في حق كل أحد .

قلت : وقد فعل الله ذلك إذ ليس أحد يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم إلا وهو يصلي على إبراهيم وخاصة في الصلوات ، وعلى المنابر التي هي أفضل الحالات وأفضل الدرجات . والصلوة دعاء بالرحمة . والمراد باللسان القول ، وأصله جارية الكلام . قال القتيبي : وموضع اللسان موضع القول على الاستمارة ، وقد تكنى العرب بها عن الكلمة . قال الأعشى :

إِنِّي أَتَيْتُ لَسَانًا لَا أُسْرُهَا * مِنْ عَلُوٍّ لَا عَجَبٌ مِنْهَا وَلَا يَخْفَرُ

قال الجوهري : يروى مِنْ عَلُوٍّ بضم الواو وفتحها وكسر ها . أى أتاني خبر من أعلى ، والثانيث للكلمة . وكان قد أتاه خبر مقتل أخيه المنتشر . روى أشهب عن مالك قال ، قال الله عز وجل : « وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدِّيقٍ فِي الْآخِرِينَ » لا بأس أن يحب الرجل أن يشئ عليه صالحا ويرى في عمل الصالحين ، إذا قصد به وجه الله تعالى ؛ وقد قال الله تعالى : « وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ حُبَّةٌ مِّنِّي » وقال : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا » أى حبا في قلوب عباده وثناء حسنا ، فبه تعالى بقوله : « وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدِّيقٍ فِي الْآخِرِينَ » على استحباب اكتساب ما يورث الذكر الجميل . الليث بن صليان : إذ هي الحياة الثانية . قيل :

« قد مات قوم وهم في الناس أحياء »

قال ابن العربي : قال المحققون من شيوخ الزهد في هذا دليل على الترغيب في العمل الصالح الذي يكسب الثناء الحسن ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا مات ابن آدم أقطع عمله إلا من ثلاث » [الحديث] وفي رواية إنه كذلك في النور والزرع وكذلك فيمن مات مرابطا يكتب له عمله إلى يوم القيامة . وقد بناه في آخر « آل عمران » والحمد لله .

قوله تعالى : (وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ) دعاء بالجنة وبمن يرثها ، وهو يرد قول بعضهم : لا آمال الجنة ولا نارها .

قوله تعالى : (وَأَغْفِرْ لِي إِيَّاهُ كَأَن كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ) كان أبوه وعده في الظاهر أن يؤمن به فاستغفر له لهذا ، فلما بان أنه لا يؤمن بما قال تبرأ منه . وقد تقدم هذا المعنى . « إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ » أى المشركين . « وَكَانَ » زائدة . (وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ) أى لا تنفضحنى على رموس الأشهداء ، أو لا تعذبني يوم القيامة . وفى البخارى عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن إبراهيم يرى أباه يوم القيامة عليه النبرة والفترة " والنبرة هى الفترة . وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يلقى إبراهيم أباه فيقول يارب إنك وعدتني ألا تخزون يوم يبعثون فيقول الله تعالى إني حرمت الجنة على الكافرين " أنفرد بهما البخارى رحمه الله .

قوله تعالى : (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ) « يوم » بدل من « يوم » الأول . أى يوم لا ينفع مال ولا بنون أحدا . والمراد بقوله : « ولا بنون » الأخوان ؛ لأن الأب إذا لم ينفع فغيره متى ينفع ؟ وقيل : ذكر البنين لأنه جرى ذكر والد إبراهيم ، أى لم ينفعه إبراهيم . « إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ وَقَلْبٌ سَلِيمٌ » هو استثناء من الكافرين ؛ أى لا ينفعه ماله ولا بنوه . وقيل : هو استثناء من غير الجنس ، أى لكن « من آتى الله قلب سليم » ينفعه لسلامة قلبه . وخص القلب بالذكر ؛ لأنه الذى إذا سلم سلمت الجوارح ، وإذا فسد فسدت سائر الجوارح . وقد تقدم فى أول « البقرة » . وأختلف فى القلب السليم فقيل : من الشك والشرك ، فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد ؛ قاله قتادة وأبن زيد وأكثر المفسرين . وقال سعيد بن المسيب : القلب السليم الصحيح هو قلب المؤمن ؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض ؛ قال الله تعالى : « فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » وقال أبو عثمان السيارى : هو القلب الخالى عن البدعة المظلمة إلى السنة . وقال الحسن : سليم من آفة المسال والبنين . وقال الجنييد : السليم فى اللغة اللين ؛ فعناه أنه قلب كاللدين من خوف الله . وقال الضحاك : السليم الخالص .

قلت : وهذا القول يجمع شتات الأقوال بعمومه وهو حسن ، أى الخالص من الأوصاف
الذميمة ، والمنصف بالأوصاف الجيدة ، والله أعلم . وقد روى عن عروة أنه قال : يا بنى
لا تكونوا لعائين فإن إبراهيم لم يكن شيئاً قط ، قال الله تعالى : « إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » .
وقال محمد بن سيرين : القلب السليم أن يعلم أن الله حق ، وأن الساعة قائمة ، وأن الله يبعث
من فى القبور . وفى صحيح مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
” يدخل الجنة أقوامٌ أفئدتهم مثل أفئدة الطير “ يريد — والله أعلم — أنها مثلها فى أنها
خالية من كل ذنب ، سليمة من كل عيب ، لا خيرة لهم بأموال الدنيا ، كما روى أنس بن مالك
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” أكثر أهل الجنة البهائم “ وهو حديث صحيح .
أى البهائم من معاصي الله . قال الأزهري : الأبله هنا هو الذى طبع على الخير وهو غافل عن
الشئ لا يعرفه . وقال الفتي : البهائم الذين غلبت عليهم سلامة الصدور وحسن الظن بالناس .

قوله تعالى : وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٠٠﴾ وَبَرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿١٠١﴾
وَقِيلَ لَهُمْ إِنْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿١٠٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ
أَوْ يَنْصُرُونَ ﴿١٠٣﴾ فَكُذِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿١٠٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ
أُجْمَعُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿١٠٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَنَافِلُ
مُبِينٍ ﴿١٠٧﴾ إِذْ تُسَوِّىكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿١٠٩﴾
فَبَلَّغْنَا مِنْ شَفِيعِينَ ﴿١١٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١١١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً
فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْ أَعِزُّهُ الرَّحِيمُ ﴿١١٤﴾

قوله تعالى : (وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ) أى قربت وأدنت ليدخلوها . وقال الزجاج :
نرب دخولهم إليها . (وَبَرَزَتِ) أى أظهرت (الْجَحِيمُ) أى جهنم . (لِلْغَاوِينَ)

أى الكافرين الذين ضلوا عن الهدى. أى تظهر جهنم لأهلها قبل أن يدخلوها حتى يستشعروا الروح والحزن، كما يستشعر أهل الجنة الفرح لهمهم أنهم يدخلون الجنة. (وَقِيلَ لَهُمْ أَيُّكُمْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) من الأصنام والأنداد (هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ) من عذاب الله (أَوْ يَتَّبِعُونَ) لأنفسهم. وهذا كله توبيخ. (فَكُبِّكُوا فِيهَا) أى قلبوا على رؤوسهم. وقيل: دهوروا وإلى بعضهم على بعض. وقيل: جمعوا. وأخذ من الكِبْكِبَةِ وهى الجاعة؛ قاله الهروي. وقال الثعالب: هو مشتق من كَوَّكَبِ الشئ أى مقلعه، والجاعة من الخليل كَوَّكَبَ وَكَبْكَبَةَ. وقال ابن عباس: جمعوا فطرحوا في النار. وقال مجاهد: دهوروا. وقال مقاتل: قذفوا. والمعنى واحد. تقول: دهورت الشئ إذا جمعته ثم قذفته في مهواة. يقال: هو يدهور اللحم إذا كبرها. ويقال: في الدعاء كب الله عدو المسلمين ولا يقال أكبه. وكبكبه، أى كبه وقلبه. ومنه قوله تعالى: «فَكُبِّكُوا فِيهَا» والأصل كُبِّبُوا فأبدل من الباء الوسطى كاف استغفالا لاجتماع الباءات. قال السدي: الضمير في «كُبِّكُوا» لمشركي العرب (زُ وَالْقَاوُونَ) الآلهة. (وَجُنُودُ إِبْلِيسَ) من كان من ذريته. وقيل: كل من دعاه إلى عبادة الأصنام فأتبعه. وقال قتادة والكلبي ومقاتل: «الْقَاوُونَ» هم الشياطين. وقيل: إنما تلقى الأصنام في النار وهى حديد ونحاس ليعذب بها غيرهم. (قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ) يسعى الأنس والشياطين والناس والمعبودين اختصموا حينئذ. (تَاللَّهِ) حلفوا بالله (إِنْ كُنَّا لَنَرَى ضَلَالِ مُيُنَ) أى في خسار وتبار وحيرة عن الحق بينة إذا اتخذنا مع الله آلهة فعبدناها كما يعبد؛ وهذا معنى قوله: (إِذْ سَوَّيْكُمْ رَبِّ السَّالِّينَ) أى في العبادة وأتم لا تستطيعون الآن نصرنا ولا نصر أنفسكم. (وَمَا أَضَلُّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ) بنى الشياطين الذين زينوا لنا عبادة الأصنام. وقيل: أسلافنا الذين قلبناهم. قال أبو العالية وعكرمة: «المجرمون» إبليس وأبن آدم القاتل هما أول من سنَّ الكفر والقتل وأنواع المعاصي. (قَالَا نَا مِنْ شَافِعِينَ) أى شفعا يشفعون لنا من الملائكة والنبين والمؤمنين. (وَلَا صَدِيقَ حَمِيمٍ) أى صديق مشفق؛ وكان على رضى الله عنه يقول: عليكم بالإخوان فإنهم عدة الدنيا وعدة الآخرة؛

ألا تسمع إلى قول أهل النار « قَدْ لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صِدِّيقٍ حَمِيمٍ » . الزمخشري : وجمع الشافع لكثرة الشافعين ووحيد الصديق لقلته ؛ ألا ترى أن الرجل إذا امتحن بإرهاق ظالم مضت جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته ؛ رحمة له وحسبة وإن لم تسبق له بأكثرهم معرفة ؛ وأما الصديق فهو الصادق في وداك الذي يهيمه ما يهلك فأعز من يبيض الأنوق ؛ وعن بعض الحكماء أنه سئل عن الصديق فقال : أسم لا معنى له . ويجوز أن يريد بالصديق الجمع . والحميم القريب والخاص ؛ ومنه حافة الرجل أى أقرباؤه . وأصل هذا من الحميم وهو الماء الحار ؛ ومنه الحمام والحُمَّى ؛ خاتمة الرجل الذين يحرقهم ما أحرقه ؛ يقال : هم حُرَّتته أى يحزنهم ما يحزنه . ويقال : حَمَّ الشيء وأَحْمَّ إذا قرب ، ومنه الحمَّى ؛ لأنها تقرب من الأجل . وقال علي بن عيسى : إنما سمي القريب حمياً ؛ لأنه يَحْمَى لنفسي صاحبه ، بخلاف ما أخذوا من الحمية . وقال قتادة : يذهب الله عن رجل يوم القيامة مودة الصديق ورقة الحميم . ويجوز « وَلَا صِدِّيقٌ حَمِيمٌ » بالرفع على موضع « مِنْ شَافِعِينَ » ؛ لأن « مِنْ شَافِعِينَ » في موضع رفع . وجمع صديق أصدقاء وأصدفاء وصداق . ولا يقال صَدُق للفرق بين التمت وفيه . وحكى الكوفيون : أنه يقال في جمعه صَدَقَان . النحاس : وهذا بعيد ؛ لأن هذا جمع ما ليس بنعت نحو رفيف ورُغفان . وحكى أيضاً صديق وأصديق . وأفاعل أعما هو جمع أفعل إذا لم يكن فاعلاً نحو أشجع وأشاجع . ويقال : صديق للواحد والجماعة وللراة ؛ قال الشاعر ^(١) :

نَصَبْتِ الْمَسْوِيَّ ثُمَّ أَرْتَمِينَ قُلُوبَنَا • بَاعِينَ أَعْدَائِهِ وَهُنَّ صَدِيقُ

ويقال : فلان صَدِّيقُ أى أخص أصدقاؤى ، وإنما يصغر على جهة المدح ؛ كقول حُبَابِ بْنِ الْمُنْذَرِ : (أَنَا جَدِّيْلُهُا^(٢) الْحَكَّكُ ، وَصَدِّيقُهَا الْمَرْجَبُ) ذكره الجوهري . النحاس : وجمع حميم أحماء وأحمة وكروما أفعلاء للتضعيف . (قُلُوبُنَا لَكَ كَرَّةٌ) « أَت » في موضع رفع ، المعنى ولو وقع لنا رجوع إلى الدنيا لآمنا حتى يكون لنا شفعاء . تمنوا حين لا ينفعهم التمنى .

(١) هو جرير . (٢) عني بجديلا الحكك الأصل من الشجرة — أو عود ينصب — تحك به الإبل فتشقى به ؛ أى قد جربنى الأمور ولم ورأى يشقى بها كما تشقى هذه الإبل الجربى بهذا الجدليل . والترجيب هنا إرتاد النحلة من جانب لينها من القوط ؛ أى إن لم تشتره تصدق وتعتنى . والصديق تصغير مدق (بالفتح) وهو النحلة يجملها .

إنما قالوا ذلك حين شفع الملائكة والمؤمنون . قال جابر بن عبد الله قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الرجل ليقول في الجنة ما فعل فلان وصديقه في الجحيم فلا يزال يشفع له حتى يُشفعه الله فيه فإذا نجا قال المشركون « مَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صِدِّيقٍ حَمِيمٍ » . وقال الحسن : ما أجمع ملاءم ذكر الله ، فيهم عبدٌ من أهل الجنة إلا شفعه الله فيهم ، وإن أهل الإيمان ليسفَع بعضهم في بعض وهم عند الله شافعون مشفعون . وقال كعب : إن الرجلين كانا صديقين في الدنيا ، فيمر أحدهما بصاحبه وهو يمر إلى النار ، فيقول له أخوه : والله ما بيني إلا حسنة واحدة أنجوها ، خذها أنت يا ابن فتنتجوها مما أرى ، وأبقى أنا وإياك من أصحاب الأعراف . قال : فيأمر الله بهما جميعاً فيدخلان الجنة . (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) تقدم والحمد لله .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٠٩﴾ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١٠﴾ قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١١﴾ إِنْ حَسِبْتُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَو تَشْعُرُونَ ﴿١١٢﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٤﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوِيٌّ كَذَّبُونِ ﴿١١٦﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٧﴾ فَانجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١١٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢١﴾

قوله تعالى : (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ) قال « كَذَّبَتْ » والقوم مذكرة ؛ لأن المعنى كذبت جماعة قوم نوح ، وقال « الْمُرْسَلِينَ » لأن من كذب رسولا فقد كذب الرسل ؛ لأن كل رسول يأمر بتصديق جميع الرسل . وقيل : كذبوا نوحا في النبوة وفيما أخبرهم به من مجيء المرسلين بعده . وقيل : ذكر المجلس والمراد نوح عليه السلام . وقد مضى هذا في « الفرقان » . (إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ) أى ابن أبيهم وهى أخوة نسب لا أخوة دين . وقيل : هى أخوة الجبانة . قال الله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُلٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوِيمٍ » وقد مضى هذا في « الأعراف » . وقيل : هو من قول العرب يا أخا بنى تميم . يريدون يا واحدا منهم . الزمخشري : ومث بيت الجبانة :

لَا يَبَالُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْتَبِهِمْ • في التائبات على ما قال برهاناً

(أَلَا تَتَّقُونَ) أى ألا تتقون الله في عبادة الأصنام . (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ) أى صادق فيما أبلغكم من الله تعالى . وقيل : « أمين » فيما بينكم ؛ فلنهم كانوا عرفوا أمانته وصدقه من قبل ، كمحمد صل الله عليه وسلم في قريش . (فَاتَّقُوا اللَّهَ) أى فاستتروا بطاعة الله تعالى من عفايه . (وَأَطِيعُوا) فيما أمركم به من الإيمان . (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ) أى لا طمع لى فى مالكم . (إِنْ أَجْرِيَ) أى ما جزائى (إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) . (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا) ككرر تأكيداً .

قوله تعالى : (قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدُكُونَ) فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : « قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ » أى تصدق قولك . « وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدُكُونَ » الرواد لخال وفيه إضمار قد ، أى وقد أتبعك . « الْأَرْدُكُونَ » جمع الأرذل ، المكسر الأراذل والألغى الرذل والجمع الرذّل . قال النحاس : ولا يجوز حذف الألف واللام فى شيء من هذا عند أحد من النحويين صلناه . وقرأ ابن مسعود والضحاك ويعقوب الحضرى وغيرهم ،

(١) راجع ص ٣١ من هذا الجزء .

(٢) راجع ص ٧ ص ٢٣٥ طبة أول أو ثانية .

« وَأَتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ » . النحاس : وهي قراءة حسنة ؛ وهذه الواو أكثرها تتبعها الأسماء والأفعال بقـ . وأتباع جمع تبع وتبع يكون للواحد والجمع . قال الشاعر :

لـه تَبِعٌ قَدْ بَعْلُمُ النَّاسُ أَنَّهُ • عَلَى مَنْ يَدَّيْ صَيْفٍ وَرَبِيعُ

أرْتَفَاعِ « أَتَّبَعَكَ » يجوز أن يكون بالابتداء و « الْأَرْدَلُونَ » الخبر ؛ التقدير أنؤمن لك وإنما أتباعك الأردلون . ويجوز أن يكون معطوفا على الضمير في قوله : « أَنْؤْمِنُ لَكَ » والتقدير : أنؤمن لك نحن وأتباعك الأردلون فنعبد منهم ؛ وحسن ذلك الفصل بقوله : « لك » وقد مضى القول في الأردال في سورة « هود » ^(١) مستوفى . وتزيده هنا بيانا وهي المسئلة :

الثانية — فقيل : إن الذين آمنوا به بنوه ونسأوه ونكَّاهه وبنو بنه . وأختلف هل كان معهم غيرهم أم لا . وعلى أى الوجهين كان فالكل صالحون ؛ وقد قال نوح : « وَنَجَّيْ وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » والذين معه هم الذين آمنوه ، ولا يلحقهم من قول الكفرة شين ولا ذم ، بل الأردلون هم المكذبون لهم . قال السبيل : وقد أغرى كثير من العوام بمقالة رويت في تفسير هذه الآية : هم الحاككة والمجَّامون . ولو كانوا حاككة كما زعموا لمكان إيمانهم بنبي الله وأتباعهم له مشرفا كما تشرف بلال وسلمان بسبقهما للإسلام ؛ فهما من وجوه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن أكابرهم ، فلا ذرية نوح كانوا حاككة ولا مجَّامين ، ولا قول الكفرة في الحاككة والمجَّامين إن كانوا آمنوا بهم أزدلون ما يلحق اليوم بما كنا ذفا ولا نقصا ؛ لأن هذه حكاية عن قول الكفرة إلا أن يجعل الكفرة حجة ومقالتهم أصلا ؛ وهذا جهل عظيم وقد أعلم الله تعالى أن الصناعات ليست بضائرة في الدين .

قوله تعالى : (قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) « كان » زائدة ؛ والمعنى : وما على بما يعملون ؛ أى لم أكلف العلم بأعمالهم إنما كلفت أن أدعوهم إلى الإيمان ، والاعتبار بالإيمان لا بالحرف والصنائع ؛ وكانهم قالوا : إنما أتبعك هؤلاء الضعفاء طمعا في العزة والمال . فقال : إنى لم أقف على باطن أمرهم وإنما على ظاهرهم . وقيل : المعنى إنى

لم أعلم أن الله يهديم ويضلكم ويرشدكم ويوفقهم ويضلكم . (إِنْ حِسَابُهُمْ)
 أى فى أعمالهم وإيمانهم (إِنْ عَلَى رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ) وجواب « لو » غنوف ، أى لو شعرتم
 أن حسابهم على ربهم لما عبتهم بصالحهم . وقراءة الباقية « تَشْعُرُونَ » بالهاء على المخاطبة
 للكفار وهو الظاهر . وقرا ابن أبى عبلة ومحمد بن السميع « لَوْ يَشْعُرُونَ » بالياء كأنه خبر
 عن الكفار وترك الخطاب لهم ، نحو قوله : « حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَبَجَرْتُمْ بِهِمْ » . وروى
 أن رجلا سأل سفيان عن امرأة زنت وقتلت ولدها وهى مسلمة هل يقطع لها بالنار ؟ فقال :
 « إِنْ حِسَابُهُمْ إِنْ عَلَى رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ » . (وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ) أى ناسية أحوالهم
 واشغالهم . وكأنهم طلبوا منه طرد الضمفاء كما طلبته قريش . (إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ)
 يعنى : إن الله ما أرسلنى أخص ذوى الننى دون الفقراء ، إنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به ،
 فن أطلعنى فذلك السعيد عند الله وإن كان فقيرا .

قوله تعالى : (قَالُوا لَنْ نَمُوتَ بِأَنُوحَ) أى عن سب آلهتنا وعيب ديننا (لَنَكُونَنَّ
 مِنَ الْمَرْجُومِينَ) أى بالهجرة ؛ قاله قتادة . وقال ابن عباس ومقاتل : من المقتولين . قال
 الثعالبي : كل مرجومين فى القصران فهو القتل إلا فى مريم : « لَنْ نَمُوتَ بِأَنُوحَ لَأَرْجَمَنَّكَ »
 أى لأسبكن . وقيل « مِنَ الْمَرْجُومِينَ » من المشتومين ؛ قاله السدى . ومنه قول أبى ذؤاد .
 (قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ فَاتَّقِ بَنِيَّ وَيَنْتَهُمْ فَتُحَا وَتَجْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) قال ذلك
 لما يش من إيمانهم ، والفتح الحكم وقد تقدم . (فَاتَّخِذْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ)
 يريد السفينة وقد مضى ذكرها . والمشحون المملوء ، والشحن ملء السفينة بالناس والدواب
 وغيرهم . ولم يؤت الفلك هاهنا ؛ لأن الفلك هاهنا واحد لا جمع . (ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ)
 أى بعد إيماننا نوحا ومن آمن . (إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ) . (وَإِنْ رَبُّكَ
 لَظُهُورُ الْعَرْشِ الرَّحِيمِ) .

(١) كذا فى جميع نسخ الأصل ، وهنا سقط له بيت من الشعر أورد المؤلف شاهدا على أن الهم معاء الشعر ؛

كما أورد بيت الجهدى شاهدا على ذلك عند تفسير قوله تعالى : « وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمَنَّكَ » . راجع ج ٩ ص ٩١

قوله تعالى : كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ
 أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
 وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾
 أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٦٥﴾ وَتَخْدُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ﴿١٦٦﴾
 وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٦٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٦٨﴾ وَاتَّقُوا
 الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَبُونَ ﴿١٦٩﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٧٠﴾ وَجَنَّاتٍ
 وَعُيُونٍ ﴿١٧١﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٢﴾ قَالُوا سَوَاءٌ
 عَلَيْنَا أَوْعَدْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ
 الْأَوَّلِينَ ﴿١٧٤﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٧٥﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٦﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ
 الرَّحِيمُ ﴿١٧٧﴾

قوله تعالى : (كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ) النابيث بمعنى القبيلة والجماعة . وتكذيبهم المرسلين
 كما تقدم . (إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا .
 وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) بين المعنى وقد تقدم .

قوله تعالى : (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ) الزرع ما أرتفع من الأرض في قول ابن
 عباس وغيره ، جمع ربيعة . وكل ريع أرضك أى كم أرتفاعها . وقال قتادة : الزرع الطريق .
 وهو قول الضحاك والكلبي ومقاتل والسدى . وقاله ابن عباس أيضا . ومنه قول المسيب
 ابن علس :

فِي الْآلِ يَخْفِضُهَا وَيَرْفَعُهَا * رِيعٌ يَلُوحُ كَأَنَّهُ يَتَحَلَّلُ

شبه الطريق بشوب أبيض . النحاس : ومعروف في اللغة أن يقال لما أرتفع من الأرض ريع وللطريق ريع . قال الشاعر :

طَرِيقُ الْخَوَافِ مَشْرِقٌ فَوْقَ رِيْعَةٍ * نَدَى لَيْلِيهِ فِي رِيْشِهِ يَتَرَقُّ

وقال عماره : الريع الجبل الواحد ريمة والجمع رِباع . وقال مجاهد : هو الفج بين الجبلين . وعنه : الثنية الصغيرة . وعنه : المنظرة . وقال عكرمة وقاتل : كانوا يهتدون بالنجوم إذا سافروا ، فنوا على الطريق أمثالا طولالا ليهتدوا بها ؛ يدل عليه قوله « آيَةٌ » أى علامة . وعن مجاهد : الريع بزيان الحام دليله « تَعْبُوثٌ » أى تلمبون ؛ أى تبثون بكل مكان مرافع آية علما تلمبون بها على معنى أبينة الحمام وبروجها . وقيل : تعبثون بمن يمر في الطريق . أى تبثون بكل موضع مرافع لتسرفوا على السابلة فتسخرها منهم . وقال الكلبي : إنه عيث المشارين بأمرال من يرهم ؛ ذكره المسوردي . وقال ابن الأعرابي : الريع الصومعة ، والزريع البرج من الحمام يكون في الصحراء . والزريع التل العالي . وفي الزريع لغتان : كسر الزاء وفتحها وجمعها أرباع ؛ ذكره الثعلبي .

قوله تعالى : (وَتَحْدِثُونَ مَصَانِعَ) أى منازل ؛ قاله الكلبي . وقيل : حصونا مشيدة ؛ قاله ابن عباس ومجاهد . ومنه قول الشاعر :

تَرَكَّا دِبَارَهُمْ مِنْهُمْ قَفَارًا * وَهَدَمْنَا الْمَصَانِعَ وَالْبُرُوجَا

وقيل : قصورا مشيدة ؛ وقاله مجاهد أيضا . وعنه : بروج الحمام ؛ وقاله السدي . قلت : وفيه بعد عن مجاهد ؛ لأنه تقدم عنه في الريع أنه بزيان الحمام فيكون تكرارا في الكلام . وقال قتادة : ما جل للاء تحت الأرض . وكذا قال الزجاج : إنها مصانع المساء واحدها مَصْنَعَةٌ ومَصْنَعٌ . ومنه قول لبيد :

بَلَيْنَا وَمَا تَبَلَّى النُّجُومُ الطَّوَالُحُ * وَتَبَى الْجِبَالُ بَعْدَنَا وَالْمَصَانِعُ

(١) هرذالمة يصف بازيا . وق ديوانه — طبع أردبا — « رافع » بدل « مشرق » .

الجوهري : المصنعة كالخوض يجمع فيها ماء المطر ، وكذلك المصنعة بضم النون . والمصانع الحصون . وقال أبو عبيدة : يقال لكل بناء مصنعة . حكاه المهدوي . وقال عبد الرزاق : المصانع عندنا بلغة اليمن القصور العادية . (لعلكم تَحْلُدُونَ) أى كن تَحْلُدُوا . وقيل : لعل أستفهم بمعنى التوبيخ أى فهل « تَحْلُدُونَ » كقولك : لعلك تستمنى أى هل تستمنى . روى عنه عن ابن زيد . وقال الفراء : كما تَحْلُدُونَ لا تستفكرون في الموت . وقال ابن عباس وقتادة : كأنكم خالدون باقون فيها . وفي بعض القراءات « كأنكم تَحْلُدُونَ » ذكره النحاس . وحكى قتادة : أنها كانت في بعض القراءات « كأنكم خالِدُونَ » .

قوله تعالى : (وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جِبَارِينَ) البطش السطوة والأخذ بالعنف . وقد بَطِشَ به يَبِطِشُ ويَبِطِشُ بَطِشًا . وباطشه مباطشة . وقال ابن عباس ومجاهد : البطش الصف قتلا بالسيف وضربا بالسوط . ومعنى ذلك فعلتم ذلك ظلما . وقال مجاهد أيضا : هو ضرب بالسياط ، ورواه مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر فيما ذكر ابن العربي . وقيل : هو القتل بالسيف في غير حق . حكاه يحيى بن سلام . وقال الكلبي والحسن : هو القتل على الغضب من غير تثبيت . وكله يرجع إلى قول ابن عباس . وقيل : إنه المؤاخضة على العمد وانحطاً من غير عفو ولا إبقاء . قال ابن العربي : ويؤيد ما قال مالك قول الله تعالى عن موسى : « فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبِطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لِّمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ » وذلك أن موسى عليه السلام لم يسل طيه سيفا ولا طعنه رمح ، وإنما وكزه وكانت ميتة في وكزه . والبطش يكون باليد وأقله الوكر والدفع ، وبليه السوط والعصا ، وبليه الحديد ، والكل مذموم إلا بحق . والآية نزلت خيرا عن تقدم من الأمم ، وعظما من الله عز وجل لنا في مجانبة ذلك الفصل الذي ذمهم به وأنكره لهم . قلت : وهذه الأوصاف المذمومة قد صارت في كثير من هذه الأمة ، لاسميا بالديار المصرية منذ ولتها البحرية ، فَيَبِطِشُونَ بالناس بالسوط والعصا في غير حق . وقد أخبر صلى

(١) سبق القول خفيا ومثقدا . (٢) البحرية : هم من الممالك الأثرالك الذين استغفهم ملك الصالح الأيوبي ، وأسكنهم جزيرة الرونة . وأزيل نلوكرهم عن اليمن أيك . وكانت مدة حكمهم من سنة ٦٤٨ - ٧٨٤ هـ .

الله عليه وسلم أن ذلك يكون. كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «صنفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رءوسهن ككسفة البعث المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإتريحا ليوجدن من مسيرة كذا وكذا» . ونرجع أبو داود من حديث ابن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا يترعه حتى ترجعوا إلى دينكم » . « جَبَّارِينَ » قتالين . والجبار القتال في غير حق . وكذلك قوله تعالى : « إِنَّ تُرَيْدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ » قاله الهروي . وقيل : الجبار المتسلط العاني؛ ومنه قوله تعالى : « وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ » أي بسلط . وقال الشاعر :

سَلَبْنَا مِنَ الْجَبَّارِ بِالسَّيْفِ مُلْكَهُ • عَشِيًّا وَأَطْرَأَ الرِّيحَ سُورَاعُ

قوله تعالى : « فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا » تقدم . « وَأَتَّقُوا اللَّهَ أَمَدُكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ » أي من الخسريات ثم فسرها بقوله : « أَمَدُكُمْ بِتَعْلِيمٍ وَبَيِّنَةٍ وَجَنَاتٍ وَعِوَيْنٍ » أي من ذلك لكم وتفضل بها عليكم ، فهو الذي يجب أن يعبد ويشكر ولا يكفر . « إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » إن كفرتم به وأصررتم على ذلك . « قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ » كل ذلك عندنا سواء لا نسمع منك ولا نلوي على ما تقول . وروى العباس عن أبي عمرو وبشر عن الكسائي : « أَوَعَظْتُ » مدغمة الظاء في التاء وهو بعيد؛ لأن الظاء حرف إطباق إنما يدغم فيما قرب منه جداً وكان مثله وعجره . « إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ » أي دينهم ، عن ابن عباس وغيره . وقال الفراء : عادة الأولين . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي « خُلُقُ الْأَوَّلِينَ » . الباقون « خُلُقٌ » . قال الهروي : وقوله عز وجل « إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ » أي اختلافهم وكذبهم ، ومن قرأ « خُلُقُ الْأَوَّلِينَ » فمنا عاداتهم ، والعرب تقول : حدثنا فلان بأحاديث الخلق أي بالخرافات والأحاديث المفتعلة . وقال ابن الأعرابي :

(١) العينة أن تبيع من رجل سلة بجن معلوم إلى أجل معلوم ثم تشتريها منه بأقل من الثمن الذي بيعت به .

الخلق الدين والخلق الطبع والخلق المروءة . قال النحاس : « خُلِقَ الْأَوَّلِينَ » عند الفراء
يعني عادة الأولين . وحكى لنا محمد بن الوليد عن محمد بن يزيد قال : « خُلِقَ الْأَوَّلِينَ »
مذهبهم وما جرى عليه أمرهم ، قال أبو جعفر : والقولان متقاربان ، ومنه الحديث عن النبي
صل الله عليه وسلم « أَكَلَ الْمُؤْمِنِينَ إِيْمَانًا أَحْسَنَهُمْ خُلُقًا » أي أحسنهم مذهباً وعادة وما يجرى
عليه الأمر في طاعة الله عز وجل ، ولا يجوز أن يكون من كان حسن الخلق فاجراً فاضلاً ،
ولا أن يكون أكل إيماناً من السيئ الخلق الذي ليس بفاجر . قال أبو جعفر : حكى لنا
عن محمد بن يزيد أن معنى « خُلِقَ الْأَوَّلِينَ » تكذيبهم وتخويفهم غير أنه كان يميل إلى الفراءة
الأولى ، لأن فيها مدح آبائهم ، وأكثر ما جاء القرآن في صفتهم مدحهم لأبائهم ، وقولهم :
« إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ » . وعن أبي قلابة : أنه قرأ « خُلِقَ » بضم الخاء وإسكان اللام
تخفيف « خُلِقَ » . ورواه ابن جبير عن أصحاب نافع عن نافع . وقد قيل : إن معنى « خُلِقَ
الْأَوَّلِينَ » دين الأولين . ومنه قوله تعالى : « فَلْيَقِ يُذِيقْ خُلُقَ اللَّهِ » أي دين الله . و« خُلِقَ
الْأَوَّلِينَ » عادة الأولين : حياة ثم موت ولا بعث . وقيل : ما هذا الذي أنكرت علينا من
البيان والبطش إلا عادة من قبلنا فنحن نقسدي بهم (وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ) على ما فعل
وقيل : المعنى خلق أجسام الأولين ، أي ما خلقنا إلا تخلق الأولين الذين خلقوا قبلنا وماتوا ،
ولم يتزل بهم شيء مما تحذرنه به من العذاب . (فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ) أي يريح صرصر طانية
على ما يأتي في « الحاقبة » . (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) قال بعضهم : أسلم
معه ثلثة ألف ومئتين وهلك باقيهم . (وَإِنَّ رَبَّكَ لَسَوْءُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ) .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ
أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١١٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١١٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٤﴾
وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾
أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هُمْ بِأَمِينِينَ ﴿١١٦﴾ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿١١٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ

طَلَعَهَا هَظِيمٌ ﴿١١٨﴾ وَتَعْتُونَ مِنْ آلِجَالِ بِيُوتًا فَتَرْتَبُونَ ﴿١١٩﴾ فَاَتَقُوا اللَّهَ
وَاطِيعُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٢١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ
وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٢٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ
مِثْلُنَا فَأَبِغْ يَا بَغِيَّةَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَارُ اللَّهِ
يُشْرَبُ وَلَٰكِنَّ يَوْمَ يَكُونُ مَعْلُومٌ ﴿١٢٥﴾ وَلَا تَسْهَوْا بِسُوءِ قِيَاحِذِكُمْ عَذَابُ
يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٢٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا تَلَعِينَ ﴿١٢٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٩﴾

قوله تعالى : (كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ) ذكر قصة صالح وقومه وهم ثمود ، وكانوا
يسكنون الحجر كما تقدم في « الحجر » وهى ذوات نخل وزروع وبياه . (أَتَنَزَّلُونَ فِيهَا هَٰمَاتًا
أَيْمِينَ) يعنى فى الدنيا آمنين من الموت والعذاب . قال ابن عباس : كانوا معمرين لا يبنى
البذان مع أعمارهم . يدل على هذا قوله : « وَأَسْتَعْمَرْتُمْ فِيهَا » ففزعهم صالح ووبخهم وقال :
أَتَنْظُنُونَ أَنْكُمْ قَائِمُونَ فِي الدُّنْيَا بِلَا مَوْتٍ (فِي جَنَاتٍ وَعُيُونٍ ، وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَظِيمٌ) .
الزحشرى : فإن قلت لم قال « وَنَخْلٍ » بعد قوله « وَجَنَاتٍ » والجنان لتناول النخل أول شئ
كما يتناول النعم الإبل كذلك من بين الأزواج حتى إنهم ليدكرون الجنة ولا يقصدون إلا النخل ؛
كما يدكرون النعم ولا يريدون إلا الإبل قال زهير :

كَأَنَّ عَيْنِي فِي غَرَبِي مُقْتَلَةٌ * من النواضع تَسْقِي جَنَّةً مُحَقَّقَا

يعنى النخل ؛ والنخلة السُّحُوق البعيدة الطول :

قلت : فيه وجهان ؛ أحدهما — أن يخص النخل بإفراده بعد دخوله فى جملة سائر الشجر
تنبيهاً على إفراده عنها بفضلها عنها ، والثانى — أن يريد بالجنات غيرها من الشجر ؛ لأن اللفظ

يصلح لذلك ثم يعطف عليها النخل، والطلعة هي التي تطلع من النخلة كصصل السيف؛ في جوفه
شماريخ القنوي، والقنوي أسم لخساريج من الجذع كما هو بمرجونه وشماريخه . و « هَضِيمٌ »
قال ابن عباس: لطيف مادام في كَفْزَاهُ. والهضم اللطيف الدقيق؛ ومنه قول امرئ القيس:
عَلَى هَضِيمِ الْكَشْحِ رِيًّا الْمُحَلَّلِ *

الجلوهري: ويقال للطلع هضم ما لم يخرج من كَفْزَاهُ؛ لدخول بعضه في بعض . والهضم
من النساء اللطيفة الكشحين، ونحوه حكى الهروي؛ قال: هو المنضم في وعائه قبل أن يظهر؛
ومنه رجل هضم الجنين أي منضمهما؛ هذا قول أهل اللغة . وحكى الساردى وغيره
في ذلك آئني عشر قولاً: أحدها - أنه الرطب اللين؛ قاله عكرمة . الثاني - هو المذنب
من الرطب؛ قاله سعيد بن جبيرة. قال النحاس: وروى أبو إسحق عن يزيد - هو ابن أبي زياد
كوفي وزيد بن أبي مريم شامي - « وَنَحْلٌ طَلْعُهُ هَضِيمٌ » قال: منه ما قد أرطب ومنه مذنب .
الثالث - أنه الذي ليس فيه نوى؛ قاله الحسن . الرابع - أنه المتهم المتفتت إذا مس تفتت؛
قاله مجاهد . وقال أبو العالمة: يتهم في الفم . الخامس - هو الذي قد ضمير يركوب بعضه
بعضاً؛ قاله الضحاك ومقاتل . السادس - أنه المتلاصق ببعضه ببعض؛ قاله أبو حنيفة .
السابع - أنه الطلع حين يتفرق ويضمير؛ قاله الضحاك أيضاً . الثامن - أنه البائع النضيج؛
قاله ابن عباس . التاسع - أنه المكتنز قبل أن ينشق عنه القشر؛ حكاه ابن شجرة؛ قال:
كَأَنَّ حَمَلَةً تَجَلَّى عَلَيْهِ * هَضِيمٌ مَا يُحْسُ لَهُ شُفُوقُ

العاشر - أنه الرخو؛ قاله الحسن . الحادي عشر - أنه الرخص اللطيف أقل ما يخرج
وهو الطلع النضيد؛ قاله الهروي . الثاني عشر - أنه البرني؛ قاله ابن الأعرابي؛ فعيل
بمعنى فاعل أي هنيء مريء من أنهضام الطعام، والطلع أسم مشتق من الطلوع وهو الظهور؛
ومنه طلوع الشمس والقمر والنبات .

(١) مدار البيت . * حضرت بفردى رأساً قبايت *

(٢) البرني: شرب من القروء أجوده؛ واحدة برنية .

قوله تعالى : « وَتَحْتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا قَارِهِينَ » التحت النجر والبرى ؛ نحسه يخته (بالكسر) نحنا إذا براه والتمانة البراية . والمِنَحَت ما ينحت به . وفى « وَالصَّافَاتِ » قال : « أُنْمِدُونَ مَا تَحْتُونَ » . وكانوا يخفونها من الجبال لما طالت أعمارهم وتهدم بناؤهم من المدر . وقرا ابن كثير وأبو عمرو ونافع « قَرِهِينَ » بغير ألف . الباقون : « قَارِهِينَ » بألف وهما بمعنى واحد فى قول أبى عبيدة وغيره ؛ مثل « عظاما نخرة » و « نائرة » . وحكاه قطرب . وحكى فَرَه يَفْرَه فهو فاره وفَرَه وفَرَه فهو فَرَه وفارَه إذا كان نشيطا . وهو نصب على الحال . وفرق بينهما قوم فقالوا : « قارِهين » حاذقين يخفونها ؛ قاله أبو عبيدة ؛ وروى عن ابن عباس وأبى صالح وغيرهما . وقال عبد الله بن شداد : « قَارِهِينَ » متجبرين . وروى عن ابن عباس أيضا أن معنى « قَرِهِينَ » بغير ألف أشترين بطرين ؛ وقاله مجاهد . وروى عنه شريح . الضحاك : كَيْسِينَ . قتادة : معجبين ؛ قاله الكلبي ؛ وعنه : ناعمين . وعنه أيضا آمنين ؛ وهو قول الحسن . وقيل : متغيرين ؛ قاله الكلبي والسدى . ومنه قول الشاعر :

إلى قَرِهٍ يعاجد كلِّ أمرٍ * قصدتُ له لأختبر العُلَمَاءَ

وقيل : متعجبين ؛ قاله خفيف . وقال ابن زيد : أفواى . وقيل : قَرِهين قرحين ؛ قاله الأَخفش . والعرب تعاقب بين الماء والهاء ؛ تقول . مدته ومدحته ؛ فالقَرِه الأشر القرح ثم الفَرَح بمعنى المَرَح مَذْمُوم ؛ قال الله تعالى : « وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا » وقال : « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْقَرِحِينَ » . (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ) قيل : المراد الذين عقروا الناقة . وقيل : التسعة الرط الذين يقسدون فى الأرض ولا يصلحون . قال السدى وغيره : أوحى الله تعالى إلى صالح : إن قومك سيعفرون نافتك ؛ فقال لهم ذلك . فقالوا : ما كنا لنفعل . فقال لهم صالح : إنه سيولد فى شهركم هذا غلام يعقروها ويكون هلاككم على يديه ؛ فقالوا : لا يولد فى هذا الشهر ذكر إلا قتلناه . فولد تسعة منهم فى ذلك الشهر فذبحوا أبناءهم ؛ ثم ولد للماشر فأبى أن يذبح أبنته وكان لم يولد له قبل ذلك . وكان ابن الماشر أزرق أحمر فنبت نباتا سريعا ، وكان إذا مر بالتسعة فرأوه قالوا : لو كان أبناءنا أحياء لكانوا مثل هذا . وغضب

التسعة على صالح؛ لأنه كان سبب قتلهم أبنائهم فتعصبوا وتقاسموا بالله لنبيته وأهله . قالوا: نخرج إلى سفر فترى الناس سفرتنا فتكون في غار، حتى إذا كان الليل وخرج صالح إلى مسجده أتينا قتلناه، ثم قلنا ما شهدنا مهلك أهله وإنما لصادقون؛ فيصدقونا ويعلمون أننا قد خرجنا إلى سفر . وكان صالح لا ينام معهم في [القرية وكان يأوي إلى] مسجده، فإذا أصبح أتاهم فوعظهم، فلما دخلوا النار أرادوا أن يخرجوا فسقط عليهم الغار فقتلهم، فرأى ذلك ناس ممن كان قد أطلع على ذلك، فصاحوا في القرية: يا عباد الله! أما رضى صالح أن أمر بقتل أولادهم حتى قتلهم؛ فاجمع أهل القرية على قتل الناقة . وقال آبن إسحق: إنما اجتمع التسعة على سبب صالح بعد عقرهم الناقة وإنذارهم بالذاب على ما يأتي بيانه في سورة «الغل»^(١) إن شاء الله تعالى . (قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ) هو من السحر في قول مجاهد وقناة على ما قال المهدوي . أى أصبت بالسحر فبطل عقلك؛ لأنك بشر مثلنا فلم تدع الرسالة دوننا . وقيل: من الملعين بالطعام والشراب؛ قاله آبن عباس والكلبى وقناة ومجاهد أيضا فيما ذكر التلمبي . وهو على هذا القول من السحر وهو الرقة أى بشرتك تتحرأى رقة تأكل وتشرب مثلنا كما قال [ليبد]^(٢):

فإن تسألينا فيم نخرج فإنتنا • عصفير من هذا الإثم المسحّر
وقال [آمرؤ القيس]

• وَتُسَحَّرُ بِالطَّامِ وَالشَّرَابِ •

(قَاتِلَ يَأْتِي إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) في قولك . (قَالَتْ هَذِهِ نَاقَةُ لَيْسَ شَرِبَ وَلَكِنْ شَرِبَ يَوْمَ مَعْلُومٍ) قال آبن عباس: قالوا إن كنت صادقاً فأدع الله فيخرج لنا من هذا الجبل ناقة حمراء عشراء^(٣) فنضع ونحن ننظر، وترد هذا الماء فتشرب وتقدو علينا بمثله لبنا . فدعا الله

(١) الزيادة من «نقص الأنبياء» لتلمبي . (٢) في تفسير قوله تعالى: «وكان في المدينة تسعة رهط» .

(٣) في نسخ الأصل: آمرؤ القيس؛ والتصويب من ديوان ليبد . (٤) صدر البيت:

• أَرَأَيْتَ مَوْضِعَيْنِ لِأَمْرِ غَيْبِ •

موضعين • مسرعين • وأمر غيب يريد الموت وأنه قد غيب منا وقته ونحن نعلم عنه بالطعام والشراب .

(٥) ناقة حمراء: مضي ليلها عشرة أشهر .

وفعل الله ذلك فـ « قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لِمَا شَرَبْتُمْ » أى حفظ [من الماء] ؛ أى لكم شرب يوم ولما شرب يوم ؛ فكانت إذا كان يوم شربها شربت معهم كله أول النهار وتسقيهم اللبن آخر النهار ، وإذا كان يوم شربهم كان لأنفسهم ومواشيهم وأرضهم ، ليس لهم في يوم ورودها أن يشربوا من شربها شيئاً ، ولا لها أن تشرب في يومهم من ماثم شيئاً . قال الفراء : الشرب الحظ من الماء . قال النحاس : فأما المصدر فيقال فيه شرب شرباً وشرباً وشرباً وشرباً وأكثرها المضمومة ؛ لأن المكسورة والمفتوحة يشتركان مع شيء آخر فيكون الشرب الحظ من الماء ، ويكون الشرب جمع شارب كما قال :

• فَقُلْتُ لِلشَّربِ فِي دُرَّةٍ وَقَدْ تَجَلَّوْا •

إلا أن أبا عمرو بن العلاء والكسائي يثنان الشرب بالفتح في المصدر ، ويحتجان برواية بعض العلماء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّمَا أَيَّامُ أَكْلٍ وَشَرْبٍ » . (وَلَا تَسْهَوْهَا بِسُوءٍ) لا يجوز إظهار التضعيف هاهنا ؛ لأنهما حرفان متحركان من جنس واحد . (فَيَأْخُذْكُمْ) جواب التثنية ، ولا يجوز حذف الفاء منه ، والجزم كما جاء في الأمر إلا شيئاً روى عن الكسائي أنه يحذفه . (فَتَقَرُّوْهَا فَاصْبِرُوا تَائِدِينَ) أى على عقربها لما أيقنوا بالعذاب . وذلك أنه أنظرهم ثلاثاً فظهرت عليهم العلامة في كل يوم ، وتدموا ولم ينفعهم الندم عند معاينة العذاب . وقيل : لم ينفعهم الندم لأنهم لم يتوبوا ، بل طلبوا صالحاً عليه السلام ليقتلوه لما أيقنوا بالعذاب . وقيل : كانت ندامتهم على ترك الولد إذ لم يقتلوه معها . وهو بعيد . (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً) إلى آخره تَهْدَمُ . ويقال : إنه ما آمن به من تلك الأمم إلا ألفان ومائة رجل وأسرة . وقيل : كانوا أربعة آلاف . وقال كعب : كان قزم صالح أخى عشر ألف قبيل كل قبيل نحو أخى عشر ألفاً من سوى النساء والنرية ، ولقد كان قوم عاد ملتهم ست مرات .

(١) رواية يقتضيا المنع - (٢) هو الأحنى وتسمه :

• شربوا فكيف يشرب الشارب القمل •

• وحده (بضم الهمزة والفتح) موضع زعموا أنه بأجعية البصرة . اللسان •

قوله تعالى : كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ
لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٥١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٥٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٥٣﴾
وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥٤﴾
أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٥٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ
أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٥٦﴾ قَالُوا لَنْ لَدَّ تَنْبِيهِ يَلُوطُ لَنْتَكُونَنَّ
مِنَ الْمَخْرُجِينَ ﴿١٥٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٥٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَاهْلِي
مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٥٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَاهْلَئِلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٦٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَلَبَةِ ﴿١٦١﴾
ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٦٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٦٣﴾
إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِقَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٦٤﴾ وَإِنْ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ ﴿١٦٥﴾

قوله تعالى : (كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ) مضي معناه وقصته في « الأعراف »
و « هود » مستوفى والحمد لله .

قوله تعالى : (أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ) كانوا ينكحونهم في أدبارهم وكانوا يفعلون
ذلك بالفرعاء على ما تقدم في « الأعراف » . (وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ)
يعني فروج النساء فإن الله خلقها للنكاح . قال إبراهيم بن مهاسر : قال في مجاهد كيف يقرأ
عبد الله « وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ » قلت : « وَتَذَرُونَ مَا أَصْلَحَ لَكُمْ رَبُّكُمْ
مِنْ أَزْوَاجِكُمْ » قال : الفرج ؛ كما قال : « فَأَتَوْهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمُ اللَّهُ » . (بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ
عَادُونَ) أي متجاوزون لحدود الله . (قَالُوا لَنْ لَدَّ تَنْبِيهِ يَالُوطُ) عن قولك هذا . (لَنْتَكُونَنَّ)

مِنَ الْمُخَرَّجِينَ) أى من بلدنا وفريقنا . (قَالَ إِنِّي لَمَعْلُومٌ ^(١)) ببنى اللواط (مِنَ الْقَالِينَ)
 أى المبغضين والقل البنض ؛ فليته أقره قَلْ وَقَلَاء . قال :
 * فَلَسْتُ بِمَقِلِّ الْحِلَالِ وَلَا قَالٍ *
 وقال آخر ^(٢) :

عليك السلام لا ملّت قرية * ومالك عندي إن نأيت قلاء
 (رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ) أى من عذاب عملهم . دعا الله لما إيس من إيمانهم
 ألا يصيبه من عذابهم .

قال تعالى : (فَتَجَنَّبَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ) ولم يكن إلا ابتداء على ما تقدّم في « هود » .
 (وَلَا تَعْبُرُوا فِي الْقُيُومِ) روى سميد عن قتادة قال : ضربت في عذاب الله عن وجل
 أى بقيت . وأبو ميّدة يذهب إلى أن المعنى من الباقيين في الحرم أى بقيت حتى حرمت .
 قال النحاس : يقال للذاهب غابر والباقي غابركا ^(٣) قال :

لَا تَحْسَبِ السَّوْلَ بِأَعْيَارِهَا * إِنَّكَ لَا تَدْرِي مِنَ النَّاسِ

وَكَمَا قَالَ :

فَمَا وَقَى عَهْدُ مَنْ أَنْ غَفَرَ * لَهُ الْإِلَهُ مَا مَقَى وَمَا قَبَرِ

أى ما بقى ، والأخبار بقيات الألبان . (ثُمَّ دَمَرْنَا الْآتَرِينَ) أى أهلكتهم بالخسف والحصب ؛
 قال مقاتل : خسف الله بقوم لوط وأرسل الجحارة على من كان خارجا من القرية . (وَأَمْطَرْنَا
 عَلَيْهِمْ مَطَرًا) ببنى الجحارة (فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ) . وقيل : إن جبريل خسف بقريتهم
 وجعل عليها سافها ، ثم أتبعها الله بالجحارة . (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)
 لم يكن فيها مؤمن إلا بيت لوط وأبنتاه .

(١) هو أكرم الناس ؛ ومصدر البيت :

* صرفت الهوى منهن من خشية الردى *

(٢) هو الحارث بن حازم ؛ وكعب الناقة يغيرها ترك في ضرعها بقية من اللبن .

ومصدره : * وأحلب لأضيافك ألبانها * فإن شر اللبن الراج

يقول : لا تنزر إليك طلب بذلك قوة نسلها ، وأحلبا لأضيافك ، فكل مدوا يغير عليها فيكون ناسجا له دونك .

(٣) هو السجاج .

قوله تعالى : كَذَّبَ أَصْحَابُ الْمِرْثَلِ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ
شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٧٩)
وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠)
أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ
الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّ الْأُولِينَ (١٨٤) قَالُوا إِنَّمَا
أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ
الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنْ
الْصَادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّ اعْلَمْ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ
يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ
أَكْثَرَهُمْ مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩١)

قوله تعالى : (كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ) الأيك الشجر الملتف الكثير الواحدة
أيكة . ومن قرأ « أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ » فهي الفيضة . ومن قرأ « لَيْكَةِ » فهو أسم القرية .
ويقال : هما مثل بكة وبكة ، قاله الجوهري . وقال النحاس : وقرأ أبو جعفر ونافع
« كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ » وكذا قرأ في « ص » . وأجمع القراء على الخفض في التي
في سورة « الحجر » والتي في سورة « ق » فيجب أن يرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه
إذ كان المعنى واحدا . وأما ما حكاه أبو عبيد من أن « لَيْكَةِ » هي أسم القرية التي كانوا
فيها وإن « الْأَيْكَةِ » أسم البلد فشيء لا يثبت ولا يعرف من قاله فيثبت علمه ، ولو عرف
من قاله لكان فيه نظر ؛ لأن أهل العلم جميعا من أهل التفسير والعلم بكلام العرب على خلافه .

وروى عبدالله بن وهب عن جرير بن حازم عن قتادة قال : أرسل شعيب عليه السلام إلى أمتين : إلى قومه من أهل مدين ، وإلى أصحاب الأيكة ؛ قال : والأيكة غيضة من شجر ملتف . وروى سعيد عن قتادة قال : كان أصحاب الأيكة أهل غيضة وشجر وكانت طامة شجرهم الدوم وهو شجر المقل . وروى ابن جبير عن الضحاك قال : خرج أصحاب الأيكة — يعني حزب أصابهم الحز — فأنضموا إلى النبضة والشجر ، فأرسل الله عليهم سحابة فاستظلوا تحتها ، فلما تكاملوا تحتها أحرقوا . ولو لم يكن في هذا إلا ما روى عن ابن عباس قال : و « الأيكة » الشجر . ولا نعلم بين أهل اللغة اختلافاً لأن الأيكة الشجر الملتف ، فاما احتياج بعض من أوجب قراءة من قرأ في هذين الموضعين بالفتح أنه في السواد « ليكة » فلا حاجة له ، والقول فيه : إن أصله الأيكة ثم خففت الهززة فالتفت حركتها إلى الهمزة فسقطت واستغنت عن ألف الوصل ، لأن اللام قد تحركت فلا يجوز على هذا إلا الانخفاض ؛ كما نقول بالأحرى تحقق الهززة ثم تخففها فتقول بالتحجر ؛ فإن شئت كتبه في الخط على ما كتبه أولاً ، وإن شئت كتبه بالحدف ؛ ولم يجر إلا الانخفاض ؛ قال سيوي : وأعلم أن ما لا ينصرف إذا دخلت عليه الألف واللام أو أضيف أنصرف ؛ ولا نعلم أحداً خالف سيوي في هذا . وقال الخليل : « الأيكة » غيضة تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر . (إذ قال لهم شعيب) ولم يقل أخوهم شعيب ؛ لأنه لم يكن أخاً لأصحاب الأيكة في النسب ، فلما ذكر مدين قال : « أخاهم شعيباً » ؛ لأنه كان منهم . وقد مضى في « الأعراف » القول في نسبه . قال ابن زيد : أرسل الله شعيباً رسولاً إلى قومه أهل مدين ، وإلى أهل البادية وهم أصحاب الأيكة ؛ وقاله قتادة . وقد ذكرناه . (ألا تتقون) تخافون الله (إني لكم رسول أمين) فاتقوا الله وأطيعوا ما أمروا به . وإنما كان جواب هؤلاء الرسل واحداً على صيغة واحدة ؛ لأنهم متفقون على الأمر بالقوى والطاعة والإخلاص في العبادة ، والامتناع من أخذ الأجر على تبليغ الرسالة . (أوفوا بالعقوب ولا تكونوا من المخيرين) النافعين للكيل

والوزن. (وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ) أى أعطوا الحق. وقد مضى فى «سُبْحَانَ» وغيرها.
 (وَلَا تَجْعَلُوا النَّاسَ أَسْيَافَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) تقدم فى «هود» وغيرها.
 (وَأَتَاهُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّ الْأُولِينَ) قال مجاهد: الجبلة هى الخليفة. وجبل فلان على
 كذا أى خلق؛ فالخلق جبلة وجبلة وجبلة وجبلة ذكره النحاس فى «معانى القرآن».
 «والجبلة» عطف على الكاف والميم. قال المروى: الجبلة والجبلة والجبل والجبل والجبل
 لغات؛ وهو الجمع ذو العدد الكثير من الناس؛ ومنه قوله تعالى: «جِبِلًّا كَثِيرًا».
 قال النحاس فى كتاب «إعراب القرآن» له: ويقال جبلة والجمع فيها جبال، وتحنف
 الضمة والكسرة من الباء، وكذلك التشديد من اللام؛ فيقال: جبلة وجبيل، ويقال:
 جبلة ويجبال؛ وتحنف الهاء من هذا كله. وقرأ الحسن باختلاف عنه «وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ»
 بضم الجيم والباء؛ وروى عن شيبة والأعرج. الباقر بالكسر. قال:

والموت أعظم حادث * فيا يمر على الجبلة

(قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ) الذين يأكلون الطعام والشراب على ما تقدم. (وَيَا
 نَعْتُكَ لَيْتَ الْكَافِرِينَ) أى مانظك إلا من الكافرين فى أنك رسول الله تعالى. (فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا
 كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ) أى جانباً من السماء وقطعة منه، فنظر إليه؛ كما قال: «وَلَوْ أَنَّ يَوْمًا كَسَفًا
 مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا تَحَابَّبْ مَرُكُومٌ». وقيل: أرادوا أنزل علينا العذاب. وهو مبالغة
 فى التكذيب. قال أبو عبيدة: الكسف جمع كسفة مثل سدر وسدره. وقرأ السكبي وحفص
 «كِسْفًا» جمع كسفة أيضاً وهى القطعة والجانب تقديره كسرة وكسر. قال الجوهري:
 الكسفة الإقطعة من الشيء؛ يقال أعطنى كسفة من ثوبك والجمع كسف وكسف. ويقال:
 الكسف والكسفة واحد. وقال الأخفش: من قرأ «كِسْفًا» جعله واحداً ومن قرأ
 «كِسْفًا» جعله جمعا. وقد مضى هذا فى سورة «سبحان». وقال المروى: ومن قرأ
 «كِسْفًا» على التوحيد بجمعه أكساف وكسوف؛ كأنه قال أو تسقطه علينا طبقاً واحداً،

(١) «كسفا» بإسكان السين قراءة نافع. (٢) راجع ج ٢٠ ص ٣٣٠ طبة أول أرفاقية.

وهو من كسفت الشيء كسفا إذا غطيته . ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ تهديد ؛ أى إنما على التبليغ وليس العذاب الذى سألتم إلى وهو يجازيكم . ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ﴾ قال ابن عباس : أصابهم حر شديد ، فأرسل الله سبحانه صحابة فهربوا إليها ليستظلوا بها ، فلم صاروا تحتها صبيح بهم فهلكوا . وقيل : أقامها الله فوق رؤوسهم ، وألهبها حرا حتى ماتوا من الرِّيد . وكان من أعظم يوم في الدنيا عذابا . وقيل : بعث الله عليهم سموما فخرجوا إلى الأيكة يستظلون بها فاضرمها الله عليهم نارا فأحترقوا . وعن ابن عباس أيضا وغيره : إن الله تعالى فتح عليهم بابا من أبواب جهنم ، وأرسل عليهم هذّة وحرا شديدا فأخذ بأنفاسهم ، فدخلوا بيوتهم فلم ينفعهم ظل ولا ماء فانضجهم الحرق فخرجوا هربا إلى البرية ، فبعث الله عز وجل صحابة فأظلمت فوجدوا لها بردا وروحا ريحا طيبة ، فنادى بعضهم بعضا ، فلما اجتمعوا تحت الصحابة أهبط الله تعالى عليهم نارا ، ورجفت بهم الأرض ، فأحترقوا كما يحترق الجراد في المقل ، فصاروا رمادا ، فذلك قوله : « فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ . كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا » وقوله : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ . وقيل : إن الله تعالى حبس عنهم الريح سبعة أيام ، وسلط عليهم الحز حتى أخذ بأنفاسهم ، ولم ينفعهم ظل ولا ماء فكانوا يدخلون الأسراب ؛ ليتبردوا فيها فيجدوها أشد حرا من الظاهر ، فهربوا إلى البرية ، فأظلمت صحابة وهى الظلّة ، فوجدوا لها ردا ونسيا ، فأمرت عليهم نارا فأحترقوا . وقال يزيد الجريزي : ساط الله عليهم الحز سبعة أيام وليالين ثم رفع لهم جبل من بعيد ، فأنادى رجل فإذا تحت أنهار وعيون وشجر وماء بارد ، فأجمعوا كلهم تحته ، فوقع عليهم الجبل وهو الظلّة . وقال قتادة : بعث الله شعبيا إلى أميين : أصحاب مدين وأصحاب الأيكة فأهلك الله أصحاب الأيكة بالظلّة ، وأما أصحاب مدين فصاح بهم جبريل صيحة فهلكوا أجمعين . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ قيل : آمن بشييب من الفتيين تسعمائة نفر .

قوله تعالى : **وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْأَعْلَى** ﴿١٥٧﴾ **تَزَّلُ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ** ﴿١٥٨﴾ **عَلَى قَلْبِكَ لِنُكُونَنَّ مِنَ الْنَذِيرِينَ** ﴿١٥٩﴾ **بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ** ﴿١٦٠﴾ **وَإِنَّهُ لَنَزِيرٌ لِلْأَوَّلِينَ** ﴿١٦١﴾

قوله تعالى : **(وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)** عاد إلى ما تقدم بيانه في أول السورة من إعراض المشركين عن القرآن . **(تَزَّلُ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ)** « تَزَّلُ » مخففاً قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ، الباقون « تَزَلْ » مشدداً **(بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ)** نصبا وهو اختيار أبي حاتم وأبي عبيد لقوله ؛ **(وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ)** وهو مصدر نزل ، والوجه لمن قرأ بالتخفيف أن يقول ليس هذا بمقدر ؛ لأن المعنى وإن القرآن لتنزيل رب العالمين نزل به جبريل إليك ؛ كما قال تعالى : **« قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلْجِبْرِيلِ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ »** أى يتلوه عليك فيجبه قلبك . وقيل : لبشت قلبك . **(لِنُكُونَنَّ مِنَ الْنَذِيرِينَ)** بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ **(أى لثلاثا يقولوا لسانا نفهم ما نقول .)** **(وَإِنَّهُ لَنَزِيرٌ لِلْأَوَّلِينَ)** أى وإن ذكر نزوله لى كتب الأولين يعنى الأنبياء . وقيل : أى إن ذكر محمد عليه السلام فى كتب الأولين ؛ كما قال تعالى : **« يَسْجُدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ »** والزر الكتب الواحد زبور كرسول ورسول ؛ وقد تقدم .

قوله تعالى : **أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ** ﴿١٦٢﴾ **وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ** ﴿١٦٣﴾ **فَفَرَّقَافُوهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ** ﴿١٦٤﴾ **كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ** ﴿١٦٥﴾ **لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ** ﴿١٦٦﴾ **فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** ﴿١٦٧﴾ **فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ** ﴿١٦٨﴾

قوله تعالى : **(أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ)** قال مجاهد : يعنى عباد ابن سلام وسلمان وغيرهما ممن أسلم . وقال ابن عباس : بعث أهل مكة إلى اليهود وهم بالمدينة

يسألونهم عن محمد عليه السلام؛ فقالوا : إن هذا لزمانه ، وإنا لنجد في التوراة نعته وصفته .
 فيرجع لفظ العلماء إلى كل من كان له علم بكتبهم أسلم أو لم يسلم على هذا القول ، وإنما صارت
 شهادة أهل الكتاب حجة على المشركين ؛ لأنهم كانوا يرجعون في أشياء من أمور الدين إلى أهل
 الكتاب ؛ لأنهم مظنون بهم علم . وقرأ ابن عامر « أَوَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ » . الباقون « أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ
 آيَةٌ » بالنصب على الخبر وأسم يكن « أَنْ يَعْلَمَهُ » والتقدير أولم يكن لهم علم علماء بني إسرائيل الذين
 أسماوا آية واضحة . وعلى القراءة الأولى أسم كان « آيَةٌ » والخبر « أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ » .
 وقرأ عاصم الجحدري « أَنْ تَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ » . (وَلَوْ تَرَىٰ إِلَىٰ بَيْضِ الْأَحْيَيْنِ)
 أى على رجل ليس بمرئي للسان (فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ) بغير لغة العرب لما آمنوا ولما اؤوا لا نفقه .
 نظيره « وَآوَّ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَبًا » الآية . وقيل : معناه ولو زلناه على رجل ليس من العرب
 لما آمنوا به إفتة وكبرا . يقال : رجل أعجم وأعجمي إذا كان غير فصيح وإن كان عربيا ،
 ورجل عجمي وإن كان فصيحيا ينسب إلى أصله ؛ إلا أن الفراء أجاز أن يقال رجل عجمي
 بمعنى أعجمي . وقرأ الحسن « عَلَىٰ بَيْضِ الْأَحْيَيْنِ » مشددة بباءين جعله نسبة . ومن قرا
 « الْأَحْيَيْنِ » فقيل : إنه جمع أعجم . وفيه بعد ؛ لأن ما كان من الصفات الذي مؤنثه فعلاء
 لا يجمع بالواو والنون ، ولا بالأنف والهاء ؛ لا يقال أحرون ولا حمراوات . وقيل : إن أصله
 الأحيين كقراءة الجحدري ثم حذفت ياء النسب ، وجعل جمعه بالياء والنون دليلا عليها .
 قاله أبو الفتح عثمان بن جني . وهو مذهب سيدييه .

قوله تعالى : (كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ) يعني القرآن أى الكفر به (فِي قُلُوبِ الْمُتَجَرِّمِينَ .
 لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ) . وقيل : سلكا التكذيب في قلوبهم ؛ فذلك الذى منهم من الإيمان ؛ قاله
 يحيى بن سلام . وقال عكرمة : التسوية . والمعنى متقارب وقد مضى في « المجمر » . وأجاز
 الفراء الجزم في « لَا يُؤْمِنُونَ » ؛ لأن فيه معنى الشرط والمجازاة . وزعم أن من شأن العرب
 إذا وضعت لا موضع كى لا في مثل هذا ربما جازمت ما بعدها وربما رفعت ؛ فنقول : ربطت

الفرس لا ينفلت بالرفع والجزم ؛ لأن معناه إن لم أر بعله ينفلت ، والرفع بمعنى كىلا ينفلت .
وأشد لبعض بنى عقيل :

وحتى رأينا أحسن الفعل بيننا • مساكنة لا يقرب الشر قارف

بالرفع لما حذف كي . ومن الجزم قول الآخر :

لقلنا حلاهما لا ترد • نغليها والسجال تبترد^(١)

قال النحاس : وهذا كله في « يؤمنون » خطأ عند البصريين ؛ ولا يجوز الجزم بلا جازم ، ولا يكون شئ يعمل عملا فإذا حذف عمل عملا أقوى من عمله وهو موجود ؛ فهذا احتجاج بين .
(حتى يروا العذاب الأليم . فَيَأْتِيَهُمْ بِنْتٌ) أى العذاب . وقرا الحسن « فَيَأْتِيَهُمْ » بالناء ؛ والمعنى : فانهم الساعة بنسة فاضحرت لدلالة العذاب الواقع فيها ، ولكثرة ما في القرآن من ذكرها . وقال رجل للحسن وقد قرأ « فَيَأْتِيَهُمْ » : يا أبا سعيد إنما يأتيهم العذاب بنسة . فاتهره وقال : إنما هي الساعة تأتيهم بنسة أى بغاة . (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) بانياتها . (يَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ) أى مؤثرون وممهلون . يطلبون الرجعة هناك فلا يجابون إليها . قال القرطبي : وقوله « فَيَأْتِيَهُمْ » ليس عطفا على قوله : « حتى يروا » بل هو جواب قوله : « لَا يُؤْمِنُونَ » فلما كان جوابا للنفي انتصب ، وكذلك قوله : « فَيَقُولُوا » .

قوله تعالى : أَفَعِدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٦﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٧﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٨﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴿٢٩﴾ وَمَا أَهْلَكَكَ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿٣٠﴾ ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : (أَفَعِدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ) قال مقاتل : قال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم يا محمد إلى متى نعتدنا بالعذاب ولا تأتي به ! فنزلت « أَفَعِدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ » . (أَفَرَأَيْتَ)

(١) حلاهما : منها ما ورد المساء . والسجال : (جمع سجل) وهي الدار الضخمة المخلوة ماء . وتبترد : تقرب الماء ليرد به كبدها . والبيت قاله بعض السوء لبعض لما زور امرأة قد تزوجت من رجل كان عاشقا لها .

إِنَّ مَتَّعْنَاهُمْ سِتِينَ) يعنى فى الدنيا والمراد أهل مكة فى قول الضحاك وغيره . (ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ) من العذاب والهلاك (مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ) . « ما » الأولى استفهام معناه التقرير ، وهو فى موضع نصب بـ « أغنى » و « ما » الثانية فى موضع رفع ، ويجوز أن تكون الثانية نغيا لا موضع لها . وقيل : « ما » الأولى حرف نفي ، و « ما » الثانية فى موضع رفع بـ « أغنى » والماء العائدة مهذوفة . والتقدير : ما أغنى عنهم الزمان الذى كانوا يمتعون . وعن الزهرى : إن عمر بن عبد العزيز كان إذا أصبح أمسك بـلحيته ثم قرأ « أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِتِينَ . ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ . مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ » ثم يبكى ويقول :

نَهَارُكَ يَا مَغْسُورٌ وَسَهْوٌ وَغَفْلَةٌ * وَلَيْسُ لَكَ نَوْمٌ وَالرَّدَى لَكَ لَازِمٌ
فَلَا أَنْتَ فِي الْأَبْقَاظِ يَقْظَانٌ حَازِمٌ * وَلَا أَنْتَ فِي النُّسُومِ نَاجٍ فَسَلَامٌ
سُتْرٌ بِمَا بَقِيَ وَتَفْسُحُ بِالْمَنَى * كَمَا سُرَّ بِاللَّدَاتِ فِي النَّوْمِ حَالِمٌ
وَتَقْسَى إِلَى مَا سَوْفَ تَكْرَهُ فِيهِ * كَذَلِكَ فِي الدُّنْيَا تَعْبِثُ الْبَهَائِمُ

قوله تعالى : (وَمَا أَهْلَكَآيْنَ قَرْيَةً) « مِنْ » صلة ؛ المعنى : وما أهلكا قرية . (إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ) أى رسل . (ذِكْرَى) . قال الكسائي : « ذِكْرَى » فى موضع نصب على الحال ، النحاس : وهذا لا يحصل ، والقول فيه قول الفراء وإبى إسحق أنها فى موضع نصب على المصدر ؛ قال الفراء : أى يذكرّون ذِكْرَى ؛ وهذا قول صحيح ؛ لأن معنى « إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ » إلا لها مذكّرون . و « ذِكْرَى » لا يقين فيه الإعراب ؛ لأن فيها ألفا مقصورة . ويجوز « ذِكْرَى » بالتنوين ، ويجوز أن يكون « ذِكْرَى » فى موضع رفع على إضمار مبتدأ . قال أبو إسحق : أى إنذارنا ذِكْرَى . وقال الفراء : أى ذلك ذِكْرَى ، وتلك ذِكْرَى . وقال ابن الأنبارى قال بعض المفسرين : ليس فى « الشعراء » وقف تام إلا قوله « إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ » وهذا عندنا وقف حسن ؛ ثم يتدنى « ذِكْرَى » على معنى هى ذِكْرَى أى يذكرهم ذِكْرَى ، والوقف على « ذِكْرَى » أجود . (وَمَا تَنَكَّبُ الْإِنْسَانُ) فى تذهيهم حيث قدمنا الحجة عليهم وأعذرنا إليهم :

قوله تعالى : وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿١١١﴾ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١١٣﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿١١٤﴾ الَّذِي يَرَدُّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿١١٥﴾ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجِدِينَ ﴿١١٦﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٧﴾

قوله تعالى : (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » خص عشيرته الأقربين بالإنذار؛ لتتحمس أطباع سائر عشيرته وأطاع الأجانب في مفارقتهم إياهم على الشرك . وعشيرته الأقربون قريش ، وقيل : بنو عبد مناف . ووقع في صحيح مسلم : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » ورهطك منهم المخلصين . وظاهر هذا أنه كان قرآنا يتلى وأنه نسخ ؛ إذ لم يثبت نقله في المصحف ولا تواتر . ويلزم على ثبوته إشكال ؛ وهو أنه كان يلزم عليه ألا يندثر إلا من آمن من عشيرته ؛ فإن المؤمنين هم الذين يوصفون بالإخلاص في دين الإسلام وفي حب النبي صلى الله عليه وسلم لا المشركون ؛ لأنهم ليسوا على شيء من ذلك ، والنبي صلى الله عليه وسلم دعا عشيرته كلهم مؤمنهم وكافرهم ، وأنذر جميعهم ومن معهم ومن يأتي بعدهم صلى الله عليه وسلم ؛ فلم يثبت ذلك نقلا ولا معنى . وروى مسلم من حديث أبي هريرة قال : لما نزلت هذه الآية « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا فأجمعوا نعم وخص فقال : « يا بني كعب بن لؤي - ألقوا أنفسكم من النار يا بني مرة بن كعب ألقوا أنفسكم من النار يا بني عبد شمس ألقوا أنفسكم من النار يا بني عبد مناف ألقوا أنفسكم من النار يا بني هاشم ألقوا أنفسكم من النار يا بني عبد المطلب ألقوا أنفسكم من النار يا فاطمة ألقى نفسك من النار فإني لا أملك لكم من الله شيئا غير أن لكم رجما ساءلها بيلال^(١) » .

(١) " سألها بيلال " : أي أملككم في الدنيا ولا أغنى عنكم من الله شيئا .

الثانية - في هذا الحديث والآية دليل على أن القرب في الأنساب لا ينفع مع البعد في الأسباب ، ودليل على جواز صلة المؤمن الكافر وإرشاده ونصيحته ؛ لقوله : " إِنْ لَكُمْ رَجْمًا سَابِقُهَا يَلَاهَا " وقوله عز وجل : « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ » الآية ، على ما يأتي بيانه هناك .

قوله تعالى : (وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) تقدم في سورة « الحجر » و « سبحان » يقال : خفض جناحه إذا لآن . (فَإِنْ عَصَوْكَ) أى خالفوا أمرك . (فَقُلْ) أى برىء مما تملكون أى برىء من معصيتكم إياي ؛ لأن عصيانهم إياه عصيان لله عز وجل ؛ لأنه عليه السلام لا يأمر إلا بما يرضاه ، ومن تبرأ منه فقد تبرأ الله منه .

قوله تعالى : (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ) أى فوض أمرك إليه فإنه العزيز الذى لا يغالب ، الرحيم الذى لا يخذل أوليائه . وقرأ السامة « وَتَوَكَّلْ » بالواو وكذلك هو في مصاحفهم .

وقرأ نافع وابن حاصر « فَتَوَكَّلْ » بالفاء وكذلك هو في مصاحف المدينة والشام . (الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ) أى حين تقوم إلى الصلاة في قول أكثر المفسرين : ابن عباس وغيره . وقال مجاهد : يعنى حين تقوم حيثما كنت . (وَتَقْلِبُكَ فِي السَّاجِدِينَ) قال مجاهد وقناة : في المصلين . وقال ابن عباس : أى في أصلاب الآباء آدم ونوح وإبراهيم حتى أخرجه نبياً . وقال عكرمة : يراك قائماً وراكماً وساجداً ؛ وقاله ابن عباس أيضا . وقيل : المعنى ؛ إنك ترى قبلتك في صلاتك من خلفك كما ترى بعينك من قدامك . وروى عن مجاهد ذكره المسوردي والتملي . وكان عليه السلام يرى من خلفه كما يرى من بين يديه ، وذلك ثابت في الصحيح وفي تأويل الآية بعيد . (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) تقدم .

قوله تعالى : هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿١١١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ

كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿١١٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَذِبُونَ ﴿١١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن نَّزَّلَ الشَّيَاطِينُ . نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ إنما . قال « نَزَّلَ » لأنها أكثر ما تكون في الهواء ، وأنها تمر من الريح . ﴿ يُلقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ تقدم في « الحجر » . ذ « يُلقُونَ السَّمْعَ » صفة الشياطين « وَأَكْثُرُهُمْ » يرجع إلى الكهنة . وقيل : إلى الشياطين .

قوله تعالى : وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٧﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٩﴾

قوله تعالى : (وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ) فيسه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : « وَالشُّعْرَاءُ » جمع شاعر مثل جاهل وجهلاء ؛ قال ابن عباس : هم الكفار « يَتَّبِعُهُمُ » ضلال الجن والإنس . وقيل : « الْغَاوُونَ » الزائلون عن الحق ، ودل بهذا أن الشعراء أيضا غاؤون ؛ لأنهم لو لم يكونوا غاوين ما كان اتباعهم كذلك . وقد قدمنا في سورة « النور » ^(١) أن من الشعر ما يجوز إنشاده ، ويكره ، ويحرم . روى مسلم من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه قال : ردفني رسول الله صلى الله عليه وسلم [يوما] ^(٢) فقال : " هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء " قلت : نعم . قال " هيه " فأنشدته بيتا . فقال " هيه " ثم أنشدته بيتا . فقال " هيه " حتى أنشدته مائة بيت . هكذا صواب هذا السند وصحيح روايته . وقد وقع لبعض رواة كتاب مسلم : عن عمرو بن الشريد عن الشريد أبيه ؛ وهو وهم ؛ لأن الشريد هو الذي أرفقه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأسم إلى الشريد سويد . وفي هذا دليل على حفظ الأشعار والاعتناء بها إذا تضمنت الحكم والمعاني المستحسنة شرعا وطبعيا ، وإنما استكثر النبي صلى الله عليه وسلم من شعر أمية ؛ لأنه

(١) راجع ١٢٧ ص ٣٨١ طبة أول أداتية . (٢) الزيادة من صحيح مسلم .

كان حكيمًا ؛ ألا ترى قوله عليه السلام : " وكاد أمة بن أبي الصلت أن يسلم " فاما ما تضمن
ذكر الله وحده والثناء عليه فذلك مندوب إليه ؛ كقول القائل :

الحمد لله العليّ المُنان • صار التريد في رهوس العبدان^(١)

أو ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أو مدحه كقول العباس :

بين قبلها طِبْتُ في الظلال وفي مُسْ • خودج حيث يُحَصِّفُ الورقُ
ثم هبطت البلاد لا بشرُ أذ • مَتَ ولا مُضَفَّةٌ ولا عاقُ
بل نطفة تركب السَّفينَ وقد أُلْ • جَمَ نَسْرًا وأهله النَّسْرُ
تنقلُ من صالِبٍ إلى رَحِمٍ • إذا مَضَى عالمٌ بَدَأَ طَبَقُ^(٢)

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يُفَضِّضُ الله فاك " . أو الذَّبَّ عنه كقول حسان :

هَجَوْتُ هَجْمًا فَاجَبْتُ عَنْهُ • وعند الله في ذاك الجزاءُ

وهي آيات ذكرها مسلم في صحبته وهي في السير أتم . أو الصلاة عليه ؛ كما روى زيد بن أسلم ؛

نخرج عمر ليلة يهرس فرأى مصباحا في بيت ، وإذا عجوز تنفث صرفا وتقول :

على عَجِدِ صَلَاةُ الْأَبْرَارِ • صل عليه الطيِّبون الأخيارُ

قد كنت قَوَامًا بَكًّا بِالْأَحْمَارِ • يَالَيْتَ شِعْرِي وَالْمَنَايا أطوارُ

• هل يَجْمَعُنِي وَحْيِي الدارُ •

يعني النبي صلى الله عليه وسلم ؛ بجلس عمر يسي . وكذلك ذكر أصحابه ومدحهم رضى الله عنهم ؛

ولقد أحسن محمد بن سابق حيث قال :

إِنِّي رَضِيتُ طِبًّا لِلْهَدَى عَلَمًا • كما رَضِيتُ عَقِيقًا صَاحِبَ النَّارِ

وقد رَضِيتُ أَبَا حَفِصٍ وَشَيْعَتَهُ • وما رَضِيتُ بِقَتْلِ الشَّيْخِ فِي الدَّارِ

كُلُّ الصَّحَابَةِ عِنْدِي قُدُوءٌ عَظِيمٌ • فهل عليَّ بِهَذَا التَّقْوَلِ مِنْ عَارِ

إِنْ كُنْتُ تَعْلَمُ أَنِّي لَا أَحِبُّهُمْ • إِلَّا مِنْ أَجْلِكَ فَاعْتَقْنِي مِنَ النَّارِ

(١) كذا في الأصول . (٢) طبق : قرن . أراد إذا مضى قرن ظهر قرن آخر .

وقال آخر فاحسن :

نُحِبُّ النَّبِيَّ رَسُولَ اللَّهِ مُقَرَّرٌ • وَحُبُّ إِصْحَابِهِ نَوْرٌ يَهْدِي
 مَنْ كَانَ يَسْلُمُ أَنَّ اللَّهَ خَالِقُهُ • لَا يَرْمِيَنَّ أَبَا بَكْرٍ يَهَنَاتٍ
 وَلَا أَبَا حَفِصٍ الْفَارُوقَ صَاحِبَهُ • وَلَا الْخَلِيفَةَ عُمَانَ بْنَ عَفْصَانَ
 أَمَّا عَلِيٌّ فَشَهْوَرٌ فَضَائِلُهُ • وَالْبَيْتُ لَا يَسْتَوِي إِلَّا بِأَرْكَانِهِ

قال ابن العربي : أما الاستعارات في التشبيهات فأذنون فيها وإن استغرقت الحسد
 وتجاوزت المعتاد ؛ فبذلك يضرب الملك الموكل بالزُّبَا المثل ، وقد أنشد كعب بن زهير النبي
 صلى الله عليه وسلم :

بانت سعادٌ فقلبي اليسومَ مَتَبُولٌ • مُنَمِّمٌ إِتْرَاهَا لَمْ يُقَدِّمْ مَكْبُولٌ
 وما سعادٌ غَدَاةُ الْبَيْتِ إِذْ رَحَّلُوا • إِلَّا أَعْنُ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولٌ
 نَجَلُوا قَوَارِضَ ذِي ظُلْمٍ إِذَا أَبْقَسَتْ • كَأَنَّهُ مُنْهَلٌّ بِالرَّاحِ مَقْلُولٌ

بجاء في هذه القصيدة من الاستعارات والتشبيهات بكل بديع ، والتي صلى الله عليه وسلم
 يسمع ولا ينكر في تنبيهه ريقها بالراح . وأنشد أبو بكر رضي الله عنه :

قَدَدْنَا الْوَحْيَ إِذْ وَلَّيْتَ عَنَّا • وَوَدَّعْنَا رَبَّ اللَّهَ الْكَلَامُ
 سوى ما قد تركت لنا رهيناً • تَوَارَتْهُ الْقَرَّاطِيسُ الْكِرَامُ
 فقد أوردتنا ميراثَ صديقي • عليك به الصَّحْبَةُ وَالسَّلَامُ

فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمعه وأبو بكر ينشده ، فهل للتقليد والاقتداء
 موضع أرفع من هذا . قال أبو عمر : ولا ينكر الحسن من الشعر أحدٌ من أهل العلم ولا من
 أولى النُّسب ، وليس أحد من كبار الصحابة وأهل العلم وموضع القصد إلا وقد قال الشعر ،
 أو تمثل به أو سمعه فرضيه ما كان حكمة أو مباحاً ، ولم يكن فيه غش ولا خنا ولا مسلم أذى ،
 فإذا كان كذلك فهو والمنثور من القول سواء لا يحل سماعه ولا قوله ؛ وروى أبو هريرة قال

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر يقول : " أصدق كلمة - أو أشعر كلمة -
قالتها العرب قول لبيد : * أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ * "

أخرجه مسلم وزاد " وكاد أُمية بن أبي الصلت أن يُسلم " وروى عن ابن سيرين أنه أنشد
شعرا فقال له بعض جلسائه : مثلك ينشد الشعرا أبا بكر . فقال : ويلك بالكُح ! وهل الشعر
الإكلام لا يخالف سائر الكلام إلا في القوافي ، لحسنه حسن وقبيحه قبيح ! قال : وقد
كانوا ينشأ كرون الشعر . قال : وسمعت ابن عمر ينشد :

يُحِبُّ الخمر من مال النداءى * ويكره أن يفارقه الفلّوس

وكان عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحد فقهاء المدينة العشرة ثم المشيخة السبعة
شاهرا مجيدا مقدما فيه . ولز بير بن بكار القاضي في أشعاره كتاب ، وكانت له زوجة حسنة
تسمى عثمة نعتب عليها في بعض الأمور فطلقها ، وله فيها أشعار كثيرة ؛ منها قوله :

تفلق حب عثمة في فؤادي * فباديه مع الخافى يسير

تفلق حيث لم يبلغ شراب * ولا حزنت ولم يبلغ سرور

أكاد إذا ذكرت العهد منها * أطير لو أن إنسانا يطير

وقال ابن شهاب : قلت له تقول الشعر في نسكك وفضلك ! فقال : إن المصدور
إذا نفث برا .

الثانية - وأما الشعر المذموم الذي لا يميل سماعه وصاحبه لموم ، فهو المتكلم بالباطل
حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة ، واشتمهم على حاتم ، وأن يهتوا البريء ويفسقوا التقى ،
وأن يقرطوا في القول بما لم يفعله المرء ؛ رغبة في تسلية النفس وتحسين القول ؛ كما روى عن
الفرزدق أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله :

فِيَرَّتْ بِيحَانِي مَصْرَعَاتُ^(١) * وَبِتْ أَفْضُ أَعْلَاقِ الْخَنَافِ

(١) مصراع : سكرى .

فقال : قد وجب عليك الحد . فقال : يا أمير المؤمنين قد درأ الله عنى الحد بقوله : « وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ » . وروى أن النعمان بن عدي بن نضلة كان عاملا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال :

مَنْ مِيلَعَ الْحَسَنَاءُ أَكَّ حَلِيهَا • بَيَّسَانَ يُسْقَى فِي زُجَاجٍ وَحَتِيمٍ
إِذَا بُشْتُ غُنْتِي دَهَاقِينَ قَرْيَةٍ • وَرَقَاصَةً تُجَذُّو عَلَى كُلِّ مَنِيمٍ
فَإِنْ كُنْتَ نَدْمَانِي فَإِلَّا كَبْرَاسِقِي • وَلَا تَسْقِي بِالْأَصْغَرِ الْمُتَسَلِّمِ
لَسَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسُوءُهُ • تَنَادَمْنَا بِالْخَوْسَقِ الْمُتَهَدِّمِ

فبلغ ذلك عمر فأرسل إليه بالقدوم عليه . وقال : إني والله إني ليسوءني ذلك . فقال : يا أمير المؤمنين ما فعلت شيئا مما قلت ؛ وإنما كانت فضلة من القول ، وقد قال الله تعالى : « وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَاهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَمِيُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ » . فقال له عمر : أما عذرك فقد درأ عنك الحد ؛ ولكن لا تعمل لي عملا أبدا وقد قلت ما قلت . وذكر الزبير بن بكار قال : حدثني مصعب بن عثمان أن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة لم يكن له هم إلا عمر بن أبي ربيعة والأحوص فكتب إلى عامله على المدينة : إني قد عرفت عمر والأحوص بالشر وانحيت فإذا أتاك كتابي هذا فأشدد عليهما وأحلهما إلى . لما أتاه الكتاب أحلها إليه ، فأقبل على عمر ، فقال : هيه !

فلم أزل كأنهم منظر ناظر • ولا كلبا لي أبلغ أفقتن ذا هوى
وكم مالى عيليسه من شيء غيره • إذا راح نحو الجمره اليس كالدوى

أما والله لو أتممت بمسك لم تنظر إلى شيء غيرك ؛ فإذا لم بغت الناس منك في هذه الأيام فتي بفلون ! ثم أمر بنفيه . فقال : يا أمير المؤمنين ! أو خير من ذلك ؟ فقال : ما هو ؟ قال : أعاذ الله أني لا أعود إلى مثل هذا الشعر ، ولا أذكر النساء في شعر أبدا ، وأجسد توبة ؛ فقال : أو تغفل ؟ قال : نعم ؛ فعاذ الله هل توبته وخلاه ؛ ثم دعا بالأحوص ، فقال هيه !

الله بيني وبين قِيَمِهَا • يَفْرَمْنِي بِهَا وَأَتَسِعُ

(١) تجذو : تقوم على أطراف الأمام . (٢) الجوسق : القصر ؛ فارسي عرب .

بل الله بين قيميها وبينك ! ثم أمر بنفيه؛ فكلبه فيه رجال من الأنصار فابى، وقال : والله لا أردّه ما كان لي سلطان ، فإنه فاسق مجاهر . فهذا حكم الشعر المذموم وحكم صاحبه ، فلا يحصل سماعه ولا إنشاده في مسجد وفي غيره ، كتنشور الكلام القبيح ونحوه . وروى إسماعيل بن عياش عن عبد الله بن عون عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "حَسَنُ الشَّعْرِ كَسَنُ الْكَلَامِ وَقَبِيحُهُ كَقَبِيحِ الْكَلَامِ" رواه إسماعيل عن عبد الله النّاشي وحديثه عن أهل الشام صحيح فيما قال يحيى بن معين وغيره . وروى عبد الله ابن عمرو بن الماص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الشعر بمنزلة الكلام حسنة كسَنُ الكلام وقبيحه كقبيح الكلام" .

الثالثة — روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قِيحًا حَتَّى يَرِيَهُ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شَعْرًا" وفي الصحيح أيضا عن أبي سعيد الخدري قال : بينا نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ عرض شاعر يُشَدُّ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خُذُوا الشَّيْطَانَ — أَوْ امْسِكُوا الشَّيْطَانَ — لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ رَجُلٍ قِيحًا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شَعْرًا" قال علماؤنا : وإنما فعل النبي صلى الله عليه وسلم هذا مع هذا الشاعر لما علم من حاله ؛ فلعل هذا الشاعر كان ممن قد صرف من حاله أنه قد اتخذ الشعر طريقا للتكسب ؛ فيفرض في المدح إذا أعطى ، وفي المجهو والذم إذا مُنِع ، فيؤذى الناس في أموالهم وأعراضهم . ولا خلاف في أن من كان على مثل هذه الحالة فكل ما يكتبه بالشعر حرام . وكل ما يقوله من ذلك حرام عليه ، ولا يحمل الإصغاء إليه ؛ بل يجب الإنكار عليه ؛ فإن لم يمكن ذلك لمن خاف من لسانه قطعاً تبين عليه أن يداريه بما استطلاع ، ويدافعه بما أمكن ، ولا يحمل له أن يعطى شيئاً ابتداء ، لأن ذلك عون على المعصية ؛ فإن لم يجد من ذلك بداً أعطاه بنية وقاية العِرض ؛ فوافق به المرأة عرضة كُتِبَ له به صدقة . قوله : "لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قِيحًا حَتَّى يَرِيَهُ" الفج المِلَّةُ يخالطها دم . يقال منه : قاح الجُرح يَفِجُ وَيَفِجُ وَيَفِجُ . و"يَرِيَهُ" قال الأصمعي : هو من الورى على

مثال الرمي وهو أن يتدوى جوفه ، يقال منه : رجم مؤرم مشدد غير مهموز . وفي الصراح :
ورى القبح جوفه يريه ورأيا إذا أكله . وأنشد البيهقي :
• قالت له ورأيا إذا تتحننا •

وهذا الحديث أحسن ما قيل في تأويله : إنه الذي قد غلب عليه الشعر ، وأمثلا صدره منه
دون علم سواء ولا شيء من الذكر ممن يخوض به في الباطل ، ويسلك به مسالك لا تمجد له ،
كالمكثر من اللفظ والمهذّب والفتية وقبح القول . ومن كان الغالب عليه الشعر لزمته هذه
الأوصاف المذمومة الدينية ، لحكم العادة الأدبية . وهذا المعنى هو الذي أشار إليه البخاري
في صحيحه لما بؤب على هذا الحديث « باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر » .
وقد قيل في تأويله : إن المراد بذلك الشعر الذي هجى به النبي صلى الله عليه وسلم أو غيره .
وهذا ليس بشيء ، لأن القليل من هجو النبي صلى الله عليه وسلم وكثيره سواء في أنه كفر
ومذموم ، وكذلك هجو غير النبي صلى الله عليه وسلم من المسلمين محرم قلبه وكثيره ، وحيلث
لا يكون تخصيص الذم بالكثير معنى .

الرابعة - قال الشافعي : الشعر نوع من الكلام حسنة تحسن الكلام وقبيحة تكفيح
الكلام ، يعني أن الشعر ليس بركه لذاته وإنما بركه لمضماته ، وقد كان عند العرب عظيم
الموقع . قال الأول منهم :
• وجرح اللسان بجرح اليد •

وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الشعر الذي يرد به حسان على المشركين : « إنه لأسرع
فيهم من رشق النبل » أخرجه مسلم . وروى الترمذي ومحمّد عن ابن عباس أن النبي صلى الله
عليه وسلم دخل مكة في عمرة القضاء وعبد الله بن رَوَاحَة يمشي بين يديه ويقول :

خَلُّوا بَنِي الْكَفَّارِ عَنْ مَقِيلِهِ • الْيَوْمَ نَضْرِبُكُمْ عَلَى تَرْيِيلِهِ

ضَرْبًا يُزِيلُ الْهَامَّ عَنْ مَقِيلِهِ • وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

فقال عمر : يا بن رَوَاحَة ! في حرم الله وبين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : « خل عنه يا عمر فلهو أسرع فيهم من نضح النبل » .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَسَادُونَ ﴾ لم يختلف الثراء في رفع « وَالشُّعْرَاءُ » فإما علمت . ويجوز النصب على إحصاء فعل يفسره « يَتَّبِعُهُمُ » به قرأ عيسى ابن عمر ، قال أبو عبيد : كان الغالب عليه حب النصب ؛ قرأ « وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ » و « حَمَّالَةُ الْحَبْلِ » و « سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا » . وقرأ نافع وشيبة والحسن والسائس « يَتَّبِعُهُمُ » مخففاً ، الباقون « يَتَّبِعُهُمُ » . وقال الضحاك : تهاجى رجلان أحدهما أنصارى والآخر مهاجرى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كل واحد غواة قومه وهم السفهاء فزلت ؛ وقاله ابن عباس . وعنه هم الرواة للشعر . وروى عنه علي بن أبي طلحة أنهم هم الكفار يقيمهم ضلال الجن والإنس ؛ وقد ذكرناه . وروى غُضَيْفٌ ^(١) عن النبي صلى الله عليه وسلم : « من أحدث هجاء في الإسلام فاقطعوا لسانه » وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أتت مكة ^(٢) رَكَّ إبليس رُتْه وجمع إليه ذريته ؛ فقال آيسوا أن تريدوا أمة محمد على الشرك بعد يومكم هذا ؛ ولكن افشوا فيها - يعني مكة والمدينة - الشعر .

السادسة - قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ يقول : في كل لفويخوضون ، ولا يقعون سَنَ الحق ؛ لأن من أتبع الحق وعلم أنه يكتب عليه ما يقوله تنبت ، ولم يكن هاهنا يذهب على وجهه لا يباي ما قال ، نزلت في عبد الله ابن الزبير ومُصَافِع بن عبد مناف وأمية بن أبي الصلت . ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ يقول : أكثرهم يكذبون ؛ أى يدلون بكلامهم على الكرم والخير ولا يفعلونه . وقيل : إنها نزلت في أبي عزة الجمحي حيث قال :
أَلَا أَبْلَغَا عَنِّي النَّبِيُّ مُحَمَّدًا • بَأَنَّكَ حَقٌّ وَالْمَلِيكَ حَبِيبُ
وَلَكِنْ إِذَا دُكِّرْتُ بَدْرًا وَاهِلَهُ • تَأَوَّهَ مَتَى اعْظُمُ وَجِلُودُ

ثم استثنى شعر المؤمنين : حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وكعب بن زهير ومن كان على طريقتهم من القول الحق ؛ فقال : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ في كلامهم ﴿ وَأَتَنَصَّرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ﴾ وإنما يكون الانتصار بالحق ،

(١) في نسخة : غصيف . (٢) ون : صاح صبة حزية .

ومما حدثه الله عن وجل ، فإن تجاوز ذلك فقد انتصر بالباطل . وقال أبو الحسن المبرّد : لما نزلت « وَالشُّعْرَاءُ » جاء حسان وكعب بن مالك وابن رواحة فيكون إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا نبي الله ! أنزل الله تعالى هذه الآية ، وهو تعالى يعلم أنا شعراء ؟ فقال : « أَقْرَهُوا مَا بَعْدَهَا » إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ « — الآية — أتم » وَأَنْتَصِرُوا مِنْ بَعِيدٍ مَا ظَلَمُوا « أتم » أى بالرد على المشركين ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أَنْتَصِرُوا وَلَا تَقُولُوا إِلَّا حَقًّا وَلَا تَذْكُرُوا الْآبَاءَ وَالْأُمَّهَاتِ » فقال حسان لأبي سفيان :

هوتَ محمداً فاجبتُ عنه • وعندَ الله في ذاك الجزاءُ
وإتَّ أبي ووالدتي وعِرضي • ليعرضَ محمدَ منكم وِقَاءُ
اتَّشمتُه ولستَ له بكفٍ • فشرِكاً لحبيكَ الفِداءُ
لسانِي صارمٌ لا عيبَ فيه • وبحسرى لا تُكدرُه الدَّلاءُ

وقال كعب يا رسول الله ! إن الله قد أنزل في الشعر ما قد علمت فكيف ترى فيه ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَجَاهِدُ نَفْسَهُ وَسَيْفَهُ وَلِسَانَهُ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَكُنْ أَمْرُومُهُمْ بِهِ نَضَعُ الذُّبْلَ » . وقال كعب :

جاءتَ شَيْخِيَّةً كَى تُنَالِبَ رَبِّهَا • وَلِيُظْلِمَ مُنَالِبُ الْفَلَاحِ

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لَقَدْ مَدَحَكَ اللَّهُ يَا كَعْبُ فِي قَوْلِكَ هَذَا » . وروى الضحاك عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى : « وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَاوُونَ » منسوخ بقوله : « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » . قال المهدوي : وفي الصحيح عن ابن عباس أنه استناده : « وَسَيَمْلِكُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْ مُثَقِّلَ يَتَقَلَّبُونَ » في هذا تهديد لمن انتصر بظلم [أى] سيعلم الظالمون كيف يخلصون من بين يدي الله عن وجل ، فالظالم ينتظر العقاب ، والمظلوم ينتظر النصر . وقرأ ابن عباس « أَيْ مُثَقِّلَتِ يَتَقَلَّبُونَ » بالفاء والتاء ومعناها واحد ، الثقل ؛ ومعنى « أَيْ مُثَقِّلَ يَتَقَلَّبُونَ » أى مصير بصيرون وأى مرجع يرجعون ؛ لأن مصيرهم إلى

(١) السخية : طعام حار يخذ من دقيق ومن — ولب من دقيق وتر — أظن من الحساء وأرق من العصيدة . وكانت ترضى تكثر من أكلها فعرثت بها حتى صيرت عجة . (٢) زيادة يقتضيا السياق .

النار، وهو أفتح مصير، ومرجعهم إلى العقاب وهو شر مرجع . والفرق بين المقلب والمرجع أن المقلب الانتقال إلى ضد ما هو فيه، والمرجع العود من حال هو فيها إلى حال كان عليها فصار كل مرجع مقبلا، وليس كل مقلب مرجعا؛ والله أعلم؛ ذكره الساوردي . و « أَيْ » منصوب بـ « يَنْقَلِبُونَ » وهو بمعنى المصدر، ولا يجوز أن يكون منصوبا بـ « سَيِّئٌ » لأن أيا وسائر أسماء الاستفهام لا يعمل فيها ما قبلها فيما ذكره النحويون؛ قال النحاس: وحقيقة القول في ذلك أن الاستفهام معنى وما قبله معنى آخر فلو عمل فيه ما قبله لدخل بعض المعاني في بعض .

سورة النمل

مكية كلها في قول الجميع، وهي ثلاث وتسعون آية . وقيل : أربع وتسعون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : طَسَّ نَلَكْ ءَايَتُ الْقُرْءَانِ وَكِتَابِ مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيْنًا لَّهُمْ أَعْمَلُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلْقَى الْقُرْءَانَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾

قوله تعالى : (طَسَّ نَلَكْ ءَايَتُ الْقُرْءَانِ وَكِتَابِ مُبِينٍ) مضى الكلام في الحروف المقطعة في « البقرة » وغيرها . و « نَلَكْ » بمعنى هذه ؛ أي هذه السورة آيات القرآن وآيات كتاب مبين . وذكر القرآن بلفظ المعرفة، وقال : « وَكِتَابِ مُبِينٍ » بلفظ النكرة وهما في معنى المعرفة ؛ كما تقول : فلان رجل مافل وفلان الرجل العاقل . والكتاب هو القرآن ، بجمع له بين الصفتين : بأنه قرآن وأنه كتاب ؛ لأنه ما يظهر بالكتابة ، ويظهر بالقراءة . وقد مضى

أَشْتَفَقَهُمَا نِ « البقرة » . وقال في سورة الحجر : « الرَّتْلَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ »
فأخرج الكتاب بلفظ المعرفة والقرآن بلفظ النكرة ؛ وذلك لأن القرآن والكتاب آسمان يصلح
لكل واحد منهما أن يجعل معرفة ، وأن يجعل صفة . ووصفه بالمبين لأنه بين فيه أمره ونهيه
وحلاله وحرامه ووعده ووعيده ؛ وقد تقدّم .

قوله تعالى : (هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) « هُدًى » في موضع نصب على الحال
من الكتاب ، أى تلك آيات الكتاب هادية ومبشرة . ويموز فيه الرفع على الأبداء ؛ أى هو
هدى . وإن شئت على حذف حرف الصفة ؛ أى فيه هدى . ويموز أن يكون الخبر
« لِلْمُؤْمِنِينَ » ثم وصفهم فقال : (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ
يُوقِنُونَ) وقد مضى في أوّل « البقرة » بيان هذا .

قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ) أى لا يصدقون بالبعث . (زِينًا لَهُمْ
أَعْمَالُهُمْ) قيل : أعمالهم السيئة حتى رأوها حسنة . وقيل : زيناً لهم أعمالهم الحسنة فلم
بمملوها . وقال الزجاج : جعلنا جزاءهم على كفرهم أن زيناً لهم ما هم فيه . (فَهُمْ يَسْتَهْوَوْنَ)
أى يترددون فى أعمالهم الخبيثة ، وفى ضلالتهم . عن ابن عباس . أبو العالبة : يفتدون .
فتادة : يلعبون . الحسن : يقصرون ؛ قال الزجاج :

وَمَهْمِهَ أَطْسَرَأُهُ فِي مَهْمِهَ * أَغْمَى الْهُدَى بِالْحَائِرِينَ الْعَمِهَ^(١)

قوله تعالى : (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ) وهو جهنم . (وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ
الْأَخْسَرُونَ) . « فِي الْآخِرَةِ » تبين وليس بمتعلق بالأخسرين فإن من الناس من خسر الدنيا
وربح الآخرة ، وهؤلاء خسروا الآخرة بكفرهم فهم أخسر كل خاسر .

قوله تعالى : (وَإِنَّا كُنَّا لَنُتْلَى الْقُرْآنَ) أى يلقي عليك فتلقاه وتعلمه وتأخذه . (مِنْ لَدُنْ
حَكِيمٍ عَلِيمٍ) « لَدُنْ » بمعنى عند إلا أنها مبنية غير معربة ؛ لأنها لا تتمكن ، وفيها لغات
ذكرت فى « الكهف »^(٢) . وهذه الآية بساط وتهدى لما يريد أن يسوق من الأفاصيص ،
وما فى ذلك من لطائف حكمته ، ودقائق علمه .

(١) البيت لقرية ، ويرى : بالجاهلين الله . (٢) راجع ج ١٠ ص ٣٥٢ طبعه أول أو ثانية .

فوله تعالى : إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَعَيْنِيكُمْ مِنْهَا
يَحْبِرُ أَوْ آتَيْكُمْ بِشَهَابٍ فَيَكْسِرَ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ
أَنْ بُرِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾
يَمْشُو عَلَى أَهْلِهَا أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقَى عَصَاهُ فَلَمَّا رَآَهَا
تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَّى يُعْقِبُ يَمْشُو يَمْشُو يَمْشُو يَمْشُو يَمْشُو يَمْشُو
لَدَى الْمَرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَلَوْلِي غَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ بَدْكَ فِي جَنبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ
آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ
آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَفَتْهَا
أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

فوله تعالى : (إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ) « إِذْ » منصوب بمضمر وهو أذكر ؛ كأنه قال
عل أنزله « وَإِلَيْكَ تُلْقَى الْقُرْآنُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ » : خذ يا محمد من آثار حكمته وعلمه قصة
موسى إذ قال لأهله . (إِنِّي آنَسْتُ نَارًا) أى أبصرتها من بعد . قال الحرث بن حِزَازة :
آنَسْتُ نَبَأَهُ وَأَفْرَعَهَا الْفُتُوحُ عَصْرًا وَقَدْ دَنَا الْإِمْسَاءُ

(سَعَيْنِيكُمْ مِنْهَا يَحْبِرُ أَوْ آتَيْكُمْ بِشَهَابٍ فَيَكْسِرُ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ) قرأ عاصم وحسنه والكسائي
« بِشَهَابٍ فَيَكْسِرُ » بقرين « شهاب » . والباقون بغير تنوين على الإضافة ؛ أى بشعلة نار ،
وأخاره أبو عبيد وأبو حاتم . وزعم الفراء في ترك التنوين أنه بمنزلة قولهم : ولدان الآخرة ،
ومسجد الجامع ، وصلاة الأول ؛ يضاف الشيء إلى نفسه إذا اختلفت أسماءه . قال النحاس :
إضافة الشيء إلى نفسه محال عند البصريين ، لأن معنى الإضافة في اللغة ضم شيء إلى شيء .

(١) آنست : أحست . والنبأ : الصوت الخفى .

فحال أن يغم الشيء إلى نفسه، وإنما يضاف الشيء إلى الشيء ليتبين به معنى الملك أو النوع،
 فحال أن يتبين أنه مالك نفسه أو من نوعها . و « شهاب قيس » إضافة النوع والجنس ،
 كما تقول : هذا ثوبٌ نرٌّ ، وخاتمٌ حديدٌ وشبهه . والشهاب كل ذى نورٍ نحو الكوكب والعود
 الموقد . والقيس اسم لما يقتبس من جرموا أشبهه ؛ فالمعنى شهاب من قيس . يقال :
 أقيست قيساً ؛ والاسم قيس . كما تقول : قبضت قبضاً ، والاسم القبض . ومن قرأ « شهاب
 قيس » جملة بدلاً منه . المهدوى : أوصفة له ؛ لأن القيس يجوز أن يكون اسماً غير صفة ،
 ويجوز أن يكون صفة ؛ فاما كونه غير صفة فلأنهم قالوا قبسته أقبسه قيساً والقيس المقبوس ؛
 وإذا كان صفة فالأحسن أن يكون نعتاً . والإضافة فيه إذا كان غير صفة أحسن . وهى
 إضافة النوع إلى جلسه تكاتم فضة وشبهه . ولو قرئ بنصب قيس على البيان أو الحال كان
 أحسن . ويجوز في غير القرآن شهاب قيساً على أنه مصدر أو بيان أحوال . « لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ »
 أصل الطاء تاء فأبدل منها طاء ؛ لأن الطاء مطبقة والصاد مطبقة فكان الجمع بينهما حسناً ،
 ومعناه يستدفنون من البرد . يقال : أصطلى يصطلى إذا أستدفأ . قال الشاعر :
 النارُ فأكهمُ الشتاءَ فمن يُردُّ * أكلَ الفواكهَ شاتياً فلبصطلى
 الزجاج : كل أبيض ذى نور فهو شهاب . أبو عبيدة : الشهاب النار . قال أبو التيم :
 كأنما كان شهاباً واقداً * أضياء ضوءاً ثم صار خامداً

أحمد بن يحيى : أصل الشهاب عود في أحد طرفيه جمرة والآخر لا نار فيه ؛ وقول النحاس
 فيه حسن : والشهاب الشماع المضيء ومنه الكوكب الذى يمد ضوءه في السماء . وقال الشاعر :

في كفه صعدةٌ متفنةٌ * فيها سنانٌ كشعلية القيس

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا ﴾ أى فلما جاء موسى الذى ظن أنه نار وهى نور ؛ قاله
 وهب بن منبه . فلما رأى موسى النار وقف قريباً منها ، فرأها تخرج من فرع شجرة
 خضراء شديدة الخضرة يقال لها التليق ، لا تزداد النار إلا عظماً وتضرباً ، ولا تزداد

إلا خضرة وحسنا ؛ فنجب منها وأهوى إليها بضفت في يده ليقبض منها ؛ قالت إليه ؛
 غافها فأنس عنها ؛ ثم لم تزل تطعمه ويطعم فيها إلى أن وضع أمرها على أنها مأمورة لا يدرى
 من أمرها ، إلى أن « تَوَدَّى أَنَّ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا » . وقد مضى هذا المعنى
 في « طه » . (تَوَدَّى) أى ناداه الله ؛ كما قال : « وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ » .
 (أَنَّ بُورِكَ) قال الزجاج : « أَنَّ » في موضع نصب ؛ أى بأنه . قال : ويجوز أن تكون
 في موضع رفع جعلها اسم ما لم يسم فاعله . وحكى أبو حاتم أن في قراءة أبي وأبن عباس
 ومجاهد « أن بوركت النار ومن حولها » . قال الحاس : ومثل هذا لا يوجد بإسناد صحيح ،
 ولو صح لكان على التفسير ، فتكون البركة راجعة إلى النار ومن حولها الملائكة وموسى .
 وحكى الكسائي عن العرب : باركك الله ، وباركك فيك . الثعلبي : العرب تقول باركك الله ،
 وباركك فيك ، وبارك عليك ، وبارك لك ، أربع لغات . قال الشاعر :

فبوركتَ مولودًا وبوركتَ ناسيًا • وبوركتَ عند الشَّيْبِ إذ أنتَ أشيبُ

الطبري : قال « بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ » ولم يقل بورك [في من في] النار على لغة من يقول
 باركك الله . ويقال باركك الله ، وبارك له ، وبارك عليه ، وبارك فيه بمعنى ؛ أى بورك على
 من في النار وهو موسى ، أو على من في قرب النار ؛ لأنه كان في وسطها . وقال السدي :
 كان في النار ملائكة فالتبريك عائد إلى موسى والملائكة ؛ أى بورك فيك يا موسى وفي الملائكة
 الذين هم حولها . وهذا تحية من الله تعالى لموسى وتكرمة له ، كما حيا إبراهيم على السنة الملائكة
 حين دخلوا عليه ؛ قال : « رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ » . وقول ثالث قاله ابن عباس
 والحسن وسعيد بن جبير : قُدِّسَ مَنْ فِي النَّارِ وهو الله سبحانه وتعالى ، عني به نفسه تقدس
 وتعالى . قال ابن عباس ومحمد بن كعب : النار نور الله عز وجل ؛ نادى الله موسى وهو
 في التور ؛ وتأويل هذا أن موسى عليه السلام رأى تورا عظيما فظنه نارا ؛ وهذا لأن الله تعالى
 ظهر لموسى بآياته وكلامه من النار لا أنه يتحيز في جهة « وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ »

لا أنه يتميز فيهما، ولكن يظهر في كل فعل فيعلم به وجود الفاعل. وقيل على هذا: أي يورك
من في النار سلطاناً وقدرته. وقيل: أي يورك ما في النار من أمر الله تعالى الذي جعله علامة.
قلت: ومما يدل على صحة قول ابن عباس ما أخرجه مسلم في صحيحه، وابن ماجه
في سننه واللفظ له عن أبي موسى قال قال رسول الله صل الله عليه وسلم: "إن الله لا ينام
ولا يئس له أن ينام بمحض القسط ويرفعه حجاب النور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه
كل شيء أدركه بصره" ثم قرأ أبو عبيدة "أَنَّ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ" أخرجه البيهقي أيضاً. ولفظ مسلم عن أبي موسى قال: قام فينا رسول الله صل
الله عليه وسلم بحسب كلمات، فقال: "إن الله عز وجل لا ينام ولا يئس له أن ينام بمحض
القسط ويرفعه يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجاب النور -
وفي رواية أبي بكر النار - لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه"
قال أبو عبيد: يقال السُّبُحات إنها جلال وجهه، ومنها قيل: سبحان الله إنما هو تعظيم له
وتزنيه. وقوله: "لو كشفها" يعني لو رفع الحجاب عن أعينهم ولم يثبتهم لرؤيته لاحترقوا
وما استطاعوا لها. قال ابن جريج: النار حجاب من المحجب وهي سبعة حجب: حجاب العزة،
وحجاب الملك، وحجاب السلطان، وحجاب النار، وحجاب النور، وحجاب الغمام، وحجاب
الماء. وبالْحَقِيقَةُ فالْمَخْلُوقُ المحجوب والله لا يحجبه شيء، فكانت النار نوراً وإنما ذكره
بلفظ النار؛ لأن موسى حسبه ناراً، والعرب تضع أحدهما موضع الآخر. وقال سعيد بن
جبير: كانت النار بينهما فاسمعه تعالى كلامه من ناحيتها، وأظهر له ربوبيته من جهتها.
وهو كما روي أنه مكتوب في التوراة: «جاء الله من سيئه وأشرف من ساعير وأسئتل من
جبال فاران». فجئته من سيئه بشبه موسى منها، وإشرافه من ساعير بشبه المسيح منها،
وأسئلاؤه من فاران بشبه محمداً صل الله عليه وسلم، وفاران مكة. وسألي في «القصص»
بإسماعه سبحانه كلامه من الشجرة زيادة بيان إن شاء الله تعالى.

(١) لدل ثابت الضير تأويل النور الأنوار. (طاش ابن ماجه).

قوله تعالى : (وَنُوحًا إِذْ رَأَىٰ رَبَّهُ فَحَدَّثَ) تنزيها وتقديسا لله رب العالمين . وقد تقدم في غير موضع ، والمعنى : أى ويقول من حوطا « وَنُوحًا إِذْ رَأَىٰ » لحذف . وقيل : إن موسى عليه السلام قاله حين فرغ من سماع النداء ؛ استعانة بالله تعالى وتنزيها له ؛ قاله السدى . وقيل : هو من قول الله تعالى . ومناه : وبورك فيمن سبح الله تعالى رب العالمين ؛ حكاية آية شجرة .

قوله تعالى : (يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) الهاء عماد وليست بكناية في قول الكافرين . والصحيح أنها كناية عن الأمر والشأن . « أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ » الغالب الذى ليس كمثل شيء « الْحَكِيمُ » فى أمره وقضاه . وقيل : قال موسى يارب من الذى نادى ؟ فقال له : « إِنَّهُ » أى إني أنا المتادى لك « أَنَا اللَّهُ » .

قوله تعالى : (وَأَلْقَىٰ عَصَاكَ) قال وهب بن منبه : ظن موسى أن الله أمره أن يرفضها فرفضها . وقيل : إنما قال له ذلك ليعلم موسى أن المكلم له هو الله ، وأن موسى رسوله ؛ وكل نبى لا بد له من آية فى نفسه يعلم بها نبوته . وفى الآية حذف : أى وألقى عصاك فالتفاه من يده فصارت حية تهتز كأنها جان ، وهى الحية الخفيفة الصغيرة الجسم . وقال الكلبي : لا صغيرة ولا كبيرة . وقيل : إنما قلبت له أولا حية صغيرة فلما أنس منها قلبت حية كبيرة . وقيل : أقلبته مرة حية صغيرة ، ومرة حية تسمى وهى الأفعى ، ومرة ثعبانا وهو الذكر الكبير من الحيات . وقيل : المعنى أقلبته ثعبانا تهتز كأنها جان لها عظم الثعبان وخفة الجناح وأعترانه وهى حية تسمى . وجمع الجناح جناح ؛ ومنه الحديث « نهى عن قتل الجنان التى فى البيوت » . (وَلَيْ مُدْرِي) خائفا على طاعة البشر (وَلَمْ يَقْبَ) أى لم يرجع ؛ قال مجاهد . وقال قتادة : لم يثقت . (يَا مُوسَىٰ لَا تَحْزَنْ) أى من الحية وضربها . (إِنِّي لَأَيِّتُكَ لَدَى الْمَرْسُولِ) وتم الكلام ثم استثنى استثناء منقطعا فقال : (إِلَّا مَنْ ظَلَمَ) . وقيل : إنه استثناء من محذوف ؛ والمعنى : إني لا يخاف لى المرسلون وإنما يخاف غيرهم ممن ظلم (إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَدْدَ سُوءًا) فإنه لا يخاف ؛ قاله الفراء .

قال النحاس : استثناء من محذوف محال ؛ لأنه استثناء من شيء لم يذكر ولو جاز هذا لجاز
إني لأضرب القوم إلا زيدا بمعنى إني لا أضرب القوم وإنما أضرب غيرهم إلا زيدا وهذا
ضمة اليان ، والمجيب بما لا يعرف معناه . وزعم الفراء أيضا : أن بعض النحويين يجعل إلا
بمعنى الواو أى ولا من ظلم ؛ قال :

وكلُّ أخٍ مفارقُهُ أخوه * قَمَرٌ أَيْكَ إِلَّا الْفَرَقْدَانِ

قال النحاس : وكون « إِلَّا » بمعنى الواو لا وجه له ولا يحوز في شيء من الكلام ، ومعنى
« إِلَّا » خلاف الواو ؛ لأنك إذا قلت : جافى إخوانك إلا زيدا أخرجت زيدا عما دخل
فيه الإخوة فلا نسبة بينهما ولا تقارب . وفي الآية قول آخر : وهو أن يكون الاستثناء
متصلا ، والمعنى إلا من ظلم من المرسلين بإتيان الصغار التي لا يسلم منها أحد ، سوى ما روى
عن يحيى بن زكريا عليه السلام ، وما ذكره الله تعالى في شينا عليه السلام في قوله : « لِيُفَيِّرَ
لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » ذكره المهدوى وأختره النحاس ؛ قال : علم الله من
عصى منهم [بسر الخفية] فاستثناء فقال : « إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حَسًّا بَعْدَ سُوءٍ » فإنه يخاف
وإن كنت قد غفرت له . الضحاك : بين آدم وداود عليهما السلام . الزمخشري : كالذي
فرط من آدم ويونس وداود وسليمان وإخوة يوسف ، ومن موسى عليه السلام بوزره القبطي .
فإن قال قائل : فما معنى الخوف بعد التوبة والمغفرة ؟ قيل له : هذه سبيل العلماء بالله عز
وجل أن يكونوا خائفين من معاصيهم وجاين ، وهم أيضا لا يأمنون أن يكون قد بقي من
أشراط التوبة شيء لم يأتوا به ، فهم يخافون من المطالبة به . وقال الحسن وأبن جريح :
قال الله لموسى إني أخفكت لتلك النفس . قال الحسن : وكانت الأنبياء تذب تنقأب .
قال التلمبي والقشيري والماوردي وغيرهم : فالاستثناء على هذا صحيح ؛ أى إلا من ظلم نفسه من
النبيين والمرسلين فيما فعل من صغيرة قبل النبوة . وكان موسى خاف من قتل القبطي وتأب منه .
وقد قيل : إنهم بعد النبوة معصومون من الصغار والكبار . وقد مضى هذا في « البقرة » .

(١) الزيادة من «إبراب القرآن» للنحاس . (٢) راجع ج ١ ص ٣٠٨ وما بعدها طبعه ثانية وثالثة .

قلت : والأول أصح لتصلهم من ذلك في القيامة كما في حديث الشفاعة ، وإذا أحدث
المقرب حدثا فهو وإن غفر له ذلك الحدث فأثر ذلك الحدث باق ، وما دام الأمر والتهمة
قائمة فالخوف كائن لا خوف العقوبة ولكن خوف العظمة ، والمثم عند السلطان يمد للتهمة
حرازة لإدبيه إلى أن يكدر عليه صفاء الثقة . وموسى عليه السلام قد كان منه الحدث في ذلك
الفرعون ، ثم استغفر وأقر بالظلم على نفسه ، ثم غفر له ، ثم قال بعد المغفرة « رَبِّ إِنِّي
أُتِمَّمْتُ عَلَىٰ نَفْسٍ أَكُونُ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ » ثم أبطل من الغد بالفرعون الآخر وأراد أن يبطش
به ، فصار حدثا آخر بهذه الإرادة . وإنما أبطل من الغد لقوله : « فَلَنَ أَكُونُ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ »
وتلك كلمة أقدار من قوله لن أفعل ، فعوقب بالإرادة حين أراد أن يبطش ولم يفعل ، فسلط
عليه الإسرائيلي حتى أفضى سره ؛ لأن الإسرائيلي لما رآه تشعر بالبطش ظن أنه يريد ، فافشى
عليه ف « قَالَ يَا مُوسَىٰ أَرِيدُ أَنْ تُقَاتِلَنِي كَمَا قَاتَلْتَ نَفْسًا بِالنَّفْسِ » فهرب الفرعون وأخبر فرعون
بما أفضى الإسرائيلي على موسى ، وكان القتل بالأمس مكتوما أمره ، لا يدري من قتله ،
فلما علم فرعون بذلك ، وجه في طلب موسى ليقتله ، وأشدت الطلب وأخذوا جماع الطرق ؛
جاء رجل يسى ف « قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ » الآية . فخرج كما أخبر الله .
خوف موسى إنما كان من أجل هذا الحدث ؛ فهو وإن قسره ربه وأكرمه وأصطفاه
بالكلام فالتهمة الباقية ولت به ولم يسقط .

قوله تعالى : (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سُوٍّ) تقدم في « طه »
القول فيه . (في نيسج آيات) قال النحاس أحسن ما قيل فيه أن المعنى : هذه الآية داخلة
في تسع آيات . المهدوي : المعنى « أَلَيَّْ عَصَاكَ » « وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ » فهما آيتان من
تسع آيات . وقال القشيري معناه : كما تقول خرجت في عشرة فخرأنت أحدهم . أى خرجت
عاشرة عشرة . ف « غي » بمعنى « من » لقربها منها كما تقول خذني عشرا من الإبل فيها
خلان أى منها . وقال الأصمعي في قول امرئ القيس :

وهل يتعمن من كان آخر عهده * ثلاثين شهرا في ثلاثة أحوال

(١) رابع ص ١١ ص ١٩١ طبة أول أداتية . (٢) وفي رواية : « وهل من » .

في بمعنى من . وقيل : في بمعنى مع ؛ فالآيات عشرة منها اليد ، والتسبع : التناقض والجمع
والجراد والقمل والطوفان والدم والضفادع والسين والطمس . وقد تقدم بيان جميعه .
(إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ) قال الفراء : في الكلام إضمار لدلالة الكلام عليه ، إى إنك مبعوث
أو مرسل إلى فرعون وقومه . (إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) إى خارجين عن طاعة الله ؛
وقد تقدم :

قوله تعالى : (فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً) إى واضحة بينة . قال الأخفش : ويجوز
مبصرة وهو مصدر كما يقال الولد مجبنة . (قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ) جروا على عادتهم
في التكذيب لهذا قال : (وَجحدُوا بِهَا وَاسْتَفْتَاهَا أَنْفُسُهُمْ فَلَمَّا عَلُوا) إى تيقنوا أنها من
عند الله وأنها ليست سحرا ، وسكنهم كفروا بها وتكبروا أن يؤمنوا بموسى . وهذا يدل على
أنهم كانوا معاندين . و «عَلُوا» منصوبان على نعت مصدر محذوف ؛ إى وجحدوا
بها جحدوا ظلما وعلاوا . والباء زائدة إى وجحدوها ؛ قاله أبو عبيدة . (فَانظُرْ) يا محمد
(كَيْفَ كَانَ قَافِيَ الْمُفْسِدِينَ) إى آخر أمر الكافرين الطاغين ، أنظر ذلك بعين قلبك وتدبر
فيه ، الخطاب له والمراد فيه .

قوله تعالى : (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ
الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ) ١٥٠ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ
وَقَالَ يَتْلِيَ آيَاتِ اللَّهِ مِنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا
لَهُوَ الْفَضْلُ الْبَهِينُ ١٥١)

قوله تعالى : (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا) إى فهما ؛ قاله قتادة . وقيل : علما
بالدين والحكم وغيرهما كما قال : « وَعَلَّمْنَاهُ صِنْعَةَ لُبِّإِسْ لَكُمْ » . وقيل : صنعة الكيمياء .
وهو شاذ . وإنما الذى آتاهما الله النبوة والخلافة فى الأرض والزيور . « وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ
(١) الطمس : طمس الشئ . إذعاه عن سورة . وقد صير الله أموالهم ودرامهم حجارة . راجع به ص ٨٠ ص ٣٧٤
طبعة أدل أو ثانية ما

الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين « وفي الآية دليل على شرف العلم وإتانة محله وتقديم حله وأهله، وأن نعمة العلم من أجل النعم وأجل القسم، وأن من أوتيها فقد أوقى فضلا على كثير من عباد الله المؤمنين . » يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات . » وقد تقدم هذا في غير موضع .

قوله تعالى: { وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عِلْمًا مَتَّقُوا الطَّيْرَ وَابْرَأُوا مِن كُلِّ شَيْءٍ } قال الكلبي : كان لداود صلى الله عليه وسلم تسعة عشر ولدا فورث سليمان من بينهم نبوته وملكه، ولو كان وراثته مال لكان جميع أولاده فيه سواء؛ وقاله ابن العربي؛ قال: فلو كانت وراثته مال لا قسمت على العبد؛ نخص الله سليمان بما كان لداود من الحكمة والنبوة، وزاده من فضله ملكا لا يبنى لأحد من بعده . قال ابن عطية : داود من بني إسرائيل وكان ملكا وورث سليمان ملكه ومزقه من النبوة، بمعنى صار إليه ذلك بعد موت أبيه فسمى ميراثا عجوزا؛ وهذا نحو قوله : « العلماء ورثة الأنبياء » ويحتمل قوله عليه السلام : « إنا معشر الأنبياء لانورث » أن يريد أن ذلك من فعل الأنبياء وسيرتهم، وإن كان فيهم من ورث ماله كزكرياه على أشهر الأقوال فيه؛ وهذا كما تقول: إنا معشر المسلمين إنما شغلنا العبادة، والمراد أن ذلك فعل الأكثر . ومنه ما حكى سيويه : إنا معشر العرب أقرى الناس للضيف .

قلت : قد تقدم هذا المعنى في « مرثم »^(١) وأن الصحيح القول الأول لقوله عليه السلام : « إنا معشر الأنبياء لانورث » فهو عام ولا يخرج منه شيء إلا بدليل . قال مقاتل : كان سليمان أعظم ملكا من داود وأقضى منه ، وكان داود أشد تعبدا من سليمان . قال غيره : ولم يبلغ أحد من الأنبياء ما بلغ ملكه ، فإن الله سبحانه وتعالى يحقره الإنس والجن والطير والحوش ، وآناه ما لم يوث أحد من العالمين، وورث أباه في الملك والنبوة، وقام بعده بشريته، وكل بني جاء بعد موسى ممن بعث أو لم يبعث فلأنما كان بشريته موسى، إلى أن بعث المسيح عليه السلام لنسخها . وينسب إليه الهجرة نحو من ألف وثمانمائة سنة . واليهود تقول ألف

(١) راجع ج ١١ ص ٨١ وما بعدها غيبة أهل أرقانة .

وثلاثمائة وأثنان وستون سنة . وقيل : إن بين موته وبين مولد النبي صلى الله عليه وسلم نحواً من ألف وسبعمائة ، واليهود تنقص منها ثلثمائة سنة ، وعاش نيفاً وخمسين سنة .

قوله تعالى : « وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ » أي قال سليمان لبنى إسرائيل على جهة الشكر لنعم الله « حَاسِبُوا مَنَافِعَ الطَّيْرِ » أي تفضل الله علينا على ما ورثنا من داود من العلم والنبوة والخلافة في الأرض في أن فهمنا من أصوات الطيور المصاني التي في نفوسها . قال مقاتل في الآية : كان سليمان جالساً ذات يوم إذ مر به طائر يطوف ، فقال لجلسائه : أتدرون ما يقول هذا الطائر ؟ إنها قالت لي : السلام عليك أيها الملك المسلط والنبى طينى إسرائيل ! أعطاك الله الكرامة ، وأظهرك على عدوك ، إنى منطلق إلى أفراسى ثم أمرت بك الشانية ، وإنه سيرجع إلينا الثانية ثم رجع ، فقال إنه يقول : السلام عليك أيها الملك المسلط ، إن شئت أن تأذن لي كيأ أكتسب على أفراسى حتى يشيروا ثم أتيتك فافعل بى ما شئت . فأخبرهم سليمان بما قال ، وأذن له فاطلق . وقال فرقد السبخى : مر سليمان على بلبل فوق شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه ، فقال لأصحابه : أتدرون ما يقول هذا البلبل ؟ قالوا لا يا نبي الله . قال إنه يقول : أكلتُ نصف ثمرة نخل الدنيا العفاه . ومر بهد فوق شجرة وقد نصب له صبي فخا فقال له سليمان : أحذر ياهدهد ! فقال : يا نبي الله ! هذا صبي لا عقل له فانا أصغر به . ثم رجع سليمان فوجده قد وقع في جباله الصبي وهو في يده ، فقال : هدهد ما هذا ؟ قال : ما رأيته حتى وقعت فيها يا نبي الله . قال : ويمك ! فانت ترى المساء تحت الأرض أما ترى الفخ ! قال : يا نبي الله إذا نزل الغشاء على البصر . وقال كسب . صباح ورشان عند سليمان ابن داود ، فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : لا . قال إنه يقول : لدوا لوت وآبنوا لقراب . وصاحت فاختة ، فقال : أتدرون ما تقول ؟ قالوا : لا . قال إنها تقول : ليست هذا الخلق لم يُخلقوا وليتهم إذ خلقوا علموا ماذا خلقوا . وصباح عنده طلوس ، فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : لا . قال إنه يقول : كما تدين ندان . وصباح عنده هدهد ، فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : لا . قال فإنه يقول : من لا يرحم لا يُرحم ، وصباح صرد عنده ، فقال : أتدرون ما يقول ؟

قالوا : لا . قال إنه يقول : استغفروا الله يا مثنين ؛ فمن ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتله . وقيل : إن الصرد هو الذي دل آدم على مكان البيت ، وهو أول من صام ؛ ولذلك يقال للصرد الصوم ؛ روى عن أبي هريرة ، وصاحت عنده طيطوى فقال : أندرون ما تقول ؟ قالوا : لا . قال إنها تقول : كل من ميت وكل جديد بال . وصاحت خطافة عنده ، فقال : أندرون ما تقول ؟ قالوا : لا . قال إنها تقول : قدموا خيرا تجدوه ؛ فمن ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتلها . وقيل : إن آدم خرج من الجنة فاشتكى إلى الله الوحشة ، فأنس الله تعالى بالخطاف وألهمها البيوت ، فهي لا تفارق بني آدم أنسا لهم . قال : ومما أريج آيات من كتاب الله عز وجل : « لَوْ أَتَوْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ » إلى آخرها وتمت صوتها بقوله « الْغَزِيرُ الْحَكِيمُ » . وهدرت حمامة عند سليمان فقال : أندرون ما تقول ؟ قالوا : لا . قال إنها تقول : سبحان ربى الأعلى عدد ما فى سمواته وأرضه . وصاح ثمرى عند سليمان ، فقال أندرون ما يقول ؟ قالوا : لا . قال إنه يقول : سبحان ربى العظيم المهيمن . وقال كمب : وحدهم سليمان ، فقال النراب يقول : اللهم ألهم العشار ، والحداة تقول : « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ » . والقطاة تقول : من مسكت سليم ، والبيضاء تقول : ويل لمن الدنيا همه . والصفدع يقول : سبحان ربى القدوس . والبازى يقول : سبحان ربى وبحمده . والسرطان يقول : سبحان المذكور بكل لسان فى كل مكان .

وقال مكبحول : صاح دُراج عند سليمان ، فقال : أندرون ما يقول ؟ قالوا : لا . قال إنه يقول : « الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى » . وقال الحسن بن علي بن أبي طالب قال النبي « الذي إذا صاح قال أذكروا الله يا غافلين » . وقال الحسن بن علي بن أبي طالب قال النبي صلى الله عليه وسلم : « النفس إذا صاح قال يا بن آدم عيش ماشئت فاترك الموت وإذا صاح العُقاب قال فى البعد من الناس الراحة وإذا صاح القُفَر قال إلى المن مفضى آل مجد وإذا صاح الخطاف قرأ « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » إلى آخرها فيقول « وَلَا الضَّالِّينَ » ويمد بها صوته كما يمد القارئ » . قال قتادة والشَّعْبِيُّ : إنما هذا الأمر فى الطير خاصة ، لقوله : « عُلِمَتْ

مَنطِقَ الطَّيْرِ، والثَّالِثَةُ طَائِرٌ إِذْ قَدْ يَوْجَدُ لَهُ أَجْنَحَةٌ، قَالَ الشَّعْبِيُّ : وَكَذَلِكَ كَانَتْ هَذِهِ الثَّمَلَةُ ذَاتَ جَنَاحَيْنِ . وَقَالَتْ فِرْقَةٌ : بَلْ كَانَ فِي جَمِيعِ الْحَيَوَانَ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ الطَّيْرَ لِأَنَّهُ كَانَ جَنْدًا مِنْ جُنْدِ سُلَيْمَانَ يَحْتَاجُهُ فِي التَّنْظِيلِ مِنَ الشَّمْسِ وَفِي الْبَعْثِ فِي الْأُمُورِ نَحْصًا بِالذِّكْرِ لِكَثْرَةِ مَدَاخِلِهِ ؛ وَلَئِنْ أَمَرَ سَائِرَ الْحَيَوَانَ نَادِرٌ وَغَيْرُ مُتَرَدِّدٍ زِدَادَهُ أَمْرَ الطَّيْرِ . وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ النَّحَّاسُ : وَالْمَنْطِقُ قَدْ يَقَعُ لِمَا يَفْهَمُ بِضَمِيرِ كَلَامٍ، وَاللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ أَعْلَمُ بِمَا أَرَادَ . قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ : مَنْ قَالَ إِنَّهُ لَا يَعْلَمُ إِلَّا مَنْطِقَ الطَّيْرِ فَقَصَصَانٌ عَظِيمٌ، وَقَدْ أَتَفَقَ النَّاسُ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يَفْهَمُ كَلَامَ مَنْ لَا يَتَكَلَّمُ وَيَخْلُقُ لَهُ فِيهِ الْقَوْلُ مِنَ النَّبَاتِ، فَكَانَ كُلُّ نَبْتٍ يَقُولُ لَهُ : أَنَا شَجَرٌ كُنَّا ؛ أُنْفَعُ مِنْ كُنَّا وَأَضَرُّ مِنْ كُنَّا ؛ فَمَا ظَنُّكَ بِالْحَيَوَانَ .

قوله تعالى : وَحِشْرَ لَيْلِيَّانَ جُنُودَهُ مِنْ إِلَيْنِ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ
فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٣٧﴾

فيه مستطاب :

الأولى - قوله تعالى : « وَحِشْرَ لَيْلِيَّانَ » « حِشْرٌ » جَمْعُ الْحِشْرِ الْجَمْعُ وَمِنْهُ قَوْلُهُ هَزَّ وَجَلَ : « وَحِشْرَتَاهُمْ فَلَمْ تَفَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا » وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي مَقْدَارِ جُنْدِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ فَيَقَالُ : كَانَ مَعَهُ مِائَةُ فَرَسٍ فِي مِائَةِ نَحْصَةِ وَعِشْرُونَ لَيْلِيَّانَ، وَخَمْسَةُ وَعِشْرُونَ لِلْإِنْسِ، وَخَمْسَةُ وَعِشْرُونَ لِلطَّيْرِ، وَخَمْسَةُ وَعِشْرُونَ لِلْوَحْشِ . وَكَانَ لَهُ أَلْفُ بَيْتٍ مِنْ قُورَارٍ عَلَى انْخِطَابِ فِيمَا لَثَامَانَةُ مَكْنُوحَةٍ وَسِبْغَانَةُ سَرِيَّةَ . ابْنُ عَطِيَّةٍ : وَاخْتَلَفَ فِي مَعْسُكِهِ وَمَقْدَارِ جُنْدِهِ أَخْتِلَافًا شَدِيدًا غَيْرَ أَنَّ الصَّحِيحَ أَنَّ مَلِكَهُ كَانَ عَظِيمًا مَلَأَ الْأَرْضَ، وَأَقْدَاقَتْ لَهُ الْمَعْمُورَةُ كُلُّهَا . (فَهُمْ يُوزَعُونَ) مَنَاهُ يُرَدُّ أَوَّلُهُ إِلَى آخِرِهِمْ وَيُكَفَّرُونَ . قَالَ قَتَادَةُ : كَانَ لِكُلِّ صَنْفٍ وَزَعَةٌ فِي رَجَتِهِمْ وَمَوَاضِعُهُمْ مِنَ الْكَمْيِّ وَمِنَ الْأَرْضِ إِذَا شَبَّوْا فِيهَا . يَقَالُ : وَزَعَتُهُ أَرْزَمَهُ وَزَعَا أَيْ كَفَفْتَهُ . وَالْوَازِعُ فِي الْحُوبِ الْمُوَكَّلُ بِالصَّفُوفِ يَزِعُ مَنْ تَهْدُمُ مِنْهُمْ . رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ قَالَتْ : لَمَّا وَقَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذِي طَلُوسٍ - تَفَى

يوم الفتح - قال أبو حنيفة وقد كُفَّ بصره يومئذ لا يشه : أظهرى بي على أبى قُبَيْس .
 قالت : فاشرفت به عليه فقال : ماترين ؟ قالت : أرى سوادا جثمتما . قال تلك الخليل .
 قالت وأرى رجلا من السواد مقبلا ومدبرا . قال : ذلك الوزع يمنعا أن تنتشر . وذكر
 تمام الخبر . ومن هذا قوله عليه السلام : " ما رزى الشيطان يوما هو فيه أصغر ولا أدر
 ولا أحقر ولا أخف منه في يوم عرفة وما ذاك إلا لما رأى من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن
 الذنوب العظيم إلا ما رأى يوم بدر " قيل : وما رأى يا رسول الله ؟ قال : " أما أنه رأى
 جبريل يزج الملائكة " نزع الموطأ . ومن هذا المعنى قول النابغة :

على حين ما تبث المسيب على الصبا • وقلتُ لك أجمع والشيبُ وازعُ
 أخسر :

ولما تلاقينا جرت من جفوننا • دموعٌ وزعنا فربها بالأصابع
 أخسر :

ولا يزج النفس الجوج من الهوى • من الناس إلا وافر العقل كامله
 وقيل : هو من التوزيع بمعنى التفريق . والقوم أوزاع أى طوائف . وفي القصة : إن
 الشياطين نسجت له بساطا فرمحا في فرج ذهابا في إبريسم ، وكان يوضح له كرمى من ذهب
 وحوله ثلاثة آلاف كرمى من ذهب ونضة فيقعد الأنبياء على كراسى الذهب ، والعلماء على
 كراسى الفضة .

الثانية - في الآية دليل على اتخاذ الإمام والحكام وزمة يكفون الناس ويمنعونهم
 من تطاول بعضهم على بعض ، إذ لا يمكن الحكام ذلك بأنفسهم . وقال ابن عون : سمعت
 الحسن يقول وهو في مجلس قضائه لما رأى ما يصنع الناس قال : والله ما يصلح هؤلاء الناس
 إلا وزمة . وقال الحسن أيضا : لا بد للناس من وازع ، أى من سلطان يكفهم . وذكر ابن
 القاسم قال حدثنا مالك أن عثمان بن عفان كان يقول : ما يزج الإمام أكثر مما يزج القرآن ،
 أى من الناس . قال ابن القاسم : قلت لمالك ما يزج ؟ قال : يكف . قال القاضي أبو بكر
 ابن العربي : وقد جهل قوم المراد بهذا الكلام ، فظنوا أن المعنى فيه أن قدرة السلطان تردع

الناس أكثر مما تزدحم حدود القرآن وهذا جهل بالله وحكمته . قال : فإن الله ما وضع الحدود إلا مصلحة عامة قائمة لقوام الخلق ، لا زيادة عليها ، ولا نقصان منها ، ولا يصلح مساواة ، ولكي النظرة خاصوا بها ، وقصروا عنها ، وأتوا ما أتوا بغيرية ، ولم يقدروا وجه الله في القضاء بها ، فلم يمدح الخلق بها ، ولا حكوا بالعدل ، وأخطأوا اليقظة ، لاستغاثت الأُمور ، وصلى الجمهور .

قوله تعالى : **حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمۡ لَا يَنْصَلِحَكُمۡ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ** (١٨) **فَتَسَمَّىٰ فِي هَٰذَا مِنۡ قَوْلِكُمْ وَقَالَ رَبِّ أُوذِيتُۢ بِأَنَّ أَشْكَرَ نِعْمَتِكَ أَيُّهُنَّ اتَّعَمَّتْ عَلَىٰ وَلِيِّ وَلَيْسَ وَأَنْتَ أَكْمَلُ صَالِحًا رَّضِيتُهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ** (١٩)

فيهِ مَسَائِلُ :

الأولى - قوله تعالى : **(حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ)** قال قتادة : ذكر لنا أنه واد بأرض الشام . وقال كعب : هو بالطائف . **(قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ)** قال الشعبي : كان للنملة جناحان فصارت من الطير ، فلذلك علم منعها ولولا ذلك لما علمه . وقد مضى هذا وما بقي . وقرا سليمان التيمي بحكة « نَمْلَةٌ » و « النَّمْلُ » بفتح النون وضم الميم . وعنه أيضا ضمهما جميعا . وصيرت النملة غلة لتعلمها وهو كثرة حركتها وقلة قرارها . قال كعب : مر سليمان عليه السلام بإحدى الدوير من أودية الطائف ، فأتى على وادي النمل ، فقامت غلة تسمى وهي عرجاء تتكاثر مثل الذئب في العظم ، فنادت « يَا أَيُّهَا النَّمْلُ » الآية . الزخري : سمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال ، وكانت تسمى وهي عرجاء تتكاثر ، وقيل : كان اسمها طابخية . وقال السهيلي : ذكروا اسم النملة المكلمة لسليمان عليه السلام ، وقالوا اسمها حرميا ، ولا أدري كيف يتصور النملة اسم علم والنمل لا يسمى بضمه . ولا الآميون يمكنهم تسمية

وأحدة منهم باسم علم، لأنه لا يتميز للادميين بعضهم من بعض، ولا هم أيضا واقعون تحت
ملكه بنى آدم كليل والكلاب ونحوها، فإن العلية فيها كان كذلك موجودة عند العرب، فإنه
قلت: إن العلية موجودة في الأجناس كشملة وأسامه وجمار وقناع في الضبع ونحو هذا كثير
قلبس اسم الخلة من هذا؛ لأنهم زعموا أنه اسم علم خلة واحدة معينة من بين سائر الخل، وثالثة
ونحوه لا يختص بواحد من الجنس، بل كل واحد رأيته من ذلك الجنس فهو ثالثة، وكذلك أسامة
وأبن أوى وأبن عرس وما أشبه ذلك. فإن صح ما قالوه فله وجه، وهو أن تكون هذه
الخلة الناطقة قد سميت بهذا الاسم في التوراة أو في الزبور أو في بعض الصحف سماها الله
تعالى بهذا الاسم، وعرفها به الأنبياء قبل سليمان أو بعضهم. وخصت بالسمية لظلمها
وإيمانها فهذا وجه، ومعنى قولنا بإيمانها أنها قالت للنمل: ﴿لَا يَحِيطَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فقولها «وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» التفاتة مؤمن. أي من عدل سليمان وفضله
وفضل جنوده لا يحيطون خلة لما فوقها إلا بالاشعور. وقد قيل: إن تبسم سليمان مرور
بهذه الكلمة منها؛ ولذلك أكد التبسم بقوله: «ضاحكا» إذ قد يكون التبسم من غير ضحك
ولارضا، ألا تراهم يقولون تبسم تبسم الفضياب وتبسم تبسم المستهزئين. وتبسم الضحك إنما
هو عن مرور، ولا يشعري بأمر دنيا؛ وإنما سُر بما كان من أمر الآخرة والدين. وقولها:
«وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» إشارة إلى الذين والعدل والرأفة. ونظير قول الخلة في جند سليمان «وَهُمْ
لَا يَشْعُرُونَ» قول الله تعالى في جند عبد صلى الله عليه وسلم «فَصَيَّبَكُمْ مِنْهُمْ مَبْعَرَّةً يَسَرُّ»
التفاتا إلى أنهم لا يقصدون هدر مؤمن. إلا أن المتن على جند سليمان هي الخلة بإذن الله
تعالى، والمتن على جند عبد صلى الله عليه وسلم هو الله عز وجل بنفسه؛ لما جلود عبد صلى
الله عليه وسلم من الفضل على جنسه غيره من الأنبياء؛ كما لحمد صلى الله عليه وسلم فضل على
جميع النبيين صلى الله عليهم وسلم أجمعين. وقرأ شبرين حوشب «مَسْكَنَكُمْ» يسكون
السكن على الأفراد. وفي مصحف أبي: «مَسَاكِنُكُمْ لَا يَحِيطَنَّكُمْ». وقرأ سليمان التيمي
«مَسَاكِنُكُمْ لَا يَحِيطَنَّكُمْ» ذكره النحاس؛ أي لا يكسر نكم بوطئهم عليكم وهم لا يعلمون بكم.

قال المهدوى : وأنهم الله تعالى التلمة هذا لتكون معجزة سليمان . وقال وهب : أمر الله تعالى الريح ألا يتكلم أحد بشيء إلا طرحت في سمع سليمان ؛ بسبب أن الشياطين أرادت كيده . وقد قيل : إن هذا الوادى كان ببلاد اليمن وأنها كانت غلة صغيرة مثل القمل المتعاد ؛ قاله الكلبي . وقال نون الشامي وشقيق بن سلمة : كان نمل ذلك الوادى كهية الذناب في العظم . وقال بريدة الأسلمي : كهية النعاج . قال محمد بن علي الترمذي : فإن كان هل هذه الخلقه فلها صوت ، وإنما أفتقد صوت القمل لصغر خلقها ، وإلا فالأصوات في الطيور والبهائم كائنه ، وذلك منقطعهم ، وفي تلك المناطق معاني التسبيح وغير ذلك ، وهو قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » .

قلت : وقوله « لَا يَحِيطَنَّكُمْ » يدل على صحة قول الكلبي ؛ إذ لو كانت كهية الذناب والنعاج لما حطمت بالوطء ؛ والله أعلم . وقال : « أَدْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ » بقاء على خطاب الآدميين لأن النمل هاهنا أجرى مجرى الآدميين حين نطق كما ينطق الآدميون . قال أبو إسحق الثعلبي : ورأيت في بعض الكتب أن سليمان قال لها لم حذرت النمل ؟ أخفت ظلمي ؟ أما علمت أني نجي عدل ؟ فلم قلت « يَحِيطَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ » فقالت التلمة : أما سمعت قولني « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » مع أني لم أرد حطم النفوس ، وإنما أردت حطم القلوب خشية أن يمتن مثل ما أعطيت ، أو يقتن بالدنيا ، ويستغفل بالنظر إلى ملكك عن التسبيح والذكر . فقال لها سليمان : عظمي . فقالت التلمة : أما علمت لم سمي أبوك داود ؟ قال : لا . قالت : لأنه داوى جراحة فؤاده ؛ هل علمت لم سميت سليمان ؟ قال : لا . قالت : لأنك صليح الناحية على ما أوتيته بسلامة صدرك ، وإن لك أن تلحق بأبيك^(١) . ثم قالت : أندري لم سخر الله لك الريح ؟ قال : لا . قالت : أخبرك أن الدنيا كلها ريح . (تَبَسُّمٌ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا) متعجبا ثم مضت ممرعة إلى قومها ، فقالت : هل عندكم من شيء تهدي به إلى

(١) العبارة في «قصص الأنبياء» : «قلت : لأنك سمي وكنت إلى ما أوتيت بسلامة صدرك» وسمى لك

لأنه تيسر عليك داود .

نبي الله ؟ قالوا : وما قدر ما نهدى له ! والله ما عندنا إلا نبقة واحدة . قالت : حسنة ؛ آيتوني بها . فاتواها بها فحملتها بضيها فأطلقت تجرها ، فأمر الله الريح لحملتها ، وأقبلت تنشق الأنس والجن والعلماء والأنبياء على البساط ، حتى وقعت بين يديه ، ثم وضعت تلك النبقة من فيها في كفه ، وأنشأت تقول :

ألم ترنا نُهْدِي إلى الله مَالَهُ • وإن كان عنه ذاغى فهو قابله
ولو كان يُهْدَى للجليل بقدره • لقصر عنه البحرُ يوماً وساحله
ولكننا نُهْدِي إلى من نُحِبُّ • فيرضى به عنا ويشكر فاعله
وما ذاك إلا من كريمِ فصائله • وإلا لما في ملكنا ما يشاكله

هكذا لما : بارك الله فيكم ؛ فهم بتلك الدعوة أشكر خلق الله وأكثر خلق الله . وقال ابن عباس : نبي النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل أربع من الدواب : المدهد والصرَد والقملة والنحلة ؛ بحسبه أبو داود وصححه أبو محمد عبد الحق وروى عن حديث أبي هريرة . وقد مضى في « الأعراف »^(١) . فالقملة أُنْتُت على سليمان وأُخْبِرَتْ بأحسن ما تقدر عليه بأنهم لا يشعرون إن حطموكم ، ولا يفعلون ذلك عن عمد منهم ، فنفت منهم الجور ؛ ولذلك نهى عن قتلها ، وعن قتل المدهد ؛ لأنه كان دليل سليمان على الماء ورسوله إلى بلقيس . وقال عكرمة : إنما صرف الله شر سليمان عن المدهد لأنه كان باراً بوالديه . والصرَد يقال له الصوم . وروى عن أبي هريرة قال : أَوَّلُ من صام الصَّرَدَ ولم يخرج إبراهيم عليه السلام من الشام إلى الحرم في بناء البيت كانت السكينة معه والصرَدُ ، فكان الصَّرَدُ دليله على الموضوع والسكينة مقداره ، فلما صار إلى البقعة وقعت السكينة على موضع البيت وأدت وقالت : ابن يا إبراهيم على مقدار ظلي . وقد تقدّم في « الأعراف » سبب النهي عن قتل الضفدع وفي « النحل » النهي عن قتل النمل . والحمد لله .

(١) راجع ج ٧ ص ٢٧٠ طبعه أول مرة .

(٢) السكينة : صحابة كافي القصة . وفي حديث علي رضي الله عنه إن السكينة ريح سريفة المر . وليس يراخ .

(٣) راجع ج ٤ ص ١٣٤ طبعه أول مرة ثانية .

الثانية - قرأ الحسن « لَا يَحْطِمَنَّ » وعنه أيضا « لَا يَحْطِمَنَّ » وعنه أيضا وعن أبي رواء « لَا يَحْطِمَنَّ » والْحَطْمُ الكسر . حطمنه حَطًّا أى كسره وتَحَطَّمَ ، والتَحَطَّيْمُ التكسير . « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » يجوز أن يكون حالا من سليمان وجنوده ، والعاقل في الحال « يَحْطِمَنَّ » . أو حالا من النملة والعاقل « قالت » . أى قالت ذلك في حال غفلة الجنود ، كقولك : قمت والناس غافلون . أو حالا من النمل أيضا والعاقل « قَالَتْ » هل أن المعنى : والنمل لا يشعرون أن سليمان يفهم مقالتها . وفيه بعد وسيأتى .

الثالثة - روى مسلم من حديث أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " أن نملة قرصت نيا من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت فأوسى الله تعالى إليه أنى أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح " وفي طريق آخر : " فهلا نملة واحدة " . قال علماءنا : يقال إن هذا النبي هو موسى عليه السلام ، وإنه قال : يارب تعذب أهل قرية بمصاصهم وفهم الطاع . فكانه أحب أن يريه ذلك من عنده ، فسلط عليه الحز حتى أتجأ إلى شجرة مستروا إلى ظلها ، وعندها قرية النمل ، فظله النوم ، فلما وجد لذة النوم لبسته النملة فأصغرت ، فدلكن بقدمه فأهلكهن ، وأحرق تلك الشجرة التي عندها مساكنهم ، فأراه الله العبرة في ذلك آية : لما لدغتك نملة فكيف أصبت الباقيين بمقوتها ! يريد أن ينبه أن العقوبة من الله تعالى تتم بتصغير رحمة على المصنع وطهارة وبركة ، وشرا وتقمة على العاصي . وعلى هذا فليس في الحديث ما يدل على كرامة ولا حظ في قتل النمل ، فإن من آذاك حل لك دفعه عن نفسك ، ولا أحد من خلقه أعظم حرمة من المؤمن ، وقد أبيع لك دفعه عنك بقتل وضرب على المقدار ، فكيف بالهوام والدواب التي قد تخترت لك وساطت عليها ، فإذا آذاك أبيع لك قتله . وروى عن إبراهيم : ما آذاك من النمل فاقتله . وقوله : " ألا نملة واحدة " دليل على أن الذي يؤذى يؤذى ويقتل ، وكلما كان القتل لنفع أو دفع ضرر فلا بأس به عند العلماء . وأطلق له نملة ولم يخص تلك النملة التي لدغت من غيرها ؛ لأنه ليس المراد القضاء ؛ لأنه لو أراد لفساد ألا نملك التي لدغتك ، ولكن قال : ألا نملة مكان نملة ؛ فهم البرية

والجاني بذلك، ليعلم أنه أراد أن يبينه لمسته ربه في عذاب أهل قرية وفيهم المطيع والمعاصي .
وقد قيل : إن هذا النبي كانت العقوبة للحيوان بالتحريق جائزة في شرعه ؛ فذلك إنما عاتبه
الله تعالى في إحراق الكثير من النمل لا في أصل الإحراق . ألا ترى قوله : ” فهلا غلة
واحدة “ أي هلا حرق غلة واحدة . وهذا بخلاف شرعنا ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم
قد نهى عن التعذيب بالنار . وقال ” لا يعذب بالنار إلا الله “ وكذلك أيضا كان قتل النمل
مباحا في شريعة ذلك النبي ؛ فإن الله لم يعثبه على أصل قتل النمل . وأما شرعنا فقد جاء من
حديث ابن عباس وأبي هريرة النبي عن ذلك . وقد كره مالك قتل النمل إلا أن يضر
ولا يقدر على دفعه إلا بالقتل . وقد قيل : إن هذا النبي إنما عاتبه الله حيث أنتقم لنفسه
بإهلاك جمع آذاه واحد ، وكان الأولى الصبر والصفح ؛ لكن وقع للنبي أن هذا النوع مؤذ
لبنى آدم ، وحرمة بنى آدم أعظم من حرمة غيره من الحيوان غير الناطق . فلو أفرد له هذا النظر
ولم ينضم إليه التشفى الطبى لم يعاتب . والله أعلم . لكن لما أنضاف إليه الله شفى الذى دل
عليه سياق الحديث عوب عليه .

الرابعة - قوله : ” أفى أن فرصتك نعمة أهلكك أمة من الأمم تسبح “ مقتضى
هذا أنه تسبح بمقال ونطق ، كما أخبر الله عن النمل أن لها متطقا وفيهم سليمان عليه السلام
- وهذا معجزة له - وتيسر من قولها . وهذا يدل دلالة واضحة أن للنمل نطقا وقولا ،
لكن لا يسمعه كل أحد ، بل من شاء الله تعالى ممن خرق له المادة من نبي أوولى . ولا ننكر
هنا من حيث أنا لا نسمع ذلك ؛ فإنه لا يلزم من عدم الإدراك عدم المدرك في نفسه .
ثم إن الإنسان يجد في نفسه قولا وكلاما ولا يسمع منه إلا إذا نطق بلسانه . وقد خرق الله
العادة لتبني محمد صلى الله عليه وسلم فاستمع كلام النفس من قوم تحدثوا مع أنفسهم وأخبرهم
بما في نفوسهم ، كما قد نقل من الكثير من أئمتنا في كتب معجزات النبي صلى الله عليه وسلم ؛
وكذلك وقع الكثير من أكرمه الله تعالى من الأولياء مثل ذلك في غير ما قضية . وإياه عنى
النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : ” إنا في أمتي محدثين وإن عمر منهم “ . وقد مضى هذا المعنى

في [تسبيح] الجساد في «ميطان»^(٢)، وأنه تسبيح لسان ومثال لا تسبيح دلالة حال .
والحمد لله .

الخامسة - قوله تعالى : «تَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِيهَا» وقرا ابن السَّمِيع «ضَحْكَ»
بغير ألف، وهو منصوب على المصدر بفعل مخوف يدل عليه تبسم، كأنه قال ضحك ضحكا،
هذا مذهب سيويه . وهو عند غير سيويه منصوب بنفس «تَبَسَّمَ» لأنه في معنى ضحك .
ومن قرا «ضَاحِكًا» فهو منصوب على الحال من الضمير في «تَبَسَّمَ» . والمعنى تبسم
مقدار الضحك ؛ لأن الضحك يستغرق التبسم ، والتبسم دون الضحك وهو أوله . يقال :
تَبَسَّمَ (بالفتح) يَتَبَسَّمُ تَبَسُّمًا فهو تَبَسَّمٌ وتَبَسَّمَ ، والمَتَبَسِّمُ التفرغ مثل المجلس من جلس يتلصص
ورجل يسام وتسام كثير التبسم ، فالتبسم ابتداء الضحك ، والضحك عبارة عن الابتداء
والإنتهاء ، إلا أن الضحك يقتضي مزيدا على التبسم ، فإذا زاد ولم يضبط الإنسان نفسه قبله
فهفه . والتبسم ضحك الأنبياء عليهم السلام في غالب أمرهم . وفي الصحيح عن جابر بن سمرة
وقيل له : أكنت تجالس النبي صلى الله عليه وسلم ؛ قال : نعم كثيرا ؛ كأن لا يقوم من مصلاه
الذي يصل فيه الصبح - أو الغداة - حتى تطلع الشمس . فإذا طلعت قام ، وكانوا يحذون
ويأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم . وفيه من سعد قال : كان رجل من المشركين
قد أحرق المسلمين^(٣) ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : «أرم ذاك أبي وأمي» قال فزعمت
له . تبسم ليس فيه نصل فأصابت جنبه فسقط فأنكشفت عورته ، فضحك رسول الله صلى الله
عليه وسلم حتى نظرت إلى نواحيه . فكان عليه السلام في أكثر أحواله يتبسم . وكان أيضا
يضحك في أحوال أخر ضحكا أمل من التبسم وأقل من الاستغراق الذي تبدويه اللّهوات .
وكان في النادر عند إفراط تعجبه ربما ضحك حتى بدت نواحيه . وقد كره العلماء منه الكثرة ؛
كما قال لسان الأئمة : يا بني إياك وكثرة الضحك فإنه يمت القلب . وقد روى مرفوعا من

(١) زيادة يقتضيا السياق . (٢) راجع ج ١٠ ص ٢٦٦ وما بعدها طبع أول أو ثمانية .

(٣) «أحرق المسلمين» أي اتخذه منهم ، وعمل فيهم نحو عمل النار . «عاش بسلم»

جلبت أبي ذر وغيره . وضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه حين روى سعدا الرجل فأصابه ، إنما كان سرورا بإصابته لا بانكشاف عورته ؛ فإنه المشره عن ذلك صلى الله عليه وسلم .

السادسة - لا اختلاف عند العلماء أن الحيرانات كلها لها أفهام وعقول . وقد قال الشاعر : الحمام أعقل الطير . قال ابن عطية : والنقل حيوان فطن قوى شمام جدا يدبر ويفند القرى ويشق الحب بقطعتين لئلا يبت ، ويشق الكزبرة بأربع قطع ؛ لأنها تبت إذا قسمت شقين ، وبأكل في عامه نصف ما جمع ويستبقى سائر عدة . قال ابن العربي : وهذه خواص العلوم عندنا ، وقد أدركتها النمل بخلق الله ذلك لها ؛ قال الأستاذ أبو المظفر شاهرور الإسفراحي : ولا يبعد أن تترك البهائم حدوث العالم وحدوث المخلوقات ؛ ووحدانية الإله ، ولكننا لا نفهم منها ولا تفهم عنا ، أما أنا فطلبها وهي تمر منا فيحكم الجلسية .

قوله تعالى : (وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ)^(١) فـ«ان» مصدرية . و«أوزعني» أي الهمني ذلك . وأصله من وزع فكأنه قال : كفتني مما يمحط . وقال محمد بن إسحق : يزعم أهل الكتاب أن أم سليمان هي امرأة أوريا التي كتمن الله بها داود ، أو أنه بعد موت زوجها تزوجها داود فولدت له سليمان عليه السلام . وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة «ص»^(١) إن شاء الله تعالى .

(وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) أي مع عبادك ، من ابن زيد . وقيل : المعنى في جملة عبادك الصالحين .

قوله تعالى : وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ^(٢) لَأَعَذِّبَنَّ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَا أَذْبَحْنَهُ أَوْ لِيَأْتِنِي رَسُولُ مَلِكٍ أَوْ فَكَّرْتُ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَئِمْ حِطُّ بِهِ . وَيَحْشُرُكَ^(٣)

(١) في تفسير قوله تعالى : «وظن داود أنما غناه» آية ٢٤ من السورة المذكورة .

مِنْ سَبِيلٍ يُبَيِّنُ يَقِينُ ﴿٢١﴾ إِنِّي وَجَدْتُ أُمَّرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ
 شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَجَلَسَتْهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ
 دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ
 لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٤﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ
 الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٥﴾ قَالَ سَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾
 أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾
 فَبِهِ ثَمَانِ عَشْرَةَ مَسْئَلَةً :

الأولى - قوله تعالى : (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ) ذكر شيئا آخر مما جرى له في مسيره الذي
 كان فيه من التمل ما تقدم . والتفقد تطلب ما غاب عنك من شيء . والطير اسم جامع والواحد
 طائر ، والمراد بالطير هنا جنس الطير وجماعتها ، وكانت تصعبه في سفره ونظله بأجنحتها .
 واختلف الناس في معنى تفقده للطير ؛ فقالت فرقة : ذلك بحسب ما تقتضيه العناية بأموار
 الملك ، والتهمم بكل جزء منها ؛ وهذا ظاهر الآية . وقالت فرقة : بل تفقد الطير لأن الشمس
 دخلت من موضع المدهد حين غاب ؛ فكان ذلك مسبب لتفقد الطير ؛ ليتبين من أين دخلت
 الشمس . وقال عبد الله بن سلام : إنما طلب المدهد لأنه أحتاج إلى معرفة الماء على
 كم هو من وجه الأرض ؛ لأنه كان نزل في مفازة ميم فيها الماء ، وأن المدهد كان يرى
 باطن الأرض وظاهرها ؛ فكان يخبر سلايان بموضع الماء ، ثم كانت الجن تنخرجه في ساعة
 يسيرة ؛ تساخ عنه وجه الأرض كما تساخ الشاة ؛ قاله ابن عباس قيا روى عن ابن سلام .
 قال أبو يعقوب قال ابن عباس لعبد الله بن سلام : أريد أن أسألك عن ثلاث مسائل . قال .
 أتسألني بأن تأت القرآن ؟ قال : نعم ثلاث مرات . قال : لم تفقد سلايان المدهد دون

سائر الطير؟ قال : أحتاج إلى الماء ولم يعرف حمقه -- أو قال مسأخه -- وكان المدهد يعرف ذلك دون سائر الطير تفقده . وقال في كتاب النفاش : كان المدهد مهتدا . وروى أن نافع بن الأزرق سمع ابن عباس يذكر شأن المدهد فقال له : قف يا وقاف كيف يرى المدهد باطن الأرض وهو لا يرى الفخ حين يقع فيه ؟ ! فقال له ابن عباس : إذا جاء القدر عمى البصر . وقال مجاهد : قيل لابن عباس كيف تفقد المدهد من الطير ؟ فقال : نزل منزلا ولم يدرك ما بهند الماء ، وكان المدهد بهتديا إليه ، فاراد أن يسأله . قال مجاهد : فقلت كيف بهتدى والعصب يضع له الحبال فيصيده ؟ ! فقال : إذا جاء القدر عمى البصر . قال ابن العربي : ولا يقدر على هذا الجواب إلا عالم القرآن .

قلت : هذا الجواب قد قاله المدهد لسليمان كما تقدم . وإنشدوا :

إذا أراد الله أمرا بأمرئ • وكان ذا عقل ورأي وتظنر
وحيلة يملأ في دفع ما • يأتي به مكروه أسباب القدر
غفل عليه سمعه وعقله • وسله من ذهنه سل الشعر
حتى إذا أنفذ فيه حكه • رد طبه عقله ليسير

قال الكلبي : لم يكن له في مسيره إلا هدهد واحد . والله أعلم .

الثانية -- في هذه الآية دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته ، والمحافظة عليهم . فانظر إلى المدهد مع صغره كيف لم ينفذ على سليمان حاله ، فكيف بنظام الملك . ويرحم الله عمر فإنه كان على سيرته ؛ قال : لو أن منزلة على شاطئ الفرات أخذها الذئب لیسأل عنها عمر . لما ظنك بوال تذهب على يديه البلدان ، وتضيع الرعية ويضيع الرعيان . وفي الصحيح عن عبد الله بن عباس أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام ، حتى إذا كان بمصر^(١) فليسه أمره الأجناد : أبو عبيدة وأصحابه فأخبروه أن الوفاء قد وقع بالشام . الحديث ؛ قال عاصمنا : كان هذا الخروج من عمر بعد ما فتح بيت المقدس سنة سبع عشرة على ما ذكره خليفة بن خياط .

(١) سرغ (يسكن الرا . ومنها) : قرية يراى تيوك من طريق الشام .

وكان يتفقد أحوال رعيته وأحوال أمرائه بنفسه، فقد دل القرآن والسنة ويتنا ما يوجب على الإمام من تفقد أحوال رعيته، ومباشرة ذلك بنفسه، والسفر إلى ذلك وإن طال .
ورحم الله آيين المبارك حيث يقول :

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا الْمُلُوكُ • وَأَجْبَارُ مَسْئُومٍ وَرَهْبَانُ^(١)

الثالثة - قوله تعالى : « مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدُودَ » أى ما للهدود لا أراه ، فهو من القلب الذى لا يعرف معناه . وهو كقولك : ما لى أراك كئيبا . أى مالك . والهدود طير معروف وهدودته صوته . قال ابن عطية : إنما مقصد الكلام الهدود غاب لكنه أخذ اللازم من معناه وهو أن لا يراه ، فاستفهم على جهة التوقيف على اللازم وهذا ضرب من الإيجاز . والاستفهام الذى فى قوله : « مَا لِيَ » ناب مناب الألف التى تحتاجها أم . وقيل : إنما قال : « مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدُودَ » ؛ لأنه اعتبر حال نفسه ، إذ علم أنه أوفى الملك العظيم . ويحذره الخلق ، فقد لزمه حق الشكر بإقامة الطاعة وإدامة العدل ، فلما فقد نعمة الهدود توقع أن يكون نقصه فى حق الشكر ، فلأجله سلبها بفعل يتفقد نفسه ، فقال : « مَا لِيَ » . قال ابن العربى : وهذا بفعله شيوخ الصوفية إذا فقدوا ما لهم ، تفقدوا أعمالهم ، هذا فى الآداب . فكيف بنا اليوم ونحن نقصر فى الفرائض ! . وقرأ ابن كثير وآبن عبيص وعاصم والكاظمي وهشام وأيوب « مَا لِيَ » بفتح الهمزة وكذلك فى « يَسْ » « وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي » . وأسكنها حمزة ويعقوب . وقرأ الباقون المدينون وأبو عمرو بفتح التى فى « يَسْ » . وأسكن هذه . قال أبو عمرو : لأن هذه التى فى « النمل » استفهام ، والآخرى أنشاء . واختار أبو حاتم وأبو عبيد الإسكان « فَقَالَ مَا لِيَ » . وقال أبو جعفر النحاس : زعم قوم أنهم أرادوا أن يفرقوا بين ما كان مبتدأ ، وبين ما كان معطوفا على ما قبله ، وهذا ليس بشيء ، وإنما هى ياء النقص من الرب من يفتحها ومنهم من يسكنها ، فقرأوا بالفتحة ، واللغة القبطية فى ياء النفس أن تكون مفتوحة ؛ لأنها اسم وهى على حرف واحد ، وكان الاختيار ألا تسكن فيجحف بالاسم . « أَمْ كَانِ مِنَ الْفَاتِنِينَ » بمعنى بل .

(١) فى بعض النسخ : « ورهبان » . (٢) فى أحكام القرآن لابن العربى : « وإذا فقدوا ما لهم ... الخ » .

الرابعة - قوله تعالى : (لَا مَدِينَةَ مَدِينَةً شَدِيدَةً أَوْ لَا مَدِينَةَ) دليل على أن المدد
على قدر الذنب لا على قدر الجسد ، أما أنه يرقى بالمدد في الزمان والصفة . روى عن ابن
عباس ومجاهد وابن جريج أن تعذيبه للطير كان بأن يثقب ريشه . قال ابن جريج : ريشه
أجمع . وقال يزيد بن رومان : جناحه . فعل سليمان هذا بالمدد إغلاظا على الماصين ،
وعقابا على إخلاله بتوبه ورجعه ؛ وكان الله أبايح له ذلك ، كما أبايح ذبح البهائم والطير للأكل
وغيره من المنافع . والله أعلم . وفي « نواذر الأصول » قال : حدثنا سليمان بن حميد أبو الربيع
الإبادي ، قال حدثنا عون بن حمارة ، عن الحسين الجعفي ، عن الزبير بن العريش ، عن حكيم ،
قال : إنما صرف الله شرسليان عن المدد لأنه كان يارأى بالديه . وسأى . وقيل : تعذيبه
أن يعمل مع أضداده . وعن بعضهم : أضيق السجون بمعاينة الأضداد . وقيل : لأقرنه
خدمة أفرانه . وقيل : لإدناؤه القفص . وقيل : بأن يجعله للشمس بعد تنفه . وقيل :
بقيمه عن خدمتي ، والملك يؤذون بالمجران الجسد بتفريق نفسه . وهو مؤكد بالنون
التفسيحة ، وهي لازمة هي أو الخفيفة . قال أبو حاتم : ولو قرئت «لَا مَدِينَةَ مَدِينَةً شَدِيدَةً»
أَوْ لَا مَدِينَةَ جاز . (أَوْ لِيَأْتِيَنَّ مُسْلِمَانِ مُبِينِ) أي جمجمة بينة ، وليست اللام في « لِيَأْتِيَنَّ »
لام القسم لأنه لا يقسم سليمان على فعل المدد ، ولكن لما جاء في أثر قوله : «لَا مَدِينَةَ»
وهو مما جاز به القسم أجراه مجراه . وقرأ ابن كثير وحده «لِيَأْتِيَنَّ» بنونين .

الخامسة - قوله تعالى : (فَكَيْفَ تَعْرِفُ يَمِينَهُ) أي المدد . والمعجم من القراء
على ضم الكاف ، وقرأ حاصم وحده بفتحها . ومعناه في القراءتين أقام . قال سيويه : مكث
يمكث يمكثون كما قالوا قصد يقصد تقودوا . قال : ومكث مشل طركب . قال فيه : والفتح
أحسن لقوله تعالى : « مَا كَيْفَ » إذ هو من مكث ؛ يقال : مكث يمكث فهو ماكث ؛
ومكث يمكث مثل عظم يعظم فهو ميكث ؛ مثل عظيم . ومكث يمكث فهو ماكث ؛ مثل
محمض يمحض فهو حامض . والضمير في « مكث » يمتثل أن يكون لسليان ؛ والمعنى : يبق
سليان بعد التفقد والوعد غير طويل أي غير وقت طويل . ويمتثل أن يكون للمدده وهو
الأكثر . بخلاف « فَقَالَتْ لَحِطْتُ بِمَا لَمْ يَحِطْ بِهِ » وهي .

السادسة - أى علمت ما لم تعلمه من الأمر فكان في هذا ردة على من قال : إن الأنبياء تعلم الغيب . وحكى الفراء « أخط » يدفع الساء في العلاء . وحكى « أحت » يفسد العلاء تاء وتدغم .

السابعة - قوله تعالى : (وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنْتًا قَافِيَةً) أعلم سليمان ما لم يكن يعلمه ، ودفع عن نفسه ما توعد من العذاب والذبح . وقرأ الجمهور « سَبَإٍ » بالصرف . وابن كثير وأبو عمرو « سَبَأً » بفتح الهزنة وترك الصرف ؛ فالأول على أنه اسم رجل نسب إليه قوم ، وعليه قول الشاعر :

الواردون وتيم في ذرى سبيل • قد عصّ أغناهم جلد الجواميس

واتكر الزواج أن يكون اسم رجل ، وقال : « سبأ » اسم مدينة تعرف بأرب اليمن بينها زئين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام ، وأشد للنافذة الجمعدى :

عن سبأ الحاضرين مأرب إذ • يتنون من دون سبيل القريما

قال : فمن لم يصرف قال إنه اسم مدينة ، ومن صرف وهو الأكثر فلأنه اسم البلد فيكون مذكرا سمى به مذكر . وقيل : اسم امرأة سميت بها المدينة . والصحيح أنه اسم رجل ، كذلك في تخاب الترمذى من حديث فروة بن مسيك المرادى عن النبي صلى الله عليه وسلم . وسبق أن شاء الله تعالى . قال ابن عطية : وخفى هذا الحديث على الزواج نفيط عشواء . وزعم الفسزاء أن الرؤاسى سأل أبا عمرو بن العلاء عن سبأ فقال : ما أدري ما هو . قال النحاس : وتأول الفراء على أبي عمرو أنه منصرف لأنه مجهول ، وأنه إذا لم يعرف الشيء لم ينصرف . وقال النحاس : وأبو عمرو أجل من أن يقول مثل هذا ، وليس في حكاية الرؤاسى عنه دليل أنه إنما منصرف لأنه لم يعرفه ، وإنما قال : لا أعرفه ، ولو سئل نحوه من اسم فقال لا أعرفه لم يكن في هذا دليل على أنه ينصرف من الصرف ، بل الحق على غير هذا ، والواجب إذا لم يعرفه أن ينصرف ، لأن أصل الأسماء الصرف ، وإنما يمنع الشيء من الصرف لعل داخله عليه ، فالأصل ثابت يبين فلا يزول بما لا يعرف . وذكر كلاما كثيرا

من النعمة وقال في آخره : والقول في « سبيل » ما جاء التوقيف فيه أنه في الأصل أسم رجل ، فإن صرفته فلائنه قد صار اسما للحي ، وإن لم تصرفه جعلته اسما للقبيلة مثل تعود إلا أن الاختيار عند مبيوه الصرف وحجته في ذلك قاطعة ؛ لأن هذا الاسم إما كان يقع له التذكير والتانيث كان التذكير أولى ؛ لأنه الأصل والأخف .

الثامنة - وفي الآية دليل على أن الصغير يقول للكبير والمتعلم للعالم هندي ما ليس هنالك إذا تحقق ذلك وثيقته . هذا عمر بن الخطاب مع جلالة رضى الله عنه وعلمه لم يكن هنده علم بالاستئذان . وكان علم النجم عند عمار وغيره ، وغاب عن عمرو ابن مسعود حتى قال : لا يتيم الخنب . وكان حكم الإذن أن تنقر الحائض عند ابن عباس ولم يعلمه عمر ولا زيد بن ثابت . وكان غسل رأس المحرم معلوما عند ابن عباس وخفي عن المسود بن قمرمة . ومثله كثير فلا يطول به .

التاسعة - قوله تعالى : ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ لما قال المدهد : « وَجَدْتُكَ مِنْ سَبِيلٍ بَنِيَّ يَقِينٍ » قال سليمان : وما ذلك الخبر ؟ قال : « إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ » يعني بلقيس بنت شراحيل تملك أهل سبيل . ويقال : كيف خفي على سليمان مكانها وكانت المسافة بين محطته وبين بلدها قريبة ، وهي من مسيرة ثلاثين صنعا ، وأرب ؟ والجواب أن الله تعالى أخفى ذلك عنه لمصلحة ، كما أخفى على يعقوب مكان يوسف . ويروي أن أحد أبويها كان من الجن . قال ابن العربي : وهذا أمر تنكره الملعدة ، ويقولون : الجن لا يأكلون ولا يلدون ؛ كذبوا لعنهم الله أجمعين ؛ ذلك صحيح ونكاحهم جائز عقلا فإن مع نقلا فيها ونعمت .

قلت : خرج أبو داود من حديث عبد الله بن مسعود أنه قال : قدم وفد من الجن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا محمد آتت أميتك أن يستنجوا بظلم أو زونة أو حجمة فإن الله جاعل لنا فيها وزفا . وفي صحيح مسلم فقال : « لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحما وكل برة مائة ألف دوابكم » فقال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : « فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم الحن » وفي البخاري من حديث أبي هريرة قال قلت : ما بال العظم والزوطة ؟ فقال : « هما من طعام الحن وإنه لأثاني وفدح تصيبين ونعم الحن فساووني الزاد فدعوت الله تعالى ألا يروا بعظم ولا زوطة إلا وجدوا عليها طعاما » وهذا كله نص في أنهم يطعمون . وأما نكاحهم ففسدت الإشارة إلى « سبحان » عند قوله : « وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ » . وروى وهيب بن مريم ابن حازم عن الخليل بن أحمد عن عثمان بن حاضر قال : كانت أم بليق من الحن يقال لها بلعة بنت شيخان . وسأني لهذا مزيد بيان إن شاء الله تعالى .

العاشرة - روى البخاري من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم لما مله أن أهل فارس قد ملكوا بنت كسرى قال : « لن يخلص قوم أولوا أمرهم امرأة » قال القاضي أبو بكر بن العربي : هذا نص في أن المرأة لا تكون خليفة ولا خلاف فيه ، ونقل عن محمد بن جرير الطبري أنه يجوز أن تكون المرأة قاضية ، ولم يصح ذلك عنه ، ولعله نقل عنه كما نقل عن أبي حنيفة أنها إنما تقضى فيما تشهد فيه وليس بأن تكون قاضية على الإطلاق ؛ ولا بأن يكتب لها مسطور بأن ثلاثة مقدمة على الحكم ، وإنما سبيل ذلك التحكم والاستئابة في القضية الواحدة ، وهذا هو الظن بأبي حنيفة وأبن جرير . وقد روى عن عمر أنه قدم امرأة على حسبة السوق . ولم يصح فلا تنفتوا إليه ، فإنما هو من دسائس المشدعة في الأحاديث . وقد تناظر في هذه المسئلة القاضي أبو بكر بن الطيب المالكي الأشعري مع أبي الفرج بن طرار شيخ الشافعية ، فقال أبو الفرج : الدليل على أن المرأة يجوز أن تحكم أنه الفرض من الأحكام تنفيذ القاضي لها ، وسماع البينة عليها ، والفصل بين الخصوم فيها ، وذلك يمكن من المرأة كما مكانه من الرجل . فأعرض عليه القاضي أبو بكر ونقض كلامه بالإمامة الكبرى ؛ فإن الفرض منه حفظ الثغور ، وتدير الأمور وحماية البيضة ، وتبض الخراج وردة على مستحقه ، وذلك لا يتأتى من المرأة ككتابته من الرجل . قال ابن العربي : وليس

كلام الشيخين في هذه المسئلة بشيء؛ فإن المرأة لا يتأتى منها أن تبرز إلى المجلس، ولا تخالط الرجال، ولا تفاوضهم مفارقة النظر للنظر؛ لأنها إن كانت فتاة حرم النظر إليها وكلامها، وإن كانت برة^(١) لم يجعها والرجال مجلس واحد تزدهم فيه معهم، وتكون مناظرة لهم، ولن يفلح قلة من تصور هذا ولا من اعتقده.

الحادية عشرة - قوله تعالى: ﴿وَأُوتِيتِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مبالغة؛ أي مما تحتاجه المملكة. وقيل: المعنى أوتيت من كل شيء في زمانها شيئا لحذف المفعول؛ لأن الكلام دل عليه. ﴿وَمَا عَرْشُ عَظِيمٍ﴾ أي سريره؛ ووصفه بالعظيم في الهيئة ورتبة السلطان. وقيل: كان من ذهب تجلس عليه. وقيل: العرش هنا الملك؛ والأول أصح؛ لقوله تعالى: «أَبْنَيْ عَرْشَهَا». العرشى: فإن قلت كيف سوى المهدد بين عرش بلقيس وعرش الله في الوصف بالعظيم؟ قلت: بين الوصفين بون عظيم؛ لأن وصف عرشها بالعظيم تعظيم له بالإضافة إلى عرش أبناء جنسها من الملوك، ووصف عرش الله بالعظيم تعظيم له بالنسبة إلى ما خلق من السموات والأرض. قال ابن عباس: كان طول عرشها ثمانين ذراعا، وعرضه أربعين ذراعا، وأرتفاعه في السماء ثلاثين ذراعا، مكلل بالدر والياقوت الأحمر، والزرجد الأخضر. فتادة: وقوائمه لؤلؤ وجوهر، وكان مستورا بالدياج والحري، عليه سبعة مغاليق. مقاتل: كان ثمانين ذراعا، وأرتفاعه من الأرض ثمانون ذراعا، وهو مكلل بالجوهر. ابن إسحق: وكان يخدمها النساء، وكان لخدمتها ستانة أمراء. قال ابن عطية: واللازم من الآية أنها أمراء ملكت على مدائن اليمن، ذات ملك عظيم، وسرير عظيم، وكانت كافرة من قوم كفار.

الثانية عشرة - قوله تعالى: ﴿وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قيل: كانت هذه الأمة ممن يعبد الشمس؛ لأنهم كانوا زنادقة فيما يروى. وقيل: كانوا مجوسا يعبدون الأنوار. وروى عن نافع أن الوقف على «عرش». قال المهدوي:

(١) البرزة هنا: الكلمة التي لا تحجب أحجاب الثوب؛ وهي مع ذلك طفيفة مائلة تجلس الناس ويحسدون.

فعظيم على هذا متعلق بما بعده، وكان ينبغي على هذا أن يكون عظيم أن وجدتها؛ أي وجودي إياها كآفة . وقال ابن الأنباري : « وَلَمَّا عَرَّشُ عَظِيمٌ » وقف حسن، ولا يجوز أن يقف على «عرش» ويتدنى «عظيم» وجدها «إلا على من فتح؛ لأن عظيما تمت لعرش فلو كان متعلقا بوجودها لقلت عظيمة وجدتها؛ وهذا محال من كل وجه . وقد حدثني أبو بكر محمد بن الحسين بن شهر يار، قال : حدثنا أبو عبد الله الحسين بن الأسود الجيلي، عن بعض أهل العلم أنه قال: الوقف على «عرش» والابتداء «عظيم» على معنى عظيم عبادتهم الشمس والقمر . قال : وقد سمعت من يؤيد هذا المذهب ، ويخرج بأن عرشها أحقر وأدنى شأنًا من أن يصفه الله بالعظيم . قال ابن الأنباري: والاختيار عندى ما ذكرته أولاً؛ لأنه ليس على إضمار عبادة الشمس والقمر دليل . وغير مكر أن يصف المصعد عرشها بالعظيم إذا رآه متناهياً الطول والعرض؛ وجريه على إصراب «عرش» دليل على أنه نعت . (وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيَاطِينُ أَعْمَاهُمْ) أي ما هم فيه من الكفر . (فَصَدَّقَهُمُ مِنَ السَّبِيلِ) أي عن طريق التوحيد . وبين بهذا أن ما ليس بسبيل التوحيد فليس بسبيل يتفجع به على التحقيق . (فَهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ) إلى الله وتوحيده .

لثلاثة عشرة — قوله تعالى : (أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ) قرأ أبو عمرو وتافع وعاصم وحمره « أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ » بتشديد «أَلَّا» قال ابن الأنباري : « فَهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ » غير تام لمن شدد «أَلَّا» لأن المعنى : وزين لهم الشيطان ألا يسجدوا، قال النحاس : هي «أن» دخلت عليها «لا» و«أن» في موضع نصب؛ قال الأخفش : بهذين «أي وزين لهم ثلاثا يسجدوا لله . وقال الكسائي : به «فصدمهم» أي فصددهم ألا يسجدوا . وهو في الوجهين مفعول له . وقال اليزيدي وعلى بن سليمان : « أن » بدل من « أعمالمهم » في موضع نصب . وقال أبو عمرو : و«أن» في موضع خفض على البدل من السبيل . وقيل العامل فيها «لا يتدنون» أي فهم لا يتدنون أن يسجدوا لله؛ أي لا يملكون أن ذلك واجب عليهم . وعلى هذا القول « لا » زائدة كقوله : « مَا مَتَكَ أَلَّا تَسْجُدَ » أي ما ممتك أن تسجد . وعلى هذه القراءة

فليس بموضع سجدة؛ لأن ذلك غير عنهم بترك السجود، إما بالترين، أو بالصَّدَّة، أو بجمع
الاستثناء. وقرأ الزهري والكسائي وغيرهما « أَلَا تَسْجُدُونَ لِلَّهِ »^(١) بمعنى ألا يهاؤلا آسجدوا؛
لأن « يا » ينادى بها الأسماء دون الأفعال. وأنشد سيويه :

بالنسبة لله والأفصاح كلهم • والمالحين على سيمان من جارٍ

قال سيويه : (يا) لغير العانة؛ لأنه لو كان لعنة لنصبها؛ لأنه كان يصير منادى مضافا، ولكن
تقديره يا هؤلاء لعنة الله والأفصاح على سيمان. وحكى بعضهم سما عن العرب : ألا يا أرجوا
ألا يا أصدقوا . يريدون ألا يا قوم أرجوا أصدقوا؛ فعل هذه القراءة « آسجدوا » في موضع
جزم بالأمر والوقف على « أَلَا يَا » ثم تجددى فنقول « آسجدوا » . قال الكسائي : ما كنت
أسمع الأشياخ يقرءونها إلا بالتحفيف على نية الأمر. وفي قراءة عبد الله « أَلَا هَلْ تَسْجُدُونَ لِلَّهِ »
بالتاء والزن، وفي قراءة أبي « أَلَا تَسْجُدُونَ لِلَّهِ » فهاتان القراءتان حجة لمن خفف . الزجاج :
وقراءة التحفيف تقتضى وجوب السجود دون التشديد . واختار أبو حاتم وأبو عبيدة
قراءة التشديد . وقال : التحفيف وجه حسن إلا أن فيه انقطاع الخبر عن أمر سبأ، ثم رجع
بعد إلى ذكركم، والقراءة بالتشديد خبر يتبع بعضه بعضا لا انقطاع في وسطه . ونحوه قال
النحاس . قال : قراءة التخفيف بعيدة؛ لأن الكلام يكون مترضا، وقراءة التشديد يكون
الكلام بها مسقا، وأيضا فإن السواد على غير هذه القراءة؛ لأنه قد حذف منها ألفان،
وإنما يختصر مثل هذا بحذف ألف واحدة نحو يا عيسى بن مريم . ابن الأنباري : وسقطت
ألف « آسجدوا » كما تسقط مع هؤلاء إذا ظهر، ولما سقطت ألف « يا » وأصلت بها ألف
« آسجدوا » سقطت، فعد سقوطها دلالة على الاختصار وإشارا لما يخف وتقل ألفاظه . وقال
الجهري في آخر كتابه : قال بعضهم إن « يا » في هذا الموضع إنما هو للتنبيه كأنه قال :
ألا آسجدوا لله ، فلما أدخل عليه « يا » للتنبيه سقطت الألف التي في « آسجدوا » لأنها

(١) الأولى : « ألا » بالتحفيف على أنها للاستفتاح و « يا » حرف تداء، والمنادى محذوف ؛ أى ألا يا قوم
آسجدوا وسقطت ألف يا وألف الرمل في « آسجدوا » وكتبت الياء مصلة بالسين على خلاف للناس .

ألف وصل ، وذهبت الألف التي في « يا » لأجتماع الساكنين ؛ لأنها والسين ساكتان .
قال ذو الرمة :

أَلَا يَا أَسْبَى يَادَارَتِي عَلَى الْبَيْتِ • وَلَا زَالَ مِنْهَا بِمِرْعَاتِكَ الْقَطْرُ

وقال الجرجاني : هو كلام معترض من المدهد أو سليمان أو من الله . أى ألا يسجدوا ؛
كقوله تعالى : « قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَفْعَلُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ » قيل : إنه أمر أى ليفعلوا .
وتنظم على هذا كتابة المصحف ؛ أى ليس ها هنا نداء . قال ابن عطية : فيل هو من كلام
المدهد إلى قوله « العظيم » وهو قول ابن زيد وابن إسحق ؛ وبترض بأنه غير مخاطب فكيف
يتكلم في معنى شرع . ويحتمل أن يكون من قول سليمان لما أخبره المدهد عن القوم .
ويحتمل أن يكون من [قول] الله تعالى فهو اعتراض بين الكلامين وهو الثابت مع التأمل ؛
وقراءة التشديد في « أَلَا » تعطي أن الكلام للمدهد ، وقراءة التخفيف تممه ، والتخفيفه
يقضي الأمر بالسجود لله عز وجل للأمر مل ما بيناه . وقال الزمخشري : فإن قلت أجمدة
التلاوة واجبة في القراءة جميعاً أم في إحداها ؟ قلت : هي واجبة فيها جميعاً ؛ لأن مواضع
السجدة إنما أمر بها ، أو مدح لمن أتى بها ، أو ذم^(١) لمن تركها ، وإحدى الفسادهين أمر
بالسجود والأخرى ذم للتارك .

قلت : وقد أخبر الله عن الكفار بأنهم لا يسجدون كما في « الأنشاق » وسجد النبي صلى
الله عليه وسلم فيها ، كما ثبت في البخاري وغيره ، فكذلك « النمل » . والله أعلم . الزمخشري :
وما ذكره الزجاج من وجوب السجدة مع التخفيف دون التشديد فغير مرجوع إليه .
(الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ) خَبْءُ المياه قطرها ، وَخَبَّ الأرض كونها ونباتها . وقال قتادة :
الخبء السر . النحاس : وهذا أولى . أى ما غاب في السموات والأرض ، ويدل عليه
« مَا يُخْفَوْنَ وَمَا يُعْلِنُونَ^(٢) » . وقرأ حكمة ومالك بن دينار « الْخَبْءَ » بفتح الباء من غير همز .
قال المهدوي : وهو التخفيف القياسي ؛ وذكر من يترك الهمز في الوقف . وقال النحاس :

(١) الزيادة من « الكثاف » . (٢) في نسخ الأمل بالياء ؛ وهي قراءة العامة كاسيان .

وحكى أبو حاتم أن عكرمة قرأ «الَّذِي يُخْرِجُ الْغَبَّ» بالف غير مهموزة، وزعم أن هذا لا يجوز في العربية، وأدخل بأنه إن خفف الهمزة أتى حركتها على الباء فقال «الغَبَّ في السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» وأنه إن حوّل الهمزة قال النحوي بإسكان الباء وبعدها ياء. قال النحاس: وصححت على بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول: كان أبو حاتم دون أصحابه في النحو ولم يأتهم بهم إلا أنه إذا خرج من بلد لم يأت أعلم منه. وحكى ميبويه عن العرب أنها تبدل من الهمزة ألفا إذا كان قبلها ساكن وكانت مفتوحة، وتبدل منها واوا إذا كان قبلها ساكن وكانت مضمومة، وتبدل منها ياء إذا كان قبلها ساكن وكانت مكسورة؛ فنقول: هذا الواو وعُيبت من الواو ورأيت الواو؛ وهذا من وثقت يده؛ وكذلك هذا الغب وعُيبت من الغبي، ورأيت الغب؛ وإنما فعل هذا لأن الهمزة خفيفة فأبدل منها هذه الحروف. وحكى ميبويه عن قوم من بني تميم وبني أسد أنهم يقولون: هذا الغب؛ يضمون الساكن إذا كانت الهمزة مضمومة، ويثبتون الهمزة ويكسرون الساكن إذا كانت الهمزة مكسورة، ويفتحون الساكن إذا كانت الهمزة مفتوحة. وحكى ميبويه أيضا أنهم يكسرون وإن كانت الهمزة مضمومة إلا أن هذا عن بني تميم؛ فيقولون: الرَّذِي^(١)؛ وزعم أنهم لم يضموا الدال لأنهم كرهوا ضمة قبلها كسرة؛ لأنه ليس في الكلام فَعَلٌ. وهذه كلها لغات داخلة على اللغة التي قرأ بها الجماعة؛ وفي قراءة عبد الله «الَّذِي يُخْرِجُ الْغَبَّ مِنَ السَّمَوَاتِ» و«من» و«في» يتماحيان؛ تقول العرب: لاستخرجن العلم فيكم يريد منكم؛ قاله الفراء. (وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ) قراءة السامة فيها بياء، وهذه القراءة تعطي أن الآية من كلام الملهد، وأن الله تعالى خصه من المعرفة بتوحيده ووجوب السجود له، وإنكار مجوده للشمس، وإضافته للشيطان، وتزيده لهم، ما خص به غيره من الطيور وماثر الحيوان؛ من المعارف اللطيفة التي لا تكاد العقول الراجعة تهتدي لها. وقرأ الجحدري وعيسى بن عمر وحفص والكسائي «تُخْفُونَ» و«تُعْلِنُونَ» بالياء على الخطأ؛ وهذه القراءة تعطي أن الآية

من خطاب الله عز وجل لأمة محمد صلى الله عليه وسلم . (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)
 قرأ ابن عباس « الْعَظِيمُ » رقما نفا لله . الباقون بالغض نفا للعرش . وخص بالله كراثة
 أعظم المخلوقات وما عده في ضمنه وقبضته .

الرابعة عشرة - قوله تعالى : (سَنَنْظُرُ) من النظر الذي هو التأمل والتصفح .
 (أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) في مقاتل . و « كنت » بمعنى أنت . وقال :
 « سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ » ولم يقل سنظر في أمرك ؛ لأن المهدد لما صرح بنظر العلم في قوله :
 « أَتَحْسَبُ أَنَّكَ لَمْ تُحِطْ بِهِ » صرح له سليمان قوله : سنظر أصدقت أم كذبت ، فكان ذلك
 [كفاً] لما قاله .

الخامسة عشرة - في قوله : « أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ » دليل على أن الإمام
 يجب عليه أن يقبل عذروعيته ، ويدبر العقوبة عنهم في ظاهر أحوالهم بباطن أفعالهم ؛
 لأن سليمان لم يعاقب المهدد حين اعتذر إليه . وإنما صار يصدق المهدد مدرا لأنه أخبر
 بما يقتضيه الجهاد ، وكان سليمان عليه السلام حبيب إليه الجهاد . وفي الصحيح : « ليس
 أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل » . وقد قبل عمر
 عذر النعمان بن مدعي ولم يعاقبه . ولكن للإمام أن يمتحن ذلك إذا تعلق به حكم من أحكام
 الشريعة . كما فعل سليمان ؛ فإنه لما قال المهدد : « إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُورِثَتْ
 مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَمَّا عَرَّشْتُ عَظِيمٌ » لم يستغفره الطمع ، ولا استجوزه حب الزيادة في الملك إلى
 أن يعرض له حتى قال : « وَجَدْتُنَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ » فغاضه حينئذ
 ما سمع ، وطلب الآتية إلى ما أخبر ، وتحصيل علم ما غاب عنه من ذلك ، فقال : « سَنَنْظُرُ
 أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ » ونحوه ما رواه الصحيح عن المسور بن مخرمة ، حين
 استشار عمر الناس في إبلان المرأة وهي التي يضرب بطنها فتلقى جنتها ، فقال المنسية بن
 شعبة : شهدت النبي صلى الله عليه وسلم قضى فيه بقرعة عبد أو أمة . قال فقال عمر : أبقى
 بمن يشهد معك ، قال : فشهد له محمد بن مسلمة وفي رواية فقال : لا يبرح حتى تأتي بالخروج
 (١) في الأصول « جفاء » والصواب من « أحكام القرآن » لابن العربي .

من ذلك ؛ فخرجت فوجدت محمد بن مسلمة بلفت به فشبهه . ونحوه حديث أبي موسى في الاستئذان وغيره .

السادسة عشرة - قوله تعالى : (أَذْعَبَ بِكُلِّبِي هَذَا فَالِقَهُ إِيَّيْهِمْ) قال الزجاج ؛ فيها نعمة أوجه « فَالِقَهُ إِيَّيْهِمْ » بإثبات الياء في اللفظ . وبجذف الياء وإثبات الكسرة دالة طيبا « فَالِقَهُ إِيَّيْهِمْ » . وبضم الهاء وإثبات الواو على الأصل « فَالِقَهُ إِيَّيْهِمْ » . وبجذف الواو وإثبات الضمة « فَالِقَهُ إِيَّيْهِمْ » . واللغة الخامسة قرأ بها حزمة بإسكان الهاء « فَالِقَهُ إِيَّيْهِمْ » . قال النحاس ؛ وهذا عند النحويين لا يجوز إلا على حيلة جديدة تكون ؛ بقدر الوقف ؛ وسمعت عن علي سليمان يقول ؛ لا تفتت إلى هذه العلة ؛ ولو جاز أن يصل وهو ينوي الوقف لجاز أن يحذف الإعراب من الأسماء . وقال ؛ « إِيَّيْهِمْ » على لفظ الجمع ولم يقل إليها ؛ لأنه قال ؛ « وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ » فكانه قال ؛ فأنسه إلى الذين هذا دينهم ؛ أعتابا منه بأمر الدين ؛ وأشتتالا به عن غيره ؛ وبني الخطاب في الكتاب على لفظ الجمع لذلك . وروى في قصص هذه الآية أن المدهد وصل فالتى دون هذه الملكة مُجِيبٌ جدوان ؛ فعد إلى الكوة كانت بلبس صنعتها لتدخل منها الشمس عند طلوعها لمعنى جادتها إليها ؛ فدخل منها ورمى الكتاب على بلبس وهي - فما يروى - ثامة ؛ فلما انتهت وجدته فراعها ؛ وظنت أنه قد دخل عليها أحد ؛ ثم قامت فوجدت حاملها كما عهدت ؛ فنظرت إلى الكوة تهنما بأمر الشمس ؛ فرأت المدهد فعلمت . وقال وهب وابن زيد ؛ كانت لها كوة مستقبلة مطلع الشمس ؛ فإذا طلعت مجدت ؛ فعداها المدهد يمشاه ؛ فأرتمت الشمس ولم تلم ؛ فلما استبطأت الشمس قامت تنظر فرمى المصحف إليها ؛ فلما رأت الخاتم أرتعدت وخضعت ؛ لأن ملك سليمان عليه السلام كان في خاتمه ؛ فقرأته فجمعت الملا من قوما غفطتهم بما يأتي بعد . وقال مقاتل ؛ حمل المدهد الكتاب بمقاره ؛ وطار حتى وقف على رأس المرأة وحولها الجنود والساكر ؛ فترف سامة والناس ينظرون إليه ؛ فرقت المرأة رأسها فالتى الكتاب في حجرها .

السابعة عشرة - في هذه الآية دليل على إرسال الكتب إلى المشركين وتبينهم الدعوة، ودعائهم إلى الإسلام . وقد كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقبصره وإلى كل جبار؛ كما تقدم في « آل عمران » :

الثامنة عشرة - قوله تعالى : (ثُمَّ قَوْلَ هَئِهِمْ) أمره بالتولي حسن أدب ليتحى حسب ما يتأدب به مع الملوك . بمعنى : ولكن قريسا حتى ترى ضراجتهم ؛ قاله وهب بن منبه . وقال ابن زيد : أمره بالتولي بمعنى الرجوع إليه ؛ أى الله وأرجع . قال وقوله : « قَا نَظَرُ مَاذَا يَرْجِعُونَ » فى معنى التقديم على قوله : « ثُمَّ قَوْلَ » وأتسق رتبة الكلام أظهور ؛ أى الله ثم تولي ، وفى خلال ذلك قَا نَظَرُ أى أنتظر . وقيل : فأعلم ؛ كقوله : « يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ » أى أعلم ماذا يرجعون أى يهيئون وماذا يردون من القول . وقيل : « قَا نَظَرُ مَاذَا يَرْجِعُونَ » بينهم من الكلام .

قوله تعالى : قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيَّى إِلَهِىَ كُنْتُمْ كَرِيمٌ ﴿١٦﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ أَرْحَمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١٧﴾ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَىٰ وَاتُورِ مُسْلِمِينَ ﴿١٨﴾

فيسه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ) فى الكلام حذف ؛ والمعنى : فذهب فالتقاء إليهم فسمعوا وحى تقول : « يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ » ثم وصفت الكتاب بالكريم إما لأنه من عند عظيم فى قسمها وتقوسهم فعظمته إجلالا لسليمان عليه السلام ؛ وهذا قول ابن زيد . وإما أنها أشارت إلى أنه مطبوع عليه بالحاتم ، فكرامة الكتاب ختمه ؛ وروى ذلك عن رسوله الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : لأنه بدأ فيه بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » وقد قال صلى الله عليه وسلم : « كل كلام لا يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم فهو أجثم » . وقيل : لأنه بدأ

فيه بنفسه ، ولا يفعل ذلك إلا الجلة . وفي حديث ابن عمر أنه كتب إلى عبد الملك بن مروان يبايعه : من عبد الله لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين ؛ إني أفرئك بالسمع والطاعة ما استطعت ، وإن نبي قد أفرأ لك بذلك . وقيل : توهمت أنه كتب جاء من السماء إذ كان الموصل طبريا . وقيل : « كريم » حسن ؛ كقوله : « ومقام كريم » أي مجلس حسن . وقيل : وصفته بذلك ؛ لما تضمن من لين القول والموعظة في الدماء إلى عبادة الله عز وجل ، وحسن الاستطاف والاستطاف من غير أن يتضمن سباً ولا لعناً ، ولا ما يثير النفس ، ومن غير كلام فازل ولا مستغلق ؛ على عادة الرسل في الدماء إلى الله عز وجل ؛ ألا ترى إلى قول الله عز وجل لتبیه صل الله علیه وسلم : « أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ » وقوله لموسى وهرون : « فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيًّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَحْشَى » . وكلها وجوه حسان وهذا أحسنها . وقد روى أنه لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم أحد قبل سليمان . وفي قراءة [عبد الله] « وَإِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ » زيادة وار .

الناثية - الوصف بالكريم في الكتاب غاية الوصف ؛ ألا ترى قوله تعالى : « إِنَّهُ لَقَرَّانٌ كَرِيمٌ » وأهل الزمان يصفون الكتاب بالخطير والأثير والمبرور ؛ فإن كان لماك قالوا : العزيز وأسطوا الكريم غفلة ؛ وهو أفضلها خصلة . فاما الوصف بالعزيز فقد وصف به القرآن في قوله تعالى : « وَإِنَّهُ لَكَبُورٌ عَزِيزٌ . لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ » فهذه عزته وليست لأحد إلا له ؛ فاجتنبوها في كتبكم ، وأجعلوا بذلك العالي ؛ توفية لحق الولاية ؛ وحياطة للديانة ؛ قاله القاضي أبو بكر بن العربي .

الثالثة - كان رسم المتقدمين إذا كتبوا أن يسدوا بأنفسهم من فلان إلى فلان ، وبذلك جاءت الآثار . وروى الربيع عن أنس قال : ما كان أحد أعظم حرمة من النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان أصحابه إذا كتبوا يدعوا بأنفسهم . وقال ابن سيرين قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن أهل فارس إذا كتبوا يدعوا بغطيتهم فلا يبدأ الرجل إلا بنفسه » (١) في الأصل : « وفي قراءة أبيه » وهو غلط لما عليه كتب التفسير ، فالمرى من أبيه أنه قرأ « أن من سليمان وأن بسم الله الرحمن الرحيم » بخط الهرة وتحت يده التوثيق وصنف المله .

قال أبو الليث في كتاب «البيان» له: ولو بدأ بالمكتوب إليه جاز، لأن الأمة قد اجتمعت عليه وفعلوه لمصلحة رأوا في ذلك، أو نسخ ما كان من قبل، فالأحسن في زهانتنا هذا أن يبدأ بالمكتوب إليه، ثم بنفسه، لأن البداية بنفسه تُمد منه استخفافا بالمكتوب [إليه] وتكبرا عليه، إلا أن يكتب إلى عبد من عبده، أو غلام من غلمانه.

الراية - وإذا ورد مل إنسان كتاب بالتحية أو نحوها ينبغي أن يرد الجواب؛ لأن الكتاب من النائب كالسلام من الحاضر، وروى عن ابن عباس أنه كان يرى رد الكتاب واجبا كما يرى رد السلام. والله أعلم.

الخامسة - انصفوا على كتب «بسم الله الرحمن الرحيم» في أول الكتب والرسائل، ومثل ختمها؛ لأنه أجد من الريسة، ومل هذا جرى الرسم، وبه جاء الأثر عن عمر بن الخطاب أنه قال: إيا كتاب لم يكن غنوما فهو أغلف. وفي الحديث: «كُرِّمَ الكتابُ ختمه». وقال بعض الأدباء: هو أين المفتح: من كتب إلى أخيه كتابا ولم يختمه فقد استخف به؛ لأن الختم ختم. وقال أنس: لما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يكتب إلى العجم قبل له أنهم لا يقبلون إلا كتابا عليه ختم، فأصابع خاتما ونقش على فمسه (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وكان أنظر إلى بيضه وبياضه في كفّه.

السادسة - قوله الله عز وجل: «أَنْتُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَأَنْتُمْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» «وَأَنْتُمْ» بالكسر فيهما أي: إن الكلام أو إن مبتدأ الكلام «بسم الله الرحمن الرحيم». وأجاز القراء «أَنْتُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَأَنْتُمْ» بفتحهما جميعا على أن يكونا في موضع رفع بدل من الكتاب؛ بمعنى أنت إلى أنه من سليمان. وأجاز أن يكونا في موضع نصب على حذف انطافض؛ أي لأنه من سليمان ولأنه؛ كأنها عالت كرمه يكونه من سليمان وتصدیره بسم الله. وقرأ الأصبهاني: «وَأَنْتُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ» بالثين المعجمة؛ وروى عن وهب بن منبه: من غلا ينلو إذا تجاوز السقيع «أَلَا تَنْلُوا» بالثين المعجمة؛ وروى عن وهب بن منبه: «وَأَنْتُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ» أي مفادين طائعين مؤمنين وتكبر. وهي راجعة إلى معنى قراءة الجماعة. «وَأَنْتُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ» أي مفادين طائعين مؤمنين.

(١) زيادة ينتهيا للمقام. (٢) الربيع: التي في رماله.

قوله تعالى : **قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ** ﴿٣٧﴾ **قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ** ﴿٣٨﴾ **قَالَتْ إِنَّ أَمْلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ** ﴿٣٩﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : **(قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي)** الملا إشراف القوم وقد مضى في سورة « البقرة » القول فيه . قال ابن عباس : كان بها ألف قبل . وقيل : أنا عشر ألف قبل مع كل قبل مائة ألف . والقيل الملك دون الملك الأعظم . فاخذت في حسن الأدب مع قومها ، ومشاورتهم في أمرها ، وأعلمتهم أن ذلك مطرد عندها في كل أمر يعرض ، بقولها : **(مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ)** فكيف في هذه النازلة الكبرى . فراجعها الملا بما يقر عينها ، من إعلامهم إياها بالقوة والبأس ، ثم سألوا الأمر إلى نظرها ، وهذه محاورة حسنة من الجميع . قال قتادة : ذكر لنا أنه كان لها ثلثائة وثلاثة عشر رجلا هم أهل مشورتها ، كل رجل منهم حل عشرة آلاف .

الثانية - في هذه الآية دليل على صحة المشاورة . روى الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : **(وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)** في « آل عمران » إما استعانة بالأراء ، وإما مداواة للأولياء . وقد مدح الله تعالى الفضلاء بقوله : **(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنِهِمْ)** . والمشاورة من الأمور القديمة وخاصة في الحرب ، فهذه بلقيس امرأة جاهلية كانت تسجد الشمس : **(قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ)** لتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم ، وحزمهم فيما يقسم أمرهم ، وإمضاءهم على الطاعة لها ، بما بها بأنهم إن لم يسيذلوا أنفسهم وأموالهم ودماءهم دونها لم يكن لها طاقة بمقاومة عدوها ، وإن لم يمتنع أمرهم وحزمهم ورجوعهم كان ذلك عونا لعدوهم عليهم ، وإن لم تختبر ما عندهم ، وتعلم قدر عزمهم لم تكن على بصيرة .

من أمرهم ، وربما كان في استبدادها برأيها وعن في طاعتها ، ودخيلة في تقدير أمرهم ، وكان في مشاورتهم وأخذ رأيهم عون على ما تريده من قوة شوكتهم ، وشدة مدافعهم ؛ ألا ترى إلى قولهم في جوابهم : ﴿ تَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ . قال ابن عباس : كان من قوة أحدهم أنه يركض فرسه حتى إذا أخذته ضمّ بغذيه فغسه بقوته .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ سلموا الأمر إلى نظرها مع ما أظهروا لها من القوة والبأس والشدة ، فلما فعلوا ذلك أخبرت عند ذلك بفعل الملوك بالقرى التي يتخلطون عليها ، وفي هذا الكلام خوف على قومها ، وحيلة واستعظام لأمر سليمان عليه السلام . ﴿ وَكَذَلِكَ يَقُولُونَ ﴾ قيل : هو من قول بلقيس تأكيداً للذي أراده . وقال ابن عباس : هو من قول الله عز وجل معروفاً لمحمد صلى الله عليه وسلم وأمهته بذلك وعجزاً به . وقال وهب : لما قرأت عليهم الكتاب لم تعترف اسم الله ، فقالت : ما هذا ؟ فقال بعض القوم : ما نظن هذا إلا عجزيتنا عظيماً من الجن يقتدر به هذا الملك على ما يريد به ، فسكتوه . وقال الآخر : أراهم ثلاثة من المغاريت ، فسكتوه ، فقال شاب قد علم : يا سيدي الملوك ! إن سليمان ملك قد أعطاه ملك السماء ملكاً عظيماً فهو لا يتكلم بكلمة إلا بدأ فيها بتسمية إلهه ، والله اسم ملك السماء ، والرحمن الرحيم نوعه ، ففتنها قالت : « أَتُؤْتِي فِي أَحْصَى » فقالوا : « تَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ » في القتال « وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ » في الحرب واللقاء « وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ » ردوا أمرهم إليها لما جربوا على رأيها من البركة « فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ » ذ « فَخَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَتَسَدَوْهَا وَيَجْعَلُوا أَعْرَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً » أهانوا شرفها ما تستقيم لهم الأمور ، فصدق الله قولها . « وَكَذَلِكَ يَقُولُونَ » قال ابن الأنباري : « وَجَعَلُوا أَعْرَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً » هذا وقف تام ، فقال الله عز وجل تحقيقاً لقولها : « وَكَذَلِكَ يَقُولُونَ » وشبهه به في سورة الأعراف « قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ » ثم الكلام ، فقال فرعون : « فَأَنذَرْتُكُمْ » . وقال ابن كثير : هو قول بلقيس ، فالوقف « وَكَذَلِكَ يَقُولُونَ » أي وكذلك يفعل سليمان إذا دخل بلادنا .

قوله تعالى: **وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ** ﴿٢٠﴾

فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى: **(وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ)** هذا من حسن نظرها وتديرها؛ أي إلى أجرب هذا الرجل بهدية، وأعطيه فيها نفائس من الأموال، وأغرب عليه بأمور المملكة، فإن كان ملكا دنايا أرواه المال وعملنا معه بحسب ذلك، وإن كان نيا لم يرضه المال ولا زنا في أمر الدين، فينبغي لنا أن تؤمن به وتبعه على دينه، فبعثت إليه بهدية عظيمة أكثر الناس في تفصيلها، فقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: أرسلت إليه بلبنة من ذهب، زارت الرسل الحيطان من ذهب فصغر عندهم ما جاءوا به. وقال مجاهد: أرسلت إليه بمائتي غلام ومائتي جارية. وروى عن ابن عباس: بأنتى عشرة وصيفة مذكرين قد ألبسهم زى الغلمان، وأنتى عشر غلاما مؤنثين قد ألبسهم زى النساء، وعلى يد الوصائف أطباق مسك وعبر، وبأنتى عشرة نجبة تحمل لبن الذهب، وبخمرتين إحداهما غير مثقوبة، والأخرى مثقوبة تقبا موجعا، وبقدح لاشيء فيه، وبمصا كان يتوارثها ملوك حير، وأخذت الهدية مع جماعة من قومها. وقيل: كان الرسول واحدا ولكن كان في صحبته أتباع وخدم. وقيل: أرسلت رجلا من أشراف قومها يقال له المنذر بن عمرو، وضمت إليه رجالا ذوى رأى وعقل. والهدية مائة وصيف ومائة وصيفة، قد خولف بينهم في اللباس، وقالت للغلمان: إذا كلمكم سليمان فكلموه بكلام فيه تأنيث يشبه كلام النساء، وقالت للجواري: كلمته بكلام فيه غلظ يشبه كلام الرجال؛ فيقال: إن الهدهد جاء وأخبر سليمان بذلك كله. وقيل: إن الله أخبر سليمان بذلك، فأمر سليمان عليه السلام أن يسط من موضعه إلى قسم فواضع لبنات الذهب والفضة، ثم قال: أين الدواب وأيم أحسن في البر والبحر؟ قالوا: يا نبى الله وأينا في بحر كذا دواب متقطعة مختلفة ألوانها، ها أجنحة وأعراف ونواصي؛ فأمر بها بغات فتسدت على بين الميدان وعلى يسار وعلى لبنات الذهب والفضة، وألقوا لها هلاتها؛ ثم قال: لئن على أولادكم، فأقامهم - أحسن ما يكون من الشباب - عن بين

الميدان ويساره . ثم قعد سليمان عليه السلام على كرسبه في مجلسه ، ووضع له أربعة آلاف كرسى من ذهب عن يمينه ومثلها عن يساره ، وأجلس عليها الأنبياء والعلماء ، وأمر الشياطين والجن والإنس أن يصطفوا صفوا فرائض ، وأمر السباع والوحوش والموام والطير فأصطفوا فرائض عن يمينه وشماله ، فلما دنا القوم من الميدان ونظروا إلى ملك سليمان ، ورأوا الدواب التي لم تراعينهم أحسن منها تروث على لبنات الذهب والفضة ، تقاصرت إليهم أنفسهم ، ورموا ما معهم من المسدايا . وفي بعض الروايات : إن سليمان لما أمرهم بفرض الميدان بلبنات الذهب والفضة أمرهم أن يتركوا كل طريقهم موضعا على قدر موضع بساط من الأرض غير مفروش ، فلما مروا به خافوا أن يتهموا بذلك فطرحوا ما معهم في ذلك المكان ، فلما رأوا الشياطين رأوا منظرا هائلا فظيما ففزعوا وخافوا ، فقالت لهم الشياطين : جؤزوا لا بأس عليكم ، فكانوا يبرون على كُرْدُوسٍ كُرْدُوسٍ من الجن والإنس والبهائم والطير والسباع والوحوش حتى وقفوا بين يدي سليمان ، فنظر إليهم سليمان نظرا حسنا بوجه طاق ، وكانت قالت لرسولها : إن نظر إليك نظر مفئذب فأعلم أنه ملك فلا يهولك منظره فأنا أعر منه ، وإن رأيت الرجل بشا لطيفا فأعلم أنه نبي مرسل فتفهم قوله ورد الجواب ، فأخبر الملهد سليمان بذلك على ما تقدم . وكانت عمدت إلى حقة من ذهب فجعلت فيها دقة يتجعة غير متقوية ، وخرقة معوجة الثقب ، وكتبت كتابا مع رسولها تقول فيه : إن كنت نبيا فيزي بين الوصفاء والوصائف ، وأخبر بما في الحقة ، وعرضني رأس المعصا من أسفلها ، وأتعب الدقة ثعبا مستويا ، وأدخل خيط الخرقة ، وأملأ القمح ماء من ندى ليس من الأرض ولا من السماء ، فلما وصل الرسول ووقف بين يدي سليمان أعطاه كتاب الملكة فنظر فيه ، وقال : أين الحقة ؟ فأتى بها فحركها ، فأخبره جبريل بما فيها ، ثم أخبرهم سليمان . فقال له الرسول : صدقت ، فأتعب الدقة ، وأدخل الخيط في الخرقة ، فسأل سليمان الجن والإنس عن ثعبا فعجزوا ، فقال للشياطين : ما الرأى فيها ؟ فقالوا : ترسل إلى الأرض ، بغامت الأرضة فأخذت شعرة في فيها حتى تخرجت من الجانب الآخر فقال لها سليمان : ما حاجتك ؟ قالت : تصبر رزقي في الشجرة

فقال لها : لك ذلك . ثم قال سليمان : من لهذه الدودة يسلكها الخيط ؟ فقالت دودة بيضاء : أنا لها يا نبي الله ؛ فاخذت الدودة الخيط في نفسها ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر ؛ فقال لها سليمان : ما حاجتك ؟ قالت تجعل رزقي في الفواكه ؛ قال : ذلك لك . ثم ميز بين الغلمان [والجوارى] ^(١) . قال السدي : أمرهم بالوضوء ، فجعل الرجل يحذر الماء على اليد والرجل حذرا ، وجعل الجوارى يصبين من اليد اليسرى على اليسر اليمنى ، ومن اليمنى على اليسرى ، فميز بينهم بهذا . وقيل : كانت الجارية تأخذ الماء من الآنية بإحدى يديها ، ثم تحملها على الأخرى ، ثم تضرب به على الوجه ، والغلام كان يأخذ الماء من الآنية يضرب به في الوجه ، والجارية تصب على بطن ساعدها ، والغلام على ظهر الساعد ، والجارية تصب الماء صببا ، والغلام يحذر على يديه ؛ فميز بينهم بهذا . وروى يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير قال : أرسلت بلقيس بمائة وصيفة ووصيف ، وقالت : إن كان نيا فسيمعلم الذكور من الإناث ؛ فأمرهم فتوضؤوا ؛ فمن توضأ منهم قبلأ بمرقفه قبل كفه قال هو من الإناث ، ومن بدأ بكفه قبل مرقفه قال هو من الذكور ؛ ثم أرسل العصا إلى الهواء فقال : أي الرأسين سبق إلى الأرض فهو أصلها ، وأمر بالخليل فاجريت حتى عرفت وملا القدر من مرقفها ، ثم ود سليمان الهدية ؛ فحوى أنه لها صرف الهدية إليها وأخبرها رسولها بما شاهد ؛ قالت لقومها : هذا أمر من السماء .

الثانية - كان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويثيب عليها ولا يقبل الصدقة ؛ وكذلك كان سليمان عليه السلام وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين . وإنما جعلت بلقيس قبول الهدية أو ردها علامة على مافي نفسها ؛ على ما ذكرناه من كون سليمان ملكا أو نبيا ؛ لأنه قال لها في كتابه : « أَلَا تَتْلُوا عَلَيَّ وَأُتَوَى مُسْتَلِينَ » وهذا لا تقبل فيه فدية ، ولا يؤخذ عنه هدية ، وليس بهذا من الباب الذي تقرر في الشريعة عن قبول الهدية بسبيل ، وإنما هي رشوة وبيع الحق بالباطل ، وهي الرشوة التي لا تحل . وأما الهدية المطلقة للتحبب والتواصل فإنها جائزة من كل أحد وعلى كل حال ، وهذا ما لم يكن من مشرك .

(١) الزيادة من « خصص الأنبياء » التلوي .

الثالثة - فإن كانت من مشرك قبي الحديث "ثبت عن زيد المشركين" يعني
يفدhem وعطايهم. وروى عنه عليه السلام أنه قبلها كما في حديث مالك عن ثور بن زيد الذي
وغیره ، فقال جماعة من العلماء بالنسخ فيها ، وقال آخرون : ليس فيها نافع ولا منسوخ ،
والمعنى فيها : أنه كان لا يقبل هدية من يطمع بالظهور عليه وأخذ يده ودخله في الإسلام ،
وبهذه الصفة كانت حالة سليمان عليه السلام ، فمن مثل هذا نهى أن تقبل هديته حملا على
الكف عنه ، وهذا أحسن تأويل للعلماء في هذا ، فإنه جمع بين الأحاديث . وقيل غير هذا .

الرابعة - الهدية مندوب إليها ، وهي مما تورث المودة وتذهب العداوة ، روى مالك
عن عطاء بن عبد الله الخراساني قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تصلحوا يذهب
الغل وتهادوا تحابوا وتذهب الشبهة" ، وروى معاوية بن الحكم قال سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقول : "تهادوا فإنه يضعف الرد ويذهب بنوائل الصدر" . وقال الدارقطني :
تفرد به ابن جبير عن أبيه عن مالك ، ولم يكن بالرضي ، ولا يصح عن مالك ولا عن الزهري .
وعن ابن شهاب قال : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "تهادوا بينكم فإن الهدية
تذهب السيئة" قال ابن وهب : سألت يونس عن السيئة ما هي فقال : الغل . وهذا
الحديث وصله الواقسي عثمان عن الزهري وهو ضعيف . وعلى الجملة : فقد ثبت أن النبي
صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية ، وفيه الأسوة الحسنة . ومن فضل الهدية مع اتباع السنة
أنها تزيل حزازات النفوس ، وتكسب المهدي والمهدي إليه رنة في اللقاء والجلوس . ولقد
أحسن من قال :

هدايا الناس بعضهم لبعض • تؤلف في قلوبهم الوصال

وترفع في الضمير هوى وودا • وتكسبهم إذا حضروا جمالا

آخر :

إن الهدايا لها حظ إذا وردت • أحظى من الابن عند الوالد الحبيب

الخامسة - روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "جلساؤكم شركاؤكم

في الهدية" واختلف في معناه ، فهو محمول على ظاهره . وقيل يشاركونهم على وجه

الكرم والمروءة ، فإن لم يفعل فلا يجبر عليه . وقال أبو يوسف : ذلك في الفواكه ونحوها .
وقال بعضهم : هم شركاؤه في السرور ولا في الحسبة . وانظر محمول في أمثال أصحاب الصفة
والطوائف والزبائط ، أما إذا كان قلبها من الفقهاء اختص بها فلا شركة فيها لأصحابها ، فإن
أشركهم فذلك كرم وجود منه .

السادسة - قوله تعالى : (فَتَاطَرَفُ) أى مشظرة (يَمُوجِعُ الْمُرْسَلُونَ) قال قتادة :
يرحمها الله إن كانت لعاقلة في إسلامها وشركها ، قد علمت أن الهدية قطع موقعا من الناس .
وسقط الألف في « يم » للفرق بين « ما » الخبرية . وقد يجوز إثباتها ، قال :
على ما قام بضمى السيم . تكتبر تمسغ في رماه

قوله تعالى : فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنَ قَالَ أُمِدُّونِي بِمَالٍ قَلِيلٍ ؕ أَنِّي أَنَا اللَّهُ
مُخَوِّرٌ بَيْنَكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِبَيْدَتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٦٦﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَمَّا تَلَيْسَتْهُمْ
يُحْشَدُونَ لَا يَقْبَلُ لَهُمْ بَيْتٌ وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٦٧﴾
قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوا أَكْبَرَ بِاتِّبَانِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٦٨﴾
قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ؕ أَتَيْكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي
ظَلِيهِ لَقَوًى أُمِينٌ ﴿٦٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ؕ أَتَيْكَ بِهِ
قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِي
وَبِئْسَ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ مَا أَشْكُرُوا أَمْ أَكْفَرُوا وَمَنْ أَشْكُرٌ فَأَعْمَأَ يُشْكِرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ
فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : (فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أُمِدُّونِي بِمَالٍ) أى جاء الرسول سليمان بالهدية قال :
« أُمِدُّونِي بِمَالٍ » . فقرأ حمزة ويعقوب والأعمش بنون واحدة مشددة وياه ثابتة بعدها .

(١) هو حسان بن المنذر جوي مائة بن عمرو بن غزوم وقوله :

وإن تصلح نازك مائة • وصلح العاقبة إلى نساء

الباقون بنو نين وهو اختيار أبي عبيد ؛ لأنها في كل المصاحف بنو نين . وقد روى أحمد بن حنبل نافع أنه كان يقرأ : « أُمِّدُون » بنون واحدة مخففة بسلامها ياء في اللفظ . قال ابن الأنباري : فهذه القراءة يجب فيها إثبات الياء عند الوقف ، ليصح لها موافقة شواه المصحف . والأصل في النون التشديد ، تخفف التشديد من ذا الموضع كما خفف من : أشهد أنك عالم ؛ وأصله : أنك عالم . وعلى هذا المعنى بن الذي قرأ « يُشَاقُونَ فِيهِمْ » ، « أُنْحَاجُونَ فِي اللَّهِ » . وقد قالت العرب : الرجال بضربون ويقصدون ، وأصله بضربون ويقصدون ؛ لأنه إدغام بضربون ويقصدون قال الشاعر :

ترهين والجبد منك لليلي . والحشا واليغام والعيان^(١)

والأصل ترهين تخفف . ومعنى « أُمِّدُونِي » أريدوني مالا إلى ما تشاهدونه من أموال . قوله تعالى : (فَأَتَيْنَا اللَّهَ خَيْرِمَا آتَيْنَاهُ) أي لما أعطاني من الإسلام والملك والنبوة خير مما أعطاكم ، فلا أفرح بالمال . و « آتَانِ » وقعت في كل المصاحف بغير ياء . وقرأ أبو عمرو ونافع وحفص « آتَيْنَا اللَّهَ » بياء مفتوحة ؛ فإذا وقفوا حذفوا . وأما يندوب فإنه يشبه في الوقف ويحذف في الوصل لانقضاء الساكنين . الباقون بغير ياء في الحالين . (بَلْ أَنْتُمْ يَدَيْكُمْ تُفَرِّحُونَ) لأنكم أهل مفاخرة ومكاثرة في الدنيا .

قوله تعالى : (أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ) أي قال سليمان للنذر بن عمرو أمير الوفد : أرجع إليهم بهديتهم . (فَلَنُؤْتِيَنَّهُمْ مِمَّا يُحِبُّونَ لَا يَقِيلُ هُمُ يَا) لام قسم والنون لها لازمة . قال النحاس : وسمعت أبا الحسن بن كيسان يقول : هي لام توكيد وكذا كان عنده أن اللامات كلها ثلاث لا غير ؛ لام توكيد ، ولام أمر ، ولام خفض ؛ وهذا قول الحنظلي من التحوين ؛ لأنهم يردون الشيء إلى أصله ؛ وهذا لا يتبها إلا لمن درب في العربية . ومعنى « لَا يَقِيلُ هُمُ يَا » أي لا طاعة لهم عليهما . (وَنُخْرِجُهُمْ مِمَّا) أي من أرضهم (أَذَلَّةً وَهُمْ صَافِرُونَ) . وقيل : « منها » أي من قرية ميا . وقد سبق ذكر القرية في قوله : (إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا

قُرْبَةً أَسَدَوْهَا . « أَذَلَّةٌ » قَدْ سَلَبُوا مَلِكَهُمْ وَعَمَرَهُمْ : « وَفَمَ صَاغِرُونَ » أَيْ مَهَانُونَ
إِذْلَاءً مِنَ الصَّغَرِ وَهُوَ الذِّلُّ إِنْ لَمْ يَسْلَمُوا ؛ فَرَجَعَ إِلَيْهَا رَسُولُهَا فَأَخْبَرَهَا ؛ فَقَالَتْ : قَدْ عَرَفْتُ
أَنَّهُ لَيْسَ بِمَلِكٍ وَلَا طَائِفَةٍ لَنَا بِقِتَالِ نَجْمٍ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ . ثُمَّ أَمَرَتْ بِعَرْشِهَا بِجُلٍّ فِي سَبْعَةِ
أَيَّامٍ بِمَضَاهَا فِي جَوْفِ بَعْضٍ ؛ فِي آخِرِ قَصْرِ مَنْ سَبْعَةِ قُصُورٍ ؛ وَظَلَّتِ الْأَبْوَابَ ؛ وَجَعَلَتْ
الْحُرُسَ عَلَيْهِ ، وَتَوَجَّهَتْ إِلَيْهِ فِي آخِرِ عَشْرِ أَلْفِ قَبِيلٍ مِنْ مُلُوكِ الْإِنِّ ، تَحْتَ كُلِّ قَبِيلٍ
مِائَةُ أَلْفٍ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : وَكَانَ سَلْيَانُ مَهْمِيًّا لَا يَتَسَدَّأُ بَشْيَءٍ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِي
يَسْأَلُ عَنْهُ ؛ فَتَفَرَّدَتْ يَوْمَ رَهْبًا قَرِيبًا مِنْهُ ، فَقَالَ : مَا هَذَا ؟ فَقَالُوا : يَتَقَيَّسُ بِأَنَجِيِّ اللَّهِ .
فَقَالَ سَلْيَانُ بِلُحْدِهِ - وَقَالَ وَهَبُ وَفِيهِ لِحْنٌ - (أَيْكُمْ يَأْتِيَنِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَنِي مُسْلِمِينَ)
وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَدَادٍ . كَانَتْ يَتَقَيَّسُ عَلَى فَرَسٍ مِنْ سَلْيَانِ لَهَا قَالَ : « أَيْكُمْ يَأْتِيَنِي بِعَرْشِهَا »
وَكَانَتْ خَلَّتْ عَرْشَهَا بِسَبَأَ ، وَوَكَلَتْ بِهِ حَفْظَةَ . وَلَقِيلَ : إِنَّمَا لَهَا بَعَثَ بِالْهَدِيَةِ بَعَثَ وَرَسُولُهَا
فِي جَنْدِهَا لِنَفَاصِ سَلْيَانِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْقَتْلِ قَبْلَ أَنْ يَتَأَهَّبَ سَلْيَانُ لَهَا إِنْ كَانَ طَالِبَ مَلِكٍ ،
فَلَمَّا عَلِمَ ذَلِكَ قَالَ : « أَيْكُمْ يَأْتِيَنِي بِعَرْشِهَا » . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : كَانَ أَمْرُهُ بِالْإِتْيَانِ بِالْعَرْشِ
قَبْلَ أَنْ يَكْتُبَ الْكَلْبُ إِلَيْهَا ، وَلَمْ يَكْتُبْ إِلَيْهَا حَتَّى جَاءَهُ الْعَرْشُ . وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ : وَظَاهِرُ
الْآيَاتِ أَنَّ هَذِهِ الْمَقَالَةَ مِنْ سَلْيَانٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِدَعْوَى هَدِيَّتِهَا وَرَقَّةَ إِذَاهَا ، وَبَشَّةَ الْمُدَّعِدِ
بِالْكَتَابِ ؛ وَعَلَى هَذَا جَهْدُ الْمُتَأَوِّلِينَ . وَأَخْتَفُوا فِي قَائِلَةِ اسْتِدْعَاهُ عَرْشَهَا ؛ فَقَالَ قَتَادَةُ :
ذَكَرَهُ بِعَظَمِ وَجْهِهِ ؛ فَأَرَادَ اخْذَهُ قَبْلَ أَنْ يَعْصِمَهَا وَقَوْمَهَا الْإِسْلَامَ وَيَسْمِيَ أُمُومَاهُمْ ؛ وَالْإِسْلَامَ
عَلَى هَذَا الدِّينَ ؛ وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ جَرِيرٍ . وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : اسْتَدْعَاهُ لِيَرِيَهَا الْقُسْدَةَ الَّتِي هِيَ مِنْ
عِنْدِ اللَّهِ ، وَيُعْجِلَ دَلِيلًا عَلَى نُبُوَّتِهِ ؛ لِأَخْذِهِ مِنْ بَيُوتِهَا دُونَ جَيْشٍ وَلَا حَرْبٍ ؛ وَ« مُسْلِمِينَ »
عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ بِمَعْنَى مُسْتَبْدِينَ ؛ وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ أَيْضًا : أَرَادَ أَنْ يَجْتَبِ
حَقْلَهَا وَلِهَذَا قَالَ : « نَسْكُوهَا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي » . وَقِيلَ : خَافَتْ ابْنُ أَنْ يَرْجِعَ بِهَا
سَلْيَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيُؤْلَدُ لَهُ مِنْهَا ، فَلَا يَزَالُونَ فِي السَّخَرَةِ وَالْخُدْمَةِ لِنَسْلِ سَلْيَانٍ فَقَالَتْ لِسَلْيَانِ

في عقلها خلل، فأراد أن يمتحنها بعشرتها، وقيل: [أراد] أن يختبر صدق المحدث في قوله: «وَلَقَدْ عَرُضْتُ عَلَى عَظِيمٍ» قاله الطبري. وعن قتادة: أحب أن يراه لما وصفه المحدث. والقول الأول عليه أكثر العلماء؛ لقوله تعالى: «قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَنِي مُسْلِمِينَ». ولأنها لو أسلمت لحظر عليه ما لما فلا يؤتى به إلا بإذنها. وروى أنه كان من فضة وذهب مرصعا بالياقوت الأحمر والجرهر، وأنه كان في جوف سبعة أبيات عليه سبعة أخلاق.

قوله تعالى: (قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ) كذا قرأ الجمهور وقرأ أبو رجاء وعيسى الثنني «عِفْرِيتٌ» ورويت عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ يُفَضِّلُ الْيَعْرَبِيَّةَ الْبَغْدَادِيَّةَ». إتياع لعفريّة. قال قتادة: هي الباهية. قال النحاس: يقال للشديد إذا كان معه خبث ودهاء عفر وعفريّة وعفارية. وقيل «عفريت» أي رئيس. وقرأت لفرقة «قَالَ عَفْرٌ» بكسر العين؛ حكاه ابن عطية؛ قال النحاس: من قال عفريّة جمعه على عفاري، ومن قال عفريت كان له في الجمع ثلاثة أوجه؛ إن شاء قال عفاريّة، وإن شاء قال عفاري؛ لأن النساء زائدة؛ كما يقال طوائف في جمع طاغوت، وإن شاء عوض من التأنيه فقال عفاري. والعفريت من الشياطين القوى المارد. والنساء زائدة. وقد قالوا تَمَفَّرَتِ الرجل إذا تخلف بخصم الأذانية. وقال وهب بن منبه: اسم هذا العفريت كودن؛ ذكره النحاس. وقيل: ذكران؛ ذكره السهيلي. وقال شعيب الجبائي: اسمه دعوان. وروى عن ابن عباس أنه حضر الجن. ومن هذا الاسم قول ذي الرمة:

كَأَنَّهُ كَوَكَبٌ فِي إِثْرِ عِفْرِيتٍ • مُصَوَّبٌ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ مُنْقَضِبٌ
وَأَنَّهُ الْكَسَائِيُّ^(١):

إِذْ قَالَ شَيْطَانُهُمُ الْيَعْرِيتُ • لَيْسَ لَكُمْ مُلْكٌ وَلَا نَبِيْتُ

(١) وفي ديوانه طبع أوربا «سوزم» بدل «مصوب» وهو بمعنى دمع متضرب والبيت في وصف نور وحش؟
كان النور كوكب مصوب متضرب في إثر عفريّة في سواد الليل. (٢) البيت لرؤبة من تصديده يمدح بها
صيلة بن عبد الملك.

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن عفريتاً من الجن جعل يَفْتِكُ على البارحة يقطع على الصلاة وإن الله أمكنني منه فَدَعَسَ " وذكر الحديث .
وفي البخاري " نَفَلَتْ على البارحة " مكان " جَمَلَتْ يَفْتِكُ " . وفي " الموطأ " عن يحيى ابن سعيد أنه قال : أُسْرِيَ برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأى عفريتاً من الجن يطلبه بشعلة من نار ، كلما انطفئت رسول الله صلى الله عليه وسلم وآه ، فقال جبريل : أفلا أعلمك كلمات تعلمهن إذا فتنن طُنِفَتْ شعلته وتُرْلِفِيه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بلى " فقال : " أعوذ بالله الكريم وبكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء وشر ما يخرج فيها [وشر ما ذرأ في الأرض ، وشر ما يخرج منها] ومن فتن الليل والنهار ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن " .

قوله تعالى : (أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ) يعني في مجلسه الذي يحكم فيه .
(وَأَنِّي عَلَيْهِ تَقَرُّوْا أَمِيْنٌ) أي قوَّى على حمله . « أَمِيْنٌ » على ما فيه . ابن عباس : أمين على فرج المرأة ؛ ذكره المهدوي . فقال : سليمان أريد أسرع من ذلك ، فـ (قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ) أكثر المفسرين على أن الذي عنده علم من الكتاب آصف بن برخيا وهو من بني إسرائيل ، وكان صديقاً يحفظ اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى ، وإذا دعي به أجاب . وقالت عائشة رضي الله عنها قال النبي صلى الله عليه وسلم " إن أسم الله الأعظم الذي دعا به آصف بن برخيا يا حي يا قيوم " قيل : وهو بلانهم ، أيأ شلهيا ؛ وقال الزهري : دعاه الذي عنده أسم الله الأعظم ؛ يا إلها وإله كل شيء ، إله واحدا لا إله إلا أنت آتيني برشيا ؛ فسل بين يديه . وقال مجاهد : دعا فقال : يا إلها وإله كل شيء . ياذا الجلال والإكرام . قال السبيل : الذي عنده علم من الكتاب هو آصف بن برخيا ابن خالة سليمان ؛ وكان عنده أسم الله الأعظم من أسماء الله تعالى .

(١) التفتك : الأخذ في غلظة وعذوبة . (٢) فدعته : أي دعاه فدعا شديدا . وفي رواية " فدعته " بإدخال الهمزة ومما عطفه . (٣) " نفلت " : أي عرض له لغة أي بنة . (٤) الزيادة من (الموطأ) .

وقيل : هو سليمان نفسه ؛ ولا يصح في سياق الكلام مثل هذا التأويل . قال ابن عطية :
وقالت فرقة هو سليمان عليه السلام ، والمخاطبة في هذا التأويل للمفريت لما قال ،
« أَنَا آتِيكَ بِدَقِيقٍ أَن تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ » كأن سليمان استبطأ ذلك فقال له على جهة تحقيره :
« أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ » واستدل قائلوه هذه المقالة بقول سليمان ،
« هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي » .

قلت : ما ذكره ابن عطية قاله النحاس في معاني القرآن له ، وهو قول حسن إن شاء
الله تعالى . قال بحر : هو ملك بيده كتاب المقادير ، أرسله الله عند قول المفريت . قال
السجيل : وذكر محمد بن الحسن المقرئ أنه ضَبَّهَ بن أَدَ ؛ وهذا لا يصح البتة لأن ضَبَّهَ
هو ابن أَدَ بن طابخة ، واسمه عمرو بن الياس بن مضر بن نزار بن معد ، ومعد كان في مدة
يختنصر ، وذلك بعد عهد سليمان بدهر طويل ؛ فإذا لم يكن معد في عهد سليمان ، فكيف
ضَبَّهَ بن أَدَ وهو بعده بخمسة آباء ؟ ! وهذا بين لمن تأمله . ابن خزيمة : هو الخضر عليه
السلام . وقال ابن زيد : الذي عنده علم من الكتاب رجل صالح كان في جزيرة من جزائر
البحر ، نرج ذلك اليوم ينظر من ساكن الأرض ؟ وهل يعبد الله أم لا ؟ فوجد سليمان ،
فدعا باسم من أسماء الله تعالى بغيره بالعرش . وقول سابع : إنه رجل من بني إسرائيل
أسمه يملينا كان يعلم اسم الله الأعظم ؛ ذكره القشيري . وقال ابن أبي بزة : الرجل الذي
كان عنده علم من الكتاب اسمه أسطوم وكان مابدا في بني إسرائيل ؛ ذكره النزوي .
وقال محمد بن المنكدر ؛ إنما هو سليمان عليه السلام ؛ أما إن الناس يرون أنه كان معه اسم
وليس ذلك كذلك ؛ إنما كان رجل من بني إسرائيل عالم آتاه الله علما وفقها قال : « أَنَا
آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ » قال : هات . أنت نبي الله نبي الله فإن
دعوت الله جاءك به ، فدعا الله سليمان بقاءه الله بالعرش . وقول ثامن : إنه جبريل عليه
السلام ؛ قاله الضمى ؛ وروى عن ابن عباس . وعلم الكتاب على هذا عليه بكتب الله المنزل ،
أو بما في اللوح المحفوظ . وقيل : علم كتاب سليمان إلى بلقيس . قال ابن عطية : والذي

عليه الجمهور من الناس أنه رجل صالح من بني إسرائيل اسمه آصف بن برخيا؛ روى أنه صلى ركعتين، ثم قال سليمان: يا نبي الله أمدد بصرك فكد بصره نحو اليمن فإذا بالعرش، فأردت سليمان بصره إلا وهو عنده. قال مجاهد: هو إدامة النظر حتى يرتد طرفه خاسئا حسيرا. وقيل: أراد مقدار ما يفتح عينه ثم يطرف، وهو كما تقول: أفعل كذا في لحظة عين؛ وهذا أشبه؛ لأنه إن كان الفعل من سليمان فهو معجزة، وإن كان من آصف أو من غيره من أولياء الله فهي كرامة، وكرامة الولي معجزة النبي. قال القشيري: وقد أنكر كرامات الأولياء من قال إن الذي عنده علم من الكتاب هو سليمان، قال للمفريت: «أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك». وعند هؤلاء ما فعل المفريت فليس من المعجزات ولا من الكرامات، فإن الجن يقدرون على مثل هذا. ولا يقطع جوهر في حال واحدة مكائين، بل يتصور ذلك بأن يعدم الله الجوهر في أقصى الشرق ثم يعيده في الحالة الثانية، وهي الحالة التي بعد العدم في أقصى الغرب. أو يعدم الأماكن المتوسطة ثم يعيدها. قال القشيري: ورواه وهب عن مالك. وقد قيل: بل جاء به في الهواء، قاله مجاهد. وكان بين سليمان والعرش كما بين الكوفة والحيرة. وقال مالك: كانت اليمن وسليمان عليه السلام بالشام. وفي التفاسير أنحرق برش بلفيس مكانه الذي هو فيه ثم نبع بين يدي سليمان؛ قال عبد الله بن شداد: وظهر العرش من فوق تحت الأرض؛ فالله أعلم أي ذلك كان.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ﴾ أي ثابتا عنده. ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ أي هذا النصر والتكين من فضل ربى. ﴿لِيَبْلُوَنِي﴾ قال الأخفش: المعنى ليعبدني؛ وهو مجاز. والأصل في الابتلاء الاختبار أي ليعتبرني أشكر نعمته أم كفرها ﴿وَمَنْ شَكَرْنَا مَّا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ أي لا يرجع نفع ذلك إلا إلى نفسه، حيث استوجب بشكره تمام النعمة ودوامها، والمزيد منها. والشكر قيد النعمة الموجودة، وبه تال النعمة المفقودة. ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ أي عن الشكر (كريم) في الفضل.

قوله تعالى : قَالَ نَكْرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَنْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنْ
الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤٥﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ
هُوَ وَأَوْتَيْنَا أَلَعَلَّ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ
مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : (قَالَ نَكْرُوا لَهَا عَرْشَهَا) أى غيروه . قيل : جعل أعلاه أسفله ،
وأسفله أعلاه . وقيل : غير بزيادة أو نقصان . قال الفراء وغيره : إنما أمر بتكبيره لأن
الشياطين قالوا له : إن في عقلها شيئا فأراد أن يمتحنها . وقيل : خافت الجن أن يترجح بها
سليان فيقول له منها ولد فييقون مسخرين لآل سليان أبدا ، فقالوا لسليان : إنها ضعيفة
العقل ، ورجلها كرجل الجمار ؛ فقال : « نَكْرُوا لَهَا عَرْشَهَا » لتعرف عقلها . وكان لسليان
ناصح من الجن ، فقال كيف لي أن أرى قدميها من غير أن أسألهما كشفها ؟ فقال : أنا أجعل
في هذا القصر ماء ، وأجعل فوق الماء زجاجا ، تظن أنه ماء فترفع ثوبها فتري قدميها ؛
فهذا هو الصرح الذى أخبر الله تعالى عنه .

قوله تعالى : (فَلَمَّا جَاءَتْ) يريد بلقيس ، (قِيلَ) لها (أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ)
شبهته به لأنها خلفته تحت الأغلاق ، فلم تفر بذلك ولم تنكر ، فعلم سليان كمال عقلها . قال
عكرمة : كانت حكمة فقالت « كَأَنَّهُ هُوَ » . وقال مقاتل : عرفته ولكن شبهت عليهم كما
شبهوا عليها ؛ ولو قيل لها : أهذا عرشك لقاتل نعم هو ؛ وقاله الحسن بن الفضل أيضا
وقيل : أراد سليان أن يظهر لها أن الجن مسخرون له ، وكذلك الشياطين تعرف أنها نبوة
وتؤمن به . وقد قيل هذا في مقابلة تعميتها الأمر في باب النامان والحوارى ، (وَأَوْتَيْنَا أَلَعَلَّ
مِنْ قَبْلِهَا) قيل : هو من قول بلقيس ؛ أى أوتينا العلم بصحة نبوة سليان من قبل هذه الآية
في العرش (وَكُنَّا مُسْلِمِينَ) متقادين لأمره . وقيل : هو من قول سليان أى أوتينا العلم

بقدره الله على ما يشاء من قبل هذه المرة . وقيل : « وَأَوْرَثْنَا آلَ لَمَّ » بإسلامها ومجيئها طائفة من قبل مجيئها . وقيل : هو من كلام قوم سليمان . والله أعلم .

قوله تعالى : (وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ) الوقف على « من دون الله » حسن ؛ والمعنى : منعها من أن تعبد الله ما كانت تعبد من الشمس والقمر ذ « ما » في موضع رفع . النحاس ؛ المعنى ؛ أى صدها عبادتها من دون الله وعبادتها إياها عن أن تعلم ما علمناه [عن أن تعلم^(١)] . ويجوز أن يكون « ما » في موضع نصب ، ويكون التقدير : وصدها سليمان عما كانت تعبد من دون الله ؛ أى حال بنها وبينه . ويجوز أن يكون المعنى : وصدها الله ؛ أى منعها الله عن عبادتها غيره فحذفت « عن » وتعدى الفعل . نظيره : « وأختر موسى قومه » أى من قومه . وأنشد سيويه^(٢) :

وَبُنْتُ عَبْدَ اللَّهِ بِالْحَوْ أَصْبَحْتُ • كِرَامًا مَوْلَاهَا لَنَا صِيمُهُ

وزعم أن المعنى عنده بنيت عن عبد الله . (إِنَّمَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ) قرأ سعيد بن جبير « أنها » بفتح الهزء ، وهى في موضع نصب بمعنى لأنها . ويجوز أن يكون بدلا من « ما » فيكون في موضع رفع إن كانت « ما » فاعلة الصد . والكسر على الاستئناف .

قوله تعالى : قَبْلَ لَهَا أَدْخُلِ الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُحَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾

قول تعالى : (قَبْلَ لَهَا أَدْخُلِ الصَّرْحَ) التقدير عند سيويه : أدخل إلى الصرح فحذفت إلى وعدى الفعل . وأبو العباس يظلمه في هذا ؛ قال : لأن دخل يدل على مدخول . وكان الصرح سمحا من زجاج تحته ماء وفيه الحياتان ، عمله ليربها ملكا أعظم من ملكها ؛ قاله مجاهد .

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس .

(٢) البيت للرزق ، وأراد بعبدة الله النية ؛ وهى عبد الله بن دارم .

وقال فتادة : كان من قوارير خلقه ماء • حَبِيبَةٌ بِلْمَةٍ • أى ماء • وقيل : الصرح القصر ؛
من أى صيدة • كما قال :

• تَحْسِبُ أَعْلَامَهُنَّ الصُّرُوحَا •

وقيل : الصَّرح الصَّحْن • كما يقال : هذه صَرْحَةُ الدار وقاعتها • بمعنى • وحكى أبو حيدة
في الغريب المصنف أن الصرح كل بناء عال مرتفع من الأرض ، وأن الفرد الطويل • الناس :
أصل هذا أنه يقال لكل بناء عمل عملا واحدا صرح ؛ من قولهم : لبن صريح إذا لم يُشَبَّهْ ماء ؛
ومن قولهم : صَرَحَ بالأسر ، ومنه : صرعى صريح • وقيل : عمله ليختبر قول الجن فيما إن
أما من الجن ، ويرجلها رجل حار ؛ قاله وهب بن منية • فلما رأت الهمة فزعت وظننت
أنه قصد بها الفرق ، وتجنب من كون كرسية على الماء ، ودأت ما هالها ، ولم يكن يد من
أمتثال الأمر (وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا) فإذا هي أحسن الناس ساقا ؛ مليحة بما قالت الجن ،
غير أنها كانت كثرة الشعر ، فلما بلغت هذا الحد ، قال لها سليمان بعد أن صرف بصره عنها :
« إِنَّهُ صَرِيحٌ مُنْمَرٌ مِنْ قَوَارِيرَ » والمرد المحكوك المجلس ، ومنه الأمرد • وتمرد الرجل إذا أبطل
نصرجه لحية بعد إدراكه ؛ قاله الفراء • ومنه الشجرة المرداء التي لا ورق عليها • ورملة مرداء
إذا كانت لا تنبت • والمرد أيضا المطوّل ، ومنه قيل للمصن مارد • أبو صالح : طويل كل
هيئة النخلة • ابن شجرة : واسع في طوله ومرضه • قال :

فدوت صباها باكرا فوجدتهم • قبيل الضحا في السأري المرد

أى الدروع الوامعة • وعند ذلك استسلمت بلقيس وأذعنت وأسلمت وأقرت على قسمها
بالظلم ؛ على ما يأتى • ولما رأى سليمان طيه السلام قديما قال لبايعه من الشياطين :
كيف لي أن أقطع هذا الشعر من غير مضرة بالجسد ؟ فقله على عمل النورة ، فكانت النورة
والحمامات من يومئذ • فيروى أن سليمان تزوجها عند ذلك وأسكنها الشام ؛ قاله الضحاك •

(١) البيت لأبي ذؤيب وهو بشاره ؛

عمل طرق صكحروا فلما • تحسب أعلامهن الصرورا

يقول : هذه الطرق صكحروا في بيائها •

وقال سعيد بن عبد العزيز في كتاب القفاش : تزوجها وردّها إلى ملكها باليمن ، وكان يأتيها على الريح كل شهر مرة ؛ فولدت له غلاما سماه داود مات في زمانه . وفي بعض الأخبار أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " كانت بلقيس من أحسن نساء العالمين ساقين وهي من أزواج سليمان عليه السلام في الجنة " فقالت حاشة : هي أحسن ساقين مني ؟ فقال عليه السلام : " أنت أحسن ساقين منها في الجنة " ذكره القشيري . وذكر الثعلبي عن أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أول من آخذ الحمامات سليمان بن داود فلما ألصق ظهره إلى الجدار ففسه حرّما قال أواه من عذاب الله " . ثم أحبها حبا شديدا وأقرها على ملكها باليمن ، وأمر الجن فينوا لها ثلاثة حصون لم ير الناس مثلا أرغفا : ساجون وبتون وممدان ؛ ثم كان سليمان يزورها في كل شهر مرة ، ويقم عندها ثلاثة أيام . وحكى الشعبي أن ناسا من حير حفروا مقبرة الملوك ، فوجدوا فيها قبرا مفقودا فيه امرأة عليها حلل منسوجة بالذهب ، وعند رأسها لوح رخام فيه مكتوب :

يَا أَيُّهَا الْأَنْوَامُ عُوِّبُوا مَا • وَأَرَبُّوا فِي مَقْبَرِي الْيَمِينَا
لَعَلُّمُوا أَنِّي تِلْكَ النَّبِي • قَدْ كُنْتُ أَدْعِي الدَّهْرَ بَلْقِيْسَا
شَيْتَتْ قَهْرَ الْمُلْكِ فِي حَيْر • قَوِي وَقَدْ مَا نَوْسَا
وَكُنْتُ فِي مُلْكِي وَتَدِيرِهِ • أُرِيسُمْ فِي اللَّهِ الْمَعَالِيْسَا
بَقِي سُلَيْمَانُ النَّبِيُّ الَّذِي • قَدْ كَانَ لِلنَّوْرَةِ دَرِيْسَا
وَسَحَرُ الرِّيحِ لَهُ مَرَكِبَا • تَهَبُ أَحِبَابًا رَوَائِبِسَا
مَعَ آيْنِ دَاوُدَ النَّبِيِّ الَّذِي • قُدْسُهُ الرَّحْمَنُ تَقْدِيْسَا

وقال محمد بن إسحق ووهب بن منبه : لم يتزوجها سليمان ، وإنما قال لها : آخري زوجا ؛ فقالت : مثل لا ينكح وقد كان لي من الملك ما كان . فقال : لا بد في الإسلام من ذلك . فأختارت ذاتي ملك ممدان ، فزوجه إياها وردّها إلى اليمن ، وأمر زوبعة أمير جن اليمن أن يطيعه ، ففعل له المصانع ، ولم يزل أميرا حتى مات سليمان . وقال قوم : لم يرد فيه خبر صحيح

لا في أنه تزوجها ولا في أنه زوجها . وهي بقيقس بنت السرح بن المدهاد بن شراحيل بن أدد
ابن حدر بن السرح بن الحرس بن قيس بن صيفي بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن
عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح . وكان جدّها المدهاد ملكاً عظيم الشأن قد ولد له
أربعون ولداً كلهم ملوك ، وكانت ملك أرض اليمن كلها ، وكان أبوها السرح يقول للملوك
الأطراف : ليس أحد منكم كفو لي ، وأبي أن يتزوج منهم ، فزوجوه أمراً من الجن
يقال لها ريمانة بنت السكن ، فولدت له بليقة وهي بقيقس ، ولم يكن له ولد غيرها . وقال
أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم : " كان أحد أبوي بقيقس جنياً " فأت أبوها ،
وآختلف عليه قومها فرقتين ، وملكوا أمرهم رجلاً فسأمت سيرته ، حتى بلغ بفساد وعيته ،
فأدركت بقيقس الغيرة ، فمرضت عليه نفسها فتزوجها ، فسقته التلح حتى حرّت رأسه ، ونصبته
على باب دارها فملكوها . وقال أبو بكر : ذكرت بقيقس عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال :
" لا يخلع قوم ولّوا أمرهم ^(١) أمراً " . ويقال : إن سبب تزوج أبيها من الجن أنه كان وزيراً
لملك مات ينتصب نساء الرعية ، وكان الوزير غيورا فلم يتزوج ، فصحب صرة في الطريق رجلاً
لا يعرفه ، فقال هل لك من زوجة ؟ فقال : لا أتزوج أبداً ، فإن ملك بلدنا ينتصب النساء
من أزواجهن ، فقال لئن تزوجت آتيتي لا ينتصبها أبداً . قال : بل ينتصبها . قال : إنا قوم
من الجن لا يقدر علينا ، فتزوج آتيتته فولدت له بقيقس ، ثم ماتت الأم وأبنت بقيقس فصرا
في الصحراء ، فتحدث أبوها بحديثها خطأ ، فسمى لذلك خبرها فقال له : يا فلان تكون عندك هذه
البنت الجيلة وانت لا تأتيني بها ، وانت تعلم حبي للنساء ! ثم أمر بحبسها ، فأرسلت بقيقس إليه
إني بين يديك ، فتجهز لاسير إلى قصرها ، فلما هم بالدخول بين معه أخرجت إليه الجوارى
من مات الجن مثل صورة الشمس ، وقتل له ألا تستحي ؟ ! تقول لك سيدتنا أدخل
بهؤلاء الرجال ملك على أهلك ! فأذن لهم بالأصراف ودخل وحده ، وأغلقت عليه الباب
وقتلته بالمال ، وقطعت رأسه ودمت به إلى عسكره ، فأمروها بطعمه ، فلم تزل كذلك إلى أن

(١) الحديث مررى في البخاري والنسائي والترمذي من طريق أبي بكر في آية كسرى ، وذلك لما بلغ النبي
الله عليه وسلم أن فارساً ملكوا آية كسرى لما ملك قال صلى الله عليه وسلم : وإن يخلع قوم ولّوا أمرهم أمراً " .

بلغ المهدد خبرها سليمان عليه السلام . وذلك أن سليمان لما نزل في بعض منازلها قال المهدد :
 إن سليمان قد أشتغل بالتزول ، فأرتفع نحو السماء فأبصر طول الدنيا وعرضها ، فأبصر الدنيا يمينا
 وشمالا ، فرأى بستانا بلقيس فيه هدهد ، وكان اسم ذلك المهدد عفير ، فقال عفير لعين
 ليعفور سليمان : من أين أتيت ؟ وأين تريد ؟ قال : أتيت من الشام مع صاحبي سليمان بن
 داود . قال : ومن سليمان ؟ قال : ملك الجن والإنس والشياطين والطير والوحش والريح
 وكل ما بين السماء والأرض . فمن أين أنت ؟ قال : من هذه البلاد ؛ ملكها امرأة يقال لها
 بلقيس ، تحت يدها اثنا عشر ألف قيل ، تحت يدها ألف مائة ألف مقاتل من سوى النساء
 والذرائر ؛ فأطلق معه ونظر إلى بلقيس وملكها ، ورجع إلى سليمان وقت العصر ، وكان
 سليمان قد فسد وقت الصلاة فلم يحده ، وكانوا على غير ماء . قال ابن عباس في رواية :
 وقمت عليه فتحة من الشمس . فقال لوزير الطير : هنا موضع من ؟ قال : يا نبي الله هذا
 موضع المهدد . قال : وأين ذهب ؟ قال : لا أدري أصلح الله الملك . فغضب سليمان وقال :
 « لَا مَذْبَنِي مَذَابًا شَدِيدًا » الآية . ثم دعا بالعقاب سيد الطير وأمرها وأشدّها بأسا فقال :
 ما تريد يا نبي الله ؟ فقال : هل بالمهدد الساعة . فرجع العقاب نفسه دون السماء حتى لزم
 بالهواء ، فنظر إلى الدنيا كالقصة بين يدي أحدكم ، فإذا هو بالمهدد مقبلا من نحو اليمن ،
 فأقنع نحوه وأنشأ فيه غلبه . فقال له المهدد : أسألك بالله الذي أقدرك وقواك هل
 إلا ما رحمتي . فقال له : الويل لك ، ونكلك أمك ! إن نبي الله سليمان حلف أن يذبك
 أو يذبحك . ثم أتى به فاستقبله النسور وسائر عساكر الطير . وقالوا الويل لك ، لقد توعدك
 نبي الله . فقال : وما قدرى وما أنا ! أما أستنتي ؟ قالوا : بل ! إنه قال : « أَوْ لَيَأْتِيَنَّ يَسْلُطَانِ
 مُبِينٍ » ثم دخل على سليمان فرفع رأسه ، وأرى ذنبه وجناحيه تواضعا لسليمان عليه السلام .
 فقال له سليمان : أين كنت عن خدمتك ومكانك ؟ لأعذبك عذابا شديدا أو لأذبحك .
 فقال له المهدد : يا نبي الله ! أذكر وقوفك بين يدي الله بمنزلة وقوفى بين يديك ، فأقشع
 جلد سليمان وأرمد وعفا عنه . وقال عكرمة : إنما صرف الله سليمان عن ذبح المهدد أنه

كان باراً برأيه ، يقتل الطعام إليها فزعهما . ثم قال له سليمان : ما الذي أبطأك ؟ فقال
المهندس ما أخبر الله عن بليس وعرشها وقومها حسباً تقدم بيانه . قال السوروي :
والقول بأن أم بليس جنية مستفكر من القول ثبائن الجنيين ، وأختلاف الطبعين ، وتفاوت
الحسين ؛ لأن الآدمي جسياني والجن روحاني ، وخلق الله الآدمي من صلصال كالفخار ، وخلق
الجان من نار ، ويمنع الأمتزاج مع هذا التباين ، ويستحيل التماسل مع هذا الاختلاف .
قلت : قد مضى القول في هذا ، والعقل لا يحمله مع ما جاء من الخبر في ذلك ، وإذا
نظر في أصل الخلق فأصله المساء على ما تقدم بيانه ، ولا يعد في ذلك والله أعلم . وفي الترتيل
« وَتَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ » وقد تقدم . وقال تعالى : « لَمْ يَطْمِئِنْسَ قَبْلَهُمْ
وَلَا جَانٌّ عَلَى مَا بَأَى فِي » الرحمن .

قوله تعالى : (قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي) أي بالشرك الذي كانت عليه ؛ قاله
ابن شجرة . وقال سفيان : أي الظن الذي توهنته في سليمان ؛ لأنها لما أصرت بدخول
الصرح حسبته بلة ، وأن سليمان يريد تفريقها فيه . فلما بان لها أنه صرح مجرد من قوادير
علمت أنها ظلمت نفسها بذلك الظن . وكسرت « إن » لأنها مبتدأة بعد القول . ومن
العرب من يفتحها فيعمل فيها القول . (وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ فِي رَبِّ الْمَالِكِينَ) .
إذا سكنت « مع » فهي حرف جاء لمعنى لا اختلاف بين النحويين . وإذا فتحتها فمعها قولان :
أحدهما - أنه بمعنى الظرف آمم . والآخر - أنه حرف خافض مبنى على الفتح ؛ قاله النحاس :

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ
فَمَآذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَتَقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ
قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ قَالُوا أَطِيعُوا رَبَّكَ
وَرَبَّنَا قَالَ طَعْنُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَرٌّ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَفْتَنُونَ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمِهِمُ صَلَاحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ) فسلم معناه .
 (فَإِذَا هُمْ قَوْمٌ يَخْتَصِمُونَ) قال مجاهد : أى مؤمن وكافر ؛ قال : والخصومة ما قصه الله تعالى فى قوله : « أَعْتَابُونَ أَنَّ صَلَاحًا مُرْسَلًا مِنْ رَبِّهِ » إلى قوله : « كَافِرُونَ » . وقيل :
 تخاصمهم أن كل فرقة قالت : نحن على الحق دونكم .

قوله تعالى : (قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعِمِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ) قال مجاهد : بالعذاب قبل الرحمة ؛ المعنى : لم تخرجون الإيمان الذى يجلب إليكم الثواب ، وتقدمون الكفر الذى يوجب العقاب ؛ فكان الكفار يقولون لفرط الإنكار : آتينا بالعذاب . وقيل : أى لم تفعلوا ما تستحقون به العقاب ؛ لا أنهم آتسوا تعجيل العذاب . (لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ)
 أى هلا تنوبون إلى الله من الشرك . (لَعَلَّكُمْ تَرْجِعُونَ) لكى ترجعوا ؛ وقد تقدم .

قوله تعالى : (قَالُوا أَطِيعُوا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ) أى تشامنا . والشؤم النجس . ولا شيء
 أضر بالراى ولا أفسد للتدبير من اعتقاد الطيرة . ومن ظن أن خوار بقره أو يعيق غراب
 يرد قضاءه ، أو يدفع مقدورا فقد جهل . وقال الشاعر :

طيرة الدهر لا ترد قضاءه • فأضد الدهر لا تشبه بلوم
 أى يوم يخصه بسوء • والمنايا يتزل فى كل يوم
 ليس يوم إلا وفيه سوء • ونحوه تجرى لقوم فقوح

وقد كانت العرب أكثر الناس طيرة ، وكانت إذا أرادت سفرا تقرب طائرا ، فإذا طار بمنة
 سارت وتيمنت ، وإن طار شمالا رجعت وتشاءمت ، فتهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك
 وقال : « أَتُرَوُّوا الطير على مكائنها »^(١) على ما تقدم بيانه فى « المائدة »^(٢) . (قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ)
 أى مصائبكم . (بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ) أى تمتحنون . وقيل : يعذبون بذنوبكم .

(١) الركعات (بضم الكاف وضمها وسكونها) جمع ركعة (بالسكون) برعى من الطائر وذكره ويرى : « على مكائنها » .

(٢) راجع ج ٦ ص ٦٠ طية أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : (وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ) أى فى مدينة صالح وهى الحجر (تِسْعَةُ رَهْطٍ) أى تِسْعَةُ رجال من أبناء أشرانهم . قال الضحاك : كان هؤلاء التسعة عطاء أهل المدينة ، وكانوا يفسدون فى الأرض ويامرون بالفساد ، جلسوا عند بحيرة عظيمة فقلبا الله عليهم . وقال عطاء بن أبى رباح : لفتى أنهم كانوا يقرضون الدنانير والدرهم ، وذلك من الفساد فى الأرض ، وقاله سعيد بن المسيب . وقيل : فسادهم أنهم يتبعون عورات الناس ولا يسترون عليهم . وقيل : غير هذا . واللازم من الآية ما قاله الضحاك وغيره أنهم كانوا من أوجه الثوم وأقاهم وأغناهم ، وكانوا أهل كفر ومعاص بجمّة ، وجملة أمرهم أنهم يفسدون ولا يصلحون . والرهط اسم للجماعة ، فكانهم كانوا رؤساء يتبع كل واحد منهم رهط . والجمع أرهاط وأرايط . قال :

يا بؤس للحرب النى • وضعت أرايط فاستراحوا

وهؤلاء المذكورون كانوا أصحاب قُدار عافر الناقة ، ذكره ابن عطية .

قلت : وأختلف فى اسمائهم ؛ فقال الفزوى : واسمائهم قُدار بن سالف ومصدع وأسلم ودسما ولهم وذعما وذعيم وقاتل وصادق . ابن إسحق : رأسهم قُدار بن سالف ومصدع ابن مخرج ، فاتبعهم سبعة ؛ هم بلع بن مبلع ودعير بن غنم وذؤاب بن مخرج وأربعة لم تعرف اسمائهم . وذكر الزنجشیری اسماءهم عن وهب بن منبه : الهذيل بن عبد رب ، غنم بن غنم ، رباب بن مخرج ، مصدع بن مخرج ، عمير بن كردبة ، عاصم بن نخومة ، سبط بن صدقة ، سمعان بن صفى ، قدار بن سالف ؛ وهم الذين سمعوا فى عفر الناقة ، وكانوا عاة قوم صالح ، وكانوا من أبناء أشرانهم . السهيلي : ذكر النقاش التسعة الذين كانوا يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، وسماهم باسمائهم ، وذلك لا ينضبط برواية ؛ غير أنى أن ذكره على وجه الاجتهاد

والنصين، ولكن نذكره على ما وجدناه في كتاب محمد بن حبيب، وهم: مصدع بن دهر، ويقال
دهم، وقنار بن سالف، وهريم وصواب ورياب وذاب ودعا وهربا ودمين بن حير .
قلت : وقد ذكر الماوردي أسماءهم عن ابن عباس فقال : هم دعما ودعيم وهربا
وهريم وذاب وصواب ورياب ومسطح وقنار، وكانوا بأرض الجحري وهي الشام .

قوله تعالى : (قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ) يجوز أن يكون « تَقَاسَمُوا » فعلا
مستقبلا وهو أمر، أي قال بعضهم لبعض أحلفوا . ويجوز أن يكون ماضيا في معنى الحال
كأنه قال : قالوا متقاسمين بالله، ودليل هذا التأويل قراءة عبد الله : « يُبَيِّتُونَ فِي الْأَرْضِ
وَلَا يُصَلُّونَ . تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ » وليس فيها « قَالُوا » . « لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ »
قراءة العامة بالنون فهما واختاره أبو حاتم . وقرأ حمزة والكسائي بالتاء فهما، وضم التاء واللام
على الخطاب أي أنهم تخاطبوا بذلك، واختاره أبو عبيد . وقرأ مجاهد وحيد بإياله فهما،
وضم الياء واللام على الخبر . والبيات مباغرة العدو ليلا . ومعنى « لَوَيْلِيهِ » أي لعل صالح
الذي له ولاية الدم . (مَا شَهِدْنَا مَهْلِكُ أَهْلِهِ) أي ما حضرنه، ولا ندرى من قتله وقتل أهله .
(وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) في إنكارنا لقتله . والمهلك بمعنى الإهلاك، ويجوز أن يكون الموضع .
وقرأ [حاصم] والسبي (يفتح الميم واللام) أي الهلاك، يقال : ضرب يضرب مقربا
أي ضربا . وقرأ الفضل وأبو بكر (يفتح الميم وجر اللام) فيكون اسم المكان كالمجلس للموضع
الجلوس . ويجوز أن يكون مصدرا، كقوله تعالى : « إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ » أي رجوعكم .

قوله تعالى : وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَتًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ ۖ فَانظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَقِيبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمُ الْيَوْمَ ۖ فَتِلْكَ بَيِّنَاتٌ
خَالِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا ۖ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۖ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ
آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۖ

(١) « مهلك » ضم الميم وضاع اللام قراءة الجمهور . (٢) في الأصل : « وقرأ حمص : ... الخ »
فحذف يقرأ بفتح الميم وكر اللام .

﴿وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ مكرم مازوى أن هؤلاء التسعة لما كان في صدر الثلاثة الأيام بعد عقر الناقة، وقد أخبرهم صالح بنى العذاب، أنفقوا ونالوا على أن يأتوا دار صالح ليلا ويقتلوه وأهله المختصين به؛ قالوا: فإذا كان كاذبا في وعيده أوقفنا به ما نستحق، وإن كان صادقا كنا نجلباه قبلنا، وشفتنا نفوسنا؛ قاله مجاهد وغيره. قال ابن عباس: أرسل الله تعالى الملائكة تلك الليلة، فآمنت بهم دار صالح، فأتى التسعة دار صالح شاهرين سيوفهم، فقتلهم الملائكة رخصا بالجحارة فيرون الحجارة ولا يرون من يرميها. وقال قتادة: نزعوا مرميين إلى صالح، فسقط عليهم ملك بيده مخففة فقتلهم. وقال السدي: نزلوا على جرف من الأرض، فأناهم بهم فأهلكهم الله سمته. وقيل: أخفقوا في غار قريب من دار صالح، فأنحدرت عليهم صخرة فشدختهم جميعا؛ فهذا ما كان من مكرم. ومكر الله مجازاتهم على ذلك. ﴿فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِمٍ﴾ أَنَا دَمَرْنَا هُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ أى بالصيحة التى أهلكتهم. وقد قيل: إن هلاك الكل كان بصيحة جبريل، والظاهر أن التسعة هلكوا بعذاب مفرد؛ ثم هلك الباقون بالصيحة والدمدمة. وكان الأعمش والحسن وابن أبى إسحق وعاصم وحزمة والكسائي يقرءون «أنا» بالفتح؛ وقال ابن الأنباري: فعل هذا المذهب لا يحسن الوقف على «عَاقِبَةُ مُكْرِمٍ» لأن «أَنَا دَمَرْنَا هُمْ» خبر كان. ويجوز أن يجعلها في موضع رفع على الإتيان للعاقبة. ويجوز أن يجعلها في موضع نصب من قول القراء، وتخضع من قول الكسائي على معنى: أنا دمرناهم ولأن دمرناهم. ويجوز أن يجعلها في موضع نصب على الإتيان لموضع «كَيْفَ» فمن هذه المذاهب لا يحسن الوقف على «مُكْرِمٍ». وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: «إِنَّا دَمَرْنَا هُمْ» بكسر الألف على الاستثناف؛ فعل هذا المذهب يحسن الوقف على «مُكْرِمٍ». قال النحاس: ويجوز أن ينصب «عَاقِبَةُ» على خبر «كان» ويكون «إِنَّا» في موضع رفع على أنها اسم «كان». ويجوز أن تكون في موضع رفع على إضمار مبتدأ تبينا للعاقبة؛ والتقدير: هي إنا دمرناهم؛ قال أبو حاتم: وفي حرف أبي «أَن دَمَرْنَا هُمْ» تصديقا لفتحها.

قوله تعالى : (فَبَلَغَ بِيَوْمِهِمْ خَاوِيَةً مِّمَّا ظَنَّمُوا) قراءة العامة بالنصب على الحال عند الفراء والتماس ، أى خالية عن أهلها نزلوا ليس بها ساكن . وقال الكسائي وأبو عبيدة : « خَاوِيَةٌ » نصب على القطع ، مجازة : فتلك بيوتهم الخاوية ، فلما قطع منها الألف واللام نصب على الحال ، كقوله : « وَلَهُ الَّذِينَ وَاصِبًا » . وقرأ عيسى بن عمر ونصر بن عاصم والجدري بالرفع على أنها خبر عن « تِلْكَ » و « بِيَوْمِهِمْ » بدل من « تِلْكَ » . ويجوز أن تكون « بِيَوْمِهِمْ » عطف بيان و « خَاوِيَةٌ » خبر عن « تِلْكَ » . ويجوز أن يكون رفع « خَاوِيَةٌ » على أنها خبر ابتداء محذوف ، أى هى خاوية ، أو بدل من « بِيَوْمِهِمْ » لأن النكرة تبدل من المعرفة (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَأَنبِئْنَا الَّذِينَ آمَنُوا) بصالح (وَكَانُوا يَتَّقُونَ) لله ويخافون عذابه . قيل : آمن بصالح قدر أربعة آلاف رجل . والباقون خرج بأبدانهم — فى قول مقاتل وغيره — نَرَجَّحُ مثل المحص ، وكان فى اليوم الأول أحمر ، ثم صار من الغد أصفر ، ثم صار فى الثالث أسود . وكان عقر الناقة يوم الأربعاء ، وهلاكهم يوم الأحد . قال مقاتل : قمت تلك المخرجات ، وصاح جبريل بهم خلال ذلك صيحة نغمدوا ، وكان ذلك ضحوة . ونرجح صالح بن آمن معه إلى حضرموت ، فلما دخلها مات صالح ، فسميت حضرموت . قال الضمك : ثم بنى الأربعة الآلاف مدينة يقال لها حاضوا ، على ما تقدم بيانه فى قصة أصحاب الرس .

قوله تعالى : وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّا نَوْنُ الْفَاحِشَةَ وَإِنَّكُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ أَيْتُكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ يَّجْهَلُونَ ﴿٦٧﴾ قَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتُحَرِّجُونَا إِلَى لُوطٍ مِّنْ قَرَيْتِكُمْ إِنْهُمْ أَنْاسٌ يَّتَّبِعُونَ ﴿٦٨﴾ فَأَنبِئْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَهُمْ قَدَرْنَاهُ مِنْ الْغَيْرِينَ ﴿٦٩﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا مُّثْرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ طَأَّ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ أى وأرسلنا لوطا ، أو أذكر لوطا . « إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ » وهم أهل سدوم . وقال لقومه : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ﴾ الفعله الفحيحة الشفيعه ، ﴿ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ أنها فاحشة ، وذلك أعظم لذنوبكم . وقيل : يأتى بعضكم بعضا وأنتم تنظرون إليه . وكانوا لا يستترون ضوا منهم وعمدا . ﴿ أَلَيْسَ لَكُمُ الْرِّجَالُ نَشْوَ مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ﴾ أعاد ذكرها لقرط فبحها وشنعها . ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُجَاهِلُونَ ﴾ لما أصر التحريم أو القوبة . وأختيار التحليل وسيبويه تخفيف المعزة الثانية من « أَنْتُمْ » فاما الخلط فالسبيل فيه أن يكتب بالفتين على الرجوه كلها ، لأنها همزة مبتدأ دخلت عليها ألف الاستفهام .

قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبِعُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرِيْبِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَتْلَهُوْنَ ﴾ أى عن أدبار الرجال . يقولون ذلك استهزاء منهم ، قاله مجاهد . وقال قتادة : حاوهم والله بنسب عيب بأنهم يتلوهون من أعمال السوء . ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ قَدَرْنَا مِمَّنَ الْفَآئِرِينَ ﴾ وقرأ حاصم « قَدَرْنَا » خففا والمعنى واحد . يقال قد قدرت الشيء قدرا وقدرا وقدرته . ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا نَسَاءً مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ أى من أنذر فلم يقبل الإنذار . وقد مضى بيان هذا في « الأعراف » و « هود » .

قوله تعالى : قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرُ مَا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ أَمِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتِ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَيْئَهَا أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٢﴾ أَمِنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خَلْقَهَا أَنْهْرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوْبِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾

(١) راجع ج ٧ ص ٢٤٧ طبة أول أو ثانية . (٢) راجع ج ٩ ص ٨١ راجع طبة أول أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾ قال الفراء قال أهل
 اللغى : قيل للوط « قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ » على هلاكهم . وخالف جماعة من العلماء الفراء في هذا
 وقالوا : هو مخاطبة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، أى قل الحمد لله على هلاك كفار الأمم
 التالية . قال النحاس : وهذا أولى ، لأن القرآن منزل على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكل ما فيه
 فهو مخاطب به عليه السلام إلا ما لم يصح معناه إلا لنبيه . وقيل : المعنى ؛ أى « قُلْ » يا محمد
 « الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى » يعنى أمته عليه السلام . قال الكلبي : أصطفاهم الله
 بمرزته وطاعته . وقال ابن عباس وسفيان : هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل :
 أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته
 على كل شئ . وحكته ، وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه والمصطفين من عباده .
 وفيه تعليم حسن ، وتوقيف على أدب جميل ، وبعث على التيقن بالذكرين والتبرك بهما ،
 والاستظهار بمكانتهما على قبول ما يلقى إلى السامعين ، وإصفايتهم إليه ، وإزالة من قلوبهم
 المازلة التي يفيها المستمع . ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابرا عن كابر هذا الأدب ،
 الحمدوا الله وصلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام كل علم مفاد ، وقيل كل عظة
 وفي مفتتح كل خطبة ، وتبعهم المترسلون فأجروا عليه أوائل كتبهم في الفتوح والتهاني ،
 وغير ذلك من الحوادث التي لها شأن .

قوله تعالى : « الَّذِينَ اصْطَفَى » أختار ؛ أى لرسائله وهم الأنبياء عليهم السلام ؛ دليله
 قوله تعالى : « وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ » . (الله خير) وأجاز أبو حاتم « الله خير » بهمذين .
 النحاس : ولا نعلم أحدا تابعه على ذلك ؛ لأن هذه اللمة إنما جى بها فرقا بين الاستفهام والخبر ،
 وهذه ألف التوقيف ، و « خير » ههنا ليس بمعنى أفضل منك ، وإنما هو مثل قول الشاعر :
 أتتهجوه ولست له بكفه . فتركنا تحريك الفاء

فالمعنى فالذي فيه الشر منك لا الذي فيه الخير الفساد . ولا يجوز أن يكون بمعنى من لأنك
 إذا قلت : فلان شر من فلان قى كل واحد منهما شر . وقيل : للمعنى ؛ الخير في هذا

(١) هو حسان بن ثابت رضي الله عنه .

أم في هذا الذي تتركونه في العبادة ! وحكي سيويه : السعادة أحب إليك أم الشقاء ؟ وهو يعلم أن السعادة أحب إليه . وقيل : هو عمل بابه من التفضل ، والمعنى : الله خير أم ماتركون ؛ أي أتوا به غير أم عقاب ماتركون . وقيل : قال لم ذلك ؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن في عبادة الأصنام خيرا تغايطهم الله عز وجل على اعتقادهم . وقيل : اللفظ لفظ الاستفهام ومعناه الخسبر . وقرأ أبو عمرو وعاصم وبسبب « يُتْرَكُونَ » بياء على الخسبر . الباقون بالياء على الخطأ ، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم ؛ فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قرأ هذه الآية يقول : " بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم " .

قوله تعالى : (أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ) قال أبو حاتم : تعديره ؛ ألستم خير أم من خلق السموات والأرض ؟ وقد تقدم . ومعناه : قدر على خلقهن . وقيل : المعنى ؛ أعبادة ما تعبدون من أوثانكم خير أم عبادة من خلق السموات والأرض ؟ فهو مردود على ما قبله من المعنى ؛ وفيه معنى التوبيخ لهم ، والتنبيه على قدرة الله عز وجل وعجز أنفسهم . (فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ) الحديقة البستان الذي عليه حائط . والبهجة المنظر الحسن . قال الفراء : الحديقة البستان المحظور عليه حائط ، وإن لم يكن عليه حائط فهو البستان وليس بحديقة . وقال قتادة وعكرمة : الحدائق النعل ذات بهجة ، والبهجة الزينة والحسن ؛ يروج به من رآه . (مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُبَدِّلُوا خَبِيرًا) « ما » للمعنى ومعناه الحظر والمنع من فعل هذا ؛ أي ما كان للبشر ، ولا يتبأ لهم ، ولا يقع تحت قدرتهم ؛ أن يبدلوا خبيرها ؛ إذ هم عجزون عن مثلها ، لأن ذلك إخراج الشيء من العلم إلى الوجود .

قلت : وقد يستدل من هذا على منع تصوير شيء سواء كان له روح أم لم يكن ؛ وهو قول مجاهد . ويضدده قوله صلى الله عليه وسلم : " قال الله عز وجل ومن أعلم من ذهب يخلق خلقا تكلف ليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة " رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ؛ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " قال الله عز وجل " فذكره ؛ ثم ألهم والتهديد والتوبيخ كل من تعاطى تصوير شيء مما خلقه الله وضاهاه في التشبه في خلقه

فَمَا أَقْرَبُ بِهِ سُبْحَانَهُ مِنَ الْخَلْقِ وَالْإِحْتِرَاعِ وَهَذَا وَاضِحٌ . وَذَهَبَ الْجُمْهُورُ إِلَى أَنَّ تَصَوُّرَ مَا لَيْسَ
فِيهِ رُوحٌ يَحْسُوزُ هُوَ وَالْاِكْتِسَابُ بِهِ . وَقَدْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ لِلَّذِي سَأَلَهُ أَنْ يَصْنَعَ الصُّورَ : إِنْ
كَنتَ لَا بَدَ فَاعْلَا فَاصْنَعْ الشَّجَرَ وَمَا لَا فَضْلَ لَهُ خُرجه مسلم أيضا . وَالْمَنْعُ أَوَّلَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ
لِمَا ذَكَرْنَا ، وَسَيَأْتِي لِهَذَا مَزِيدٌ بَيَانٌ فِي «سَبَأٍ» إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . ثُمَّ قَالَ عَلَى جِهَةِ التَّوْبِيخِ :
(أَلَيْهَ مَعَ اللَّهِ) أَيُّ هَلْ مَعْبُودٌ مَعَ اللَّهِ يَعْنِيهِ عَلَى ذَلِكَ . (بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ) بِاللَّهِ فِيزِهِ .
وَقِيلَ : « يَعْدِلُونَ » غِنَى الْخَلْقِ وَالْفَصْدِ ؛ أَيُّ يَكْفُرُونَ . وَقِيلَ : « إِلَهُ » مَرْفُوعٌ بِ«مَعَ»
تَقْدِيرُهُ : مَعَ اللَّهِ وَيَلِكُمْ إِلَهُ . وَالْوَقْفُ عَلَى «مَعَ اللَّهِ» حَسَنٌ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا) أَيُّ مُسْتَقَرًّا . (وَجَعَلَ خِلَافَهَا أَنْهَارًا)
أَيُّ وَسْطَهَا مِثْلَ « وَبَحَّرْنَا خِلَافَهَا نَهْرًا » . (وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ) يَعْنِي جِبَالًا تَوَاتِبُ تَحْسِكُهَا
وَتُعْنَمُهَا مِنَ الْحَرَكَةِ . (وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا) مَا نَا مِنْ قُدْرَتِهِ لِكُلِّ غَضَلٍ الْأَحْجَاجِ
بِالْمَذْبُوبِ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : سُلْطَانًا مِنْ قُدْرَتِهِ فَلَا هَذَا يَفْتَرُ ذَلِكَ وَلَا ذَلِكَ يَفْتَرُ هَذَا .
وَالْحُجْزُ الْمَنْعُ . (أَلَيْهَ مَعَ اللَّهِ) أَيُّ إِذَا ثَبِتَ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى هَذَا فِيزِهِ فَلَمْ يَهْدُونَ مَا لَا يَضُرُّ
وَلَا يَنْفَعُ . (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) يَعْنِي كَانَهُمْ يَعْهَلُونَ اللَّهُ فَلَا يَعْلَمُونَ مَا يَجِبُ لَهُ
مِنَ الْوَحْدَانِيَّةِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : أَمَّنْ يَجْبِبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ
وَيَجْعَلُكَ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَدَّكَّرُونَ ﴿١٦﴾ أَمَّنْ
يَهْدِيكَ فِي ظُلُمَاتٍ أَلْتَبِ وَالتَّبَحِيرُ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ
رَحْمَتِهِ أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٧﴾ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ
ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا
بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (**أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ**) قال ابن عباس : هو ذو الضرورة المجهود . وقال السدي : الذي لا حول له ولا قوة . وقال ذو النون : هو الذي قطع الملاقى عما دون الله . وقال أبو جعفر وأبو عثمان النيسابوري : هو المفلس . وقال سهل ابن عبد الله : هو الذي إذا رفع يديه إلى الله داعياً لم يكن له وسيلة من طاعة قدّمها . وجاء رجل إلى مالك بن دينار فقال : أنا أسألك بالله أن تدعوني فأنا مضطر ، قال : إذا فأسأله فإنه يجيب المضطر إذا دعاه . قال الشاعر :

وإني لأدعو الله والأمر ضيقٌ • هلْ فَا يَنْفَكُ أَنْ يَنْفَرِجَا
وربَّ أخٍ سَدَّتْ عليه وجوههُ • أصابَ لَمَّا دعا اللهَ غَرِجَا

الثانية — وفي مسند أبي داود الطيالسي عن أبي بكر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعاء المضطر : **«اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى تمقى طرفة عين وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت»** .

الثالثة — ضمن الله تعالى إجابة المضطر إذا دعاه ، وأخبر بذلك عن نفسه ؛ والسبب في ذلك أن الضرورة إليه بالبناء يتشا عن الإخلاص ، وقطع القلب عما سواه ؛ ولإخلاص عنده سببانه موقع وذمة ، وجد من مؤمن أو كافر ، طالع أو فاجر ، كما قال تعالى : **«حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ مَوْجٍ يَرِيحُ طَيْفَةً وَّفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رَيْحٌ فَاصَفَّ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ** » وقوله : **«فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ** » فاجابهم عند ضرورتهم ووقوع إخلاصهم ، مع علمه أنهم يهودون إلى شركهم وكفرهم . وقال تعالى : **«فَلَمَّا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** » فيجيب المضطر لموضع اضطرابه وإخلاصه . وفي الحديث : **«ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن دعوة المظلوم ودعوة المسافر ودعوة الوالد على ولده»** ذكره صاحب الشهاب ؛ وهو حديث صحيح . وفي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لما دنا وجهه إلى أرض اليمن **«وَأَتَى عَوَّةَ الْمَظْلُومِ فَلَيْسَ بِهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»**

وى كتاب الشهاب : " آتسوا دعوة المظلوم فإنها تحمل على التمام فيقول الله تبارك وتعالى
 وعزى وجلالى لأنصرك ولو بعد حين " وهو صحيح أيضا . - يخرج الأجرى من حديث
 أبى ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم : " نأى لا أرحها ولو كانت من لم كافرا " فيجب المظلوم
 لموضع إخلاصه بضروته بمقتضى كرمه ، وإجابة لإخلاصه وإن كان كافرا ، وكذلك إن كان
 فاجرا فى دينه ، ففجور الفاجر وكفر الكافر لا يهود منه نقص ولا ومن على مملكة سيده ،
 فلا يمنه ما قضى للظفر من إجابته . وفسر إجابة دعوة المظلوم بالنصرة على ظاله بما شاء
 سبحانه من قهر له ، أو اقتصاص منه ، أو تسليط ظالم آخر عليه بقهره كما قال عز وجل :
 " وَكَذَلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا " وأكد سرعة إجابته بقوله : " تحمل على التمام " ومعناه
 والله أعلم أن الله عز وجل يؤكل ملائكة تلقى دعوة المظلوم ويحملها على التمام ، فيخرجوا
 بها إلى السماء ، والسماء قبيلة الدعاة ليراهم الملائكة كلهم ، فيظهر منه معاونه المظلوم ، وشفاعة
 منهم له فى إجابة دعوته ، رحمة له . وى هذا تحذير من الظلم بحلة ، لما فيه من مخطط الله
 ومعصيته ومخالفة أمره ، حيث قال على لسان نبيه فى صحيح مسلم وغيره : " يا عبادى إني
 حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا " الحديث . فالمظلوم مضطرب ، ويقرب
 منه المسافر ؛ لأنه منقطع عن الأهل والوطن ، منفرد عن الصديق والحميم ، لا يسكن قلبه
 إلى مسعد ولا معين لغربته ، فتصدق ضرورته إلى المولى ، فيخلص إليه فى الجاه ، وهو
 المحيى للظفر إذا دعاه ، وكذلك دعوة الوالد على ولده ، لا تصدر منه مع ما يعلم من حقه عليه
 وشفقته ، إلا عند تكامل عجزه عنه ، وصدق ضرورته ، وإياسه عن بر ولده ، مع وجود
 أدبته ، فيصرع الحق إلى إجابته .

قوله تعالى : (وَيَكْفُ السُّوءَ) أى الضر . وقال الكلبي : الجور . (وَيَجْعَلُ
 خَلْقًا لِّلْأَرْضِ) أى سكانها يهلك قوما وينشئ آخرين . وفى كتاب النقاش : أى ويجعل
 أولادكم خلفا منكم . وقال الكلبي : خلقا من الكفار يتلون أروهم ، وطاعة الله بعد كفرهم .
 (أَلَا مَعَ اللَّهِ) على جهة التوبيخ ، كأنه قال : مع الله وليكم الله ، فـ " والله " صريح بـ " مع " .

ويحوز أن يكون صرغاً بل اختار الله مع الله يفعل ذلك فعبدوه . والوقف على « مع الله » حسن . (قِيلَ مَا تَذْكُرُونَ) قرأ أبو عمرو وعشام ويعقوب « يَذْكُرُونَ » بإيالة على الخبر ، كقولهم : « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » و « تَمَاتَى اللَّهُ عَمَّا يُشِيرُونَ » فأخبر فيها قبلها وبديها واختاره أبو حاتم . الباقون بالناء خطايا لقوله : « وَيَعْلَمُ خُفَاءَ الْأَرْضِ » .

قوله تعالى : (أَمِنْ يَدَيْكُمْ) أى يرشدكم الطريق (فِي ظُلُمَاتٍ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) إذا ما نزلتم إلى البلاد التى تنزجهمون إليها بالليل والنهار . وقيل : وجعل مفاوز البر والبحر لا أعلام لها ، وبلج البحار كأنها ظلمات ؛ لأنه ليس لها علم يهتدى به . (وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ زَحْمَةٍ) أى قدام المطر بأفلاك أهل التاويل . (أَلَا مَعَ اللَّهِ) يفعل ذلك ويعينه عليه . (تَمَاتَى اللَّهُ عَمَّا يُشِيرُونَ) من دونه .

قوله تعالى : (أَمِنْ يَسْأَلُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَمُدُّهُ) كانوا يقولون أنه الخالق الرزاق فالزعم الإعادة ؛ أى إذا قدر على الابتداء فمن ضرورته القدرة على الإعادة ، وهو أهون عليه . (أَلَا مَعَ اللَّهِ) ينفق ويرزق ويسدى ويعيد : (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ) أى حجتكم أن فى شريكنا ، أو حجتكم فى أنه صنع أحد شيئاً من هذه الأشياء غير الله (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) .

قوله تعالى : قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٥٥﴾ بَلْ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ يَتَبَاهَوْنَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : (قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ) . وعن بعضهم : أخفى غيبه على الخلق ، ولم يطلع عليه أحد لئلا يأمن أحد من عباده مكره . وقيل : نزلت فى المشركين حين سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن قيام الساعة . و « من » فى موضع رفع ، والمعنى : قل لا يعلم أحد الغيب إلا الله ؛ فإنه بدل من « من » قاله الزجاج .

(١) « نشرنا » بالنون على قراءة فاعل . وفيه سبع فراغات ؛ راجع ص ٧٢٢ طبة أول أداتانية .

الفراء : وإنما رفع ما بعد « إلا » لأن ما قبلها مجحد ، كقوله : ما ذهب أحد إلا أبوك ؛ والمعنى واحد ، قال الزجاج : ومن نصب نصب على الاستثناء ؛ يعني في الكلام . قال النحاس : وسمته ينجح بهذه الآية على من صدق منجما ؛ وقال : أخاف أن يكفر بهذه الآية . قلت : وقد مضى هذا في « الأنعام » مستوفى . وقالت عائشة : من زعم أن محمدا يعلم ما في غد فقد أعظم على الله الفرية ؛ والله تعالى يقول : « قُلْ لَا يَسْلَمُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ النَّبِيُّ إِلَّا اللَّهُ » ترجمه مسلم . وروى أنه دخل على الجناح منجم فأعتقه الجناح ، ثم أخذ حصيات فعدهن ، ثم قال : كم في يدي من حصاة ؟ فحسب المنجم ثم قال : كذا ؛ فأصاب . ثم أعتقه فأخذ حصيات لم يعدهن فقال : كم في يدي ؟ فحسب فأخطأ ثم حسب فأخطأ ؛ ثم قال : أيها الأمير أظنك لا تعرف عددها ؛ قال : لا . قال : فإني لا أصيب . قال : فما الفرق ؟ قال : إن ذلك أحصيته ففرج عن حد النيب ، وهذا لم تحصه فهو غيب و « لَا يَسْلَمُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ النَّبِيُّ إِلَّا اللَّهُ » وقد مضى هذا في « آل عمران » والمحمد لله .

قوله تعالى : (بَلْ أَذَارُكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ) هذه قراءة أكثر الناس منهم عاصم وشيبة وثافع ويحيى بن وثاب والأعمش وحسرة والكسائي . وقرأ أبو جعفر وأبن كثير وأبو عمرو وحميد « بَلْ أَذْرُكَ » من الإدراك . وقرأ عطاء بن يسار وأخوه سليمان بن يسار والأعمش « بَلْ أَذْرُكَ » غير مهموز مشددا . وقرأ ابن محيصن « بَلْ أَذْرُكَ » على الاستفهام . وقرأ ابن عباس « بَلْ » بإثبات الياء « أَذَارُكَ » بهززة قطع والدال مشددة وألف بعدها ؛ قال النحاس : وإسناده إسناده صحيح ، هو من حديث شعبة يرفعه إلى ابن عباس . وزعم هرون الفارسي أن قراءة أبي « بَلْ تَذَارُكَ عَلَيْهِمْ » . القبراء الأولى والأخيرة معانها واحد ؛ لأن أصل « أَذَارُكَ » تدارك ؛ أدغمت الدال في التاء وجيء بألف الوصل ؛ وفي معناه قولان : أحدهما أن المعنى تكامل علمهم في الآخرة ؛ لأنهم رأوا كل ما وعدوا به معاينة فتكامل علمهم (١) راجع ج ٧ ص ١ وما بعدها طيبة أول أرثانية . (٢) راجع ج ٤ ص ١٧ طيبة أول أرثانية . (٣) لم يذكر كتب التفسير الأخرى الأعمش في هذه القراءة . ولعل هذه رواية أخرى عنه غير الرواية المتقدمة .

به . والقول الآخران المعنى : بل تتابع علمهم اليوم في الآخرة ؛ فقالوا تكون وقالوا لا تكون .
 القراءة الثانية فيها قولان : أحدهما أن معناه كل في الآخرة ؛ وهو مثل الأول ؛ قال مجاهد ؛
 معناه يدرك علمهم في الآخرة و يعلمونها إذا عاينوها حين لا يفهم علمهم ؛ لأنهم كانوا
 في الدنيا مكذّبين . والقول الآخر أنه على معنى الإنكار ؛ وهو مذهب أبي إسحق ؛ وأستدل
 على صحة هذا القول بأن بعده « بَلْ هُمْ فِيهَا عَمَوْنَ » أى لم يدرك علمهم علم الآخرة . وقيل :
 بل ضل وغاب علمهم في الآخرة فليس لهم فيها علم . القراءة الثالثة « بَلْ أَدْرَكْ » فهى بمعنى
 « بَلْ أَدَارَكْ » وقد يحىء آتعمل وتعامل بمعنى ؛ ولذلك صحّح أزودجوا حين كان معنى
 تراوخوا . القراءة الرابعة ليس فيها إلا قول واحد يكون فيه معنى الإنكار ؛ كما تقول : أنا
 فانتسك ؟ ! فيكون المعنى لم يدرك ؛ وعليه ترجع قراءة ابن عباس ؛ قال ابن عباس :
 « بَلْ أَدَارَكْ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ » أى لم يدرك . قال الفراء : وهو قول حسن كأنه وجهه إلى
 الاستهزاء بالمكذّبين بالبعث ، كقولك لرجل تكذّب : على لعمرى قد أدركت السلف فانت
 تروى ما لا أدوى ! وأنت تكذّب . وقراءة سابعة : « بَلْ أَدْرَكْ » بفتح اللام ؛ عدل إلى
 الفتحه نلغتها . وقد حكى نحو ذلك عن قطرب في « قُمّ الليل » فإنه عدل إلى الفتح .
 وكذلك (سجّ الثوب) ونحوه . وذكر الزمخشري في الكتاب : وقرأ « بَلْ أَدْرَكْ » بهزتين
 « بَلْ أَدْرَكْ » بالفتح بينهما « بَلْ أَدْرَكْ » « أَمْ تَدَارَكْ » « أَمْ أَدْرَكْ » فهذه ثلث عشرة
 قراءة ؛ ثم أخذ يعل وجه القراءات وقال : فإن قلت فإوجه قراءة « بَلْ أَدْرَكْ » على الاستفهام ؟
 قلت : هو استفهام على وجه الإنكار لإدراك علمهم ، وكذلك من قرأ « أَمْ أَدْرَكْ » و « أَمْ
 تَدَارَكْ » لأنها أى التى بمعنى بل والهمزة ، وأما من قرأ « بَلْ أَدْرَكْ » على الاستفهام فعناه
 على يشعرون متى يبعثون ، ثم أنكروا علمهم بكونها ؛ وإذا أنكروا علمهم بكونها لم يحصل لهم شعور
 وقت كونها ؛ لأن العلم بوقت الكائن تابع للعلم بكون الكائن . « في الآخرة » فى شأن الآخرة
 ومعناها . (بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا) أى في الدنيا . (بَلْ هُمْ فِيهَا عَمَوْنَ) أى يفلوهم واحدهم عموه .
 وقيل : عم ؛ وأصله عميون حذف الياء لالتقاء الساكنين ولم يميز تحريكها لنقل الحركة فيها .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَمَّا كُنَّا تُرَبًّا وَءَابَاؤُنَا إِنَّا
لَمُخْرَجُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا
إِلَّا أَسْطِيرُ الْأُولِينَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا) يعني مشركي مكة . (إِنَّا كُنَّا تَرَبًّا وَءَابَاؤُنَا إِنَّا
لَمُخْرَجُونَ) هكذا يقرأ نافع هنا وفي سورة « المنكوت » . وقرأ أبو عمرو بأستفهامين إلا أنه
خفف الحزمة . وقرأ عاصم وحزمة أيضا بأستفهامين إلا أنهما حققا الحزمن ، وكل ما ذكرناه
في السورتين جميعا واحد . وقرأ الكسائي وأبن عامر ورويس ويعقوب « إِنَّا » بهمزتين
« إِنَّا » بنونين على الخبر في هذه السورة ؛ وفي سورة « المنكوت » بأستفهامين ؛ قال
أبو جعفر النحاس : القراءة « إِنَّا كُنَّا تَرَبًّا وَءَابَاؤُنَا إِنَّا لَمُخْرَجُونَ » موافقة لخط حسنة ،
وقد عارض فيها أبو حاتم فقال وهذا معنى كلامه : « إذا » ليس بأستفهام و « إِنَّا » أستفهام
وفيه « إنا » فكيف يجوز أن يعمل ما في حيز الاستفهام فيما قبله ؟ وكيف يجوز أن يعمل
ما بعد « إنا » فيما قبلها ؟ وكيف يجوز ضمنا أن زيدا خارج ؟ فإذا كان فيه أستفهام
كان أبعد ، وهذا إذا سئل عنه كان مشكلا لما ذكره . وقال أبو جعفر : وسمعت محمد بن
الوليد يقول : سألت أبا العباس عن آية من القرآن صعبة مشككة ، وعن قول الله تعالى :
« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُبَشِّرُكُمْ إِذَا مَرُّكُمْ كُلُّ مُمْرٍ لِي أَنْتُمْ لِي خَلْقٍ جَدِيدٍ »
فقال : إن عمل في « إِنَّا » ينبتكم « كان محالا ، لأنه لا ينبتهم ذلك الوقت ، وإن عمل فيه
ما بعد « إنا » كان المعنى صحيحا وكان خطأ في العربية أن يعمل ما قبل « إنا » فيما بعدها ؛
وهذا سؤال بين رأيت أن يذكر في السورة التي هو فيها ؛ فأما أبو عبيد فمال إلى قراءة نافع
ورده على من جمع بين أستفهامين ، واستدل بقوله تعالى : « أَفَأَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى
أَعْقَابِكُمْ » وقوله تعالى : « أَفَأَنْ مِتَّ قُتِمُ انْقَلَبْتُمْ » وهذا الرد على أبي عمرو وعاصم وحزمة

وطلعة والأخرج لا يلزم منه شيء، ولا يتبناه ما جاء به من الآية شيئا، والفرق بينهما أن الشرط وجوابه بمنزلة شيء واحد، ومعنى « أَفَإِنْ يَتُفْهِمُ إِنَّمَا يَدْرُونَ » أفان مت خلدوا . ونظير هذا أزيد مطلق، ولا يقال : أزيد منطلق، لأنها بمنزلة شيء واحد وليس كذلك الآية؛ لأن الثاني جملة قائمة بنفسها فيصلح فيها الاستفهام، والأول كلام يصلح فيه الاستفهام؛ فاما من حذف الاستفهام من الثاني واثبته في الأول فقرأ « أَيْنَمَا تَكُنْ رَبَّانِي وَأَبَاؤُنَا إِنَّمَا هُوَ » من الثاني؛ لأن في الكلام دليلا عليه بمعنى الإنكار.

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ وَعدْنَا هَذَا تَحَنُّنًا وَابْتِغَاءً مِنْ قَبْلِ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ تقدم في سورة المؤمنين . وكانت الأنبياء يقرءون أسر البعث مبانة في التعذيب؛ وكل ما هوأت ففريب .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى « قُلْ » هؤلاء الكفار « سِيرُوا » في بلاد الشام والجزائر واليمن . ﴿ فَانظُرُوا ﴾ أى بقلوبكم وبصائرهم (كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ) المكذبين لرسلهم . ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أى على كفار مكة إن لم يؤمنوا (وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ) في حرج (مِمَّا يَمْكُرُونَ) زلت في المستزين الذين أقسموا عقاب مكة وقد تقدم ذكرهم . وقرئ « في ضَيْقٍ » بالكسر وقد مضى في آخر « النحل » . ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ ﴾ أى وقت يبعثنا العذاب بشكدينا ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

(١) راجع ج ١٢ ص ١٤٥ طبة أول آياتية .

(٢) راجع ج ١٠ ص ٨ طبة أول آياتية .

(٣) راجع ج ١٠ ص ١٠٤ طبة أول آياتية .

قوله تعالى : قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ يَكُونُ رَدْفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعِجِلُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٨﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٩﴾

قوله تعالى : (قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ يَكُونُ رَدْفٌ لَكُمْ) أى أقرب لكم ودنا منكم (بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعِجِلُونَ) أى من المذاب ؛ قاله ابن عباس . وهو من ردفه إذا تبعه وجاء فى أثره ؛ وتكون اللام أدخلت لأن المعنى أقرب لكم ودنا لكم . أو تكون متعلقة بالمصدر . وقيل : معناه معكم . وقال ابن شجرة : تبعكم ؛ ومنه ردف المرأة ؛ لأنه تبع لها من خلفها ؛ ومنه قول أبى ذؤيب :

عاد السواد بياضاً فى مفاقره • لا مرحباً بياض الثيب إذ ردفنا

قال الجوهري : وأردفه أمر لفة فى ردفه ، مثل تبعه وأتبعه بمعنى ؛ قال ثعلبة بن مالك بن نهد :

إذا الجوزاء أوردفت الثريا • ظننت بأل فاطمة الظنوناً

بمعنى فاطمة بنت يدكر بن مقرة أحد القاطنين . وقال الفراء : « رَدَفَ لَكَ » دنا لك ولهذا قال « لك » ، وقيل : رَدَفَهُ وَرَدَفَ لَهُ بمعنى قتراد اللام للتوكيد ؛ عن الفراء أيضاً . كما تقول نفدت وتقدت له ، وكلته ووزنته ، وكلت له ووزنت له ؛ ونحو ذلك . « بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعِجِلُونَ » من المذاب فكان ذلك يوم بدر . وقيل : مذاب القبر . (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ) فى تأخير العقوبة وإدراك الرزق (وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ) فضله ونعمه .

قوله تعالى : (وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ) أى تخفى صدورهم (وَمَا يُعْلِنُونَ) يظهرهم من الأمور . وقرأ ابن عباس وحيد « مَا تُكِنُّ » من كُنْتُ الشيء إذا سترته هنا . وفى « القصص » تحذيره : مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ عَلَيْهِ ؛ وكأن الضمير الذى فى الصدور كالضمير للسائر . ومن قرأ « تُكِنُّ » فهو المعروف ؛ يقال : أكننت الشيء إذا أخفيت به نفسك .

قوله تعالى : (وَمَا مِنْ غَائِيَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) قال الحسن : الغائبة هنا القيامة . وقيل : ما غاب عنهم من مذاب السماء والأرض ، حكاية النقاش . وقال ابن شجرة : الغائبة هنا جميع ما أخفى الله تعالى عن خلقه وغيبه عنهم ، وهذا عام . وإنما دخلت الهاء في « غَائِيَةٍ » إشارة إلى الجمع ، أى ما من خصلة غائبة عن الخلق إلا والله عالم بها قد أمتهنا في أم الكتاب عنده ، فكيف يخفى عليه ما يسر هؤلاء وما يملكونه . وقيل : أى كل شيء هو مثبت في أم الكتاب فيخرجه للأجل المؤجل له ؛ فالذى يستعملونه من العذاب له أجل مضروب لا يتأخر عنه ولا يتقدم عليه . والكتاب اللوح المحفوظ أثبت الله فيه ما أراد يعلم بذلك من يشاء من ملائكته .

قوله تعالى : إِنْ هَذَا إِلَّا قُرْآنٌ يَنْقُصُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧٠﴾ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٧١﴾ وَلَهُمْ لُحْدَىٰ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّكَ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿١٧٤﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الْأَعْمَىٰ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿١٧٥﴾ وَمَا أَنْتَ بِبَلَدٍ الْأَعْمَىٰ عَنْ صَلَاتِهِمْ ۖ إِنَّ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِغَايَتِنَا فَهُمْ مُسْمِعُونَ ﴿١٧٦﴾

قوله تعالى : (إِنْ هَذَا إِلَّا قُرْآنٌ يَنْقُصُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) وذلك أنهم اختلفوا في كثير من الأشياء حتى لمن بعضهم بعضا قتل . والمعنى : إن هذا القرآن بين لهم ما اختلفوا فيه لو أخذوا به ، وذلك ما حزنوه من النوراة والإنجيل ، وما مقط من كتبهم من الأحكام . (وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) يعنى القرآن (لُحْدَىٰ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) خص المؤمنين لأنهم المتصفون به . (إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ) أى يقضى بين بنى إسرائيل فيما اختلفوا فيه في الآخرة ، فيجازى الحق وبالبلط . وقيل : يقضى بينهم في الدنيا فيظهر ما حزنوه (وَهُوَ الْعَزِيزُ) المنع الغالب الذى لا يرد أمره (الْعَلِيمُ) الذى لا يخفى عليه شيء .

قوله تعالى : ﴿ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أى فوض إليه أمرك وأعتمد عليه ؛ فإنه ناصرك .
 ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ أى الظاهر . وقيل : المظهر لمن تدبر وجه الصواب . ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ يعنى الكفار لتركهم التدبر ؛ فهم كالوقى لا حس لهم ولا عقل . وقيل :
 هذا ليعلم أنه لا يؤمن . ﴿ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ ﴾ يعنى الكفار الذين هم عزلة الصم
 عن قبول المواعظ ؛ فإذا دعوا إلى الخير أعرضوا وولوا كأنهم لا يسمعون ؛ نظيره « صم بكم عى »
 كما تقدم . وقرأ ابن عباس وحيد وابن كثير وابن أبي إسحق وعياض عن أبي عمرو « وَلَا يُسْمِعُ »
 ففتح الياء والميم « الصُّمَّ » رفعا على الفاعل . الباقون « تُسْمِعُ » مضارع « الصُّمَّ » نصبا .
 مسألة - وقد أحجبت مائدة رضى الله عنها في إنكارها أن النبي صلى الله عليه وسلم
 أسمع موتى بدر بهذه الآية ؛ فنظرت في الأمر بعياض على ووقفت مع هذه الآية . وقد صح
 عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَا أَنْتُمْ بِأَتَمِّ مِنْهُمْ » قال ابن عطية : فيشبه أن قصة
 بدر نرق مائة لمحمد صلى الله عليه وسلم في أن رد الله إليهم إدراكا سمعوا به مقالة ولولا
 إخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم بسماحهم لمثلنا نداهم إياهم على معنى التوبخ لمن بقى من
 الكفرة ؛ وعلى معنى شفاء صدور المؤمنين .

قلت : روى البخارى رضى الله عنه ؛ حدثنى عبد الله بن محمد سمع رُوح بن عباد قال
 حدثنا سعيد بن أبى عمرو عن قتادة قال : ذكر لنا أنس بن مالك عن أبى طلحة أن نبي
 الله صلى الله عليه وسلم أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش فقتلوا في طوى
 من أطواء بدر خبيث محبث ؛ وكان إذا ظهر على قوم أفام بالفرصة ثلاث ليلال ؛ فلما كان
 بيدر اليوم الثالث أمر برأجلته فشد عليها ركلها ثم مشى وتبعه أصحابه ؛ قالوا : ما ترى ينطلق
 إلا لبعض حاجته ؛ حتى قام على شفير الركن ؛ بفعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم يا فلان بن
 فلان ويا فلان بن فلان أيسركم أنكم أطعمتم الله ورسوله ؛ فإذا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا
 فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؛ قال فقال عمر : يا رسول الله ! ما تكلم من أجساد لا أرواح
 لها ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم « والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » قال
 قتادة : أحياه الله حتى أسمعهم قوله تويضا وتصغيرا وقسمة وحسرة ونداما . خرجهم مسلم

أيضا . قال البخاري : حدثني عثمان قال حدثنا عبد بن هشام عن أبيه عن ابن عمر قال :
وقف النبي صلى الله عليه وسلم على قليب بدو فقال : «هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً» ثم قال ،
«إنهم الآن يعلمون أن الذي كنت أقول لم هو الحق» ثم قرأ ^(١) «إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى»
حتى قرأت الآية . وقد عورضت هذه الآية بقصة بدو بالسلام على القبور ، وبما روي في ذلك
من أن الأرواح تكون على شفير القبور في أوقات ، وبأن الميت يسمع قرع النعال إذا أنصرفوا
عنه ، إلى غير ذلك ، فلو لم يسمع الميت لم يُسلم عليه . وهذا واضح وقد بيناه في كتاب «التذكرة» .
قوله تعالى : (وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ) أي كفرهم ؛ أي ليس في وسعك
خلق الإيمان في قلوبهم . وقرأ حمزة : «وَمَا أَنْتَ تَهْدِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ» كقوله :
«أَنْتَ تَهْدِي الْعُمَى» . الباقون : «يَهْدِي الْعُمَى» وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم
وفي «الروم» مثله . وكلهم وقف على «يَهْدِي» بالياء في هذه السورة وبشراء في «الروم»
اتباعاً للمصحف إلا يعقوب فإنه وقف فيما جima بالياء . وأجاز الفراء وأبو حاتم : «وَمَا أَنْتَ
يَهْدِي الْعُمَى» وهي الأصل . وفي حرف عبد الله «وَمَا أَنْ تَهْدِي الْعُمَى» . (إِنْ تُسْمِعُ)
أي ما تسمع . (إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا) قال ابن عباس : أي إلا من خلقته للعبادة
فهم مخلصون في التوحيد .

قوله تعالى : وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ
تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٧﴾ وَيَوْمَ نَخْسِفُ مِنْ كُلِّ
أُمَّةٍ قَوْجًا يَمِّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٨﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَهُ قَالَ
لَأَكْذِبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَرَّحِيظُوا بِهَا عَلَيَّ أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٩﴾ وَوَقَعَ
الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٩٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا
الْأَيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩١﴾

(١) أي مائة رضى الله عنا .

قوله تعالى : (وَإِنَّا وَفَّعَ الْقَوْلَ عَلَيْهِمُ أَنْتَرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ) اختلف في معنى دفع القول وفي الدابة ؛ فقبيل : معنى « وَفَّعَ الْقَوْلَ عَلَيْهِمُ » وجب الغضب عليهم ؛ قاله قتادة . وقال مجاهد : أى حق القول عليهم بأنهم لا يؤمنون . وقال ابن عمر وأبو سعيد الخدري رضى الله عنهما : إذا لم يأمرُوا بالمعروف وينهوا عن المنكر وجب السخط عليهم . وقال عبد الله بن مسعود : وقع القول يكون بموت العلماء ، وذهاب العلم ، ورفع القرآن . قال عبد الله : أكثروا تلاوة القرآن قبل أن يُرْفَعَ ، قالوا هذه المصاحف تُرْفَع فكيف بما في صدور الرجال ؟ قال : يُسْرَى عليه ليلا فيصبحون منه قفرا ، ويسوون لا إله إلا الله ، ويقعون في قول الجاهلية وأصحابهم ؛ وذلك حين يقع القول عليهم .

قلت : أسنده أبو بكر البزار قال حدثنا عبد الله بن يوسف الثَّقَفِيُّ قال حدثنا عبد الحميد ابن عبد العزيز عن موسى بن عبيدة عن صفوان بن سليم عن ابن لعبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن أبيه أنه قال : أكثرُوا من زيارة هذا البيت من قبل أن يُرْفَعَ وينسى الناس مكانه ؛ وأكثرُوا تلاوة القرآن من قبل أن يُرْفَعَ ؛ قالوا : يا أبا عبد الرحمن هذه المصاحف تُرْفَع فكيف بما في صدور الرجال ؟ قال : فيصبحون فيقولون سُبْحَانَكَ بِنَا نَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ وَقَوْلٍ قَوْلًا فَيَجْمَعُونَ إلى شعر الجاهلية وأحاديث الجاهلية ، وذلك حين يقع القول عليهم . وقيل : القول هو قوله تعالى : « وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ » فوفوق القول وجوب العقاب على هؤلاء ، فإذا صاروا إلى حد لا تقبل توبتهم ولا يولد لهم ولد مؤمن فحينئذ تقوم القيامة ؛ ذكره القرطبي . وقول سادس : قالت حفصة بنت سيرين سألت أبا العالية عن قول الله تعالى : « وَإِنَّا وَفَّعَ الْقَوْلَ عَلَيْهِمُ أَنْتَرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ » فقال : أوحى الله إلى نوح « إِنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ » وكأنما كان على وجهي غطاء فكشف . قال النحاس : وهذا من حسن الجواب ؛ لأن الناس ممتحنون ومؤثرون لأن فيهم مؤمنين وصالحين ، ومن قد علم الله من وجمل أنه سيؤمن ويتوب ؛ فلهذا أمهلوا وأمرنا بأخذ الجزية ؛ فإذا زال هذا وجب القول عليهم ، فصاروا كقوم نوح حين قال الله تعالى : « إِنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ » .

قلت : وجمع الأقوال عند التأمل ترجع إلى معنى واحد . والدليل عليه آخر الآية « إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ » وقرئ « أَنْ » بفتح الهمزة وسياق . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها [لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها حيراً] طلوع الشمس من مغربها والدجال وذاب البحر الأرض » وقد مضى . واختلف في تعيين هذه الدابة وصفتها ومن أين تخرج اختلافًا كثيراً ؛ قد ذكرناه في كتاب « التذكرة » ونذكره هنا إن شاء الله تعالى مستوف . فأقول الأقوال أنه تفصيل ناقة صالح وهو أصحها . والله أعلم . لما ذكره أبو داود الطيالسي في مسنده عن حذيفة قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدابة فقال : « لما ثلاث خرجت من الدهر فتخرج في أقصى البادية ولا يدخل ذكرها القرية . - معنى مكة - ثم تكبر زماناً طويلاً ثم تخرج نرجبة أخرى دون ذلك فيفشوزكرها في البادية ويدخل ذكرها القرية » معنى مكة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثم بينا الناس في أعظم المساجد على الله حرمة خبزها وأكرمها على الله المسجد الحرام لم يرعهم إلا وهي ترغو بين الركن والمقام تنفض عن رأسها التراب فأرفض الناس منها شقياً ومعا وثبتت عصاة من المؤمنين وعرفوا أنهم لن يصجزوا الله فبدأت بهم بخلت وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدرى وولت في الأرض لا يدركها طالب ولا ينجو منها هارب حتى إن الرجل ليتنوء منها بالصلاة فثانيه من خلفه فتقول يا فلان الآن تصل فتقبل عليه قسمه في وجهه ثم تنطلق ويترك الناس في الأموال ويطغون في الأمصار يهرف المؤمن من الكافر حتى إن المؤمن يقول يا كافر أكف حتى » وموضع الدليل من هذا الحديث أنه التفصيل قوله : « وهي ترغو » والرغاء إنما هو للإبل ؛ وذلك أن التفصيل لما قتلت الناقة هرب فأنفتح له حجر فدخل في جوفه ثم أنطوى عليه ، فهو فيه حتى يخرج بإذن الله عز وجل . وروى أنها دابة مزغبة شعراء ذات قوات طوطا ستون ذراعاً ، ويقال إنها الجساسة ؛ وهو قول عبد الله بن عمر . وروى عن ابن عمر أنها على خلقة الآدميين ؛ وهي في السحاب وقوائمها في الأرض . وروى أنها جمعت من خلق

(١) الزيادة من صحيح مسلم .

كل حيوان . وذكر المسوردي والثعلبي رأسها رأس ثور ، وعينها عين خنزير ، وأذنها أذن
فيل ، وقزنها قرن أيل ، وعقلها حق نقامة ، وصدرها صدر أسد ، ولونها لون ثور ،
وخاصرتها خاصرة حر ، وذنبها ذنب كيش ، وقوائمها قوائم بعير بين كل مفصل ومفصل
أثنا عشر ذراعا . الزمخشري : بذراع آدم عليه السلام . ويخرج معها عصا موسى وخاتم
صليان ، فتنتك في وجه المسلم بعصا موسى نكتة بيضاء فيبيض وجهه ، وتنتك في وجه
الكافر يخاتم صليان عليه السلام فيسود وجهه ، قاله ابن الزبير رضى الله عنهما . وفي كتاب
النفاس عن ابن عباس رضى الله عنهما : إن الدابة النعمان المشرف على جدار الكعبة التي
أقفلتها المقاتل حين أرادت قريش بناء الكعبة . وحكى المسوردي عن محمد بن كعب عن
علي بن أبي طالب رضى الله عنه أنه سئل عن الدابة فقال : أما والله ما لها ذنب وإن لها
لحية . قال المسوردي : وفي هذا القول منه إشارة إلى أنها من الإنس وإن لم يصرح به .

قلت : ولهذا . والله أعلم . قال بعض المتأخرين من المفسرين : إن الأقرب أن تكون
هذه الدابة إنسانا متكلمنا ينظر أهل البدع والكفر ويمادهم ليقطعوا ، فيهلك من هلك عن
بينة ، ويحيى من حي عن بينة . قال شيخنا الإمام أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي في كتاب المفهم
له : وإنما كان عند هذا المقاتل الأقرب لقوله تعالى « تُكَلِّمُهُمْ » وعلى هذا فلا يكون
في هذه الدابة آية خاصة خارقة للعادة ، ولا تكون من جملة العشر الآيات المذكورة في الحديث ؛
لأن وجود المناظرين والمحتجين على أهل البدع كثير ، فلا آية خاصة بها فلا يلغى أن تذكر
مع البشر ، وترتفع خصوصية وجودها إذا وقع القول ، ثم فيه المدلول عن تسمية هذا الإنسان
للمناظر الفاضل العالم الذي على أهل الأرض أن يسموه باسم الإنسان أو بال عالم أو بالإمام
إلى أن يسمى بدابة ؛ وهذا خروج عن عادة القصصاء ، وعن مجازي العلماء ، وليس ذلك
دأب العلماء ، فالأولى ما قاله أهل التفسير ، والله أعلم بحقائق الأمور .

قلت . قد رفع الإشكال في هذه الدابة ما ذكرناه من حديث حذيفة فليتمد عليه .
وأختلف من أى موضع يخرج ، فقال عبد الله بن عمر : يخرج من جبل الصفا بمكة ؛ يتصدع
فتخرج منه . قال عبد الله بن عمرو نحوه وقال : لو شئت أن أضع قدمي على موضع خروجها

فقلت . وروى في خبر عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الأرض تنشق عن المابة
وعيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون من ناحية المسى وأنها تخرج من الصفا
تقسم بين عيني المؤمن هو مؤمن يَمَّة كأنها كوكب دزى وتسم بين عيني الكافر نكتة سوداء
كافر " وذكر في الخبر أنها ذات وبروريش ؛ ذكره المهدوى . وعن ابن عباس أنها تخرج
من شعب فتمس رأسها السحاب ورجلاها في الأرض لم تخرجا ، وتخرج معها عصا موسى
وخاتم سليمان عليهما السلام . وعن حذيفة : تخرج ثلاث خرجات ؛ خرجة في بعض البوادي
ثم تكُنْ ، وخرجة في القرى ينقاتل فيها الأمراء حتى تكثر الدماء ، وخرجة من أعظم المساجد
وأكرمها وأشرفها وأفضاها . الزمخشري . تخرج من بين الركن حذاء دار بن مخزوم عن بين
الخارج من المسجد ؛ يقوم يهرون ، وقيام يقفون نقارة . وروى عن قتادة أنها تخرج
في تامة . وروى أنها تخرج من مسجد الكوفة من حيث فار تنور نوح عليه السلام . وقيل :
من أرض الطائف ؛ قال أبو قبيل : ضرب عبد الله بن عمرو أرض الطائف يرحله وقال :
من هنا تخرج المابة التي تكلم الناس . وقيل : من بعض أودية تامة ؛ قاله ابن عباس .
وقيل : من محبرة من شعب أجياد ؛ قاله عبد الله بن عمرو . وقيل : من بحر سدوم ؛ قاله
وهب بن منبه . ذكر هذه الأقوال الثلاثة الأخيرة المأوردى في كتابه . وذكر البغوي أبو القاسم
عبد الله بن محمد بن عيسى العزير قال : حدثنا علي بن الجعد عن فضيل بن مرزوق الرقاشي
الأخضر — وسئل عنه يحيى بن معين فقال ثقة — عن عطية العوفي عن ابن عمر قال تخرج
المابة من صدع في الكعبة بكرة الفرس ثلاثة أيام لا يخرج ثلثها .

قلت : فهذه أقوال الصحابة والتابعين في خروج المابة وصفها ، وهي ترد قول من قال
من المفسرين : إن المابة إنما هي إنسان متكلم يناظر أهل البدع والكفر . وقد روى
أبو إمامة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " تخرج المابة تقسم الناس على خراطيمهم "
ذكره الملوودي . " تكلمهم " بضم التاء وشذ اللام المكسورة — من الكلام — قراءة
العامية ؛ يدل عليه قراءة أبي " تنهم " . وقال السدي : تكلمهم بطلان الأديان سوى

دين الإسلام . وقيل : تكلمهم بما يسوعم . وقيل : تكلمهم لسان ذلي فتقول بصوت
يسمعه من قرب ويهد « إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ » أى يخرجونى ؛ لأن خروجها
من الآيات . وتقول : ألا لعنة الله على الظالمين . وقرأ أبو زُرعة وابن عباس والحسن
وأبو رجاء « تَكَلِّمُهُمْ » بفتح التاء من التَّكَلَّمَ وهو الجرح ؛ قال عكرمة : أى تَسْمُهُمْ . وقال
أبو الجوزاء : سألت ابن عباس عن هذه الآية : « تَكَلِّمُهُمْ » أو « تَكَلِّمُهُمْ » ؟ فقال :
هى والله تَكَلِّمُهُمْ وتَكَلِّمُهُمْ ؛ تَكَلَّمَ المؤمن وتَكَلَّمَ الكافر والفاجر أى تجرحه . وقال أبو حاتم :
« تَكَلِّمُهُمْ » كما تقول تجرحهم ؛ يذهب إلى أنه تكثير من « تَكَلِّمُهُمْ » . (إِنَّ النَّاسَ كَانُوا
بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ) وقرأ الكوفيون وابن أبى إسحق ويحيى « أَنْ » بالفتح . وقرأ أهل الحرمين
وأهل الشام وأهل البصرة « إِنَّ » بكسر المزة . قال النحاس : فى المفتوحة قولان وكذا
المكسورة ؛ قال الأخفش : المعنى بآء وكذا قرأ ابن مسعود « بَأَنَّ » وقال أبو عبيدة :
موضعها نصب يرفوع الفعل عليها ؛ أى تخبرهم أن الناس . وقرأ الكسائى والفرأه « إِنَّ
النَّاسَ » بالكسر على الاستئناف . وقال الأخفش : هى بمعنى تقول إن الناس ؛ يعنى الكفار .
« بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ » يعنى بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك حين لا يقبل الله من كافر
إيماناً ، ولم يبق إلا المؤمنون وكافرون فى علم الله قبل نروجها ، والله أعلم .

قوله تعالى : (وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا) أى زمرة وجماعة (يَمِينٌ يَكْذِبُ
وَبِآيَاتِنَا) يعنى بالقرآن وبعلمنا الدالة على الحق . (فَهُمْ يُوزَعُونَ) أى يُدْفَعُونَ ويساقون
إلى موضع الحساب . قال الشَّيْخُ :

وَمَنْ وَزَعْنَا مِنْ تَحِيصٍ تَحْفِلُ « وَمَنْ حَبَوْنَا مِنْ رُئُوسٍ مَسْجِلٍ

وقال قتادة : « يُوزَعُونَ » أى يُرَدُّ أولهم على آخرهم . (حَتَّىٰ إِنَّا جَاءُوا قَالِ) أى قال الله
(أَكْذَبْتُمْ بِآيَاتِي) التى أنزلتها على رسل ، وبالآيات التى أفهنا دلالة على توحيدى .
(وَلَمْ يُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا) أى بطلانها حتى تعرضوا عنها ، بل كذبتم جاهلين غير مستدلين .
(أَمَّا أَكُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) تقرير وتوبيخ أى ماذا كنتم تعملون حين لم تحبوا عنها ولم تتفكروا

ما فيها . (وَرَفَعَ الْقَوْلَ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا) أى وجب العذاب عليهم بظلمهم أى بشركهم .
(فَمَنْ لَا يَنْطِقُونَ) أى ليس لهم عذر ولا حجة . وقبل : ينتم على أنواهم فلا ينطقون ؛ قاله
أكثر المفسرين .

قوله تعالى : (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَا فِيهِ) أى يستقرون فينامون . (وَالنَّهَارَ
مُبْصِرًا) أى يبصر فيه لسي الرزق . (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) بالله . ذكر
الدلالة على إلهيته وقدرته أى ألم يعلموا كمال قدرتنا فيؤمنوا .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ
فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿١٧﴾ وَرَى الْجِبَالَ
خَسْبًا جَامِدَةً وَهِيَ تَكْمُرُ مِنَ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْتَقَنَ كُلُّ شَيْءٍ
إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ
فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿١٩﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ
هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : (وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ) أى وأذكر يوم أو ذكرهم يوم ينفخ في الصور
ومذهب الفقهاء أن المعنى : وذلك يوم ينفخ في الصور ؛ وأجاز فيه الحذنب . والصحيح
في الصور أنه قرن من نور ينفخ فيه إسرافيل . قال مجاهد : كهيئة البوق . وقيل : هو
البوق بلنة أهل الجن . وقد مضى في « الأنعام » بيان ما للملأمة في ذلك . (فَفَزِعَ بَيْنَ
فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ) قال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم :
« إن الله لما فرغ من خلق السموات خلق الصور . فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه
شاخص يبصره إلى العرش يشظر متى يؤمر بالنبهة » قلت : يا رسول الله ما الصور ؟ قال :

«قَرَنَ رَأْفَةَ عَظِيمٍ وَالَّذِي يَمْتَنِي بِالْحَقِّ إِنْ عَظُمَ دَارُهُ فِيهِ كَمْزُضُ الْمَاءِ وَالْأَرْضُ يَنْفُخُ فِيهِ
ثَلَاثَ نَفْثَاتٍ النُّفْثَةُ الْأُولَى نَفْثَةُ الْفَرْعِ وَالثَّانِيَةُ نَفْثَةُ الصَّبْغِ وَالثَّلَاثَةُ نَفْثَةُ الْبَيْتِ وَالْيَوْمَ
رَبُّ الْعَالَمِينَ» وذكر الحديث . ذكره علي بن مبيد والطبري والنسائي وغيرهم ، وصححه
ابن العربي . وقد ذكرته في كتاب «التذكرة» وتكلمنا عليه هناك ، وأن الصحيح في النسخ
في الصور أنهما نفثتان لا ثلاث ، وأن نَفْثَةَ الْفَرْعِ إنما تكون راجعة إلى نَفْثَةِ الصَّبْغِ لأن
الآخرين لازمان كما ؛ أي فزعوا فزعاً ماثوا منه ؛ أو إلى نَفْثَةِ الْبَيْتِ وهو اختيار القشيري
وضحه ؛ فإنه قال في كلامه على هذه الآية : والمراد النَفْثَةُ الثَّانِيَةُ ؛ أي يميون فزعين يقولون :
«مَنْ يَسْتَأْنِ مِنْ مَرْقِدَةٍ» ؛ ويعلمون من الأمر ما يولمهم ويفزعهم ؛ وهذا النسخ كصوت
اليون لتجتمع الخلق في أرض الجزاء . وقال الماردي : «وَيَوْمَ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ» هو
يوم التشور من القبور ، قال وفي هذا الفزع قولان : أحدهما أنه الإسراع والإجابة إلى
النداء من قولهم : فزعت إليك في كذا إذا أسرع إلى نداءك في معونتك . والقول الثاني ؛
إن الفزع هنا هو الفزع المعهود من الخوف والحزن ؛ لأنهم أزعجوا من قبورهم وخافوا .
وهذا أشبه للقولين .

قلت : والسنة الثابتة من حديث أبي هريرة وحديث عبد الله بن عمرو يدل على أنهما
نفثتان لا ثلاث ؛ خرجهما مسلم وقد ذكرناهما في كتاب «التذكرة» وهو الصحيح إن
شاء الله تعالى أنهما نفثتان ؛ قال الله تعالى : «وَيَنْفُخُ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ» فأستثنى هنا كما استثنى في نَفْثَةِ الْفَرْعِ فدل على أنهما
واحدة . وقد روى ابن المبارك عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «بين
لنفتحين أربعون سنة الأولى يميت الله بها كل حي والأخرى يحيي الله بها كل ميت» فإن
قيل فإن قوله تعالى : «يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجَافَةُ تَقْبَهُمَا الرَّادَّةُ» إلى أن قال : «وَأَمَّا هُوَ
زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ» وهذا يقتضي بظاهره أنها ثلاث . قيل له : ليس كذلك ، وإنما المراد بالزجرة
النَفْثَةُ الثَّانِيَةُ التي يكون منها خروج الخلق من قبورهم ؛ كذلك قال ابن عباس ومجاهد

وعطاء وآين زيد وغيرهم . قال مجاهد : هما صيحتان أما الأولى فصيت كل شيء بإذن الله ، وأما الأخرى فصحي كل شيء بإذن الله . وقال عطاء : « الراجعة » القيامة و « الزائدة » البعث . وقال آبن زيد : « الراجعة » الموت و « الزائدة » الساعة . والله أعلم . « إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ » ثم اختلف في هذا المستثنى من هم . ففى حديث أبى هريرة أنهم الشهداء عند ربهم يرزقون إنما يصل الفزع إلى الأحياء ؛ وهو قول سعيد بن جبير أنهم الشهداء مثقلو السيوف حول العرش . وقال القشيري : الأنبياء داخلون في جملتهم ؛ لأن لهم الشهادة مع النبوة . وقيل : الملائكة . قال الحسن : استثنى طوائف من الملائكة يموتون بين النخطين . قال مقاتل : يعنى جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت . وقيل : المحرورين . وقيل : هم المؤمنون ؛ لأن الله تعالى قال عقيب هذا : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ قَرْنٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ » . وقال بعض ملابنا : والصحيح أنه لم يرد في تعيينهم خبر صحيح والكل محتمل .

قلت : خفى عليه صفت أبى هريرة وقد صححه القاضي أبو بكر بن العربي ليعمل عليه ؛ لأنه نص في التبيين وغيره اجتهد . والله أعلم . وقيل : فبر هذا على ما يأتي في « الزمر » . وقوله « فَفَزَحَّ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ » ماض و « يُنْفَخُ » مستقبل يقال : كيف عطف ماض على مستقبل ؟ فزعم الفراء أن هذا محمول على المني ؛ لأن المني : إنما نفخ في الصور ففزع . « إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ » نعصب على الاستغناء . (وَكُلُّ أُنْفُثَةٍ دَانِيرِينَ) قسأ أبو عمرو وطاسم والكسائي ونافع وآبن حاصر وآبن كثير و « أُنْفُثَةٍ » جعلوه فعلا مستقبلا . وقرأ الأعمش وبمى وحزمة وحفص من طاسم « وَكُلُّ أُنْفُثَةٍ » مقصورا على الفعل الماضي ، وكذلك فراء وآبن مسعود . وعن قتادة « وَكُلُّ أُنْفُثَةٍ دَانِيرِينَ » . قال النحاس : وفي كتابي من أبي إسحق في الغرامات [من قرأ] « وَكُلُّ أُنْفُثَةٍ » وسأله على لفظ « بئس » ومن قرأ « أُنْفُثَةٍ » جمع على معناها ، وهذا القول غلط قبيح ؛ لأنه إذا قال : « وَكُلُّ أُنْفُثَةٍ » فلم يوجد وإنما جمع ،

ولو وحده لقال : « أَنَاهُ » ولكن من قال : « أَتَوْهُ » جمع على المعنى وجاء به ماضيا لأنه وده إلى « فَفَزِعَ » ومن قرأ « وَكُلُّ أَتَوْهُ » حمله على المعنى أيضا وقال « أَتَوْهُ » لأنها جملة منقطعة من الأول . قال ابن نصر : قد حكى عن أبي إسحق رحمه الله ما لم يقله ، ونص أبي إسحق : « وَكُلُّ أَتَوْهُ دَانِيرِينَ » ويقرأ « أَتَوْهُ » فمن وحده فلفظ « كُلُّ » ومن جمع فلفظها . يريد ما أتى في القرآن أو غيره من توحيد خبر « كُلُّ » فعلى اللفظ أو جمع فعل المعنى ؛ فلم يأخذ أبو جعفر هذا المعنى . قال المهدوي : ومن قرأ « وَكُلُّ أَتَوْهُ دَانِيرِينَ » فهو فعل من الإتيان وحمل على معنى « كُلُّ » دون لفظها ، ومن قرأ « وَكُلُّ أَتَوْهُ دَانِيرِينَ » فهو اسم الفاعل من أتى ، بذلك على ذلك قوله تعالى : « وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَرْدًا » . ومن قرأ « وَكُلُّ أَنَاهُ » حمله على لفظ « كُلُّ » دون معناها وحمل « دَانِيرِينَ » على المعنى ؛ ومعناه صاغرين ؛ عن ابن عباس وقتادة . وقد مضى في « النحل » .

قوله تعالى : (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ كَمُدَّ السَّحَابِ) قال ابن عباس : أى قافضة وهى تسير سيرا حثيثا . قال القتيبي : وذلك أن الجبال تجتمع وتُسِيرُ ، فهى فى رؤية العين كالقافضة وهى تسير ؛ وكذلك كل شئ عظيم وجمع كثير يقصر عنه النظر ، لكثرة وبعده ما بين أطرافه ، وهو فى حساب الناظر كالواقف وهو يسير . قال النابغة فى وصف جيش :
بَارِعَنَ مِثْلَ الطَّوْدِ تَحْسَبُ أَنَّهُمْ « وَقُوفٌ لِحَاجٍ وَالرَّكَّابُ تَهْمِلُجُ

قال القشيري . وهذا يوم القيامة ؛ أى هى لكثرتها كأنها جامدة ؛ أى واقفة فى مرأى العين وإن كانت فى نفسها تسير سير السحاب ، والسحاب المتراكم يظن أنها واقفة وهى تسير ؛ أى تمر سر السحاب حتى لا يبقى منها شئ ، فقال الله تعالى : « وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا » ويقال : إن الله تعالى وصف الجبال بصفات بخلفة ترجع كلها إلى تفرج الأرض منها ؛ وإبراز ما كانت تواريه ؛ فأول الصفات الآتية ذلك قبل الزلزلة ، ثم تصوير كالعن المنفوش ؛ وذلك إذا صارت السماء كالمهل ، وقد جمع الله بينهما فقال : « يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ

وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِزِّ . . والحالة الثالثة أن نصير كالجبال بعد أن ننتقط بعد أن كانت كالعين . والحالة الرابعة أن تنسف لأنها مع الأحوال المتقدمة قاذرة في مواضعها والأرض تحتها غير بارزة فننسف عنها لتبرز ، فإذا نسفت في إرسال الرياح عليها . والحالة الخامسة أن الرياح ترفعها على وجه الأرض فتظهرها شعاعا في الهواء كأنها غبار ، فمن نظر إليها من بعد حجبها لتكافئها أجسادا جامدة ، وهي بالحقيقة مارة إلا أن مرورها من وراء الرياح كأنها مندة مفتتة . والحالة السادسة أن تكون سرايا فنظر إلى مواضعها لم يجد فيها شيئا منها كالسراب . قال مقاتل : تقع على الأرض فتسوى بها . ثم قيل هذا مثل . قال الساوردي : وفيما ضرب له ثلاثة أقوال : أحدها أنه مثل ضربه الله تعالى للذي يظن الناظر إليها أنها واقفة كالجبال ، وهي آخذة بحفظها من الزوال كالسحاب ، قاله سهل بن عبد الله . الثاني : أنه مثل ضربه الله للإيمان تحسبه ثابتا في القلب وعمله صاعد إلى السماء : الثالث : أنه مثل ضربه الله للنفس عند خروج الروح واروح تسير إلى العرش . (صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَى كُلَّ شَيْءٍ) أى هذا من فعل الله ، و[ما] هو فعل منه فهو متقن . و«ترى» من رؤية العين ولو كانت من رؤية القلب لتعدت إلى مقولتين . والأصل ترى فالتقيت حركة الهمزة على الراء فتحزقت الراء وحذفت الهمزة ، وهذا سبيل تخفيف الهمزة إذا كان قبلها ساكن ، إلا أن التخفيف لازم لترى ، وأهل الكوفة يقرءون «تَحَسَّبًا» بفتح السين وهو القياس ؛ لأنه من حَسِبَ يحسب إلا أنه قد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم خلافها أنه قرأ بالكسر في المستقبل ، فتكون على قِيلَ يفعل مثل يَمِمْ يَمِمْ ونَبَسَ يَنْبَسُ وحكى يَنْبَسُ يَنْبَسُ من الشالم ، لا يعرف في كلام العرب غير هذه الأحرف . «وَيَحْيَ عُمْرَ مَرِّ السَّحَابِ» تقديره مرًا مثل مر السحاب ، فأقيمت الصفة مقام الموصوف والمضاف مقام المضاف إليه ؛ فالجبال تزال من أماكنها من على وجه الأرض ، وتجمع وتُسَرُّ كما تُسَرُّ السحاب ، ثم تُكسَر فتعود إلى الأرض كما قال : «وَبُيِّتَ الْجِبَالُ بُسًا» . «صُنِعَ اللَّهُ» عند الخليل وسبويه منصوب على أنه مصدر ؛ لأنه لما قال عز وجل : «وَيَحْيَ عُمْرَ مَرِّ السَّحَابِ» دل على أنه قد صنع ذلك صنعًا . ويجوز النصب على الإغراء ؛ أى أنظروا صنع الله . فيوقف

على هذا على « السحاب » ولا يوقف عليه على التقدير الأول . ويعوز رفعه على تقدير ذلك
 صريح الله . « أَلَمْ يَأْتِنِ كُلُّ شَيْءٍ » أى أحكمه، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « رحم الله
 من عمل عملاً فاتقنه » . وقال قتادة : معناه أحسن كل شيء . والإيمان الإحكام ؛ يقال رجل
 يقن أى يذاق بالأشياء . وقال الزمهرى : أصله من أبى يقن ، وهو رجل من عاد لم يكن يسقط
 له سهم فغضب به المثل ؛ يقال : أرأى من أبى يقن ثم يقال لكل حاذق بالأشياء تقن .
 (إِنَّهُ خَيْرٌ مِمَّا تَفْعَلُونَ) بآتيه على الخطاب قراءة الجمهور . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام بإيائه .
 قوله تعالى : (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا) قال ابن مسعود وابن عباس رضى الله
 عنهما : الحسنة لا إله إلا الله . وقال أبو معشر : كان إبراهيم يحلف بالله الذى لا إله إلا هو
 ولا يستثنى أن الحسنة لا إله إلا الله محمد رسول الله . وقال على بن الحسين بن على رضى الله
 عنهم : غزا رجل فكان إذا خلا بمكان قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ؛ فبينما هو فى أرض
 الروم فى أرض بقاء ويرى وقع صوته فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له فخرج عليه
 رجل على فرس عليه ثياب بيض فقال له : والذى نفسى بيده إنها الكلمة التى قال الله تعالى
 « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا » . وروى أبو ذر قال : قلت يا رسول الله أوصنى . قال :
 « أتق الله وإذا عملت سيئة فأتبها حسنة تمحها » قال قلت : يا رسول الله أمن الحسنات
 لا إله إلا الله ؟ قال : « من أفضل الحسنات » وفى رواية قال : « نعم هى أحسن الحسنات »
 ذكره البيهقى . وقال قتادة : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ » بالإخلاص والتوحيد . وقيل : أداء الفرائض كلها .
 قلت : إذا أتى بلا إله إلا الله على حقيقتها وما يجب لها ج على ما تقدم بيانه فى سورة
 إبراهيم — فقد أتى بالتوحيد والإخلاص والفرائض . « فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا » قال ابن عباس :
 أى وصل إليه الخير منها ؛ وقاله مجاهد . وقيل : فله الجزاء الجليل وهو الجنة . وليس « خير »
 للتفضيل . قال عكرمة وابن جريح : أما أن يكون له خير منها يعنى من الإيمان فلا ؛ فإنه ليس
 شيء خيراً ممن قال لا إله إلا الله ولكن له منها خير . وقيل : « فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا » للتفضيل
 أى ثواب الله خير من عمل العبد وقوله وذكره ؛ وكذلك رضى الله عن الله خير للعبد من فعل العبد ؛

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ . وَقِيلَ : يَرْجِعُ هَذَا إِلَى الْإِضَافَةِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْطِيهِ بِالْوَحْدَةِ عَشْرًا ؛
وَالْإِيمَانُ فِي مَدَّةٍ سَبْعَةِ الثَّوَابِ الْأَبَدِيِّ ؛ قَالَ عُمَرُ بْنُ كَعْبٍ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ (وَعَمُّ مِنْ
فَرْجٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ) قَرَأَ عَاصِمٌ وَحِزَّةً وَالْكَسَاءُ « فَرْجٌ يَوْمَئِذٍ » بِالْإِضَافَةِ . قَالَ أَبُو هَبِيدٍ :
وَهَذَا أَعْجَبُ إِلَيَّ لِأَنَّهُ أَعَمُّ التَّأْوِيلَيْنِ أَنْ يَكُونَ الْأَمْنُ مِنْ جَمِيعِ فَرْجٍ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَإِذَا قَالَ :
« مِنْ فَرْجٍ يَوْمَئِذٍ » صَارَ كَأَنَّهُ فَرْجٌ دُونَ فَرْجٍ دُونَ فَرْجٍ . قَالَ الْقَشِيرِيُّ : وَقُرِئَ « مِنْ فَرْجٍ »
بِالتَّنْوِينِ ثُمَّ قِيلَ يَصْنِي بِهِ فَرْمًا وَاحِدًا كَمَا قَالَ : « لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرْجُ الْأَكْبَرُ » . وَقِيلَ عَنِ الْكُتَّةِ
لِأَنَّهُ مُصَدَّرٌ وَالْمُصَدَّرُ صَالِحٌ لِلْكَثَرَةِ .

قُلْتُ : فَعَمِلَ هَذَا تَكُونُ الْقِرَاءَتَانِ بِمَعْنَى . قَالَ لِلْمُهَذَّبِ : وَمَنْ قَرَأَ « مِنْ فَرْجٍ يَوْمَئِذٍ »
بِالتَّنْوِينِ انْتَصَبَ « يَوْمَئِذٍ » بِالْمُصَدَّرِ الَّذِي هُوَ « فَرْجٌ » . وَيَحْزَنُ أَنْ يَكُونَ صِفَةً لِفَرْجٍ
وَيَكُونُ مُتَعَلِّقًا بِمَحْذُوفٍ ؛ لِأَنَّ الْمَصَادِرَ يَغْبِرُ عَنْهَا بِأَسْمَاءِ الزَّمَانِ وَتُوصَفُ بِهَا ، وَيَحْزَنُ أَنْ يُتَعَلَّقَ
بِاسْمِ الْفَاعِلِ الَّذِي هُوَ « آمِنُونَ » . وَالْإِضَافَةُ عَلَى الْإِتِّسَاعِ فِي الظُّرُوفِ ، وَمَنْ حَذَفَ التَّنْوِينَ
وَفَتَحَ الْمِيمَ بَنَاهُ لِأَنَّهُ ظَرَفَ زَمَانٍ ، وَلَيْسَ الْإِعْرَابُ فِي ظَرَفِ الزَّمَانِ مُتِمِّكًا ، فَلَمَّا أُضِيفَ إِلَى
غَيْرِ مُتِمِّكٍ وَلَا مَعْرَبٍ بَيَّنَّ . وَأَشَدُّ سَبِيوِيَّةً :

عَلَى حِينٍ أَمَى النَّاسَ جُلُ أُمُورِهِمْ * فَتَدَلَّأَ زُرِّيْقِي الْمَسَالِ تَدَلَّ الشَّعَائِبِ ^(١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَمَنْ جَاءَ بِالسَّبِيَةِ) أَيْ بِالشَّرِكِ ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالتَّغْيِي وَابُو هُرَيْرَةَ
وَبِجَاهِدٍ وَقَيْسُ بْنُ سَعْدٍ وَالْحَسَنُ ، وَهُوَ إِجْمَاعٌ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ فِي أَنَّ الْحَسَنَةَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ،
وَأَنَّ السَّبِيَةَ الشَّرِكُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ . (فَكُنَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : أَلْقَبْتُ .
وَقَالَ الضَّمَاكُ : طَرَحْتُ ؛ يُقَالُ كَرِهْتُ الْإِنَاءَ أَيْ قَلْبَتُهُ عَلَى وَجْهِهِ ، وَاللَّازِمُ مِنْهُ أَكْبَ ؛ وَقُلْنَا
يَأْتِي هَذَا فِي كَلَامِ الْعَرَبِ . (هَلْ تُحْزَنُونَ) أَيْ يُقَالُ لِمِ هَلْ تَحْزَنُونَ . ثُمَّ يَحْزَنُ أَنْ يَكُونَ
مِنْ قَوْلِ اللَّهِ ، وَيَحْزَنُ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْلِ الْمَلَائِكَةِ . (إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) أَيْ إِلَّا جِزَاءَ أَعْمَالِكُمْ .

(١) زُرِّيْقِي : اسْمُ قَبِيلَةٍ وَهَرَمَاضِي . وَالتَّدَلَّعَاتُ الْأُثْنُ الْبَلَدَيْنِ . وَالتَّدَلَّأَ أَيْضًا الْبَرَّةَ فِي السَّيْرِ . « تَدَلَّ الشَّعَائِبِ »
يُقَالُ فِي الْمَلِّ : (هَرَأَكْبَ مِنْ ثَلَبٍ) لِأَنَّهُ يَنْتَرَفِضُ ، وَبَاقِي عَلَى مَا يَدَّوِيهِ مِنَ الْحَيَاةِ إِذَا اسْتَكَبَ . وَالْيَتِ
فِي وَصْفِ تَحَارٍ وَقِيلَ لَعَنُوسٌ ، وَقِيلَ :

يَمْرُوتٌ بِالْهَيْعَةِ خَفَافٌ صَالِحٌ . وَبَرِيحٌ مِنْ هَادِرِينَ يَمْرُ الْخَفَاتِي

قوله تعالى : **إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴿٧٧﴾ **وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ** **فَمِنَ اهْتَدَىٰ** **فَلَمَّا يَهْتَدِ لِنَفْسِهِ** **وَمَنْ ضَلَّ فَخُلْ** **إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ** ﴿٧٨﴾ **وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرَ يَكْرَءَاتِيهِ** **فَتَعْرِفُونَهَا** **وَمَا رُبُّكَ يَغْفِلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴿٧٩﴾

قوله تعالى : **(إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا)** معنى مكة التي عظم الله حرمتها، أي جعلها حراماً، لا يسفك فيها دم، ولا يظلم فيها أحد، ولا يصاد فيها صيد، ولا يعضد فيها شجر، على ما تقدم بيانه في غير موضع. **﴿وَقُرْآنُ أَبِي عَبَّاسٍ﴾** **«الَّتِي حَرَّمَهَا»** نعتاً للبلدة. وقراءة الجماعة «الذي» وهو في موضع نصب نعت لـ «جرب» ولو كان بالالف واللام لقلت المحرمة، فإن كانت نعتاً للبلدة قلت المحرمة هو، لا بد من إظهار المضمر مع الالف واللام؛ لأن الفعل جرى على غير من هو له؛ فإن قلت الذي حرّمها لم تمنع أن تقول هو. **﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾** خلقاً وملاكاً. **﴿وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾** أي من المتقدين لأمره، الموحدين له. **﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ﴾** أي وأمرت أن أتلو القرآن، أي أقرأه. **﴿فَمِنَ اهْتَدَى﴾** فله ثواب هدايته. **﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾** فليس على إلا البلاغ؛ نسختها آية القتال. قال النحاس. **«وَأَنْ أَتْلُو»** نصب بأن. قال الفراء: وفي إحدى القراءتين **«وَأَنْ أَتْلُ»** وزعم أنه في موضع جزم بالأمر فلذلك حذف منه الواو، قال النحاس: ولا نعرف أحداً قرأ هذه القراءة، وهي مخالفة لجميع المصاحف.

قوله تعالى : **﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾** أي على نعمته وعلى ما هدانا. **﴿سِيرَ يَكْرَءَاتِيهِ﴾** أي في أنفسكم وفي ذمكم كما قال: **«سُرِّيهِمْ آيَاتُنَا فِي الْأَقْيَاقِ فِي أَفْسِهِمْ»**. **﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾** أي دلائل قدرته ووحدايته في أنفسكم وفي السموات وفي الأرض؛ نظيره قوله تعالى : **«وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَتْلَاتِيصُونَ»**. **﴿وَمَا رَبُّكَ بِذَاتِلِ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾**

قرأ أهل المدينة وأهل الشام وحفص من عاصم بإثاء على الخطاب؛ لقوله : « سِيرَ بِكُمْ آيَاتِهِ قَتَرْتُمْ نَفْسًا » فيكون الكلام مل نسق واحد . الباقون بالياء مل أن يرد إلى ما قبله « فَنَ آهَتَدَى » فأخبر عن تلك الآية . كتبت السورة والحمد لله رب العالمين ، وصل الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

صورة القصص

مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء . وقال ابن عباس وقنادة إلا آية نزلت بين مكة والمدينة . وقال ابن سلام : بالجمعة في وقت هجرة رسول الله صل الله عليه وسلم إلى المدينة . وهي قوله عز وجل : « إِنَّ الَّذِي قَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ » . وقال مقاتل : فيها من المدي « الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمُ الْكِتَابُ » إلى قوله : « لَا تَنصِبُوا لِلْجَاهِلِينَ » . وهي ثمان وثمانون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : طس (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مَوْسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُ بَدِيعَ أَيْسَاءِهِمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَزُرِدُ أَنْ تُؤْمِنَ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَيَجْعَلُهُمْ أُهْبَةً وَيَجْعَلُهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَتُمْكِنَ لَمْ فِي الْأَرْضِ وَوَرَى فِرْعَوْنَ وَهَمَنَّ وَجُنُودُهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦)

قوله تعالى : (طس) تقدم الكلام فيه . (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ) « تِلْكَ » في موضع رفع بمعنى هذه تلك و « آيَاتُ » بدل منها . ويجوز أن يكون في موضع نصب « تَتْلُوا » و « آيَاتُ » بدل منها أيضا وتصحيا كما قول : زيدا ضربت . و « وَالْمُؤْمِنِينَ »

أى المين بركته وخيره ، والمين الحق من الباطل ، والحلال من الحرام ، وقصص الأنبياء ،
 ونبوّة محمد صلى الله عليه وسلم . ويقال : بأن الشيء وأبان [أنضح] . (تَتَلَوْا عَلَيْكَ مِنْ نَبِيٍّ)
 مُوسَى وَفِرْعَوْنُ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) ذكر قصة موسى عليه السلام وفرعون وقارون ،
 وأحتج على مشرك قريش ، وبين أن قرابة قارون من موسى لم تنفخه مع كفره ، وكذلك
 قرابة قريش لمحمد ، وبين أن فرعون علا في الأرض وتجبر ، فكان ذلك من كفره ، فليجنب
 الملوك الأرض ، وكذلك التعزير بكثرة المال ، وهما من ميرة فرعون وقارون . « تَتَلَوْا عَلَيْكَ »
 أى اقرأ عليك جبريل بأمرنا « مِنْ نَبِيٍّ مُوسَى وَفِرْعَوْنُ » أى من خبرهما و « من » للتبعض
 و « مِنْ نَبِيٍّ » مفعول « تَتَلَوْا » أى تتلوا عليك بعض خبرهما ؛ كقوله تعالى : « تَنَبَّأُ بِالْبُحْثِ » .
 ومعنى « بِالْحَقِّ » أى بالصدق الذى لا ريب فيه ولا كذب . « لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » أى يصدقون
 بالقرآن ويعلمون أنه من عند الله ؛ فأما من لم يؤمن فلا ينفذ أنه حق .

قوله تعالى : (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ) أى استكبر وتجبر ؛ قاله ابن عباس
 والسدى . وقال قتادة : علا في نفسه عن عبادة ربه بكفره وأدعى الربوبية . وقيل :
 بملكه وسلطانه فصار عالياً على من تحت يده . « فِي الْأَرْضِ » أى أرض مصر . (وَجَدَلْ
 أَهْلَهَا شِيْعًا) أى فرقا وأصنافا في الخلدمة . قال الأعشى :

وبلدة يرهب الجواب دجلتها • حتى تراه عليها يتننى الشيعا

(يَنْتَضِعُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ) أى من بنى إسرائيل . (يُدْعِي أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ
 مِنَ الْمُفْسِدِينَ) تقدم القول في هذا في « البقرة » عند قوله : « يُسْئِرُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ
 يُدْعُونَ أَبْنَاءَهُمْ » الآية ؛ وذلك لأن الكهنة قالوا له : إن مولودا يولد في بنى إسرائيل
 ينسب إليك على يديه ، أو قال المنتسبون له ذلك ، أو رأى رؤيا فعبثت كذلك . قال

(١) في الأصل : « أنضح » وهو محرف . والمصوب من كتب اللغة .

(٢) راجع به ٤ ص ٢٨٤ وما بعدها طبع ثانياً أو ثالثاً .

الزجاج: العجب من حقه لم يدرك أن الكاهن إن صدق فاقبل لا ينفذ، وإن كذب فلا معنى للقتل. وقيل: جعلهم شيئا فاستعجز كل قوم من بني إسرائيل في شغل مفرد. «لأنه كان بين المفسدين» أي في الأرض بالعمل والمعاصي والتعبد.

قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ أَنْ يَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَيْفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي تستفضل عليهم وتنتهم. وهذه حكاية مضت. ﴿وَيَجْعَلُهُمْ آيَةً﴾ قال ابن عباس: قاعة في الخير. مجاهد: دعة إلى الخير. قتادة: ولادة وملوك؛ دليله قوله تعالى: «وَجَعَلَكُمْ مَلُوكًا».

قلت: وهذا أعم لأن الملك إمام يؤتم به ويقتدى به. ﴿وَيَجْعَلُهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ الملك فرعون؛ يرثون ملكه، ويسكنون مساكن القبط. وهذا معنى قوله تعالى: «وَمَتَّ كَلِمَةً زَيْدُكَ الْحَسَنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا».

قوله تعالى: ﴿وَيُمْكِنُ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي جعلهم مقتدرين على الأرض وأهلها حتى يستولوا عليها؛ يعني أرض الشام ومصر. ﴿وَيَرَىٰ فِرْعَوْنُ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا﴾ أي وتريد أن ترى فرعون. وقرأ الأعمش ويحيى وحزمة والكسائي وخلف «ويرى» بإياء على أنه فعله ثلاثي من رأى «فِرْعَوْنُ وَهَامَانُ وَجُنُودُهُمَا» وفما لأنه الفاعل. الباقون «تري» بضم النون وكسر الراء على أنه فصل رابعي من أرى يرى، وهي على فسق الكلام؛ لأن قبله «وزيد» وبعده «ويمكن» «فِرْعَوْنُ وَهَامَانُ وَجُنُودُهُمَا» نصبا بوقوع الفعل. وأجاز الفراء «ويرى فِرْعَوْنُ» بضم الإياء وكسر الراء وفتح الإياء بمعنى ورى الله فرعون ﴿يَنْتَهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ وذلك أنهم أخبروا أن هلاكهم على يدي رجل من بني إسرائيل فكانوا على وجل «يَنْتَهُم» فأراهم الله «مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ». قال قتادة: كانت حازيا لفرعون—والحازي المصمم— قال إنه سيولد في هذه السنة مولود يذهب بملكك؛ فأمر فرعون بقتل الولدان في تلك السنة. وقد ختم.

قوله تعالى : وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ
فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ
الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٠﴾ فَأَلْقَتْهُ بَالِ الْفِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ
وَهَـٰؤُلَاءِ كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٦١﴾ وَقَالَتْ أُمَّرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنَ
لِي وَلَـٰكِ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ يَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى : (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ) قد تقدم معنى الوحي وعامله .
وآختلف في هذا الوحي إلى أم موسى ؛ فقالت فرقة : كان قولاً في منامها . وقال قتادة :
كان إلهاً . وقالت فرقة : كان بمثل لما . قال مقاتل : أتاهها جبريل بذلك ، فعلى هذا
هو وحي إلهام لا إلهام . وأجمع الكل على أنها لم تكن نية ، وإنما إرسال الملك إليها على نحو
تكليم الملك للأفريق والأبرص والأعمى في الحديث المشهور ؛ أخرجه البخاري ومسلم ، وقد ذكرناه
في سورة « برأة » . وفي ذلك مما روى من تكليم الملائكة للناس من غير نبوة ، وقد ساءت
على عمران بن حصين فلم يكن بذلك نبياً . وأسمها أيارسا وقيل أيارخت فيما ذكر السجيل . وقال
الثعلبي : وأسم أم موسى لوحا بنت هانئ بن لاوي بن يعقوب . « أَنَّ أَوْضِعِيهِ » وقسراً عمر
ابن جند العزيز « أَنَّ أَرْضِعِيهِ » بكسر اللون وألف وصل ؛ حذف همزة أرضع تخفيفاً ثم كسر
النون لالتقاء الساكنين . قال مجاهد : وكان الوحي بالرضاع قبل الولادة . وقال غيره بعدها .
قال السدي : لما ولدت أم موسى موسى أمرت أن ترضعه عقيب الولادة وتضع به بما في الآية ؛
لأن الخوف كان عقيب الولادة . وقال ابن جريج : أمرت بإرضاعه أربعة أشهر في بستان ،
فإذا خافت أن يصبح — لأن لبنها لا يكفيه — صنعت به هذا . والأوّل أظهر إلا أن
الآخر بعضه قوله : « فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ » و « إِذَا » لما يستقبل من الزمان ؛ فيروى أنها

(١) رجع ص ٨ ص ١٨٨ وما بعدها طبعاً ، أول آياتية .

(٢) قيل في اسمها أيارسا ، برتاذ ، وقيل : يوحنايل ، وقيل غير ذلك .

أَتَخَذْتُ لَهُ تَابُوتًا مِنْ بَرْدَى وَقِيْرَتِهِ بِالْقَارِ مِنْ دَاخِلِهِ ، وَوَضَعْتُ فِيهِ مُوسَى وَأَلْقَيْتُ فِي نِيلِ مِصْرَ .
 وَقَدْ مَضَى خَبْرُهُ فِي هَـ طَهُ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا كَثُرُوا بِمِصْرَ اسْتَظْلَمُوا
 عَلَى النَّاسِ ، وَعَمَلُوا بِالْمَعَاصِي ، فَسَاطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْقَيْطَ ، وَسَامُوهُمْ سُوءَ الْمَذَابِ ، إِلَى أَنْ نَجَّاهُمْ اللَّهُ
 عَلَى يَدِ مُوسَى . قَالَ وَهْبٌ : بَلَّغَنِي أَنَّ فِرْعَوْنَ ذَبَحَ فِي طَلَبِ مُوسَى سَبْعِينَ أَلْفَ وَلِيدٍ . وَيُقَالُ :
 تَسْعُونَ أَلْفًا ، وَرَوَى أَنَّهُ احْتَرَبَتْ أَقْتَرَبَتْ وَضَرَبَهَا الطَّلَقُ ، وَكَانَتْ بَعْضُ الْقَوَائِلِ الْمَوْلَكَاتِ بِحِجَالِ
 بَنِي إِسْرَائِيلَ مُصَافِيَةً لَهَا ، فَقَالَتْ : لِيَنْفَعَنِي حُبُّكَ الْيَوْمَ ، فَمَاجَلَتْهَا فَلَمَّا وَقَعَ إِلَى الْأَرْضِ هَالِمًا
 نَوْرٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَأَرْتَمَشَ كُلَّ مَقْصِلٍ مِنْهَا ، وَدَخَلَ حَبَّ قَلْبِهَا ، ثُمَّ قَالَتْ : مَا جِئْتُكَ إِلَّا لِأَقْتُلَ
 مَوْلُودَكَ وَأَخْبِرَ فِرْعَوْنَ ، وَلَكِنِّي وَجَدْتُ لَكُنْكَ حَيًّا مَا وَجَدْتُ مُشَبَّهً قَطْ ، فَأَحْفَظُكَ ، فَلَمَّا
 حَرِجْتَ جَاءَ عِيُونُ فِرْعَوْنَ فَلَقْنَتْهُ فِي خَرْقَةٍ وَوَضَعَتْهُ فِي تَوْرٍ مَسْجُورٍ نَارًا لَمْ تَطْلَمْ مَا تَصْنَعُ لِمَا طَاشَ
 حَقْلُهَا ، فَطَلَبُوا فَلَمْ يَلْقَوْا شَيْئًا ، فَغَرَبُوا وَهِيَ لَا تَدْرِي مَكَانَهُ ، فَسَمِعَتْ بِكَاءٍ مِنَ التَّوْرِ ، وَفَدَّ
 جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ يَرْدًا وَسَلَامًا .

قوله تعالى : (وَلَا تَحْزَنْ) فيه وجهان : أحدهما - لا تحزن على الفرق ، قاله
 ابن زيد . الثاني - لا تحزن على الضيعة ، قاله يحيى بن سلام . (وَلَا تَحْزَنْ) فيه أيضا
 وجهان : أحدهما - لا تحزن لفراقه ، قاله ابن زيد . الثاني - لا تحزن أن يقتل ، قاله
 يحيى بن سلام . فقيل : إنها جعلته في تابوت طوله خمسة أشبار وعرضه خمسة أشبار ،
 وجعلت المفتاح مع التابوت وطرحته في اليم بعد أن أرضعته أربعة أشهر . وقال آخرون :
 ثلاثة أشهر . وقال آخرون : ثمانية أشهر ، في حكاية الكلب . وحكى أنه لما فرغ النجار
 من صنعة التابوت تمَّ إلى فرعون بغيره ، فبعت معه من يأخذه ، فطمس الله عينه وقلبه
 فلم يعرف الطريق ، فأيقن أنه المولود الذي يخاف منه فرعون ، فأذن من ذلك الوقت ، وهو
 مؤمن آل فرعون ، ذكره الماوردي . وقال ابن عباس : فلما توارى عنها نذرها الشيطان
 وقالت في نفسها : لو ذبح عندي فكففته وواديته لكان أحب إليَّ من إلقائه في البحر ،

فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا رَأَيْنَاهُ إِذْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ بَصِيرَةٌ ﴾ (١) أَي إِلَى أَهْلِ مِصْرَ . حَكَى
الْأَصْمَعِيُّ قَالَ : سَمِعْتُ جَارِيَةَ أُعْرَابِيَّةٍ تَنْشُدُ وَتَقُولُ :

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لَدُنِّي هَكَذَا . قِيلَتْ إِنَّمَا بِغَيْرِ حِلِّهِ .
مِثْلُ الْغَزَالِ نَاعِمًا فِي ذَلِكَ . فَأَتَتْصِفُ اللَّيْلُ وَلَمْ أَصَلِّهِ

فَقُلْتُ : فَأَنْتَ اللَّهُ مَا أَنْصَحُكَ ! فَقَالَتْ : أَوْ يَدَّ هَذَا فَصَاحَةٌ مَعَ قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَأَوْحَيْنَا
إِلَى مُوسَى أَنْ أَرْضَعْ بِنْتَهُ » الْآيَةَ ، وَبَقِيَ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ بَيْنَ أَمْرَيْنِ وَنَهْيَيْنِ وَخَبَرَيْنِ
وَبَشَارَتَيْنِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَنْتَظُهُ أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ بَصِيرَةٌ ﴾ لِمَا كَانَ التَّفَاطُحُ إِذَا
يُؤَدَّى إِلَى كَوْنِهِ لَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ وَحِزْنَا ، فَالْإِلَامُ فِي « لِيَكُونَ » لَامُ الْعَاقِبَةِ وَلَامُ الصَّيْرُورَةِ ، لِأَنَّهُمْ إِذَا
أَخَذُوهُ لِيَكُونَ لَمْ يَكُنْ قَرَّةَ عَيْنٍ ، فَكَانَ عَاقِبَةُ ذَلِكَ أَنَّ كَانَ لَمْ يَكُنْ وَحِزْنَا ، فَذَكَرَ الْحَالُ بِالْمَلِكِ ،
كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

وَلَسْنَا يَا رَبِّي كُلُّ مُرْتَضِعَةٍ . وَدُونَنَا لِحْرَابِ الدَّهْرِ تَلِيهَا

وَقَالَ آخِرُ :

فَلْيَبُوتْ تَنْشُدُ الرِّوَالِدَاتِ يَحْيَاكَ . كَمَا لِحْرَابِ الدَّهْرِ تَلِيهَا الْمَسَاكِينُ

أَيُ عَاقِبَةُ الْبِنَاءِ الْخِرَابُ وَإِنْ كَانَ فِي الْحَالِ مَفْرُوحًا بِهِ . وَالْإِتْقَانُ وَجُودُ الشَّيْءِ مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ
وَلَا إِرَادَةٍ ، وَالْمَرْبُ يَقُولُ لِمَا وَجَدْتَهُ مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ وَلَا إِرَادَةٍ : التَّفَطُّحُ التَّفَاطُحُ . وَلَقِيتُ
فَلَانًا أَتَفَاطُحًا . قَالَ الرَّابِعُ :

وَمَنْبَهِلٍ وَرَدُّهُ أَتَفَاطُحًا .

وَمِنَ الْتَفَطُّحِ . وَقَدْ مَضَى بَيَانُ ذَلِكَ مِنَ الْأَحْكَامِ فِي سُورَةِ « يُونُسَ » بِمَا فِيهِ كِفَايَةٌ . وَقَرَأَ
الرَّاعِشُ وَيَحْيَى وَالْمُفَضِّلُ وَحَمِزَةُ وَالْكَسَائِيُّ وَخَلْفُ « وَحِزْنَا » بِضَمِّ الْحَاءِ وَسُكُونِ الزَّايِ .
الْبَاقُونَ بِفَتْحِهِمَا وَأَخْتَارَهُ أَبُو عَيْسَى . وَأَبُو حَاتِمٍ قَالَ التَّفْخِيمُ فِيهِ . وَهِيَ لَفْظَانِ مِثْلُ الْعَدَمِ

(١) هُوَ قِتَادَةُ الْأَمْعَى ، كَمَا فِي الْبَلَاءِ مَادَّةُ « قَطْ » . (٢) رَاجِعٌ ج ٩ ص ١٣٤ وَمَا يَهْدِيهَا

طَبْعَةُ أَرْبَلٍ أَوْ ثَانِيَةٌ . (٣) التَّفْخِيمُ فِي أَصْطِلَاحِ الْفَرَّاءِ : التَّفْخِيمُ .

وَأُتْلِمْ، وَالسَّقَمَ وَالشَّقَمَ، وَالرَّشَدَ وَالرَّشَدَ . (إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ) كَانَ وَزِيرَهُ مِنَ الْقَبِيضِ .
(وَجُنُودُهُمَا كَانُوا خَائِلِينَ) أَي عاصين مشتركين آثمين .

قوله تعالى : (وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ) يروى أن أمية امرأة فرعون رأت التابوت يوم في البحر، فأمرت بسوقه إليها وفتحه، فرأت فيه صبيا صغيرا فرحت به وأحبته، فقالت لفرعون : « قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ » أي هو قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ذ. « قُرَّةُ » خبر ابتداء مضمرة، قاله اللكسائي . وقال النحاس : وفيه وجه آخر بعيد ذكره أبو إسحق، [قَالَ] : يكون رفعا بالابتداء والخبر «لَا تَقْتُلُوهُ» وإنما يند لأنه يصير المعنى أنه معروف بأنه قُرَّةُ عَيْنٍ . وجوازه أن يكون المعنى : إذا كان قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ فَلَا تَقْتُلُوهُ . وقيل : ثم الكلام عند قوله : « وَلَكَ » . النحاس : والدليل على هذا أن في قراءة عبد الله بن مسعود « وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ لَا تَقْتُلُوهُ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ » . ويعجز النصب بمعنى لَا تَقْتُلُوهُ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ . وقالت : « لَا تَقْتُلُوهُ » ولم تقل لَا تَقْتُلْهُ فهي مخاطبة فرعون كما يخاطب الجبارون ، وكما يخبرون عن أنفسهم . وقيل : قالت « لَا تَقْتُلُوهُ » فإن الله أتى به من أرض أخرى وليس من بني إسرائيل . (عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا) فنصيب منه خيرا (أَوْ نَنْفَعَهُ وَلَدًا) وكانت لآلده ، فاستهبت موسى من فرعون فوهبه لها ، وكان فرعون لما رأى الرؤيا وقصها على كهنته وعلمائه — على ما تقدم — قالوا له : إن غلاما من بني إسرائيل يفسد ملكك ، فأخذ بني إسرائيل يذبح الأطفال ، فرأى أنه يقطع نسلهم ، فعاد يذبح عاما ويستحيي عاما ، فولد هرون في عام الاستحياء، وولد موسى في عام الذبح .

قوله تعالى : (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) هذا ابتداء كلام من الله تعالى ، أي وهم لا يشعرون أن هلاكهم بسببه . وقيل : هو من كلام المرأة ، أي وبني إسرائيل لا يدرون أنا الغنيمة ، ولا يشعرون إلا أنه ولدنا . واختلف المتأولون في الوقت الذي قالت فيه امرأة فرعون « قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ » فقالت فرقة : كان ذلك عند التقاطع التابوت لما أشمرت فرعون به ،

ولما أحلته سبق إلى فهمه أنه من بني إسرائيل، وأن ذلك قصد به ليتخلص من الذبح فقال :
 « حلّ بالذابحين » فقالت أمراته ما ذكر ؛ فقال فرعون : أتأبى فلا . قال النبي صلى الله
 عليه وسلم : « لو قال فرعون نعم لأمن بموسى ولكن قرع عين له » وقال السدي : بل وبته
 حتى دَجج ، فرأى فرعون فيه شهامة وظنه من بني إسرائيل وأخذ في يده ، فلد موسى يده
 ونسب لحية فرعون ، فهم حينئذ بذبحه ، وحينئذ خاطبته بهذا ، وجرت له في الباقوة والبحرة ،
 فاحترق لسانه وماتى المقدة على ما تقدم في « طه » . قال الفراء : سمعت محمد بن مروان
 الذي يقال له السدي يذكر عن الكشي عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال : إنما قالت
 « قرع عين لي ولك لا » ثم قالت : « تَقْتُلُوهُ » قال الفراء : وهو لمن ، قال ابن الأثيري :
 وإنما حكم عليه بالقتل ؛ لأنه لو كان كذلك لكان تقتلونه بالنون ؛ لأن الفعل المستعمل مرفوع
 حتى يدخل عليه الناصب أو الجازم ، فالنون فيه علامة الرفع . قال الفراء : ويقولك على رده
 قراءة عبد الله بن مسعود « وَقَالَتْ أَمْرَأَةُ فِرْعَوْنَ لَا تَقْتُلُوهُ قَرَّةٌ عَيْنٍ لِي وَلَكَ » بتقديم
 « لَا تَقْتُلُوهُ » .

قوله تعالى : وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَرِحًا ۖ إِنَّ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ
 لَوْلَا أَنَّ رِبْطَنَا عَلَىٰ قُلُوبِهَا لَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ
 قُصِّبِهِ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٧﴾ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ
 مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُمْ
 نَاصِحُونَ ﴿١٨﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ آتِيهِ ۚ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَلَنَعْلَمَ
 أَنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ
 وَاسْتَوَىٰ ؕ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ قُودُ أُمِّ مُوسَىٰ قَارِغًا ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك وأبو عمران الجوني وأبو عبيدة : « قَارِغًا » أى خاليا من ذكر كل شيء فى الدنيا إلا من ذكر موسى . وقال الحسن أيضا وابن إسحق وابن زيد : « فارغا » من الوحى إذ أوحى إليها حين أمرت أن تلقى فى البحر « وَلَا تَحْزَانِي وَلَا تُعْزِنِي » والعهد الذى عهده إليها أن يرده ويعمله من المرسلين ؛ فقال لها الشيطان : يا أم موسى كرهت أن يقتل فرعون موسى ففرقتيه أنت ! ثم بلنّها أن ولدها وقع فى يد فرعون فأنساها عظم البلاء ما كان من عهد الله إليها . وقال أبو عبيدة : « قَارِغًا » من النّم والحزن لعلها أنه لم يفرق ؛ وقاله الأختش أيضا . وقال العلاء بن زياد : « قَارِغًا » نافرا . الكسائي : ناسيا ذاهلا . وقيل : والمسا ؛ ورواه سعيد بن جبير . ابن القاسم عن مالك : هو ذهاب العقل ؛ والمعنى أنها حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع والدهش ، ونحوه قوله تعالى : « وَأَنْتُمْ بِهِمْ رُؤُوسًا » أى جُوف لا عقول لها كما تقدم فى سورة « إبراهيم » . وذلك أن القلوب ^(١) مراكر العقول ؛ ألا ترى إلى قوله تعالى : « فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا » ويدل عليه قراءة من قرأ « قَرِغًا » . النحاس : إصح هذه الأقوال الأول ، والذين قالوه أعلم بكتاب الله عز وجل ؛ فإذا كان فارغا من كل شيء إلا من ذكر موسى فهو فارغ من الوحى . وقول ابن عبيدة فارغا من النّم غلط فبيح ؛ لأن بعده « إِنَّ كَذَّابٌ لِّتَبْدَىٰ بِهِ لَوْلَا أَنَّ رَبَّنَا عَلَّ قَلْبَهَا » . روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كادت تقولوا ابتاه ! وقرأ فضالة ابن عبيد الأنصارى رضى الله عنه ومحمد بن السَّمِيع وأبو العالية وابن عيصن « قَرِغًا » بالفاء والعين المهملة من الفرع ؛ أى خائفة عليه أن يقتل . ابن عباس : « قَرِغًا » بالفاء والراء والعين المهملتين ، وهى راجعة إلى قراءة الجماعة « قَارِغًا » ولذلك قيل للرأس الذى لا شعر عليه : أفرع ؛ لفراغه من الشعر . وحكى قطرب أن بعض أصحاب النبي صل الله عليه وسلم قرأ « قَرِغًا » بالفاء والراء والذين المعجمة من غير ألف ، وهو كقولك : هذرا وباطلا ؛ يقال :

(١) راجع ج ٩ ص ٣٧٧ و١ بعدها طبة أول آتانية .

دماؤهم بينهم قَرِخَ أى هدر ، والمعنى بطل قلبها وذهب وبقيت لا قلب لها من شدة ماورد عليها . وفي قوله تعالى « وَأَصْبَحَ » وجهان : أحدهما — أنها ألفتها ليلا فأصبح فؤادها في النهار فارغا . الثاني — أنها ألفتها نهارا ومعنى « أصبح » أى صار ، كما قال الشاعر :

مضى الخلفاء بالأمر الرشيد • وأصبحت المدينة للوليد

إِنْ كَادَتْ) أى إنها كادت ، فلما حذفت الكاكية سكنت النون ، فهي « إن » المخففة ولذلك دخلت اللام في (لَتَبْدَى بِهِ) أى لنظهر أمره ، من بدا يبدو إذا ظهر . قال ابن عباس : أى أصبح عند اللقاء ، وإيشاء . السدى : كادت تقول لما حُجِلَ لإرضاءه وحضائته هو أبى . وقيل : إنه لما شَبَّ سمعت الناس يقولون موسى بن فرعون ، فشق عليها وضاق صدرها ، وكادت تقول هو أبى . وقيل : الهاء في « به » عائدة إلى الوحي بقديره : إن كادت لتبدى بالوحي الذى أوحيناه إليها أن زده عليها . والأول أظهر . قال ابن مسعود : كادت تقول أنا أمه . وقال القراء : إن كادت لتبدى باسمه لضيق صدرها . (أَوَّلًا أَنْ رَبَّنَا عَلَيَّ قَلْبًا) قال قتادة : بالإيمان . السدى : بالعصمة . وقيل : بالنصير . والربط على القلب : إلهام النصير . (لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) أى من المصدقين بوعد الله حين قال لها : « إِنَّا رَأَوُوكَ إِلَيْنَا » . وقال « لَتَبْدَى بِهِ » ولم يقل : لتبدى ، لأن حروف الصفات قد تزداد في الكلام ، تقول : أخذت الحبل والحبل . وقيل : أى لتبدى القول به .

قوله تعالى : (وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ) أى قالت أم موسى لأخت موسى : أتبعي أثره حتى تعلمي خبره . وأسماها مريم بنت عمران ، وافق اسمها اسم مريم أم عيسى عليه السلام ، ذكره السهيلي والثعلبي . وذكر الماوردي عن الضحاك : أن اسمها كلثمة . وقال السهيلي : كلثوم ؛ جاء ذلك في حديث رواه الزبير بن بكار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة : « أشرفت أن الله زوجني ملك في الجنة مريم بنت عمران وكلثوم أخت موسى وآسية امرأة فرعون » فقالت : آله أخبرك بهذا ؟ فقال : « نعم » فقالت بالفاء والبتين ، (قَبَصْرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ) أى بعد ، قاله مجاهد . ومنه الأجنبي .

قال الشافعي^(١) :

فَلَا تَحْرِمْنِي نَائِلًا عَنْ جَنَابِي * فَإِنِّي أَمْرٌ وَسَطُ الْبَابِ غَرِيبُ

وأصله عن مكان جنب . وقال ابن عباس : « عَنْ جُنُبٍ » أى من جانب . وقرأ النعمان ابن سالم « عَنْ جَانِبٍ » أى عن ناحية . وقيل : عن شوق ؛ وحكى أبو عمرو بن العلاء أنها لغة للذام ؛ يقولون : جنبت إليك أى اشتقت . وقيل : « عَنْ جَنْبٍ » أى عن مجانبته لما منه فلم يعرفوا أنها منه بسبيل . وقال قتادة : جعلت تنظر إليه بناحية [كأنه^(٢)] لا تريد ، وكان يقرأ « عَنْ جَنْبٍ » بفتح الجيم وإسكان النون . (وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ) أنها أخته لأنها كانت تخشى على ساحل البحر حتى رأتهم قد أخذوه .

قوله تعالى : (وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ) أى منعناه من الارتضاع من قبل ؛ أى من قبل بحب أمه وأخته . و « المراضع » جمع مَرْضِع ، ومن قال مراضع ، فهو جمع مَرْضَاع ، ومفعول يكون للكثير ، ولا تدخل الماء فيه فرقا بين المؤنث والمذكر لأنه ليس بجارٍ على الفعل ، ولكن من قال مِرْضَاعَةٌ جاء بالماء البالغة ؛ كما يقال مطرابة . قال ابن عباس : لا يؤتى بمريض فيقبلها . وهذا تحريم منع لا تحريم شرع ؛ قال أمرؤ القيس :

جَاءَتْ لِتَصْرَعَنِي فَقُلْتُ لَهَا أَقْصِرِي * إِنِّي أَمْرٌ صَرَعِي عَلَيْكَ حَرَامُ

أى ممتنع . فلما رأت أخته ذلك قالت : (هَلْ أَذْلكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ) الآية ، فقالوا لها عند قولها : (وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ) وما يدريك ؟ لعلك تعرفين أهلها ؟ فقالت : لا ؛ ولكنهم يحرصون على مسرة الملك ، ويرغبون في ظفرك . وقال السدي وأبن جريح : قيل لها لما قالت « وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ » قد عرفت أهل هذا الصبي فدلينا عليهم ؛ فقالت : أردت وهم لملك ناصحون . فدلتهم على أم موسى ، فأنطلقت إليها بأمرهم فحامت بها ، والصبي على يد فرعون يطلبه شفقة عليه ، وهو يبكي يطلب الرضاع ، فدفعه إليها ؛ فلما وجد الصبي

(١) هو طه بن حبة ، قاله يخاطب به الحوث بن جيلة يمدحه ، وكان قد أسراها شاسا — وأراد بالنائل إطلاق أخيه شاس من جهة — فأطلق له أخاه شاسا ومن أسرته من بني تميم . (٢) الإضافة من كتب التفسير . (٣) جالت : قلت . يقول : ذهبت الناقة بقلتها ونشأها تصرعى فلم تقدر على ذلك لحدق لركوب ومروى به .

ويج أمه قبل ثديها . وقال ابن زيد : استرا بها حين قالت ذلك فقالت وهم لللك ناصحون .
وقيل : إنما لما قالت « هَلْ أَدْلَكُمُ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ » وكانوا يبالغون في طلب
مرضعة يقبل ثديها فقالوا : من هي ؟ فقالت : أمي ، فقيل : لها لبن ؟ قالت : نعم ! لبن
هرون — وكان ولد في سنة لا يقتل فيها الصبيان — فقالوا صدقت والله . « وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ »
أي فيهم شفقة ونصح ، فروى أنه قيل لأم موسى حين أرتضع منها : كيف أرتضع منك
ولم يرتضع من غيرك ؟ فقالت : إني امرأة طيبة الریح طيبة اللبن ، لا أكاد أوقى بصبي
إلا أرتضع مني . قال أبو عمران الجوني : وكان فرعون يعطى أم موسى كل يوم دينارا .
قال الزعزعي : فإن قلت كيف حل لها أن تأخذ الأجر على إرضاع ولدها ؟ قلت : ما كانت
تأخذه على أنه أجر على الرضاع ، ولكنه مال حربى تأخذه على وجه الاستباحة .

قوله تعالى : (فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ) أي رددناه وقد عطف الله قلب المدق عليه ، ووفينا
لها بالوعد . (كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا) أي بولدها . (وَلَا تَحْزَنَ) أي بفراق ولدها . (وَلَتَعْلَمَنَّ
أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) أي لتعلم وقوعه لأنها كانت طالمة بأن رده إليها سيكون . (وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ) يعني أكثر آل فرعون لا يعلمون ، أي كانوا في غفلة عن التقدير وشر القضاء .
وقيل : أي أكثر الناس لا يعلمون أن وعد الله في كل ما وعد حق .

قوله تعالى : (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا) قد مضى الكلام في الأشد
في « الأنعام » . وقول ربيعة ومالك أنه الحلم أولى ما قيل فيه ؛ لقوله تعالى : « حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا
النَّبَاتِ » وذلك أول الأشد ، وأقصاه أربع وثلاثون سنة ؛ وهو قول سفيان الثوري .
و « استوى » قال ابن عباس : بلغ أربعين سنة . والحكم : الحكمة قبل النبوة . وقيل :
الفقه في الدين . وقد مضى بيانها في « البقرة »^(٢) وضيها . والعلم الفهم قول السدي . وقيل :
النبوة . وقال مجاهد : الفقه . محمد بن إسحق : أي العلم بما في دينه ودين آبائه ؛ وكان له تسعة
من بنى إسرائيل يسمعون منه ، ويقتدون به ، ويجمعون إليه ، وكان هذا قبل النبوة .

(١) راجع ج ٧ ص ١٢٤ وما بعدها طيبة أول أرثانية . (٢) راجع ج ٢ ص ١٣١ طيبة ثانية .

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) أي كما جزينا أم موسى لما آتتسأت لأمر الله، وألقت ولدها في البحر، وصاقت بولده الله، فرددنا ولدها إليها بالتخف والطرف وهي آمنة، ثم وهبنا له العقل والحكمة والنبوة؛ وكذلك نجزي كل محسن .

قوله تعالى : **وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ بَعُورٌ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتُ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾**

قوله تعالى : **(وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا)** قيل : لما عرف موسى عليه السلام ما هو عليه من الحق في دينه، طاب ما عليه قوم فرعون؛ وفشا ذلك منه فأخافوه تخافهم، فكان لا يدخل مدينة فرعون إلا خائفا مستخفيا، وقال السدي : كان موسى في وقت هذه القصة على رسم التماثيل بفرعون، وكان يركبها راكبا، حتى كان يدعى موسى، أبن فرعون؛ فركب فرعون يوما وسار إلى مدينة من بلدان مصر يقال لها منف — قال مقاتل على رأيي، فرجع من مصر — ثم علم موسى بركوب فرعون، فركب بجلده ولبق بذاك القرية في وقت

القائلة، وهو وقت الغفلة؛ قاله ابن عباس . وقال أيضاً : هو بين المشاء والعمّة . وقال ابن إسحق : بل المدينة مصر نفسها، وكان موسى في هذا الوقت قد أظهر خلاف فرعون، وعاب عليهم عبادة فرعون والأصنام، فدخل مدينة فرعون يوماً على حين غفلة من أهلها . قال سعيد بن جبيرة قتادة: وقت الظهيرة والناس نيام . وقال ابن زيد : كان فرعون قد نابذ موسى وأخرجهم من المدينة، وغاب عنها سبعين، وجاء والناس على غفلة بنسيانهم لأمره، وبعد عهدهم به، وكان ذلك يوم عيد، وقال الضحاك: طلب أن يدخل المدينة وقت غفلة أهلها، فدخلها حين علم ذلك منهم، فكان منه من قتل الرجل من قبل أن يؤمر بقتله، فاستغفر ربه فغفر له . ويقال في الكلام: دخلت المدينة حين غفل أهلها، ولا يقال: على حين غفل أهلها؛ فدخلت «على» في هذه الآية لأن الغفلة هي المقصودة؛ فصار هذا كما تقول: جئت على غفلة، وإن شئت قلت : جئت على حين غفلة، وكذا الآية . (فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـذَا مِنْ شِيعَتِهِ) والمعنى : إذا نظر إليهما الناظر قال هذا من شيعته ؛ أى من بنى إسرائيل . (وَهَـذَا مِنْ عَدُوِّهِ) أى من قوم فرعون . (فَاسْتَفَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ) أى طلب نصره وغوثه، وكذا قال في الآية بعدها : «فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ اسْتَصْرَحَهُ» أى يستغيث به على قبضتي آخر . وإنما أغاثه لأن نصر المظلوم دين في الملل كلها على الأمم، وفرض في جميع الشرائع . قال قتادة : أراد القبطي أن يُسخرَ الإسرائيلي ليحمل خطياً لمطبخ فرعون فأبى عليه، فاستغاث بموسى . قال سعيد بن جبيرة : وكان خبازاً لفرعون . (فَوَكَرَهُ مُوسَى) قال قتادة : بمصاه . وقال مجاهد : بكفه؛ أى دنفه . والوكر واللكر واللّهم واللّهم بمعنى واحد، وهو الضرب يُجمع الكفّ مجموعاً كعقد ثلاثة وسبعين . وقرأ ابن مسعود «فَلَكْرَهُ» . وقيل : اللكر في الخي والوكر على القلب . وحكى الثعلبي أن في مصحف عبد الله بن مسعود «فَنَكَرَهُ» بالنون والمعنى واحد . وقال الجوهري عن أبي عبيدة : اللكر الضرب بالجمع على البصر . وقال أبو زيد : في جميع الجسد، واللّهز : الضرب بجمع اليد في الصدر مثل اللكر؛ عن أبي عبيدة أيضاً . وقال أبو زيد : هو بالجمع في اللهازم والرقبة؛ والرجل ملهز بكسر الميم .

وقال الأصمى : نَكَرَهُ ؛ أى ضربه ودفعه . الكسائي : تَهَزَه مثل نَكَرَه وَنَكَرَهُ ؛ أى ضربه ودفعه . وَهَذِهِ لَمَّا أَى دفعه لَنَهْ فهو ملهود ؛ وكذلك لَمَدَه ؛ قال طَرَفَة يذم رجلا :

بطيء عن الداعي سريع إلى الخنا ^(١) * ذُلُولُ بِأَجْصَاحِ الرِّجَالِ مُنْهَدٍ

أى مُدْلَعٍ وإنما شَدَّدَ للكثرة . وقالت عائشة رضى الله عنها : فَهَدَى - نعى النبي صلى الله عليه وسلم - لَمَدَةً أَوْجَعْنِي ؛ نجره مسلم . ففعل موسى عليه السلام ذلك وهو لا يريد قتله ، إنما قصد دفعه فكانت فيه نفسه ، وهو معنى « قَفَضَى عَلَيْهِ » . وكل شئ أُنْبِت عليه وفرغت منه قضيت عليه . قال :

* قَدْ عَضَّهُ قَفَضَى عَلَيْهِ الْأُجْعُ *

(قَالَ حَدَّثَنَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ) أى من إغوانه . قال الحسن : لم يكن يحمل قتل الكافر يومئذنى تلك الحال ؛ لأنها كانت حال كف عن القتال . (إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ) خبر بعد خبر . (قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَأَغْفِرْ لى قَفَرَهُ) ندم موسى عليه السلام على ذلك الزور الذى كان فيه ذهاب النفس ، فعمله ندمه على الخضوع لربه والاستغفار من ذنبه . قال قتادة : عرف والله الخرج فاستغفر ؛ ثم لم يرزل صلى الله عليه وسلم يعدد ذلك على نفسه ، مع علمه بأنه قد غفر له ، حتى أنه فى القيامة يقول : إني قتلت نفسا لم أؤمر بقتلها . وإنما عدده على نفسه ذنبا . وقال : « ظَلَمْتُ نَفْسِى فَأَغْفِرْ لى » من أجل أنه لا ينبغي لئى أن يقتل حتى يؤمر ، وأيضا فإن الأنبياء يشفقون لما لا يشفق منه غيرهم . قال النقاش : لم يقتله عن عمد مريدا للقتل ، وإنما وكزه وكرة يريد بها دفع ظلمه . قال وقد قيل : إن هذا كان قبل النبوة . وقال كسب : كان إذ ذاك أبن أُنْتَى عشرة سنة ، وكان قتله مع ذلك خطأ ؛ فإن الزكرة واللكزة فى الغالب لا تقتل . وروى مسلم عن سالم بن عبد الله أنه قال : ياهل العراق ! ما أسألكم عن الصنيرة ، وأركبكم للكبيرة ! سمعت أبى عبد الله بن عمرو يقول سمعت

(١) ويعنى « من البهل » . والذلول ضة الصعب . ويرى : « ذليل » . وأجاص جمع (جمع) وهو

ظهور الكلف إذا جمت أمامك وضمتها . (٢) هو جرير . والأصح يريد به الشجاع من الحيات . ومرد البيت :

* أَغْيَاشُونَ وَدَ أَرَا حَفَاشِهِمْ *

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الفتنة تجيء من هاهنا - وأوياً بيده نحو المشرق - من حيث يطلع قرنا الشيطان وأنتم بعضكم يضرب رقاب بعض وإنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأ فقال الله عز وجل: «وَقَتَلَتْ نَفْسًا فَتَجُنَّكَ مِنَ الْغَمِّ وَقَتَلْتَكَ فَتُصَوِّبُ».

قوله تعالى: «قَالَ رَبِّ إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ» فيه مسئلتان: الأولى - قوله تعالى: «قَالَ رَبِّ إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ» أي من المعرفة والحكمة والتوحيد «قَالَ رَبِّ إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ» أي عونا للكافرين. قال القرطبي: ولم يقل بما أنعمت علي من المغفرة؛ لأن هذا قبل الوحي، وما كان عالماً بأن الله غفر له ذلك القتل. وقال الماوردي: «إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ» فيه وجهان: أحدهما - من المغفرة؛ وكذلك ذكر المهدوي والتعليق. قال المهدوي: «إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ» من المغفرة فلم تعافني. الوجه الثاني - من الهداية. قلت: «فَقَرَّرَهُ» يدل على المغفرة والله أعلم. قال الزمخشري قوله تعالى: «إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ» يجوز أن يكون قسماً جوابه محذوف تقديره: أقسم بإنسانك علي بالمغفرة لأتوبن. «قَالَ رَبِّ إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ» وأن يكون استعطافاً كأنه قال: رب أعصمني بحق ما أنعمت علي من المغفرة فإن أكون إن عصمتي ظهيرا للمجرمين. وأراد بمظاهرة المجرمين إما صحبة فرعون وانتظامه في جملة، وتكثير سواده، حيث كان يركب بركو به كالولد مع الوالد، وكان يسمى ابن فرعون، وإما بمظاهرة من أدت مظاهرة إلى الحرم والإثم، كمظاهرة الإسرائيليين المؤدية إلى القتل الذي لم يحل له قتله. وقيل: أراد أن أسأت في هذا القتل الذي لم أؤمر به فلا أترك نصرة المسلمين على المجرمين؛ فعل هذا كان الإسرائيليين مؤثماً ونصرة المؤمنين واجبة في جميع الشرائع. وقيل في بعض الروايات: إن ذلك الإسرائيليين كان كافراً؛ قيل له إنه من شيعته لأنه كان إسرائيلياً ولم يرد الموافقة في الدين؛ فعل هذا ندم لأنه أعان كافراً على كفر، فقال: لا أكون بعدها ظهيرا للكافرين. وقيل: ليس هذا خبراً بل هو دعاء؛ أي فلا أكون بعد هذا ظهيرا؛ أي فلا تجعلني يارب ظهيرا للمجرمين. وقال الفراء:

المعنى : اللهم فلن أكون ظهيرا للجريمين ؛ وزعم أن قوله هذا هو قول ابن عباس . قال النحاس :
وأن يكون بمعنى الخبر أولى وأشبه بنسق الكلام ؛ كما يقال : لا أعصيك لأنت أنعمت عليّ .
وهذا قول ابن عباس على الحقيقة لا ما حكاه الفراء ؛ لأن ابن عباس قال : لم يستثن فأبطل
من ثانی يوم ؛ والاستثناء لا يكون في الدعاء ، لا يقال : اللهم أغفر لي إن شئت ؛ وأعجب
الاشياء أن الفراء روى عن ابن عباس هذا ثم حكى عنه قوله .

قلت : قد مضى هذا المعنى ملخصا مبينا في سورة « النمل » وأنه خبر لا دعاء . ومن
ابن عباس : لم يستثن فأبطل به مرة أخرى ؛ يعني لم يقل فلن أكون إن شاء الله . وهذا
نحو قوله : « وَلَا تَزْكُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا » .

الثانية — قال سبعة بن نبط : بعث عبد الرحمن بن مسلم إلى فضيلك بطاء أهل
بخارى وقال : أعطهم ؛ فقال : أعف ؛ فلم يزل يستغف حتى أعفاه . فقيل له ما عليك أن
تطعيم وانت لا ترزؤهم شيئا ؟ وقال : لا أحب أن أعين الظلمة على شيء من أمرهم . وقال
عبد الله بن الوليد الوصافي قلت لمطاه بن أبي رباح : إن لي أبا يأخذ ظلمه ، وإنما يحسب
ما يدخل ويخرج ، وله حيال ولو ترك ذلك لأحساج وأذنان ؟ فقال : من الرأس ؟ قلت :
خالد بن عبد الله القسري ؛ قال : أما قلنا ما قال العبد الصالح « رَبِّ مَا أَتَمَّمْتُ حَلَّ قَلْبٍ
أَكُونُ ظَهِيرًا لِلْجُرِمِينَ » قال ابن عباس : فلم يستثن فأبطل به ثانية فأعانه الله ، فلا بينهم
أخوك فإن الله يمينه — قال عطاه : فلا يحل لأحد أن يمين ظالما ولا يكتب له
ولا يصحبه ، وأنه إن فعل شيئا من ذلك فقد صار ميعينا للظالمين . وفي الحديث : " ينادى
مناذ يوم القيامة أين الظلمة وأشياء الظلمة وأخوان الظلمة حتى من لاق لم تدركه أو يرى لم
قلما فيجمعون في تابوت من حديد فيرى به في جهنم " . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم
أنه قال : " من مشى مع مظلوم ليعينه على مظلمته ثبت الله قدميه على الصراط يوم تفتق
يوم تزل فيه الأفلاك ومن مشى مع ظالم ليعينه على ظلمه أزل الله قدميه على الصراط يوم تفتق
فيه الأفلاك " . وفي الحديث : " من مشى مع ظالم فقد أبرم " فالشيء مع الظالم لا يكون جزاء

إلا إذا مشى معه ليعينه ، لأنه أرتكب نهي الله تعالى في قوله سبحانه وتعالى : « وَلَا تَمَآوُا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ » .

قوله تعالى : « فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا » قد تقدم في « طه » وغيرها أن الأنبياء صلوات الله عليهم يخافون ؛ ردًا على من قال غير ذلك ، وأن الخوف لا ينافي المعرفة بالله ولا التوكل عليه ؛ فقليل : أصبح خائفًا من قتل النفس أن يؤخذ بها . وقيل : خائفاً من قومه أن يسلموه . وقيل : خائفاً من الله تعالى . « يَتَرَقَّبُ » قال سعيد بن جبير : يتلفت من الخوف . وقيل : ينتظر الطلب ، ويتظر ما يتحدث به الناس . وقال قتادة : « يترقب » أى يترقب الطلب . وقيل : نرجح يستنصر الخبر ولم يكن أحد علم بقتل القبطي غير الإسرائيل . و « أصبح » يحتمل أن يكون بمعنى صار ؛ أى لما قتل صار خائفاً ، ويحتمل أن يكون دخل في الصباح ؛ أى في صباح اليوم الذى يلى يومه . و « خَائِفًا » منصوب على أنه خبر أصبح ، وإن شئت على الحال ، ويكون الظرف في موضع الخبر . « فَإِذَا الَّذِي اَسْتَنْصَرُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ » أى فإذا صاحبه الإسرائيل الذى خلّصه بالأمس يقال قبطياً آخر أراد أن يستخفه . واستصرخ الاستغاثة . وهو من الصراخ ؛ وذلك لأن المستغيث يصرخ ويصوت في طلب النوث . قال :^(٢)

كُنَّا إِذَا مَا أَنَا صَارَخُ فَمَرَعُ • كَانَ الصَّرَاخُ لَهُ قِرْعَ الظَّنَائِبِ

قيل : كان هذا الإسرائيل المستنصر السامري استنصره بطابخ فرعون في حمل الحطب إلى المطبخ ؛ ذكره القشيري . و « الذى » رفع بالابتداء و « يستصرخه » في موضع الخبر . ويحوز أن يكون في موضع نصب على الحال . وأمس لليوم الذى قبل يومك ، وهو مبنى على الكسر لانتفاء الساكنين ، فإذا دخله الألف واللام أو الإضافة تمكن فأعرب بالرفع والفتح عند أكثر النحويين ، ومنهم من يبينه وفيه الألف واللام . وحكى سيبويه وغيره أن

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٠٢ طبعة أول أو ثانية . (٢) هو سلامة بن جندل . والمناجيب

(جمع ظنوب) ؛ وهو حرف العطف الياى من السابق . والمراد مرة الإجابة .

من البرب من يجرى أمس مجرى ما لا ينصرف في موضع الرفع خاصة، وربما اضططر الشاعر
فعمل هذا في الخلف والنصب؛ قال الشاعر :

« لقد رأيتُ عجباً مداماً »

نخفف بمذ ما مضى واللغة الجيدة الرفع؛ فاجرى أمس في الخلف مجراه في الرفع على اللغة
الثانية . (قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِي مُبِينٌ) والغوى الخائب؛ أى لأنك تشاذ من لا تطيقه .
وقيل : مضل بين الضلالة ؛ قتلت بسببك أمس رجلا ، وتدعوني اليوم لآتمر . والغوى
فعل من أغوى يغوى ، وهو بمعنى مضى ؛ وهو كالوَجيع والأليم بمعنى الموجع والمؤلم .
وقيل : الغوى بمعنى الفسوى . أى إنك لغوى في قتال من لا تطيق دفع شره منك .
وقال الحسن : إنما قال للقبطي « إِنَّكَ لَغَوِي مُبِينٌ » في استسغار هذا الإسرائيلي وهم أن
يبطش به . يقال بَطَشَ بَيْطُشَ وبيطش والضم أقبس لأنه فعل لا يمتدى . (قَالَ يَا مُوسَى
أَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِكَ) قال ابن جبير . أراد موسى أن يبطش بالقبطي فتوهم الإسرائيلي أنه
يريده ؛ لأنه أفلط له في القول ؛ فقال : « أَتُرِيدُ أَنْ تَمُتَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ » فسمع
القبطي الكلام فافشاه . وقيل : أراد أن يبطش الإسرائيلي بالقبطي فنهاه موسى بخلاف
منه ؛ فقال : « أَتُرِيدُ أَنْ تَمُتَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ » . (إِنْ تُرِيدُ) أى ما تريد .
(إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ) أى قتالا ؛ قال عكرمة والشعي : لا يكون الإنسان جبارا
حتى يقتل تسعين بغير حق . (وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ) أى من الذين يصلحون
بن الناس .

قوله تعالى : وَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمْشُونَ
إِنَّ الْأَمْلَأُ يَمْشِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٥﴾
فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٦﴾
وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ ﴾ قال أكثر أهل التفسير : هذا الرجل هو حزقيل بن صبوراً
 مؤمن آل فرعون ، وكان ابن عم فرعون ؛ ذكره الثعلبي . وقيل : طالوت ؛ ذكره السهيلي .
 وقال المهدوي : من قتادة : اسمه شمعون مؤمن آل فرعون . وقيل : شمعان ؛ قال الدارقطني :
 لا يعرف شمعان بالشين المعجمة إلا مؤمن آل فرعون . وروى أن فرعون أمر بقتل موسى
 فسبق ذلك الرجل بالخبر ؛ فـ ﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْمُرُونَ بِكَ ﴾ أى يتشاورون في قتلك
 بالقبض الذى قتله بالأمر . وقيل : يأمر بعضهم بعضاً . قال الأزهري : اتخمس القوم
 وتأمروا أى أمر بعضهم بعضاً نظيره قوله : « وَأُتِمُّوا بِكُمْ مَعْرُوفٌ » . وقال الثوري بن ثوبان :
 أرى الناس قد أحدثوا شيعة . وفي كل حادثة يؤتمر

﴿ فَأَنزَجْنَا إِلَى لَكَ مِنَ السَّحَابِ مَاءً يَنْزَجُ ﴾ أى ينظر الطلب . ﴿ قَالَ رَبِّ
 إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ . وقيل : الجبار الذى يفعل ما يريد من الضرب والقتل بظلم ، لا ينظر
 في المواقب ، ولا يدفع بالتي هي أحسن . وقيل : المتعظم الذى لا يتواضع لأمر الله تعالى .
 قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ بَقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَنَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾
 لما خرج موسى عليه السلام فأذا بنفسه منفرداً خائفاً ، لا شيء معه من زاد ولا راحلة
 ولا حذاء نحو مدين ، للنسب الذى بينه وبينهم ؛ لأن مدين من ولد إبراهيم ، وموسى من ولد
 يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ؛ ورأى حاله وعدم معرفته بالطريق ، وخلوه من زاد وغيظه ،
 أسند أمره إلى الله تعالى بقوله : « عَنَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ » وهذه حالة المضطر .
 قلت : روى أنه كان يتقوت ورق الشجر ، وما وصل حتى سقط خُفٌ قديمه . قال
 أبو مالك : وكان فرعون وجهه في طلبه وقال لهم : أطلبوه في نيات الطريق ، فإن موسى
 لا يعرف الطريق . فجاءه ملك راجعاً فرسا ومعه عترة ، فقال لموسى : آتيني ؛ فأتيه فهداه
 إلى الطريق . فيقال : إنه أعطاه العترة فكانت عصاه . ويرى أن عصاه إنما أخذها لرعية
 الغنم من مدين . وهو أكثر وأصح . وقال مقاتل واللسدي : إن الله بعث إليه جبريل ، فأخذه
 أعلم . وبين مدين ومصر ثمانية أيام ؛ قاله ابن جبير والناس . وكان ملك مدين لغير فرعون .

قوله تعالى : وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْكُونَ
وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى
يَصْلِحَ اَنْرِعَاءُ وَاَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٢﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ
فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَزْكُرَ لِي مِن خَيْرٍ فَقَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَجَاءَهُ إِحْدَاهُمَا
تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ ابْنِي يَدْعُوكَ لِجَزْيِكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا
فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِمَّا أَنْتَ قَوْمِ
الظَّالِمِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَبَاطُ اسْتَفْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَارَكَ
الْفَقِيرُ الْأَمِينُ ﴿٢٥﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ
عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي تَمَنِّي حِجَّ فَإِنِ اتَّخَذْتَ عَشْرًا فَرَنْ عِنْدَكَ وَمَا أُرِيدُ
أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ ذَلِكَ
بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا تَقُولُ
وَكَبُلْ ﴿٢٧﴾

فيه أربع وعشرون مسألة :

الأولى - قوله تعالى : (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ) مشى موسى عليه السلام حتى ورد
ماء مدين أى بلغها . ووروده الماء معناه بلغه لا أنه دخل فيه . ولفظه الورد قد تكون
بمعنى الدخول في المورد ، وقد تكون بمعنى الاطلاع عليه والبلوغ إليه وإن لم يدخل . فورد
موسى هذا الماء كان بالوصول إليه ، ومنه قول زهير :

فَلَمَّا وَرَدَكَ الْمَاءَ زُرْقًا رِجَامُهُ • وَضَعَنَ عِصَى الْحَاضِرِ الْمُتَخِمِ ﴿١﴾

(١) تقدم شرح هذا البيت في عاشر ج ١١ ص ١٣٧ طبعه أدب آريزيه .

وقد تقدمت هذه الماعى فى قوله : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » . ومدى لا تنصرف إذى
بلدة معروفة .
قال الشاعر :

رُهبَانُ مَدِينٍ لَوْ رَأَوْكَ تَتَلَوَّا * وَالْمُصَّمِّمُ مِنْ شَقِيقِ الْجِبَالِ الْقَادِرِ
وقيل : قبيلة من ولد مدین بن إبراهیم ، وقد مضى القول فى فی « الأعراف » . والأمة :
الجمع الكثير . (وَلَيْسَ قَوْلُهُمْ) معناه ما شئتهم . (وَلَيْسَ مِنْهُمْ) معناه نأحية إلى الجهة التى جاء
منها ، فوصل إلى المراتین قبل وصوله إلى الأئمة ، ووجدهما بنودان ومعناه تمنعان وتحبسان ؛
ومنه قوله علیه السلام : « فَلْيَذْذِذْهُنَّ حَالٌ عَنِ حَوْضِي » وفى بعض المصاحف : « أَمْرًا تَبِينِ
حَابِسَتَيْنِ تَنْوُدَانِ » يقال : ذاذ ينود إذا [حبس] . وذذت الشئ حبسته ، قال الشاعر :
أَيْتُ عَلَى بَابِ الْقَسَاوِي كَأَمَّا * إِذْ دُوبَهَا سِرْبًا مِنَ الزَّحَايِشِ رُفَاً .
أى أحبس وأمنع . وقيل : « تَنْوُدَانِ » تطردان ؛ قال :

لَقَدْ سَلَبْتُ عَصَاكَ بَنُو تَمِيمٍ * فَمَا تَذَرِي بَائِيَّ عَصَا تَنْوُدٍ

أى تطرد وتكف وتمنع . ابن سلام : تمنعان غنمهما لئلا تختلط بغير الناس ؛ فحذف المفعول ؛
إما إياهما على الخطاب ، وإما استثناء بعلمه . قال ابن عباس : تَنْوُدَانِ غنمهما عن المساء
خسوفاً من السقاء الأقوياء . قتادة : تَنْوُدَانِ الناس عن غنمهما ؛ قال النحاس : والأول
أول ؛ لأن بعده « قَاتِلَا لَا تَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّمَاءُ » ولو كانتا تَنْوُدَانِ عن غنمهما الناس
لم تحبرا عن سبب تأخير سقيهما حتى يصدر الرعاء . فلما رأى موسى عليه السلام ذلك منهما
« قَالَ مَا خَطْبُكُمَا » أى شأنكما ؛ قال رؤبة :

يَا عَجَبًا مَا خَطْبُهُ وَخَطْبِي *

- (١) هو جرير . والمعنى (جمع الأصم) : وهو من الظباء الذى فى ذراعه بياض ، وقيل : فى ذراعيه ، والصادر :
السن منها . وقيل : الضم . ويرى : « من شغف القول » . وقيل :
يا أم طلبة ما لقينا بطم . فى المنجدين ولا بطور الفائر
(٢) راجع ج ٧ ص ٢٤٧ طبة أول أرفائية . (٣) قلياذن ، أى ليطرد . ويرى : « قلا تذاذ »
أى لا تمنعوا فعلاً بوجوب طردكم عنه ، قال ابن الأثير : والأول أشبه . (٤) فى الأصل : « إذا ذهب »
وهو عريف . (٥) هو يزيد بن كراع يذكر تقيمه شعره . (٦) هو جرير بن العزرق .

آبن عطية : وكان استعمال السؤال بالخطب إنما هو في مصاب ، أو مضطهد ، أو من يشفق عليه ، أو يأتي بمنكر من الأمر ، فكأنه بالجملة في شر ، فأخبرناه خبرهما ، وإن إياهما شيخ كبير ؛ فالمعنى : لا يستطيع لضغفه أن يباشر أمر غنمه ، وأنهما لضغفهما وقلة طاقتهما لا تقدران على مزاحمة الأقوياء ، وأن عادتتهما التأني حتى يُصير الناس عن الماء ويحل ، وحديث قردان . وقرأ ابن عامر وأبو عمرو : « يَصْنَر » من صَدَرَ ، وهو ضد وَدَّ أى يرجع الرءاء . والباقون « يَصْدِر » بضم الياء من أصدر ، أى حتى يصدروا مواشيم من وِردهم . والرءاء جمع راع ، مثل تاجر وتجار ، وصاحب وصحاب . قالت فرقة : كانت الآبار مكشوفة ، وكان زعم الناس بينهما ، فلما أراد موسى أن يسقى لما زعم الناس وظلهم على الماء حتى سقى ، فعن هذا الغلب الذى كان منه وصفته إحداهما بالقوة . وقالت فرقة : إنهما كانتا تلبمان فضائلهم في الصَّارِج ، فإن وجدتا في الحوض بقية كان ذلك سقيهما ، وإن لم يكن فيه بقية عطشتا غنهما ، فرق لما موسى ، فعند إلى بركات مغطاة والناس يسقون من غيرها ، وكان يحجرها ليرفعه إلا سبعة ؛ قاله ابن زيد . ابن جريج : عشرة . ابن عباس : ثلاثون . الزجاج : أربعون ؛ فرفعه . وسقى للرأتين ؛ فمن رفع الصخرة وصفته بالقوة . وقيل : إن برعم كانت واحدة ، وأنه رفع عنها الحجر بعد انفصال البقاة ، إذ كانت عادة المرأتين شرب الفضلات . روى عمرو بن ميمون عن عمرو بن الخطاطب أنه قال : لما استقى الرعاة غطوا على البرصخرة لا يقلعها إلا عشرة رجال ، فبغاء موسى فاقطعها وأستقى ذنوبا واحدا لم تحتج إلى غيره فسقى لها .

الثانية — إن قيل كيف سأل نبي الله الذى هو شعيب صلى الله عليه وسلم أن يرضى لأبنتيه بسقى الماشية ؟ قيل له : ليس ذلك بمحظور والدين لا يابأه ، وأما المروءة فالناس مختلفون في ذلك ، والمادة متباينة فيه ، وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم ، ومذهب أهل البلد غير مذهب الحضر ، خصوصاً إذا كانت الحالة حالة ضرورة .

الثالثة — قوله تعالى : (ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ) إلى ظل سمرة ؛ قاله ابن مسعود . وتعرض لسؤال ما يطعمه بقوله : (إِنِّي لَآتِي أُنْزِلَتَ لِي مِنْ خَيْرٍ فَقَبِيرٌ) وكان لم يدق طعاما

(١) السمرة : حجرة صغيرة الورق ، قصيرة الثوب ، لها رية مفرد يأكلها الناس .

سجدة أيام، وقد لصق بطنه بظهره؛ فعرض بالدعاء ولم يصرح بسؤال؛ وهكذا روى جميع المفسرين أنه طلب في هذا الكلام ما يأكله؛ فالتحير يكون بمعنى الطعام كما في هذه الآية، ويكون بمعنى المال كما قال: «إِنْ تَرَكَ خَيْرًا» وقوله: «وَأَنَّهُ يَحُبُّ الْحَسِيرَ لَشَدِيدٍ» ويكون بمعنى القوة كما قال: «أَهْمُ خَيْرًا مِمْ قَوْمٌ تُسَبِّحُ» ويكون بمعنى العبادة كقوله: «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ» قال ابن عباس: وكان قد بلغ به الجوع، وأخضر لونه من أكل البقل في بطنه، وإنه لأكرم الخلق على الله. ويرى أنه لم يصل إلى مدين حتى سقط باطن قدنيه. وفي هذا معتبر وإشعار بهوان الدنيا على الله. وقال أبو بكر بن طاهر في قوله: «إِنِّي لِمَا أُنْزِلَتْ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ» أي إِنِّي لِمَا أُنْزِلَتْ مِنْ فَضْلِكَ وَغَنَّاكَ فَقِيرٌ إِلَى أَنْ تَغْنِيَنِي بِكَ عَنْ سِوَاكَ.

قلت: ما ذكره أهل التفسير أولى؛ فإن الله تعالى إنما أغناه بواسطة شعيب.

الرابعة - قوله تعالى: «لَقَدْ أَنزَلْنَاهُ إِنْشَاءً أَحَدًا مَّا تَشْتَرِي عَلَى آسِنِيَّاهُ» في هذا الكلام اختصار يدل عليه هذا الظاهر؛ فتنزه [ابن] إسحق: فذهبنا إلى أبيهما سريعتين، وكانت عادتاهما الإبطاء في السبي، فحدثاه بما كان من الرجل الذي سقى لها، فأمر الكبرى من بنتيه - وقيل الصغرى - أن تدعوه له «بغات» على ما في هذه الآية. قال عمرو بن ميمون: ولم تكن مسلماً من النساء، خُزَّاجَةٌ وَلَاجَةٌ. وقيل: جاءته سائرة وجهها بكم درعها؛ قاله عمر بن الخطاب. وروى أن اسم إحداهما ليا والأخرى صفوريا أبتا يثرون، ويثرون هو شعيب عليه السلام. وقيل: ابن أمي شعيب، وأن شعيباً كان قد مات. وأكثر الناس على أنها أبتا شعيب عليه السلام، وهو ظاهر القرآن؛ قال الله تعالى: «وَأَلَى مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا» كذا في سورة «الأعراف» وفي سورة الشعراء: «كَتَبَ الْأَحْقَابُ الْآيَةَ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ» قال قتادة: بعث الله تعالى شعيباً إلى أصحاب الأيكة وأصحاب مدين. وقد مضى في «الأعراف» الخلاف في أسم أبيه. فروى أن موسى عليه السلام لما جاءته بالرسالة قام يتبعها، وكان بين موسى وبين أبيها ثلاثة أميال، فهبت ريح ضمت، فبصها فوصفت عجيزتها، فتخرج موسى من النظر

(١) في الأصل: أبو إسحق والتصويب عن تفسير ابن عطية والعلوي . (٢) السبق من النساء .
الطبعة على الرمال . (٣) راجع ج ٧ ص ٢٤٧ طبعة أول أرثانية .

إليها فقال : أرجى وأرشدني إلى الطريق بصوتك . وقيل : إن موسى قال ابتداء : كوني ورائي فرائي رجل عبراني لا أنظر في أديار النساء ، ودلني على الطريق عينا أو يسارا ، فذلك سبب وصفها [له] بالأمانة ؛ قاله ابن عباس . فوصل موسى إلى داعيه فقص عليه أمره من أوله إلى آخره فأنسه بقوله : (لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) وكانت مدين خارجة عن مملكة فرعون . وقرب إليه طعاما فقال موسى : لا أأكل ؛ إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بعلم الأرض ذهبا ؛ فقال شبيب : ليس هذا عرض السبي ، ولكن مادتى وعادة آباءى قرى الضيف ، وإطعام الطعام ؛ فحينئذ أكل موسى .

الخامسة — قوله تعالى : (قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْذِنْهُ) دليل على أن الإجارة كانت عندهم مشروعة معلومة ، وكذلك كانت في كل ملة ، وهي من ضرورة الخليفة ، ومصلحة الخلطة بين الناس ؛ خلافا للاصم حيث كان عن سماعها أصم .

السادسة — قوله تعالى : (إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ) الآية . فيه عرض الولي أبنته على الرجل ؛ وهذه سنة قاعة ؛ عرض صالح مدين أبنته على صالح بن إسرائيل ، وعرض عمر ابن الخطاب أبنته حفصة على أبي بكر وعثمان ، وعرضت الموهوبة نفسها على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فمن الحسن عرض الرجل وليته ، والمرأة نفسها على الرجل الصالح ، اقتداء بالسلف الصالح . قال ابن عمر : لما تأبعت حفصة قال عمر لعثمان : إن شئت إنكحك حفصة بنت عمر ؛ الحديث آتفرد بإخراجه البخارى .

السابعة — وفي هذه الآية دليل على أن النكاح إلى الولي لا يحظ للمرأة فيه ؛ لأن صالح مدين نولاه ، وبه قال فقهاء الأمصار . وخالف في ذلك أبو حنيفة . وقد مضى .

الثامنة — هذه الآية تدل على أن اللاب أن يزوج أبنته البكر البالغ من غير استئجار ، وبه قال مالك واحتج بهذه الآية ، وهو ظاهر قوى في الباب ، واحتجاجة بها يدل على أنه كان يعول على الإسرائيليات ؛ كما تقدم . ويقول مالك في هذه المسئلة قال الشافعي وكثير من العلماء . وقال أبو حنيفة : إذا بلغت الصغيرة فلا يزوجه أحد إلا برضاها ؛ لأنها بلغت

حد التكليف ، فاما إذا كانت صبيحة فإنه يزوجه بغير رضاها ، لأنه لا إذن لها ولا رضا ،
بغير خلاف .

التاسعة - استدل أصحاب الشافعي بقوله : « إني أريد أن أنكحك » على أن النكاح
موقوف على لفظ التزوج والإنكاح . وبه قال ربيعة وأبو ثور وأبو عبيد وداود ومالك على
اختلاف عنه . وقال علماؤنا في المشهور : ينعقد النكاح بكل لفظ . وقال أبو حنيفة :
ينعقد بكل لفظ يقتضى التملك على التأييد ، أما الشافعية فلا حجة لهم في الآية لأنه شرع من
قبلنا وهم لا يرونه حجة في شيء في المشهور عندهم . وأما أبو حنيفة وأصحابه والثرى والحسن
ابن حن قائلوا : ينعقد النكاح بلفظ الهبة وغيره إذا كان قد أشهد عليه ، لأن الطلاق يقع
بالصرح والكاتبة ، قالوا : فكذلك النكاح . قالوا : والذي خص به النبي صلى الله عليه وسلم
تقرى البضع من العوض لا النكاح بلفظ الهبة ، وتابعهم ابن القاسم فقال : إن وهب أبنته
وهو يريد إنكاحها فلا أحفظ من مالك فيه شيئا ، وهو عندى جاز كالبيع . قال أبو عمر :
الصحيح أنه لا ينعقد نكاح بلفظ الهبة ، كما لا ينعقد بلفظ الهبة شيء من الأموال .
وأبضا فإن النكاح مفتقر إلى الصريح لتقع الشهادة عليه ، وهو ضد الطلاق فكيف يقاس
عليه ! وقد أجمعوا أن النكاح لا ينعقد بقوله : أجمعت لك وأحلت لك فكذلك الهبة . وقال
صلى الله عليه وسلم : « استحلتم فروجهن بكلمة الله » يعنى القرآن ، وليس في القرآن عقد
النكاح بلفظ الهبة ، وإنما فيه التزوج والنكاح ، وفي إجازة النكاح بلفظ الهبة إبطال بعض
خصوصية النبي صلى الله عليه وسلم .

العاشر - قوله تعالى : (إحدى أبنتي هاتين) يدل على أنه عرض لا عقد ؛
لأنه لو كان عقدا لمن المفقود عليها له ؛ لأن العلماء وإن كانوا قد اختلفوا في جواز البيع إذا
قال : يملك أحد عبدي هذين بمن كذا ؛ لأنهم اتفقوا على أن ذلك لا يجوز في النكاح ؛ لأنه
خيار وشيء من اختيار لا يلحق بالنكاح .

الحادية عشرة - قال مكي : في هذه الآية خصائص في النكاح ؛ منها أنه لم يعين الزوجة
ولا حد أول الأمد ، وجعل المهر إجازة ، ودخل ولم ينعقد شيئا .

قلت : فهذه أربع مسائل تضمنتها المسئلة الحادية عشرة .

الأولى من الأربع مسائل ، قال علماءنا : أما التعيين فيشبه أنه كان في ثاني حال المرافضة ، وإنما عرض الأمر مجلأ ، وعين بعد ذلك . وقد قيل : إنه زوجه صفوريا وهي الصغرى . يروى عن أبي ذر قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن سئلت أي الأجلين قضى موسى فنقل خيرهما وأوقاهما وإن سئلت أي المرأتين تزوج فنقل الصغرى وهي التي جاءت خلفه وهي التي قالت « يَا أَبَتِ اسْتَأْذِنْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْذَنَ الْقَوَى الْأَيْمَنُ » . قيل : إن الحكمة في تزويجه الصغرى منه قبل الكبرى وإن كانت الكبرى أحوج إلى الرجال أنه توقع أن يميل إليها ؛ لأنه رأها في رسالته ، وما شاها في إقباله إلى أبيها معها ، فلو عرض عليه الكبرى ربما أظهر له الاختيار وهو يضره . وقيل غير هذا ؛ والله أعلم . وفي بعض الأخبار أنه تزوج بالكبرى ؛ حكاه القشيري .

الثانية — وأما ذكر أول المدة فليس في الآية ما يقتضي إسقاطه بل هو مسكوت عنه ؛ فأما رسمناه ، وإلا فهو من أول وقت العقد .

الثالثة — وأما النكاح بالإجارة فظاهر من الآية ، وهو أمر قد قوره شرعنا ، وجرى في حديث الذي لم يكن عنده إلا شيء من القرآن ؛ رواه الأئمة ؛ وفي بعض طرقه : فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما تحفظ من القرآن " فقال : سورة البقرة والتي تليها ؛ قال : " فعلها عشرين آية وهي أمر أنك " . واختلف العلماء في هذه المسئلة على ثلاثة أقوال : فكره مالك ، ومنه ابن القاسم ، وأجازه ابن حبيب ؛ وهو قول الشافعي وأصحابه ؛ قالوا : يجوز أن تكون منفعة الحز صداقا كالتخايط والبناء وتعليم القرآن . وقال أبو حنيفة : لا يصح ؛ وجوز أن يتزوجها بأن يخدمها عبده سنة ، أو يسكنها داره سنة ؛ لأن العبد والدار مال ، وليس خدمتها بنفسه مالا . وقال أبو الحسن الكشي : إن عقد النكاح بلفظ الإجارة جائز ؛ لقوله تعالى : « فَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ » . وقال أبو بكر الرازي : لا يصح لأن الإجارة عقد مؤقت ، وعقد النكاح مؤبد ، فهما متنافيان . وقال ابن القاسم : ينفسخ قبل البناء ويثبت بعده .

وقال أصبغ : إن نقد معه شيئا فقيه اختلاف ، وإن لم ينقد فهو أشد ، فإن ترك نضى كل حال بدليل قصة شعيب ؛ قاله مالك وأبن المسواز وأشهب . وعسول على هذه الآية جماعة من المتأخرين والمتقدمين في هذه النازلة ؛ قال ابن خويز منداد . تضمنت هذه الآية النكاح على الإجارة والعقد صحيح ، ويكره أن يجعل الإجارة مهرا ، وينبغي أن يكون المهر مالا كما قال عمر وجل : « أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ » . هذا قول أصحابنا جميعا

الرابعة - وأما قوله : ودخل ولم ينقد فقد اختلف الناس في هذا ؛ هل دخل حين عقد أم حين سافر ؟ فإن كان حين عقد فإذا نقد ؟ وقد منع علمائنا من الدخول حتى ينقد ولو رجع دينار ؛ قاله ابن القاسم . فإن دخل قبل أن ينقد مضى ، لأن المتأخرين من أصحابنا قالوا : تمجيل الصداق أو شيء منه مستحب . على أنه إن كان الصداق رعية الغنم فقد نقد الشروع في الخدمة ؛ وإن كان دخل حين سافر فطول الانتظار في النكاح جائز وإن كان مدى العمر بغير شرط . [وأما إن كان بشرط ^(١) فلا يجوز إلا أن يكون الفرض صحيحا مثل التأهب للبناء وأنتظار صلاحية الزوجة للدخول إن كانت صغيرة ؛ نص عليه علمائنا

الثانية عشرة - في هذه الآية اجتماع إجارة ونكاح ، وقد اختلف علمائنا في ذلك على ثلاثة أقوال : الأول - قال في ثمانية أبي زيد : يكره ابتداءه فإن وقع مضى . الثاني - قال مالك وأبن القاسم في المشهور : لا يجوز ويفسخ قبل الدخول وبعده ؛ لاختلاف مقاصدهما كسائر العقود المتباينة . الثالث - أجاز به أشهب وأصبغ . قال ابن العربي : وهذا هو الصحيح وعليه تدل الآية ؛ وقد قال مالك النكاح أشبه شيء بالبوع ، فأى فرق بين إجارة وبيع أو بين بيع ونكاح .

فرع - وإن أصدقها تعليم شعر مباح صح ؛ قال المزني : وذلك مثل قول الشاعر :

يقول العبد فائدتي ومالي • وتقوى الله أفضل ما أستفاد

وإن أصدقها تعليم شعر فيه هجو أو غش كان كذا لو أصدقها نعرا أو خنزيرا .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي تَمَانِي حَيْجِجَ ﴾ جرى ذكر الخدمة مطلقا وقال مالك : إنه جائز ويحول على العرف ، فلا يحتاج في التسمية إلى الخدمة ، وهو ظاهر قصة موسى ، فإنه ذكر إجارة مطلقة . وقال أبو حنيفة والشافعي : لا يجوز حتى يسمى لأنه مجهول . وقد ترجم البخاري : « باب من أستاذ أجيرا فين له الأجل ولم يبين له العمل لقوله تعالى « عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي تَمَانِي حَيْجِجَ » . قال المذهب : ليس كما ترجم ، لأن العمل عندهم كان معلوما من سقى وحرث ورعى وما شاكل أعمال البادية في مهنة أهلها ، فهذا متعارف وإن لم يبين له إشتصاص الأعمال ولا مقاديرها ، مثل أن يقول له : إنك تحرث كذا من السنة ، وترعى كذا من السنة ، فهذا إنما هو على المهود من خدمة البادية ، وإنما الذي لا يجوز عند الجميع أن تكون المنة مجهولة ، والعمل مجهول غير مهود لا يجوز حتى يعلم . قال ابن العربي : وقد ذكر أهل التفسير أنه عين له رعية الغنم ، ولم يرو من طريق صحيحة ، ولكن قالوا : إن صالح مدين لم يكن له عمل إلا رعية الغنم ، فكان ما علم من حاله قائما مقام التبيين للخدمة فيه .

الرابعة عشرة — أجمع العلماء على أنه جائز أن يستأجر الراعي شورا معلومة ، بأجرة معلومة ، لرعاية غنم معدودة ، فإن كانت معدودة معينة ، ففيها تفصيل للمأثنا ، قال ابن الفاسم : لا يجوز حتى يشترط الخلف إن مات ، وهي رواية ضعيفة جدا ، وقد أستاذ صالح مدين موسى على غنمه ، وقد رآها ولم يشترط خلفا ، وإن كانت مطلقة غير مسماة ولا معينة جازت عند عالمائنا . وقال أبو حنيفة والشافعي : لا يجوز بلهائنها ، ويؤول عالمائنا على العرف حسبا ذكرناه آنفا ، وأنه يعطى بقدر ما تحتمل قوته . وزاد بعض عالمائنا أنه لا يجوز حتى يعلم المستأجر قدر قوته ، وهو صحيح فإن صالح مدين علم قدر قوة موسى برفع الحجر .

الخامسة عشرة — قال مالك : وليس على الراعي ضمان وهو مصدق فيما هلك أو سرق ، لأنه أمين كالوكيل . وقد ترجم البخاري : « باب إذا أبصر الراعي أو الوكيل شاة تموت أو شيئا يفسد فأصلح ما يخاف الفساد » وساق حديث كعب بن مالك عن أبيه أنه كانت

لم غم ترمى بسلع ، فأبهرت جارية لنا بشاة من غنمنا موتاً فكمرت حجراً فذبحتها به ، فقال لهم : لا تأكلوا حتى أسأل النبي — أو أرسل إلى النبي صلى الله عليه وسلم من يسأله — وأنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم — أو أرسل إليه — فأمره بأكلها ، قال عبد الله : فيعجبني أنها أمة وأنها ذبحت . قال المهلب : فيه من الفقه تصديق الراعي والوكيل فيما أئتمنا عليه حتى يظهر عليهما دليل الخيانة والكذب ، وهذا قول مالك وجماعة . وقال ابن القاسم : إذا خاف الموت على شاة فذبحها لم يضمن ويصدق إذا جاء بها مذبوحة . وقال غيره : يضمن حتى يبين ما قال .

السادسة عشرة — وأختلف ابن القاسم وأشهب إذا أئتمى الراعي على إناث الماشية بغير إذن أربابها فهلكت ، فقال ابن القاسم : لا ضمان عليه ، لأن الإنزاع من إصلاح المال ونمائه . وقال أشهب : عليه الضمان ، وقول ابن القاسم أشبهه بدليل حديث كعب ، وأنه لا ضمان عليه فيما تلف عليه بأجتهاده ، إن كان من أهل الصلاح ، ومن يعلم إشدنه على المال ، وأما إن كان من أهل الفسوق والفساد وأراد صاحب المال أن يضمنه فعلى ، لأنه لا يصدق أنه رأى بالشاة موتاً لما عرف من فسقه ،

السابعة عشرة — لم ينقل ما كانت أجرة موسى عليه السلام ، ولكن روى يحيى بن سالم أن صالح مدين جعل لموسى كل متخلة توضع خلاف لون أمها ، فأوحى الله إلى موسى أن اتق عصاك بينين يلدن خلاف شههن كلهن . وقال غير يحيى : بل جعل له كل بقاء تولد له ، فولد له كلهن بقاء . وذكر القشيري أن شعبياً لما استأجر موسى قال له : أدخل بيت كذا وخذ عصا من المعصى التي في البيت ، فأخرج موسى عصا ، وكان أخرجها آدم من الجنة ، وتوارثها الأنبياء حتى صارت إلى شعب ، فأمره شبيب أن يلقيها في البيت ويأخذ عصا أخرى ، فدخل وأخرج تلك العصا ، وكذلك سبع مرات كل ذلك لا تقع بيده غير تلك ، فعلم شعب أن له شاة ، فلما أصبح قال له : سق الأغنام إلى مفرق الطريق ، فخذ عن يمينك

وليس بها عشب كثير، ولا تأخذ عن يسارك فإن بها عشا كثيرا وتبين كثيرا لا يقبل المواشي، فساق المواشي إلى مفرق الطريق، فأخذت نحو اليسار ولم يقدر على ضبطها، فنام موسى وخرج التنين، فقامت العصا وصارت شعبا حديدا وحاربت التنين حتى قتله، وعادت إلى موسى عليه السلام، فلما آتته موسى رأى العصا مخضوبة بالدم، والتنين مقتولا؛ فعاد إلى شعيب عشاء، وكان شعيب ضريرا ففس الأغنام، فإذا أثر الحصب بإد عليها، فسأله عن القصة فأخبره بها، ففرح شعيب وقال: كل ما نلد هذه المواشي هذه السنة قالب لون - أى ذات لونين - فهو لك؛ فجاءت جميع السخا تلك السنة ذات لونين، فلم شعيب أن لموسى عند الله مكانة. وروى عبيدة بن حصن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أجر موسى نفسه بشعب بطنه وعفة فرجه" فقال له شعيب لك منها - يعنى من نتاج غنمه - ما جاءت به قالب لون ليس فيها عزوز ولا قشوش ولا كوش ولا صوب ولا تمول. قال الهروى: العزوز البكية؛ مأخوذ من العزاز وهى الأرض الصلبة، وقد تمزرت الشاة والقشوش التى يتفش لبنها من غير حلب وذلك لسعة الإحليل، ومثله الفتوح والرزور. ومن أمثالهم: (لَأَفْشَكُ فَشَنَ الْوُطْبِ) أى لا أخرجن غضبك وكبرك من رأسك. ويقال: قش السقاء إذا أخرج منه الزيج. ومنه الحديث: "إن الشيطان يمش بين أئمتي أحيدكم حتى يحيل إليه أنه أحدث". أى ينفع نفعا ضعيفا. والكوش: الصغيرة الضرع، وهى الكيشة أيضا؛ سميت بذلك لانكاش ضرعها وهو تقلصه؛ ومنه يقال: رجل كبش الإزار. والكشود مثل الكوش. والضبوب الضيقة ثقب الإحليل. والقصب الجلب لشدة العصر. والتمول الشاة التى لها زيادة حلسة وهى التمل. والتمل زيادة السن، ونلك الزيادة هى [الزامل] (١). ورجل اتمل. والتمل [ضيق] (٢) خرج اللبن. قال الهروى: وتفسير قالب لون فى الحديث أنها جاءت على غير ألوان أمهاتها.

(١) الزيادة من السن، وفى الأصل: «هى التمل» ولسه تحريف؛ إذ أن جارة السن «وتلك السن

الزائدة يقال لها الزامل» (٢) زيادة ينقصها المعنى.

الثامنة عشرة - الإجارة بالموض المجهول لا تجوز ؛ فإن ولادة النعم غير معلومة ، وإن من البلاد الخصب ما يعلم ولاد النعم فيها قطعا وعينها وسلامة سبيلها كديار مصر وغيرها ، يسد أن ذلك لا يجوز في شرعنا ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الغر ، ونهى عن المضامين والملاقيح . والمضامين ما في بطون الإناث ، والملاقيح ما في أصلاب الفحول وعلى خلاف ذلك قال الشاعر :

• مَلْقُوحَةٌ فِي بَطْنِ نَابِ حَامِلٍ •

وقد مضى في سورة « الحجر » بيانه . على أن واشد بن معمر أجاز الإجارة على النعم بالثلث والربع . وقال ابن سيرين وعطاء : ينسج الثوب بنصيب منه ؛ وبه قال أحمد .

التاسعة عشرة - الكفاءة في النكاح معتبرة ؛ وأختلف العلماء هل في الدين والمال والحسب ، أو في بعض ذلك . والصحيح جواز نكاح الموالى للعريبات والقرشيات ؛ لقوله تعالى : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ » . وقد جاء موسى إلى صالح مدين غريبا طريدا خائفا وحيدا جالعا عريانا فأنكحه أبنته لما تحقق [من دينه ^(١)] ورأى من حاله ؛ وأعرض عما سوى ذلك . وقد تقدمت هذه المسئلة مستوعبة والحمد لله .

المئوية عشرين - قال بعضهم : هذا الذي جرى من شعيب لم يكن ذكرا لصداق المرأة ، وإنما كان اشتراطا لنفسه على ما يفعله الأعراب ؛ فإنها تشتتر صدق بناتها ؛ وتقول : لي كذا في خاصة نفسي ، وترك المهر مفوضا ؛ ونكاح التفويض جائز . قال ابن العربي : هذا الذي تفعله الأعراب هو حلوان وزيادة على المهر ، وهو حرام لا يليق بالأنبياء ؛ فأما إذا اشترط الولي شيئا لنفسه ، فقد اختلف العلماء فيما يخرجه الزوج من يده ولا يدخل في يد المرأة على قولين : أحدهما - أنه جائز . والآخر - لا يجوز . والذي يصح عندى التقسيم ؛ فإن المرأة لا تخلو أن تكون بكرا أو ثيبا ؛ فإن كانت ثيبا جاز ؛ لأن نكاحها

(١) راجع ج ١٠ ص ١٧ وما بعدها طبعه أول أو ثانية .

(٢) الزيادة من « أحكام القرآن لابن العربي » .

بيدها ، وإنما يكون للولى مباشرة العقد ، ولا يتمتع أخذ العوض عليه كما يأخذه الوكيل على عقد البيع . وإن كانت بكرا كان العقد بيده ، وكأنه عوض في النكاح لنسب الزوج وذلك باطل ؛ فإن وقع فسخ قبل البناء ، وثبت بعده على مشهور الرواية . والحمد لله .

الحادية والعشرون — لما ذكر الشرط وأقبحه بالطوع في العشر نخرج كل واحد منهما على حكمه ، ولم يلحق الآخر بالأول ، ولا أشرت في الفرض والطوع ؛ ولذلك يكتب في العقود الشروط المتفق عليها ، ثم يقال وتطوع بكذا ، فيجوز الشرط على سبيله ، والطوع على حكمه ، وتفصل الواجب من التطوع . وقيل : ومن لفظ شعيب حسن في لفظ العقود في النكاح أنكم إياها أولى من أنكحها إياه على ما يأتي بيانه في « الأحزاب » . وجعل شعيب الثانية الأعراف شرطا ، ووكل العاشرة إلى المروءة ،

الثانية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ قَالَ ذَلِكَ بَنِيَّ وَبَيْنَكَ أَيُّهَا الْأَجْلَيْنِ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ﴾ لما فرغ كلام شعيب فزوره موسى عليه السلام وكرر معناه على جهة التوثيق في أن الشرط إنما وقع في ثمان يجمع . و « أيما » استفهام منصوب بـ « قَضَيْتُ » و « الْأَجْلَيْنِ » غفوض بإضافة « أى » إليهما و « ما » صلة للتأكيد وفيه معنى الشرط وجوابه « فَلَا عُدْوَانَ » وأن « عُدْوَانَ » منصوب بـ « لا » . وقال ابن كيسان : « ما » في موضع خفض بإضافة « أى » إليها وهي نكرة و « الْأَجْلَيْنِ » بدل منها . وكذلك قوله : « قَيَّارْتَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ » أى رحمة بدل من ما ؛ قال مكي : وكان يتلطف في ألا يجعل شيئا زائدا في القرآن ، ويخرج له وجهان يخرجهما من الزيادة . وقرأ الحسن « أَيُّمَا » بسكون الياء . وقرأ ابن مسعود « أَيْ الْأَجْلَيْنِ مَا قَضَيْتُ » . وقرأ الجمهور « عُدْوَانَ » بضم العين . وأبو حيوة بكسرهما ؛ والمعنى : لا تبعة على ولا طلب في الزيادة عليه . والمدونان معاوذا في غير الواجب ، والجمع السنون . قال الشاعر^(١) :

لمن الديار بقنة الحجر * أفوين من يجمع ومن دهر

(١) معز بن أبي سلمى . ويرى : ومن شهر .

الواحدة حجة بكسر الحاء . (وَأَنَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ) قيل : هو من قول موسى . وقبل : هو من قول والد المرأة . فاكفى الصالحان صلوات الله عليهما في الإشهاد عليهما بالله ولم يشهدا أحدا من الخلق ، وقد اختلف العلماء في وجوب الإشهاد في النكاح ، وهي :

الثالثة والعشرون — على قولين : أحدهما أنه لا ينعقد إلا بشاهدين . وبه قال أبو حنيفة والشافعي . وقال مالك : إنه ينعقد دون شهود ، لأنه عقد معاوضة فلا يشترط فيه الإشهاد ، وإنما يشترط فيه الإعلان والتصریح ، وفرق ما بين النكاح والسفاح الذف . وقد مضت هذه المسئلة في « البقرة » مستوفاة . وفي البخارى عن أبي هريرة : أن رجلا من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يسلفه ألف دينار فقال آيتى بالشهداء أشهدهم ، فقال كفى بالله شهيدا ، فقال آيتى بكفلا ، فقال كفى بالله كفيلًا . قال صدقت فدفعها إليه ، وذكر الحديث .

قوله تعالى : فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ) قال سعيد بن جبير : سألني رجل من النصارى أى الأجلين قضى موسى . فقلت : لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله — يعنى ابن عباس — فقدمت عليه فسأله ، فقال : قضى أكلهما وأوقاهما . فأعادت النصارى فقال : صدق والله هذا العالم . وروى من ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل في ذلك جبريل فأخبره أنه قضى عشرين سنين . وحكى الطبري عن مجاهد أنه قضى عشرين وعشرين بعداه ، قال ابن عطية : وهذا ضعيف .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ قيل فيه دليل على أن الرجل يذهب بأهله حيث شاء ؛ لماله عليها من فضل القوامية وزيادة الدرجة إلا أن يلزم لها أميرا فالمؤمنون عند شروطهم ، وأحق الشروط أن يوفى به ما استحلتم به الفروج .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ آتَيْنَا مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾ الآية . تقدم القول في ذلك في « طه » . والحذوة بكسر الجيم قراءة العامة ، ومنها حزة ويحيى ، وفتحها عاصم والسامى وزر بن حبيش . قال الجوهري : الحذوة والحذوة والحذوة الحجر الملتبته والجمع جدًا وجذاً وجذاً . قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ ﴾ أى قطعة من الحجر ؛ قال : وهى بلغة جميع العرب . وقال أبو عبيدة : والحذوة مثل الخدمة وهى القطعة الفليضة من الخشب كان فى طرفها نار أولم يكن . قال ابن مقبل :

بَاتَتْ حَوَاطِبُ لَيْلٍ يَلْتَمِسْنَ لَهَا • بَزَلُ الْجَذَا قَبْرَ خَوَارٍ وَلَا دَعِيرٍ ^(١)

وقال :

وَأَلْقَى عَلَى قَيْسٍ مِنْ النَّارِ جَذْوَةً • شَدِيدًا عَلَيْهَا حَبِيبًا وَلَيْبِيبًا ^(٢)

قوله تعالى : فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِئَ إِلَىٰ آتَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا ﴾ يعنى الشجرة قدم ضميرها عليها . ﴿ نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ ﴾ « من » الأولى والثانية لابتداء الغاية ، أى آناه النداء من شاطئ الوادى من قبل الشجرة . و « مِنَ الشَّجَرَةِ » بدل من قوله « مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ » بدل الاشتغال ؛ لأن الشجرة كانت ثابتة على الشاطئ ، وشاطئ الوادى وشطه جانبه ، والجمع سُطُحٌ وشواطئ ، ذكره القشيري . وقال الجوهري : ويقال شاطئ الأودية ولا يجمع . وشاططات الرجل إذا مشيت على شاطئ

(١) انظر هذه الورد الذى يتصف بالله عز وجل الذى إذا وضع على النار لم يستتر ويدخن .

• شديدا عليها حرما والليبا •

(٢) ويرى :

ومشى هو على شاطئ آخر . (الآيَتَيْنِ) أى عن يمين موسى . وقيل عن يمين الجبل .
 (فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ) وقرأ الأنشوب العقيل « فِي الْبُقْعَةِ » ففتح الباء . وقولهم يقاع يدل على
 بقعة ؛ كما يقال جفنة زجفان . ومن قال بقعة قال يقع مثل غُرْفَةٍ وَغُرْف . (مِنَ الشَّجَرَةِ)
 أى من ناحية الشجرة . قيل كانت شجرة التَّيِّق . وقيل شجرة عَوْسَج . ومنها كانت
 عصاه ؛ ذكره الزخشرى . وقيل : عُنَاب ، والعَوْسَج إذا عظم يقال له الفرقد . وفي الحديث :
 إنه من شجر اليهود فإذا نزل عيسى وقتل اليهود الذين مع الدجال فلا يمتحن أحد منهم خلف
 شجرة إلا نطقت وقالت يا مسلم هذا يهودى ورأى تعالى قاتله إلا الفرقد فإنه من شجر اليهود
 فلا ينطق . نخرجه مسلم . قال المهدوى : وكلم الله تعالى موسى عليه السلام من فوق عرشه
 وأسمعه كلامه من الشجرة على ما شاء . ولا يجوز أن يوصف الله تعالى بالانتقال والزوال
 وشبه ذلك من صفات المخلوقين . قال أبو المعالى : وأهل المعالى وأهل الحق يقولون من
 شكله الله تعالى وخصه بالرتبة العليا والغاية القصوى ، فيدرك كلامه القديم المقدس عن مشاهة
 الحروف والأصوات والنباتات والنفثات وضروب اللغات ، كما أن من خصه الله بمنازل
 الكرامات وأكل عليه نعمته ، ودزقه رؤيته يرى الله سبحانه مزجها عن مماثلة الأجسام
 وأحكام الحوادث ، ولا مثل له سبحانه في ذاته وصفاته ، وأجمعت الأمة على أن الرب تعالى
 خصص موسى عليه السلام وغيره من المصطفين من الملائكة بكلامه . قال الأستاذ
 أبو إسحق : آتفق أهل الحق على أن الله تعالى خلق في موسى عليه السلام معنى من المعانى
 أدرك به كلامه كان اختصاصه في سماعه ، وأنه قادر على مثله في جميع خلقه . وأختلفوا
 في نيابة عليه السلام هل سمع ليلة الإسماء كلام الله ، وهل سمع جبريل كلامه على قولين ؛
 وطريق أحدهما النقل المقطوع به وذلك مفقود ، وآتفقوا على أن سماع الخلق له عند قراءة
 القرآن على معنى أنهم سمعوا العبارة التى صرفوا بها معناه دون سماعه له في عينه . وقال عبد الله
 ابن سعد بن كلاب : إن موسى عليه السلام فهم كلام الله القديم من أصوات مخلوقة أنبتها
 الله تعالى في بعض الأجسام . قال أبو المعالى : وهذا مردود ؛ بل يجب اختصاص موسى

عليه السلام بإدراك كلام الله تعالى نعرفا للعادة ، ولو لم يُقَلْ ذلك لم يكن لموسى عليه السلام اختصاص بتكليم الله إياه . والرب تعالى أسمعه كلامه العزيز ، وخلق له علما ضروريا ، حتى علم أن ما سمعه كلام الله ، وأن الذي كلمه وناداه هو الله رب العالمين . وقد ورد في الأفاضيل أن موسى عليه السلام قال : سمعت كلام ربي بجميع جوارحي ، ولم اسمعه من جهة واحدة من جهاتي . وقد مضى هذا المعنى في « البقرة » مستوف . (أَنْ يَأْمُوسَى) « أَنْ » في موضع نصب بخرف الجر أى بـ « أَنْ يَأْمُوسَى » . (إِنْ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) تى لربوبية غيره سبحانه . وصار بهذا الكلام من أصفاء الله عز وجل لا من رسله ، لأنه لا يصير رسولا إلا بعد أمره بالرسالة ، والأمر بها إنما كان بعد هذا الكلام .

قوله تعالى : (وَأَنْ أَلْتِي عَصَاكَ فَلَمَّا رَأَتْهَا نُهَزَّ نَهْزًا جَانًّا وَلَمَّا مَدَّيْهَا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَسْأَلُ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ) (٤١)

قوله تعالى : (وَأَنْ أَلْتِي عَصَاكَ) عطف على « أَنْ يَأْمُوسَى » وتقدم الكلام في هذا في « النمل » و « طه » . و (مُدَّيْهَا) نصب على الحال وكذلك موضع قوله : (وَلَمْ يُعَقِّبْ) نصب على الحال أيضا . (يَأْمُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ) قال وهب : قيل له أرجع إلى حيث كنت . فرجع فأبى دُرَاعُضَهُ على يده ، فقال له الملك : أرايت إن أراد الله أن يصيبك بما تحاذر أنيفمك فأك يدك ؟ قال : لا ولكنى ضعيف خلقت من ضعف . وكشف يده فادخلها في قم الحية فعادت عصا . (إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ) أى مما تحاذر .

قوله تعالى : (أَسْأَلُكَ بِدَعَايِكَ فِي جَنَّتِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاسْتَمِعْ لِمَا أَلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذُنُوكَ بِرُحْنَانٍ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) (٤٢) قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا

(١) راجع ج ١ ص ٣٠٤ طية ثانية أرواثة .

(٢) الدابة : ضرب من الثياب التى تلبس . وقيل جبة مشققة القدم .

فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٦﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ
رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٧﴾ قَالَ سَنُنْصُدُ عَصَاكَ بِأَخِيكَ
وَنَجْعَلُ لَكَ مُلْكُنَا فَلَا يَصْلُونَ إِلَيْكَ بِعَايَتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَا
الْقَلِيلُونَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : (أَسْأَلُكَ فِي جَيْبِكَ) الآية ، تقدم القول فيه . (وَأَضْمُّ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ
مِنَ الرَّعْبِ) « من » متعلقة بـ « حَتَّى » أى ولى مدبرا من الرب . وقرأ حفص والساجي
ومسي بن عمر وابن أبي إسحق « مِن الرَّعْبِ » بفتح الراء وإسكان الهاء . وقرأ ابن عامر
والكوفيون إلا حفص بضم الراء وجرم الهاء . الباقون بفتح الراء والهاء . وأخبره أبو عبيد
وأبو حاتم ، لقوله تعالى : « وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا » وكلاهما لغتان وهو بمعنى الخوف ،
والمعنى إذا هالكت أسمر يدك وشعاعها فأدخلها في جيبك وأرددها إليه تمد كما كانت . وقيل :
أمره الله أن يضم يده إلى صدره فيذهب عنه خوف الحية . عن مجاهد وغيره ورواه
الضحاك عن ابن عباس ، قال فقال ابن عباس : ليس من أحد يدخله رعب بعد موسى
عليه السلام ، ثم يدخل يده فيضمها على صدره إلا ذهب عنه الرعب . ويحكى عن عمر بن
عبد العزيز رحمه الله أن كاتباً كان يكتب بين يديه ، فأفلتت منه فنة ريح ففجل وانكسر ،
فقام وضرب بقلبه الأرض . فقال له عمر : خذ قلمك وأضم إليك جناحك ، ليفرج روعك
فإنى ما سمعتها من أحد أكثر مما سمعتها من نفسي . وقيل : المعنى أضمت يدك إلى صدرك
ليذهب الله ما في صدرك من الخوف ، وكان موسى يرتعد خوفاً إما من آل فرعون وإما من
التيهان . وضم الجناح هو السكون ، كقوله تعالى : « وَأَخْفِضْ هُما جَنَاحَ الذِّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ »
يريد الرقي . وكذلك قوله : « وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » أى أرفق بهم .
وقال الفراء : أراد بالجناح عصاه . وقال بعض أهل المعاني : الرعب الكم بلفظة حمير
وبني حنيفة . قال مقاتل : سألني أعرابية شيئاً وأنا أكل فلألت الكف وأومأت إليها

فقلت : ها هنا في رهي . تريد في شئ . وقال الأصمعي : سمعت أعرابيا يقول لآخر أعطني رهبك . فسأله عن الرهب فقال : الكم ؛ فعلى هذا يكون معناه أضخم إليك يدك وأخرجها من الكم ؛ لأنه تناول العصا ويده في كمه وقوله : « أَسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْكِ » يدل على أنها اليد اليمنى ؛ لأن الجيب على اليسار . ذكره القشيري .

قلت : وما فسروه من ضم اليد إلى الصدر يدل على أن الجيب موضعه الصدر . وقد مضى في سورة « النور »^(١) بيانه . الرخشري : ومن بدع التفسير أن الرهب الكم بلغة حمير وأنهم يقولون أعطني مما في رهبك ؛ وليت شعري كيف صحته في اللغة ! وهل سمع من الإثبات الثقات الذين ترضى عربيتهم ، ثم ليت شعري كيف موقعه في الآية ، وكيف تطبيقه المفصل كسائر كلمات التنزيل ؛ هل أن موسى صلوات الله عليه ما كان عليه ليلة المناجاة إلا زُرْمَانَةً من صوف لأكين لها . قال القشيري : وقوله « وَأَخْضَمُّ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ » يريد اليدين إن قلنا أراد الأمن من فزع الثعبان . وقيل : « وَأَخْضَمُّ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ » أي شمر وأستعد لتحمل أعباء الرسالة .

قلت : فعل هذا قيل « إِنْكَ مِنَ الْآمِنِينَ » أي من المرسلين ؛ لقوله تعالى : « إِنْ لَيْ لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ » . قال ابن بحر : فصار على هذا التأويل رسولا بهذا القول . وقيل إنما صار رسولا بقوله : « فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَآلِهِ » والبرهان اليد والعصا . وقرا ابن كثير بتشديد النون وخففها الباقون . وروى أبو عمارة عن أبي الفضل عن أبي بكر عن ابن كثير ، « فَذَانِكَ » بالتشديد والياء . وعن أبي عمرو أيضا قال لغة هذيل « فَذَانِكَ » بالتحفيف والياء . ولغة قريش « فَذَانِكَ » كما قرأ أبو عمرو وابن كثير . وفي تلبله خمسة أحوال : قيل شدد النون عوضا من الألف الساقطة في ذاك الذي هو تنبيه ذا المرفوع ، وهو رفع بالابتداء ، وألف ذا محذوفة لدخول ألف التنبيه عليها ، ولم يفت إلى التقاء الساكنين ؛ لأن أصله فذانك لحذف الألف الأولى عوضا من النون الشديدة . وقيل :

(١) راجع ج ١٢ ص ٢٢١ طيبة أمم أدبية .

(٢) الزرماناة : بجة من صوف ؛ وهي بحجة مربية .

التشديد للتأكيد كما أدخلوا اللام في ذلك . مكى : وقيل إن من شدد إنما بناء على لغة من قال في الواحد ذلك ، فلما بني أثبت اللام بعد نون التثنية ، ثم أدخلوا اللام في النون على حكم الإدغام الثاني في الأول ، والأصل أن يدغم الأول أبدا في الثاني ، إلا أن يمنع من ذلك علة فيدغم الثاني في الأول ، والعلة التي منعت في هذا أن يدغم الأول في الثاني أنه لو فعل ذلك لصار موضع النون التي تدل على التثنية لام مشددة فيغير لفظ التثنية فأدغم الثاني في الأول لذلك ، فصار نونا مشددة . وقد قيل : إنه لما تنافى ذلك أثبت اللام قبل النون ثم أدخلوا الأول في الثاني على أصول الإدغام فصار نونا مشددة . وقيل : شددت فرقا بينها وبين الظاهر التي تسقط الإضافة نونه ، لأن ذان لا يضاف . وقيل : للفرق بين الاسم المتمكن وبينها . وكذلك العلة في تشديد النون في « الذان » و « هذان » . قال أبو عمرو : إنما أخص أبو عمرو هذا الحرف بالتشديد دون كل تثنية من جنسه لقلته حروفه فقرأه بالتثنية . ومن قرأ « قَدَانِيكَ » بياء مع تخفيف النون فالأصل عنده « قَدَانُكَ » بالتشديد فأبدل من النون الثانية بياء كراهية التضعيف ، كما قالوا : لا أملأه في لاء الله فأبدلوا اللام الثانية ألفا ومن قرأ بياء بعد النون الشديدة فوجهه أنه أشبع كسرة النون فتولدت عنها الياء . قوله تعالى : (فَأَرْسَلْهُ مَعَ رِبِّهِ) يعني معينا مشتق من أردأته أى أعنته . والردة العون . قال الشاعر :

الم ترأة أضرمَ كَانُ رِدْئِي • وخيرَ الناسِ في قُلٍّ ومالٍ

النحاس : وقد أردأه وردأه أى أهانته وترك همزه تخفيفا . وبه قرأ نافع وهو بمعنى المهموز . قال المهدوى : ويجوز أن يكون ترك الهمز من قولهم أردى على المسائة أى زاد عليها ، وكان المعنى أرسله معي زيادة في تصديق . قاله مسلم بن جنب ، وأشد قول الشاعر :

واسمُ خَطِيئَةٍ كَانَتْ كُصُوبُهُ • نَوَى الْقَسْبَ قَدْ أَرْدَى ذِرَاعًا عَلَى الْعُشْرِ

كذا أنشد الماوردي هذا البيت : قد أردى . وأنشده الغزنوي والموهري في الصحاح قد أرمى^(١) ، قال : والقسب الصلب ، والقسب تمر يابس يتفتت في الفم صلب النواة . قال

(١) أرمى وأرمى لثان .

يصف ربحاً : وأمير . البيت . قال الجوهري : ردؤ الشيء : ردؤ رداة فهو ردئ . أى فاسد ، وأردأته أفسدته ، وأردأته أيضاً بمعنى أعتبه ، تقول : أردأته بنفسى أى كنت له رديماً وهو العون . قال الله تعالى : « فَأَرْسَلْهُ مَعَ رَدْمٍ يُصَدِّقُنِي » . قال النحاس : وقد حكى رداة : رديماً وجمع رديه أرداء . وقرأ عاصم وحمة « يُصَدِّقُنِي » بالرفع . وجرم الباقون ، وهو اختيار أبى حاتم على جواب الدعاء . واختار الرفع أبو عبيد على الخال من الماء فى « أرسله » أى أرسله رديماً مصدقاً حالة التصديق ، كقوله : « أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ » أى كائنة ، حال صرف إلى الاستقبال . ويجوز أن يكون صفة لقوله : « رديماً » . (إِلَى أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ) إذا لم يكن لى وزير ولا معين ، لأنهم لا يكادون يفقهون عنى ، ذ (قَالَ) الله جل وعز له : (سَلِّدْ عَصُدَكَ بِأَخِيكَ) أى تقويك به ، وهذا تمثيل ، لأن قوة اليد بالمضيد . قال طرفة :

فَإِنِّي لَسَمْتُ بَيْدِي * إِلَّا يَدًا لَيْسَتْ لَنَا عُصْدَ

ويقال فى دعاء الخير : شد الله عضدك ، وفى ضده : فت الله فى عضدك . (وَجَعَلَ لَكُمُ سُلْطَانًا) أى حجة وبرهاناً . (فَلَا يَصْلَوْنَ إِلَيْكَ) بالاذى (بِآيَاتِنَا) أى تمتنان منهم « بِآيَاتِنَا » فيجوز أن يوقف على « إِلَيْكَ » ويكون فى الكلام تقديم وتأخير . وقيل : التقدير « أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمْ الْغَالِبُونَ » بآياتنا . قاله الأخفش والطبرى . قال المهدوى : وفى هذا تقديم الصلة على الموصول ، إلا أن يقدّر أنتم غالبان بآياتنا أنتم ومن اتبعكم الغالبون . وعنى بالآيات سائر معجزاته .

قوله تعالى : فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيَّنَّتْ قُلُوبُهُمْ مَا هَلَكُوا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّى أَعْلَمُ بِمَنِ جَاءَ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٦﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْتِيَانَا أَلْمَاءٌ مَا عَلِمْتُ لَكُم

مِنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقَدْ لِي يَهْلِمَنَّ عَلَى الْطِينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي
أَطْلُعُ إِلَا إِلَهَ مُوسَى وَإِلَى الْأُظُنْمُ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَأَسْتَكَبَرُ
هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ يَغْيِرُ الْحَقَّ وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾
فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾
وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يَنْصُرُونَ ﴿٤١﴾
وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾
قوله تعالى : (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ) أى ظاهرات واضحات (قَالُوا
مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُقْتَرَى) مكتوب غثاق (وَمَا نَحْنُ بِهَذَا فِي آيَاتِنَا الْأُولَى) . وقيل :
إن هذه الآيات ما احتج به موسى في إثبات التوحيد من الصحيح العقلية . وقيل :
هى معجزاته .

قوله تعالى : (وَقَالَ مُوسَى) قراءة العامة بالواو . وقرا مجاهد وابن كثير وابن عباس
« قال » بلا واو ، وكذلك هو في مصحف أهل مكة . (رَبِّي أَكْبَرُ مِنْ جَاءِ الْفُتْدَى)
أى بالرشاد . (مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ) قرأ الكوفيون إلا حصا « يكون » بآياء والبايون
بأناه . وقد تقدم هذا . (حَاقَبَةُ الدَّارِ) أى دار الجزاء . (إِنَّهُ) الهاء ضمير الأمر والشان
(لَا يَطْلُعُ الظَّالِمُونَ) .

قوله تعالى : (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي) قال ابن عباس :
كان بينا وبين قوله « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى » أربعون سنة ، وكذب عدو الله بل علم أن له ثم ربا
هو خالقه وخالق قومه « وَلَكِنْ سَأَلْتُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » . قال : (فَأَوْقَدْ لِي يَاهَامَانُ
عَلَى الطِّينِ) أى أطلع لى الآجر ، عن ابن عباس رضى الله عنه . وقال قتادة : هو أول
من صنع الآجر ، وبني به . ولما أمر فرعون وزيره هامان ببناء الصرح جمع هامان الهال
- قيل خمسين ألف بناء سوى الأتباع والأجراء - وأمر بطبخ الآجر والبصص ، ونشر الخشب ،

وضرب المسامير ، فبنوا ورفعوا البناء وشيدوه بحيث لم يبلغه بنيان منذ خلق الله السموات والأرض ، فكان الباني لا يقدر أن يقوم على رأسه ، حتى أراد الله أن يفتنهم فيه . فحكى السدي أن فرعون صعد السطاح ورمى بثبابة نحو السماء ، فرجعت مطلخة بدماء ، فقال قد قتلت إله موسى . فروى أن جبريل عليه السلام بعثه الله تعالى عند مقاتله ، فضرب الصرح بجناحه فقطعه ثلاث قطع ، قطعة على عسكر فرعون قتلت منهم ألف ألف ، وقطعة في البحر ، وقطعة في النرب ، وهلك كل من عمل فيه شيئا . والله أعلم بصحة ذلك . (وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ) الظن هنا شك ، فكفر على الشك ؛ لأنه قد رأى من البراهين ما لا يحصى^(١) على ذي غطرة .

قوله تعالى : (وَأَسْتَكْبِرُ) أى تعظم (هُوَ وَجُنُودُهُ) أى عن الإيمان بموسى . (فِي الْأَرْضِ بغيرِ الْحَقِّ) أى بالعندوان ، أى لم تكن له حجة تدفع ما جاء به موسى . (وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِنَّا لَا يَرْجِعُونَ) أى توهموا أنه لا معاد ولا بهت . وقرأ نافع وابن محسن وشيبة وحيد وبعقوب وحزمة والكسافي « لَا يَرْجِعُونَ » بفتح الياء وكسر الجيم على أنه مسمى الفاعل . الباقر « يَرْجِعُونَ » على الفعل المجهول . وهو اختبار أبي عبيد ، والأول اختبار أبي حاتم . (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ) وكانوا ألفي ألف وستمائة ألف . (فَجَعَلْنَاهُمْ فِي النَّارِ) أى طرحتهم في البحر المسالخ . قال قتادة : بحر من وراء مصر يقال له إساف أغرقهم الله فيه . وقال وهب والسدي : المكان الذى أغرقهم الله فيه بناحية القلزم يقال له بطن مَرِيْرَة ، وهو إلى اليوم غضبان . وقال مقاتل : معنى نهر النيل . وهذا ضعيف والمشهور الأول . (فَأَنفَرُوا) باعد (كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) أى آخر أمرهم . (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً) أى جعلناهم زعماء يتبعون على الكفر ، فيكون عليهم وزرهم ووزر من أتبعهم حتى يكون عقابهم أكثر . وقيل : جعل الله الملائكة من قومه رؤساء السفلة منهم ، فهم يَدْعُونَ إلى جهنم . وقيل : أئمة ياتم بهم ذوو العبر ويتعظ بهم أهل البصائر . (يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ) أى إلى عمل أهل

(١) لا يحصى : أى لا يشك .

النار (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ) . (وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً) أى أمرنا العباد
 بلعنهم فمن ذكركم لعنهم . وقيل : أى ألزمتهم اللعن أى البعد عن الخير . (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ
 هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ) أى من المهلكين المقوتين . قاله ابن كيسان وأبو عبيدة . وقال
 ابن عباس : المشوهين الخلقة بسواد الوجه وزرقة العين . وقيل من المبعدين . يقال فبّعه
 الله أى نجاه من كل خير ، وقبّعه وقبّعه إذا جعله قبيحا . وقال أبو عمرو قبّحت وجهه
 بالتخفيف معناه قبّحت ، قال الشاعر :

أَلَا قَبِيحَ اللَّهِ الْبَرَايِمَ كُلُّهَا • وَقَبِيحَ رُبُوعَا وَقَبِيحَ دَارِنَا

وأتصّب يوما على الحمل على موضع « في هذه الدنيا » وأسئني من - حرف المطف في قوله :
 « مِنَ الْمَقْبُوحِينَ » كما أسئني عنه في قوله : « سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةً رَأَيْمُهُمْ كُلُّهُمْ » . ويجوز أن
 يكون العامل في « يوم » مضمرًا يدل عليه قوله : « هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ » فيكون كقوله
 « وَيَوْمَ يَوْمَ الْمَلَائِكَةِ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ » . ويجوز أن يكون العامل في « يوم »
 قوله : « هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ » وإن كان الظرف متقدما . ويجوز أن يكون مفعولا على السعة ،
 كأنه قال : وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ولعنة يوم القيامة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا
 الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَاحًا لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٢٧﴾

قوله تعالى : (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ) يعنى التوراة ؛ قاله قتادة . قال يحيى بن
 سلام : هو أول كتاب - يعنى التوراة - نزلت فيه العرائض والحدود والأحكام . وقيل :
 الكتاب هنا ست من المثاني السبع التي أنزلها الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ؛ قاله
 ابن عباس ، ورواه معروف . (مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى) قال أبو سعيد الخدري
 قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما أهلك الله قوما ولا قرنا ولا أمة ولا أهل قرية بمذاب
 من السماء ولا من الأرض منذ أنزل الله التوراة على موسى غير القرية التي مسخت قرودة المتمر
 إلى قوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى » »

أى من بعد قوم نوح وعاد وثمود . وقيل : أى من بعد ما أغرقنا فرعون وقومه وخسفنا بقارون . (بَصَارٌ لِلنَّاسِ) أى آياتنا الكتاب بصائر . أى ليقبصوا (وَهَدَى) أى من الضلالة لمن عمل بها (وَرَحْمَةً) لمن آمن بها . (لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) أى ليدذكروا هذه النعمة فيقيموا على إيمانهم فى الدنيا ، ويتقوا بها يومهم فى الآخرة .

قوله تعالى : وَمَا كُنْتُ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْتُنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتُ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا مُرْسِلِينَ ﴿١٥﴾
قوله تعالى : (وَمَا كُنْتُ) أى ما كنت يا محمد (بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ) أى بجانب الجبل الغربى قال الشاعر :

أعطاك من أعطى الهدى النبيا • نوراً يزىن المنسب الغربى

(إِذْ قَضَيْتُنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ) إذ كفناه أمرنا وهبنا ، والزمانه عهدنا . وقيل : أى إذ قضيتنا إلى موسى أسرك وذكرك بخير ذكر . وقال ابن عباس : « إِذْ قَضَيْتُنَا » أى أخبرنا أن أمة محمد خير الأمم . (وَمَا كُنْتُ مِنَ الشَّاهِدِينَ) أى من الحاضرين .

قوله تعالى : (وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا) أى من بعد موسى (فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ) حتى نسوا ذكر الله أى عهده وأمره . نظيره : « فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ » . وظاهر هذا يوجب أن يكون جرى لبنينا عليه السلام ذكر فى ذلك الوقت ، وأن الله سمعته ، ولكن طالبت المدة ، وغلبت الفسوة ، ففسى القوم ذلك . وقيل : آتينا موسى الكتاب وأخذنا من قومه اليهود ، ثم تطاول العهد فكفروا ، فأرسلنا محمدا للدين وداعيا الخلق إليه . وقوله تعالى : (وَمَا كُنْتُ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ) أى مقبلا مقام موسى وشعيب بينهم . قال المصباح :

• فبات حيث يدخل الثوب •

أى الضيف المقم . وقوله : (تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا) أى تذكروهم بالوعد والوعيد . (وَلَكِنَّا مُرْسِلِينَ) أى أرسلناك فى أهل مكة ، وآتيناك كتابا فيه هذه الأخبار ، ولولا ذلك لما علمتها .

قوله تعالى : وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ
لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ أى كما لم تحضر جانب المكان
الغربي إذ أرسل الله موسى إلى فرعون ، فكذلك لم تحضر جانب الطور إذ نادينا موسى لما
أتى الميقات مع السبعين . وروى عمرو بن دينار يرفعه قال : « نودى يا أمة محمد أجبتكم قبل
أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني » فذلك قوله : « وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا » .
وقال أبو هريرة - وفى رواية عن ابن عباس - إن الله قال : « يا أمة محمد قد أجبتكم
قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني وغفرت لكم قبل أن تستغفرونى ورحمتكم قبل
أن تسترحمنى » قال وهب : وذلك أن موسى لما ذكر الله له فضل محمد وأمه قال : يا رب
أرنيهم . فقال الله : « إني لك لن تدرهم وإن شئت ناديتهم فأسمعتك صوتهم » قال : بلى يا رب ،
فقال الله تعالى : « يا أمة محمد » فاجابوا من أصلاب آبائهم . فقال : « قد أجبتكم قبل
أن تدعوني » ومعنى الآية على هذا ما كنت بجانب الطور إذ كلمنا موسى فنادينا أمتك وأخبرناه
بما كتبناه لك ولأمتك من الرحمة إلى آخر الدنيا . ﴿ وَلَكِنْ ﴾ قلنا ذلك ﴿ رَحْمَةً ﴾ منا بكم .
قال الأخفش : « رَحْمَةً » نصب على المصدر أى ولكن رحمتك رحمة . وقال الزجاج :
هو مفعول من أجله أى فعل ذلك بك لأجل الرحمة . النحاس : أى لم تشهد قصص الأنبياء ،
ولا نليت عليك ، ولكنا بمنالك وأوحيناها إليك للرحمة . وقال الكسائي : على خبر كان ؛
التقدير : ولكن كانت رحمة . قال : ويجوز الرفع بمعنى هى رحمة . الزجاج : الرفع بمعنى
ولكن يفعل ذلك رحمة . ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ يعنى العرب ؛
أى لم تشهد تلك الأخبار ، ولكن أوحيناها إليك رحمة بمن أرسلت إليهم لتنذرهم بها
﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

وأُزِلَ عليه القرآن جملة واحدة كالنوراة ، وكان بينهم ذلك من أمر موسى قبل عهد ، فقال الله تعالى : ﴿ أُولَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سَاحِرَانِ تَقَاهِرَا ﴾ (١) أى موسى وعهد تعاوننا على السحر . قال الكلبي : بنيت قريش إلى اليهود وسألوهم عن بعث عهد وشأنه فقالوا : إنا نجد في التوراة بنته وصفته . فلما رجع الجواب إليهم « قَالُوا سَاحِرَانِ تَقَاهِرَا » . وقال قوم : إن اليهود علموا المشركين ، وقالوا قولوا لمحمد لولا أوتيت مثل ما أوتي موسى ، فإنه أوتي التوراة دفعة واحدة . فهذا الاحتجاج وارد على اليهود ، أى أُولَمْ يَكْفُرُوا هؤُلاءِ اليهود بما أوتي موسى حين قالوا في موسى وهرون هما ساحران و ﴿ إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ ﴾ أى وإنا كافرون بكل واحد منهما . وقرأ الكوفيون « يَحْرَانِ » بنير ألف ، أى الإنجيل والفرقان . وقيل : التوراة والفرقان ، قاله الفراء . وقيل : التوراة والإنجيل . قاله أبو رزين . والباقيون « سَاحِرَانِ » بالف . وفيه ثلاثة أقاويل : أحدها - موسى وعهد عليهما السلام . وهذا قول مشركي العرب . وبه قال ابن عباس والحسن . الثاني - موسى وهرون . وهذا قول اليهود لما في ابتدء الرسالة . وبه قال سعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد . فيكون الكلام احتجاجا عليهم . وهذا يدل على أن المحذوف في قوله : « وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ لَمَا جَاءَدْنَا بِعَثَةِ الرِّسْلِ » لأن اليهود أعترفوا بالنبوات ولكنهم حرفوا وغيروا واستحقوا العقاب ، فقال : قد أكلنا إزاحة عندهم بعثة عهد صلى الله عليه وسلم . الثالث - عيسى وعهد صلى الله عليه وسلم . وهذا قول اليهود اليوم . وبه قال قتادة . وقيل : أُولَمْ يَكْفُرُوا جمع اليهود بما أوتي موسى في التوراة من ذكر المسيح ، وذكر الإنجيل والفرقان ، فأروا موسى وعهد ساحرين والكافرين .

قوله تعالى : قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١﴾ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَغْيِرْ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٣﴾

(١) قراءة تأني : « ساحران تقاهرا » وطبعا المصنف

قوله تعالى : (قُلْ فَأَتُوا بِكُتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَنْتُمُ) أى قل يا بعد إذ كفرتم . سمائر المشركين بهذين الكتابين « فَأَتُوا بِكُتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَنْتُمُ » ليكون ذلك عذرا لكم في الكفر (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) في أنهما يحمران . أو طائرا يكاتب هو أهدى من كتابي موسى وعهد عليهما السلام . وهذا يقوى قراءة الكوفيين « يحمران » . « أَنْتُمُ » قال الفراء : بالرفع ، لأنه صفة للكتاب وكتاب نكرة . قال : وإذا جرمت ... وهو الوجه .
فعل الشرط .

قوله تعالى : (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ) يا بعد أن أتوا بكتاب من عند الله (فَأَعْلَمْ أَنَّهُمْ) يَعْمُونَ أَعْمَاءُ » أى آراء قلوبهم وما يستحسنونه ويحببه لهم الشيطان ، وأنه لا حجة لهم . (وَمَنْ أَضَلُّ مِنْ أَتَبَعَ هَوَاهُ وَبَغَىٰ هُدَىٰ مِنَ اللَّهِ) أى لا أحد أضل منه (إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) .

قوله تعالى : (وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ) أى أتبعنا بمضيه بعضنا ، وبعثنا رسولا بعد رسول . وقرأ الحسن « وَصَّلْنَا » خففا . وقال أبو عبيدة والأخفش : معنى « وَصَّلْنَا » أتممنا كصالتك الشيء . وقال ابن عينة والسدي : بينا . وقاله ابن عباس ، وقال مجاهد : فصلنا . وكذلك كان يقرأها . وقال ابن زيد : وصلنا لم خبر الدنيا بخبر الآخرة حتى كأنهم في الآخرة في الدنيا . وقال أهل المعاني : والينا وتابنا وأزلنا القرآن تبع بعضه بعضا : وعدا وعيدا وقصصا وعبرا ونصائح ومواظع إرادة أن يتذكروا فيفلحوا . وأصلها من وصل الحبال بعضها ببعض . قال الشاعر :

فقل لبي مروان ما بال ذممة • وحبل ضعيف ما يزال يوصل^(١)

وقال آخر القيس :

دبر تكذوب الوليد أمره • تغلب كفيه بغيظ موصل^(٢)

(١) رواية البحر رويح المعاني : ما بال ذمقة • مجمل ... الخ

(٢) دبر : مستند في الصدور • يصف سرعة جرى فرسه . والتكذوب شيء يذوره الصبي في يده ويسمع له صوت ويسبب التلذذ . وأمره أحكم الله .

والضاحك في «هم» لقرش؛ عن مجاهد. وقيل: هو اليهود. وقيل: هو لهم جميعا. والآلة رد على من قال: هلا أوتي عهد القرآن بجملة واحدة. ﴿لَهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ قال ابن عباس: يتذكرون عهدا فيؤمنوا به. وقيل: يتذكرون فيخافوا أن يتزل بهم ما زل بمن قبلهم؛ قاله علي بن عيسى. وقيل: لهم يتعظون بالقرآن عن عبادة الأصنام. حكاه النحاس.

فَقِيلَ لَهُ : اَلَّذِيْنَ اٰتٰهُمْ اَلْكِتٰبَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُوْنَ ﴿٥٦﴾
وَإِذَا يُتْلٰى عَلَيْهِمْ قَالُوْا ءَاْمَنَّا بِهِ ؕ اِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَّبِّنَا ؕ اِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِيْنَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ أخبر أن قوماً من أتوا
الكتاب من بني إسرائيل من قبل القرآن يؤمنون بالقرآن ، كعبدة الله بن سلام وسلمان .
و يدخل فيه من أسلم من علماء النصارى ، وهم أربعون رجلا ، قدموا مع جعفر بن أبي طالب
المدينة ، أثنان وثلاثون رجلا من الحبشة ، وثمانية نفر أقبلوا من الشام وكانوا أئمة النصارى :
منهم بجراة الراهب وأبرهة والأشرف وطامر وأمين وإدريس ونافع . كذا سماهم الماوردى .
وأزل الله تعالى فيهم هذه الآية والتي بعدها «أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا» قاله
قنادة . وعنه أيضا : أنها نزلت في عبد الله بن سلام وتميم الداري والجارود البديي وسلمان
الفارسي ، أسلموا فنزلت فيهم هذه الآية . وعن رفاة القرظي : نزلت في عشرة أنا أحدهم .
وقال عروة بن الزبير : نزلت في النجاشي وأصحابه ووجه بأخى عشر رجلا بفلسوا مع النبي
صلى الله عليه وسلم ، وكان أبو جهل قريبا منهم ، فآمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فلما قاموا من عنده تبجحهم أبو جهل ومن معه ، فقال لهم : خيبتكم الله من ركب ،
ووقحتكم من وفد ، لم تلبثوا أن صدقتموه ، وما رأينا ربك أحق منك ولا أجهل ، فقالوا :
«سلام عليكم» ثم قال أنفسنا رشدا «لنا أعمالنا ولكم الأعمال» وقد تقدم هذا في «المائدة»⁽¹⁾

عند قوله : « وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ » مستوفى ، وقال أبو العالية : هؤلاء قوم آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث وقد أدركه بعضهم . (مِنْ قَبْلِهِ) أى من قبل القرآن . وقيل : من قبل عهد عليه السلام (هُمْ بِهِ) أى بالقرآن أو بمحمد عليه السلام (يُؤْمِنُونَ) . (وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبَّنَا) أى إذا قرئ عليهم القرآن قالوا صدقنا بما فيه (إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ) أى من قبل نزوله ، أو من قبل بعثه عليه السلام (مُسْلِمِينَ) أى موحدين ، أو مؤمنين بأنه سيبعث محمداً وينزل عليه القرآن .

قوله تعالى : أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ أَلَسَيْنَاهُ رِزْقَهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٥١﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِ الْجَاهِلِينَ ﴿٥٢﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا) ثبت في صحيح مسلم عن أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبي - صلى الله عليه وسلم - فأمن به وأتبعه وصدقه فله أجران وعبد مملوك أدى حق الله عز وجل وحق سيده فله أجران ورجل كانت له أمة ففداها فأحسن غذاها ثم أعتقها فأحسن أدبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران " قال الشعبي للخراساني : خذ هذا الحديث بغير شيء ، فقد كان الرجل يرسل فيما دون هذا إلى المدينة ، ويخرجه البخاري أيضاً ، قال علماؤنا : لما كان كل واحد من هؤلاء مخاطباً بأمرين من جهتين استحق كل واحد منهم أجرين ، فالكتابي كان مخاطباً من جهة نبيه ، ثم أنه خاطب من جهة نبينا فأجابته وأتبعه فله أجر الملتين ، وكذلك العبد هو مأمور من جهة الله تعالى ومن جهة سيده ، ورب الأمة لما قام بما خاطب به من تربته أتمته وأدبها ففقد أحياء إحياء القرية ، ثم إنه لما أعتقها وتزوجها أحياء الحزبية التي ألحقها فيسه بمنصبه ، فقد قام

بما أمر فيها ، فأجر كل واحد منهما أجرين . ثم إن كل واحد من الأجرين مضاعف في نفسه ، الحسنة بمشراؤها فتضاعف الأجور ، ولذلك قيل : إن العبد الذي يقوم بحق سيده وحق الله تعالى أفضل من الحر ، وهو الذي آرتضاه أبو عمر بن عبد البر وغيره . وفي الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " للعبد المملوك المصالح أجران " والذي نفس أبي هريرة بيده لولا الجهاد في سبيل الله والنجو برأى لأحبت أن أموت وأنا مملوك . قال سعيد بن المسيب : وبلغنا أن أبا هريرة لم يكن يحج حتى مات أمه لصحبته ، وفي الصحيح أيضا عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تمّا للملوك أن يتوفى يحسن عبادة الله ومحابة سيده تمّا له " .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ يَا صَبْرُوا ﴾ عام في صبرهم على ملتهم ، ثم على هذه وعلى الأذى الذي يلقيه من الكفار وغير ذلك .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ وَيَذَرُونَ الْحَسَنَةَ الْبَيْتَةَ ﴾ أى يدفعون . درأت إذا دفعت ، والذرة الذرة . وفي الحديث " آذروا الحدود بالشبهات " . قيل : يدفعون بالأحتال والكلام الحسن الأذى . وقيل : يدفعون بالثوبة والاستغفار الذنوب ؛ وعلى الأول فهو وصف لمكارم الأخلاق ؛ أى من قال لم سوء لا ينوه وقابله من القول الحسن بما يدفعه . فهذه آية مهادنة ، وهى من صدر الإسلام ، وهى مما نسختها آية السيف وبقي حكمها فيما دون الكفر يتعاطاه أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة . ومنه قوله عليه السلام لمأذ " وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالف الناس بخلاف حسن " ومن الخلق الحسن دفع المكره والأذى ، والصبر على الخفا بالإعراض عنه ولين الحديث .

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أنى عليهم بأنهم ينفقون أموالهم فى الطاعات وفى رسم الشرع ، وفى ذلك حض على الصدقات . وقد يكون الإتفاق من الأبدان بالصوم والصلاة ؛ ثم مدحهم أيضا على إعراضهم عن اللغو ؛ كما قال تعالى : « وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا » أى إذا سمعوا أقال لهم المشركون من الأذى والشتم أعرضوا

عنه ؛ أى لم يشغلوا به ﴿ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أى متاركة؛ مثل قوله : « وَإِذَا حَاطَبُهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » أى لنا ديننا ولكم دينكم . « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » أى أمانا لكم منا فإنه لا نحاربكم ، ولا نسابكم ، وليس من التحية فى شيء . قال الزجاج : وهذا قبل الأمر بالقتال . ﴿ لَا تَنْتَفِي الْجَاهِلِينَ ﴾ أى لا نطلبهم للجدال والمراجعة والمشاتمة .
قوله تعالى : إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ^ط
وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ قال الزجاج : أجمع المسلمون على أنها نزلت فى أبى طالب .

قلت : والصواب أن يقال أجمع جل المفسرين على أنها نزلت فى شان أبى طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو نص البخارى ومسلم ، وقد تقدم ذلك فى « برائة »^(١) . وقال أبو روف قوله : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ إشارة إلى العباس . وقاله قتادة . ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ قال مجاهد : لمن قدر له أن يهتدى . وقيل : معنى « مَنْ أَحْبَبْتَ » أى من أحببت أن يهتدى . وقال جبير بن مطعم : لم يسمع أحد الوحي يلقى على النبي صلى الله عليه وسلم إلا أبا بكر الصديق فإنه سمع جبريل وهو يقول : يا محمد اقرأ « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » .

قوله تعالى : وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ أَهْدَىٰ مَعَكَ تُنْخَطِفُ مِنَ الْأَرْضِ نَفْلًا^ط
أَوَّلَ مَنْ تَنَاجَىٰ هُمْ حَرَمًا ءَامِنًا تَجِبَىٰ إِلَيْهِ تَمَرْتُ كُلِّ شَيْءٍ رَزَقْنَا مِنْ لَدُنَّا
وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ وَكَرَّ أَهْلُكَ مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا^ط
فَتِلْكَ مَسْكَنُهُمْ لَا يَنْسُكُونَ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكَأَنَّ آلَ زُرَّارٍ^ط ﴿٥٧﴾

(١) راجع ج ٨ ص ٢٧٢ وما بعدها طيبة أول أرثانية .

قوله تعالى: (وَقَالُوا إِنَّا تَبِيعَ الْهَدْيَ مَعَكَ فُخْطَفَ مِنْ أَرْضِنَا) هذا قول مشركي مكة . قال ابن عباس : قائل ذلك من قريش الحارث بن عثان بن نوفل بن عبد مناف القرشي ، قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إنا لنعلم أن قولك حق ، ولكن نبتغي أن تبقي الهدى معك ، ونؤمن بك ، مخافة أن يخطفنا العرب من أرضنا — يعني مكة — لأجتماعهم على خلافنا ، ولا طاقة لنا بهم . وكان هذا من تعالاهم ، فأجاب الله تعالى عمداً به فقال : (أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ حُرْمًا آيَةٌ) أي ذا أمن . وذلك أن العرب كانت في الجاهلية يغير بعضهم على بعض ، ويقتل بعضهم بعضاً ، وأهل مكة آمنون حيث كانوا بحرمه الحرم ، فأخبر أنه قد أقمهم بحرمه البيت ، ومنع عنهم عدوهم ، فلا يخافون أن تستحل العرب حرمة في قتالهم . والتخطف الاختراع بمرمة ؛ وقد تقدم . قال يحيى بن سلام يقول : كنتم آمنين في حرمة ، تا كلون رزقي ، وتسدرون فيري ، أتخافون إذا عبدتموني وآستم بي . (يَحْيَىٰ إِلَيْهِ مَبْرَأُ كُلِّ شَيْءٍ) أي يُجْعَلُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ أَرْضٍ وبلدٍ عن ابن عباس وغيره . يقال جنى الماء في الخوض أي جمعه . والجاهلية الخوض العظيم . وقرأ نافع « نُجْبِي » بالياء ؛ لأجل الثمرات . الباقون بالياء ؛ لقوله : « كُلُّ شَيْءٍ » وأخبره أبو عبيد . قال : لأنه حال بين الأسم الموث وبين فصله حائل ، وأيضاً فإن الثمرات جمع ، وليس بثابت حقيق . (وَزُقَا مِنْ لَدُنَّا) أي من عندنا . (وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) أي لا يقولون ؛ أي هم فاعلون من الاستدلال ، وأن من رزقهم وأنهم فيما مضى حال كفرهم رزقهم لو أسلموا ، ومنع الكفار عنهم في إسلامهم . و « زُقَا » نصب على المفعول من أجله . ويجوز نصبه على المصدر بالمعنى ؛ لأن معنى « نُجْبِي » ترزق . وقرئ « يُنْجِي » بالنون من الجنة ، وتعديته إلى كقولك ينجي إلى فيه ويعني إلى الخلافة^(١) .

قوله تعالى: (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَيْمِسَتْهَا) بين لمن توهم أنه لو آمن لقاتلته العرب أن الخوف في ترك الإيمان أكثر ؛ فكمن قوم كفروا ثم حل بهم اليسار ، والبطر

(١) الخلافة الية ومنه الحديث "المؤمن كتل خاة الزوع" .

الطغيان بالنعمة ؛ قاله الزجاج « مَعِيشَتَهَا » أى فى معيشتها فلما حذفت (فى) تعدى الفعل ؛ قاله المازنى . الزجاج كقولہ : « وَأَخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا » . الفراء : هو منصوب على التفسير . قال كما تقول ؛ أبطرت مالك و بطرته . ونظيره عنده « إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ » وكذا عنده « فَإِنْ طِئِنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا » ونصب المارف على التفسير محال عند البصريين ؛ لأن معنى التفسير والتمييز أن يكون واحدا نكرة يدل على الجنس . وقيل : أنتصب بـ « جَاطَرْتُ » ومعنى « جَاطَرْتُ » جهلت ؛ فالمعنى ؛ جهلت شكر معيشتها . (فَتِلْكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا) أى لم تُسْكُنْ بعد إهلاك أهلها إلا قليلا من المساكن وأكثرها خراب . والاستثناء يرجع إلى المساكن أى بعضها يسكن ؛ قاله الزجاج . وأعرض عليه ؛ فقيل : لو كان الاستثناء يرجع إلى المساكن لقال إلا قليل ؛ لأنك تقول : القوم لم تضرب إلا قليل ؛ ترفع إذا كان المضروب قليلا ، وإذا نصبت كان القليل صفة للضرب ؛ أى لم تضرب إلا ضربا قليلا ، فالمعنى إذا ؛ فتلك مساكنهم لم يسكنها إلا المسافرون ومن مَرَّ بالطريق يوما أو بعض يوم ، أى لم تُسْكُنْ من بعدهم إلا سكنا قليلا . وكذا قال ابن عباس : لم يسكنها إلا المسافر أو مازَّ الطريق يوما أو ساعة . (وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ) أى لما خلفوا بعد هلاكهم .

قوله تعالى : وَمَا كَانَتْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبِيتَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ ؕ أَيْنَمَا هُمْ وَلَا مَوْلَا لَهُ الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظُلُمُونَ ﴿٥٦﴾ وَمَا أَوْثَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَلَمْ نَعِدْنَهُ وَعَدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كُنْ مَتَّعْنَاهُ مَتْنَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى) أى القرى الكافرة . (حَتَّىٰ يَبِيتَ فِي أُمِّهَا) قرى بضم الهمزة وكسرهما لإتياع الجر ببنى مكة و (رَسُولًا) ببنى عدا صل الله

عليه وسلم . وقيل : « في أمها » يعني في أعظمها « رَسُولًا » ينذرهم . وقال الحسن :
في أوائلها .

قلت : ومكة أعظم القرى حرمتها وأولها ، لقوله تعالى : « إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ »
وخصت بالأعظم لبعثة الرسول فيها ؛ لأن الرسل تبعث إلى الأشراف وهم يستكون المدائن
وهي أم ما حولها . وقد مضى هذا المعنى في آخر سورة « يوسف » . (يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا)
« يَتْلُو » في موضع الصفة أي تاليا أي يخبرهم أن العذاب ينزل بهم إن لم يؤمنوا . (وَمَا كُنَّا
مُهِلِكِي الْفَرَى) وسقطت النون للإضافة مثل « ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ » . (إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)
أي لم أهلكهم إلا وقد استحقوا الإهلاك لإصرارهم على الكفر بعد الإصدار إليهم .
وفي هذا بيان لنبله وتقديسه عن الظلم . أخبر تعالى أنه لا يهلكهم إلا إذا استحقوا الإهلاك
بظلمهم ، ولا يهلكهم مع كونهم ظالمين إلا بعد تأكيد الحجة والإلزام ببعثة الرسل ، ولا يعمل
عليه بأحوالهم حمية عليهم . وزنه ذاته أن يهلكهم وهم غير ظالمين ، كما قال عز من قائل :
« وَمَا كُنَّا رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْطَلِحُونَ » فنص في قوله « يظلم » على أنه لو أهلكهم
وهم مصطلحون لكان ذلك ظلما لهم منه ، وأن حاله في غناه وحكمته متافية للظلم ، دل على ذلك
بحرف النفي مع لامة كما قال تعالى : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عِبَادَكُمْ » .

قوله تعالى : (وَمَا أَوْثَقْتُم مِّن شَيْءٍ) ياهل مكة (فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا) أي
تتعمون بها مدة حياتكم ، أو مدة في حياتكم ، فلما أن تزولوا عنها أو تزول عنكم . (وَمَا عِنْدَ
اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى) أي أفضل وأدوم ، يريد الدار الآخرة وهي الجنة . (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) أن الباقي
أفضل من الفاني . قرأ أبو عمرو « يعقلون » بالياء . الباقيون بالتاء على الخطأ وهو الاختيار
لقوله تعالى : « وَمَا أَوْثَقْتُم » . قوله تعالى : (أَلَمْ نَعِدْكُمْ وَاعْدَاءُكُمْ حَسَنًا فَهُوَ لَا يَفِيهِ) يعني
الجنة وما فيها من الثواب (كَمَنْ مَّتَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) فاعطى منها بعض ما أراد .
(ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ) أي في النار . وتظيره قوله : « وَلَوْلَا فَسْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ

مِنَ الْمُحْضَرِينَ » قال ابن عباس : نزلت في حمزة بن عبد المطلب ، وفي أبي جهل بن هشام .
وقال مجاهد : نزلت في النبي صلى الله عليه وسلم وأبي جهل . وقال محمد بن كعب . نزلت
في حمزة وعمل ، وفي أبي جهل وعمارة بن الوليد . وقيل : في عمار والوليد بن المغيرة ، قاله
السدي . قال القشيري : والصحيح أنها نزلت في المؤمن والكافر على التعميم . التعليق :
وبالجملة فإنها نزلت في كل كافر منع في الدنيا بالعافية والنهي وله في الآخرة النار ، وفي كل مؤمن
صبر على بلاء الدنيا ثقة بوعده الله وله في الآخرة الجنة .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ
تَرْغَبُونَ ﴿١٧﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا
أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿١٨﴾ وَقِيلَ
أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُم فلم يستجيبوا لهم وراوا العذاب لو أنهم
كانوا يهتدون ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾
فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢١﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ
وَأَمَّنْ وَعَمِلَ صَالِحًا فَحَسْبَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ) أى ينادى الله يوم القيامة هؤلاء المشركين (فَيَقُولُ
أَيْنَ شُرَكَائِيَ) بزعمهم أنهم ينصرونكم ويشفعون لكم . (قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ)
أى حقت عليهم كلمة العذاب وهم الرؤساء ، قاله الكلبي . وقال قتادة : هم الشياطين . (رَبَّنَا
هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا) أى دعوناهم إلى الفتن . فقيل لهم : أغويتمهم ؟ قالوا : (أَغْوَيْنَاهُمْ
كَمَا غَوَيْنَا) . يمتنون أضلالتهم كما كانوا ضالين . (تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ) أى تبرأ بعضنا من بعض ،
والشياطين يهربون من أطاعهم ، والرؤساء يهربون من قبل منهم ، كما قال تعالى : « الْأَخِلَّاءُ
يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ » .

قوله تعالى : (وَقِيلَ) أى للكفار (ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ) أى استغيثوا بالهتكم التى
عبدتموها فى الدنيا لتنصركم وتدفع عنكم . (قَدَعَوْهُمْ) أى استغاثوا بهم . (فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا
لَهُمْ) أى فلم يجيبوهم ولم ينفعوا بهم . (وَرَأَوْا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ) قال الزجاج :
جواب « لَوْ » محذوف ، والمعنى : لو أنهم كانوا يهتدون لأتجاهم الهدى ، ولما صاروا إلى
العذاب . وقيل : أى لو أنهم كانوا يهتدون ما دعوهم . وقيل للمنى : ودعوا حين رأوا العذاب
لو أنهم كانوا يهتدون فى الدنيا إذا رأوا العذاب يوم القيامة . (مَاذَا أُجِيبُوا الْمُرْسَلِينَ) أى
يقول بالله لهم ما كان جوابكم لمن أرسل اليكم من النبيين لما بلغوكم رسالاتى . (فَمَعِيتَ
عَلَيْهِمُ الْآيَاتُ يَوْمَئِذٍ) أى خفيت عليهم الحجج ، قاله مجاهد ، لأن الله قد أعذر إليهم فى الدنيا
فلا يكون لهم عذر ولا حجة يوم القيامة . و « الْآيَاتُ » الأخبار ، تسمى حججهم آيات لأنها أخبار
ينبرونها . (فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ) أى لا يسأل بعضهم بعضا عن الحجج ، لأن الله تعالى
أنحض حججهم ، قاله الضحاك . وقال ابن عباس : « لَا يَتَسَاءَلُونَ » أى لا ينطقون بحجة .
وقيل : « لَا يَتَسَاءَلُونَ » فى تلك الساعة ، ولا يدرون ما يجيبون به من هول تلك الساعة ،
ثم يجيبون بعد ذلك كما أخبر عن قولهم : « وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشِيرِينَ » . وقال مجاهد :
لا يتساءلون بالأنساب . وقيل : لا يسأل بعضهم بعضا أن يحمل من ذنبه شيئا ، حكاه ابن عباس .
قوله تعالى : (فَأَمَّا مَنْ تَابَ) أى من الشرك (وَأَمَّنَ) أى صدق (وَعَمِلَ صَالِحًا)
أدى الفرائض وأكثرت التوافتل (فَسَيَأْتِيهِ أُنْجُوتٌ مِّنَ الْمُفْلِحِينَ) أى من الفائزين بالسعادة .
وعسى من الله واجبة .

قوله تعالى : وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ
سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٦﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ
وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٧﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ
وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ) هذا متصل بذكر الشركاء الذين عبدوهم واختاروهم للشفاعة ؛ أى الاختيار إلى الله تعالى فى الشفاعة لا إلى المشركين . وقيل هو جواب الوليد بن المغيرة حين قال : « لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْشِيِّينَ عَظِيمٍ » يعنى نفسه زعم ، وعروة بن مسعود الثقفى من الطائفة . وقيل : هو جواب اليهود إذ قالوا لو كان الرسول إلى محمد غير جبريل لأمتنا به . قال ابن عباس : والمعنى ؛ وربك يخلق ما يشاء من خلقه ويختار منهم من يشاء لطاعته . وقال يحيى بن سلام : والمعنى ؛ وربك يخلق ما يشاء من خلقه ويختار من يشاء لنبوته . وحكى النقاش : أن المعنى وربك يخلق ما يشاء من خلقه يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ، ويختار الأنصار لفينه .

قلت : وفى كتاب البزار مرفوعا صحيحا عن جابر "إن الله تعالى اختار أصحابى على العالمين سوى النبيين والمرسلين واختارنى من أصحابى أربعة — يعنى أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً — بفعلهم أصحابى وفى أصحابى كلهم خير واختار أقتى على سائر الأمم واختارنى من أمتى أربعة قرون" . وذكر سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن وهب بن منبه عن أبيه فى قوله عز وجل : « وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ » قال من النعم الضان ، ومن الطير الحسام . والوقف التام « وَيَخْتَارُ » . وقال على بن سليمان : هذا وقف التمام ولا يجوز أن تكون « ما » فى موضع نصب بـ « يَخْتَارُ » لأنها لو كانت فى موضع نصب لم يعد عليها شيء . قال وفى هذا رد على القدريّة . قال النحاس : التمام « وَيَخْتَارُ » أى ويختار الرسل . (مَا كَانَ لَمْ الْخِيَرَةُ) أى ليس يرسل من أختاروه هم ، قال أبو إسحق : « وَيَخْتَارُ » هذا الوقف التام المختار ، ويجوز أن تكون « ما » فى موضع نصب بـ « يَخْتَارُ » ويكون المعنى ويختار الذى كان لم فيه الخيرة . قال القشيري : الصحيح الأول لإطباقهم [على] الوقف على قوله « وَيَخْتَارُ » . قال المهدوى : وهو أشبه بمذهب أهل السنة و « ما » من قوله : « مَا كَانَ لَمْ الْخِيَرَةُ » هى عام لجميع الأشياء أن يكون للعبد فيها شيء سوى اكتسابه بقدرة الله عز وجل . الزنجشري : « مَا كَانَ لَمْ الْخِيَرَةُ » بيان لقوله « ويختار » ؛ لأن معناه يختار ما يشاء ؛ ولهذا لم يدخل العاطف ، والمعنى ؛ إن الخيرة لله تعالى فى أفعاله وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها أى ليس لأحد

من خلقه أن يختار عليه . وأجاز الزاج وغيره أن تكون « ما » منصوبة بـ «يَخْتَارُ» . وأنكر الطبري أن تكون « ما » نافية ؛ لئلا يكون المعنى أنهم لم تكن لهم الخيرة فيما مضى وهي لم فيما يستقبل ، ولأنه لم يتقدم كلام بنى . قال المهدوي : ولا يلزم ذلك ؛ لأن « ما » تنفى الحال والاستقبال كليهما . ولذلك عملت عملها ؛ ولأن الآي كانت تنزل على النبي صلى الله عليه وسلم على ما يسأل عنه ؛ وعلى ما هم مصرون عليه من الأعمال وإن لم يكن ذلك في النص . وتقدير الآية عند الطبري : ويختار لولايته الخيرة من خلقه ؛ لأن المشركين كانوا يختارون خيار أموالهم فيجعلونها لأنفسهم ، فقال الله تبارك وتعالى : « وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ » للهداية من خلقه من سبقت له السعادة في علمه ، كما اختار المشركون خيار أموالهم لأنفسهم ، فـ « مَا » على هذا لمن يعقل وهي بمعنى الذي و « الْخَيْرَةُ » رفع بالابتداء و « لِمَنْ » الخبر والجملة خبر « كان » . وشبهه بقولك : كاتب زيد أبوه متعلق وفيه ضعف ؛ إذ ليس في الكلام حائد يعود على اسم كان إلا أن يقدر فيه حذف فيجوز على بعد . وقد روى معنى ما قاله الطبري عن ابن عباس . قال الثعلبي : و « مَا » نفي أي ليس لهم الاختيار على الله . وهذا أصوب كقوله تعالى : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ » . قال محمود الوزاق :

توكل على الرحمن في كل حاجة * أردت فإن الله يفضي ويقدر
إذا ما يرذو العرش أمرا بعيدا * يصبه وما للمبدأ ما يتخير^(١)
وقد يهلك الإنسان من وجه حذره * وينجو بحمد الله من حيث يحذر^(٢)
وقال آخر :

العبس ذو حصر الرب ذو قدر * والدمر ذو دول والرزق مقسوم
والخير أجمع فيما اختار خالفنا * وفي اختيار سواء اللوم والشوم

قال بعض العلماء : لا ينبغي لأحد أن يقدم على أمر من أمور الدنيا حتى يسأل الله الخيرة في ذلك ؛ بأن يصلي ركعتين صلاة الاستخارة ، يقرأ في الركعة الأولى بعد الفاتحة « قُلْ يَا أَيُّهَا

(١) في بعض نسخ الأصل : وما للبد لا يخير . والصحيح من النسخة الأخيرة .

(٢) لعل صواب البيت : وينجو بحمد الله من ليس يحذر . وهذا ما يفيد معنى التوكل .

الْكَافِرُونَ» وفي الركعة الثانية «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ». واختار بعض المشايخ أن يقرأ في الركعة الأولى «وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ» الآية، وفي الركعة الثانية «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ» وكلُّ حسن. ثم يدعو بهذا الدعاء بعد السلام، وهو ما رواه البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها، كما يعلمنا السورة من القرآن؛ يقول: «إذا همَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين غير الفريضة ثم ليقل اللهم إني أستخبرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري — أو قال في عاجل أمري وآجله — فأقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه اللهم وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري — أو قال في عاجل أمري وآجله — فأصرفه عني وأصرني عنه وأقدر لي الخير حيث كان ثم رضى به» قال: ويسمى حاجته. وروى عائشة عن أبي بكر رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أمرا قال: «اللهم نحلي وأختري»، وروى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له «يا أنس إذا هممت بأمر فأستخر ربك فيه سبع مرات ثم أنظر إلى ما يسبق قلبك فإن الخير فيه». قال العلماء: وينبغي له أن يفرغ قلبه من جميع الخواطر حتى لا يكون مائلا إلى أمر من الأمور، فعند ذلك ما يسبق إلى قلبه يعمل عليه، فإن الخير فيه إن شاء الله. وإن عزم على سفر فيتخى بسفره يوم الخميس أو يوم الاثنين أقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم تزه نفسه سبحانه بقوله الحق؛ فقال: «سُبْحَانَ اللَّهِ» أي تزيها. «وَتَمَازَى» أي تقُدس وتجدد «عَمَّا يُشْرِكُونَ». وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿يَظْهَرُونَ﴾. وقرأ ابن محبصن وحيد «تَكُنْ» بفتح التاء وضم الكاف. وقد تقدم هذا في «النمل». تمدح سبحانه بأنه عالم الغيب والشهادة لا يخفى عليه شيء. «وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» تقدم معناه، وأنه المنفرد بالوحدانية، وأن جميع المحامد إنما تجب له، وأن لا حكم إلا له وإليه المصير.

قوله تعالى : قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يُآتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يُآتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا) أى دأما ؛ ومنه قول طرفة .

لمعرك ما امرى على بقمية • نهارى ولا ليل على بسرمد

بين سبحانه أنه مهد أسباب المعيشة ليقوموا بشكر نعمه • (مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يُآتِيكُمْ بِضِيَاءٍ) أى بنور تطلوبون فيه المعيشة • وقيل : بنهار تبصرون فيه معاشكم وتصلح فيه الثمار والنبات • (أَفَلَا تَسْمَعُونَ) سماع فهم وقبول • (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يُآتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُنُونَ فِيهِ) أى تستقرون فيه من النصب • (أَفَلَا تُبْصِرُونَ) ما أتم فيه من الخطأ في عبادة غيره ؛ فإذا أقررت بأنه لا يقدر على إتياء الليل والنهار غيره فلم تشركون به • (وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ) أى فيهما • وقيل : الصمبر للزمان وهو الليل والنهار • (وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) أى لتطلبوا من رزقه فيه • (وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) الله على ذلك •

قوله تعالى : وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أُنِيبْ مُرْكَايَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٩﴾ وَتَزَعَّنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَنَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٠﴾

(١) العدة : الأمر الذى لا ينتهى له • والجهنم : لا انخسر فى امرى نهارا و لائنه لئلا يطارول على الليل •

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أعاد هذا الضمير لاختلاف الحالين ، ينادون مرة فيقال لهم : « أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ » فيدعون الأصنام فلا يستجيبون ، فظهر حيرتهم ، ثم ينادون مرة أخرى فيسكتون ، وهو توابع وزيادة نزي . والمناداة هنا ليست من الله ؛ لأن الله تعالى لا يكلم الكفار لقوله تعالى : « وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » لكنه تعالى يأمر من يؤمنهم ويحكمهم ، ويقم الحجة عليهم في مقام الحساب . وقيل : يشمل أنت يكون من الله ، وقوله : « وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ » حين يقال لهم « أَحْسِنُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّبُوا » وقال : « شُرَكَائِيَ » لأنهم جعلوا لهم نصيبا من أموالهم .

قوله تعالى: ﴿وَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أى نيا ؛ عن مجاهد . وقيل : هم عدول الآخرة يشهدون على العباد بأعمالهم في الدنيا . والأول أظهر ؛ لقوله تعالى : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا » وشهد كل أمة رسوله الذى يشهد عليها . والشاهد الحاضر . أى أحضرنا رسولهم المبعوث إليهم . ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أى حجتكم . ﴿فَقَالُوا أَنْ لَوْ الْحَقُّ فَعَلَىٰ﴾ أى علموا صدق ما جاءت به الأنبياء . ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ﴾ أى ذهب عنهم وبطل . ﴿مَا كَانُوا بِفِتْرَتِهِ﴾ أى يختلفونه من الكذب على الله تعالى من أن معه آلهة تعبد .

قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُلُودَكُمْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَىٰ الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى ﴾ لما قال تعالى : « وَمَا أَوْثِقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ مَفَاتِحُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا » بين أن قارون أوتيها وأغتر بها ولم تعصمه من عذاب الله كما لم تعصم فرعون ، ولستم أيها المشركون بأكثر عددا وما لا من قارون وفرعون ، فلم ينفع فرعون جنوده وأمواله ، ولم ينفع قارون قرابته من موسى ولا كنوزه . قال النخعي وقادة وغيرهما : كان ابن عم موسى لحماً ، وهو قارون بن يصهر بن قاهت بن لاوى بن يعقوب ، وموسى بن عمران بن قاهت . وقال ابن إسحق : كان عم موسى لأب وأم . وقيل : كان ابن خالته . ولم ينصرف للجمجمة والتعريف . وما كان على وزن فاعول أعجميا لا يحسن فيه الألف واللام لم ينصرف في المعرفة وأنصرف في النكرة ، فإن حسنت فيه الألف واللام أنصرف إن كان أمسياً لذكر نحو طاوس ورافود . قال الزجاج : ولو كان قارون من قرنت الشيء لأنصرف . ﴿ قَبَّحْنَاهُ لِعَمَلِهِ ﴾ فيه أنه زاد في طول ثوبه شبراً ، قاله شهر بن حوشب . وفي الحديث " لا ينظر الله إلى من بنى إزاره بطراً " وقيل : بنى كفرة بالله عز وجل ، قاله الضحاك . وقيل : بنى استخفافه بهم بكثرة ماله وولده ، قاله قتادة . وقيل : بنى نسبتة ما آتاه الله من الكنوز إلى نفسه بعلمه وحيلته ، قاله ابن جرير . وقيل : بنى قوله إذا كانت النبوة لموسى والمذبح والقربان في هرون قال ! فروى أنه لما جاوز بهم موسى البحر وصارت الرسالة لموسى والحבורه لهرون ، يقرب القربان ويكون رأساً فيهم ، وكان القربان لموسى بفعله موسى إلى أخيه ، وجد قارون في نفسه وحسدهما . فقال لموسى : الأمر لكما وليس لي شيء إلى متى أصبر . قال موسى : هذا صنع الله . قال : والله لا أصدقك حتى تأتي آية ، فأمر رؤساء بني إسرائيل أن يجيء كل واحد منهم بمصاء ، فغزموها وألفاها في القبة التي كان الوحي ينزل عليه فيها ، وكانوا يحرسون عصيمهم بالليل ، فأصبحوا وإذا بمصاء هرون تهتر ولها ورق أخضر — وكانت من شجر اللوز — فقال قارون : ما هو بأعجب مما تصنع من السحر . « قَبَّحْنَاهُ لِعَمَلِهِ » من البني وهو الظلم . وقال يحيى بن سلام وابن المسيب : كان قارون غنيا عاملاً لفرعون على بني إسرائيل فندى عليهم وظلمهم وكان منهم . وقول ساج : روى عن ابن عباس قال : لما أمر الله

تعالى يرحم الزاني عمد قارون إلى امرأة بني وأعطاها مالا، وحملها على أن أدعت على موسى أنه زنى بها وأنه أحبلها؛ فعظم على موسى ذلك وأحلفها بالله الذي تلقى البحر لبني إسرائيل، وأنزل التوراة على موسى إلا صدقت. فنداركها الله فقالت: أشهد أنك برىء، وأن قارون أعطاني مالا، وحملني على أن قلت ما قلت، وأنت الصادق وقارون الكاذب. فجعل الله أمر قارون إلى موسى وأمر الأرض أن تطيعه. فجاءه وهو يقول للأرض: يا أرض خذيه؛ وهي تأخذه شيئا فشيئا وهو يستغيث ياموسى! إلى أن ساخ في الأرض هو وداره وجلساؤه الذين كانوا على مذهبه. وروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى: أستغاث بك عبادى فلم ترحمهم، أما أنهم لو دعوني لوجدوني قريبا مجيبا. ابن جرير: بلغنا أنه يخسف بهم كل يوم قامة، فلا يفلتون إلى أسفل الأرض إلى يوم القيامة. وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب الفسرج: حدثني إبراهيم بن راشد قال حدثني داود بن مهران، عن الوليد بن مسلم، عن مروان ابن جناس، عن يونس بن ميسرة بن حليس قال: لقي قارون يونس في ظلمات البحر، فنادى قارون يونس، فقال يا يونس: تب إلى الله فإنك تجده عند أول قدم ترجع بها إليه. فقال يونس: ما منعك من التوبة. فقال: إن توبتي جعلت إلى ابن عمي فأبى أن يقبل مني. وفي الخبر: إذا وصل قارون إلى قرار الأرض السابعة نفع إسرائيل في الصور. والله أعلم. قال السدي: وكان اسم النبي سبرتا، وبذل لها قارون ألفي درهم. قتادة: وكان قطع البحر مع موسى وكان يسمى المنثور من حسن صورته في التوراة، ولكن عدو الله فافق كما نافق السامري.

قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾ قال عطاء: أصاب كثيرا من كنوز يوسف عليه السلام. وقال الوليد بن مروان: إنه كان يعمل الكيمياء. ﴿مَا إِنَّ مَقَاتِحَهُ﴾ «إن» وأسمها وخبرها في صلة «ما» و«ما» مفعولة «آتيناه». قال النحاس: وسمعت علي بن سليمان يقول ما أقبح ما يقول الكوفيون في الصلوات؛ إنه لا يجوز أن تكون صلة الذي وأخواته «إن» وما عملت فيه، وفي القرآن «مَا إِنَّ مَقَاتِحَهُ». وهو جمع يفتح بالكسر وهو ما يفتح

به . ومن قال مفتاح قال مفاتيح . ومن قال هي الخزان فواحداه مفتاح بالفتح . (لَتَنوُّهُ بِالْمُصْبَةِ) أحسن ما قيل فيه أن المعنى لتنيء العصبية أى تملهم بشغلها ، فلما أفتحت النار دخلت الباء ، كما قالوا هو يذهب باليؤس ويذهب اليؤس . فصار « لَتَنوُّهُ بِالْمُصْبَةِ » بفعل العصبية تنوء أى تنهض متنافلة ؛ كقولك قم بنا أى أجعلنا تقوم . يقال : ناء ينوء نوما إذا نهض بشغل . قال الشاعر^(١) :

تَنوُّهُ بِأَنَارِهَا فَلَا بَأْسَ قِيَامُهَا * وَتَمْنِيِ الْمَوْتِىَ عَنْ قَرِيبٍ فَتَجِبُ

وقال آخر :

أَخَذْتُ فَلَمْ أَمْلِكْ وَتَوْتُ فَلَمْ أَقْمِ * كَأَنِّي مِنْ طُولِ الزَّمَانِ مَقْبِدُ

وأما إذا أغفلت ، عن أبى زيد . وقال أبو عبيدة : قوله « تَنوُّهُ بِالْمُصْبَةِ » مقلوب والمعنى لتنوء بها العصبية أى تنهض بها . أبو زيد : توت بالجل إذا نهضت . قال الشاعر :

إِنَّا وَجَدْنَا خَلْفًا بَلَسَ الْخَلْفَ * عَبْدًا إِذَا مَا نَاءَ بِالْجَلِّ وَقَفَ

والأول معنى قول ابن عباس وأبى صالح والسدى . وهو قول الفراء وأختره النحاس . كما يقال ذهب به وأذهبه وجئت به وأجأته وتوت به وأتأتته ؛ فأما قولهم : له عندى ما ساءه وناءه فهو إلتباع كان يجب أن يقال وأناه . ومثله هتأى الطعام ومرأتى ، وأخذته ما قدّم وما حدث . وقيل : هو مأخوذ من التأى وهو البعد . ومنه قول الشاعر :

يَتَأَوْنَ عَنَا وَمَا تَسْأَى مَوَدَّتُهُمْ * فَالْقَلْبُ فِيهِمْ رَهْبٌ حَيْثَمَا كَانُوا

وقرأ بديل بن بسمرة « لَتَنوُّهُ » بالياء ؛ أى لينوء الواحد منها أو المذكور فجعل على المعنى . وقال أبو عبيدة : قلت لرؤبة بن العجاج فى قوله :

فِيهَا خَطُوطٌ مِنْ سَوَادٍ وَبَاقٍ * كَأَنَّهُ فِي الْجِلْدِ تَوَلِّيعُ الْبَقِ

إن كنت أردت الخطوط فقل كأنها ، وإن كنت أردت السواد والباقي فقل كأنهما . فقال : أردت كل ذلك ، وأختلف فى العصبية وهى الجماعة التى يتعصب بعضهم لبعض على أحد عشر قولاً : الأول — ثلاثة رجال ؛ قاله ابن عباس . وعنه أيضاً من الثلاثة إلى العشرة .

(١) هو ذر الزمة . يريد تنيهاً يجرئها إلى الأرض لضخامتها وكثرة لها فى أزدانها .

وقال مجاهد : العصابة هنا ما بين العشرين إلى خمسة عشر . وعنه أيضا : ما بين العشرة إلى الخمسة عشر . وعنه أيضا : من عشرة إلى خمسة . ذكر الأول التعلبي ، والثاني القشيري والماوردي ، والثالث المهدوي . وقال أبو صالح والحكم بن عتيبة وقادة والضحاك : أربعون رجلا . السدي ما بين العشرة إلى الأربعين . وقاله قتادة أيضا . وقال عكرمة : منهم من يقول أربعون ، ومنهم من يقول سبعون . وهو قول أبي صالح إن العصابة سبعون رجلا ؛ ذكره الماوردي ، والأول ذكره عنه التعلبي . وقيل : ستون رجلا . وقال سعيد بن جبير : ست أو سبع . وقال عبد الرحمن بن زيد : ما بين الثلاثة والتسعة وهو الثفر . وقال الكلبي : عشرة لقول إخوة يوسف « وَتَحْنُ عُصْبَةٌ » وقاله مقاتل . وقال خيثمة : وجدت في الإنجيل أن مفاتيح خزائن قارون وقر ستين بغلا غراء محجلة ، وأنها لتنوء بها من نقلها ، ما يزيد مفتاح منها على إصبع ، لكل مفتاح منها كنز مال ، لو قسم ذلك الكنز على أهل البصرة لكفاهم . قال مجاهد : كانت المفاتيح من جلود الإبل . وقيل : من جلود البقر اتخف عليه ، وكانت تحمل معه إذا ركب على سبعين بغلا فيها ذكره القشيري . وقيل : على أربعين بغلا . وهو قول الضحاك . وعنه أيضا : إن مفاتيحه أوعيته . وكذا قال أبو صالح : إن المراد بالمفاتيح الخزائن ؛ فانه أعلم . (إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ) أى المؤمنون من بنى إسرائيل ؛ قاله السدي . وقال يحيى بن سلام : القوم هما موسى . وقاله الفراء . وهو جمع أريد به واحد كقوله « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ » وإنما هو نعيم بن مسعود على ما تقدم . (لَا تَفْرَحْ) أى لا تافخر ولا تبطر . (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) أى البطرين ؛ قاله مجاهد والسدي . قال الشاعر :
ولست بمفرايح إذا الدهر سترني * ولا ضارح في صرفه المنقلب^(١)
وقال الزجاج : المعنى لا تفرح بالمال فإن الفرح بالمال لا يؤدى حقه . وقال مبشر بن عبد الله : لا تفرح لا نفسك . قال الشاعر :
إذا أنت لم تفرح تؤدى أمانته * وتحمل أخرى أفرحك الودائع^(٢)

(١) التصحیح من النسخة الخيرية .

(٢) ردري : ولا جناح من صرفه المتحول .

(٣) انشاء أبو عبيدة ليس العذرى .

أى أفسدتك . وقال أبو عمرو : أفرحه الدين أنقله . وأنشده : إذا أنت ... البيت . وأفرحه سره فهو مشترك . قال الزجاج : والفرحين والفارحين سواء . وقرئ بينهما الفراء فقال : معنى الفرحين الذين هم في حال فرح ، والفارحين الذين يفرحون في المستقبل . وزعم أن مثله طمع وطامع وبیت وماتت . وبدل على خلاف ما قال قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَهُمْ مُبْتَوُونَ ﴾ ولم يقل ماتت . وقال مجاهد أيضا : معنى « لَا تَفْرَحْ » لا تبغ . « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ » أى الباغين . وقال ابن بحر : لا تبخل إن الله لا يحب الباخلين .

قوله تعالى : ﴿ وَارْتَبِعْ فَيَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ﴾ أى أطلب فيها أعطاك الله من الدنيا الدار الآخرة وهى الجنة ، فإن من حق المؤمن أن يصرف الدنيا فيما ينعمه فى الآخرة لا فى التجرى والبغى . قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْسَ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ اختلف فيه ؛ فقال ابن عباس والجمهور : لا تضع عمرك فى ألا تعمل عملا صالحا فى دنياك ؛ إذ الآخرة إنما يعمل لها ، فنصيب الإنسان عمره وعمله الصالح فيها . فالكلام على هذا التأويل شدة فى الموعظة . وقال الحسن وقادة : معناه لا تضع حظك من دنياك فى تمتك بالحلال وطلبك إياه ، ونظرك اماقبه دنياك . فالكلام على هذا التأويل فيه بعض الرفق به وإصلاح الأمر الذى يشتهيه . وهذا مما يجب استعمله مع الموعوظ خشية النبوة من الشدة ؛ قاله ابن عطية .

قلت : وهذان التأويلان قد جمعهما ابن عمر فى قوله : أحرت لدنياك كأنك تعيش أبدا ، وأعمل لأخرتك كأنك تموت غدا . وعن الحسن : قدم الفضل ، وأمسك ما يبلغ . وقال مالك : هو الأكل والشرب بلا سرف . وقيل : أراد بنصيبه الكفن ، فهذا وعظ متصل ؛ كأنهم قالوا : لا تنس أنك تركت جميع مالك إلا نصيبك هذا الذى هو الكفن . ونحو هذا قول الشاعر :
نصيبك مما تجبج الدهر كله * رداءه ان تملوى فمهما وحنوط
وقال آخر : وهى القناعة لا تبغى بها بدلا * فيها النعم وفيها راحة البدن
أنظر لمن ملك الدنيا باجمها * هل راح منها غير القطن والكفن
قال ابن العرى : وأبدع ما فيه عندى قول قنادة : ولا تنس نصيبك الحلال ، فهو نصيبك الدنيا وبما أحسن هذا . ﴿ وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ أى اطع الله وأعبده كما أنعم عليك .

ومنه الحديث : ما الإحسان ؟ قال : « أن تعبد الله كأنك تراه » وقيل : هو أمر بصلة المساكين .
قال ابن العربي : فيه أقوال كثيرة جماعها استعمال نعم الله في طاعة الله . وقال مالك : هو
الأكلي والشرب من غير سرف . قال ابن العربي : أرى مالكا أراد الرد على الغالين في العبادة
والتقشف ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الحلواء ، ويشرب العسل ، ويستعمل
الشواء ، ويشرب الماء البارد . وقد مضى هذا المعنى في غير موضع . (وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ
فِي الْأَرْضِ) أى لا تعمل بالمعاصي (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) .

قوله تعالى : قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ
قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا
وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي) يعنى علم التوراة . وكان فيما روى من
أقرأ الناس لها ، ومن أعلمهم بها . وكان أحد العلماء السبعين الذين اختارهم موسى للبيات .
وقال ابن زيد : أى إنما أوتيته لعلمه بفضل ورضاه عنى . فقوله « عِنْدِي » معناه إن عندى
أن الله تعالى آتاني هذه الكنوز على علم منه باستحقاق إياها لفضل فى . وقيل : أوتيته على
علم من عندى بوجوه التجارة والمكاسب ؛ قاله على بن عيسى . ولم يعلم أن الله لو لم يسهل له
أكتسابها لما اجتمعت عنده . وقال ابن عباس : على علم عندى بصناعة الذهب . وأشار
إلى علم الكيمياء . وحكى النفاش : أن موسى عليه السلام علمه الثلث من صنعة الكيمياء ،
ويوشع الثلث ، وهرون الثلث ، فغدهما قارون — وكان على إيمانه — حتى علم ما عندهما
وعمل الكيمياء ، فكثر أمواله . وقيل : إن موسى علم الكيمياء ثلاثة ؛ يوشع بن نون ،
[وكاتب^(١) بن يوفنا] ، وقارون ، واختار الزجاج القول الأول ، وأنكر قول من قال إنه يعمل
الكيمياء . قال : لأن الكيمياء باطل لا حقيقة له . وقيل : إن موسى علم أخته علم الكيمياء ،
وكانت زوجة قارون ، وعلمت أخت موسى قارون ؛ والله أعلم .

(١) فى الأصول « طالوت » وهو تحريف . والتصويب من كتب التفسير .

قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ) أى بالعذاب . (مِنْ الْقُرُونِ)
 أى الأمم الخالية الكافرة . (مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا) أى للسال ، ولو كان السال
 يدل على فضل لما أهلكهم . وقيل : القوة الآلات ، والجمع الأعوان والأنصار ، والكلام
 نخرج مخرج التفرع من الله تعالى لقارون ؛ أى « أَوَلَمْ يَعْلَم » قارون « أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ
 مِنْ الْقُرُونِ » . (وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ الْمُجْرِمُونَ) أى لا يسألون سؤال استعتاب كما قال :
 « وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ » (وَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ) وإنما يسألون سؤال تفرع وتوبيخ لقوله :
 « قَوْلَكَ لِنِسَائِهِمْ آبَائِهِمْ » قاله الحسن . وقال مجاهد : لا تسأل الملائكة غدا عن
 المجرمين ؛ فإنهم يعرفون بسياهم ، فإنهم يحشرون سود الوجوه زرق العيون . وقال قتادة :
 لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم لظهورها وكثرتها ، بل يدخلون النار بلا حساب . وقيل :
 لا يسأل مجرمو هذه الأمة عن ذنوب الأمم الخالية الذين مذبوا في الدنيا . وقيل : أهلك
 من أهلك من القرون عن علم منه بذنوبهم فلم يخرج إلى مسئلتهم عن ذنوبهم .

قوله تعالى : فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ
 الدُّنْيَا بَلِّغْنَا لَنَا مِنْ مِثْلِ مَا آوَيْنَا قُرُونًا إِنَّهُمْ لَذَو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٦٨﴾ وَقَالَ
 الَّذِينَ آوَيْنَا أَلَعَلَّكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا
 وَلَا يُلْقَنَهَا إِلَّا الْصَّابِرُونَ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ) أى على بنى إسرائيل فيما رآه زينة من متاع
 الحياة الدنيا ؛ من الثياب والدواب والتجمل في يوم عيد . قال الغزنوى : في يوم السبت .
 « فِي زِينَتِهِ » أى مع زينته ، قال الشاعر :

إذا ما قلوبُ الصَّوم طارت مخافة • من الموت أرسوا بالنفوس المواعدة^(١)

أى مع النفوس . كان نرج في سبعين ألفا من تبعه ، عليهم المعصقات ، وكان أول من
 صُيِّغ له الثياب المعصرة . قال السدى : مع ألف جوار بيض على بقال بيض بسروج من
 (١) في نسخة : أرسوا بالنفوس . وفي نسخة أخرى أرسوا بالنفوس الواحدة . ولم نقرأ عليه .

ذهب على قُطْف الأَرْجُون . قال ابن عباس : نرج على البغال الشهب . مجاهد : على براذين بيض عليها سروج الأَرْجُون ، وعليهم المعصفرات ، وكان ذلك أول يوم روى فيه المعصفر . قال قتادة : نرج على أربعة آلاف دابة عليهم ثياب حر ، منها ألف بغل أبيض عليها قُطْف حر . قال ابن جريح : نرج على بغلة شهباء عليها الأَرْجُون ، ومعها ثلثائة جارية على البغال الشهباء عليهم الثياب الحر . وقال ابن زيد : خرج في سبعين ألفا عليهم المعصفرات . الكلبي : نرج في ثوب أخضر كان الله أنزله على موسى من الجنة فصرقه منه فارون . وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنه : كانت زينة القيرم .

قلت : القيرم صيغ أحمر مثل الأَرْجُون ، والأَرْجُون في اللغة صيغ أحمر ؛ ذكره الفشيري .
 ﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أى نصيب وافر من الدنيا . ثم قيل : هذا من قول مؤمن ذلك الوقت ، تمنوا مثل ماله رغبة في الدنيا .
 وقيل : هو من قول أقوام لم يؤمنوا بالآخرة ولا رغبوا فيها ، وهم الكفار .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا إِلِيمَ ﴾ وهم أحبار بني إسرائيل للذين بمنوا مكانه ﴿ وَبِكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ بنى الجنة . ﴿ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُفَارِقُوا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾
 أى لا يؤتى الأعمال الصالحة ، أو لا يؤتى الجنة في الآخرة إلا الصابرون على طاعة الله . وجاز ضميرها لأنها المعنية بقوله : « ثَوَابُ اللَّهِ » .

قوله تعالى : فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْصَرِّينَ ﴿٨٧﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَاتَهُمُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآنَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَآنَهُمْ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٨﴾
 قوله تعالى : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ ﴾ قال مقاتل : لما أمر موسى الأرض فابتلعتها قالت بنو إسرائيل : إنما أهلكه ليرث ماله ؛ لأنه كان ابن عمه ؛ أى أبيه ، فحسف

الله تعالى به وبداره الأرض وجميع أمواله بعد ثلاثة أيام، فأوحى الله إلى موسى أنى لأعيد طاعة الأرض إلى أحد بعدك أبدا . يقال : خَسَفَ المكانُ يُخْسِفُ خُسُوفًا ذهب في الأرض وخَسَفَ اللهُ به الأرض خُسُفًا أى غاب به فيها . ومنه قوله تعالى : « نَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ » وخَسَفَ هو في الأرض وخُسِفَ به . وخسوف القمر كسوفه . قال ثعلب : كَسَفَتِ الشمسُ وخَسَفَ القمرُ؛ هذا أجود الكلام . والنخسف النقصان؛ يقال : رضى فلان بالنفس أى بالنيصة . (قَلَّا كَانَ لَهُ مِنْ فِتْنَةٍ) أى جماعة وعصابة . (يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُتَصَرِّينَ) لنفسه أى المثنين فيما نزل به من النخسف . فيروى أن قارون يسأل كل يوم بقدر قامة، حتى إذا بلغ قعر الأرض السفلى نفخ إسرائيل في الصور؛ وقد تقدم؛ والله أعلم .

قوله تعالى : (وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ) أى صاروا ينتدمون على ذلك القبي و (يَقُولُونَ وَيَكَانَ اللَّهُ) [وى] حرف تندم . قال النحاس : أحسن ما قيل في هذا قول الخليل وسيبويه ويونس والكسائي إن القوم تنهوا أو نهوا فقالوا وى، والمتنم من العرب يقول ق خلال تنذه وى . قال الجوهري : وى . كلمة تعجب، ويقال : وىك ووى لعبد الله . وقد تدخل وى على كأن المخففة والمشددة تقول : ويكان الله . قال الخليل : هى مفصولة ؛ تقول « وى » ثم تبدئ فتقول « كَانَتْ » . قال الثعلبي : وقال الفراء هى كلمة تقرير؛ كقولك : أما ترى إلى صنع الله وإحسانه؛ وذكر أن أعرابية قالت لزوجها : أين أبوك ويك؟ فقال : وى كانه واء البيت؛ أى أما ترينه . وقال ابن عباس والحسن : ويك كلمة ابتداء وتحقيق تقديره : إن الله يسطر الرزق . وقيل : هو تنبيه بمنزلة ألا فى قولك ألا تفعل وأما فى قولك أما بعد . قال الشاعر :

سَأَلَانِي الطَّلَاقَ إِذْ رَأَيْتَنِي • قُلْ مَالِي قَدْ جِثَّتَانِي يُسْكِرُ
وَيَ كَانَ مِنْ يَكُنْ لَهُ تَسْبُّ يُجِبُّ • مَبْ وَمَنْ يَتَقَرَّ عَيْشَ عَيْشِ ضُرِّ

وقال قُطْرُبُ : إنما هو ويلك وأسقطت لأمه وضمت الكاف التي هي للخطاب إلى وي .
قال عنترة :

ولقد شقَى نفسي وأبرأ سُقْمَهَا * قَوْلُ الفَوَارِسِ وَيْلَكَ عَنَتْرُ أَفْعِم

وأكثره النحاس وغيره، وقالوا : إن المعنى لا يصح عليه؛ لأن القوم لم يخاطبوا أحدا فيقولوا له ويلك، ولو كان كذلك لكان إنه بالكسر . وأيضاً فإن حذف اللام من ويلك لا يجوز . وقال بعضهم : التقدير ويلك أعلم أنه؛ فأضمر أعلم . ابن الأعرابي : « وَيَكُنَّ اللَّهُ أَى أعلم . وقيل : معناه ألم تر أن الله . وقال التقي : معناه رحمة لك بلفظ جدير . وقال الكسائي : وي في معنى التعجب . ويروى عنه أيضاً الوقف على وي وقال كلمة تفتح . ومن قال : ويك فوقف على الكاف فعنائه أعجب لأن الله ييسط الرزق وأعجب لأنه لا يفلح الكافرون . وينبغي أن تكون الكاف حرف خطاب لا أسماء؛ لأن وي ليست مما يضاف . وإنما كتبت متصلة؛ لأنها لما أكثر استعمالها جعلت مع ما بعدها كشى واحد . (لَوْلَا أَنْ مِّنَ اللَّهِ عَلَيْنَا) بالإيمان والرحمة وعصمتنا من مثل ما كان عليه قارون من البنى والبطر (نَحْسَفُ بِنَا) . وقرأ الأعمش «لَوْلَا مِّنَ اللَّهِ عَلَيْنَا» . وقرأ حفص «نَحْسَفُ بِنَا» مسعى الفاعل . الباقر : على ما لم يسم فاعله وهو اختيار أبي عبيد . وفي حرف عبد الله «لَا نَحْسِفُ بِنَا» كما تقول أَنْطَلِقُ بِنَا . وكذلك قرأ الأعمش وطلحة بن مُصَرِّف . واختار قراءة الجماعة أبو حاتم لوجهين : أحدهما قوله : «نَحْسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضُ» . والثاني قوله : «لَوْلَا أَنْ مِّنَ اللَّهِ عَلَيْنَا» فهو بأن يضاف إلى الله تعالى لقرب اسمه منه أولى . (وَيَكُنَّ لَهُ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ) عند الله .

قوله تعالى : تِلْكَ الْأَدْرَارُ الْأَخْرَجُ تَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَنْقَبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٧﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ) يعني الجنة . وقال ذلك على جهة التعظيم لها والتفخيم لشأنها . يعني تلك التي سمعت بذكرها ، وبلغك وصفها (تَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ) أي رفعة وتكبرا على الإيمان والمؤمنين (وَلَا فَسَادًا) عملا بالمعاصي . قاله ابن جرير ومقاتل . وقال عكرمة ومسلم البطين : الفساد أخذ المال بغير حق . وقال الكلبي النضاه إلى غير عبادة الله . وقال يحيى بن سلام : هو قتل الأنبياء والمؤمنين . (وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) قال الضحاك : الجنة . وقال أبو معاوية : الذي لا يريد علوا هو من لم يمزج من فساد ، ولم ينافس في عزها ، وأرضعهم عند الله أشدهم تواضعا ، وأعزهم غدا الزمهم لذلك اليوم . وروى سفيان بن عيينة عن إسماعيل بن أبي خالد قال : مر على بن الحسين وهو راكب على مساكين ياكلون كسرا لهم ، فسلم عليهم فدعوه إلى طعامهم ، فتلا هذه الآية « تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ تَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا » ثم نزل وأكل معهم . ثم قال : قد أجبتمكم فأجيبوني . فحملهم إلى منزله فاطعمهم وكساهم وصرفهم . خرجه أبو القاسم الطبراني سليمان بن أحمد قال : حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، قال حدثني أبي ، قال حدثنا سفيان بن عيينة . فذكره . وقيل : لفظ النار الآخرة يشمل الثواب والعقاب . والمراد إنما يتنفع بتلك الدار من أتق ، ومن لم يشق فتلك الدار عليه لاله ، لأنها تضره ولا تنفعه .

قوله تعالى : (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا) تقدم في « النمل » . وقال عكرمة : ليس شيء خيرا من لاله إلا الله . وإنما المعنى من جاء بلا إله إلا الله فله منها خير . (وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ) أي بالشرك (فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) أي يعاقب بما يليق بعمله .

قوله تعالى : إِنْ أَلْدَىٰ فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأَيْتَ لَكَ مَعَادًا قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٠٠﴾ وَمَا كُنْتُ تَرْجُو أَنْ يُلَاقِيَ إِلَيْكَ الْأَكْثَرُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَاهِرًا

لِّلْكَافِرِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْ ءَايَتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ
وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا
آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ ختم السورة بشارة نبيه
محمد صلى الله عليه وسلم برده إلى مكة فاهرا لأعدائه . وقيل : هو بشارة له بالجنة . والأقول
أكثر . وهو قول جابر بن عبد الله وابن عباس ومجاهد وغيرهم . قال القتيبي : معاد الرجل
بلده ؛ لأنه ينصرف ثم يعود . وقال مقاتل : خرج النبي صلى الله عليه وسلم من الفار ليل
مهاجرا إلى المدينة في غير الطريق مخافة الطلب ، فلما رجع إلى الطريق ونزل الجحفة عرف
الطريق إلى مكة فأشفاق إليها ، فقال له جبريل إن الله يقول : « إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ
لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ » أي إلى مكة ظاهرا عليها . قال ابن عباس : نزلت هذه الآية بالجحفة
ليست بمكة ولا مدنية . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس « إِلَىٰ مَعَادٍ » قال : إلى الموت .
وعن مجاهد أيضا وعكرمة والزهرى والحسن : إن المعنى لראدك إلى يوم القيامة ؛ وهو اختيار
الزجاج . يقال يبنى وبينك المعاد ؛ أي يوم القيامة ؛ لأن الناس يعودون فيه أحياء .
و « قَرَضَ » معناه أنزل . وعن مجاهد أيضا وأبي مالك وأبي صالح « إِلَىٰ مَعَادٍ » إلى الجنة .
وهو قول أبي سعيد الخدري وابن عباس أيضا ؛ لأنه دخلها ليلة الإسراء . وقيل : لأن أباه
آدم خرج منها . ﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ ﴾ أي قل لكفار مكة إذا قالوا إنك لفي ضلال مبين ﴿ رَبِّي
أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَن هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أنا أم أتم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ ﴾ أي ما علمت أننا نرسلك
إلى الخلق وننزل عليك القرآن . ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ ﴾ قال الكسائي : هو استثناء منقطع بمعنى
لكن . ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَاهِرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴾ أي عونا لهم ومساعدة . وقد تقدم في هذه السورة .

قوله تعالى : (وَلَا يُصَدِّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتَ إِلَيْكَ) يعني أحوالهم وكذبهم وأذامهم ، ولا تلتفت نحوهم وأمض لأمرك وشأنك . وقرأ يعقوب « يُصَدِّكَ » مجزوم النون . وقرأ « يُصَدِّكَ » من أصدته بمعنى صدته وهي لغة في كلب . قال الشاعر :
 أَنَاسٌ أَصْدُوا النَّاسَ بِالسَّيْفِ عَنْهُمْ • صُدُّوا السَّوَابِقِ عَنْ أَنْوْفِ الْحَوَاشِ (١)
 (وَأَذْعُ إِلَى رَبِّكَ) أى إلى التوحيد ، وهذا يتضمن المهادنة والمواصلة . وهذا كله منسوخ بآية السيف ، وسبب هذه الآية ما كانت قريش تدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تعظيم أوثانهم ، وعند ذلك ألقي الشيطان في أميته أمر القرآنيق على ما تقدم . والله أعلم .
 قوله تعالى : (وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ) أى لا تعبد معه غيره فإنه لا إله إلا هو . نفي لكل معبود وإثبات لعبادته . (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) قال مجاهد : معناه إلا هو . وقال الصادق : دينه . وقال أبو العالية وسفيان : أى إلا ما أريد به وجهه ، أى ما يقصد إليه بالقرية . قال :

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ذَنْبَ لَسْتُ مُحِصِيهِ • رَبِّ الْعِبَادِ إِلَيْهِ الْوَجْهُ وَالْعَمَلُ

وقال محمد بن يزيد : حدثني الثوري قال سألت أبا عبيدة عن قوله تعالى « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ » فقال : إلا جاهد ، كما تقول لفلان وجه في الناس أى جاء . (لَهُ الْحُكْمُ) في الأولى والآخرة (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) : قال الزجاج : « وجهه » منصوب على الاستثناء ، ولو كان في غير القرآن كان إلا وجهه بالرفع ، بمعنى كل شيء غير وجهه هالك كما قال :

وَكُلُّ أَخٍ مُفَارِقُهُ أَخُوهُ • لَتَمُرَّ أَيْكَ إِلَّا الْفَرَقْدَانِ

والمعنى كل أخ غير الفرقدين مفارقة أخوه . (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) بمعنى ترجعون إليه .

تمت سورة القصص والحمد لله

(١) هو ذرازية . (٢) ويرى : بالضرب ... من أنوف الخنازير . (٣) راجع ج ١٢ ص ٧٩ وما بعدها طيبة أول أرثانية . (٤) هو عمرو بن سعد كريب ، ويرى لسواد بن المغيرة . شواهد سيرة .

